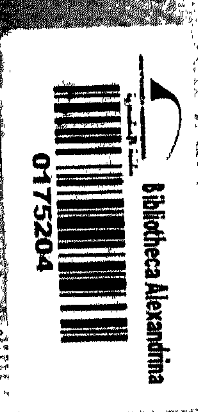
عصر النهضة العربية

بين الحقيقة والوهم

مفيدة محمد إبراهيم



مجدلاوي







عصر النهضة
بين الحقيقة والوهم

تأليف
مفيدة محمد ابراهيم

مجدلاوي

الطبعة الاولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٩٥٩ / ١١ / ١٩٩٨)

رقم التصنيف : ٩٠٩

المؤلف ومن هو في حكمه : مفيدة محمد ابراهيم

عنوان الكتاب : عصر النهضة بين الحقيقة والوهم

الموضوع الرئيسي : ١- التاريخ والجغرافيا

٢- تاريخ العالم وحضارته

بيانات النشر : عمان / دار مجدلاوي للنشر

* - تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

مجدلاوي

عمان - الرمز البريدي: ١١١١٨ - الأردن

ص.ب: ١٨٤٢٥٧ - تلفاكس: ٤٦١١٦٠٦

ISBN 9957-02-010-2 (ردمك)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى روحك الطاهرة يا والدي اهدي هذا العمل، لأقول لك اني اليوم استطيع ان افهم معاناتك وانت ضابط شاب حديث التخرج، فــرض عليــه ان يضحــي بــأحد الولاءين الذين عاش حياته يجلهما، ولاءه لدينه ولأمته الاسلامية والدولة التي تمثلــها وولاءه لعروبته. اذ ان تداعيات الحرب العالمية الأولى فرضت عليــك ان تختــار، فاخترت الانحياز الى جانب عروبتك، فواجهت خيارين احلاهما اكثر مــرارة مــن العلقم كما كنت دائماً تقول، تلك المرارة التي احسسنا بها نحن ابنــاؤك بعــد ذلــك بسنوات طويلة، فلم نر ابتسامتك الا فيما ندر، يرحمك الله يا والدي، لقــد عــانيت والآن فقط فهمت وقدرت حجم تلك المعاناة.



الفهرس

الباب الثاني

شعارات نهضوية سادت ام بادت

الفصل السادس: **الخلافة الاسلامية والجامعة القومية**

الباب الثالث

فكر النهضة في قفص الاتهام

الفصل الاول: **سمات الفكر النهضوي**

الباب الأول

النهضة العربية ودور حركة الاصلاح الديني فيها

التمهيد

النهضة والتخلف

النهضة والتقدم، مصطلحان كثيرا ما تساءلت عن معناها كلما تأملت ما حولي من مظاهر اعتبرتها منتهى التخلف المادي والمعنوي في حين يعتبرها البعض نهضة وتقدم. وكلما طرق سمعي كلمات مثل النهضة العربية واليقظة وعصر النهضة ومفكروا النهضة، وبناة النهضة، ورواد النهضة، والنهضويون الخ... ازدادت تساؤلاتي الحاحاً، فما هي النهضة؟ وما هو التخلف؟ وما هو المعيار لقياسهما؟ واين هي النهضة العربية؟ التي لها كل هؤلاء البناة والرواد؟.

فالتخلف والتقدم او النهضة وببساطة تفكير العامة من الناس والذين انا منهم بعيدا عن سفسطة المفكرين ومصطلحاتهم الاجنبية المنشاء في الغالب، لا اراهما الا مصطلحين من المصطلحات التي يختلف معناهما باختلاف الافراد والجماعات. وفلسفة الانسان دائما تحددها نظرته الى نفسه والى الله والحياة والعلاقة بينهم جميعا. فحتى يحكم الانسان على شيء ما بأنه جميل او قبيح او على وضع ما بأنه متخلف او متقدم لا بد له من معيار للقياس. وهذا المعيار يكون عبارة عن نظام متكامل من القيم تحدده فلسفته المذكورة اعلاه. وبدون هذا المعيار او النظام القيمي يكون الانسان فردا او جماعة مشوشاً متناقضا فاقدا لشخصيته وذاته لا يعرف ماذا يريد وكيف يصل اليه. فعندما نقول هذا وضع متخلف، فلابد ان يتبادر الى الذهن السؤال متخلف عن ماذا؟ اذ ينبغي ان يكون هناك مثل اعلى او هدف اسمى لم يستطع هذا الوضع الراهن تحقيقه فتخلف او تأخر، وهذا المثل او الهدف من يحدده.؟ تحدده فلسفة الانسان ماذا يريد من الحياة. فهل يريد مثلاً، الحرية البهيمية والانطلاق منها؟

ام يريد المسؤولية والالتزام؟ هل يريد الترف والاسراف الماديين.؟ ام يريد التقشف؟ هل يعترف او يؤمن بالروح وهل يريد التوازن والاعتدال بين الطرفين المتطرفين؟ ثم كيف يعمل للوصول الى اهدافه.؟ وما هي مبادئ العمل التي يتبعها للوصول الى هذه الاهداف الخ..؟ وهذا كله يحدده هذا النظام القيمي النابع من فلسفته، فقول الدكتور زكي نجيب محمود (ان عصرنا هذا استبدل محل المبادئ فكر الاهداف فنحن ندخل حياتنا -او ينبغي لنا- وليس في ايدينا القيود ولا في ارجلنا الاغلال وانما ندخلها وفي رؤوسنا (اهداف) يراد تحقيقها وكل سبيل نراه محققا لها... فهو السبيل النموذجي الامثل...)[1] هو كلام لا اراه الا ضلالا او تضليل على اقل تقدير. ليس فقط لان الانسان لا يكون انسانا الا بالالتزام والا انزلق الى مستوى ادنى الحيوانات، ولا لأنه ليس هناك سبيل نموذجي واحد امثل في الحياة وانما هناك سبل وبدائل يختار منها الانسان السبيل الامثل وفق معيار معين قد وضعه لنفسه يهديه الى هذا السبيل الامثل وبدون هذا الذي يسميه الدكتور نجيب (القيود) لا يستطيع الانسان ان يختار. ولا لأن الاهداف هذه بحد ذاتها تصبح قيودا واغلالا يجب الالتزام بتحقيقها وانما ايضا لأن الاهداف لا تنزل من السماء كما تنزل المطر وانما تحددها حاجات الافراد والمجتمعات، وهذه الحاجات تحددها معايير للقياس ومبادئ معينة للعمل، والمعايير والمبادئ تحددها فلسفات، والفلسفات هذه تحدد مسار الانسان في حياته. وهذه الفلسفات مهما تعددت فهي تنحصر في مجموعتين نسبة الى مصدرها. فهي اما ان تكون ذات مصدر الهي كالاديان السماوية وهي تتساوى في ايمانها بالله الخالق للانسان من روح وجسد وان كانت تختلف فيما بينها نسبة الى المكان التي تعطيها لكل من الروح والجسد. او ان تكون ذات مصدر بشري (اي وضعها البشر) وهي الاخرى تتدرج من الالحاد ونكران وجود الخالق الى الاعتراف بوجود ما يسمونه الحق المطلق او القوة المطلقة، وتقوم هذه الاخيرة جميعا على تعظيم المادة والجانب المادي في الحياة ولهذا سميت بالفلسفة المادية. وعندما يحكم الانسان المادي على مجتمع بالتخلف فهو ينظر الى الجانب المادي من

---

[1] ثقافتنا في مواجهة العصر ص٩٦

حال هذا المجتمع ويطبق عليه مقياس مادي صرف، يعتمد مستوى دخل الفرد وعدد ونوع وسائل المواصلات، او عدد ونوع وسائل الاعلام، او نسبة الامية على اساس من معرفة القراءة والكتابة، الخ....

اما المؤمن بالخلق وبالاله الخالق فيعطي للجانب الروحي مقاما يهمله صاحب الفلسفة المادية وما يهمنا هنا هو المسلم المؤمن بالله الواحد الذي خلق كل شيء فاحسن وابدع، وخلق الانسان من طين ونفخ فيه من روحه وجعله في احسن تقويم، (وسخر لكم ما في السموات والارض جميعا)[1] واستخلفه على الارض وحمله مسؤولية اعمارها ماديا بالتسخير والتطوير ومعنويا بالايمان بالله الواحد والعمل بما امره الله وحدد له من قيم ومثل عليا، توازن بين جانبي الروح والجسد وتعطي لكل من الجوانب المادية والمعنوية حقها. فهذا المسلم عندما ينظر الى مسألة التخلف والتقدم (والنهضة) ينظر اليها من خلال نظام قيمي مختلف عن ذلك الذي استخدمه صاحب النزعة المادية (سواء علماني او ملحد).

فالمسلم وان كان لايهمل تلك الجوانب المادية التي تهم المادي الا انها بالنسبة له لا تنفصل عن امور قد تكون اكثر اهمية في نظره، وعلى رأس هذه الامور، الايمان بالله الواحد وعدم الشرك به، فهذا بالنسبة للمسلم ما يحدد الجهل (والامية) فتعلم القراءة والكتابة مثلا، على اهميتها بالنسبة للمسلم لا تعني انه خرج من منطقة الجهل الى العلم. وقد سمي العصر السابق للدعوة الاسلامية بالعصر الجاهلي لا على اساس من عدم معرفة القراءة والكتابة، وانما على اساس معرفة الخالق والايمان به. والجهل بهذا المعنى بالنسبة للمسلم يلازمه التخلف بكل اشكاله، لان الله العليم الحكيم قد وضع للانسان شريعة ان هو تعلمها وآمن بها وطبقها فلا بد انها ستقوده الى التقدم والنهضة لانها شريعة متوازنة وضعها علام الغيوب الذي يعلم ما يمكن ان يحدث في غياب التوازن. ولهذا نجد ان شريعة الله قد حددت العلاقات الانسانية على اساس متوازن من الحقوق والوجبات بين جميع افراد المجتمع

---

(1) الجاثية: ١٣

الانساني، علاقة الحاكم بالمحكوم، والزوج بالزوجة، والابناء بالاباء، والجار مع جاره والغني مع الفقير الخ... بشكل يجعل التمسك بها مانعا لحدوث أي خلل في المجتمع مما يحقق التقدم والرفاه والطمأنينة للانسان على هذه الارض. وان كان قد حدث الخلل في فترات كثيرة من تاريخ الامة الاسلامية فهذا لا يعني نقص في الشريعة، وانما جهل بها او عجز عن تطبيقها. وما ذلك لعدم امكانية تطبيقها على الواقع كما يتصور البعض وانما لضعف الافراد وغلبة الجوانب المادية في سلوكهم على جانب العقل والايمان. ولذلك فان معيار المسلم في الحكم على مسألة التخلف والتقدم هو مدى سيادة الشريعة كما جاءت سننها في القرآن الكريم، ومدى فهم الانسان وتطبيقه لهذه السنن وانعكاسها على سولكه في الحياة، وايمانه ان هذا الايمان بالشريعة والالتزام بتطبيقها هو الذي يحقق الازدهار والتقدم بكل اشكاله، ودليله على ذلك ما احدثه الاسلام في اول عهد الدعوة من تغيير في حال الامة وما حققه لها من العزة والقوة والمنعة والتقدم. ومن هنا جاء معيار المسلم لتقيم الاحوال. فالمعروف ان الاسلام انطلق من الجزيرة العربية كما يتدفق النهر من منبعه، قويا، نشطا، نقيا، يحمل معه الخير والعمار المادي والمعنوي اينما حل. تماما كما يتدفق النهر ليروي الارض الظما وينبت الزرع ويجلب الى البلاد التي يصلها الخير والخصب. ولذلك فقد اجاب غوستاف لوبون على تساؤل: (ماذا كان يصيب اوربا لو ان العرب المسلمين فتحوها واستقروا بها ولم يندحروا في معركة بواتية الشهيرة؟) فقال: (كان يصيب اوربة النصرانية المتبربرة مثل ما اصاب اسبانيا من الحضارة الزاهرة، تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث لاوربة التي تكون قد هزمت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية.. ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي ضرجت اوربا بالدماء عدة قرون) ونقض مزاعم المؤرخ الذي يقول (ان اوربا والدنيا كانتا تخسران مستقبلهما) فقال ان (مزاعم مثل هذه ليست مما يقف امام سلطان النقد عندما يعلم ان التمدن اللامع حل بالبلاد التي خضعت لاتباع الرسول محل الهمجية)[1].

---

[1] انظر كوستاف لوبون، حضارة العرب ص ٣١٧

ولكن مع مر السنين وابتعاد الاسلام عن منبعه مكانا وزمانا وانتشاره في بلاد واسعة واحتوائه على اقوام مختلفة، علقت به كثير من الشوائب التي هي ليست منه ولا في اصله الاول، اذ نقلت هذه الاقوام شيئا من فكرها وعاداتها التي كانت سائدة قبل الاسلام، الى الاسلام، كما تأثر المفكرون المسلمون انفسهم بالحضارات المختلفة هذه فادخل بعضهم مفاهيم غريبة عن الاسلام في الفكر الاسلامي من غير تدقيق في اصولها وفي مدى مطابقتها للفكر الاسلامي الاصيل، هذا بالاضافة الى المشكلتين اللتين ذكرهما الكواكبي عندما قال: (ان الاسلام اصابه فتنتان عظيمتان.. الاولى فقد قدرها الله ومضت على وجهها، وهي حين تشاجروا على الخلافة والملك، وانقسموا على انفسهم... واما الفتنة الثانية فلم تزل مستمرة وهي ان الخلفاء العباسيين مالوا الى تعميق النظر في العقائد فخدمهم من خدمهم من علماء الاعاجم تقربا اليهم في علم الكلام واكثروا من القيل والقال...)[1] وانقسموا نتيجة لذلك الى مذاهب يحاول كل منهم ان يجد لنفسه مبررا للخلاف. ولكن الامة الاسلامية مع ذلك ظلت على ايمانها بالله وبعقيدتها ايمان لم تزعزعه الخطوب وفي ذات الوقت لم تقف جامدة بدون حراك تجاه ما يعتريها ن تراكمات واواضاع غيرمرضية، وانما كانت في حركة مستمرة ودائبة في التغيير والتطوير واستيعاب لبعض ما جاء بالثقافات الاخرى ورفض البعض مما لايتفق وعقيدتها. ولكن اتساع الرقعة التي تنتشر فوقها الامة الاسلامية وصعوبة المواصلات ووسائل الاتصال ونشر الافكار جعل هذه الحركات الاصلاحية تنحصر في البقاع التي تظهر فيها وان شاء الله لها ان تنتشر فلا يتجاوز انتشارها المناطق المجاورة لمنبعها وهذا ما كان يحد من فاعليتها. والامة في تحركها هذا نحوا التغيير والتطوير كانت ملتزمة بالمعيار الاصل، بالاسلام كما جاء في القرآن الكريم، وكما بلغه الرسول الصادق الامين. فمنه يستمد المصلح (عامل التغيير) معياره لقياس الوضع على اساس ان الغاية المطلوبة والمثل الاعلى المرغوب هو المجتمع كما اراده الله وامر بتحقيقه. وكل مجتمع لا يطابق هذه الغاية وهذا المثل فهو جاهل ومتخلف، ومنه ايضا يستنبط المصلح الهدف الذي

---

(١) ام القرى ص ١٤٧

يريد تحقيقه والوسيلة التي يعمل بواسطتها لعلاج الوضع وتحقيق الهدف. فان كان التخلف بسبب الاستبداد، دعا الى المشاركة والى الشورى والى العدل والمودة والرحمة والطاعة كما امر بها الله. (وليس كما جاءت في نظريات البشر من المتقدمين والمتأخرين). وان كان التخلف بسبب البعد عن التعقل والتعلم والتصنيع دعا الى استخدام العقل كما امر الله تعالى باستخدامه في القرآن الكريم، وكما حث عليه بآيات كثيرة، ودعا الى التعلم وطلب العلم والى العمل وتسخير ما خلق الله للبشر لخدمة الانسان والانسانية. ولكن على ان يكون العمل في التسخير واستغلال الخيرات التي خلقها الله، ضمن القيم التي امر الله بها والتي تمنع الظلم والاستغلال والاحتكار والمبالغة في تحقيق الارباح وتكديس الاموال ووسائل الترف والاسراف فيها. وليس على اساس تكديس الارباح وفائض القيمة كما يفعل اصحاب الفلسفات المادية والتي ان اختلفت فهي تختلف في لمن يكون فائض القيمة، للدولة ام للفرد.؟ ولكنها كلها تتساوى في استعباد الانسان وتسخيره كالبهيمة لمصالحها.

وان كانت كتابات الاوائل تنحصر في امور العقيدة والدين فليس ذلك عن جمود او تخلف كما يريد ان يراه البعض، ولا عن اهمال للجوانب المادية التي لا تقل اهمية عن جانب الروح كما يتراءى للبعض وانما ذلك لأن العقيدة بالنسبة للمسلم هي القلب ان صلح، صلح الجسم كله وان سقم، سقم الجسم كله. فهي اصل الخير واصل تحقيق التقدم والعزة والقوة بجميع اشكالها المادية والمعنوية. ودليلهم على ذلك بالاضافة للعصر الزاهر الاول للاسلام، فترات التاريخ التي تعلو فيها كلمة الله وكلمة الحق والعدل والعمل بهما على كل ما عداهما. عندئذ كان يتحقق الاستقرار فيزدهر العلم وتزدهر الصناعات ويعم الرفاه البلاد. فنحن لم نجد في كتابات الاوائل مثلا، جدلا حول اقتباس الصناعات المختلفة عن الامم غير المسلمة، كصناعة الحرير والورق والزجاج والسفن والسلاح الخ.. والتي كلها لم يكتفوا باقتباسها وانما قاموا بتطويرها ايضا. ولكننا نجد جدلا كثيرا حول استخدام الحرير بشكل عام على اساس من الاسراف الذي لا يامر به الدين وعلى اساس من قول ينسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم (اخشوشنوا فان الترف يزيل النعم) او على اساس عدم تحبيذ

التزين والتأنث للرجال بشكل خاص. كما اننا لم نجد في التاريخ الاسلامي من حرق او عذب من اجل اختراعه شيئا ماديا يخدم اغراض المجتمع ويؤدي الى تقدمه مثل البوصلة او التلسكوب او ما شابه، كما كان يحدث للعلماء في اوربا. ولكننا نجد العقاب الصارم لمن يمس العقيدة الدينية او يشرك بالله، فالاسلام لم يكن في يوم من الايام ضد العقل او ضد العلم او ضد الاكتشافات والاختراعات او التصنيع كما كانت حال الكنيسة في اوروبا -ولكنه ضد الشرك والكفر والالحاد. وحتى الجبرية التي يتهم بها الاسلام والعقيدة الاسلامية فهي ليست كما يحاول غير المسلمين تصويرها. وشهادة واحد منهم قد يفيد هنا ذكرها. اذ يقول المستشرق غوستاف لوبون في رده على من اتهم الاسلام بالجبرية: (ليس في أي القرآن .... من الجبرية ما ليس في كتب الاديان الاخرى... ولم يكن محمد اذن جبريا اكثر من مؤسسي الاديان الذين ظهروا قبله... وقد كان العرب جبريين بمزاجهم قبل ظهور محمد فلم يكن لجبريتهم تأثير في ارتفاعهم كما انها لم تؤد الى انحطاطهم[1].

فالعقيدة الاسلامية لم تأمر بالجمود ولا تمنع التحرك والتغيير ضمن حدودها، كأي عقيدة اخرى (حتى العقائد المادية البشرية منها) ولم تكن الامة الاسلامية جامدة. وحتى القرن الثامن عشر او التاسع عشر وقبيل ما يسميه البعض عصر النهضة او اليقظة العربية والذي يعتبره البعض عصر الانحطاط الذي اصبح فيه كما يقول الدكتور علي محافظة (من الصعب التمييز بين المسجد والتكية، ولم يجرؤ العلماء على اظهار الشك في قدرات الاولياء الخارقة) والذي كما يقول: (عمت فيه روح اللامبالاة واللامسؤلية وانتشر الفساد في الدولة وفي مختلف الاوساط الاجتماعية)[2] . لم يخلو من مصلحين سعوا الى تغيير الحال واصلاحه مثل محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية، والشويكاني في اليمن والسنوسي في ليبيا وغيرهم.

---

(1) كوستاف لوبون: حضارة العرب ص ١٢٩.

(2) علي محافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب ص٢٠

ولو عدنا الى مسألة التخلف وتساءلنا عن ماذا تخلفت الامة في هـذا العصـر الذي اعتبر متخلفا؟ فلا بد ان يكون هناك هدف تخلفت عن تحقيقه وفق معيار معين. فان كان المعيار هو الاسلام ولقياس مدى تحقيق الهدف الذي وضعه رب العـالمين لاعمار الارض ماديا ومعنويا، فقد كان الحال فعلا متخلفا. ولكن في هذه الحالـة لا يكون العلاج الا بالعودة الى الاسلام الحق، لان التغيير والتطوير لا يحدث في فراغ بل هو يحدث لامة لها اصولها وعقائدها وذاتها الخاصة بها ولذلك لا بـد ان يقـوم التغيير على هذه الاصول حتى لا تنفصم الامة عن ذاتها وتقع في متاهات لا تفيدهـا في شيء. وقد تنبه الكتاب الاوائل لذلك فنجد مثلا، ابو حيان التوحيدي يوكد علـى سنة التغيير هذه ولكنه يؤكد ايضا وفي نفس الوقت على ان هذا التغيـير لا بـد ان يقوم على اساس ما سبقه حتى لا يحدث انفصال او انخرام بحسب تعبيره اذ يقـول: (ولعل الدور بعد الدور، والكور بعد الكور ينشئان هذا الذي نتمناه لقـوم يكونـون بعدنا، فان العالم منساق الى الكمال مشتاق الى الجمال عندهما تكون الغاية، وعليهما تقف النهاية... ان صورة العالم في كل وقت وساعة على حال لم يكن عليـها مـن قبل، وذلك بما يفيض عليه ويسري اليه من الحق الاول بالجود الاعم الاشـمل. واذا كان العالم... يصير في كل ساعة ولحظة الى هيئة لم يكن عليها من قبل، فهل ذلـك الا لان العالم متوجه الى كمال وجمال ينالهما حالا فحالا، ثم يكون له بجود الحـق الاول مبدأ يتحدد به تشوقه ويمتد عليه تقبله من غير انفصال يتوسـط ولا انخـرام يعرض...)[1].

اما ان كان المعيار كما توضح لي من قراءاتـي لكتابـات مفكـري النهضـة وروادها، هو اوربا والهدف المطلوب هو الحياة الاوربية، فهنا لا بد مـن التسـاؤل قبل كل شيء (خاصة وان التباكي على الديمقراطيات والحريات المهدورة كـان ولا يزال على اشده) كيف يفرض على الامة هدفا ومعيارا من خارجها؟ خاصة وهـي ترفضهما ولا ترتضيهما لنفسها؟ فالامة لم تكن انذاك من اقصاها الى ادناها لـترض بغير الاسلام معيارا ولا بغير اهدافه اهدافا. فقد كان الاسلام عقيدتها وصبغته تصبغ

---

(١) المقابسات ص٣٢٩-٣٣٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل شرائعها الدينية والدنيوية من غير انفصام بينهما. تتحرك وتتغير وتتطور ولكن في الحدود التي حددها لها الاسلام. منه تستمد الهدف للتغيير ومن اسسه تستنبط الوسيلة فكما يقول الدكتور يوسف القرضاوي ان الامة الاسلامية ولمدة ثلاثة عشر قرنا (التزمت بمبدأ واحد ومنهج واحد... ارتضته هذه الامة وارتضاه الله لها واتم به عليها نعمته... وكانت هذه الامة توقن ان هذا المبدأ... هو سر قوتها وينبوع سعادتها وصانع حضارتها... لم يفكر حاكم من الحكام طول هذه القرون الثلاثة عشر ان يرفض الالتزام بمبدأ الاسلام والاحتكام الى شرعه وان بلغ في الاستبداد والطغيان ما بلغ. ولم يخطر ببال شعب من الشعوب المسلمة ان يحكمه يوما ما نظام غيرنظام الاسلام او تسود فيه فكرة غير فكرة الاسلام...)[1] .

اذا ماذا حدث؟ ومن له الحق في فرض اهداف معينة على الامة غير الاهداف التي ترتضيها؟ اليست الاهداف هي تطلعات الامة (او الفرد) وطموحاتها؟ والتي هي نابعة من ماهية هذه الامة، من شخصيتها التي هي حصيلة عقيدتها وتاريخها الطويل بكل ما فيه من خبرات وكفاح وظروف اجتماعية وبيئية؟ كيف صار المعيار اجنبيا غريبا عليها؟ كيف جاء من اوربا؟ وكيف صارت اهداف الامة وطموحاتها هي الحياة كما تعاش في اوربا؟ ويجيب الدكتور القرضاوي على ذلك مكملا ما سبق ان ذكره من ان الامة لم تكن لترض بغير الاسلام نظاما للحياة فيقول بقت الامة كذلك (حتى كان القرن الاخير والذي قبله حيث واجه الشرق الاسلامي زحف كثيف من العالم الغربي.. لم يكن.. كزحف الحروب الصليبية من قبل، بل كان زحفا عسكريا سياسيا اجتماعيا ثقافيا...)[2] .

وكما يبدو من كتابات النهضويين ان الزاحف استعرض في زحفه هذا ما يملك من قوة حقيقة تمثلت بسلاحه وصواعقه وما لا يملك حقيقة من مثل ومبادئ وانجازات وهمية، فانبهرت ابصار بعض من ضعاف العزيمة والايمان بما راوا من

---

[1] يوسف القرضاوي: الحلول المستوردة ص١٠-١٩

[2] ---ذات المصدر

صواعقه فصدقوا الباقي مما ادعاه، فشل تفكيرهم وعميت بصيرتهم واسلموا له زمامهم يستمدون فكرهم من فكره ويرددون شعاراته من غير تعقل او تبصر فيما ستحدثه هذه الشعارات في هذه الامة من خراب او عمارا ولم يتوقفوا لحظة ليتساءلوا فيما ان كان ما تعانيه الامة مقارنة باوربا هو تخلف فعلي ام هو اختلاف؟ والاختلاف هو ليس بالضرورة تخلف! او فيما ان كان من الضروري لاصلاح الحال اعتماد سبيل اوربا؟ وفيما ان كان اعتماد سبيلها ممكنا؟ وان امكن ما هي نتائجه؟ والى ماذا سيقود؟ وهل ما سيقود اليه هو مما تطمح الامة في تحقيقه؟

ومرة اخرى نستشهد بكوستاف لوبون الذي يؤكد على الاختلاف العظيم بين الغرب والشرق وعلى سلبيات اوربا مفضلا حال الشرق على تلك السلبيات ولذا ينصح اهل اشرق بعدم اتباع اوربا فيقول:

(قلبت مبتكرات العلوم والصناعة كيان الغرب المادي والادبي راسا على عقب، وتعاني مجتمعاته المسنة تحولا بعيد المدى، ويقاسي خلافا شديدا، ويكابد في سبيل معالجة الشرور التي نشأت عن ذلك الخلاف ازمة عامة تسوقه باطراد الى تبديل نظمه ويئن من عدم الانسجام بين المشاعر القديمة والمعتقدات الجديدة، ويتألم من تصدع مبادئ الاجيال السابقة. وتنال يد التغيير في الغرب الاسرة والتملك والديانة والاخلاق والمعتقدات... كلفت الجماهير بمبادئ سلبية... ونرى الان قيام ألهة جدد مقام قدماء الالهة ونشاهد العلم يدافع عنهم اليوم فمن ذا الذي يذود عنهم في المستقبل؟). ويقارن ذلك بحال الشرق الذي يرى شعوبه تعيش بسعادة ويقول: (... لا عهد له بما عندنا من الانقسامات والحياة الصاخبة ... وتتمتع شعوب الشرق بما خسرناه من التماسك، فمعتقدات هذه الشعوب لا تزال قويمة، وتحافظ أسرها على استقرارها القديم، وبقيت مقومات المجتمعات القديمة، كالديانة والاسرة والنظم والتقاليد والعادات، وهي التي اصابها في الغرب من الهدم ما اصابها، مؤثرة في الشرق مسيطرة عليه وليس على الشرقيين ان يفكروا في تبديلها)[1].

---

(1) كوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٩

اما جمال الدين الافغاني ورغم انه هو نفسه من دعاة الحضارة الاوربية الا انه وصف العالم الاوربي فقال؟

(وما العالم المتمدن، هل راينا غير مدن كبيرة وابنية شامخة وقصور مزخرفة ينسج فيه القطن والحرير باصباغ كيماوية مختلفة الوانها، ومعادن، ومناجم، واحتكار تجارات اتت لهم بثروات، هل غير التفنن في اختراع المدافع المروعة والمدمرات والقذائف وباقي المخربات القاتلات للانسان، وتتبارى فيها تلك الامم الراقية المتمدنة اليوم؟ لو جمعنا كل تلك المكتسبات العلمية، وما في مدنيات تلك الامم من خير وضعفناه اضعافا مضاعفة ووضعناه في كفة الميزان، ووضعنا في الاخرى الحروب وويلاتها، لكانت كفة العلوم والمدنية والتمدن هي التي تنحط وتغور فالرقي والعلم والتمدن على ذلك النحو ان هو الا جهل محض، وهمجية صرفة وغاية التوحش، فالانسان في ذلك احط من الحيوان... فليس ثمة مدنية ولا علم، ولكن جهل وتوحش)[1].

ولذلك فهو ينصح الامة الاسلامية بالتمسك بدينها لأن (الدين قوام الامم وفيه سعادتها وبه فلاحها) فيقول: (اننا معشر المسلمين اذ لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير فيه... لأننا في تمدننا هذا مقلدون للامم الاوربية وهو تقليد يجرنا بطبيعته الى الاعجاب بالاجانب، والاستكانة لهم والرضا بسلطتهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الاسلام التي شأنها رفع راية السلطة والتغلب الى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي...)[2].

ولو تركنا هؤلاء وغيرهم ممن حذر الامة العربية والاسلامية من اتباع اوربا واعتبار الحياة فيها معيارا لقياس التقدم والنهضة والتمدن والسعي من اجل تحقيق مثلها ونظرنا الى احوال اوربا في اواخر القرن الثامن عشر والى اواخر القرن التاسع عشر وهي الفترة التي اشتدت فيها الدعوة لاقتباس الحضارة الاوربية على

---

(١) احمد امين: زعماء الاصلاح ص ١٢٧.

(٢) انظر سعيد اسماعيل: الفكر التربوي ص ٨٢.

اساس انها قمة التمدن. هذه الدعوة التي اعتبرت بداية لما سمي بالنهضة العربية! فهل كانت هذه الاحوال هي فعلا ما كانت تطمح الامة العربية والاسلامية الى تحقيقه.؟ ثم هل كانت الاحوال هذه هي فعلا بهذا التمدن والتقدم الذي يدعيه الدعاة.؟ وهل كانت الفجوة بين تقدمهم وما سمي تخلفنا بهذا الشكل العظيم الذي صوره الدعاة.؟

فالحرية والديمقراطية اللتان كانتا على رأس ما دعا اليه دعاة النهضة الذين اعتبروا كل مظاهر حياة الامة تخلفا وجعلوا الحياة الاوربية هي معيارهم في الحكم هذا وهي الهدف الذي يسعون لتحقيقه، هل كانتا فعلا مما تتمتع بهما الشعوب الاوربية؟ والسؤال يجيب عليه ما كان يحدث في اوربا بشكل عام وفي فرنسا بشكل خاص من فضائح باسمهما مما جعل احد اكبر دعاة الحضارة الاوربية (والفرنسية بشكل خاص) وهو نجيب عازوري يقول: مشيرا الى المذابح الطائفية: (ان حكومة فرنسا قالت لاشقياء باريس -يحل لكم نهب بيوت الاغنياءالكاثوليك في المدينة واغتصاب نسوتها وفتياتها- وتصبح العاصمة الفرنسية بالتالي مسرحا لفضائح ارمينيا وتتجدد الفضائح نفسها في مدينة النور بعد ستة اشهر، ليمنح الافراد الحرية نفسها ضد البروتستانت)[1].

فأين الحرية الدينية التي يتدخلون في شئون البلاد العربية ويحتلونها ويستعبدون أهلها باسمها؟

ويؤكد عازوري في مكان آخر من كتابه على عدم وجود الحرية في فرنسا فيقول: (لم تنتشر حرية الفكر بشكل ملحوظ لا في فرنسا ولا لدى أي شعب أخر متحضر أو واع.) ولذلك يتساءل فيقول: (اذن كيف يراد نقله الى بلاد الشرق)؟ ويشبه هذا النقل لفكرة الحرية وغيرها من الافكار الى الشرق كنقل الازياء (اذا ما عمت وبلت في فرنسا صدرت الينا) فيقول: (فالنعلم بادئ ذي بدء حرية الفكر في

---

(١) انظر يقظة الامة العربية ص ١٩٩.

فرنسا وكن واثقا ان التقليد يتم حالا في كل مكان بعد ذلك.)[١] .

والطهطاوي قبل العازوري ذكر ما شاهده من مهاجمة الناس للحراس والاستيلاء على سلاحهم واستخدامه في نهب المحلات التجارية. كما يذكر مهاجمة بيت البطريرك من اجل قتله ولما لم يجدوه خربوا داره وحرقوا كتبه. وان كان هذا لم يؤثر على انبهاره بالحرية والعدالة والمساواة في فرنسا!! هذا غير استبداد نابليون وقياصرة روسيا وألمانيا وغيرهم من حكام اوربا وهدرهم للحريات والديمقراطيات والتي استدعت الثورات عليهم والتي هي الأخرى بدورها افرزت لينين وستالين وهتلر وموسوليني وغيرهم في هذا القرن ومن يقرأ تاريخ أوربا، المكتوب لأبنائها وليس ما يكتبه مؤرخونا ليزينوا لنا به الحضارة الاوربية، ويقرأ ادبها وتاريخه، والأدب كما يصفوه هو مرآة الشعوب، يستطيع ان يرى كيف كانت تقتل الحريات وتصلب الديمقراطية والعدالة والإخاء والمساواة وكل الشعارت التي يلوحون بها للعالم. ويكفي الأمة العربية ما جربت من هذه الشعارات فهل يا ترى كانت الحروب التي شنت على امتنا مطلبا شعبيا اوربيا وقرارا اتخذته الشعوب الأوربية؟ ام اتخذته مراكز القوى فيها من اصحاب المصالح والطموحات والتي سخرت شعوبها في هذه الحروب لمصالحها وجعلتها وقودا تدير بها عجلة الاستعمار.؟ ولذلك نجد وعلى سبيل المثال ان وليام مانجستر بعد ان يصف في كتابه (الاسد الاخير) الخسائر الفادحة التي تكبدها الشعب الانكليزي، في الحرب العالمية الاولى، بالأرواح والأموال والمعانات التي كان يعانيها قبل الحرب واثناءها وبعدها يقول: (لم يحدث في تاريخ الحروب الانسانية ان تعاني هذه الكثرة من الناس لتحقيق طموح وغرور هذا العدد القليل)[٢] . وكان على رأس هذه القلة المستر تشرشل الذي اعتبره الكاتب اكبر داعية لتلك الحرب واكثر الساسة تحريضا عليها لا لشيء الا لأنها (فرصة لتحقيق المجد لنفسه) مما جعله (يدخل في مغامرات خطرة من غير ان يهتم بمقدار قشة عما تسببه من مشكلات ومآسي للآلاف مؤملا فقط ان يثبت انه الرجل الافضل

---

(١) ذات المصدر ص ١٣٣.

(٢) W. Manschester: The last lion Ip.523

في هذه الحرب)[١] .

وحتى ان كانت لهذه الشعوب كلمة او رأي في هذه الحروب فأين هي الحرية والديمقراطية التي يدعون رغبتهم في نشرها او حمايتها؟ اليس لهذه الشعوب التي يسضعفونها ويغزونها حريات يجب ان تحترم.؟

اما مستوى المعيشة والفجوة بين طبقات الشعوب الأوربية وانتشار الفقر بين الناس فلا ادل عليه الا ما برر به ماركس نظريته الاشتراكية والتي وضعها لمعالجة الوضع المزري للشغيلة في انكلترة وباقي اجزاء اوربا. كما ان فيكتور هيجو لم يكتب البؤساء مصورا الحياة في العالم الاسلامي وانما صور فيها الحال في اوربا والتي يؤكد سشلو فورتا دو ان شروط العمل فيها خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر (لم تكن اعلى، من أي وجهة نظر كانت، من الشروط التي كانت سائدة في عصر الامبراطورية الرومانية.) ان لم يكن اقسى حيث (اصبحت شروط العمل اكثر قسوة الى درجة لم تبلغها في اوربا خلال الالف سنة السابقة...)[٢] . وفي امريكا لم يكن الفقر وشروط العمل بأفضل مما كانت عليه في اوربا اذ كان (الفقراء ينحشرون في ظروف سكنية مزرية هذا بالاضافة الى الفوضى الأمنية. فقد شهدت الفترة ما بين ١٨٣٤-١٨٤٤م في نيويورك وحدها (٢٠٠) حرب عصابات رئيسية) ولم يكن الوضع في المدن الأخرى الا مشابها لذلك، هذا بالاضافة الى (فساد المؤسسات الاجتماعية والتي اصبح في نهاية القرن يشكل امرا يستدعي محاربته)[٣]

اما في انكلترا فقد كان الانكليز، كما يذكر وليام مانجستر يعانون من الفقر والبطالة والاضطهاد، مما ادى الى هجرة ثلاثة ملايين انكليزي ما بين عامي ١٨٥٣-١٨٨٠ فالنظام كان ضدهم، والقانون يحمي الملكية، ورجل الشرطة يتغاضى عن ذوي القبعات العالية Top hat men ويلاحق ذوي الملابس المهلهلة:

---

(١) Opt, cit, I p557.

(٢) انظر النمو والتخلف ص ١٤٥.

(٣) Cynthia Griffin Wolf, Emily p. 66-67

ويعيشون في ظل قانون السيد والخادم حيث يمكن ان يلقى القبض على المستخدمين حتى وان كان في منتصف الليل لمجرد عدم اطاعتم للأوامر المجحفة، وباسم القانون يمكن للشرطي ان يوقف أي واحد يشتبه به ويفتشه في أي مكان كان في الشارع... او في أي محل عام.. وحتى اوائل القرن العشرين كان واحد بالمئة من السكان في انكلترا يسيطرون على (٦٧) بالمئة من ثروة البلد بينما يعيش (٨٧) بالمئة من السكان على ثمانية بالمئة من هذه الثروة. وكانت اجرة العامل لا تزيد على باوند واحد في الاسبوع.

وعندما ماتت الملكة فكتوريا في نهاية القرن الماضي وحتى اوائل القرن العشرين كان (٢٨) ثمانية وعشرون بالمئة من السكان يعيشون في فقر مدقع... وثلاثون بالمئة من سكان لندن يعانون سوء التغذية. وفي ذات الوقت فتحت رولز رويس مؤسستها، وكان شارلس نيستل Nestle مصفف الشعر قد اشاع تسريحة شعر لنساء الطبقة العليا تكلف (٢٠٠) مئتي جنيه للتسريحة. اما خدم القصور ففيما عدا رؤسائهم، فقد كانوا يعيشون في اسوأ الظروف ويسكنون السراديب العفنة ولا يحصلون الا على القليل من الطعام[١].

ولم تكن المدارس في مستوى معلميها وفي بنيتها وفي مناهجها وانظمتها بأفضل من حال الكتاتيب عندنا، عدا القليل من المعاهد العالية والتي لم نكن نفتقر لمثلها، وقراءة لتاريخ التعليم ولكتابات الكتاب في نقد التعليم تعطي صورة عن تخلف هذه المدارس وشرور القائمين عليها. ومن الامثلة البسيطة على هذه المدارس ما ذكره تشرشل عن مدرسة سانت جورج الداخلية والتي دخلها عام ١٨٨٢ وعمره أنذاك سبع سنوات وما ان وصل المدرسة كما يقول حتى استقبله مديرها وقاده الى منضدة واعطاه كتاب قواعد اللغة اللاتينية وطلب منه حفظ ما حدده له منه وغادر، ثم عاد بعد فترة وطلب من تشرشل ترديد ما حفظ، وبعد ان ردد تشرشل ما حفظ امام المعلم سأل معلمه: (ماذا تعني هذه يا سيدي؟) فنهره المعلم بشدة! وافهمه ان

---

(١) W. Manschester: The last lion p76, 370-371.

عليه حفظها فقط ويذكر تشرشل انه قضى في هذه المدرسة سنتين لم يتعلم الا القليل جدا من الدروس ولا شيء مطلقا من الالعاب وهناك (فلقة وضرب كل يوم تقريبا) ولكنه كان ككل الاطفال يكتب لأهله انه بخير مع انه كان يعامل بقسوة شديدة خوفا من عقاب اشد. ويذكر ان الضرب قد ترك في جسمه جروحا كثيرة اكتشفتها مربيته عندما لم يعد يتحمل الضرب فهرب من المدرسة الى البيت... [1].

حدث هذا في الوقت الذي كان فيه الأوربيون ويؤيدهم دعاة النهضة وروادها! من المسلمين يهاجمون مدارسنا وكتاتيبنا باعتبارها متخلفة تعتمد التلقين والعقاب والثواب ويروجون في ذات الوقت لاتباع كل ما هو موجود في اوربا من نظم، فماذا كان يحدث فيها اكثر مما كان يحدث في المدارس الاوربية؟!

هذا غير ان التعليم كانت مسؤوليته تقع على عاتق المجتمع نفسه، مجتمع القرية او الحي في المدينة الكبيرة، اذ يقوم هؤلاء بتهيئة صف او اكثر في أي مكان يصلح لذلك ويعينون له معلمة واحدة اومعلما في غالب الاحوال ان كان المجتمع متيسرا والا تبرع الأهلون بالقيام بهذه المهمة. ولكن في بلادنا كان دعاة النهضة على الطريقة الأوربية يهاجمون السلطان ويلومونه لأنه لم يهيء مدرسة (حكومية) في كل قرية نائية من امبراطوريته الشاسعة الواسعة على غرار تلك التي توجد في ارقى احياء باريس والتي كانت اهلية وخاصة في الغالب!.

اما عن الحالة الصحية فحدث ولا حرج. فقد كانت الامراض والاوبئة تفتك بشعوب اوربا وامريكا كما كانت تفتك بشعوب الدول الاسلامية ان لم يكن بأكثر قسوة، ولهذا نجد سنثيا كريفن ولف تصف الحال في امريكا في نهاية القرن التاسع عشر فتقول: ان (التيفوئيد وذات الرئة والجدري والكوليرا والملاريا، كلها اوبئة تهدد الحياة والسل يمكن رؤيته على وجوه الجيران وافراد العائلة وحتى الدزانتري كان قاتلا) وكان الموت يخطف الجيران والاصدقاء وافراد العائلة وهم في عمر الزهور حتى ان الناس (كانت لا تستطيع ان تخرج الموت من تفكيرها لأنه كان

---

(1) Opt, cit, p. 123-127.

حدثا يوميا) ولكثرة وفيات الاطفال (ارتبطت الولادة بالمرض والموت والفراق) في اذهان الناس فالولادة تعني مرض الأم او الطفل او كلاهما، ويعقبه الموت لأحدهما او لكليهما وهذا يعني الفراق)[1].

ويصف وليام مانجستر حال انكلترة حتى اوائل هذا القرن (العشرين) فيقول: ان في لندن (اغنى مدينة في العالم يموت طفل من كل اربعة اطفال لأن والدته لا تستطيع انتاج الحليب لارضاعه) وان نصف الاطفال (يصابون بالكساح وستون بالمئة منهم يعانون من تسوس الاسنان...) وكلنا يعرف حال المستشفيات والتطبيب مما قالته وفعلته نايتنك كيل وغيرها من المصلحين والمصلحات.

اما حال المرأة فقد كان اسوأ كثيرا مما هو عليه حال المرأة في العالم الاسلامي في بعض الاحوال ومشابها له في احوال اخرى. ففي امريكا وحتى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين كان دور المرأة محصورا في البيت وتربية الاطفال فقط لا غير ومهما كان للمرأة من ذكاء فطري ومهما حصلت عليه من تعليم جيد فميدانها المناسب دائما هو مقصور على عمل البيت، والتطبيق الوحيد المناسب لتعلمها هو توفير الراحة لزوجها والتوجيه الأولى لأطفالها)[2]. ولم تعط المرأة في امريكا (الا القيل جدا من الفرص... فهي لا تستطيع التصويت.. ولا تستطيع التصرف في ممتلكاتها، واللباس المقبول لها هو التنورة الطويلة) وحتى (مواهبها ككاتبة او شاعرة فلا بد لها ان تراعي فيها جنسها.. ففي امريكا بشكل عام لا يتغاضون عن الحزم والصراحة في المرأة، التي هي قد نشأت بشكل عام في ظل الاحتقار العقلي والنظرة الدونية، ولم تعط الفرصة لاثبات العكس)[3] .

وفي اوربا لم يكن حالها بأفضل من ذلك حتى قيل ان في فرنسا على عهد نابليون قدم اقتراح لاصدار قانون يمنع المرأة من تعلم حروف الهجاء لأن المرأة في

---

(١) Cynthia Griffin wolff: Emily Dickinson p. 60-67.

(٢) Opt. cit. p121.

(٣) Opt. cit. p. 170

نظرهم (ان تعلمت حروف الهجاء فقدت الكثير من براءتها)[1] . ولذلك كله نجد مثلا ان الشاعرة الامريكية اميلي ديكنسن، لم تكن قادرة على نشر اشعارها في نهاية القرن التاسع عشر، وفي حياتها، لا لشيء الا لكونها امرأة[2] . وكثير منا يذكر تلك المرأة الفرنسية التي حاولت الكتابة والنشر فانتحلت اسم رجل، فكتبت باسم جورج صاند، حتى يفتح امام كتاباتها طريق النشر، كما يذكر كيف قوبلت مدام كوري في اوائل هذا القرن، بالمقاطعة والاستنكار من قبل الطلبة والزملاء عندما عينت للتدريس في جامعة السوربون.

وحتى عندما شجعت المرأة على العمل خارج بيتها ما كان ذلك الا لاستغلالها من قبل الرأسمالية الصناعية التي عمدت الى (استخدام اليد العاملة النسائية واستخدام الاطفال)[3] . ايضا من اجل تخفيض تكاليف الانتاج باعطائهم اجورا اقل. هذا من جهة ومن جهة اخرى من اجل منافسة الرجل وتوفير احتياطي كبير من العاطلين عن العمل للابقاء على الاجور بمستوى متدن ولم يكن الحال بأحسن منه في النظام الاشتراكي الذي شجع المرأة على العمل خارج منزلها باسم الحرية والتحرر لربطها من خلال الاجور بعجلة الدولة واستعبادها وتحريكها كيفما شاءت مصلحة النظام الذي يحرك كل شيء آخر. وحتى يومنا هذا فإن النساء في الغرب (... هن رهائن الاستغلال الاقتصادي والجنسي... سواء في الانظمة الرأسمالية ام الاشتراكية)[4] . كما تؤكد نوال السعداوي.

اما عن الظواهر المدنية الأخرى مثل وسائط النقل مثلا فحتى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت هذه الوسائط في امريكا وأوربا لا تختلف كثيرا عما هي عليه في العالم الاسلامي، وتتمثل بالعربات في البر والسفن في البحر وقليل جدا من السكك الحديدية التي كان ايصالها الى المدن يستدعي الابتهاج

---

(١) opt. cit p.251

(٢) opt. cit

(٣) سيشلو فورتادو : النمو والتخلف ص ١٤٤.

(٤) نوال السعداوي، ندوة العقد العربي القادم ص ٣٠٧-٣٠٨.

واطلاق المدافع تحية للمناسبة كما حدث في احدى مدن نيوانكلند الامريكيـــة حيــث (اطلقت المدافع عشر طلقات ابتهاجا (او تحية!) لاتمام التعاقد مع احدى الشـــركات على مد سكة حديدية اليها)[1] . مع العلم ايضا، انه في اوربا وامريكا كانت ولا تزال المدارس والمستشفيات وخطوط السكك الحديدية، وبعد ذلــك مــد شــبكات المــاء والكهرباء والغاز وغيرها من الخدمات، كلها امور تقوم بها الشركات بالاتفاق مــع جمعيات تعاونية من مجتمع القرية او المدينة نفسها وبتمويل خاص من المســتفيدين انفسهم ولا دخل للحكومة بها، ومن اجل الكسب المادي اولا وقبل كل شيء، بينمـــا نجد ان دعاة الحضارة الاوربية من العرب النــهضويين! الذيــن وضعــوا الحيــاة الاوربية معيارا وهدفا يطمحون اليها لم يوجهوا جهودهم للاختراع أو للاكتشاف في هذه الامور كالاوربيين ولا حتى للاسهام في انشاء مثل هذه المشروعات بل وجــهوا جهودهم الى الشتم والتحريض على الحكومات الوطنية لأنها لم تول هـــذه الأمــور الكثير من اهتمامها.

وعلى اية حال فحتى نهاية القرن التاسع عشر كما تؤكد سنثيا وولـــف كـــانت اكثر المدن الامريكية من حيث التخلف لا تختلف عما كانت عليه في القرن الســـابق الا بغياب مذابح الهنود الحمر، فالشوارع غير معبدة، وموحلة في الربيع والخريـــف ومغبرة في الصيف... وتنعدم فيها الانارة العامة، والشموع ومصابيح الكيروســـين هي المصدر الوحيد للاضاءة داخل البيوت... وليس فيها مجار ولا مصادر للميـــاه غير الآبار)[2] . وكتب ونستون تشرشل يصف حال الطريق عندما ذهب يـــوم ١٦ مارس عام ١٨٨٨ ليقدم للامتحان في هارو Harrow قائلاً: (كانت الطرق في ذلــك اليوم في حالة مزرية،... كانت مغطاة بالطين والماء الى عمق يصل اعلى ســـلالم العربة...)[3] . ولم يكن حال المدن العربية والاسلامية بأسوأ مما جاء اعـــلاه فـــأين تخلفنا مقابل تقدمهم.؟ فالتفوق الاساسي الذي تقدمت به الدول الاروبية عن الـــدول

---

(١) Cynthia Eriffin wolff: Emily Dickinson p. 124.

(٢) opt. cit.

(٣) w. Manschester. The last lion p. 150.

الاسلامية كان كما يبدو، هو الة الحرب من سـلاح حربـي يرهبـون بـه العـالم ويستعمرونه! وسبقهم في هذا المجال امر مفهوم، فحضارتهم شابة لـها مطامعـها وطموحاتها وتريد بالقوة العسكرية ان تنتشر وتتوسع علـى حسـاب الحضـارات الاخرى، لتنفرد بالسيطرة. وفي المقابل كانت الدولة الاسلامية قد هرمت ووصلـت من الكبر عتيا، وكانت ترجو ان تستمد قوتها من ابنائها من الشباب الذيـن عـودوا الامة عبر التاريخ على تجديد شباب دولها والابقاء على حضارتها ولذلك ما كـانت تضعف دولة ويدب في اوصالها الهرم حتى تقوم غيرها تجدد شبابها كمـا حـدث للدولة العثمانية التي تسلمت الراية من الدولة العباسية المنهارة. ولكنهم في العصـر الذي سمي بعصر النهضة خذلوها وانحازوا الى عدوها الذي لم يكن اكثر تقدما منها في كثير من المجالات، مما لا يحقق له اية افضلية على الدولة الاسلامية ولا علـى الامة العربية فبأي معيار نظروا الى الغرب فانبهروا به.؟ وما هو مقياسهم.؟

يقول ابن خلدون: لا يوجد (مقياس مطلق تتفاضل به الأمم فقد تكون امة مـن الامم صالحة حسب مقياس معين، انما هي لا بد ان تكون طالحة حسـب مقيـاس أخر. والاختلاف في تقدير صفات الامم ناشيء من اختـلاف مقـاييس النـاظرين اليهم)[1]. فبأي مقياس قاس دعاة النهضة على الطريقة الاوربية حال الامة العربيـة الاسلامية من جهة وحال الشعوب الاوربية من جهة اخرى.؟ فانحازوا الى الاخـيرة وتعصبوا، وتشددوا بهذا الانحياز والتعصب.؟ وحتى لو استخدمنا المعيار الاوربـي المادي للتخلف والتقدم، ونظرنا الى الفجوة بين ما سمي تقدمهم وما سـمي تخلفنـا بمعيار الحياة الاوربية كما كانت آنذاك في الحقيقة وليس كما هي في خيال الدعـاة لوجدناها فجوة ضيقة كان يمكن عبورها آنذاك بسهولة لو اننا اعتمدنا على مقوماتنا في تحسين احوالنا كما اراد لنا من اتهموا بالرجعية والتخلف لا لشـيء الا لأنـهم رفضوا رأي النهضويين في فتح الابواب والشبابيك وكل الكوات والفتحات ليدخـل منها المستعمر فيحكم ويتحكم.

---

(١) علي الوردي: منطق ابن خلدون ص ١٨٢.

ولكن لو نظرنا الى تخلف الامة بالمعيار الاسلامي وبمــا حــدده الله ســبحانه وتعالى من اهداف وطريقة حياة لوجدنا ان الفجوة بين الواقع والهدف كانت واســعة جداً وان كانت هي الاخرى يمكن ردمها بالجهد والتصميم والعودة الى دين الاســلام كما هو في الاصل.

اما اليوم وبعد مالا يقل عن قرن من ما سمي بالنهضة! ومن اتباع الحضــــارة الاوربية، اين موقعنا من الحضارة هذه؟ واين نحن في مقابل الدول الاوربية؟ التـــي ازدادت تقدما اضعاف واضعاف ما كانت عليه، بحيث اصبحت الفجوة بيننا وبينــهم ليس فقط لا يمكن عبورها للوقوف معهم مشاركين لهم في الحضارة كما كان يؤمــل البعض وانما حتى لا يمكن تضييقها. بل هي تزداد اتساعا، فهم يسرعون الخطى في اتجاه التصنيع والعلوم والازدهار والسيطرة على الاخرين والتحكم بمصائرهم ونحن نسير وراءهم بخطى بطيئة متثاقلة ومترددة، تابعين منهزمين! فتزيد الفجـــوة بيننـــا وبينهم كل يوم اتساعاً. مما يدعو الى التساؤل، كيف سنلحق بركبهم؟ كما طلب منـــا رواد النهضة! من المفكرين، وكما لا يزال تلامذتهم يفعلون حتى يومنا هذا؟

قبل ما سمي بالنهضة العربية هذه كان لنا فكرنا وكان للاوربين فكرهم، كــانت لنا ثقافتنا ولهم ثقافتهم، لنا قيمنا ومعاييرنا، ولهم قيمهم ومعاييرهم، لنا اهدافنا ولـــهم اهدافهم، يمكن لنا ان نتطور بعيدا عنهم ومن خلال هذا التطور يمكن ان نلتقي معهم ليكمل احدنا الآخر، ويمكن ان نصبح مشاركين لهم من خلال هذا التكامل، وكل ذلك باختيارنا وبابداعنا. ويمكن ايضا ان نسبقهم وباختيارنا وبابداعنا. امـــا الآن فنحــن متخلفين عنهم وسنظل كذلك ولكن ليس باختيارنا، بل هو تخلف فرضه على الامـــة دعاة الحضارة الاوربية من اول عهد الدعوة وحتى يومنا هذا. فنحـــن الآن وبعــد النهضة والانفتاح على اوربا ننتظر منهم ان يفكروا حتى نتلقى ونقلــد ونتبـــع، وان يضعوا المعايير لنقيس بها نحن، ويضعوا الاهداف لنجري نحوها نحن وبوســائلهم!! وليس هذا فقط وانما ننتظرهم، ليزرعون فنأكل ويصنعون لنلبس ونستهلك، فأين هي النهضة ومتى وكيف سنقف معهم على قدم المساواة لنكـــون لـــهم مشـــاركين فـــي الحضارة؟!!

قبل ما سمي بالنهضة كانت لنا مدارس قليلة وبسيطة، وقد يراها البعض متخلفة ولكنها كانت في ذلك مشابهة لمثيلاتها في اوربا، الا ان مناهجها ونظرياتها مستنبطة من عقيدتنا ومعاييرنا وتحقق اهدافنا على تواضعها، قد وضعناها لأنفسنا تنسجم وطموحات الامة اما الآن فعندنا مدارس وجامعات، كلها نسخ مشوهة من مدارسهم وجامعاتهم تعتمد نظرياتهم ومناهجهم وطرائق تعليمهم وقيمهم وتعمل لتحقيق اهداف وضعت لتحقق مصالحهم في تحقيق تبعيتنا لهم.

كانت وسائل مواصلاتنا بسيطة وتصنع محليا (ومشابهة لما كان عندهم) ولكن اليوم تطورت وسائل التنقل والاتصال عندنا فازدحمت شوارعنا بالسيارات المستوردة من الدول الاجنبية، منها الكبيرة الفارهة ومنها الصغيرة والبسيطة، وجميعها تستهلك جزاء كبيرا من ثرواتنا باستيرادها ولتعبيد الطرق لسيرها واستيراد قطع غيارها، وعمل الجسور والمعابر داخل المدن (مما شوه مدننا وافقدها طابعها المميز) وخارجها لتسهيل حركتها. هذا غير كلفة الوقود المستخرج بوسائل مستوردة، ومصفى بمصافي مستوردة ومعبأ في حاويات مستوردة، ويضخ في السيارات بمضخات مستوردة وكل عمليات الاستيراد هذه هي من الدول الاجنبية صاحبة الحضارة الاوربية!! وتطورت وسائل الاتصال فاصبح لدينا هواتف حتى في السيارات، وتلكس وحتى قمر صناعي عربي!! ولكنها كلها من صنع الدول الاجنبية ويشترى كل ذلك منها في غالب الاحوال بقروض ليصبح الاستعباد والتبعية مزدوجة، استعباد للالة نفسها ولمنتجها واستعباد لصاحب القرض.

كانت الصناعات عندنا قبل النهضة! بسيطة تتمثل بحائك ونجار وحداد الخ... يسدون بانتاجهم البسيط (والمتقن في الغالب) الحاجة المحلية. اما اليوم فقد تطورت الصناعات عما كانت عليه وهجر الحائك نوله، والحداد سندانه، وكسر النجار منشاره واصبحت لدينا مصانع نسيج مستوردة ومصانع حديد مستوردة ومصانع نجارة مستوردة ومصانع ورق مستوردة الخ... هذا غير قطع الغيار والمواد الأولية وخبراء التشغيل والادامة وكل ذلك ايضا مستورد من الدولة الاجنبية. ومع ذلك فان هذه المصانع غالبا من تشعر بالغربة والوحشة بعيدا عن اوطانها فتهمل ولا تنتج

بذات الكفاءة ولا بذات الجودة لتسد الحاجة المحلية والتي بفضل اقتباس الحضارة الاوربية صارت تتضاعف كل يوم، فنعود لنستورد ذات البضائع التي ننتجها. فتعطل من جهة اخرى النجارون والحدادون وكل اصحاب الصنائع القدامى كما تعطل من كان المفروض ان يحل محلهم في المهنة، فزادت بذلك الانتاجية وزدنا فخرا بالتنمية والنهضة الحديثة!!

والزراعة كانت، هي الاخرى، متخلفة تعتمد المحراث والمنجل والفلاح الامي الذي يكد ويكدح ليسد حاجته وحاجة الامة من الغذاء ومن المواد الاولية للتصنيع البسيط ولتصدير ما يفيض عن ذلك، وقد كان كثيرا جدا. ولكن امكانات هذا الفلاح بالنسبة لفكر النهضة كانت بسيطة، ويزرع في اكثر البلاد العربية ارضا صغيرة يملكها وبالتالي لا تساعد على تطوير الزراعة فلا بد من اقتباس الانظمة الاوربية في الزراعة، الاقطاعية او الاشتراكية، واعتماد المكننة والآلات الحديثة، واصلاح حال الفلاح! فانصلح حال الفلاح الآن وهجر ارضه وتحول الى المدينة ليعمل ساعيا او بوابا او متسولا، لانها كلها اعمال حضارية واكثر سهولة واكثر انسانية واكثر انتاجية!! هذه الانتاجية التي يحتاجها مجتمعنا الناهض لاغراض التنمية العظيمة التي يعيشها! ومن لم تسعه المدينة التي تورمت ليصل عدد سكانها الى ملايين من البشر المكدسين في بعض الاحوال في مساكن لا تصلح لسكنة البشر، تستوعبه المدن الاجنبية ليعمل في اكثر الاعمال تواضعا باقل الاجور، فيساعد بذلك في تخفيض كلفة الانتاج وزيادة فائض القيمة ليدعم هذه الدول الاجنبية!!

اما حال المرأة اليوم فقد تطور هو الآخر.! فبعد ان كانت حبيسة البيت تخدم الرجل الذي هو والدها او اخوها او ابنها او زوجها، وكلهم لا يربطها بهم الا رابطة الرحم او رابطة المودة والرحمة، والتي كلها كما يؤكد فكر النهضة روابط رجعية متخلفة، وجدت لتقيد المرأة وتستعبدها في ظل سلطة ابوية او بطريركية! صارت اليوم متحررة من كل ذلك وخرجت الى مجال العمل المنتج والمثمر، فاصبحت تخدم الرجل ايضا ولكن ذلك الذي لا تربطها به الا الروابط العصرية المادية، فحققت ذاتها وبعد ان كانت عضوا مشلولا في المجتمع، متعطلا عن العمل، لا تعمل

شيئا سوى خدمة بيتها وتربية اولادها، وصنع كل ما يحتاجه البيت وتحتاجه الاسرة من خياطة وحياكة وتطريز ومأكولات للاستهلاك الفوري او للتخزين والحفظ الخ... بالاضافة الى مساعدة رب الاسرة ان كان فلاحا في ارضه وان كان صانعا في صناعته، فقد اصبحت اليوم عضوا عاملا يشارك في تنمية المجتمع! تقضي الساعات الطوال في مكتب السيد المدير تنتظر لترد على مكالماته التلفونية او لتكتب له ما يملي عليها من رسائل حتى لا يشغل عبقريته بهذه التوافه! او انها تقضي الساعات الطوال عاملة في هذا المتجر او ذاك المصنع تنتظر الزبون لتخدمه لان صاحب المتجر المترف صار بفضل ازدياد التنمية والانتاجية والتحضر اكبر من ان يقوم بهذا العمل كصاحب متجر ايام زمان، ايام الكسل والتخلف ونقص الانتاجية! او ان تراقب الالة التي تفهم عملها اكثر مما تفهمه العاملة وكل ما عليها هو ان تعيد الامر الى نصابه كلما تمردت الالة على هذا او ذاك من الاعمال. اما تربية الاولاد فهي رجعية وتخلف وما خلقت المرأة لتنجب الاولاد وتربيهم، وان انجبت فهناك الخادمات المستوردات! ايضا يقمن بهذه المهمة في العوائل الموسرة والا فالشوارع تقوم بهذه المهمة الرجعية! (مهمة تربية الاولاد). حتى ان الشاعر الذي قال:

ان الام مدرسة ان انت اعددتها   اعددت شعبا طيب الاعراق

لم يكن الا قصير النظر ولم يستطع استشراف المستقبل بما فيه من مظاهر حضارية ونهضة! اذ كان الاجدر به ان يقول ان الخادمة مدرسة ان انت استخدمتها اعددت شعبا مختلف الاعراق والشارع ينافسها بهذا وذاك من الاعداد والتعليم الراقي! هذا غير ان المرأة صارت اليوم بالاضافة الى هذه المشاركة في التنمية والتطوير الاجتماعي تحصل على راتب مجز! يصرف على المواصلات المستوردة والملابس الجاهزة المستوردة، والاطعمة الجاهزة المحفوظة او المجمدة المستوردة وغير ذلك مما يؤدي الى زيادة انفاق الاسرة وزيادة استهلاكها لكل ما هو مستورد فتساهم بذلك في اعالة الدول المتقدمة صاحبة هذه الصناعات الحضارية وزيادة ازدهارها وتقدمها. فهذه الدول هي في امس الحاجة الى ذلك الجهد الذي كانت المرأة تبذله في مهمة غير حضارية تقتصر على العناية ببيتها واسرتها وتربية

اطفالها من غير مردود مادي مجزي! مما جعلها عاطلة عن العمل، حتى صار كبار الاقتصاديين من مفكري النهضة! لا ينفكون يتساءلون، هل يمكن للمجتمع العربي ان يتقدم ونصفه عاطل عن العمل؟ -فها هو هذا النصف اليوم قد صار بحمد الله يعمل، ولكن ماذا سيفعلون بالنصف الآخر الذي كان يعمل وتعطل الآن؟

اما الفكر فقد كان هو الآخر متخلفا ورجعيا ينحصر في علوم اللغة والدين والتي هي علوم لا تحرك الة ولا تساوي شروى نقير[1]. اما الآن فحدث ولا حرج فاننا نجد هذا الشاعر التقدمي يكتب شعرا هو افضل من نسف الف قرية للعدو الذي يوسع رقعته على حساب ارضنا كل يوم اكثر فأكثر رغم هذا الهدم التقدمي لقراءه! وفلان الدكتور والاستاذ يكتب مقالة يسبق فيها الروس والامريكان في الوصول الى المريخ! هذا بالاضافة الى زملائه الكثيرين الذين غطوا الاسواق بتقنياتهم الفكرية والالية ومخترعاتهم الحديثة ولم يقتصروا على الكلام كمفكري عصر التخلف!!

اما في مجال الصحة (وهو المجال الوحيد الذي حصل فيه تقدم ملموس) فقد صار عندنا اطباء كبار ولكن نحن لا نصنع السماعة التي هي واحدة من ابسط اجهزة الفحص ولا نصنع الابرة التي تزرق الدواء في جسم المريض ولا نصنع الدواء الذي يصفه الطبيب، وحتى ما نستورده منه فلا يجرى له فحصا ولا تجرى عليه تجربة للتأكد من جدواه وانما يستخدم اعتمادا على ما سبقه من دعاية قامت بها الشركة المصنعة (او المرفقة به) وحتى بعد ان يثبت ضرره في الدول التي تصدره ويمنع استعماله فيها فان استخدامه يستمر عندنا بعد ذلك لفترة طويلة حتى ينفذ ما تبقى منه في مستودعات الشركات المصنعة! وعندنا ايضا مراكز بحوث كثيرة ومجهزة باحدث الاجهزة المستوردة! ولكنها لم تكتشف جرثومة ولا مصل للوقاية ولا علاج لمرض وانما الباحثون ينتظرون ليكتشف الغير فيصفقوا لهذا الاكتشاف ويسرفون في الدعاية له وفي استخدامه حتى قبل ان تثبت جدواه.

وهكذا، كان الناس في عصر التخلف تتوكل على الله وتؤمن بالقضاء والقدر ان

---

[1] انظر علي محافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب، ص ٢٠١.

عجزت عن دفعه اما الآن ومع النهضة الاجتماعية الشاملة، الفكرية والسياسية والاقتصادية والتربوية! فقد اصبح التوكل توكلا على الدول الاخرى (الكبرى) والايمان بقدراتها على تحرير ارضنا وحل مشكلاتنا السياسية والاقتصادية والتربوية!!

وبعد الاعتذار عن اللهجة التي جاءت رغما عني فالطير كما يقال في الامثال يرقص مذبوحا من الألم، اعود فاتساءل، هل هذا هو التقدم؟ وهل هذه هي النهضة؟ وان لم تكن هذه هي النهضة فأين هي النهضة ونحن لا ننفك نسمع باسمها واسم دعاتها النهضويون؟ فقد كانت هذه الامة في عصر التخلف تأكل مما تزرع وتلبس مما تغزل وتنسج وتستخدم من الادوات ما تصنع... وها هي الآن تعتمد في كل ذلك على ما يوفره الآخرون لها فكيف يمكن ان يكون من يجاهد ويستغني بعرقه وجهده عما في ايدي الآخرين متخلفا ومن يستجدي وهو خامل ومتكاسل، كل ذلك من الدول الطامعة، متقدما وناهضا؟

(يقيس العقاد رقي الافراد والمجتمعات... باحتمال التبعات) فكتب في الرسالة القديمة عام ١٩٤٣ يقول: (ومقاييس التقدم كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال: فلذا قسنا التقدم بالسعادة فقد تتاح السعادة للحقير ويحرمها العظيم. واذا قسناه بالغنى فقد يغنى الجاهل ويفتقر العالم. واذا قسناه بالعلم فقد تعلم الامة المضمحلة الشائخة وتجهل الامم الوثيقة الفتية. الا مقياس واحد لا يقع فيه الاختلاف والاختلال وهو مقياس المسؤولية واحتمال التبعة)[1]. فأين نحن من تحمل مسؤولية انفسنا واحتمال تبعتها؟! وبالتالي اين نحن من التقدم والنهضة؟

ويقول سيشلو فورتادوا ان التخلف هو (عبارة عن خلل في مستوى تنسيق العوامل... ويمنع... تحقيق استخدام رأس المال واليد العاملة استخداما كاملاً)[2]. فهل نسقت العوامل المادية والمعنوية والبشرية في بلادنا بشكل يحقق استخدامها

---

(١) انظر غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص ١٣٢.

(٢) النمو والتخلف ص ١٨٨.

استخداما كاملا ومتكاملا، يزيد من الانتاجية والتنمية فيحقق للامة نهضة وتقدم يمكن ان تدعيهما لنفسها؟!!

كانت هذه الامة في عهد التخلف! حتى قبيل ما سمي بالنهضة، امة واحدة، ومهما اختلفت فلا تتعدى خلافاتها القشرة الخارجية التي لا تصل الى جوهرها، فكيف تعتبر هذه الامة متخلفة وتعتبر الامة التي تفرقت الآن اشتاتا ومزقا وشراذم تستورد فكرة من هنا وفكرة من هناك وتعبد هذا الصنم او ذاك مما صنع الطامع الاوربي، امة متقدمة ويقظة وناهضة؟.

وقفت هذه الامة التي كانت في تخلف وسبات وبيات شتوي[١] في وجه الغزو الاوربي مئات السنين، وحتى قبيل النهضة هذه! (اذ وقفت في وجه نابيلون، باعث النهضة العربية كما يدعي بعض النهضويون، والذي استعصت عليه عكا وبلاد الشام وقاومه الشعب المصري فعاد خائبا) وخرجت من معاركها مرفوعة الراس عالية الجبين، لم تستجدي قوتا ولا سلاحا ولا حنت الهامات الشامخات للاحتلال والتصفيات تسجدي السلام او الاستسلام. فكيف يعتبر هذا سباتا وتأخرا وبياتا شتويا ويعتبر عهد الاستعمار بكل اشكاله والتبعية المزرية للاجنبي تقدما ونهضة؟!! فما هو التقدم وما هي النهضة؟

فهل التقدم او النهضة تعني استهلاك كذا الف من اجهزة الراديو وكذا الف من الفيديو ومثلها من التلفزيون؟ ام انها ادخال الكومبيوتر الى حياتنا ونحن لا نعجز فقط عن صنعه وانما حتى عن استخدامه بفاعلية؟ وهل التقدم يعني ادخال كذا الف (او حتى مليون) سيارة الى البلاد وتكسير كذا الف منها بالسنة وتبليط كذا الف من الكيلومترات لسير عظمتها؟ ما هي النهضة واين هي في بلادنا؟ نعم كان الحال متخلفا ولكن هل اصبح اليوم ناهضا؟

اين هي النهضة مرة اخرى؟! اذا كانت الازمة التي يعانيها الانسان العربي اليوم كما يؤكد البعض هي (خبرة الفشل والحبوط في المجال السياسي في التنمية

---

[١] كما يذكر الكواكبي وسعيد اسماعيل على التوالي.

الاقتصادية، في التغير الاجتماعي، في النشاط الدبلوماسي، في المجابهة العسكرية، في الحياة الانسانية الكريمة)[1].

ولنعرف اين النهضة لا بد ان نحدد ما هي النهضة التي نريد؟ فان كانت النهضة التي نريد هي تلك التي يريدها المؤمن بالله والتي تتمثل باعمار مادي ومعنوي متوازن لا اسراف فيه، ولا ترف فيه ولا سقم عقلي ولا فراغ روحي يحتويه، فاننا لن نجدها فيما حولنا. وانما نجد كل التخلف والانحطاط. وان كانت النهضة التي نريد تتمثل بالعزة وحفظ الكرامة والاعتماد على الذات في مواجهة الحياة وحل المشكلات وتوفير كل ما تحتاج الامة بتسخير كل ما خلق الله لنا من خيرات (وهي كثيرة بحمد الله) كما امرنا رب العالمين فاننا لن نجدها فيما حولنا. وان كانت النهضة تعني وحدة الشمل والتعاون والتكافل والسير بثقة وثبات نحو اهداف حددناها نحن لانفسنا ولامتنا، متعاونين متلاحمين كالبنيان المرصوص وكما امرنا رب العالمين فاننا لن نجدها فيما حولنا.

وحتى لو بحثنا عن النهضة بالمعيار المادي الصرف والذي يتمثل بتقدم في العلوم وتسارع في الاكتشافات وكثافة في التصنيع وتطور في الزراعة وحتى بغض النظر عما قد يرافق ذلك من شرور في غياب المعايير الالهية، فاننا لن نجدها من حولنا. وحتى ان اكتفينا من النهضة والنهوض بمجرد اللحاق بالركب الحضاري المعاصر فاننا لن نجدها من حولنا لان الركب يتقدم في السير ونحن نتأخر عنه كل يوم اكثر من الذي قبله.

ولكن ان كانت النهضة هي سطحية في التفكير وتشتت فيه، وقصر في النظر، وهدم للذات يقابله تعظيم للغير وتوكل عليه، وتهاون بالعزة والكرامة يرافقه استجداء الآخرين لكل ما نحتاج وما لا نحتاج لمواجهة الحياة وحل المشكلات، فان ما نعيشه اذا هو النهضة وان كانت النهضة تفرق كلمة الامة وتشتت جسمها، وصراعات على السلطة والتسلط، بين الحاكم والحاكم الآخر وبين الحاكم والمفكر وبين المفكر

---

[1] ندوة العقد العربي القادم: المستقبلات البديلة ص ١١.

والمفكر الآخر وتسخير الجميع للعامة من ابناء الامة في تحقيق مآربهم ومصالحهم الشخصية والتي هي ابعد ما تكون عن مصالح الامة الحقيقية، فان ما حولنا اذا هو النهضة. وان كانت النهضة هي مجموعة فجوات، بين الحاكم والمحكوم، وبين الحاكم والمفكر، وبين المفكر والمفكر الآخر وبين المفكر والعامة وبين الغني والفقير وبين المرأة والرجل وبين الزوج وزوجته وبين الاباء والابناء الخ... هذه الفجوات التي حلت محل علاقات المودة والرحمة والتكافل والحقوق والواجبات التي لكل فئة تجاه الأخرى فاذا ما نعيشه هو النهضة!

وخلاصة القول فان كانت النهضة هي استلاب لشخصية الامة ورفض لكل ما للامة من نظم وتقاليد واسلوب حياة واتباع اعمى لكل ما عند الدول المتقدمة، صاحبة الركب الحضاري، من فكر وقيم واسلوب حياة (مستثنين من ذلك العلوم والاكتشافات والصناعات) فهي اذا والعياذ بالله نهضة.

وان كانت النهضة هي ان نفكر كما يفكرون ونعيش كما يعيشون ونسرف كما يسرفون ونعمل عشر ما يعملون، ويتنظرون فنهلل ونصفق ونطبق، ويزرعون فنأكل ويصنعون فنلبس ونستخدم وباسراف اكبر من اسرافهم، ويلحنون فنطرب ويعزفون فنرقص ويمثلون فنشاهد ونستمتع! ثم نقتبس ونقلد كل ما هو متعارض مع قيمنا وتقاليدنا. وينظمون الشعر فننظم شعرهم بعربيتنا ويقصون القصص والروايات فنقص ونروي ونعالج موضوعاتهم بعربيتنا، يرسمون وينحتون فنقتني ونقلد برسامينا ونحاتينا الخ... فهي اذا مع كل الاسف (او كل البهجة والفرح) نهضة! وسواء اعتبرنا كل ما سبق هو نهضة عربية وتقدم ام غير ذلك! فان تساؤلاتي عن ما يسمى بالنهضة العربية تحددت بما يلي:

١- متى بدأت هذه النهضة العربية.؟

٢- ولماذا ارتبطت بدول اوربا والاستعمار؟

٣- وكيف حدثت وسارت بهذا المسار؟

٤- وما هي نتائجها؟

وبتحليل قراءاتي المختلفة، والتي كانت عامة ولم تصمم خصيصا لهذا العمـــل، من اجل الاجابة على هذه التساؤلات توصلت الى الاجابات التي ستعالجها الفصـــول القادمة.

الفصل الأول
النهضة العربية
متى؟ ولماذا؟ وكيف

ان كنا نقصد بالنهضة ذلك الشعور الذاتي بأن حال الأمة، وفق معيار معين، ليس كما يجب ان يكون، والعمل على اصلاح الخلل والنهوض بالامة للحال المطلوب، فان الامة لم تكن في يوم من الايام في سبات او قعود كما حاول ويحاول البعض تأكيده، كما لم تكن في يوم من الايام جامدة من غير حراك. فالامة، عبر العصور، ومنذ عهد سيدنا ابراهيم عليه السلام وحتى القرن التاسع عشرا كانت في حركة مستمرة للتغيير والتطور، منها تغييرات احدثتها الرسالات السماوية، ومنها ما حدث بارادة البشر من المصلحين والداعين الى الخير كما اختاره الله لهم. واذا اردنا من تارخ الامة تلك الفترة التي بدأت بالدعوة الاسلامية ونزول الرسالة على سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم فانها هي الاخرى شهدت من النكسات التي اعقبها نهضات ما لا حصر له، فما ان كانت تشيخ دولة اسلامية او تتخلف حتى تنهض اخرى تستلم منها زمام المسلمين وتقودهم الى حال افضل وعزة اكبر، معتمدة مقومات الامة ذاتها وعقيدتها الاسلامية. هذه العقيدة التي جعلتها تصمد امام هجمات الاعداء قرونا طويلة، وليس ذلك فقط بل انها حولت بعض هزائمها الى انتصار، كما حدث مع الغزات المغول المنتصرين، والذين تحولوا بفضل هذه العقيدة الى دعاة لها يذودون عنها. فمسألة السبات الذي اعقبته نهضة، لا اراها، كلما تأملت اكثر فأكثر في ما كانت عليه حال الامة بالامس وما صارت اليه اليوم، الا خرافة

لفقتها الدول الاجنبية الطامعة وتلقفتها افواه واقلام كتابها ومن ثم افواه واقلام دعاتـها من الكتاب العرب والمسلمين. اذ روج المؤرخون الغربيـون كمـا يؤكـد سـعيد اسماعيل، (ومن جاراهم من مؤرخي العرب الذين تتلمذوا عليهم فكرة... تتلخـص بان العالم العربي قبل الوجود الغربي، او قبل التحدي الغربي كان في سبات عميـق، حضاريا، تجمد في القرون الوسطى. وان اوضاعه السياسية والاجتماعية كانت على درجة عالية من الاستقرار نتيجة لتسلط سياسي واجتماعي لفئات معينة، وانـه بـدأ يتحرك ويتساءل ويحاول التغيير اثر صدمة القوة الغربية)[1]. كما جعل هؤلاء ايضاً (الحملة الفرنسية بداية لتاريخنا القومي... وبداية تحررنا من الاسـتعمار الـتركي، وخروجنا من القرون الوسطى...)[2]. وهكذا شاعت بين المفكرين العرب التـابعين للفكر الغربي، هذه الافكار التي تؤكد على السبات وعلى الصدمة وعلى ان النهضـة (او اليقظة او التنوير) بدأت كلها مع الثورة الفرنسية ودخول نابليون لمصر مسقطين من حسابهم تاريخا طويل من التغييرات ومحاولات التغيير التي حدثت عبر مسـيرة الامة وحتى قبيل نهضتهم هذه. فلا عاصر محمد بن عبدالوهـاب (١٧٠٣-١٧٩١) نابليون ولا تأثر بحملته او احتك بها. كما لم يعمل الشويكاني بوحـي مـن مبـادئ الثورة الفرنسية.وحتى ان كان هذا الادعاء يقوم علـى اسـاس الاحتكـاك باوربـا والتعرف على حضارتها ليس الا، فان الاحتكـاك والتعـارف بيـن الحضـارتين الاسلامية والاوربية لم ينقطع في أي وقت مضى ليوصله نابليون وحملته فالاحتـاك كان موجوداً طيلة القرون السابقة، من خلال الحملات الصليبية وحتى قبلـها ومـن خلال الحجاج الاوربيين، ومن حقيقة كون كل مـن الاندلـس وقـبرص ومالطـا واستنبول (بعد ذلك) ودول البلقان اجزاء من اوروبـا ازدهـرت فيـها الحضـارة الاسلامية. وتعايشت كلا الحضارتين مع بعضهما البعض، في فترات السلم ايضـا.

---

(١) انظر سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص ٣٦-٣٧.

(٢) ذات المصدر.

هذا غير ان الحملة الفرنسية اقتصرت على مصر وبعض المدن من بلاد الشـــام، اذ استعصت بقية بلاد الشام وبقية العالم العربي على نابليون، ولم يحقق احلامه في ان يكون كالاسكندر المقدوني او يحقق في غياب الصليب ما فشلت في تحقيقه الحملات الصليبية السابقة. وحتى في مصر نفسها لم يدم بقاء جيـــوش الاحتـــلال الا فـــترة قصيرة (١٧٩٨-١٨٠١) لم تنجح خلالها هذه الجيوش رغم وحشيتها وقسوتها فـــي (اضعاف ثقة المصري بنفسه او ثقة المسلم في سلامة عقيدته، واستمر المصريـــون يعتقدون بأن دينهم هو اكثر الاديان كمالا وبان لغتهم مقدسة لأنها لغة القرآن)[١] ولـم تبهرهم مظاهر المدنية الفرنسية بالرغم من اعجابهم ببعض ما رأوا منها (الا انهم لم يجدوا الا القليل مما يريدون تقليده او تعلمه)[٢] منها ولكن مما لا شك فيه ان الحملـة الفرنسية على مصر كانت الحد الفاصل بين اسلوب الحروب الصليبية التقليدية الذي يقوم على اعتماد القوة العسكرية لغزو الامة والقضاء على شـــخصيتها ومقوماتـــها وبين الاسلوب الحديث لتحقيق ذات الهدف من خلال الغزو الفكري لـــها اولا! فقـد كانت الحملة الفرنسية آخر الحملات العسكرية التي لم يسبقها تمهيد وترويض للامـة من خلال الفكر باسم العلم والمدنية والحرية والديمقراطية الخ...

اذ بعد فشل هذه الحملة في تحقيق اهدافها، اعاد الفرنســـيون بشـــكل خـــاص والاوربيون بشكل عام حساباتهم، فهاهم بالرغم من كل مدنيتهم وتفوقهم العســـكري والصناعي والثقافي الذي يفخرون به، وبالرغم من كل شعارات الثورة الفرنســـية! فشلوا في تحقيق اغراضهم من هذه الامة التي اعتبروها انذاك في منتهى التخلـــف والشيخوخة والضعف (بمعيارهم) فبدأوا في حصر مواقع القوة ومواقع الضعف فـــي الامة وحددوها جميعا من اجل العمل علـــى احـــداث تغيـــير مـــدروس ومخطـــط (لصالحهم) في مقومات الامة ذاتها لجعلها اقل مقاومة لغزوهم لـــها واكـــثر قبـــولاً

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ١٧٥-١٧٦.

(٢) ذات المصدر.

لسيطرتهم عليها. واحداث التغيير في مجتمع ما مهما اختلفت مراحله وعدد خطواته بالنسبة للباحثين المختلفين الا انهم يتفقون على انه يبدأ، بعد تحديد التغيير المطلوب، في التحفيز والتهيؤ واذابة الوضع الراهن. ولما كان الوضع الراهن (ما قبل التغيير) (هو نوع من التوازن بين قوتين، قوة مؤيدة للتغيير تعمل على دفعه وقوة رافضة تعمل على صده وعرقلته)[1] فان اذابة الوضع الراهن هي مرحلة تعني باضعاف قوى التوازن وذلك باضعاف القيم السائدة التي تسند وتدعم الوضع الراهن لتهيئة المجتمع (او النظام) لاستقبال التغيير وذلك لان (تفكيك العادات والممارسات والتقاليد يزيل العوائق ويجعل النظام منفتحا ومستعدا لتقبل البدائل الجديدة)[2].

اما المرحلة الثانية فتأتي بعد اذابة الوضع الراهن واثارة عدم الرضى عنه، اذ يبدأ التحرك نحو احداث التغيير الذي يتطلب اضعاف قوى المقاومة للتغيير وتقوية القوى الدافعة له، ويحدث ذلك كما يرى البعض باسلوبين: اما بعرض النموذج البديل لتقليده او بوضع الفرد او المجتمع في موقف يتطلب منه مهارات ومعارف واتجاهات جديدة بشكل يفرض عليه تغيير سلوكه ليتناسب والمتطلبات الجديدة[3]. وهذا ما فعلته الدول الاوربية، اذ هي استخدمت الاسلوبين معا، فهي من ناحية عرضت نموذجها البديل بشكل براق للاغراء بتبنيه وفي ذات الوقت عملت من

---

(١) فضل الله علي فضل الله: السلوك التنظيمي ص ١٥٠.

(٢) lehim, kimmo, Unesco 1979 p. 93.

(٣) لينظر القارئ كيف ان من اتهم بالسبات وبالتخلف وبالرجعية! فهم خطة العدو ولهذا دافع عن العادات والتقاليد وتمسك حتى بتلك التي لا علاقة لها بالعقيدة مثل لبس القبعة الذي قلم من اجلها جدل كبير وغير ذلك من العادات حتى لا تستسهل الامة التنازل فتتساهل في عقائد وقيم اكثر اهمية مما لا يجعل للتساهل والتنازل حدود يقف عندها، حتى تفقد الامة ذاتها وشخصيتها كما حدث بعد ذلك! ولينظر القارئ بالمقابل دور الناهضين!! المتنورين! الذي دعوا الى التنازلات وسهلوا امرها ولم يدركوا خطورة ما يدعون اليه وهم الصاحين!!

خلال حروبها واحتلالها على اظهار عجز حال الامة لتحفيزها على تغييره وتبنـــي هذا النموذج البراق.

والمرحلة الثالثة تأتي بعد احدث التغيير، وهي عملية تجميد التغيـــير وتثبيتـــه حتى لا يتراجع وذلك بتثبيت التغيير في نقطة التوازن الجديدة وعـــدم الســـماح لـــه بالتراجع او التلاشي مع الوقت، وهذا هو الدور الذي، كما يبدو يقوم به النـــهضويون في وقتنا الحاضر. ولكن لما بدأ الاوربيون مخططهم لاحداث التغير الذي يريـــدون في حال الامة وقعوا في اشكال ذي جانبين: فبما ان الوضع الراهن هو توازن بيـــن قوتين، قوة تريد التغيير وقوة تصده فمعنى هذا انه وبالرغم من الاستقرار الذي كـــان يسود انذاك، الا انه كان هناك من يريد تغيير الحال. ولكن هذا التغيير المطلوب من قبل هذه الفئة هو ليس التغيير الذي تريده الدول الاوربية بل العكس تماما. اذ ان هذه الفئة كانت تريد العودة اكثر فأكثر الى الاصول الاساسية للامـــــة، وهـــي العقيـــدة الاسلامية كدعوة محمد ابن عبدالوهاب التي كـــانت لا تـــزال مســـتمرة، ودعـــوة الشويكاني وغيرهم من المصلحين والدعاة المنتشرين هنا وهناك والذين كـــان قســـم منهم يرفض اقتباس الحضارة الاوربية التي كانت الدولة العثمانية (وبضغـــط مـــن اوربا في الغالب) قد اعتمدته في بعض تنظيماتها. وهذا النوع من التغيير لا يحقـــق مطامح الدول الاوربية بل يعرقلها. والجانب الآخر من الاشكالية نابع مـــن موقـــع الاوربيين كعوامل تغيير. فهم من خارج المجتمع (او النظام) ومرتـــاب بـــهم ولـــن يستطيعوا ان يؤثروا في هذه الفئة العاملة نحو التغيير حتى ان حاولوا ذلك، ولذلـــك كان لا بد من تجاهل وجود هذه الفئة تماما والادعاء بأن الاستقرار انذاك لـــم يكـــن نتيجة التوازن المذكور اعلاه وانما هو (نتيجة لتسلط سياســـي واجتمـــاعي لفئـــات معينة) كما مر ذكره اعلاه، وامعانا في تجاهل هذه الفئة والتقليل من شأنها من اجـــل شل حركتها واخلاء الساحة لفئة جديدة يعدونها لتحل محلها روجوا فكرتي الســـبات والصدمة على اساس ان الامة كانت قبل صدمها بالاوربي في سبات وهذه الصدمـــة

ايقظتها من سباتها. وانتقلت الفكرتين الاوربيتين الى دعاة النهضة من العرب المسلمين، اذ تقول آيلز، الاوربية، كان الغرب (يتقدم تقدما سريعا... في الوقت الذي ظل فيه الشرق مشلول الحركة لمئات السنين مقيدا بعوامل معوقة في نمطه العقلي[1] الخاص به فضلا عن ظروفه الخارجية. وكان الغرب يتطلع الى الشرق على اعتبار انه – متخلف– رجعي– غير مبدع– عاجز عن ان يحذو حذو الغرب في العصر الحديث. وعلى نمط هذا التقييم سارت الامبريالية السياسية الغربية وسار التقدير الذاتي المتعجرف لسياستها الثقافية... ولكن الشرق لم يكن الا في سبات...)[2] .

وقبلها اكد الكواكبي مسألة السبات هذه فقال: (ان مسألة تقهقر الاسلام بنت الف عام او اكثر... الى ان فاقتنا بعض الامم في العلوم والفنون المنورة للمدارك، فربت قوتها، فنشرت نفوذها على اكثر البلاد والعباد من مسلمين وغيرهم ولم يزل المسلمون في سباتهم الى ان استولى الشلل على كل اطراف جسم المملكة الاسلامية...)[3] .

وهكذا استمر نشر فكرة السبات هذه حتى صار دعاة النهضة من العرب يتفننون في انتقاء الكلمات التي تؤكد معنى السبات والقعود فمنهم من اعتبره شللا ومنهم من اعتبره بياتا شتويا اذ يقول: سعيد اسماعيل: (كانت نقطة البداية هي الشرارة التي انقدحت عند التقاء الثقافة العربية، بعد بيات شتوي دام نحو ثلاثمائة عام، بالثقافة الاوربية الحديثة)[4] . ومع الوقت ازداد هذا الوصف لحال الامة شدة

---

(١) انظر مسألة التخلف العقلي للعرب!!

(٢) الاسلام والعصر الحديث ص ١٩.

(٣) ام القرى ص ١٠-١١.

(٤) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص ١٧٤.

وبلاغة، كل يحاول جعله اكثر رومانتيكية حتى صار حالها قبل ان تواجه العصر الحديث (لا يرتقي عن مستوى العدم كثيرا)[١] .

وكما اكدوا على السبات والشلل الخ... اكدوا على مسألة الصدمة التي ايقظت الامة من هذا السبات، فنرى العقاد مثلا يؤكد على مسألة الصدمة بالعلوم الغربية ويرى ان معرفة الكواكبي لكثير من الكشوف العلمية في المسائل الكونية بالرغم من جهله بأية لغة أوربية (علامة قوية من علامات الصدمة التي احسها الشرق بعد هزيمته امام الغرب... (و) (علامة على اليقظة السريعة بعد تلك الصدمة الوجيعة...) وهو دليل على ان الشرق (تلقى الصدمة مفتوح العينين ليرى -وهو متنبه من غفوته- جهد ما يقدر ان يراه)[٢] . ويؤكد الدكتور محمد عابد الجابري مسألة (اصطدامنا بالنموذج الحضاري الغربي...) اذ اعتبر ان النهضة العربية الحديثة كانت (ومنذ البداية، وليدة الصدمة مع قوة خارجية ومهددة) هي قوة الغروب (وتوسعه الرأسمالي الاستعماري) ويرى انه سواء ربطنا بداية النهضة العربية بالثورة الفرنسية او بدخول نابليون مصر او بحركة جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وغيرهما فان في جميعها يدخل عنصر خارجي هو الغرب[٣] وان كنت اتفق معه في ان الغرب هو المحفز لما نراه حولنا من مظاهر وما درج على تسميته بالنهضة، الا انني لا ارى انها كانت نتيجة الصدمة بالحضارة الغربية. لأن الصدمة والاصطدام مصطلحين يحملان في طياتهما عنصري المفاجئة والعفوية. والتقاؤنا المؤثر هذا بالحضارة الغربية لم يكن كذلك وانما كان مخططا تخطيطا دقيقا (ومع سبق الاصرار) كما انه لم يحدث بصورة فجائية وقوية كما في الصدمة، وانما تسرب النموذج الأوربي بهدوء وانتظام الى جميع مجالات حياة الأمة العربية

---

(١) جريدة الرأي الاردنية ١٩٨٩/٢/١٥ مقالة بعنوان اوراق.

(٢) انظر العقاد: الكواكبي الرحالة ك ص ١٨٠.

(٣) انظر ندوة التراث وتحديات العصر ص ٣٣-٤١.

الاسلامية. فكما تقول آيلز (... بدأت الافكار الغربية تتغلغل، كما لو كانت بفعل الرشح، في الحضارات الشرقية، ولم يكن في استطاعة الافراد ولا الجماعات ولا النظم ان تتجنب الضغط المتزايد باستمرار من جانب الحكام الاجانب) الذين لم يكتفوا بادخال القوانين والتنظيمات السياسية الجديدة فحسب بل ادخلوا الاسس الاجتماعية والافكار الدينية والتربوية، والفلسفية)[١] ولم يكن الضغط وفرض التغيير مقتصرا على الحكام الاجانب بل لقد حذا الحكام الوطنيون السائرون في ركاب هؤلاء الاجانب حذوهم ايضا في الضغط وفرض الافكارالغربية!

كما لم يبدأ تسرب الفكر الاوربي مع بدء الاحتلال الاجنبي للبلاد كما تؤكد آيلز اعلاه وكما يرى البعض، وانما سبقه بعشرات السنين، اذ تسرب من خلال خطة محكمة للتغيير وبواسطة الكوادر التي اعدتها الدول الاوربية من خلال مؤسساتها المختلفة لتحمل راية الفكر الاوربي وتعمل على تسريبه ونشره وجمع المؤيدين له، مما مهد بعد ذلك للاحتلال العسكري والحكم الاجنبي. فالتغيير ومنذ اول مرحلة اذابة الوضع الراهن يتطلب كوادر بشرية تعمل على اثارة عدم الرضى عن الوضع الراهن وجمع المؤيدين لها وللوضع البديل، وتكوين مجموعات تنفيذية منهم، تعمل على احداث هذا التغيير عندما تسنح الفرصة...[٢] وتعمل على ادامته بعد ذلك. ولاحداث التغيير المخطط ايضا (لا بد من وجود ضغط على القاعدة لقبول التغيير وضغط على القمة لاحداث التغيير كما يحتاج التغيير المخطط الى مجموعتين (من الناس) مجموعة تعمل بالضغط من داخل المجتمع بالخفاء، ومجموعة تضغط من الخارج بالعلن. وعندما يكون هذان النوعان من الداعين حلفاء فان التغيير يكون اسهل واسرع وموجها بشكل افضل...[٣] ولما كان الاوربيون

---

(١) الاسلام والعصر الحديث ص٢٠

(٢) Schaller: The change agent 1972, p.89-120.

(٣) opt. cit- p. 82-83

غرباء ومرفوضين من دعاة التغيير الاسلاميين المتواجدين في داخل النظام فهم لا يستطيعون العمل كقوة ضاغطة من الداخل، لا على القاعدة ولا على القمة، ولكنهم يستطيعون العمل كقوة ضاغطة من خارج النظام، مستخدمين قناصلهم، واصحاب المصالح التجارية الاجنبية والعاملين الاجانب الذين استطاعوا بثهم هنا وهناك في انحاء مختلفة من البلاد، وهذا وحده لن يجدي في احداث التغيير الا بالقوة العسكرية. وهذه قد اثبتت التجارب عدم جدواها، اذا لا بد من وجود دعاة وعاملين من العرب والمسلمين انفسهم يتعاطفون مع الفكر الاوربي ومع مخططات الدول الاوربية ليعملوا كقوة ضاغطة تعمل من داخل النظام من اجل الضغط على القاعدة لقبول التغيير والضغط على القمة لاحداث التغيير. فبدأت الدول الاوربية (مجتمعة تارة، ومتفرقة تارة اخرى) في اعداد الكوادر اللازمة هذه لاحداث ما تريد من تغيير وتحقيق اهدافها منه. وقبل التطرق الى ماهية الوسائل التي اعتمدتها اوربا في اعداد هذه الكوادر لا بد من التعرف على هدف الدول الاوربية من احداث هذا التغيير في فكر الامة. واحلال فكرها محله.

هدف اوربا

ان كانت الدول الاوربية قد البست الحروب الصليبية الاولى ثوب الدين لتخفي مطامعها السياسية والاستعمارية فانها منذ نهاية القرن الثامن عشر (والقرن التاسع عشر وحتى اوائل القرن العشرين) قد البست غزوها وحروبها ثوب العلم والمدنية والتحرير من العبودية!! وقد غررت بذلك الكثيرين، فاخذوا منها شعاراتها يرفعونها عاليا وينشرونها بين افراد الامة ويتعصبون لها من غير تدقيق بما يراد لهذه الامة، فالطهطاوي مثلا (لم يعتقد ان هناك معنى للقول بأن اوربا خطر سياسي، ذلك ان فرنسا واوربا لم تسعيا، في نظره، وراء القوة السياسية والتوسع بل وراء العلم

والتقدم المادي...)[1]. وكذلك كان راي خيري الدين التونسي وغيره كثيرون، رغم احتلال الدول الاوربية لاجزاء كثيرة من البلاد مثل الجزائر وتونس ومصر وبعدها بقية العالم العربي! ورغم تصريحات بعض الاوربيون واعلانهم بشكل مباشر او غير مباشر عن اهدافهم من نشر فكرهم واحتلالهم للبلاد. فعند احتلال تونس مثلا عام ١٨٨١ القى (جول فيري) رئيس وزراء فرنسا خطابا امام البرلمان يبرر فيه الاحتلال وبعد (ان شرح الاسباب الاقتصادية كترويج التجارة وايجاد اليد العاملة...) تعرض للاسباب السياسية واكد على اهمية الاستعمار فقال: ان (الدول اليوم تستمد قوتها من مستعمراتها) وختم خطابه بقوله: ان ارادت فرنسا لنفسها كلمة مسموعة وتأثيرا حيا في مصير الدول الاوربية فما عليها الا ان تنشر لغتها وعوائدها في أي قطر حلت به، وان ترفع رايتها مرفوعة على روابيه، وان تحمل اليه اسلحتها، وتلقنه عبقريتها)[2] .

واكد هانوتوا رغبة بلاده في تحقيق السيطرة على البلاد الاسلامية اذ قال متفاخرا: (ان شعبا جمهوري المبادئ يبلغ عدد نفوسه اربعين مليونا... هو الذي تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث ان ينمو حتى يساويه في العدد... هو الشعب الاسلامي السامي الاصل الذي يحمل اليه الشعب المسيحي الجمهوري الآن ملح المدينة وروحها...)[3] .

اذا كانت الدول القومية الاوربية اشد حرصا على اخضاع اكبر قدر من بلدان العالم لسيطرتهم الاستعمارية ممن سبقهم من انظمة حكم، لا من اجل تحقيق اغراضهم السياسية والاقتصادية والثقافية على اهميتها واولويتها بالنسبة لهم، وانما ايضا ليؤكدوا للعامة عندهم، والتي كانت في غالبيتها تتعاطف مع الكنيسة وانظمة

---

(١) انظر البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ١٠١.

(٢) محمد مزالي: درسات ص ٣٠.

(٣) محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث ص ٣-٥.

الحكم التابعة لها والتي قوضتها الانظمة القومية، فشل الكنيسة التي قادت الحـــروب الصليبية وعجزها في امور السياسة، وعلى انهم بخروجهم على الكنيسة قد اصبحوا اكثر قوة وحققوا في سنوات ما لم تحققه الكنيسة في قرون ولذلك فانهم كانوا محقين في فصل الدولة عن الكنيسة. اذ نجد هانوتوا مثل يقول: (في تلك البقعة الافريقيـــة التي اصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته. جاء لويـــس الـــذي ينتمي الى اسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال في مصر وتونس. وتلاه لويس الرابـع عشر في تهديده الامارات الافريقية الاسلامية وعاود نابليون الاول. فلم يوفق الـــى تحقيقه الفرنسيون الا في القرن التاسع عشر حيث اخنو على دولة الاسلام... اذ قـــد صارت فرنسا بكل مكان في صلة مع الاسلام بل صارت في صدر الاسلام وكبـــده حيث فتحت اراضيه واخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الاولين. وهي تدبر اليوم شؤونه وتجبي ضرائبه وتحشد شبابه لخدمة الجندية... يذبون عنـها في موقف الطعان ومواطن القتال...)[1].

وان كان الاسلام هو الهدف الذي صوب الاستعمار الاوربي عليه كل ســـهامه فليس ذلك على اساس من عقيدتهم المسيحية، اذ انهم كانوا قد تخلوا عنـــا (او هكـذا ادعوا او خيل لهم!) ففي القرن التاسع عشر كانت العلمانية قـــد انتشـــرت بينـــهم، وانزوت المسيحية كدين في الكنائس وقلوب المؤمنين بها. وانمـــا كـــان ذلـــك لأن الاسلام هو، كما علمتهم تجارب الماضي القوة الكامنـــة وراء مقاومـــة المســـلمين لغزوهم. وهو الكلمة الجامعة لهم على كل عدو وهو بالتالي كفكر وكنظـــام للحيـــاة الحائل بينهم وبين تحقيق سيطرة وسيادة حضارتهم، ولذلك قال هنوتوا محذرا مـــن الاسلام: (ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة بها يديرون اعمالهم ويوجهون افكارهم الى الوجهة التي يبتغونها وهذه الرابطة تشـــبه الســـبب

---

[1] ذات المصدر

المتين الذي تتصل به الاشياء، تتحرك بحركته وتسكن بسكونه...)[1]. وحذر الفرنسيين المحتلين تونس والجزائر من خطر الاسلام عليهم كمحتلين فقال: (لا تظنوا ان هذا الاسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا -في تونس والجزائر- ولا علاقة له به... ان جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح وفي افكار المقهورين الذين اتعبتهم النكبات التي حاقت بهم ولكن لم تثبط هممهم. نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة. ولكن رابطة الاخاء الجامعة لافراد العالم الاسلامي باسره كافلة بالرياسة)[2].

وان كان هذا في نفس الوقت لا يعني خلو الزحف الاوربي تماما من مشاعر العداء الديني التي تظهر هنا وهناك بفعل ما تراكم في نفوسهم من حقد تربوا عليه. وثأر لهزائمهم اثناء الحروب الصليبية مما جعل المستشرق النمساوي ليوبولد فابس الذي اسلم وتسمى بـ (محمد اسعد) يقول: (لا نجد موقف الاوربي تجاه الاسلام موقف كره من غير مبالاة فحسب، كما هي الحال في موقفه من سائر الاديان والثقافات، عدا الاسلام، بل هو كره عميق الجذور... الكره ليس عقليا فقط ولكنه ايضا يصطبغ بصبغة عاطفية قوية...) اذ هو يقف بالنسبة لجميع الاديان موقفا (عقليا متزنا ومبنيا على التفكير. الا انها حالما تتجه الى الاسلام يختل التوازن، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب...)[3]. فقد كان واضحا انذاك كما اصبح من الواضح الآن ان الدول الاوربية لم تبغي من زحفها وهجمتها على الامة العربية والاسلامية تحقيق سيطرة سياسية اواقتصادية محدودة او احتلال عسكري محدود والا ما كانت صبت جل جهودها على تغيير قيم وعقائد وعادات وتقاليد الخ... الامة. وانما الهدف النهائي الذي توجهت كل جهودها نحوه هو فرض سيطرة

---

(1) ذات المصدر

(2) ذات المصدر

(3) ذات المصدر ص ١٧٦-١٧٧

حضارية على الامة (والعالم اجمع) لتسود فيها حضارتها ولتحقق بذلك تبعية الامة لها تبعية لا فكاك منها. ولم يكن الاحتلال العسكري الذي درج على تسميته بالاستعمار الا مرحلة في اتجاه تحقيق هذه السيطرة. ولهذا انتهى وجوده في معظم انحاء العالم العربي (وانحاء العالم الاخرى) في فترات متقاربة بعد ان انهى مهمته هذه وحقق تبعية الشعوب المستعمرة له فأصبح الوجود العسكري غير ذي بال. فخرج من البلاد مانحا الشعوب المستعمرة شعورا وهميا بالفخر والاعتزاز بقدرتها (الجديدة بعد ان تغربت) على تحقيق الاستقلال واجلاء المستعمر، معطيا للاتجاه التغريبي المتمثل بتلامذته ودعاته الذين اعدهم لتحمل المسؤولية بعده، الفرصة لكي يظهروا بمظهر ابطال الوطنية والجلاء والاستقلال، ينفذون سياساته التي رسمها لهم باسم المدنية والتحديث والتحضر، تحت سمع الشعوب وبصرها وبمباركة منها في بعض الاحيان! لأنهم حققوا لها الاستقلال! مع ان الاستعمار الحقيقي يعشعش في كل مكان من بلادهم ويصبغ كل مظاهر الحياة بصبغته، وهو الامر الذي اكده كثير من المفكرين ومنهم مانفريد شتاوفنبيرغ، استاذ العلوم بجامعة هايدلبيرغ في المانيا الاتحادية الذي قال في كتابه نمو التخلف: (ان معظم علماء السياسة والاقتصاد الغربيين يخلطون عمدا بين النظام الاستعماري والاستعمار ليوهموا الناس، وبخاصة السذج منهم -بانه ما دام النظام الاستعماري قد قضي عليه، فقد انتهى الاستعمار، في حين ان الواقع يؤكد ان هذا النظام الاستعماري قد تحول الى استعمار جديد يفرض رقابة غير مباشرة اكثر تعقيدا على الدول المستعمرة (بفتح الميم) سابقا)[١] وقد اكد مؤخرا تقرير اليونسكو عن المشكلات العالمية، موضحا هدف اوربا من الاستعمار بعض الشيء، ان (نظريات التحديث كانت ومنذ البداية، مبنية على الاعتقاد بأن الغرب سينجح في نشر نظامه الاقتصادي وتقنيته وقيمه على العالم. فاعتبرت التنمية الامبريالية على المستوى الوطني عملية كمية مستمرة. وعلى

---

[١] منتدى العدد ٢٣ المجلد ٣ حزيران/يونيو/ ١٩٨٨.

اساس من هذا الاطار المفاهيمي الذي ينظر به الى تحديث الدول النامية يتوقع من هذه الدول ان تتحول الى دول امبريالية حديثة تسير فيها التغييرات الاقتصادية يدا بيد مع تغييرات اجتماعية وقيمية وسياسية اساسية. ولذلك يربط منظروا التحديث، التنمية الامبريالية بتبني النموذج الغربي الديمقراطي... وبعد ان ظهرت النظريات الماركسية والاشتراكية على المسرح اصبح الجدل بين متنظري التنمية... ايجب الاستمرار على متابعة طريق التنمية الامبريالية ام استبدالها بالاشتراكية؟)[١] .

فحتى نهاية القرن الماضي كان النموذج الرأسمالي الديمقراطي هو المهيمن على الساحة العالمية، حتى ظهرت الاشتراكية في نهاية القرن الماضي واوائل هذا القرن لتنافسه على هذه الهيمنة فبدأ الصراع والتسابق بينهما، حتى يومنا هذا، كل يريد فرض سيطرته على العالم.

ولما كان الهدف النهائي لاصحاب الحضارة الاوربية هو تحقيق سيطرة تامة وحاسمة على اصحاب الحضارات الاخرى فقد كان لا بد لدول اوروبا (اصحاب الحضارة) من ازالة العوائق المتمثلة بالاسس الحضارية السائدة في الامم المطلوب غزوها (حضاريا) واقناع هذه الامم (بأن عصر حضارتها انتهى وان علمها بلى ومات ولا رجعة له، ولم يعد يتوافق مع الزمن الجديد المختلف، المتميز والمبتكر مما لا يبقي مجالا للتوفيق وما على الشعوب الا ان تقبل بهذا الواقع...)[٢] .

ولما كانت الحضارة الاسلامية هي السائدة في البلاد العربية. والاسلام هو دين الامة، ومن اسسه اشتقت جميع انظمتها وصبغته قد صبغت كل مظاهر حياتها فقد مثل الاسلام عائقا امام نشر حضارتهم لا بد من ازالته، فانصب الهجوم الاوربي على الاسلام كدين وكنظام حياة. ولما كانت الحضارة الاوربية كما روجوا لها تقوم اساسا على العلوم والتقنيات فقد روجوا الادعاء بأن الاسلام والعلم لا يتفقان ولذلك

---

(١) Unesco: Report 1984-1985 p. 4-5.

(٢) نزار عبداللطيف الحديثي: الامة العربية والتحديات ص ٥١-٥٢.

لا بد ان يتخلى الاسلام كليا او جزئيا، على الاقل عن مكانته في حياة الامـــة لـــهذه العلوم والتقنيات. كما روجوا في ذات الوقت على ان تخلف المسلمين هـــو بســبب تخلف القيم والمبادئ الاسلامية التي تعتمد الجبرية واذلال الانسان وطمس شخصيته وتقييد نشاطه. ولتأكيد عجز الاسلام عن بناء عقلية مبدعـــة، فقــد نســبوا اعمــال المسلمين الاوائل الى الرومان والاغريق واعتبروا المسلمين مجرد وسائط نقل نقلت عن المفكرين الاغريق والرومان القدماء. وحتى ابن خلدون، الــذي اقتبســوا منــه ودرسوه في جامعاتهم لا يمكن في نظرهم ان يكون شرقي العقلية اذ يقــول غوتيــه (ان التفكير المبدع هو من خصائص العقلية الاوربية، وان العقلية الاسلامية عــاجزة من هذه الناحية، ولا بد اذن من ان نفترض ان نفخة من النهضة الاوربية قد خرقت النطاق المحكم المحيط بالشـــرق الاســلامي فوصلــت الــى روح ابــن خلــدون الشرقيـــة)[1] .

ورغم ان الاسلام دين وعقيدة تحكم سلوك المسلم في كل زمان ومكان وليـــس تاريخا قديما مضى وانقضى عهده. بل هو جديد في قلب المؤمن بــه كــل الجــدة، حاضر في حياته ما دام هناك حياة تنبض في عروقه، تحكم احكامه جميع منـــاحي حياته وسلوكه، بحسب فهمه لهذه الاحكام وان حدث الخلل في ذلك فهو خلل ليس له اصل في الاحكام ذاتها وانما هو نابع عن خلل فـــي فهمـــه لـــهذه الاحكـــام. الا ان الاوربيين حاولوا اعتباره تاريخا قديما انتهى عهده، وتراثا ثقيلا لـــم يعــد يناســب العصر ولا تستقيم حياة المسلم كما ادعوا، الا ان تخلى عنه كأي مـــن الموروثـــات الاخرى التي انقضى عهدها. فعلى سبيل المثال لا الحصر الذي يعجز عنـــه هـــذا المجال، فقد انتقد كرومر الاسلام في كتابه –مصر الحديثة– واعتـــبره قـــــد (–اخفق كنظام– ملقيا اللوم في ذلك على وضع المرأة المنحط[2] والقبـــول بـــالرق،

---

(1) علي الوردي: منطق ابن خلدون ص ١١٣.

(2) قد مر ذكر حال المرأة في بلادهم.

وتصلب الشريعة، وضيق الايمان... ولم يرى من علاج لكل ذلك الا بترك الدين) لانه في نظره نظام ميت لا محال وغير (قابل للحياة ولا يمكن وقف انحلاله باي مخدر من المخدرات الحديثة، مهما استعملت بمهارة)[1] .

ولم يسلم الرسول ﷺ من نقدهم وتجريحهم باعتباره ليس نبيا ولا مرسلا وانما مدعيا للنبوة من اجل تحقيق اغراض سياسية تساعده على حكم العرب. مع انهم وفي ذات الوقت ادعوا ان محمد ﷺ لم يقم دولة ولم تكن له الا سلطة سياسية بسيطة تخدم اغراضا دينية بحته لتبرير فصل الدين عن الدولة، وهو المفهوم الذي اقتبسه علي عبدالرازق ونشره في كتاب الاسلام واصول الحكم. ومن اجل تفريق كلمة الامة ادعوا ان الدين الاسلامي هو مجرد عبادة تنظم العلاقة بين الانسان وربه (وما على المثقفين الا ان يبحثوا عن ذواتهم الخاصة المستمدة من بيئاتهم فالمصري له بيئة فرعونية والسوري له بيئة فينيقية... والوطن العربي ليس وطنا واحدا لشعب واحد فالعراق كان جنوبه يوما للكلدانيين وشماله للاشوريين والشام للفينيقيين والعبرانيين ومصر للفراعنة الخ...)[2] وان كانت قد قامت دولة اسلامية في يوم ما فانها لم تقم على الاسلام وانما على الانظمة ومظاهر الحضارات الاخرى التي وجدوها في البلاد التي فتحوها كالرومانية والفارسية. ولم يكتفوا بهدم الذات العربية الاسلامية بهذا الشكل وزعزعة ثقة ضعاف الايمان من المسلمين بدينهم بل انهم قبل ذلك شوهوا الاسلام في نظر الاوربيين ذاتهم واستعدوهم عليه ليحاربوه بكل قوتهم على اعتبار انه (دين خلط الحق بالباطل وحتى هذا الحق فقد دس فيه السم الكفيل بافساده) وانه دين العنف والسيف ولم ينتشر الا بالقوة العسكرية... وبالتالي فالواجب اعتبار المسلمين كفرة)[3] ومحاربتهم على هذا الاساس.

---

(1) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ٣٠٠.

(2) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات، ص ١٣٨-١٣٩.

(3) مونتجومري وات: فضل الاسلام ص ١١١-١١٢.

وقد فسر مونتجومري وات هجوم اوربا على الدين الاسلامي بهذا الشكل بأنه كان ناتجا عن شعورها بالنقص عن مواجهتها للحضارة الاسلامية التي كانت متقدمة عليها في جوانب متعددة فالتكنولوجيا الاسلامية كانت متقدمة عن التكنولوجيا الاوربية في كثير من الميادين... ومن الناحية العسكرية كان المسلمون اكثر تقدما ويثيرون خوف اعدائهم، وان كان فرسان النورمانديين قد اثبتوا قدرتهم على مواجهة المسلمين الا ان سعة اراضي الدولة الاسلامية -المهولة- وقفت في طريقهم اذ كانت (اكبر القارات الثلاثة المعروفة وهي اسيا... بأسرها تقريبا بيد المسلمين وكذا معظم افريقية فقد كان ثلثي العالم المعروف انذاك مسلمون، واي مسيحي اتصل بالمسلمين، اقلقه احساسهم الثابت الذي لا يتزعزع بتفوقهم وفضلهم على غيرهم... فكان تشويه الاوربيين لصورة الاسلام ضروريا لتعويضهم عن احساسهم بالنقص)[١].

وقد اكد لوبون هذا المعنى عندما قال ان اتباع محمد كانوا اشد من عرفته اوربا من الاعداء صرامة فهم (عندما كانوا لا يرعدوننا بأسلحتهم، كما في زمن شارل مارتل والحروب الصليبية، او يهددون اوربة بعد فتح القسطنطينية، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة، واننا لم نتحرر من نفوذهم الا بالامس). ويؤكد على ان هذا هو سبب الهجمة على الاسلام بغير حق اذ يقول: (تراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الاسلام والمسلمين في قرون كثيرة وصارت جزاء ومن مزاجنا واضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفي احيانا والعميق دائما) ويرى ان ما زاد من هذا الحقد هو ثقافتهم المدرسية التي كانت تجحد تأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة اوربا وتعتبر اليونان واللاتين وحدهم منابع العلوم والآداب) مع (انه كان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم في العالم...)[٢] ويفسر

---

(١) مونتجومري وات: فضل الاسلام ص ١١١-١١٢.

(٢) لوبون: حضارة العرب ص ٥٧٧-٥٧٨.

الهجمة على الحضارة الاسلامية وانكار فضلها بأن الاوربيين ليسوا (احرار الفكر في بعض الموضوعات ويقول ان المرء عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الاجداد وكانت خلاصة لماضي طويل، والشخصية غير الشاعرة وحدها، ووحدها فقط، هي التي تتكلم عند اكثر الناس وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماة باسماء مختلفة، وتملي عليهم اراءهم، فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حرا في الظاهر فيحترم)[1] .

وهكذا نجد ان هذا التشويه المتعمد لحقيقة الاسلام وجد في اوربا ذاتها من حاول تفسيره وعمل على دحضه، ايضا، فنجد ان كلود كاهن يدحض الفكرة القائلة بأن الاسلام في طبيعته يناهض كل تقدم اقتصادي واعتبرها (خطأ مبين، لأن الاسلام يعتبر العالم بأسره مسخرا للانسان من قبل المولى تعالى فكان من الطبيعي ان يفيد منه فائدة لا اسراف فيها مع مراعاة افضلية الفرائض المتوجبة عليه تجاه خالقه...) واكد على ان السعي من الواجبات التي فرضها الاسلام على الانسان على ان لا يكون هناك اسراف فيه يؤدي الى مساوئ اخلاقية فقال: (ان السعي بحد ذاته ليس شرا بل واجب الانسان)[2] . وقد استشهد على ذلك بأن الرسول نفسه قد عمل بالتجارة. ودحض لوبون (الرأي القائل ان دين محمد هو السبب لما يشاهد في بعض امم الشرق من انحطاط) واعتبره فاسداً وقال ان مصدر هذا الرأي الفاسد هو ما يشاع عن مبدأ (تعدد الزوجات وما زعم من ان جبريته تحمل على الكسل، وما اذيع من ان محمدا لا يطالب اتباعه بغير الشعائر السهلة...) وبعد ان فند هذه المزاعم قال لو ان القرآن (كان عاملا في انحطاط مسلمي الشرق لوجب ان يتفلت من ذلك الانحطاط الشرقيون الذين لا يقولون بمبدأ تعدد الزوجات ولا يبدون جبريين

---

(١) ذات المصدر.

(٢) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ١٣٥.

كنصارى سورية، ونصارى سورية، كما اجمع كل من بحث في امور الشرق احط اخلاقا من المسلمين بدرجات)[1] . اما عن علاقة الاسلام بالعلم فقد قال ان (الاسلام من اكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم ومن اعظمها تهذيبا للنفوس وحملا على العدل والاحسان والتسامح...)[2] . كما دحض لوبون فكرة انتشار الاسلام قسرا، بقوة السيف وقال ان انتشار الاسلام على رقعة واسعة من العالم تم بحكمة خلفاء المسلمين الذين ادركوا بما كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، ان النظم والاديان ليست مما يفرض قسرا) ولهذا فقد عاملوا شعوب الدول المفتوحة بالاحسان، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة)[3] .

ولكن، وعلى الرغم من ان الاسلام لم يعدم من حاول اظهار حقيقته في اوربا ذاتها الا ان دعاة الحضارة الاوربية من العرب والمسلمين، تلقفوا التشويهات والتلفيقات التي اشاعها الاستعمار لتحقيق اغراضه وبدأوا في نشرها وتأكيدها ودعوا الى اتباع الحضارة الاوربية بكل ما فيها من علمانية وفصل للدين عن الدول والحياة كما سيأتي ذكره لعجز الاسلام في نظرهم عن حل المشكلات السياسية والاقتصادية الخ... وبرروا ذلك بذات تبريرات اوربا متبعين نموذجها من غير قيد او شرط. وتناقلوا افكارها عن الاسلام ونشروها وعملوا بقصد او من غير قصد (الله اعلم) وفق خطة متكاملة ساهمت في اذابة الوضع الراهن وازالة العوائق امام اقتباس الحضارة الاوربية رغم ان هدف دول اوربا في تحقيق سيطرتها الحضارية على الامة من خلال هذا الاقتباس لم يكن غائبا عن الاذهان، وقد حذر منه الكثيرون من المسلمين، ولا زالوا يحذرون، ومنهم محمد حسين هيكل الذي حدد اهداف التغريب

---

(١) لوبون: حضارة العرب ص ٤٣١.

(٢) ذات المصدر ص ١٢٦.

(٣) لوبون: حضارة العرب ص ٦٠٥.

وجعل منها هدفه في ان يصبح المسلمون (عيالا على الغرب يتطلعون اليه في اعجاب وتقديس ويرون في خضوعهم له شرفا كبيرا...)[1]. ومنهم ايضا محمد مزالي (من المعاصرين)، الذي قال: (ان الاستعمار كان منذ عشرات السنين يهدف قبل كل شيء الى القضاء على ذاتيتنا، انه لم يقنع بالهيمنة السياسية ولا اقتصر على امتصاص ثرواتنا الاقتصادية والفلاحية، بل كان يعمل على تمييع الشخصية القومية ومحو مقوماتها...) واول ما تصدى له لتحقيق ذلك هو (مقومات الامة الاساسية، وفي مقدمتها الدين والروحانيات بصفة عامة واللغة والتاريخ مما نتج عنه التنكر للذات والزيغ عن القومية)[2].

ولكن اذابة الوضع الراهن بتفكيك القيم والعادات والتقاليد وهدمها لازالة العوائق امام نشر الحضارة الاوربية والذي تطلب التقليل من شأن الاسلام وشل فاعليته لا يمكن ان يكون عملا عشوائيا مبعثر الجهود هنا وهناك في قول فلان من المستشرقين وعلان من المسلمين او المسيحيين المتاوربين، وعلى مراكز غير محدودة من النظام الاسلامي. فلا بد، ليأتي الهدم ثماره ان يكون موجها على المراكز الاسلامية المؤثرة، كما يهاجم العسكر على قواعد العدو ومراكز قياداته وليس حوله هنا وهناك. فأي المراكز اختار الاوربيون الغزاة اهدافا لهجومهم؟ ليشلوا فاعلية العقيدة الاسلامية فتتراجع كاسس حضارية فتحل اسسهم الحضارية مكانها في تنظيم حياة الامة؟ لقد استهدف الاوربيون ما يلي:-

١- النظم الاجتماعية الاسلامية سواء كانت سياسية او اقتصادية او تربوية الخ...

فهي كلها، بالاضافة لكل العلاقات الانسانية الاخرى، متخلفة ورجعية ولا بد من استبدالها بما عند اوربا. ففي السياسة: ان نظام الشورى تخلف ورجعية، وهو نظام بدائي لا يصلح كنظام لدولة عصرية. والعلاقة بين الحاكم والمحكوم وما تبنى عليه

---

(١) انظر فهمي جدعان: اسس التقدم ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٢) مواقف ص ١٨-١٩.

من مسؤولية كل واحد منهم تجاه الآخر، من كلفة الحاكم ورحمته بالمحكوم وطاعة الاخير ونصحه للحاكم الخ... هي تخلف يساعد على الاستبداد والظلم متناسين ان الاستبداد والظلم الخ- هي اخلاق قد يمارسها خليفة مسلم لا يفهم اسلامه وحاكم علماني متحرر! ثائر! كنابليون وهتلر ولينين وستالين وغيرهم ممن لم تعصمهم علمانيتهم وتحررهم وثوريتهم عن الاستبداد وايقاع الظلم بالرعية. والخلافة ووحدة السلطان، ووحدة الامر المؤكد عليها حتى في النظريات الحديثة في الادارة والقيادة، هي الاخرى قيم متخلفة واحتكار للسلطة لا يصلح كنظام حكم عصري، وتعدد الحكام والبرلمانات والدساتير على نسق الدساتير الاوربية هو البديل. خاصة وان الدولة الاسلامية اينما كانت ومتى قامت لا تكون اسلامية الا اذا كان دستورها مستمدا من القرآن الكريم فالدستور ما هو الا مجموعة المسلمات والاسس التي تحدد السلوك الانساني بنظمه وعلاقاته وممارساته في المجتمع المعين. والدولة الاسلامية لا تكون اسلامية الا اذا استمدت الاسس للنظم والعلاقات والممارسات الانسانية السائدة فيها من القرآن الكريم. فتأكيد الاوربيين على ضرورة وضع دستور للبلاد سواء في الدولة العثمانية او في ايران او في مصر او في البلاد الاخرى بعد ذلك على نسق دساتيرهم او مشتق منها لم يكن الا طريقة لئيمة لفصل الدين الاسلامي عن الدولة وعن حياة الامة لاحلال نظمهم وعلاقاتهم محل النظم والعلاقات المستنبطة من الدين الاسلامي. والقرآن الكريم. ومع ذلك فقد صفق دعاة الحضارة الاوربية لهذه الدعوة، عن قصد او غير قصد، الله اعلم، وتبنوها وكان على رأسهم الافغاني الذي اختلف مع السلطان عبد الحميد من اجل هذا الدستور وهاجم خديوي مصر من اجله، وعادى شاه ايران وحرض على قتله من اجل الدستور ايضا كما يدعي تلامذته.

اما في الاقتصاد، فان النظام الاقتصادي العصري لا يمكن ان يعتمد على الزكاة والصدقة والى آخر ذلك من اسس ضريبية مستمدة من الاحكام الاسلامية

ليس هنا مجال ذكر ايجابياتها الكثيرة مقابل النظام الضريبي الاوربي الذي يخضع لشهوات الحكام وشرههم واسرافهم والذي فيه تؤخذ الضريبة من اصحاب الدخول المحدودة لينعم بمردوداتها اغنياؤهم. وتحريم الربا والاستغلال والكسب الحرام ما هو الا تخلف ورجعية لأن فائض القيمة حق لرأس المال لا يحق لأية عقيدة ان تتدخل في تحديدها او تحديد حركته في تحقيق اهدافه. فهو يبحث عن مصالحه اينما كانت وبأية وسيلة كانت!!

اما التربية فهي استثمار، ومسألة ان التعلم والتعليم فرض على كل مسلم من افتقد العلم طلبه ومن امتلكه يمنحه ولا يطلب من غير الله عليه اجرا، هو التخلف بعينه. فهو استثمار لمن يطلبه ولا بد ان يحصل على مردود متمثل بوظيفة او دخل ينتفع به. ولمن يعطيه اجر مقدر وان قل هذا الاجر عما يفي بحاجات المعلم، والتي هي في الوقت الحاضر لا حدود لها ولا نهاية، فلا غبار عليه ان هو اخل في عمله او اهمله، فالاتقان على قدر الاجر او اقل بكثير، والحوافز مادية صرفة، ولا علاقة لها بمسألة القيم والمثل العليا والتي تؤكد على ان من عمل عملا منكم فليتقنه. وبما ان التعليم استثمار فان من يملك شيئا من المال لا بد ان يوظفه في مدارس تدر عليه فائضا وافرا هو حق لرأس ماله هذا!! اما فتح المدارس لوجه الله تعالى وطلب مرضاته وزكاة لماله كما كان يفعل الاوائل فهو تخلف وجهل.

اما العلاقات الاجتماعية فاساسها الانانية والفردية والمصالح المادية والدرهم والدينار يأتي قبل الاهل والصديق والوالد والولد. والمودة والرحمة وصلة القربى والرحم فهي تخلف ورجعية ولا بد ان تعلو عليها (مبادئ الاصنام التي صنعوها في اوربا وعبدوها واعتبروها الهة جدد مع انهم وهميون كقدماء الآلهة)[1]. اما الاسرة فقد نالت حصة الاسد من الهدم فتعدد الزوجات بغض النظر عن حدوده واحكامه في الاسلام، فهو التخلف وبديله الاوربي بكل مساوئه هو العصرية والتحضر. وما

---

(1) لوبون: حضارة العرب ص ٦٠٤.

فرض الله على الزوج والزوجة والاباء والابناء من حقوق وواجبات لكل على الآخر هي الاخرى كلها تخلف وعلى الزوجة ان تثور وتتحرر من السلطة الابوية!! التـــي يفرضها عليها الوالد ومن ثم الزوج. والاولاد لا بد ان يتحرروا هم ايضا من هـــذه السلطة الابوية التي تفرضها الاسرة ويفرضـــها المجتمـــع ويتحـــرروا مـــن كـــل الانتماءات الاسرية والقبلية والدينية (التي هي المقصودة اساسا) وما تفرضـــه هـــذه الانتماءات من علاقات ومسؤليات. ولماذا هدم كل هذه العلاقات.؟ لتتفكك الاســـرة فيتفكك المجتمع فيصبح من السهل اختراقه. وان تقطعت كل الروابط التـــي تربـــط الانسان بمن حوله فهو، وخاصة الشباب، سيكون اكثر تقبلا للروابط والانتمـــاءات الجديدة التي تعرض عليه مثل احزابهم وتجمعاتهم ونواديهم!! بل هو نفسه ســـيبحث عن هذه الاخيرة بحكم طبيعة الانسان التي تجعله يشتاق الى الالتزام والاجتماع.

٢- الحاكم والسلطان

ان للسلطان ثقله بالمفهوم الاسلامي، ويدين له المســـلمون بـــالولاء والطاعـــة ويمكنه من خلال ذلك ان يستنفر المسلمين ويوجههم الى ما فيه خيرهم وصالحـــهم وكل ما من شأنه ان يحفظ الامة والدين ويدفع عنها الاخطار، كأن يستنفرهم لجـــهاد الغزاة مثلا!! ورفض حضارتهم وما فيها من عقائد على اساس من الدفاع عن الدين والعقيدة والذات الاسلامية، وخاصة ان الرعية مهيأة لذلك وتتمناه، وشواهد التـــاريخ على ذلك والمتمثلة بالمعتصم وصلاح الدين والملك الظاهر ليست ببعيدة عن اذهـــان الاوربيين. بل هي كما قال، كل من لوبـــون ومنتجومـــري ومـــر ذكـــره، راقـــدة بعيـــــدا (او قريبا) في الشعور واللاشعور معا. فالحاكم في الاسلام هو قلب الامة ورأسها المدبر، ووقف القلب عن النبض او فصل الرأس عن الجســـد هـــو القتـــل المحقق للامة. ولذلك لا بد من مقاومته وبشتى الطرق. خاصة ان كان الحاكم هـــذا يقف في وجه تنفيذ خططهم كما حدث للسلطان عبدالحميد الذي لم يتعرض حـــاكم لا من قبله ولا من بعده لما تعرض له مُن التجريح والاعتداء في هذا التجريح ليصـــل

احيانا الى حد الاسفاف. وما جاء في كتاب نجيب عازوري يقظة الامة العربيـــة الا شاهد على هذا الاسفاف والتعسف واللاموضوعية فـــي الـــهجوم علـــى الســـلطان عبدالحميد. ولم تكن مهاجمة الافغاني لشاه ايران بأقل تعسفا او اســـفافا. والشـــواهد على هذا التعسف على الحكام كثيرة. ولم تكن الحملة التعسفية هذه ضد الحاكم تقـف الا باسقاطه لتبدأ على الحاكم الجديد. وقد كان معظـــم الدعـــاة المتعســـفين هـــؤلاء يستلهمون مواقفهم هذه من مواقف هذه او تلك من الدول الاوربية من هذا الحـــاكم او ذاك. فامر العازوري مثلا وعلاقته المشبوهة بالخارجية الفرنسية معروف حتى انـــه مذكور في مقدمة كتاب يقظة الامة العربية. اما مواقف غيره فقد تكون مغلفة بغلالـــة رقيقة من الوطنية او الاسلامية! الا ان المدقق باعمالهم لا يلبث ان تنكشف امامـــه هذه الحقيقة. مثل موقف الافغاني والكواكبي وغيرهم. ولا ادل على خطأ هؤلاء فـــي تعفسهم ضد السلطان عبدالحميد الا ما صار عليه حال الدولة العثمانية وحال الامـــة العربية الاسلامية بالذات بعد اسقاطه. فاليهود الذين رفض توطينهم في العـــراق[1]. بعد ان رفض السماح باستمرار هجرتهم الى فلسطين صاروا بفضل من جاء بعـــده من الحكام دولة تهدد امن وسلامة الامة العربية وتقتطع كل يـــوم اجـــزاء جديـــدة لتضمها اليها! وبالمقابل نجد ان محمد علي قائد الارنؤود الذي ترقى في غفلة مـــن الزمن سمحت (له الفرصة كي يباشر المؤامرات واساليب الختل والخداع ليدلف الى الادارة وليثبت الى كرسي الحكم)[2] بمساعدة الدول الاوربية، التي فرضتـــه علـــى السلطان وجعلت حكمه بموجب اتفاقية خاصة بينها وبين الدولة العثمانية عام ١٨٤١ دائما ووراثياً في اولاده لينفذ مخططاتهم في التغريب ويفتح ابـــواب دولتـــه باســـم الوطنية والتنور لغزوهم الفكري المنظم ولاحتلالهم السياسي بعد ذلك، ولكل ذلك فقد صار كبيرا ووطنيا وعبقريا ومتنورا وفوق كل ذلك قائدا عربيا عمل من اجل انشاء

---

(١) انظر نجدة فتحي صفوت: مذكرات الدبلوماسيين الاجانب ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) انظر شحاته ابراهيم: عظماء الوطنية ص ٣٧.

الامبراطورية العربية[١] ، وما ذلك الا لأنه جعل من دولته بما اوجده فيها من حالة انفتاح على الغرب مقرا فيما بعد لهجمات التغريب على الامة ككل، حيث تجمعت القوى الموالية للاستعمار فأنشئت المجلات والصحف والاحزاب والجمعيات لنشر الفكر الاوربي ومهاجمة الاسلام والمسلمين بما فيهم السلطان ورجال الدين والازهر وكل من يقف في طريق التغريب.

ولكن هل سلم الحاكم الموالي من هجمات اوربا وفتح افواه تلامذتهم لتطلق نيرانها عليه.؟ ابدا لم يسلم. فحتى محمد علي الذي بمجيئه (اخذت رياح الحضارة الغربية بما يسمى بالانفتاح على اوربا تهب بقوة على مصر التي شهدت تغييرات هامة وجذرية في شتى مرافق الحياة)[٢] لم يسلم لا هو ولا اولاده الموالين لاوربا، ولا حتى توفيق المنتمي للماسونية من هجمة الاستعمار الاوربي وتلامذته بوسائلهم المختلفة وعزل بعضهم مثل اسماعيل، وعباس من بعده كما سيأتي ذكره، فالاساس في خطط الغزو ان تكون هناك فجوة دائمة بين الحاكم والمحكوم ايا كان هذا الحاكم واي نموذج اتبع في الحكم. حتى وان كان تغريبيا ومتاوربا، فلا بد ان تبقى هذه الفجوة مفتوحة لتبتلع الحاكم عندما تقتضي مصلحة المستعمر صاحب الحضارة العصرية! وبذلك يبقى الحاكم في موقف الضعيف المدافع عن نفسه، او ينشغل بمقاومة المهاجمين المحرضين عليه من ابناء رعيته فتزداد بذلك الفجوة عمقا واتساعا ويعطي لادوات الهجوم مبرراً اكبر لهجومهم مما يستدعي ردا اعنف من جانبه وهكذا ينشغل الحاكم وتنشغل الرعية فلا يستطيع ان يقف في وجه مخططاتهم حتى ان راد. وكيف يستطيع ذلك وهو المستبد والظالم والمسؤول عن التخلف ايا كان وعن الاوضاع غير المرضية ايا كانت الخ... مما يضعف موقفه فلا يجد سنداً من شعبه ليتقوى به على مواجهتهم فيعمل بالتالي جاهدا على ارضائهم، لان في

---

(١) كما يذكر عدد من الكتاب المعاصرين.

(٢) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ص ٢٩٩.

امكانهم دائما ان يجدوا اسبابا تبرر للرعية عدم طاعته ومقاومته، من خلال الافكار الاوربية التي تبلورت على شكل احزاب وتجمعات ترى رؤيتهم وباسم الوطنية وحب الوطن! تنفذ مخططاتهم في مقاومته وتعميق هذه الفجوة اكثر فأكثر واضعاف موقفه وموقف الامة ككل في مواجهتهم.

٣- رجال الدين:

يمثل رجال الدين مركز قوة في المجتمع الاسلامي وقد وعى الاوربيون هذه الحقيقة وعملوا على استغلالها لصالحهم ولهذا نجد نابليون يذكر في مذكراته عند احتلاله لمصر انه لكي يسوس الناس لا بد من وسطاء يسعون بينه وبينهم ولا بد من اقامة رؤساء لهم. وقد فضل العلماء وفقهاء الشريعة للقيام بهذا الدور لعدة اسباب، اولا: لانهم (رؤساؤهم بطبيعتهم) وثانيا: لانهم كانوا (مفسري القرآن، ومعروف ان اكبر العقبات تنشأ عن افكار دينية، وثالثا: لأن للعلماء خلقا لينا، ولأنهم -دون نزاع- اكثر اهل البلاد فضيلة لا يعرفون كيف يركبون حصانا، ولا قبل لهم بأي عمل حربي) وقال (لقد افدت منهم كثيرا واتخذت منهم سبيلا للتفاهم مع الشعب)[1]. ولاهميتهم، بشكل خاص، في تفسير القرآن فقد تعامل الاوربيون مع هذه الفئة بطريقتين: اما استيعابها وكسبها الى جانبهم تساعدهم في عملية التغريب والتخريب والقضاء على ذات الامة وعقيدتها وشخصيتها، وهي العملية التي اتخذت اسم الاصلاح الديني واما محاربتها واتهامها بالرجعية والتخلف. فصار كل المتمسكين بعقيدتهم العاملين على الذود عنها الرافضين اعطاء التنازلات المطلوبة من قبل الاجانب، متخلفين جامدين وجمودهم هو سبب تخلف المسلمين الذي لا علاج له الا بالقضاء عليهم. ولا يقتصر الهجوم عليهم كافراد وجماعات وانما امتد الى مراكز تعليمهم والنظام التعليمي فيها والذي لا يسمح بتدريس الفكر الاوربي العلماني المتنور! كما حدث للازهر وجامع القرويين والزيتونة والمراكز الاسلامية

---

(١) انظر سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص ٣٨-٣٩.

التربوية الاخرى، من اجل التخفيف من وزنها في المجتمع واثارة شعور عدم الثقة بها للتراجع فتحل المدارس العلمانية محلها في توجيه ابناء الامة. وقد نال الازهر حصة الاسد من هجوم رواد النهضة! منذ بداية الغزو الاوربي، حتى صار كل من يريد ابراز فكره التقدمي والعلمي والتحديثي والاشتراكي! لا بد ان يبدأ بمهاجمة الازهر بشكل او بآخر، بالتصريح او بالتلميح، منذ دعوة الطهطاوي ومرورا بالافغاني وعبده وطه حسين وسلامة موسى الخ... وحتى منتصف هذا القرن (العشرين) حيث هدأت الحملة عليه بتغييره وصيرورته جامعة كاي جامعة اخرى تقبل في صفوفها العلماني والمسلم والملحد على حد السواء وتدرس فيه الطب والهندسة وغيرها من العلوم من قبل مدرسين قد يكونوا من ابعد الناس عن الدين وعن الاسلام. ففقد استقلاله ومكانته كجامعة اسلامية.

وقد كان محمد عبدة مثلا لشدة مناهضته للازهر وللعاملين فيه يطلق عليه امام بعض خواصه الفاظا مثل (الاصطبل والمارستان والمخروب)[1]. مع العلم ان معظم رواد النهضة ان لم يكن جميعهم هم من خريجي الازهر مما يثير التساؤل كيف يا ترى يكون اصطبلا ويخرج هؤلاء العباقرة؟! وقد كان عبدة ينتقد الازهر وينتقد التعليم فيه وفي المسجد الاحمدي ايضا ويقول (ان اغلب الطلبة الذي لا يفهمون تغشهم انفسهم فيظنون انهم فهموا شيئا فيستمرون على الطلب الى ان يبلغوا سن الرجال، وهم في احلام الاطفال...)[2].

وكان صريحاً في تحديد ما يريد من دعوته الى اصلاح الازهر والغرض منها والذي ينسجم تماما مع الغرض الاوربي في نشر علومه وحضارته وتحقيق التقبل لها اذ يقول: (لو صلح حال التعليم في الازهر لهب المسلمون الى طلب العلوم الصحيحة، كما هبوا لذلك في اول شأنهم فاحيوا ما اماته الزمان من علوم الهند

---

(١) انظر غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص ٢٧.

(٢) انظر احمد تيمور باشا: اعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث ص ١٤٥-١٤٦.

واليونان فلا يجدون الا اوربا وعلومها الحية ويفهمونها على انها خير عون لهم على تكميل مدينتهم فيتعارفون ولا يتناكرون. فانه يسهل عليهم ازالـــة معارضتـــها مـــع التقارب والعلم ما لا يسهل عليهم مع التقاطع والجهل)[١] ومن اجل تحقيق غـــرض تقبل الحضارة الاوربية، اللادينية، عمل عبدة في اول فرصة سنحت له على ادخـــال العلوم الاوربية هذه في الازهر، فصار يدرس جان جاك روسو وكنت الخ...

وقد سار تلامذة محمد عبدة بعد ذلك سيرته ومنهم طه حسين الـــذي يـــرى ان الازهر لا يصلح لقيادة الحياة العامة والفكر في البلاد وعليه لا بد ان تكـــون هـــذه القيادة للجامعة وللقائمين عليها وخريجيها من العلماء الاحرار المستقلين!! فـــالازهر في نظره غير مؤهل حتى للاشراف على الدراسات الاسلامية والتي يجب ان تكون باشراف كلية الآداب لان كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الاوربية وتعرف جـــهد المستشرقين في الدراسات الاسلامية و (...عليـــها ان تـــأخذ بنصيبـــها مـــن هـــذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التي ترى لنفسها زعامة البلاد الاســـلامية وبيـــن جهود الامم الاوربية)[٢] .

وهاجم محمد حسن العرابي الازهر ودعا (الى تحويله الى كلية لاهوت كما هو الحال في جمهوريتي تركيا والمانيا وغيرهما، فيدخل الراغب بعد ان يتثقـــف فـــي المدارس الثانوية ويدرس هناك تاريخ الديانات واراء الفلاسفة والمجدديـــن ويتعلـــم اللغات القديمة، فيخرج لنا منها مفكرون احرار ومسلمون فاهمون ويـــهود واعـــون ونصارى غير متعصبين...)[٣] .

---

(١) محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث ص١٤٥-١٤٦

(٢) ذات المصدر ص١٧٤ انظر الهدف المتسق مع الهدف الاوربي في ان لا نرى الا رؤيتـــه حتى في الدراسات الاسلامية.

(٣) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٣١٢-٣١٣

وهكذا صوب رواد النهضة! سهامهم الى الازهر الذي كان دائما يرفع باسم الدين راية الدفاع عن الاسلام ومقدساته ويدعو للوقوف بوجه الغزو الاجنبي ليؤكد هؤلاء الرواد انهم ليسوا اقل تقدمية وتنورا من نابليون بونابرت الذي (صوب قذائفه على الازهر بدعوى ان شيوخه كانوا يتزعمون الثورة) ضده وبعد ان سيطر على الموقف (اذاق اهل القاهرة كثيرا من الوان العذاب)[1] . وادخل جنوده بخيولهم الى الجامع الازهر يعيثون فيه فسادا.

وكيف لا يضيق رواد النهضة! بالازهر وبكل المعاهد والمدارس الدينية وقد ضاق بها الاوربيون ومنهم جب الذي عبر عن ضيقه بقوله (ان الثقافة القديمة التقليدية محصورة في عدد قليل محدود، مع ذلك كله فالمعاهد الدينية نفسها لا تزال قائمة ولا يزال حفاظ القرآن ودارسوه كما كانوا، لم ينقص عددهم، ولم يضعف سحر أيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين...)[2] .

٤- اللغة العربية

ان اللغة كما هو معروف، ليست وسيلة اتصال جامدة فقط وانما هي من العوامل المكونة لذات وشخصية الفرد. فاللغة كما يراها كلود هاجيج لها نوعين من القوى: قوة داخلية وقوة خارجية (فأما القوة الاولى فتتعلق باللغة من حيث هي نظم ومن حيث علاقتها بالذين يستخدمونها فتشكل حياتهم النفسية. واما القوة الثانية فتتعلق باستخدام اللغة في النشاط التعبيري وبالقدرات التي يتيحها هذا الاستخدام لمن يمارسونه...) وهو يؤكد على ان (ان الفرد يحيا تجربة استخدامه اللغة كعلاقة تؤسس ذاتيته وتكسبه اياها ان لم تكن سبيله الى الوجود ذاته... وما يصدق على الفرد يصدق من باب اولى على المجتمع وقد اصبح امة)[3] فللكلمة في نظره سلطان

---

(١) شحاتة عيسى: عظماء الوطنية ص ٢٧

(٢) محمد محمد حسين الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص٢٢٠ ج٢.

(٣) انظر رسالة اليونسكو: مارس/ آذار ١٩٨٦.

(واضح في جميع المجالات على التصورات العقلية للناطق بها... اذ هـي تشـكل تفكيرة)[1] ويرى نيتشة ان اللغة هي ليست وسيلة اتصال فقط وانما هي اداة تفكير، وفلسفة واحدة يعني فكر واحد. ويرى ان (القرابة اللغوية) يمكنها ايجاد (فلسفة نحوية مشتركة تدفع الفكر... الى انتاج مذاهب فلسفية)[2] مشتركة.

ولاهمية اللغة هذه في التكوين الفكري والنفسي للانسان وفي توحيد ابناء الامة فقد عاملها الاوربيون ايضا بطريقتين مختلفتين لتحقيق غرضين مختلفين، غرض التوحد وغرض التفريق. فهم من اجل تفريق الامة الاسلامية الى امم وقوميات يسهل التعامل معها، منفردة، ودحرها فكريا وعسكريا شجعوا الاتراك من خلال الجمعية التي تاسست في باريس اولا باسم الاتحاد والترقي (او تركيا الفتاة) من الشباب التركي واكثرهم من غير المسلمين على الاعتزاز بقوميتهم وتعميم لغتهم وفرضها على القوميات الاخرى فيما عرف بسياسة التتريك التي طبقوها عندما استولوا على الحكم في اوائل هذا القرن (العشرين) ولكنهم وفي الوقت نفسه ومن اجل توحيد العرب ضد الاتراك على اساس قوميتهم العربية عملوا مع الموالين لهم من غير المسلمين (في اول الامر) على تشجيع اللغة العربية. ولذلك (نشطت الارساليات في ميدان الترجمة وتحديث اللغة العربية كما يؤكد الدكتور علي محافظة (... فترجم بطرس البستاني التوراة الى العربية... وقام سليمان البستاني بترجمة الياذة هوميروس الى العربية... وعمل ابراهيم اليازجي تسع سنوات في تعريب التوراة... ثم تولت الكنيسة الكاثوليكية العناية بالمؤلفات العربية تنشرها وتترجمها... وانتقل الاهتمام... من الكنيسة الى الدول الاوربية، وكانت فرنسا اولها في هذا المضمار... كما اهتم الكثيرون من المستشرقين في الدول الاوربية المختلفة بتحقيق المخطوطات العربية ونشرها...) ويرى الدكتور محافظة لهذه الاعمال التي

---

(١) نفس المصدر

(٢) نفس المصدر

قامت بها الارساليات التبشيرية والدول الاوربية (مساهمة جلى في نهضة العرب الحديثة) وفي (اليقظة القومية عند العرب)[1] !!

ولكن من جهة اخرى فان اللغة العربية هي لغة القرآن وكلمة لا اله الا الله ينادي بها المنادي، باللغة العربية فتتجه الملايين المسلمة بقلب واحد الى وجهة واحدة. وان كانت قادرة على جمع المسلمين من عربي وغير عربي على حد السواء فهي من باب اولى قادرة على جمع كلمة العرب ليصبحوا هم بدورهم قوة لا يستهان بها حتى بعيدا عن الدولة العثمانية ما داموا معتمدين لغة القرآن الذي سيستمر تأثيره فيهم حيا. فاذا لا بد من اضعاف هذه اللغة وتشجيع ترجمة القرآن الى لغات اخرى. واظهار عجزها كاداة فاعلة لتحقيق التقدم، فهي متخلفة ومختلفة ولا يجمعها شيء ولا يجب ان يكون دورها باكثر من دور اللغة اللاتينية او الاغريقية الميتتين وعليه لا بد من استبدالها بلغة اجنبية اوربية كالانكليزية او الفرنسية او اختيار احدى اللهجات المحلية العامية وجعلها لغة للعالم العربي.

وقديما قال التوحيدي في الامتاع والموانسة: (سمعنا لغات كثيرة... فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية) وبعد ان يعدد محاسنها يقول: (وهذا شيء يجده كل من كان صحيح البنية، بريئاً من الآفة متنزها عن الهوى والعصبية، محبا للانصاف في الخصومة، متحريا للحق في الحكومة، غير مسترق بالتقليد ولا مخدوع بالالف ولا مسخر بالعادة)[2] .

وفي اواخر القرن الماضي دافع لوبون عن اللغة العربية ضد مزاعم اوربا هذه فقال: واللغة العربية من اكثر اللغات انسجاما، وهي لاريب مختلفة اللهجات في سورية وجزيرة العرب ومصر والجزائر وغيرها، ولم يكن هذا الاختلاف في غير الاشكال، فترى المراكشي يفهم بسهولة لهجة المصريين او لهجة سكان جزيرة

---

(1) علي محافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب ص٢٦-٣٤

(2) الامتاع والموانسة، ص٧٨

العرب مثلا، مع ان سكان القرى الشمالية الفرنسية لا يفهمون كلمة من لهجات سكان القرى الجنوبية في فرنسا)[1] .

ولكن مع ذلك لم يعدم العالم العربي ممن وصفهم التوحيدي باصحاب الهوى من المستشرقين المتحاملين والمقلدين لهم المسخرين الذي ينتظرون اية راية يرفعها الاوربيون ليتسلموها منهم ويرفعونها عنهم. ولذلك نشطت الدعوة في مصر الى العامية كما يؤكد انور الجندي فجاء (تقرير الخبير البريطاني دوفرني يدعو لاستعمال العامية، ثم جاءت برامج التعليم في المدارس الوطنية هادمة للغة العربية مغلبة عليها اللغات الاجنبية...) ثم جاءت دعوات (ويلكوكس ووليمور... وكلها تنصب على العامية وعلى الحروف اللاتينية وامتدت الدعوة بعد-ذلك- في اسماء مصرية: لطفي السيد، قاسم امين وسلامة موسى وعبدالعزيز فهمي وغيرهم)[2] . ولما تولى سعد زغلول وزارة المعارف كان اول واخطر مقرراته اعتماد اللغة الانكليزية للتعليم ومعارضة قرار مجلس الشورى باتخاذ اللغة العربية اساسا للتعليم)[3] ، وقد قامت فرنسا في فرض التعليم بلغتها في بلاد المغرب لتصبح اللغة الفرنسية هي اللغة القومية في البلاد)[4] ويبرر الاحتلال استبدال اللغة العربية باحدى اللغات الاجنبية بذات المبررات التي لا زال النهضويون!! يبررون دعوتهم بها، والتي منها:-

١- تعذر ايجاد الكتب الفنية العصرية في اللغة العربية في الوقت الذي تنمو فيه العلوم في اوربا بسرعة.

---

(١) لوبون؟ حضارة العرب ص٤٣٩

(٢) التربية وبناء الاجيال ص٧١-٩٩

(٣) ذات المصدر

(٤) سعيد اسماعيل؟ الفكر التربوي ص٢٠٠-٢٠٢

٢- التعليم العالي لا يكتفى فيه بتحصيل ما تشتمل عليه الكتب المقررة للمدارس مما يفرض الاطلاع المستمر على غيرها.

٣- البعثات التي ترسل الى اوربا تتطلب تحصيل احدى اللغتين الفرنسية والانكليزية.

٤- النمو الحديث والتفاعل التجاري والصناعي يتطلب من طلاب العمل الالمام بلغة اجنبية)[١] .

وهكذا استمر الضغط على مراكز القوى للامة ومهاجمتها مما لا يتسع المجال لذكره بالتفصيل وفق خطة متناسقة لاحداث التغيير المطلوب. وقد كان الضغط الممارس على الامة نوعين: ضغط من الخارج، من الدول الاوربية المعنية باحداث التغيير، وضغط من الداخل يكمله ويتسق معه.

الضغط الخارجي ووسائله

لما كان الغزو الاوربي هو اساسا غزو حضاري يستهدف فرض حضارة الغزاة وسيطرتهم على العالمين، ولما كان للمسلمين حضارة روحية مختلفة، تعتمد الاسلام وقيمة وترفض هذه الحضارة المادية الوافدة فقد استهدف الغزو الاسلام كدين وكحضارة من اجل (ان ينتزع من المسلمين ثقتهم في ماضيهم الاسلامي وفي انفسهم كمسلمين ويسلخهم من تراثهم الفكري وتاريخهم الاسلامي فيصبحون بلا ماضي فتضعف معنوياتهم وبذا تسهل السيطرة عليهم فكريا وثقافيا...)[٢] ومن ثم يسهل الحاقهم بالحضارة الاوربية هذه. ولذلك كانت الضغوط موجهة الى المسلمين جميعا والى دولهم الثلاثة: العثمانية والصفوية والقاجارية، وما يهمنا هنا هو الدولة العثمانية التي كانت الامة العربية وبلادها، طيلة القرون الاربعة السابقة للغزو الاوربي ولما سمي بالنهضة العربية جزءا لا يتجزأ منها. لا على اساس من

---

(١) ذات المصدر

(٢) انور الجندي: السلطان عبدالحميد والخلافة الاسلامية، ص٣٦

الاستعمار التركي! كما حاول الاوربيون تأكيده وهي الفكرة التـــي تلقفـــها بعـــض تلامذتهم منهم ورجوا لها. كأي من افكارهم الاخرى، وانما علـــى اســـاس جامعـــة الدين، والفكر والحضارة، وعلى اساس من مبدأ لا فرق بين عربي ولا اعجمـــي الا بالتقوى. وكما تقبلت الاقوام المسلمة من غير العرب حكم العرب المسلمين عليـــهم انطلاقا من هذا المبدأ الاسلامي ولم تعتبرهم مستعمرين فكذلك فعل العرب وتقبلـــوا حكم غير العرب من المسلمين من غير حرج. ولذلك فقد كانت الضغوط الموجهـــة الى الأمة العربية هي في حقيقتها ضغوطاً على الدولة العثمانية، (او اجزاء منـــها) تستهدف قبل كل شيء فصل هذا الجزء عن الدولة العثمانية ليس لاضعـــاف هـــذه الدولة تمهيدا للقضاء عليها فقط وانما ليسهل الاستفراد بالامة العربيـــة بعيـــدا عـــن حماية الدولة العثمانية والدول الاسلامية الاخرى. ولذلك شنت اوربا حملات فكريـــة وسياسية مسعورة (ضد الدولة العثمانية منذ بداية القرن السادس عشر، وخصوصـــا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين... من اجل اسقاطها وتمزيقها ووضع اليـــد على اراضيها وشعوبها) وحقد الدول الاوربية على الدولة العثمانية كما يرى منـــير شفيق لم (ينبع من كونها متخلفة او كان على رأسها سلاطين مستبدون، ولم ينبع من كونه غيرة على مصالح الشعوب المسلمة، خصوصا الامة العربيـــة، فـــهذه امـــور تستخدم يافطات لتخبئ الخنجر والناب والمخالب ونيات العدوان والســـيطرة) امـــا الحقيقة فهي (ان ذلك الحقد ينبع من كون الدولة العثمانية وقفت سورا منيعا في وجه اطماعه (الغرب) في السيطرة على العالم طوال اربعة قرون... كما كانت تشكل قوة في ابقاء راية الاسلام مرفوعة على الرغم مما فيها من نواقص من وجه[1] النظـــر الاسلامية) وقد كان (الغرب قلقا من بقاء الراية مرفوعة في ظل تلك الوحدة الكبـــيرة

---

(١) لا بد انها وجهة.

لانها قد تسمح بنشوء دعوات لتجديد شبابها فتحدث ثورة اسلامية عميقة قد تعود قوة عالمية حضارية جبارة تقضي على احلامه في التوسع واستعباد الشعوب)[١] .

وحقد اوربا هذا على الدولة العثمانية عبر عنه كثيرون في كتاباتهم فعلى سبيل المثال لا الحصر كتب خلال الحرب العالمية الاولى روبت بروك Rupet Brooke يقول: (انه امر اجمل من ان يصدق... هل ستهدم نصب الابطال بمدافع (١٥) انج... هل سأتمكن من نهب الموزائيك في اية صوفيا وكذلك الكنوز التركية والسجاد؟ هل سنكون نقطة التحول في التاريخ؟ آه يا رب لم اكن في حياتي سعيدا كما انا اليوم... مثل نهر يجري تماما باتجاه واحد. فجأة تأكدت ان امنية حياتي كانت دائما ومنذ ان كنت في الثانية من العمر، هي ان اذهب في غزوة عسكرية ضد القسطنطينية)[٢] . وقد كتبت زوجة رئيس وزراء بريطانيا انذاك ماركوت اسكويث Margot Asquith في مذكراتها (انا اكره الاتراك واتمنى ان يزولوا من اوربا)[٣] .

وكان ونستون تشرشل متحمسا لغزو الدولة العثمانية في الدردنيل حتى اصبحت تسمى تلك الغزوة مغامرة تشرشل. وقد خطط لحربها قبل ان تدخل الدولة العثمانية الحرب وتحرش بها قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى عندما اوقف ارسال باخريتين كانت الدولة العثمانية قد تعاقدت مع بريطانيا على شرائهما، والدولة العثمانية كانت لا تزال محايدة عندما طلب تشرشل من كتشنر، وزير الدفاع البريطاني انذاك ان يرسل له جنرالين لوضع خطة يستولون بها وبمساعدة الجيش اليوناني على شبه جزيرة كليبولي Callipoli وبحر مرمرة. والدولة العثمانية كانت لا تزال محايدة عندما وافق مجلس الوزراء البريطاني، بدفع من تشرشل، لمساعدة

---

(١) منير شفيق: الاسلام في معركة الحضارة، ص ١٣٥.

(٢) W. Manschester: The last lion I p. 518.

(٣) opt, cit.

صربيا ورومانية ضد العثمانين وعلى اغراق السفن العثمانية الخارجة من الدردنيل. واقترح تشرشل ان من اول طلقة ضد الدولة العثمانية يكون من مهام دائرته ان تضع القوات اليونانية على الجهة الثانية من بحر مرمرة والدردنيل. وقبل دخول الدولة العثمانية الحرب، وتشرشل يتحمس لغزوها. وبحريته تتحرش بها، وتدفع بريطانيا في اتجاه محاربتها باستخدام اليونان لذلك)[1] . ولذلك كله، كتب رئيس الوزراء البريطاني انذاك في مذكراته: (ان عقل تشرشل مسكون بتركيا وبلغاريا)[2]

الاقليات وسيلة ضغط

وقد اتخذت حملات الدول الاوربية الضاغطة على الدولة العثمانية اشكالا مختلفة، فهي لم تدع اية فرصة الا واستغلتها لاثارة عدم الرضى بين شعوب الدولة العثمانية واثارة المشاكل والقلاقل لها. وعلى رأس هذه المشاكل التي اثارتها للدولة العثمانية للضغط عليها هي مشكلة الاقليات الدينية والطائفية والقومية والتي كانت تتعايش مع بعضها البعض قبل توجهات الغزو الاوربي. فقد عملت الدول الاوربية على تحريض هذه الاقليات واثارتها لاستغلالها في الضغط على الدولة العثمانية واضعافها وبالتالي اخضاعها لمطالبها وتحقيق مصالحها. ومسألة استغلال هذه الاقليات للضغط على الدولة العثمانية امر معروف واكده الكثيرون من المفكرين. فنجد مثلا، جورج قرم يؤكد على تعايش الاقليات الدينية والطائفية في ظل الدول الاسلامية المتسامحة جميعا ومنها الدولة العثمانية اذ يقول: (خلافا للصورة الشائعة والمتداولة، لم يكن تاريخ الامبراطورية العثمانية كله تاريخ مظالم ومجازر وتعصب طائفي، فقد عاشت في ظلها بدون اكراه ديني اثنيات واقليات طائفية لا يحصى لها عد ولم يشذ السلاطين العثمانيون عن سياسة التسامح الا مع ابتداء سياسة الاندفاع الغربي نحو الشرق في اواخر القرن الثامن عشر، فقد حاولت القوى الاوربية تفجير

---

(١) 1-2 opt. cit. p 514-515.

(٢) المصدر السابق

الامبراطورية العثمانية من الداخل عبر ايجاد -زبائن- لها من مختلف القوميات والاقليات الدينة عبر تحريضها على الانفصال. وعلى هذا النحو رأت النور -المسألة الشرقية- التي قال عنها الفيلسوف والمؤرخ الانكليزي ارنولد توينبي: انها لم تكن الا -مسألة غربية-)[١].

وقد اكد العالم الاثري الفرنسي opert اوبرت هذا المعنى فقال: (ليست هناك بلاد اخرى تتمتع فيها العقيدة الكاثوليكية بمثل ما تتمتع به في البلاد العثمانية الاسيوية)[٢].

وقد استغل الاستعمار الاقليات القومية والطائفية والدينية في كل مكان في الدولة العثمانية ومنها في الوطن العربي واستخدمها لخدمة اغراضه استخداما واسعا. فالحرب التي قامت بين الدروز والموارنة والتي استمرت ما لا يقل عن عشر سنوات (١٨٣٠-١٨٤٠) لعب الاوربيون في اعدادها وتنظيمها دورا كبيراً[٣] وتنافست كل من فرنسا وبريطانية على الساحة اللبنانية في تلك الحرب، كل منها يساند فئة[٤] ليضمن له موطئ قدم يستغلها في الضغط على الدولة العثمانية لتحقيق مصالحه. وهذا التنافس بين الدولتين كان السبب الرئيسي لكثير من المذابح الطائفية التي قامت آنذاك وعلى رأسها ما حدث في لبنان والذي اكده فيمن اكده سمنر ويلز وكيل وزارة الخارجية الامريكية في العراق ١٩٣٢-١٩٤٣)[٥]

وقد كانت الدول الاوربية ايضا تتنافس فيما بينها على كسب الطوائف من غير المسلمين لاستخدامهم كحصان طروادة تدخل من خلالهم الى البلاد وتحقق مصالحها

---

(١) انظر المنتدى، العدد ١٦ كنون الثاني/ يناير/ ١٩٨٧.

(٢) نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٣١٦.

(٣) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ٨٢.

(٤) بريطانيا ساندت الدروز وفرنسا ساندت الموارنة

(٥) نجدت فتحي صفوت: العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب ص ٨٦.

فيها. ومن هنا بدأت فكرة التبشير والتي كانت في الاساس موجهة لتحويل الطوائف المسيحية المخالفة الى طائفة موالية لهذه او لتلك من الدول الاوربية بحسب عقائدها كما يؤكد عبدالعزيز نوار في كتابه تاريخ العراق الحديث. اذ عمل الفرنسيون الكاثوليك على تحويل المسيحيين من غير هذه الطائفة اليها كما عمل الانكليز على تحويل غير البروتستانت الى البروتستانتية. وقد بدأت فرنسا ومنذ منتصف القرن الثامن عشر في هذا النشاط التبشيري لا غيرة على المذهب او الدين وانما لتفرض على الدولة العثمانية الاعتراف بحمايتها لهذه الطائفة مؤملة انه في حالة انهيار الدولة العثمانية الذي كانوا يخططون له (ستجد فرنسا من هؤلاء قوة سياسية تعينها على ان تضع يدها على اكبر رقعة من الدولة العثمانية مزاحمة بذلك بريطانيا مزاحمة خطيرة)[1].

وتنبهت (السلطات الدينية الانكليزية والامريكية الى اهمية تحويل مسيحي الشرق الى المذهب البروتستانتي)[2]. كما تنبه السياسيون الى حركة الفرنسيين هذه فبدأوا يقاومون اتساع الحركة الكاثوليكية هذه ويشجعون المبشرين البروتستانت الانكليز ليسابقوا الفرنسيين في هذا المجال ولتحقيق ذات الهدف لصالحهم. وقد عملت الهيئات التبشيرية هذه (على شد عضد الاقليات، فيتحرشون بالسلطات الحاكمة مما يثير المشكلات للدولة العثمانية وللسلطات المحلية ويضعف مقاومة الغزو الاوربي).[3]. فكما حدث في لبنان عندما اشتد عضد الموارنة بالدعم الفرنسي وبتحريضه فتحرشوا بالدروز واشتعلت الحرب المار ذكرها فكذلك حدث في شمال العراق عندما استقوت الطائفة النسطورية بوصول المبشر الامريكي كرانت وبتحريض منه وبأماني الاستقلال التي اثارها فيهم حتى ان البطريرك كان يسأل

---

(1) عبدالعزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٣٠٧.

(2) ذات المصدر.

(3) ذات المصدر.

كرانت مستفسرا (عن الاسباب التي تؤخر احتلال اوربا للدولة العثمانية)[1]، فصاروا يتحرشون بالاكراد مما اثار المشكلات في شمال العراق. وحتى اليهود لم يسلموا من استغلال حملات التبشير لهم. اذ تنافست كل من بريطانيا وفرنسا على (جمع الاتباع وبسط الحماية على اكبر عدد ممكن من اليهود في اواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر في العراق)[2] وقد استخدموهم كجواسيس لهم اذ يقول المقيم السياسي الكابتن هينيس: (ان احسن من ينقلون الانباء الينا هم اليهود وقد وظفتهم معي سراً وخصوصاً اليهود في عدن، وهم يعملون في خدمة الحكومة وقد اعطوني معلومات تضم حقائق مهمة... وقد قمت باستغلال فرصة وجودهم في اماكن متفرقة... (من) المناطق المجاورة لعدن وقد كافئتهم بمبالغ تافهة)[3] . كما كانت الدولتان ايضا تتنافسان على خطب ود الصابئة في العراق كما يؤكد عبدالعزيز نوار، الذين اوعز اليهم القنصل البريطاني في طلب حماية الانكليز لهم فقدمت الشكوى الى ستراتفورد كاننغ سفير بريطانيا في الاستانة، ثم رفعت الى ابردين لترفع بعد ذلك الى بلاط الملكة وبعد ذلك... استصدر فرمانا بحمايتهم)[4] . وقد كانت فرنسا ترى ان لها حق طبيعي في لبنان وسوريا (ايضا) لا لشيء الا لأنها تحمي المسيحيين الكاثوليك، فقط!، فيها. وكانت بريطانية ترى لنفسها حق طبيعي في العراق، وقد اكد المقيم البريطاني في تقرير له بعثه الى سفير بلاده في استنبول يقول فيه: ان في حالة قطع العلاقات مع تركيا او سقوطها (على الحكومة البريطانية ان تحتفظ، بكل نوع من الارجحية) في العراق التي هي (منطقة نفوذ طبيعية

---

(١) ذات المصدر.

(٢) ذات المصدر.

(٣) ذات المصدر.

(٤) عبدالعزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٣١٩.

لبريطانية في الممتلكات العثمانية)[1]. واقترح على ان يعمل على (ضم منطقة الموصل الى النفوذ البريطاني والعمل على تقديم المساعدة للجمعية الكنسية التبشيرية... (و) الاتصال بجمعية الاسكان اليهودية، لتساعد المدارس التي تعلم اللغة الانكليزية)[2].

وهكذا نجد ان الدول الاوربية الطامعة عملت على استغلال الاقليات ايا كانت للضغط على الدولة العثمانية، فشجعوا كل مقومات المخالفة وكونوا لها شخصية منفصلة وشجعوا على اثارة المشاكل للدولة. ولما ادت هذه الاقليات مهمتها في المساهمة باسقاط الدولة العثمانية بدأوا استخدامها اثناء الاحتلال وبعد الاستقلال بذات الطريقة ومن اجل الضغط على الحكومات وعلى الشعوب لاضعافها وشل حركتها بشكل يجعلها تعجز عن اتخاذ موقف صلب من مصالح الدول الاوربية المستعمرة هذه.

فمن ذلك لجوء (السلطات الفرنسية الى اصطناع مسألة البربر وسيلة لاضعاف البناء القومي للمغرب العربي...) وتحريض اليزيدية في سنجار[3]. سنة ١٩٣٦ ضد حكومة ياسين الهاشمي[4] بسبب دعمها لاستقلال سوريا وتشريعها قانون الدفاع الوطني...) هذا غير استخدام (قضية الاكراد... من قبل الدول الاستعمارية -ورقة ضغط للمساومة على مصالحها في العراق)[5] والشواهد كثيرة ولا حصر لها على استخدام الدول الطامعة للاقليات كوسائل ضغط على حكام الاستقلال كما تم استخدامهم من قبل ضد الدولة العثمانية.

---

(١) عبدالرزاق الهلالي: تاريخ التعليم في العراق ص ٢٥.

(٢) ذات المصدر (انظر مسألة مساعدة جمعية الاسكان اليهودية المدارس التبشيرية! لماذا؟!

(٣) سنجار مدينة في شمال العراق.

(٤) رئيس وزارء العراق انذاك.

(٥) نزار الحديثي: الأمة العربية والتحديات ص ٦٦-٦٩.

وكأنه لم يكف الدول الاستعمارية ما موجود من هذه الاقليات في البلاد العربية فعمدت الى توطين اقليات جديدة في البلاد التي احتلتها كتوطين الكثير من الاوربيين في مصر والجزائر وتوطين جاليتين مسيحيتين في العراق هما الأرمن والأثوريين او (التيارية، الذين نزحوا الى العراق من ولاية حيكار في تركيا) اثناء الحرب العالمية الاولى ودخل الكثير منهم مع جيش الاحتلال الانكليزي وعملوا معه وتحت امرته (طوال فترة انتدابهم -الانكليز- على العراق... وادوا دورا كبيرا في ضرب الحركة الوطنية...)[1] . وقد اكد السر ارنولد ويلسن، وكيل الحاكم المدني العام في العراق للفترة بين ١٩١٨-١٩٢٠ في مقالة نشرها في جريدة ايفنينغ ستاندرد عام ١٩٣٦ بعد حوادث الشغب التي قامت بين هذه الجالية واهل البلاد في شمال العراق، مدافعا عنهم ومتهما الحكومة الانكليزية بالتقصير في الدفاع عنهم كما يجب، موكدا خدماتهم في حماية مصالح الاحتلال اذ يقول: ان (الآثوريين المسيحيين الذين استخدمناهم لمدة اثنتي عشر سنة في حراسة مطاراتنا لاننا لم نكن نستطيع الاعتماد على الجيش العربي...)[2] . يستحقون في نظره دعما اكبر. فمنذ ان وصلت هذه الجالية العراق وهي تنشر القلاقل وتصطدم باهل البلاد معتمدة على دعم الانكليز لها. وكان زعيمها الديني مار شمعون (الذي ولد سنة ١٩٠٩ والت اليه البطريركية في سنة ١٩٢١ ودرس في انكلترة في سمينار في كاتربوري يتبنى كما تذكر الوثائق البريطانية سياسة الاستياء وعدم الرضى بين الاثوريين. ورغم (ان سلطته الدنيوية غير معترف بها من قبل عدد كبير من الاثوريين الذين يقدر عددهم بـ ١٢٠٠٠) نسمة ورغم ان الاثوريين لم يمضي عليهم الا سنوات قليلة في العراق الا انه تزعم

---

(١) ذات المصدر: وانظر عبد المجيد كامل التكريتي: الملك فيصل الأول ودوره في تأسيس الدولة العراقية الحديثة ص ٢٥٠-٢٥١.

(٢) نجدت صفوت: العراق في الوثائق البريطانية ص ٦٨.

عصابات من قوات الليفي[١] . للاعتداء على اهل البلاد في شمال العـراق متحديـاً (السلطة الادارية المحلية والجيش العراقي) الذي كان يجاهد بامكانياته البسيطة انذاك (لضبط الوضع في الموصل ودهوك...) مستهدفا ارهـاب السـكان ليتخلـوا عـن اراضيهم ليوطن طائفته (كلها في مقاطعة مترابطة تحت سلطته الدينية والدنيويـة)[٢] مستغلا دعم الانكليز المحتلين له وانشغال الدولة التي لم تكن قد سوت مشكلاتها مـع الانكليز والفرنسيين المرابطين في سوريا على حدودها طامعين في امتيازات اكـبر واراضي اكثر. ولما تمادى الاثوريون باعتداءتهم وبمطالبهم وصاروا مصدر قلـق للانكليز انفسهم يزيده ضغط الحكومة العراقية لايجاد حل لـهم فكـرت الحكومـة الانكليزية في توطينهم في غيانا ولكنها عدلت عن ذلك واتفقت مـع فرنسـا علـى توطينهم في سوريا وبالنظر الى الشروط التي اشترطتها فرنسا على العراق من اجل السماح في توطينهم في سوريا يستدل على كيفية استخدام هذه الاقليات للضغط على الحكومات اذ انها اشترطت ما يلي:-

١- عدم تشجيع الحكومة العراقية للعناصر الوطنية في سوريا.
٢- اظهار الحكومة العراقية مزيدا من حسن النية في حل القضايـا المعلقـة بيـن العراق وسوريا، ومنها اتفاقية حسن جوار، وتسوية الحـدود، وتسـوية قضايـا العشائر واتفاقية تعريفة مشتركة)[٣] .

ومن المفارقات ان الحكومتين البريطانية والفرنسية حملت الحكومة العراقيـة كلفة هذا التوطين اذ فرضت عليها ضمان رأس مال لا يقل عـن (٢٥٠٠٠) جنيـه لذلك، وهاجر عدد منهم الى سوريا في نهاية تمـوز ١٩٣٣ كمـا شـرح السـفير البريطاني الامر لحكومة بلاده في الوثائق الرسمية. وكان الملك فيصـل وياسـين

---

(١) قوات نظمها الانكليز من الاثوريين لاستخدامهم في حماية مصالحهم في العراق.
(٢) نجدت فتحي صفوت: العراق في الوثائق البريطانية ص ٤٧٧، ٦٨.
(٣) ذات المصدر ص ١٠٨.

الهاشمي ونوري السعيد خارج البلاد (وفي اليوم الثاني والثالث من آب عاد الملك فيصل ونوري وياسين. وفي اليوم الرابع اعاد الفرنسيون الاسلحة الى الاثوريين واعادوهم الى العراق وفي اليوم الخامس وقعت المعركة وقام هؤلاء بمذابح في القرى الكردية العراقية مما اضطر الحكومة العراقية الى القيام بعملية تأديبية لاعادة النظام الى البلاد)[1] . وفر مار شمعون ووضع نفسه تحت الحماية البريطانية في قبرص. واذا علمنا ان في ذلك الوقت بالذات كانت الحكومة العراقية في مفاوضات مع كل من الانكليز والفرنسيين من اجل تحقيق مطالب الشعب العراقي في مزيد من الاستقلال وتصفية مشاكل الحدود مع فرنسا لعلمنا ان هذه الحركة وهذه المذابح لم تكن الا ضغطاً من هذه الدول على العراق لتحقيق مصالحها. وهو مثل صارخ على استخدام الاقليات كوسيلة ضغط موجه من الخارج على الدول.

الحروب والضغط العسكري

ان الحروب والحركات العسكرية التي اشعلتها الدول الاوربية هنا وهناك في جميع انحاء الدولة العثمانية لم تكن هي الاخرى الا وسائل للضغط على هذه الدولة من اجل احداث التغيير المطلوب الذي يحقق مصالحها ويضعف الدولة العثمانية تمهيدا للقضاء عليها فمنذ بدأ التغلغل الاوربي في الولايات العثمانية باسم التبشير تارة والتنقيب تارة اخرى او الاستثمار والتدريب الخ... تارة ثالثة، بدأ يكثر نشوب الحروب والفتن في طول البلاد وعرضها بدعم من اوربا وتحريض منها حتى ان الناظر الى التاريخ الحديث، في القرن التاسع عشر كما يقول عبدالعزيز نوار (لهذه الولايات ليعجب كيف كتب الله لها البقاء ولم تفنى عن آخرها وليعجب اكثر كيف، احتفظت بذلك القدر المعروف من التأخر، ولم تتدهور الى اكثر من ذلك!! وكان مركز هذا النشاط الضاغط على الدولة العثمانية هو –المقيمات– القنصليات

---

[1] ذات المصدر.

والسفارات والهيئات الدبلوماسية بالدرجة الاولى يساعدها في ذلك الجاليات الاجنبية لهذه السفارات)[1] . هذا غير رجال المخابرات الذين يرسلون خصيصا من اجل ذلك وباسم السياحة او التنقيب الخ... مثل بلنت وزوجته اللذان جابا في طول العراق وعرضه يحرضان على الثورة وحرب الدولة العثمانية وعلى رأس ذلك تحريضهم ودعمهم لفارس ابن صفوق، شيخ عشائر شمر الجربا، من اجل حرب الدولة العثمانية وتقديم نصائحهما له بعدم (التفاهم مع الدولة العثمانية مهما كانت العروض العثمانية)[2] . ولما اخفقا في ذلك نقل بلنت مساعيه الى مصر وكان له دور كبير ومعروف في تشجيع الثورة العرابية والتهيئة لها وحتى في ادارة معاركها عندما اشتدت، من لندن بواسطة كل من صابونجي، سكرتيره ومحمد عبدة، صديقه! كما سيأتي ذكره. ومثل لورنس الذي دخل البلاد العربية تحت ستار التنقيب وهو ليس خبيرا في التنقيب ولا في الآثار وانما عندما دخل سوريا اول الامر كان لا يزال طالبا يدرس التاريخ. وبعد ذلك في عام ١٩١٣ اختير، مع انكليزي آخر اسمه ولي للعمل في داخل الاراضي التركية شمال قناة السويس- التي كانت تركيا قد تخلت عن جزء منها لمصر سنة ١٩٠٦ تحت التهديد بالحرب!!- تحت ستار التنقيب (ومسح الارض التي في الانجيل... مع انهما لم يكونا من المتخصصين في الدراسات السامية) بل كانا كما يؤكد ريتشارد الدنجتون في كتابه، لورانس في البلاد العربية (على جهل شديد بالموضوع) وقد كان تقريرهما كما يقول ذي فائدة كبيرة لوزارة الدفاع البريطانية ابان الحرب الاولى مما جعل ريتشارد الدنجتون يلوم الكتاب الذين تناولوا حياة لورنس لانهم لم يعربوا عن (اقل قدر من الاسف او الاستياء حيال انتهاك الرسميين لحرمة العلم والدين واتخاذهما ستارا لهذه الاعمال

---

(1) عبد العزيز، نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٢٨٣-٢٨٤.

(2) ذات المصدر ص ٤٧٤.

السياسية العسكرية التي كانت تجري بتلك الطريقة الخفية التي اصبحت منتشرة ذائعة بصورة تدعو الى الاسف وتثير الرثاء...)[١].

ومن المعروف ان لورنس هذا كان له دور كبير في الثورة العربية اذ عمل مع الامير فيصل يدا بيد حتى اشتهر باسم لورنس العرب وباسم صانع الملوك لانه ساهم بتنصيب فيصل ملكا على سوريا وبعد ان احتل الفرنسيون سوريا واخرجوا فيصل منها عمل بالتشاور والتعاون مع ونستون تشرشل الذي كان وزيرا للمستعمرات أنذاك بتعيين فيصل ملكا على العراق وعبدالله ملكا على شرقي الاردن[٢].

اذ كانت مهمة هؤلاء وامثالهم وغيرهم من قناصل ومبشرين واصحاب المصالح التجارية الخ... بالاضافة الى عمليات المسح بكل اشكاله للاغراض العسكرية، التعرف وعقد الصداقات مع اصحاب الطموحات و المطامع من ابناء البلاد و مجاراتهم في أمانيهم أيا كانت لتحويلها بالتدريج لصالح دولهم، ومعالجة اصحاب الطموحات والمصالح الشخصية -او غير الشخصية- هؤلاء كل بما يناسبه ليجعل منه بطلا ثائرا يقود حربا ضد الدولة العثمانية من اجل الحرية والديمقراطية او الاستقلال او غير ذلك من الاساطير البراقة. فقد كتب بلنت مثلا برنامج حزب عرابي كما تريده وزارة الخارجية البريطانية التي اخذ موافقتها عليه قبل نشره على المصريين! وكان لورنس ينادي بكل ما يريده لويد جورج (وهو ان تمنح فلسطين لانجلترا واليهود الذين يريدون وطنا لهم وتعطى العراق والموصل لانجلترا تحت حكم عبد الله او سعيد[٣]. وتبعد فرنسا عن سوريا بواسطة عاهل وطني من دولة

---

(١) ريتشارد الدنجتون: لورنس في البلاد العربية ص ١٠٣.

(٢) انظر ريتشارد الدنجتون ص ٢٥٤.

(٣) المقصود زيد الابن الاصغر للشريف حسين وكان هذا الاقتراح قبل ان يخرج الفرنسيون فيصل من سوريا.

اخرى من افراد الاسرة الهاشمية، ذاتها بشرط الا يكن غير الود لاولياء نعمته في الجزيرة البريطانية[1] .

وحتى ايطاليا تبنت بعض الطامعين في السلطة والحكم. فليس من الصدفة ان يقوم الكواكبي خلال اقامته في مصر (١٨٩٨-١٩٠٢) والتي لم تتعدى الاربع سنوات برحلتين جاب خلالهما البلاد العربية. وقد ذكر ذلك صديقه صاحب المنار، رشيد رضا فقال انه بعد ان اختبر بلاد الدولة العثمانية ومصر والسودان وسواحل افريقيا الشرقية وسواحل اسيا الغربية واختبر بلاد العرب فدخلها (من سواحل المحيط الهندي وما زال يوغل فيها حتى دخل بلاد سوريا واجتمع بالامراء وشيوخ القبائل وعرف استعدادهم الحربي والأدبي...)[2] !! كما ليس من الصدفة ايضا ان يقوم قناصل ايطاليا بتسهيل مهمته في البلاد التي حل بها ونقله على ظهر (سفينة حربية ايطالية... طافت به سواحل العرب وسواحل افريقيا الشرقية فتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختبارا سبق به الافرنج) كما ذكر المؤرخ الاستاذ الغزي صديق الكواكبي ايضا[3] ، خاصة ان ذلك حدث في الوقت الذي شاع فيه بأن (الدولة الايطالية يسرت له الرحلة لانها كانت تطمع في نجاح المسعى الى خلع الخلافة التركية[4] . وانه هو نفسه طامع في الخلافة ويدعو لها لنفسه ويؤكد من اجل ذلك نسبه الى الرسول ﷺ مع انه كردي الاصل كما يؤكد العقاد. ومع العلم انه كان قبل ذلك قد اتهم في سوريا بالتواطؤ (مع دولة اجنبية لتسليم البلاد اليها...) الا انه وفي ظل الاستبداد! الذي ادعاه في كتابه طبائع الاستبداد طلب ان تكون محاكمته في قضاء بيروت التي تخضع للسيطرة الاجنبية وبرئت ساحته وهذه حوادث قليلة من

---

(١) ذات المصدر ص ٢٦٤.

(٢) انظر العقاد: الكواكبي، الرحالة ك ص ١٤٢.

(٣) ذات المصدر ص ١٤٣.

(٤) ذات المصدر ص ١٤٤.

واقع امتلأ بحوادث التحريض على الثورة او على الحرب التي كان يقوم بها ويدعمها عملاء الدول الاجنبية من اجل الضغط العسكري على الدولة لاضعافها وتحقيق مآربهم منها. وعلى رأس هذه الحرب التي اثارتها اوربا في البلاد العربية، في التاريخ الحديث والتي مهدت بها لما يسمى بالنهضة العربية بشكل مباشر او غير مباشر، وكانت من اكبر عوامل الضغط العسكري على الدولة العثمانية، والتي اضعفت الدولة بشكل جعلها تخضع لمطالب الدول الاوربية وتحقيق الكثير من مصالحها، في الوقت الذي لم تجن منها الامة العربية غير الخراب وسفك دماء ابنائها الذين كانوا، في الغالب، يقتل بعضهم البعض الآخر تماما كما حدث بعد ذلك في الثورة العربية، والتي هي الاخرى قامت بتحريض ودعم دول اوربا لتكون القشة الاخيرة اتي قصمت ظهر البعير كما يقول المثل الدارج، كانت هذه الحرب هي التي اثارها محمد علي، والي مصر لاقتطاع اجزاء من الدولة العثمانية ليكون لنفسه امبراطورية تؤول لذريته من بعده. وتتناقض تصريحاته بشأن حدود الامبراطورية التي يريد، واي الاجزاء سيقتطع من الدولة العثمانية فهو (قد صرح للقنصل البريطاني بأنه لا ينوي الاستيلاء على بغداد او على البصرة)[1]، مع انه صرح لأحد الفرنسيين قائلا (انني استطيع ان افتح عكا ودمشق وبغداد بكلمة واحدة مني... وابني المنتصر سيتوجه في اقل من عام ليحقق مقاصدي على ضفاف دجلة والفرات لانها حدود ثابتة للدولة التي اسعى الى انشائها)[2]، فهو كما يبدو اغتر بدعم الدول الاوربية له وخاصة فرنسا، وصدق بأنه قد اصبح فاتحا، وبطلا! ونسي او لم يخطر على باله انه كان اداة تحركها هذه الدول لتنفيذ خططها وتحقيق اهدافها بالضغط

---

(١) وذلك لأن بريطانية كما مر ذكره كانت ترى لنفسها حقاً في هذه البلاد وهو لا يريد ازعاجها!!

(٢) عبدالعزيز نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٣٠.

على الدولة العثمانية وما ان حققت مصالحها وفرضت ما تريد من معاهدات ومن تغييرات حتى حجمته -محمد علي- ودعمت الدولة العثمانية ضده ليعود ادراجه ويرضى بالسلطة على مصر فعليا والسودان اسميا. ويمكن تلخيص نتائج حربه هذه بما يلي:-

١- اضعاف الدولة العثمانية بمقاتلتها مباشرة وبما شجع عليه من حركات، اذ ارسل ابنه ابراهيم (يكتب الى كبريات المدن العراقية، بغداد والبصرة وكربلا والنجف والزبير... -كجزء- من خطة عامة هدفت الى اشعال نيران الثورات في مختلف انحاء الامبراطورية العثمانية توهينا لقوة السلطان...)[١] فانتهز الطامعون فرصة انشغال الدولة بحرب محمد علي فنشبت في بغداد ثورة عبدالغني جميل، في اليوم التالي لسقوط عكا في يد الجيش المصري، ضد الدولة العثمانية، وفر يحيى الجلبي من حلب واستولى على الموصل بمساعدة صفوق، شيخ عشائر شمر الجربا، واتفق محمد بك راوندوز مع محمد علي على ان تتقدم القوات المصرية في الشام والقوات الرواندوزية الى ماردين وديار بكر بقصد اقتطاع البلاد الكردية والعربية من الدولة العثمانية. هذا غير استغلال فئات اخرى من غير المنطقة العربية انشغال الدولة بهذه الحرب فقويت شوكتها وبدأت تثير المشاكل. وهذا كله، مع ضغط الدول الاوربية المباشر والمستمر، وضع الدولة في موقف حرج وجدت فيه ان مقوماتها اعجز من ان تعالجه. وفي غمرة يأسها (سعت الحكومة العثمانية الى ان تقوي من علاقاتها بالحكومة الانجليزية لتعينها ضد هذه القوة...)[٢]. ولم تكن بريطانية في اول الامر من مصلحتها تقديم العون للدولة العثمانية خاصة وان محمد علي كان قد سعى الى اقناعها (بأن توسعه لا يضر بالمصالح البريطانية) بل هو يرى ان على بريطانيا ان تتفق معه وتساعده

---

[١] ذات المصدر ص ١٩٦-١٩٧.

[٢] ذات المصدر ص ١٩٩.

لأنه (القوة الكفيلة برد العدوان الروسي خاصة اذا وقفت بريطانية بجانبـــه)[١] .
فتلكأت بريطانيا في التعاون مع الدولة العثمانية مما اضطر الســلطان الــى ان (يضع يده في يد القيصر الروسي الممدودة اليه) فعقد مع روسيا (معاهدة خنكــار سكلة سي)[٢] . وهنا دق ناقوس الخطر ليحذر بريطانية من مغبة موقفها السلبي. فهي لم تسمح لأي دولة غيرها بالظهور في المنطقة العربية ومنافسة مصالحـــها فيها. وقد بذلت الكثير في سبيل افشال خطط نابليون للســيطرة علــى المنطقــة العربية فكيف ستسمح بظهور روسيا كمنافس لها؟ فاغتاضت من محمـــد علـــي باعتباره سبب التقارب هذا بين الدولة العثمانية وروسيا، هــذا بالاضافــة الــى خشيتها ان يمتد توسعه الى العراق الذي هو حقها الطبيعـــــــي! -كمــا مــر ذكره. فسارعت الى العمل فطلبت من روبرت تيلر، الوكيل البريطاني في البــلاد العربية (ان يقدم المساعدات الممكنة لعلي رضا ليوطد اقدامه في الحكم ويقـــاوم الغزو المصري المنتظر...)[٣] واستغلت هي الاخرى (ظروف السلطان الصعبــة اثناء صراعه... وفرضت معاهدة ١٨٣٨ التجارية لتسري علـــى كــل البــلاد العثمانية... وبذلك فتحت اسواق البلاد العربية للبضائع والمنتوجـــات الغربيــة وبموجبها اكدت الامتيازات الاجنبية والغيت الرسوم والضرائب الســابقة وكــل انواع الاحتكارات في الدولة العثمانية)[٤] . وبدأت بريطانيا والـــدول الاوربيــة الاخرى تمارس ضغطاً اكبر على الدولة العثمانية التي صارت اضعف مــن ان تقف في مواجهتهم كما كانت تفعل من قبل، وحتى اليــهود صــاروا يســاومون الدولة بتهديدها بمحمد علي ففي عام ١٨٤٠ كتـــب بالمرســتون الــى الســفير

---

(١) ذات المصدر ص ٢٠٢،٤٢.

(٢) ذات المصدر ص ٢٠١.

(٣) ذات المصدر ص ٢٨٥.

(٤) عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للامة العربية ص ١٢٤-١٢٥.

البريطاني في استانبول كتاب اشار فيه الى (الاهمية الكبرى بالنسبة للسلطان في تشجيع اليهود ان يعودوا الى الاستقرار في فلسطين لأن ثرواتهم من شأنها ان تزيد من موارد الاقاليم التي يحكمها، وذكر بالمرستون ان الشعب اليهودي يعتبر ان العودة في ظل حماية السلطان، وبدعوة منه: تشكل ضمانا في مواجهة ما قد يتكشف عنه محمد علي وخلفاؤه في المستقبل من مآرب غير شريفة واضاف: انقل الى الحكومة التركية هذه التصريحات السرية وأوصها بتشجيع سائر اليهود على العودة الى فلسطين)[1]

٢- اشغال الدولة العثمانية وبعثرة جهودها التي كان يمكن ان تستغلها في مقاومة التوسع الاوربي، مما افسح المجال لهذا التوسع وخاصة التوسع البريطاني في المنطقة العربية. فانشغال الدولة العثمانية بالحرب مع محمد علي اتاحت الفرصة لمزيد من التدخل والسيطرة في منطقة الخليج خاصة وان علي رضا اضطر الى ترك (امر الدفاع عن جنوب العراق والخليج ضد المصريين للانجليز) الذين لم يفعلوا شيئا حياله في اول الامروغادر بغداد الى الشمال لشد ازر الجيش الرئيسي العثماني... في المعركة الفاصلة بين الجيش المصري والعثماني)[2]. مما اعطى فرصة اكبر لبريطانيا للتدخل في الخليج وفي المنطقة العربية وقد اكد هذا كاننج سفير بريطانيا في الاستانة الذي كتب لحكومته يقول: (ان المعونة التي تقدمها بريطانيا للسلطان في محنته... ستجعله يقدم تضحية معقولة مقابلها)[3]. وعندما تلكأ السلطان في السماح لبريطانيا في ... تسيير البواخر عبر نهر الفرات الى الخليج هدد الانكليز (بأنهم سيستخدمون طريق مصر اذا تلكأ

---

(١) الحسين، ملك الاردن: مهنتي كملك ص ٩٥-٩٦.

(٢) عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٢٤٤.

(٣) ذات المصدر ص ٢٤٥.

السلطان اكثر من هذا...)[1] وهكذا اوقعت الحرب هذه والصراع بين السلطان ومحمد علي الباب العالي بين شقي الرحى كما يؤكد عبد العزيز نوار:

أ- الضغط البريطاني بمطالبه المتعددة.

ب- الضغط الروسي المتزايد بعد معاهدة خنكار سكلة سي[2] .

٣- ساعدت هذه الحرب على فرض التغيير الذي تريده دول اوربا وعلى رأسه اقتباس حضارتها بما فيها من فكر ونظم ومنتجات. اذ ان التغيير يمكن ان يحدث عندما يجد النظام نفسه في موقف تعجز فيه مؤسساته بمقوماتها الذاتية عن التعامل معه مما يضطره الى التغيير، كما مر ذكره، وهذا عين ما فعلته حرب محمد علي اذ انها مع الحروب الاخرى التي واجهتها الدولة و (الهزائم المتوالية اقنعت اولياء الامر في القسطنطينية بالحاجة الملحة الى تنظيم جيش جديد تستخدم فيه الاسلحة الحديثة واساليب التعبئة في الدول الاوربية. ثم تبين لهم ان تعديل انظمة القضاء والتشريع وادارة الدواوين!! ضرورة، لا محيص عنها لسياسة رعاياهم ومدافعة الدول الاوربية!! التي كانت تتعلل بفساد الحكم في الدولة التركية للتدخل في شئونها...)[3] .

ومن اجل الاصلاحات (اصدر رشيد باشا خط كلخانة المشهور -٢٦ شعبان ١٢٥٥هـ - ١٨٣٩م. والذي اعتبر ثورة اصلاحية ساوت بين الطوائف المختلفة في الخدمة العسكرية وفي فرض الضرائب وامام القانون بصفة عامة. وصدرت القوانين الجنائية ووضع اسس للتقاضي والقوانين المدنية. وكلها كانت مقتبسة والى حد كبير من القوانين الفرنسية. وان كانت قد وضعت بقدر الامكان في اطار

---

(١) ذات المصدر.

(٢) ذات المصدر ص ٢٤٧.

(٣) العقاد الكواكبي، الرحالة ك ص ٣٩.

الشريعة الاسلامية الا انها اثارت رجال الدين الذين كانوا ضد هذا التشويه للقوانين الاسلامية[1] .

وهكذا فتحت الابواب كلها امام الحضارة الاوربية والفكر الاوربي والمنتجات الاوربية لتعمل كلها على هدم الاسلام والحضارة الاسلامية والدولة الاسلامية بعد ذلك. حتى ان مترنيخ، السياسي النمساوي (حذر العثمانيين من الخطر الكامن من وراء استعارة اساليب الحضارة الاوربية المتعارضة مع الحضارة الاسلامية العثمانية ودعا العثمانيين الى ان يظلوا متمسكين بطابعهم الاسلامي الشرقي على ان يمنحوا اهل الذمة الحماية وحرية العبادة)[2] .

ويمكن اعتبار هذا التغيير المتمثل بهذه الاصلاحات المقتبسة من النظم الاوربية بداية النهاية للدولة العثمانية لانها فتحت المجال واسعا للنشاط التبشيري الذي استغلته الدول الاوربية لنشر فكرها وعلمانيتها وماديتها وافساد الذمم -بشرائها- من اجل نشر دعواتها واثارة عدم الرضى بين الناس. واشاعت التفرق والتشتت بين ابناء الامة باشكال مختلفة، كما سيأتي ذكره، كما فتحت المجال واسعا امام الامتيازات والمصالح التجارية والاقتصادية الاوربية والتي هي الاخرى كانت تستغل لاغراض التجسس والتخريب في ربوع الدولة العثمانية بالاضافة الى تخريبها للاقتصاد الوطني المستقل اذ صاحب هذه الاصلاحات والانفتاح على الدول الاجنبية صدور مجموعة من التعليمات والقوانين، خدمت مصلحة هذه الدول ومنتسبيها باكثر مما فعلت بالنسبة لابناء البلاد اذ وضعت مثلا (تعريفة جمركية مخففة - ٣,٥- بالمائة على الواردات و ١٢ بالمائة على الصادرات بالنسبة للتجار الاجانب بينما كان التجار العثمانيون يدفعون ضرائب داخلية فان التجار الاجانب

---

(١) عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٤٤-٤٥.

(٢) ذات المصدر ص ٤٦.

كانوا معفيين منها ولا يدفعون الا الرسوم الجمركية المخفضة)[1] كما (اتخذ التجـار الاوربيون وكلاء محليين ممن يعرفون اللغات الاجنبية... وكان كافة هـؤلاء مـن المسيحيين الذي يتمتعون بحماية القناصل في حين تقلصت فئة التجار المسـلمين... وتبين ان مصالح وكلاء التجارة الغربية كانت مناقضة لمصالح الصنـاع المحليين الذين حرمهم الغزو التجاري الغربي العمل والمال. ورافق تدهور الصناعة والتجارة المحليين انحلال التنظيمات الحرفية[2]. فبدأ الاقتصاد يزداد تدهوراً والدولة تـزداد فقرا وضعفا وتبعية للاجنبي واستمر الحال يتدهور ولم يعد من السهل الحـد منـه. وكل من حاول الحد من هذا التدهور والوقوف في وجـه المصـالح والمخططـات الاستعمارية للدول الاوربية اتهم بالتخلف والرجعية وحورب كل من حاول ذلك مـن السلاطين حتى اسقط كما حدث للسلطان عبدالحميد وغيره.

ولذلك فمن تبسيط القول ان حرب محمد علي كـانت موجهـة ضـد الغـزو الاوربي او ان غرض القوات المصرية انذاك هو محاولة لحماية البلاد العربية مـن الاستعدادات السياسية والدبلوماسية والعسكرية العثمانية ولتكوين جبهة قوية عربيـة تعتمد على مصر في تلك الجبهات ضد المشروعات البريطانية هناك[3]. او لتكويـن امبراطورية عربية قومية! كما يرى البعض. فالحرب هذه لم تكن حركة عربية بـاي شكل كان. فلا محمد علي كان عربيا ولا من تعاون معه كان قوميا عربيا او يسـعى لمصلحة العرب او لاقامة حكم عربي! فلا محمد بك راوندوز كان عربيا ولا شـاه ايراه كان عربيا! وهو الذي كتب الى محمد علي كتابا يعرض فيه عليـه مسـاعدته قائلا: (ان تقوية الجامعة الاسلامية واحكام رابطة الصداقة والمودة منوطة باتحـاد الافكار والآراء... وانه اذا اقتضت المصلحة بمطالبتنا بأي تعضيد ومظاهرة فاننـا

---

(1) عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للامة العربية ص ١٢٤-١٢٥.

(2) ذات المصدر ص ١٢٥.

(3) عبد العزيز نور: تاريخ العراق الحديث ص ٢١٠.

مستعدون لادائها)[1] . واتحاد الافكار هذا لم يكن توحد العروبة وانما المصلحة في القضاء على الدولة العثمانية لتحقيق مكاسب وطموحات شخصية للاثنين، والتي هي في كل الاحوال ما كانت ستحقق الا مصلحة الدول الاوربية التي كانت تعمل في الخفاء لذلك. ولو قيض الله لمحمد علي النجاح في مسعاه لكان مصير امبراطوريته العلوية او الالبانية هو ذات مصير امبراطورية الشريف حسين بعد ذلك بقرن! فالمحرض لكليهما واحد، والهدف من التحريض والدعم واحد، فكما دفعت الدول الاوربية الشريف حسين للثورة وحرب الدولة العثمانية لتحقيق مطامعها الخاصة بها والتي تكشفت بعد الحرب فكذلك فعلت قبل ذلك مع محمد علي فقد (كانت المكاتبات الصادرة عن قنصلي بريطانيا في كل من بغداد وبوشهر تؤكد للحكومة البريطانية ان هناك علاقة وثيقة بين حكومتي طهران والقاهرة لتنظيم عمليات عسكرية ضد العراق، واتهم تيلر قنصل بريطانيا في بغداد الفرنسيين والروس بأنهم يحرضون الشاه على غزو العراق...)[2] . فاي امبراطورية عربية كان يسعى الى تحقيقها محمد علي كما يدعي البعض حتى جعلوا منه بطلا للقومية العربية؟!!! خاصة اذا علمنا ان الشعب العربي نفسه في العراق والشام كان ضد غزوه هذا وحاربه وغضب لانتصاره وفرح لاندحاره.

وكما ان حركته هذه لم تكن عربية فهي لم تكن اسلامية لانها بدأت اساسا بغزو الجزيرة العربية والقضاء على حركة اسلامية اصلاحية هي الحركة الوهابية التي كانت موجهة ضد البدع وتخلف المسلمين والعودة الى الاسلام الحق. كما انها لم تكون موجهة ضد المشروعات البريطانية في الخليج والا كانت وجهت مدافعها نحو القوة الانكليزية ومشروعاتها هناك ولم توجهها ضد الحركة الوهابية مستعينة بالدعم الانكليزي لها اذ وفر الانكليز للجيش المصري المؤن اللازمة له، إذ سعى سعيد

---

(١) ذات المصدر ص ٢٢٨.

(٢) ذات المصدر.

خورشيد، القائد المصري لعقد (قروض من البصرة والكويت ليشتري المؤن اللازمة من السفن البريطانية المتواجدة في الخليج)[١] هذا غير ان محمد علي كـــان دائمـــا يعمل على تطمين الانكليز على مصالحهم في المنطقة كما ســبق ذكـــره. فـــالجيش المصري ليس فقط لم يقاوم التواجد البريطاني في المنطقة بل كان يعترف به ويمتثل لما تفرضه عليه السلطة البريطانية من امور. فمثلا لما احتاج سعيد خورشـــيد فـــي حربه لابناء الجزيرة العربية الى سفينتين لضمان امدادات الجيـــش فـــي البصـــرة والكويت ورفضت الحكومة البريطانية السماح للسفن المصرية بالتواجد في الخليـــج عدل المصريون عن الفكرة[٢]، ورضخوا للامر ولم يفرضوا ارادتهم على الانكلـــيز كما كانوا يحاربون الدولة العثمانية ليفرضوا عليها ارادتهم وكمـــا حـــاربوا ابنـــاء الجزيرة العربية لاخضاعهم لارادتهم.!! فهي لم تكن الا واحدة من الحروب التـــي صممت من قبل الدول الاوربية، من اجل الضغط على الدولة العثمانية وعلـــى رأس هذه الدولة كانت فرنسا. حتى انه لا يستبعد ان يكون مجيء محمد علي اصلا مـــن ضمن مخططاتها خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار قول نابليون ان لتركيا (اكثر مـــن سبب للخوف من مصر، فمصر في نظـــر العـــرب الارض المقدســـة والعاصمـــة الطبيعية للدولة العربية، وقد كان من المحتمل ان يقوم باشا طموح لانهاض الامـــة العربية وعندئذ تتضاءل الى جانبها الدولة العثمانية)[٣]. فان صح هذا القـــول فلـــه معاني كثيرة، اذ لم يكن نابليون عرافاً يتنبأ بل هو رجل حرب ورجل سياسة يخطط ويعمل وفق هذه الخطط وقوله لا يعدو ان يكون خططا معدة للتنفيذ او هـــي تفكـــير بصوت مسموع او مكتوب! فمصر لم تكن ارض مقدسة في نظر العرب في أي يوم مضى كما لم تكن عاصمة طبيعية للدولة العربية ايضا بل كانت هي الســـور الـــذي

---

(١) ذات المصدر ص ٢١٤.

(٢) ذات المصدر ص ٢١٥-٢١٨..

(٣) محمد عمارة: فجر اليقظة العربية ص ٢٨٥.

يحمي الدولة العربية الاسلامية والذي صد الكثير من الحملات الصليبية الاوربيـــة، والعاصمة اساسا لا بد ان تكون في الداخل بعيدا عن السور وبعيدا عـــن الخطــر، وكثيراً ما وجه اللوم الى الدولة العثمانية عندما اتخذت الاستانة عاصمة لها لقربـــها من الحدود مع العدو. ولذلك يبدو ان نابليون ارادها ان تكون كذلـــك وقــد يكــون اختارها لتكون كذلك، كما من المحتمل انه اراد ان يوجد بها مثل هذا الباشـــا لينفــذ مخططاته!! والله اعلم، خاصة اذا اخذنا بالاعتبار ما قاله محمد عبدة في محمد علــي واتهامه بانه مهد للاحتلال بما احدثه في الشخصية المصرية من تخـــاذل وتغيــير سلبي افقدها القدرة على مقاومة الغزو كما فعلت في عهد المماليك وزمــن غــزوة نابليون اذ قال: ولقد (ظهر الاثر العظيم عندما جاء الانكليز لاخماد ثورة عرابـــي، دخل الانكليز باسهل ما يدخل به دامر على قوم... ثم استقروا ولم توجد في البـــلاد نخوة في رأس تثبت لهم ان في البلاد من يحامي عن استقلالها، وهو ضد ما رأينـــاه عند دخول الفرنساويين الى مصر وبهذا رأينا الفرق بين حيـــاة الاولـــى والمـــوت الاخير...)[١]. واذا اخذنا بنظر الاعتبار ايضا ان محمد علي كان على علاقة وطيدة بالفرنسيين منذ اشتراكه في المعارك ضدهم والى آخر حياته[٢].

والمدقق في احوال الامة يجد انه كما استخدمت انـــذاك الحـــروب والثـــورات كوسائل للضغط العسكري، لتحقيق مصالح خفية -او معروفـــة- للـــدول الاجنبيـــة فكذلك يحدث اليوم. والشواهد على ذلك كثيرة فيما يحدث من حولنا مـــن حـــروب وثورات لا تحقق ايا من مصالح الأمة.

---

(١) محمد عمارة: الاعمال الكاملة للامام محمد عبدة ص ٩٥ جـ ١.

(٢) انظر سعيد اسماعيل: الفكر التربوي ص ١٩٤.
وانظر مصطفى كامل اوراق مصطفى كامل ص ١٣٠.

المشاريع والضغوط الاقتصادية

بدأت المصالح الاوربية تنمو في الدولة العثمانية قبل القرن التاسع عشر بكثير، ولكنها لم تمثل خطرا يهدد الدولة الا في القرن التاسع عشر حيث عملت عدة عوامل على نموها اهمها انتشار فكرة التحديث والتطوير على الطريقة الاوربية والتي فتحت الابواب امام المستشارين والمدربين الذين عملوا على نشر الفكر الاوربي اكثر فاكثر ومهدوا الطريق لاقتباس اكبر للحضارة الاوربية بكل منتجاتها. فبدأت الدول تتنافس فيما بينها على تحقيق مصالح اكبر والحصول على امتيازات اكثر في الدولة العثمانية، من خلال الاصلاحات وخطط التحديث من جهة والمعاهدات والاتفاقات والتي كلها فرضت عليها بشكل او بآخر كما مر ذكره، يؤهلها لتحقيق السيطرة على اكبر قدر ممكن من الدولة العثمانية. وكانت اكثر الدول الاوربية تنافسا في ذلك هما فرنسا وانكلترة. ففي الوقت الذي ركزت فيه فرنسا جهودها للحصول على مواقع اكثر في شمال افريقيا وفي مصر وخاصة خلال حكم محمد علي وذريته من بعده، لأن منها كما خططت ستمر الطرق التجارية العالمية التي تربط الشرق بالغرب، كانت بريطانيا تعمل على ان يخلو لها الجو في كل من العراق والخليج لانها تخطط لان يكون نهر الفرات والخليج العربي، الطريق الذي يربط الشرق بالغرب. هذا بالاضافة الى ان كل منهما كانت تبغي توسيع نفوذها في المنطقة العربية للحصول على حصة اكبر في حالة انهيار الدولة العثمانية الذي كانوا يخططون له. ولذلك نجد ان الافغاني قال في مقالة يحرض فيها رجال الدين على شاه ايراه:

(ان الدول الافرنجية في اغتصابها البلاد يزاحم بعضها بعضا ويدافع كل منهما الاخرى... ولذا تكدح هذه الدول اناة الليل واطراف النهار في ابداع الوسائل التي تسوغ لها ان تسبق في مضمار فتوحاتها وتدحض بها حجج الفائها في مباراتها كل منها تعرض نفسها على الحكومات الشرقية كيدا منها ومكرا. هذه تقدم لها دنانيرها

دينا. وهذه تلتزم مكوسها وضرائبها على ذمتها نقداً و تلك تشتري منها حقوق العباد في متاجرهم سلفا والاخرى تتعهد ان تستخرج لـــها المعـــادن وتنشـــئ الجـــواد[1] والمسالك، وهلم جرا. وهذه كلها خدع، وانما الغرض منها ان تثبت لنفســـها حـــق استملاكها، وعلى هذه الوتيرة قد جرت سنة الافرنج في اغتصاب جزائر المغـــرب وتونس، والهند، وبلاد ما وراء الانهر ومصر وسائر ممالك المسلمين)[2] .

وكانت هذه المشاريع والمصالح والامتيازات الاقتصادية في الدولـــة العثمانيـــة تستخدم بطريقتين: فهي من جهة مراكز تجسس ومسح وجمع معلومات تفيـــد فـــي تنفيذ مخططاتهم العسكرية وغير العسكرية، بالاضافة الـــى اســـتخدامها كمراكـــز تحريض واثارة المشكلات. ومن جهة اخرى فقد كانت وسائل ضغط اقتصادي على الدولة العثمانية. اذ يعتمد اقتصاد الدولة بشـــكل او بـــآخر علـــى هـــذه المشـــاريع والامتيازات فتصبح ورقة بيد الدولة الاجنبية صاحبة المشروع او الامتياز تضغـــط بها على الدولة لتحقيق ما تريد من تغيير او من العمل نحو التغيير هذا. ومن الامثلة على قيام العاملين الاجانب في المؤسسات التجاريـــة والملاحيـــة والصناعيـــة- ان وجدت- وبعثات التنقيب بنشاطات اخرى تهدف الى توسيع نفوذ الدول المنتمين اليها في هذه البلاد ما كان يقوم به كل مـــن (جنســـي Chesney صـــاحب مشـــروع المواصلات البخارية عبر الفرات ولايارد layard من نشـــاطات لتوســـيع النفـــوذ البريطاني في العراق، وخاصة لايارد الذي... كتب عن العراق مجموعة كتب فـــي الوصف العام للعلاقات السياسية والاقتصاية واحوال الطوائف المسيحية واليزيديـــة والصابئة والعشائر العربية...)[3] . وكلها معلومات قيمة تفيد خطط الغزاة. هذا غير ما كان يثيره من مشاعر ضد الدولة (اذ كان يختار المناطق التي كانت فيها الســـلطة

---

(١) الطرق.

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة للافغاني ص ١٣٢-١٣٣.

(٣) عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٢٩٨-٢٩٩.

المركزية واهية وفيها عصبيات محلية تنزع الى الاستقلال) لنشاطاته هــذه (ومــن المعروف عنه انه اشترى بأمواله واموال حكومته خدمات شيوخ...)[١] القبائل فــي بعض من هذه المناطق كما عقد صداقات كثيرة مع شيوخ آخرين. وهو دور مشــابه لما قام به بلنت وغيره في العراق ومصر وبلاد عربية اخرى. ومن الجدير بــالذكر ان لايارد هذا عمل في ايران مع بعثة للتنقيب ولكن (شك كل من الطرفين الفرنسـي والبريطاني في ان بعثات التنقيب عن الآثار لم تكن للعلم. واخذ كل يدس للآخر مما اضطر لايارد الى ان يترك المكان للفرنسيين ويعود الى بغداد عام ١٨٤١)[٢] .

ومن الامثلة على استخدام المشاريع والامتيازات الاقتصادية كوسـيلة ضغـط على الحكومات ما حدث بين ريتش وكيل بريطانيا في العراق فــي اوائــل القــرن التاسع عشر وبين داود باشا فقد كــان ريتــش G.j.Ritch يسـتخدم (الطوائـف المسيحية واليهودية ويتخذها عيونا له) باسم الحماية ضد الوالي داود باشـــــا (وكان يحرض محمود بابان امير السليمانية على الانفصال... بل حــرض ريتــش حكومته لمساعدة الشاه ضد داود) خلال الحرب التي قامت بين ايران والعراق فــي عام ١٨٢٠-١٨٢١ فاجبر ريتش على مغادرة البلاد (ولكن الســلطات البريطانيــة وقفت امام داود موقفا صلبا. واوقفت التجارة مع العراق مما كبد خزانتــه خســائر فادحة. اذ كانت التجارة عبر العراق تمثل اهم ممول لخزانة داود...) ممــا جعلــه يضطر الى توقيع اتفاقية (اعادة الامور الى ما كانت عليه وقيدت داود بالفرمانــات والمعاهدات المعقودة بين السلطان وبريطانية...)[٣] .

وقد اكد كوتلوف في كتابه، ثورة العشرين، (ان الشركات الاجنبية لعبــت دورا مهما لكسب زعماء المجتمع العراقي حيث اقامت علاقات اقتصاديــة وثيقــة مــع

---

(١) ذات المصدر.

(٢) ذات المصدر ص ٣٢٠.

(٣) ذات المصدر ص ٣٠-٣١.

الاقطاعيين العراقين... كما بعثت دوائر المخابرات العسكرية والسياسية بعملائـــها بصفة سائحين ومبشرين وآثريين... وما الى ذلك.) ويقـــول: (ان الكثـيرين مـــن الانكليز ممن اشغلوا مناصب عليا في العراق بعد الاحتلال، امثال بيـــل، وصـــون، وليجمن... وغيرهم) كانوا قد زاروا العراق مرات عديدة في فترة ما قبل الحـــرب العالمية الاول. واستفاد هؤلاء من العلاقات التي اقاموها انذاك عنـــد تعينـــهم فـــي مناصبهم بعد الحرب. وقد اكد ايضا دور البعثات التبشرية (في تعبئـــة المواطنيـــن العراقيين سياسيا، وتجنيد العملاء من بين الزعماء الاقطـــاعيين...) كمـــا ذكـــر ان القنصليات الاجنبية كانت قد اصبحت (اوكاراً للتجســـس وبـــؤراً لشـــراء ضمـــائر رجالات المجتمع في العراق)[1] . اذ لم يكن دور القنصليات والبعثات الدبلوماســـية والعاملين فيها بأقل من دور المشاريع والامتيازات والعاملين فيها من حيث ممارســة الضغط على الدولة كلما سنحت الفرصة، مستغلين كل وسائل الضغط المار ذكرها.

الضغط من الداخل

ولكن الضغط من قبل قوى هي من خارج النظام، مهما استخدمت من وســـائل ستبقى محدودة الفاعلية. خاصة ان كانت المجتمعات او الانظمة المعنية بـــالتغيير لا تكن لهذه القوى ولنواياها الا كل الريبة وعدم الثقة كـــالمجتمع العربـــي الاســـلامي آنذاك، اذ كانوا قلة هؤلاء الذين كانوا يرون ان الدول الاوربية تبذل كل هذا المـــال والجهد لا لشيء الا لتحقيق تحرر الامة وسعادتها، مثل الطهطاوي وعبدة وغيرهمـــا من رواد النهضة، ولذلك كان لا بد من وجود قوى تضغط على النظام من الداخـــل، من ابناء الامة الموثوق بهم!! ومن اين لهم هذه القوى والامة على ما هي عليه مـــن الايمان بدينها وعقيدتها والتي منها تستمد حضارتها التي لا ترضى بغيرها بديـــلا؟ خاصة وان كل دعاة التغيير والاصلاح الموجودون علـــى الســـاحة انـــذاك كـــانوا

---

(١) كوتلوف: ثورة العشرين ص ١٠٢-١٠٣.

يضغطون على النظام من اجل فهم اكثر لهذه العقيدة وتمسك اكبر بها. فاذا لا بد من وسيلة او وسائل لاعداد كوادر جديدة من ابناء الامة ذاتها، ترى رؤية دول اوربـــا وتدعو للتغيير على الطريقة التي تريدها الدول الاوربية. وبدأت دول اوربا تعد هـذه الكوادر بوسائل مختلفة، ومن خلال مؤسسات مختلفة، ولكن رغم اختلافـــها فـــهي تخدم ذات الهدف، وهو اعداد الكوادر المطلوبة من اجل التغيير وعرض الحضـــارة الاوربية بكل الوسائل المتاحة، والدعوة لها. وكان على رأس هذه الوســـائل او قـــل المؤسسات: المدارس الاجنبية والارساليات التبشرية، البعثات الى اوربا، الجمعيـــات والاحزاب، ووسائل الاعلام -الصحافة والمنشورات- وحركة الاصـــلاح الدينـــي. وهذا ما سيعالجه الفصل التالي.



الفصل الثاني
اعداد الكوادر للتغيير

المدارس الاجنبية والارساليات التبشرية:

إن التعليم، هو دائما انجح وسيلة للتغيير. ولا يمكن ان تتم اية عملية لإحداث التغيير بدونه. فحتى عندما يتم التغيير بالقوة العسكرية (الثورة) فان عملية تعليم لا بد أن تكون قد سبقت إلى فكر الثوار وشحنتهم للقيام بالثورة واستخدام القوة. وخاصة ان كانت عملية التغيير تخص القيم والعادات والتقاليد الراسخة. فهذه لا يمكن ان تتغير بقرارات من اعلى بل تحتاج الى عملية اقناع واقتناع، وخاصة عندما تكون هذه القيم والعادات الخ... نابعة عن عقيدة دينية راسخة، فالرأي الديني كما قال رسل اثبت (في اكثر من مناسبة انه اكثر قوة من الدولة)[1] ولهذا لا يمكن التعامل معه من خلال القوانين واللوائح التي تصدر من خارج ذات الانسان نفسه. ولذلك فقد تحول الغزاة الاوربيون الى هذه الوسيلة الناجعة ليحققوا بواسطتها ما عجزوا عن تحقيقه بالقوة العسكرية ومن خلال الحروب الصليبية وحملة نابليون على مصر. ولهذا نجد ان الاهتمام بارسال الإرساليات التبشيرية وفتح المدارس الارسالية والاجنبية الاخرى ازداد في اوائل القرن التاسع عشر ونشطت الارساليات والدول الاجنبية في نشر مدارسها في انحاء مختلفة من البلاد. وان كان البعض يؤكد ان التحول الى التعليم بدأ منذ هزيمة ثامن حملة صليبية وبعد عودة قائدها لويس التاسع، الملقب بالقديس والذي اسر في المنصورة في مصر، الى فرنسا اذ هو (ايقن ان قوة الحديد والنار لا تجدي نفعا مع المسلمين، الذين يملكون عقيدة راسخة

(1) برتراند رسل: السلطان ص ١٥٣.

تدفعهم الى الجهاد.... (و) لا بد من تغيير المنهج، فكانت توصياته ان يهتم اتباعـــه بتغيير فكر المسلمين والتشكيك في عقيدتهم وشريعتهم[1].

وعلى اية حال فان الارساليات التبشيرية نشطت بشكل ملحوظ منذ اوائل القرن التاسع عشر وبدأت تتسابق فيما بينها على فتح المدارس التابعـــة لـــها. لا لخدمـــة اغراض دينية او اغراض علمية بحتة كما ادعوا وانما ومنذ البداية، اختلطـــت فـــي هذه المدارس الاغراض الدينية والعلمية بالاغراض السياسية. بـــل ان الاغـــراض السياسية كانت ومنذ البداية، هي الغالبة، وهي التي تطغى على الاغراض الاخـــرى. اذ كانت هذه المدارس والارساليات الاجنبية تسعى لتحقيق هدفين رئيسين: الأول هو نشر العلمانية والالحاد بين ابناء الامة، لتهوين عقيدتهم واضعاف اهم الروابط التـــي تربط بين ابناء الامة الاسلامية، وهي رابطتهم الدينية، من اجـــل اضعـــاف الامـــة ليسهل غزوها والسيطرة عليها بعد ذلك. وقد اعترف بعض المبشرين بهذا الـــهدف صراحة مثل الدكتور زويمر، كبير المبشرين في البحرين والذي قـــال فـــي احـــد مؤتمرات المبشرين: (ان مهمة التبشير الذي ندبتكم دول المسيحية للقيام بـــها فـــي البلاد المحمدية ليست هي ادخال المسلمين في المسيحية وانما مهمتكم ان تخرجـــوا المسلم من الاسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة تربطه بـــالاخلاق التي تعتمد عليها الامم في حياتها)[2]. وقال ايضا مؤكدا هذا الهدف العلماني والـــذي يسعون لتحقيقه حتى في المدارس الوطنية: (ان السياسة الاستعمارية لما قضت منـــذ نصف قرن أي منذ عام ١٨٨٢م تقريبا على برامج التعليم في المـــدارس الابتدائيـــة اخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام وبذلك اخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هـــي مسيحية ولا هي يهودية. ناشئة مضطربة مادية الاغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف

---

(١) ابراهيم نعمة: المسلمون امام تحديات الغزو الفكري ص ١٢.

(٢) انور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص ٥٣.

حقا، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة...)[١] ولذلك اكد انور الجندي في كتابه التربية وبناء الاجيال على ان غرض المدارس التبشيرية كان (علماني محض ينظر الى الاخلاق والاديان والعروبة والاسلام والتاريخ الاسلامي نظرة تشكيك وازدراء ويتناوله تناول النقد المشروب بروح الازدراء)[٢].

يؤكد غاردنر على الاغراض السياسية للمبشرين كما يوضح السبب الذي جعل الاوربيين بمدارسهم وارسالياتهم التبشيرية يوجهون سهامهم الى الاسلام ويتناولونه بتجريح حاقد بعيد عن الموضوعية والعلمية اللتين يدعونهما بقوله: (ان القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف اوربا، ويحاول المبشرون ان يروا العداوة بين الاسلام والغرب دينية ولكن الحقيقة لا تلبث ان تظهر من فلتان لسانهم فاذا هي سياسية)[٣].

ولذلك كان اكثر مدارس الارساليات التبشيرية التي تأسست تحت ستار التبشير للمسيحية كما يؤكد الكثيرون، لم تكن في حقيقتها الا مدارس تبشر بالعلمانية، وخرجت الآف الطلبة العلمانيين الذي استلموا منها عملية التبشير بالعلمانية والالحاد باسم التقدمية والعلمية! حتى ان بعض المبشرين القسس بالاضافة الى عملهم بالتربية السياسية الموجهة في المدارس هذه، والتي مهدت للاحتلال في كل مكان تعرض للاحتلال، حتى قيل (ان الدول الغربية ما طمحت الى الاستيلاء على بلد او اقليم من قارة افريقيا، او من الشرق عموما الا وسبقت اليها بافتتاح المدارس...)[٤] كانوا يعملون ايضا بجمع المعلومات تحت ستار البحوث العلمية، كما تحول البعض الآخر الى عاملين في الوظائف العامة في ظل الاستعمار الذي مهدوا له. مثل

---

(١) ذات المصدر.

(٢) ذات المصدر ص ٥٥.

(٣) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص ٣٩-٤٠.

(٤) ذات المصدر ص ٤٣.

دنلوب، القس المبشر الذي اصبح سكرتيرا عام لوزارة المعارف في مصر عام ١٩٠٦ ليطبق ما كان يدعوا اليه ويربي الشباب على تبنيه، فعمل (على محاربة اللغة العربية والاسلام والازهر... كما انشأ جيشاً ضخماً من الانجليز حملة الشهادات الاهلية للعمل بالمدارس المصرية...)[1] كل ذلك لغرض خدمة العلمانية والالحاد ونشرهما وليس لاغراض دينية. وحتى عملهم في الاتجاه الديني لم يكن الا لخدمة اغراض السياسة. اذ كان بعضهم بقدر ما كان يعمل على توهين ايمان المسلم بعقيدته واخراجه عن دينه، كان يعمل على ان يتمسك المسيحي بدينه مؤكداً على مواضع الاختلاف بين المسيحية والاسلام، مستهينا في ذات الوقت بالاسلام، نافيا كونه عقيدة الهية مؤكدا كونه من البدع التي ابتدعها البشر... وذلك لتعميق الفجوة بين المسلم والمسيحي وتفريق كلمة الامة وتشتيت شملها. ولذلك اكد كثير من المؤرخين، ومنهم بعض الاوربيين، على ان اتباع الديانات جميعا تعايشوا في ظل الحكم الاسلامي لمئات السنين ولم تحدث بينهم مذابح الا عندما تدخلت الدول الاوربية في شؤون المسيحيين وانتشرت ارسالياتهم التبشيرية ومدارسهم.

اما الهدف لهذه المدارس فهو اعداد قادة واصدقاء يتولون عملية الضغط من اجل تغيير قيم الامة وتقبلها لقيم الحضارة الاوربية كما يتولون العمل في تنفيذ التغيير عندما تسنح لهم الفرصة في تولي مواقع المسؤولية. ويؤكد هذا الهدف الكثير من الاوربيين انفسهم: اذ يؤكد جب مثلا، مهمة التبشير في اعداد القادة فيقول: (ان التعليم في مدارس الارساليات المسيحية انما هو واسطة الى غاية، هذه الغاية هي قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا افراد مسيحيين، وان المدرسة شرط اساسي لنجاح التبشير، وان المدرسة قوة لجعل

---

(١) انور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص ٦٦.

الناشئة تحت تأثير التعليم المسيحي اكثر من كل قوة اخرى، ثم ان هذا التأثير يستمر حتى يشمل اولئك الذين سيصبحون، يوما قادة اوطانهم)[1].

ويؤكد المندوب السامي البريطاني في مصر، في خطاب له في كلية فكتوريا بالاسكندرية مهمة هذه المدارس في اعداد اصدقاء يتعاطفون مع الدول الاوربية اذ يقول وهو يشير الى الطلبة من مختلف الجنسيات (كل هؤلاء لا يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية بفعل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على ان يفهموا اساليبنا ويعطفوا علينا... هذه الكلية تنمي فيهم من الشعور الانجليزي ما يكون كافيا لجعلهم صلة وصل للتفاهم بين الشرق والغرب...)[2]. وقد افصح اللورد اللنبي عن مهمة المدارس هذه في اعداد الاصدقاء: (حين قال في مأدبة عشاء اقامتها له الجمعية الانكليزية المصرية: -لقد نفذت السياسة التي وضعتها الحكومة البريطانية وهي عندي سياسة حسنة... واني واثق ان السواد الاعظم من المتعلمين يرغبون في ان يكونوا اصدقاء لنا...)[3] .

واكد كليبر اهمية المدارس في اعداد الاصدقاء والتمهيد للاحتلال اذ قال ان التربية الوطنية، في سوريا، (كانت بكاملها في ايدينا. وفي بداية حرب ١٩٠٤-١٩١٨ كان اكثر من اثنين وخمسين الف تلميذ يتلقون دروسهم في مدارسنا وكان من بين هؤلاء فتيان وفتيات ينتمون الى عوائل اسلامية عريقة، مما جعل الجمعية المركزية السورية التي تألفت في باريس تعلن عام ١٩١٧ ان جميع قلوب السوريين وعواطفهم تتجه الى فرنسا...) وقال ايضا (ان كلية عنيطورة في لبنان هي وسط ممتاز للدعاية الفرنسية) وان (مؤسساتنا تعمل دون ملل لتغذية النفوذ الفرنسي مثل معهد الدراسات العبرية في القدس، ومعهد الدراسات الاسلامية في

---

(١) انور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص ٣٧-٣٨.

(٢) ذات المصدر ص ٧٣.

(٣) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٤٢٧ جـ٢.

القاهرة، والمدرسة الاكليركية الدومنيكانية في الموصل الخ...) واكد على اهمية نشر اللغة الفرنسية والافكار الفرنسية فقال (ان انتشار لغتنا واشـعاع ثقافتنـا، واعمالنـا الانسانية وعظمة الافكار والعبقرية الفرنسية، هي الاعمال المكملة لنا وسـوف لـن نهملها ابداً)[1].

فهذه المدارس كما يبدو وكما يدل الواقع الذي صار اليه حال الامـة، كـانت تسعى الى قطع كل ما يربط التلميذ بحضارة امته من عقيدة وثقافة وفكـر وتـاريخ وعادات وتقاليد الخ... لتربطه بكل هذا من حضارة الغرب وذلك بما تعلمه اياه مـن مظاهر هذه الحضارة معروضا باطر وهمية، في الغالب، ولكنها براقة. مع مقارنـة هذا المعروض البراق! بما تجور به على اسس حضارته وثقافته وعاداته الخ... من تشويه وتجريح وتشنيع بالمقابل. فينبهر بما هو معروض عليـه فيتبنـاه، فـيزول الاختلاف بين فكره وفكرهم وبالتالي يزول الخلاف معـهم فيتقبلـهم ويعطـف او يتعاطف مع مصالحهم ويصبح لهم صديقا، بل داعيا لهم وهكذا بـالتدريج يصبـح فكرهم هو فكره الذي لا يعرف فكرا سواه ومن اين له ان يعرف وقد انقطعت الصلة بينه وبين تاريخه وجذوره بكل ما فيهما من فكر؟ ثم لماذا يعرف سواه؟ ان كان هـو قد عرف (مستودع الافكار الصحيحة وخالقة الصور الجميلة)[2] كما يصـف طـه حسين الحضارة الاوربية وبما ان الفكر الاوربي اصبح فكره الذي لا يعرف سـواه فهو يتحمس له ويدعو اليه وكأنه خاصته. وبما ان هؤلاء التلاميذ هم قادة المسـتقبل فانهم سوف لن يكتفوا بأن يكونوا دعاة للتغير هذا وانما سيعملون من مواقع التنفيـذ ايضا على احداث هذا التغيير المطلوب. ومن يقرأ لخريجي هذه المدارس من امثـال اديب اسحق وامين الريحاني وغيرهم ويتفحص اعمال طه حسين ولطفـي السـيد وقاسم امين وغيرهم من خريجي المدارس والجامعات الاجنبية ممن تسنم وظـائف

---

(١) محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٢٨٥ جـ٢.

(٢) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ٣٩٢.

مهمة في الدولة وحلل اعمالهم ونتائجها يفهم هدف هذه المدارس، الذي مــن اجلــه عملت الدول الاجنبية على فتحها في كل البلاد التي تطمح الى الاســتيلاء عليــها، لتكون جيلا يتخلق باخلاقها ويتبنى فكرها ويمهد لها طريق الاستيلاء على هــذه او تلك من البلاد المطموع فيها. وليتعاون هؤلاء بعد ذلك مع هذه الدولة المحتلــة فــي تسيير شؤون البلاد بالطريقة التي تخدم مصالح المحتليــن وســيطرة حضارتــهم، مرتدين جميعا ثوب العلم والمدنية والتقدم والتجديد والتطوير! هذا غير ثوب الوطنية والاخلاص، ولذلك كان المحتلون يحصرون الوظائف المهمة بخريجي هذه المدارس او بأعضاء البعثات الى الدول الاجنبية المشابهة لهذه المدارس في الاهداف.

وان كانت هذه المدارس يجمعها تحقيق هذين الهدفين الاساسيين الا انها كــانت تختلف فيما بينها بحسب انتماءاتها الى الكنائس والدول التــي تمولــها وتدعمــها. واختلاف الانتماءات هذا كان يفرض عليها تحقيق هدفاً آخر، وهو تحقيق الغلبة لهذه الكنيسة او تلك، وهي الغلبة التي يتم من خلالها غلبة هذه الدولة الاوربيــة او تلــك والتي تحمي هذه الكنائس والارساليات المتنافسة وتدعمها. ولذلــك كــانت الــدول الاوربية تتنافس فيما بينها على زيادة عدد الارساليات التبشيرية التابعة لها ودعمــها لتتمكن هذه الارساليات من خلال المدارس بنشر فكرها على عدد اكبر من النــاس مما يحقق سيطرة اكبر للدول الداعمة لها. اذ كانت حقوق الــدول الاوربيــة فــي الاراضي العثمانية كما يرى الاوربيون ويرى دعاتهم من العرب لا تقررها المصالح الاقتصادية وحدها بل عدد الكنائس والارساليات والمدارس وعدد المنتمين اليها، هو ايضا له دور في تأكيد هذه الحقوق!! ولذلك نجد نجيب عازوري مثلا، وهــو مــن اوائل دعاة القومية العربية!! يقول: (لا تكفي المصالح المالية وحدها لتدعم ادعاءات غزو منطقة لان كل الدول الاخرى اوجدت لها مصالح كما فعلت فرنسا، ولكن الذي لا يمكن لاحد ان يطالب به هو حماية الكاثوليك الذين يكونون لها انصارا عديديــن

ومحور حركة على جانب كبير من الاهمية)[١]. ففي نظره ان ما يشكل قوة فرنسا الحقيقية في البلدان العربية هو الكنائس الشرقية التي تكرس نفسها لفرنسا كارسالياتها، ويرى ان البعثات التبشيرية في القسطنطينية وسوريا وبلاد الرافدين الخ... يجعل (مقام فرنسا ونشاطاتها... يتحديان كل مزاحمة...) وذلك لكثرة عدد انصارها الكاثوليك من الكلدان والسريان والروم والذين يعددهم مع مطارنتهم وبطاركتهم ليصبح المجموع (سبعمائة وخمسين الف محمي فرنسي مع خمس بطاركة وسبعة وثلاثين مطرانا وثلاثة رؤساء اساقفة مبعوثين او مبشرين)[٢] !! وهذا في نظره يعطي لفرنسا حق طبيعي في املاك الدولة العثمانية وفي البلاد العربية المؤلفة من عشرات الملايين من العرب المسلمين الذي لا حق لهم في نظرة يستحق ذكره في كتابه الذي سماه: يقظة الامة العربية!!.

ومن اجل هذا الحق الطبيعي!! تنافست الدول الاجنبية في دعم الارساليات التبشيرية وانشاء المدارس التابعة لها. فانتشرت هذه المدارس في انحاء البلاد العربية. فنجد مثلا في الوقت الذي ركزت انكلترة فيه جهودها التبشيرية ومدارسها في العراق والبحرين من دول الخليج ركزت فرنسا جهودها في هذا المجال في سوريا وكل مدرسة تدعو لتأييد سياسة الدولة التي تدعمها لتكسب لها المؤيدين. فالمدارس التي تدعمها روسيا تؤيدها بالمقابل وتدعو لتأيد سياستها ودعم مصالحها، واخرى تدعمها انكلترة فتعمل على تأييد سياسة انكلترة وتدعو لها، ثالثة تدعمها فرنسا فتأتمر بأمرها وتدعو لها وهكذا!! كل نوع من انواع التعليم، كما يذكر سعيد اسماعيل، (يتبع دولة معينة لها مصالح خاصة في البلد العربي كان يقوم بدعاية واسعة لتلك الدولة، وكانت الكتب التي تعطى لتلاميذ هذا النوع من التعليم تشمل

---

(١) نجيب عازوري: يقظة الامة العربية ص ١٢١.

(٢) ذات المصدر.

تمجيداً لتلك الدولة)[١] وبالتالي تشكل هذه المدارس الشباب العربي تشكيلات مختلفة وتصبه في قوالب معينة صنعت في هذه الدولة الاوربية او تلك مما ادى الى تعدد الانتماءات! ليس داخل الامة ككل فقط وانما داخل الاسرة الواحدة التي توفد ابناءها وبناتها الى هذه المدارس فتجد (في المنزل الواحد ان الام ذات ثقافة امريكية والاب ذو ثقافة عربية والابنة ذات ثقافة فرنسية والابن ذو ثقافة انجليزية...)[٢] ولكن كلهم غرباء عن هذه الامة وعن عامتها بشكل خاص لا ينتمون بشيء الى تراثها او تاريخها او عقيدتها او أي شيء آخر من مكونات ثقافتها. اما على المستوى القومي فنجد كما يرى سعيد اسماعيل ان (هناك من يتشيعون للثقافة الفرنسية ومن يتشيعون للامريكية، او الانجليزية او الالمانية، ولكل منهم تفكيره الخاص واتجاهه الخاص)[٣].

وقد أكد جبران خليل جبران التشتت الفكري الذي أحدثته هذه المدارس في الشباب العربي وانتقده فقال:

(في سوريا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل صدقة، وقد كنا ولم نزل نلتهم -خبز الصدقة- لاننا جياع متضورون ولقد احيانا ذلك الخبز ولما احيانا اماتنا، احيانا لانه ايقظ -بعض- مداركنا ونبه عقولنا -قليل- واماتنا لانه فرق كلمتنا واضعف وحدتنا وقطع روابطنا وابعد ما بين طوائفنا حتى اصبحت بلادنا مجموعة معسكرات صغيرة مختلفة الاذواق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد في حبل احدى الامم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وامجادها فالشاب الذي تناول لقمة العلم من مدرسة امريكية قد تحول بالطبع الى معتمد امريكي، والشاب الذي يجرع رشفة من العلم من مدرسة يسوعية

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص ٤٣-٤٤.

(٢) ذات المصدر.

(٣) ذات المصدر ص ٤٤.

صار سفيرا فرنسيا والشاب الذي لبس قميصا من نسيج مدرسة روسية اصبح ممثلا لروسيا الى اخر ما هنالك من المدارس واعظم دليل على ما تقدم اختلاف الأراء وتباين المنازع، فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانجليزية يريدون امريكا او انجلترا وصية على بلادهم والذين درسوا بالفرنسية يطلبون فرنسا للتتولى امرهم. وقد يكون ميلها الى الامة التي تتعلم على نفقتها دليلا على عاطفة الجميل في نفوس الشرقيين، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجرا في جهة واحدة وتهدم جدارا من الجهة الاخرى.؟ وما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقلع غابة؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوما وتميتنا دهرا؟)[1].

وبالقدر الذي كانت فيه هذه الدول تدعم هذه المدارس الاجنبية والتبشيرية، كانت تعارض مراكز التعليم الوطنية العربية والاسلامية وتهاجمها على اعتبار انها متخلفة وسقيمة لانها تؤكد على تعليم اللغة العربية والقرأن الكريم وتعمل على توحيد كلمة الامة. اذ نجد مثلا اللورد فرين يقول عن التعليم في مصر: (اخال ان امل التقدم ضعيف طالما ان العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية، لغة القرأن كما في الوقت الحاضر ولا تتعلم اللغة الدارجة، واذا لم تؤخذ الاجراءات اللازمة للتحول الى العامية فسيستمر التخلف (ويستمر الجيل كسابقه غير صالح لخدمة وطنه سواء كانت للقيادة العسكرية او في الصنائع او في الخدمات)[2]. وقد نال الازهر والجامع الاحمدي وغيره من المدارس والمراكز الاسلامية للتعليم حصة كبيرة من نقد الاوربيين وهجومهم، فقد اشار تقرير للورد فرين نفسه عن التعليم في مصر (الى ان طريقة التعليم في الجامع الازهر جافة ودروسها في العقيدة عقيمة لا تثمر فائدة ولا نتاجا)[3] . وكأنه الخبير في العقيدة الاسلامية وطريقة تدريسها وما يثمر وما لا

---

(١) انور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص ٤٣.

(٢) ذات المصدر ص٦٢.

(٣) ذات المصدر ص ٦١.

يثمر في ذلك. وانتقد اللورد لويد الازهر ايضا واساليبه في التعليم ودعا الى تطويره ورأى في حالة عدم تطويره -ايجاد التعليم اللاديني) ونشره لمنافسة الازهر[1] .

اما في سوريا، فلم تقتصر الحملة على المدارس المحلية والوطنية على الكلام والدعاية ضدها لاظهار عجزها بل امتدت الى التآمر عليها وعلى مؤسسيها مثل ما حصل من القنصل البريطاني في دمشق مع مدارس المقاصد الخيرية الاسلامية. اذ حرض السلطات التركية ضدها كجزء من الحملة عليها وكأنه هو الحريص على امن الدولة العثمانية والحامي لمصالح سلطاتها! اذ اشار في رسالة له (بتاريخ ٢ أب اغسطس ١٨٨٠ الى ظهور مناشير ثورية وجد احداها امام باب داره، وقال انه من الواضح ان المنشور بقلم احد العلماء لان جانبا منه صبغ بلغة قرآنية. ومع ذلك فهو ثوري لانه يدعو للقيام والتخلص من حكم الذين امتهنوا مبادئ القرآن وتصرفوا كمشركين... وجلبوا البؤس والدمار الى المؤمنين في سورية... وتشير تقارير القناصل الى صلة مدحت باشا بهذه التحركات والى ان الدور الاساسي كان لجمعية المقاصد الخيرية)[2] ، وهي جمعية ذات اتجاهات اسلامية وطنية انشأت المدارس المسماة باسمها بدعم من مدحت باشا لتلبي الحاجات المتزايدة للتعليم ولتقلل من التوجه الى المدارس الاجنبية. وكتب ايضا نائب القنصل البريطاني في بيروت في ١٧ كانون الثاني ١٨٨١ يقول (ان الرأي السائد هو ان المناشير صادرة عن جمعية المقاصد الخيرية... وان مجموعة الناقمين انضمت الى جمعية المقاصد عند تأسيسها... وان مدحت باشا اسس جمعية المقاصد ورعاها ليعزز نشاط الجمعية الثورية...) ويذكر ايضا (ان القنصل الفرنسي في بيروت نسبها الى جمعية المقاصد... كما ان المخبرين الذي يكتبون جرنالات من دمشق الى اسطنبول ربطوا المناشير بمدحت باشا كسبيل للاستقلال بسورية او كوسيلة ضغط للحصول على

---

(١) ذات المصدر ص ٦٢.

(٢) عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للامة العربية ص ١٥٩.

صلاحيات اوسع...)[1] وهكذا استمرت الحملة على مدحت باشا الذي حاول اجـراء اصلاحات في سوريا لتحسين الاحوال وعلى جمعية المقـاصد الخيريـة التـي لا تنضوي تحت ظلهم وتوفر للطلبة تعليما وتوجيها مختلفا عن ذاك الذي يريدونه.

واستمرت نشاطات المدارس الاجنبية في اعداد القادة والاصدقاء المتعـاطفين مع الدول الاوربية واهدافها من جهة وفي الضغط على المؤسسات التعليمية الوطنية من جهة اخرى. ولم يخف هذا الضغط الا بعد ان استلمت المدارس الرسمية منـها مهمة تنشئة الاجيال تنشئة اوربية وعلى اسس اوربية واصبحت مسألة اتباع اوربـا والاخذ عنها، بفضل تلامذتها الاوائل ليست مما يجادل فيه، وبذلك انتهى او تقلـص دور المبشرين والمدارس الاجنبية، وتوقف بعضها عن العمل مثـل (الارسـاليات العربية الامريكية في الخليج العربي التي اوقفت نشاطها فـي مـارس ١٩٧٣)[2]. ليحتل الخبراء والمستشارون والفنيون مكانهم فلم تكـن دعابـة تلـك التـي قالـها خروشوف في الهند عندما قال: (سنرى من سيكون عنده عدد اكبر من المهندسـين نحن ام الولايات المتحدة)[3]، مشيراً الى مدى نفوذهم الذي سيتمثل بعدد الخبراء كما كان النفوذ قبل ذلك يتحدد بعدد المبشرين والمدارس التبشيرية والمنتمين اليها.

البعثات:

ليست البعثات الى الدول الاجنبية، كمنفذ اجنبي لاختراق حضارة الامة وهـدم شخصيتها، ولا كوسيلة لاعداد قادة التغيير بأقل تأثيرا من المدارس الاجنبية. بل هي مثلها من حيث الهدف ومكملة لها في معظم الاحيـان، اذ ان القسـم الكبـير مـن اعضائها هم من خريجي هذه المدارس التي كثيرا ما تشجعهم وتساعدهم على اتمـام دراستهم في المؤسسات المماثلة لها في البلاد الاجنبية، بل ان البعثات كثـيرا مـا

---

(١) ذات المصدر.

(٢) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث، ص ٤١.

(٣) سيروس سالزبرجر: اخر العمالقة ص ١٣٠.

تتفوق على المدارس الاجنبية في التأثير على الطلبة لأن الطالب في بـــلاده يكـــون على اتصال بحضارته ومقوماته الاصلية من خلال العائلة والمجتمع من حوله ولكنه في الغربة يكون بعيدا عن أي مؤثر غير مؤثرات الحضارة الاجنبية التي يراد لـــه التأثر بها والتشرب بها، حتى يتحقق رأي ماسنيون الذي قال: (ان الطلاب الشرقيين الذين يأتون الى فرنسا -يجب- ان يلونوا بالمدينة المسيحية)[1]. ومن خـــلال هـــذا التلون بالحضارة الغربية والتشبع بها يتمكن الغرب من التأثير بمجريات الامور. فقد قال السفير الامريكي في بغداد (١٩٥٤-١٩٥٨) ان دورهم في العراق لم يكن شيء يذكر بالنسبة لما يستطيعون عمله اذ كانوا يتمتعون (بذخر كبير من النيات الحســنة) تجاههم (وكانت ثمة منابع كثيرة لهذا الذخر، ثلاثة منها ذات اهمية: وهي كلية بغداد والجامعة الامريكية في بيروت، والمعاهد الموجودة في الولايات المتحـــدة والتـــي يذهب اليها العراقيون المتخرجون من احدى تلك المدرستين او من كليهما لاكمـــال دراستهم العليا)[2]. وهذا التأثير بمجريات الأمور من خلال طلاب المدارس الاجنبية والبعثات هو الذي جعل رينان متأكدا بان الاسلام (لا بد زائل بحكم انتشـــار العلـــم الاوربي... وهو يستشهد للبرهان على تأثير الاحتكاك باوربـــا فـــي تفتـــح العقـــل الاسلامي، بوصف الطهطاوي لباريس الذي كان قد اطلع عليه اذ قال: (ان الشـــباب الشرقي الذي يأتي المدارس لينهل من العلوم الاوربية، يعود حاملا مع هذه العلوم ما هو ملازم لها وغير منفصل عنها، الطريقة العلمية والروح التجريبية، وحس الواقع، واستحالة الايمان بالتقاليد الدينية المكونة، بصورة واضحة، بمعزل عن كل نقـد)[3]. ولا بد ان هذا التأثير نفسه هو الذي جعل بعض المســلمين المنبــهرين بالحضـــارة

---

(1) انور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص ٣٩.

(2) ولدمار غلمن: عراق نوري السعيد ص ٣٠٥-٣٠٦.

(3) البرت حوراني: الفكر العربي ص ١٥٢.

الاوربية اعتبارها كسيل جارف لا يمكن صده او الوقوف في وجهه كما فعل خير الدين التونسي.

وقد ابتدأت البعثات الى الخارج مع تزايد نشاط الارساليات لفتح المدارس الاجنبية في البلاد. فقد ابتدأ (محمد علي يرسل الطلبة المصريين الى اوربا حوالي سنة ١٨١٣ وما بعدها. واول بلاد اتجه اليها فكره هو ايطاليا لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن وغير ذلك من الفنون. اما اول بعثة علمية كبرى فقد ارسلت الى فرنسا في يوليو سنة ١٨٢٦ واخذ اعضاؤها ينتظمون في سلك المدارس الفرنسية ويتلقون العلوم والفنون باشراف السيد جومار)[١] . وتوالت بعد ذلك البعثات التي حققت اهداف التغريب بجدارة. وقد كان الطهطاوي وكتابه تخليص الابريز في تلخيص باريز اول الامثلة على ما حققته هذه البعثات من هدف اعداد كوادر تضغط من الداخل على النظام من اجل التغيير. اذ ان الطهطاوي وكتابه كما وصفه عزت قرني منبهرا به (اول الاصوات التي تتحدث الى المصريين والى كافة المسلمين -من الداخل- أي على لسان واحد -منهم- وليس على لسان -غريب- عنهم يأتيهم من الخارج، كما كان حال بونابرت مثلاً ومنشوراته المتعددة). وقد اعلن هذا الصوت كما يزعم عزت قرني (نهاية حصار الظلام على مصر، نهاية عصور العزلة، ليس فقط من الوجهة العقلية والصناعية ووجهة الطرائق الفنية -التكنولوجية- بل وكذلك من الوجهة الانسانية)[٢] . اذ كان الطهطاوي بكتابه هذا (داعية متحمسا للاتصال مع الافرنج) معتقدا ان الكمال في بلاد الافرنج امر ثابت شائع) واعتبر الاسلام (كلا شيء بالنسبة لفوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم) وبدا الطهطاوي كما يرى عزت قرني يدعو المسلمين (الى عالم جديد من الافكار السياسية والاجتماعية) و (هذه الافكار الجديدة هي افكار الثورة

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص ٤٨.

(٢) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ص ٣٠.

الفرنسية ١٧٨٩ كما عدلها دستور ١٨١٨ الذي صدر في عهد لويس الثامن عشر وكما انتقتها واكدت عليها ثورة ١٨٣٥ في فرنسا وهي التي انتهت باعتلاء الملك لويس فيليب عرش المملكة والتي رأى احداثها رأي العين فتانا النابه المتنبه)[1] .

وهكذا نجد ان فتانا النابه المتنبه! لم يكتفي بنشر افكار الثورة الفرنسية التي ما قامت الا لحل مشكلات فرنسا ذاتها ولم تكن الا ردة فعل لظروف فرنسا واحوالها الخاصة بها وانما نشرها مع كل تعديلاتها!! ايضا والتي هي الاخرى ما اجريت الا لتناسب احوال فرنسا انذاك وما افرزته الثورة من ظروف. نشرها ودعا اليها، من غير فحص ولا تعقل ولا تدقيق في هذه الافكار الجديدة ولا فيما رآه من آثارها في فرنسا ولا في جدوى هذه الافكار ومدى ملاءمتها لمصر والعالم الاسلامي. اذ هو لم ينظر اليها من خلال معيار معين ينبثق، ان لم يكن من عقيدة الامة لأن العلمانية لا تعترف بها، فعلى الاقل، من اهداف الامة وما تريده لنفسها ومن ظروفها وما تتعرض له انذاك من تهديد لكيانها ووجودها -وليس شخصيتها فقط -ومن حاجاتها الملحة انذاك لحماية نفسها من تلك الهجمة التي كانت تتعرض لها من قبل الاجنبي والتي لم تكن خافية على كل ذي بصيرة او نابه ومتنبه بحق، خاصة وان الطهطاوي كان معاصرا لغزو انكلترة للهند واحتلالها والقضاء على الدولة الاسلامية فيها وغزو فرنسا للجزائر وللمذابح التي احدثتها فيها بعد ذلك خلال مقاومة عبدالقادر الجزائري للاحتلال!!.

وعلى اية حال فان كان الطهطاوي اول المنبهرين بالحضارة الاوربية من المبعوثين الا انه بالتأكيد ليس آخرهم وانما هو اول سلسلة طويلة تمتد حتى يومنا هذا. تمتد وتتسع كل يوم حتى شملت عددا كبيرا ممن يسمونهم بالنهضويين الذين سيطروا ويسيطرون الآن على مجريات الامور في كل المجالات وخاصة في مجال الفكر. وكلهم تعاملوا مع الحضارة الغربية بانبهار شديد يعمي البصر والبصيرة.

---

[1] ذات المصدر ص ٣١-٣٢.

فهذا توفيق الحكيم مثلا يصف ما حدث له عندما ذهب الى اوربا وتعرف على حضارتها وقرأ لمفكريها وخاصة لماركس فيقول:-

(الذي حدث في عقلي كان شيئا مخيفا فكأني فتحت نافذة في رأسي هب منها اعصار هائل قلب كل شيء... ولكني كنت في بيئة تفكير ولأول مرة اشعر بشيء خطير حدث في حياتي. هذا الانتقال السريع من عصر الى عصر: كنت كسمكة النيل الهادئ خرجت فجأة الى موج تبرق فيه الافكار وترعد، وتتخذ فيه العقول صورة الخيول، تركض ركضا في كل حلبة من حلبات النشاط الانساني، كل حاجز تتخطاه وكل عقبة تقفز من فوقها، والركود عندها الموت... اذن كنا امواتا ونحن لا نشعر واحسست بالعقل يتحرك كالمهر حديث العهد بالجري فرح بحركة سيقانه يثب عليها، ويحاول الجري مع الخيول)[1].

وقبله لما تعرض سلامة موسى للحضارة الاوربية في باريس اراد ان يمسح كل ما تعلمه من قبل اذ يقول: (احسست كأني اريد ان انسى عن ظهر قلب كل ما سبق ان تعلمت وان امسح لوحة ذهني كي انقش فيها المعارف التي اختارها بنفسي...) ويشرح سلامة موسى انقلاب تفكيره عن حال المرأة مثلا فيقول: (كنت في مصر قبل ١٩٠٨ اعرف الحجاب وارتضي شعائره ولا اجد غرابة او عيبا في التلميذات الصغيرات يدخلن المدرسة السنية الابتدائية وعلى وجوهن براقع بيض، وكنت اجد الفصل بين الجنسين شيئا مألوفا، والبيت في مصر خدر كامل ونساؤنا مخدرات كاملات) لكنه لما وجد المجتمع الباريس واختلط به ورأى المرأة الباريسية على حريتها قال يصف شعوره: (شعرت ان افقا جديدا يفتح امامي)[2]. ويظهر اثر البعثة والتغريب في قوله (كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني وكلما زادت معرفتي باوربا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري

---

(١) سعيد اسماعيل؟ الفكر التربوي العربي الحديث ص ٤٩.

(٢) ذات المصدر ص ١٧٨.

بانها مني وانا منها. هذا هو مذهبي الذي اعمل له طول حياتي سرا وجهرا. فانا كافر بالشرق مؤمن بالغرب)[١].

اما طه حسين، فهو بعد ان يؤكد ان سبيل النهضة (واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهي ان نسير سيرة الاوربيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم اندادا، ولنكن لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب)[٢] يفاخر ويقول بأن (التعليم عندنا، قد امنا صروحه ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي... على النحو الاوربي الخالص ما في ذلك شك ولا نزاع في ان تكون مدارسنا الاولية والثانوية والعلية تكوينا اوربيا لا تشوبه شائبة). ويقول وبالرغم من ان (عقول ابنائنا واجدادنا كانت شرقية مخالفة لجوهرها وطبيعتها للعقل الاوربي، فقد وضعنا في رؤوس ابنائنا عقولا اوربية في جوهرها وطبيعتها وفي مذاهب تفكيرها وانحاء حكمها على الاشياء) [٣].

واطلع قاسم امين (على احوال الامم الراقية اثناء اقامته باوربا) كما يذكر جرجي زيدان في كتابه بناة النهضة العربية (فتمنى ان تكون امته مثلها، فنظر في اسباب الرقي فرآها كثيرة لا يمكن تناولها دفعة واحدة، ولا يتيسر شيء منها قبل اصلاح العائلة... فوجه غايته الى اصلاح المرأة المسلمة... وبعد اعمال الفكر ألف كتاب -تحرير المرأة- واسمه ينم على منزلة المرأة المسلمة في اعتباره. فهو يعدها مستعبدة وقد اخذ على عاتقه ان يحررها...)[٤]

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص٢٢٢ ج٢

(٢) طه حسين: مستقبل الثقافة ص ٥٤

(٣) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص ١٧٩-١٨١.

(٤) جرجي زيدان: بناة النهضة العربية ص١٠٨-١٠٩

وهكذا نجد اعضاء البعثات يتقاسمون الادوار منهم من اختص بالتربية ومنهم بتحرير المرأة! ومنهم بالسياسة وفصل الدين عن الدولة مثل علي عبد الرازق وغيره ومنهم بالقوانين والتشريعات مثل الطهطاوي والسنهوري الخ... وكلها علوم انسانية تعمل على تغيير القيم والعقائد واحداث فراغ فكري لملئه بالفكر الاوربي، مع ان الامة كانت في امس الحاجة الى التقدم الصناعي والعلوم التطبيقية والاكتشافات والاختراعات فيها، والتي هي اهم ما كانت اوربا متقدمة فيه حقيقة لا وهماً! ولكننا لم نجد من هؤلاء ولا من غيرهم ممن ادعوا العلم والفكر والتقدم من اخترع الة او اكتشف شيئا نافعا كدواء لعلاج مرض او مصل للوقاية منه او أي شيء من هذا القبيل! وحتى الطبيب منهم مثل شبلي شميل الذي درس الطب في باريس لم يعود الى سوريا حيث موطنه ليمارسه بل هو جاء الى القاهرة ليكتب في السياسة ويدعوا لتغيير القيم والعقيدة. بينما كان في ذات الوقت طلاب البعثات من اليابانيين لا يدرسون الا العلوم التطبيقية والصناعات المختلفة ليعودوا الى بلادهم لا ليروجوا لاستخدامها! وانما ليصنعوا مثلها ويطوروها ويكتشفوا غيرها وهكذا حتى صارت النهضة اليابانية الى ما صارت عليه اليوم!

وان كانت الارساليات والمدارس الاجنبية قد خف نشاطها في الوقت الحاضر بقيام المدارس الوطنية الرسمية -والخاصة منها ان وجدت- بمهمتها في التغريب الا ان البعثات على عكس ذلك فقد نشطت كثيرا عما كانت عليه وتعددت الدول التي يتوجه اليها الطلبة للدراسة. فبعد ان كانت مقتصرة على فرنسا وانكلترة في اول الأمر اضيف اليهما المانيا وامريكا ثم روسيا ودول اوربا الشرقية وايطاليا واسبانيا والصين الخ... ليزداد بذلك التشتت الفكري اكثر فأكثر مستهدفا التغريب ومسخ الشخصية العربية. كما تزايد (عدد الطلاب العرب، صناع السياسة في المستقبل! الذين يتدافعون افواجاً للدراسة في الاقطار الاجنبية وفي الغرب خصوصا. فخلال فترة السنوات السبع -١٩٧٤-١٩٨١- ارتفع عدد الطلاب المتوجهين الى الدراسة

في الخارج والمنتمين الى ٢١ بلدا عربيا من -٨٣٩٨٣- الى -١٥٢٠٠١- غالبيتهم يستوردون معهم نماذج تنمية -متغربة- بل وقيم اجنبية (و) بالتالي يساهمون في زيادة التبعية)[١] واستمرار تدفق الطلبة للدراسة في البلاد الاجنبية جعل دور البعثات في اعداد الكوادر للعمل مستمرا. فان كان دورها في اول عهد ما سمي بالنهضة هو اعداد القوى الضاغطة من الداخل لاجل التغيير واحداثه فان دورها اليوم هو اعداد الكوادر اللازمة لادامة التغيير الذي حصل والمتمثل بالتغريب والتبعية والرضوخ لسيطرة الحضارة الاجنبية الغربية على الامة.

الجمعيات والاحزاب:

لقد قامت الجمعيات والاحزاب العالمية والوطنية بدور مزدوج مشابه لما قامت به المدارس والبعثات الاجنبية. اذ استخدمت كمنفذ لاختراق جسم الامة العربية ونشر الفكر الاوربي فيها، وكوسيلة لتنوير العقول بالنور الاوربي وخاصة لمن لم يسعفه الحظ بدخول مدرسة اجنبية او الانخراط في بعثة الى الخارج، مثل الافغاني ومحمد عبدة وعبدالله النديم والكواكبي وغيرهم الكثير، واعدادهم ليكونوا قادة للتغيير يعملون بالضغط على القاعدة من اجل قبول التغيير والضغط على القمة لاحداث هذا التغيير بالاضافة لاعداد البعض منهم لاحداث التغيير عندما تسنح لهم الفرصة ويحتلون مواقع تنفيذية مهمة، كما فعل محمد عبدة بفتاويه!!

وكانت الماسونية على رأس الجمعيات العالمية التي كان لها تأثير كبير في مجريات الامور في العالم العربي منذ اوائل القرن التاسع عشر وخاصة في النصف الاخير منه. الماسونية كما يعتقد البعض هو الاسم المعاصر لحركة قديمة اسمها الجمعية الخفية ظهرت في عصر المسيح وكان هدفها تكذيب نبوته في مستقبل الهيكل وكونه (سيهدم ولا يبقى فيه حجر على حجر)[٢]. والبعض يرجع ظهورها

---

(١) بهجت قرني: بحث مقدم لندوة العقد العربي القادم ص ١٠٧.

(٢) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات ص – ٦٠.

الى قبل ذلك اذ يذكر شاهين مكاريوس في كتابه الاسـرار الخفيـة فـي الجمعيـة الماسونية ان سليمان بن داود (ملك اسرائيل كان اول معلم اعظم في الفرانماسـونية) وهو الذي تراس البنائين الاول الذين بنوا اورشليم ولذلك جعل (الماسون الحديثـون) هيئة المحافل الماسونية من ذلك العهد الى الآن على شكل هيكل اورشليم... ونقلـوا فصولا من التوراة يتلونها عند انشاء كل محفل جديد وتدشينه وادعوا ان الماسـونية قديمة تمتد الى ذلك الزمان)[1].

الا ان الماسونية لم تنشط في العالم العربي الا مع بداية الزحف الاسـتعماري عليه. فهيأت له سبل هذا الزحف وساعدته في غزوه اذ يقول القائد البريطاني لسـلي الذي قاد الجيش الانكليزي في غزو مصر والقضاء على ثورة عرابي عـام ١٨٨٢ (انني استسهلت الصعب وسخرت بالاهوال في كل البلاد لأنني حيث وجهت كنـت القى اخوانا من الماسون يرحبون بي ويساعدونني على ما اريد ولست ارتاب في ان نجاحي كان لأني استاذ في الماسون)[2].

ولذلك تبنى الاستعمار تأسيس محافلها في انحاء الوطن العربي لتمهد لهم هـذه المحافل سبل احتلال البلاد العسكري والفكري معا. ولذلك ايضـا انقسـمت هـذه المحافل وتنافست فيما بينها تبعا للتنافس بين الدول التي تتبناها، كمـا كـان حـال المدارس والهيئات التبشيرية، فمن هذه المحافل ما كان تابعا للمحفل الفرنسي يعمـل لخدمة مصالح فرنسا. ومنها ما كان تابعا للمحفل الانكلـيزي ويعمـل فـي خدمـة المصالح البريطانية، وهما الدولتان المتنافستان على احتلال البلاد العربية انذاك. وقد عملت الماسونية على نشر الفكر الاوربي من خلال المنتمين اليها من الافراد ومـن الاحزاب والجمعايت الوطنية التي اسسها هؤلاء الاعضاء على ذات النسق الفكـري ومن اجل تحقيق ذات الهدف، وهو نشر الفكر الاوربي والعمل على تقبله وسـيطرة

---

(١) الاسرار الخفية في الجمعية الماسونية ص ١١٨-١١٩.

(٢) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات: ص ٦١.

مفاهيمه على الحياة في المجتمعات العربية في جميع مجالاتها السياسية والاقتصادية والتربوية والعقائدية الخ...

وقد كانت مصر اول البلاد العربية التي حطت فيها الماسونية اذ يعود تواجدها في مصر الى القرن الثامن عشر او حتى الى قبل ذلك اذ يقول ابو اسلام احمد عبدالله في كتابه الماسونية في المنطقة ٢٤٥: (مكثت الماسونية في مصر قرونا، استقبلت في ختامها نابليون احد اعلام العميان وساعدته ليفي بالعهد الذي اخذه على نفسه، ان يبيع فلسطين عام ١٧٩٩ ليهود وماسون فرنسا...) ويقول ايضا ان كليبر الماسوني الذي اشترك مع نابليون في قيادة الحملة على مصر (اسس فيها محفلين...) وفي عام ١٨٠١م اسس المحفل الاسكتلندي (ليسحب البساط من تحت اقدام كل المحافل الاخرى...)[١].

اما في البلاد العربية الاخرى فقد تأخر تأسيس المحافل الماسونية فيها حتى نهاية القرن التاسع عشر. اذ تأسس في لبنان اول محفل عام ١٨٩٤م وكذلك في سوريا[٢]. وان كان محمد محمد حسين يشير في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر الى ان نشاطات الماسونية تواجدت في سوريا قبل هذا التاريخ معتمدا ما جاء في كتاب فضائل الماسونية، بقلم احد اعضائها يقول فيه (وقد ظهرت الماسونية في سورية في مظهر الاخلاص والمحبة اثناء الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ فان الاخوان المصريين والمهاجرين الذين جاءوا سورية قابلهم اخوانهم بالترحيب العظيم، ودعوهم الى محافلهم ومنازلهم...)[٣] اما في فلسطين، فقد تأسس اول محفل في عام ١٨٧٣م لتنتشر بعدها في مدن وقصبات فلسطين دون استثناء بينما تأخر

---

(١) ص ٣٣.

(٢) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات: ص ٦١.

(٣) ص ٣٢٩ جـ ١.

انتشارها في العراق الى ما بعد عام ١٩١٩م)[١] . أي بعد الاحتلال الفعلي للعراق من قبل بريطانيا. وفي الاردن لم تتأسس المحافل الماسونية الا بعد نكبة ١٩٤٨ اذ (اسس الفلسطينيون الذين انتقلوا لعمان محفلا ماسونيا تابعا للمحفل الاسكتلندي)[٢] . ولذلك لم تلعب الماسونية في هذه البلاد دورها بذات الفاعلية التي لعبته فيها في مصر والتي كما يبدو كانت قد اختارتها لتكون مركزا لنشاطها او بالاحرى كان الاستعمار قد اختارها لنشاطه وكانت الماسونية احدى منافذه الرئيسية فتبنى محافلها ودعمها بوسائل الاعلام المتوفرة انذاك، وهي الصحف والمنشورات، لتنشر فكرها الذي هو فكره، اذ ما صدقنا ادعاء الماسونيون بأنهم هم الذين (بنوا الحرية وهدموا سلطان الكنيسة في فرنسا) وبأن (زعماء الثورة الفرنسية كانوا من الماسون وان محفلهم هو الذي وضع شعار الثورة الفرنسية... (و) ان تركيا قد نالت دستورها بفضل عمل محافلها... (و) ان كثيرا من الزعماء العالميين امثال لافاييت وواشنجتون وماتسيني وغاريبلدي كانوا من الماسون[٣] . ولتخدم مصالحه ليس في مصر وحدها، وانما في البلاد العربية بشكل عام، وان كان تواجد الماسونية في مصر يعود الى سنوات كثيرة مضت، الا انها لم تنتشر وتزدهر وتصبح مؤثرة في الحياة السياسية والاجتماعية فيها الا من خلال تواجد الافغاني في مصر (١٨٧١-١٨٧٨) اذ نشطت المحافل خلال السنوات الثلاث الاخيرة من وجوده بشكل لم يسبق له مثيل فتضاعف عدد المنتمين اليها[٤] ، وازداد عدد محافلها حتى قيل انه بحلول عام ١٨٧٧ كان قد صار (في مصر وحدها ٣٩ محفلا عدا الدرجات العليا)[٥]. اذ كان الافغاني قد انتظم في سلك الجمعية الماسونية التابعة للمحفل

---

(١) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات ص ٦١.

(٢) ابو اسلام احمد عبدالله: الماسونية في المنطقة ٢٤٥ ص ٥٠.

(٣) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٣٢١ جـ ٢.

(٤) علي شلش: الاعمال المجهولة للافغاني ص ٢٤٦.

(٥) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات ص ٦١.

الانكليزي وتقدم فيها حتى صار من رؤسائها ولما اختلف مع هذا المحفل انشأ (محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنسي دعا اليه مريديه من العلماء والوجهاء...)[1] منهم محمد عبدة والخديوي توفيق وغيرهما. وكان يرى ان الماسونية هي الدواء الشافي لعلل العالم ومنها العالم العربي اذ يقول : (اذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون -وفيها كل بناء حر- واذا الآت البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة واخاء ومساواة، وتدك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الاحرار مطرقة حجارة ولا قامت لبنايتهم قائمة)[2] ولم يكتف الافغاني بنشر الماسونية ودعم محافلها وانما انشأ احزابا سرية تستلهم مبادئها وتنشر فكرها مثل الحزب الوطني الحر الذي حمل شعار مصر للمصريين وحزب مصر الفتاة وجمعية العروة الوثقى اذ يقول محمد محمد حسين في كتابه الاسلام والحضارة الغربية ان الافغاني (اول من ادخل نظام الجمعيات السرية في العصر الحديث في مصر... فأسس الحزب الوطني الحر... وكان حزبا سريا لم يمضي على تأسيسه عام واحد حتى اصبح اعضاؤه -٢٠١٨٠- عضو واصبح له رصيد ضخم في المصارف، وانشأ جمعية مصر الفتاة وانشأ صحيفة تنطق باسمها هي صحيفة مصر الفتاة ولم يكن فيها مصري واحد كما روى تلميذه محمد عبدة في كتابه (اسباب الحوادث العرابية) وكان اغلب اعضائها من شبان اليهود. وانشأ اثناء اقامته في الهند جمعية (العروة الوثقى) التي امتد نشاطها الى الشام والى مصر والى السودان وتونس. وكان من اعضائها عبد القادر الجزائري ومن اختاره من انجاله ورجاله. ومنهم محمد احمد المهدي السوداني الذي تتلمذ على الافغاني في مصر اربع سنوات)[3]. وقد ساد الاعتقاد ان جمعية العروة الوثقى هي جمعية اسلامية

---

(١) جرجي زيدان: بناة النهضة العربية ص ٧٦.

(٢) علي محافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب ص ١٠٢.

(٣) محمد محمد حسين: الاسلام والحضارة الغربية ص ٦٥.

اسسها الافغاني وساعده محمد عبدة فيها، تدعو الى اعادة الحكم الاسلامي وتدعو (الامم الى الاتحاد والتضامن ومقاومة الاستعمار... واختاروا ان تكون لهم جريدة تصدر بلسان عربي في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث ارائهم)[1]. ولكن اصحاب الاعتقاد هذا وهم كثيرون لم يتساءلوا: كيف يمكن لمن ارتضى الماسونية وحريتها واخاءها ومساواتها شعارا له، يؤمن به ويعمل وفقه وينشره على العالمين كوسيلة وحيدة لاصلاح العالم، ومنه العالم الاسلامي، بدل الاسلام ودستوره ان يؤسس جمعية وتكون اسلامية.؟ ولو كانت هذه الجمعية تنظيما اسلاميا تدعو حقيقة الى التضامن الاسلامي ومقاومة الاستعمار هل كانت جعلت من باريس مقراً لها تصدر منه فكرها، خاصة وان فرنسا هي نفسها الاستعمار المحتل لعدد من البلاد الاسلامية والخطر الذي يهدد بلادا اخرى؟ اما كان يمكن، وهي جمعية سرية في كل الاحوال، ان تجد لها متسعا في العالم العربي والاسلامي الذي كان يعاني من احتلالها فعليا؟ اما كان يمكن ان تجد لنفسها مكانا في الاستانة ذاتها لتقول ما تشاء ما دام ما تقول هو لجمع شمل الامة ومحاربة الاستعمار خاصة وقد كان الشعور بالخطر الاستعماري على اشده انذاك في العالم الاسلامي وفي الاستانة بالذات، والدعوة للجامعة الاسلامية كانت في اوجها يدعمها السلطان عبدالحميد نفسه؟ فبدلا من اذابة هذه الدعوة وتشتيتها كان يمكن للجمعية، خاصة وهي تدعو المسلمين للاتحاد والتضامن!، مساندتها غاضين الطرف عن السلطان واختلافهم معه كما اغضوا الطرف (والنظر والبصر الخ...) عن فرنسا وفظائعها في الجزائر وتونس والمغرب! -ثم ان المسلم الذي يدعو لرفع شأن الاسلام في البلاد الاسلامية على اساس من عقيدة الاسلام في ذلك الوقت الذي كانت الدعوة على اشدها هل يحتاج الى عمل سري مشبوه مشابه لذلك الذي تعمل من خلاله الماسونية المحضورة والمرفوضة من الامة الاسلامية انذاك؟ مثل الذي يصفه عبدة لاحد

---

[1] انظر عبدالباسط محمد حسن: جمال الافغاني واثره في العالم الاسلامي

اعضاء الجمعية شارحا له كيفية كسب الاعضاء اذ يقول: (وادخل اليه ابتـداء مـن طريق لا يعرفه وتلطف له في القول وان شئت اطلعه على شيء من مقالات العروة الوثقى فاذا انتهيت الى ما يعرف، ورأيت منه الميل والرضا، فاما ان يكتب الي واما ان يستعد لتلقي كتاب مني، ثم سراع الي بالخبر)[1]. وهل تحتاج جمعيـة اسـلامية تدعو الى ما فيه خير المسلمين ومحاربة اعدائهم انذاك (الى نظـام سـري دقيـق) كالذي وضعه محمد عبدة والافغاني للعروة الوثقى يوجب علـى (كـل مجموعـة تنضوي تحت لواء الجمعية ان تكون لنفسها عقدا خاصا ويتكون العقد مـن ثلاثـة يقسمون اليمين المعهود[2] وكل واحد منهم مكلف بدعوة الناس الى عقده والارتبـاط به مع الاحتراس التام...) فلماذا كل هذا السلوك السري المشبوه! والاسلام لم يكـن محضورا في البلاد الاسلامية، بل هو كان المرغوب والمطلوب التمسك به من قبـل الخاصة قبل العامة! والسلطان نفسه كان يعمل على جمع الناس تحت راية الاسـلام ليستظهر به على الاعداء؟ فالعروة الوثقى كما يبدو لم تكن الا تنظيما سياسيا مشابها لتنظيم الحزب الوطني الحر الذي شكله الافغاني كواجهة وطنية للجمعية الماسـونية. وقد اكد البعض على كونها (بديل للحزب الوطني الحر ذاك، وعلـى ان الافغـاني انشأها من اجل ان (يقيم الروابط النضالية مع الحركـات السياسـية والاجتماعيـة الاوربية التي تناضل في سبيل تحرير الانسان ويعقد لذلك الروابط الاكيدة مع الذيـن يتململون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من اهـالي اوربـا)[3]. وان صح هذا الكلام فانه يضع اهدافها بعيدا عن اتحاد المسلمين ومصالحـهم فـي مقاومة الاستعمار!! ويقربها من الماسونية واهدافها او القابية واهدافـها المشـابهة

(1) ذات المصدر ص٤٧.
(2) قسم الجمعية وكأن العمل الاسلامي يحتاج الى مثل هذا القسم
(3) محمد عمارة: الاعمال الكاملة للافغاني ص ٧١ جـ ١.

للماسونية، خاصة وان البعض يعتقد ان جمعية العروة الوثقى كانت (النسخة العربية من الفابية)[1]. الفها الافغاني بتشجيعهم وانطلاقا من افكارهم.

وان كانت علاقة العروة الوثقى بالماسونية غير واضحة، الا من خلال انتماء مؤسسيها -الافغاني وعبدة- للماسونية وهؤلاء اسبغوا على مقالاتهم توجهات ومقولات لتبدو في الظاهر وكأنها لصالح الاسلام والمسلمين، والله وحده يعلم بالنيات وبما تخفي الصدور. الا ان علاقة الافغاني بالماسونية وعلاقة الاثنين - هو والماسونية- بالحزب الوطني الحر وبحزب مصر الفتاة يؤيدها الافغاني نفسه اذ قال: عندما ذهب ليؤيد القنصل الفرنسي في عزل الخديوي اسماعيل الذي كانت الدول الاوربية قد عرضت عليه التنازل فرفض:

لقد اتيت بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن الحزب الماسوني والحزب الوطني الحر المنتشر في جميع انحاء القطر المصري لأقدم لجناب القنصل احترامنا، ثم ابدي له انه كان من المعلوم المقرر لدينا ان دولة فرنسا هي مصدر الحرية ومحتد الانسانية ومعدن الجمهورية الحرة. وكان طلبها لتنازل الجناب الخديوي موافقا لآرائنا مؤيدا لمشروعنا علما بأن بقاءه على عرش الخديوية يعدم ثقة اوربا بهذه البلاد وحكومتها، ويقف حركة سيرها في سبيل التقدم رأينا ان نظهر عواطفنا ونرفع الحجاب عن مقاصدنا لدى وكيل الدولة الرفيعة الشأن. ونبدي له على صورة رسمية انا متأهبون لاجراء ما نستطيع -وليس ما نستطيعه بقليل- لمداركة امرنا قبل فوات الفرصة ووقوع البلاء. وانا مستعدين لكثير من الاعمال المهمة لادراك هذه الغاية

---

[1] عبد الرحمن البزاز: بحوث في القومية العربية ص ٢٨٣-٢٨٤.
الفابية جمعية اقتصادية سياسية تأسست في انكلترة عام ١٨٨٤ من عدد من كبار المفكرين وكان لها شأن في الحد من الماركسية في انكلترة كما كان لها آثار ظاهرة على حزب العمال البريطاني كما يذكر البزاز نفسه

السامية اذ اصر الخديوي على ارائه علما بأن هذا الاباء يعود على هذه البلاد بالضرر العظيم...)[1].

وقد كتبت جريدة مصر التي اسسها الافغاني باسم اديب اسحق بعد اجبار اسماعيل على التنازل لولده توفيق تقول بعد تهنئة الحزب الوطني الحر وحزب مصر الفتاة بهذا النصر: (رأى الحزب المومأ اليه ان دول اوربا غير راضية بما وقع وغير واثقة بالحكومة، وعلى ان سر عدم رضاها وثقتها انما هو بقاء الخديوي اسماعيل باشا على رئاسة الحكومة المصرية. فاجتمع للنظر في هذا الامر والتوسل الى حفظ المصلحة الوطنية... وكانت الدول في خلال ذلك ترسل الينا الوكلاء يقيمون الحجة ويجهرون بالمعارضة ويصرحون بالوعيد والانذار الى ان وفد علينا جناب المسيو تريكو قنصل فرنسا الجنرال فاظهر قصد الدول على الوجه الواضح الجلي، اذ طلب من الجناب الخديوي ان يتنازل لولي عهده...)[2].

وهذا يؤكد العلاقة بين الماسونية والحزب الوطني الحر وحزب مصر الفتاة والافغاني كما يدل على تأيد هذه الاحزاب وتنفيذها لمطالب ورغبات الدول الاجنبية. وان تعذر عليها تنفيذها كمسألة التخلص من اسماعيل، فهي تطلب من الدول الاجنبية التدخل فتعطي الشرعية لهذا التدخل بدل ان تقاومه. كما ان الدول الاجنبية ذاتها، وحتى تعطي قوة وقيمة لعملائها من الاشخاص والاحزاب وتجعلهم ابطالا مخلصين تقوم بالامر ايا كان وكأنه تم بحركة وطنية! من هؤلاء الاشخاص والاحزاب.

ولما اعتلى توفيق –الماسوني الانتماء– عرش مصر خلفا لوالده كتبت جريدة مصر تقول: (فبشرى للحزب الوطني الحر وابناء مصر الفتاة فقد رافقهم السعد اذ وافاهم التوفيق بأن ولي امرهم فتى وطني حر الاراء جميل المقاصد طاهر الاخلاق

---

(١) عبد الباسط: جمال الدين واثره في العالم الاسلامي ص ١٧٦.

(٢) ذات المصدر.

يؤيد بالتفاف الفتيان النبهاء والاذكياء... فان هذا الامير... قد اشرب حب الحرية المعتدلة فنفرت نفسه عن الاوهام الموجبة للذهول الداعية الى الخمول ولسوف نرى من مساعيه ما يؤيد رأي الحزب الحر فيه...)[1].

ولكن ما ان تولى الفتى الوطني الحر!! امر البلاد حتى طرد الافغاني من مصر بتهمة ترأس (جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا والمضر بالبرية)[2]. والغريب ان كل من كتب ويكتب في هذا الموضوع يستنكر اتهام الافغاني بهذه التهمة ويعتبرها زائفة مع انهم جميعا يؤكدون على علاقته بحزب مصر الفتاة الذي الفه اديب اسحق المعروف بالحاده وفساده، باشارة من الافغاني، وهو حزب انتمى اليه الكثيرون من الشباب الملحد والماسوني وخاصة من اليهود! كما مر ذكره واكده محمد عبدة.

وهكذا انتشرت الماسونية في مصر وربت اجيالا من الماسونيين، تولوا مسؤوليات كبيرة في الدولة. ومن الماسونية هذه وواجهاتها كالحزب الوطني الحر ومصر الفتاة وغيرهما انبثقت الاحزاب العلمانية الاخرى مثل حزب الامة الذي اسسه تلامذة محمد عبدة باشارة من كرومر، وبمساعدة منه، كما يرى البعض، وتأييد كرومر ومساعدته للحزب جاءت كما يؤكد مجيد خدوري لكون اهداف الحزب (اتفقت من حيث المبدأ مع الهدف الرئيسي للاحتلال وسياسة بريطانيا، ولانها جاءت مناهضة للحركة المناصرة للخديوي والباب العالي)[3]. وكان كرومر يسمي حزب الامة بحزب الامام لانه كان يسير على خطى محمد عبدة في مقاومة سلطة الخديوي والعمل على تحديد سلطته، تخوفا فيما سيكون من احتمال استبداده بعد الاستقلال الذي كان في حكم الغيب!! بالاحزاب والمؤسسات النيابية. هذا مقابل

---

(1) ذات المصدر ص ١٧٤.

(2) ذات المصدر ص ١٧٩.

(3) مجيد خدوري: عرب معاصرون ص ٣١٩.

الاحتلال وقبول سلطته وتسلطه على اعتبار انه حقق الحرية والاستقرار والتقـــدم!! واعتماد الحضارة الاوربية بكل ما فيها حتى يرضى عنـــهم الانكلـــيز ويكافئونـــهم بالاستقلال، هكذا تعطفا!! ولذلك نجد مثلا لطفي السيد احد مؤسســـي الحـــزب رأى رؤية عبدة وفضل اتباع الوسائل السلمية في تعامله مع الاحتــــلال (ورأى ان دوره يقتصر مبدئيا على اعداد الشعب لتحمل المسؤولية عند انتهاء الاحتلال وتحريره من عبوديته وايقاضه من سباته)[1]! بل هو ذهب الى حد مساندته بريطانية في الحـــرب ضد الدولة العثمانية. وطلب من حسين رشدي رئيس الوزراء في يوليـــو ١٩١٤ ان يقدم اقتراحا للحكومة البريطانية يطلب فيه اعترافها باستقلال مصر اذا دخلت تركيـــا الحرب الى جانب المانيا. على ان تدفع مصر (ثمن استقلالها باشتراكها في الحـــرب الى جانب بريطانيا اذا ارادت بريطانيا ذلك)[2]. ولكن بريطانيا لم توافق على ذلـــك وخسرت مصر مليون جندي في الحرب الى جانب بريطانية وساهمت ميزانيتها في نفقات الحرب!! ولم تحصل مصر على الاستقلال!! وعلى أية حال، وسواء تأســـس حزب الامة المعارض للخديوي والموالي للاحتلال بمساعدة كرومر وباشارة منه او بمجرد تأييده وتشجيع فان ذلك يمكن ان يعد مثلا على كيفية استخدام الدول الاجنبيـــة المحتلة مسألة الاحزاب المعارضة كوسائل ضغط على الحكام بالاضافة لدورها فـــي اعداد قادة التغيير.

ومثل حزب الامة تألفت احزاب اخرى كثيرة في مصر وغير مصر وكلها وان اختلفت اسماؤها تلتقي مع الماسونية وروادها بالفكر العلماني وتقبل الفكر الاوربـــي ومنتجاته المادية والمعنوية والعمل من اجله ونشره باسم التقدمية والتحرر والمدنيـــة الخ.!!

---

(١) ذات المصدر ص ٣١٥.

(٢) ذات المصدر ص ٣٢٠.

اما الجمعيات والاحزاب العالمية الاخرى فلم يكن لها ذات الفاعلية التي كانت للماسونية، وان كانت قد حاولت العمل ونشر فكرها التغريبي او الالحادي مثل الفابية ومثل جمعية الفحامين (الكاربوناري) وغيرها الكثير وذلك لانها لا تختلف عن الماسونية كثيرا لا في الفكر ولا في الاهداف وان كان هناك اختلاف عنها فهو في الغالب يأتي من جهة انتمائها. ففي الوقت الذي كانت فرنسا وانكلترة تدعم الماسونية في البلاد العربية كانت ايطالية تروج وتدعم الكاربوناري اذ (تسرب اعضاؤها الى كل مكان يغشاه الايطاليون في مواني البحر الابيض، ومدن الشرق الادنى ومنها التوسكانية)[1] وقد كان الكواكبي من الذين تعرف على هؤلاء الايطاليين وكانت علاقته بهم كما يرى العقاد (تزيد على اللازم لهذه المعرفة حتى خطر لبعضهم انها تمتد من الصحبة الى التواطؤ على السياسة الخفية)[2]. وظلت الماسونية بفكرها وواجهاتها المختلفة تسيطر على الفكر السياسي في البلاد العربية حتى جاءت الماركسية والشيوعية العالمية في النصف الأول من هذا القرن لتنافسها وتقاسمها الانتماءات وارتباط الاحزاب والجمعيات المختلفة بها.

والشيوعية ايضا تهدف الى التوسع والسيطرة على العالم من خلال توحيد القيم والمفاهيم فيه. وقد تغلغل اليهود في الحركة الشيوعية وخاصة في البلاد العربية لتحقيق مصالح قومية خاصة بهم، كما تغلغلوا قبلها بالماسونية. ففي مصر اسس الحزب الشيوعي فيها يهودي اسمه (هنري كوريل... واعضاءه من اليهود مرتبطين بالحركة الصهيونية العالمية). ومنهم جوزف روزنتال، والحزب الشيوعي العراقي اسسه يوسف سلمان (مسيحي) النازح من تركيا الى العراق والمتعلم في مدرسة الرجاء الصالح الامريكية! وسيطر اليهود على الحزب وتأسست منظمة شيوعية اطلقت على نفسها (الحزب الشيوعي العراقي ترأسها يوسف هارون زلخة...)

---

(١) العقاد: الكواكبي، الراحالة ك ص ١٣١.

(٢) ذات المصدر ص ١٣٤.

وحتى عصبة مكافحة الصهيونية-الشيوعية- (كان معظم اعضائـــها مـــن اليـــهود الصهاينة)[١] ولهذا حرص الحزب الشيوعي العراقي كما يذكر نزال الحديثي (علـــى ارسال متطوعين للحرب الاهلية الاسبانية ســـنة ١٩٣٦ وتجـــاهل ابنـــاء الثـــورة الفلسطينية التي كانت تدعوا ابناء الامة للانضمام في صفوفها)[٢]. وكـــان الحـــزب الشيوعي العراقي كما تؤكد الوثائق البريطانية لعام ١٩٣٦ يتلقى المال والتلقين مـــن فلسطين[٣].

والحزب الشيوعي الفلسطيني تأسس عام -١٩٢٠ وكان سكرتيره حاييم اورباخ ويضم يهودا نازحين الى فلسطين.

ورغم ان الفكر الماركسي ظهر منذ اوائل النصف الثاني من لقرن التاسع عشر الا ان الشيوعية واحزابها لم تنتشر الا في اوائل القرن العشرين وبعد ان تأسســـت الدولة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي. فربط الحركة الشيوعية به وصارت الاحزاب الشيوعية تدعوا له وتدافع عنه وعن مصالحه وتعمل على توسيع نفوذه في البـــلاد، وتستلهم مواقفها من مواقفه ونظرتها الى الامور من خلال نظرته. ومن الامثلة على ذلك موقف الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي من الحـــرب العالميـــة الثانيـــة. فالحزب الشيوعي العراقي فيها، مثلا، (عند بدء الحرب بين المانيا وانكلتره والتي لم يدخل الاتحاد السوفيتي فيها وصف الشيوعيون الحرب بأنها حرب -اســـتعمارية- وانها- حرب نهب وسلب واقتسام العالم- وطالبوا (ان يقف العراق على الحياد مـــن هذه الحرب) ولكن عندما دخل الاتحاد السوفيتي الحرب مع الحلفاء ضد المانيا قـــالوا ان (الحرب انسانية وطالبوا بفتح الجبهة الثانية ودعوا شعوب العالم الى ان تتحمـــل

---

(١) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات ص٩٩

(٢) ذات المصدر ص ١٠١.

(٣) نجدة فتحي صفوت: العراق في الوثائق البريطانية ص ٢٧٦.

نصيبها في هذه الحرب)[1] . واعتبروا الجيش البريطاني جيش تحرير!! اذ قال فهد عام ١٩٤٢: (لما كانت هذه الحرب وحدة لا تتجزأ، ولما كان الضرر الذي يصيب أي جزء من اجزاء الجبهة الديمقراطية العالمية الموحدة يضر بالاتحاد السوفيتي فنحن نعد الجيش البريطاني الذي يحارب النازية جيشا تحريريا... اننا مع الانكليز وكفاحنا مع الانكليز... ويجب ان نعمل كل ما من شأنه ان يساعد الجيش البريطاني في العراق...) واعتبر كل من يعرقل شؤون جيش الاحتلال البريطاني في العراق من المتآمرين الذين سيقف الحزب لهم بالمرصاد[2]!!

اما موقف الحزب من القضية الفلسطينية وقرار التقسيم فقد تحول من النقيض الى النقيض نسبة لتبعيته للاتحاد السوفيتي. ففي تشرين الأول ١٩٤٥ اصدر بيانا اعلن فيه عداءه للحركة الصهيونية وشجب فيه (فكرة انشاء الوطن القومي الصهيوني في فلسطين) واعلن (تضامنه مع الشعب العربي في فلسطين مطالباً بتأليف حكومة وطنية ديمقراطية مستقلة، وايقاف الهجرة اليهودية وانتقال الاراضي العربية لايدي الصهاينة وقفا باتا) وفي رسالة لسكرتير الحزب فهد مؤرخة ١٩٤٧/١١/١ اكد (ان وجود بعض مئات الالوف من اليهود الذين سبق واصبحوا

---

(١) انظر عادل غفوري: احزاب المعارضة في العراق ص ٤٣.

(٢) مالك سيف للتاريخ لسان ص ٣٠٠.

ومما يذكر هنا ان سلوك الاحزاب الشيوعية الاوربية كان مما ثلا لذلك اذ قال ونستون تشرشل يصف موقف الحزب الشيوعي البريطاني بعد دخول الاتحاد السوفيتي الحرب: (... واخذ الشيوعيون البريطانيون... والذين كانوا يصفون حربنا بالحرب الرأسمالية الاستعمارية. ينقلبون الآن بين عشية وضحاها فيملأون الجدران بالاعلانات التي ترفع شعارهم، الجبهة الثانية الآن...) ذات المصدر.

اما الحزب الشيوعي الالماني فقد حارب في صفوف الجيش الاحمر السوفيتي!! الذي هاجم المانيا وساهم في المذابح واعمال السلب والنهب والاغتصاب التي تعامل بها الجيش الاحمر مع الالمان المدافعين عن وطنهم!!

من سكان فلسطين -لا يعني انهم قومية- وان الحل هو ليس في التقسيم وانما في تشكيل دولة ديمقراطية مستقلة) ولكن بصدور قرار التقسيم في ٢٨ تشرين ١٩٤٧ واعتراف الاتحاد السوفيتي بدولة اسرائيل ايد الحزب التقسيم وشجب الحرب الفلسطينية وسماها (الحرب الفلسطينية القذرة) باعتبارها (حرب استعمارية) واعتبر السكوت عنها جريمة.[١]. واصدرت اللجنة العربية الديمقراطية التي كان يرأسها يوسف اسماعيل بيانا في باريس يتضمن (دفاعا حارا عن تقسيم فلسطين وتبرير قيام اسرائيل بمفاهيم ماركسية -لينينية- اقترنت بمعلومات خاطئة ومشوهة ودعوات باطلة تصب جميعها في مجرى الاهداف الصهيونية)[٢]. كما يذكر مالك سيف.

ورغم ادعاء الشيوعية بعالميتها وانسانيتها ومدافعتها عن شعوب العالم! الا ان احزابها تتعصب وتتحزب لهذا او ذاك من المعسكرين الشيوعيين المتنافسين على السيطرة على العالم. فالتابعين للصين يتعصبون في المدافعة عنها والتابعين للاتحاد السوفيتي يتعصبون له ويدافعون عنه وعن مصالحه حتى في مواجهة الشيوعيين الآخرين.

وهذا التعاطف بين اصحاب المذهب الواحد امر طبيعي وليس غريبا وانما الغريب ان لا يحصل هذا التعاطف والتعاون بينهم فمن المعروف ان جامعة الفكر والعقيدة هي اقوى جامعة يمكن ان تجمع البشر ولهذا عملت الدول الاوربية على ان يجمعنا واياهم فكر واحد. ولهذا ايضا تدعي الكثير من الاحزاب والجمعيات العالمية رغم كونها جميعا تقوم على افكار اوربية ما وجدت الا لتحل مشكلات خاصة باوربا او تحقق مصالحها في غزو العالم واستغلاله واستعباده. فالماركسية مثلا لم تكن الا فكرة اوربية بحتة كما وصفها نزار الحديثي اذ قال: هي (خلاصة تطور الفكر الاوربي في ثلاث اتجاهات... الفلسفة الكلاسيكية الالمانية والاقتصاد السياسي

---

(١) عادل غفوري: الاحزاب المعارضة في العراق ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) مالك سيف: للتاريخ لسان ص ١٩٥.

الكلاسيكي الانكليزي والاشتراكية الفرنسية... (و) هي بنيــــة التــاريخ الاوربـــي، فماركس وانجلز باعترافهما لم يتوفر لهما قراءة تاريخ العالم خارج اوربا لذلك لـــم يستطيعا ان يريا نمطا حضاريا آخر او صيغة في الانتقال التــاريخي وتجــدد فـــي الحضارة غير النمط الاوربي)[1] لذلك لا يكون لباس العالمية فيها الا لتحقيق سيطرة اكبر لدعاتها في المنبع على العالم، ينافسون به الامبريالية المماثلة لها مـــن حيـــث المنشأ والهدف. ولذلك لا يلام اصحاب هذه العقائد المستوردة من العرب المســلمين على هذا التعاطف مع دول المنشأ لهذه العقائد. وانما يلامون على استيرادهم لـــهذه العقائد الاجنبية اصلا ولبسها والتباهي بها والدفاع عنها وكأنها خاصتهم! من غـــير حتى تدقيق بمتانتها وباهدافها البعيدة والقريبة، وبمدى خدمتها لمصالح الامة وتحقيق ما تطمح اليه من اصلاح وتقدم ورفاه الخ... ومن غير حذر مما يمكن ان تجلبه هذه العقائد للامة من اخطار تهدد استقلال الامة واراضيها وخيراتها وشخصيتها ككل.

ولم يقتصر دور الدول الاوربية منذ اول عهد النهضة وحتى يومنا هذا علـــى توظيف الحركات والجمعيات العالمية! لخدمة مصالحـــها وانمـــا ايضـــا شـــجعت الحركات المحلية التخريبية المشوهة للاسلام والمفرقة للمسلمين مثل البابية والبهائية المنبثقة منها والتي ظهرت في ايران على يد احد اتباع الباب وهو بهاء الله فتلقفـــها اصحاب الماسونية والصهيونية ليجعلوا منها حركة عالمية تخدم مصالحـــهم. فقـــد حور بهاء الله المذهب البابي وجاء (بعقيدة جديدة مدعيـــا انـــه خاتمـــة الوحـــي لا للمسلمين وحدهم بل للبشر اجمعين)[2] . ولما لاقت الدعوة معارضة ورفـــض فـــي ايران، وجدت لها من حيفا مقرا، قبل ان تنتقل الى امريكـــا (وانتخبـــت صـــهيونيا

---

(١) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات ص ٩٢-٩٣.

(٢) فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الادني ص ٨٩.

امريكيا اسمه ميسون ليكون رئيسا روحيا لجميع افراد الطائفة البهائية في العالم)[1] وكذلك عملت هذه الدول على دعم الجمعيات والاحزاب المحلية التي تشاركها الرؤية وتتبنى فكرها كما شجعت دعاتها من تلامذة المدارس الاجنبية وغيرهم على تكوين التجمعات الحزبية تحت ستار تحقيق اهداف علمية او ادبية علنياً لخدمة اغراضها غير العلمية!

فقد تأسست جمعية التهذيب (١٨٤٥-١٨٤٦) كأول جمعية عربية ثقافية ولكنها لم (تقتصر على موضوعات لغوية وادبية بل مست مناقشاتها موضوعات مثل الوطنية واحياء امجاد الماضي، وتكونت الجمعية الشرقية ١٨٥٠ باهداف مماثلة ولكنها كانت كاثوليكية في حين كانت الاولى بروتستانتية...)[2] وفي عام ١٨٤٧ انشأ المبشرون البروتستانت الجمعية السورية في بيروت لغرض نشر العلوم... وكان من اعضائها البارزين ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني والدكتور ميخائيل مشاقة وميخائيل مدور ونعمة ثابت وانطونيوس الاميوني ومن الاجانب القس سميث والدكتور فانديك والقس طومسون والمستشرق منصور كرلتي والدكتور يوحنا، ورثبات وتشرشل. وفي عام ١٨٥٢ اصدرت هذه الجمعية مجلة تحمل اسمها وعهد الى المعلم بطرس البستاني بتحريرها)[3]. وفي سنة ١٨٥٧ انشئت الجمعية العلمية السورية على غرار الجمعية السورية واختلفت عنها بانها خليط من المسلمين والمسيحيين، وظلت عاملة حتى عام ١٨٦٨ وحصلت على اعتراف الدولة العثمانية الرسمية لها)[4]. وفي عام ١٨٧٥ ظهرت في بيروت

---

(١) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات ص ٦ (ومن الجدير بالذكر ان الافغاني كان منتميا لهذه الطائفة البهائية كما يذكر فيلب حتي في صفحة ٩٢ من كتابه اعلاه وكما يؤكد اديب اسحق) انظر الكتابات السياسية والاجتماعية لأديب اسحق ص ١٣٨.

(٢) عبدالعزيز الدوري: التكوين التاريخي للامة العربية ص ١٤٩.

(٣) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي ص ٤٠.

(٤) ذات المصدر.

جمعية سرية عرفت باسم (جمعية بيروت السرية) عملت بكل حذر لايقظ الشعور العربي لدى المواطنين...)[١] وبعد اعلان الدستور ١٩٠٨ (انشئت اول جمعية عربية... عرفت بجمعية الاخاء العربي العثماني وكانت برعاية الاتحاد والترقي. كما وافق الاتحاديون في صيف ١٩٠٩، بعد عزل السلطان عبدالحميد، على انشاء المنتدى الادبي كملتقى للادباء والطلاب العرب في استنبول على ان يكون بعيدا عن السياسة. ولكن هذا المنتدى فتح له فروعا في مدن سوريا والعراق وكان ينشر الفكر القومي بحذر بين شباب العرب...)[٢] وهذا قليل من كثير من الجمعيات التي انشئت باسم الادب والعلم. اما الجمعيات السياسية فهي اكثر من ذلك بكثير. ففي سنة ١٩٠٩ انشاء عزيز المصري جمعية سرية عرفت باسم الجمعية القحطانية تهدف الى تحويل الدولة العثمانية الى مملكة ذات تأجين... وذلك بان تؤلف الاقطار العربية مملكة لها برلمانها وحكومتها المحلية ولغتها القومية ومدارسها ومؤسساتها على ان تصبح جزاء من امبراطورية تركية عربية)[٣] وتأسس ايضا في ١٩٠٩ حزب الحرية والائتلاف في بغداد وفتح له فروعاً في البصرة في عام ١٩١١[٤]. وخلال ذات الفترة ايضا تأسست جمعية العهد في الاستانة وكان مؤسسوها اعضاء في حزب الاتحاد والترقي منهم حكمت سليمان ونوري السعيد الذي فتح فرعا لها في العراق وكذلك من اعضائها علي جودت -ضابط من الموصل- ورشيد عالي الكيلاني ورشيد الخوجة وياسين الهاشمي، مؤسس فرع الجمعية في الموصل[٥]. وهؤلاء جميعا تسلموا مقاليد السلطة والحكم في العراق بعد احتلال بريطانيا للعراق!!

---

(١) محمد السقاف: في العروبة والقومية ص ٨٧-٨٨

(٢) ذات المصدر ص٨٧-٩٠

(٣) ذات المصدر

(٤) عادل غفوري: احزاب المعارضة في العراق ص ٧٠-٧١.

(٥) نجدة فتحي صفوت: العراق في الوثائق البريطانية ص ٥٧.

وفي سوريا تأسست جمعية اكبر من جمعية العهد باسم فتح لتحرير سوريا من خلال التحالف مع الدول الاجنبية -انكلترا وفرنسا- كما يذكر لورنس في كتابه اعمدة الحكمة السبعة (والاستعانة بمساعدتهم لهدم الامبراطورية العثمانية)[١].

واسس نجيب عازوري الجمعية الوطنية في باريس! سنة ١٨٩٢ وكانت تدعو الى امبراطورية عربية يرأسها سلطان عربي على ان تكون ولاية الحجاز مستقلة، يحكمها شخص يجمع بين كونه ملكا للحجاز وخليفة لكل المسلمين تناط به السلطة الدينية للمسلمين جميعا كما هو الحال في بابا روما وعلى ان تحتفظ لبنان بنوع من الاستقلال وبحماية الدول الاجنبية[٢]. والف جماعة من السوريين من الذين نزحوا الى مصر الجمعية اللامركزية (وكان منهم عبدالحميد الزهراوي الذي اشتغل بالتحرير في صحيفة الجريدة المعارضة للجامعة الاسلامية، وكان منهم عبدالرحمن الكواكبي مؤلف -طبائع الاستبداد- و- ام القرى- وكان منهم محمد رشيد رضا، صاحب -المنار- ورفيق العظم وحقي العظم، ومحب الدين الخطيب)[٣]. هذا غير الاحزاب التي شكلتها الاقليات غير العربية.

فقد تأسست جمعية باسم الاستقلال الكردي واتخذت القاهرة مقرا لها. كما تأسست جمعية اخرى في استنبول باسم بعث كردستان[٤] الخ...

وأكثرية هذه الاحزاب وغيرها مما لم يذكر كانت تستلهم فكرها (ان لم يكن اهدافها ايضا) من الفكر الاوربي. وترتبط بالدول والمؤسسات الاجنبية بشكل مباشر وغير مباشر، وعلى الاقل فكريا ان لم يكن ماديا وهو الموضوع الذي لا بد ان يؤخذ بنظر الاعتبار، خاصة انه لم يكن، انذاك، هناك من يستطيع ان يمول نشاطات

---

(١) P. 45-46.

(٢) نجيب عازوري: يقظة الامة العربية.

(٣) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ١٠٠ جـ ٢.

(٤) كوتلوف ثورة العشرين ص ١٤٦.

هذه الاحزاب من الافراد المؤسسين او الاعضاء المنتمين! فمن كان يمولها؟ ثم ماذا كان الهدف الاساسي لكل هذه الجمعيات والتجمعات؟!.

لو تركنا الطموحات الشخصية للافراد المؤسسين والمنتمين لهذه الجمعيات واماالهم في تحقيق العلو في الارض من خلال السلطة والتسلط والتي كانت تدفعهم للعمل في هذه التجمعات متخفين وراء شعارات العروبة والاستقلال والتي تتجلى في طموحات الكواكبي والشريف حسين وخديوي مصر، وغيرهم الكثير، في الخلافة الاسلامية كما فهمها وحل اشكاليتها الغرب! وحتى الافغاني داعب خياله الطموح للخلافة ولهذا انتسب للرسول الكريم وعرض نفسه على الحكومة الانكليزية خلال ازمتها مع المهدي ليكون بديله، ولكن لسوء حظه عندما وصل الى انكلترة كان المهدي قد مات وانتفت مصلحة بريطانيا في تنصيبه، فاهملوه. وهذه الطموحات يدل على بعضها الجواب على من تسلم السلطة بعد الاحتلال الاستعماري للدول العربية واعطى الكثير من التنازلات بالمقابل؟ اليس هم في الغالب اعضاء هذه الجمعيات والاحزاب. فالناظر الى العراق يجد ان معظم من تسلم السلطة آنذاك كانوا اعضاء في هذه او تلك من التجمعات الاوربية المنحى، ومعظمهم كانوا قبلها اعضاء في الاتحاد والترقي!! وكذلك الحال في مصر وغيرها من البلاد العربية المعنية بالتحرر انذاك. ومما هو معروف ولا مجال لذكره. وهؤلاء او غالبيتهم ارتضوا بالاحتلال وتعاونوا مع المحتلين وحققوا التبعية للدول الاجنبية المحتلة اكثر من التبعية التي كانت لبلادهم مع الدولة العثمانية التي تربطهم واياها رابطة الدين والتاريخ المشترك، والتي رفضوها!! وانحازوا للاجنبي. ولمن ينكر دور هذه الطموحات نتوجه بالسؤال لماذا كل هذه الجمعيات ما دامت اهدافها وشعاراتها واحدة ولا تتعدى العروبة والاستقلال عن الدولة العثمانية؟ لماذا هذه الجمعيات والشعب العربي في غالبيته كما يدعون جاهل لا يفقه؟ لماذا كل هذه الجمعيات والمهتمون بالسياسة وبالعروبة والاستقلال عن الدولة العثمانية هم قليلون جدا، بل اقل من القليل بين ابناء

الشعب العربي الذي كان غالبيته يرفض هذه التوجهات ويعتبرها كفراً وعمالة للدول الاجنبية. وحتى من كان منهم يرتضي الخروج عن الدولة العثمانية كان غير مستعد للحرب الا من اجل استقلال العرب ولا يرى فائدة من دعم الحلفاء ضد تركيا، بل كانوا يفضلون، كما يذكر لورنس نفسه (دولة عربية موحدة بتركيا في علاقة خضوع دونية بائسة عن دولة عربية مقسمة تحت سيطرة القوى الاوربية مهما كانت متسامحة)[1]. ويذكر لورنس تأكيدا لما جاء اعلاه، انه في جلسة مع الامير فيصل واعوانه ابدى استياءه من اعدام جمال باشا لعدد من شخصيات سوريا السياسيين ففوجيء بأن الحاضرين اعترضوا عليه واعتبروا عمل جمال باشا مشروعاً وانه كان تنفيذا لاحكام يستحقها هؤلاء لتآمرهم مع حكومات اجنبية وقبولهم ولاية الانكليز والفرنسيين مقابل مساعدتهم ضد تركيا مما يعتبر جريمة في حق الوطنية العربية. وهنا كما يقول لورنس ابتسم الامير فيصل وغمز بعينه للورنس وقال: (نحن هنا نجد من الضروري الارتباط بالانكليز ونحن مسرورون بصداقتهم لنا وشاكرون لهم مساعدتهم آملين بفوائد مقبلة ولكننا لسنا رعايا بريطانيين)[2]. وكأن بريطانيا كانت ترضى بأن تجعل العرب بريطانيين! ان كل هم بريطانية انذاك هو احتلال البلاد العربية وجعل العرب عبيدا في خدمة مصالحها ولن يسمحوا بأكثر من ذلك. فحتى لورنس الذي لتعاطفه مع العرب اطلق عليه اسم لورنس العرب كان كما يذكر رتشارد الدنجتون في كتابه الثورة العربية (ينظر الى العرب على اعتبار انهم ينتسبون الى مستوى ادنى، كما يخرج من اعتباره الزنوج كلية، ويشعر بالالم والتقزز من ان لديهم -قطعا مماثلة لكل جزء من اجزاء ابداننا جميعا)[3].

---

(١) انظر T. W. Lawrnce, Seven Pillars of Wisdom p.45-46

(٢) opt. cit. p. 101.

(٣) ص ٣٢.

ولو تركنا هذه الطموحات جانبا واعدنا السؤال لماذا كل هذه الجمعيات؟ والى ماذا كانت تسعى؟ وهو سؤال وان كنت افضل ان يجيب كل قارئ عليه بنفسه، ولكن لا يضير ذكر اشارات للاهداف الحقيقية لهذه الاحزاب والتجمعات جاءت على لسان بعض المؤسسين وبعض الداعمين لهذه الجمعيات بعيدا عن الشعارات البراقة التي وضعت لها. اذ يقول نجيب عازوري مثلا:

(ولم يسبق ان كانت اللجان الوطنية الانفصالية الارمنية والكردية والالبانية والبلغارية والعربية واليونانية بمثل هذه القوة ويمثل هذه الارادة. وللعرب ثلاث لجان في اوربا وامريكا وجمعيتان في مصر وجمعيات سرية في المدن الرئيسية في سوريا وبلاد الرافدين ويتفق الجميع الآن على القيام بنشاط مشترك ونهائي) ولهذا يرى (ان من مصلحة رجال المال الاوربيين الذين يملكون رأسمال في تركيا ومن مصلحة التجار واصحاب البنوك الذين تربطهم اعمال ببلادنا، ان يشجعوا هذه المشاريع) لأنه (عندما تسقط السيطرة التركية ستفتح أسيا بكاملها على التجارة الدولية اما توظيف رؤوس الاموال الذي يعطي اليوم فائدة ٤% فسيعطي يوم تحررنا ٥٠%)!! ثم يقول (ليس في وسع المحسنين الكرام من الاوربيين والامريكيين ان يجدو عملا اكثر نفعا وخيرا واجدر بتعاطفهم من ذاك الذي يهدف الى تخليص عدة امم كبيرة من الاستعباد، وفتح مجال واسعا للربح امام كافة الناس الشرفاء الذين يريدون العمل)[1].

اما لورنس العرب! فيقول:

(تأسست جمعية اكبر من جمعية العهد وهي فتح، جمعية سرية في سوريا، وكانت تجمع على هدف هدم الامبراطورية التركية، وكانت تضم ملاك الاراضي والكتاب والاطباء وكبار الموظفين... ناس اشبه بالقردة ولهم سرعة اليابانيين ولكن بضحالة... نظروا الى الخارج من اجل الدعم وتوقعوا ان تأتي الحرية بالتضرع

---

(١) نجيب عازوري: يقظة الامة العربية ص ٢١٨-٢١٩.

والاستعطاف وليس بالتضحيات... فاتصلوا بمصر وبالعهد... وبشريف مكة وببريطانيا العظمى... بحثا عن التحالف لخدمة اغراضهم... ورغم تكتمهم الشديد الا ان الحكومة العثمانية كانت تشك بوجودهم ولكنها لم تستطع ان تجد الشواهد الكافية لادانتهم والتي تقنع بها الدبلوماسيين الانكليز والفرنسيين والذين كانوا يمثلوا الرأي العام الحديث في تركيا الى ان وجدت الشواهد في الاوراق السرية التي تركها القنصل الفرنسي في سوريا والتي فيها مراسلات بينه وبين النادي العربي كما وجدت الفرصة بانسحاب الدبلوماسيين الاجانب بعد اندلاع الحرب عام ١٩١٤ والذين كانوا يحمون هذه الحركات. واستغلت العنف الاستعماري الذي كانت تمارسه فرنسا في شمال افريقية والذي كان يشوه سمعة فرنسا في نظر العرب المسلمين فضربت زعماء هذه الحركات اذ وجد جمال باشا الادلة التي تظهر للمسلمين العرب خيانة هؤلاء الزعماء الذين كانوا يفضلون فرنسا على تركيا[١]. ويؤكد لورنس ارتباط حركات الاستقلال بالاجانب فيقول في مكان أخر: كانت الثورة العربية (حلم وينكيت wingate لسنوات طويلة)[٢]. ويقول كذلك: (كانت لي ثقة كبيرة بالنجاح النهائي للثورة العربية ان توفرت لها النصيحة الصحيحة، وكنت محركها منذ البداية ووضعت آمالي فيها)[٣] .

فاسقاط الدولة العثمانية كان هدف الجميع، واستعمار البلاد العربية واستغلال خيراتها والحاقها بالدول الاجنبية كان هدف بعض دعاة هذه الدول من العرب مثل ما يبدو من اقوال العازوري اعلاه، وهدف الدول الاوربية ذاتها كما توضح فيما بعد وكما ذكر لورنس عندما قال: (رمينا الشباب بالالآف الى النار والى ابشع اشكال الموت لا لنربح الحرب بل لتكون ذرة، ورز، ونفط بلاد الرافدين لنا... وما كان

---

(١) W. Lawrnce, Seven Pillars of Wisdom p.45-46

(٢) opt. cit. p. 113 وينكيت هو احد القادة الانكليز العاملين في الخرطوم وكان احد المحرضين والداعمين للثورة العربية.

(٣) opt. cit. p.63

يهمنا الا دحر الاعداء... ومنهم تركيا، وهو ما فعلــــه اللنبــــي... بتحويــل ايــدي المضطهدين في تركيا الى جانبنا... واني لفخور جدا بالمعارك الثلاثين التي خضتها ولم تراق فيها دماؤنا... لأن كل المقاطعات التي صارت في حوزتنا لا تستحق قتيلا انكليزيا واحدا[١].

اما بعد ان تم ذلك وتمت الغلبة للاستعمار الاوربي المتمثل انـــذاك بالدرجـــة الاولى بالاستعمار الفرنسي والانكليزي، ظهرت الشيوعية منافسة لهم فهذا شـــكيب ارسلان يوضح اهدافها في قوله: (يهمسون في آذان الشعوب المغلوبة على امرهـــا، الناقمة الساخطة انجيل البلشفية الجديد، حملا لهم على الهياج والشغب، ثم الانتفاض، فالحرب) والغرض الذي يسعى اليه البلاشفة كما يوضحه هو (غرض عاجل، وهـــو محو التفوق الغربي سياسيا واقتصاديا محوا تاما. تعترف البلشـــفية فيـــه بالاديـــان والعادات والتقاليد لهذه البلاد وفي الدور الثاني تقوض هذه كلها)[٢]. لتتم الســـيطرة التامة عليها.

ومن الجدير بالذكر هنا هو ان الاستعمار كان في ذات الوقت الذي يشجع فيـــه الحركات المناهضة للدولة العثمانية والمرتبطة فيه فكريا او ماديـــا او أي ارتبـــاط أخر! كان يقاوم الحركات التي لا تأتمر بامره ولا تعمل وفق مخططه والتـــي لـــها توجهاتها وخططها الخاصة بها مثل الحركة الوهابية او السنوسية، مع ان هذه كمـــا يؤكد مجيد خدوري هي (اكثر ايجابية من نهج الحركات الاخرى التي نشأت بدوافـــع خارجية)[٣].

وعلى اية حال فان هذه الجمعيات والاحزاب المتعددة والمتنوعة قد قامت بدور كبير في نشر الفكر الاوربي -وتحقيق القبول له- والـــذي اســـتلهمته مـــن اوربـــا

---

(١) opt. cit. p. 23

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٣٢٢ جـــ ٢.

(٣) مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي ص ١٨.

واعتبرته فكرها! وفي اعداد القادة الذين مارسوا الضغط من اجل التغيير. -التاورب والتغريب- وفي احداثه عندما تسلموا المراكز المهمة في الدول العربية بعد الاحتلال. ولكن لم تكن هذه الوسائل لاعداد القادة واحداث التغيير لتكفي لولا دعمها بوسائل اخرى تساهم في بناء شخصيات معينة منهم، يكون لهم من القوة ما يساعدهم على احداث التغيير المطلوب وادامته. وفي ذات الوقت تساعدهم في عملية الضغط الذي يمارسونه وهذه الوسائل تمثلت بالصحف والمنشورات.

الصحف والمنشورات:

كانت الصحف القليلة المتواجدة في العالم العربي قبل النهضة! هي صحف رسمية حكومية تسير في خط الدولة بعيدا عن المهاترات التي اوجدتها الانتماءات المختلفة بعد ذلك، والتي كثيرا منها كانت انتماءات اجنبية ومشبوهة. فما يسمى بالصحافة الحرة ليست دائما نعمة تغني الفكر وتبعث على التجديد والتطوير بل هي قلما تكون كذلك. ففي كثير من الحالات تكون نقمة. وخاصة، عندما يكثر الطامعون الاجانب في الهيمنة على البلاد، وتتفرق الافكار والانتماءات وتتعارض المصالح. ولهذا قال جون كلوب (يكمن زيف الصحافة الحرة، والكلام الحر، في ان الجمهور من الكسل دائما بحيث لا يبحث عن الحقيقة بذاتها فالجزء الاكبر من الناس الذين يفرضون المعلومات على الجمهور يضمرون عادة دوافع خفية)[1] ويستشهد على ذلك بما حدث في المسألة الفلسطينية اذ يقول: (ان الصحافة حققت الاعلام والجلبة الذي كانت ضحيته فلسطين، اذ حققت امرين: لقد اربكوا وشوشوا الوضع الى درجة كبيرة، والى الحد الذي اصبح فيه العالم اجمع عاجز عن الحكم على الاشياء، كما انهم دمروا الثقة بجميع اللجان في الحكومة الفلسطينية)[2] . وهذا هو عين ما حدث للامة العربية منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا. كل المفاهيم

---

(١) جون كلوب: قصة الجيش العربي ص ٣٠٠.

(٢) ذات المصدر ص ٣٠١.

المعروضة عليها مشوشة، وكل العلاقات يسودها عدم الثقة والصحافة تتحمل جزأ كبيرا من المسؤولية في كل ذلك.

بدأ الاهتمام الاجنبي بالكلمة المنشورة في المنطقة العربية منذ عام ١٨١٢ اذ (اتخذ المبشرون الامريكيون جزيرة مالطة قاعدة لنشاطهم في الشرق الاوسط) واسسوا فيها مطبعة (لتعني بنشر الكتب والكراسات للتبشير بدين المسيح حسب المذهب البروتستانتي... ثم نقل القسم العربي الى بيروت سنة ١٨٣٤)[1] واسس الكاثوليك بعد ذلك مطبعة في بيروت ليواجهوا منافسيهم البروتستانت منشورات بمنشورات.

واقتصر النشاط الاجنبي على هذه المطبوعات التبشيرية الدينية في اول الامر، حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما بدأ بعض اللبنانيون من خريجي المدارس التبشيرية هذه ينشئون الصحف مثل بطرس البستاني الذي اصدر مجلة الحنان في بيروت (١٨٧٠-١٨٨٦) حيث توقفت عن الصدور بسبب (تعذر الكتابة الحرة في عهد السلطان عبدالحميد) كما يقول البرت حوراني (مما حمل عددا من تلاميذ البستاني على الانتقال من بيروت الى القاهرة... يشجعهم على ذلك كثرة عدد القراء وحرية التعبير ورعاية المسؤولين من امثال رياض باشا)[2]. ومن هنا بدأ سيل المطبوعات الداعية الى الفكر الاوربي والثقافة الغربية يتدفق على العالم العربي ليغرقه في بحر من الافكار المتصارعة والانتماءات المتنافسة والشعارات الزائفة والمضللة، والذي لا يزال حتى يومنا هذا يصارع امواجه. وقد كانت بيروت في هذا كما يرى انور الجندي هي (بؤرة العمل للغزو الفكري والتغريب في العالم الاسلامي... مؤهلة للتصدير وكانت القاهرة هي ملتقى كل مخططات التغريب

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص ٥١.

(٢) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ٩٣-٩٥.

وموزعها عن طريق الصحافة والثقافة والتعليم في العالم الاسلامي كلـــه)[1]. وقــد اعتبرها كذلك لأن معظم الصحف التي صدرت في القــاهرة اصدرهــا مســيحيون قادمون من لبنان. فالمقتطف مثلا انشأها يعقوب صروف وفارس نمر عــام ١٨٧٦ وهما استاذان في الكلية البروتستانتية في سوريا. وكانت تدعـــو للوطنية (وحــب الوطن والمواطنين الذي يجب ان يعلو على جميع الروابط الاجتماعية الاخرى حتى الدينية منها)[2] ثم انشئت جريدة المقطم بعد ذلك وصار فارس نمر يحررها وكــانت بالاضافة الى دعوتها للوطنية بعيدا عن الدين (صريحة في تأييد المحتل وتصويــره في صورة انسانية رفيعة). فهو رفع الظلم عن الفلاح واقام اقتصــاد مصــر علــى اساس متين، وحال بين الخديوي وبين ابتلاع ارزاق الناس![3] والهلال اسسها عــام ١٨٩٢ جرجي زيدان الذي تلقي علومه لفترة في الكليـــة البروتســتانتية الســورية وكانت تبث افكارا مشابهة لما تبثه المقتطف. وغير هؤلاء كان الكثير من الكتــاب والصحفيين هم من القادمين من سوريا ولبنان مثل فرنسيس مراش، الحلبــي الــذي درس الطب في باريس ونشر فكره على شكل قصة رمزية تؤكــد الفكــر الغربــي وحب الوطن بعيدا عن الاعتبارات الدينية[4] وشبلي الشميل، السوري الــــذي درس الطب في باريس وتوجه لمصر ليكتب على ذات النسق.

ولذلك قال الدكتور انيس صايغ في كتابه الفكرة العربية في مصر، كما يذكــر انور الجندي ان الانكليز لما دخلوا مصر والسودان واحتاجوا الى موظفين يتقنــون لغة البلاد، سد اللبنانيون والسوريون الفراغ، وكانوا كما وصفهم كرومر (منحة مــن السماء) و (خميرة البلاد) ومنهم (من انشــأ صحفــا واشــهرها صحيفتــا المقطــم

---

(١) نور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص ١١٢.

(٢) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة: ٢٩٥.

(٣) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٩١ جـ ٢.

(٤) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ٢٩٦.

والمقتطف اللتان اصدرهما فارس نمر ويعقوب صروف واسكندر مكاريوس وكانت الصحيفتان اللسان الناطق لسلطات الاحتلال باللغة العربية. فايدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية... ونستطيع ان نضيف الى ذلك بكل بساطة جرجي زيدان وسليم سركيس وفرج انطون وشبلي شميل واديب اسحق)[1].

ويؤكد البعض ان جمال الدين الافغاني هو الذي كان له الفضل في جعل مصر مركزا لهذا الاشعاع التغريبي القادم من اوربا عبر بيروت والمدارس التبشيرية. فالصحافة في مصر قبل مجيئه كانت رسمية وافضل ما فيها انها (نشأت مصرية خالصة ليس لغير المصريين فضل في انشائها... وظلت على ذلك حتى جاء جمال الدين الى مصر فطلب من تلاميذه ان يشتركوا في الكتابة... فشجع اديب اسحق على ان ينشيء جريدة مصر... ثم اوعز اليه بالانتقال الى الاسكندرية والاشتراك مع سليم نقاش في اصدار صحيفة التجارة... كما اصدر سليم العنجوري جريدة مرآة الشرق وتنحى عنها في سنة ١٨٧٩ وتولاها ابراهيم اللقاني بايعاز من السيد جمال الدين. كما اصدر يعقوب صنوع صحيفتين هما -مرآة الاحوال- صدرت في لندن سنة ١٨٧٦ -وابو نظارة- صدرت في القاهرة، وكانتا ايضا بايحاء من السيد جمال الدين)[2]. ويؤكد محمد عمارة على فضل الافغاني في هذا المجال فيقول: ان الافغاني انجز الكثير خلال اقامته في مصر.

١- قبله كان جهاز الدولة هو المصدر الوحيد للتنوير. لكن الافغاني صنع كوكبة من الكوادر والقادة والعلماء والكتاب والمثقفين والمناضلين والثوار خارج جهاز الدولة فأصبح للتنوير والنهضة تيار شعبي وقيادة شعبية للمرة الاولى في ذلك التاريخ!!.

---

(١) انور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص ١١٢.

(٢) عبدالباسط: جمال الدين الافغاني واثره في العالم الاسلامي ص ١٩٠.

٢- كانت الصحافة حكرا للدولة. عرفت مصر بفضل الافغاني ومدرسته -اساسا- الصحافة الاهلية الشعبية فصدرت صحفا مثل مصر والتجارة ومرآة الشرق وابو نظارة والوطن وهي صحف لمع فيها رواد الصحافة من امثال العنجوري وابراهيم اللقاني واديب اسحق وسليم نقاش ويعقوب صنوع وميخائيل عبد السيد...)[١].

ولم يقتصر هذا النشاط الاعلامي التغريبي على كل من بيروت والقاهرة بل شاركتهما فيه كل من باريس ولندن وبفضل جهود الافغاني الخيرة ايضا! كما يؤكد دعاته. اذ هو بعد طرده من مصر قبيل الثورة العرابية ذهب الى باريس، بعد ان قضى فترة في الهند، واصدر هناك جريدة العروة الوثقى الناطقة بلسان الجمعية المسماة باسمها، كرسها بالدرجة الاولى لمهاجمة الاستعمار الانكليزي- فقط من غير الفرنسي- وخديوي مصر مغلفا هجومه باتجاهات اسلامية، تطلبها في الغالب كون الشعوب التي يحرضها ضد الانكليز هي شعوب اسلامية، مثل اهل مصر والهند وافغانستان وايران. وكان محمد عبدة الذي استقدمه الافغاني من منفاه في بيوت محرر هذه الجريدة وكان يساعده في ذلك رجل فارسي اسمه مرزا محمد باقر، وهو شخص مشبوه كان قد تعلم في مدارس الهند الانكليزية وهو صغير فتنصر وسمي ميرزا حنا، وكان الافغاني قد تعرف عليه من قبل في ايران حيث كان يقول الاشعار في هجاء الرسول ﷺ ويقال ان الافغاني كان قد نهاه عن ذلك فلم ينتهي فارسل له من يضربه بالهروات! ثم جاءه بعد ذلك في باريس واخبره انه رجع الى الاسلام فاستخدمه الافغاني في الترجمة من الصحف الانكليزية للعروة الوثقى[٢]. ولم تعمر هذه الجريدة طويلا اذ انها اوقفت حال عقد فرنسا معاهدة مع انكلترة قسموا بموجبها مناطق النفوذ بينهما!.

---

(١) محمد عمارة: التراث في ضوء العقل ص ١٧٥-١٧٦.

(٢) عبدالباسط: جمال الدين الافغاني واثره في العالم الاسلامي ص ٤٨.

واصدر اديب اسحق في باريس جريدة باسم (مصر القاهرة) بعد ان اغلقت حكومة رياض باشا جريدته (مصر) و (التجارة) واللتين كان قد انشأهما الافغاني وجلب لهما مطبعة خاصة بهما[1] وسبب غلقهما في مصر كما يوضحه عبدالرحمن الرافعي هو ان الحزب الوطني الحر الذي الفه الافغاني قبل طرده من مصر والذي كان من (ابرز رجالاته سلطان باشا واحمد عرابي بك وصاحباه عبدالعال حلمي وعلي فهمي ومحمود سامي باشا البارودي) نشر بيان يعارض فيه رياض باشا الذي اخفق في معرفة ناشريه مما شجع خصومه على متابعة العمل لاسقاطه ومنهم الخديوي توفيق نفسه وشريف باشا واسماعيل راغب باشا وعمر لطفي باشا ومحمد سلطان باشا[2]. فأوفدوا اديب اسحق الى باريس لانشاء جريدة القاهرة -او مصر القاهرة- المعارضة لوزارة رياض باشا وكانت من اشد الصحف لهجة ضدها. ولذلك صار من المعلوم ان الحزب الوطني الذي انشأه جمال الدين هو الذي ارسل اديب اسحق على نفقته الى باريس ليصدر هناك جريدة مصر القاهرة لتهاجم وزارة رياض باشا[3]. ولذلك ايضا لاقى اديب اسحق وجريدته الدعم من الافغاني في باريس وكانت مقالات اديب اسحق في باريس (تسير في نفس الاتجاه الذي رسمه جمال الدين) اذ من اقوال اديب اسحق في مقالة حرية الافكار انه يستمد جميع ذلك (من بحر معارف استاذنا الكبير الفيلسوف الشهير. درة تاج الحكماء وواسطة عقد العلماء الفضلاء، السيد جمال الدين الافغاني)[4]. بقي ان نعرف من هو اديب اسحق هذا؟ انه سوري ولد في دمشق عام (١٨٥٦-١٨٨٥) من اسرة كاثوليكية، ودرس في مدرسة الاباء العازاريين وعمل كاتبا في جمرك بيروت ثم ترك عمله هذا

---

(١) ذات المصدر ص ٢١٧

(٢) لا بد ان كل هؤلاء الباشوات هم التيار الشعبي الذي كونه الافغاني وذكره محمد عمارة في الصفحة السابقة.

(٣) عبدالرحمن الرافعي: الثورة العرابية ص ١٩-٢٠.

(٤) عبدالباسط جمال الدين الافغاني واثره في العالم الاسلامي ص ٢١٨-٢١٩.

ليحرر جريدة (التقدم) وهو في السابعة عشر من عمره!! انتظم في سلك جمعية الماسون سنة ١٨٧٣ ثم سافر عام ١٨٧٦ الى مصر اشترك مع سليم نقاش في التمثيل في الاسكندرية، ثم تعرف على الافغاني وتتلمذ عليه واصبح اقرب تلامذته. عرف عنه الثورة على الدين والتقاليد. واشيع عنه انه ملحد ولذلك رفض الكاهن الذي انتدبه اهله للصلاة عليه عند موته ان يقوم بذلك حتى يؤتى له بكتاب موقع بأنه كان كاثوليكيا. وكان معجبا بالفرنسيين والثورة الفرنسية، دعا الى اقتباس الفكر والانظمة الفرنسية حتى انه دعا الى تدريس تاريخ فرنسا في المرحلة الابتدائية! ومات وهو في سن مبكرة بمرض صدري وقد قيل ان ذلك لافراطه في الشراب والملذات[1].

وصدرت في باريس ايضا جريدة البصير بدعم وتأييد من فرنسا، وكان محررها خليل غانم الذي كان عضوا في البرلمان العثماني الذي حله السلطان عبدالحميد. وقد كانت هذه الجريدة تكتب ضد الدولة العثمانية. ولما كان الافغاني في تلك الفترة معني بتجنيد كل القوى ضد الانكليز وحدهم ولا يرى اضعاف موقف الدولة العثمانية مما يخدم اهدافه انذاك فقد رد على الغانم قائلا انه لا نجاة للامة:

(من هذه المصيبة التي تقهر النفوس وتوجب الذل والخمول، الا التفاهم تحت راية واحدة على الذود عن حقوقهم، من دون ملاحظة الاختلاف في الجنسية، لأنهم بتقارب اخلاقهم وتلاؤم عاداتهم وتوافق افكارهم صاروا كأنهم جنس واحد، وان اختلفت لغاتهم. فخضوع بعضهم لبعض مع تناسب طبائعهم لا يبعث على الذل والاستكانة، ولا يزيل النخوة التي هي الداعية لكل فضيلة وكمال، واذا تفرقت

---

(١) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة ص ١٥٨-١٦٥ (ومن الجدير بالذكر انه بعد سقوط وزارة رياض باشا وتولي شريف باشا لمجلس النواب استدعى أديب اسحق وعينه رئيسا لقلم الانشاء والترجمة بنظارة المعارف ثم سكرتيرا في مجلس النواب!) انظر احمد امين: زعماء الاصلاح ص ٣٢٤-٣٢٥.

كلمتهم وتشتت قوتهم، لا يمكنهم الخلاص من مخالب الذين ينتهزون الفرصة لاسترقاقهم، فيجب على كل شرقي دفعا لهذه النازلة، وصيانة لامته عن ذلك العبودية ان يسعى جمعا للكلمة من تشييد مباني الحكومات الباقية في الشرق... ولهذا يمكنني ان اقول ان سيدي الخليل في مقالاته... قد حاد عن صراط السياسة القومية بتعرضه للدولة العثمانية وكان عليه ان يفقه ان هذه الدولة في هذه الايام بمنزلة نظام لاجناس مختلفة من الشرقيين يحفظها عن التفرق والضياع ويمكن كل جنس منها ان يسعى رويدا رويدا في اصلاح شئونه ويرتقي الى مدارج عزه، على حسب كده وجده، واذا انقطع هذا النظام وتفرقت الكلمة، وتشتت الجمع استقلت كل طائفة بأمرها، فانها لا تستطيع وقتئذ صون نفسها عن تطاول الاجانب، ولا تطيق مقاومة الاباعد الذين لا يريدون الا استعبادهم)[1].

وصدرت في باريس الكثير من الصحف غير هذه حتى قيل ان يعقوب صنوع[2] . الذي كان قد اصدر جرائد (ابو نظارة) و (ابو صفارة) والحاوي في مصر، انتقل الى باريس واصدر فيها (اثني عشر جريدة لكل منها خطة وهدف ورسالة)[3]!! كان ما اشتهر منها جريدة ابو نظارة زرقا، وهي الجريدة التي اصدرها في القاهرة عام ١٨٧٧ بالتعاون والاتفاق مع الافغاني ومحمد عبدة اللذان اتفقا معه (على انشاء جريدة عربية هزلية لانتقاد اعمال الخديوي اسماعيل)[4]، ولم تستمر سوى شهرين اذ اوقفها الخديوي اسماعيل (لما حوته اعدادها من استفزاز للخديوي اسماعيل فهاجر صنوع في يونيو ١٨٧٨ وما ان حط في باريس حتى

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص ٩٠.

(٢) يعقوب صنوع يهودي، اشتغل بالتمثيل ما بين ١٨٦٩-١٨٧١، ولما وفد الافغاني في تلك الفترة الى مصر قرب الممثلين والصحفيين واستعان بهم على اشاعة ما يرجوه من افكار وكان يعقوب منهم) انظر عبدالباسط ص ٢١٣.

(٣) عبدالباسط: حمال الدين الافغاني ص ٢١٢.

(٤) ذات المصدر ص ٢١٣.

استأنف اصدار الجريدة واشتهر بفتح النيران من باريس على الخديوي ونظامـــــه.) وكتب فيها الافغاني سواء في القاهرة او في باريس. الا ان عبدة لم يكن على وفـــاق مع صنوع ولم يكتب بجريدته، بل هاجمها في ١٨٧٩ في جريدة مصـــر والتجـــارة واعتبرها (جرنال الهزأة الذي ليس فيه نكتة مضحكة ولا لطيفة مسلية... بـــل هـــو محض الشتم واللطم) واستكثر عليه شرف الانتماء الى الماسونية اذ قـــال نافيـــا ان يكون للمجامع الماسونية علاقة به: (حتى اشار في كتاباتـــه وخزعبلاتـــه ان ابنـــاء المجامع المقدسة ذات المقاصد العالية المبنية على محـــض الادب والانســـانية هـــم مشاركوه في عمله هذا، حاشاهم حاشاهم ان تتأتى هممهم لهذه المقاصد الساقطة. فقد كذب وافترى، واعتسف واعتد)[1]. ومدح البارودي على سعيه في وقـــف جريـــدة صنوع، ويعتقد علي شلش ان عداوة عبدة لصنوع قد تكون لرغبة عبدة الشـــخصية (في عدم الظهور بمظهر المعادي لاسماعيل وولي عهده توفيق)[2].

اما في لندن فقد صدرت ايضا الكثير من الصحف التي تهاجم الحكام المسلمين والدولة العثمانية وتدعو للفكر الاوربي والحضارة الاوربية بشكل مباشـــر او غـــير مباشر ومن هذه الصحف مجلة النحلة التي اصدرها صابونجي[3] في لنـــدن عـــام (١٨٧٧-١٨٨٠) وفي عام ١٨٨٢ اصدر لويس صابونجي ايضـــا جريـــدة باســـم الاتحاد العربي وكتب محمد عبدة يدعو لها في الوقائع المصرية يقول (تطبـــع فـــي لندرة لحضرة محررها الكاتب البليغ لويس صابونجي وقد تصفحناها فالفيناها جريدة رقيقة العبارة، دقيقة الاشارة، بليغة الاسلوب سامية الموضوع قصرهـــا محررهـــا

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة، محمد عبدة، ص ١٩-٢٠.

(٢) ذات المصدر.

(٣) لويس صابونجي هو قس لبناني عمل في لبنان وانكلترا وقد عينه بلنت سكرتيرا عربيا لـــه وقت اندلاع الثورة العرابية وارسله الى القاهرة ليوافيه بالانباء عنها، حيث تعـــرف علـــى محمد عبدة وغيره من المواطنين، وكان على علاقة مستمرة بالافغاني ايضا (انظر علـــي شلش ص ٦١.

الفاضل على بيان مزايا العرب وفضائلهم...)[١] ودعا الناس لقراءتها. ولما ذهب الافغاني الى لندن بعد طرده من ايران اسس هناك مجلة ضياء الخافقين وكرسها لمهاجمة شاه ايران بالدرجة الاولى وتحريض الايرانيين ضده وتحريض المسلمين ضد حكامهم بشكل عام. وعهد تحريرها الى لويس صابونجي ايضا. والمتابع لصحف تلك الفترة يجد ان (صابونجي كان على صلة قوية بسليم نقاش، مدير جريدة مصر واديب اسحق محررها)[٢].

ولو نظرنا الى هذه الصحف المتغربة والتي بدأ سيلها يتدفق منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر، والتي قدرها البعض (بنحو مئة، كان ثلثها في القاهرة)[٣]، والتي كونت النواة للمدرسة الصحفية العربية لوجدنا ما يلي:-

١- ان العدد الاكبر من هذه المجلات الصادرة في القاهرة او بيروت كما يؤكد البرت حوراني كان (يحررها مسيحيون لبنانيون) تثقفوا في المدارس الفرنسية او الامريكية...)[٤].

٢- وان الشاميون هؤلاء (كانوا موزعين بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الانكليزي. وكانت صحيفة الاهرام مثلا تمثل الاتجاه الاول بينما كانت المقطم والمقتطف ممثلان للاتجاه الثاني)[٥] وقد كان ولاء الصحف لهذه او تلك من الدولتين الاجنبيتين المتنافستين على ابتلاع البلاد العربية معروفة حتى انه عندما اشتدت الحملة الصحفية على السلطان في الصحف المصرية في الفترة بين عامي ١٨٨٩-١٩٠٢ والتي ساهم فيها الكواكبي بنشر كتابه طبائع الاستبداد اتصلت حاشية السلطان (بالسفارة الانكليزية تسألها ان تتوسط عند الوكالة البريطانية

---

(١) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، محمد عبدة، جـ ١ ص ٣٩٧.
(٢) علي شلش: ذات المصدر ص ٣١.
(٣) ارنست رامزور: تركيا الفتاة ص ١٣.
(٤) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ٢٩٣.
(٥) محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر، ص ٢٥٦ جـ١.

في القاهرة للكف على السلطان في صحافتها العربية والاجنبية)[1]. اذ اعتبرت هذه الصحف جزء من الصحف البريطانية ودعم الدول الاجنبية للصحف هذه ماديا ومعنويا وارتباط هذه الصحف بها لا يحتاج من الشواهد الشيء الكثير. فلم يذكر احد انه كان لأديب اسحق او للافغاني او لصنوع ثروة تمكن ايا منهم من اصدار جريدة، مهما كانت تكاليفها بسيطة. ومن يقرأ تاريخ فرنسا ويطلع على ما كان يجري فيها من زهق للارواح وللحريات معا سواء في فرنسا او في خارجها، وما يتعرض له ابناء فرنسا نفسها او ابناء مستعمراتها من اضطهاد، يعرف جيدا (ان باريس البلد الحر) كما يحلو لعبدة وغيره تسميتها لم تكن فيها من الحرية والتحرر! ما كان يسمح بصدور جريدة لا تأتمر بأمر فرنسا او لا تخدم مصالحها واغراضها او تسير في اتجاه مخالف للاتجاه الذي يخدم هذه المصالح والاغراض. ومن الادلة على ذلك انها اوقفت صدور العروة الوثقى المعارضة للانكليز حال اتفاقها مع انكلترة على تقسيم مناطق النفوذ بينهما وازالة ما كان قائما بينهما من خلاف. وكذلك الحال بالنسبة للصحف الصادرة في لندن فلم يكن بامكان صابونجي او الافغاني او غيرهما اصدار جرائدهم هناك لولا الدعم المادي والمعنوي الذي يقدم لهم مقابل خدمة اغراض بريطانيا ومصالحها. وما يصح على الصحف الصادرة في لندن وباريس يصح ايضا على الصحف الصادرة في بيروت والقاهرة. اذ لولا دعم هذه او تلك من الدول الاجنبية لما رأت كثير من الصحف النور.

٣- ولوجدنا ايضا ان القسم الآخر من هذه الصحف انشأته الهيئات الاجنبية. فالهيئات التبشيرية كانت اول من اهتم بالكلمة المنشورة بالعربية كما مر ذكره وقد بدأ الاهتمام كجزء من حملة التبشير بهذا او ذاك من المذاهب المختلفة ثم توسعت اهتماماتها وشملت الجوانب الاجتماعية والسياسية. فقد انشأت مثلا

---

[1] العقاد: الكواكبي، الرحالة ك، ص ١٤٥.

الهيئات البروتستانتية للتبشير في القاهرة (مجلة اسبوعية اسمها الشرق والغرب افتتحوا بها بابا غير ديني يبحثون فيه الشؤون الاجتماعية والتاريخية واسسوا ايضا مكتبة لبيع الكتب باثمان قليلة... لاستجلاب الزبائن)[1]. من المسلمين. هذا غير حضورهم -الهيئات التبشيرية- غير المباشر في الصحافة من خلال تلامذتهم خريجي المدارس التابعة لهم. وبعد المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧ ظهر نوعان من الصحف اليهودية في مصر: اولهما الصحف التي اصدرتها الهيئات والجمعيات الصهيونية التي تكونت في مصر، وكانت هذه الصحف بمثابة ادوات دعائية لنشر الفكر الصهيوني باللغتين العربية والفرنسية في المجتمع المصري. والنوع الثاني الصحف اليهودية بمصر وكانت جميعها ذات انتماء صهيوني، ولكن تتفاوت درجات هذا الانتماء ومستوى التعبير عنه)[2].

اما الماسونية فصحفها يدل عليها انتماءات اصحاب الصحف انفسهم والا كيف تأتي لشباب، ماسوني، من متوسطي الحال او حتى من رقيقيه، متشردين لا مهنة معروفة لهم غير التكسب في بعض الاحيان من التمثيل الذي ما كان يطعم خبزا جافا آنذاك! او من الهزل والقاء النكات في المقاهي هنا وهناك مثل اديب اسحق ويعقوب صنوع وسليم نقاش وعبدالله النديم[3] وغيرهم ان يصدروا جرائد بين ليلة وضحاها. اذ يقول عزت قرني: ان اديب اسحق (اثناء ملازمته للافغاني رغب في انشاء جريدة عربية في مصر باسم -مصر- فنال امتيازها وهيأ مواردها في يوم

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص ٤٠.

(٢) ذات المصدر ص ٥١.

(٣) كان عبدالله النديم قد اصدر جريدة باسم - الاستاذ - في تلك الفترة وكان عضوا في جمعية مصر الفتاة مع اديب اسحق وصنوع وسليم نقاش وغيرهم وكان قبلها يتعيش بالتهريج في المقاهي!

واحد ولم يكن في يده اكثر من عشرين فرنكا وكان ذلك عام ١٨٧٧)[١]. فان كان الافغاني كما يرى العقاد قد اصدرها وحررها تلميذه اديب اسحق)[٢] فاننا لم نعرف للافغاني ثروة تمكنه من ذلك ومن شرائه مطبعة خاصة لهذه الجريدة بعد ذلك، ثم ماذا عن صنوع والنديم وغيرهما؟ من اعضاء جمعية مصر الفتاة او غيرهما من المنتمين للماسونية؟

٤- ان قسما من هذه الصحف ايضا كان يتبع هذه او تلك من الاحزاب السرية مثل العروة الوثقى ومثل مصر الفتاة والتي كل منها تتبع الحزب السري المسمى باسمها، او الاحزاب العلنية مثل صحيفة الجريدة التي كانت تنطق بلسان حزب الامة وكان يحررها لطفي السيد.

٥- ان اغلب هذه الصحف المتغربة، وحتى تلك التي تدعي انها علمية ثقافية وقد انشئت بهدف نشر العلم والثقافة، ما هي في الواقع الا صحف سياسية الجوهر مكرسة لتهوين الفكر الاسلامي والتقاليد الاسلامية والمحلية لاحداث فراغ يحتله الفكر الاوربي والثقافة الغربية بشكل مباشر او غير مباشر. وبحسب الاحوال والظروف وكلما سنحت الفرصة لذلك. فنجد البرت حوراني يقول: كان الشدياق والبستاني، رائدي مدرسة من الكتاب والصحفيين تتبنى غرضا مزدوجا هو (اطلاع الفكر العربي على افكار اوربا وامريكا واختراعاتها وعلى كيفية التعبير عنها باللغة العربية...)[٣] ويرى ان المقتطف تؤكد على اهمية العلوم الاوربية وضرورة تحصيلها... والهلال رغم ان صاحبها مهتم بالعلوم... الا ان وراء المواضيع العلمية

---

(١) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ص١٦٤-١٦٥.

(٢) اذ يقول العقاد مؤكدا مسألة التقدم والتحرر آنذاك! والذي جعل الامام والمصلح الديني يتعاون مع مسيحي اذ يقول:(وناهيك بامام من الافغان تصدر له صحيفة ويحررها تلميذه اديب اسحق وهو المسيحي الكاثوليكي...) انظر العقاد، الكواكبي، الرحالة ك ص٣٨ مع العلم ان اديب اسحق كان علماني ولا يعترف بالاديان كما مر ذكره!

(٣) الفكر العربي في عصر النهضة ص٢٩٣

(كانت تكمن بعض الافكار الحصيفة) التي تجعلها تلتقي مع المقتطف فيما تدعو اليه. الا ان الافكار كانت تبث في هاتين المجلتين بطريقة التضمين)[1] الا انه ظهر بعض الكتاب الذين بدأوا صياغة نظرتهم بطريقة منظمة مثل فرنسيس مـراش وغـيره. وهكذا تغلغل التغريب وكانه بفعل الرشح كما سبق ذكره. ولهذا قال نجيب عازوري في كتابه يقظة الامة العربية: (لا يستعمل الانكلـيز القـوة ابـدا لفـرض لغتـهم وحضارتهم على مستعمراتهم ومحمياتهم فهي تتغلغل بالوسائل السلمية البطيئة...)[2] وكانت الصحف هي احدى هذه الوسائل لاحداث التغيير الذي يريـده ليـس فقـط الانكليز وانما اصحاب الحضارة الغربية بشكل عام. فالصحف وخاصة أنذاك وقبـل تواجد الوسائل المسموعة والمرئية كانت من اكثر وسائل الاعلام فاعلية في التوجيـه والارشاد واحداث التغييرات القيمية المطلوبة. وقد اكد جب اهمية الصحافة هذه فـي مسألة التغريب في قوله: (يجب ان لا ينحصر الامر في الاعتماد على التعليم فـي المدارس بل يجب ان يكون الاهتمام الاكبر منصرفا الى خلق رأي عام.) والسـبيل الى ذلك في رأيه هو الاعتماد على الصحافة التي هي في نظـره (اقـوى الادوات الاوربية واعظمها نفوذا في العالم الاسلامي) ويؤكد ان معظم مديري الصحف هـم ممن يسميهم التقدميين. ولذلك كان معظم هذه الصحف واقعـا تحـت تـأثير الاراء والاساليب الغربية ويقول: انهم لا يلعبون دورا مهما في تشكيل الرأي العام بالقيـاس الى الاحداث المحلية فحسب، ولكن صحفهم تحتوي كذلك علـى مقـالات تشـرح الحركات السياسية والاقتصادية في اوربا. وعلى مقالات مترجمـة مـن الصحـف الاوربية ثم هم في الوقت نفسه يقفون الرأي العام على ما يجري في الغـرب مـن احداث وما سيحدث من اراء...)[3]. ولذلك ايضا نبه الى خطورتها السـيد محمـد

---

(1) ذات المصدر ص ٢٩٤-٢٩٦

(2) يقظة الامة العربية ص١٠٥

(3) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٢١٧ جـ٢

الخضر حسين في المقال الافتتاحي للعدد الاول من مجلة اصدرهـا الازهـر عـام ١٩٣٠ باسم نور الاسلام فقال ما معناه ان الاسلام مبتلى بطوائف تناصبـه العـداء ولكن كان، في الماضي، كل ما يستطيع هؤلاء عمله هو ان يؤلفوا كتابا يهاجمون به الاسلام، ولا يقع الا في ايدي القلة من الناس، وكان اهل العلم من المسلمين يؤلفـون الرسائل والكتب يردون بها كيد هؤلاء (ويحفظون الأمة من عدوى امراضهم... اما اليوم فقد تهيأت لخصوم الدين الحنيف طرق اخرى ينفذون منها الى ما يبتغون مـن اشاعة قول باطل او تزيين عمل خاسر، ومن اشد هذه الطرق خطراً الكتابـة فـي المجلات السيارة. فقد يسبق الى بعض قرائها انها لا تنطـق بـرأي الا ان يكـون موزونا، ولا تدعوا الى عمل الا ان يكون مرضيا...) وهذا الاعتقاد في رأيه يـؤدي الى ثقة الناس بها فتصدق كل ما يصدر عنها. وبهذا فان المؤلفات التي كانت تخرج عن (الصراط السوي فيما سلف) لا تقع الا في ايدي القلة من الناس. (فقد تهيأ لـهـا اليوم بوسيلة المطابع ان تنزل في كل واد، وتقذف بوساوسها في كل ناد، فـاصبح لهذه المؤلفات من الاثر، اكثر مما كان لها يوم كانت تخط بالقلم ويقرؤها نفر قليـل في معزل عن الناس)[1].

ولكن يبدو ان تحذير السيد الخضر حسين وغيره في الثلاثينات، جاء متـأخرا جدا اذ كان سيل الصحافة المتغربة قد تدفق وقد عم الكثير مما حوله، حتى انه لـون الصحافة الرسمية بلونه. فقد كانت الصحف ومنها المقطم والمقطف (دائبـة علـى تعريب المذاهب الغربية في الفلسفة والادب وسائر ضروب الثقافة، لا تكـاد تشـير الى شيء من قديم الشرق وتراثه الفكري وكانت تـترجم لعظمـاء الرجـال مـن الغربيين... كما كانت تعمل على اضعاف النعرة الدينية والوطنية بما تنشر من اراء تشكك في العقيدة)[2] ولم تكتف الصحف المختلفة بالدعوة الى الحضـارة الاوربيـة

---

(١) محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٢٣٥ جـ٢.

(٢) ذات المصدر ص ٢٥٦ جـ١.

وفكرها وعلومها بعيدا عن كل ما هو عربي او اسلامي بل هي تحزبت وتعصبت لهذه الثقافة الاوربية او تلك (الفرنسية او الانكليزية ثم تبعتها الامريكية والروسية!) وقد ذكر زكي نجيب محمود ما يشير الى هذا التشتت الفكري والدور التكاملي الذي لعبته الصحف في احداثه اذ ذكر ان مجلة السفور اشترك في تحريرها (مجموعة من الكتاب، هي نفسها المجموعة التي سيشتد بأسها في عشرينات القرن وثلاثيناته، والتي ستكون هي الداعية الى الاخذ باسباب الفكر والثقافة الغربية...) ويؤكد الاسطورة التي عمد المتاوربون على اقناع الناس بها والتي تبرر تقليد الفكر الاوربي واقتباس الحضارة الاوربية ليكون ذلك في نظرهم او كما ادعوا (هو نفسه افضل سلاح في استرداد حريتنا المغتصبة من الغرب المغتصب)!!! ويقول كتب فيها (هيكل، وطه حسين، وعلي عبد الرازق، وغيرهم وكأنما جاءت مجلة السفور حلقة وسطى في سلسلة ثقافية واحدة اولها الجريدة برئاسة لطفي السيد وأخرها السياسة الاسبوعية برئاسة هيكل وهي مدرسة فكرية يغلب عليها الطابع الفرنسي... ولذلك قام خط آخر يوازي ذلك الخط ويوازنه، تمثل في مجلة البلاغ الاسبوعي واجتمع حوله من الكتاب من كان يؤثر النهل من معين الثقافة الانكليزية واشهرهم العقاد والمازني...)[1].

وقد اكد احمد امين في كتابه زعماء الاصلاح هذا التشتت الفكري والاختلاف في اتجاهات الصحف المختلفة في نهاية القرن التاسع عشر علي عهد الخديوي عباس اذ يقول: (بدأت تظهر تيارات مختلفة وبدأت توضع بذور الاحزاب المختلفة، وبدأت تتجلي بوضوح اتجاه الصحف المختلفة وظهر اثر ذلك في الجدل في المجالس والصحف)[2]. ثم يقول ان الجرائد المشهورة في عهد النديم كانت (المقطم –والاهرام– والمؤيد– والنيل– وكان لها ثلاثة اتجاهات: منها ما يسالم الاحتلال

---

(1) زكي نجيب: في حياتنا العقلية ص ٥٧.

(2) احمد امين: زعماء الاصلاح ص ٢٥٣.

ويؤيده ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية ويؤيد من ورائها السياسة الفرنسية، ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية والنزعة الاسلامية والارتباط بالدولة العثمانية وكل منها يعرض وجهة نظره في شيء من الهدوء والرزانة والوقار...)[1]. ولكنه لا يرى في هذا التشتت ما يضر بمصالح الامة (المصرية) التي كانت تحتاج لوحدة الكلمة في ذلك الوقت الذي كان الاحتلال فيه يضغط بأقدامه الثقيلة على صدرها مستعبداً اياها مستنزفا كل خير، مادي او معنوي، فيها. بل هو ككل اصحاب النهضة لا يستطيع ان يرى أي اثر سلبي لحركة التغريب. فهي في نظره مصدر الخير كله!! ولذلك يكمل حديثه فيقول: (فلما طلع -الاستاذ- دعا الى ان مصر للمصريين... والالتفاف حول الخديوي امير البلاد... ودعا الى تأليف الاحزاب حتى يكون لكل جريدة حزبها)[2] ولكل حزب برنامجه ولم يسلك سبيل الهدوء كما سلكه معاصروه بل كان حادا عنيفا والحدة منه استتبعت الحدة من الجرائد الاخرى، والغضب والصوت العالي يبعث في الرد عليه الصوت العالي، فتميزت الجرائد بعضها عن بعض في وضوح وجلاء. وكانت هذه الحدة وهذا الجدل المتتابع في المسائل العامة اكبر موقظا للرأي العام النائم)[3]. وهكذا لم يرى في هذا التشتت الفكري والتشرذم والتبعية لهذه او لتلك من الدول المستعمرة الا كل خير فهو الموقظ للرأي العام النائم ولم يخطر بباله ان يكون هذا منوما او مخدرا للامة وللرأي العام فيها، لان الامة هي ليست هؤلاء القلة من المتصارعين لتنفيذ مخططات الدول الاوربية ولا هؤلاء المتنافسين لتحقيق طموحات شخصية او حتى وطنية، وانما الامة هي العامة من الناس والتي ارهقها الصراع الدائر انذاك بعيدا عنها وعن طموحاتها الحقيقية -كما

---

(1) ذات المصدر ص ٢٦٣.

(2) انظر سير الفكر انذاك، فليس لكل حزب جريدته وانما لكل جريدة حزبها فهي الاصل وهو الفرع!! ومن الجدير بالذكر هنا ان الاستاذ، صحيفة كان يصدرها عبدالله النديم.

(3) ذات المصدر ص ٢٦٣-٢٦٤.

هو الحال حتى يومنا هذا- بين دعاة الحضارة الاوربية على الطريقة الفرنسية او الانكليزية او الامريكية او الروسية!! هذا غير الجدل بل قل الصراع بين اهل الدين والتراث واصحاب هذه الدعوات!!. هذه العامة من الناس والتي كان ولا يزال يشغلها البحث عن الرغيف والرزق الحلال ولا وقت لديها لتواكب هذا الصراع والجدال، ولا لتفهم هذه السفسطات المستوردة والتي ليست فقط لا تفهمها وانما هي لا تمت لواقعها بصلة لا من بعيد ولا من قريب. فانسحبت وتقوقعت وتركت الساحة للمتصارعين واصحاب الطموحات يسرحون فيها ويمرحون وبقيت هي كما هي قبل الف عام او اكثر... فيما عدا الراديو والتلفاز والمسجل الستريو! وقد يضاف اليهم البراد والسيارة لميسوري الحال، وفيما عدا -ايضا- تخلخل سلبي اكبر اصاب قيمهم الدينية والاجتماعية، لا شيء يدل على ان ابناء الامة هؤلاء يعيشون عصر النهضة التي يتباها بها النهضويون. ومن لم يصدق هذا او يكذبه او يعارضه فليذهب الى اية قرية في أي بلد عربي -وخاصة في مصر نفسها- او ليذهب الى بعض من مناطق العواصم العربية نفسها والتي صار سكانها يعدون بالملايين الكثيرة، وفيها ابراج! ومطاعم دوارة! وجسور وانفاق ومئات الآلاف من السيارات -ان لم يصل العدد الى الملايين- والتي تنفث كذا الآف الامتار المكعبة من الغازات القاتلة، وتجري فيها مسابقات للجمال ومسابقات للياقة ومسابقات للسباحة ومسابقات ومسابقات!! وتقام فيها عروض للازياء وعروض للفنون التشكيلية بالمئات! وبعد ان يزور هذه المناطق المذكورة اعلاه فليسأل ساكنيها أي سؤال من اسئلة النهضة والتنوير التي ايقظت الرأي العام النائم!!

ان كل ما استطاعت هذه الصحف المتفرقة المشارب والانتماءات ان تفعله هو ان تنشر الفكر الاوربي- بعد تشويهه في الغالب- على المثقفين او انصاف المتعلمين وتسوق منتجاته، الضروري منها وغير الضروري، النافع منها والضار على الناس اجمعين. وحفرت فجوة بين الحاكم والمحكوم لا يمكن ردمها ابدا، ولا

عبورها بأية جسور! مما احدث سلسلة من الثورات والانتفاضات لم تنتهي الا بتحول الحكام بالتدريج الى طغاة يضربون بيد من حديد مما حول بالتالي الشعوب الى عبيد ولكن متربصين. وقد كتب عبدالرحمن الرافعي مؤكداً دور الصحافة في التنوير! -واحداث الفجوة بين الحاكم والمحكوم والتمهيد للاحتلال فقال: (وكانت الصحافة من العوامل القوية في ترقية الافكار بما تكتب عن الشؤون العامة في مصر والخارج... وما تحوي من التنويه بالاعمال النافعة وانتقاد الاعمال الضارة... وكان لصحف المعارضة اثرها في احراج مركز الحكومة وتبرم الناس بها...)[1] وهذا في رأيه مما مهد لثورة عرابي التي ادت الى احتلال البلاد من قبل الانكليز.

وقد اكد سلامة موسى، وهو احد دعاة التغريب ومؤسسي بعض هذه الصحف، اهداف هذه الصحف في التغريب والهدم لكل مقومات الامة وشخصيتها، اذ ذكر في كتابه تربية سلامة موسى، انه اصدر عام ١٩١٤ بالتعاون مع شبلي شميل مجلة اسبوعية باسم المستقبل وعن الهدف من اصدارها قال: (وكنت انا وشبلي شميل على نية معينة مبيتة في اصدارها من حيث مكافحة الخرافات الشرقية...)[2] وعن محتواها قال: ... ومقالاتها تدل على تفكيري وقتئذ ويعبر هذا التفكير عن اتجاهي الذهني العصري. فان فيها مقالات عن نيتشة. وبها مقال كله فجور الحادي عنوانه -الله- هذا غير قصائد ومقالات لشبلي شميل يدعو فيها الى نظرية التطور والى المذهب المادي. واجد بها بحث عن -الضمد- عند العرب أي زواج المرأة لجملة رجال) ثم يقول: (والخلاصة: كان المستقبل يدعو دعوة عصرية، بل مستقبلية فجة خاصة. وكنت ابيع منه نحو ستمائة نسخة في الاسبوع وهذا غير المشتركين المتحمسين. وظني انه كان يمكن ان ينجح ويؤدي رسالة الهدم والبناء التي كنا

---

(١) عبدالرحمن الرافعي: الثورة العرابية ص ٢٦.

(٢) تربية سلامة موسى: ص ٣٤١.

نحتاج اليها لولا ظروف الحرب في ١٩١٤)[١]. واذا علمنا انه اصدر عددا كبيرا من الصحف والمجلات -اذ يذكر انه اصدر في عام ١٩٣٠ وحدها ما يزيد على اثنتي عشر مجلة[٢] -كلها على هذا النسق من الدعوة الى الكفر والالحاد والى نبذ كل القيم والنظم والتقاليد التي تعتمدها الأمة، واتباع الحضارة الغربية مما جعل الازهر يطلب من وزارة المعارف عام ١٩٣٠ عدم الاشتراك في بعض منها[٣] لما تدعو اليه من كفر والحاد، استطعنا ان نقدر حجم ادوات الهدم التي وجهت الى مقومات الامة باسم النهضة والتحديث من قبل هذه الصحف، ومقدار البناء في اتجاه التغريب والتبعية.

اما عن مقدار الوطنية والتوجهات القومية الحقيقية لهذه الصحف ومؤسسيها فان كلام سلامة موسى في هذا الموضوع يتعارض مع كل ما يسبغه البعض عليهم من القاب البطولة والريادة في هذا المجال اذ يؤكد ان بعض من اشهر مؤسسي هذه الصحف والمجلات ممن كان على علاقة شخصية حميمة معهم لم يكونوا يسعوا الا الى اسقاط الدولة العثمانية وهدم مقومات الامة وتحقيق التبعية للحضارة الغربية بعيدا عن اية توجهات قومية وطنية اذ يقول: (ان كل من جرجي زيدان، وفرح انطون قد ترك اثره في النهضة المصرية...) وكان ليعقوب صروف -محرر المقتطف- ولأمين معلوف دورا ايضا، و (جميع هؤلاء الاربعة كانوا من السوريين... وكانوا جميعا كارهين للحكم العثماني لا يطيقون ذكره... ولم يكن وجدانهم وطنيا لأن رؤيا الاستقلال للعرب لم تكن قد تجسمت. وكان اليأس اغلب عليهم. وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية، عقب الحرب الكبرى الاولى بقوا على شك

---

(١) ذات المصدر ص ١٨٣.

(٢) ذات المصدر ص ٣٣٧.

(٣) ذات المصدر ص

من حقيقة الاستقلال المزعوم لهذه الدولة العربية واظن انهم كانوا على حـــق فـــي هذا)[١] .

وبالاضافة الى تفريق كلمة الامة واحداث الفجوات بين عناصرهـــا المختلفـــة، فان هذه الصحافة المتغربة عملت (بالاضافة الى احداث التغيير المطلوب من الـدول الاوربية في نشر فكرها ومنتجات حضارتها وتحقيق التبعية لها -على بناء القـــادة لقيادة عملية التغيير وادامته. وذلك بتعريف الناس بشـــخصيات معينـــة لكـــثرة مـــا تعرضها على الناس وما تنسب اليها من البطولات والاعمال المجيدة! فكـــل عمـــل لهذه الشخصية هو بطولة لا مثيل لها او عمل مجيد يعم خيره على العالمين. وكـــل كلمة يقولها هي الحكمة بعينها والعبقرية التي لم يتوصل اليها احد مـــن قبلـــه ولـــن يتوصل اليها احد من بعده. وبما تحيطه به من صفات الاجلال والاكرام. فهذا اديـب اسحق مثلا يقدم مقالة للافغاني ينشرها في جريدته فيقول: (لسيدنا اية العصر، وسر حكمة الدهر ودرة تاج الحكما، وواسطة عقد البلغاء من لا تستوعب وصفه الاقـــلام وما نسفت، والطووس وما وسفت، استاذنا الاكبر الفيلسوف الشهير اية الحكمة اعزه الله)[٢]. ويقول في مقام آخر و (لحضرة استاذنا الفيلسوف الشهير اية الحكمة، السـيد جمال الدين اعزه الله)[٣] او (بقلم مجلي الكمال ومظهر الجلال، اســـتاذنا النســـيب، الطاهر الأرومة الفيلسوف الاجل، السيد جمال الدين الافغاني)[٤].

وهكذا تكاملت اعمال المدارس التبشيرية والاجنبية والبعثات الى الدول الاجنبية والجمعيات والاحزاب والصحف، وعملت جميعـــها كمنـــافذ يدخـــل منـــها الفكـــر الاوروبي، ومراكز تعد فيها الكوادر التي قادت عملية التغيير بكل مراحلـــه. مـــن

---

(١) ذات المصدر ص ٢٢٠-٢٢١.

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص ٥٢.

(٣) ذات المصدر ص ٤٢.

(٤) ذات المصدر ص ٧١.

الضغط بنوعيه، على القاعدة لقبول الفكر الاوربي وقبول التبعية للغرب، وعلى القمة لاحداث التغيير المطلوب هذا، وتنفيذ التغيير هذا واحداثـــه مـــن خـــلال المراكـــز الوظيفية التي احتلها بعض هؤلاء القادة، ثم ادامة التغيير وهو الدور الذي يقوم بـــه قادة النهضة والفكر النهضوي!! اليوم. وحققت هذه المنافذ التبعية للغـــرب ولكنـــها بالتأكيد لم تحقق ما كان يأمل بعض دعاة النهضة والتغريب من العرب والمســـلمين وهو الامل الذي عبر عنه حافظ ابراهيم في قصيدته التي القاها في حفل كلية البنات الامريكية بمصر سنة ١٩٠٦ اذ قال:-

(اي رجال الدنيا الجديدة مـــــدوا　　لرجال الدنيـــــا القديمة باعــــا
وافيضوا عليهم من اياديكـــــــم　　علوما وحكمة واختـــراعــــا
ليتنا نقتدي بكم او نجاريكـــــــم　　عسى نسترد ما كان ضاعــــا[١]

فقد تحققت المجاراة للاجنبي والاقتداء به واستخدام علومه واختراعاته ولكن لا ليسترد ما كان ضاعا ولا ليبدع في هذه العلوم والاختراعات وانما ليبدع في اقتبـاس الافكار الهادمة للمجتمع والتي استهدفت عقيدته وتقاليده ومسخت شخصيته وحققـت تبعيته للاجنبي. هذه الافكار التي نبتت وازدهرت في هذه المرافق التغريبية باســـم الثورة والثورية تارة وباسم الحرية والتحرر تـــارة اخـــرى او باســـم الاشـــتراكية والاشتراكيين والنهضة والنهضويين... والى آخر ذلك من البدع التي تبناها خريجوا هذه المرافق.

ولكن الامة التي يراد لها التغيير هي امة متدينة، تدين في غالبيتـــها بالاســـلام الذي كانت صبغته هي السائدة، وقد صبغت حتى من لا يدين به. واي تغيير لـــهذه الامة لا بد ان يمر عبر هذه القيم الدينية السائدة، ولاجل المرور عبرها لا بـــد مـــن تغييرها او تحويرها او تفسيرها تفسيرا جديدا لتسمح بـــهذا المـــرور. ولمـــا كـــان العاملون بهذه المؤسسات المذكورة اعلاه وخريجوها هم اناس لا صفة دينية لهم ولا

---

[١] محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٦٣ جـ ١.

يستطيعون المساس بالدين والعقيدة من غير ان يثيروا الامة بعامتها وخاصتها عليهم مما يقيد حركتهم ويشل نشاطهم ليصبح عقيما لا يتولد منه ما يسعون لتحقيقه من علمانية وتغريب، فكان لا بد من اناس تعطى لهم صفة دينية يعملون على تمرير التغيير المطلوب عبر القيم الدينية. ومن هنا جاءت اهمية ما سمي بالاصلاح الديني كوسيلة لاحداث التغيير ولاعداد قادته وهذا الموضوع لاهميته سيفرد له فصل خاص، وهو الفصل التالي.



الفصل الثالث

الاصلاح الديني

الاصلاح الديني:

ان التغيير الذي كان يراد للأمة الاسلامية لم يكن من ذلك النوع مـــن التغيـــير المحدود الذي يتناول تغييرا في التقنيات الآلية مثلا او تغييرا محدداً بنظام فرعي من النظام الاجتماعي العام بل كان تغييراً جذرياً يتناول البنية الاساسية للمجتمع بجميـــع انظمته وكافة مظاهر السلوك الاجتماعي فيه. مما يتطلب تغييرا في المسلمات والقيم الاساسية للمجتمع. (والتغيير في المسلمات والقيم هو تغيير حيوي ويأتي قبل امكانية احداث أي تغيير في السلوك الفردي او الجماعي او في البنية الاجتماعية. وهو اكثر انواع التغيير تعقيداً)[1]. وخاصة اذا كانت هذه القيم ذات مصدر ديني الهي (فـــالقيم التي من صنع الانسان لا تمثل اكثر من طموحاته وهي قيم شخصية وقد تتغير مـــن وقت لآخر...)[2] ولذلك فان تغييرها لا يلاقي مقاومة كبيرة ولا يتطلب كثير عنـــاء، اما القيم السماوية فثابتة لا تتغير. ولهذا فان المجتمع الذي تحكمه هذه القيم وتحـــدد انظمته وطرائق حياته لا يمكن ان تتغير قيمه هذه، وتستبدل بغيرها بتلك السهولة بل انها لا يمكن تغييرها الا بطريقتين: انقلاب ثوري دموي تسيل فيـــه الدمـــاء الـــى الاعناق -وليس الى الركب فقط- كما حدث في روسيا والصين وكما حدث خـــلال

---

(١) Schaller: The Change agent p. 40-54.

(٢) Bayles, E. Ernest 1960 p.63.

الحروب الدينية الاوربية من قبل. وهذه الطريقة لا تكون مضمونة النتائج فقد يعود الحال الى ما كان عليه في اول فرصة تسنح له. اما الطريقة الثانية والتي هي اسلم واكثر فاعلية فهي بواسطة وضع استراتيجية لاحداث التغيير واستراتيجية ذكية لمواجهة مقاومة التغيير تسير جنبا الى جنب مع استراتيجية التغيير نفسها، وتشمل جميع مراحل التغيير من اذابة الوضع الراهن الى احداث التغيير الى مرحلة تثبيت التغيير وادامته. لتعمل من خلال هذه المراحل جميعا على تفتيت المقاومة واضعافها والتقليل من تأثيرها في صد ومقاومة التغيير. وغالبا ما يكون ذلك بواسطة الترغيب بالجديد القادم وطمأنة المقاومين وتسكين مخاوفهم على قيمهم ومعتقداتهم من جهة اخرى.

ومقاومة الامة الاسلامية ورفضها للفكر الغربي وبالتالي رفضها لانظمته وثقافته وهيمنته النهائية عليها كان مصدرها ما يلي:-

١- عقيدة الامة والتي تتطلب منها الائتمار بما امرها الله به من ان تكون هي نفسها خير امة اخرجت للناس تأمر هي بالمعروف كما يراه الاسلام وتنهي، هي، عن المنكر ايضا من وجهة النظر الاسلامية. لا ان تأتمر باوامر الآخرين وتتخذهم اولياء لها. وقد قال سبحانه وتعالى (يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين)[1]. والاوربيون الزاحفون الطامعون بهذه الامة كانوا اما علمانيون ماديون او ملحدون يسخرون من الاديان ويستهزئون بها، واما دينيون متعصبون ينكرون الاسلام ولا يعترفون بعقيدته، وبذلك يشاركون الملحدين بالسخرية والاستهزاء به والتقليل من شأنه ومن فاعليته.

٢- خوف الامة على دينها وعقيدتها الاسلامية من الزوال من خلال التلاشي والذوبان في الفكر الاوربي والحضارة الاوربية الزاحفة مما يفقدها ذاتها

[1] المائدة: ٥٧ (تفسير الجلايين).

وشخصيتها ويذلها بفرض تبعيتها لاصحاب هذا الفكر وهذه الحضارة، فقد قال: سبحانه وتعالي: (ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداء ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون)[1].

وللقضاء على هذه المخاوف وبالتالي هذه المقاومة لا بد من رجال ثقة. ومن هم اكثر ثقة من رجال الدين؟ يزيلون عن الامة المخاوف ويصدرون من الفتاوى ما يجعل التعاون مع الاجانب والكفار وقبول ولايتهم ليس فقط مقبولا بل هو ضرورة تقتضيها الظروف الاجتماعية، للقضاء على التخلف، وضرورة (دولية، تقتضيها السياسة العالمية)[2] ويجعل فكرهم ومظاهر حضارتهم من صلب الدين بالادعاء كما ادعى الطهطاوي ان (هذه العلوم الحكمية والعلمية التي تظهر الآن انها اجنبية هي علوم اسلامية نقلها الاجانب الى لغاتهم من الكتب العربية ولم تزل كتبها الى الآن في خزائن ملوك الاسلام كالذخيرة، بل ما زال يتشبث بقراءتها ودراستها من اهل اوربا حكماء الازمنة الاخيرة)[3]. وان الانظمة الاوربية التي يرفضونها ما هي في الحقيقة الا ما امر الله به المسلمين، فالاشتراكية هي التكافل والعدالة الاجتماعية الاسلامية (وحريتهم هي حريتنا وانصافنا الاسلاميان)[4]. ونظام البرلمانات الاوربية ما هو الا النظام الشورى الاسلامي. وغير ذلك مما هو تزوير للحقائق الاسلامية. هذا غير التأكيد للامة الاسلامية انه لا خوف على عقيدتها فهي ستبقى محفوظة ومصونة في قلوب المؤمنين بها وفي المساجد حيث تمارس شعائرها بحرية تامة تضمنها الدساتير الاوربية او المتاوربة!! اما في الحياة الاجتماعية والسياسية

---

(١) الممتحنة: ٢.

(٢) محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث ص ٣٣.

(٣) محمد عمارة: الطهطاوي، الاعمال الكاملة جـ ١ ص ٥٣٤.

(٤) عزت قرني: العدالة والحرية... ص ٧.

والاقتصادية فهذه امور دنيوية لا علاقة للعقيدة الاسلامية بها. وارتباطها بالعقيدة ما هو الا تقليد للاوائل وتخلف ورجعية!.

ومن هذا المنطلق قامت ما يسميه البعض بحركات الاصلاح الديني. وهي في الحقيقة لم تكن الا حلقة من الحلقات المتكاملة المرسومة والمخطط لها بعناية من اجل تحقيق الاهداف الاستعمارية للدول الاوربية، ومرحلة ضرورية وفعالة من اجل التغيير الذي يريدون. وقد اكد نابليون كما مر ذكره على ضرورة الاستفادة من رجال الدين واستخدامهم كواسطة خير بينه وبين الامة الاسلامية يمهدون له ويحققون له القبول. وكذلك فعل غيره ممن اتى بعده. فعلت اصوات رجال لبسوا لباس الدين ودعوا الى اصلاح ديني كالذي حدث في اوربا. فقال الافغاني مثلا (بضرورة القيام بحركة تجديدية في الدين اشبه بحركة مارتن لوثر مؤسس البروتستانتية في اوربا تعني باستئصال ما رسخ في عقول العوام وبعض الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي)[1]، ولذلك فقد اتجه جمال الدين بدعوته الى التجديد في الاسلام (وطالب المسلمين بتحقيق نهضة دينية تلائم مقتضيات العصر الحديث...)[2]. اذ كان الافغاني كما يرى طهارى محمد يريد (دينا يتلاءم والنهضة الحديثة للقرن التاسع عشر)[3] !! وللحصول على الدين الجديد هذا! لا بد في نظره من حركة دينية مشابهة لتلك التي حالت حال اوربا (من الخشونة الى المدنية). وعمل الافغاني في هذا الاتجاه الاوربي في اصلاحه، ولكن كانت طريقته هجومية عنيفة وموجهة ضد الحكام المسلمين اينما كانوا. وهذه الطريقة وان كانت تخدم هدف الاستعمار الاوربي في اضعاف الحكام واظهار عجزهم والتقليل من شأنهم مما يضعف ثقة الرعية بهم

---

(١) عبدالباسط: جمال الدين واثره في العالم الاسلامي ص ٨٧.

(٢) ذات المصدر.

(٣) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح بين جمال الدين الافغاني ومحمد عبدة ص ٢١.

ويحدث فجوة بين الرعية وبينهم تشل حركتهم وتجعلهم غير قادرين على مواجهة المستعمر حتى ان ارادوا، ولكنها لا تخدم الشق الثاني والاساسي من الهدف الذي هو تغيير القيم والذي لا يمكن ان يحدث الا بالتدريج وبهدوء عن طريق التربية والتوجيه. فهنا كان لا بد من ايجاد كوادر اخرى (من المفكرين المرتبطين بالمصالح الاوربية ودفعهم الى واجهات المجتمعات الاسلامية على انهم مجددون)[1] ومصلحون دينيون يعملون من خلال الفتاوى واسلوب التربية والتعليم الى احداث هذا التغيير القيمي المطلوب. فظهرت حركات اصلاحية دينية مثل حركة احمد خان في الهند، حيث كان الاحتلال الانكليزي يلاقي اشد الرفض من المسلمين الذي كانوا يعبرون عن رفضهم هذا بالامتناع عن دخول المدارس الاجنبية ومقاطعة الوظائف الحكومية بالاضافة الى ما يثيرونه لهم من المتاعب، فصار احمد خان يقول: (يجب علينا ان ندرس الكتب العلمية الغربية وان كان مؤلفوها ليسوا بمسلمين وكان فيها ما يخالف القرآن الكريم، وان نأخذ ما اخذه الغرب في اوائل عهدهم... من فلاسفة اليونان...) ولم يكتف السيد احمد بدعوة المسلمين الى دراسة الكتب الاوربية بل انشأ جمعية علمية في عليكرة تعمل على (نشر الآراء الحديثة في التاريخ والاقتصاد والعلوم، وترجمة اهم الكتب الانكليزية في هذه الموضوعات الى اللغة الاوربية... ثم انشأ بعد ذلك كلية عليكرة سنة ١٨٧٥ على النظام الحديث)[2].

ويقول محمد البهي في كتابه الفكر الاسلامي الحديث، ان احمد خان قد شرح القرآن وفسره بشكل عمل (على توهين الفجوة بين اهل الكتاب من جانب، والمسلمين من جانب اخر، وطلب التعاون بين المسلمين والغربيين ودعا الى ما اسماه -انسانية الاديان... وهو ما يشبه فكرة العالمية وقد كانت من قبل تلقب بالفكرة -الماسونية- وفي هذه الفكرة تنمحي كل الفوارق بين الاوطان والقوميات والاديان والمذاهب)[3].

---

(١) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات ص ٥٨.

(٢) عبدالباسط: الافغاني واثره في العالم الاسلامي ص ٧٨.

(٣) البهي: الفكر الاسلامي الحديث ص ١٦.

ولكن يبدو ان اصلاح احمد خان لم يحقق كل ما اراده الاحتلال من اصـــلاح يخدم مصالحه وخاصة مسألة ابطال الجهاد فشجعوا حركات اكثر تطرفـــا واكــثر صراحة مثل حركة ميرزا احمد غلام القاداني الذي ادعى (انه المهدي الذي حل فيه عيسى وموسى على السواء فاصبح نبي وسجل مذهبه رسميا في عام ١٩٠٠ ولـــه اتباع في البنجاب وافغانستان وايران) وابطل فكرة الجهاد على اعتبـــار ان الجـــهاد (ليس هو اللجوء الى القوة واستخدام ادوات الحرب ضد غير المؤمنين وانمـــا هـــو وسيلة سلمية للاقناع... ودعا الى طاعة اولي الامر الانكليز واوقف العمل بمدلـــول الاية (يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء...)[١] وقـــد قـــال (لقـــد ضللت منذ حداثة سني اجاهد بلساني وقلمي لاصرف قلوب المسلمين الى الاخلاص للحكومة الانكليزية...والغي فكرة الجهاد التي يدين بها معظم جهالهم والتي تمنعـــهم من الاخلاص لهذه الحكومة... وقد الفت في منع الجهاد ووجوب طاعة اولي الامـــر من الكتب والاعلانات والنشرات ما لو جمع بعضها الى بعض لملأ خمسين خزانـــة وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ومصر والشام وتركيا)[٢] .

ويبدو ان حمى اصلاح دين المسلمين انتشرت حتى اصابت غـــير المســـلمين! مثل مليكم خان. وهو ارمني مسيحي نشأ في ايران... وتولى عدة مناصب هامة في الدولة الايرانية حتى وصل الى مرتبة الصدر الاعظم وقد رأى تدهور حال البـــلاد فساورته فكرة الاصلاح فذهب (الى اوربا، ودرس فيها نزعات الفـــرق المســـيحية المختلفة وكيفية تنظيم الجمعيات السرية والهيئات الماسونية) وقـــد ادرك اســـتحالة تنظيم ايران على مثال اوربا فعمل على القيام باصلاح يناسب الشعب الايراني تحت ستار الاصلاح الديني، فنادى (بانشاء مذهب ديني جديد عرف بالمذهب الانســـاني) ويقول في ذلك: (لم يكن لدي في اول الامر فكرة انشاء دين، ولكن اتباعي ارغموني

---

(١) ذات المصدر ص ١٨.

(٢) نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات ص ٥٨.

على ان اكون قديسا ونبيا... واصر المتحمسون من اتباعي على ان اجيء بالمعجزات... (و) راع الشاه نمو قوتي التي في الحقيقة اعظم من قوته فصمم رغم صداقتنا على قتلي) ولكنهما تفاهما بعد ذلك وسافر مليكم للاقامة في بغداد (وصار له فيها اتباع من الايرانيين المقيمين فيها ومن اهل بغداد الشيعيين) ولكن الاتراك اضطروه للرحيل عنها قبل ان يتم عمله!! كما يدعي وطلب منه اتباعه العودة الى ايران ولكنه لم يعد لانه خشي كما يقول (ان يموت لدين لا يؤمن به) فكتب الى الشاه الذي رد باستعداده تقليد مليكم خان منصب سفير لدى جميع الدول الاوربية! وفي مقر عمله في لندن انشأ جريدة اسماها القانون كانت تطبع في لندن وتوزع في مختلف بلاد الشرق. وكانت كتاباته تدور كلها حول سوء الحالة في ايران والمطالبة بالحكم الدستوري (وانشاء برلمان حر يمثل جميع طبقات الشعب وخاصة العلماء) وظلت جريدته تصدر لمدة ثلاث سنوات ونصف حتى احس الشاه والصدر الاعظم بخطرها فمنعا دخولها البلاد[١]. ويرى عبدالباسط ان اراء السيد مليكم خان تتفق الى حد كبير مع اراء جمال الدين الافغاني (فكلاهما كان يقاوم الصدر الاعظم وكلاهما كان يطالب بالحكم الدستوري) مما يجعله يعتقد بوجود صلة بين الاثنين ويرى ان ما يؤيد وجود هذه الصلة قول ميرزا رضا الكرماني، قاتل الشاه ناصر الدين، الذي قال انه كان يقابل الافغاني في منزل مليكم خان وان هذا الاخير هو الذي اقنع الافغاني في الذهاب للاقامة في الاستانة!!

اما في العالم العربي فقد ارتبط الاصلاح الديني بكل من جمال الدين الافغاني وتلميذه محمد عبدة. ورغم ان دعوتهما في محصلتها النهائية المتمثلة في قبول الحضارة الاوربية واقتباس منتجاتها المادية والفكرية وايجاد التبريرات لذلك من القرآن الكريم والسنة الشريفة لا تختلف كثيرا لا من حيث اسلوبها ولا من حيث غرضها النهائي التغريبي عن دعوة الطهطاوي قبلهما الا ان الاخير قد اعتبر على

---

[١] انظر عبدالباسط: ذات المصدر ص ١٤٨-١٤٩.

رأس العلمانية و (اول كاتب علماني في العصر الحديث)[1]. واعتبر كل من الافغاني ومحمد عبدة اول المصلحين الدينيين! مع انهما لم ينتجا الا العلمانية التي وصلت في كثير من الاحيان الى حد التطرف. فقد كان اديب اسحق وسليم نقاش ويعقوب صنوع وغيرهم من العلمانيين (او حتى الملحدين) من تلامذة الافغاني واصدقائه العاملين بمشورته وتوجيهاته! كما كان قاسم امين وسعد زغلول ولطفي السيد وغيرهم من تلامذة عبدة كما كان طه حسين وسلامة موسى وغيرهم من العلمانيين من تلامذة تلامذته، وهم جميعا متأثرين بآرائه ومقتدين به حتى سمي حزبهم الذي الفوه بحزب الامام! وقد اثرت بعض ارائه السياسية في كثير من المؤيدين له. فلم يكن مثلا، علي عبدالرازق، اول من جعل الفصل بين الدين والدولة موضوعا لبحثه ليثبت ان الاسلام لم يكن دين ودولة في يوم من الايام ولا يجب ان يكون (سوى امتداد متطور للشيخ محمد عبدة في الاصلاح الديني) كما يرى محمد عمارة الذي قال: (ان اراءه في موضوع الخلافة قد كانت في عدد من نقاطها الجوهرية تفصيلا وبلورة وتطويرا لاراء الاستاذ الامام في ذات الموضوع) واستشهد على ذلك بما نشرته جريدة التيمز البريطانية والتي تؤكد بأن الشيخ علي عبدالرازق هو (خلف الشيخ محمد عبدة وقاسم امين في ارائهما الفكرية) اذ هي بذلك كما يرى عمارة (تحدد مكانا لكتاب الاسلام واصول الحكم في حركة الاصلاح الديني التي بدأها الاستاذ الامام)[2].

وينفي الكثيرون عن الافغاني وعبدة الدعوة الى العلمانية والتبعية للغرب على اساس ان العلمانية (هي رفض مبدأ تحكيم الشريعة)[3] و (عزل الدين عن سياسة الدولة وتوجيه امورها، سياسية كانت او اقتصادية او اجتماعية او ثقافية او

---

(1) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة ص٢٧.

(2) محمد عمارة: الاسلام واصول الحكم، لعلي عبدالرازق ص ٣١.

(3) يوسف القرضاوي: الاسلام والعلمانية، ص ٧٣.

تربوية)[١] . وعلى اساس ان عبدة والافغاني لم يدعوا لكل هذا وبهذه الصراحة ولكن دعوتهما كانت البداية وما كان في استطاعتهما ان يدعوا بأكثر مما دعيا اليه من اتباع الغرب وقبول حضارته وتسهيل دخول القيم الغربية والنظم الاوربية اللااسلامية، ولم يكن من الممكن لهما ان يفصلا بين الدين والدولة بأكثر مما فعلا والا كانت دعوتهما ستلاقي الرفض التام انذاك والمجتمع الاسلامي على تلك الحالة من التضامن والتمسك بالاسلام دينا ودولة. فكان لا بد من تزيين دعوتهما بالاسلام لتلاقي القبول. فدعوتهما ما كانت الا بداية التي سهلت كل ما جاء بعدها ومهدت له. فهما مسؤولان ليس فقط عن تسهيل انتشار العلمانية والتمهيد لها وانما حتى الالحاد فقد مهدا له عندما ارتضيا بالماسونية دينا لهما يصلحان العالم الاسلامي من خلاله كما مر ذكره. ولولا انتمائهما للماسونية تلك ما كان استسهل المسلمون بعدهما الانتماء الى الماسونية او الى العقائد الاخرى المشابهة لها مثل الشيوعية والاشتراكية العالمية وغيرها من المؤسسات او الاحزاب اللادينية او الملحدة.

وكما نجد من يدافع عن علمانيتهما نجد ايضا من لا يرضى ان تكون حركتهما الاصلاحية مشابهة لتلك التي قامت في الهند بتوجيه احمد خان. فنجد محمد البهي يرفض في كتابه الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ان تكون حركة السيد احمد خان الاصلاحية في الهند مشابهة لتلك التي قام بها كل من الافغاني وعبدة في مصر. واستنكر ان يكون دور احمد خان في الهند مشابها للدور الذي لعبه عبدة في مصر. اذ اعتبر احمد خان مدفوعا في اتجاه التجديد في الاسلام من قبل الاستعمار الانكليزي للمحافظة على مصالحه في الهند ولتحقيق غايات واضحة هي:

١- الملاءمة بين العلم والدين.

---

(١) ذات المصدر ص ٧٢.

٢- اعادة امتحان واختبار اسس العقيدة في ضوء الفكر الغربي الحديث.[١]
وبالتالي فهو اتجاه موالي للاستعمار. بينما اعتبر دور الافغاني وعبدة يمثل الاتجاه المقاوم للاستعمار! رغم الشواهد الكثيرة التي تدل على مشابهة الحركتين واتفاق منطلقاتهما واساليبهما والتي منها ما جاء في بحث الدكتور البهي ذاته. فان كان يعيب على احمد خان ملاءمته بين العلم والدين فهما قد ناديا بالتأويل لآيات القرآن الكريم ان اقتضى الامر لتلائم العلم والعصر الحديث متخذين العصر الحديث المتمثل بالفكر الغربي معيارا لذلك. وان كان يعيب عليه دعوته التقريب بين الاديان بما يشبه الماسونية! فقد انتمى كل من عبدة والافغاني الى الماسونية وعملا من خلالها ولاجلها، حتى ان عبدة ذكر في احدى رسائله للافغاني بأنه ما اشترك في ثورة عرابي التي كان يعارضها اشد المعارضة الا من اجل استغلالها لمصلحة الحزب الوطني الحر الماسوني الذي سبق ان الفه الافغاني قبل خروجه من مصر مرتبطا بالمحفل الماسوني الفرنسي. وقد دعا كل منهما الى تقارب الاديان وعمل عبدة بالذات مع القس تيلر من اجل توحيد الاديان. اما استشهاده على اختلاف الحركتين بأن (دعاة الاصلاح الديني بعد جمال الدين الافغاني يمثلون حركة دفاع او انقاذ، ودعاة التجديد بعد السيد احمد خان يمثلون الهجوم الصليبي الاستعماري الغربي على مقومات المسلمين)[٢] فهو كلام مردود لأن الماسونية والعلمانية وحتى الالحاد لم ينتشروا الا من قبل تلامذة الافغاني وعبدة ومن خلال كتاباتهم. وكل ما نراه حولنا من تغريب ما هو الا نتاج للحركة التي بدأها كل من الافغاني وعبدة. وكل فكرة تغريبية موجودة الآن يمكن ان تجد لها اصلا في اعمالهما، كما نجد هذا الاصل هو اساسا لا يعدو ان يكون صدى لأصل ظهر في كتب المستشرقين الاوربيين ومفكريهم المناوئيين للامة.

---

(١) البهي: الفكر الاسلامي... ص ٨٣.

(٢) ذات المصدر ص ٨٧.

والدكتور البهي يستنكر ان يشبه احمد امين، في كتابه زعماء الاصلاح في العصر الحديث، حركة احمد خان في الهند بحركة عبدة في مصر على اساس ان كلاهما رأى السلطة بيد الانكليز الذين يملكون (القوة المادية من الاسلحة والذخائر في البر والبحر... ما لا تستطيع الهند ومصر مقاومته فاختارا مولاتهم...)[1] لأن البهي يرى ان مهادنة (عبدة لكرومر كانت لحماية نفسه من اضطهاد الخديوي عباس الثاني حتى يتمكن من اعلان رأيه في اصلاح الازهر والدفاع عنه وحتى يستمر نشاطه الفقهي... (و) كانت ايضا لحماية اوقاف المسلمين الخيرية التي اخذ هذا الخديوي الشاب في تصفيتها...)[2]. كما يبرر ذلك ايضا بوجود سلطتين تحكم مصر، سلطة الاحتلال الانكليزي وسلطة الخديوي بينما الهند تحكمها سلطة الاحتلال الانكليزي فقط. وبالتالي فان ممالاة السيد احمد خان كما يرى البهي كانت (لتحقيق مصلحة شخصية او لتحقيق خدمات للاستعمار) اما ممالاة عبدة للمحتل فكانت للحيلولة دون استمرار تنفيذ الخطة الموضوعة لتصفية الاوقاف وهكذا لوى الدكتور البهي رقبة الحقيقة. فاما مسألة مهادنة عبدة لكرومر لحماية نفسه من الخديوي فقد كان اولى به واكثر اسلامية ان ينحاز الى جانب الحاكم وولي الامر المسلم والذي امر الله بطاعته والذي يقف الى جانبه انذاك معظم رجال الدين وكافة العامة من ابناء الامة المسلمين. وبدل ان يتغاضى عن مساوئ المحتل الانكليزي الكثيرة كان اولى به ان يتغاضى عن مساوئ الخديوي القليلة، مهما كثرت، من اجل وحدة الصف ووحدة الكلمة لمواجهة المحتل!! ومسألة اصلاح الازهر فهي اساسا دعوة تبناها الاستعمار قبل الاحتلال وبعده بشهادة كثير من الكتاب وكثير من تصريحات الاجانب ذاتهم وتقاريرهم، للتقليل من اهميته كمركز ديني شديد الخطر عليهم ان لم يدجن بالفكر الاوربي ليتحقق بذلك هدفهم الذي هو ذات الهدف الذي

---

(١) ذات المصدر ص ١٤٩-١٥٠.

(٢) ذات المصدر.

سعى عبدة لتحقيقه وذكره في قوله المذكور في كتاب البهي والذي جاء فيه (لو صلح حال التعليم في الازهر لهب المسلمون الى طلب العلوم الصحيحة... فلا يجدون الا اوربا وعلومها الحية ويفهمونها على انها خير عون لهم على تكميل مدنيتهم فيتعارفون ولا يتناكرون واذ عارضت السياسة تعارفهم فانه يسهل عليهم من ازالة معارضتها مع التقارب والعلم ما لا يسهل عليهم مع التقاطع والجهل)[1]. وهل اصلاح الازهر ايا كانت اهميته للامة اكثر اهمية من العمل مع العاملين على مقاومة المحتل او على الاقل جعل اقامته في البلاد صعبة ان لم تكن مستحيلة؟!!.

ثم ايهما اهم، تصفية الاوقاف التي لم تكن هناك خطة اساسا لتصفيتها وانما كان هناك خلاف افتعله عبدة بتحريض من كرومر مع الخديوي لرغبة كرومر في اذلال الخديوي الشاب والتأكيد له بأنه لا شيء ولا يملك اية سلطة في بلده، ام تصفية الوطن ومقوماته واهانة الامة واذلالها باحتلالها واستعمارها؟! هذا غير ان علاقة عبدة بكرومر والاحتلال الانكليزي يعود الى عهد سابق لمسألة الاوقاف فمنذ عودة عبدة من المنفى، والتي تمت بأمر من كرومر والحاح منه على الخديوي توفيق وهو يحظى بمساندة كرومر له والعمل على ترقيته حتى اوصله الى منصب الافتاء الذي ما وصل اليه إلا بترشيح من كرومر واصرار منه. اما مسألة الاوقاف فتعود الى وقت متأخر، الى عام ١٨٩٩. وفي عهد الخديوي عباس.!

اما كون وجود سلطتين في مصر وسلطة واحدة في الهند هي سلطة الاحتلال، فهنا لا يلوي الدكتور البهي رقبة الحق والحقيقة وانما يكسرها، فوجود سلطة واحدة يضع احمد خان في موقف صعب لا خيار له فيه، وهو موالاة هذه السلطة التي لا قبل له، كرجل تربية ودين، وللهند كدولة عدد غير المسلمين فيها يفوق عدد المسلمين، التخلص منها. وانا لا اريد تبرير عمله هنا وانما اريد ان ابين ان حاله اصعب مما هو حال عبدة انذاك. لانه مع وجود سلطتين -وسلطة ثالثة غير مباشرة

[1] ذات المصدر ص ١٤٥-١٤٦.

ولكن لها تأثير كبير ان استغلت مع سلطة الخديوي وهي السلطة العثمانية- فقد كان بامكان عبدة لو انه تعالى عن اهوائه ومصالحه وانحاز الى سلطة الخديوي واستغل رغبة الخديوي في ان تكون له سلطة لا يستطيع ان ينافسه عليها كرومر، وهي سلطة الامور الدينية وسلطة الازهر لكان حقق عبدة الكثير من الاصلاحات الحقيقية في شؤون الازهر وفي شؤون الدين لو صح عزمه على الاصلاح. ثم كيف يمكن لعبدة -او لغيره- ان يخطر بباله انه يمكن ان يحقق اصلاحا حقيقيا في شؤون الدين مستندا على كتف المستعمر الانكليزي، غير المسلم، بل اللاديني في الحقيقة؟ لا شك ان الدكتور البهي لم يكن موضوعيا في اعتبار حركة احمد خان موالية للاستعمار وحركة الافغاني -عبدة مقاومة للاستعمار، فكلاهما في الحقيقة واحد، وجهين لعملة واحدة سكها الاستعمار لخدمة مصالحه.

وقبل ان نتعرف على الاصلاح الديني للافغاني وعبدة لا بد من التعرف على كل منهما، فمن هو الافغاني ومن هو عبدة.؟ وما هي مدرستهما؟ وقبل هذا وذاك ما هو الاصلاح بالنسبة للمسلم؟ ومن هو المصلح الديني؟

الاصلاح الديني بالنسبة للمسلمين هو كما يراه البهي (تفكير ومنهج يقوم على نقد وبناء، ويخلص الى اعتبار قيمة واحدة هي قيمة الاسلام في التوجيه)[1] وعلى هذا الاساس اعتبر العملية التغريبية التي ادعى القائمون بها انها اصلاح او تجديد في الاسلام ما هي في الحقيقة الا اخضاع الاسلام للون من التفكير اجنبي عنه.

والاسلام وهو الدين الذي انزل الله به اخر كتبه -القرآن- وبعث به خاتم رسله محمداً-ﷺ- من عقائد، وعبادات، واخلاق وآداب ومعاملات، اذا احسن الناس فهمها والعمل بها، زكا الفرد واستقرت الاسرة وتماسك المجتمع، وصلحت الدولة، واستقام

---

(١) البهي: الفكر الاسلامي الحديث: ص ٣٧٤.

امر الحياة، بقدر استقامتهم على امر الله: واذ اساءوا فهمه او العمل به، اختلت حياتهم الفردية والاجتماعية بقدر بعدهم عنه)[١] .

والمسلم بالتالي، هو من آمن بالله وبما انزل في القرآن الكريم وارتضى بالاسلام نظاماً لدينه ودنياه وبالقرآن الكريم دستورا ومنهجا. اما الايمان فهو كما يعرفه القيرواني (قول بللسان واخلاص بالقلب وعمل بالجوارح... ولا قول الا بالعمل ولا قول وعمل الا بنية ولا قول وعمل ونية الا بموافقة السنة)[٢] . فالايمان بالنسبة للمسلم يخص الانسان كوحدة مترابطة من جسم وروح فهو (ليس فكرا مجردا فحسب ولا شعورا مجردا ولا عملا مجردا بل هو تعبير عن الانسان كله)[٣] بكيانه المترابط المكون من جسم وروح. وبالتالي فانه لا يمكن ان يكون للمسلم حاجات روحية يحققها من خلال ايمانه وقيامه بفروض العبادة وحاجات للجسم يحققها بعيدا عن ذلك. فالعمل ذاته بالنسبة للمسلم عبادة. ولا يقتصر العمل الذي امر الله به وجعله عبادة على الفروض التعبدية كالصوم والصلاة وانما أي عمل يحقق حاجة انسانية فهو عبادة فقد قال الغزالي: ان كنت معلما او متعلما او واليا فالاشتغال بذلك اولى من بياض النهار وافضل من العبادات البدنية. وان كنت معيلا محترفا فالقيام بحق العيال بكسب الحلال افضل من العبادات البدنية)[٤] . على ان يكون العمل بالطبع عملا صالحا. والعمل الصالح الذي امر الله به مرتبط بالتقوى والايمان. فقد قال سبحانه وتعالى (ان الذين امنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية...)[٥] وعمل المسلم ليكون عملا صالحا لا بد ان ينبثق من الايمان بالله والائتمار بما امره به وبما نهاه عنه. وايا كان هذا العمل ولاي غرض موجه، سواء

---

(١) يوسف القرضاوي: الاسلام والعلمانية، ص ٣٢.

(٢) القيرواني: كتاب الجامع في السنن... ص ١١٠.

(٣) محمد اقبال: تجديد الفكر ص ٧.

(٤) الغزالي: ميزان العمل ص ٧٦.

(٥) البينة: ص ٦-٨.

كان موجها للعبادة ام للمعاملة ام للمجاملة، وسواء كان لطلب العلـــم والمعرفـــة ام لطلب الرزق والجهاد في سبيله فلا بد ان يكون عملا صالحا منبثقا مما امر الله بـــه وما نهى عنه، والا اصبح العمل ضلال لا ينسجم والايمان بالله ولا يتسق مع الغايـــة من وجود الانسان على الارض، فقد قال الغزالي ناصحا (ينبغي لك ان يكون قولـــك وفعلك موافقا للشرع، اذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة)[١] .

ولا اريد هنا ان اناقش مسألة الايمان والكفر، فانا لست من المؤهليـــن لذلـــك ولكنني فقط اريد ان اصل الى مفهوم بسيط غير معقد للاسلام والمسلم، يسهل علينـــا نحن العامة من الناس ان نجعله معيارا نحكم بواسطته على بعـــض الامـــور التـــي تعرض لنا ومنها الاصلاح الديني الذي هو موضوعنا هنا. لاصل الى ان الاســـلام هو شريعة، شرعها الله للانسان لتكون له نظام حياة، بدينها ودنياهـــا نظـــام يربـــط الحياة الاولى بحياة الآخرة بعلاقة تداخل وتكامل تجعل منهما وحدة واحدة. والمســلم هو من يؤمن بالله ويتبع شريعته هذه ويعمل بموجبها ويحكمها في جميـــع شـــؤون حياته الدينية والدنيوية ولا يرضى بغيرها بديلا. وبالتالي فان المصلح المسلم هو من تكون هذه الشريعة -الاسلام- معياره للحكم على ما هو صـــالح ومـــا هـــو فاســـد ووسيلته في اصلاح ما فسد، فالمصلح الديني، من وجهة نظر المسلمين، هو مـــن لا يرضى بغير الاسلام معيارا يحكم به على ما هو صالح وما هو فاسد فيما يراه حوله ولا يتخذ الا الاسلام وسيلة له في تحديد البديل لما يراه من فساد ولا يعمل الا وفـــق منهج اسلامي لاحداث التغيير المطلوب واصلاح ما افسده الجهل او سوء الفـــهم او غلبة الاهواء في حياة الامة. فاين مكـــان الافغـــاني ومحمـــد عبـــدة ومدرســـتهما الاصلاحية من هذا المفهوم.؟ وقبل ذلك من هو الافغاني.

---

[١] الغزالي: ايها الولد ص ٢٧.

الافغاني:

يقول عزت قرني في كتابه العدالة والحرية في فجر النهضة: (ابحث ما شاء لك البحث فلن تجد شخصية اغرب من جمال الافغاني بين شخصيات العالم الاسلامي الحديث. فهذا الافغاني المزعوم، الايراني حقا السني على ما يعلن، والشيعي في اصله، ترك وطنه وليكن ما يكون وتقلب في اراضي المشرقين متنقلا بين ايران وافغانستان ومنها الى الهند ثم الى مصر والى تركيا ثم الى مصر ثانية ثم الى باريس... وروسيا... وفارس واخيرا يستقر شبه سجين في الاستانة ليموت فيها مسموما بحسب كل الظواهر. هذا الرجل الذي ترك فيمن اقتربوا منه اعظم الاثر... وثارت حوله الشكوك واستمر كذلك حتى سني حياته الاخيرة...)[1].

فقد بدأ رحلته في هذه الحياة الدنيا حسب ما جاء باعماله الكاملة بقلم محمد عمارة عام ١٢٥٤هـ، ١٨٣٨م. ولد في اسداباد من اعمال كابل. وكان والده يعمل بالتدريس في مدرسة قزوين فالحق جمال الدين فيها عام ١٢٦٤هـ، ١٨٤٨م ولمدة عامين وانتقل مع والده الى طهران عام ١٢٦٦هـ، ١٨٤٩م. ومن طهران سافر مع والده في نفس العام الى النجف حيث تركه والده فيها. ومكث جمال الدين فيها اربع سنوات درس خلالها العلوم الاسلامية وغيرها وفي عام ١٢٧٠هـ، ١٨٥٣م غادر جمال الدين النجف عملا بنصيحة من الشيخ مرتضى على اثر مكيدة[2] دبرها ضده نفر من العلماء. وطلب منه مرتضى هذا التوجه للهند فذهب الى بومباي ثم اقام بكلكتا التي درس فيها العلوم الاوربية ومن الهند ابحر الى مكة للحج عام ١٢٤٧٤هـ، ١٨٥٧م ومنها ذهب الى النجف وكربلاء! ومنها الى اسد اباد ثم

---

(١) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة ص ٢٣٢.

(٢) اية مكيدة هذه التي يدبرها علماء كبار لطالب علم لم يتجاوز الخامسة عشر من العمر.؟ وبماذا كان ينافسهم حتى يكيدون له؟ ولماذا يطلب منه الشيخ مرتضى التوجه الى الهند وليس افغانستان التي هي كما يدعي موطنه؟ وكيف يعود بعد ذلك الى النجف وقد تركهاهاربا من المكائد.؟

غادرها الى طهران ومنها الى خرسان ثم الى افغانستان حيث كان طرفا في الصراعات السياسية وتقلد فيها اكبر المناصب[١] ومن هنا بدأ الجزء الذي يهمنا من رحلته.

فهو قد ترك افغانستان على اعتبار انها موطنه الاصلي مختارا، كما يؤكد جرجي زيدان في كتابه بناة النهضة العربية، وذهب الى الهند من اجل اصلاح حال الامة الاسلامية، -مع ان بلده افغانستان كانت انذاك في امس الحاجة الى الاصلاح الديني وغير الديني. وكانت بحكم مجاورتها للهند المحتلة من قبل الاستعمار البريطاني تتعرض لهجمة استعمارية اقوى مما يتعرض له أي بلد اسلامي آخر- ولكن على اية حال فقد تركها وذهب الى الهند فرحبت به حكومتها الانكليزية واكرمته ولكنها فرضت عليها حصارا! -كما تذكر المصادر- يحول بينه وبين لقاء العلماء وجماهير المسلمين، وبعد شهر قامت بترحيله في احدى سفنها وعلى نفقتها الى مدينة السويس ومنها الى القاهرة[٢] . ولم يمكث طويلا في مصر بل غادرها بعد اربعين يوما الى الاستانة حيث لاقى التكريم والترحيب من السلطان والصدر الاعظم! وعين بعد ستة اشهر فقط من وصوله وبالرغم من كونه انذاك شاباً في نهاية العشرينات من عمره عضوا في مجلس المعارف[٣] ولكنه تخاصم (ولج في طلب المخاصمة فعظم الامر وآل الى صدور امر الصدر الاعظم اليه بالجلاء عن

---

[١] انظر الاعمال الكاملة، جمال الدين الافغاني جـ١ (ثم اليس غريبا ان يقضي الافغاني معظم سنين عمره خارج افغانستان ليعود اليها وهو لا يزال شابا دون العشرين من العمر ليتقلد اكبر المناصب القريبة من ملوكها ومن مراكز القوى؟).

[٢] اليس من الغريب مرة اخرى ان لا يعيدوه الى افغانستان -او حتى ايران، ايهما كان موطنه- وهو الامر الطبيعي ما دام قد خرج مختارا، ولكن يرسلوه الى مصر؟ فلماذا مصر بالذات وهي الهدف التالي في خطط الاستعمار للاحتلال؟.

[٣] اين اذا تهم التحجر والرجعية ومقاومة العلماء التي اتهم كل من الافغاني وتلامذته الدولة العثمانية بها؟

الاستانة[1] . فذهب الى مصر عام ١٨٧١ وبغرض الفرجة الا ان رئيس وزرائها انذاك، رياض باشا، اقنعه بالاقامة في مصر واجرت عليه الحكومة راتبا شهريا)[2]!!!

واستطاع خلال اقامته في الاستانة وفي مصر ان يجعل من نفسه اسطورة باسم جمال الدين الافغاني، العالم الديني السني والمصلح الديني المشهور الذي يلبس لكل بلد لباسه ويلحق باسمه اللقب الذي يناسب ذلك البلد، فهو تارة الافغاني وتارة اخرى الحسيني او الاستنبولي او الاسدابادي!! ولكنه اشتهر اكثر ما اشتهر باسم الافغاني وقد نشر هذه الاسطورة (ببراعة عظمى واستخدم في نشرها له عشرات التلاميذ وبعضهم كان كأنه شبه مسحور...) اما حقيقته فقد ساهم في الكشف عنها كما يقول عزت قرني (عدد من الوثائق الجديدة نشرت اخيرا في طهران وتظهر على الاخص اصله الايراني الشيعي)[3]

ورغم تأكيد محمد عمارة وجرجي زيدان وغيرهم على كون جمال الدين افغاني، سني الا ان الكثير من ما ذكر في اعمالهم عن سيرته يشير الى اصله الايراني وانتسابه الى الطائفة الشعية بشكل غير مباشر، هذا ان صح اصلا هذا الانتساب ولم يكن مزيفا كما كان انتسابه الى افغانستان مزيفا، واكثر ما يدل على نسبته لايران هو كون شاه ايران استقدمه الى طهران (على لسان البرق) كما يذكر جرجي زيدان، وما ان وصل حتى (استقلبه الشاه احسن استقبال.. وولاه نظارة الحربية على ان يرقيه بعد قليل الى منصب الصدارة...)[4] . وهذا ما كان يمكن ان

---

[1] عزت قرني: العدالة والحرية ص ٢٣٢.

[2] جرجي زيدان: بناة النهضة: ص ٧١-٧٧.

[3] عزت قرني: ذات المصدر ص ٢٣٤.

[4] جرجي زيدان: بناة النهضة ص ٧٧ (اليس غريا ان يحظى الافغاني بكل هذا التقدير من الملوك والسلاطين وكبار المسؤولين؟. فما هو عمله هذا الذي جعل شهرته لا تخترق الحدود الدولية السياسية وحدود الطوائف الدينية، بل حتى اخترقت حدود العقول المتهمة بالتخلف والجمود فمنحته كل هذا التكريم؟!!

يحدث لولا انه كان قد اقنع الشاه بايرانيته وشيعيته. اذ لا يعقل ان يستقدم شاه ايـران افغاني بغض النظر عن طائفته ويوليه مثل هذا المنصـب الخطـير، وقـد كـانت العلاقات انذاك بين الدولتين على اسوأ ما يكون حتى ان الافغاني نفسه دعاهما الـى التصالح في احد اعماله. وهنا نحن امام امرين: اما ان يكـون الافغـاني شـخص مشبوه، يخفي حقيقته التي ان عرفت تسوءه وتعرقل تحقيق اغراضـه التـي هـي الاخرى قد تكون مشبوهة! واما ان الاخوة الاسلامية كانت على احسـن حـال ولا يسودها اية خلافات سياسية او طائفية وبالتالي فان دعوة الافغاني لتوحيـد الصـف ونبذ الخلافات لم تكن الا لتذكير الملسمين بخلافاتهم وحفر فجـوة بينـهم لتفريـق صفهم!! وسواء كان الافغاني ايرانيا ام افغانيا ما يهم هنا هو لماذا اصـر الافغـاني على الظهور بغير حقيقته؟ ان تبرير البعض بكونه يدعو في بلاد سنية وليس فيـها مكان لدعوة غير السني جعله يدعي انتسابه الى المذهب السني حتى تقبل دعوته هو تفسير مرفوض، لانه سلوك غير اسلامي ولا اخلاقي ولا يتسق مع خلق القـرأن، ويقوم على الغش والخداع وقد قيل على لسان الرسولﷺ (من غشنا ليس منا). فلـو ظهر على حقيقته وصرف جهده في التقريب بين الطائفتين اللتين يجمعهما القـرأن الكريم، اصل الاصول الاسلامية، والايمان بالله ورسوله، خاصة وهما يتعرضـان لخطر الغزو الاوربي الذي كان يستهدف بلاد المسلمين بجميع طوائفهم! امـا كـان افضل له واكرم من صرف الجهد في التحريض على هذا وذاك من الحكام والدعوة الى اسقاط النظام العثماني تارة واسقاط النظام الايرانـي تـارة اخـرى والنظـام المصري تارة ثالثة، هذا غير التنقل بين موسكو ولندن وباريس يمتدح هـذا او ذاك من الدول الاوربية والاخذ بمدنيتهم التي لا يمكن ان ينصلح حـال المسـلمين فـي نظره، بدونها؟!! وسواء اكان ايرانيا او افغانيا لماذا لم يكرس جهده الاصلاحي لبلده اولا، والاقربون اولى بالمعروف؟ لماذا يترك موطنه ليصلح حال مصـر والدولـة العثمانية مع ان ايران وافغانستان لم تكونا جزأ من الدولة العثمانية؟ ولم يكن الحـال

فيهما افضل مما هو عليه في الدولة العثمانية؟ ثم بماذا يفسر هذا البعض، تدخل الافغاني، بصفته سني في شؤون ايران وهي دولة شيعية؟.

وعلى اية حال فقد قضى الافغاني في مصر من ١٨٧١ الى ١٨٧٩ وكانت هذه الفترة من (اخصب سنوات حياته الفكرية والنضالية) (كذا) كما يذكر محمد عمارة في اعماله، ففي مصر التحق الافغاني بالمحفل الماسوني الانكليزي وقدم الطلب التالي:

(يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابولي الذي مضى من عمره سبعة وثلاثون سنة باني ارجو من اخوان الصفاء واستدعي من خلان الوفاء، اعني ارباب المجمع المقدس الماسون الذي هو عن الخلل والزلل مصون، ان يمنوا علي ويتفضلوا الي بقبولي في ذلك المنتدى المفتخر)[١].

ولكم الفضل

ربيع الثاني سنة ١٢٩٢

يوم الخميس

وقد انشغل الافغاني بعد ذلك وخلال (السنوات الثلاثة الاخيرة التي سبقت ابعاده عن مصر بالكتابة للصحف والخطابة والنشاط الماسوني. ومع ان مصر عرفت الماسونية قبل قدوم الافغاني اليها فقد نشطت المحافل الماسونية نشاطا لم يسبق له مثيل خلال تلك السنوات الثلاث...)[٢] ولما اختلف مع المحفل الانكليزي خرج منه بخيرة عناصر المحفل الوطنيين فاسس بهم محفلا وطنيا شرقيا مرتبطا بالمحفل الماسوني الفرنسي وقسم هذا المحفل الى شعب... واسس من هذه العناصر الماسونية الحزب الوطني الحر الذي رفع شعار مصر للمصريين. ومن اعضائه

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص ٢٤٦.

(٢) ذات المصدر.

واعضاء المحفل (تكونت القيادات التي لمعت بمصر والتي قادت الثورة العرابية)[١] ورغم ان الذين ناقشوا اعمال الافغاني لم يتعرضوا لمسألة انتمائه للماسونية ومدى تعارضها مع الاسلام الذي يعتبر الافغاني داعية له. الا انني ارى ان مسألة انتمائه للماسونية وحدها تكفي لان تضعه بعيدا عن الاسلام والمسلمين. لأن المسلم المؤمن لا يرجع الا الى القرآن الكريم فيعمل على تطبيق ما جاء فيه تطبيقا يزيل ما قد شاب تطبيقه من تشويه -لأن القرآن في نظر المسلم هو الدستور الذي وضعه رب العالمين الذي هو ادرى من البشر بما يصلح للبشر الذين ما جاءوا الى هذه الحياة الا بارادته. وان ترك المسلم ما امره الله به واتبع اقوال البشر لا يكون الى عاصي لاوامر الله ومشرك به وما اطلق على اهل مكة اسم المشركين الا لأنهم ابتعدوا عن دين ابراهيم واسماعيل واتبعوا الاصنام التي هي من صنع البشر، والتي خيل اليهم انها تأمرهم وتنهيهم وتمنع عنهم وتعطيهم. والافغاني التمس الاصلاح من الفكر الاوربي والماسونية اللادينية، ووصف محفلها بالمعظم والمقدس، والمسلم ليس في نظره من هو مقدس الا الله وكتابه العزيز. وقال في الماسونية: (اول ما شوقني في بناية الاحرار، عنوان كبير خطير، مساواة، اخاء، منفعة الانسان، سعي وراء دك صروح الظلم، تشييد معالم العدل المطلق... هذا ما ارتضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها...)[٢]. واعتقد ان آلاتها وبناءها الحر هو الذي سيصلح العالم ان ساد -كما مر ذكره- فعمل على اساس ذلك فقال مثلا (ان الأمة مصدر القوة والحكم وارادة الشعب هي القانون المتبع للشعب والقانون الذي يجب على كل حاكم ان يكون خادما له وامينا)[٣] والمعروف ان بالنسبة للمسلم، ارادة الله هي التي فوق الجميع وشريعته هي التي تحكم وهي القانون المتبع للشعب والتي يجب على الحاكم

---

(١) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١.

(٢) عزت قرني: العدالة والحرية... ص ٢٦٤.

(٣) علي محافظة: الاتجاهات الفكرية... ص ١٠٢.

ان يكون خادما لها وامينا عليها وبهذا فقط تتحقق مصالح الشعب. وهناك الكثير من الافكار التي دعا اليها الافغاني مما يخالف عقيدة المسلمين مما لا مجال لذكره هنا. ولكن مسألة انتماء كل من الافغاني وعبدة وغيرهم للماسونية وغيرها من الاديان البشرية المشابهة تدعو الى التساؤل: الا يكون المسلم مشركا ان هو تبنى فكرا ملحدا او دينيا، مناهضا للاسلام؟ او ان هو عمل وفق مبادئ من وضع البشر غير تلك التي امر الله بها في القرآن: واذا لم يعتبر هذا مشركا فما هو الشرك اذا؟ ومن هو المشرك.؟ الا يجب على المسلم ان يقف قليلا ويبحث هذا الموضوع ويختار بعد ذلك ان يكون مشركا او مسلما كما يشاء حتى يكون منسجما مع نفسه غير متناقض معها ولا مع مجتمعه.؟

والغريب ان من تطرق لموضوع ماسونية كل من الافغاني وعبدة لم ينظر اليها من خلال انسجام ذلك مع كونهما دعاة مسلمين، وانما نظر اليها على اساس علاقة الماسونية بالصهيونية فقط. وهذه برروها لهما ودافعوا عنهما كما فعل محمد عمارة في اعماله الكاملة، على اساس انه لم يكن معلوما انذاك ارتباط الماسونية بالصهيونية. وان الصهيونية لم يكن لها انذاك مطامع في فلسطين. مع ان هذا التبرير مرفوض لان الصهيونية كانت انذاك نشطة وعاملة وتمارس ضغطا على السلطان العثماني من اجل شراء فلسطين او من اجل السماح لليهود بالهجرة اليها. وضغطهم يعود الى اوائل القرن التاسع عشر. وقد مر ذكر تهديدهم للسلطان بمحمد علي وحربه! وان كان يصح للرجل العادي ان يغفل عن تحركات الصهيونية وعن مطامع الاستعمار وتحركات ادواته ومن ضمنها الماسونية، فلا يصح لرجل داعية اسلامية ومفكر عبقري كالافغاني، كما يصفوه، ان يغفل عن ذلك او حتى يتغافل! هذا غير ان انتمائه للماسونية لا يعيبه من جانب علاقتها بالصهيونية او علاقتها بالاستعمار فقط، وانما يعيبه كمسلم وداعية اصلاح اسلامي، لان تبنيه فكرا (لا دينا)

غير الاسلام يمكن اعتباره حركة اراد بها ان يؤكد عجـز الاسـلام عـن تحقيـق الاصلاح لحال الامة، وهذا وحده يجعله يقف مع اعدى اعداء الامة في خندق واحد.

ولم تقتصر علاقة الافغاني على الماسونية فقـط مـن الحركـات المناهضـة للاسلام، وانما ارتبط اسمه ايضا بالبابية -والبهائية- وبالفابية التي قيل انـه انشـأ جمعية العروة الوثقى على غرارها ومستلهما افكارها. كما انه لـم يكتـف بتـأليف الحزب الوطني الحر بل شجع تلامذته على تشكيل الاحزاب والجمعيات العلمانيـة، فانشئت بتوجيه منه مصر الفتاة على غرار تركيا الفتاة والعروة الوثقى وعدد غـير قليل من الجمعيات. ووضع في خدمة هذه الجمعيات والاحزاب الماسونية عددا غير قليل من الصحف والمجلات مما جعل احمد امين يعتبره واضع (النواة الاولى فـي الشرق للصحافة الشرقية والكتاب الذين يعالجون شؤون الوطن وحال الشـعوب)[1] وقد كان يكتب هو نفسه في هذه الصحف التي انشأها او ساعد في انشـائها باسـمه الصريح او باسم مستعار (اذ كان يكتب في جريدة -مصر- باسم مسـتعار هـو- مظهر بن وضاح- وكان يستكتب لهذه الجرائد محمد عبدة وابراهيم اللقاني وامثالهما كما كان يوجه الكتاب مثل اديب اسحق وغيره الى الكتابة في الوقائع المصريـة[2]. هذا غير كتاباته في مجلات وجرائد اوربية وشرقية كبيرة. فقد كتـب فـي جرائـد ومجلات باريس ولندن وموسكو وبطرسبرج حيث قضى بعض الوقـت (وتعـرف على العظماء من رجالها من العلماء والسياسين ونشر في جرائدها مقالات ضافيـة في سياسة الافغان والفرس والدولة المصرية والروسية والانكليزية كـان لـها دوي شديد في محيط السياسة)[3] .!!

---

[1] احمد امين: زعماء الاصلاح ص ٦٣-٧٠.

[2] ذات المصدر.

[3] جرجي زيدان: بناة النهضة ص ٧٧-٧٨.

وقد كان الافغاني عنيفا جدا في العمل نحو اصلاحه! ايا كان هـذا الاصـلاح الذي يريده وقد استخدم فيه من كلمات الشتم ما يجعل المرء يعجب كيف يمكـن ان تصدر مثلها عن رجل دين! وكان لا يتورع عن الاغتيال وسفك الدمـاء غيلـة ان اقتضى الامر. فهو قد اقترح على عبدة اغتيال اسماعيل باشا في مصر عندما رفض الاخير النزول عند رغبة الدول الاوربية في التنازل عن العرش وقداكد ذلك عبـدة عندما قال لبلنت ان الافغاني اقترح عليه (ضرورة اغتيال اسماعيل ذات يوم عنـد مرور عربته على كوبري قصر النيل)[1] وانه وافق على ذلك بحرارة. وقد حـرض على اغتيال شاه ايران ناصر الدين الذي اغتيل سنة ١٨٩٦ على يد احد اتباع البابية من تلامذته -الافغاني- مما اثار الشبهة حوله،[2] خاصة وانه كثيرا ما التقى بالقـاتل في بيت مليكم خان، كما سبق ذكره، ولكن هجومه وعنفه كله كـان موجـها ضـد الحكام المسلمين ولم ينل الاستعمار منه الا هجومه على الانكليز في العروة الوثقـى. وتواطأ الافغاني مع تريكو، القنصل الفرنسي، لعزل الخديوي اسماعيل وتولية ابنـه توفيق الذي طرده من مصر بعد ذلك بوضعه على ظهر باخرة متجهة الى بومبـاي عام ١٨٧٩ خوفا كما يبدو من تفاقم خطره بتواطئه الواضح مـع الـدول الاجنبيـة والذي ظهر واضحا في مسألة عزل اسماعيل. ومن الهند ذهب الى لندن ثـم الـى باريس حيث (اقام... علاقات تعاون وتحالف مع المنظمات الاجتماعيـة والثوريـة وبين جمعية العروة الوثقى. -السرية- التي كان يرأسها واصدر مجلة بهذا الاسـم وكان نائبه ومساعده في كل ذلك محمد عبدة، الذي دعاه الافغاني مـن منفـاه فـي بيروت ليلحق به في باريس)[3].

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة، محمد عبدة، ص ٨٥.

(٢) انظر احمد امين: زعماء الاصلاح ص ١٠٤.

(٣) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، ص ١.

ولم تكن مجلة العروة الوثقى كما يراها البعض (عملا فكريا دقيقا بـــل نشــرة دعائية تساير الزمن وتستهدف تقوية العزائم)[١] ضد الاستعمار الانكلـــيزي الــذي كانت المجلة موجهة ضده (وتكاد تخلو من ذكر الاســتعمار الفرنســي والــهولندي والروسي، وان كنا نعثر على اشارة عابرة عن احتلال فرنسا للهند الصينيــة...)[٢]. ولكن لا ذكر فيها لما كان يلاقي ابناء الجزائر وشمال افريقيا المسلمين مـــن تعنــت الاستعمار الفرنسي. بل العكس فقد اعتبر فرنسا المنقذ للامة الاسلامية اذ قال: فلــو (لم تقم مقصات العدل والنزاهة الفرنسية بتقليم هذه المخالب[٣] وحجب مخططاتها)[٤] لاستولوا على بقية اقاليم الدولة العثمانية. وبعد الاتفاق بين فرنسا وبريطانيــا علــى تقسيم مناطق النفوذ بينهما بدأت المجلة تعاني من ضائقة مالية، وقــد طلــب عبــدة مساعدة بلنت كما يبدو لانقاذ المجلة ومساعدتها ماليا على الاستمرار اذ اجاب بلنــت في رسالة الى عبدة في باريس يقول فيها (اما فيما يتعلق بصحيفتكــم فيســعدني ان ابذل كل ما بوسعي لمعاونتكم. ولكني انصحكم بكل قواي ان تلزموا الاعتدال فـــي لغتكم حين تكتبون عن الحكومة الانكليزية... لاني ارى في صداقة انجلترا خير امل للمسلمين...)[٥] ولكن لم يعمل الافغاني وعبدة كما يبدو بنصيحة صديقهما (في التزام الاعتدال في الحديث عن الحكومة الانجليزية ولا سيما في مصــــر...)[٦] فتوقفــت المجلة عن الصدور عام ١٨٨٤. وقد ضل الافغاني بعد توقف العروة الوثقى مقيمــا في اوربا متنقلا ما بين باريس ولندن! حتى عام ١٨٨٦ فعاد بعدها متوجـــها الــى الجزيرة العربية على امل اقامة خلافة اسلامية في نجد والقطيف واليمن! ولكن شــاه

---

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ١٤٤.

(٢) ذات المصدر.

(٣) يقصد مخالب الانكليز.

(٤) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص ٤٨.

(٥) علي شلش: الاعمال المجهولة، محمد عبدة، ص ٨٩.

(٦) ذات المصدر.

ايران دعاه فذهب الى طهران ولكن دبت الغيرة في نفس الشاه، كما يقول البعض فاختلف مع الافغاني، فرحل الاخير الى سان بطرسبرج، عاصمة روسيا، وبقي فيها من ١٨٨٦-١٨٨٩ ثم غادرها الى باريس ليزور معرض باريس سنة ١٨٨٩ وعرج في طريقه على ميونخ في المانيا وتقابل مع شاه الفرس ناصر الدين الذي اقنعه بالعودة الى فارس وهناك عمل على تأسيس الحكم النيابي فيها ولكنه اختلف مع الشاه واعتصم في مقام. عبدالعظيم- (واتخذه مركزا لدعايته وخطبه وتهييج الرأي العام لطلب الاصلاح) ظنا منه ان مقام عبدالعظيم له حرمته وسيكون امنا فيه، ولكن الجند اقتحموه وساقوا الافغاني الى خانقين ومنها الى بغداد والبصرة حيث التقى بأحد ائمة الشيعة، الحاج سيد اكبر الشيرازي وتوطدت العلاقة بينهما ثم غادر العراق الى لندن حيث اسس جريدة ضياء الخافقين التي كانت تصدر بالعربية والانكليزية ويحررها صابونجي، يفضح فيها الشاه ويحرض عليه. وقد اعتبر البعض عمله هذا (زلة كبيرة... اذ كيف اجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية اسلامية في بلاد اجنبية تتخذ من اقواله حجة للتدخل... وكيف استباح ان يفضح هذه العيوب، ويغسل الاثواب القذرة على مشهد من كل الناس؟)[١] !!

والتقى في لندن برجال حزب تركيا الفتاة فاعجب بها وسماها (الجمعية الصالحة، وهي ذات الجمعية التي تأسست في باريس والتقى هناك ايضا ببعض مؤسسيها وعرضوا عليه برنامجها فأيدها. فخشي السلطان عبدالحميد كما يذكر كتاب سيرة الافغاني من انضمامه الى هذه الجمعية فدعاه الى الاستانة (حيث خصص له قصر فخم وخدم... واحاطه بكل انواع الرعاية المادية...)[٢] وظل في الاستانة حتى مات عام ١٨٩٧ ودفن فيها دفنا متواضعا ولم يعتني احد بقبره حتى زار الاستانة في عام ١٩٢٦ مستشرق امريكي فنقب عن قبره حتى وجده فبنى عليه

---

(١) انظر احمد امين ص ١٠٤ وفيليب حتي: قمة الألف سنة ص ٩٠.

(٢) احمد امين: زعماء الاصلاح ص ١٠٣-١٠٦.

تركيبة جميلة من الرخام واحاطها بسور من حديد، وكتب على احد وجوه التركيبة اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته وكتب على الوجه الآخر (انشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في انحاء العالم، الخيّر الامريكاني المستر شارلس كرين.)[1] .!!

وهكذا انتهت حياة من وصفه جرجي زيدان بـ (محي النفوس ومحرر العقول ومحرك القلوب، وباعث الشعوب ومزلزل العروش، ومن كانت السلاطين تغار من عظمته، وتخشى من لسانه وسطوته والدول ذات الجنود والبنود تخاف من حركته، والممالك الواسعة الحرية تضيق نفسا بحريته)[2] ولم يتزوج وبالتالي لم يعقب خلفا ولكنه خلف شهرة واسعة. فعلى ماذا قامت شهرته؟

لقد قامت شهرته على ما يلي:

١- مدافعته عن الاسلام.

٢- دعوته للجامعة الاسلامية وللقومية العربية.

٣- دعوته للتجديد على اساس الحضارة الغربية.

٤- مقاومة الاستعمار.

٥- مقاومته لاستبداد الحكام ودعوته للديمقراطية.

دفاعه عن الاسلام:

معظم من خاض في سيرة الافغاني واكد مسألة دفاعه عن الاسلام اعتمد بشكل خاص على رده على رينان ورده على الدهريين. ففي باريس التقى الافغاني برينان وغيره من مفكريين وتأثر بفكرهم كما يبدو. وقد اشار الدكتور محمد البهي الى هذا التأثر بشكل غير مباشر في مقارنته بيَن دعوة كل من محمد بن عبدالوهاب ودعوة السنوسي من جهة ودعوة الافغاني من جهة اخرى، اذ قال ان الدعوة الاولى كانت مقصورة على تصحيح العيوب الداخلية لأن اصحابها لم يعرفوا غير بلاد الاسلام

---

(١) ذات المصدر ص ١٢٣.

(٢) ذات المصدر.

ولم يتعرفوا على انظمة اخرى[1]. بينما جمال الدين (رأى رؤية مباشرة لونا ايجابيا من الحياة خاليا من كثير من هذه العيوب والنقائص)[2] ونقل عن الافغاني قوله في العروة الوثقى يصف الاسلام: (ان الاسلام في نفسه اداة قوة ومنعة وعزة وسطوة. والديانة الاسلامية وضع اساسها على طلب الغلبة والشوكة... فالناظر في اصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكما لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لا بد ان يكونوا اول ملة حربية في العالم وان يسبق جميع الملل الى اختراع الآلات القاتلة، واتقان العلوم العسكرية، والتبحر فيما يلزم من الفنون، كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها، ومن تأمل في اية (اعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ايقن ان من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية...)[3].

ولو قارنا هذا الكلام مع ما عرضه البهي نفسه من قول كيمون الذي اكد فيه ان الدين الاسلامي مرض يبعث الانسان الى الكسل (ولا يوقظه منه الا ليسفك الدماء) ولو قارناه ايضا بكثير مما كتب الاوربيين عن وحشية الاسلام ودعوته الى سفك الدماء والحروب، وهي كما يرون غريزة متأصلة في العرب قبل الاسلام واستغلها الاسلام في نشر دعوته وما ان توقف نشر الدعوة حتى عادوا يسفكون دماء بعضهم البعض، والادعاء ايضا بأن الاسلام لم ينتشر الا بالقوة والاكراه للشعوب المغلوبة التي استعبدها العرب باسم الاسلام، وغير ذلك من الادعاءات التي فندها بعض

---

[1] وكأن هذا هو السبب الوحيد لاتجاه دعوتهما الى القرآن الكريم والاسلام الصحيح، وليس اتساقا مع جوهر الدين الاسلامي وفلسفته التي تنبثق من الايمان بالله ووحدانيته والتي تتعارض مع الفلسفات العلمانية والالحادية خاصة وان السنوسي لم يكن يبعد عن الفكر الاوربي لا مكانا ولا زمانا، وقد تعرض لكثير من محاولات اختراق الاوربيين لحركته ولكنه قاوم المحاولات.

[2] محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث ص ٤٧.

[3] ذات المصدر ص ٤٩.

المستشرقين امثال كلود كاهن وغوستاف لوبون ومر ذكره، لوجدنا كلام الافغاني هذا يتسق اتساقا تاما مع هذه الادعاءات من غير تناقض! اذ لا يعدو كلامه ان يكون تأكيدا لهذه الرغبة الدموية عند المسلمين وحبهم للحرب الذي يجعلهم لا يخترعون الآلات القاتلة ولا يستخدمون العلوم من كيمياء وهندسة الا من اجل اتقان فنون الحرب الذي يحقق لهم الغلبة على البشر! وفي رده على رينان يستطيع القارئ ان يجد ذات الاتجاه في ترديد ادعاءات الاوربيين وافتراءاتهم على الاسلام والمسلمين. فقد هاجم رينان الاسلام في محاضرة القاها في السربون وقال فيها ان المؤرخين يخطئون في قولهم علوم العرب وتمدن العرب مع ان هذه الاشياء نتاج الامم غير العربية اكثر منه نتاجا للامة العربية... وان الاسلام لم يشجع العلم والفلسفة والبحث الحر بل هو عائق لها... وعقول اهل البلاد الاسلامية قاصرة وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم واعتقاده ان البحث كفر وقلة عقل لا فائدة فيه...)[1]. واثارت هذه المحاضرة المسلمين والعرب في فرنسا فرد عليه بعضهم ردا مفحما وطلب البعض من الافغاني ان يرد. فرد الافغاني بعد اسابيع ردا فاترا خيب ظن المسلمين المتواجدين هناك فاهملوه ولم ينشروه او يترجموه. اذ هو بعد ان مدح رينان على بحثه القيم وانصافه فيه ومدى استفادته -الافغاني- منه تساءل ان كانت مناهضة العلم جاءت من الاسلام ام من الشعوب التي (حملت على اعتناقه بالقوة). ثم اكد ان العرب خرجوا من (الهمجية وتكيفوا بالعلوم اليونانية والفارسية فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفي كل البلاد التي خضعت لسيادتهم...)[2]. ولو حللنا رده هذا لوجدناه تأكيدا لقول رينان وغيره من مفاهيم مناهضة للعرب والمسلمين فقوله اعتناق الاسلام بالقوة هو تأكيد لما يدعيه الاوربيون بأن الاسلام ما انتشر الا بالاكراه ومسألة اعتبار العرب همجا واخرجتهم العلوم اليونانية والفارسية من

---

(١) احمد امين: زعماء الاصلاح ص ٩٢-٩٣.

(٢) ذات المصدر ص ٩٥.

همجيتهم هو عين ما يعمل الاوربيون على نشره لتقليل ثقة المسلم بدينه وتراثه لاقتباس الحضارة الاوربية. وكلمة سيادتهم ما هي الا تأكيد ايضا لما يشيعه الاوربيون ويحرضوا به غير العرب من المسلمين على العرب والاسلام معا على اساس ان الاسلام هو دين العرب استغلوه لاستعباد الشعوب. مع العلم ان العرب لم يكونوا اسيادا لاهل البلاد المفتوحة بل كانوا اخوة في الاسلام لهم ما لغيرهم وعليهم ما على غيرهم. وكان الكثير من العاملين والولاة والقضاة في هذه الدول من غير العرب. وكما اطاع غير العرب من المسلمين الحكام العرب اطاعة لامر الله، اطاع العرب الحكام من غير العرب. فاين دفاع الافغاني عن الاسلام والمسلمين؟ حتى ان الافغاني نفسه طلب من عبدة عدم ترجمة هذا الرد ونشره في البلاد العربية. ويظهر هذا واضحا في رسالة من عبدة في بيروت الى الافغاني في باريس يقول فيها.

(... بلغنا قبل وصول كتابكم الكريم ما نشر في الدبا[1] من دفاعكم عن الدين الاسلامي -يا لها من مدافعة- ردا على مسيو رينان فظنناها من المداعبات الدينية تحل عند المؤمنين محل القبول)[2] فحثنا بعض الدينين على ترجمتها، ولكن حمدنا الله تعالى اذ لم يتيسر له وجود اعداد الدبا حتى ورد كتابكم واطلعنا على العددين ترجمهما لنا حضرة الفاضل حسن افندي بيهم فصرفنا ذهن صاحبنا الاول عن ترجمتها، وتوسلنا في ذلك بأن وعدناه ان الاصل سيحضر فان حضر نسر. ولا لزوم للترجمة فاندفع المكروه والحمد لله نحن الآن على سننك القويمة، لا تقطع رأس الدين الا بسيف الدين ولهذا لو رأيتنا لرأيت قعادا عبادا ركعا سجدا لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون[3].

---

(1) صحيفة فرنسية.

(2) انظر كيف يرى مصلح الدين امور الدين مداعبات يغش المؤمنين بها وكأنه ليس منهم!!!

(3) علي شلش: الاعمال المجهولة، عبدة، ص ٥٣.

وهذا يدل على ان في الرد ما يضر الاسلام ولا ينفعه او يدافع عنه مما جعل الافغاني يطلب من محمد عبدة عدم ترجمة المقال او نشره بعد ان كان عبدة ورفاقه قد عزموا على ذلك فاندفع بذلك المكروه!!!

اما سنته التي علمها لتلامذته لا تقطع رأس الدين الا بسيف الدين المذكورة اعلاه ففيها الكثير مما يؤخذ على الافغاني ويبعده عن مسألة الاصلاح الديني الاسلامي، فحتى لو لم تؤخذ هذه العبارة كدليل على الحاد كل من الافغاني وعبدة كما فعل كدورى[1] كما ذكر علي شلش في كتابه الاعمال المجهولة لعبدة، واعتمدنا تفسير شلش المعتمد على تفسير عبدة لهذه العبارة، على انها تعني (ان القرآن هو سيف الدين، وهو وحده الذي يفحم الحاكم او الخليفة، رأس الدين، لأنه يترأس المسلمين... ولأن القرآن لا يعطل العلم... ولكن ما يعطل العلم الحكام الذين لا يعملون بما جاء في القرآن من حض على العلم والتعلم)[2] . فهذا ايضا يدل على ان فلسفة الافغاني هذه التي علمها لتلامذته ليعملوا بها هي استخدام الدين وسيلة هدم للدين نفسه. وذلك لأن القرآن ليس سيفاً مسلطاً على رقبة احد من المؤمنين، حاكما او محكوماً، وانما هو الدستور الذي يحدد الطريق المستقيم الذي على المسلم حاكما ومحكوما ان يسلكه ليعم الخير والصلاح. وبهذا فهو كتاب توجيه وارشاد وليس سيفا مسلطا على الرقاب كما يراه الاوربيون. فالقرآن ما انزل الا لمصلحة الانسان وهدايته الى الطريق الذي يحقق خيره في الدينا والآخرة، وما انزل الا رحمة للعالمين وليس لقطع الرؤوس. اما كون الخليفة او السلطان رأس الدين فهي مغالطة واضحة من الرجلين فهما ادرى من غيرهما بأن الخليفة او السلطان هو رأس المسلمين ولكن ليس رأس الدين لأن رأس المسلمين هذا قد يكون فاسدا ولا يضر ذلك باسس الدين. اما اعتبار السلطان –الحاكم– رأس الدين، ففساده في تلك الحالة

---

(1) مستشرق انجليزي

(2) علي شلش: الاعمال المجهولة، محمد عبده، ص٤٥

معناه ان الدين نفسه فاسد وهو ذات المفهوم الذي عمل على اساسه الاوربيون ومن بعدهم المتأوربون لاظهار عجز الاسلام كنظام للحياة. اذ يسقطون الممارسات غير الاسلامية لبعض الخلفاء او السلاطين على الاسلام فيحملوه اوزار هؤلاء بغير حق. هذا غير ان كل من الافغاني وعبدة عملوا جهدهم على التقليل من شأن الحكام -من خلفاء وسلاطين- انذاك على اعتبار ان لا سلطة دينية لهم لأن الدين الاسلامي لا يحتاج الى سلطة دينية وكهان كما هو الحال في الاديان الاخرى، فكيف اذاً يكون السلطان رأس الدين؟ وحتى لو افترضنا جهلهما او عدم فهمهما معنى هذه العبارة، خاصة وان من المعروف عن الافغاني العجمة، وتبنينا مفهومهما على انها تعني استخدام الدين لقطع رأس الخليفة والسلطان او الحاكم ايا كان، فهذا بحد ذاته استخدام للدين لغير ما وجد من اجله وهو هداية المسلمين جميعا حكاما ومحكومين وتوجيههم الى ما فيه خير الأمة، وانما استخدامه من اجل هدم السلطة الشرعية للامة المتمثلة بالحاكم، وبالسلطان والسلطة العثمانية بالذات انذاك، وفصل رأس الامة عن جسدها هو مما يضر بالامة ويمزق وحدتها، وبالتالي يضعفها ويجعلها غير قادرة على حماية دينها، وهذا كله هدم للدين ولا يحقق الا هدف الدول الاوربية في ذلك الوقت. وما امر الله باطاعة اولي الامر الا لتجنب ذلك. هذا غير انه تحامل على الحاكم بغير حق، لأن الحاكم عادة لا يحلل ولا يحرم وانما يعتمد في ذلك على رجال الدين مثل المفتي والقاضي وامثالهما. وخاصة الحكام المسلمون من غير العرب فهم احرص من غيرهم على عدم التدخل بالاجتهاد في الدين. اما قول عبدة ان القرآن لا يعطل العلم وان الحكام يعطلونه بعدم الحض عليه فهي مغالطة اخرى، لان الحاكم لا يستطيع ان يحض على العلم والتعلم اكثر مما حض عليهما القران الكريم والذي سلطته على قلوب المسلمين اكبر من سلطة الحاكم. وان كان للحكام دور في تعطيل العلم والتعلم فهم لم يتمكنوا من تعطيل علم وتعلم كل من الافغاني ومحمد عبدة!! فصارا عالمان كبيران!! هذا غير انهما كانا يدعوان الى الاقتداء

باوربا وحكام اوربا لم يحضوا على العلم والتعلم باكثر مما كـــان يفعـل ســلاطين المسلمين انذاك... فكما يبدو ان مبدأ الافغاني، قطع رأس الدين بسيف الديـن، ان دل على شيء فهو يدل على استغلال كل من الافغاني وعبدة. واتباعهما -الدين لتحقيـق اغراض غير دينية، بل قد تصل لهدم الدين، ولا يعدم القارئ لاعمالـــهما ان يجــد الكثير من الشواهد على ذلك في اعمالهما التي تحتاج الى دراسة تحليليـــة امينـــة لا دراسة دعائية على نسق الاعلانات التجارية التي نراها حولنا، والتي ميزت دراســة الكثير من الدارسين لاعمالهما واعمال غيرهما ممن اطلق عليهم رواد النهضة. وهو ما ليس هنا مكانه. وقول محمد عبدة اعلاه (فضنناها من المداعبات الدينية تحل عند المؤمنين محل القبول) يشير الى هذا الاستغلال المعيب للدين!!

اما رده على الدهريين فرغم ما تميز به من حماس وحمية سببهما كما يـــرى البعض عداؤه الحاد للاستعمار الانكليزي بالذات الذي كان يعتبره المســـؤول عــن طرده من مصر كما سيأتي ذكره، هذا غير حسده وتنافسه كما يبدو مع السيد احمـد خان الذي كان كما يعتقد الافغاني (ينشر المذهب المذكور في جامعة عليكرة)[1] فــي الهند، الا ان القارئ يستطيع ان يجد اتساق نظرة الافغاني مع المفـــاهيم الاوربيـــة، فالقول مثلا ان الانسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج الى عالم ارفـــع من هذا العالم الدنيوي والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جديـــرة بان تسمى بيت الاحزان الى دار فسيحة الساحات، خالية من المؤلمات...)[2] فيـــها الكثير مما يبعده -القول- عن الاسلام فالارض بالنسبة للمسلم ليست بيــت احــزان يقعد فيها المرء ويجتر احزانه، باعتباره ابن الخطيئـــة، انتظـــارا لانقضـــاء اجلـــه والانتقال الى الآخرة التي هي ليست فسيحة وخالية من المؤلمات الا للانسان الـــذي

---

(1) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح... ص ٤٢.

(2) احمد امين: زعماء الاصلاح ص ٨٤.

كان عمله صالحا في هذه الدنيا، ولذلك فان عليه ان يجد في عمل الصالحات من اجل ذلك.

ان ذكر آية هنا وآية هناك وحديث هنا وحديث هناك والكلام عن الاسلام والمسلمين كيفما ما اتفق، لا يعني مطلقا انه دفاع عن الاسلام وانما معنى الكلام والهدف الذي تستخدم الآيات والاحاديث لتحقيقه هو المعول عليه. وكلما دقق المدقق بأعمال الافغاني كلما ايقن اكثر فأكثر ان مسألة دفاعه عن الاسلام ما هي الا اسطورة من اساطيره الكثيرة.

الافغاني بين الجامعة الاسلامية والجامعة العربية:

جاء على لسان الافغاني الكثير من الاقوال التي تدعوا الى القومية باعتبارها الرابطة الحقيقية التي تربط بين الناس، كما جاء ايضا على لسانه اقوال اخرى تبين اهمية الدين وتدعو الى جمع شمل المسلمين والرابطة الدينية باعتبارها افضل الروابط الجامعة. وبذلك وفر الافغاني لتلامذته ودعاته خيارات متنوعة ينتقي منها كل بحسب حاجته وما يناسب الموقف الذي يريد لنفسه، مما يؤكد وصف محمد عبدة له بأنه: (حقيقة كلية، تجلت في كل ذهن بما يلائمه. او قوة روحية، قامت لكل نظر بشكل يشاكله)[١]. فهو بالنسبة للجامعة الاسلامية قد قال انه (لا جنسية للمسلمين الا في دينهم)[٢] وان العصبة الجنسية تزول بزوال الضرورة لتبنيها ومتى وجد الناس شريعة تحفظ حقوقهم وتدفع الشر عنهم اطمأنت نفوسهم واستغنوا عن (عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها، فمحي اثرها من النفوس) واكد على ان هذا هو السر في اعراض المسلمين على اختلاف اقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من انواع العصبيات ما عدا الاسلامية.) وقال: (فان المتدين بالدين

---

[١] محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص ٤٨.

[٢] ذات المصدر جـ٢ ص ٢٦.

الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت عن الرابطة الخاصة الى العلاقة العامة. وهي علاقة المعتقد... وكل فخر تكسبه الانساب، وكل امتياز تفيده الاحساب لم يجعل له الشارع اثر في وقاية الحقوق وحماية الارواح والاموال والاعراض. بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم، والمتعصب لها ملوم)[1] . وان (المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لا يعتقدون برابطة الشعوب وعصبات الاجناس، وانما ينظرون الى جامعة الدين لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي والفارسي يقبل سيادة العربي والهندي يذعن لرياسة الافغاني ولا اشمئزاز عن احد منهم ولا انقباض، وان المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من اشكالها، وانتقال من قبيل الى قبيل ما دام الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذهبها...)[2] واستشهد على اهمية الدين كرابطة تربط الامة بحال الامة العربية التي بالرغم من قوة الجنسية عندها كانت عندما جاء الاسلام (شتات قبائل مختلفة الاهواء... بأسهم بينهم كل قبيلة تتعصب لقبيلتها، يغيرون ويقتلون ويسبون حلة بعضهم بعضا. فدعاهم الى دين يجمع الاهواء ويوحد الكلمة ويمنع الدعوة الى عصبية، واقام قواعده مقام القوة الجنسية)[3] وحتى عندما ناقش موضوع التعصب اعتبر التعصب الديني (اقدس واطهر واعم فائدة)[4] من التعصب الجنسي، واعتبر التنفير من العصبية الدينية خطة وضعها الطامعون الافرنج الذين (تأكد لديهم ان اقوى رابطة بين المسلمين انما هي الرابطة الدينية) فوجهوا عنايتهم لبث (هذه الافكار الساقطة بين ارباب الديانة الاسلامية ليمزقوا الامة الاسلامية شيعا واحزابا فيسهل الانقضاض عليها وساعدهم

---

(١) ذات المصدر جـ٢ ص ٣٥.

(٢) ذات المصدر.

(٣) ذات المصدر ص ٣٧.

(٤) ذات المصدر ص٤٣

في ذلك التنفير (بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليدا) وتعجب مـــن ان (بعـــض سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم على ايمانهم يسفكون الكلام فــــي ذم التعصب الديني ويجهرون في رمي المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنيــة الحاضرة ولا يعلم اولئك المسلمون انهم بهذا يشقون عصــــاهم ويفســـدون شــأنهم ويخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المارقين، يطلبون محو التعصب والمعتـــــدل وفـــي محوه محو الملة ودفعها الى ايدي الاجانب)[1] كما تعجب من الاجــــانب الذيــن لا يخجلون من تبشيع التعصب الديني بين المسلمين ورمي المتعصبين من المســـلمين بالخشونة وهم اشد الناس على هذا التعصب واحرصهم عليه فتراهم على اختلافـــهم في الاجناس وتباغضهم وتحاقدهم وتنابذهم في السياسات يهبون لمناصرة واحد ممن على دينهم ومذهبهم ان تعرض لاية (عادية مما لا يخلو منه الاجتماع البشري) فـــي اية ناحية من نواحي الشرق فيسفكون دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب بوحشية بالغة وكأنما هم (يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمل الراعية) وليس هذا (خاصا بالمتدينين منهم، بل الدهريين ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني)[2] .

ولذلك نجد من يقول ان الغرض الذي صوب نحوه الافغاني (اعماله والمحـــور الذي كانت تدور عليه آماله -هو- توحيد كلمة الاسلام تحت ظل الخلافة العظمى... ولكنه مع ذلك لم يوفق الى ما اراده...)[3] ولا بد ان هذا الكاتب وغيره ممن يـــرون رايه قد اعتمدوا في رأيهم هذا على مبايعة الافغاني للســـلطان عبدالحميـــد لبعـــض الوقت وعلى بعض من مقولاته منها قوله: (اننا على يقين ولا نزال عليه ان الـــذات الشاهانية وهي الاب الاكبر لعموم المسلمين وهي الكافلة للشريعة الحافظـــة للديــن،

---

(١) ذات المصدر ص ٤٤.

(٢) ذات المصدر ص ٤٤-٤٥.

(٣) جرجي زيدان: بناة النهضة ص ٨١.

هي اجدر الناس بالالتفات الى حركة الاعداء في البلاد الاسلامية وهي لا تألو جهدا في تفريق سيرهم واحباط اعمالهم)[1] . ولكن كما يبدو ان هؤلاء قد اهملوا اقوال واعمال اخرى للافغاني تهدم هذه الجامعة الاسلامية المطلوبة للوقوف بوجه الغزو الاستعماري. فهو مثلا يقول في دعوته للتعاون على صون الوحدة الجامعة للمسلمين عن كل ما يثلمها، بحسب تعبيره، (لا التمس بقولي هذا ان يكون مالك الامر في الجميع شخصا واحدا، فان هذا ربما كان عسيراً ولكني ارجو ان يكون سلطانهم جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين، كل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع. فان حياته بحياته وبقاءه ببقاءه...)[2] وقول مثل هذا قد يكون معقولا في غير ذلك الوقت. اما انذاك وفي الوقت الذي كانت الهجمة الاستعمارية على الامة على اشدها ودعوة عبدالحميد للجامعة الاسلامية لتساعده على مواجهة الغزو هي الاخرى على اشدها، فان قول الافغاني هذا لا يعمل الا على هدم الجامعة الاسلامية وتشتيت جهد الساعين لتحقيقها. لان كون القرآن سلطان الجميع، وهو تحصيل حاصل انذاك بالنسبة للمسلمين وبحسب فهمهم للقرآن، لم تكن كافية لجمع الآحاد المتفرقة والتي كانت تسعى للتفرق، بحركات الاستقلال، بوحدة جامعة تحقق اغراضها في ذلك الوقت. فالمطلوب انذاك لم تكن وحدة القلوب والتي هي بدون شك كانت متوفرة بشكل ما، فالمسلم لا يمكن الا ان يتعاطف لما يصيب اخاه المسلم من المكاره، ولكن المطلوب انذاك كان وحدة الامر التي تمكن صاحب الامر – الواحد– من جمع شمل هذه القلوب وتوحيد جهودها وامكاناتها وقيادتها لمواجهة ذلك الغزو وعلى رأس ذلك اعلان الجهاد، كما امر الله سبحانه وتعالى، وهو الامر الذي كان يخيف الدول الغازية ويذكرها بالايام السالفة، مما يجعلها تعمل على تفرقة صفوف المسلمين والتحريض على السلطان العثماني بالذات، صاحب الدعوة

---

(1) محمد عمارة: الاعمال الكاملة الافغاني، ص ٧٩ جـ١.

(2) ذات المصدر ص ٢٩ جـ ٢.

للجامعة الاسلامية، وحفر الفجوة بينه وبين الامة باتهامه بشتى التهم، بالحق قليلا وبالباطل كثيرا. ولا اظن عمل الافغاني في هذا المجال واقواله الا موافقة لما اراده الاستعمار ومتسقة مع خططه. والا لماذا التأكيد على عروبة الخليفة في ذلك الوقت بالذات وقد ساوى الاسلام بين المسلمين على اساس، لا فرق بين عربي ولا اعجمي الا بالتقوى؟؟ ولماذا ذهب الافغاني الى الجزيرة العربية لتأسيس خلافة عربية اسلامية فيها، وفي ذلك الوقت ايضا؟ هل من اجل الجامعة الاسلامية وتوحيد كلمة المسلمين؟ ثم دعوته الى اللامركزية ونصحه للسلطان عبدالحميد بجعل الولايات العثمانية خديويات مستقلة مثل خديوية مصر هل كانت تخدم الجامعة الاسلامية وتوحيد كلمة المسلمين وجهودهم امام الغزو الاوربي؟ ام تفرقهم وتشتت شملهم؟ فقد قال الافغاني للسلطان عبدالحميد:

(يا مولاي، ان السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية فتبدأ بالبعيد منها، والمطموع فيها، مثل طرابلس الغرب فتجعلها خديوية، ثم الى ولايات بغداد فالبصرة، فالموصل فتجعلها خديوية والى بيروت وسورية وحلب، مع القدس فتجعلها خديوية، ثم جزائر بحر سفيد وكريد مع ادنة وسلانيك فتجعلها خديوية... ثم الحجاز فتجعل خديويها الاقدر من الاشراف الهاشميين اليوم، والاحسن سيرة، ثم اليمن وخديويها يكون الامام الزيدي اما الاناضول وولاياته قونية، وانقرة، وآيدين، واطنة وقسطموني، وسيواس، وديار بكر وتبليس، وارضروم، ومعمورة العزيز وان وطرابزون، فتقسم الى ثلاث خديويات، يكون لكل خديوية منفذ بحري، وبلاد الالبان، وهي ولايات قوصوة، ويانية، واشتودرة ومناستر، فتجعلها خديوية ايضا، هذه يا مولاي عشر خديويات بل عشر ممالك كل واحدة منها اعظم موقعا من اليونان)[1].

(1) محمد عمارة: الاعمال الكاملة جـ٢ ص ١٧ (ويذكر الافغاني نفسه ان السلطان عبدالحميد، وهو يسمع نصحه هذا صمت ونظر في فراغ فترة طويلة من غير ان يجيب بشيء مما جعل الافغاني يعتقد انه تذكر خبرة الدولة العثمانية مع مصر وكيف حاربها خديوي مصر بالاتفاق مع اعدائها!

هل كانت هذه الدعوة الى التفرق والتشرذم تخدم الجامعة الاسلامية؟ خاصة في ذلك الوقت الذي كانت دول اوربا توسع رقعتها وتمد نفوذها وتضم دولا اجنبية عنها لا تربطها معها رابطة لتكون لنفسها امبراطوريات يكون لها وزنها في السياسة الدولية؟! وفي الوقت الذي خاضت فيه امريكا حربا اهلية ضروس من اجل توحيد ولاياتها في ظل دولة واحدة ومنع استقلال بعض الولايات التي تمردت عليها!! فالى ماذا كان يهدف الافغاني من دعوته هذه؟ ثم الم تكن هذه الدعوة الى اللامركزية واستقلال الولايات هي ذاتها التي كان يدعو اليها الاوربيون انذاك ويعملوا من اجلها باثارة حركات الاستقلال وتشجيعها هنا وهناك في الدولة العثمانية؟ الم يستغل الاوربيون ظروف الدولة العثمانية الصعبة -بفضلهم- ففرضوا عليها استقلال هذه او تلك من الولايات العثمانية وفق معاهدات بينهم وبينها؟ وكانت مصر على رأس هذه الولايات وما حدث بعد ذلك من خديويها ومناهضته للدولة العثمانية وموالاته للدول الأوربية معروف ومر ذكره. حتى ان الدكتور عمارة قال ان القاهرة (تحت سلطان الخديوي عباس (كانت مستقرا ومقاما لكل الثوار والمصلحين القوميين العرب الذين يناضلون ضد الخلافة العثمانية واستبداد الاتراك)[1]. الا ان ما قاله الدكتور عمارة هو نصف الحقيقة لأن الحقيقة ان الخديوي عباس لم يكن له سلطان في القاهرة. فالكل يعلم، والكثير من الدارسين ذكروا، ان السلطان الحقيقي كان لكرومر، وفي ظل سلطان كرومر، وحتى قبله، صارت القاهرة قاعدة انطلق منها الاستعمار في تخريبه ومحاربته ليس فقط للدولة العثمانية وانما للاسلام والامة العربية ايضا. وبعض هذه الحروب كانت حروبا حقيقية حاربها بالجنود المصريين ومولها بأموالهم كما حدث في حربه للسودانيين واخماده لحركاتهم المناهضة له، وكما حدث في حربه للدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الاولى والتي خسر فيها المصريون مليونا من ابنائهم وخسرت خزانتهم الكثير من الاموال لقتلهم! وتكريس

---

[1] محمد عمارة: الاعمال الكاملة الافغاني، ص ٩٧.

احتلال الانكليز لبلادهم. ثم ماذا كانت نتيجة استقلال مصر الم تصبح مثال للفوضى في الادارة والحكم حتى غرقت بالديون الاجنبية واستعمرت بعد اقل من نصف قرن من جعلها خديوية؟!! الم تصبح قاعدة انطلقت منها حملات التغريب وحملات التخريب للاسلام والعروبة والدولة العثمانية؟ اكانت مصادفة تلك التي جمعت تلامذة المدارس الاجنبية والتبشيرية والمنتمون للاحزاب العلمانية الاوربية كالماسونيين والفحامين وغيرهم من كل انحاء الدولة العثمانية في مصر.؟ وهل كان توفير كل وسائل الاعلام والاعلان لهم، لنشر فكرهم ايضا صدفة من اجل العرب والعروبة او الانسان والانسانية؟ واخيرا وفي عام ١٩١٥ هل نقل نوري السعيد (ورفاقه) الذي كان منفيا في الهند كأسير عثماني من الهند الى مصر على ظهر البواخر الانكليزية. -كما نقل الافغاني قبله -ليشترك مع غيره من العرب والبريطانيين في وضع الخطط للثورة العربية[١] ايضا بالصدفة؟! وما حدث بعد ذلك، نتيجة نضال المناضلين الثوار والمصلحين! الذين اتخذوا القاهرة مستقرا ومقاما؟! في البلاد العربية من تقسيمها واحتلالها واذلالها ومنح اجزاء منها للآخرين، هل كان كل ذلك ايضا صدفة؟ ام انه كان مخطط له منذ جعل مصر خديوية؟!!

ثم لماذا تزامنت نصيحة الافغاني للسلطان عبدالحميد باللامركزية مع طلب اسماعيل كمال بك، الذي عين لولاية طرابلس الغرب، توسيع صلاحياته وان يكون له الحق في عقد قرض لتحسين او اصلاح الولاية؟[٢] وهي ذات التمثيلية التي لعبها الاوربيون ومحمد علي واولاده في مصر والتي اغرقت مصر بالديون باسم الاصلاح والتي صارت حجة للاحتلال بعد ذلك. اكان ذلك ايضا صدفة؟ كما كانت الصدفة وحسن النية والرغبة في الاصلاح هي التي جعلته ينصح السلطان بالبدء

---

[١] انظر ولدمار غلمن: عراق نوري السعيد ص ٣٢ (وكان لورنس في القاهرة يعمل معهد من اجل اعلان الثورة.

[٢] محمد عمارة: ذات المصدر جـ١ ص ١٨-١٩.

باستقلال الولايات البعيدة عنه والمطموع فيها مثل طرابلس الغرب. فلكونها مطموع فيها فسيعمل الاستعمار مستغلا استقلالها على عقد المعاهدات واعطاء القروض بموجبها وتأسيس المدارس والمصالح المختلفة الاخرى كما حدث في مصر فيصبح للاستعمار مصالح يدعي حقه في حمايتها وبحكم تغلغله في البلاد من خلال هذه المصالح يكون هو القريب منها والمحتل لها بشكل غير مباشر ويكون السلطان بعيد عنها، فيحتلها فعليا متى اراد باقل الخسائر وقبل ان يصل السلطان لنجدتها كما حدث لمصر. ثم لماذا ينجدها وهي قد اتخذت قراراتها وحدها بعيدا عنه وربطت نفسها بمعاهدات وقروض والتزامات لا يعرف عنها شيء وليست جزءاً من خططه؟ فهل من المنطق او من الحق ان يتحمل السلطان والدولة العثمانية -او أي دولة اخرى- اوزارا خططت ونفذت بعيدا عنه كما حدث في مصر؟ ولماذا ينجدها ولماذا يحميها؟ وبأي حق وتحت أي اسم؟ باسم الاسلام الذي تتخلى عنه وتستبدله بالماسونية والعلمانية والفكر الاوربي كما حدث في مصر ايضا من قبل! فهل دعوته الى اللامركزية ونصيحته للسلطان هذه هي عمل في اتجاه تحقيق الجامعة الاسلامية؟ ام هدمها؟.

وماذا عن انتمائه للماسونية وتشجيع انتشارها في مصر، والماسونية كما هو معلوم تعمل من اجل ايجاد جامعة علمانية عالمية مرتبطة باوربا؟ اكان هذا ايضا عمل من اجل تحقيق الجامعة الاسلامية؟ ام من اجل هدمها، بل هدم حتى تلك الجامعة التي كانت موجودة؟ وماذا عن علاقاته مع حزب الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة ومصر الفتاة وغير ذلك من الاحزاب العلمانية والقومية التي ما تأسست الا لتقويض الجامعة الاسلامية؟. هذا غير علاقاته مع مليكم خان وحزبه وما اشيع عن علاقته بالبابية وكلها حركات تهدم الاسلام؟ وماذا عن تأسيسه لحزبه الماسوني المسمى بالحزب الوطني الحر والذي حمل لأول مرة شعار مصر للمصريين ضد الشركس والاتراك: هل كان هذا ايضا عمل موجه لخدمة الجامعة الاسلامية؟ وماذا

عن (الثورة التي رعاها الافغاني في مصر... وصنعها على عينه)[1] كما يقول محمد عمارة، والتي قادها عرابي في سنة ١٨٨٢ واستغلها عبدة لايصال الحزب الوطني الحر الى السلطة، كما يقول عبدة في رسالة له للافغاني، وهي الثورة التي كتب بيان حزبها المستر بلنت، رجل المخابرات البريطانية، والذي كان يديرها من بعيد والتي انتهت باحتلال الانكليز لمصر؟ هل كان هذا خدمة للجامعة الاسلامية.؟ ام هدم هذه الجامعة التي كانت امل كل المسلمين وعلى رأسهم السلطان عبدالحميد لتمكن الامة من الوقوف بوجه الغزو الاجنبي كالبنيان المرصوص.؟ وقد ذكر الافغاني نفسه رغبة المسلمين بهذه الجامعة عندما قال: (ان الميل للوحدة والتطلع للسيادة، وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام، كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة...)[2] .

ما هي حقيقة دعوة الافغاني للجامعة الاسلامية؟ وما هدفه منها؟ هل هي مجرد خلط وازدواجية في تفكيره؟ وهما صفتان (تميز بهما فكر الرجل ونضاله بهذا الميدان)[3] كما يقرر محمد عمارة ليؤكد موضوعيته! وان لم تكن خلط وازدواجية فهل كانت مجرد استظهار بالمسلمين وبالدولة العثمانية ضد الانكليز، بالذات، لتحقيق غايات اخرى له؟ ام كانت عمل موجه لتشتيت وتشويش الدعوة الحقيقية للجامعة الاسلامية، المتمثلة بدعوة السلطان عبدالحميد واذابتها في بحر من الاقتراحات والتناقضات والافتراءات؟ وكون دعوته للجامعة الاسلامية مجرد استظهار بالمسلمين وبالدولة العثمانية يدل عليه توقيتها، اذ هي جاءت بشكل خاص في العروة الوثقى مندمجة بالحملة التي كان يشنها الافغاني على الانكليز. ذلك الهجوم الذي لعب فيه الثأر والرغبة في الانتقام دورا كبيرا، وذلك لأن الافغاني يعتقد كما ذكر في

---

(١) عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص ٥٧.

(٢) ذات المصدر جـ٢ ص ٣٣.

(٣) ذات المصدر جـ١ ص ٨١.

رسالة له لرياض باشا[1] ، ان الماسونيين التابعين للمحفل الانكليزي والناقمين عليه لتحوله من محفلهم الى المحفل الشرقي الفرنسي هم الذين دسوا عليه عند الخديوي، وان القنصل الانكليزي هو الذي حرض الخديوي على طرده. والافغاني كما يبدو في اعماله لا يتورع عن استغلال الدين لتحقيق اغراضه غير الدينية. اذ هو، كما يذكر محمد عمارة، يرى ان لوحدة العقيدة (ثمارا يجب ان ترعى ويستفاد منها)[2] وقد اكد محمد عمارة مسألة استظهار الافغاني بالدولة العثمانية ضد الانكليز عندما قال مبررا تأييد الافغاني للخلافة العثمانية لبعض الوقت: (كان يعلق آمالا على الخلافة العثمانية في المعركة الدائرة بين العالم الاسلامي وبين الاستعمار ومن ثم كان يريد استخدام التناقضات، اية تناقضات، بين هذه الخلافة وبين القوى الاستعمارية الغربية، والانجليزية بالذات، لتشد من ازر المناضلين في هذا الصراع)[3] .

وسواء حققت دعوته للجامعة الاسلامية كوسيلة للاستظهار بالمسلمين وبالدولة العثمانية اغراضه ام لم تحقق فانها من غير شك قد حققت الكثير في مجال تشويش وتذويب الدعوة الحقيقية للجامعة الاسلامية التي ارادها المسلمون انذاك وعلى رأسهم السلطان عبدالحميد. وهناك الكثير من الدلائل على هذا التشويش والتشويه المتعمد الذي قام به الافغاني لحل ما كان المسلمون والسلطان يعقدون في سبيل الجامعة الاسلامية وبالتالي هدمها. فبالاضافة لكل ما ذكر من نشره للماسونية وللفكر الاوربي والمتعارض مع فكرالجامعة الاسلامية، وتشكيل الاحزاب العلمانية والمعارضة لهذه الجامعة، ودعوته للخلافة العربية وتأسيس دولة عربية اسلامية في

---

(١) انظر علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص ٢٢٣.

(٢) محمد عمارة: الاعمال الكاملة جـ١، ص ٧٥.

(٣) ذات المصدر ص ٧ (مع العلم ان الافغاني لم يهاجم الا الاستعمار الانكليزي حتى ان لم يذكره فهو يقصده ولم يهاجم أي استعمار آخر الا فيما ندر!!

الجزيرة العربية مستقلة عن الدولة العثمانية ودعوته للقومية والاقليمية الخ... فهو قد دعا ايران الى الاتحاد مع افغانستان وحرضها بشكل غير مباشر على ان تتبنى هي الدعوة للجامعة الاسلامية في الوقت الذي كان السلطان عبدالحميد يبعث الرسل والدعاة الى ايران وافغانستان والهند الخ... وكل البلاد الاسلامية لكسب التأييد لدعوته، مما لا يحقق الا مزيدا من التفرق واثارة المزيد من الخلافات بين الدولتين المسلمتين باثارة المنافسة بينهما على مسألة الجامعة هذه. اذ يبدو ان الافغاني قد ادرك ما يمكن ان يحققه السلطان عبدالحميد الذي كان (داهية ذات قدرات وكفاءات ذات مفعول وآثار كبرى...) والذي كما يذكر محمد عمارة (بنى بناء الجامعة الاسلامية وشيد اركانها واضاف اليها كل مطمع بعيد وغاية جميلة)[1] خاصة وان الجامعة الاسلامية كانت امل المسلمين في كل مكان. ونجاحه لا يعني الوقوف موقفا اكثر صلابة في صد الغزو الاوربي فقط بل يعني ايضا حرمان الكثيرين من مدعي النسب الشريف في استغلال هذا الغزو ودعم الدول الاوربية الغازية للقفز على مقام الخلافة العربية الاسلامية. فعمد الافغاني لسبب او لآخر على تفتيت هذه الدعوة واذابتها بما عرف بدعوته للجامعة الاسلامية. فليس هناك من دليل كما يذكر البرت حوراني على ان الافغاني (كان يفكر بانشاء دولة اسلامية واحدة، او بعث خلافة العصور الاولى الموحدة. فهو عندما يتحدث عن الخلافة، يعني بها اما نوعا من السلطة الروحية او مجرد اولوية شرفية. اذا توافرت روح التعاون فلا خوف على هذه السلطة الروحية من وجود دول متعددة، واذا لم تتوافر فالمسلمون غير ملزمين على كل حال بطاعة حاكمهم)[2] !

ولذلك فان لم يوفق الافغاني لما اراد بالنسبة لتحقيق الجامعة الاسلامية كما يدعي جرجي زيدان وغيره فما ذلك الا لانه لم يكن ساعيا نحوها ولا عاملا من

---

(١) عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١، ص ٧٩.

(٢) البرت حوراني: الفكر العربي..... ص ١٤٦.

اجلها اصلا، والا كان وفق الى ذلك او لشيء منه على الاقل! فهو دعا الى الفوضى والتشتت والتفرق وهذا ما حصل عليه وما نراه حولنا الآن.

اما دعاة القومية الذين جعلوا من الافغاني امامهم وفيلسوفهم! فهم ايضا يجدون في اقواله ودعواته الكثير مما يسند دعواهم مثل تأكيده على (ان الروابط التي تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان -وحدة اللغة ووحدة الدين، وحدة اللغة هي الاساس الذي تقوم عليه الجنسية واللغة اشد ثباتا واكثر دواما من الدين، لاننا نعرف امما غيرت دينها خلال الف عام مرتين بل ثلاث مرات دون ان يطرأ خلل على وحدتها اللغوية والقومية...) ولذلك يرى (ان تأثير رابطة اللغة في هذه الدنيا اقوى من تأثير رابطة الدين...)[1] وقوله (لا سبيل الى تمييز امة عن امة اخرى الا بلغتها والامة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب)[2] وقوله ايضا (لا سعادة الا بالجنسية ولا جنسية الا باللغة، ولا لغة ما لم تكن حاوية لكل ما تحتاج اليه طبقات ارباب الصناعات والخطط في الافادة والاستفادة[3] . ولكن دعاة القومية هؤلاء اعتمدوا اقوالاً للافغاني من هنا وهناك منفصلة عن سياقها الكلي من حيث زمنها والظروف العامة التي اثبتتها المواقف الخاصة بالافغاني نفسه والاغراض التي اراد تحقيقها والتي بمجموعها يمكن ان تحدد موقفه العام من قضية الامة الاسلامية او العربية، ومن دون سبر لغور هذه الاقوال وما تحمله من معاني حقيقية نسبة لهذا السياق.

فلو نظرنا الى اقواله من خلال الظروف العامة انذاك، من هجمة استعمارية ضارية، تكرس جل جهدها لهدم وحدة المسلمين وتفريق كلمتهم ليسهل اغتصابهم واستعمارهم كما اكد الافغاني نفسه في مواقف كثيرة وعندما يخدم ذلك غرضه، ومن تخطيط مقابل لهذه الهجمة بمحاولة تعزيز موقف الامة الاسلامية بتوحيد كلمتها

---

(١) عبدالرحمن البزاز: بحوث في القومية ص ٦٢.

(٢) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، ص ٣١٥ جـ٢.

(٣) عبدالرحمن البزاز: بحوث في القومية ص ٦٢.

وتعزيز الرابطة الاسلامية وتحويلها الى عمل جاد لمواجهة هذه الهجمة، وهو ما اطلق عليه الجامعة الاسلامية. اقول مرة اخرى لو نظرنا الى اقواله اعلاه من خلال هذه الظروف لوجدنا تدرجا مدهشا اذ جعل الافغاني رابطة اللغة هي الاساس وهي اقوى من رابطة الدين ليواجه دعوة السلطان عبدالحميد التي تعتبر رابطة الدين هي الاساس وهي التي امر الله بها وبالتالي هي الرابطة الاقوى والافضل لجمع كلمة الامة. فهدم الافغاني هذه الدعوة القائمة على الرابطة الدينية بالدعوة الى القومية ورابطة اللسان. ولكنه عاد فاشترط على اللغة لتكون اداة ربط وجمع شروطاً معينة. فهي لسيت اية لغة وانما تلك التي تحتوي على كل ما (تحتاج اليه طبقات ارباب الصناعات والخطط) أي التي تفي بحاجات التقدم في العلوم والصناعات. ولو نظرنا الى هذا الشرط من خلال علاقته بما كان سائدا انذاك من دعوة الاوربيين والتي اقنعوا بها معظم القوميات الداخلة ضمن حدود الدولة العثمانية والدول الاسلامية الاخرى وخاصة العرب، بان لغاتهم لا تناسب العصر بما فيه من علوم وصناعات وتقينات ولا يمكنها استيعاب المصطلحات المستجدة في ذلك المجال فلا بد من استبدالها بلغة تملك قدرات اكبر وما ذلك الا بتعلم اللغة الاجنبية واعطائها السيادة على اللغة القومية، لوجدنا ان الافغاني بعد تسديد الضربة الى الجامعة الاسلامية عاد فسدد ضربة ثانية الى القومية وهو ما يتفق تماما مع خطط الغزو الاوربي والتي تقوم على تشجيع القومية اولا لهدم الجامعة الاسلامية ثم هدم الجامعة القومية بعد ذلك بوسائل اخرى كتشجيع الاقليمية او العالمية ولذلك نجده لم يكتف بضرب القومية بهذا الشرط في اللغة وانما ضربها، هي والجامعة الاسلامية ايضا، باثارة المشاعر الاقليمية، مثل دعوته، مصر للمصريين. هذا غير هدم القومية بالعصبية والتعصب الذي دعا اليه. فهو رغم انه يدعي العمل وفق الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول ﷺ (ليس منا من دعا الى عصبية) الا ان تعصبه هذا ظهر واضحا في دعوته الى (وجوب الانحياز الى اللسان العربي واختيار المميزات العربية سبيلا

للعلاقات القومية في الوطن)[١]. ليس في الوطن العربي فقط وانما في الدولة العثمانية وتعريب الامة التركية)[٢] وضرورة ان تكون القيادة في الشرق للعرب وليس للاتراك على اعتبار ان مكان العرب بالنسبة للمسلمين (هو مكان القائد من الجيش والرأس من الجسم والصفوة من الجمهور) وعلى (ان اسلام الاتراك لا يعني تساويهم مع العرب في الامكانيات الحضارية ومن ثم بالمؤهلات القيادية)[٣] . والى غير ذلك من الدعوات والاقوال التي جعلت محمد عمارة نفسه يرى ان اعتزاز الافغاني بالعرب وتراثهم الحضاري بلغ حد المغالاة وان كان قد اعتبر هذه المغالاة دليلاً على نضج الفكر القومي[٤] عند الافغاني! ولكن ان وضعنا في اعتبارنا ان قوميات اخرى كبيرة تتقاسم الوطن العربي والبلاد الاسلامية الاخرى مع العرب، نستطيع ان نقدر مقدار الضرر الذي يمكن ان تحدثه مثل هذه الدعوة المتعصبة للعروبة وللقومية العربية ذاتها، مما يجعل هذه الدعوة ضربة اخرى موجهة للقومية العربية يضيفها الافغاني الى ضرباته السابقة لاجل هدمها.

ان الباحث في توجهات الافغاني القومية يجد نفسه امام تساؤلات كثيرة منها:-

١- لماذا التأكيد على العرب بمقابل الاتراك فقط من المسلمين وفي ذلك الوقت بالذات: وما علاقة ذلك بدعوة الجامعة الاسلامية المطلوبة انذاك؟

٢- ما علاقة دعوته القومية هذه بخطط الدول الاوربية التي كانت تشجع القومية التركية ممثلة بتركيا الفتاة وبالاتحاد والترقي المنفذ لسياسة التتريك من جهة كما تشجع القومية العربية والقوميات الاخرى من جهة والاقليمية من جهة

---

(١) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني جـ ١ ص ٩٠.

(٢) ذات المصدر ص ٢٠٧-٢١٠.

(٣) ذات المصدر.

(٤) ذات المصدر ص ١٠٠ (مع ان المغالاة هي من باب الافراط او التفريط اللذان يدلان على الجهل او نقص العقل وفق مفاهيم اصحاب التراث. فهل اصبح الافراط والمغالاة نضجا وعقلانية في هذا العصر المستنير؟!!

اخرى من خلال تلامذتها من العرب –وخاصة غير المسلمين– ومن خلال الاحزاب الماسونية كمصر الفتاة والحزب الوطني الحر وغيره بالمقابل من اجل تفريق كلمة الامة وتفتيت الدولة العثمانية:؟ خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان الافغاني نفسه اسس حزب مصر الفتاة والحزب الوطني الحر وشجع تركيا الفتاة والتي انبثق منها حزب الاتحاد والترقي مصمم ومنفذ سياسة االتتريك، واذا علمنا ايضا ان الافغاني نفسه عاب على الدولة العثمانية انها لم تعمم لغتها في دول البلقان فقال: (فلو اخذت الدولة بالحزم بعد الفتح وعملت بصائب الفكر والرأي لعلمت ان بقاء تلك الممالك في حوزتها يحتاج الى ايجاد جامعات تجمعها مع شعوبها، فتعمد الى وسائل تعميم لسانها باحداث دور علم وغيرها حتى اذا استطاعت وتسنى لها في ظرف جيل او جيلين ان تعمم لسانها، كان لها احدى العوامل الكبرة للبقاء، ولعدم سرعة الانفصال والتفكك اذ يكونوا اتراكا باللسان مثلا، او بالدعوة الدينية كما تفعل اليوم دول الاستعمار ببث المبشرين من الانجيليين والرهبان، وبتشييدهم دور العلم، فاذا انتشرت الدعوة الدينية وقبلتها الامة المستعمرة اشتركوا بجامعة ثانية، هي جامعة اللسان، والدين فكان الارتباط اشد واوثق...)[1].

٣- فلماذا يا ترى، هو الاخر، يدعو الاتراك الى سياسة التتريك ونشر لغتهم ثم يدعو العرب ليس الى رفض التتريك فقط وانما لتعريب الاتراك؟ مما يحدث فجوة ليس بينهم وبين الاتراك فقط وانما بينهم وبين كل مواطني الدول العربية من غير العرب! وهل تخدم مثل هذه الدعوة القومية العربية والجامعة العربية؟ ام تهدمها باثارة القوميات الاخرى ضدها؟

٤- وكيف تتفق دعوته للقومية بهذا الشكل المتعصب مع دعوته الى الاقليمية؟ الا تهدم احداهما الاخرى؟!

---

(١) محمد عمارة: الاعمال الكاملة ج٢ ص١٣

وقد يستغرب البعض من استخدامي كلمة هدم في التعامل مع اعمال الافغاني، وما ذلك الا لانني ارى ان بناء العمائر لا يمكن ان يكون الا بتشييد اسس عميقة وقوية وراسخة والعمل بعد ذلك لا يكون الابوضع الحجر فوق الاخرى بانتظام ودقة فوق تلك الاسس ليتكامل البناء من غير ان توضع حجرة واحدة بعيدة عن المكان المحدد لها فوق هذه الاسس او بشكل لا ينسجم مع ما حولها والا صار ضررها اكبر من نفعها. والباني لا يمكن الا ان يبدأ بالاسس ويتدرج بعد ذلك بالصعود الى اعلى ليصل الى مطلبه. اما في عملية الهدم فان الهادم يسدد ضربات فأسه كيفما اتفق هنا وهناك، لان الغاية في النهاية هي الهدم واخلاء المكان من البناء لاستغلاله لاغراض اخرى والمدقق في اعمال الافغاني لا يجده الا كذلك يسدد ضربات فأسه كيفما اتفق هنا وهناك. فماذا كان يريد الافغاني؟ ولمن كان يخلي المكان بازالة العصبية الدينية الاسلامية والعصبية القومية والعصبية القطرية جميعا؟

فلو اراد الافغاني ان يبني باتجاه تحقيق الجامعة الاسلامية لوضع الاسس والمسلمات لبنائها ولعمل جهده ان لايضع كلمة واحدة في غير مكانها المناسب لتخدم في اتجاه تحقيق هذا البناء وما كان اتى بممارسة يمكن ان تشوه او تضعف هذا البناء. وكذلك لو انه اراد بناء الاتجاه القومي والجامعة العربية. ولكنه لم يفعل وانما عمل بعشوائية شديدة وسواء اكانت هذه العشوائية مقصودة ام غير مقصودة فانه في النهاية لم يحقق شيئا مما ادعى سوى الفوضى الفكرية التي تركها وراءه وعمل تلامذته على ادامتها وهي الفوضى التي لا تزال تسم حياتنا الفكرية المعاصرة. وان كان قد (لقي ربه قبل ان تتجسد غاياته في ارض الواقع)[1] كما يقول محمد عمارة فما ذلك في نظري الا لأنه لسبب او لآخر لم يعمل نحو غايات معينة منظورة يمكن للمتتبع لأعماله ان يلمسها او يتحقق منها او حتى يبررها. وقد

---

(1) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني جـ١ ص ٤٨.

حاول البعض ايجاج علاقة بين دعواته المتناقضة هذه وبرروا تناقضاته هذه على اساس انها خطوات على درب نضجه الفكري والتي مرت بثلاث مراحل:

١- المرحلة الاولى (عندما كان يرفض اعطاء أي وزن للفكر القومي والخصائص القومية مكتفيا بوحدة العقيدة الدينية).

٢- والمرحلة الثانية (عندما اعترف بالخصائص القومية الى جوار وحدة العقيدة الدينية)

٣- والمرحلة الثالثة (عندما اعترف بأن الغلبة في التأثير انما هي -لجامعة اللسان- ومن ثم للخصائص القومية على وحدة الاعتقاد الديني)[1] .

ثم جاء بعد ذلك محمد عمارة فأيد مسألة المراحل والنضج هذه الا انه قلصها وجعلها مرحلتين فقط الأولى (اتسمت بعدم الوضوح في العلاقة ما بين الجامعة الاسلامية والوحدة الاسلامية وما بين القومية وتكوين المجتمعات على اساس قومي حديث) ولذلك في نظره (جاء فكره حاويا لكثير من التعبيرات والاحكام التي تبدو مناقضة بعضها البعض الآخر غير منسجمة في سلك واحد ولا هي صادرة من منطلق فكري كامل الحسم والوضوح...) اما المرحلة الثانية فهي (التي نضج فيها الفكر القومي لدى فيلسوفنا)[2] !!

وهذه المبررات والتفاسير لتناقضات الافغاني لا اجدها الا مرفوضة لعدة اسباب منها:

١- ان النضج يتم باتساق وتدرج منتظم وعبارات الافغاني التي تدعو للجامعة الاسلامية كما يؤكد عمارة (تجدها اكثر ما تجدها في مقالات العروة الوثقى...[3] وهي المجلة التي ظهرت في باريس في مارس ١٨٨٤م وتوقفت

---

(١) ذات المصدر ص ٧٢.

(٢) ذات المصدر.

(٣) ذات المصدر.

في اكتوبر ١٨٨٤ وقد اكد احد اعدادها وفي مقال التعصب بالذات على ان رابطة الدين هي (اقدس الروابط لانها تطمس رسوم الاختلاف بين اشخاص واحاد متعددة) وتوحد (المقاصد والعزائم والاعمال) وتمحو (المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر بل الاجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات، بل المتباعدة في الصور والاشكال... ويحول اهواءها المتضاربة الى قصد واحد...) مما تعجز رابطة الجنس في تحقيق شيء منه[١] . كما اكد الافغاني على ان الجامعة القومية وقتية (تقوم لاسباب تجعلها ضرورية ولذلك فهي تزول بزوال هذه الاسباب وما يزيل سبب وجوده هو الرابطة الدينية وتطبيق الشريعة الالهية)[٢] . ولكن الافغاني، قبل دعوته هذه في العروة الوثقى وخلال اقامته في مصر دعا الى مصر للمصريين من خلال حزبه الوطني الحر وحزب مصر الفتاة، وهي خطوة وان اعتبرها البعض خطوة باتجاه دعوته للقومية الا انها دعوة في اتجاه ضرب الجامعة الاسلامية، حتى انه اعتبر الوطنية وحب الوطن هو (الدواء الذي تخشاه المدارس الاميرية) وعليه فقد دعا الى غلق المدارس الوطنية الحكومية في وجه الصبيان لانها مفسدة[٣] لهم مهملا مسألة الجامعة الاسلامية وما تتطلبه من توجيه منظم. وبعد وقف صدور العروة الوثقى وعودة عبدة الى بيروت، جاء في رد الافغاني على رينان والذي خيل للبعض انه مدافعة عن الاسلام والمسلمين، قوله ان: (لا سبيل الى تمييز امة عن اخرى الا بلغتها)[٤] . مؤكدا رابطة الجنس مع ان المقصود بالعرب بمحاضرة رينان هم المسلمون وليس عرب الجنسية!! ثم عاد بعد ذلك الى

---

(١) ذات المصدر جـ ٢ ص ٤٢.

(٢) ذات المصدر جـ ١ ص ٧٣.

(٣) ذات المصدر، (مع ان حركة التبشير وفتح المدارس التبشيرية والاجنبية كانت على اشدها ولم يراها الافغاني مفسدة للصبيان ولم يدعو الى غلقها!!

(٤) ذات المصدر جـ ١ ص ٧٧.

الجامعة الاسلامية وبايع السلطان عبدالحميد، خلال اقامته في الاستانة، على الخلافة وفي ذات الوقت اشيع انه اتفق مع الخديوي عباس حلمي الثاني على تأسيس دولة عباسية او جامعة عربية يكون خليفتها الخديوي عباس وهو الامر الذي رغم ان الافغاني نفسه انكره وقال ان عباس (هو عندي اعجز من السلطان عن تصريف امور الخلافة والقيام باعبائها على ما يلزمها من مزايا وشروط اهمها الاستقلال[1] الا ان محمد عمارة اكده واعتبره قمة النضج القومي عند الافغاني مستدلا على صحة هذه الاشاعة بحب الافغاني لمصر وتقديره لمحمد علي واولاده وبكون القاهرة تحت سلطة الخديوي عباس كانت مقرا للمعارضين للحكم العثماني[2] وهكذا نجد ان الافغاني لم يتبع في نضجه المزعوم مراحل متسقة ومتدرجة وانما استمر في الخلط الى آخر ايامه.

٢- وتبرير تناقضاته هذه مرفوض ايضا لأن النضج يتم في ذات الاتجاه فالتفاحة قبل النضج هي تفاحة ناضجة بعده وليس كمثرة او بصلة! مثلا، فكيف يكون الافغاني قبل نضج فكره القومي داعية اسلامية يستهين بالروابط القومية ويرى ان رابطة الدين هي فوق الروابط جميعا، فيصبح بعد النضج داعية قوميا يرى رابطة اللسان اقوى الروابط، وان الامة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب؟ ولو اراد الافغاني باعتباره (عبقري وراعي عملاق يبصر ما لا يبصره الآخرون) كما يصفه محمد عماره، ان يوفق بين عالمية الاسلام ومحلية الفكرة القومية) وان يؤكد عدم (التناقض ما بين الاثنين)[3] كما يدعي

---

[1] ذات المصدر ص ٢٣ جـ١.

[2] مع ان حبه لمصر يدحضه ذمها بشدة في رسالة بعثها لرياض باشا وتقديره لاسرة محمد علي يدحضه من بين امور كثيرة تآمره مع الاجنبي لخلع اسماعيل وهو جد عباس، وكون القاهرة مقرا للمعارضين فلم يكن لعباس يد في ذلك اذ كان كرومر يحكم القاهرة ويؤيد المعارضة ويشجعها والخديوي لا حول له ولا قوة حتى في اخص شؤونه.

[3] محمد عمارة: الاعمال الكاملة، جـ ١ ص ٨٩.

محمد عمارة ما كان عمل في هدم الواحدة ونفي وجودها من اجل الدعوة الثانية. فالتقريب بين الدعوتين وازالة التناقض بينهما ان وجد، او التأكيد على عدم وجوده ان لم يكن موجودا لا يكون الا بايجاد سبل التوافق والانسجام وتعيين مواقع الالتقاء بين الدعوتين وتأكيدها. وهو ما لم يتوجه له جهد الافغاني الذي انشغل بالدعوة لهذه الجامعة او لتلك بحسب الظروف والاحوال، متخذا كلا الجامعتين وسائل لغايات اخرى لا يعلمها الا الله والعارفون ببواطن الامور! ثم هل كان التوقيت من حيث الزمن والبيئة والظروف الخ... مناسبا لمثل هذه الدعوة التوفيقية؟ هذا ان كانت قد خطرت على بال الافغاني انذاك، ولم تكن مجرد تخريجات تلامذته ودعاته من بعده؟ فالكلمة ذاتها قد تكون حكمة ان وقعت في مكانها المناسب وقد تكون سفاهة وسخافة في مكان آخر. ورحم الله الخوارزمي الذي قال: (... ورب فعل يصاب به وقته فيكون سنة وهو في غير وقته بدعة)[1] فقلوب المسلمين جميعا انذاك كانت مع الرابطة الاسلامية، وتستهين ان لم نقل تمقت جامعة اللسان التي كان يشجعها الاوربيون لتحقيق اغراض لهم، والمطلوبة انذاك لمواجهة الغزو الاستعماري كانت الجامعة الاسلامية. وكل ما كان يحتاجه المسلمون هو تنظيم جهودهم وتحويل مشاعرهم الايجابية هذه تجاه الرابطة الاسلامية الى عمل جاد ومثمر يمكّنهم من الوقوف في وجه الاستعمار، بينما دعاة القومية لم يكونوا انذاك الا قلة تتمثل بغير المسلمين من تلامذة المدارس التبشيرية مثل البستاني واديب اسحق الخ... وهي انذاك دعوة مرفوضة ومتهمة لانها كانت مدفوعة من قبل الاجانب، والمسلمين لم يكونوا في سبات كما يحلو للبعض ان يعتقد، ولا غافلين عن ذلك فلماذا دفعها واحلالها محل الرابطة الدينية؟ ولمصلحة من؟ وهل يمكن لها ان تحقق شيئاً في ذلك الظرف بالذات؟.

---

(١) رسائل الخوارزمي ص ١٣٩.

ان التوفيق بين الدعوة للقومية العربية والدعوة الاسلامية الآن في عصرنا هذا وبعد غياب الدولة الاسلامية التي يمكن الانضواء تحت ظلها، وبعد ان صار الاستعمار امرا واقعا وليس مجرد خطر يتهددنا، وبعد ان عشعش الاستعمار ليس في كل زاوية من حياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والاسرية، وليس في كل ما حولنا داخل بيوتنا ومكاتبنا ومدارسنا، وانما عشعش ايضا في عقولنا وحدد مسارات تفكيرنا، يمكن اعتباره عملا عبقريا والداعية له عامل من اجل خير الأمة وصلاحها لاستعادة ذات الامة المسلوب وشخصيتها، والتقليل من التناقضات والتشتت داخل المجتمع العربي كبداية لجامعة اسلامية اكبر. اما انذاك فلم تكن الدعوة التوفيقية ذاتها -ان كانت قد خطرت في ذهن الافغاني وعبدة والطهطاوي وغيرهم- الا دعوة سلبية لا ضرورة لها، تعمل على تفريق الامة الواحدة وتشتيت شملها وتهيئتها لتقبل الغزو الاستعماري الذي نحصد اليوم ثماره المرة.

٣- ومسألة نضج الافغاني هذه مرفوضة ايضا لأمر آخر يخص الافغاني كما يخص غيره من المفكرين والسياسيين ودعاة الاصلاح والعاملين من اجله والعاملين في الصحافة في الوقت الحاضر وكل من يتصدى للشؤون العامة، الذين يبررون اخطاءهم وجهلهم وتنقلهم بين الافكار والممارسات من النقيض الى النقيض بالنضج الذي سبقته فجاجة! لهؤلاء اياً كانوا او في أي زمان او مكان وجدوا، اقول ان حياة الامة، بحاضرها ومستقبلها ليست شجرة ينمو على اغصانها الفجين لينضجوا ولا كتاب يدخله الجهلة ليتعلموا فمن لم يكن فكره ناضجا اصلاً لا يحق له ان يتصدى لقضايا الامة واعتلاء مواقع السلطة فيها ايا كانت هذه السلطة... وخاصة الفكرية منها. بل من الافضل له ولأمته ان ينتظر حتى ينضج اولا، فلا يتزبب وهو حصرم كما قال الامام ابو حنيفة

النعمان لتلميذه (القاضي ابو يوسف) عندما علم ان الاخير يجلس للناس فيفتيهم ويجيب عن اسئلتهم ويقع في اخطاء كثيرة.

ان حركة ما سمي بالتجديد في الاسلام هي كما يبدو من خلال متابعتها حركة تغريبية انبتها الغازي الاوربي بوسائله المختلفة، المار ذكرها، من اجل تحقيق الغزو، باشكاله المختلفة، للامة الاسلامية وتفتيت مقاومتها له. هذا الغزو الذي كان يعيقه ويقف في وجهه ايمان المسلم بدينه. هذا الايمان الذي لا يجعله مستغنيا عن كل ما يعرضه عليه الاجنبي من فكر غريب فقط، وانما ايضا يجعله يسخر كل طاقاته من اجل مقاومة هذا الغزو مؤتمرا بما امره الله به من جهاد المعتدي وعدم قبول ولاية الاجنبي -غير المسلم- ولم تكن غزوة نابليون وفشلها في تحقيق اهدافها لمقاومة المسلمين لها ببعيدة عن اذهان الغزاة. ولذلك صب الاستعمار (جهودا كبيرة كي يحور، ويحول الاسلام من الداخل. ليعطي السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية من ناحية وتناولها دون التحرج من ناحية اخرى)[1]. فبدأ الضغط من الخارج اذ (وجه الاوربيون الى الاسلام في تلك الفترة حملات عنيفة من النقد والاكاذيب والمفتريات، كما نشط المبشرون المسيحيون في اتهام الاسلام بأنه غير قابل للاصلاح والتجديد...)[2]. اما الضغط من الداخل فقد وجهوا اليه تلامذتهم من غير المسلمين مثل بطرس البستاني الذي من اقواله قوله: ان من الخطأ الاعتقاد ان في امكان العرب ان يعثروا في تراثهم على كل ما يحتاجون اليه لنهضتهم. لكنهم اذا ما ارادوا ان يتعلموا (فما مكث فيه الافرنج السنين العديدة والمدد المديدة يمكن للعرب ان يكسبوه في اقرب زمان مع غاية الاتقان والاحكام)[3]. ولم يقصد البستاني، كما يحاول البعض ان يبرر اخذ العلوم التطبيقية فقط، من اوربا وانما

---

(1) غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص ٤٢.

(2) عبدالباسط: جمال الدين الافغاني واثره في العالم الاسلامي ص ٨٦.

(3) البرت حوراني: الفكر العربي... ص ١٢٨.

قصد العلوم الانسانية والنظم والقوانين والافكار التي كان الاوربيون يبغون نشـــرها بين ابناء الامة، اذ يؤكد على ان ما يجب تعلمه من اوربا هـــو (الوحـــدة الوطنيـــة ومساواة جميع من يعيشون في البلد الواحد بالحقوق والواجبات، والاعـــتراف بـــأن جميع الاديان واحدة اصلا لأن الطبيعة البشرية واحدة، والناس منحدرون من اصـــل واحد –من الابوين الاولين– والكل يعبد الاله الواحد....) وكان يرى انه لكي تتمـدن سوريا عليها(ان تصدر قوانين عادلة متساوية تتفق مع روح العصر وتقـــوم علـــى الفصل بين حقلي الدين والدنيا اولا وثانيا: انشاء تربية باللغة العربية، اذ يجب ان لا تصبح سوريا بابل لغات كما هي بابل اديان)[1] .

ولكن هؤلاء الدعاة من غير المسلمين لا يمكن ان يحققوا المطلوب، لانـــــهم لا يستطيعون مس الدين الاسلامي بالتحوير والتغيير، ولذلك كان لا بـــد مـــن رجـــال يلبسون الدين الاسلامي بالظاهر ليحققوا ما عجز العلمانيون امثال البستاني واديـــب اسحق وغيرهم، ومن المسلمين والمتفرنجين مثل الطهطاوي وخيري الدين التونســي الذين لم تكن لهم صفة دينية تحقيقه. ويبدو ان المعنيين بتغيـــير العـــالم الاســـلامي وجدوا صعوبة في ايجاد من يحقق اغراضهم من بين رجال الدين في العالم العربـــي والاسلامي. وهو امر يمكن ان يستدل عليه من تأكيد المستشرق جـــب بعـــد فـــترة طويلة من بدء عملية التغريب، على ان مؤلفات المسلمين لم تتأثر كثـــيرا بالتعـــاليم الدنيوية وبقواعد المدنية الغربية وذلك لأنه في الوقت الذي يقوم الروحانيون انفســـهم في الغرب باعطاء الشكل الديني الجديد الملائم لذوق العصر ولمجرى الفكر الفلسفي والتاريخي لا نجد شيئا من ذلك عند الروحانيين المسلمين لانهم في نظره تنقصـــــهم الحيوية. مستثنيا من ذلك الشيخ محمد عبدة. ولذلك فمن غير المستبعد ان يكون قـــد جيء بالافغاني من المجهول! ليبرز (الدعوة لتبني العلـــوم الطبيعيـــة والعصريـــة

---

[1] ذات المصدر ص ١٢٩-١٣٠.

والتقنية الغربية...)[١] وليناردي من اجل تسهيل مهمة التبني هذا باللجوء الى التـأويل حين يبدو القران الحكيم متعارضا مع نتائج العلم الحديث الاوربي فيقول (... فاذا لم نرى في القران ما يوافق صريح العلم والكليات، اكتفينا بما جاء فيه مـن الاشـارة ورجعنا الى التأويل)[٢] على اساس من باطن الآيات!!

من المعلوم ان الاجتهاد ليس مرفوضا في الاسلام بل هو احيانا امر مطالب به المسلمون الا انه يجب ان يكون الاجتهاد مهتديا بهدى القرآن والشريعة الاسـلامية. ففقهاء المسلمين كما يرى محمد فتحي عثمان (لم يضيقوا قط بالاجتهاد واقتباس مـا يرونه نافعا لهم ما داموا يطوعون ما يجتهدون للاصول الشرعية فيسلكون به منـهج الشريعة في الصياغة والتأصيل ويتبعونه مقاصدها وقواعدها الكلية ويلائمون بينـه وبين سائر احكامها ويطبعونها بطابعها الاخلاقي...)[٣] ولكن الافغاني، ومن بعـده مدرسته، لم يكن متمسكا بشرط الاجتهاد والاقتباس لما جاء بـالقرآن بـل اعتـبر الاقتباس هو الاصل وعمد الى تحوير ما جاء بالقرآن ليلائم الاقتباسات العصريـة عن الغرب. فقد قال سبحانه وتعالى (ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقـوم ويبشـر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا)[٤] والافغـاني فـي تجديـده! اعتبر ما اراد اقتباسه من الغرب هو الاقوم الذي يجب ان يتبع. وهذا ليس اجتـهادا كما يفهم المسلمون الاجتهاد، وانما هو، ان جاز لنا القول، تخريب للدين الاسـلامي وتوهين لأثره في حياة المسلم ويتسق تمما مع ما اراد الاجنبي للمسلمين وما دعـا اليه وعمل على غرسه في نفوس المسلمين: وهو ان كل ما عند الغرب هو الاقـوم وهو تقدمي وعلمي! وجيد وكل ما يخالفه هو تخلف ورجعية ولا علمية ولا بـد ان

---

(١) فيلب حتي: قمة الالف سنة ص ٩٠.

(٢) قرني: العدالة والحرية في عصر النهضة ص ٥٦.

(٣) محمد فتحي عثمان: من اصول الفكر الاسلامي ص ٦٤.

(٤) الاسراء، ٩.

يستبدل بما عند الغرب. ولما كان اكثر ما كان سائدا له اصول بشكل او بآخر بقيم الاسلام واوامر القرآن ونواهيه، فلا بد في نظرهم ان يحدث في الاسلام حركة تجديد كتلك التي حدثت في اوربا وفصلت الدين عن السياسة وعن الحياة العامة. وقد تبنى الافغاني هذه الدعوة الى التجديد على الطريقة الاوربية! وقد اكد هذا الشيخ عبدالقادر المغربي الذي قال: (ان السيد جمال الدين قال له بضرورة القيام بحركة تجديد في الدين اشبه بحركة مارتن لوثر مؤسس البروتستانتية في اوربا، تعني باستئصال ما رسخ في عقول العوام وبعض الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي)[1] ولذا اتجه جمال الدين كما يذكر كثير من دعاته (الى التجديد في الاسلام وطالب المسلمين بتحقيق نهضة دينية تلائم مقتضيات العصر الحديث...)[2] لا مقتضيات حال المسلمين وما تواجهه الأمة الاسلامية من ضغط يمارسه عليها الاوربيون لدحرها وتحقيق الهيمنة عليها! والذي يتطلب الاعتصام بالشريعة الاسلامية وعدم احداث فجوات تستدعي الاختلاف والتفرق من خلال التأويل لآيات القرآن الذي لا يعلم تأويله الا الله سبحانه وتعالى الذي اكد ان من يعمد الى تأويلها هم الذين في قلوبهم زيغ اذ قال: (هو الذي انزل عليك الكتاب منه ايات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب)[3]

لقد قامت عبر العصور الاسلامية كثير من الحركات الاصلاحية التي تدعو الى تحسين احوال المسلمين ونبذ ما علق في الاسلام من تشوهات ليست في اصله. ولكن كلها كانت تعتمد الاصول الاساسية للاسلام معياراً لها في عملها، وما جاء في

---

(1) عبدالباسط: جمال الدين وأثره في العالم الاسلامي ص ٨٧.

(2) ذات المصدر.

(3) ال عمران: ٧ (الجلاين).

هذه الاصول هدفا تصبو الى تحقيقه. فلم تجعل ما عند الغير معيارا للاصلاح الذي تريد. وقد اشتهر في العصر الحديث من هذه الحركات دعوة محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية، ودعوة الشويكاني في اليمن والسنوسي في شمال افريقيا. وكلها كانت تدعو الى الرجوع بالدين الى اصوله الاولى. وان كانت الوهابية قد اعتبرت الخلافة العثمانية مسؤولة عن سوء حال المسلمين فناؤتها الا ان السنوسية وبحكم قربها من اوربا واحساسها بما يتعرض له المسلمون والدولة العثمانية من ضغط تمارسه اوربا عليهما معا لغزوهم كانت (ترى في الخلافة سياجا يحيط بالعالم الاسلامي ويدفع عنه عدوان المعتدين... (و) كون السنوسي ناصب السلطان العداء كما يرى البعض هو خبر من الاخبار تهافت على تصديقه كثير من الاوربيين)[١] والحقيقة ان ... السنوسيين كما تؤكد اكثر المصادر (كانوا موالين للسطان ومؤيدين للدولة العثمانية باعتبار انها ملجأ للاسلام وبأن السلطان اكبر ملوك المسلمين...)[٢] وقد نجحت السنوسية في الاحتماء باصول دينها الى حد كبير من هجمة الغرب (حتى صارت جمعيات المبشرين الاوربيين المنبثين في القارة الافريقية كلها تجد في الدعوة السنوسية خصماً عنيدا لا قبل لها على التغلب عليها)[٣]. وقد ذكر ان مستر بلنت ذهب الى ليبيا في محاولة لاختراق الحركة السنوسية وتوجيهها لخدمة مصالح اوربا الا ان بعض الاعراب من السنوسيين خرجوا عليه في الطريق واوسعوه ضربا فعاد ادراجه من حيث اتى. وقد ذكر هو نفسه في مذكراته انه كان يريد اشهار اسلامه ولكنه بعد الضرب ترك الفكرة وكأن الاسلام لا يصح الا على ايدي السنوسيين! وكأن من يعزم على الاسلام حقا يحبط همته مثل هذا العارض.

(١) عبدالباسط ذات المصدر ص ٧٤-٧٥.

(٢) ذات المصدر.

(٣) ذات المصدر.

اما الافغاني فقد خرج عما هو مألوف في حركات الاصلاح الاسلامية. هذا المألوف الذي هو اعتبار ما جاء بالقرآن هو الأقوم وهو الذي يجب ان يسود وهو الذي يعمل العاملون على تحقيقه، وما ان انحازت اية حركة عنه الى غيره حتى سقطت عنها الصفة الاسلامية. ويبرر البعض انحياز الافغاني الى الحضارة الغربية والدعوة الى تبنيها بكونه (نظر الى الجامعة الاسلامية نظرة واسعة الافاق وادرك ان العالم الاسلامي في حاجة الى فهم حقيقة الدين الاسلامي كما هو في حاجة الى الاقتباس من حضارة الغرب بما يتلاءم مع روح العصر فكانت حركته... حركة شرقية اسلامية في اتجاه للغرب ولكن بايمان بالشرق وتراثه ووحدة شعوبه وتقاليده)[1] وأنه لم يكن اول من اقتبس من غير المسلمين فقد سبقه الى ذلك كثير من المفكرين العرب المسلمين، وهي حجج واهية ومبررات مرفوضة فالاسلام مستغنيا عما في يد الآخرين من فكر بما من الله عليه ووضع فيه من احكام ومرونة في تطبيقها تجعله صالحا لكل زمان ومكان. فهو لم يوضع لعصر معين قديم كما يحاول الاوربيون تأكيده ويعمل المتأوربون على نشره بأفواههم واقلامهم بشكل مباشر او غير مباشر، من غير تدقيق فيما تعنيه هذه الدعوة ولا ما تهدف الى تحقيقه، فيؤكدون على ان الحركات الاصلاحية التي سبقت الافغاني، مثل الوهابية والسنوسية كانت (تدعو الى العودة الى القديم)[2] لأنها لم تتعرف على الجديد الاوربي كالافغاني! وكأن في الاسلام قديم وحديث، وكأن هذا هو السبب الذي جعل هذه الحركات تقتصر في اصلاحها على الاصول الاسلامية. ان الاسلام كما لم

---

(١) عبدالباسط: ذات المصدر ص ٨١-٨٢ (انظر تأكيد الكاتب على ملاءمته للعصر وكأن الاسلام لا يلائم روح العصر الا ان اقتبس من الغرب. وانظر التأكيد على مسألة الشرق والغرب المنسجمة مع قول المستشرقين بأن الاسلام يصلح لعقلية الشرق وليس لعقلية الغرب.

وانظر مسألة الايمان بالشرق كمكان وليس بالقيم الاسلامية التي لا مكان محدد لها!!!

(٢) ذات المصدر.

يتحدد بزمان معين. -قديم او حديث- فهو كذلك ليس محددا بمكان معين وهو الشرق فهو ان كان قد وصل الى الصين في اقصى الشرق من آسيا فهو كذلك دخل اوربا وبلاد الغرب وحكم لفترة طويلة في الاندلس وفي كثير من البلاد الاوربية مثل البانيا ويوغسلافية وهنغاريا وغيرها. وها هو اليوم حاضراً في كثير من البلاد الغربية ولولا جهل المتأوربين والمتغربين وسطحيتهم ومقاومتهم له والتي تتسق مع مقاومة الانظمة الاوربية، لوجدنا قيمه وقد انتشرت اكثر فأكثر في معظم بلاد العالم لا بقوة المسلمين العسكرية والتي عمل الاعداء على اضعافها، وانما بقوة حجته وملاءمته لهذا العصر ولكل عصر من غير حاجة للتحوير او التأويل.

اما كون العرب المسلمين قد اخذو من غير المسلمين فهي كلمة حق اريد بها باطل لأن المسلمين الاوائل عندما اقتبسوا كان سلطانهم القرآن وكان بالنسبة لهم هو الاقوم وهو الذي يستخدمونه كجهاز تصفية يمررون من خلاله كل ما يقتبسونه فان اتفق مع ما جاء بالقرآن قبلوه واعتمدوه وان تعارض رفضوه واسقطوه. هذا غير ان المسلمين انذاك كانوا هم اصحاب الحضارة والتقدم ومن يأخذون عنهم كانوا قد انقضوا وولوا واصبحوا من الغابرين، فلا خوف على المسلمين انذاك من سيطرة قد تسحقهم من شدة وطأتها عليهم كما هو حال المسلمين زمن دعوة الافغاني، ومن جاء بعده، والذي تحول اصلاح حال المسلمين على يديه الى عملية تغريب وتخريب للمجتمع الاسلامي ادى الى احتلاله واستعماره انذاك ونلمسه فيما صار عليه حال الامة من بعده حتى يومنا هذا.

فالافغاني لم يكن الا داعية من دعاة التغريب هذا، والتي هي سلسلة طويلة بدأت بالطهطاوي في مصر وخيري الدين التونسي في تونس والاستانة، حيث تبوأ مواقع مهمة فيهما، ومدحت باشا وغيره في تركيا ومليكم خان في ايران واحمد خان والسيد امير علي في الهند وغيرهم الكثير من صغار الدعاة مثل البستاني والعازوري واديب اسحق ويعقوب صنوع ويعقوب صروف وسليم نقاش الخ... ولم

يكن الافغاني ومحمد عبدة ومن جاء بعدهم الا حلقات في هذه السلسة الطويلة التي لا تزال ممتدة حتى يومنا هذا تضاف اليها الحلقات، الواحدة بعد الاخرى لادامة هذا الاتجاه التغريبي وادامة التبعية للاجنبي باسم التجديد والتطوير. ولكن المتعاملين معه -الافغاني- كما نظروا الى اعماله حيال الجامعة الاسلامية والجامعة العربية نظرة مجزأة متشرذمة، فمنهم من اعتبره (ملهم الجامعة الاسلامية الشعبية) ومنهم من جعله رائد القومية العربية ومؤسسها بغض النظر عن اهداف اعماله وزمانها وما حققته من نتائج بعد ذلك، فكذلك تعاملوا مع دعوته التجديدية للاسلام، فنرى الكثرة الغالبة اعتبرته على رأس مدرسة الاصلاح الديني التجديدية لانه قال كذا واستشهد بهذه الاية او ذاك الحديث او لان (اكثر من تصدوا للاصلاح الديني الاجتماعي... كانوا من تلاميذه او من اصدقائه المتأثرين به...) ويضعون على رأس هذه (المدرسة التجديدية... محمد عبدة والشيخ محمد رشيد رضا والشيخ مصطفى عبدالرازق ومحمد فريد وجدي...)[1] وبغض النظر ايضا عن ان اكثر دعاة العلمانية -والالحاد- كانوا من تلامذته واصدقائه او المتأثرين به مثل اديب اسحق ويعقوب صنوع وقاسم امين ولطفي السيد وسعد زغلول وطه حسين الخ... ولو نظرنا الى دعوة الافغاني، المصلح والداعية الديني وما دعا اليه العلمانيون -مسيحيون ومسلمون- لما وجدنا أي اختلاف في جوهر الدعوتين ومحصلتهما النهائية. فلو قارنا دعوة الافغاني بدعوة البستاني مثلا والمذكورة اعلاه لوجدنا ان كلاهما دعا للاقتباس من الغرب واعتبر ذلك الوسيلة الوحيدة لتحقيق النهضة للامة الا ان الافغاني لم يكتف بمجرد الدعوة للاقتباس وانما خطا خطوة ابعد من مجرد الدعوة وقدم مثالا عمليا على اتباع اوربا واعتماد منتجاتها الفكرية بانتمائه رسميا للماسونية معجبا بشعارات الحرية والاخاء والمساواة وسعيها لدك صروح الظلم!! من غير ان ينظر فيما ان كانت قد دكت صروحه في اوربا، موطنها الاصلي، قبل

---

[1] ذات المصدر ص ١٩٤.

ان تتفرغ لدكه في الشرق! خاصة وان الماسونيون انفسهم هم الذين كانوا يظلمـــون الشرق ويبنون صروح الظلم فيه باحتلالهم واستعمارهم له واستعباد اهلـــه ونـــهب خيراته. فمن المعلوم ان الاحرار في انكلترا والجمهوريون في فرنسا هم الذين كانوا وراء تلك الحروب الاستعمارية مما ليس هنا مجال تفصيله. فقد كـــان الاوربيـــون يعانون اشد اشكال الظلم الانساني وخاصة الفقراء وابناء الطبقة العاملة التي كـــانت تستغل ابشع انواع الاستغلال حتى ان الافغاني نفسه اعترف بأن معاناة اوربا اشـــد بكثير من معاناة الشرق قبل تدخلهم فيه.

اما مسألة توحيد الاديان الثلاثة فكما دعا اليها البستاني دعا اليها الافغاني ايضا وقال: (ان الاديان الثلاثة الموسوية والعيسوية والمحمدية على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وعلى هذا لاح لي بارق امل كبير ان تتحد اهل الاديان الثلاثـــة مثـــل مـــا اتحدت الاديان في جوهرها واصلها وغايتها، وان بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطـــا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة...)[1]. وهي دعـــوة تبـــدو نبيلـــة بالظاهر مع انها في الحقيقة دس شنيع على هذه الاديان الثلاثة اذ توحي بأن الاديـــان هذه هي سبب الحروب وغياب السلام عن العالم وبالتالي فلـــن يتحقـــق الســـلام الا بتركها او عزلها عن الحياة! مع ان دول اوربا المختلفة عانت اشد انواع الحـــروب وحشية، فيما بينها، مع انها تدين بدين واحد هو المسيحية، بل ان بعض دولها عانت من اشرس المذابح مع ان جميع سكانها ينتمون الى طائفة واحـــدة مـــن المذاهـــب المسيحية المختلفة. فكون اهل فرنسا جميعا من الكاثوليك لم يمنع حدوث المذابح فيما بينهم والتي استمرت لسنوات طويلة. كما ان انتماء الانكليز لكنيسة واحدة لم يمنـــع المذابح التي قامت فيما بينهم بحجج مختلفة. وكذلك كان الحال في اسبانيا وغيرهـــا من دول اوربا. فالحروب والمذابح لا تحدث لاختلاف الاديان وانما هي ناتجة عـــن مطامع وطموحات شخصية للقادة او لمراكز القوى من جهة وغفلة وسذاجة القواعـد

---

[1] الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص ٧٠.

التي تنخدع بشعارات كاذبة لا اصل لها من جهة اخرى. وقد تلبس هذه الشعارات لباس الدين او لباس القومية او لباس الحرية والتحرر او أي لباس آخر بحسب ما تقتضيه مصالح اصحاب الطموحات(*). فدعوة اتحاد الاديان هذه لا علاقة لها بأي من الاديان الثلاثة، بل هي دعوة علمانية مثلها، كما يذكر محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر، مثل الدعوات العالمية الاخرى كالماسونية والشيوعية والبهائية، تطل على الناس متشحة ثوب (الرحمة والانسانية وحب السلام والوئام) لتحقق لنفسها القبول بين اصحاب الديانات كافة لتشدد قبضتها وتحكم هيمنتها بعد ذلك عليهم وعلى العالم اجمع. وقد وظف الاستعمار هذه الدعوة كما وظف الدعوات العالمية الاخرى واستغلها لتحقيق القبول له ولايجاد الالفة بينه وبين الشعوب المستعمرة من جهة (وتشتيت الناس وصرفهم عن وطنهم او امتهم التي يعرفون مكانهم منها ووظيفتهم فيها الى تيه مضل من المبادئ التي لا تحدها حدود واضحة المعالم)[1] مما يحدث نوعا من الضياع في نفس الانسان التابع لهذه الاديان يجعله يتقبل كل ما يعرض له من فكر حتى وان كان مناقضا للرحمة والانسانية التي ما اعتنق هذا المذهب او ذاك الا من اجلهما.

لقد قيل زمان ان لكل مقام مقال، ورب كلمة تكون حقا في مكان معين او زمان معين تكون هي ذاتها باطلا في مكان آخر وزمان اخر. وانا لا اريد ان اناقش هذه الدعوة من جهة صحتها وكونها حقا او باطلا او مدى موافقتها لما امر الله به المسلم، او لما تعنيه كلمة مسلم ومسلمين اصلا، في ايات القران الكريم، ولا من خلال ما يعنيه قوله تعالى (قل للذين اوتوا الكتاب والاميين ءأسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد)[2] وقوله: (قل يا اهل الكتاب

(*) عدا حروب الاستقلال المشروعة.

(1) الاتجاهات الوطنية: جـ٢ ص ٣١٥.

(2) آل عمران: ٢.

تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك بـــه شـــيئاً، ولا يتخـــذ بعضنا بعضاً اربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأن مسلمون)[١] . وقولـــه: (ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل اية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتـــــهم ومـــا بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين)[٢] وغيرها من الآيات الكريمة. اذ ان هذا يحتاج الى بحث في ذاته وهو ما ليس هنا مجاله، وانما اتساءل لماذا ظهرت هذه الدعوة مثل غيرها مـــن الدعـــوات العالمية -العلمانية- التي تعمل على تذويب القيم الدينية وتسييحها لتكون المحصلـــة النهائية لا لدين الله ونعم للعلمانية والالحاد، في ذلك الوقت، وهـــو زمـــن الهجمـــة الاستعمارية على امتنا؟ ثم كيف يتبنى امام، وداعية اصلاح دينـــي هـــذه الدعـــوة اللادينية من كل وجه؟ هذا بالاضافة الى التساؤلات التي اثارها محمد محمد حســين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر وهي: لماذا لا تصدر هذه الدعوات العالمية الا من الغرب؟ ومن أي مصدر يجيء المـــال؟ ولأي هـــدف ينفـــق بـــهذا السخاء؟ اذ يقول: (ان وراء هذه الدعوات دائما خزائن تمدها بمـــدد مـــن المـــال لا ينضب، يسمح لاصحابها بأن يسافروا وبأن يدعوا غيرهم الى المؤتمـــرات وبـــأن يقيموا الحفلات ويبثوا الدعايات)[٣] . ومن الجدير بالذكر ان دعوة توحيد الاديان هذه والتي اقتصرت بالنسبة للافغاني على الكلام فيها والدعوة لها تحولت على يد تلميـــذه عبدة الى عمل لاجلها، اذ الف محمد عبدة جمعية سياسية دينية سرية في بيروت اثر عودته اليها من باريس بعد تعطيل مجلة العروة الوثقى تهدف الـــى التقريـــب بيـــن الاديان وجعل ميرزا باقر[٤] سكرتيرها العام. وقد انتسب اليـــها بعـــض المســـلمين والانكليز واليهود، كما يذكر غازي التوبه. وكان من المسلمين: بير زادة، وعـــارف

---

(١) ال عمران: ٦٤.

(٢) البقرة: ١٤٥.

(٣) جـ٢ ٣١٦.

(٤) وهو ايراني مشبوه! تنصر وهاجم الاسلام والرسول الكريم وعمل ضد الاسلام ثم ادعـــى العودة الى الاسلام وعمل مع الافغاني وعبدة في العروة الوثقى!!!

ابو تراب، تابع جمال الدين الافغاني، وجمال بك نجل مراد بك قاضي بيروت، ومؤيد الملك احد وزراء ايران، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية في الاستانة. اما الانكليز فكان منهم اسحق تيلر في لندن، وجي دبلتو لينتر مفتش مدارس الهند. اما اليهود فقد كان منهم: الدكتور شمعون مويال من يافا. وكان الانكليزي لينتر (يضع نصب عينيه خدمة دولته الانكليزية خلال وجوده في الجمعية، فهو يصور لها حال المسلمين كما فهمها ويرشدها الى الطف المداخل وادقها لالصاق المسلمين بها وينصّحها في المزاوجة بين الدين والدنيا في حكمها...)[1] ويؤكد في الجمعية على ان (الاتحاد بين الاسلام والمسيحية ليس من جهة الدين فقط بل من جهة السياسة ايضا). وقد اكد عبدة هذه المسألة لبلنت الذي جاء في مذكراته ما يؤكد الأمر[2] وظلت مسألة توحيد الاديان تثار بين حين وآخر. ولكن العجيب المريب في هذه الدعوة كما يقول محمد محمد حسين (ان الذين ينادون بتآلف الاسلام كانوا هم انفسهم الذين يوجهون اليه المطاعن الظالمة ويذيعون عنه التهم الباغية وكانوا هم انفسهم الذين يخوضون في دماء المسلمين)[3].

ولنعود الى الافغاني ونتساءل، اين التجديد في الاسلام الذي دعا اليه الافغاني ولم يدعوا اليه غيره من العلمانيين ومن غير المسلمين؟!! وهل يمكن لدعوة التجديد الاوربية ان تلبس العمامة وتصبح دعوة اسلامية لا لشيء الا لأن لابس العمامة قد تسلمها من مصدرها الاوربي وعمل على نشرها نيابة عنهم؟!! ثم هل مسألة التجديد في الاسلام واردة اصلا؟ وهو دين كمل في عهد الرسول ﷺ والذي قال قوله المعروف: واليوم اكملت لكم دينكم وارتضيت لكم الاسلام دينا. وان كان المقصود بالتجديد هو تجديد فهمنا للدين فهل هو الآخر امر يمكن ان يكون فيه قدم وجدة؟

---

(١) انظر غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص ١٨.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٣١٩ جـ٢.

(٣) ذات المصدر ص ٣٢٠.

خاصة وان فهمنا لا يمكن ان يكون مخالفا لمحتوى القرآن الكريم و أياته الصريحة الواضحة لقوم يفقهون وليس في قلوبهم زيغ؟.

مقاومة الاستعمار:

كلما دقق المرء في هذا الجانب بالذات من شهرة الافغاني لا يجده الا اسطورة من الاساطير الكثيرة التي حيكت حول الافغاني من قبل تلامذته ودعاته فحولته بقدرة لا يعرف كنهها الى بطل للاستقلال ومقاوم شرس للاستعمار متغاضين عن كل تناقضاته في هذا المجال. هذا التغاضي الذي يذكرنا بقول ذكره الماوردي في كتابه ادب الدنيا والدين جاء فيه: (اذا فقد العالم الذهن قل عن الاضداد احتجاجه وكثر الى الكتب احتياجه)[1]. ولا اريد ان استكثر من الامثلة في هذا المجال والتي اكد فيها الباحثون كون الافغاني مقاوم عنيد للاستعمار وذلك لأن اغلب الباحثين ينقلون الواحد عن الآخر الفكرة ذاتها من غير تحليل او تدقيق فيها -اللهم الا المبالغة في الوصف لاعطاء وزن اكبر لاعمالهم -فأصبحوا بذلك مجرد قصاص من الذين قال فيهم عبدالله بن زيد الجرمي (ما امات العلم الا القصاص يجالس الرجل الرجل القاص سنة، فلا يتعلق منه بشيء ويجلس الى العالم فلا يقوم حتى يتعلق منه بشيء)[2]. وقد كان محمد عبدة اول القصاصين الذين نشروا الاسطورة هذه، فمن اقواله مثلا في الافغاني: (اما مقصوده السياسي الذي وجه اليه كل افكاره فهو انهاض دولة اسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الامة بالامم العزيزة والدولة بالدول القوية، فيعود للاسلام شأنه وللدين الحنفي مجده

---

(١) ص ٦٤.

(٢) الاصبهاني: حلية الاولياء جـ٢ ص ٢٨٧.

ويدخل في هذا تقليص ظل بريطانيا في الاقطار الشرقية)[1] ولكن هذا الهدف المتواضع الذي هو تقليص ظل بريطانيا فقط! صار على يد القصاصين من بعده مقاومة شرسة وعنيدة للاستعمار بكل اشكاله وانواعه! فاي استعمار يا ترى قاوم الافغاني؟.

يقول محمد عمارة ان الافغاني نشأ في عصر الاستعمار فقد احتلت بريطانيا عدن قبل شهور من ولادته في عام ١٨٣٨م وفي سنة ١٨٤٨ تمكن الفرنسيون من الاحتلال النهائي للجزائر الذي بدأ منذ عام ١٨٣٠ وفي سنة ١٨٦٨ (تمكن النفوذ الانجليزي في بلاد الافغان فانتصر في النزاع الداخلي بها الامير الموالي لبريطانيا- شيرعلي- وانهزم امير جمال الدين المناهض للاستعمار محمد خان بعد حرب شارك فيها وفي الاعداد لها جمال الدين[2]. وعلى حدود الافغان كانت الهند ترزح تحت النير البريطاني ويعيش اهلها بمئات ملايينهم هملا ترعاهم السلبية والدعوات المشبوهة التي اثارها المستعمرون. وايران يتقاسم النفوذ فيها، ومحاولة السيطرة عليها الانجليز من الجنوب والقيصرية الروسية من الشرق والشمال بينما مصر يتحسس طريقه اليها النفوذ الاستعماري الاوربي في ركاب البنوك والديون والتجارة والمغامرين وحول كل ذلك، ووسط كل ذلك كانت الدولة العثمانية، امبراطورية الرجل المريض[3] وقد وصل بها التفسخ والتهالك الى الحد الذي اصبحت جميع

---

(١) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح... ص ١٢٤.

(٢) اية حرب هذه التي يعدها شاب في العشرينات من العمر وتقرر مصير البلاد؟! وهل كان اعداده لها كما كان اعداده لثورة عرابي التي انتهت بالاحتلال والاستعمار؟ ثم كيف يبقى الافغاني مطمئنا في افغانستان بعد ان انهزم اميره في حرب اعدها هو ولم يخرج من افغانستان بعد ذلك الا مختارا؟ كما تذكر المصادر، فهل كانت الحريات والديمقراطيات بكل ذلك الخير وكان الجانب الذي يحاربه الافغاني بكل هذا التسامح؟ فلماذا اذا اتهمهم بالاستبداد وعاداهم وقاد حربا ضدهم؟ اين هو الحق والعدل الذي يدعيه الافغاني؟

(٣) لا افهم كيف يمكن لمفكرينا ترديد هذا الادعاء الاستعماري والذي روجه ساسة دول الاستعمار ومستشرقيهم ليبرروا لشعوبهم التي كانت تخاف التورط في حرب مع الدولة العثمانية مستذكرة عبر التاريخ، الحرب ولتسكين هذه المخاوف، خاصة وان الرجل المريض هذا وقف في وجه الغزو الاستعماري وحربه التي شنها الطامعون وكبدهم خسائر فادحة مما جعل ريتشارد الدنتجون يستخف بقول لورنس (ان تركيا العجوز المسكينة... كل شيء يتعلق بها مريض، و مريض للغاية) فيقول ان بريطانيا. بمعونة روسيا وفرنسا بذلت (٧٥٠) مليون جنيه وارسلت ما يربو على المليون جندي في جميع انحاء هذه المنطقة الحربية، وتطلب الامر اربع سنوات لايقاع الهزيمة بتركيا هذه المريضة والمريضة جدا) انظر كتابه لورانس في البلاد العربية ص١٤٠، ويذكر وليام مانجستر في كتابه الاسد الاخير ان معركة الدردنيل والتي صورها تشرشل للانكليز وكانها نزهة لاساطيلهم جعلها العثمانيون هزيمة ساحقة جعلت الانكليز يهابون اعادة الكرة لفترة طويلة.

حدودها نوافذ يطل منها الاستعمار[١] وعليه فقد اعتبر عمارة ان من البديـــهي لكـــل ذلك ان تصبح الحرب بين الافغاني والقوى التي قادها وحركها وبعثها وبين الانجليز هي القسمة الاساسية في النضال البطولي الذي قاده ثائرنا الاكـــبر ضـــد الزحـــف الاستعماري على الشرق.

وبغض النظر عن ماهية النضال البطولي الذي قاده هذا الثـــائر الكبـــير ضـــد الاستعمار فاني ومع الاسف، لم اتمكن من معرفة وجه البداهة وفق هذه الظـــروف اعلاه، في ان تصبح الحرب بينه وبين الانكليز في مصر فقط فـــهل مصـــر هـــي الشرق كله وماذا عن عدن والهند وايران وافغانستان هذا غير دول شمال افريقيـــا، والتي كانت محتلة او مهددة بالاحتلال؟!! ثم ما هو وجه البداهة في ان يترك البـــلاد المحتلة فعلا مثل الهند وعدن او التي تحت النفـــوذ الاجنبـــي فعـــلا مثـــل ايـــران وافغانستان، واحداهما هي موطنه الاصلي ان صح الانتساب، ويأتي الى مصر التي يتحسس طريقه اليها النفوذ الاستعماري الاوربي؟! ثم بعد ذلك لا يخـــرج منـــها الا وهي مستعمرة فعلا، لأن الاستعمار كما تؤكد المصادر حصل قبل الاحتلال الفعلـــي عام (١٨٨٢) بثلاث سنوات. أي اثناء وجوده فيها. تحت سمعه وبصره وقد ســـاهم هو في اطلاق يد دول الاستعمار في البلاد الى درجة عزل حاكمها وتعيـــين حـــاكم جديد بدله على مزاجها.!

وعلى اية حال، وللاجابة على التساؤل أي من دول الاستعمار قاوم الافغـــاني؟ نقول ان الافغاني، بطل مقاومة الاستعمار! لم يتعرض الا للنفوذ البريطـــاني وفـــي مصر فقط وخلال فترة معينة فقط هي بعد طرده من مصر مما يجعل الامر شخصيا بينه وبينهم، اذ هو يعتقد انه طرد من مصر بسبب تحريض الماســـونيين التـــابعين للمحفل البريطاني للانتقام منه على تحوله عن محفلـــهم الـــى المحفـــل الماســـوني الفرنسي الشرقي، وخاصة انه يعتقد ان القنصل البريطاني هو الذي طلب من توفيق

---

(١) الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص٥٥

طرده من البلاد، وقد اكد الافغاني هذا في رسالة الى رياض باشا بعثها لـــه خـــلال مروره بالقناة متجها الى لندن! ومن ثم الى باريس شرح له امر طرده مـــن مصـــر فقال:

(ان جماعة من الافرنج الماسونيين واذنابهم حثالة الامم الغابرة وثقالة الشـــعوب الماضية، وبقايا السريانية المنتخرة الذين كانوا تحت رياسة عبدالحليم باشـــا حينمـــا كان رئيسا على مجلس الماسون في القاهرة ما قصروا ان سعوا لعبدالحليـــم باشـــا، وانا حبا في الخديو جابهتهم بالعداوة وقابلتهم بالخصومة، ورفضت مجلســـهم، انـــا ومن كان مثلي مغرورا بحب الخديوي، ونبذت رياسة محفلهم، وتركـــت ودادهـــم ومججت الفتهم وانا المؤسس عليهم من سنين، وكانوا يحبونني واحبـــهم واقرهـــم، ويعظمونني. وكل هذا فعلته الا ثقة بحب الخديو حتى ان الماسونيين مـــن الافرنـــج واذيالهم ذهبوا الى (تريكو) وبلغوه ان صفوة المصريين مع عبدالحليم باشا وضلعهم معه (وميلهم اليه) وروعوه من وقوع الفتنة ان عدل عنه الى غيره. ولما بلغت هـــذا اسرعت انا والمعتزون بحب الخديو من حزبي الى القنصـــل فكذبـــت مـــا بلغـــوه واظهرت له جلية الامر وكشفت القناع عما اضمروه...)[١].

ثم يقول:

(... ولما احس اخواني الماسونيين مني الرجوع اليـــهم والاتفـــاق معـــهم... وقنطوا من فوز عبدالحليم باشا نصبوني عرضا لسهام افتعالاتهم. واطلقـــوا علـــي السنتهم السلاط، فبهتوني واتهموني، ونسبوني الى طائفة النهليست[٢] مـــرة والـــى

---

[١] علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني ص ٢٢٤.

[٢] العدميون.

السوساليست[1] اخرى، واشاعوا كذبا، وبهتانا اني عازم على قتل الخديو والقناصل جميعا...)[2].

اما قبل هذا فلم يتصدى الافغاني للاستعمار الانكليزي الذي خلفه وراءه في الهند يعبث ما شاء له العبث وحتى في افغانستان وفي ايران اللتان احداهما هي موطنه الاصلي بحسب الادعاءات المارة الذكر، ولم يكتف بعدم تعرضه للمستعمر الانكليزي في اوطانه ولكنه ما ان حط في مصر حتى انتمى الى المحفل الانكليزي الماسوني البريطاني وعمل من خلاله ووفق افكاره وتوجهاته ليس على مهاجمة الاستعمار الانكليزي والتصدي له ولاعماله التخريبية في كل من الهند وعدن وافغانستان وايران، او على اضعاف النفوذ الاستعماري الاوربي وعلى راسه الانكليزي، الذي كان يتحسس طريقه الى مصر، كما اكد محمد عمارة، وذلك بتقوية الجبهة الداخلية والتقريب بين فئاتها المختلفة وعلى رأس ذلك بين الحاكم والمحكوم، وانما عمل على مهاجمة السلطة الشرعية في البلاد والمتمثلة بالخديوي من جهة والسلطان العثماني، الذي كانت له سلطة اسمية من جهة اخرى, وعمل من خلال هذه المحافل على احداث الفرقة بين المصريين بالدعوة الى الاحزاب المختلفة وبدعوته مصر للمصريين ضد الشركس والاتراك والذين كانوا يشكلون قوة في البلاد. وغير ذلك مما يفرق الأمة. وان صح تأكيد دعاة الافغاني واصدقائه من انه لما وجد ان اعضاء المحفل الانكليزي الذي ينتمي اليه يحومون حول المناصب، (ويتنافسون على الرئاسة، فلم يهتموا بشئون مصر قدر اهتمامهم بتحقيق مصالحهم واهوائهم الشخصية... انشأ خلال عام ١٨٧٨ محفلا وطنيا[3] جديدا تابعا للشرق

---

(١) الاشتراكيون.

(٢) ذات المصدر وانظر المزيد.

(٣) كيف يكون وطنيا وتابعا في نفس الوقت للمحفل الفرنسي؟ اذا من هو غير الوطني والعميل.؟

الفرنسي وظل يدعو اليه حتى بلغ عدد اعضاءه العاملين اكثر من ثلثمائة من نخبة المفكرين وقسم الاعضاء العاملين الى عدة شعب... لكل وزارة ومصلحة شعبة تدرس كل شعبة شئون وزارتها ومصلحتها ثم تتصل بالوزير المختص لتبلغه رغباتها، وتملي ارادتها باسلوب حازم[*] وطريقة واضحة صريحة ولقد زاد نفوذ المحفل الماسوني الجديد وعظم شأنه حتى ان الامير توفيق، ولي العهد حينئذ طلب الدخول فيه...)[1]. وان صح تأكيد هؤلاء ايضا على انه ساهم في اعداد الثورة العرابية مساهمة فعالة (وصنعها على عينه)[2] كما يقول محمد عمارة، وان كان هو كما يدعي هؤلاء الدعاة والاصدقاء ايضا، عالم فذ وعبقري لم تنجب الامة مثله!! فاذا امام كل هذا لا يسعنا الا ان نعتقد بأنه لم يكن في الحقيقة مقاوما للاستعمار الانكليزي وانما كان مساعدا له وعاملا معه ومن اجل تحقيق اهدافه وفق خطط دقيقة مهد بها للاحتلال وتحقيقه في النهاية!! ولنا العذر في هذا الاعتقاد الا ان كانت كل المعلومات التي روجها دعاته واصدقاءه عن عبقريته وفضله وتأثيره في مجريات الامور الخ... كذب وافتراء وتهريج لا غير!!.

هذا عن تعامل الافغاني مع الاستعمار الانكليزي قبل طرده من مصر اما بعد ذلك فهو ذهب الى الهند حيث يعشعش الاستعمار الانكليزي ولم يفعل شيئاً سوى انه كتب رده على الدهريين هاجم فيه احمد خان ومدرسته ولامه على كل ما دعا اليه هو نفسه وعمل من اجله، ثم ذهب بعد ذلك الى فرنسا واصدر العروة الوثقى والتي هاجم فيها الاستعمار الانكليزي لعدة اشهر هي عمر الجريدة، وما ان تم الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا على تقسيم مناطق النفوذ فيما بينهما حتى توقفت العروة الوثقى عن

(*) ما هذا؟ هل هذه هي الديمقراطية التي كانوا يريدون؟ من هم؟ ومن خولهم القيام بمهام المحاسبة واصدار الاوامر التي هي من حق الشعب (او الأمة) فقط، وخاصة ان قسما كبيراً منهم اجانب بالفعل وليس فقط بالفكر والانتماء؟!!

(1) عبد الباسط: جمال الافغاني واثره في العالم الاسلامي ص ١٦٤-١٦٥.

(2) عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص ٥٧.

الصدور وتصلحت الامور بين الافغاني والانكليز، كما يبدو، حتى انه عرض نفسه على الحكومة البريطانية -او عرضت عليه كما يدعي دعاته- ليكون بديلا للمهدي في السودان ولكن المهدي مات في تلك الفترة كما مر ذكره.

وظل الافغاني بعد ذلك في اوربا متنقلا بين عواصم الدول الاستعمارية التي هو مقاوم شرس لها كما يصوره دعاته!! حتى استقدمه شاه ايران حيث قضى فترة قصيرة، اختلف بعدها مع الشاه، فعاد الى انكلترة وجعل من لندن مركزا لهجومه الشديد على الشاه هذا و قتله في النهاية، اذ كما يقول موسى الموسوي: (اغتال رضا الكرماني الشاه ناصر الدين في ١٣١١ هجري وبأمر من استاذه السيد جمال الدين الافغاني...)[1] وقد كان يلتقي رضا الكرماني -البابي- هذا بجمال الدين الافغاني في بيت مليكم خان في لندن!

اما بالنسبة للاستعمار غير الانكليزي فهو ليس فقط لم يتصدى له بل تعاون معه وناصره. فقد تعاون مع الاستعمار الفرنسي ليس فقط في مسألة تريكو والخديوي اسماعيل وانما جعل من باريس مقراً لهجومه على الانكليز مما كان يحقق مصالح فرنسا في الضغط على الانكليز، ذلك الضغط الذي ادى في النهاية الى عقد معاهدة تفاهم بينهم لتقسيم مناطق النفوذ فيما بينهم. معتبرا فرنسا حرة وبلد الاحرار ولها حقوق في البلاد العربية وخاصة في مصر من خلال احتلالها السابق لها! متغاضيا عن كون ذلك الاحتلال كان اعتداء صارخا على مصر، ومتغاضيا عن استعمارها انذاك للجزائر ومن بعدها تونس وعن طموحاتها في استعمار سوريا وغيرها من البلاد العربية. بل هو مدح الاستعمار الفرنسي على لسان مندوبه، محمد عبدة، الذي سافر الى تونس من اجل الدعوة لجمعية العروة الوثقى. وطلب من الامة الاسلامية وخاصة مصر والدولة العثمانية، التعاون مع فرنسا، اذ هو، بعد ان يذكر ما معناه ان الانكليز اغتصبوا الهند ويرون ان من حقهم (اغتصاب جل العالم لاجل

---

[1] موسى الموسوي: الشيعة والتصحيح ص ١٢٠.

الهند خصوصا القطر المصري) وان بسمارك يعمل على ان (يضيع مصالح فرنسا في بلاد المشرق عموما ومصر خصوصاً) يقول: ان (فرنسا واقعة بين مراوغات الانكليز ومكائد بسمارك، ولها حقوق سابقة في البلاد المصرية كاد يمحي اثرها بمداخلة الانكليز وبها حاجة شديدة لعلو الكلمة في طريق منشأتها ببلاد الصين والبحر الهندي ومدغسكر...[1] لهذا تبذل الجهد لاجلاء العساكر الانكليزية عن مصر، وتخفيض سلطة الانكليز فيها، ويوجد لها عيون من دولة الروسية ولها من المنعة ما لو ايدته افكار المصريين واراء ذوي العزيمة من رجالها وميل افئدتهم لمكنها من تخليص مصر وانتزاعها من ايدي الانكليز سعيا في حفظ مصالحها ووقاية حقوقها. وهذا ما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها في مدافعة الانكليز ومطاردتهم من بلادها، فللدولة العثمانية ان تظهر عزمها في هذه الاوقات لتستنقذ ممالكها من طمع الطامعين، وتعيد ولايتها على الاقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدي... فعلى العقلاء من اهالي مصر ان يسارعوا الى معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخليص بلادهم مستعينين بافكار الدولة التي تقضي عليها مصالحها بالسعي في انقاذها واعادة شأنها الاول وتحقيق ما يقال ان مصر للمصريين)[2]

وهكذا نجد ان كلا من الافغاني وعبدة تعامل مع الاحتلال بمعيارين مختلفين في آن واحد نسبة الى جنسية المحتل فاحتلال الانكليز للهند ومصر هو اغتصاب! ولكن احتلال فرنسا السابق لمصر هو حقوق سابقة!! ولم يكتفيا بالادعاء بأن لفرنسا حقوقا سابقة في مصر وانما حاولا جمع المؤيدين لها في صراعها مع بريطانيا لاستخلاص حقوقها هذه منهم! فحاولا جر المصريين والعثمانيين على تأييد فرنسا ودعمها ضد بريطانيا على امل ان تعيد فرنسا مصر ليس للمصريين فقط، بل للدولة

---

(1) هي مدغشقر (انظر اللفظ كما يأتي في اللغة الاجنبية!

(2) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني جـ٢، ص١٦٢-١٦٣

العثمانية ايضا!! مما يثير التساؤل: ان كانت فرنسا كما يقولون تسعى لتخليص مصر وانتزاعها من ايدي الانكليز سعيا في حفظ مصالحها ووقاية حقوقها فكيف ستعيد ولاية الدولة العثمانية عليها؟ ولماذا؟ وكيف ستجعلها بعد ذلك للمصريين؟ ولماذا؟ هل هو عمل انساني تقوم به فرنسا لوجه الحرية والديمقراطية؟ واذا كانت فرنسا بهذه الانسانية فلماذا لا تطلق سراح الجزائر التي هي اصلا في حوزتها وتعطيها استقلالها وتجعلها للجزائريين كما ستجعل مصر، التي في حكم الغيب، للمصريين؟ فهل كانا جادين بهذه الدعوة ويؤمنان بها حقا؟ ام هي مجرد خداع لكل من المصريين والعثمانيين من اجل دعم فرنسا لتستخلص حقوقها من الانكليز!! وبعد ذلك تهيمن على كل الغنائم كما حدث في اتفاق اصحاب الثورة العربية مع الحلفاء ومساعدتهم على النصر في حربهم مع الدولة العثمانية.؟!! وبما ان النيات لا يعلم بها الا الله فما علينا لذلك الا ان نقول ان هذه الدعوة اما ان تكون بعيدة عن العقل والعقلانية والمنطق واما ان تكون بعيدة عن الامانة والاخلاص.

ولم يكتف الافغاني -وعبدة- بعدم التعرض لفرنسا كدولة مستعمرة وانما هو يغريها بغزو مصر، فعندما نقل اخبار انتصار فرنسا على الصين الآمنة والبعيدة عنها، وسفك دماء ابنائها واحتلالها بقوة السلاح لم يلوم الافغاني فرنسا على عملها اللاانساني هذا بل يقول: (وفي حسباننا ان مثل هذه الفتوحات لا تسلي احزان الفرنساويين ولا تعزيهم علي ما خسروه في مصر وان ذاك الضماد لا يقطب هذه الجراح)[1] وعندما اتفقت فرنسا مع انكلترة على تقسيم مناطق النفوذ فيما بينهما تركت فرنسا لانكلترة (كل حق لها بمصر)! فهو لم يهاجمهما ولا يعتبر هذا التقسيم عملا لا انسانيا ولا اخلاقيا ولا حق لاي منهما فيه ولا يتفق مع أي من حقوق الانسان التي يدعيان حمايتها، وانما قال: (هذه المسامحة لم تكن منتظرة مع حكومة فرنسا) ومع ذلك برر فعلتها فقال: (وليس ببعيد ان يكون نعير الانكليز وهديرهم

---

[1] ذات المصدر ص ٩٠.

وارهابهم للوزارة الفرنسية بالميل للالمان هو الذي دعاها لهذا التساهل الغريب، بل حملها على ترك الحق بالكلية، او ربما ظن رئيس الوزراء ان اشتداده في اقتضاء حقه او حق من له بهم علاقة صحيحة يوجب تغيرا في وزارة -غلادستون- فيقوم خلفها على الاغتصاب بالقوة وانتهاك كل حق فتضيع الحقوق الفرنساوية بلا منة من فرنسا في ضياعها، فسارع الى موافقتها على ما تشاء، وطرح مصلحة فرنسا في مصر بين يديها لتكون المنة في استيلاء الانكليز على مصر للفرنساويين...)[1] وقال ايضا، ان هذا التساهل مع الانكليز سيضر فرنسا كما ضرها تساهلها معهم في المسألة الهندية (عندما كان للامتين منافسة فيه آلت الى تغلب الانكليز على جميع الممالك الهندية، ورجع الفرنساويون بخفي حنين... ولم يمح اثر ذلك الخسران من خواطر الامة الفرنساوية الى الآن...)[2]. ثم ذكر عرضيا ان (الحكومة الفرنساوية حولت نظرها الى جهة اخرى) رغم ان الجهة الاخرى هي بلاد شمال افريقيا العربية الاسلامية، الا ان الامر لا يهمه في شيء فلفرنسا كما يرى حقوقا، اين ما شاءت، في عالمنا العربي!! يجب ان لا ينازعها فيه احد تماما كما كان العازوري يؤكد.

وهو كما هادن الاستعمار الفرنسي وتعاون معه وأتمر بأمره فقد هادن ايضا الاستعمار الروسي بل روج له وعرض عليه ان يشارك الافغان والايرانيين في غزو الهند وتخليصها من الانكليز واقتسامها فيما بينهم هم الثلاثة من دون أي اعتبار للهنود المساكين! وذلك لأنه يرى ان روسيا وان كانت تلقى التأييد من الهنود لنفرت هؤلاء من الانكليز الا ان الهند بعيدة ومسالكها مجهولة وطرقها ملتوية (وليس الروس من الخبرة بها في شيء) كما ان الروس لا يعرفون شيئا عن ميول الهنود واخلاقهم ولذلك فلا (سبيل يوصلهم الى ذلك الا اشراك الفارسيين والافغانيين

---

(١) ذات المصدر ص ١٥٩-١٦٠.

(٢) ذات المصدر.

في اعمالهم الحربية والسلمية) وهي لا تستطيع ان تستعين بهم (على فتـــح ابـــواب الهند الا ان تساهمهما في الغنيمة وتشركهما في المنفعة والا كانا سدا محكمـــا دون اهم غاياتها). ودعا من جهة اخرى كل من الفرس والافغان الى التعاون مع الـــروس في هذا الاتجاه فقال: ازفت هجمة الروسية على الهند (ولو اتفقت فيه دولة ايران مع امارة افغانستان لكان لكل منهما حظ وافر ونفع جزيل...)[1]

ولا اريد هنا مناقشة ما جاء في اقواله اعلاه في مسألة اعتبار الـــهند غنيمـــة يتعاون المسلمون مع الطامعين المستعمرين على اقتســـامها، ولا مســـألة اســـتبدال استعمار بآخر تحت ستار مقاومة الاستعمار الانكليزي ولا دعوته للفرس والافغـــان للتعاون على الكفر والعدوان بتسهيل مهمة الغزاة للهند وليس على البر والتقوى فـــي مساعدة اخوانهم الهنود على التخلص مما هم فيه من احتلال واستعمار! فهذه كلــــها يطول شرحها. ولكن ما لا يمكن تجاوزه من غير ذكر هو كونه يدعـــو المســـلمين للاستعانة بالروس تارة وبالفرنسيين تارة اخرى ولا يدعوهم للاعتمـــادعلى انفســـهم وعلى مقوماتهم الذاتية في دحر الانكليز، او أي مستعمر آخر، مـــع انـــه فـــي ذات الوقت يعتقد ان الانكليز ضعفاء ولا قوة ذات اهمية لهم، مما يجعل الامر لا يســـتحق الارتماء في احضان هذا المستعمر او ذاك للتخلـــص منـــهم واعطـــاء التنـــازلات بالمقابل. اذ يقول: (ليست قوة الانكليز سوى الوهم، هذا الوهم تمزقت حجبـــه عـــن بصائر الغربيين فعلموا ما هو الانكليزي ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء، صوت عال وشبح عال، قامت الدول على معارضتهم لعلمها ان الانكليز صـــــاروا للأمـــم كالدودة الوحيدة، على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية، لكن يبقى ان يـــزول هـــذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات، ويستقلوا بأمورهم، ولا ينتقلـــو من عبودية الى اخرى ولا يستبدلوا سيد بسيد أخر...)[2]فكيف تتفـــق دعوتـــه الـــى

---

(١) ذات المصدر ٢٧٠.

(٢) عمارة: الاعمال الكاملة جـــ٢ ص ٩٨.

استغلال الظروف والاستقلال وعدم استبدال عبودية باخرى مع دعوته للتعاون مع فرنسا تارة ومع روسيا تارة اخرى؟ اهي الفتنة ولا شيء غيرها؟ ثم من هم الاقوياء وحقوقهم؟ هل هم الفرنسيون؟! وهل هو فعلا كان يرى ان الانكليز ضعفاء؟ فلماذا اذا يستعين لطردهم بالفرنسيين والروس؟ ام انه يريد ايهام المسلمين بذلك ليضعهم في موقف حرج امام الانكليز يزيد من ضعفهم وتخاذلهم ويجعلهم اكثر هشاشة فينكسروا امام الغزاة بوقت اقل وبأقل الخسائر للغزاة المستعمرين؟!! ثم اليس غريبا ان يدعو الافغاني روسيا الى التعاون مع الافغان والايرانيين لتخليص الهند من الانكليز ثم يدعوا الانكليز الى التعاون مع (ذوي العزيمة من العثمانيين والمصريين لاتقاء خطر يتهددهم من جهة روسيا واتفاقها مع بعض الافغانيين على غزو الهند...[1]

فكيف قاوم الافغاني الاستعمار.؟

واي استعمار هو الذي قاومه الافغاني -مرة اخرى-؟

فهل يمكن ان يكون الاستعمار الذي قاومه الافغاني هو الدولة العثمانية؟ فهي الوحيدة التي تضررت من الافغاني ودعواته المختلفة بالاضافة الى مصر والدول العربية التي وصلتها دعوته. هذا غير ان الكثير من دعاة الافغاني وغيرهم من النهضويين يصرحون او يلمحون بكون الدولة العثمانية كانت دولة استعمار للدول العربية ولغيرها. فالدكتور محمد عمارة لم يذكر قط موالاة الافغاني للاستعمار الفرنسي والدعوة له احيانا والسكوت عن استمرار احتلاله للبلدان المختلفة، وخاصة دول المغرب العربي المسلم، ولكن ومن اجل الانصاف والموضوعية! والمنهج العلمي! كما يقول، ذكر مسألة دعوة الافغاني للروس والافغان والفرس على التعاون وتقسيم الغنائم في الهند بينهم. ولكنه برر ذلك بأنها زلة قدم... من الرجل -وكبوة- فكر. وكما اعتذر وبرر سلوك الافغاني هذا مع الاستعمار الروسي فهو قد برر من

---

[1] ذات المصدر ص ٨٢.

ذات المنطلق والموضوعية والعلمية! دعوته (لخلافة آل عثمان) وللجامعة الاسلامية فقال: (وموقف فكري آخر لا نعتبره نقطة ضعف ذات بال في تاريخ نضال الافغاني ضد الاستعمار وانما نعتبره منعطفا فكريا ونضاليا... عندما الجأته ضرورات المعركة ضد الزحف الاستعماري الامبريالي الاوربي ان يهادن حينا، ويغض الطرف حينا آخر عن المضمون الحقيقي للسلطة العثمانية، فيدعو لخلافة آل عثمان ويجعل الروابط الروحية بديلا للقسمات القومية وهي الفترة التي دعا فيها الى الجامعة الاسلامية...)[1] وهي المرحلة التي اعتبرها ما قبل نضج الافغاني! مع انها كانت في اواخر ايام حياته.

ولا اريد ان اناقش مسألة مهادنة الافغاني للسطلة العثمانية او مقاومته لها، ولا دعوته للجامعة الاسلامية او الجامعة القومية ولا دوافعه في كل ذلك والتي كلما بحثنا فيها لا نجد انفسنا الا امام علامة استفهام تكبر وتكبر مع تعمقنا بالبحث والتحليل وتعقلنا لاعمال الافغاني ودوافعها وما حققته من نتائج. ولكني اريد فقط ان اتطرق الى مسألة اعتبار الدولة العثمانية دولة مستعمرة وهو ما اراد الاستعمار غرسه في نفوس الامة العربية وغيرها من شعوب الامة الاسلامية ليبرر تدخله منقذا لهذه الشعوب ومحررا لها لتدخل شرك استعماره واستعباده. مما يذكر هنا، انه عندما زار تشرشل فلسطين قادما من مصر بعد ان كان قد عين الامير فيصل ملكا على العراق والامير عبدالله ملكا على شرق الاردن، واعطى اوامره للسير صاموئيل القائد الاعلى للامبرطورية البريطانية في فلسطين لتأسيس دولة يهودية في فلسطين، كان يتوقع، ومعه لورنس، انه بهذا قد حقق (الطموحات الوطنية العربية) واحتوى معارضة العرب للصهيونية ولوعد بلفور ولانشاء وطن لليهود في فلسطين، ولكنه قوبل بالمظاهرات والاحتجاجات، فانزعج شرشل! وقال لهم (ان البريطانيين هم الذين دحروا الاتراك الذين اضطهدوا العرب وليس الفلسطينيون العرب وبالتالي

---

[1] ذات المصدر جـ ١ ص ٥٩.

فان وجود بريطانيا في فلسطين هو من حقها) وليس لاحد ان يعترض على ما تفعل فيها!![1].

والقول بالاستعمار العثماني، الذي ما انفك دعاة النهضة على الطريقة الاوربية الاستعمارية او لنقل دعاة التغريب يرددونه حتى يومنا هذا من غير تدقيق في صحته ولا فهم كما يبدو لمغزاه. اذ هو اكبر اهانة يمكن ان توجه للأمة العربية التي يدعون انهم يريدون عزتها. لأن كون الامة العربية تتقبل الرضوخ للاستعمار العثماني لمدة تقرب من خمسة قرون يعني ان في هذه الامة من رذائل الذل والضعف والمسكنة والاستكانة وعدم الاحساس بالكرامة والعزة ما يجعلها تستكين لهذا الاستعمار طيلة هذه القرون، ولا تتحرك، عندما تتحرك، الا بفعل فاعل يأتيها من خارجها، وهو الافغاني من جهة والاوربيون من جهة اخرى، فينبهها الى ما هي فيه من ذل وهوان!! وعندها فقط تنهض فيصبح هذا الفاعل الغريب بطل النهضة الذي حركها من سباتها وبعث فيها الحياة!! والمغزى الادهى من هذا هو ان الامة التي عقمت طيلة هذه القرون فلم تستطع ان تنجب من يقودها في طريق العزة والكرامة فهي لا بد ان تكون مزمنة في العقم، بمعنى انها كانت عقيمة قبل ذلك الاستعمار المزعوم وان ما يدعيه الاوربيون من ان الامة لم تنجب مفكرين ولا علماء وان كل حصيلتها الفكرية كانت نتاج غير العرب هو لا شيء غير الحق الذي لا جدال فيه! ويعني ايضا انها عقيمة حتى بعد ذلك الاستعمار وان كل محاولات الفكر التي نراها حولنا هي نتاج الحضارة الغربية التي لولاها لما وجد شيء منه اصلا. وهذه الفكرة الاخيرة هي فكرة يعمل المتغربون على تاكيدها من امثال زكي نجيب الذي اكد في كثير من كتاباته على انه لولا الفكر الغربي لما وجدنا شيء من الفكر على الساحة العربية المعاصرة. والحقيقة هي غير ما يفترون تماما لان الامة العربية ارتضت الحكم العثماني لها طيلة هذه القرون لالانها تفتقد الاحساس بالعزة

---

(١) The last lion p. 704.

والكرامة، ولا لاستكانتها للذل والهوان، ولا لسباتها! وانما لان الله سبحانه وتعالى قد جعل الناس شعوبا وقبائلا ليتعارفوا ولكن الف بين قلوبهم وجعل منهم امة واحدة هي الامة الاسلامية التي لا فرق فيها بين الاعجمي والعربي الا بالتقوى، فارتضوا الانضواء في ظل الحكم الاسلامي بغض النظر عن عروبته او عجمته. هذا هو المنطلق الذي كان يوجه السلوك الانساني داخل هذه الامة الواحدة. فقد تأمر عليها عبر تاريخها حكام من العرب ومن غير العرب ومنهم من عدل ومنهم من استبد ولكن لم يخطر ببال أي من الشعوب الداخلة ضمن الامة الاسلامية بانه مستعمر ومستبد به من قبل الشعب الآخر. لقد كان الدعاء للخليفة المسلم ايا كانت قوميته تتردد في جميع انحاء الامبراطورية الاسلامية من اقصى شرقها الى اقصى غربها. وكانت الامة الاسلامية تستجيب من اقصاها الى ادناها لدعوة الجهاد التي يطلقها الخليفة او السلطان بغض النظر عن قوميته. فلم يحارب المعتصم العربي بجيش عربي خالص ولم يقود صلاح الدين الايوبي الكردي جيشا كرديا في مجابهة الحروب الصليبية. وحارب سليمان القانوني بجيش مسلم يضم المسلمين جميعا بغض النظر عن أي انتماء آخر. ولم يظهر التشتت والتفرق الا بفعل الاستعمار كوسيلة تمهد لغزوه، واصحاب الطموحات من اجل القفز على كرسي الحكم ايا كان هذا الكرسي! فسياسة التفريق بين من هو عربي ومن هو تركي لم تظهر الا مع الانفتاح على اوربا وانتشار النفوذ الاجنبي في البلاد. والدول الاستعمارية ذاتها هي التي اثارت النعرات القومية وشجعت سياسة التتريك عند الاتراك وبالمقابل اثارت وشجعت التوجهات القومية للشعوب الاخرى. ومع ذلك بقت هذه التفرقة وهذا التشتت محصورا بين مدعي الثقافة والفكر النهضوي الاوربي، يوظفونه من اجل القفز الى مواقع السلطة، السياسية منها والفكرية، وتحقيق مصالحهم وطموحاتهم. ولم يمس هذا التشتت العامة من الناس، فلم يكن هناك من يرفض التعامل مع هذا التركي او هذا العربي او يحقد عليه لكونه من هذه القومية او تلك، واكبر دليل على

ذلك ما اصاب الامة الاسلامية من فزع والم وحسرة عندما اندحرت الدولة العثمانية وزالت الخلافة الاسلامية. عبر عامة الناس عنه بالرفض ليس للاحتلال الاجنبي فقط وانما للحكم الوطني الذي هادن الدول الاجنبية او تعاون معها، بل وللفكر القومي ذاته والذي اعتبرته وليد اجنبي عنها. هذه المشاعر التي لا تزال ان اردنا الحق والموضوعية نجده بين ابناء الامة وهو الذي يتهمه البعض بالرجعية والتخلف. وعلى اية حال فان كانت مقاومته للاستعمار المقصود بها الدولة العثمانية الاسلامية فتباً لها من مقاومة عادت على الامة بالويلات التي يدل عليها ما صارت اليه حالة الامة العربية والاسلامية بعد ذلك حيث تقاسمت الدول الاستعمارية اراضيها واذلت شعوبها ونهبت خيراتها وخربت موقوماتها -الامة- حتى صارت الى ما صارت اليه اليوم من تخاذل وضعف تلتصق بهذه اوتلك من الدول الاستعمارية الطامعة لتتقوى وتعيش!!

مقاومة الاستبداد

ردد اكثر من تعرض لسيرة الافغاني انه (ناضل... طويلاً، في كل مكان حل فيه، ضد الاستبداد والمستبدين، وناجز الاستبداد الشاهاني في ايران، والخديوي في مصر، والسلطان عبدالحميد في الاستانة...)[1] والمتفحص لأعمال الافغاني يجد ان الكثير منها موجه لمقاومة هؤلاء. ولكن المهم في ذلك هو هل كان على حق؟ وهل كان جادا ومؤمناً بما يقول؟ وهل كان مخلصا في اقواله من غير تحييز معيب او حقد مشين او اغراض خفية باطلة؟!!.

يقول محمد عمارة ان كلمات (-وعزة الحق وسر العدل- هي القسم لدى جمال الدين ولذلك دلالة كبيرة في تفكير الرجل الذي نذر نفسه للحق والعاشق للعدل بين الرعية وفيما بين الحاكم والمحكوم) فاين هو الحق في تفكير وسلوك الافغاني في تعامله مع الحكام -ومع المحكومين ايضا- فهل كان على حق في تعامله مع شاه

---

(1) عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص ٥٣.

ايراه مثلا؟ والذي وجه اليه هجمة عنيفة في جريدة ضياء الخافقين التي تصدر بالعربية والانكليزية من لندن؟!! وقال فيها ما قال ثم حرض في النهاية على قتله، فقتل النفس التي حرم الله قتلها الا بالحق كما امر الله المسلمين. وحتى ان كان قتله حق كما قد يدعي البعض، من خول الافغاني ان ينفذ الحق ويطبق الحد الذي هو من حق ولي الأمر المكلف بذلك بعد حكم قاضي مسؤول؟ فهل في نظر الافغاني ان حكم الاسلام للمسلمين فوضى لا تحدده قوانين وشرائع كما يدعي الاوربيون الذين روجوا لسيادة قوانينهم على هذا الاساس؟!! فمن خول الافغاني تطبيق الحد وهو لم يكن قاضياً ولا مسؤولا بأي شكل ولا حتى مواطنا ايرانيا، لأنه كان ينكر ذلك، فمن اين جاءه حق اقامة الحد على ولي الامر الذي امر الله باطاعته؟ ومن صار المستبد الشاه ام الافغاني؟ فان كان الاستبداد رذيلة افلا يجب على مقاوم الاستبداد نفسه ان يترفع عن هذه الرذيلة التي يرفضها في الآخرين؟

فقد التقى الشاه ناصر الدين بالافغاني والاخير يتجول في العواصم الاوربية. الاستعمارية- فدعاه الى ايران وكرمه وجعله مستشارا له ووزيرا كما تؤكد روايات دعاة الافغاني، ثم وقع بينهما خلاف يدعي الافغاني انه بسبب طلبه من الشاه وضع دستور للبلاد وتشكيل مجلس نواب، والشاه لم يفعل فهل في نظر الافغاني ان رأى المستشار امر على الحاكم ان يطيعه؟ وقد قال سبحانه وتعالى: (وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين)[1] ولم يقل شاورهم واطع امرهم، فكيف اعطى الافغاني لنفسه حق منازعة ومقارعة الحكام الذين لا يطيعون اوامره -ولا اقول نصائحه او مشورته لأنها في نظر الافغاني اوامر واجبة الطاعة -لدرجة التحريض على القتل؟!! ان كان معتمدا في ذلك على ولاية الفقيه المعروفة عند بعض فقهاء الشيعة، والتي بدأ العمل بها منذ (ان استلم السلطة في ايران الشاه

[1] ال عمران: ١٥٩ (الجلالين)

اسماعيل الصفوي)[1] والتي تجعل للامام السلطة العليا في الدولة، ولما كان الامام غائبا فسلطته تكون لنائبه وعلى ذلك فكل سلطة او حكومة (لا تكون شرعية الا اذا اجازها وباركها الفقيه الذي يمثل الامام الحي الغائب المنصوب بأمر الله)[2] فهذه لا تنطبق على الافغاني ليس لانه ينكر انه شيعي او انه ايراني فقط بل لأنه لم يعرف عنه انه فقيه او نائب للامام لأن في ايران انذاك علماؤها وفقهاؤها الذين لهم سلطتهم على الدولة، والافغاني نفسه اراد الاستعانة بهم ضد الشاه فحرضهم عليه ولكن يبدو انهم لم يستمعوا اليه فكتب بعد طرده من ايران رسالة الى المجتهد العراقي محمد حسن بن محمود النجفي الشيرازي. ونظرة الى بعض ما جاء في الرسالة تبين للقارئ الكريم بما حوته من حقد شخصي وكلمات نابية تجاه الشاه ورجال دولته مقدار ما يتمسك به الافغاني من فضائل الحق والعدل! اذ يقول في الرسالة:

(ايها الحبر الاعظم ان الملك قد وهنت مريرته، فساءت سريرته، وضعفت مشاعره، فقبحت سريرته وعجز عن سياسة البلاد، وادارة مصالح العباد، فجعل زمام الامور، كليها وجزئيها، بيد زنديق اثيم، غشوم ثم بعد ذلك زنيم... يسب الانبياء في المحافل جهرا ولا يذعن لشريعة الله امرا، ولا يرى لرووساء الدين وقرا، يشتم العلماء، ويقذف الاتقياء... وانه بعد رجوعه من البلاد الافرنجية، قد خلع العذار وتجاهر بثوب العقار، وموالاة الكفار، ومعاداة الابرار... انه باع الجزء الاعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لأعداء الدين، المعادن والسبل الموصلة اليها والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة والفنادق... والتنباك وما يتبعه من المراكز... والصابون والشمع والسكر ولوازمها

---

[1] موسى الموسوي: الشيعة والتصحيح، ١٩٨٨ ص ٧٠.

[2] ذات المصدر ص ٧٢.

من المعامل، والبنك وما ادراك ما البنك هو اعطاء زمام الاهالي كلية بيد عدو الاسلام...)[1].

وبعد ان يصفه بالمجرم والخائن البليد والاخرق الخائن الخ... يصف كيف اخرجوه بالقوة من مقام عبدالعظيم حيث كان يعتصم وسفروه الى خانقين فبغداد ثم البصرة، يذكر للشيرازي كيف اتهموا جماعته والمؤيدين له بالبابية[2] ويدافع عن (الشاب الصالح الميرزا محمد رضا الكرماني الذي قتله ذلك المرتد في الحبس) وهو احد منتسبي البابية والتي كانت تعتبر طائفة خارجة عن الدين ومرتدة عنه واخوه هو الذي قتل الشاه بعد ذلك بتحريض من الافغاني. ثم يختم الرسالة بتحريض العلماء مستخدما مسألة الانساب التي كانت سائدة في الجاهلية وقضى عليها الاسلام اذ قال: (واسلاماه ما هذا الضعف؟ وما هذا الوهن؟ كيف امكن ان صعلوكا دنيء النسب، ووغدا خسيس الحسب، قدر ان يبيع المسلمين وبلادهم بثمن بخس دراهم معدودة ويزدري العلماء ويهين السلالة المصطفوية ويبهت السادة المرتضوية البهتان العظيم ولا يد قادرة تستأصل هذا الجذر الخبيث... شفاء لقلوب المؤمنين وانتقاما لآل المرسلين...)[3].

ان في هذه الرسالة الكثير مما يمكن تحليله والتعليق عليه مما ليس هنا مجاله، ولكننا هنا، ونحن نناقش تمسك الافغاني بالحق والعدل في مقاومته الحكام واتهامهم بالاستبداد لا بد من التنبيه الى نقطتين اثنين في هذه الرسالة، تدلان على مدى تمسك الافغاني بالحق والعدل والدين! النقطة الاولى: هي ان ننظر الى الاوصاف القاسية الشديدة التي يستخدمها لوصف الشاه ورجاله والتي لا اعتقد ان رجل أي رجل

---

[1] عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني جـ٢ ص ٢٧٦.

[2] البابية نحلة ظهرت بفارس في القرن التاسع عشر على يد نبيها ميرزا علي محمد الشيرازي الذي اعلن سنة ١٨٤٣ نبوته وقد مر ذكره.

[3] ذات المصدر.

ناهيك عن داعية للدين والاصلاح يمثل قدوة لغيره من المسلمين ويدعي ان شـــعاره الحق والعدل يمكن ان يستعملها. خاصة وانه لم يعاشر الشاه وقومه، وهو ليس منهم وقضى حياته بعيدا عنهم وعن ايران كلها فكيف ينســـاق وراء حقـده الشـخصي ويصفهم بكلمات مثل الزنديق الاثيم والغشوم الزنيم والمجرم الخ... وقد قال تعـالى: (يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالـــة فتصبحـــوا على ما فعلتم نادمين)[1] وقال ايضا: (يا ايها الذين امنوا كونوا قواميـــن لله شـــهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا، اعدلوا هو اقرب للتقوى)[2].

ثم لماذا قبل التعاون معهم اولا وهم بهذه الصفات؟ فهل تحولوا من النقيض الى النقيض بين ليلة وضحاها؟ فماذا حدث؟ ولماذا؟

اما النقطة الثانية: فهي النظر في مسألة الموالاة للكفـــار واعطـــاء امتيـــازات المعامل والفنادق وطرق المواصلات الخ... للأجانب. الم يوالـــي الافغـــاني نفســـه الكفار الاجانب وخاصة الطامعين في مصر، عندما تعـــاون معـــهم علـــى عـــزل اسماعيل، وقبلها ايضا؟ الم يدعُ الى موالاة الكفار الاجانب والتعاون مع الاوربيين - من روس وفرنسيين- لتخليص هذا البلد او ذاك من الانكليز؟ الم يدعُ الى التعـــاون مع الاوربيين وقبول حضارتهم ومنتجاتهم وعلومهم حتى ان اقتضى الأمـــر تـــأويل القرآن الكريم؟ الم يدعُ الى اقتباس انظمتهم السياسية والادارية من دساتير واحـــزاب ومجالس نيابية الخ...؟ رغم انها ليست من الاسلام في شيء.؟ الم يدعُ الى اقتبـــاس منتجات حضارتهم المادية ايضا عندما قال:

(الم ترى الروس؟... هي امة متأخرة في الفنون والصنائع عن سائر امم اوربـــا. وليس في ممالكها ينابيع للثورة ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها مـــن الاعمـــال الصناعية، فهي مصابة بالحاجة والاعواز، غير ان تنبه افكار أحادها لما به يكـــون

---

(1) الحجرات: ٦ (الجلالين).

(2) المائدة: ٨ (الجلالين).

الدفاع عن امتهم واتفاقهم في النهوض به... لم يكن للروسية مصانع لمعظم الالآت الحربية ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها، ولم يرتق فيها الفن العسكري الى حد ما عليه جيرانها، الا ان هذا لم يقعدها عن جلب ضباط الأمم الأخرى لتعليم عساكرها... فما الذي اقعدنا عن مشاكلة غيرنا...؟)[1].

فلماذا اذا يعيب على الشاه اعطاءه امتيازات الصناعات والبنوك والمواصلات وغيرها مما اعتبر انذاك -ولا زال- من مظاهر التقدم، للاجانب؟ اليس هذا هو مضمون ما دعا اليه الافغاني من تغريب؟ ثم الم يمتدح الافغاني محمد علي وخلفائه على ذات الامور التي استنكرها من شاه ايران. والتي جعلت مصر بحسب قوله (تضارع ما عليه الممالك الاوربية العظيمة) وقال يصف حالها قبل الاحتلال الانكليزي لها: (... نالت مصر في عهد ذلك الرجل العظيم وعهد خلفائه من بعده ما كانت تقف دونه افكار الناظرين... فتقدمت فيها الزراعة... واتسعت دائرة التجارة... وتقاربت انحاؤها واتصلت اطرافها بما انشيء من سكك الحديد، وخطوط التلغراف... تفجرت في ارض مصر ينابيع الثروة، عمت بقاعها وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الاقطار الشرقية، بل وصل من نيلها الى اراضي البلاد الغربية، وتوارد اليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان... فاثرى في مغانيها الفقراء وعز بها الاذلاء وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ومحط رحال الراجين من الشرقيين، وكل واحد يجد اهلا خير من اهله وسكنا خير من سكنه، وتكاثرت العناصر الغربية، حتى كان الداخل اليها يخيل اليه انه تحت برج بابل يوم تبلبلت الالسن. وساد الامن وعمت الراحة، وضارعت في كل احوالها نوع ما عليه الممالك الاوربية العظيمة...)[2].

---

(١) عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ٢ ص ٢٨.

(٢) عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ٢ ص ٩٩-١٠٠.

اليس هذا هو مفهومه للتقدم؟ اليس هذا هو ما اراده للامة؟ فلماذا اذا يستغل هذا الذي دعا اليه ومدحه في غير الشاه للتحريض على الشـــاه؟ تمامـــا كمـــا اســـتغله للتحريض على اسماعيل الذي كان سائرا في خطا محمد علي وعلـــى ذات دربـــه، عندما اقتضت مصالح الاوربيين عزله؟!! فأين الحـــق والعـــدل اللـــذان يعتمدهمـــا الافغاني في اعماله؟ فهو لم يكتف بهذه الرسالة او غيرها وانما خاطب عـــددا مـــن رجال الدين من خلال جريدة ضياء الخافقين التي كان يصدرها في لندن والتي كـــان يقوم بتحريرها القس لويس صابونجي. وكانت مخاطباته لهم كلـــها تـــدور حـــول التحريض على الشاه (الحارية الطاغية) واثارة رجال الدين عليه وتحريضهم علـــى خلع ذلك (الفرعون الذليل والطاغية المجنون)[١] بدلا من التشاور معهم فـــي كيفيـــة اصلاح حال الامة او افضل الطرق لتقديم النصح للشاه بالحسنى لما فيه خيره وخير الأمة!!!

ولم يكن تعامل الافغاني مع السلطان عبدالحميد ليقل تناقضا وبعدا عن الحـــق والعدل عن تعامله مع الشاه فهو الذي قال:

(ان السلطان عبدالحميد لو وزن مع اربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة ولا عجب اذ رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغـــرب ويخرج المناوئ له من حضرته راضيا عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعـــا بحجتـــه سواء في ذلك الملك والامير والوزير والسفير ولكن... يا للأسف! ان عيب الكبـــير كبير والجبن من اكبر عيوب الملوك... رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كـــل مـــا ذكرته من محاسن الحكم الدستوري، وان الاسلام اول من عمل في سلطانه. ورأيتـــه يعلم دقائق الامور السياسية، ومرامي الدول الغربية، وهو معد لكل هوة تطراء على الملك مخرجا وسلما.

---

(١) ذات المصدر ص ٢٧٧-٢٨٠ (الحارية = الإفعى).

واعظم ما ادهشني، ما اعد من خفي الوسائل، وامضى العوامل، كي لا تتفـــق اوربا على عمل خطير في الممالك العثمانية، ويريها عيانـــا محسوســا ان تجزئـــه السلطنة لا يمكن الا بخراب الممالك الاوربية باسرها.

وهكذا كانت يقضته لدول البلقان الصغيرة التي احدثتها اوربا احبولة لتضعضع بها السلطنة العثمانية، وتتذرع بها للتدخل في الشؤون، لتقطع من اجـــزاء المملكـــة جزءاً بعد اخر وكلما حاولت اوربا ان تجمع كلمة دول البلقان، للخروج عن الدولـــة بحرب كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل ما ربطوه وتفريق ما جمعوه مـــن كلمة وكيد. فالبلغار مع شدة شكيمتهم، ودهاء اميرهم البرنس فرديناند، رضخ طائعـا لأمر عبدالحميد، ولبس الشعار العثماني -الطربوش- وافتخر برتبة المشيرية وانتظم مع مشيري الدولة في حفلة صلاة الجمعة -السلاملك- اما امير الجبـــل الاســـود -نقولا- فكان امره مع السلطان عبدالحميد كولد لا يرى الفرج الا من ابيه... ضـــاقت اوربا ذرعا بسياسة عبدالحميد، وحيطته ويئست من اكثر دول البلقان، فحولت كيدها بدس الدسائس، وصرفت همتها بالاستغواء الى اخف الدويـــلات حلومـــا واكثرهـــا غرورا وجيشا، وهي دولة اليونان، فقد بدأت تتحرش بالدولـــة العثمانيـــة لتتدهـــور بالحرب مع السلطان عبدالحميد[1].

اما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره واعداده العدة اللازمة لابطال مكايد اوربا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة -الذي فيه نهضة للمسلمين عمومـــا- فقد دفعني الى مد يدي له، فبائعته بالخلافة والملك...)[2].

بغض النظر عن مسألة عيب الجبن الذي البسه للسلطان، فـــي قولـــه اعـــلاه، والذي ليس هنا مجال مناقشته، لأن الجبن والشجاعة والتهور الخ... هي مفاهيم لـــها

---

(1) وهو التحرش الذي ايده محمد عبدة وتمنى كما ذكر بعد ذلك لبلنت ان يتحول الـــى حـــرب يضعف الدولة العثمانية.

(2) ذات المصدر جـــ٢ ص ٢١-٢٢.

حدودها ومعاييرها وليس فيما وصف به السلطان عبدالحميد ما يدل على جبنه او تخاذله، فان رأي الافغاني اعلاه بالسلطان عبدالحميد، يضعنا امام خيارين: اما ان رأيه هذا هو الحق وبالتالي فان معارضته للسلطان والعمل ضده قبل وبعد هذا الكلام كان باطلا وكان فيه متجنيا. واما ان يكون رأيه هذا باطلا وهو فيه دجالا ومنافقا وكانت معارضته سابقا ولاحقا، هي الصحيحة وهي الحق وبالتالي فكلا الخيارين يبعده عن الحق والعدل الذي يدعيه، ويزيل عنه الثقة ويضعه موضع الشك والريبة. فما هي الحقيقة؟ وماذا كان يحدث فيجعله يمدح او يذم؟!!

فالمعروف ان الافغاني كان ماسونيا وعمل مع الماسونيين والمعارضين في كل مكان ذهب اليه. وهو قد التقى بالاحزاب التركية المعارضة وعلى رأسها تركيا الفتاة والاتحاد والترقي -هذا غير الاحزاب القومية للقوميات المختلفة في الدولة العثمانية- وكانت هذه الاحزاب كما تؤكد كثير من المصادر تضم الكثير من الماسونيين واليهود وقد بارك الافغاني افكار واعمال هذه الاحزاب وشجعها في معارضتها للدولة العثمانية والسلطان عبدالحميد نفسه، حتى ان السلطان كما يؤكد دعاة الافغاني وتلامذته لم يستقدمه الى الاستانة الا لأنه كان على اتصال مع هذه الاحزاب فخاف ان ينظم اليهم!! ولكن السلطان لم يكن يستطيع استقدامه من لندن حيث مقر اقامته الى الاستانة بالقوة! مما يعني انه جاء مختارا بمحض ارادته وقد قيل كما مر ذكره، ان مليكم خان هو الذي شجعه والح عليه في قبول دعوة السلطان. ومليكم خان ارمني ايراني الف حزبا معارضا صار طائفة دينية وصار هو نبيها! للعمل من اجل الاصلاح الديني لحال المسلمين!!! وهومعارض للدولة الايرانية ويعمل ضدها رغم كونه سفير ايران لكل اوربا ومقره لندن!! وكل هذا يستدعي التساؤل لماذا جاء الافغاني الى الاستانة وهو معارض للسطان ومؤيد للعاملين ضده من هيئات واحزاب؟ فهل كان، مثلا يريد ان يعمل في الموقع على اضعاف السلطان والدولة العثمانية فمد يده للسلطان وامتدحه ليحضي بالقبول عنده

فيطمئن السلطان اليه ويقبل اقتراحاته مثل تأليف الاحزاب والمجلس النيابي على الطريقة الاوربية حتى يصل المعارضون والماسونيون. لا لكثرتهم ولكن لتنظيمهم ولدعم الدول الاوربية لهم -الى السلطة فيفتحوا الطرق ويعبدوها لدخول الدول الاوربية بعدهم مثل ما حصل في مصر وبعدها في الدولة العثمانية نفسها بعد وصول الاتحاد والترقي الى السلطة.؟ او يقبل اقتراحه الآخر في تجزئة الدولة العثمانية باسم اللامركزية حتى تتلاشى الدولة بأقل الخسائر للاوربيين!! ولكن لما لم يستمع له السلطان احس بعجزه امام هذا الداهية اليقظ، كما وصفه، الذي يبدو انه يعرفه ويعرف نواياه فاستمع اليه ولكن باذن من طين، فاغتاظ الافغاني فعاود معاداته ومعارضته! فتآمر مع الخديوي عباس لنقل الخلافة اليه! والا كيف بعدما عرف عن السلطان من دهاء ويقظة وقدرة على مواجهة مخططات الدول الاوربية ضد الامة الاسلامية يتفق مع الشاب الطري عباس الثاني لينقل اليه قيادة الامة.؟ والغريب ان الافغاني انكر هذا التآمر مع الخديوي عباس وقال للسلطان (واي الاعمال انكرها مولانا السلطان علي؟... اني اقسم لك بعزة الحق انه لن يدر بيني وبين عباس حلمي خديوي مصر شيء من هذا... اصلا لماذا انزعج السلطان وازعج لهذه الاكاذيب)[1] ولكن الدكتور عمارة اكد هذا الاتصال بين الافغاني وعباس وهذه الرغبة من الافغاني وكأنه يرى فيها شرفا لا يريد لبطله ان يفتقر اليه، او تاجا يريد ان يضعه على رأسه -الافغاني- مع ان هذا التآمر ان صح فهو ليس فقط يزيل الثقة بالافغاني الذي نقض وعده للسلطان وكذب بنفي التهمة عن نفسه، وانما هو لا شيء سوى خيانة لا مثيل لها للامة الاسلامية لأن السلطان عبدالحميد بما هو عليه من دهاء وحكمة ويقظة هو انسب لقيادة الامة في ذلك الوقت بالذات من عباس، الشاب الغر الذي لم يستطع فرض وجوده في مصر وحدها وعلى كرومر وحده وعلى الانكليز

---

[1] عمارة: الاعمال الكاملة الافغاني، جـ٢ ص ٢٢.

وحدهم، وقيادة المصريين وحدهم فكيف بقيادة الامة الاسلامية كلها واوربـــا كلـــها كأعداء؟ هذا غير انها دليل على بعده عن الحق!!

فماذا كان يحدث؟ مرة اخرى، وما الذي يجعل الافغاني يتنقل في مواقفه مـــن السلطان عبدالحميد من النقيض الى نقيضه؟ يبرر عمارة وقـــوف الافغـــاني ضـــد السلطان الذي مدحه كل هذا المدح المذكور اعلاه فقال ان؟ (الافغاني وهو ا لمناضل الذي مد يده للخليفة العثماني وبايعه بالملك مؤملا ان يقود الشرق في المعركة ضـــد الاستعمار، وجد ان دهاء عبدالحميد انما موجة ضد الاحـــرار والثـــوار بالدرجـــة الاولي، وان الجوانب الايجابية من صفاته وكفاءته هي حبيســـة الحاشـــية الفاســـدة الظالمة القابضة على ازمة الامور وخيوط الاحداث، وعندما ايقن ان هذه الخلافة قد تحولت الى مسخ مشوه واسم علىغير مسمى وانها لم تعد جديرة بالآمال المنتظـــرة التي علقها عليها بدأ يعيد النظر في موقفه وقال عنها ساخرا منها: (خلافة عظمـــى وامامة كبرى!) لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كـــل مفلـــس)[١] ويقول عمارة ايضا (وعندما ابصر الافغاني الا امـــل فـــي صـــلاح عبدالحميـــد او اصلاحه اخذ يجاهر بعدائه ولم يتحرز في توجيه اللوم له والهجوم عليه) واستشـــهد على ذلك بحادثتين الاوى هي انه (حدث يوما ان كان جمال الديـــن فـــي حضـــرة السلطان واخذ يعبث بحبات مسبحته اثناء حديث السلطان اليه. وكان ذلك في نظـــر حاشيته -كبيرة-... فخاطبوه في ذلك عقب المقابلة مباشرة فأجابهم... -ســـبحان الله ان جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الامة على هواه وليس من يعـــترض منهم، الا يكون لجمال الدين حق ان يلعب في مسبحته كيف يشاء؟) اما الثانية فيه ان الافغاني دخل على السلطان ووجه اليه الحديث قائلا (اتيت لاســـتميح جلالتـــك ان

---

[١] عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ٨٠-٨١.

بيعتي لك، لأني رجعت عنها... بايعتك بالخلافة والخليفة لا يصح ان يكون غير صادق الوعد!)[1].

تبرير محمد عمارة هذا لا اراه الا مرفوضا لعدة اسباب منها:

١- ان المبايعة حدثت في الاستانة، في السنوات الاخيرة من حياة الافغاني ووقوفه ضد السلطان كان قبل وبعد المبايعة ولذلك فان كونها لخيبة امله في السلطان امر غير وارد.

٢- ان السلطان لم يكن قاعدا وانما كان فعلا يقود الشرق في معركة ضد الاستعمار فقد كان كما ذكر الافغاني وغيره يرد كيدا بكيد وحربا بحرب. ولم يكن بامكانه ان يفعل اكثر مما فعل والمؤامرات عليه وعلى الدولة العثمانية كانت تحاك في كل مكان كما مر ذكر بعضه.

٣- اما كون ان دهاءه موجه ضد الاحرار والثوار... فليس هناك من دليل على انه عامل هؤلاء المعارضين بشدة اكبر من الشدة التي عامل بها من جاء بعده من هؤلاء الاحرار والثوار!! معارضيهم، وهكذا حتى يومنا هذا. هذا غير ان ما ذكره الافغاني في وصف السلطان يدل على ان دهاءه كان موجها لحماية دولته وامته من دسائس الدول الاوربية الطامعة وليس ضد الاحرار والثوار! ولم يتوجه ضدهم الا لأنه بدهائه ويقظته عرف انهم كانوا دمى يحركها الاستعمار لتحقيق مصالحه وما حدث بعد عزله يدل على بعد نظره وصدق فراسته.

٤- وكونه حبيس الحاشية... فهو امر لا يمكن ان يكون لحاكم بمثل حكمته ودهائه ويقظته. وان صح فكان الاجدر ان تكون المعارضة والاتهام بالاستبداد، ليس للسطان وانما للحاشية من اجل العمل لانقاذه من ذلك الحبس. ثم ان المطالبة بتغيير الحاشية قد تجد أذنا صاغية من السلطان، ولكن هل كان هذا هو مطلب المعارضة ومن ورائها الدول الاجنبية الطامعة؟!!.

---

[1] ذات المصدر.

٥- وكون خلافته تحولت الى مسخ مشوه واسم على غير مسمى فهو امر ليس فقط لا يتسق مع قول الافغاني وغيره ولا مع ما كتب عنه حتى اعداءه الاوربيون وانما ليس من العدل ان يلام في ذلك ويتحمل وزر كل ما ساد عهده من تآمر على الدولة وغزوة شرسة للاستعمار ساهم فيها ابناء البلاد المتأوربين انفسهم.

٦- اما الاستهزاء بهزالها... فالسلطان كان على رأس الخلافة وليس في موقع من يسومها، وهو ليس مفلس لأنه بالاضافة الى ميزاته الشخصية التي ذكرها الافغاني وغيره فهو سليل السلاطين الذين انقذوا الامة الاسلامية مما كانت عليه من ضعف وتشتت واعلوا كلمة المسلمين وحفظوا حوزة الاسلام طيلة خمس قرون. فالمثل لا ينطبق عليه بقدر ما ينطبق على من كانوا يسومونها، متكئين على هذه او تلك من الدول الاوربية او جمعياتها، مثل الماسونية والفجامين الخ...، مثل الكواكبي الخديوي عباس والافغاني نفسه وغيرهم ممن ينسبون انفسهم الى الرسول الكريم ﷺ ابتغاء المطامع.

٧- اما حادثة المسبحة وحادثة اتهام السلطان بأنه غير صادق الوعد واللتان اعتبرهما محمد عمارة شجاعة واقدام وثورية الخ... من الافغاني فقال هذا الموقف (فريد في مستواه من القوة ودرجة من الشجاعة والبأس والاقدام ومن ثم فهو خليق بقدر جمال الدين وعزمه الثوري العملاق...)[١] فهما بالاضافة الى كونهما يدلان على فضاضة الافغاني وتعجرفه من غير حق! واستهانته بالامة الاسلامية، لأن احترام السلطان او الحاكم لا يكون لشخصه وانما لما يمثله. والسلطان هو رأس المسلمين[٢] وقائدهم واهانته بالتالي هي اهانة للمسلمين ولهذا كانت الدول الاوربية تحرص كل الحرص، رغم عدائها له ولغيره من حكام المسلمين، على مجاملتهم واسباغ كلمات التعظيم عليهم لا من

---

(١) الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص ٨٠.

(٢) وليس رأس الدين ليقطعه الافغاني بسيف الدين كما هو شعاره!

اجلهم وانما لتجامل بذلك المسلمين وتكسب ودهم، فهما ايضـــا -الحادثتـــان- يضعانا امام خيارين لا ثالث لهما: فاما ان الامر كله ادعاء، فارغ من الافغاني اومن دعاته لاسباغ العظمة والهيبة عليه، كما يفهمونها، ولم يحصل في الحقيقة شيء من ذلك، واما ان السلطان عبدالحميد كان بمنتهى التســـامح والتواضـــع والديمقراطية -السلوكية- والحلم والتفتح ونبل السريرة ممـــا يجعـــل اتهامـــه بالاستبداد هو الاستبداد والظلم بعينه- اما سلوك الافغاني، كمـــا افهمـــه فـــهو فضاضة وقلة ذوق ويدل على شخصية همجية لم تصقلها الحضارة التي يدعـــو لاتباعها. وان كان دعاة النهضة والثقافة والعلم ومعظمهم من المربين واســـاتذة الجامعات، يسبغون على مثل هذا السلوك كل هذه الاوصاف الايجابيـــة، فـــلا عجب ان تنتشر الفضاضة وقلة الذوق وعدم الاحترام الـــخ... بيـــن الاجيـــال الشابة المعاصرة!!!

وامر الافغاني مع الخديوي اسماعيل معروف وسبق ذكره. فالخديوي اسماعيل كما يذكر بعض المؤرخين كان من اقوى من حكم مصر بعد محمد علي، ولذلك كان الاوربيون يخافون ان هو خرج من مصيدة الديون التي اوقعوه فيها ان يعمل علـــى تقليص نفوذهم في مصر مما يضر بمصالحهم فيها وبخطط غزوهم لبـــاقي اجـــزاء الدولة العثمانية. وقد وقف الافغاني منه موقف المعارضة ومن ثم توج معارضته لـه بالاتفاق مع تريكو على خلعه! وتولية ابنه توفيق الذي هو بـــدوره لـــم يسـلم مـــن مناهضة الافغاني له بشكل مباشر او غير مباشر، مـــن خـــلال تشـــكيل الاحـــزاب المعارضة والمطالبة بالدستور والمجلس النيابي والكلام فـــي الاســـتبداد والحريـــة الخ...اوخاصة من خلال دوره في ثورة عرابي. اذ كان له دور كبير كمـــا يـــرى عبدالرحمن الرافعي في التمهيد للثورة (اذ كـــان بشـــخصيته ودروســـه واحاديثـــه ومناهجه في الحياة مدرسة اخلاقية (كذا) رفعت مستوى النفوس وكان على الزمـــن من العوامل الفعالة للتحول الذي بدا على الامـــة وانتقالـــها مـــن حالـــة الخضـــوع

والاستكانة الى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم القديم ومساوئه والسخط على تدخل الدول في شئون البلاد...)[1] هذا بالاضافة الى دور الافغاني في الثورة من خلال عبدة الذي قال انه لم يشارك في الثورة العرابية الا من اجل الانتقام لاستاذه الافغاني من جهة ومن اجل انتهاز الفرصة وتحقيق هيمنة الحزب الحر (الماسوني) الذي شكله الافغاني وايصاله الى سدة الحكم في مصر.[2] من جهة اخرى. وحتى بعد طرده من مصر لم يتوقف الافغاني عن مهاجمة توفيق والعمل ضده.

ومن الجدير بالذكر ان حتى عرابي نفسه لم يسلم من نقد الافغاني له اذ يشبهه ب (كليفور لويد) الذي خنق المصريين (وصار فيهم خلفا لعرابي ونعم الخلف...)[3] والوحيد من الحكام المسلمين الذي نجا من مهاجمة الافغاني هو حاكم افغانستان، الوطن الاصلي للافغاني الامير شير علي -الموالي للانكليز- كما ذكر محمد عمارة[4] والذي هزم امير الافغاني المناهض للاستعمار!! محمد خان وهو امر يثير العجب والتساؤل!! لماذا لم نجد في مقالات الافغاني الثورية معارضة كبيرة لهذا الامير الخائن بحسب ما يذكر كتاب سيرة الافغاني!!!

وهكذا نجد ان الافغاني لم يرضى عن أي من حكام المسلمين ايا كان ذكاءه ودهاءه! هاجم بالحق وبالباطل وحتى عندما يستخدم الحق فهو يريد به باطلا كما يبدو واضحا في مسألة المجلس النيابي الذي لم يترك حاكما الا وهاجمه وعمل ضده متحججا بأنه رفض اقتراحه بتشكيل مجلس نيابي وكأن اقتراحاته اوامر واجبة التنفيذ وليست اقتراحات -تتسق مع مقترحات دول الاستعمار ومطاليبها- يقبلها المقابل او يرفضها. ولو نظرنا الى دعوته للمجلس النيابي هذه لوجدناها ككل

---

(١) الرافعي: مصر، الثورة العرابية ص ٢٦-٢٧.

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة، عبدة، ص ٤٩.

(٣) عمارة: الاعمال الكاملة، جـ ٢ ص ١١٦.

(٤) عمارة: الاعمال الكاملة، ج٢ ص ١١٦

اعماله، متناقضة ومشتتة ولا يعرف لها هدف. فهو في كل بلدحل فيه، دعا حاكمه لتشكيل مجلس نيابي واخذ عليه عهودا على ذلك كما يدعي واعتبر عدم تنفيذ الحاكم لاقتراحه خيانة للعهد ودلالة على الكذب وعدم الصدق كما حدث مع السلطان عبدالحميد والشاه ناصر الدين ولكننا نجده من جهة اخرى يقول: (ان القوة النيابية لأي امة كانت لا يمكن ان تحوز المعنى الحقيقي الا اذا كانت من نفس الامة. واي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك او امير او قوة اجنبية محركة لها فاعلموا ان حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على ارادة من احدثها.)[1] مما يجعل المرء لا بد وان يتساءل، لماذا اذا دعا الحكام واخذ عليهم العهودمن اجل تشكيل المجالس النيابية؟! ثم كيف يكون المجلس من نفس الامة. وبعيدا عن ارادة الحكام! والقوى الاجنبية خاصة ان كانت البلاد محتلة او تحت النفوذ الاجنبي بشكل يمكنها من عزل الحاكم نفسه كما حدث في مصر التي كانت واحدة من اهم ميادين عمل الافغاني في هذا المجال؟! فماذا كان يريد الافغاني؟ اهي الفتنة لا غير؟ فان امتنع الحاكم عن تشكيل مجلس نيابي فهو مستبد وفردي وطاغية وان امتثل فالمجلس موهوم ولا فائدة ترجى منه كما فعل في مصر اذ دعا الخديوي توفيق لتشكيل مجلس نيابي فقال له: (ليسمح لي سمو امير البلاد ان اقول بحرية واخلاص: ان الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل... وان قبلتم نصح هذا المخلص واسرعتم في اشراك الامة في حكم البلاد عن طريق الشورى، فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الامة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبارادتكم، يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم لسلطانكم.)[2] ثم يتوجه للشعب المصري فيقول: (سترون عما قريب اذا تشكل المجلس النيابي المصري، سيكون ولا شك بهيكله الظاهري مشابها للمجالس النيابية الاوربية، بمعنى

---

(١) ذات المصدر: ص٣٣٠.

(٢) ذات المصدر.

ان اقل ما سيوجد فيه من الاحزاب -حزب للشمال وحزب لليمين -ولسوف تـــرون اذا تشكل مجلسكم، ان حزب الشمال لا اثر له في ذلك المجلس لأن اقل مبادئــــه ان يكون معارضا للحكومة، وحزب اليمين ان يكون من اعوانها.

تستغربون من قولي هذا اليوم، لأن ما نبحث فيه هو امر تصوري لم يخــــرج لحيز العمل بعد، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل ورأيتم كل عضــو يفر من ان يكون من حزب الشمال -الناهض المعارض للحكومة- فراره من الاسـد الى حزب اليمين، اذ ذاك تقولون صدق جمال الدين... فمثل هذا المجلس لا قيمـــة له، وكما انه لا يعيش طويلا، كذلك لا يغني عن الامة فتيلا...)[1] ثـم يـأتي الـى النائب فيصفه ويقول ان :(نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهيئات مصركـم في زمانكم، هو ذلك الوجيه، الذي امتص مال الفلاح بكل مساعيه، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم اسقط منه همة؛[2] ذلك الرجل الذي لا يعرف لايـــراد الحجة تجاه الحاكم الظالم معنى ولو كانت من الحجج الساقطة، ذلك الرجـــل الـــذي يرى في ارادة القوة الجائرة كل خير وحكمة! ويرى في كل دفـــاع عـن وطنـــه، ومناقشة للحساب قلة ادب وسوء تدبير وعدم حنكة وتهور!! وبالتالي يرى ان كـــل صفات العزة النفسية، والمقومات الاهلية القومية مآلها الويل والثبور. وكل ما يدعـو الى الذل واحتقار القومية وسحق ما تنمو به حرية الامة، هو من مجـــالي حكمتـــه العصرية! هذا مع الاسف، الذي اراه سيتكـــون منـــــه مجلسكـــــم النيابـــي

---

(١) ذات المصدر ص ٣٣١.

(٢) هل الاساس في المجالس والنواب هو مناهضة الحكام؟ ولماذا هو اسقط منه؟ فكيــف مــا تكونوا يول عليكم، لا هو اسقط من الحاكم ولا الحاكم اسقط منه وكلاهما مثل الرعية التـي يمثلانها.

الموهـــــــوم -اذا صحت الاحلام- [1] والذي سيخالف قاعدة كلية لقواعد فلســـفة اقرت على ان الوجود خير من العدم، فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده!)[2].

ماذا يريد الافغاني اذا؟ ولماذا كان يطالب بانشاء المجـالس النيابيـة ويعـادي الحكام ويتهمهم بالاستبداد ويثير الشعوب ضدهم من اجله؟ ان كان هذا هو رأيه فيه. لماذا؟ أهي الفتنة واحداث الفجوة بين الحاكم والمحكوم لا غير؟؟ ولماذا يـهدم هـذه العلاقة الطبيعية الانسانية الضرورية بين الحاكم والمحكوم ويجعلهما فـي موقعيـن متعارضين يتنافسان كل من موقعه على الايقاع بالآخر؟ اذ يقـول: (فعـزة الملـك تنقصها نهضة الشعب المملوك، خصوصا اذا هو صـادم ارادة مالكـه او امـيره، والتاريخ لم ينقل لنا ان ملكا او اميرا او دخيلا بقوته على الشعب يرضى عن طيـب خاطر ان يبقى مالكا اسما، وامته هي المالكة فعلا، لارادة شؤونها وزمام امورهـا، على مطلق المعنى)[3]. لماذا يريد ان يؤكد ان لـهما (منـافع متضـادة، وهدفـان مختلفان)[4]؟ لماذا ولمصلحة من يهدم العلاقة بين الحاكم والمحكوم والتـي نظمـها سبحانه وتعالى وحدد لكل من الحاكم والرعية حقوقه وواجباته ليكمل احدهما الآخـر فيكونوا كالبنيان المرصوص ولا يتفرقوا كما امرهـم ربـهم بقولـه: (اطيعـوا الله والرسول ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم...)[5] لماذا احداث هذه الفتنة التي نهى الله عنها بقوله (اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصـة...)[6] والتـي اراد

---

(1) انظر بعدكل الذي ذكره من المساوء يرى انه حلم بعيد المنال فلمـاذا يحلـم بـه ويجعـل المصريين يحلمون به معه ان كان هو بهذا السوء؟!!

(2) ذات المصدر.

(3) ذات المصدر.

(4) ذات المصدر.

(5) الانفال : ٤٦.

(6) الانفال : ٢٥.

الرسول ﷺ لامته ان تترفع عنها فقال ان (الموت خير للمؤمن من الفتنة)[١] . ولمصلحة من هذه الفتنة التي عانت منها الامة ولا تزال تعاني حتى يومنا هذا؟ لمصلحة من تلك الفتنة التي اثارها الافغاني وتلامذته باسم الاستبداد ومقاومته في ذلك الوقت العصيب والذي كانت فيه الامة بكل مقوماتها مهددة ومستهدفة؟ ذلك الوقت الذي كان فيه المسلمون في امس الحاجة الى التلاحم، حكاما ومحكومين، للصمود في وجه الغزو الذي كان يستهدف الامة بكل فصائلها وحكامها ومحكوميها.؟ اليس غريبا موقف الافغاني هذا؟ المعادي للحكام وفي ذلك الوقت بالذات.؟ والذي اعتبره تلامذته مقاومة الاستبداد، الى الدرجة التي يقول فيها ان من ينقذ الامة هي: (جمعيات يتولى امرها اناس يأخذون على انفسهم الابية عهدا ان لا يقرعوا بابا لسلطان ولا يثني عزمهم الوعيد ولا يغرنهم الوعد بالمنصب ولا تلهيهم التجارة ولا الكسب بل قوم يرون في المتاعب والمكاره بنجاة الوطن من الاستعباد غاية المغنم وفي عكسه المغرم...)[٢] من هي هذه الجمعيات.؟ اهي الماسونية والبابية وحزب مليكم خان والتي كان للافغاني ضلع بها جميعا، واكثر منتسبيها من الاجانب؟ ام هي الحزب الوطني الحر، الماسوني التابع لفرنسا ومصر الفتاة وتركيا الفتاة الخ...؟ والذين يعارضون السلطان أي سلطان ما دام من اهل البلاد، لغرض في نفسهم تكشف بعد ذلك ليتمثل بالاستعمار والتجزئة والعلمانية والالحاد الذي عانت منهم الامة بعد سيطرة دعاة هذه الجمعيات الذين صاروا عندما سنحت لهم الفرصة لتولي مسؤولية حكم الامة العن من اكثر السلاطين السابقين وحشية واستبدادا؟ ثم كيف يعمل المخلصون ايا كانوا بعيدا عن السلطان! الذي يخطط فينفذون ويأمر فيطيعون ويخطيء فينصحون ويرشدون ويشيرون.؟ فما هذه الفجوة التي عمل على احداثها الافغاني بين الحاكم والمحكومين واعتبرها تلامذته مقاومة

---

(١) ابن حنبل جـ ٥ ص ٤٢٧.

(٢) عزت قرني: العدالة والحرية... ص ٧٣.

الاستبداد. وكيف يكون كل هذا اصلاحا دينيا وهو ابعد ما يكون عن تعاليم الاسلام ومبادئه.؟ وعن مصلحة المسلمين وفي ذلك الوقت بالذات.لماذا هذه الفجوة والتي بدت في اعماله جميعا حتى وكأنها هدفه الاسمى في كل ما قال او فعل.؟ وقد يكون احداثها هو وراء كل التناقضات التي وقع فيها والتي افقدته قاعدة فكرية متسقة يمكن ملاحظتها في تفكيره وسلوكه. فهو يدعو للقومية ان اراد الحكام الجامعة الاسلامية والعكس بالعكس. ويدعو للديمقراطية والمجالس النيابية ان رفضوها ويرفضها ان قبلوها وهكذا كل دعواته وسائل لاحداث هذه الفجوة التي سماها تلامذته مقاومة الاستبداد. وحتى الدين لم يستخدمه الا وسيلة لهذا الغرض، اللا اسلامي، كما فعل عندما استخدم (سلاح الدين وقوة الايمان) كما يقول محمد عمارة، في الدعوة للاقلاع عن تدخين التمباك في ايران لان (امتيازه بيد الاستغلالين الانجليز اصدقاء ناصر الدين) فالمقصود بالنسبة للافغاني ليس هو الحق ولا الدين ولا حتى مقاومة الانكليز وانما الشاه ناصر الدين. لانه من السذاجة ان نعتقد ان الافغاني الذي كان يتخذ من لندن مقرا لهجومه على الشاه ويوفر له الانكليز جريدة تنشر بالعربية والانكليزية ليحارب بواسطتها مصالح الانكليز في ايران! بل لا بد ان يكون العكس هو الصحيح لأن مقاومة الشاه واضعاف موقفه في بلاده يضطره الى تقديم تنازلات اكثر فأكثر للانكليز لغياب قاعدة مؤيدة له يستند عليها وتعزز موقفه، ان اقتضى الامر، امام المطامع الانكليزية. وحتى عندما صدّر العلماء فتوى بعدم استخدام التمباك، كتب من لندن في جريدة ضياء الخافقين هذه، يحرض العلماء ليس على المزيد من الرفض للانكليز او حتى للشاه وانما دعاهم لخلعه والتخلص منه فقال: (انكم ايها العلماء والذين قاموا معكم لتأييد الدين، بعد اليوم في خطر عظيم. قد كسرتم قرن فرعون بعصا الحق، وجدعتم انف الحارية بسيف الشرع، فهو يتربص

فرصا تساعده على الانتقام)[1] . فالدين والحق والشرع هي وسائل فقـــط لمحاربـــة السلطان أي سلطان.

فلماذا؟ مرة اخرى ولمصلحة من؟

حتى تعليم الصبيان لا يريد ان يكون للدولة فيه نصيب فيقول: (اغلقـــوا فـــي وجوههم –الصبيان– مدارس الحكومة، وافتحوا لهم ابواب المكاتب الاهلية لانه لـــو سلم برنامج دروس مدارسة الحكومة من سموم تدس في الدسم للوطن لا تسلم مـــن ضرر ما يشحنه فيها من علوم لا يحتاجها المتعلم في علمه...)[2] وهنا ايضا لا بـــد من التساؤل لمصلحة من ترك تعليم الصبيان للمدارس الخاصة وفي ذلـــك الوقـــت بالذات والذي كانت فيه هذه المدارس معظمها ان لم يكن جميعها) اجنبية وتســـيطر على التعليم، وفي الوقت الذي بدأت فيه الدولة تعمل على تقليص نفوذ هذه المـدارس الاجنبية بالتوسع بفتح المدارس الحكومية؟!! ثم كيف تكون الفتنة اكبر مـــن هـــذه.؟ وكيف تكون الفجوة اكثر اتساعا من هذه التي يدعو اليها الافغاني.؟ فهل الحكومـــة والوطن على طرفي نقيض؟ فمن الحكومة وما هو الوطن وما هي الامة وكيف تدس الحكومة السم بالدسم للوطن ولا تدس المدارس الاجنبية هذا السم؟! ما هذا التفـــرق والتنازع الذي يدعو اليه الافغاني وسمي مقاومة الاستبداد حينا واصلاح ديني حينـــا آخر وهو ليس الا معصية لله وما امر عباده به.؟ ولم اجـــد اغـــرب مـــن موقـــف الافغاني هذا الا موقف الكتاب والباحثين الذين اعتبروا موقفه هذا من الحكام، وفـــي ذلك الوقت بالذات قمة الثورية والقومية والاخلاص للوطن ومقاومة استبداد الحكـــام، ووضعوه من اجل ذلك على رأس الاصلاح الديني؛ فصفقوا لكل تناقضاته وبرروها واهملوا نتائج دعوته هذه. وحتى يومنا هذا وعندما ينتقدون الوضع الراهـــن اشـــد الانتقاد، يضعون مسؤوليته على الحكام، السابقين منهم واللاحقين ولا يرجعون فـــي

---

(١) عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـــ٢ ص ٢٨٠.

(٢) ذات المصدر ص ٣٢٥.

الامور الى اصولها، الى الفكر الذي عمل الافغاني وغيره من دعاة التغريب على نشره، وعلى رأس ذلك هذه الفجوة التي اوجدوها من دون حق بين الحاكم والمحكوم. ولا اريد ان اناقش هذه المسألة التي يطول شرحها ونقاشها وانما فيما يخص الافغاني في هذه المسألة ودوافعه والجهات التي تخدمها دعوته هذه سأتركه يرد على نفسه بنفسه حيث قال:

(... ان الانكليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة ولا صرف اموال وافرة، وانما ملكوا سلاح الحيلة، يدخلون كل بلد اسوداً ضارية في جلود ضأن ثاغية[1] يعرضون انفسهم في صورة خدمة صادقين، وامنة ناصحين، طالبين للراحة مقومين للنظام... ان الانكليز اذا ارادوا التدخل في ملك للشرقيين، ورأوا ان القائم به رجل حاذق بصير، وان وجوده في الملك يبطيء سيرهم الى ما يقصدون، بادروا الى التشويش عليه، فأما ان يفسدوا عليه قلوب رعيته، ويثيروا عليه احقادهم، او يغروا احد اعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا في ذلك وسيلة للدخول في الامر، او يتفقوا مع الوزراء، على خلع صاحب السلطة، ثم ينصبون بدله، اما ضعيفا احمق واما صبيا لم يبلغ الرشد، واما من ابناء المالك او اقاربه ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه، ويبلغوا غايتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة في مدة قصيرة، بلا ممانع ولا عائق...)[2] .

وما على القارئ الكريم الا ان يربط بين الكلام والحملة التي قادها من اطلق عليهم مفكرو النهضة ومنهم الافغاني على الحكم في ذلك الوقت تحت ستار مقاومة الاستبداد. ومقاومة السلطان عبدالحميد الذي عرف بذكائه ودهائه في مقاومة الغزو الاستعماري والذي اعترف به الافغاني نفسه، وعزله بعد ذلك على يد الاتحاد

---

(١) ثاغية: صوت الغنم

لينظر القارئ من شجع محمد علي على الاستقلال بمصر ولماذا؟ وماذا حقق؟

(٢) الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ٢ ص ١٣٠.

والترقي الذي كان تحت سيطرة الماسونية واليهود والدول الاجنبية، رغم ان عبدالحميد كان كما يؤكد كثير من المؤرخين اقوى سلاطين الدول العثمانية ومنذ فترة طويلة، ولينظر القارئ كذلك مقاومة الافغاني والذي اعترف به الافغاني وغيره للخديوي اسماعيل، والذي هو كما مر ذكره، اقوى من حكم مصر بعد محمد علي، وعزله وتنافس الاحزاب الماسونية على تنصيب عبدالحليم باشا، رئيس المحفل الماسوني او الامير توفيق المنتسب للماسونية بدلا منه، كما مر ذكره ايضا، هذا غير مقاومة عبدة وغيره من تلامذة الافغاني للخديوي عباس والتحريض على ناصر الدين من قبل الافغاني وهكذا حتى يومنا هذا! وعلى القارئ ايضا ان يربط ذلك كله بما حدث بعد ذلك من تجزئة للأمة واستعمار واستعباد لها، ومن خلال كل ذلك عليه ان يتخذ موقفه ويحدد من هم العلماء والعباقرة ومن هم المخلصون الوطنيون ومن هم الخونة المارقون دعاة الاستعمار وادواته ومن هم المستبدون، وعليه ان يتبع العقل والتعقل ويكون مبتدعا لا متبعا ولا مقلدا.

وعلى اية حال فان اعمال الافغاني ليس هنا مجال مناقشتها وما جاء منها هنا لا يهدف الا توضيح عقم ما سمي بالاصلاح الديني. ان مناقشة اعمال الافغاني لا تكفيها هذه الصفحات القليلة لا لغزارتها فهي ليست كثيرة، ولا لعمقها وعبقريتها لانها ليست كذلك ولا لما حققته لانها لم تحقق الا الفوضى والضياع، اعقبها استعمار واستعباد وضياع اكبر واخطر. ومن حاول ان يثبت غير ذلك وقع في تحليلات واهية وتبريرات سقيمة وتناقضات ما انزل بها من سلطان وتحول عمله الى نشرة دعائية اعلانية، على ذات النسق الذي تتبعه الاعلانات التجارية لترو ج لبضاعة ما، تكيل له صفات العبقرية والوطنية والاسلامية والقومية والثورية الخ... من غير حق يسندها ولا واقع يدعمها. فان قلنا مع القائلين بأنه اعظم داعية للجامعة الاسلامية، فاين هي هذه الجامعة التي حققها ليستحق ان يكون اعظم داعية لها. خاصة وانه فضل عليها جامعة اللسان، وان نحن صفقنا مع المصفقين الذين اعتبروه

(عملاق بلغ الذروة) في مجال القومية ووصل الى (قمة المفكيرين القوميين)[1] فأين هي الجامعة القومية العربية لتشهد على عبقريته هذه، مع انه نادى بالوطنية القطرية وبالجامعة الاسلامية بالمقابل. وان قلنا انه الثائر والمحرر من الاستعباد وبطل الاستقلال[2] فالعالم العربي والاسلامي يئن من استبداد واستعباد اكبر من ذلك الذي كان على زمنه هذا غير انه دخل مصر وهي مستقلة وعمل عمله فيها ولم يخرج منها الا وهي مستعمرة ومحتلة -اذ هي كما يؤكد البعض انها استعمرت واحتلت قبل الاحتلال الرسمي عام ١٨٨٢ بثلاث سنوات- وذلك من خلال الاحزاب الماسونية المرتبطة بالاستعمار والتي انهكتها بتناقضاتها ومنافساتها تلك المنافسات التي كان الافغاني على رأسها كما مر ذكره. وقبلها كان قد دخل افغانستان بعد ان تعلم في الهند، وهي مستقلة وشارك في الصراع على السلطة فيها ولم يخرج منها الا بعد ان سيطر عليها الانكليز ايضا من خلال الحاكم الموالي لهم ورغم اندحار رفاق الافغاني وهروبهم من افغانستان الا ان الافغاني خرج منها مختارا ليذهب الى مصر!

ان هذا التناقض بين واقع الحال وما يصف الكتاب والدعاة به الافغاني، وغيره من رواد النهضة والذين تنهال عليهم المدائح الاعلانية بغير حق -يضعنا امام خيارين مرة اخرى، اما انه (كذلك هؤلاء) كان فعلا عالما فذاً وعملاقا مبدعا وقد حقق اهدافه التي كان يسعى اليها، لأن ما يحدد عبقرية العبقري هو مقدار ما يحقق في الحياة وما يتركه من بعده لمن يأتي بعده من ثمرات كفاحه هذا. وبالتالي فان اهدافه التي كان يسعى اليها هي ما حصل، وما نشاهده حولنا من ضياع وفوضى فكرية واستعمار بكل اشكاله وتجزئة وتبعثر واتكال واتباع للاخرين مهين الخ... واما انه كان قد دعا لغير هذا وعمل من اجل غير ما حصل، وهذا يعني انه لا يفتقر

---

(١) انظر الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص ٩٥.

(٢) انظر طهارى محمد: مفهوم الاصلاح الديني بين جمال الدين الافغاني ومحمد عبدة.

الى العبقرية التي يصفونه بها فقط وانما يصبح الى الغفلة والهبل اقرب لانه قد قيل من جد وجد وان الامور بخواتيمها وليس بالنيات، فالنيات لا يعلمها الا الله وهو فقط يستطيع ان يحاسب على اساسها اما البشر فليس لهم الا نتائج الاعمال يحكمون بواسطتها على اخلاص المخلص وعبقرية العبقري. وقد قيل على لسان احد الحكماء (اعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال) ولكن يبدو ان كتابنا يرون الحق بالرجال فما تقوله او تفعله الاصنام التي يشيدونها هو الحق ايا كانت هذه الاقوال والافعال فيدافعون عن تناقضاتها ويبحثون عن مبررات لعجزها وسقمها ويعملون على شل عقل تلامذتهم وقرائهم بما يوردونه من كلمات التعظيم لهذه الاصنام لكسب التأييد لها مما يضع القارئ مرة اخرى امام السؤال لماذا. ولمصلحة من؟

ولكن مهما كتب هؤلاء وبرروا ستبقى شخصية الافغاني تفتقر الى الوضوح من جميع جوانبها سواء ما يخص نسبه وجنسه اوما يخص فكره ودوافعه واغراضه. وقد اختلفت فيه الاراء واثيرت حوله الشكوك والاسئلة الكثيرة وللكشف عن بعض جوانب هذه الشخصية لا بد من الاجابة على اسئلة كثيرة على أي باحث ان يجيب عنها اولا ومنها على سبيل المثال لا الحصر.؟

١- من هو الافغاني؟ اهو افغاني سني ام ايراني شيعي؟ فهذا وان كان ليس مهما عند المسلمين الذين يؤمنون بان التقوى هي معيار الافضلية فيما بينهم، وقد كان غير قليل من ائمة السنة من اصل فارسي مثل ابو حنيفة كما كان كل الائمة الشيعة من العرب، آل البيت، ولكن المهم في هذا الامر هو ان من يخفي اصله ونسبه او يكذب فيه لا بدانه يفعل ذلك لاخفاء اغراضه الحقيقية عن الناس والتي ان ظهرت لهم تسوءه. فهل يمكن ان لا يكون هذا ولا ذاك؟ او ان اغراضه لا تخدم المسلمين اصلا؟

٢- هل كان مسلما مؤمنا بدينه غيورا عليه كما يبدو في بعض اقواله ام كان ملحدا او مشركا وعدوا للدين الاسلامي؟ بدليل ماسونيته وعلاقاته بالبابية والفابية

الخ.. وكلها حركات لا اسلامية وملحدة او مشركة بالله. ام لم يكن مسلما اصلا خاصة وانه متهم بانه لم يكن مختونا[1] وانه لم يتزوج!!

٣- ما سر علاقته بكل من اديب اسحق وسليم نقاش ويعقوب صنوع وميرزا باقر -المسلم المتنصر- والقس لويس صابونجي وبلنت وغيرهم الكثير من العلمانيين او الملحدين؟ يرى الماوردي ان اساس الالفة (خمسة الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر)[2] وقد قيل ايضا (اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأي والادب...)[3] فماذا جمعه بهؤلاء ومنهم من لا دين له ولا حسب؟ فهل كان يجمعه بهم الرأي والادب.؟ فهل كان اذا على دينهم ويرى رأيهم وبالتالي لا علاقة له بالاسلام؟ او المسلمين، غير علاقة نشر مذهب هؤلاء بين المسلمين! لهدم عقيدتهم.

٤- كيف تسنى له ان يلاقي كل هذه الشهرة، وهذا التكريم اينما حل وارتحل؟ فهو بعد ان قضى معظم سني حياته الاولى في النجف والهند للدراسة ما ان وصل الى افغانستان حتى تولى فيها مسؤوليات كبار كما يقول كتاب سيرته، ومع انه لم يتجاوز العشرين من عمره لعب دورا في النزاع بين امرائها المتنافسين على السلطة، ولما انهزم اميره محمد خان في (الحرب التي شارك فيها وفي الاعداد لها ولم يترك البلاد مع ذلك الامير المنهزم وانما بقي مكرما في افغانستان حتى تركها بعد ذلك مختارا ليذهب الى الهند التي ما ان وصل اليها حتى تلقته الحكومة الانكليزية (بالحفاوة والاجلال) رغم انه كان يحارب مع الفريق المناهض لها!! ولكن خوفا من تحريضه للعلماء عليها حملته، بعدشهر، الى مصر على ظهر احدى بواخرها ومنها الى الاستانة والتي ما ان نزل فيها حتى

---

[1] الاعمال الكاملة، جـ٢ ص ٢٧٦.

[2] ادب الدنيا والدين ص ١٣٢-١٩٢.

[3] محمدعمارة، علي مباركالاعمال الكاملة ص ٣٢٤.

عرف (السلطان والصدر الأعظم والوزراء فضله وعلمه فقربوه وعظموا قدره حتى انه عين وهو شاب لم يتجاوز الثلاثين والمشكوك في اصله ونسبه عضوا في مجلس المعارف، فاختلف معهم وذهب الى مصر والتي ما ان حل فيها عام ١٨٧١ حتى رحب به رياض باشا رئيس الوزراء والتف حوله الوزراء والعلماء وطلاب العلم لينهلو جميعا من علمه، واجرت الحكومة عليه راتبا شهريا. وكذلك الحال في ايران حيث استقبله الشاه وكرمه وعينه وزيرا للحربية –رغم انه سني وافغاني والعداء بين ايران وافغانستان انذاك كان على اشده– اما في روسيا وفرنسا وانكلترة فهو موضع تقدير واحترام جميع العظماء من قياصرة وملوك ووزراء وعلماء. فكيف تسنى له كل ذلك؟ ولماذا.؟ ان كان لاصله ونسبه ان صح، فذلك لا يعني الدول الاوربية في شيء وفي البلاد الاسلامية نفسها فقد اثيرت حول نسبه الشكوك اينما حل. وان كان لعلمه فما هو هذا العلم وماذا ابدع ليستحق كل هذا التكريم والتقدير والتبجيل؟! واذا كانت الدول الاسلامية في حاجة الى علمه الديني –او غيره– الغزير هذا لعقمها وقلة العلماء فيها! فماذا تفعل الدول الاجنبية بعلمه هذا الذي لا تؤمن به وعلماؤها كثيرون؟ ثم الم يؤكد الافغاني ومن جاء بعده مثل عبدة والكواكبي وغيرهم ان ذلك العصر كان عصر تخلف وانحطاط، فيه الحكام من السلاطين والوزراء وعلماء الدين جهال واغبياء ولا يكرمون او يقربون اليهم من العلماء الا من كان جاهلا وغبيا ومنافقا؟ فلماذا اذا قربوه وهو العالم الفذ المبدع؟ الا يضعنا هذا مرة اخرى امام خيارين؟ فإما ان الحكام كانوا كما يقول مفكرو النهضة، جهال واغبياء وبالتالي قربوه لانه كذلك، واما انهم لم يكونوا جهالا ولا اغبياء بل عارفين مفكرين ومخلصين متنورين، ولا يقربون الا العلماء المتنورين والمبدعين فقربوه لانه كذلك وبالتالي يصبح مفكروا النهضة هؤلاء وهو منهم جائرين مستبدين يضللون العامة ويتهمون الحكام بالباطل وبما ليس

فيهم لتحقيق اغراض خاصة بهم بعيدا عن مصالح الامة. الا ان كـــان هنـــاك خيار ثالث يفرض نفسه. فما هو؟ اذ كيف يصل انسان غريب ايا كان علمـــه وفضله الى بلد غريب يبعد عن وطنه الاصلي الآف الاميال ووسائل الاتصـــال والتواصل على ما كانت عليه من البداءة والبطء؟ فلا يجد الابواب فقـــط هـــي التي مفتوحة امامه، وانما الاذرع والقلوب وخزائن المال ايضـــا. فيحتضنـــوه ويعظموه ويدافعون عنه ويسخرون له كل وسائل الاتصال بالناس من جمعيـــات ومجالس وجرائد ومجلات وخطب في المساجد او الاماكن العامة لنشر فكـــره؟ فهل كان هناك من يمهد لوصوله ويحتضنه ويوفر له كل هذه التسهيلات.؟ فمن يكون هذا. ولماذا. ولمصلحة من؟

٥- من حمى الافغاني من استبداد الحكام؟ فمن الملاحظ انـــه فـــي عصـــر متـــهم بالاستبداد الذي يكمم الافواه والظلم وسلب الارواح وليس الاموال والحريـــات فقط، كان الافغاني اينما حل ينتقد الحكام بشدة ويهاجمهم بوحشية تصل الى حد الاعتصام والتحدي كما حدث له مع شاه ايران عندمـــا اعتصـــم فـــي مقـــام عبدالعظيم ورفض الخروج حتى يثبت للشعب ان الشاه لم يفي بوعده بتشـــكيل مجلس نيابي! ووصل في مصر الى حد التآمر على قتل الخديـــوي اســـماعيل والاتفاق مع الاجانب على عزله، وفي الاســـتانة تحـــدى العلمـــاء والشـــيوخ والمسؤولين. ولكن مع كل هذا فان كل ما يتعرض له عندما يستشري اســـتبداده ان ينصح بمغادرة البلاد وان رفض وعصى يؤخذ الى اقـــرب نقطـــة حـــدود ليوضع خارج البلاد، كما حدث له في مصر وايران. فلماذا يـــا تـــرى تعلـــق المشانق لغيره من الاحرار والثوار في هذه العواصـــم ولا يصيـــب الافغـــاني المسبب الاول للتيار الثوري وزعيم الاحرار والثوار كما يؤكد دعاته الا النفي الى بلاد اخرى ليتلقى فيها مزيدا من الاحترام والتقدير والحفاوة وهذا بدوره الا يضعنا ايضا امام خيارين؟. اما انه لم يكن هناك ظلم ولا اســـتبداد ولا ســـلب

للحريات واما ان هناك من يضمن له طريق السلامة؟ وان كان الاخير هو الصحيح، فلا بد ان يظهر التساؤل من جديد، من هو هذا الضامن لسلامة الافغاني في كل مرة وفي كل مكان ومهما ظلم واعتدى؟!! ولماذا؟

٦- كيف نشأت علاقته بالماسونية والبابية والفابية وغيرها.؟ وما مدى هذه العلاقة.؟ وكيف سمح رجل دين، ومصلح ديني وسليل لبيت الرسول ﷺ -ان صح ما يدعيه من نسب- لنفسه ان ينتمي الى مثل هذه الجمعيات اللااسلامية بل المشركة او الملحدة؟ والقرآن الكريم واضح في تحديد ان المسلم هو من آمن بالله وحده ولم يشرك به احدا. وقد قال سبحانه وتعالى (لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فأياي فارهبون)[1]. ثم ما حكم الشرع في الانتماء لمثل هذه المؤسسات؟

٧- لماذا الف الافغاني هذه الجمعيات السرية مثل العروة الوثقى؟ فلماذا العمل السري وهو المسلم والداعي للاسلام الحق في بلاد المسلمين؟ خاصة في ذلك الوقت الذي كان فيه الحكام مثل المحكومين بل اكثر منهم التصاقا بالاسلام للاحتماء به من اجل صد الهجمة الاستعمارية عليهم جميعا؟ لماذا العمل السري وقد ذكر عن الرسول ﷺ انه قال: (خير الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)؟ الا ان كانت الكلمة ليست حقاً ولا يستطع ان يجاهر بها. لماذا العمل السري مرة اخرى ان كان الافغاني بكل هذه الجرأة والشجاعة في مواجهة الحكام كما يصفه دعاته؟ ام ان الجرأة والشجاعة والبسالة الخ... بالنسبة لهم هي في اهانة السلطان وابداء عدم الاحترام له كما مر ذكره وليس في مواجهته بكلمة الحق؟ لماذا العمل السري؟ فهل كان يدعو الى امور هي غير ما يعلن من اصلاح الدين والرجوع الى القرآن الكريم؟ هل كان يدعو الى ما يرفضه المسلمون؟ ما هو هذا الذي يدعو اليه ويحتاج فيه الى العمل السري؟

---

(١) النحل : ص ٥١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨- من اين جاء التمويل لكل هذه النشاطات؟

كيف توفر للافغاني كل هذا المال لتمويل نشاطاته المختلفة من رحلات له ولاتباعه وانشاء الاحزاب والجمعيات واصدار النشرات والمجلات بل والمطابع ايضا، داخل مصر وخارجها؟ من اين له المال اللازم لكل هذه النشاطات وهو لم تعرف له ثروة غير علمه؟ فهل كان العلم يدر كل هذه الثروات في عصر يصفونه بعصر الظلام والتخلف والسبات والفقر الخ...؟ فهل كان حكام البلاد يتحملون تبعات تمويل كل نشاطات شتمهم ومهاجمتهم؟ أية حرية وديمقراطية وسعادة كان فيها المسلمون انذاك!! فلماذا اذا مقارعة هؤلاء الحكام والعمل ضدهم وهم الى الملائكة اقرب منهم الى البشر؟ ولو افترضنا ان هؤلاء الحكام -الملائكة- كانوا يتحملون نفقات شتمهم وتجريحهم واثارة شعوبهم ضدهم، فمن كان يتحملها في بلاد الاجانب كروسيا وفرنسا وانكلترا، وكلها دول متربصة بالامة الاسلامية ولكن لا اضنها تمول مقاوما عنيدا للاستعمار؟ أي مقاوما لها!!

٩- وعلى رأس كل ذلك ما هي دوافع الافغاني الحقيقية؟ وماذا كان يحركه؟

١٠- وكيف صار على رأس الاصلاح الديني؟ مع تلميذه محمد عبدة؟ ومن هو محمد عبدة؟ وكيف شارك الافغاني ما سمي بالاصلاح الديني؟ وهذا السؤال الاخير هو ما ستجيب عليه الصفحات التالية.

محمد عبدة:

ان كنا لا نعرف ماذا كان يحرك الافغاني ويدفعه لقول ما قال وعمل ما عمل فان كثيراً من الباحثين اكدوا ان تلميذه وصفيه محمد عبدة كان يحركه الافغاني ويدفعه في الاتجاهات التي يريد. اذ يقول محمد البهي: لقد (دفع الشيخ عبدة عن طريق جمال الافغاني الى مواجهة الاستعمار)[1] واكد احمد امين ايضا ان عبدة

---

[1] محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث ص ٣٧٦.

(كان مدفوعا بقلب جمال الدين لا بقلبه هو)[1] . اذ كما يؤكد الباحثون بشكل او بآخر، ان عبدة بالرغم من انه كان قد قارب الثلاثين من عمره عندما التقى بالافغاني الا انه لم يدرك عجز حال الأمة المصرية انذاك ومقدار معاناتها او ماهية هذه المعانات! ولكن باتصاله (بجمال الدين الافغاني ابتدأ يدرك الحالة الداخلية في مصر من سوء معاملة الحكومة للفلاحين ومن الاستبداد السياسي القائم في الحكم وهي حالة انطبعت في نفسه منذ ان نشأ في قريته ولكنه ربما لم يستطع ان يدركها وباتصاله بجمال الدين ابتدأ يدرك تسرب النفوذ الاجنبي في المشاكل المصرية وتستره باسم الاصلاح القومي وباسم المصلحة الاوربية)[2] وعدم ادراكه للوضع الخاطيء من حوله، ايا كان، يعني انه لم يكن في ذهنه أي تصور لحال افضل يبتغيه ويستخدمه كمعيار يقارن به الحال من حوله ليحدد العجز ومواقعه او تخلفه نسبة لما يريد تحقيقه. وبكلمة اخرى فهو لم يحدد الغاية التي يبتغيها ولا وسيلة تحقيقها، وانما وضعت له الغاية والوسيلة من قبل الافغاني الذي دفعه الى الادراك في الاساس![3] ولذلك نجد البهي يقول، حتى عن الفترة التي تلت انفصاله عن الافغاني (لم يشذ الشيخ محمد عبدة في حركته الفكرية عن ان يسير في ذات الطريق الذي سلكه جمال الدين الافغاني ولا عن الغاية التي وضعها هدفا له كما اعتمد على نفس السند الذي اعتمد عليه استاذه من قبل)[4] . وقد اكد معظم الباحثين، على ان الغاية والوسيلة محددتان من قبل الافغاني وما كان على عبدة الا التحرك كالالة الصماء بقلب الافغاني وعقله ووفق مشيئته، فالافغاني يرسم ويخطط وعبدة ينفذ ويتبع حتى اختلطت اعمالهما وصعب التمييز بينهما مما جعل الدكتور علي شلش

---

(١) زعماء الاصلاح، ص ١١٥.

(٢) البهي ذات المصدر، ص ٩٣.

(٣) اية اهانة للأمة هذه واتهام بالعقم فحتى اعظم عباقرتها ليس له أي تصور او ادراك لحالها ومعاناتها ان كانت تعاني، الا بفعل فاعل من خارجها.

(٤) ذات المصدر ص ٩٢.

يدعو الى فض (الاشتباك بين نصيب الافغاني ونصيب محمد عبدة من تراثهما الكثير المشترك، او المنسوب لاحدهما دون الآخر...)[1]

وقد اكد محمد عبدة نفسه كونه الة تتحرك بأمر الاستاذ اذ قال في رسالة كتبها للافغاني: (... وما تحركت ولا تكلمت كلمة، ولا مضيت الى غاية ولا انثنيت عن غاية حتى تطابق في عملي احكام ارواحك ومعي ثلاثة فمضيت على حكمها سعيا في الخير واعلاء لكلمة الحق وتأييدا لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة، ولست في ذلك الا الة لتنفيذ الرأي المثلث وما لي من سوائي ارادة حتى ينقلب الى مربعا)[2] وقال ايضا: عن جريدة العروة الوثقى (ان الافكار في العروة الوثقى كلها للسيد ليس لي منها فكرة واحدة والعبارة كلها لي ليس للسيد منها كلمة واحدة)[3].

ولم يكن اتباع محمد عبدة للافغاني بسبب تطابق افكارهما كما قد يظن البعض وانما كان اتباع مهين يظهر فيه عبدة وكأنه مسلوب الارادة مما جعله يقف مواقف متناقضة في أن واحد. ومن ذلك مثلا انه في الوقت الذي كان فيه يحرر جريدة العروة الوثقى المكرسة لمهاجمة الانكليز كتب، وفي ذات الوقت، رسالة الى بلنت في ١٣ اغسطس ١٨٨٤ اوضح له بعض المواقف اثناء الثورة العرابية وبعدها، وذلك ردا على ما جاء في كتاب الميجور ماكدونالد عن حوادث تلك الفترة من تهم لبعض الشخصيات، واكد التهم في هذه الرسالة على البعض ونفاها عن غيرهم! وفي آخر الرسالة اكد على افضلية (الصمت عن تصرفات الماضي لان الحديث عنها سيفتح الباب على مصراعيه امام توجيه اللوم للحكومة الانجليزية التي تبغي اقرار العدل في مصر)[4] مما يثير التساؤل ان كانت الحكومة الانكليزية تبغي اقرار العدل، وهو اصل اصول الخير من حرية ومساواة الخ... فلماذا اذا كان كل ذلك

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة الافغاني، ص ٧.

(٢) ذات المصدر ص ٤٧-٤٨.

(٣) عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص ٥٨٠.

(٤) علي شلش: الاعمال المجهولة، عبدة، ص ٦٥-٦٦.

الهجوم عليها في الجريدة التي هو محررها؟ والجواب على هذا التساؤل لا يكون الا واحداً من اثنين، اما ان عبدة لم يكن الا الة صماء كالقلم الذي يكتب بـه الافغاني وبالتالي تنتفي عنه ليس صفة المفكر والعبقري وانما صفة الانسان، واما ان ما يكتبه في الجريدة ما هو الا تهريج موجه لغش العامة في مصر وتضليلهم لتحقيق اغراض من ذلك خفية! خاصة وان بلنت صديق عبدة الحميم، كان يعتبر (عبدة... اكثر المصريين حبا للانكليز)[1] . فأين هو الحق؟ وما هي نوع العلاقة التي كانت تربط الافغاني بعبدة لتجعله مسلوب الارادة امامه وما هي النفخة التي نفخها الافغاني في روح عبدة لتجعله هكذا؟ اذ ذكر جرجي زيدان في كتابه بناة النهضة ان عبدة ولد عام ١٨٤٢ وادخله ابوه الكتاب وبعده الجامع الاحمدي وبعد ثلاث سنوات نقله الى الجامع الازهر ولكنه لم يستفد منه شيئا وذلك لفساد طريقة التعليم!! ولما جاء الافغاني في عام ١٨٧١ الى مصر كان عبدة (لا يزال في الازهر وقد ادرك الثلاثين من عمره... فانخرط... في سلك تلامذته... كأن الرجل نفخ فيهم من روحه ففتحوا اعينهم واذا هم في ظلمة وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه فضلا عن العلم والفلسفة روحا حية ارتهم حالهم كما هي اذ تمزقت عن عقولهم حجب الاوهام...)[2] فما سر هذه النفخة التي جعلت عبدة مسلوب الارادة امام استاذه؟ اهي عبقرية الاستاذ التي تتلاشى امامها العقول النيرة ام عجز التلميذ الذي ادرك الثلاثين من عمره، وليس فقط لم ينهي دراسته في الازهر وانما لم يدرك سوء حال امته حتى جاء الغريب المجهول، فدفعه لادراك ذلك! ونظرة الى بعض ما جاء في رسالة كتبها عبدة للافغاني تظهر مدى تهافت التلميذ وسيطرة استاذه عليه فقد كتب محمد عبدة من منفاه في بيروت يقول:

مولاي الاعظم حفظه الله وايد مقاصده.

---

(١) ذات المصدر، ص ١٠١.

(٢) جرجي زيدان: بناة النهضة: ص ٨٤-٨٥.

... انت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك. صنعتنا بيديك، وافضت علي موادنا صورها الكمالية. وانشأتنا في احسن تقويم. فيك عرفنا انفسنا، وبك عرفناك، وبك عرفنا العالم اجمعين. فعلمك بنا كما لا يخفاك علم من طريق الموجب، وهو علمك بذاتك، وثقتك بقدرتك وارادتك فعنك صدرنا، واليك اليك المآب.

اوتيت من لدنك حكمة اقلب بها القلوب واعقل العقول واتصرف بها في خواطر النفوس ومنحت منك عزمة اتعتع بها الثوابت واذل بها شوامخ الصعاب... تناولت القلم لاقدم اليك من روحي ما انت به اعلم، فلم اجد من نفسي سوى الافكل[1] والقلب الاشل واليد المرتعشة والفرائص المرتعدة، والفكر الذاهل والعقل الغائب، كأنك يا مولاي منحتني نوع القدرات وللدلالة على قوة سلطانك حصرته في الافراد فاستثنيت منه ما يتعلق بالخطاب معك والتقدم الى مقامك الجليل هذا، مع انني منك في ثلاث ارواح لو حلت احداها في العالم باسره وكان جمادا لحال انسانا كاملا... وروح حكمتك التي احييت بها مواتنا وانرت بها عقولنا ولطفت بها نفوسنا، بل التي بطنت بها فينا فظهرت في اشخاصنا فكنا اعدادك وانت واحد وغيبك وانت شاهد. ورسمك الفوتغرافي الذي اقمته في قبلة صلاتي رقيبا على ما اقدم من اعمالي ومسيطرا علي في احوالي. وما تحركت حركة ولا تكلمت كلمة ولا مضيت الى غاية ولا انثنيت عن نهاية حتى تطابق في عملي احكام ارواحك ومعي ثلاثة...

ان ما يكون الى المولى من رقائم عبده ليس الا نوعا من التضرع والابتهال... فاني اتوسل اليك في العفو عما تجد من قلق العبارة وما ترى مما يخالف سني البلاغة بشفيع اقوى من عجز العقل عن احداق نظره اليك، واطراق الفكر خشية منك بين يديك، واي شفيع اقوى من رحمتك بالضعفاء وحنوك المغلوبي هباء...)[2]

---

(١) الرعدة.

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة، عبدة، ص ٤٧-٤٨.

ثم يشرح له كيف كرس وقته في الدعاية وكسب التأييد له والعمل على الانتقام له من الخديوي الذي لقبه بـ (الوغد اللئيم والقدم العظيم) واشتراكه بثورة عرابي من اجل الانتقام وتحقيق مقاصد سيده، الافغاني، وكيف كان يدير رجال الدولة كالآلات لغاية ما يحب الافغاني ولكن غلبت عناصر الفساد الخ... ويبدو ان الافغاني كان قد اتهم المصريين بعدم الوفاء اذ قال عبدة: (وما حكم به سيدي من سلب الوفاء عن المصريين ربما تضافرت عليه الادلة، وتشهد لنا وله عليه الحوادث. غير اننا لسنا اولئك فقد اخرجنا المولى عن طباعنا وانبتنا نباتا حسنا غريبا لا يتغذى بغذاء تلك الارض ولا ينمو بهوائها، وانما ينظر حيث يتيح له القدر من مثل عناصره ما يقوى به قوامه ويزهر زهره ويحلو ثمره. والا ذبل ومات واستوصلت جذوره، ورمي به خارج البلاد)[1] .

وهكذا نجد ان محمد عبدة الازهري المتنور بنور المدنية الحديثة الذي سلطه عليه الافغاني فاراد ان يسلطه على الامة لينورها كما يؤكد دعاته قد اسبغ على استاذه من الاوصاف ما لا يصح استخدامه الا لوصف رب العالمين الذي اتاه الحكمة والذي اليه سيئوب! وبدلا من ان يجعل الكعبة قبلة لصلاته والله وحده رقيبا على اعماله جعل قبلته صورة للافغاني ترقب اعماله!! مما يجعل المرء يتساءل: ما هو الاصلاح الديني الذي كان يسعى اليه عبدة واستاذه الافغاني، ان لم يكن قبل كل شيء تنقيه العقيدة من مثل هذا الشرك بالله؟ فقد قال سبحانه وتعالى: (واتخذوا من دون الله الهة ليكونوا لهم عزا)[2] . هذا غير ان عظيم عظماء الوطنية في مصر وزعيم زعمار القومية العربية) كما وصفه عيسى شحاته وغيره من الباحثين، يقر بأنه خرج عن مصريته ونبت (نباتا حسنا غريبا) لا يتغذى بغذاء تلك الارض ولا

---

(١) ذات المصدر.

(٢) مريم: ص ٨١.

ينمو بهوائها وانما بعناصر مثل عناصره! يتقوى بها ويزهر ويثمر..!! اما ما هي هذه العناصر؟ الله اعلم!!

هناك الكثير مما لا مجال لذكره مما يؤكد تبعية محمد عبدة للافغاني، تلك التبعية التي جعلته مشلول التفكير يتحرك بارادة الافغاني ويسير في أي اتجاه ترتائيه هذه الارادة، كما اعترف عبدة نفسه. وظل هكذا طيلة فترة اتصاله بالافغاني يهاجم السلطان تارة والخديوي تارة اخرى ويحرض الناس ويدعوهم للثورة على الحكم، الذي يواليه حال غياب الافغاني عن الساحة! وقد برر محمد عمارة تبعية محمد عبدة فكريا للافغاني بأنه عند تعرفه على الافغاني كان (حديث السن في دور التلقي والتلمذة على استاذه، وانه لم يتخرج من الازهر الا في سنة ١٨٧٧م أي قبل عامين من نفي الافغاني من البلاد) اما من الناحية السياسية فيقول محمد عمارة ان عبدة (تبع استاذه كذلك فيما اتخذ من مواقف في هذا الميدان، فدخل معه المحفل الماسوني ثم غادر معه المحفل البريطاني الى المحفل الشرقي الفرنسي... ثم ساهم مع استاذه في تكوين الحزب الوطني الحر... سعى الشيخ محمد عبدة في ذلك الحين سعي استاذه، ووقف مواقفه فلم نجد له موقفا متميزا في مسائل السياسة فكرا وعملا في هذه الفترة من التاريخ)[١].

فماذا حدث بعد ان انفصل عبدة عن الافغاني بطرد الاخير من مصر بتهمة ترأسه جماعة من الشبان الفاسدين الذين يفسدون الدين والمجتمع؟

عبدة يرفع علم التربية:

لقد اكد الباحثون ان عبدة حافظ على الغاية التي وضعها الافغاني! ولكنه اختار وسيلة اخرى غير سياسية للاصلاح وهي التربية التي (لا خوف منها على الدماء والارواح)[٢]. اذ هو بعد ان اختبر اراء الافغاني ومنهجه كما يذكر البهي (رسم

---

(١) عمارة الاعمال الكاملة، عبدة، جـ١ ص ٣٥-٣٦.

(٢) جرجي زيدان: بناة النهضة العربية، ص ٩٣.

لنفسه طريقا آخر يؤدي الى ذات الغاية مستعينا في الوصول الى هذه الغاية بـــذات المبادئ التي عني بها جمال الدين. رسم لنفسه طريق التربية، تربية الشعب وتربيـة القادة الموجهين وهم العلماء، تربية الشعب لفهم الحياة والسير فيها)[١] ولذلـك كمـا يؤكد البهي وضع عبدة نصب عينيه اصلاح الازهر بادخال العلوم الاوربية واللغات الاوربية الى مناهجه لأن العالم المسلم لا يمكنه ان يخدم الاسلام مـن كـل وجـه يقتضيه حال هذا العصر الا اذا كان متقنا للغة من لغة العلـم الاوربيـة[٢] . هـذا الاصلاح الذي لم يتمكن من تحقيقه في حياته رغم مساندة كرومر له ضـد مشـايخ المسلمين وعلماء الازهر. ومن اجل تربية العلماء والقادة ايضا كما يؤكد البـاحثون اقترح عبدة على الافغاني في باريس! ان ينشيء مدرسة لتخريج القـادة المجدديـن للعالم الاسلامي ولكن الافغاني فضل انشاء مجلة العروة الوثقى بدلا من ذلك. وهـذا كله جعل احمد امين يقول: ان عبدة هو اساسا مصلحا ومربيـا وليـس ثوريـا ولا سياسيا. فبعد انفصاله عن الافغاني (حمل العلم الثقافي لا السياسي. لقد تبيـن بعـد اشتغاله بالسياسة في العروة الوثقى ونحوها انما كان مدفوعا اليه بقلب جمال الديـن لا بقلبه هو ولذلك اقترح عليه بدل انشاء جريدة انشاء مدرسة للزعماء، كما تقـدم، فلما استقل بنفسه كان عمله في بيروت عملا تعليميا صرفا، ولما عاد الى مصر كان برنامجه التعليم والتثقيف باوسع ما يستطيع...)[٣] .

وفي الحقيقة انني لم افهم كيف تسنى لهؤلاء الباحثين وكثيرين غيرهم وضـع هذه الحدود الفاصلة الحادة بين السياسة والتربية واعتبارهمـا وسـيلتين مختلفتيـن منفصلتين لتحقيق الغايات؟ فهل يمكن للسياسة ان تكون من غير تربية تسبقها وتعـد

---

(١) البهي: الفكر الاسلامي الحديث، ص١٥٤.

(٢) ذات المصدر ص ١٤٦.

(٣) زعماء الاصلاح ص ١١٥ (مع العلم انه في بيروت عمل في السياسة مثل توحيد الاديـان وغير ذلك!)

لها؟ وهل يمكن ان تكون هناك تربية من غير سياسة توجهها وتحدد اهدافها؟ كيف عمل الافغاني من اجل تحقيق مقاصده ايا كانت؟ هل قاد الجيوش الجرارة وهاجم عاصمة هذه الدولة الاسلامية او تلك لاحداث التغييرات التي يريد؟! ان كل ما فعله الافغاني هو خطب القاها هنا وهناك ودروس اعطاها لتلامذته في بيته او في المقاهي العامة -فنفخ في روحهم!!- وكتابات اوجد لنشرها مجلات وجرائد هنا وهناك واينما حل وارتحل، وهذه كلها ادواة تربوية اكثر فاعلية في الواقع من المدارس الرسمية كمراكز تربوية. وماذا كان يريد بهذه الخطب والكتابات والدروس؟ اليس هو بناء مجموعة من الناس ترى رأيه وترفض الوضع الراهن وتعمل على تغييره؟ فان لم تكن تلك هي تربية، فما هي التربية؟ وان لم تكن هذه الاخيرة سياسة فما هي السياسة؟ الم تضع السياسة، ولنقل الفكر السياسي، اهدافا لهذه الادوات التربوية ووضعت لها منهجا معينا لتحقيق اهداف سياسية في النهاية؟ ولكن مع الاسف فان الافغاني لسبب او لآخر قاصداً او غير قاصد، لم يقدم فكره كمنظومه متكاملة متسقة تظهر للناس كنظرية سلوكية موجهة نحو تحقيق اهداف معينة ومحددة تحديدا دقيقا. فظهرت افكاره مشتتة وكأنه يبني بيد ويهدم بالاخرى، يدعو للجامعة الاسلامية ويهدمها بالدعوة للقومية العنصرية او الوطنية الاقليمية، يوالي هذا الاجنبي تارة وذاك تارة اخرى، ويهاجم في معظم الاحوال والظروف الحكام المسلمين بالحق وبالباطل، اشرك مع ايمانه بالله ايمانا بالماسونية تارة وبالبابية تارة اخرى وبالفابية تارة ثالثة وهكذا. دعا للعودة الى الاسلام الحق ودعا بالمقابل للحضارة الاوربية وتبنيها واقتباس منتجاتها الفكرية والمادية، وعلى رأس ذلك الماسونية التي عمل بها ولها. مما احدث تشتتا فكريا تغلب عليه العلمانية والالحاد، يدل عليه تلامذته من العلمانيين والملحدين وعلى رأسهم عبدة وقاسم امين وسعد زغلول ويعقوب صنوع وسليم نقاش الخ... وماذا فعل عبدة غير ذلك؟ حتى يمكن القول بأنه رسم لنفسه طريقا آخر او انه استخدم وسيلة مختلفة؟ ان موالاة

عبدة للسلطات الحاكمة بعد انفصاله عن الافغاني واقتراحه انشاء مدرسة لتخريج القادة بدل الجريدة ليست دليلا على انه انزل علم السياسة ورفع علم التربية خاصة وان انشاء مدرسة لتخريج القادة هو من صلب السياسة وقلبها. فهل يمكن للسياسة ان تكون من غير قادة؟ فالجرائد يمكن لها ان تروج للقادة وان تعمل على تكوين رأي عام، والرأي العام لا يكفي لاحداث التغيير الا ان توفرت له القيادة المناسبة، فاهمية الرأي العام تأتي من مساندته لعملية التغيير في مراحلها المختلفة وليس من قيادته لها. وبالتالي فان عملية اعداد القادة تكون على رأس السياسة. ولا يهمنا هنا كثيرا فيما اذا كان عبدة قد انزل علم السياسة بعد انفصاله عن الافغاني ام رفعه! انما ما يهمنا هنا ماذا حدث لعبدة بعد انفصاله عن الافغاني لعلنا نصل الى كيف صار على رأس الاصلاح الديني؟ وما هو هذا الاصلاح الديني.؟

عبدة والخديوي وثورة عرابي:

بعد خروج الافغاني من مصر عام ١٨٧٩م (عزل الامام من مناصب التدريس في مدرستي دار العلوم والالسن... وحددت اقامته بقريته -محلة نصر-)[١] وفي سنة ١٨٨٠م استصدر رياض باشا، ناظر النظار، عفوا من الخديوي توفيق عن الامام واستدعاه من قريته وعينه محررا ثالثا في الوقائع المصرية، لسان الحكومة الرسمي، ثم عينه رئيسا لتحريرها (واذن له ان يشرك بعض المحررين فاشرك في من اشرك، سعد زغلول الذي كان طالبا في الازهر)[٢] ثم ولاه مسئولية الرقابة على المطبوعات وفي سنة ١٨٨٠م انشيء المجلس الاعلى للمعارف العمومية وعين الامام عضوا فيه[٣]. وكان في كتاباته في الوقائع مواليا للحكومة ومدافعا عنها ومتقربا منها على اعتبار انها كما وصفها (الحكومة النابلة العادلة) التي انهت

---

(١) محمد عمارة: الاعمال الكاملة جـ١ ص ٢٣.

(٢) طهارى محمد، مفهوم الاصلاح ص ١١٠.

(٣) عمارة: الاعمال الكاملة، عبدة جـ١ ص ٢٣.

المشاكل المالية (بحسن مقاصد الحضرة الخديوية وهمة دولتلو رئيس النظار...) مما اوجب على ابناء الوطن (ان يقوموا بواجب الشكر والثناء للحضرة الخديوية الجليلة ولدولتلو رئيس النظار حسن مصطفى رياض باشا)[1]. وهو (من اجل حسن مقاصد الحضرة الخديوية وعنايتها باصلاح البلاد) ومن اجل الحكومة التي (لا تزال همة رجالها متوجهة الى جعل القانون عنوان العمل) بدأ ينكر على المعارضين معارضة الحكومة مع العلم ان المعارضين انذاك كانوا العرابيون بالدرجة الاولى، اذ كتب في الوقائع في ٤ ابريل سنة ١٨٨١ مقالا اوضح فيه خطأ من تعلموا الافكار من الكتب وظنوا (ان افكارهم العالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب والدفاتر، ووضعت اصولا وقواعد لسير الامة بتمامها، ينقلب حال الامة من اسفل درك الشقاء الى اعلى درج في السعادة فأخطأوا خطأ عظيما من حيث انهم لم يقارنوا بين ما حصلوه وبين طبيعة الامة التي يريدون ارشادها...)[2] واكد ان (بداية التقدم الاوربي في الحقيقة كان في نفوس الاهالي وافراد الرعايا... فكان جرثومة تقدمهم امرا منبثا في غالب الافراد، ومحرزا في اغلب العقول،.. وهو نشاط الاهالي في اجتلاب الثروة، وطلبهم لحرية العمل، لينالوها... ثم تدرجوا فيه، ينتقلون من حال الى حال...) ثم عارض المعارضين للحكومة في دعوتهم لانشاء مجلس نيابي ودعا لانشاء مجالس بلدية بدلا منها على غرار ما حدث في البلاد المتمدنة التي بدأت بالمجالس البلدية اولا ثم تدرجت الى المجالس النيابية.[3] وظل عبدة على موالاته للحكومة. وحتى اوائل احداث الثورة العرابية وقبل مظاهرة عابدين التاريخية التي فجرت الثورة بعشرة ايام وفي اجتماع عقد في بيت طلبة باشا، احد رجالات الثورة، مع قادة الثورة ومنهم عرابي اكدعبدة على رأيه هذا وعلى ضرورة البدء بالتربية والتعليم

---

(١) ذات المصدر ص ٢٧٦.

(٢) عمارة: الاعمال الكاملة، عبدة، جـ١ ص ٢٩٦-٢٢٩.

(٣) ذات المصدر ص ٣٠٦-٣٠٨.

اولا وقبل الدعوة للمجلس النيابي واعتبر مطالبة الثوار به طلب (غير مشروع لانه ليس تصويرا لاستعداد الامة) وقد (يجر هذا الشعب على البلاد احتلالا اجنبيا يسجل على مسببه اللعنة الى يوم القيامة) وقال فيما قال ان (الطبقات الوسطى والدنيا) في جميع الامم هي التي تطالب بالمساواة والمشاركة في الحكم وانه (لم يعهد في امة من امم الارض ان الخواص والاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة انفسهم بسائر الناس وازالة امتيازاتهم...) وتساءل فقال (فكيف حصل هذه المرة... هل تغيرت سنة الله في خلقه، وانقلب سير المجتمع الانساني. ام بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه احد من العالمين، حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة ان تشاركوا سائر امتكم في جاهكم ومجدكم وتساوون الصعاليك حبا بالعدالة والانسانية؟!)[1] .

وهكذا دعا عبدة في هذه الفترة التي كان يعمل فيها بالوقائع الى التربية والتعليم كبداية لكل اصلاح وعارض المعارضين للحكومة والمطالبين باكثر من ذلك. ويبدو ان الباحثين استدلوا من هذا على ان عبدة غير وسيلته في الاصلاح حالما انفصل عن الافغاني. ولكن توجه عبدة هذا الا يمكن ان يكون بحد ذاته سياسة موجهة لتحقيق غرض سياسي معين.؟ خاصة وان عبدة في رسالته يوضح للافغاني غايته من ذلك عندما يؤكدانه ما كان يتقرب من رجال الدولة ويواليهم، وخاصة رياض باشا، الا من اجل نشر دعوة الافغاني حتى لا ينطق كل امير الا بما تريد حكمة الافغاني ولا يعمل الا بما تشاء ارادته. وايضا من اجل مساعدة تلامذة الافغاني واصدقائه مثل (اديب اسحق وسليم النقاش وسعيد البستاني والهلباوي) وغيرهم ممن يصفهم (باللئام) ليصلح لهم القلوب ويفسح لهم الصدور ما يفتح (عليهم ابواب التقدم الى المنافع الغزيرة)[2] ! ومن اجل الانتقام من الخديوي الذي يصفه (بالوغد اللئيم

---

(١) ذات المصدر ص ٣١٦-٣١٧.

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة، عبدة، ص ٤٩.

والفدم العظيم)! كما يؤكد له انه كاد يصل الى مقاصد الافغاني الاخرى والتـــي لـــم يفصح عن ماهيتها في الرسالة لولا (رسل الفوضى وجرذان النظام) العرابيون[1] .

ولكن رغم رأيه هذا بالعرابيين وبالرغم من موقفه الموالي للحكومة والمعارض للثوار ومطالبهم فقد التحق عبدة بالنهاية بثورة عرابي واصبح كما يؤكد احمد اميـــن سببا من اسبابها اذ قال: ان كان في اول امرها (سبب بعيـــد... الا انـــه يـــوم -ان حميت النار- ... انقلب الشيخ محمد عبدة الى سبب قريب، فلئن اتـــهم بانـــه مـــن زعماء الثورة وحوكم عليها، لقد كان ذلك لاحقا)[2] اما كيف التحق عبـــدة بـــالثورة العرابية؟ ولماذا؟ فيجيب عليه محمد عمارة مؤكدا ان ذلك كان تحت ضغط الظروف اذا قال: ظل عبدة (طوال تسعة اشهر من الحركـــة الثوريـــة والمخـــاض الثـــوري اصلاحيا، يعارض الثورة كاسلوب للتغيير، ويختلف مع الثوار حول اهلية مصر في ذلك التاريخ لان تنال حكومة قانونية مقيدة بالدستور ومجلس النـــواب) ولكـــن لمـــا تفجرت الثورة العرابية بمظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ (حدثت تحـــولات هامة في الموقف الفكري والعلمي للشيخ محمد عبدة من السياســـة، وبـــالذات مـــن الموقف ازاء طلب الدستور والحياة النيابية للبلاد... فلم يعد باستطاعته ان يتحـــدث عن خطأ العقلاء في طلب مجلس النواب لأن هذه المظاهرة قد اجبرت الخديـــوي... توفيق علي التسليم للامةبمجلس نيابي ينهض بما تنهض به مجالس النواب في غـــير مصر من البلاد...)[3] هذا غير تعاظم حزب الثورة العرابية بتأييد الفصائل الثوريـــة الاخرى له مما جعل له سيطرة اكبر على مجريات الامور. وهذا كله غير موقـــف عبدة، وبعد ان كان مناهضا للثورة اصبح مواليا لها وعاملا معها، وبعـــد ان كـــان مواليا لرياض باشا امتدح وزارة شريف باشا التي خلفتـــها وامتـــدح وزارة ســـامي

---

(١) ذات المصدر.

(٢) زعماء الاصلاح، ص ٣٢٦-٣٢٧.

(٣) عمارة الاعمال الكاملة، عبدة، جـ١ ص ٥٠-٥١.

الباRودي التي اعقبت هذه الاخيرة! والتي كان فيها عرابي ناظرا للجهادية فقال في حفل اقامه النواب بمناسبة التصديق على لائحة مجلسهم: (الحمد لله منحنا حكومة قانونية، ومد علينا ظلالها بعناية خديوينا الاعظم وهمة رجال الحكومة الحاضرة ذوي الاصابة في الرأي والحرية في الافكار، فوقع التصديق على قانون نوابنا الكرام...)[1] وامتدح الخديوي واكد على ان المجلس من نتائج افكاره فقال: (... فقد عرف الجناب الخديو ايده الله، بنبالة القصد وتوجيه العناية الى اصلاح الوطن ورفعة مقامه، حتى كان من نتائج افكاره وثمرات رحمته ان جعل حكومته قانونية واسلم زمامها بيد وزارة سامية كل اعضائها ساع في الخير على علم بما يحتاج اليه... وجميعهم على غاية من اخلاص النية في المحبة والوطنية وسمو الفكر ومضاء العزيمة...)[2] مع العلم انه وهو في السجن بعد فشل الثورة كتب الى صديق له يقول: (ربما يسألكم القومسيون، عن معلوماتكم في شؤوني ايام الحوادث، فلا يدخل عليكم غش السؤال، والارهاب، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من افكاري واقوالي التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية[3] ومن كانوا لها طالبين. الى هذا الحد قفوا فان سئلتم فقولوا ما نحن بتأويل الاحلام بعالمين)[4] .

وهكذا تحول عبدة بعد رضوخ الخديوي لمطالب الثوار الى جانب هذه المطالب وبعد ان كان يرى ان الاهالي في مصر غير مؤهلين للحكم النيابي صار يقول: (ان استعداد الناس لأن ينهجوا منهج الشورى غير متوقف على ان يكونوا متدربين... بل يكفي كونهم نصبوا انفسهم وطمحت ابصارهم للحق...) وبعد ان كان يقول انه لم يحن بعد الوقت لاتخاذ طريق الشورى وانتخاب النواب صار يقول: (فقد ازف

---

(1) ذات المصدر ص ٣٨١-٣٨٣.

(2) ذات المصدر.

(3) وهي حكومة سامي البارودي وحذفها من القول رشيد رضا عندما نشرها.

(4) ذات المصدر ص ٤٥٧.

الوقت ولم تسمح لهم ظروف الاحوال بأن يتأخروا)[١] وبعد ان انتخب المجلس دافع عنه ضد خصومه فكتب يقول: (قد ثبت انه لا مانع لوجود الشورى في بلادنا من جهة اهاليها، بل ان حالتهم الآن تقضي بلزوم وجودها، حيث انهم قد صاروا جميعا من التنبه والاستبصار على حسب اختلاف الطبقات وتباين الدرجات بين الافراد. هذا من جهة الاهالي المصريين اما من جهة الهيئة الحاكمة فكذلك لا مانع للشورى...)[٢] ثم امتدح الحكومة وسلامة الانتخابات واكد على كون البلاد المصرية (لا فرق بينها وبين البلاد الاخرى) من جهة الانتخابات ومدى سلامتها وفوائدها. وامتدح الخديوي على انه ميال بطبعه لحكم الشورى -وهو نفس الخديوي الذي قال في رسالته للافغاني انه يريد الانتقام منه ويوصفه بالوغد اللئيم والفدم العظيم- اذ قال مكملا ما جاء اعلاه (... اما من جهة الهيئة الحاكمة فكذلك لا مانع للشورى، وذلك لأن من بيده زمام الامر والنهي في الديار المصرية وهو الجناب الخديوي المعظم ميال بطبعه اليها من بدء نشأته الكريمة، وقد شب ايده الله على حبها وتعزيز شأنها وارتفاع منارها ودليلنا على ذلك تأييده لمبادئها من عهد ان ولي الامر واستوى على اريكة الخديوية المصرية واخذ يدير حركة البلاد، وقد رأينا جنابه الكريم قائما بأمر العدل، والمساواة والنظر في مصالح رعيته، ومهتما كل الاهتمام بمصالحهم وجلب منافعهم ودرء مضارهم وسد خللهم وراحة بالهم...)[٣]

وهكذا تتحول اراء عبدة من النقيض الى نقيضه حتى انه في النهاية وفي اواخر ايامه كتب عن الثورة العرابية وزعم انه كان يطلب لمصر الدستور من قبل الثورة العرابية فقال: (وكنا نحن الذين طلبوا الدستور... وبناء على ذلك قدمنا العرائض نطلب الدستور وحملنا في الصحف حملات عديدة في هذا الصدد) وان

---

[١] ذات المصدر ص ٣٦٢.

[٢] ذات المصدر.

[٣] ذات المصدر ص ٣٥٨-٣٦٠.

كان يعود الى مناقضة نفسه فيقول (لم تكن ثورة عرابي من رأي، وكنت قانعا بالحصول على الدستور في ظرف خمس سنوات...)[1] ولكن لماذا انتقل عبدة الى صف الثوار (وتحول الى صوت يدافع عن ايجابياتها بعد ان كان صوتا يهاجم هذه الايجابيات)[2] ؟ وما هي اهدافه من الثورة العرابية؟

اهدافه من الثورة العرابية:

اكد البعض على ان عبدة لم يلتحق بالثورة العرابية رغم انها ضد مبادئه في الاصلاح الا غيرة على وطنه ومواطنيه. واكد البعض الآخر على انه (اضطر الى المشاركة لمساهمة الناس جميعهم فيها)[3] ولم يشأ ان يشذ عنهم وهو نفسه اكد هذا المعنى في مذكرة كتبها في السجن يدافع فيها عن نفسه ويؤكدايضا انه حسب ان الخديوي يؤيدها ويديرها فقال: (انني لم اعلم انه قيل ان الخديو كان يحارب جيشه بل المعروف عند الناس ان الحرب وقعت برضاه وبأمره... وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاهم واختيارهم، متشوقين لمقاتلة الانكليز... وحينئذ اصبحت وسلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من اتباع عرابي...) ويبدو انه كان يرجو منها فائدة لنفسه ولكن خاب امله فعتب في ذات المذكرة على الاقدار -او على الانكليز او على بلنت الله اعلم- فقال: (... ان وطنيتي ووطنية سلطان باشا واحدة[4] ، وكلانا عمل وفكر تفكير الرجل الواحد، وقد اصبح سلطان باشا ذا

---

(١) ذات المصدر ص ٥٦٤-٥٧١.

(٢) ذات المصدر ص ٦٤.

(٣) غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص ١٤.

(٤) سلطان باشا كان انذاك رئيس مجلس النواب وكان احد المحرضين على الثورة العرابية والمساندين لها، ولكنه في اجتماع البرلمان الذي دعا اليه سامي البارودي، رئيس الوزراء متخطيا سلطة الخديوي وقف سلطان الى جانب الخديوي مما جعله خائنا بنظر الثوار (انظر الاعمال الكاملة، عبدة، جـ١ ص ٣٩٦) مع العلم ان عبدة في هذه الحادثة كتب برقية لبلنت يطمئنه ان الخلاف بين سلطان والبرلمان قد زال!!

لقب سير، وحصل على مكفأة قدرها عشرة الآف ليرة، لذلك وجب ان تكون وطنيتي حسنة واهلا للثناء عليها!... اذن يكون سلوكنا كلينا اهلا للثناء عليه؟ فلماذا يا ترى ازج في السجن منتظرا محاكمتي على وطنيتي بينما سلطان باشا حائزا رتبة الشرف الانكليزية وحاصلا على مكافأة قدرها عشرة الآف ليرة)[١]

اما في رسالته للافغاني فهو يؤكد انه ما اشترك في الثورة العرابية الا لتحقيق مقاصد الافغاني والانتقام له فقال (وكنا ندرك بهم خلاصا حسنا وانتقاما شريفا لكن لسوء البخت كان احمدعرابي...لا... بالبر التقي ولا الفاجر القوي بل جمع بين نقيصة شقاقة وغدره وفضيحة جبنه وخوره...)[٢] وكما يبدو ايضا انه اشترك فيها لأن اخوانه من الماسونيين اعضاء الحزب الوطني الحر قد اشتركوا فيها من اجل استغلالها للقفز من خلالها على سدة الحكم. وهذه المسألة يؤيدها قوله، بعد ذلك بسنوات، وهو قاضي محكمة الاستئناف بمصر اثناء الاحتلال الانكليزي لها، في مقالة كتبها يؤكد فيها ضرورة قبول الاحتلال لما حققه الانكليز للامة من اصلاح لحالها لم يكن ليحدث لولاه. ويعارض الداعين الى الجلاء، وبعدان يوجه النقد القاسي لعرابي والثورة العرابية يقول: (انه كان قد انضم اليهم مصريون تربوا وتلقنوا العلم على امام استاذ فاضل، اقام بينهم... وبسط العدل فيهم، واحياء السنة واماتة البدعة... وذلك من اجل نوال الحقوق الوطنية ولكنهم <u>لم يتيسر لهم الانتصار</u>، فانتصرت دولة الاحلام وفازت صولة الخرافات والاوهام، ورفع السيف فوق الاعناق فخضعت الرقاب...)[٣] .

ايا كانت اهداف عبدة من المشاركة بثورة عرابي وبغض النظر عن أي علم رفع عبدة بعد انفصاله عن الافغاني فان السؤال الاهم هو هل كان عبدة، بعد

---

(١) الاعمال الكاملة: عبدة جـ١ ص ٤٦٠-٤٦٢.

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة، عبدة ص ٥٠.

(٣) ذات المصدر ص ٣١.

انفصاله عن الافغاني، مستقلا في تفكيره مختارا للاعلام التي يرفعها؟ مـــن غــير تأثيرات خارجية؟ ام ان الافغاني ما تركه الا بعد ان وفر من يحل محله؟ ان الاجابة على هذا التساؤل تتطلب من القارئ الكريم الاطلاع على علاقته بالانكليز وخاصـــة بكرومر وبلنت.

عبدة ورموز الاستعمار:

يبدو ان الاتصال بين عبدة والافغاني انقطع بعد خروج الاخير من مصر لأننا، خلال الفترة ما بين نفي الافغاني عام ١٨٧٩ وفشل الثورة العرابية ونفي عبدة الـــى بيروت عام ١٨٨٣ حيث كتب الرسالة المذكورة سابقا، للافغاني لم نجد اشارة الـــى مراسلات او أي نوع من الاتصال بينهما حتى انه في هذه الرسالة يذكر للافغاني ما حدث بعد خروجه -الافغاني- من مصر مما يدل انه لم يكن بينهما أي نـــوع مـــن التواصل. ولكن عبدة في هذه الفترة اتصل ببلنت، عميل المخـــابرات الانكليزيـــة، والذي سبق له قبل مجيئه لمصر عام ١٨٨١ ان عمل في العراق محاولا اثارة الفتن والقلاقل بين العشائر واثارتهم ضد الدولة العثمانية -كما مر ذكـــره- وقـــد دامـــت علاقته بعد ذلك به ربع قرن وحتى وفاة عبدة عام ١٩٠٥.

لقد قدم بلنت الى مصر عام ١٨٨١ عندما كانت الازمة بين المراقبين المـــاليين الفرنسي والانكليزي من جهة والبرلمان المصري من جهة ثانية على اشدها. فتعرف على محمد عبدة الذي اصبح (مصدره الاساسي فيما يتعلق بالجانب الوطني ومرجعه فيما يتعلق بفهم الاحداث وتطوراتها)[1] وقد حاول بلنت ان يخفف حدة التوتر بيـــن الجانبين (فرتب له محمد عبدة الالتقاء في بيته بوفد منـــهم -الوطنييـــن- لمناقشـــة القضية معهم) وحضر الاجتماع لويس صابونجي ســـكرتير بلنـــت، وبيـــن بلنـــت للوطنيين عواقب عدم الاتفاق واحتمال التدخل المسلح ولكن اللقاء لم (يفضـــي الـــى نتيجة مثمرة) رغم مساعدة عبدة وتأييده له (ولما تأزم الوضع غادر بلنت مصر فـــي

---

[1] ذات المصدر ص ٨٢.

اواخر شتاء ١٨٨١... وارسل سكرتيره صابونجي ليتابع الأمر على الطبيعة في القاهرة والاسكندرية)[١].

وخلال هذه الفترة التي قضاها بلنت في مصر عقد صداقات متينة مع زعماء المصريين والتقى بعرابي، حتى انه وضع برنامج حزبه، الحزب الوطني، واشرك في ذلك محمد عبدة وصابونجي. وبعد ان عرضه على عرابي فوافق عليه طلب موافقة الخارجية البريطانية عليه! واعلنه في مجلة التايمز اللندنية قبل نشره في مصر![٢] ورغم ان بلنت كان في لندن بعيدا عن الاحداث خلال الثورة العرابية والحرب، الا انه كان على اتصال دائم بها من خلال عبدة وصابونجي. ومن هذه الاتصالات برقية بعثها عبدة في ١٤ مايو ١٨٨٢ قبل حرب الاسكندرية بشهرين الى بلنت باللغة الفرنسية، مع العلم ان عبدة لم يكن قد تعلم الفرنسية بعد! لم يفهم بلنت كما يدعي منها شيئا يقول فيها: (لا يوجد خلاف بين سلطان باشا والبرلمان الذئب[٣] الذي زعمت اشتراكه في المؤامرة الشركسية في خطابي لصابونجي هو في الحقيقة شريك في الجريمة. هناك خلاف متباين بين اعضاء البرلمان. الامن العام لا يهدده خطر)[٤] ومن هذه الاتصالات ايضا برقية بعثها بلنت إلى صابونجي في مصر في ٥ يوليو سنة ١٨٨٢ يقول فيها: (يجب الا تعاكسوا الاسطول، ارسلوا عبدة الى غلادستون)[٥] وذلك لأن بلنت اثناء اجتماعه في مصر مع محمد عبدة وعبدالله النديم وسامي البارودي كانوا قد تحدثوا في مسألة ارسال عبدة الى لندن لعرض القضية على المسؤولين هناك!!

---

(١) ذات المصدر ص ٨٢-٨٤.

(٢) ويدعي الباحثون ان عبدة وكذلك عرابي كانا ضد التدخل الاجنبي، وهذا حدث ومصر لم تزل مستقلة وغير محتلة رسميا!! فهل كان بلنت يا ترى مصريا؟ وكذلك صابونجي؟

(٣) يقصد الخديوي اسماعيل.

(٤) ذات المصدر ص ٨٤.

(٥) عمارة الاعمال الكاملة، عبدة، جـ١ ص ٥٧.

وتتابعت الاحداث بعد ذلك وفشلت ثورة عرابي في مقاومة الاحتلال الانكليزي، وحوكم عبدة كأحد الثوار. وفي السجن اثناء التحقيق انهار وتنكر للثورة حتى قال عنه محاميه مستر برادلي، والذي وكله بلنت للدفاع عنه وعن عرابي (ان عظمة محمد عبدة الفكرية كانت قد حجبتها لفترة ما، غيوم الضعف المعنوي والجسدي، فقد بدا عقله وجسده وكأنه ردة الفعل المتولدة من الآمال الخائبة ونزاع اليأس قد حطمتها تحطيما ولم يبقى معه امل في الشفاء)[1] وحكم على عرابي بالنفي عشرين عاما في الهند وعلى محمد عبدة ثلاث سنوات في سوريا ومنع بلنت من دخول مصر لمدة ثلاث سنوات ايضا!! بحجة انه صديق المصريين ولكنه مع ذلك لم يعد اليها الا بعد عودة عبدة اليها بسنة حتى لا يحرج موقفه كما قال بلنت في مذكراته ولكن علاقته -بلنت- بعبدة والافغاني وصنوع وغيرهم من تلامذة الافغاني لم تنقطع فقد اتصل بعبدة في بيروت وفي باريس. فهل ابتعد عبدة في المنفى عن السياسة ورفع علم التربية كما يدعي الباحثون؟.

صحيح ان عبدة عمل في بيروت بالتدريس ولكنه ايضا كتب من بيروت رسالتين الى الافغاني -مر ذكر بعض من محتوى احداها -وفي احداها يؤكد له انه يعمل بسنته ويخدم مقاصده فيقول (والحمد لله نحن الآن على سنتك القويمة لا تقطع رأس الدين الا بسيف الدين) وكتب لبلنت من بيروت رسالة يعطي فيها اسماء الذين لهم علاقة بالشغب الذي حصل اثناء الثورة العرابية ومن شاهدها ومستعد للادلاء بشهادته! هذا غير الاتصال بالمنفيين والمعارضين في بيروت، من الماسونيين وغيرهم، ثم دعاه الافغاني للحاق به في باريس في اواخر عام ١٨٨٣ فلحق به واشترك معه في اخراج جريدة العروة الوثقى كرئيس تحرير. كما عمل معه في التنظيم السري المسمى بذات الاسم والذي كان الافغاني رئيسه وعبدة نائب الرئيس. وقد كان طيلة الوقت على اتصال دائم ببلنت الذي زار باريس في طريق عودته من

---

[1] البرت حوراني: الفكر العربي... ص ١٦٦.

الهند والتقى كما يقول بأصدقائه ومنهم محمد عبدة والسيد جمال الدين ويعقوب صنوع وقال بلنت انه وجد عبدة (قد تاورب الى حد ما بعد شهرين من الاقامة في باريس، فقد اهمل حلق رأسه وارتدى طربوش بدل العمامة، مما قلل من مهابته كشيخ، مع انه كان لا يزال يرتدي عباءة محترمة من الجوخ... وهو يتكلم بصراحة ضد السلطان والاتراك[1]... ولقد رويت له ولجمال الدين كل ما فعلته في الهند...)[2].

ومما يذكره بلنت انه التقى بالدعاة المسلمين في الهند ووجههم الى الطريقة التي يجب ان يسلكوها في دعوتهم!! ويبدو انه استعان بعبدة والافغاني عليهم، لان عبدة كتب له من باريس يقول له ان الافغاني(سيكتب الى المسلمين في حيدر اباد وغيرها وينصحهم بالتزام الهدوء ويسكن البابهم على نحو ما اقترحت ويبسط لهم الفكرة التي صغتها بوضوح في رسالتك، ويضع امامهم التفاصيل بأفضل اسلوب وابسطه)[3].

وذهب عبدة من باريس الى لندن بدعوة من بلنت ونزل ضيفا عليه واخذه بلنت لزيارة مجلس العموم واقترح عليه ان يرتدي جبته وعمامته البيضاء، ففعل! ويقول بلنت ان ذلك (اشاع في بهو المجلس جواً لطيفا) وقابل هناك عددا من الشخصيات ولكن كانت مقابلات عابرة كما يبدو وتمت اثناء مرور هذه الشخصيات في البهو! وقد استمرت المراسلات بين بلنت من جهة وعبدة بشكل خاص وجمال الدين وصنوع وميرزا باقر من جهة اخرى ومنها رسالة لعبدة يخبره فيها انه كتب الى السيد صنوع وروى له شيئا عن حالة الرأي في لندن وانه كتب الى صحيفة التايمز

---

(1) مع ان العروة الوثقى التي كان يحررها كانت تدعو كما يؤكد الباحثون الى الجامعة الاسلامية وبعد اقل من سنة عاد الى بيروت ليعمل في التدريس ويمتدح السلطان.

(2) علي شلش: الاعمال المجهولة ص ٦١-٨٨.

(3) ذات المصدر ص ٦٣.

ضمنها مقترحاته لحل ازمة مصر بوضعها تحت حماية مشتركة من الدول الكبرى وانه لم ينسى ان يوصي بالغاء مراسيم النفي للوطنين المصريين. ثم ذكر له اراءه بالنسبة لمسلمي الهند وتتلخص بأن (يخطط المسلمون في الهند من اجل التربية السياسية دون انعزال عن بقية الهنود وان يؤسسوا جامعة للنهوض بالتعليم حتى يعززوا وحدتهم وان يقبلوا على تعلم الانجليزية حتى يزدادوا اهتماما بالشؤون العامة) ثم يقول له: (اما فيما يتعلق بصحيفتكم فيسعدني ان ابذل كل ما بوسعي لمعاونتكم ولكني انصحكم بكل قواي ان تلزموا الاعتدال في لغتكم حين تكتبون عن الحكومة الانكليزية... لأني ارى في صداقة انجلترا خير امل للمسلمين...)[1]. هذا غير مراسلات ومذكرات ولقاءات اخرى كثيرة لا مجال لذكرها والتي كلها توحي ان لم نقل تدل على امور كثيرة منها:

١- ان جامعة عليكرة التي انشأها احمد خان في الهند ودعوته الاصلاحية الموالية للاحتلال والتي تضمنت تقبلهم وتعلم لغتهم وتقبل علومهم وعدم التشدد معهم الخ... والتي انتقدها الدكتور محمد البهي باعتبارها دعوة موالية للاستعمار بعكس دعوة الافغاني وعبدة التي اعتبرها مناهضة له، هي ليست الا امور متفق عليها مع عبدة والافغاني وأن كلا الدعوتين موجهتين من قبل بلنت والاستعمار نفسه!!

٢- وبالتالي فإن وجود الازهر قد يكون هو الذي وقف حائلا بين عبدة وبين انشاء مدرسة مثل مدرسة عليكرة! ولذلك دعا الى اصلاح الازهر بشكل يجعله مثلها، مدرسة يشع منها النور الاوربي بدلا من نور الاسلام!!

٣- ان عبدة لم يتحرر من تأثير الافغاني وسيطرته عليه الا ليقع تحت تأثير وسيطرة بلنت الذي كان يوحي له بما يقول او يفعل!

---

[1] ذات المصدر ص ٨٩.

٤- وبالتالي فهو لم يكن بتلك العبقرية التي وصفه بها ابن صديقه الحاخام (جوزف) والذي قال بأنه (كان اعظم عقل سديد ظهر في الاسلام بعد عدة اجيال، فقد حرك عقول المسلمين في زمننا واعطى معنى جديدا للصور القديمة...)[١] وذلك لأن عبقريته لم تستطع ان تجعله يدرك انه ليس مهرجا ليلبس كذا ولا يلبس كذا بأمر من بلنت، من اجل ان يشيع جوا من البهجة في بهو مجلس العموم البريطاني، لأن المطلع على شيء من تاريخ الاستعمار، والانكليزي بالذات، وعلى غرورهم انذاك وكيفية تعاملهم ليس فقط مع شعوب الدول المستعمرة حكاما ومحكومين، ولكن حتى مع عامة الناس من ابناء وطنهم، يفهم ماذا تعني اشاعة البهجة في بهو مجلس العموم!! ثم الاهم من ذلك.

٥- هل كانت علاقته ببلنت علاقة مجاملة بعيدة عن السياسة؟ ام هي علاقة تربية! بعيدة عن السياسة؟ وهل يمكن وضع عبدة بعيدا عن السياسة ورافعا علم التربية؟!!

وبعد توقف العروة الوثقى عن الصدور عاد عبدة الى بيروت واشتغل بالتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت وانشغل في اعمال ثقافية مثل تحقيق وشرح لبعض كتب التراث مثل مقامات بديع الزمان الهمذاني ونهج البلاغة وغيرها، وكتب مذكرة في اصلاح التعليم قدمها الى السلطات العثمانية (بعد اعلان شيخ الاستانة عن صدور ارادة سنية باصلاح المدارس والتعليم عن السلطان عبدالحميد)[٢] . وهذا العمل وان كان يبدو تربويا الا ان اغراضه السياسية لا تخفى على احد وقد كتب في مقدمتها وبعدها مدحا كثيرا لشيخ الاسلام وللسلطان عبدالحميد والذي قبل اشهر من ذلك ذمه وهاجمه امام بلنت! وبعد ذلك ظل يمدح السلطان عبدالحميد طوال فترة وجوده في بيروت ولكن وما ان عاد الى مصر

---

(١) انظر ايلز: الاسلام والعصر الحديث ص ١٩١.

(٢) غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص ٢٢.

وانضوى تحت لواء كرومر حتى عاد الى مهاجمة السلطان واتهامه بشتى التهم!
ومن الامثلة على مدحه للسلطان ما كتبه في مجلة ثمرات الفنون البيروتية عام ١٨٨٦ يشرح فيها خطابه الذي القاه في احتفال المدرسة السلطانية اذ قال:

(افتح كلامي بالدعاء لمولانا امير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، السلطان عبدالحميد خان، فمقام هذا الخليفة الاعظم فينا، هو الحافظ لنظامنا والمحامي عن مجدنا والآخذ بميزان القسط بيننا، وهو هادينا الى افضل سبلنا، فهو ولي النعمة علينا ولو افرغنا جميع اوقاتنا في الدعاء لعظمته ما ادينا ادنى حقه علينا... فاللهم ايد شوكته وأيد دولته، ومتع بوجوده رعاياه الصادقين...)[١]

وبعد مدح الوزراء والمسؤولين والدعاء لهم قال: (ان حرصنا معاشر العثمانيين على انتشار المعارف منشئوه امر في نفوسنا) فالناس كانت في حيرة من امرها تحس بفقدان شيء لا نعرف ما هو (حتى قامت الدولة العلية بصوت خليفتها الاعظم تنادي على الامة ان مطلوبكم المحبوب هو العلم... ثم انشأت المدارس واقامت بناء المكاتب وحملت رعاياها من كل طبقة الى الدراسة، وطالبتهم باقتناء العلوم) ثم اكد ان (علوم الصناعات لا تفيدنا فمطلوبنا علم وراء هذه العلوم. الا وهو العلم الذي يمس النفوس هو علم الحياة البشرية...)[٢].

وان كان عمله في التربية هو بشكل مباشر او غير مباشر عمل سياسي الا انه لم ينقطع في هذه الفترة عن العمل في مجال السياسة بشكل مباشر. فبالاضافة لتواصله المستمر مع السياسيين وتنظيماتهم واستمرار عمله في جمعية العروة الوثقى والدعوة لها، وهي كما هو معروف تنظيم سياسي فقد اسس بالتعاون مع ميرزا باقر، جمعية سرية للتقريب بين الاديان كما مر ذكره، ومن خلال تشكيلة هذه الجمعية وتزامنها مع ازدياد نشاط الماسونية العالمية في البلاد العربية ونشاط البابية

---

(١) عمارة: الاعمال الكاملة، جـ١ ص ٦٤٨-٦٥١.

(٢) ذات المصدر.

بالاضافة لها في ايران وبلاد اسلامية اخرى يمكن فهم اهدافها ودواعيها! فهل كانت هذه الاهداف هي اهداف تربوية في نظر الباحثين بعيدة عن السياسة؟.

ويقول محمد عمارة ان عبدة سعى لدى احد اصدقائه (كي يطلبوا لــــه العفــو ليعود الى مصر... وعندما اقتنع كرومر بأن الامام لن يعمل بالسياسة وانه ســيقصر نشاطه على العمل التربوي والثقافي والفكري استخدم نفوذه في استصدار العفو مــن الخديوي توفيق فعاد الاستاذ الامام الى مصر سنة ١٨٨٩م) ويقول ايضا: (وعندمــا عاد الامام الى مصر اتخذ لنفسه سكنا في شارع الشيخ ريحان بالقرب مــن قصــر عابدين... ولما زاره صديقه عبدالعزيز افندي سلطان الطرابلسي، وسأله عن ســـر اختياره هذا المكان للسكنــــى، قـــال –حتى نناطح عابدين مناطحة–)[1] وكــانت اول المناطحات هي تخطيه للخديوي وتقديم لائحة كتبها لاصلاح التربية والتعليم الى كرومر مباشرة وكأنه اراد ان يقدم دليلا ملموسا لكرومر على انه معترفا به كســيد للبلاد المصرية وراضيا بالاحتلال ومستعدا للتعاون معه!! ولا بد للمرء ان يتوقــف هنا قليلا ويستاءل:

أ– هل يمكن –ان صحت هذه الوقائع كما ذكرها الباحثون– ان يقول قائل ان عبــدة اختار وسيلة التربية للاصلاح ولمناهضة الاستعمار! وهي كما يبدو شرط مــن شروط كرومر؟ بالاضافة الى كونها توجيه من بلنت الذي كان يخطط لحركـــة مشابهة لحركة احمد خان في الهند، ولتحقيق اغراض سياسية؟

ب– ولما يناطح الخديوي الذي شارك مع الافغاني واعضاء الحزب الوطني الحــر في اختياره وفرضه على الامة بواسطة تريكو، بعد عزل والده؟ خاصـــة وانــه انهال عليه بالمديح والثناء قبل واثناء ثورة عرابي! ومدحه وهو في بيروت عــام ١٨٨٦ في مقالة عدد فيها (فضائل جناب الخديوي من العفة والاستقامة والشــفقة

---

(١) عمارة: الاعمال الكاملة جــ١ ص ٤٨.

على الرعية والسعي في مصالحها.. مما ذاق المصريون لذته، ووجدوا فائدته فلا يرتابون في شيء منه...)[1]

جـ- وهل مناطحة الخديوي، هي عمل تربوي لتربية الامة على مكارم الاخلاق والقيم الحميدة؟

د- لماذا يناطح الخديوي ايا كانت مساوئه وقد كان الاحتلال اولى بالمناطحة.

١- اهو عقاب له لخيانة عهد الماسونية بعدم وقوفه مع اخوانه الماسونيين في محنتهم؟

٢- ام ذلك كان من الشروط المتفق عليها مع كرومر؟

٣- ام انه وجد السلطة بما يمكن ان تسبغه عليه من منافع بيد كرومر فانحاز الى جانب السلطة والمنافع؟؟ مشتريا دنياه بدينه ووطنه.

وهكذا عاد عبدة الى مصر بضغط كرومر (على توفيق... فلم يجد توفيق بدا من النزول على ارادة كرومر)[2]. والغريب ان بلنت الذي كان قد منع من دخول مصر لمدة ثلاث سنوات هي ذات مدة حكم النفي الذي صدر ضد عبدة، والذي لم يدخلها طيلة فترة غياب عبدة عنها لم يعد مع عودة عبدة، بل لم يعد الا بعد عام، لم يراسله خلالها، خوفا عليه، كما يقول بلنت نفسه من الاحراج!! ولكنه مع ابتداء ١٨٩٠ عاد وعادت العلاقة بين الاثنين. اذا عاد بلنت الى مصر واستقر في بيته، وهو مقاطعة شاسعة بضاحية عين شمس واسكن عبدة في بيت ريفي مقام على جزء من ارضه يبعد عن بيته نصف ميل!! واقام علاقة جيدة مع كرومر والقنصل البريطاني ايفلين بارنج وعادت العلاقات والزيارات المتبادلة بينه وبين الشخصيات السياسية في مصر على سابق عهدها. كما عاد اهتمامه بالسياسة والسياسيين في مصر، ومن هذا الاهتمام انه بعد التشاور مع عبدة والمويلحي قدم قائمة الى بارنج

---

(١) ذات المصدر ص ٦٤٦.

(٢) عيسى شحاتة: عظماء الوطنية ص ١٦٧.

باسماء من يمكن استيزارهم وكان اسمي عبدة وسعد زغلول عـــى رأس القائمــة. وصار سعد زغلول وزيرا وترقى عبدة بأمر كرومر حتى صار مفتيا، بـــأمر مــن كرومر وضد رغبة الخديوي وقد ذكر بلنت في مذكراته لعام ١٩٠٣ ان الخديـــوي (بذل ما بوسعه لاقصائه من منصب المفتي ومع ذلك فعبـــدة راســـخ فـــي مركـــزه وروحه المعنوية مرتفعة جدا، وقد هنأته على قرب تعينه رئيسا للوزراء فكرومـــر يسند المفتي الآن والخديوي في غاية الغباء لانه يسمح للشرور الحقيقيـــة بـــالمرور دون اعتراض ولا يتدخل الا في التوافه)[1].

وعادت العلاقة بين عبدة وبلنت والتي لم تنقطع منذ بـــدأت فـــي عـــام ١٨٨١ بعودتهما الى مصر بأقوى مما كانت خاصة وان عبدة اصبح جـــار بلنـــت وكانـــا يتبادلان الاراء والمعلومات وكان عبدة يزود بلنت بما يحتاج من الاخبار السياســـية والاحزاب والقصر والرأي العام وكل ما يحصل فـــي البـــلاد، حتـــى الاشـــاعات والفضائح العائلية الخاصة بالمسؤولين والتي امر الله بسترها كان رجل الدين ومفتي الديار، والمصلح الديني!! ينقلها لبلنت مما لا مجال لذكرها.

وقد اكد بلنت ذلك اذ قال هي: (فترة خاوية، اتخذت خلالها... موقع المتفـــرج كلية دون ان افقد صلتي بالسياسة المحلية... وكان مصدري الاساسي في هذه الصلة هو الشيخ محمد عبدة... كونه صديقا حميما لمصطفى فهمي (رئيس الـــوزراء فـــي ذلك الوقت وحمو سعد زغلول) الذي لم يكن يخفى عليه شيئا ولا كان عبدة يخفـــي عني شيئا)[2] وذكر في مذكراته الكثير من الاخبار وحتى الاشاعات هذه.

وان كان غريبا ان ينقطع بلنت عن مصر طيلة غياب عبدة عنها ويعود ليقيـــم فيها اثناء وجود عبدة فيها، فما اغرب منه الا انقطاعه عن مصـــر تمامـــا بمـــوت عبدة!! وكأنه لم يأتي الى مصر الا من اجله، فقد كان بلنت في انكلترة عندما ســـمع

---

(١) علي شلش، الاعمال المجهولة عبده، ص ١٣٠.

(٢) ذات المصدر ص ١٠٠-١٠٣.

بوفاة عبدة فتوقفت زياراته لمصر التي كان يقضي فيها اكثر من نصف العام كـــل سنة، مع انه كان يملك مقاطعة شاسعة لسكناه وسكنة عبدة ايضا!!! وقد وصف بلنت موت عبدة بأنه خطب عظيم فقال انها (خسارة شخصية بالنسبة لي وخسارة عامة لا يمكن حصرها البتة بالنسبة للعالم الاسلامي...)[1] ثم قال بعد ذلك باشهر (فـــي ٣١ ديسمبر ١٩٠٥ (لقد توقفت عن ازعاج نفسي بالشئون العامة ولن اعود مرة اخـــرى الى مصر، بعد ان مات المفتي، بل لا اظن انني ساعبر القنال الانجليزي...)[2]

ان الدور الذي لعبه بلنت ومن بعده لورنس غير الرسمي في بلادنا واحتضانهم لعدد قليل من الافراد يعدونهم ويرفعونهم الى مواقع السلطة ليتعاونوا مع المحتليـــن اثناء الاحتلال ويتسلمون منه السلطة بعد جلاءه ان حدث، باسم الصداقـــة للعـــرب والعطف على قضاياهم يستدعي ذكر ما كتب محمـــد محمـــد حســـين فـــي كتابـــه الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر اذ كتب يقول:

(وقد انتهى بهؤلاء الغربيين تفكيرهم الى ان الاسلام والتقاليد الاسلامية واسـلوب الشرقي في حياته وتفكيره –وهو يختلف اختلافا بينا عن اسلوب الغربي– كل ذلـــك يحول دون ايجاد علاقة مستقرة بين الشرق والغـــرب، ويجعـــل مركـــز الغربـــي المستعمر في الشرق دقيقا محفوفا بالخطر، ويحوجه الى ان يقف على حمايته بقـــوة دائمة يقظة، لذلك كان كرومر يحاول ابتداع روابط صناعية مفتعلة لكي تسد النقـص الناتج عن اختلاف العقيدة والجنس واللغة والعادات والتفكير، وهي الروابط الاساسية للاتحاد والتعاون بين الحاكم والمحكوم كما يقول. ومن بين ما اقترحه في هذا الصدد ان يكون هناك نظام مدبر لعرض وجهات النظر التي تبدي عطفـــا معقـــولا علـــى المصريين، عن طريق افراد من المشتغلين بالسياســـة الشـــرقية، لا عـــن طريـــق الحكومة، وكان يؤمل من وراء ذلك ان تجد اجيال المصريين المقبلة مـــن الحكمـــة

---

[1] ذات المصدر ص ١٤٠.

[2] ذات المصدر ص ١٤٠.

وسعة الافق -حسب تعبيره- ما يحفزها للعمل بصبر واخلاص مع الاوربيين الذين يعطفون عليهم، حتى يستطيعوا متعاونين وضع مثل عليا جديدة تحل محل المثل الاعلى للمسلم المتدين الذي لم يعد صالحا لهذا الزمان...)[1] بحسب زعم كرومر.

عبدة وكرومر:

وان كان الباحثون في حياة محمد عبدة لم يولوا اهتماما كبيرا لعلاقته ببلنت ولكنهم جميعا اكدوا على علاقته الحميمة بكرومر. فكرومر هو الذي ضغط على الخديوي واجبره على السماح لعبدة بالعودة الى مصر وهو الذي امر بتعينه في المناصب المختلفة بعد عودته حتى ولاه منصب الافتاء فأصبح مفتي الديار المصرية (الاكبرا)[2] رغما عن الخديوي، وسانده ضد الخديوي وضد الوطنيين جميعا من العامة والمسؤولين وعلماء الازهر ورجال الدين كافة، والذين كانوا يرون موالاة الاجنبي خروجا عن الدين والوطنية، ووضعوا نصب اعينهم رفضه وتكريس جهودهم لأجلائه. وبالمقابل كان عبدة يقف مع كرومر ضد هؤلاء جميعا فكان يفتعل الخلافات معهم افتعالا، فهو كما مر ذكره، ومنذ وصوله مصر اختار مناطحة عابدين (الخديوي) وليس مناطحة قصر الدوبارة وساكنه كرومرا وقد بدأ اول ما بدأ بتقديم لائحة لاصلاح التعليم في مصر الى كرومر بدلا من تقديمها للخديوي، كما مر ذكره، شرح في مقدمتها افضل الطرق للتعامل مع المصريين لتحقيق السيطرة عليهم وزين لهم استخدام الدين وسيلة تسهل لهم مهمتهم وذكر لهم ان (اعظم فاعل في نفوس المصريين ان يقال لهم ان صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم، وانكم مأمورون ببغضه...) ولذلك فما عليهم -المحتلين- الا ان يأخذوا (من الدين اصوله

---

(١) جـ ١ ص ٢٦١.

(٢) يذكر بلنت انه لم يكن يعلم انه ليس في الاسلام مفتي اكبر عندما اطلقوا عليه ذلك اللقب وعبدة كان يبدو سعيدا بتلقيبه ب الأكبر ولم يصحح لهم خطاءهم!

ويغرسوها في المدارس ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها، ولا يتعرضون لمـــا زاد عنها بالنفي ولا بالاثبات)[1] وهكذا جعل علاقته مباشرة مع كرومر.

ولما توفي الخديوي توفيق وتولى ابنه عباس حلمي الثاني الحكم بعده (١٨٩٢) انتقلت مناطحته للخديوي الجديد بعد فترة قصيرة من الوفـــاق اراد خلالـــها عبـــدة استغلاله لاحداث التغييرات التي يريد -او يريد كرومر- وخاصة في الازهر والتي لو دقق أي باحث فيها لوجدها هي ذاتها التي اقترحها بلنت في الهند للمسلمين.!!

عبدة والخديوي عباس وكرومر:

وقد كان عباس شاب صغير، كما يؤكد الباحثون، لم يتجاوز الثامنة عشر مـــن عمره يملأه الحماس لتحرير بلاده من الحكم الاجنبي، فالتف حوله الشباب يؤيدونـــه ويعضدونه، ليتمكنوا جميعا من الحد من سيطرة الاحتلال ان لم يكن تحقيق الجـــلاء وتحرير البلاد. ولكن الانكليز وعلى رأسهم كرومر ما انفكـــوا يكيـــدون للخديـــوي الشاب ليوكدوا له وللناس جميعا انه لا شيء في حكم البلاد، وانـــهم هـــم الحكـــام الحقيقيون في مصر. ومن ذلك مثلا انه اراد تغيير حاشيته واستبدالهم بآخرين مـــن الوطنيين المخلصين الذين يمكن لهم ان يوثقوا الصلة بينه وبين الشعب فلـــم يمكنـــه كرومر من ذلك، وفي ١٥ يناير عام ١٨٩٣ اسقط الخديوي وزارة مصطفى فـــهمي باشا -حمو سعد زغلول ورجل الانكليز في مصر- والتي كانت موالية للاحتـــلال واستبدلها بوزارة حسين فخري، فاعترض كرومر (واجبر الخديـــوي علـــى اقالـــة حسين فخري وتعيين رياض باشا عوضا عنه). واجبره على ارسال خطاب اعتـــذار اليه حدد صورته بالشكل التالي:(انه يرغب رغبة شديدة في ان يوجه عنايتـــه الـــى ايجاد اصدق العلاقات الودية مع انكلترا. وانه يسير بكل رضا بموجـــب نصيحـــة

---

[1] غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص ٢٣-٢٤.

حكومة جلالة الملكة في كل المسائل المهمة في المستقبل)[1] . وهكذا... لم يترك كرومر للخديوي الشاب اية سلطة يمارسها فحاول ان يجد له في مجال الدين ملجأ لا ينافسه فيه كرومر ليستند عليه في اثبات وجوده والحد من سيطرة الاحتلال ولكن كرومر وجد له بالمقابل من عبدة الة يحركها كيفما شاء في هذا المجال ليحبط ما تسعى اليه القوى الوطنية وعلى رأسها مصطفى كامل، ورجال الدين وشيوخ الأزهر، فأخذ عبدة يصدر الفتاوى التي تحقق سيطرة الاحتلال وتعمل على اقناع العامة بقبول الاستعمار ومنتجاته الفكرية والاجتماعية مثل فتوى التعاون (مع الكفار واهل البدع والاهواء) وهي الفتوى التي يقول غازي التوبة في كتابه الفكر الاسلامي المعاصر (حققت للانجليز ما لم تحققه جيوش كاملة من حيث فتح النفوس لدسائسهم وتبرير التعاون معهم)[2] . ومهما حاول عبدة وتلميذه رشيد رضا في تبرير هذه الفتوى باعتبارها سنة سنها الرسول الكريم ﷺ!! على اساس ان الرسول ﷺ استعار مائة درع من صفوان بن امينة، وان الخلفاء من بعده استخدموا حجابا ووزراء من الكفار فستبقى هذه الفتوى تمثل اكبر دعم يمكن ان يقدم للاحتلال الاستعماري، ومن اكبر عوامل الهدم للأمة والتي لا تزال تجني الأمة ثمارها ذل وتبعية!! وتبريرهم لها ما هو الا وضع الحق في خدمة الباطل لتحقيق اغراض مشبوهة، لأن تعاون الدولة الإسلامية وهي في قمة عزها ومجدها مع افراد من غير المسلمين من رعاياها شي وتعاون الامة الاسلامية مع الاجانب المحتلين لها وقبول ذلهم واستعبادهم وهدمهم لدينها وعقائدها وسلبهم لشخصيتها شيء آخر مخالف تماما للأول. ثم ما حكم قوله سبحانه وتعالى: (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اباءكم

---

(1) غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص ٣٩ (والغريب ان عبدة، بطل الوطنية، كان يعبر لبلنت عن سعادته في كل مرة يوجه كرومر اهانة للخديوي الشاب!

(2) ص ٥٤ (مع العلم ان عبدة حرض المسلمين في العروة الوثقى على عدم التعاون مع المحتلين فقال ان دين المسلمين يرسم عليهم ان لا يدينوا لسلطة من يخالفهم، بل الركن الاعظم لدينهم –طرح ولاية الاجنبي.

واخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم فاؤلئك هم الظـالمون)[1] وقد ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا على ذلك اذ قال: (... قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه...)[2] . وما حكم قوله سبحانه وتعالى (... ومن يتولهم منكم فانه منهم)[3] .

واصدر عبدة فتاوى اخرى لا تقل خطرا عن هذه لانها كلها تعمل على تسهيل مهمة الاستعمار في نشر التغريب بكل اشكاله سواء تلك التي تسهل الاستثمارات الاجنبية وتحقيق السيطرة الاستعمارية على الاقتصاد الوطني او التي تعمل على تمرير المخططات الاستعمارية من اجل احداث ما يريدون من تغيير في البلاد الاسلامية لتحقيق مزيد من السيطرة عليها. مثل فتوى عبدة في مشروعية بنك الاستثمار، والتي اغضبت الخديوي كما ذكر بلنت في مذكراته اذ اعتبرها لا تتفق والدين فحاول اثارة معركة مع عبدة حولها ولكن كما يقول بلنت ايضا (ان كرومر يؤيد عبدة ولهذا فلا خطر فعلي عليه من المكيدة)[4] ومثل فتوى عبدة التي (اباح فيها ان للمسلم ان يأكل لحم بقر ضرب على رأسه بالبلطة حتى ضعفت مقاومته وذبح دون ان يسمي بالله عليه -كما يحدث في اوربا وامريكا...)[5] وهي الفتوى التي لم يكن لها ما يبررها انذاك سوى تسهيل التغريب والتبعية. اما الفتوى الاخرى والتي اضافت كما يقول بلنت في مذكراته، (ضغنا جديدا) على عبدة من قبل الخديوي الذي اعتبر فتاويه هذه (مروقا من الدين) فهي فتواه بالسماح للمسلم بارتداء القبعة وقد استغرب بلنت ان يدعم كرومر عبدة كل هذا الدعم فقال ان عبدة اخبره بأن الخديوي (يبذل كل ما بوسعه للوصول الى موافقة كرومر على عزله) ثم

---

(1) التوبة: ٢٣.

(2) الممتحنة: ٤.

(3) المائدة: ٥١.

(4) علي شلش: الاعمال المجهولة ص ١٣١.

(5) توفيق الطويل: في تراثنا العربي ص ١٦٦.

يقـــــــــــــول (ومع ذلك فكرومر يؤيد عبدة وهو وضع غريـــب!)[1] . وقــد يتبادر للذهن ان مسألة لبس القبعة مسألة تافهة لا علاقة لها بالحلال والحرام ولكنــها في ذلك الوقت كان لها خطرها. فقد دارت معـــارك فكريـــة وادبيـــة حولــها بيــن المتأوربين من دعاة اقتباس حضارة الغرب وبين المسلمين وذلك لمـــا تمثلــه هــذه الظاهرة. لانه (كان لبس الزي الأوربي يعتبر خروجا على التقاليد الاسلامية واخــذ التقاليد الاوربية التي كان الناس يخشون منها على الاسلام كـــل الخشــية وكـــانوا يعتقدون ان ارتداء مثل هذه الملابس ليس سوى مقدمة للتحول عن الدين)[2] . فقـــد كان المسلمون انذاك حذرون وعلى بينة من امرهم ومما يراد بهم، وعلى بينة مـــن مخططات الاستعمار البعيدة المدى، على غير الصورة التي اراد دعـــاة التغريـــب وتلامذة الاستعمار نشرها عنهم والتي تتمثل في كونهم كانوا غافلين وفي ســـبات او في غيبوبة او شلل الخ... فقد كانوا يدركون ان اهمية مثل هذه الامور لا تنبع مـــن ذاتها وانما تنبع مما يراد تحقيقه من خلالها، الا وهـــو تســهيل التغريـــب وقبـــول السيطرة الاجنبية. ففي عام ١٨٣٩ وعندما غزا محمد علي الدولة العثمانية في بـــلاد الشام، وفي معركة نزيب التي خسرتها الدولة العثمانية، ورغم ان مشاعر المســلمين كانت جميعا مع العثمانيين ومتالمين لخسارتها الا انهم كما قال جرانـــت –المبشــر الامريكي العامل بالقرب من المنطقـــة– (كانوا يعتقدون تمام الاعتقـــاد ان كارثـــة نزيب لم تقع الا بسبب النظم الاوربية التي سار عليها العثمانيون في الجيش وفـــي الملبس. وكان الاعتقاد السائد ان الاوربيين لا يسعون الا الى ان يفنـــي المســلمون بعضهم بعضا حتى يسود الاوربيين الشرق الاسلامي)[3] .

---

(١) شلش: ذات المصدر ص ١٣١-١٣٢.

(٢) عبدالعزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٤٥١.

(٣) ذات المصدر ص ٣٠٩.

وهكذا كانت فتاوى عبدة مسخرة لخدمة الاحتلال واغراضه واغراض التغريب على المدى القريب والبعيد.

وبالرغم من ان كرومر لم يدع اية سلطة للخديوي الشاب في مصر، حتى ان ونستون تشرشل، عندما اخذه كرومر لمقابلة الخديوي، كتب لوالدته يصف المقابلة فقال: (شيء مسلي ان ارى العلاقة بين الوكيل البريطاني وحاكم مصر، فقد كان سلوك الخديوي يذكرني بسلوك تلميذ مدرسة يلتقي بتلميذ أخر- يقصد نفسه- امام مدير المدرسة... الا انه بدا لي شاب وديع يحاول ان يهتم في شؤون مملكته التي هي قد صارت خارج سيطرته...)[1] . الا ان عبده كان يعمل على تجريد الخديوي من أي نفوذ في ادارة شئون البلاد فقد كتب بلنت في مذكراته في ١٦ يناير ١٨٩٦ ان محمد عبدة جاءه ومعه م. ارمنيان، -موظف حكومي عثماني، ارمني هارب- وتحدثوا في موضوع الجلاء وحذر عبده بلنت من ان الخديوي (لا يوثق به فيما يتصل بالسلطة) وقال: (يجب ان تستقل الوزارة وان تستند الى دستور...) وقال انه من (الممكن ايجاد رجال اكفاء يستطيعون كوزراء ان يصدوا تغلغل الخديوي من خارج نطاق الموجود حاليا في الوزارة الذين هم مجرد دمى... وان استطعنا الحصول على تأييد فرنسا لهذه الخطة فان الجلاء يصبح امر غاية البساطة)[2] وقوله هذا له دلالته في نوع الجلاء الذي يريد خاصة وانه كان يكتب معارضا للوطنين الذين كانوا يطالبون بالجلاء ويفند حججهم بحجج تدعو الى تكريس الاحتلال. وان اخذنا بنظر الاعتبار مسألة اشتراكه في الثورة العرابية من اجل ايصال اخوانه الماسونيين، اعضاء الحزب الوطني الحر، من تلامذة الافغاني الى السلطة كما مر ذكره، وعلى رأسهم هو شخصيا، خاصة وان بلنت قد منّاه بالوزارة حينا وبرئاسة الوزارة حينا آخرا وارتباط هؤلاء المخلصين بكل من فرنسا وانكلترا

---

(١) W. Manchester, the last lion

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة عبدة، ص ١٠٤-١٠٥.

ومحافلهما يجعل خطته للجلاء هي تولية هؤلاء المخلصين لكل من فرنسا وانكلترا واحتلال البلاد من خلالهم مما يجعل الاحتلال الفعلي للبلاد لا مبرر له فمصالح الاحتلال سيرعاها هؤلاء المخلصون!! وكذلك كل اغراضه. وبهذا يقضي على حجج المطالبين بالجلاء من الوطنين والذين كانوا يأملون بدعم فرنسا لهم، وهي لن تفعل ما دامت مشتركة من خلال محافلها في الحكم، فتتحقق بذلك مصالح الدولتين الطامعتين وتخسر الامة ذاتها وكرامتها!! خاصة ان نحن اخذنا ايضا بنظر الاعتبار انه بعد ذلك بعدة سنوات وفي ٢٩ يناير ١٩٠٠ زار عبدة بلنت وكان (يشعر بالمرارة ازاء كرومر الذي يميل اليه برغم ذلك، لانه لم يؤسس شيئا يعول عليه من الحكم الاهلي حين ينتهي الاحتلال... فقد اشاع) كما قال عبدة لبلنت (حالة عزل عامة للعنصر الوطني والمستنير في البلاد والذين رقاهم في المناصب هم اولئك الذين كان لديهم ادنى حد من الاحترام لانفسهم وكانوا بالتأكيد مما يسهل التأثير عليهم...)[١].

ومن اجل تجريد الخديوي من اية سلطة ايضا، كتب عبدة بتاريخ ١٩٠٤ رسالة الى بلنت، ردا على استطلاع رأي عبدة في فكرة تعيين امير اوربي على مصر بدلا من عائلة محمد علي، يبين فيها رأيه في الادارة المصرية فقال: انه يرى ان بقيت الخديوية في عائلة محمد علي جعل (اول واهم قاعدة اساسية في تلك الادارة هو انه يجب ان لا يكون للجناب الخديوي أي سلطة تخوله التداخل في هيئات السلطة التنفيذية للنظارات. ولا ادارة الاوقاف والازهر ولا المحاكم الشرعية) بمعنى انه لا ينبغي ان يكون (لتداخله الشخصي اثر ما في الادارة المصرية مطلقا)[٢]. وفي

---

(١) ذات المصدر ص ١١٣ (ولكن لا نعرف اين وضع عبدة نفسه وصديقه سعد زغلول وقد رقاهما كرومر الى ان اوصل احدهما الى منصب مفتي والآخر جعله وزيرا مزمنا في الوزارات المتعاقبة على مصر ثم جعله زعيمها الأعظم!!!

(٢) عمارة: الاعمال الكاملة، عبدة جـ١ ص ٦٩١.

رسالة اخرى بعثها لبلنت في العام ذاته، اكد على ضـــرورة (ان تحصـــر الســـلطة التنفيذية في الوزارة... ان تناط جميع مسائل الحكومة... بالوزارة حتى منح الرتـــب والنياشين، وان لا يترك من اشغال الحكومة شيء مطلق للجناب الخديوي، وان يناط بها ايضا امر المصالح المختصة بـــالتعليم الدينـــي وغـــيره، والمحـــاكم الشـــرعية والاهلية،... دون ان يسمح لسموه بأي تدخل فيها مطلقا)[1] ولكنه لم يعترض علـــى سلطة الانكليز في كل هذه الامور ولا على وجود وزراء انكليز في الحكومة التـــي ستناط بها كل هذه المسؤوليات وانما فقط اقترح ان مرؤوسيهم المصريين يفصلـــوا في (جميع المسائل المختصة بالدين وما اشبه ذلك تحت مراقبة الوزراء الاصليـــين) واقترح ايضا ان يكون (جميع الموظفين الآخرين في الحكومة مـــن المصرييـــن... المديرين ووكلا المديريات وقضاة المحاكم الاهلية) ولكـــن اجـــاز (تعييـــن انكلـــيز كمفتشين) عليهم وتعيين موظفين انكليز (في بعض الوظائف في المصالح الهندســـية والمعارف وفي الوظائف الصناعية...) وختم الرسالة بقوله (واني اعتقـــد انـــه لـــو وضع نظام دستوري على هذا النمط، وضمنته الحكومة الانكليزية لقام بحاجة البـــلاد ولنالت حكومتها استقلالا لم تعرف له مثيلا)!!! وبعدان ختم الرسالة ذيلها بالكتابـــة عن الحربية فاقترح (ان السردار الانكليزي وبعض الضباط الانكلـــيز يبقـــون فـــي الجيش المصري، ولكن يجب ان يشغل المصريين ما بقي من وظائف الجيـــش، واذا فرض وقامت بعض الصعوبات بشأن ذلك، ورأت الحكومة الانكليزية وجود قـــواد انكليز فيه -اعني باشوات- فلا ضرر في ذلك)[2] .

---

(1) عمارة: الاعمال الكاملة، عبدة، جـــ١ ص٦٩١

(2) ذات المصدر ص ٦٩٤-٦٩٥ فهل هذا الدستور الذي ما انفك عبـــدة واســـتاذه الافغـــاني يطالبان به؟!! واي استقلال هذا الذي يريده عبدة للبلاد؟ الاســـتقلال عـــن مـــن ان كـــانت بريطانية المحتلة هي التي تنظم وهي التي تضمن؟! اكان يريد جعل الاحتلال والاســـتعمار قانونيا يضمنه دستور البلاد؟!!.

عبدة واصلاح الأزهر:

هذا قليل من كثير عن موالاة عبدة لكرومر ومناطحته للخديوي الحاكم الشرعي للبلاد، اما مناطحته لرجال الدين وان كانت هي الاخرى شواهدها كثيرة ولكنها بصورة خاصة تركزت على الازهر ومسألة اصلاحه التي ارادها (هو والاستعمار) فمتى فكر عبدة في اصلاح الازهر؟ ولماذا؟

يجيب عبدة عن ذلك فيقول: (... ان نفسي توجهت الى اصلاح الازهر منذ ان كنت مجاورا فيه بعد التلقي علي السيد جمال الدين الافغاني وقد شعرت في ذلك فحيل بيني وبينه ثم كنت اترقب الفرص فما سنحت الا واستشرقت لها واقبلت عليها حتى اذا صادمت الموانع لويت... وصبرت مترقبا فرصة اخرى)[1] اما لماذا فيجيب عنها اللورد لويد قبل ان يجيب عنها عبدة فقد امتدح اللورد لويد المندوب السامي في مصر ما بذله كرومر من جهد في اصلاح الازهر اصلاحا ينبعث من داخله، ويصف هذه الجهود بأنها تدل على رجاحة تفكير كرومر وبعد نظره ثم يقول: (ان اهمية الازهر بوصفه مركزا من مراكز الدعاية المعادية لبرطانية كبيرة متعددة الامكانيات. وقد ادرك الوطنيون ذلك: فحاولوا استغلاله لتأييد مأربهم. وترتب على ذلك نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الانكليز على التعليم.)[2] وقال ايضا (ان التعليم الوطني عند قدوم الانجليز الى مصر كان في قبضة الجامعة الازهرية الشديدة التمسك بالدين، والتي كانت اساليبها الجافة القديمة تقف حاجزا في طريق أي اصلاح تعليمي، وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون معهم قدرا عظيما من غرور التعصب الديني، ولا يصيبون الا قدرا ضئيلا جدا من مرونة التفكير والتقدير. فلو امكن تطوير الازهر عن طريق حركة تنبعث من داخله

---

(١) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح... ص ١١١ نلاحظ ان اصلاح الازهر بدأ بوحي من الافغاني رغم ان عبدة جاور الازهر لفترة طويلة قبل ذلك.

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ٢ ص ٣٠٩.

هو -لكانت هذه خطوة جليلة الخطر... ولكن اذا بدا ان مثل هذا الامل غير متيسر تحقيقه فحينئذ يصبح الامر محصورا في اصلاح التعليم اللاديني... الذي ينافس الازهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح. وعند ذلك فسوف يجد الازهر نفسه امام احد امرين اما ان يتطور واما ان يموت ويختفي)[١]. اما جواب عبدة فلم يختلف كثيرا عن ما جاء اعلاه، اذ هو اكد على ان غايته من اصلاح الازهر هي تقريب وجهات النظر بين المسلمين والاوربيين حتى لا يعارض المسلمون الاوربيين فيرفضونهم ويقاومون احتلالهم! والتبعية لهم اذ قال: (ولو صلح حال التعليم في الازهر لـهب المسلمون الى طلب العلوم الصحيحة كما هو كذلك في اول نشأتهم، فاحيوا ما اماته الزمان من علوم الهند واليونان، فلا يجدون الا اوربا وعلومها الحية ويفهمونها على انها خير عون لهم على تكميل مدينتهم فيتعاونون ولا يتناكرون واذا عارضت السياسة تعارفهم فانه يسهل عليهم من ازالة معارضتهم مع التقارب والعلم ما لا يسهل عليهم مع التقاطع والجهل...)[٢].

ونوع الاصلاح الذي كان يريده للازهر يدل على الغاية منه، اذ كان عبدة يرى ان اصلاح الازهر هو في ادخال العلوم الاوربية الى مناهجه واعتماد اراء الملاحدة الاوربيين امثال جان جاك روسو وكيز وكنت وداروين وغيرهم[٣] ودعا ايضا لتدريس اللغات الاجنبية لطلاب الازهر. وبعد ان كان وهو في بيروت يرى (اننا في تحصيل هذا العلم الحيوي[٤] لا نحتاج الى الاستفادة من البعيد عنا بل يكفينا فيه الرجوع لما تركنا... فهذه كتبنا الدينية والادبية حاوية لما فوق الكفاية مما نطلب

---

(١) ذات المصدر .

(٢) محمدالبهي: الفكر الاسلامي الحديث ص ١٤٥-١٤٦.

(٣) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح... ص ٢١-٢٥ (ومما يذكر، ان المؤلف اعلاه انتقد عبدة في صفحة ١٢٠ من كتابه هذا وقال: (هل يمكن لمصلح كبير... ان يتحدث في عصره عن نظريات فلسفية كنظرية الواجب الاخلاقي عند كنت وعن النشوء والارتقاء عند داروين؟ او عن نظريات بداغوجية خيالية تجاوزها الدهر مثل نظريات روسو في التربية؟

(٤) يقصد ما يمس نفس الانسان.

وليس في كتب غيرنا ما يزيد عنها الا بما لا حاجة لنا اليه)[1] ، صار يريد ان نتعلم حتى شؤون الاسلام من كتبهم اذ قال: (... ويمكننا ان نعرف كثيرا من شؤون الاسلام وتاريخه من الكتب الافرنجية فان فيها ما لا نجده في كتبنا) وبعد ان كان يرى وهو في بيروت تحت ظل الراية العثمانية ان لا حاجة لنا لتعلم الفرنسية او اية لغة اجنبية اخرى اصبح يقول: (ان العالم المسلم لا يمكنه ان يخدم الاسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر الا اذا كان متقنا للغة من اللغات الاوربية...)[2]

ولذلك قاوم شيوخ الازهر اصلاحاته هذه لأنهم يعرفون اهدافها ودوافعها ويعلمون ان الفكر الاوربي ما كان الا وسيلة للغزو الاوربي وتمكين الاحتلال من البلاد فكانوا كما يبدو وبعكس ما اتهموا به من تخلف ورجعية، اعمق منه فكرا، اذ ادركوا ان دعوته الى (تقريب المسلمين من اهل التمدن الحديث ليستفيدوا من ثمار مدنيته علميا وصناعيا وتجاريا وسياسيا)[3] . كما ذكر جرجي زيدان، ما هي الا وهم وضعه المستعمر في اذهان تلامذته ومريديه مستغلا غفلتهم -او طموحاتهم غير المشروعة- فما تجثم المستعمر ما تجثم من التضحيات بالاموال والارواح لاحتلال البلاد الا من اجل جني الثمار وليس منحها للشرقيين الذين هم في نظره كما ذكر الافغاني (كالحيوانات السائمة او الدواب الراعية)[4] . فقد علموا ان دعوته هذه في اصلاح الازهر لا تخرج عن كونها دعوة تغريبية تتعارض مع ما يرجونه (من استقلال المسلمين بالجامعة السياسية لأن مجاراة اهل التمدن الحديث باسباب مدنيتهم وتسهيل الاختلاط بهم يضعف عصبية الاسلام ويبعث على تشتيت عناصره فيستحيل جمعها في ظل دولة واحدة...)[5] فاختيار عبدة الانضمام الى صف كرومر

---

(1) الاعمال الكاملة جـ١ ص ٦٥٠.

(2) محمد حسين: الاتجاهات الوطنية... جـ ١ ص ٣٥.

(3) بناة النهضة ص ٩٠.

(4) عبدالباسط: جمال الدين واثره في العالم الاسلامي ص ٥٢.

(5) جرجي زيدان: بناة النهضة ص ٩٠.

والمحتل الانكليزي ضد مصالح الامة وضد الخديوي ومعظم رجال الديـــن وكافـــة العامة من الناس وكافة القادة الوطنين الذين كانوا يبغون جلاء المحتل، افقـــده ثقـــة رجال الدين به فعارضوه وعارضوا اصلاحاته، بينما وقف كرومر الى جانبه مدافعا عنه حتى انه قال: (بأن الشيخ محمدعبدة يظل مفتيا في مصر ما ظلـــت بريطانيـــا العظمى محتلة لها) وقال: للخديوي (ان كان تحريك بعض المشايخ ضد المفتي لأجل فصله من الافتاء فاسمح لي بأن اقول انه ما دام لبريطانيا العظمى نفوذ في مصـــــر فان الشيخ محمد عبدة يكون هو المفتي حتى يموت)[1] . ولذلك وجد محمـــد عبـــدة نفسه وحيدا في مسألة اصلاح الازهر حتى انه شكا للمستر هارولد سبندر، الصحفي الانكليزي الذي زاره سنة ١٩٠٥ في حجرته في الازهر فقال: (... ها انـــذا كمـــا ترون وحيدا ليس لي من الاساتذة من يساعدني ولا من دعاة الخير مـــن ينصرنـــي اريد ان اعمل في هذه الجامعة شيئا نافعا بدلا من هذه الشروح العتيقة البالية، الخالية من المعنى والتي هي اشد ضررا من كتبكم القديمة المؤلفة في القـــرون الوســـطى، ولكن هل اجد من يساعدني على ذلك؟ وان لم اجد فهل افلح فيه وحدي؟)[2] كما شكا في رسالة بعثها الى احد علماء الشام ردا على تهنئة الاول له بمنصب الافتاء مـــن عدم تقبل المصريين له وقال: (وانما مثلي فيهم مثل الاخ جهله اخوته، او اب عقتـــه ذريته، او ابن لم يحن عليه ابواه وعمومته...) ثم وجه لومه لرجال الديـــن فقـــال: (ممن اشتكي؟ لو ان ما القى كان لغط العامة ولقلقة الجاهلين)[3] لهان الامر وتيســـر المخرج، ولكن البلاء كل البلاء ان اشد الناس عداوة لانفسهم هم اولئك المعممـــون، الذين يبعدون عن الدين مدعين انهم دعاته، ويمزقون احشـــاءه...)[4] وظـــل ناقمـــا

---

(١) غازي التوبة: الفكر الاسلامي... ص ٤٠.

(٢) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح ص ١١٤.

(٣) فهو اذا يعترف بانهم عالمين وليس جهلة وبالتالي يعارضونه عن علم!!

(٤) عمارة: الاعمال الكاملة، عبدة، جـ٢ ص ٣٧٧.

عليهم حتى مماته اذ ذكر جرجي زيدان ان عبدة (قضى اسفا خائفا ولسان حاله يردد:

ولست ابالي ان يقال محمد ايل واكتضت عليه المآتم
ولكن دينا قد اردت صلاحه احاذر ان تقضي عليه العمائم[1]

عبدة والسلطان عبدالحميد:

ولم يقتصر دعم كرومر والاحتلال الانكليزي لمحمد عبدة على حدود مصر فقط بل تعداها الى الاستانة ايضا. فقد ذكر رشيد رضا في كتابه تاريخ الامام انه قد عنّ للامام (ان يبدأ بزيارة الاستانة فذكر ذلك للورد كرومر في حديث له معه فكان رأيه انه لا يظن انه يسر لهذه الزيارة وانه لا بأس مع ذلك بأن يعرف هذه العاصمة القديمة والدولة التاريخية)!!! وذكر كيف حمته السفارة الانكليزية هناك من دسائس وسعاية الجواسيس وما منعهم من حبسه واهانته الا لانهم يعلمون ان (السفارة البريطانية كانت بالمرصاد وانها لا تسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو اقدمت عليه)[2] !!! وبالتالي وبما ان الامام لا يأتمر الا بما يأمر كرومر ولا يسافر الا بعد ان يستأذن منه ليسمح ولا يسمح! فليس اذا من الغريب ان نجد مناطحة عبدة لم تقتصر على خديوي مصر وانما امتدت لتشمل السلطان عبدالحميد، عدو الاوربيين الاول في البلاد الاسلامية. واكبر عقبة تقف امام مخططاتهم. ولهذا نجد عبدة بعد ان كان يمتدح السلطان.وهو في بيروت، صار وهو مواليا للانكليز ومحتميا بهم يراه (اكبر مجرم سفاك في هذا العصر) و (رجل مجنون يجب خلعه) و (مجرم احمر) الخ... تحدث عبدة عام ١٨٩٦ مع بلنت الذي كان قد كتب مقالة عن مشكلة ارمينيا هاجم فيها السلطان عبدالحميد فوافقه عبدة على كل ما كتب وقال له انه (يراه رجلا مجنونا يجب خلعه)[3] وفي عام ١٩٠٢ (وبعد زيارة عبدة للاستانة التي جاءت في

---

(١) بناة النهضة ص ٩٣.

(٢) غازي التوبة: الفكر الاسلامي ص ٤١.

(٣) شلش: الاعمال المجهولة ص ١٠١.

يوليو سنة ١٩٠١ (قال عبدة لبلنت (ان السلطان عبدالحميد اكبر مجرم على قيد الحياة) حتى بلنت استهجن هذا من الامام المفتي! وقال في مذكراته (هذه كلمة شديدة ليس من اللائق ان يستخدمها مفت للديار في وصف خليفته)[1] !! وقد ذكر رشيد رضا ان عبدة قد قال له (ان اخوف ما اخافه من استبداد عبدالحميد وظلمه هو افساده لأخلاق العثمانيين لا لأرادتهم[2] فان اصلاح الادارة من بعده يسهل اذ كانت الاخلاق صالحة، ومتى فسدت الاخلاق فان اصلاحها لا يسهل الا بعشرات من السنين، كما جربنا في انفسنا فان اسماعيل افسد الادارة وافسد الاخلاق ولما وجدنا ريح الحرية واردنا ان ننهض بالاصلاح كان فساد الاخلاق هو الذي عاقنا لا فساد الادارة...)[3] ففي نظر عبدة ان الخليفة المسلم الذي كان يعمل بما يقتضيه حماية دينه وبلده من الخطر الذي يهدده، يهدد اخلاق المسلمين ويفسدها، والمحتلين الاجانب الذين يشترون الذمم والضمائر ويرهبون من لا يبيع كل ذلك لا يفسدون الاخلاق! فما هي الاخلاق يا ترى بنظر الامام والمصلح الديني واعظم وطني واكبر مفكر الخ... وما هي الحرية؟ حتى انه لم يجدها الا في ظل الاستعمار الذي يستعبد الامة ويسخرها لمصالحه!!!

ومن الجدير بالذكر هنا ذكر بعض ما حدث له في زيارته هذه للاستانة عام ١٩٠١ لان لها دلالات كثيرة وتكشف عن بعض جوانب شخصية عبدة وعن دوره، تفيد في الحكم على اعماله وعلى ماهية اصلاحه الديني! فهو عندما وصل الاستانة كانت قد سبقته اليها اخبار، ولا اقول وشايات، عن موقفه المعادي للسلطان وعلاقته المريبة بسلطات الاحتلال، لانها حقائق كما مر ذكره. فيبدو انه وضع تحت المراقبة فرفعت عنه التقارير على ان هناك (شخص... له علاقة ببطريك الكاثوليك في

---

(١) ذات المصدر ص ١١٨.

(٢) لا بد ان الكلمة هي لادارتهم.

(٣) عمارة: الاعمال الكاملة، عبدة، جـ١ ص ٧٣٦.

سوريا يلازمه) ويذكر الدكتور محمد عمارة ان هذا الشخص هـــو زكـــي مغـــامز مراسل المؤيد وصاحب العلاقات القوية مع المقطم الموالية للاحتلال فـــي مصـــر وكان قد ادعى دخوله الاسلام ثم عاد لمسيحيته! وكان الامام يحمـــل توصيـــة مـــن كرومر الى السفير الانكليزي لدى الدولة العثمانية بالتدخل لانقاذه ان مـــا تعـــرض لسوء. ولكن احمد شفيق باشا سكرتير الخديوي إنذاك صادف ان كان في الاســـتانة فنصحة بعدم استخدام التوصية الا بعد استنفاذ كل الوسائل الاخرى فانتهت المســـألة بطلب السلطان، بواسطة احمد شفيق ان لا يطيل عبدة مدة اقامته بالاستانة وقبـــل ان يغادر الامام عاصمة الدولة العثمانية كتب للسلطان عريضة. وبعد ان برر وجـــود هذا الشخص المرافق والملازم له بأنه (له علاقة ببطريك الكاثوليك في سوريا ولهذا البطريك علاقة باصحاب جريدة المقطم) وانه لم يكن يعرف ذلك بل كانت يعتقـــد (انه مسلم) فكان يستصحبه معه في زياراته (ليدله على الاماكن) التـــي لا يعرفـــها ويتمنى من مولاه المعظم ان يقبل عذره في استصحاب هذا الرجل في زيارتـــــه -عبدة- لسماحة شيخ الاسلام ويعد انه لن يصحبه بعد ذلك!! وبعد ان يؤكد اخلاصه وولاءه لشخص امير المؤمنين يستغرب كيف ان مولاه الخليفة وهو شخص مجـــرب وبصير لا يعرف مدى اخلاص (هذا العبد)[1] الذي (يمكنه ان يقوم بخدمـــة جليلـــة صادقة لشخص الخليفة وذاته الرفيعة) ويعرض هذه الخدمة فيقول (ان صدق نظري في حالة الفارين من الاشقياء[2] الى مصر، قد يمكنني من ان اقول في شأنهم مـــا لا يقوله غيري. وخبرتي بحالة الجرائد المصرية، وانطلاق السنتها بما لا يليق بالمقـــام العال، والغايات التي ترمي اليها تلك الحالة الرديئة التي لم يستطع احد علاجها قـــد

---

(١) يقصد نفسه، يبدو ان مولاه المجرب البصير يعرفه ولهذا لا يثق به رغم انه يعرض نفســه عليه كجاسوس او عين من عيون السلطان على الآخرين!!!

(٢) لقد مر ذكر احد هؤلاء الهاربين، وهو الارمني الذي كان يلازم عبدة واصطحبه معه فـــي زيارته لبلنت؟!

تسهل لي من احكام الرأي فيها ما لا يسهل لغيري. ما يتكلم به بعض المغرورين في امر الخلافة، ونصابها والافكار التي اجرى على الالسنة فيها، قد يكون لي من الرأي فيه ما يسر مولانا امير المؤمنين... يمر بخاطري ان ارباب المفاسد انفسهم يحولون بيني وبين خدم يمكنني بتوفيق الله ومدد رسوله ﷺ ان اقوم بهذا للذات الشاهانية خاصة، دون سواها لكن ذلك ما قد كان)[1]. وبعد عرض خدماته هذه للسلطان طلب الاستئذان بالسفر فقال: (والآن طابت نفسي وقنعت بالرضا العالي واصبت من الحظ ما جئت له وشهدت من المشاهد الجليلة ما اتيت لاجله والحمد لله، ولم يبقى علي الا ان اتقدم من الكرم الملوكاني واستمنحه الاذن لي بالسفر، فاني في اشد الحاجة اليه، ولا ريب عندي ان مولانا يمن علي باذنه الكريم في مبارحة الاستانة في وقت قريب، واني لا ازال شاكر النعمة مستعدا لخدمته، ايد الله دولته وقوى شوكته والامر لمن له الامر) ووقع (مفتي الديار المصرية محمد عبدة ٣١ يوليو سنة ١٩٠١)[2] وجاءه اذن السلطان في ٤ اغسطس فغادر الاستانة ولكن كما ذكر احمد شفيق باشا: (ان الامام بعد ان سافر الى جنيف جاءت التقارير بعودته لمهاجمة السلطان والاتصال بالطلبة المصريين هناك وبلبيب البتانوني وايضا توزيع نشرات ضد السلطان في مصر)[3]!!!.

وهناك الكثير من الاسئلة التي تثيرها زيارته هذه ورسالته للسلطان على القارئ الكريم اجابتها بنفسه خاصة ان علم انه كان في بيروت يمتدح السلطان وتبرع بتقديم لائحة لاصلاح التعليم الى المسؤولين العثمانيين، وانه كان مواليا للمنشقين الهاربين الى مصر والذين يعرض على السلطان الوشاية بهم واعطاءه اخبارهم! ومنهم م. ارمنيان الذي مر ذكر استصحابه معه في زيارته لبلنت، وانه

---

(١) الاعمال الكاملة، عبدة، جـ١ ص ٧٣٧-٧٣٩.

(٢) ذات المصدر.

(٣) ذات المصدر.

كان قد عرض على بلنت ذات الخدمة في اعطاء اسماء من له علاقة فيما حدث من شغب في الاسكندرية، ايام الثورة العرابية، وانه تباهى امام بلنت بانه يحذف اسم السلطان من دعاء الجمعة كما هي عادة المسلمين، وغير ذلك مما ذكر ومما لم يذكر!!!

عبدة والقوى الوطنية المناهضة للاحتلال:

ولم تقتصر مناطحة عبدة للخديوي وللسلطان عبدالحميد ولرجال الدين ولشيوخ الازهر، بل تعدت ذلك الى التيار الوطني الذي كان يتزعمه مصطفى كامل من اجل الجلاء. ورغم انهم كانوا متأثرين مثل محمد عبدة، بالفكر الاوربي ويعلون من شأن الجامعة الوطنية مثله ويرونها (اشرف الروابط للافراد والاساس المتين الذي تبنى عليه الدولة القوية والممالك الشامخة...) رغم انهم مثل عبدة (يرون ان الدين لا ينافي الوطنية) ورغم انهم مثل عبدة متأثرين بالثورة الفرنسية وموالين لها محاولين الاستظهار باحفادها على الانكليز كما والاهم عبدة قبل عودته من المنفى وكما استظهر بهم على الانكليز -مع الافغاني- حتى ان الغاياتي احد دعاة الحزب الوطني الذي يتزعمه مصطفى كامل كتب في مقدمة ديوانه (فحيا الله فرنسا فقدافاضت على الامم من معين الحرية؛ عذبا زلالا، وجاهدت في سبيل الوطن جهادا وعت القلوب ذكره واشربت النفوس حبه، فعسى ان نكون على آثارها مهتدين. وعلى منوال شعرائها ناسجين، حتى نغدو بنصر الله فائزين...)[1] الا ان عبدة ناوئ هذا الحزب وعارض حركته واستهان بارائه ونصب من نفسه محاميا ومدافعا عن الاحتلال الانكليزي، ليقض ما يغزل الحزب الوطني في جمع الكلمة ضد الاحتلال والدعوة الى مقاومته ومن عمله في هذا المجال نشره مقالة في ضياء الخافقين، التي تصدر في لندن ويحررها لويس صابونجي -وكان الافغاني يهاجم فيها شاه ايران- وبعد ان ذكر بعهد ما قبل الثورة العرابية وما فيه من ظلم

---

(١) محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٨٦ جـ١.

واستبداد وبعد ان انتقد الثورة العرابية ودعاتها ورئيسها الذي (فر من ساحة الحرب استبقاء الحياة) بعد ان هزمت العساكر المصرية قال: (... ودخلت الانجليز بعد ان سفكت دماءها وانفقت اموالها –ولكنه استدرك فقال– ولم تفعل ذلك انجلترا محبة في سواد عيون المصريين بل لاغراض لها دفعتها اليها. ولما دخلت رجال الانجليز حقنت الدماء واغمدت سيوف الانتقام واخذت تباشر ما في نيتها من الاصلاح واقامت منار الحرية على مقتضى ما نالته امم اوربا باتعاب جسيمة وتكاليف شاقة، في مسافة قرون عديدة...) واكد على ان الانكليز وجدوا المصريين (متفرقة كلمتهم فلم يتعرفوا (على حال المصريين واستعدادهم وقابلياتهم) مما جعلهم يعتقدون انه ليس هناك رجال ينشرون (الاصلاح بواسطتهم الا من وجدتهم قابضين على ازمة الادارة والحكومة... فلم ترى الانجليز بد من مباشرة الاصلاح على ايديهم. ولم يوقفها المصريون على طريقة اخرى سوى هذا السبيل فكانت تسعطهم اسباب الاصلاح في انوفهم كما يتسعط المريض الدواء وكانوا ينتقمون لانفسهم فما كان خير واصلاح جبروا على فعله... نسبوه امام المصريين لانفسهم وما كان شر وخلل وتقصير تمكنوا من ابقائه ودوامه نسبوه الى الانجليز، والمصريون يسلمون ذلك لهم ببساطتهم... ويشتركون معهم في التسخط من هذه الحال، حتى توهم المصريون في حكامهم وفي انفسهم استعدادا كافلا لاجراء الاصلاح وتأييد الحرية الشخصية واصلاح المالية وتحسين احوال الري وسلطة القانون وحفظ الاموال والارواح وتنظيم الجيش وحرية الجرائد والافكار، حتى بلغت مصر في مدى تسع سنوات ما لم تبلغه امة اجنبية في مسافة مائة عام من سفك الدماء وبذل الارواح)[1].

ومن الجدير بالذكر ان عبدة نفسه اخبر بلنت ما جرى للشيخ يوسف الذي قدم للمحاكمة بسبب نشر تلغراف في صحيفة –المؤيد– يتصل بالاحداث العسكرية انذاك (... فلم يثبت دليل ضده على الاطلاق...) ومع ذلك يبدو ان كرومر قد اصر على

---

(1) علي شلش/ الاعمال المجهولة، عبدة، ص ٣٠-٣١.

المضي في معركته ضد الصحافة التي لا تأتمر بأمره وتحرق البخـــور للاحتــلال (فلما وصلت القضية امام محكمة الاستئناف طالب القاضي الانجلـــيزي كـــاميرون زميليه الوطنيين بان يدينا المتهم والا عرضا محكمة الاستئناف الاهلية لاجـــراءات اصلاح قوية تتخذ ضدها كما اتهمهما بالتواطؤ مع الخديوي وقد اعلن كرومر انـــه سيضيف الى هيئة المحكمة عددا من المستشارين الانجليز حتى يقضي على الاغلبية في اعضاء هيئات المحاكم الاهلية)[1] . ومن الجدير بالذكر ايضا انه نشر في العروة الوثقى والتي كان يحررها عبدة مقالة جاء فيها (اين العلماء الاذكياء ايـــن الجهلـــة الاغبياء: اين الاباة الاعلياء؟ اين السفلة الادنياء؟ ليرى كـــل واحـــد منـــهم منزلـــة الشرقيين عند رجال الحكومة الانجليزية فهم يعتقدون ان الامـــم الشـــرقية والامـــة المصرية في درجة الحيوانات السائمة والدواب الراعية الخ...)[2] -فلماذا يا تـــرى هاجمهم انذاك وهم على ما هم عليه من الفضائل التي جعلتهم حماة الحرية والكرامة المصرية وحماة الاموال والارواح؟!!.

اما عن الجلاء الذي كان يدعو اليه هؤلاء الوطنيون فقد قال عبدة انـــــــــه (اول واجب على كل مصري وطني ان يسعى في الحصول عليه من ابوابه وفـــي اوقاته... ولكن ينبغي ان نسعى لذلك بالوسائل الفعالة والمؤدية اليه بدون ان ينشـــأ عن ذلك ضرر وان يكون في الوقت المناسب، فـــان الامـــور مرهونـــة بأوقاتـــها والبرهان قائم بأننا لم نبلغ درجة الحرية التي بها الآن وما تبعها من الاصـــلاح الا بواسطة الانجليز دون سواهم وهم لم يستطيعوا ذلك الا بوجود جيش للانكليز بيننـــا ولولاه لما رضخ حكامنا لاشارة الانجليز في اجراء الاصلاح المذكور ولولا دخـــول

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) عبدالباسط: جمال الدين الافغاني واثره في العالم الاسلامي ص ٥٢.

الانجليز لما تيسر لنا ان ننال من ذلك بأنفسنا)[1] . ومن المفيد للقارئ ان نطلعه على قول للافغاني يصف فيه خائن الوطن اذ قال (... ان خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو في ارض الوطن، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها، ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر وعلى أي وجه انقلب، القادر على فكر يبديه او تدبير يأتيه ليعطل حركات الاعداء، ثم يقصر فيه فهو خائن -من لم يستطع عملا وامكنه ان يرشد العامل ويتهاون في النصيحة فقد خان، مَن سوّف عَمِل اليوم الى غد وتوانى في تضليل كيد الاعداء بقول او فعل فقد ارتكب خطيئة الخيانة)[2] فكم من هذا القول ينطبق على عبدة؟!!

وهكذا نجد انه حتى لو اخذنا برأي الباحثين القائل بأن الامام السياسي الثوري قبل الاحتلال الانكليزي اصبح دينيا تربويا معتدلا يحمل العلم الثقافي لا السياسي بعد الاحتلال فهو لم يحمل هذا العلم الثقافي من اجل مقاومة الاستعمار، كأن يعلم الناس حقوقهم التي انتهكها الاستعمار وواجباتهم في مقاومته ومقاومة مغريات الحضارة والحياة التي يدعو اليها. ويبني فيهم مناعة ذاتية تعتمد قيمهم الدينية والاجتماعية لصد الاستعمار ورفضه بدل تسبيح هذه القيم بفتاويه!! ولكن الامام والمفتي! حمل علم الثقافة من اجل تكريس الاستعمار، وعمل في ذلك باتجاهين متكاملين: فهو قد دعا الى تأجيل المقاومة للمحتل لأن ذلك ليس اوانه وان الامور مرهونة بأوقاتها! ليعطي المحتل الوقت اللازم لاجراء التغييرات التي تمكنه من تحقيق سيطرته على مناحي الحياة المختلفة، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وبعد ذلك يكون قد حقق اهدافه وسيان عنده ان رحل او لم يرحل، فالاحتلال العسكري كما هو معروف ليس

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة، عبدة، ص ٣٢-٣٣ (وهذا هو ذات منطق تشرشل في منح فلسطين لليهود الذين يستطيعون تعميرها اكثر مما يمكن للفلسطينيين ان يفعلوا) انظر كتاب الاسد الاخير.

(٢) الاعمال الكاملة الالغاني ص ١٣٨ جـ٢.

الا مرحلة من مراحل تحقيق الاستعمار الحقيقي، وهو ما تعاني منه الامة اليوم. هذا من جهة، اما من جهة ثانية فان علم الثقافة الذي حمله عبدة كــان قوامــه تســهيل الاستعمار بنشر التغريب بكل اشكاله متخذا من الدين وســيلة لذلــك، متبعــا ســنة الافغاني، لا تقطع رأس الدين الا بسيف الدين-!! فبانتشار القيم الاوربية ســتتراجع القيم الاسلامية وتزول من الحياة العامة للناس وبــهذا ســينعزل الديــن الاســلامي وينحصر في المساجد التي سيقل روادها اما الحياة بكل ما فيها من مظاهر ســلوكية فستكون اوربية خالصة. فقد اشعر محمد عبدة المسلمين كما يقول احمد اميــــــن (انهم يجب ان يهبوا من رقدتهم لاصلاح نفوسهم وتكميل نقصهم والا يعتمدوا علــى الفخر بماضيهم بل يبنوا من جديد لحاضرهم ومستقبلهم، ودعا الى ان العقل يحكــم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معا حتى نستطيع ان نواجه المسائل الجديدة في المدنية الجديدة، ونقتبس منها ما يفيدنــا لأن المسلمين لا يستطيعون ان يعيشوا في عزلة، ولا بد ان يتسلحوا بما تســلح بــه غيرهم، واكبر سلاح في الدنيا هو العلم واكبر عمدة في الاخلاق الدين، ومن حســن حظ المسلمين ان دينهم يشرح صدره للعلم ويحض عليــه وللعقــل ويدعــوا اليــه وللاخلاق الفاضلة التي تدعوا اليها المدينة المعاصرة)[1].

وهكذا نجد ان عبدة يوظف الاجتهاد لغرض الاقتباس من الغرب وليــس مــن اجل ابداع فكر اسلامي بحت يحقق تقدم الامة وصلاحها معتمــدا علــى مقوماتــها الذاتية، بل هو جعل الدين والعقل شيئين مختلفين، واعتبر نفوس المسلمين ناقصــة من غير العقل الاوربي.!! فدعاهم الى تكميلها. ولم يكتف بفصل الدين عن الدنيــا بقوله (اكبر سلاح في الدنيا هو العلم) مستبعدا سلاح الدين منها ومنح الاخلاق فقــط للدين فقال (اكبر عمدة في الاخلاق هو الدين) وكأن الاخلاق بعيدة عن الدنيا والعلــم وغير ذلك من تنظيمات الحياة، ولكنه عاد فاستكثر على الدين الاســلامي مــن ان

---

(1) زعماء الاصلاح ص ٣٦٩.

ينفرد بمسألة الاخلاق فسحبها منه وجعله فقط واسطة لقبول (الاخلاق الفاضلة التي تدعو اليها المدنية الحاضرة)[1] فما دام الدين الاسلامي يدعو لذات الاخلاق الفاضلة التي تدعو اليها الحضارة الاوربية فعلى الامة اتباع هذه الاخيرة وقبولها وعدم رفضها وليس اتباع الدين!! وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون في امس الحاجة الى بناء روح المقاومة للغزو الذي يتعرضون له ولا قبل لهم على مقاومته الا بالروح المعنوية العالية وبرفضه ومقاطعته مستذكرين مفاخر الماضي للاعتبار بها ولتأكيد مواقع الخلاف لعلها تجنبهم الغرق في بحر الاستعمار وحضارته، ولكن عبدة كان يهدم كل هذا ويؤكد لهم انهم لن يستطيعوا ان يعيشوا في عزلة عن الغزاة بل عليهم ان يستوردوا سلاحهم من الغير ويتسلحوا (بما تسلح به غيرهم) مستخدما الدين وسيلة في ذلك. والامثلة كثيرة على استخدام عبدة للدين وسيلة فقط لا غير، لقبول الحضارة الاوربية ونشر مفاهيمها. وقد اكد هذه الحقيقة كثير من الباحثين سواء بشكل مباشر او غير مباشر. فقد ذكر البرت حوراني (... ان محمد عبدة حاول ان يوفق بين متطلبات الدين وقواعده وبين مطالب المدنية الحديثة المنطلقة من اوربا وان يبرهن، بشرحه ما هو الاسلام الحقيقي ان المطلبين غير متناقضين وقد اراد ان يثبت ذلك لا مبدئيا فحسب بل عمليا ايضا بتحليل دقيق لتعاليم الاسلام في الخلقية الاجتماعية، الا انه لم يعتقد يوما ان بين الاثنين توافقا مطلقا)[2]. وقد اكد البرت حوراني على دور عبدة في نشر العلمانية وعلى كون دعوته هي ذات دعوة غير المسلمين انذاك، فقال: (نقل الامام محمد عبدة واتباعه الافكار السائدة في اوربا وطبقوها على مجتمعهم، فكان لذلك تأثير اقوى بكثير مما توقع هو نفسه، فقد ادت محاولة صياغة المجتمع الاسلامي صياغة جديدة الى فكر مجتمع قومي علماني يكون الاسلام فيه مقبولا ومحترما، لا بل مساعدا على اشد الروابط العاطفية بين

---

(1) ذات المصدر.

(2) الفكر العربي في عصر النهضة ص ١٩٨.

المواطنين، دون ان يكون مصدرا لقواعد الشريعة والسياسة. وقـــد نـــادى بفكــرة مماثلة، في الوقت نفسه، فريق من الكتاب المسيحيين السوريين ولما كـــان هـــؤلاء مسيحيين من الاقليات، فقد دفعوا بهذه الفكرة في اتجاه مختلف)[1]. ويرى حورانـــي ان عبدة عمد دائما الى التوفيق بين تعاليم الاسلام ومفاهيم الفكر الاوربي الحديـــث، وكان من نتيجة هذه التوفيقية غير العلمية والتـــي لا تضـــع الاســس والمنطلقـــات الواضحة والتساهل الذي اعتمده بالمقومات الاسلامية من اجل الفكر الحديـــث ادى الى ان يعتمد تلامذته امثال قاسم امين ولطفي السيد وعلي عبدالرازق اتجاها اكـــثر اندفاعا نحو الفكر الغربي والمدنية الحديثة وذلك لأنه لم يربط الاسلام بالحياة ولـــم يجعله اساسا لكل انظمة المجتمع وانما اعتمد الشريعة (كأســـاس خلقـــي للمجتمـــع) فقط[2].

وتؤكد الدكتورة أيلز ان عبدة (في تفسيره للقـــرآن الكريـــم حـــاول ان ينســـق الاكتشافات العلمية الجديدة في العصر الحديث مع مفاهيم الظواهرالطبيعيـــة التـــي نزلت في كتاب الله... مثل هذه التبريرات دفعت بجيل الشيخ عبدة الى حرية فكريـــة اعظم والى استغراقهم في الدراسات الغربية...)[3].

ويقول غازي التوبة في كتابه الفكر الاسلامي المعاصر: (ان الاستعمار صـــب جهودا كبيرة كي يحور ويحول الاسلام من الداخل ليعطي السند الفكـــري والدعـــم الديني لمعطيات الحضارة الغربية من ناحية وتناولها دون التحرج منها من ناحيـــة اخرى، وقد وجد الاستعمار من محمد عبدة ضالته التي تحقق هدفه ذاك في التحويل والتحوير) واعتمد غازي التوبة في حكمه هذا على قول كرومر الذي جاء فيـــه (ان محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة قريبة الشبه من تلك التي اسســـها

---

(1) ذات المصدر ٩٣.

(2) ذات المصدر ص ١٩٨-٢١٢.

(3) الاسلام والعصر الحديث ص ١٩٨.

السيد احمد خان في الهند مؤسس جامعة عليكرة) و (ان اهميته السياسية[١] ترجع الى انه يقول بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين وانه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بان يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الاوربي) وامتدح كرومر محمد عبدة (لأنه حل لهم دينيا بعض المشاكل التي واجهتهم) كما يستشهد غازي التوبة بجب، المستشرق الانكليزي الشهير واحد مستشاري وزارة الخارجية البريطانية الذي رحب في كتابه اين يتجه الاسلام (بمدرسة محمد عبدة... واعتبرها الكوة الوحيدة التي يمكن ان تخترق جدار المحافظين المسلمين) وقال: (ان في كل البلاد الاسلامية باستثناء جزيرة العرب وافغانستان وبعض اجزاء من اواسط افريقيا، حركات معينة تختلف قوة واتساعا ترمي الى تأويل العقائد الاسلامية وتنقيحها... وقد اتجهت مدرسة محمد عبدة بكل فروعها وشعبها نحو تحقيق هذا الهدف... ولكن الواقع هو ان معظم ما تم من تعديل وتحوير خفي لا يبدو للنظرة السطحية) واثنى جب على عبده وتلامذته (الذين يمتزجون بالصفوف الاوربية... التي انشئت انشاء اوربيا وينضمون للحلقات العلمانية...) ثم يقول: وبما (انه مصلح مجدد واثاره جميعها كانت، وستبقى مددا لدعاية الاصلاح والتجديد في ميدان الاجتماع والسياسة... ستدوم معينا لا ينضب وسلاحا لا يلتوي. فقوة اسمه تخولهم تلقين الشعب أي اصل عجزوا عن البوح به فيما سلف اذ يكفي ان ينسب الرأي اليه حتى ينال الاستحسان والصواب)[٢] .!!! فهل يمكن بعد قول جب هذا الاخير، لاحد ان يستغرب لماذا كان وما يزال الباحثون يغدقون على عبدة صفات العبقرية والاسلامية والاصلاح من غير حق ولا حتى دليل؟!!

---

(١) انظر مسألة ان دوره سياسي ولم يكن يرفع علم الثقافة من اجل الثقافة!!

(٢) غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص ٤٢-٤٤.

ويرى محمد محمد حسين ان الدعوة التي نادى بها محمد عبدة وتلاميذه، وهي الدعوة الى الملاءمة بين الاسلام وبين الحياة في القرن العشرين (مترتبة على ما يردده الغربيون من ان الاسلام دين متخلف لا يناسب العصر الحديث. فهي محاولة للرد على هذا الزعم ولكنها في الوقت نفسه تسليم به واخطر ما تنطوي عليه هذه الدعوة هو تفتيت الوحدة الاسلامية، اذا يصبح الاسلام مختلفاً في الجيل الواحد باختلاف الاقاليم... وهذا هو ما يهدف اليه الاستعمار الذي يريد ان يأمن جانب الدول الاسلامية ويقضي قضاء مبرما على كل احتمال لاجتماع كلمتها ضده) ويستشهد على تناسق الدعوة هذه مع ما يريد الاستعمار ويخطط لهذه الامة برأي نيومان الذي بعد ان يستعرض تعاون كل من عبدة وكرومر، وعمل الأول وتلامذته في تقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين وبعد ان يبدي عدم رضاه عن كون (تعاليم الشيخ محمد عبدة تتسرب ببطء الى ادمغة المسئولين من المصريين)[1] يقول عن عبدة وتلامذته (كان برنامجهم... يشجع التعاون مع الاجانب لادخال الحضارة الغربية الى مصر. وهذا هو ما جعل كرومر يحصر فيهم امله الوحيد في قيام الوطنية المصرية. وهذا ايضا هو السبب في تعينه سعد زغلول باشا وزيرا للمعارف)[2].

ويؤكد محمد محمد حسين ان فكرة تطوير وتجديد الاسلام ليناسب العصر هي (الى جانب ما تنطوي عليه من الاضرار بالمسلمين وخدمة مصالح الاستعمار... فكرة فاسدة ضالة. اما انها فاسدة فذلك لأن وظيفة الدين هي اصلاح المجتمع ورده الى الطريق المستقيم كلما زاغ عن القصد وانحرفت به الشهوات، فاذا زعم انه يجب ان يتطور ليلائم كل عصر وكل بيئة فقد افقده وظيفته لانه يصبح تبعا للحياة يستقيم باستقامتها ويعوج باعوجاجها فينقاد لها بدل ان يقودها. واما انها فكرة ضالة فلان

---

(١) هو يتكلم عن عام ١٩٢٨م.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٣٠٦-٣٠٨ جـ٢.

اعتقادها والتسليم بها ينتهي الى الكفر لان الذي يعتقد ان الشريعة منزلة من عند الله سبحانه وتعالى... لا يعتريه شك في صلاحية ما شرع لخير الانسان. وهو اعلم به في كل زمان وفي كل مكان...)[1].

اما سعيد اسماعيل في كتابه الفكر التربوي العربي الحديث فقد قال: ان دعوة محمد عبدة (من الدعوات الاصلاحية الرائدة التي لم تقف عند حد الدعوة للعودة الى الاصول الاولى للاسلام، واستلهام منهج السلف الصالح، وانما حاولت ان تستوعب قضايا العصر وتصبها في قالب اسلامي مميز يمكنها من مواجهة تحدي الحضارة الغربية)[2] مما يشير اشارة واضحة الى ان عبدة اعطى للمحتوى الغربي شكلا او مظهرا اسلاميا من اجل تقبله مما يؤكد مسألة استخدام الدين كوسيلة لتمرير القضايا الاوربية وتحقيق القبول للحضارة الغربية واصحابها مما مهد للاحتلال والسيطرة الاستعمارية وما تبعها من تغريب وتخريب للعالم العربي والاسلامي. والمدقق في اعمالهما – الافغاني وعبده يجدها مكرسة الي:-

١- العمل على ردم الفجوة بين المسلمين والاوربيين الغزاة والتي تتمثل باختلاف العقيدة وما يتبع ذلك من اختلاف اساسي، فكري وثقافي ومؤسسي (اجتماعي) هذا غير اختلاف الاهداف بين الصياد -الاستعمار- والقنيصة- الدول العربية والاسلامية- وذلك من اجل احلال التعاون مع الغزاة وقبول هيمنتهم.

٢- اعداد كوادر تعمل في احداث هذا التغيير وادامته. ولذلك نجد لكل منهما عددا كبيرا من التلامذة والدعاة من كل الاجناس والاديان!! حتى اصبحا مدرسة كما مر ذكره، تتعاون مع الاحتلال وتقبل الاستعمار بعد ذلك، وهي مدرسة لا تزال تخرج افواجا بعد اخرى من التلاميذ.

---

(١) ذات المصدر ص ٣٠٩-٣١٠.

(٢) ص ٨٦.

فقد دعا الافغاني، باسم التجديد في الدين، المسلمين الى الاقتباس عن الغرب حتى ان اقتضى الامر الى التأويل في آيات القرآن الكريم. وباسم تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي طرأت عليه سعى محمد عبدة الى تقريب المسلمين من الدول الاستعمارية. وقد اكدهذا الامر حتى دعاة عبدة مثل جرجي زيدان الذي قال: (ان عبدة كان يسعى الى غرضين: الاول تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي طرأت عليه والثاني تقريب المسلمين من اهل التمدن الحديث...) فسعى في ذلك بما نشره من فتاويه المتعلقة بالربا... ولبس القبعة ونحو ذلك (مما يقرب المسلمين من الامم الاخرى ويسهل اسباب التجارة) رغم ان اهل العصبية الاسلامية -وكأنه اعتبر محمد عبدة ليس منهم- يرفضون هذا التقريب لانهم يرون ان (مجاراة اهل التمدن الحديث باسباب مدنيتهم وتسهيل الاختلاط بهم يضعف عصبية الاسلام... ويبعث على تشتيت عناصره فيستحيل جمعها في ظل دولة واحدة...)[١]. ومن اجل تحقيق اهدافه هذه فقد اطلق عبدة (لفكره الحرية في تفسير القرآن ولم يتقيدبما قاله القدماء او وضعوه من القواعد التي يحرم الائمة تبديل شيء منها. فرأى ان يحل نفسه من هذه القيود ويفسر القرآن على ما يوافق روح هذا العصر فيجعل اقواله وآراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح.. كما فعل النصارى في الكتاب المقدس)[٢].

واستخدام الدين وسيلة لاحداث التغيير في توجهات المسلمين يؤكدها ايضا قوله المذكور سابقا في رسالته للافغاني (فضنناها من المداعبات الدينية تحل عن المؤمنين محل القبول فحثثنا الدينين على ترجمتها)[٣] وقوله: (لا تقطع رأس الدين الا بسيف الدين).

---

[١] بناة النهضة العربية ص ٩٠.

[٢] ذات المصدر ص ٩١.

[٣] علي شلش: الاعمال المجهولة لمحمد عبدة ص ٥٣.

ومثل هذه الملاحظات بالاضافة لعلاقتهما بعدد من الملحدين والعلمانيين مثــل بلنت وتيلور وباقر مرزا واديب اسحق ويعقوب صنوع وسـليم نقـاش وغـيرهم وتهافتهما على دول الغرب ومنتجاتهم الفكرية والمادية والاتكال عليهم فـي تحقيـق الاهداف الوطنية وعلى رأسها الاستقلال والجـلاء وتحسـين الاحـوال السياسـية والاقتصادية وغيرها، كل هذا جعلهما متهمين ليس بالعلمانية فقـط بـل وبالالحـاد ايضا، هذا غير علاقة الافغاني بشكل خاص بالبابية والبهائية (المرفوضة حتى مـن ايران نفسها) هذه العلاقة التي اكدها كثيرون ومنهم اديب اسحق الذي قال ان البابيـة انتشرت وتمذهب بها جمع كثير من اهل بلاد فارس (واثاروا الفتنة على الحكومة... وبعد مقتل امامهم رمى بعضهم الشاه بالرصاص...) ثم انقسموا بانقسام امامتهم بيـن (يحي صبح ازل واخيه البهاء المقيم بعكا منفيا، مستمدين ذلك من بحــر معـارف استاذنا الكبير، الفيلسوف الشهير، درة تاج الحكماء، وواسطة عقد العلماء الفضـلاء السيد جمال الدين الافغاني نزيل المحروسة)[1].

ومسألة الحاده ثارت حولها الاقاويل وخاصة عندما امتدح رينان الافغاني فقـال معجبا:

(ان الشيخ جمال الدين:افغاني متحرر مما علق بالاسلام من اوهـام وخرافـات، وهو من العناصر القوية القلب التي تسكن المرتفعات المجاورة لتخوم الهند، حيـث تكمن روحه الآرية تحت نقاب ضعيف من الاسلام... لقد خيل الي، من حرية فكـره ونبالة شيمته وصراحته، وانا اتحدث اليه، انني ارى وجها لوجه احد من عرفتـهم من القدماء، وانني اشهد ابن سيناء او ابن رشد، او احد اولئك الملحدين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الانسانية من الاسار)[2].

---

(١) علوش: الكتابات السياسية والاجتماعية لاديب اسحق ص ١٣٨.

(٢) محمد عمارة: الاعمال الكاملة للافغاني جـ١ ص ٤٠.

ولا نعلم أي اسار هذا الذي كان يقصده رينان، اهو اسار الدين والعقيدة؟ الله اعلم!! وعلاقته برينان هذه جعلت مصطفى عبدالرازق يشير الى لادينة الافغاني، وكان ذلك في عام ١٩٢٣ في القاهرة اثناء الاحتفال بذكرى رينان مما جعل رشيد رضا يدافع لينفي التهمة عنه[١] . وقد لمح سليم العنجوري الى الحاد الافغاني فعارضه محمد عبدة وهما في بيروت وطلب منه ان (يخطئ نفسه في الجرائد ففعل)[٢] . وسواء صحت تهمة الالحاد ام لم تصح، فأن علمانيتهما لها الف دليل في اقوالهما واعمالهما ونتائجها، وهي مع تهافتهما على الحضارة الغربية ودعمها وتسهيل الاحتلال ودعمه هو من اسباب ما حدث للامة من احتلال واستعمار وما نحن فيه اليوم من تغريب وتبعية الخ...

ومن اجل تسهيل التغريب ومن ثم الاحتلال عملت حركة الافغاني/ عبدة على هدم الذات وبكل الوسائل المتاحة وبالتصريح وبالتلميح، واعلاء شأن الآخر الاجنبي في ذات الوقت، فقد قال الافغاني، على سبيل المثال لا الحصر، في رسالة له لرياض باشا: (ان المسلمين فطروا على جبلة واحدة، وخلقوا من طينة متماثلة بلا اختلاف في الطبيعة، ولا تغاير في السجية، لا يستعظمون الضيم ولا يستوحشون من الظلم ولا يرون الحيف فظيعا ولا العسف شنيعا... فعزمت ان اذهب -وان كنت صفر اليدين خالي الراحتين- الى بلاد فيها عقول صافية، وآذان واعية، وقلوب شفيعة، وافئدة رقيقة حتى اقص عليهم ما يجري على ابن آدم في المشرق... واخمد النار الملتهبة في قلبي من هذه البلايا... وانا ان مت فعلى الدنيا بعدي العفاء، وان بقيت فلا اعدم عقلا يرفق بي، ولا افقد عدلا يحن علي...)[٣] . وفي خطبة له في الاسكندرية قبيل الاحتلال الانكليزي لها دعا فيها للانتماء لحزبه الوطني الحر، التابع

---

(١) طهارى محمد مفهوم الاصلاح ... ص٥٥.

(٢) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ص ٢٣٣.

(٣) علي شلش: الاعمال المجهولة للافغاني ص ٢٣١.

للمحفل الماسوني الفرنسي قال: (انكم معشر المصريين قد نشأتهم في الاستعباد وربيتم بحجر الاستبداد، وتوالت عليكم مذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم... وانتم صابرون بل راضون تناوبتكم ايدي الرعاة... وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه، ويهيض عظامكم باداة عسفه، وانتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت...)[1] . وقد يرى البعض ان هدفه من هذا قد يكون نبيلا ووطنيا لولا انه وفي ذات الخطبة يعلي من شأن الامم الاجنبية ويسوغ للمصريين الانتماء الى الاجانب اذ قال: (... اني لا الومكم على انتماء بعضكم الى الاجنبي فان ذلك لم يكن الا فرارا من الظلم وحرصا على الحقوق الانسانية والمدنية...)[2] . فالاجنبي في نظره هو الذي يقيم العدل ويحرص على الحقوق الانسانية للمواطنين المصريين وغيرهم، مع ان ما عاناه العالم خلال القرنين الماضيين وما يزال يعاني اليوم، وخاصة امتنا بالذات من ظلم هؤلاء الاجانب وبعدهم عن الحق والعدل معروف ولا يحتاج الى دليل حتى ان رستم حيدر، المرافق للامير فيصل الى مؤتمر الصلح عام ١٩٢٠ كتب في يومياته فقال:

(ان روح الأمم الاوربية القديمة متشبعة بأريج الممالقة والمداهنة وهي لا تزال تحت تأثير المكر والخداع تتجاذبها اهوية المطامع والمفاسد افلا ترى ان الامم الاورباوية، المعظمة من حيث القوة والخداع، المصغرة في نظر الحق والعدل... تدعي ما ليس فيها حقيقة وتصيح بملء فيها انها هي مهد الحرية ومنبعث الاستقلال ونصيرة الضعيف وناصرة المظلوم وان باقي الامم غيرها ليست في نفس الامر الا جداول حقيرة تستقي من ينبوعها الفياض معاني الحق والعدل... (و) تحرير الشعوب من الاسر والاستعباد... ان هذه الكلمات الضخمة هي كالطبل الرجراج في افواه الساسة الاوربيين يسمع دويها عن بعد ولكنها فارغة المعنى في نظر قائليها،

---

(١) ذات المصدر ص ٢٦٦-٢٦٧ عزت قرني: ذات المصدر.

(٢) علي شلش: ذات المصدر ص ٨٠-٨١.

هي كلمات حق لا يراد بها غير الباطل... والحقيقة التي لا تقبل الريب هي ان الحق الذي ليس له مؤيد، مفقود في نظر القوي...)

ثم يتساءل:

(هل تفتحت حقيقة افكار الشرقيين وفهموا نوايا الغربيين المتشبعة بالتعصب والهمجية المهذبة. نعم ان اوربا متمدنة ولكن هذا التمدن ليس في الحقيقة الا توحشا هذبت حواشيه حتى صار منظما...)[1].

اما عن فساد الحكم وانتشار الرشوة في بلادهم فقد قال: (ان الرجل اصبح في فرنسا لا يمكنه ان يعمل عملا الا ويدفع لقاءه بعض الدراهم. الدرهم هو كل في الكل، وقد اصبح المرء يترحم على عهد عبدالحميد في توركيا)[2].

ولكن، ورغم كل ما كانت تعانيه الامة من قهر الدول الاجنبية وظلمهم وخاصة الدول المحتلة مثل مصر وشمال افريقية انذاك الا ان عمليتي جلد الذات وهدمها مع اعلاء شأن الآخر سارت جنبا الى جنب في حركة ما سمي بالاصلاح الديني. وهذان المساران يجدهما القارئ في اعمال محمد عبدة بشكل اكثر وضوحا، حتى ان علي زيعور في كتابه الافغاني وعبدة قال: (... وقد صبت اجتهادانية عبدة... في خدمة اهداف السلطة ومؤسساتها الراغبة في الشملنة... بافقاد المواطن وجهه وذاتيته واسمه التاريخي كي تتاح السيطرة عليه واعتباره سلعة او متاعا يتحرك بطواعية من مركز القرار...)[3] والذي كان انذاك الاحتلال والاستعمار. ولو حاولنا ايجاد سبب لكل هذا التشويش للقيم والمفاهيم ولكل هذا الجلد للذات وهدمها وكل هذا الاصرار على تغيير القيم من خلال الفتاوى والدعوات المختلفة والتحوير والتأويل في تفسير آيات القرآن الكريم في ضوء النتائج التي حصلت، لا نجد كل ذلك الا

---

(١) رستم حيدر: مذكرات رستم حيدر ص ٢٠٥-٢٠٦

(٢) ذات المصدر

(٣) علي زيعور: الافغاني وعبدة.

منصبا في اتجاه تسهيل الاحتلال قبل حدوثه ودعمه ومساندته بعد ذلك. وقد كان العمل من اجل ذلك يسير في اتجاهين على الاقل:

١- عن طريق مدح الاجنبي والدفاع عنه والتأكيد على انه ما جاء الا لاحقاق الحق ونشر الحرية والعدالة والرفاه.

٢- وعن طريق هدم الذات واحداث الفجوات بين طبقات الامة المختلفة وخاصة بين القادة والمقودين، سواء كان هؤلاء قادة فكر ام قادة سياسة. وقد مر ذكر كثير من الشواهد على التحريض على الحكام وعلى علماء الدين واثارة الرعية ضدها او اثارة بعضهم على البعض الآخر.

ولكن التغيير المتغرب الذي يراد للامة هذا لا بد له من كوادر تعمل على تنفيذه اولا ومن ثم ادامته ولهذا فقد قامت حركة الاصلاح الديني بدور كبير في اعداد كوادر التنفيذ والادامة لعملية التغيير التي خططت من خارج جسم الامة والتي تمثلت ومنذ البداية بالتغريب وتحقيق التبعية للاجانب اولا ثم ادامة هذه العملية بعد ذلك وهو الامر الذي لا يزال العمل فيه مستمرا. وتم اعداد الكوادر من خلال:

١- تأليف الاحزاب والجمعيات العلمانية والمتغربة والمرتبطة بالاجانب في الخارج.

٢- اصدار الصحف العلمانية والمتغربة ودعمها.

٣- دعم دعاة التغريب والعلمانية مثل اديب اسحق ويعقوب صنوع وميرزا باقر وغيرهم.

٤- تأسيس مدرسة دينية المظهر مشوشة الاتجاهات والمفاهيم تديم العمل في اتجاه توفير السند الديني للفكر والقيم والمفاهيم الاجنبية اللادينية الوافدة وتحقيق قبول العامة لها، وهي التي لا تزال تسمى مدرسة محمد عبدة، وكان على رأسها انذاك محمد رشيد رضا.

لقد انتمى كل من الافغاني وعبدة للماسونية التي كما يصفها البعض (مخطط اجتماعي واقتصادي صهيوني.الفكر عميق الاهداف كبير الاثر متغير المظهر. قادته

هم اساطين الفكر اليهودي العالمي يعملون في عالم حالم لا يدري ما يحاك ضده في الخفاء وغموض ومظاهر خلابة، تحمل اسماء مختلفة وتعمل بسمات متعددة لتخدم اهدافا صهيونية واحدة)[1] وانتمائهما للماسونية وتولي الافغاني رئاسة احد محافلها معناه انهما اعدا من قبل هذه المؤسسة اللادينية، ذات الاهداف المشبوهة لتحقيق اهدافها والتي من ضمنها اعداد كوادر ترتبط بها او على الاقل ترى رؤيتها وتعمل وفق مخططاتها. والا كيف تسنى للافغاني كل هذا الدعم المادي والمعنوي، ولاقى كل هذا التكريم اينما حل وارتحل؟ وقد جاء في كتاب فضائل الماسونية بقلم احد اعضائها كما يذكر محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر، ذكر بعض نشاطات الماسونيين في لبنان ومنها ان (الاخوان المصريين والمهاجرين الذين جاءوا سورية قابلهم اخوانهم بالترحيب العظيم، ودعوهم الى محافلهم ومنازلهم وكان الافاضل الشيخ محمد عبدة وابراهيم بك اللقاني وحسن بك الشمسي وجماعة المرحوم جمال الدين الافغاني وغيرهم يحضرون معنا في محفل لبنان ويخطبون فيشنفون اسماع السوريين بخطبهم النفيسة واحاديثهم الطلية ونال الاستاذ الشيخ محمد عبدة رتبة البلح والصدفة من المندوب الامريكي الذي حضر الى محفل لبنان)[2] .

ومن اجل اعداد كوادر التغيير التغريبية هذه عملا معا (ومنفردين) على تأليف الاحزاب التي كانت علمانية بعيدة عن الدين الذي لم يستخدم، ان استخدم، الا على اساس مبدأ (لا تقطع رأس الدين الا بسيف الدين) المذكور سابقا. فقد عملا معا على تأليف الحزب الوطني الحر التابع للمحفل الماسوني الفرنسي وجمعية مصر الفتاة من بعض الشباب العلماني والملحد من امثال اديب اسحق ويعقوب صنوع وسليم نقاش وعبدالله النديم -الذي اتجه بعد ذلك اتجاها اكثر وطنية بعد الحوادث العرابية-

---

(١) حسين عمر حمادة: شهادات ماسونية.

(٢) جـ١ ص ٣٢٩.

وغيرهم ولذلك جاء في اسباب طرد الافغاني من مصر انه كان يرأس جماعة من الشباب الفاسدين. كما عملا معا في تشكيل جمعية العروة الوثقى وجعلا مقرها في باريس حيث اصدرا جريدتها، واستخدما في نشر الدعوة لهذه الجمعية الى جانب الجريدة رسلا متخفين يذهبون الى الاقطار المختلفة مزودين بالتعاليم التي لا يسطيعا نشرها في الجريدة، فرسول الى موسكو!! ورسول الى الحجاز الخ... حتى ان محمد عبدة نفسه، وهو محكوم عليه بالنفي، ذهب الى مصر وتونس وكان ذكر انه دخل تونس باسم... بسيس[1] . وقد مر ذكر الطريقة المشبوهة لهذه الدعوة ووصية عبدة لاعضاء الجمعية وطريقة كسب المؤيدين وحثهم على الانتماء اليها.

وقد استخدما الصحف والمجلات لنشر ارائهما من اجل اعداد الكوادر التي ترى رويتهم وتعمل من اجل التغيير الذي خططه الاجنبي لبلادنا، فقداسس الافغاني عددا من المجلات والجرائد مثل العروة الوثقى في باريس، وكان محررها محمد عبدة وجريدة مصر ومصر التجارة ومصر القاهرة وكان محررهم اديب اسحق وابو نظارة زرقا وكان محررها يعقوب صنوع الخ... ودعم الكثير غيرها وكتب الاثنان، الافغاني وعبدة، في الكثير من الجرائد والمجلات التي كانت تصدر في البلاد العربية او في البلاد الاجنبية وكانت مقالاتهما تنشر باكثر من صحيفة ليتم نشر مفاهيمها على اكبر عدد ممكن من القراء فمثلا مقالة المخاطبة بين الانسان والهرة التي كتبها الافغاني نشرت في صحيفة مصر القاهرة واعيد نشرها في صحيفة ابو نظارة زرقا، اذ جاء في هذه الاخيرة التي تصدر في باريس انذاك في عدد ٢١ اكتوبر ١٨٨٩ (ورد الينا كتاب طريف من صديقنا ريس محفل الاتحاد المصري الشريف به يطلب منا بالنيابة عن الاخوان طبع مخاطبة جرت بين الهرة والانسان، تلك مخاطبة كنا نشرناها في العدد الخامس عشر بمحروسة مصر القاهرة

---

[1] انظر احمد امين: زعماء الاصلاح ص ٩١.

ومنع توزيعها حضرة شيخ الحارة...)[1] . وكل جريدة تورد مقدمة تكيل فيها المديح بالاطنان لصاحب المقالة لغسل دماغ القارئ، فلا يفكر ولا يناقش، فمن هو هذا القارئ المسكين الذي يمكن له بعد كل صفات الاكبار والاجلال لصاحب الخطاب او المقالة ان يضع نفسه ندا لهذه العبقرية الفذة ويناقش مقولاتها ويفرز ما هو حق وما هو باطل وما هو اصلاحي وما هو تخريبي وما هو كذب وما هو صدق. فعلى سبيل المثال، قدمت جريدة مصر لمحرريها اديب اسحق وسليم نقاش لنشر خطبة القاها الافغاني في الاسكندرية عام ١٨٧٩ دعا فيها الشباب الى تأليف حزب يصون الوطن!! فكتب مقدمة طويلة منها ما يلي:-

(وفد على الاسكندرية سيدنا فهرست كتاب الكمال، وفذلكة حساب الجلال استاذنا الأجل، الفيلسوف الاكبر السيد جمال الدين الافغاني فابتسم له الثغر عن درر الهناء به، وغرر الثناء عليه. وسعى اليه النبهاء والوجهاء، وما من جارحة فيهم الا وهي تود لو كانت اذنا فتلتقط درره وجواهره، او عينا لتجتلي مطالعه ومناظره، واعد له وجهاء الثغر وفي مقدمتهم جناب الفاضل الوجيه الحريص على حب العلم ورجاله جبرائيل افندي المخلع وجناب الوجيه المكرم نجل الوجيه دمنشي مآدب فائقة الحسن والظرف..)[2] .

واستمرت الجريدة تكيل له المديح والثناء الى ان اوردت بعد ذلك نص الخطاب الذي القاه الافغاني في قاعة زيزينيا والذي ذكرهم فيه بامجاد المصريين القدامى والفنيقيين والكلدانيين... وذكرهم بكون الاديان كلها من عهد مهادبو الى زرادشت والى موسى وعيسى ومحمد ﷺ دعت الى الله والى الحث على الفضائل

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة للافغاني ص ٢٥ انظر مسألة كنا نشرناها مما يدل على ان اصحاب الجريدتين واحد.

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة للافغاني ص ٧٦.

التي ترفض الاستبداد وحثهم من اجل هذا الرفض الى تكوين حزب وطني يحمي البلاد، وقد كان فالف حزبه المرتبط بالمحفل الفرنسي!.

وبالاضافة للاحزاب والصحف فقد استخدما اللقاءات المباشرة وجها لوجه والتدريس والمناظرات في اعداد الكوادر، فعندما اجلي الافغاني عن الاستانة جاء الى مصر وحاول التدريس في الازهر الا ان علماء الازهر وعلى رأسهم (الشيخ عليش- وهو عالم من علماء الازهر، مغربي الاصل مشهور بتدينه وشدة غيرته على الاسلام... -كان يروغ بعكازه على جمال الدين وتلاميذه في صحن الازهر حتى انقطع عنه، واصبح يجتمع بتلاميذه في بيته او في قهوة البوسته)[1] . اما محمد عبدة فقدكان حظه في ذلك اوفر، اذ انه قام بالتدريس في بيروت وفي مصر وفي الازهر فصار له عدد كبير من التلاميذ.

ولما كان كل من الافغاني وعبدة يستخدم الدين وسيلة لتقبل العلمانية والتغريب فقدكونا مدرستين تختلفان في الوسيلة وتلتقيان بالاهداف، التي هي التغيير نحو التغريب والتبعية، احداهما ترى التغيير في تجديد الدين واصلاحه على النسق الاوربي وكان على رأس هؤلاء محمد رشيد رضا وامثاله وتلامذتهم من بعدهم حتى يومنا هذا. وقد كان محمد رشيد رضا تلميذ محمد عبدة وكان الاخير قد وضع فيه امله في ان يكمل رسالته ويكون احزابا تتمثل مدرسة عبدة في استخدام الدين وسيلة لتقبل الفكر الاوربي والاحتلال الاجنبي ايضا! وقد قال عبدة فيه:-

(ان الله بعث الي بهذا الشاب الشيخ رشيد -ليكون مددا لحياتي ومزيدا في عمري، ان في نفسي امورا كثيرة اريد ان اقولها او اكتبها للامة، وقد ابتليت بما شغلني عنها، وهو يقوم ببيانها الآن كما اعتقد واريد... فهو يتم ما بدأت ويفصل ما اجملت... فهو قد انشأ لي احزابا واوجد لي تلاميذا واصحابا...)[2] .

---

(١) محمد محمد حسين: الاسلام والحضارة الغربية ص ٧٥-٧٦.

(٢) علي زيعور: الافغاني وعبدة ص ٢٨١.

واتبع رشيدرضا خطا محمد عبدة في الاصلاح وتناقض مع نفسه ومــع مــن حوله كما تناقض استاذه وهادن الاحتلال كما هادنه استاذه، واسف رشيد رضــا لان عبدة لم يتمكن من ان يؤسس في مصر مدرسة مثل تلك التي اسسها احمد خان فــي الهند، وهي مدرسة العلوم في عليكرة والتي لم تنجح كما قال رشيد رضــا (الا لأن مؤسسيها كانوا من عهد زعيمهم احمد خان الى الآن علـــى وفــاق مــع الســلطة الانكليزية وتحسين الظن بها...) كما اكد على ان (الاستاذ الامام كــان علــى هــذا الرأي، أي انه لا بد لنا من العمل النافع للاسلام والمسلمين مع تحسين الظــن بــأن الانكليز لا يعارضوننا في ذلك ولا يمنعوننا مما ينفعنا الا اذا ادخلنا فيــه السياســة وقصدها مضارتهم ومقاومتهم وحينئذ نكون اضر على انفســنا...)[1] . ويستشــهد رشيد رضا على عبقرية عبدة، ليس من خلال كتاباته واعمالــه وتحليــل دعوتــه وصدقها وفاعليتها وانما من خــلال موضوعيــة المحتليــن الذيــن اثنــوا عليــه فقــــال: (... الا يكفيكم ثناء اللورد والمستشار القضائي على الاستاذ الامــام بما اثنينا به بعد موته واحترامهما وسائر كبار المحتلين له في حياته برهانا علــى ان القوم رجال جد يجلون من يقول الحق في السر والجهر ويعمــل بــالاخلاص فــي الخفية والعلن...)[2] . ثم اكدعلى موالاة مدرسة عبدة للاحتلال من خلال تأكيده على ان تلامذة عبدة يشكرون فضل الانكليز ويرجون رضاهم فقال: (انني رأيت مريــدي الاستاذ الامام شاكرين اللورد ما كتبه قادرين اياه قدره راجين ان يصدق عليهم ظنــه الحسن...)[3]

اما المدرسة الثانية فقد كان روادها الاوائل اما من الذيــن تتلمــذوا بالاضافــة للمدارس والهيئات الاجنبية، على يد الافغاني وفي مدرسة الافغاني/ عبدة مثل اديــب

---

[1] انظر رشيد رضا: مختارات سياسية ص٧١-٧٤

[2] ذات المصدر

[3] ذات المصدر

اسحق وسليم نقاش ويعقوب صنوع والعنجوري وغيرهم او من الذين استفادوا من توجهات مدرسة الافغاني/ عبدة في تذويب او تسييح القيم الدينية لصالح التغريب والعلمانية مثل انطوان فرح وشبلي شميل ومن جاء بعدهم من تلامذتهم ومريديهم. وهذه الفئة كانت تسعى الى نبذ كل التقاليد والقيم الدينية والاجتماعية وبناء مجتمع ديني مدني علماني خالص كالمجتمعات الاوربية ومرتبط بهذه المجتمعات الاجنبية ومواليا لها. وهؤلاء وان كان عددهم في اول الامر لا يتعدى (بضع عشرات) كما يؤكد عزت قرني في كتابه العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة[1] الا ان اعدادهم تزايدت وساد فكرهم الساحة العربية انذاك بدعم الاحتلال سواء في مصر او في البلاد العربية الاخرى، بعد احتلالها. وفي مصر كونوا حزبا باسم حزب الامة كان يضم لطفي السيد رئيس تحرير صحيفته (الجريدة) وكان مذهبهم (يتلخص في الدعوة الى التحرر الفكري والى التعاون مع الاوربيين في كل ميادين الحياة ومجالات النشاط: ثقافيا واقتصاديا وسياسيا. وكان اللورد كرومر يسميهم حزب الشيخ محمد عبدة ويعقد عليهم الآمال في مستقبل مصر السياسي ويوصي ممثلي الاحتلال بأن يمنحوهم كل عون وتشجيع...)[2] . وغلبت هذه المدرسة الاخيرة المدرسة الاولى، الاسلامية التوفيقية المتهافتة المشوشة القيم والمنطلقات والمتناقضة مع ذاتها ومع مجتمعاتها الاسلامية وما كان يريده عامة الناس لانفسهم ولأوطانهم، فلم تلبث ان تراجعت هذه وكأنها لم تظهر الا من اجل التمهيد وتحقيق القبول للمدرسة العلمانية الاخيرة. فساد الفكر الاجنبي الى درجة ليس فقط قبوله وقبول الاحتلال وانما وصل الى درجة العمل من اجل الاحتلال والدفاع عنه عند حلوله كما فعل محمد عبدة من قبل. فقدكان من مطالب الجمعية الاصلاحية في بيروت في اواخر سنة ١٩١٢، على سبيل المثال، (ان يكون في دوائر الولاية

---

(١) ص٢٩٨

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٩٥.

الحكومية مستشارون من دول اجنبية توافــق العاصمــة علـــى اختيــارهم وعلـــى تعيينهم)[1] . وعندما اقام السوريون المقيمون في فرنسا حفلة عشاء للامير فيصـــل (ملك العراق) سنة ١٩٢٠ والتي ضمت التاجر والطبيب والمحامي الـــخ... تليــت خطب كثيرة تطرقت لكل شيء الا الاستقلال اذ كان هؤلاء يريدون انتدابا فرنســيا!! مما جعل رستم حيدر، المرافق للامير، يقول (كنت افتش عن عزة في النفس، عـــن اباء، على حرية ضمير، على حب الاستقلال... فلم اجد لذلك رائحة...) وتعجـــب كيف كان (الفلاح في البلاد ينادي بالاستقلال والحقوقي المفكر في ام الحرية ينـــادي بالاستعباد...)[2] اما عن الحركة الوطنية في سورية ذاتها فيقول انها (ضعيفة جــدا، والوطنيون الذين يتبجحون ويتكلمون باسم الوطنية انما هم ان يتخذوها آلة للشـــهرة والاستفادة وليس في قلوبهم دافع حقيقي يدفعهم عند اللزوم للدفاع عن كيـــان هـــذه الوطنية)[3] .

وبقت هذه المدرسة التوفيقية في الظل لفترة امتدت منذ الثلاثينات مـــن القـــرن العشرين وحتى السبعينات منه لتعود فتنشط من جديد مع ظهور التوجهات الاسلامية السلفية من جديد وهي ما عرف بالصحوة الاسلامية والتي كانت قد كبتت من جــواء اضطهادها واتهامها بالرجعية والتخلف منذ اوائل الاحتلال وحتـــى اليـــوم فبـــدأت المدرسة التوفيقية من جديد بعقد المؤتمرات والندوات ونشر المطبوعات المختلفـــة، باسم التراث والمعاصر تارة او باسم التجديد والعصرنة او اسم الاعتدال والوســطية تارة اخرى الخ... لتدعو من جديد للاقبال على الحضارة الغربية وقبول التغريـــب والتبعية وتبريرهما ومهادنة الاعداء وقبول الاستسلام لهم وتبرير سيطرتهم تمامـــا

---

(١) ارنست رامزور: تركيا الفتاة ص ٣٢.

(٢) مذكرات رستم حيدر ص ٣٣٣.

(٣) ذات المصدر ص ٤٥٥.

كما فعل عبدة والكواكبي ورشيد رضا وغيرهم، حتى الاهتمام بمحمد عبدة عاد من جديد وصار يسمع من هذا وذاك افتخاره بكونه من مدرسة محمد عبدة.

ولو دققنا في كل ما حولنا من سلبيات تعاني منها الامة اليوم وتود معالجتها لوجدنا اصلا لهذه السلبيات، بشكل او بآخر، في حركة الاصلاح الديني. فان كنا نشكو اليوم من شيوع العنف السياسي والاستبداد والتسلط الذي يمارس من قبل كل من السلطة والمعارضة ضد بعضهم البعض، فكل هذا موجود ويسم اعمال دعاة النهضة بشكل عام ورموز الاصلاح الديني بشكل خاص، متمثلا بمهاجمة الحكام وكل المعارضين لفكرهم واتهامهم بالتفاهة والرجعية والتخلف، والدعوة للقضاء عليهم بابعادهم عن مراكز الفعل والتأثير كما حاول عبدة ابعاد رجال الدين المعارضين له عن الازهر وغيره من المدارس وغيرها من المواقع المهمة هذا غير اتهامهم بكونهم سبب كل ما كانت تعاني منه الامة ولم يترفع عن اتهام بعضهم بالخسة والبعد عن الشرف[1]. وهذا اضطهاد معنوي، اما الاضطهاد المادي فشواهده هو الآخر كثيرة في اعمالهما مثل تحريض الافغاني على قتل شاه ايران وتخطيطهما لقتل الخديوي اسماعيل ونصح عبدة لعرابي بقتل توفيق وغير ذلك من مظاهر العنف والاستبداد والذي لم ينتج الا عنفا وتسلطا تعاني منه الامة اليوم. حتى ان الافغاني اعتبر نفسه من الوحوش التي تعيش بالافتراس فقال عندما عرض عليه قنصل ايران اموالا يستعين بها على صروف الدهر (احفظ عليك نقودك فلربما كنت احوج اليها مني... واعلم انه لا حاجة لي بها فالاسد اينما ذهب لا يعدم فريسته)[2]!!

وان كان من عيوب هذا الزمن التغريب والتبعية للاجنبي والاتكال عليه في حل المشكلات المختلفة التي تواجه الامة فما ذلك الا امتدادا لعمل النهضويين الاوائل

---

(1) علي زيعور: الافغاني عبدة ص ٢٨٣.

(2) محمد عمارة: التراث في ضوء العقل ص ٢٠٠.

وعلى رأسهم رموز الاصلاح الديني الذين دعوا ابناء الامة الى التعاون مع الانكليز تارة ومع الفرنسيين او الروس تارة اخرى من اجل التحرر والتقدم والنهضة بدل اعتماد الذات، حتى الجلاء والاستقلال اعتمد عبدة فيهما على ضمير المحتلين وعطفهم عندما تثبت الامة لهم حسن السير والسلوك. اما التغريب فقد كانت هذه الرموز من اوائل من دعا اليه ليس فقط بشكل غير مباشر من خلال مدح الآخر واعلاء شأنه وهدم الذات والحط من قدرها فقط وانما بشكل مباشر عندما ارادا اتباع منتجات الحضارة الغربية حتى ان اقتضى الامر التأويل في آيات القرآن الكريم. وقد عملا من اجل التغريب بكل الوسائل، وفتاوى عبدة لم يكن لها هدف غير تهوين القيم السائدة من اجل تسهيل التغريب الذي ساد شيئا فشيئا حتى صار كما هو عليه اليوم فمماثلة الاجانب في التقاليع المختلفة في اللباس والسلوك يعود في الاصل الى فتاوى عبدة ومنها فتوى لبس القبعة والتي لم تصدر الا من اجل اشاعة القيم الاجنبية المختلفة والتغريب بكل اشكاله فاللباس كما يؤكد سلامة موسى له قيمة في تشكيل شخصية الفرد وعقليته ويستشهد على ذلك بقول شكسبير (اللباس يصنع الانسان) ولذلك فهو يحث ابناء مصر على لبس القبعة دون الطربوش وذلك لأن (العقلية الاوربية يسهل على الافندي ان يتقمصها كما يتقمص اللباس الاوربي اكثر مما يسهل على الشيخ. وهي اسهل على -المتفرنج- الذي يلبس القبعة مما هي على الافندي...)[1]. واذا علمنا ان سلامة موسى خريج ذات الساحة الفكرية التي اوجدها عبدة بالتضامن مع الاحتلال استطعنا تحديد هدف فتوى لبس القبعة ودورها في تحقيق التغريب والتبعية للاجنبي!

وان كانت الشكوى اليوم من التشتت الفكري وتفرق الامة بين الافكار المستوردة والاحزاب الاجنبية المنشأ فما هذه الظاهرة الا امتدادا لتفرق رواد النهضة الاوائل وعلى رأسهم رموز الاصلاح الديني الذين تنقلوا من محفل ماسوني

---

(1) سلامة موسى: اليوم والغد ص ١٣٢-١٣٥.

الى آخر ومن موالاة دولة اجنبية والدعوة لها الى دولة اجنبية اخرى، هــذا غــير اتصالاتهما بالماسونية والقابية والبهائية وغير ذلك، فكانا القدوة فيما اصبــح اليــوم تشتتا يعيق تقدم الامة واستقرارها.

اما ما يسود الامة اليوم من النفعية وتقديم المصالح الشخصية على المصلحــة العامة وانتشار الرشوة والمادية الخ.... ومن غير اعتبار لكيفية حصول النفع المادي والمعنوي ولا عن أي طريق، فما كل هذا الا استمرارا لما نشرته حركة الاصــلاح الديني من قيم، اذ صب كل من الفقه والفتوى لكل من الافغاني وعبــــدة (الــى تغليب النافع، والعملي، والجسدي) كما يذكر علي زيعور، مثل (فتوى اجترحها عبدة في تجويز الفائدة على الاموال المودعة في المصارف، وتجويز ارتــداء القبعــة او امور اخرى كانت تسري في الواقع باحتشام وموظفــة بذلــك فــي خدمــة الفكــر البريطاني، او في مصلحة السلطة وفي خدمة تــبرير التغيــير والعلمانيــة داخــل المجتمعات العربية الاسلامية)[1] . هذا غير سلوكه الشخصي مع الاحتــلال ومــع السلطة ايا كانت الذي يقوم على مبدأ نفع واستنفع، يوالي الاحتــلال الانكلــيزي او السلطة الحاكمة المتمثلة برياض باشا والخديوي توفيق ويساندهم لينتفــع وظــائف ومكافأءات حتى انه قبل من بلنت بيتا لسكناه في مزرعة الاخير في عين شمس مــن غير اعتبار لاحتمال كونها رشوة او مكافأة على اقل تقدير على انحيازه الى جــانب الاحتلال الاجنبي!! ومن غير اعتبار لقيم مثل العزة او الكرامة او استقلالية الفكــر والتوجهات من غير ضغوط الشعور بواجب الوفاء بالمعروف!! فالمهم لعبدة هــي المنافع ولا يهم من اين تأتي، فقد دافع عن الجيش المحتل ضد مــن كــان يطــالب بالجلاء واعتبره القائم بأمر الحرية والعدل في البلاد والذي لولاه لحلت في البــلاد الفوضى وحل الخراب!! كما مر ذكره. ومدح الانكليز وممثلهم كرومر الذي كــان يستبد ويتحكم في البلاد وخدم مصالحهم بشكل استحق عليه ثناءهم وعطاياهم وحقق

---

(1) علي زيعور: الافغاني عبدة ص ٦٧.

اهدافهم اينما كانت حتى في شمال افريقيا حيث نصح اهلها بالتعامل مع القوى الاستعمارية والانتفاع بها (لأن القيمة الاولى عند عبدة هي: الانتفاغ والنفع، ومصلحة الذات واستجلاب التقدير والجاه، والاقتناء...) فغاية الفعل عند عبدة، كما يذكر البعض، لم تكن داخل الفعل وانما (كانت الغاية نفعية استنجاحية، مادية، ذرائعية ومصلحية...)[1]، والتزامه بهذه القيم المادية كانت تأتي في المقدمة وقبل التزامه بالقيم الروحية والآلهية.

وتشويش القيم والمفاهيم ومخالفة الاقوال للافعال والذي يسود اليوم حياة الامة تجده في اقوال وافعال رموز الاصلاح الديني. فاقوالهم وكتاباتهم وافعالهم متناقضة مع بعضها، والمفاهيم التي عرضوها مشوشة ومتناقضة، فالحرية تؤخذ بالقوة عند التعامل مع الحاكم من ابناء البلاد ولكن تؤخذ بالحسنى واثبات حسن السيرة والسلوك للمحتل الاجنبي. والاصلاح يجب ان يحدث بالقوة حتى وان تمثلت بعزل الحاكم او قتله كما حدث مع الخديوي اسماعيل وشاه ايران ولكن عندما تكون البلاد في ظل الاحتلال الاجنبي فان الاصلاح كما اكد عليه محمد عبدة مرهون بموافقة المحتل القاهر (وبمعرفة اصحاب الرأي المهادنين) والمجتهدين الواقعيين حتى صار حاله كما يذكر علي زيعور (كحال كاتب السلطان قديما، يقدم نفسه خادما للرعية فحبه للرعية وخوفه من الفساد والبطش مبرران للتعامل مع المؤسّس والمتحكّم...) ملقيا (المرذولات على التقاليد البالية) ومسقطا (الحسنات والمشروعية على نفسه ورفاقه ومواقفه وتصوراته عن جنة المستقبل التي ستتحقق بتحقيق الاصلاحات التدريجية ولا سيما عن طريق المدرسة)[2].

ادعى عبدة انه لا يحب السياسة ولا التعامل مع السياسيين، الا انه تعامله كله كان مع السياسة والسياسيين، فقد عمل مع الافغاني بالسياسة وانتمى للماسونية

---

(١) ذات المصدر ص ٥٥-٥٦.

(٢) ذات المصدر.

واحزابها وهي كلها سياسية وارتبط بعلاقات مع سياسيين منهم رجـل المخـابرات البريطاني بلنت والقس تيلور وكرومر وغيرهم كثيرون. وكتب في العروة الوثقى ما معناه انه (لا عار على امة قليلة العدد ضعيفة القوة، اذا تغلبت عليـها امـة اشـد منها... وقهرتها بقوة السلاح. وانما العار الذي لا يمحوه كـر الدهـور... هـو ان تسعى الامة او احد رجالها او طائفة منهم لتمكين العدو من نواصيهم، اما غفلة عـن شؤونهم او رغبة في نفع وقتي وجزاء نقدي على خيانتهم...)[1] ولكنه مع الافغـاني طلبا من الافغان والفرس تمكين الروس من الهند وطلبا من الامة الاسلامية تمكيـن فرنسا من تحقيق مصالحها في البلاد الاسلامية وتعاونا مع تريكو في عزل اسماعيل وتأكيد السيطرة الاجنبية وغير ذلك الكثير مما لا يسع المجال لذكره وعلـى رأسـه تمكين كرومر والانكليز من السيطرة على مصر مما جعل كرومر يقول ان ما فعلـه عبدة لمساعدتهم كانت تعجز عنه جيوش مسلحة! حتى ذم عبدة لسلالة محمد علـي يعتبرها البعض ليس فقط (استعادة وقتية لصحة عبدة النفسية) بل هي ايضـا امـر مرغوب من السلطة الحاكمة انذاك (وموحى به من الانكليز...)[2]. اما اكبر دليـل على تناقض اقوالهما مع افعالهما هو الباس دعوتهما الدين والورع والتقوى بكلمـات الدفاع عن الاسلام وذكر آيات من القرآن الكريم واحاديث الرسول ﷺ هنا وهنـاك في اقوالهم وفي افعالهم وفي ذات الوقت ينتمون للماسونية العلمانية ويعملون معـها ومع الملحدين لنشر القيم المتعارضة مع الاسلام ومع ما كان يريد المسلمون.

وهكذا نجد ان كل سلبيات اليوم اصلها موجود في الفكر النهضوي الاصلاحـي الاول وعلى رأسه ما سمي بالاصلاح الديني، حتى سيادة الشللية والحزبية والفئويـة على حساب المصلحة العامة والحق والعدل، فهي امور تعامل بها دعاة الاصـلاح الديني، فعندما تعاون عبدة مع الخديوي توفيق بعد طرد الافغاني، ودافع عن الحكـم

---

(١) ذات المصدر ص ٧١.

(٢) ذات المصدرر ص ٦٠.

وسلبياته انذاك قال انه فعل ذلك لاصلاح قلب الخديوي على اديب اسحق وسليم نقاش ويعقوب صنوع وامثالهم من الماسونيين لينالوا مراكزا في السلطة! بغض النظر عما يحقق المصحلة العامة ومدى اهليتهم لذلك وهو نفسه لا يعتقدهم اهلا للوظائف العامة ولهذا يصفهم في رسالته للافغاني باللئام. ومن المعروف ان المذكورين اعلاه لم ينالوا من التعليم الا قليلا وكانوا يعملون في التمثيل في المقاهي قبل ان يتعرفوا على الافغاني الذي جعل منهم صحفيين ومفكرين! وعندما اشترك مع عرابي في ثورته قال انه كان يريدمن ذلك ان يوصل حزب الافغاني الوطني الحر الى سدة الحكم! وبغض النظر عن خلفية هذا الحزب وتبعيته الاجنبية.!

وخلاصة القول، فان حركة ما سمي بالاصلاح الديني هي حركة علمانية من جميع الوجوه وما وجدت الا لخدمة العلمانية والتغريب وتسهيل الاحتلال واذلال الامة، اما اعتبارها حركة اصلاح ديني واعتبار كل من الافغاني ومحمد عبدة مصلحان دينيان عملا من اجل اصلاح حال المسلمين من خلال اصلاح الدين الاسلامي مما شابه من الشوائب فهو كاعتبار من يهدم قصرا شامخا من اجل اصلاح بلاطة معطوبة فيه، مصلحا!! هذا غير ان الدين الاسلامي وقبل كل شيء دين وضعه رب العالمين لعباده وهو اعرف بما يصلح لهم وما لا يصلح في كل زمان ومكان ولا يحتاج لاصلاح البشر، فقد قال الله سبحانه وتعالى: (من اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى)[1]. اما ان كان المقصود هو اصلاح حال المسلمين الذين زاغوا عن السراط المستقيم الذي وضعه الله سبحانه وتعالى فاصلاح حالهم لا يكون الا بالعودة الى ذلك الصراط المستقيم واتخاذه معيارا وهدفا يسعون لتحقيقه وليس باتباع الغرب واقتباس حضارتهم فقد قال سبحانه وتعالى (هذا صراطي مستقيما فاتبعوه)[2] ولا يكون اصلاح حال المسلمين بازالة الثقة بين الحاكم والمحكومين بالحق وبالباطل

---

(١) طه: ١٢٣.

(٢) الانعام: ١٥٣.

من اجل تحقيق الباطل! الذي هو موالاة الاجنبي. وحال المسلمين لا ينصلح بمـوالاة الاجانب والتعاون معهم ضد المسلمين، من حكام ورجال دين ووطنيين من العامـة. وقد قال سبحانه وتعالى (يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينـهكم هـزوا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنيـن)[1] والاوربيون كانوا يفعلون ذلك. ولا ينصلح حال المسلمين بالانتماء للماسونية والبابية والفابية الخ... ونشر بدعهم وقد قال تعالى: (ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبـل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)[2] وقال ايضا: (مثل الذين اتخذوا مـن دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيـت العنكبـوت لـو كـانوا يعلمون)[3]. وقال: (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انمـا هـو الـه واحـد فايـاي فارهبون)[4]. ولا ينصلح حال المسلمين بالتقريب بين الاديان لأن الدين عند الله هـو الاسلام ولا ينصلح حال المسلمين بتكوين الاحزاب العلمانية مثل الحزب الوطنـي الحر ومصر الفتاة وغيره وقد قال سبحانه وتعالى: (وان هـذا صراطـي مسـتقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقـون)[5]. ولا ينصلح حال المسلمين بتفسير القرآن وتأويله بمـا يتناسـب وحضـارة الاوربييـن وثقافتهم وقد قال سبحانه وتعالى: (... وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلـم يقولون امنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب)[6]. ولا ينصلـح حـال المسلمين بالتآمر مع الملحدين والعلمانيين والمرتدين الاجانب امثال تريكو وكرومـر وبلنت وميرزا باقر الخ... وقد قال سبحانه وتعالى (يا ايها الذين امنـوا لا تتخـذوا

---

(١) المائدة: ص٥٧.

(٢) ال عمران: ٨٥.

(٣) العنكبوت: ٤١.

(٤) النحل: ٥١ (الجلالين)

(٥) الانعام: ١٥٣ (الجلالين).

(٦) ال عمران: ٧ (الجلالين).

بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون)[١] . كما لا ينصلح حال المسلمين بازالة ما شاب الاسلام من شوائب متمثلة بالخرافات والبدع والجمود والتقليد لادخال شوائب وبدع اوربية وتقليدها والجمود عليها واعتبار من يعارضها رجعي ومتخلف، مثل المفاهيم الكثيرة التي استوردوها وعلى رأسها الديمقراطية والاشتراكية وفصل الدين عن الدولة الخ... وقد قال سبحانه وتعالى: (ودت طائفة من اهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا انفسهم وما يشعرون)[٢] .

ولا اريد هنا ان اطيل على القارئ الكريم، فان بحث اعمالهما -الافغاني وعبدة- على اساس ما امر الله به ونهى عنه يحتاج الى بحث خاص من قبل متخصص في الشريعة الاسلامية ممن هم اهدى مني في ذلك. ولكني استطيع فقط ان اقول ان اعمالهما لم تكن الا حلقة في سلسلة متكاملة بدأت بالطهطاوي ولا تزال تضاف اليها الحلقات الواحدة بعد الاخرى الى يومنا هذا من اجل احداث مزيد من التغريب ومزيد من التبعية من اجل اللحاق بركب موهوم لا نعلم ما هو ولا الى اين يسير! فلا فرق بين عمل الطهطاوي الذي وضع من قبل الباحثين على رأس العلمانية وعمل محمد عبدة والافغاني اللذين وضعا على رأس الاصلاح الديني، فكلا الفريقين دعا الى اقتباس الحضارة الغربية واتباعها وكلا الفريقين حاول ان يجد في الاصول الاسلامية ما يجيز هذا الاقتباس وهذا التقليد ليسهل امر تقبله من قبل المسلمين تضليلا لهم. فعندما يدعو الطهطاوي الى اقتباس النموذج الفرنسي ويؤكد ان حريتهم انما هي عدلنا وانصافنا الاسلاميان لا يمكن ان يكون مقتنعا بذلك ومخلصا بدعوته تلك والا صار من حقنا ان نقول انه اما لم يفهم حريتهم او انه لم يعلم شيئا عن عدلنا وانصافنا! وكذلك الحال مع الافغاني وعبدة وتبنيهما لمسألة

---

(١) ال عمران: ١١٨ (الجلالين).

(٢) ال عمران: ٩٦.

الدستور والبرلمان على اساس من الشورى الاسلامية وتبني الاحزاب على اساس من ديمقراطية الاسلام، فاما ان يكونا غير صادقين في ذلك او انهما لم يفهما النظامين ولا الفرق بينهما. ثم لو كان كلا الفريقين صادقين وعلى بينة من امرهما وعلى يقين بأن دعوتهما هي من اصول الاسلام لعادا الى الاصل الاسلامي وليس الى شبيهه الاوربي!

فالدعوتان متشابهتان والفرق الوحيد بين دعوة الفريقين هو ان دعوة الطهطاوي والتونسي وقفت عند حد ايجاد المبررات لقبول الحضارة الاوربية وانظمتها بارجاعها من غير حق الى اصول اسلامية هي في الحقيقة تختلف عنها كل الاختلاف، ولكن الافغاني وعبدة توسعا وانتقلا بالدعوة الى مرحلة ابعد في ذات الاتجاه اذ ابتدأ بالمساس بهذه الاصول عن طريق التأويل والتفسير والفتاوى كمرحلة متطورة مكملة للاولى، اكثر جرأة من الاولى التي ما كانت لتستطيع ان تفعل ذلك والمسلمون على ما هم عليه من سوء الظن والرفض للاوروبيين. فالفريق الاول مهد لعملية التغريب هذه والتي نقلها الافغاني وعبدة الى مرحلة ابعد واكثر تأثيرا. وهكذا احداهما اكملت الاخرى. ثم جاء بعد ذلك تلامذة مدرسة عبدة -الافغاني لينقلوها الى مراحل ابعد حتى صار الحال على ما هو عليه الآن من التغريب والتبعية.

ان شواهد كثيرة تلك التي تجعل من حركة الاصلاح الديني هذه خطوة مكملة لمجموعة خطوات تكون عملية التغيير الذي قصده وخطط له الاستعمار الاوربي للامة الاسلامية بشكل عام وللامة العربية بشكل خاص. ولا يغرنا ما احتوته الحركة من افكار اسلامية وشواهد من القرآن والسنة فما ذلك الا ما تطلبته استراتيجية التغيير في كسب ثقة المسلمين المؤمنين لتساعد قادة التغيير اصحاب مبدأ (لا تقطع رأس الدين الا بسيف الدين) وامثالهم من استيعاب مقاومة التغيير وكسب الدعاة له واحداثه تدريجيا وعلى مراحل. فهي لم تكن الا بداية الطريق الجديد،

طريق العلمانية التي نشاهدها الآن في كل ما حولنا. فالفرعونية التي لمح اليها الطهطاوي تلميحا في تأكيده على ضرورة دراسة تاريخ مصر القديمة اصبحت عند عبدة موضوعا وطنيا يناقشه ويعلن عنه على صفحات الجرائد والمجلات لتصبح بعد ذلك عند طه حسين وغيره مبدأ يؤمنون به ويدعون اليه ويعملون من اجله.

والدعوة الى التشبه بالغرب المتقدم والاقتباس منه التي اشار اليها الطهطاوي بالتنويه من غير التصريح في تخليص الابريز في تلخيص باريز اصبحت عند عبدة دعوة صريحة ينفذها باصرار من خلال الدعوة للتنظيمات الاوربية واصدار الفتاوى من اجلها، لتتطور بعد ذلك عند طه حسين في عام ١٩٢٦ لتصبح دعوة للتلاشي في المدنية الاوربية بما يحتمه علينا في ان نعيش كما يعيشون في اوربا (وان نتعلم كما يتعلم الاوربي ولنشعر كما يشعر الاوربي ولنحكم كما يحكم الاوربي... ونصرف الحياة كما يصرفها)[١] واصبحت عند سلامة موسى ان (نعتاد الاوربيين ونلبس لباسهم ونأكل طعامهم ونصطنع اساليبهم في الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة...)[٢] واستمرت الدعوة هذه الى يومنا هذا ليرددها زكي نجيب محمود فيقول: اما ان نعيش الحياة العصرية كما تعاش اليوم في بعض اجزاء اوربا وامريكا... واما ان لا نعيشها قط!! وفي الوقت الذي حاول عبدة ان يجد في الفقه الاسلامي مداخل يدخل من خلالها الفكر الاوربي في حياة الامة الاسلامية ، وان يثبت ان متطلبات الدين لا تتناقض مع متطلبات المدنية الاوربية الحديثة، اعطى تلامذته مثل قاسم امين ولطفي السيد وعلي عبدالرازق وغيرهم، الحق للمدنية الحديثة في ان تبني قواعدها الخاصة بها وان تقتحم حياة الامة كيفما شاءت ومن غير اهتمام بهذه المداخل الشرعية الوهمية التي ابتدعها عبدة.

---

(١) محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث ص ١٦٧.

(٢) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي الحديث ص ١٧٧.

وفصل الدين عن السياسة الذي لمح اليه الطهطاوي وصرح به كل من عبدة والافغاني والكواكبي لتمهيد الطريق امام تبني النظم السياسية الاوربية، فقد اصبح عند علي عبدالرازق (١٨٨٨-١٩٦٦) تلميذ عبدة، والازهري! نظرية نشرها في كتابه الاسلام واصول الحكم زعم فيها (انه لا وجود لما يسمى بالمبادئ السياسية الاسلامية وان الرسول لم تكن له سلطة سياسية وقد انشأ ﷺ جماعة اسلامية ولكنها لم تكن من النوع الذي يمكن ان نسميه بـ "دولة" معتمدا في ذلك كتب المستشرقين وحدهم)[١] من دون غيرهم.

والغاية القصوى التي وضعها كل من الافغاني وعبدة هدفا لاعمالهما والتي لا تتعدى (ان تلحق الامة بالامم الراقية وان يعيش المسلمون في الحياة متساوين مع غيرهم من الامم المتمدنة) وصلت الى طه حسين لتصبح لنسير (سيرة الاوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم اندادا ونكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب)[٢] . فالامة يجب ان تريد ما يريد الاوربي وتسعى الى ما يسعى اليه اما ماذا يريد والى ماذا يسعى؟ وماذا سيحصل نتيجة سعيه هذا لنا او له؟ فهو ليس مهما كما يرى قاسم امين الذي قال: بعد ان اكد على وجوب منح النساء العربيات الحقوق حتى لو مررن في جميع الادوار التي قطعتها النساء الغربيات (اما الجواب عن سائل يسأل الى ما تنتهي هذه الامور...) فهو (ان ذلك سر مجهول ليس في طاقة احد من الناس ان يعلمه... لا يمكننا ان نعرف ماذا يكون حال المرأة بعد مرور هذه المدة -مائتي عام- وانما نحن على يقين من امر واحد. وهو ان الانسانية سائرة في طريق الكمال وليس علينا بعد ذلك الا ان نجد السير فيه)[٣] .

---

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ٢٢٨.

(٢) محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث ص ١٦٧.

(٣) قاسم امين: المرأة الجديدة ص ٢٠٦-٢٠٧.

وهكذا حتى اصبح مصطلح اللحاق بركب الحضارة شعار هذا اليـــوم يزيـن مقالات الكتاب وخطب الخطباء ممن يريد الظهور بمظهر المجدد المتطور التقدمـي المتنور!!

ولم يقتصر العمل التغريبي على هذا وذاك من الافراد الذين تعـهدوا البـذرة العلمانية التي بذرها الطهطاوي ومن بعده الافغاني وعبدة لتنمو هنا وهناك، بل لقـد قامت فئات من تلامذتهم واحزاب كلها علمانية تنشر العلمانية والتغريب!!.

وهكذا حدث التغيير الذي خطط له الاستعمار والذي سميناه النهضة العربيـة، فساد التغريب وسادت العلمانية وتفرق شمل الامة وانحسر الدين في قلوب المؤمنيـن ورواد المساجد من الشيوخ والمسنين. ولكن الله سبحانه وتعالى اراد ان يضل نـور الاسلام ساطعا ينير ظلمات الكفر والعلمانية والالحاد، فكان لا بد ان يظـهر مقـابل الضغط الشديد من جانب المتأوربين والمتغربين على الامـة، ضغـط آخـر يشـد بالاتجاه المعاكس، باتجاه الدين والعقيدة من اجل حفظها. وكلما زاد شد المتغربيـن باتجاه التغريب كلما زاد شد الاسلاميين الى جانب الدين والعقيدة الاسلامية يدعمـهم فشل حركة الاصلاح التغريبي في تحقيق آمال الامة في التقدم الصناعي والعلمـي والرفاه الذي وعدت به، وتساقطت شعاراتها الواحدة تلو الاخرى، الحرية والعدالـة والديمقراطية والمساواة والاشتراكية، صارت دكتاتورية واسـتبداد وطبقيـة وظلـم اجتماعي لم تعاني الامة مثله من قبل. فانقلب الحال واصبح الاسلاميون هم دعـاة التغيير. ولما كان ادامة الوضع التغريبي الراهن يتطلب احداث توازن بيـن قوتـي الدفع للتغيير -الاسلاميون- والمقاومة له -التغريبيون-، ولما بدا ان عوامل التغيـير قد نشطت وقد تختل الكفة الى جانبها مما قد يغير الوضع التغريبي الراهن والـذي بذل الاستعمار الكثير من اجل تحقيقه، كان لا بد من اضعاف عوامل التغيير: هـذه اما بضربها او باستيعابها مرة اخرى وتوجيهها وجهة لا تؤدي ألا الـى اضعافـها ليحدث التوازن بين القوتين ويحتفظ الوضع الراهن بوجوده. واي شـيء يمكـن ان

يضعف الدين اكثر من التشدد والمغالاة في غير مواقعهما. والله قد جعل الدين يسروا وليس عسرا. فكما نجحت المغالاة في الدين ونجح التشدد في تفرق كلمة الامة في الماضي وخروجها عن العقلانية التي امر الله بها فهرب المسلمون الى طرق صوفية اضلتهم وشغلتهم بالفروع والهوامش والبدع عن الاصول والاسس فكذلك هو الحال الان. فكما ظهرت الطرق الصوفية المختلفة المذاهب المغالية ففرقت الامة وشتت شملها، وسلكت سلوكا باسم الدين لا يقبله الدين ولا يرضاه فكذلك تفعل الآن بعض الاحزاب الاسلامية المتنافسة والتي يسلك البعض منها من السبل ويستخدم من الوسائل ما لا يقبله الدين ولا يرضاه. وكل منها تعتقد انها على حق وانها تعمل لمصلحة الاسلام والمسلمين، بينما الكثير مما يفعلونه هو ضدهم وضد الاسلام والمسلمين والى جانب التغريب والتبعية. فالتعصب والتشدد في الفروع وفي البدع تلهيهم عن الاسس والاصول مما يؤدي الى التفريط بها تماما كما يفعل التساهل بها وما الخوف الا ان هذه الافراط والتفريط مع التنظيمات السرية التي يعتمدها البعض قد تسمح من جديد لبلنت جديد وافغاني جديد ان يدخل صفوفهم ويغيير مسارهم باسم الدين ويجعل توجهاتهم تخدم اهداف اعدائهم اكثر مما تخدم اهدافهم، وهم لا يشعرون حتى يسبق السيف وتقع الطامة ويصاب الدين وتصاب العقيدة الحق بدلا من اصابة المنافس المقصود. وان كان رواد النهضة الاوائل قد وقعوا في الفخ الاوربي باسم تجديد الدين واصلاحه من حيث يدرون او لا يدرون فتحول اصلاحهم الى علمانية وتغريب وتبعية فلا يصح لرواد الصحوة من المسلمين ان يقعوا في ذات الفخ مرة اخرى وفي وقتنا الحاضر باسم العودة الى السلف وبأسم الاعتدال او في ظل أي اسم او أي شعار.

وعلى اية حال، لا بد لفهم اكثر لعملية التغيير هذه وفهم النهضة العربية هذه من الاطلاع على البدع الاوربية التي رفع شعاراتها رواد النهضة والاصلاح الديني

ومن جاء بعدهم وسار مسارهم، فما هي هذه الدعوات او البدع؟ ومن اين جـــاءت؟ وكيف خرجت؟ ومن خدمت؟

اما ما هي؟ فهي: الحرية، والديمقراطية، والاشتراكية، والثـــورة، والجامعـــة العربية مقابل الجامعة الاسلامية، وفصل الدين عن الدولة.

اما من اين جاءت وكيف توجهت؟ ومن خدمت؟ فهو ما ستجيب عنه الفصـــول التالية.



الباب الثاني
شعارات نهضوية
سادت ثم بادت



الفصل الأول

الحرية

أن من غرائب ما سمي بالنهضة، ان روادها تعرفوا على الحرية الاوربية! من خلال الاحتلال والاستعباد! تعرفوا على الحرية من خلال ضرب الاسطول الفرنسي للاسكندرية واحتلال نابليون لمصر واستعبادها بعد ان حصد ارواح الآلاف من ابنائها! فحدثت النهضة!!! وظهر مفهوم الحرية كاحد شعارات الغزاة وانتشرت كاحد مفاهيم النهضة وصارت بعد ذلك كل من بيروت المحمية الفرنسية، والقاهرة منبرين للدعوة الى الحرية الاوربية المنشأ هذه! تتقاسمان مسؤولية النقل والنشر، النقل عن اوربا والنشر على العالم الاسلامي. فقد جاءت اساطيل فرنسا وجيوشها لتحررهم من الاستعباد العثماني وتساويهم بغيرهم من احرار اوربا، كما ادعى زعماء الاحتلال وردد دعاته. فعندما احتل نابليون مصر، اصدر بيانا باللغة العربية، افتتحه بالبسملة فقال: (باسم الله الرحمن الرحيم، لا اله الا الله،ولا ولد له ولا شريك له في ملكه) وذكر ان البيان صادر عن الحكومة الفرنسية (المبنية على اساس الحرية والمساوة) ثم اعقبة في بيان اخر يقول: (لقد خرب الاتراك مصر بجشعهم اما الان، فالطائفة الفرنسوية ... اشتاقت انفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه واراحة اهلها من تغلب هذه الدولة...) ثم توجة الى الشعب فقال (ايها المصريين لقد قيل لكم اني ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم. فذلك كذب صريح، فلا تصدقوه وقولوا للمغترين به اني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من الظالمين. وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانة وتعالى واحترم نبيه والقران العظيم ... أيها المشائخ ... واعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا

الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الأسلام. ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكوالليرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين. ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني واعداء اعدائه ...)[1]

وكأن نابليون في بيانه هذا حدد مسار النهضة العربية وتوجهاتها بما يلي:

١- ان اوربا تحوى النور كله وبما فيه من حرية وديمقراطية وعدالة بكل اشكالها الخ ....

٢- ان ليس للاوربيين مطامع في البلاد وان كل ما يهمهم هو نشر نورهم في العالم العربي لتسود فية الحرية والمساواة والديمقراطية والاشتراكية الخ... فهم منقذين لا غير ولهذا وجب التعاون معهم ومساعدتهم في مساعيهم هذه ومن تخلف عن ذلك فهو الرجعي والمتخلف وعدو الحرية وعدو الديمقراطية وعدو الاشتراكية ... بل هو عدو الانسانية جمعاء!!

٣- ان الحكام الوطنيين، ايا كانوا - الدولة العثمانية والمماليك انذاك - هم اسباب التخلف والشقاء وبالخلاص منهم تسود الحرية وتسود السعادة الخ...

٤- وبما ان المجتمع متدين والامة تتمسك بالدين الاسلامي فاذا الدين هو وسيلة،فقط، لنشر هذا النور الاوربي لانة اسلامي في الاصل - ووسيلة للتخلص من الحكام المحليين وقبول الاوربيين مكانهم لانهم مسلمون اكثر من هؤلاء الحكام! -كما هم الآن ديمقراطيون وعادلون اكثر من الحكام العرب-!!

٥- وبما ان الدولة العثمانية هي الأخرى تحظى بالقبول والاحترام من الامة وخوفا من نداء الجهاد الذي يمكن للسلطان ان ينادي به فتجتمع الامة حوله وهي على ما هي عليه من تدين فاذا هي الاخرى لا بدمن اظهار الود لها بالظاهر فرغم ان نابليون جاء ليخلص المصريين من الاتراك الا انه يكن كل الود والمحبة

---

[1] البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة العربية ص ٧٠-٧١

والاخلاص للسلطان!! وهكذا ايضا رواد النهضة، قلما جاهروا السلطان والدولة العثمانية بالعداء، وانما كان التآمر عليها بالخفاء وبالتلميح لا بالتصريح في الغالب مع تسديد الضربات حولها هنا وهناك. حتى ان عرابي انكر ان تكون حركته ضد الدولة العثمانية، الى ان تفرق الجمع من حولها فنادى المنادي بعد ذلك بالجهاد كما حدث ابان الحرب العالمية الاولى فلم يكن هناك من مجيب.

ولا بد ان هذا واحد من الاسباب التي جعلت البعض يربط بين النهضة العربية وغزوة نابليون على مصر. مع انها لم تكن بداية النهضة بالنسبة للعرب والمسلمين وانما كانت بداية لاسلوب جديد في التعامل مع الامة الاسلامية وحضارتها الاسلامية من اجل القضاء عليها بدل اسلوب الحروب الصليبية المكشوفة المطامع. وهكذا بذر احتلال نابليون لمصر بذرة الحرية مع ما بذر من بذور اوربية اخرى. ولكن بذرته هذه لم تثمر كثيرا فالارض لم تكن مهيئة لاستقبال البذور التي اراد، ولكن جاء تلامذة المدارس الاجنبية والبعثات والاحزاب والجمعيات الاجنبية التوجهات كما مر ذكره وبداوا بحرث الارض وازالة العوائق والعراقيل وتهيئتها لانبات تلك البذور الاجنبية ثم رعايتها بعد ذلك لتصير الى ما هي عليه الآن. فتحول منطق الحضارة الاوربية الذي كان معروفا انذاك، وهو منطق الحق للاقوى على ايدي هؤلاء التلاميذ الى حرية ومساواة واخاء، وهو ثالوث الثورة الفرنسية وشعارها. وقد اكد لوبون هذا المنطق الذي غاب، او تغيب، عن ذهن مفكري النهضة وروادها اذ قال:

(لا يوجد ما يسوغ به الاوربيين شرههم وطمعهم سوى المبدأ الذي لا يعرف التاريخ غيره، وهو حق الاقوى... ولن يكون للامم من الحقوق في التنازع الحاضر الذي يزيد كل يوم الا بنسبة ما عندها من المقاتلين والمدافع، واليوم لا امل لاحد في المحافظة على غير ما يقدر على الدفاع عنه فإما غالب، واما مغلوب، واما صياد، واما قنيصة وهذه هي سنة الازمنة الحديثة، ولا قيمة لكلمة العدل والانصاف في علاقات الأمم بعضها ببعض، ولا مؤيد لها، وهي من الالفاظ المبهمة المشابهة لاحتجاجاتنا المبتذلة التي لا تخدع انسانا، واليوم يحدثنا الشعراء عن العصر الذهبي الذي يسود الناس فيه اخاء تام، انني اشك في وجود مثل هذا العصر في أي زمان

كان، وهو ان وجد تلاشى الى الابد... فالانسان قد دخل دورا من الحديد والنـــار لا بد من هلاك كل ضعيف فيه...)[1]. وقد صدق حدس لوبون بأن الحضارة الاوربيـــة وشعاراتها بالحرية والمساواة والاخاء -لم تخدع انسانا- بالنسبة لعامـــة المســـلمين الذين لم تخدعهم هذه الشعارات وعلموا انهم مستهدفون من قبل اوربـــا ليـــس فـــي اوطانهم فقط بل في عقيدتهم ايضا وكل مقومات شخصيتهم فرفضوا وقاوموا ونبهوا ولكن روادالنهضة من التلامذة هؤلاء، لسبب ما، رفعوا الشعارات الاوربيـــة هـــذه ومنها الحرية، معتمدين على مفاهيم الحرية كما تصوروها -او كما صورت لـــهم- في اوربا مستخدمين شواهد من الفكر الاسلامي للتـــأكيد علـــى ان هـــذه المفـــاهيم الاوربية للحرية هي ذاتها المفاهيم الاسلامية الحقيقية، ولكن ليس من اجل العـــودة الى الاصل الاسلامي، وانما من اجل اقتباس مفاهيم اوربا والانسياق ورائها.

الحرية في نظر الطهطاوي

فالطهطاوي، وهو اول دعاة الحرية على الطريقة الاوربية، دعـــا فـــي كتابـــه تخليص الابريز في تلخيص باريز، الى قبول الحرية كما جاءت بـــالفكر الفرنســـي وقال في تعريفها: ان حريتهم هي (عين ما يطلق عليه عندنا العـــدل والانصـــاف، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوي في الاحكام والقوانيـــن بحيـــث لا يجور الحاكم على انسان بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر:

وقد ملأ العـــدل اقطارهـــا   وفيها توالى الصفـــا والوفـــا[2]

ولكنه وفي ذات الوقت وقف في صف الثائرين على الملـــك وامتـــدح تـــهجم الرعية على خانات العساكر واخذ ما فيها من سلاح وبارود وقتل مـــن فيـــها مـــن العساكر ثم (كسروا قناديل الحارات وقلعوا بلاط المدينـــة وجمعـــوه فـــي الســـكك

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٥٩٨-٥٩٩.

(٢) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ص ٣٧.

المطروقة، حتى يتعذر مشي الفرسان عليه)[1] وندد بالملك واعتبره من اجل محاصرة جنود الحكومة للمدينة لاحتواء الفتنة والقضاء عليها منتهك للحرية وعدو لها!!! فما هي الحرية كما يفهمها الطهطاوي؟ واين حدودها؟ وكيف يصف الفرنسيين فيقول (الفرنساوية يحلون الحرية مكانا عليا وانها اصبحت لهم عادة وانهم بها حريون)[2] وهم كما رأهم بعينه قد فعلوا ما فعلوا؟ وهل قتل العساكر في خاناتهم -وليس في مواجهتهم- والاعتداء على العامة من الناس من الملكيين وقتلهم ونهب حوانيتهم الخ... ليس فيه انتهاك للحرية؟ او ليس لهؤلاء حرية يجب ان تصان؟ وكيف يصف الحرية الفرنساوية بأنها (لا يجور الحاكم على انسان بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة) ويمتدح هؤلاء؟ فبأي قانون كان هؤلاء الثائرون يحكمون؟ وما هو الجور ان لم يكن قتل العساكر والابرياء من العامة جورا؟ ثم وبغض النظر عن من من الطرفين كان جائرا، ان ما يهمنا هو انه كان هناك جور وظلم في فرنسا ولم يكن (الفرنساوية يحلون الحرية مكانا عليا) كما يقول، ولم يكن القانون هو الذي يحكم وان حكم فلم يعدل كما كان يريدنا الطهطاوي ان نعتقد وبالتالي فان الطهطاوي لم يكن يدعو الى الحق بل يمكن القول ان دعوته كانت مضللة للأمة ولم تكن صادقة!

ثم هو بعد ذلك بسنوات شرح الحرية في كتابه المرشد الأمين، فجعل الحرية خمسة اقسام (حرية طبيعية وحرية سلوكية وحرية دينية وحرية مدنية وحرية سياسية، الحرية الطبيعية: هي التي خلقت مع الانسان وانطبع عليها كالأكل والشرب والمشي والحرية السلوكية هي حرية اختيار الخلق والسلوك المناسب الذي يراه مناسبا له ويتعامل به مع الآخرين. والحرية الدينية هي (حرية العقيدة والرأي والمذهب بشرط الا تخرج عن اهل الدين) والحرية المدنية هي الحدود التي (يتحرك ضمنها اهالي البلاد في علاقاتهم مع بعضهم البعض والحرية السياسية وهي تخص علاقة الفرد بالدولة مثل حرية التصرف بما يملك وحرية الفلاحة والتجارة والصناعة والملاحة

---

(١) ذات المصدر ص ٥٣.

(٢) ذات المصدر ص ٥٤.

والسياحة)[1]. وحدد حدودالحرية لتتصف المملكة (بأنها مملكة متحصلة على حريتها) فقال: يتصف (كل فرد... بأنه حر يباح له ان يتصرف في نفسه ووقته وشغله، فلا يمنعه من ذلك الا المانع المحدود بالشرع او السياسة، مما تستدعيه اصول مملكته العادلة، ومن حقوق الاهلية ان لا يجبر الانسان على ان ينفى من بلده او يعاقب فيها الا بحكم شرعي او سياسي مطابق لاصول مملكته، وان لا يضيق عليه في التصرف في ماله كما يشاء، ولا يحجر عليه الا باحكام بلده، وان لا يكتم رأيه في شيء بشرط ان لا يخل ما يقوله او يكتبه بقوانين بلده...)[2] ثم يقول محددا اكثر في مكان آخر (حيث ان الحرية منطبعة في قلب الانسان من اصل الفطرة واقتضت الحكمة الالهية عدم تحقيره وذله وكرمته على جميع ما عداه فينبغي ان يعرف مرتبة اكرام وطنه واخوانه ورئيس دولته)[3].

فأي حرية هذه التي يدعو اليها ولم تكن موجودة في بلاده او في غيرها انذاك واي جديد في دعوته ما دام قد حدد الحرية بعدم الخروج عن القوانين الشرعية او السياسية؟ وبشرط اكرام اخوانه ورئيس دولته؟ فهل كان ينفى او يسجن او تحد حرية الفرد بأي شكل كان الا ان ارتد عن دينه او عن ما يفرضه من قيم وتقاليد، أو ان عادى اخوانه او رئيس دولته، او اضر بمصالح دولته بحاكمها ومحكوميها بأي شكل كان فيحاسب عندئذ وفق القوانين الشرعية او السياسية؟ ثم هل كرم الفرنساوية ابناء وطنهم ورئيس دولتهم اثناء تلك الفتنة التي شاهدها وايدها حتى قال فيها ما قال مادحا ما فعلوه ومعجبا به؟!!

اديب اسحق والحرية:

اما مفهوم اديب اسحق للحرية وشروطها فهو لا يختلف كثيرا عن مفهوم الطهطاوي، ولا غرابة في ذلك ما دام المصدر واحد فكلاهما مصدره فرنسا وقدوته

---

(١) ذات المصدر ص ٦٨-٧٩.

(٢) ذات المصدر

(٣) ذات المصدر ص ٨٣.

فرنسا. وان كان اديب اسحق (لا يشير في العادة الى اية نصـــوص دينيـــة، وهـــو بمعرض الحديث عن -الحرية- او غيرها ولكنه يشير... الى تلك الشواهد مســـميا لها باطلاق ودون اثباتها، -شواهد النقل-)[1]

ومفهوم الحرية عند اديب اسحق كما يذكر الدكتور عزت قرني منقـــــــول (من مؤلفات مدرسية فرنسية) اذ يقول: (الحرية ثـــالوث موحـــد الـــذات متـــلازم الصفات، يكون بمظهر الوجود فيقال له الحرية الطبيعية، وبمظهر الاجتماع، فيعرف بالحرية المدنية، وبمظهر العلائق الجامعة فيسمى بالحرية السياسية)[2]. وقد اقتبـــس اديب اسحق تعريف -منتين وسنيك- للحرية على انها (المقدرة على فعل كـــل مـــا يتعلق بذاتي) كما اقتبس تعريف منتسكيو الذي يرى (ان لا يجبر المرء على مـــا لا توجبه القوانين) وفي صورتها السياسية (ان يفعل المرء كل ما تجيزه القوانيـــن)[3]. ويبدو ان القوانين في نظر اديب اسحق هي القوانين الفرنسية فقـــط لانـــه يســـتهين بالقوانين الشرعية الاسلامية المعتمدة على القرآن والسنة اذ هو يقول بعـــدان ينتقـــد القانون الروماني (اما حدودالمداجين وتعاريف المنافقين للحرية فلا محل لايرادهـــا ولا موضع لانتقادها في مثل هذا المقام) لان اهل السلطة الاستبدادية في كل مكـــان في نظره (يفترون على الحرية في تعريفها بالطاعة العمياء والتسليم المطلق لمقـــال زيد، مرويا عن حكاية عمرو، مسندا الى رواية بكر، مؤيدا بمنام خالد، فهي بموجب هذا الحد فناء الذهن، وموت القوة الحاكمة وخروج عن مقام الانســـان)[4]. مـــع ان القوانين الفرنسية ذاتها لا تخرج عن كونها قول لويس وحلم فيليب وخرافة موليـــه وروسو وهكذا حتى تصل الى ارسطو وافلاطون، ولكنه لا يجد في ترديده لها موتـــا لقوته الحاكمة او خروجا منه عن مقام الانسان، بل يجد فيه العبقرية والانسانية!! ثـــم ما الذي يجعل هذه القوانين افضل من القوانين التي وضعها رب العالمين وارتضاها

---

(1) ذات المصدر ص ١٧٥.

(2) ناجي علوش: الكتابات السياسية والاجتماعية لاديب اسحق ص ٨٤-٨٥.

(3) ذات المصدر

(4) ذات المصدر

الناس انذاك اجمعين. بينما كانت قوانين فرنسا وافكارها وشعاراتها حتى ذلك الوقت تفرض على الناس بقتل الالاف وانتهاك حرية الملايين! من الفرنسيين انفسهم قبل غيرهم. واديب اسحق نفسه الا يعتدى على حرية الملايين من المسلمين بالاستهانة بشريعتهم وقوانينهم التي ارتضوها لانفسهم؟ وبالعمل من اجل تبديلها بقوانين اجنبية عنهم؟ ما هي الحرية بالنسبة له ولكل المطبلين لها؟ فهل الحرية هي حريته فقط وحرية حزبه الماسوني لانتهاك حريات الناس؟ ولا حرية لغيرهم كما كان الحال انذاك وكما صار اليه وحتى يومنا هذا!! الحرية هي للدعاة من افراد او احزاب يفرضون باسمها انفسهم على الامة وينتهكون باسمها حريات الجميع!

والحرية التي دعا اليها اديب اسحق هي: حرية الرأي، وحرية القول وحرية الانتخاب ولكل من هذه الحريات التي يعتبرها حقوقا حده (... لو تعداه لكانت الحرية فيه شر من القيد واشنع من العبودية فحد حرية الرأي ان يكون مبنيا على القياس، موافقا للحكمة مطابقا للصواب، وحد حرية القول ان يراد به الخير ولا يجاوز فيه حد المنفعة والملايمة ولا يمس شرفا مصونا، ولا يضر بريئا امينا، ولا ينشر عن غير علم يقين. وحد حرية الانتخاب ان يراد به مصلحة الوطن العزيز ليس الا...)[1] وهذا كله كلام جميل وان كان منقولا من الكتب المدرسية الفرنسية، ولكنه يحوي من المفاهيم الفضفاضة ما لا حصر لها. فالرأي المبني على القياس والحكمة والصواب يستدعي التساؤل: قياس من؟لا بد انه قياس على فرنسا، وهل ما يصلح لها يصلح بالضرورة لمصر؟ وماذا عن الشريحة الكبرى من الامة والمتمسكة بمقياسها الذي ارتضته لنفسها، والذي استهان هو به ؟ خاصة وهي كانت تمثل الاكثرية التي ترى في السير على مقياس فرنسا او غيرها خيانة كبرى للأمة وللوطن، وقد اثبتت الايام بعد نظرها. ويقول موافقا للحكمة، اية حكمة؟ ومن يحددها؟ اتحددها الماسونية التي كان هو احد اعضائها بجمعياتها واحزابها والتي كانت بفضل دعم الدول الاجنبية تسيطر على السياسة في مصر، وتتآمر عليها لتلحقها بهذه الدولة الاجنبية او تلك؟ وماذا ايضا عن حكمة غير هؤلاء، من عامة

---

[1] ذات المصدر ص ٣٩.

الشعب المصري وخاصته الذين كانوا يرون في كل ذلك خيانـــة للديـــن وللوطـــن؟ وقداثبتت الايام حكمتهم. ومطابقا لاي صواب؟ صواب هؤلاء القلة من المتـــأوربين الذين يريدون اتباع اوربا ويرون الصواب في اتباعها والنسخ عنـــها؟ ام صـــواب غالبية ابناء الامة التي كانت ترى في ذلك خطرا يتهدد امنها وحريتها وشـــخصيتها، وترى الصواب في البناء الذاتي للامة بعيدا عن كل الطامعين الاجانب فيـــها؟ ومـــا ينطبق على كلمات الحكمة والصواب ينطبق على كلمات اخرى مثل الخير والمنفعة والملايمة التي جاءت في قوله اعلاه. فهي كلها مفـــاهيم تتطلـــب معـــايير تختلـــف باختلاف منطلقات الدعاة وعقائدهم. والدعاة لم يكونوا جميعا يـــرون رؤيـــة اديـــب اسحق في اتباع هذا النموذج او ذاك من النماذج الاوربية. بل كان هناك الكثير ممن يريدون الاحتماء بمقوماتهم الدينية والاجتماعية، بكل جوانبها من تلك التبعية التـــي تستهدف مسخهم والسيطرة عليهم. مما يجعل دعوة اديب اسحق للحريـــة –ودعـــوة امثاله –هي ذاتها انتهاك لحرية مجموع الامة في اختيار ما ترتضيه لنفســـها فـــي الحياة، مما يبطل قوله ان شرط (القانون ان يكون موضوعه الحرص على حقـــوق الكل... فالحكم يكون قانونيا لا من حيث انه يذهب بحرية فرد من القوم ولكن مـــن وجه انه يحفظ حرية الكل...)[1] ويجعله حبرا على ورق لم يعتمده قائله نفسه.

خيري الدين التونسي والحرية:

اما التونسي فلم ينظر حوله وفي عالمه الاسلامي وما فيه من الحرية والتحـــور اللذان بفضل وجودهما صار وهو العبد المملوك احد اكبر الشخصيات السياسية فـــي تونس وترقى الى ارقى المناصب في الدولة سواء في تونس او في الاستانة حيـــث وصل الى مقام الصدر الاعظم، وهي مناصب لا يصل اليها الاحـــرار فـــي بـــلاد اوربا، بلاد الحرية!! الا ان كانوا من طبقة النبلاء. ولم ينظر او يتبصر فيما اكـــدت عليه العقيدة الاسلامية من مفاهيم الحرية والتحرر ليبني نظريته في الحرية على مـــا ورد فيها وانما تطلع بعيدا الى اوربا واستمد هو الآخر مفهومه للحرية منـــها، ولـــم

---

[1] عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ص ١٧٨.

يختلف في ذلك عمن سبقه الا في تأكيده المتزايد والمدعوم بالشواهد على ان شريعتنا تحوي ذات معاني الحرية التي جاءت من اوربا! اذ كان كلام التونسي كما يرى عزت قرني يدور (حول الحرية شيئان مرتبطان: الاول والاهم هو نقل نظم الحرية الاوربية الى القارئ وترغيبه فيها، والثاني وهو الوسيلة، محاولة بيان ان كل هذه النظم وما يتصل بها من مفاهيم قد وجدت في الاسلام ولها مقابل في الشريعة ولكنها لم تطبق الا نادرا ولم تحترم الا لماما)[1]. ويعرف التونسي الحرية كما يفهمها الاوربيون فيقول: (ان لفظ الحرية يطلق في عرفهم بازاء معنيين احدهما يسمى الحرية الشخصية وهو اطلاق تصرف الانسان في ذاته لا يخشى هضيمة في ذاته ولا في سائر حقوقه... المعنى الثاني الحرية السياسية وهي تطلب الرعايا التدخل في السياسات الملكية والمباحثة فيما هو الاصلح للمملكة...) وحتى يعطي المفهوم جواز مرور الى العالم الاسلامي يقول (على نحو ما اشير اليه بقول الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من رأى منكم اعوجاجا فليقومه...) ولما كان اعطاء الحرية بهذا الشكل لسائر الاهالي يؤدي الى (حصول الهرج عدل عنه الى كون الاهالي ينتخبون طائفة من اهل المعرفة والمروءة تسمى عند الاورباويين بمجلس نواب العامة...)[2] وجعل للحرية شرطا، فحرية النشر مشروطة بقصد الرعايا في اصلاح المملكة (اما ان كان الباعث على المناضلة وفرط التعصب والحمية مما يؤدي الى الافتراق احزابا بعضها يرمي الى قلب نظام الدولة كأن تكون المملكة جمهورية او ان تتغير العائلة المالكة الخ...) فعند ذلك اباح (للملوك الامتناع عن اعطاء تمام الحرية)[3]. واشترط على ان لا تؤدي الحرية السياسية الى تفرق شمل الامة او الى تفتيت الدولة العثمانية واضعافها امام القوى

---

(1) ذات المصدر ص ١٣٨ (وهل كانت الحرية الاوربية مطبقة في اوربا؟ ثم ما الذي سيجعل المفاهيم الاوربية تطبق في البلاد الاسلامية ان كانت المفاهيم الاسلامية المطابقة لها لم تطبق الا لماما.؟

(2) خيري الدين التونسي: اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك ص ٧٤-٧٦.

(3) عزت قرني: العدالة والحرية... ص ١٤٥.

الاوربية بل ان يعمل جميع الرعايا على الحفاظ على مصالح الدولة وتقوية شوكتها[1] . مما يجعل صوت خيري الدين التونسي من الاصوات التغريبية القليلة التي لم تهدف من وراء شعارات الحرية اضعاف الدولة العثمانية تمهيدا للقضاء عليها. وان بقت توجهاته الاخرى مشابهة لغيره من دعاة النهضة في جعل اوربا معيارا للحرية والتحرر والدعوة الى اتباعها مما وضعه ضمن رواد النهضة!!

الافغاني ومفهوم الحرية:

اما الافغاني، الذي هو كل يوم في شأن، فان مفهومه للحرية هو الآخر كذلك. ولكن وفي كل الاحوال، ما يهمه من الحرية هو الحرية السياسية والتي قال فيها الكثير بشكل مباشر او غير مباشر من خلال مقاومته لاستبداد الحكام! فمن اقواله مثلاً (اذا صح من الاشياء ما ليس يوهب فاهم هذه الاشياء الحرية والاستقلال لان الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر والاستقلال كذلك)[2] . وحرية الرأي عنده هي وسيلة لمقاومة الحكام والتناحر معهم اذ يقول: (... كل وطني حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية)[3] والحرية (وخاصة حرية الرأي) بالنسبة للافغاني فهي -كما هي بالنسبة لمعظم مفكري النهضة وساستها- حريته وحده وحرية حزبه الماسوني، لا بد ان يحرم منها غيره حتى بقية الماسونيين من خارج حزبه. فهو مثلا عندما اتفق مع تريكو على عزل اسماعيل وتولية توفيق واتهم من قبل الماسونيين من حزب عبدالحليم باشا بافساد الماسونية، كتب يرد عليهم ويبرر فعلته بانها من حقه وحق الوطنيين اعضاء حزبه وليس لأحد ان ينتقدهم عليها فقال: (ومن كانوا منهم معارضين لنا فيها او متخذين سياسية مخالفة لسياستنا فهم احرار في افكارهم وانما يلزمنا ان نحسبهم حزبا مقاوما للهيئة الوطنية القانونية

---

(١) ذات المصدر.

(٢) ذات المصدر ص ٤٢.

(٣) ذات المصدر.

الرسمية[١]. فعلى الحكومة حينئذ ان تراقب حركاتهم وسكناتهم، حفظا للراحة العمومية وسد الخلل...)[٢] وموطن الحرية في نظر الافغاني هو فرنسا وباريس هي (كرسي الحرية).

محمد عبدة والحرية:

والحرية بالنسبة لعبدة هي ما اشرق نوره من اوربا، فالشرق بقى كما يقول عبدة (مندمجا في جهالاته منغمسا في ضلالاته لا يدري ما تلك المزية وما مقدارها، حتى اختلطت الامم الغربية بأهله، فلحظوا من خلال اختلاطهم وتداخلهم شعاع تلك الحرية فانبهرت عيونهم واندهش لبهم ولم يقفوا على حقيقتها وحقيقة الطرق التي توصل اليها، فعظم شأن الاجنبي في اعينهم وصار بالنسبة اليهم في درجة ارقى من درجتهم لانه توصل الى تلك المزية التي تجعل الانسان انسانا كاملا...)[٣]

ومفاهيم الحرية التي جاءت على لسان عبدة هي ذاتها التي جاءت على لسان غيره من الرواد وخاصة اديب اسحق والافغاني، وعلى رأسها الحرية السياسية والتي كانت وسيلة لمقاومة الحكام. وان كان عبدة اكثرهم صراحة في جعلها سيف يشهره في وجه الحكام الوطنيين فقط من دون الاجانب. فعندما يخص الامر السلطان او الخديوي يقول: (وكأن حاكما مطلقا يعطي الحرية للامة من تلقاء نفسه وانما تتشيد الحرية بيد الامة لا بيد الحاكم...) اما ان كان الامر يخص المحتل الاجنبي فعندئذ لا يرى ضرورة لان تشيد الرعية الحرية بيدها وانما تعتمد في ذلك على المحتل فيقول: (فالامة لم تبلغ الحرية التي تتمتع بها... وما تبعها من اصلاح الا بواسطة الانجليز دون سواهم...)[٤] وهم كما يرى عبدة سيمنحون الرعية مزيدا

---

(١) وهكذا هم النهضويون ومنذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا، معارضتهم هي الوطنية اما كل من يعارض فكرهم او حزبهم فهو -حزب او فرد- عدو الوطنية ان لم يكن خائنا للوطن عليهم مقاومته بل تصفيته!!

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة للافغاني

(٣) علي شلش: الاعمال المجهولة، عبدة، ص ٢٣-٢٤.

(٤) ذات المصدر ص ٣٣.

من الحرية ان اثبتت الرعية لهم حسن سلوكها!! الحرية بالنسبة له تؤخذ من الحاكم الوطني عنوة ولكن يمنحها المحتل او يتصدق بها عندما تثبت له الرعية حسن السيرة والسلوك فيتأكد انهم مستعدين لها!!!

قاسم امين والحرية:

وعندما نظر قاسم امين الى حرية المرأة، نظر اليها ايضا من خلال استبداد ولي الامر الذي هو رب الاسرة -الصغيرة-، الاب او الزوج، ولم يجد مثلا اعلى له في الحرية سوى اوربا وما نبت فيها من حرية. فخصص قسما كبيرا من كتابه المرأة الجديدة دفاعا عن الحضارة الغربية ودعوة الى تقليدها مبررا كل الفساد في الخلق فيها على انه من لوازم، كما يقول و(لواحق الحرية الشخصية ونتيجة من نتائجها في الطور الادبي الذي توجد فيه تلك البلاد...) وهو لا يشك ابدا في ان البلاد الاوربية (مع مرور الزمن وانتشار المعارف وتحسين طرق التربية بين طبقات الامة عاليها ودانيها تتهذب النفوس شيئا فشيئا وتقرب من الكمال الذي هو ضالتها)[1].

فأوربا في نظر رواد النهضة! هي موطن الحرية، والاوربيون هم الاحرار الذي لا يهمهم شيء الا نشر الحرية على العالمين، والعقل والحكمة والصواب هو مد الايدي اليهم وتأييدهم في كل ما يفعلون -حتى وان كان احتلال البلاد واستعباد اهلها- للحصول على ما يتصدقون به من هذه الحرية! ولا يمنع العالم العربي والاسلامي من الحصول على هذه الحرية الا الحاكم الوطني، المغتصب للحريات والذي لا بد من مقاومته والتخلص منه حتى وان كان بالقتل او العزل كما خطط كل من الافغاني وعبده للخديوي اسماعيل الذي عزلوه في النهاية وكما اقترح عبده على عرابي ان يفعل مع الخديوي توفيق بعد ذلك اذ نصحه (اما بالمحافظة على الود معه او قطع رأسه)[2] وكما حدث في عزل السلطان عبدالحميد. والحرية بالنسبة لاكثر

---

(1) المرأة الجديدة ص ١٩٧-١٩٨ (فهل يا ترى تهذبت النفوس اليوم؟!!)

(2) علي شلش: الاعمال المجهولة، عبدة، ص ١٢١.

رواد ما سمي بالنهضة وكما يفهمونها ويطبقونها هي -وبالرغم من ان مفهوم الحرية كما اقتبسوه من اوربا والثورة الفرنسية يؤكد على ان (حرية الرأي والفكر من حقوق الانسان بشرط ان لا يسيء استعمال هذه الحرية في الحدود التي بينها القانون)[1] -حريتهم وحدهم فقط يقتلون من يشاءون ويسجنون من يشاءون من الافراد والمسؤولين ويهدمون ما يشاءون من القوانين والانظمة والمؤسسات، فالحق والعدل معهم فقط والحرية لهم وحدهم وليس لغيرهم حرية في قول او عمل. وما منهاج الحزب الاشتراكي في مصر والذي وضعه شبلي شميل علم ١٩٠٨م الا دليل واحد من ادلة كثيرة على هذا. اذ ينص على (ان للحزب سياستين: سلبية وايجابية. الاولى هي السعي الى ازالة جميع الكتب غير النافعة ومدرسة الحقوق، والجامعة الجديدة... والمحاكم المختلطةلا بل جميع المحاكم، والشركات المحتكرة لتوزيع المياه، والصحف التي تبذر الشقاق بالتحدث عن المسلم والقبطي والدخيل... والثانية هي ان يقيم بعد تهديم جميع هذه المؤسسات جامعة حقيقية تدرس فيها العلوم، ومدرسة تقنية بدلا من مدرسة الحقوق، ومحاكم محلية بسيطة جدا، ومؤسسات عامة لتوزيع المياه ومدارس ابتدائية في كل قرية وحي وصحف لائقة لتنوير الرأي العام)[2].

فبأي معيار يحكم الشميل على الكتب النافعة وغير النافعة، والجامعة الحقيقية والصحف اللائقة؟!! ثم ماذا عن المؤيدين لهذه المؤسسات والراغبين في وجودها أليست لهم حرية يجب ان تحترم وراى يجب ان ينال حقة من الاعلان عنه في الصحف حتى وان كانت غير لائقة؟!! وما هو معيار اللياقة ان نحن استبعدنا القيم الدينية الثابتة؟ اهو معيار فلان ام فلان وهكذا الى ان يصل عدد المعايير الى العشرات بل المئات او اكثر، بعدد الدعاة والمصلحين والمجددين والتيارات التابعة لهم؟ فالى اية حرية يدعون،اهي حريتهم وحدهم في نشر ما يرتأون من الافكار حتى وان كانت خاطئة وليس لغيرهم اية حرية في ان يفعل ذلك؟ وهو الامر الذي يظهر

---

(١) سلامة موسى: كتاب الثورات ص ٧٥-٧٦.

(٢) شبلي شميل: فلسفة النشوء والارتقاء جـ٢ ص ١٨٧-١٨٩.

واضحا لكل من يتتبع دعواتهم ومنهم على سبيل المثال سلامة موسى الذي يقول عن رفض الناس لنظرية دارون في التطور الانساني ورفضهم لكتاب علي عبد الرزاق، الاسلام واصول الحكم: ان المسألة هي ليست في مدى صحة اراء هؤلاء او خطأهم وانما(المسألة المهمة في النزاع هي ان كلا من المستر سكوبس – كاتب كتاب التطور –والاستاذ علي عبد الرازق له الحق في ان يكون حرا يرتأي ما يشاء من الاراء دون ان يقيد باي قيد سوى الاخلاص)[1] الاخلاص لمن؟ ما هو مفهومه؟ الله اعلم!! ثم يقول: (اني اومن بنظرية التطور) وبعد ان شرح الاسباب قال: قد(اكون مخطئا في نظري ولكني اجد الراحة في هذا الايمان فيجب ان اترك حرا في ان اعتقد صحته وان ادعو اليه غيري الذي يجد فيه مثلما اجد فيه من الراحة)[2] ولكنه في ذات الوقت لا يعطي الحرية للمخالفين لرايه هذا في نشر افكارهم والدعوة له من غير ان يهاجمهم ويتهمهم بالجمود والرجعية والتخلف بل ويطلب معاقبتهم، اذ يقول في مكان اخر انه يريد حكومة(ديمقراطية برلمانية كما هي في اوربا) ولكنه في ذات الجملة يقول:و(ان يعاقب كل من يحاول ان يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد)[3] . بل هو لا يكتفي بمعاقبة المخالفين لرايه وانما يعطي لنفسه الحق في التدخل في شؤون الناس اذ يدعو بالاضافة الى طرح كل القيم والدين والتقاليد في المأكل والمشرب الخ ... الى (منع الناس من التناسل) عن طريق التعقيم بحجة ان (نعمل... انتخابا صناعيا نلغي العائلة كما هي الآن ولا نرخص بالتناسل الا لمن ينبغي تخليد صفاته)[4] !! فتعامل، مدعي الحريات هنا مع الانسان وحقوق الانسان كما تتعامل الدول الاوربية مع الحيوان الاصم، تعتني بالمنتج وذو المردود وتذبح غيره لتقضي على سلالته!!!

---

(١) سلامة موسى: اليوم والغد ص١١٤

(٢) ذات المصدر ص ١١٥

(٣) ذات المصدر ٨

(٤) ذات المصدر ص٢١

وعلى اية حال، فقد انحدرت مفاهيم الحرية -المشوهة- هذه من رواد النهضة الاوائل الى من جاء بعدهم من قادة التغيير والى قادة ادامة التغيير من تلامذتهم وهكذا الى وقتنا الحاضر، تستمد روحها من ذات المصدر الاوربي وموجهة الى ذات الوجهة في هدم كل العلاقات الانسانية الضرورية لتماسك المجتمع. فالحرية كما كانت بالنسبة للاوائل من رواد النهضة، قد نبتت في اوربا واينعت فيها وفاح عطرها على العالمين فكذلك صارت بالنسبة لمن جاء بعدهم حتى صار كل من يدعي التجديد والتقدمية يستورد هذه الغرسة بكل ما فيها من تشويش وتشويه- وما يضيف اليها- ان اضاف- ويغرسها في البيئة العربية الاسلامية ليزين بها دعوته. فكما عمل عبده وجاهدا من اجل تدريس اراء جان جاك روسو وكنت وفرض ارائهما على المصريين بشتى السبل مدعيا الثقافة والتحرر والتجديد فكذلك فعل من جاء بعده، فعندما اراد محمد حسين هيكل ان يدعو الى الحرية، الف كما يؤكد زكي نجيب (كتابا عن جان جاك روسو ليستمد من دعوة هذا الفيلسوف الى الحرية دعوة يوجهها الى العرب في ثورتهم في سبيل الحرية...)[1] وعندما وجد زكي نجيب نفسه بعد ذلك ان دعوة الدعاة الى الحرية كانت سطحية ومن غير قاع لم يبحث لها عن قاع في تراث الامة ولا في عقيدتها ولا حتى في بيئتها واوضاعها المتفردة عن غيرها، كما لم يبدع هو نفسه- وهو المفكر المبدع-! منظورا خاصا لدعوة الحرية يكون قاعه كل ما سبق وانما اتجه الى سارتر ليجد في اعماله قاعا لدعوات الحرية النهضوية هذه!! اذ يقول في كتابه ثقافتنا في مواجهة العصر:

(فلمن شاء ان يقلب ما شاء فيما انتجناه[2] منذ الافغاني الى اليوم، لن يجد الا دعوات متلاحقات الى التحرر من هذا، وهذا وذاك، والحرية من هذا، وهذا وذاك، حتى لاكاد اقول ان ادباءنا، ومفكرينا لم يكن لهم شاغل اساسي الا موضوع الحرية في شتى وجوهها وفي مختلف تطبيقاتها: وحتى الدعوة الى العقلانية كانت فرعا من الدعوة الى الحرية... دعونا الى حرية التعليم، والى حرية الاديب والى حرية

---

(١) زكي نجيب محمود: في حياتنا العقلية ص ٥٤

(٢) وكان الاحرى ان يقول نقلناه

الباحث والى الحرية الاقتصادية بمعنى ان لا يكون العائق الاقتصادي حائلا دون انسان في طريق سيره وطموحه ما امكن ذلك... ولكننا نلاحظ ان دعواتنا الى الحرية كانت سطحا بغير قاع، ومن هنا كان اهتمامنا بفلسفة الحرية الانسانية عند سارتر)[١].

ووجه الخلاف الوحيد بين دعوة الاوائل من رواد النهضة! ودعوة من جاء بعدهم وحتى يومنا هذا هو ان معظم الاوائل كانوا يجهدون انفسهم! للتأكيد على ان مفاهيم الحرية وغيرها من المفاهيم الاوربية هي ذات المفاهيم الاسلامية، لتمرير المفاهيم الاوربية هذه على المسلمين وتحقيق القبول لها، بينما صار الآخرون يجاهرون بان عقيدتنا وتراثنا ليس فيه شيء منها فنجد زكي نجيب مثلا يقول: (حين تأزمت معنا مشكلة الحرية، وجدنا الحلول واشباه الحلول لا في التراث العربي القديم بل وجدناه في النتاج الاوربي الحديث...)[٢] ويقول في مكان اخر (كانت الحرية نقطة تماس بين المقهور والقاهر، كما هي الحال في سائر الميادين اخذنا المبادئ النظرية من الغرب الظافر لنحارب بها، والا فلو اعتمدنا على محصولنا الموروث وحده في المطالبة بالحرية والاحتجاج لها، لما وجدنا ما يحقق ذلك)[٣] واكد في مكان آخر على انه حتى ما موجود من مفهوم الحرية في تراثنا لا يحمل نفس المضمون الذي يحمله الآن (ان المعنى الذي قصدوا اليه بالحرية هو حرية الانسان في اختياره لافعاله، وهي حرية تحدد علاقة الانسان بربه ولا شأن لها

---

(١) ص ٢٣٦-٢٣٧

(٢) زكي نجيب: تجديد الفكر العربي ص٧٨-٧٩ (انظر مسألة القديم والجديد!)

(٣) زكي نجيب محمود: ثقافتنا وتحديات العصر ص٣٠ (اي تضليل هذا الذي بدأه النهضويون الاوائل واستمر حتى يومنا هذا؟ وهو اخذ سلاح الاوربيين لمحاربتهم به. فهل الاوربيون بهذه الغفلة ام بهذه الانسانية؟ التي تجعلهم يبذلون الكثير من الاموال والارواح والجهود في سبيل تزويدنا بسلاح، مادي او معنوي لا لننتحر به بل لنحاربهم به؟ وهل لمستجدي السلاح هذا ان يتوفر له منه ما يكفي ليجعله ليس فقط مساويا لصاحب السلاح بل متفوقا عليه ليحاربه ويهزمه ايضا ؟!!

بالروابط التي تصل بين الانسان والانسان في هذه الدنيا، فهي لا تمس علاقة الناس بالحكومة... ولاتمس صور التبادل التجاري والاقتصادي، بل ليست هي بذات شأن في علاقة الوالد بولده ولاالزوج بزوجه الا من جهة ان الافعال التي يختارها الانسان بارادته الحرة في كل هذه الميادين تضعه موضع الحساب يوم الحساب)(1)!!

فبعد ان مهد الرواد الاوائل للنهضة! لنشر المفاهيم المشوشة هذه وغيرها من المفاهيم الاوربية، بشواهد من الآيات القرانية والاحاديث النبوية تبرر اقتباسها وتجعلها مفاهيم اسلامية الاصل، ادت بالنهاية دروها في اضعاف الدولة العثمانية وزوال شمسها ودحرها والى الابد بتحول تركيا الى دولة علمانية وخضوع البلاد العربية والاسلامية لسيطرة الاستعمار المباشرة انتقل تلامذة رواد النهضة والاصلاح الديني- وتلامذتهم من بعدهم- الى مرحلة اخرى من مراحل خطط التغيير مكملة للاولى تلك، وهي تنفيذ التغيير. فانقسموا الى فريقين، فريق تولى الحكم وفريق تولى المعارضة لهذا الحكم،- مع ان كلا الفريقين اعدهم المستعمر بذات الوسائل ليحملوا ذات الافكار وليحققوا ذات الاهداف- وذلك لتحقيق امرين: الاول هو تكريس وجود تيارين اثنين احدهما حاكم والآخر معارض للحكم تمهيدا لتحقيق الديمقراطية على الطريقة الاوربية والتي هي لعبة تتطلب، كما ذكر الافغاني وغيره، حزب لليمين وحزب لليسار، بمعنى حزب يحكم وحزب يعارضه!! يتبادلان او يتناوبان المواقع بين فترة واخرى كما تتطلب اللعبة! والثاني هو ايجاد جو مستمر من التوتر يهدد استقرار الحكام مما يضعف من موقفهم ويجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف يهدد سلطة الاستعمار ومصالحه ان حدث وتطلب الامر ذلك!! والمتفحص للنظام السياسي في كل من مصر والعراق- بعد الاحتلال وتشكيل الحكم الوطني المزعوم- يرى ذلك واضحا. ففريق الحكام في كلا البلدين وضع على

---

(1) زكي نجيب: تجديد الفكر العربي ص ١٨٢-١٨٦ واقواله هذه بالاضافة الى كونها ضلال وتضليل، فهي ان دلت على شيء انما تدل على انه ليس فقط لم يطلع على شيء من دينه ودين الامة وتراثها كما اعترف هو في مكان آخر وانما تدل على انه لم يفهم الحرية الاوربية ايضا بما يكفي ليرى عجزها وتشويشها!!

كرسي الحكم من قبل سلطات الاحتلال، وفريق المعارضين في كلا البلدين اعدهم المحتل فكريا بوسائله المختلفة وانعم عليهم من النعم ما يجعلهم غير قادرين على الوقوف في وجه تنفيذ مخططاته وتحقيق مصالحه، فمن لم ينعم عليه بالمناصب او المال او الشهرة، وفر لهم من فرص الاستغلال ونهب الاموال العامة والخاصة ومنها اموال الاوقاف! ما يجعلهم خدما امينين على مصالحه! وما سعد زغلول الا مثل على ذلك في مصر اذ بدأ حياته السياسية كما يذكر محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر (بمصاهرة اشهر صديق للانكليز عرفته مصر في تاريخ الاحتلال الانجليزي من اوله الى آخره، وهو مصطفى فهمي باشا، ثم كان كرومر واضع اسس الاحتلال البريطاني في مصر، هو الذي رشحه لوزارة المعارف في حكومة صهره ذاك، وظل سعد صديقا للانجليز يؤيد سياستهم...) واقام زعامته على معارضة الخديوي ومناوئته اولا ثم الملك فؤاد بعد ذلك، يفتعل معهم المشاكل ويظهر لهما العداوة (استنادا الى تأييد الانجليز) حاصرا (كل همه على اذلال الملك والقضاء على كل اثر لنفوذه)[1] ولم يكن الامر مختلفا في حالة المعارضين العراقيين واحزابهم مما سياتي ذكره. وحتى عندما انكشفت اللعبة للشعوب وخاصة بانتشار المفاهيم التي اصطلح على تسميتها بالراديكالية، مع ظهور الدولة الشيوعية في روسيا كقوة منافسة للاستعمار الرأسمالي، تبنى الاستعمار تشكيل الاحزاب الثورية الراديكالية المعارضة في البلاد، فرأت كثير من هذه الاحزاب النور في اوكاره وقواعده، لئلا يخرج امر المعارضة من سيطرة نفوذه، فتفشل خططه للتغيير والتي كانت تستهدف تبعية الامة الكاملة له.

اما الفريق الآخر من هؤلاء التلاميذ فقد اتجه الى تنفيذ التغيير التام في الفكر والتوجهات. ولما كانت الافكار والمفاهيم السائدة لا تزال انذاك تتصل بشكل او بأخر بالعقيدة الاسلامية، فقد صار هؤلاء يجاهرون، مستندين على كتف الاستعمار المحتل بالتحرر من العقيدة والتراث وحتى اللغة العربية لانها لغة الدين والقرآن الكريم، تاركين امر الحرية والتحرر من الحكام لفريق المعارضة السياسي المذكور

---

[1] ص ٤٠٧-٤١٣ جـ ٢

اعلاه. وقد قسم الدكتور محمد محمد حسين في كتابه المذكور اعلاه، دعوات النهضويين هذه الى ثلاثة اقسام هي: (ما يقصد به هدم الدين وما يقصد به هدم الخلق وما يقصد به هدم اللغة). الا انه رد هذه الاقسام الثلاثة جميعا الى القسم الاول وهو هدم الدين (لان هدم الخلق ليس الا هدما للدين من جانبه الاخلاقي، ولان هدم اللغة ليس الا هدما للاسلام في لغته التي يتعبد بها المسلمون)[1]

التحرر من اللغة:

فالدعوة التي بدأتها المقتطف عام ١٨٨١ لاستخدام اللغة العامية، ومن ثم اقتراح ولمور -الانكليزي- في اعتماد اللهجة المحلية كلغة رسمية للبلاد، ودعوة وليم ولكوكس عام ١٩٢٦ الى هجر اللغة العربية الخ... التقطها دعاة النهضة واخذوا ينشرونها ويدعون لها حتى ان مجمع اللغة العربية والمفروض فيه حماية اللغة لم تخلو مجلته الناطقة باسمه من مقالات تدعو لاعتماد اللهجة العامية، اذ كتب فيها عيسى اسكندر المعلوف وهو احد اعضاء المجمع، مؤكدا ان تخلف البلاد انما يعود الى الاختلاف بين اللغة الفصحى واللغة العامية مطالبا بالتحرر من رق اللغة فقال (وما احرى اهل بلادنا ان ينشطو من عقالهم طالبين التحرر من رق لغة صعبة المراس قد استنزفت اوقاتهم وقوى عقولهم الثمينة. وهي مع ذلك لا توليهم نفعا بل اصبحت ثقلا يؤخرهم عن الجري في مضمار التمدن، وحاجزا يصدهم عن النجاح.. ولي امل ان ارى الجرائد العربية وقد غيرت لغتها وبالاخص جريدة الهلال الغراء، التي هي في مقدمتها، وهذا اعده اعظم خطوة نحو النجاح، وهو غاية املي ومنتهى رجائي)[2]. ثم اقترح عضو آخر هو عبدالعزيز فهمي، كتابة العربية بالحروف اللاتينية، وهذا قطر من غيث مما تعرضت له اللغة العربية. من قبل النهضويين الذين رامو التحرر من رقها!! فمنهم من دعا الى استبدالها بالعامية

---

(١) ٢٨٩ جـ٢

(٢) انظر محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ٣٥٩-٣٦٣ ويبدو ان امله ورجاءه قد تحقق اخيرا فها هي العامية تنتشر من خلال الراديو والتلفاز ووسائل النشر الاخرى ولا تجد من يقف في طريق انتشارها مع كل هذا التغريب والتبعية .

ومنهم من دعا الى كتابتها بالحروف اللاتينية ومنهم من دعا الى تجديدها وتطوير نظمها وقواعدها ومنهم من اكد على عجزها وطلب استبدالها بلغة اجنبية وغير ذلك مما يطول شرحه.

التحرر الخلقي:

اما التحرر الخلقي كوسيلة لهدم الدين والتقاليد الاجتماعية فقد بدأ على شكل دعوة الى حرية الرأي والنشر وحرية الكاتب في الكتابة والنشر لكل ما يخطر له من افكار من غير التزام بعقيدة المجتمع او تقاليده واعرافه وهي دعوة شارك فيها معظم كتاب النهضة! نجد طه حسين مثلا والذي لم يتحرر من تبعيته لاوربا بل هو يفاخر بها، يدعو باصرار الى تحرر الادباء، من كل تبعية حتى وان كانت للقوانين والتقاليد الاجتماعية فيقول (فالادباء، عندنا ليسو احرارا، لا بالقياس الى الدولة ولا بالقياس الى القراء، وما اكثر النبوغ الذي يضيع هدرا، لانه يكظم نفسه، ويكرهها على الاعراض عن الانتاج خوفا من الدولة او خوفا من القراء، فليس كل موضوع يعرض للاديب عندنا تسيغه القوانين ويحتمله النظام ويرضى عنه ذوق الجمهور... يجب ان يحرر الادب والادباء وان يتاح لهم القول في كل ما يشعرون به ويجدون الحاجة الى القول فيه ويجب ان تكون قوانينا كذلك)[١]. وهو نفسه تحرر فيما كتب ونشر من كل ما يؤلف شخصية الامة من دين وعرف وتقاليد قومية او وطنية، ولم يكتف بما كان يكتبه على هذا النسق المتحرر بل هو ترجم عددا من القصص الفرنسية التي تدعو الى الانحلال مثل قصة الزنبة الحمراء التي نقد عليها وقيل (ان فيها من المعاني ما كنا نظن ان استاذا يستحي ان ينقله للناس)[٢].

وكتب سامي الجرديني مقالة في مجال الهلال عن الحرية قال انها: (فخرمن مفاخرالحضارة الغربية لم تشاركها فيه الحضارة الشرقية، ما تقدم منها وما تأخر) وأكد ان (اول هذه الحرية حرية الضمير او حرية العقيدة وهي هذا الحق

(١) ذات المصدر جـ٢ ص٣٥٩

(٢) ذات المصدر ص٣٥٧-٣٥٨

الذي يجعلك تحكم مبادئك السامية على عملك ضاربا صفحا عما يقضي به الرأي العام... فلو اكتفى البشر بحرية رجل عظيم قام ووضع لهم نظاما وظلوا دهرهم عليه لما كان للحرية معنى، اذ تقف وتجمد ويصبح النظام الذي كان نافعا في بدء وضعه عقيما مميتا اذا لم تتعهده حريات اخرى بتبديل وتغيير وتكييف)[1]. وهكذا بدأ الكتاب ينقلون من اوربا الافكار المخالفة لدين الامة وتقاليدها في جميع مجالات الفكر والادب والفن، باسم حرية الكتابة والنشر، مما غير القيم الاخلاقية للامة وجعلها في بعض ظواهرها مسخ مشوهة لما هو موجود في اوربا.

والدعوة الى التحرر من العقيدة الدينية ظهرت باشكال مختلفة. ولم تكن الدعوة الى العقلانية والتعقل والطعن بالايمان بالغيب الا شكل من اشكال الدعوة الى التحرر من العقيدة الاسلامية. وقد اكد زكي نجيب محمود ان الدعوة (العقلانية كانت فرعا من الدعوة الى الحرية) كما مر ذكره. ففاضت الصحف كما يقول محمد محمد حسين (بالمقالات التي تشكك الناس في كل ما يخرج عن دائرة المحسوس. وكان معظم ما يذاع من ذلك باسم العلم والعلمانية، وباسم حرية الفكر والتحرر من عبودية التقاليد)[2]. فقد كتب اميل زيدان رئيس تحرير مجلة الهلال مقالة فيها بعنوان حرية الفكر يقول فيها (ان الناس واهمون حين يتخيلون انهم احرار في تفكيرهم فهم يخضعون عن وعي احيانا وعن غير وعي في كثير من الاحيان، لقيود ثلاثة هي: قيود الوراثة وقيود البيئة بكل ما فيها من عقائد وعادات ونظم وقوانين، وقيود النفس بما فيها من ميول وعواطف وما لها من مصالح... وهو يدعو الناس الى ان يحرروا انفسهم ثم يعتقدوا ويقول: (فكل الانبياء والمصلحين كانوا احرار الذهن معتقي الفكر. كل الانبياء كانوا من اعداء القديم البالي. كل الانبياء والمصلحين تمردوا على النظم السارية والاراء الشائعة)[3] وكتب سامي الجرديني في الهلال

---

(١) ذات المصدر ص٢٩٤ جـ٢

(٢) ذات المصدر ٢٩٢ جـ٢

(٣) ذات المصدر ص٢٩٢ (وشاعت فكرة تحرر الانبياء هذه فكما قالها اميل عام ١٩٢٤ قالها منيف الرزاز بالخمسينات!! ولا يزال النهضويون يرددونها من حين لآخر وكأنهم الصدى، مع انها مغالطة سقيمة، فالانبياء لم يكونوا اعداء القديم البالي!! وانما بالعكس، عملوا على تصحيح الوضع الراهن ليعود الى الحق الذي كان قبله، فالرسول (ص) دعا الى دين ابراهيم. ولو تتبعنا عمل الانبياء جميعا لوجدناهم يكملوا بعضهم بعضا لاحياء ما درس من الحق.

ايضاً يقول (ان ميزة المدنية الغربية النظام والحرية: النظام المستمد من القانون او من الشريعة والخضوع لهذا النظام او لهذه الشريعة باعتبار انها تمثل ارادة الهيئة الاجتماعية وضميرها وباعتبار ان الخضوع لها مصلحة للفرد والجمعية ويفقد النظام مزيتة وتفقد الشريعة قيمتها اذا كان الخضوع لها على اعتبار انها ارادة قوة لا تود، ارضية كانت هذه القوة او سماوية)[1]. ولم يكن عمل طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي ١٩٢٦) الا دعوة من هذه الدعوات كنوع من العقلانية التي ترفض الايمان بالغيب وتستهين بالاسلام كدين وبمحمد كنبي ورسول لرب العالمين وبالقرآن الذي هو مجرد (انطباع في نفس محمد صلى الله علية وسلم نشأ من تأثيره ببيئته التي عاش فيها... بمكانها وزمانها ومظاهر حياتها المادية والروحية والاجتماعية)[2] مرددا ذات مقولات الاوربيين وحججهم حتى قيل ان فكرة كتابه هذا كان قد سبقه اليها المستشرق مرجليوت في بحث نشره في مجلة الجمعية الاسيوية عام ١٩٢٤)[3]. حتى عندما قوبل كتابه هذا ونسخته المنقحة التي نشرت باسم (في الادب الجاهلي) بهجوم عنيف من قبل المسلمين وكتب هامش السيرة بعده، جعل من سيرة الرسول ﷺ مجرد اساطير مثل الالياذة والاساطير الاوربية لا لتغني العقل او تقنع العاقل وتكرّس العقيدة، وانما لتغذي ميل الناس الى السذاجة وتريحهم من عناء الحياة!! اذ كتب في مقدمتها يقول:

(... وانا اعلم ان قوماً سيضيقون بهذا الكتاب لانهم محدثون يكبرون العقل ولا يثقون الا به ولا يطمئنون الا اليه وهم لذلك يضيقون بكثير من الاخبار والاحاديث التي نصبوا انفسهم لحربها ومحوها من نفوس[4] الناس. واحب ان يعلم هؤلاء ان العقل ليس كل شيء.. وان هذه الاخبار والاحاديث اذا هي لم يطمئن اليها العقل ولا

---

(١) ذات المصدر.

(٢) غازي التوبة: الفكر الاسلامي ص٨٩

(٣) ذات المصدر ص٨٦

(٤) باي حق ينصبون انفسهم لحرب عقائد الامة ومحوها واي حرية عقيدة وحرية رأي هذه التي يدّعوها ويدعون اليها وهم يحاربون الناس في عقائدهم؟!!

يرضيها المنطق، ولم تستقم لها اساليب التفكير العلمي، فان في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم الى السذاجة واستراحتهم اليها من جهد الحياة وعنائها، ما يحبب اليهم هذه الاخبار ويرغبهم فيها...)[1].

واستمرت هذه الدعوة الى اضعاف الايمان بالغيب والى التعقل والعقلانية التي ترفض هذا الايمان باسم التحرر من العقيدة حتى يومنا هذا. حتى ان زكي نجيب محمود اراد الدق على رؤوس المؤمنين لنفض ما فيها ليخلي المكان لما يريد ان يضعه فيها من الفكر الاوربي حتى نعيش كما يعيش الاوربيون ونصرف شؤون الحياة كما يفعلون!! ومنهم من لم يكتف بالدق على الرؤوس ونفض ما فيها وانما يريد محراثاً يفصل الامة عن جذورها!! اذ يقول محمود تيمور: (ان هناك حرية اخرى ضلت بعيدة المنال، رغم ما تمتعنا به من الحرية السياسية-وهي حريتنا في دخائل نفوسنا التي لا يشركنا في ملكها احد، تلك هي حرية العقل والوجدان) اذ يرى ان الاديب لم يستطع تحطيم الاغلال التي تقيد نفسه وتحكم مشاعره وهذه الاغلال التي تتمثل بالتراث (الثقيل من قواعد واصول ومن قوانين واحكام ومن عادات وتقاليد) وهذه كلها في نظره هي من الماضي كانت (ازاهير نضرت في عهود غوابر فتحدرت الينا من مختلف عصورها واحقابها حتى وشجت في قرارات نفوسنا جذوراً يابسة لا رونق لها ولا عصر... فنحن احوج ما نكون الى محراث ضخم، حديد المخالب نحرث به تلك التربة فيقض مضاجع الجذور)[2] وهو يدعو الى تحطيم هذه (السلاسل الغلاظ) ليتحرر الادباء!!

---

(1) طه حسين: على هامش السيرة ص٥-ك

(2) محمود تيمور: ين المطرقة والسندان ص١٢٢-١٢٣ (ويبدو ان الكاتب نسي ان يقول عن محراثه الضخم انه صنع في اوربا او امريكا او غيرهما!! ثم مرة اخرى باي حق يقطع المتحررون وانصار الحرية!! الجذور ويحرثوها ويدقون على الرؤوس لينفضوها؟ او ليس من حق المعتز بها ان يبقيها؟ او ليس من حق الاجيال القادمة ان نحفظ لها جذورها ليكون لها الحرية في التعامل معها كما تشاء، تأخذ منها او تتركها؟ واحترامنا لحريتنا الا يفرض علينا احترام حرية غيرنا في التمسك بجذوره او الاحتفاظ بما في رأسه؟!! وخاصة ان كنا فعلنا متحررين!!!

وحتى قطع الجذور ونفض الرؤوس من اجل الحرية والتحرر لم يكف البعض بل عمد الى قطع كل انتماءات الانسان كالانتماء للعشيرة وللعادات الخ.. فيقول ماجد فخري في كتابه دراسات في الفكر العربي: (اذا كانت الحرية من خصائص الانسان بما هو انسان كان لزاماً على المجتمع العربي ان ينبذ العبودية بجميع اشكالها عبودية الطبقات وعبودية العشيرة وعبودية التقاليد والمفاهيم البالية. الكائن الحر هو الكائن الذي لا يتقوّ وجوده باي ضرب من التبعية، وهو الكائن الذي تحرر من رق التقاليد والاستكانة واستطاع ان يصيخ الى نداء الابداع الذاتي الكائن فيه، ان في حقل الفن او الفكر او في حقل التقدير والوجود الفرديين. آفة التبعية والتقليد انهما يقضيان أخر الامر على كل طاقة ابداعية في الانسان وتشلان قواه جميعاً، فيصبح المجتمع بكامله عبارة عن نسخ فوتغرافية لنموذج هزيل واحد...)[١].

والشواهد على دعوة النهضويين للحرية والتحرر كثيرة ولا يمكن حصرها في هذا المجال، حتى ان اسماعيل مظهر اصدر عام ١٩٢٧م مجلة باسم-العصور-جعل شعارها-حرر فكرك- وكتب فيها (حرر فكرك من كل التقاليد الموروثة حتى لا تجد صعوبة ما في رفض رأي من الاراء او مذهب من المذاهب، اطمأنت اليه نفسك وسكن اليه عقلك اذا انكشفت لك من الحقائق ما يناقضه)[٢].

وهكذا بدأ مفهوم الحرية الاوربية عند رواد النهضة ومن تبعهم من النهضويين جزء من خطة للغزو الاجنبي للقضاء على مقاومة الامة له والمتمثلة بشكل خاص بالدولة العثمانية والعقيدة الاسلامية واضعافهما. فالحرية بجميع فروعها واشكالها كانت موجهة في هذا الاتجاه بشكل مباشر او غير مباشر. وتبنى رواد النهضة هذا المفهوم الذي دسه الاوربي لتحقيق اغراضه وورثه عنهم تلامذتهم ومن جاء بعدهم من النهضويين الذين تمادوا واسرفوا فيه. فبعد ان كان يقصد به الرواد الاوائل (استقلال الانسان في فكره وارائه وعمله متى كان واقفاً عند حدود الشرائع محافظا

---

(١) ماجد فخري: دراسات... ص٢٧٩

(٢) حسين جميل: شهادة سياسية ص٣٤

على الاداب..)[1] صار عند من جاء بعدهم، كما رأينا دعوة الى تحرر الانسان من كل الشرائع والاداب! دعوة الى التحرر من كل الروابط الاجتماعية والقانونية، وتحرر من كل الانتماءات الطبيعية، الدينية والاسرية والقبلية، تحرر من كل سلطة اياً كانت، فلا سلطة لاحد ولا التزام اتجاه احد، لا اتجاه حاكم ولا قانون ولا والد ولا زوج ولا معلم الخ... دعوة هدم لكل الجهود التراكمية للحضارات المختلفة والمتعاقبة عبر العصور. للعودة بالانسان الى همجيته الاولى التي كان فيها لا يخضع لاية سلطة الا سلطة شهواته وغرائزه البدائية. ولكن من حسن حظ الانسان القديم ذلك ان كان كل من حوله في التحرر الهمجي سواء لم يكن هناك من يطمح الى السيطرة عليه، ومن سوء حظ الانسان العربي الذي اراده النهضويون، ان الطامعين الى استعباده كثيرون. وهؤلاء لم يكونوا متحررين من عقائد معينة يرومون نشرها ويريدون منه اتباعها، ولا متحررين من حقدهم القديم على الامة ولا من اطماعهم فيها. فكانت فرصتهم لاحتلال هذا الخواء الذي احدثه النهضويون بدعواتهم هذه، فاستعبده-الانسان العربي- الاستعمار باحتلال ارضه وعقله واستعبدته فكرة تفوق اوربا وحضارتها فاعمته عن كل ما فيها من مساوء كما استعبدت رواد النهضة! الاوائل منهم والاواخر، من قبل واعمتهم عن رؤية الحقيقة، حقيقة هذه الحضارة وحقيقة اصحابها. فالطهطاوي مثلاً، المعجب بحرية اوربا والداعي الى اقتباسها لم يجد في (سرد النكات والاستهزاء بالملك المعزول شارل والتشنيع عليه وعلى عائلته والتشكيك بشرعية ابنه، باسم حرية الرأي اعتداء على حرية ذلك الملك كحاكم وكمواطن فرنسي قبل كل شيء، بل اعجب بذلك واعتبره من الشواهد على عظمة (حرية الرأي قولاً وكتابة) كما انه لم يرى في اقتحام دار الكاردينال الفرنسي وحرق مكتبته ومحاولة قتله لولا انه نجا بالهرب من داره، وتكرار ذلك مرتين، هدراً لحرية الرجل وتدخلاً في عقيدته وعقيدة معظم ابناء الامة الفرنسية من اتباعه! فللحريين الحرية كلها يدعون لما يشاؤون ويقاومون ما يشاؤون

---

[1] قاسم امين: المرأة الجديدة ص٣٠

من العقائد والافكار وليس لرجل الدين ذاك ولا للآلاف، بل للملايين من امثالـــه ان يتمسك بعقيدته او يدعو لها!

والافغاني الذي كان يدافع عن الحرية ضـــد اســتبداد الخديــوي والســلطان عبدالحميد في كل من مصر وبقية الدولة العثمانية كان الانكليز في ذلك الوقت، فــي افغانستان-موطنه كما يدّعي- يقتلون الافغان بالالآف ويحرقون قراهم ويعتدون على اطفالهم ونسائهم، وحتى مواشيهم ولم يصرف الافغاني كلمة واحدة في الدفاع عــن حريتهم في بلدهم!! وقد ذكر تشرشل بعض من هذه الاعتداءات التي شارك فيها عام ١٨٩٣ فقال في رسالة لوالدته (بعد اليوم سنبدأ حرق القرى، كل واحد وكل من يقف في طريقنا سيقتل... القبائل تحتاج درساً وليس هناك من يشك اننا شــعب قــاس)[١] وبعد ان يؤكد الصعوبات التي لاقاها الجيش الانكليزي (المكون من الهنود وعدد من الضباط الانكليز) في حرب رجال القبائل النشيطين الذين يتسلقون الجبال بســـرعة فائقة ويجيدون الرماية بدقة يقول في مكان آخر انهم لما وجدوا مقاومة كبيرة مـــن المقاتلين الافغان نزلوا-الانكليز-الى السهل حيث توجد القرى وعملوا تقتيلاً بالنـــاس الابرياء العزل وحرقاً بالقرى بينما كان المحاربون ينظرون من المرتفعـــات الـــى قراهم وهي تحترق واهلهم يقتلون ومصادر رزقهم تتلف ثم يقـــول: لقــد قــاوموا بشراسة ولكن الانكليز لم يخسروا الا ضابطين او ثلاثة لكل قريـــة[٢] ولــم يذكــر الخسائر بين الجنود الهنود لانهم هنود ولا قيمة لمن يقتل منهم. ولكن الافغــاني لــم يرى في ذلك انتهاك لحرية هؤلاء الافغان في بلادهم يستحق ان يرفع صوته للدفــاع عنها!! كما لم تستحق ثورة المهدي في السودان وما كانت تلاقيه من وحشية الانكليز في مقاومتها، كلمة يدافع بها عن حريتهم ضد استبداد المحتلين. ولكــن تســتحق ان يعرض نفسه عليهم ليحل محل المهدي في خلافة المسلمين. هذا غيرما كان يحــدث في شمال افريقيا من سلب الفرنسيين لحريات اهل البلاد وانتهاك لها!!

---

(١) الاسد الاخير The last Lion

(٢) ذات المصدر opt. cit

ومحمد عبده وهو يدافع عن انكليز ضد المطالبين بالجلاء، متفانيا في خدمة مصالحهم، متغنيا بانسانيتهم وبحريتهم التي هي (غريزة طبيعية فيهم!) وبما منحوه منها للمصريين ليس فقط لم ير استبداد كرومر والانكليز في مصر بل ايضا لم يهزه ما كان يحدث لاخوانه من الافارقة من المسلمين وغير المسلمين. فلم ير ما كان يفعله الانكليز في السودان بقيادة كتشنر الذي بعد ان قتل الآلاف من المدافعين عن حريتهم وعن عقيدتهم من السودانيين المسلمين نبش قبر المهدي واخرج جثته وقطع رأسه ووضعه في صفيحة من الكازولين وارسلها هدية لكرومر! حتى ان تشرشل الذي شارك في الحملة انتقد كتشنر (لانه انتهك قبر المهدي) بهذه الصورة البشعة[1] وبعد ذكر الحادث قال: (ان من الواجب ان يكتب على قاعدة تمثال كوردون[2] في ميدان ترافل كار كلمة ثؤر لك-Avenged-[3]. ولم ير ما فعله هؤلاء الاحرار في حرب البوير عام ١٨٩٩ اذ كان الجنود الانكليز بقيادة كتشنر ايضا ليس فقط يحاربون المحاربين بوحشية مستخدمين ارقى ما يملكون من سلاح مقابل سلاح المقاتلين البسيط وانما كانوا يحرقون حقول رجال المقاومة من الافارقة ومن الاوربيين ايضا ويقتلون مواشيهم ويحجزون نساؤهم واطفالهم في مخيمات الاعتقال التي مات فيها اكثر من عشرين الف منهم... الى ان استسلم البويريون والغيت جمهوريتهم ودمجت بالامبراطورية البريطانية)[4] هذا غير ايضا ما كان يحدث في المغرب العربي من هدر للحريات على يد فرنسا!! والتي كلها لم تجعل عبده يقتصد في التغني بحرية الاحرار الانكليز! وفي ذم استبداد الخديوي والسلطان عبدالحميد!!

وحتى عندما انتقد بعضهم الحرية في بلاد اوربا لم يكونوا يفعلوا ذلك الا لتحقيق اغراض معينة، كتحقيق مصلحة لدولة اوربية مقابل دولة اوربية اخرى او دفاعا عن حاكم يوالونه او نظام حكم يؤيدونه مثلما فعل اديب اسحق عندما انتقد

---

(١) اربعة وجوه... والرجل ص٢١٩

(٢) القائد الذي قتل في حربه مع المهدي

(٣) The last lion p.268

(٤) opt. cit. p328

الحرية في البلاد الاوربية اذ قال: (الحرية اسم بلا مسمى عند القوم) واستشهد على ذلك بقوله كيف لا: (وجرائد اوربا لا تخجل وهي في بلاد الحرية ان تقول ان الحرب والسلم بيد السياسيين... وان احدهم يغير هيئة الارض بكلمة واحدة...) ثم يقول (واذ تدبرت ذلك علمت ان الحرية اسم بلا مسمى عند القوم، وان تكرار ذكرها في محافلهم ورسمها في مجامعهم، هو من قبيل اللغو الساقط والتمويه والتطرئة، وايقنت ان حريتهم استبدادا واستعبادا...)[1] اما السياسيون الذين يقصدهم فهم نابليون ولويس السادس عشر وشارل العاشر لان (حكومات هؤلاء الملوك وان سمت بالشورية ظاهرا، فقد كانت استبدادية باطنا...)[2] واما حكام النمسا والمانيا وروسيا المنافسين لفرنسا! فكلهم نقائص اذ يقول ان (اقل ما في عصرنا من الغرائب الخارقة للعادات... اجتماع النقيضين والتقاء المتعاكسين، فانا نرى فيه الرياء في الاخلاص، والعسف في الاستقامة والجور في العدل، واشد من جميع هذا علينا ان نرى الاستبداد في الشورى والرق في الحرية، ومن انكر ذلك وزعم انا نفترى على عصر النور واهله بما ندعي فلينظر الى عالم السياسة نظرة محقق... ليعلم ان غرتشاكوف ودربي وبسمارك واندراس-سياسي نمساوي- في بلاد المعرفة تحت سماء التمدن في القرن التاسع عشر، ولا فرق بين الفئتين في ذلك الا ان السلف قد استبدوا بالبطش والصولة وهؤلاء بالدهاء والخلابة وكلتا الطريقين تؤديان الى غاية واحدة، وهي الاستبداد، أي تصرف واحد من الجماعة بدمائهم واموالهم، ومذاهبهم بما يوجبه هواه، وما يقضي به رأيه سواء كان ما يجري مخالفا لمصلحتهم او موافقا لها)[3] وفي مكان آخر يقول: (ولا يتوهمن محب الحرية ان الحاجة الى المربي والدليل منافيه لما تقتضيه حريته، او مشعرة ببقاء الاستبداد، فان هذه الحاجة قد عرفت والفت في اظهر البلاد تمدنا، واحرص الامم على الحرية السياسية وكانت ولا تزال من لوازم النماء والبقاء في الاجتماع الأنساني، ولن تبرح كذلك ما دام في

---

(١) علوش: اديب اسحق: الكتابات السياسية والاجتماعية ص٣٩.

(٢) ذات المصدر ص٩١.

(٣) ذات المصدر ص٨٩-٩١٠.

الارض علماء وجهلاء وحكماء وسفهاء وخاصة وعامة، وما دام الانسان محل خطأ ونسيان. ولكن يشترط في المربي او الدليل ان يكون ممن اجتمعت الكلمة عليهم، وحصلت الثقة بهم...) ثم يوضح غرضه من هذا فيقول (وهذا الشرط حاصل لا ريب في اولي الامر منا)[1].

ونور الحضارة الاوربية الذي اعمى بصيرة الرواد الاوائل فلم يروا حقيقته هو ذاته اعمى تلامذتهم فلم يروا استعباد البلاد العربية والتصرف في شؤونها تصرف المالك وتقسيم اراضيها ومنح اجزاء منها للآخرين بغير حق، كل هذا لم يستحق من اصحاب الحرية والمتحررين وقفة تأمل ومراجعة لمفهوم الحرية الاوربية الذي يرددونه كالببغاوات، ولم يروا ما كان يحدث في روسيا، وهي بلد اوربي ومن تروتسكي وستالين ولينين وكيف قتلوا الملايين من ابناء امتهم بوحشية يذكرها الروس حتى اليوم! ولم يقتصر القتل على المقاتلين المعارضين بل ان اكثر القتلى كانوا من المدنيين الذين لم يقدموا المساعدة لجيشهم الاحمر او ممن يتراجع من قواتهم نفسها!!!![2] وجميع النهضويين من دعاة الحرية الاوربية، الاوائل والاواخر، لم يروا ايضاً ما كان يحدث في بلاد الحريين والاحرار انفسهم من زهق للحريات واستعباد لابناء جلدتهم، ففي الوقت الذي كان انبهار المنبهرين بالحضارة الفرنسية على اشده كان البؤس فيها ايضاً على اشده فقد كانت الصناعات الناشئة تشغل الرجال والنساء والفتيات والفتيان وحتى الاطفال دون الثامنة من العمر بأجور لا تكفي لسد الرمق مقابل ساعات عمل تتجاوز الستة عشر ساعة في اليوم وكان القسم الاكبر من الامة يعيش في فقر وبؤس يحول بينهم وبين الحياة الكريمة والعلم والتعلم حتى صاروا طبقة تنظر اليهم الطبقة الحاكمة من فوق (وتعتبرهم بضاعة لا حقوق لهم ولا حرمة) وان احتجوا كانت احتجاجاتهم، في بلد الحرية تقمع! بقسوة لا مثيل

---

(١) ذات المصدر

(٢) الاسد الاخير the last lion p.II676

لها، ففي سنتي ١٨٤٨ و ١٨٧١ قتل في باريس، كرسي الحرية، كما يسميها الافغاني، سبعة عشر الف من العمال المعارضين للحكومة!![1].

ومع ذلك فان مفكري النهضة سامحهم الله تحرروا من كل القيم والانتماءات الوطنية واستعبدتهم الافكار الاجنبية والحضارة الاوربية والتبعية لهذه او تلك ن الدول الاوربية ومدارسها الفكرية حتى انهم لم يروا ما فيها من استعباد حقيقي رأه غيرهم من الاوربيين او من غير الاوربيين. فلم يروا بالاضافة الى كل ما تقدم مثل ما رأه اينشتاين الذي قال: (ان العلم لم يستخدم اليوم الا في خلق العبيد ففي زمن الحرب يستخدم العلم في تسميمنا و في تشويهنا وفي زمن السلم يجعل حياتنا قلقة مرهقة منهوكة. لقد كنا ننتظر ان يستعين الناس بالعلوم على الانصراف الى الحياة العقلية، فينالوا بذلك اكبر خط من الحرية. ولكن بدلاً من ذلك صيرتهم العلوم عبيداً للالة. ان السواد الاعظم من العمال ينفقون زمانهم الطويل الرتيب الخالي من البهجة وهم في أشد حالات التبرم... ولا يمنعهم ذلك من الارتعاد خوفاً على مرتباتهم الضئيلة)[2]. وذكر اينشتاين استعباد العمال في قوله ولم يذكر الاستعباد الذي يعاني منه الجميع وتعاني منه الامم على اختلافها وهو استعباد منتجات الحضارة بكل انواعها والاستهلاكية منها بشكل خاص والتي جعلت من الجميع عبيداً لرأس المال يبذلون الجهد الكبير في انتاجها ليصرفوا ما حصلوا عليه مقابل هذا الجهد على استهلاكها وهي منتجات، في الغالب لا وظيفة لها الا تكريس الاستعباد هذا وبعد كل الجهد الذي بذلته الاجيال للخروج من رق الاقطاع الزراعي ادخلوها في رق الاقطاع الصناعي!!

تغنى النهضويون بالحريات في اوربا وعلى رأسها حرية الصحافة التي لا تقول الا الحق لانها قد تحررت من الخوف ومن الارهاب الفكري والتسلط، وهي امراض يختص بها العالم العربي والاسلامي في نظرهم! بينما نجد ديغول يقول:

---

(١) محمد مزالي: دراسات ص١٨٥-١٨٦.

(٢) فهمي جدعان: اسس التقدم ص٢٤٨.

(ان الصحف الفرنسية مستعدة دائما لان تبيع نفسها للسلطات الجديدة) ودلـل علـى ذلك بقوله (انه قرأ مجموعة من الصحف يرجع تاريخها الى عام ١٨١٥م عندمـا عاد نابليون من جزيرة البا، وزحف شمالا من البحر الابيض المتوسط الى بـاريس ووجد ان الصحف كانت تقول في عناوينها في البداية- اعادة النظام علـى سـاحل البحر الابيض المتوسط- وعندما وصل نابليون الى ليون قالت الصحف-الطاغيـة يصل ليون- وعندما دخل العاصمة كانت العناوين -جلالة الامبراطـور فـي باريس-)[١]. ومن جهة اخرى يقول دونالد ريكان، رئيس الادارة الامريكيـة علـى عهد رونالد ريكان- (ليس هناك من يدافع عن الشخصية السياسية الامريكية ضـد الاغتيال الصحفي)[٢]. وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان الصحافة الغربيـة كانت ولا تزال، منغمسة في الرق تتعامل به وتمارسه وتخضع له، وقـد تمـارس الارهاب والاغتيال من اجله!! وبالتالي فان دعوة دعاة النهضة هؤلاء مـا هـي الا تضليل للامة. فلماذا هذا التضليل للامة؟ لماذا ضلوا وضللوا الامـة فـي دعوتـهم للحرية هذه حتى صارت مفاهيم الحرية الاوربية! هذه التي نقلوها تشويش وتشـويه حتى في ذهن الدعاة انفسهم؟ فنجد احدهم يقول ان (الفكر الفلسفي المبدع الاصيـل شأن كل عطاء خلاق لا ينمو ويترعرع الا في جو من الحرية الفكرية ومـا يـزال المجتمع العربي مقصرا عن بلوغه ان لم يعمل احيانا على وأده ونحره) ثـم يقـول ان(مناخ الحرية شرط لبزوغ الادب الاصيل كما انه شرط لازم لكل تقـدم فـي أي مجال... ومن جوانب الحرية الهامة في الابداع الادبي الحرية الاجتماعيـة عامـة، نعني حرية الاديب في ان يعلاج مشكلات قد لا يقبلها المجتمع) ولكنه يستدرك بعـد ذلك ويحدد للاديب حدودا لا يتجاوزها اذ يقول: (ان المبدع نفسه من صنع المجتمـع وصياغته، وتجاوزه للمجتمع لا يمكن ان يتجاوز الحدود التي يتيحها المجمتع لنفسه) وبعد ان دعا لحرية الاديب من اجل الابداع على اساس انها الشرط اللازم له عـاد فطلب للاديب الحماية والاحتضان فتساءل: (هل من حرية الادب والفكر ان تـترك

---

(١) سيروس سالزبرجر: اخر العمالقة ص٣٨.

(٢) .Donald T. Regn for the record p.435

مصير الادباء والكتاب بين يدي اصحاب دور النشر التجارية وحدها؟ افلا يحتاج الادب الرفيع الى احتضان وحماية وسط منافسة الادب الرخيص الذي تقذف به دور النشر هذه؟)[1] وبغض النظر عن ماهية الادب الرخيص والادب الرفيع ومن يحدده وبأي معيار يقاس ان هو تحرر من قيم المجتمع ومن الدولة ورقابتها الخ... فهذا مثال وليس حصرا على ما يسود فكر النهضويون من اختلاط في مفاهيم الحرية والالتزام ورفضهم للوصاية او التدخل من قبل المجتمع او الدولة من جهة ورغبتهم في الاحتضان من جهة اخرى مما يجعلهم اشبه ما يكونوا باطفال اشقياء يريدون اللعب بحرية كما يشاؤون بعيدا عن اشراف اهلهم ورقابتهم، ولكن ما ان يتعرضوا لعارض او مضايقة حتى يهرعوا الى ابائهم مستنجدين، انقدونا!! فلماذا يحتضن المجتمع-او الحكومة- ادبا يعالج مواضيع لا يقبلها؟ او مناهضة لفكره؟ اليس للحرية والالتزام قوانين وآداب لا بد من أخذها بنظر الاعتبار؟

ولماذا ضلوا واضلوا الامة واسرفوا في مفهوم الحرية حتى جعلوها الحل لكل المشكلات وجعلوا غيابها سبب كل المصائب والاحباطات والعجز الذي نراه من حولنا حتى عجزهم عن الابداع فهو بسبب غياب الحرية؟!! فقال احدهم ان المفكرين العرب (قد عطل الارهاب افكارهم وشل عقولهم فلم يعودوا قادرين على التفكير والعطاء... ان الفكر والمفكرين يتحاورون بصوت غير مسموع بين الجدران... فالحوار الفكري ان وجد فلا يتعدى السراديب المقفلة...) ولذلك فهو يرى ان الامم الاخرى تتقدم ونحن نتأخر(لانهم فهموا الحرية والديمقراطية على حقيقتهما، انهم فهموا الحرية على انها تحرير العقل من الخرافات وتحريره من الخوف ومن الارهاب الفكري... وفهموا الديمقراطية على انها القضاء على التسلط واطلاق الحرية للافكار... ونحن وضعنا على العقول اقفالا وسددنا منافذ التفكير، فتأخرنا وتقدموا)[2].

---

(1) انظر التراث وتحديات العصر (ندوة ص٦٩٥-٧٠٥).

(2) الانصاري: حوار المفكرين ص٤٧-٤٩.

وهنا لا بد من التساؤل، هل كان هناك فكر وعطله الارهاب؟ اين هو؟ وما هو؟ ان كل فكر النهضة ومنذ البداية كان معارض للدولة ولنظام الحكم-الدولة العثمانية- ولعقائد الامة وتقاليدها التي تعارف ابناؤها عليها، ومع ذلك لم يعطله الارهاب ولم يزهق روحه (وليته فعل!!) بل هو الذي ازهق روح الدولة العثمانية وقضى عليها وازهق روح عقائد المجتمع وعاداته وتقاليده وقضى عليها جميعاً او كاد، وتسلط بعد ذلك على الساحة السياسية والفكرية في العالم العربي. وما هذا الارهاب الذي نراه حولنا هنا وهناك والذي لا ينفك الكتاب يندون به الا نتيجة لفكر مفكري النهضة! وما يحكم العالم العربي اليوم هو هذا الفكر النهضوي ودعاته. وان وجدت بعض الانظمة التي يطلق عليها النهضويون لقب-الرجعية- لانها لا تزال تحافظ على بعض من العقائد الدينية والاجتماعية العربية، فان الارهاب فيها ان وجد فهو كلا شيء بالنسبة لما موجود منه في الانظمة التقدمية والنهضوية!! فالارهاب الذي يشكو منه المفكرون اليوم هو من صنع النهضة وصنع مفكريها السابقين واللاحقين وحتى الشاكين المتباكين انفسهم؟ الم يكن معظم هؤلاء الحكام المعادين للحرية والمستبدين والمنتهكين للحريات بنظر المفكرين-ومنذ عهد الاحتلال- الذي بدأ في مصر عام ١٨٨٢ وفي سوريا ولبنان وفلسطين في عام ١٩١٨-وحتى وقتنا الحاضر هم اعضاء في جمعيات واحزاب تحررية ترفع شعارات الحرية والمساواة والعدالة الخ...؟ وهم في الغالب نتاج ذلك الفكر النهضوي التحرري!! فمن المسؤول عن غياب الحرية؟ هذا ان كانت غائبة! وان كان دعاة الحرية اليوم يعرفون ما يريدون من الحرية؟!! هذا من جهة اما من جهة اخرى فان ما ترفضه الحكومات من ابداع المبدعين هو ما يهاجمها ويتعرض لها، وما يعارضه المجتمع ويريد وأده هو ما يتعرض لعقائده الراسخة وتقاليدة السائدة بسوء من اجل التقليل من شأنهما، فهل هذا يقف في طريق ابداع المبدعين؟ اليس هناك مجالات اخرى للابداع غير هذين المجالين؟ ماذا عن كل العلوم الانسانية الاخرى والعلوم الطبيعية والتطبيقية؟ ثم ماذا انتجوا وماذا ابدعوا في هذين المجالين او في غيرهما الا ما قلدوه واقتبسوه من اوربا من غير تحديد واضح له ومن غير تدقيق في مدى ملاءمته للامة، ومن

غير عمق ايضاً حتى صارت دعواتهم كما وصفها زكي نجيب محمود، من غير قاع؟.

فلماذا ضلوا وضللوا الامة حتى صارت مفاهيم الحرية كما عرضوها من غير قاع؟ مما جعلها تنقلب الى ضدها، فصار من الاستبداد في البلاد ما لم يكن له مثيل من قبل نشر دعوتهم هذه؟ حتى صار الناس في كل زمن تترحم على الزمن الذي قبله مما جعل احدهم يقول: (ما اشقى المسجون السياسي في هذا البلد، الدولة تعلن عليه الحرب بكل سلطانها وكل سلطاتها، الاجهزة تطارد اهله. اقاربه يشردون من وظائفهم ويبطش بهم. انه عدو الشعب رقم واحد. اهدار دمه حلال و نهب امواله حلال، تلويث سمعته حلال، واختلاق الاكاذيب عليه وتلفيق التهم حلال...حلال...حلال...) ثم يذكر انه عندما سجن عزيز المصري عام ١٩٤١ بتهمة الانضمام الى قوات العدو كان يصرف له عشر جنيهات كل يوم، وخصص له ضابط شرطة يقوم بخدمته في السجن وانه كان يرسله كل صباح في تاكسي ليشتري غداء من فندق سميراميس ويرسله في العشاء ليشتري عشاءه من فندق شبرد...) وذكر ان محمد حسين هيكل، رئيس تحرير جريدة السياسة، عندما حكم عليه بالسجن لمهاجمته الحكومة عام ١٩٢٤ (سمح له بالاشراف على الجريدة في السجن وان يقابل المحررين في زنزانته)[1]. وان عدنا الى القرن السابق والى عهد السلطان عبدالحميد-الذي وصفه كل من عبده والعازوري بالمجرم والسلطان الاحمر الخ... -نجد انه عندما اتهم الكواكبي باتصالاته المريبة مع الايطاليين واعضاء جمعية الفحامين المشابهة للماسونية، رفض ان تجري محاكمته في دمشق حيث يعيش وحيث اتهم وطلب محاكمته في بيروت حيث تعشعش الماسونية ويعشعش النفوذ الاستعماري الاجنبي، فاجيب الى طلبه وحوكم وبرئ!! مع ان العقاد الذي كتب سيرته يؤكد التهمة عليه!! ثم كتب طبائع الاستبداد مهاجماً الدولة العثمانية وداعياً الى خلافة عربية، ومع ذلك خرج بها من دمشق الى مصر حيث كان التجمع المعارض للدولة العثمانية يلاقي الدعم من المحتل الانكليزي ونشره هناك مما جعل

---

(١) انظر مصطفى امين: سنة اولى سجن ص١٠٧.

العقاد ايضاً، يرى انه كان مبالغاً في تصوير استبداد الدولة، فأين الاستبداد وقد خرج معارض للدولة ويعمل مع الاجنبي على هدمها ومعه كتابه معافاً ومعززاً ومكرماً من دمشق!![1]

وخلاصة القول فان مفاهيم الحرية هذه التي دعا اليها مفكروا النهضة وتناقلوها جيل بعد جيل حتى يومنا هذا، بالاضافة الى كونها مفاهيم ضبابية غربية لم يكن لها وجود في موطنها الاصلي ليصير لها وجود في بلادنا، فهي ايضا مفاهيم يشوبها الخلط والتشويش وتتسم بعدم المصداقية وغموض الاهداف، ولذلك لم تودي في النهاية الا الى تضليل الامة وهدم عقيدتها وانظمتها الاجتماعية وكل مقومات شخصيتها، وتحقيق تبعيتها لحضارة غريبة عنها ودول اجنبية فرضت عليها سيطرتها السياسية والثقافية وادخلتها في متاهات من الافكار المضللة لا يبدو لها نهاية. ومن هذه الافكار فكرة الديمقراطية التي سيأتي ذكرها في الصفحات التالية.

---

(١) العقاد: الرحالة ك/ الكواكبي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

الديمقراطية

(... ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون)

صدق الله العظيم. الروم: ٣١-٣٢

كما اقتبس رواد النهضة مفهوم الحرية الأوربي، اقتبسوا ايضاً مفهوم الديمقراطية كجزء منه يتعلق بالحرية السياسية، فنشروا مفهوم الديمقراطية كشكل من أشكال الحكم مقابل الحكم الفردي والاستبداد الذي يصف المفكرون الاوائل به حكام الشرق عامة، الاوائل منهم والاوآخر! اذ يقسم الأفغاني الحكومات ويجعلها ثلاثة أقسام: الحكومة القاسية، والحكومة الظالمة، والحكومة الرحيمة، ويجعل من الحكومة الظالمة (غالب الشرقيين في الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة وكذلك اكثر الغربيين في الدهور الماضية ومنها أيضاً الحكومة الانكليزية الآن في البلاد الهندية)[1]. أما الدول الغربية الأخرى فهي من الحكومات المتنطعة، وإن كان مصطلح الديمقراطية لم يكن مستعملاً من قبل رواد النهضة الأوائل إلا أن مفهومها في تقييد الحاكم بالمجالس النيابية كان من الدعوات التي شغلتهم كثيراً، بل كانت على رأس معظم أعمالهم، من أجل إحداث التغيير المطلوب. وإن كانوا لم يُكثروا من التفاصيل في شكل الحكم المطلوب من حيث كونه ملكياً أم جمهورياً، غير أن الشكل الجمهوري الفرنسي آنذاك لم يبعد عن طموحاتهم خاصة الدعاة من ذوي الثقافة الفرنسية الذين انبهروا به. فالطهطاوي، كان يسمي الجمهوريين الحريين

---

[1] علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص٦٥.

أنصار الحرية والعدالة والمساواة! غاضا الطرف عن ما شاهده من أفعالهم الوحشية في ثورتهم ضد الملك شارل، ورغم استمرار احتلالهم للجزائر وعدم الانسحاب منها، وهم دعاة الحرية والتحرر فقد ظل يصفق لهم ويعجب بهم!!

أما الافغاني فرغم إعجابه بالحكم الجمهوري إلا أنه لم يجعله أساسا لدعوته، بل لم يذكره إلا قليلا. وكل اهتمامه كان منصبا على تقويض الحكم القائم آنذاك ولم يهمه كثيرا بعد ذلك التفاصيل، هذا غير أنه من غير المستبعد انه كان يرى لنفسه مكانا في نظام حكم، يخلف السائد، كخليفة للمسلمين، والدعوة للجمهورية لا تتسق وهذه الأهداف! وقد يكون ذلك لأن الحكم الجمهوري لم يكن سائدا في أوربا التي يراد للأمة اتباعها خطوة بخطوة. هذا غير انه شكل من الحكم لم يكن مقبولا من الشرقيين آنذاك كما ذكر هو نفسه فقال:

(ان طول مكوث الشرقيين تحت نير استبداد المستبدين الذين كان اختلاف أهوائهم الناشيء عن تضاد طبائعهم وسوء تربيتهم مع عدم وجود رادع يردعهم، ومانع يمنعهم، وقوة خارجية تصادمهم في سيرهم، سببا أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم... وأن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة.. ومداومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التي تكشف عن حقيقة الإنسان وتعلمه بواجباته وما يلزمه في معاشه... كل هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجري على قرطاس بيد شرقي في البلاد الشرقية، يذكر الحكومة الجمهورية وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها... وتصده عن أن يرقم على صفحات الاوراق ويكشف عن ماهية الحكومة المقيدة ويوضح فوائدها وثمراتها... ولهذا أضربنا عن ذكرها.)[1]

ولذلك اكتفى الأفغاني بشرح مفصل للحكومة الرحيمة (المتنطسة) التي يديرها حكام حكماء (يدركون ببصيرتهم الوقادة مصالح العباد ومناهج تعمير البلاد ودفع المفاسد الداخلية والاعداء الخارجية ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة وصيانة

---

(1) ذات المصدر ص٦٣.

استقلالها، لا يكونان إلا بارتباطاتها السياسية وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى، وأنها لا تتم إلا برجال عارفين دعاة متبصرين لأوطانهم...)[1].

ولو نظرنا إلى أقواله هذه وفق منظومة فكرية متناسقة، كان العمل جارياً على نشرها آنذاك لوجدنا أن كلامه هذا يصبح دعوة مشبوهة، إذ هو أكد على عدم وجود رادع للحكام من ذاتهم والتي تتضمن عقيدتهم! مما يجعل الكلام تأكيداً على عجز الدين ليس كنظام للحياة فقط وإنما عجزه أيضاً كرادع يمنع الظلم والاستبداد، وهو ما كان الأوربيون يؤكدون عليه لإظهار عجز الدين وتبرير فصله عن الحياة برمتها. هذا بالإضافة إلى التعرض للدين باعتباره من الخرافات التي تزيل البصيرة والدعوة إلى العلوم الحقيقية التي لم تكن تعني آنذاك إلا العلوم الأوربية! وإعطاء الحق لقوة خارجية أن تصادمهم يتسق تماماً مع ما كان يريدا لأوربيون آنذاك بتأكيدهم على أنهم لا يهددون الشعوب ولا عقائدها ولا يبغون شيئاً من غزوهم بجميع أشكاله الا مصادمة الحكام ووقفهم عند حدهم لإنقاذ المسلمين من استبدادهم وظلمهم!! وهو أمر ذكره عبده بعد ذلك في دفاعه عن الانكليز ضد المطالبين بالجلاء وبرر وجودهم بكونهم هم وحدهم الذين يحولون بين الخديوي والاستبداد بالمصريين وهدر حقوقهم وتبديد ثرواتهم!! كما نجد في أقواله تأكيداً لمطالب الأوربيين بالإنفتاح على التجارة معهم والارتباط بهم بعلاقات سياسية وتجارية وهي امور كما يرى لا يمكن ان تحدث الا برجال عارفين ودعاة متبصرين!!!

ولكنه وإن كان لم يدع إلى الحكم الجمهوري إلا أنه أكد كثيراً على رفض الحكم الفردي. ففي محاورة متخيلة بين الهرة والإنسان ظهرت في صحيفة أبو نظارة زرقا، الصادرة في باريس في ٢١ أكتوبر ١٨٨٩ قال على لسان الهرة مخاطباً الإنسان: (... طبعتهم على حب العبودية والرق. فان الحر يستنكف ان يكون خضعا لشخص واحد وأنتم اجتهدتم لأن تصيروا عبد العبيد. ومع ذلك ان

---

[1] ذات المصدر ص٦٨.

كباركم هؤلاء قد تسلطوا على نفوسكم وارواحكم يبيعونها إلى الحروب والمقاتلات... كل ذلك في تحصيل شهوة سلطان أو فخر كبير...)[١].

ولم يكتف الأفغاني بالدعوة النظرية لتقييد الحكم بواسطة الأحزاب والمجالس النيبابية على الطريقة الأوربية بل هو إنتمى الى الأحزاب وألف احزاباً وساعد على تشكيل أحزاب أُخرى. وكانت دعوته لتأليف الأحزاب وإحداث المجالس النيابية هو السيف الذي أشهره الأفغاني في وجه الحكام المسلمين وعلى رأسهم السلطان عبدالحميد وشاه إيران وخديوي مصر. ورغم ان دعوته كانت منسوخة عن أوربا ومتسقة مع خططها للتغيير الذي تريد إحداثه في الأمة الإسلامية إلا انه يلبسها لباس الإسلام والشرع على أساس أنه الحكم الشورى الذي يوجبه الشرع الإسلامي. ولكن سيفه هذا لم يكن يستخدمه كمايبدو من اقواله المتناقضة، لاحقاق حق وتحقيق مصلحة عامة للشعب وذلك لأنه،مثلاً، رغم انه قدم لشاه ايران مشروع دستور ينص على وجود مجلس نيابي، إلا أنه من جهة اخرى، وحتى قبل أن تحدث الانتخابات يعيب فيها ويقلل من جدواها فهو، مثلاً، قد نصح الخديوي توفيق بالاسراع (في إشراك الأمة في حكم البلاد على طريق الشورى) فقال: (... فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبإرادتكم...)[٢] . ولكن في مكان أخر يصف الطبيعة الأنتهازية التي سيكون عليها النواب عن الأمة وممثليها حتى قبل تشكيل المجلس إذ يقول: (سترون عما قريب إذا تشكل المجلس النيبابي المصري سيكون ولا شك بهيكله الظاهري مشابهاً للمجالس النيابيية الأوربية. بمعنى أن أقل ما سيوجد فيه من الاحزاب حزب للشمال وحزب لليمين. ولسوف تورن اذا تشكل مجلسكم أن حزب الشمال لا أثر له في ذلك المجلس. لأن أقل مبادئه أن يكون معارضاً للحكومة، وحزب اليمين ان يكون من أعوانها...) ولكن متى تشكل ذلك

---

(١) ذات المصدر ص٢٧ (وهنا ايضاً تتسق دعوته مع خطط الاوربيين في احباط المسلمين في محاربة المستعمرين واعتبارها مقاتلة من اجل تحصيل شهوة السلطان! هذا غير حفر فجوة بين الحاكم والرعية وجعل مصالحهم متضاربة!

(٢) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ص٢٥٠-٢٥١.

المجلس الموهوم فترون أن (كل عضو فيه يفر من أن يكون في حزب الشمال... فراره من الأسد الى حزب اليمين...-و- ونائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهيئات مصركم... هو ذلك الوجيه ألذي إمتص مال الفلاح بكل مساعيه، وذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همة، ذلك الرجل الذي يرى في إرادة القوة الجائرة كل خير وحكمة، ويرى في كل دفاع عن وطنه ومناقشته للحساب قلة أدب وسوء تدبير وعدم حنكة وتهور... فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده)[1].

وقد نهج عبده نهج أساتذه في الدعوة إلى مشاركة الحاكم من خلال المجالس النيابية قبل الاحتلال الإنكليزي لمصر، إلا أنه بعد الاحتلال الإنكليزي لم يعد يرى في المجالس هذه الحل الأمثل! لأن الشعب المصري في ذلك الوقت كما صار يؤكد لم يكن من النضج ما يجعله قادراً على حكم ذاته! مع أنه قبل ذلك بعدة سنوات دعا مع الأفغاني ومع عرابي إلى المجلس النيابي وقال أنه لم يعد هناك ما يمنع المصريين من أن يكون لهم مجلس على غرار المجالس النيابية في الأمم الأوربية المتقدمة!! ولذلك اقترح أن تكون هناك مجالس بلدية وهي بعد ذلك تتطور الى مجلس نيابي. حتى عندما اقترح الشيخ علي يوسف على الجمعية الوطنية، وأثناء الاحتلال، إنشاء حكومة برلمانية اعترض عبده على ذلك واعتبره مكيدة ضد الامة![2] وان دل هذا التناقض في سلوك كل من الافغاني وعبده في هذه المسألة- كما في غيرها- على شيء فإنما يدل على فقدان الأسس النظرية والجذور الأصلية في دعواتهم هذه. فهم لبسوها لبوساً خارجياً يتسق وخطة التغيير الأوربية والتي تقوم قبل كل شيء على إثارة عدم الرضا عن الوضع السائد وإضعاف الحكم الوطني في البلاد، تمهيداً للغزو الأوربي، فعدم وجود المجالس النيابية خطا كبير واستبداد مقيت يجعلونه مصدراً أساسياً لإثارة عدم الرضا بين الرعية. وبوجود هذه

---

(1) ذات المصدر ص٢٤٩.

(2) ذات المصدر ص١٤٣-١٣٥.

المجالس لا بد ايضاً ان يكون فيها ما يعيبها، بالحق او بالباطل، من أجل استمرار عدم الرضا مما يضعف الحكومة ويسهل أمر الهيمنة الأوربية عليها.

وكما اقتبس الأفغاني وعبده مفهومها عن الحرية والديمقراطية من أوربا فكذلك فعل كل مفكرو النهضة ودعاة التجديد في العالم العربي والإسلامي. مثل أديب إسحق والبستاني الخ... ولكن اكثر هذه الدعوات تركيزاً كانت في كتاب طبائع الاستبداد لعبدالرحمن الكواكبي والذي نشرته الصحف المصرية. وإن كان ما جاء فيه لا يختلف كثيراً عن دعوة الآخرين إذ جاء على ذات النسق الذي اتبعه كل من الأفغاني وعبده، شرح فيه الاستبداد واقترح نوعين من الحكم المقيد مشابهاً للحكم في أوربا بل منسوخاً عنه، وألبس الفكرة لباساً إسلاميا على أساس أنه حكم الشورى الإسلامي تماماً كما فعل الأفغاني وعبده. وكما اقتبس كل من الأفغاني وعبده مفهوم الديمقراطية–مثل كل مفاهيم الاخرى– من الماسونية وفروعها وأحزابها فكذلك فعل الكواكبي الذي اقتبس من الكاربوناري– الفحامين– ومن متنظريهم وخاصة متنظرهم فتوري الفيري الذي جاء ذكره في الكتاب، اذ قال (... ذكّر المستبدين بما انذرهم به الفياري المشهور حيث قال لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه. فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير). فخرج كتاب الكواكبي، طبائع الاستبداد نسخة من الفكر الأوربي حتى أن الاستاذ ابراهيم سليم النجار قال: (ان طبائع الاستبداد أعاد إلى ذاكرته كتاب–الكونترا–سوسيال– العقد الاجتماعي لجان جاك روسو...)[1] وقد فسر العقاد هذا التشابه بكون مقالات الفيرى فيها اثر اطلاعه على روسو ومنتسيكيو وميكافيلي[2] وبكون الكواكبي كان على معرفة بكتاب الفيرى ليس من خلال اطلاعه على ترجمة تركية له كما يعتقد البعض بل من خلال الايطاليين الذين كانوا منتشرين أنذاك في سواحل البحر الأبيض والأحمر ينشرون فيها أنديتهم السرية التي تنتمي إلى طوائف الفحامين وتحاول أن تزاحم في ميادين السياسة طوائف الماسون–البنائين الاحرار– التي غلب عليها في الشرق الإنجليز

---

(1) العقاد: الرحالة ك/ الكواكبي ص ١٣٠.

(2) ذات المصدر ص٣٣.

والفرنسيين). وسيرة الكواكبي كما يؤكد العقاد تدل على علاقته الوثيقة بهؤلاء، علاقة (... تمتد من الصحبة الى التواطؤ على السياسة الخفية)[1].

وهكذا انتقل الفكر الأوربي الذي أُطلق عليه الديمقراطية إلى الأجيال اللاحقة من خلال ذات القنوات التي انتقل بها إلى الأوائل من النهضويين. فانتشر مفهوم الديمقراطية وهو لفظ يوناني يتكون من كلمتين: احدهما تعني الشعب وأُخراهما تعني الحكم ليصبح معنى الكلمة المركبة هذه حكم الشعب.

وان كان حكم الشعب هذا كما نشر مفهومه الأوربيون بواسطة تلامذتهم وقنواتهم المختلفة، يعتمد على تعدد الأحزاب على أساس حرية الفكر والانتخابات المباشرة او غير المباشرة للمجالس النيابية التي تعمل كسلطة تشريعية تقيد حكم الحكام وتشرف عليهم وتحاسبهم وتقف بينهم وبين الاستبداد بالأمة ومصالحها، إلا أن ذلك لم يصح إلا على نطاق ضيق محدود جداً. فما أكثر ما انفرد الحزب الحاكم أو شخص واحد بالحكم وأخضع الشعب كله، وباسم الشعب! لارادته المستبدة ومع ذلك ظل النظام يدّعي الديمقراطية ويدّعي الحكم باسم الشعب. فلم تمنع الديمقراطية الأوربية هذه–وفي موطنها– سواء أذات الحزب الواحد أم ذات الأحزاب المتعددة من ظهور مستبدين قساة مثل لينين وستالين... وتيتو وهتلر وموسوليني وكثير غيرهم ممن ينتظر من التاريخ ان يكشف عنهم اقنعتهم.

وبالرغم من السيل الهائل من الكتابات التي نشرها النهضويون في هذا الموضوع الا أنها كلها لا تعدو أن تكون نسخاً مكررة من أصل أوربي–وهمي– واحد لا يتغير. ولهذا فإن إلقاء نظرة سريعة على إحداها اختيرت عشوائياً يفي بأغراض هذا العمل الذي بين أيدينا.

لقد ناقش منيف الرزاز مسألة الديمقراطية في كتابه معالم الحياة العربية الجديدة ودعا فيه إلى نظام حكم ديمقراطي شعبي حدد معناه بكونه (نظام برلماني منتخب

---

(١) ذات المصدر ص١٣٣-١٣٤.

انتخاباً حراً)[١]. كما دعا إلى حرية الأحزاب والفكر والتعبير وذلك لأنه في النظام الدكتاتوري كما يرى (يفقد الفرد حريته الفكرية كما يفقد حرياته الأخرى وحقوقه الأساسية، فينزل بالمواطن من منزلة المواطن الحر المفكر المسؤول والشاعر بالمسؤولية... إلى منزلة المواطن المأمور الآلة الذي عليه أن يطيع القوانين فحسب، وأن يتبع النظام وأن يفقد كل ما من شأنه أن يخلق فيه شخصية قوية وأن يتحول من قوة فعالة مبدعة، إلى قوة منفعلة مسيّرة تخضع لما يكتب عليها دون ان يكون لها فيما يكتب يد أو إرادة. وأمة مواطنوها من هذا النوع لا يمكن أن تكون امة مبدعة خلاقة وإن بدت في الظاهر كذلك...) ففي ظل النظام الدكتاتوري كما يقول الرزاز:

(يقّدر المواطن بقيمة إخلاصه للنظام القائم، لا بقيمة إبداعه وإنتاجه او قدرته، وبذلك تتاح الفرصة للمتملقين والمنافقين وعديمي الشخصية... أن يرقوا وأن يتقدموا وأن يشغلوا المراكز الهامة... وفي ظل النظام ينعدم التطور، فهذا النظام بما يضع على الأفكار من قيود لا يسمح باصطراع الآراء والأفكار إلا بالقدر الذي يخدم مصالح النظام ويكبت كبتاً شديداً كل ما عدا ذلك...)

وهو يرى: (أن أساس النظام الديمقراطي قابلية الحكم فيه للمعارضة) وأن الفرد فيه: (قادر على تعيين اتجاهه على الأقل بالنسبة للقوانين المعروضة عليه. ويسهل عليه ذلك تعليمه ودخوله في الحياة العامة وتحرره السياسي والاقتصادي، كما يسهل عليه فوق هذا كله وجود الأحزاب الديمقراطية الشعبية، ذات البرامج الموضوعة والمنشورة على الناس للاطلاع والفهم وابداء الرأي والاتجاه. ومثل هذا الفرد قادر عند موعد الانتخابات على ان يقول رأيه في أي اتجاه أراد...)[٢].

ولذلك يؤكد الرزاز على (أن الأحزاب هي الاسس لقيام مجتمع ديمقراطي شعبي...(و) الة من ألات تثقيف الشعب ووسيلة من وسائل توجيهه وحصر أرائه... (و) مدارس لأفراد الشعب يتعلمون فيها ويتوجهون بها ويكسبون منها أكثر مما

---

(١) ص١٦٦.

(٢) ص١٧٣-١٧٤.

يكسب الحزب نفسه)[1] . ولكن رغم كل هذا الكلام الجميل-المظهر- عن الحرية والاحزاب يصوب لعناته على الأحزاب القائمة آنذاك ويدعوها الى ان تصلح حالها!! أو تتنحى لترك المجال للأحزاب الجديدة والتي تعني صورة معينة في ذهنه هو، بغض النظر عن أصحاب هذه الأحزاب والمنتمين إليها والمؤمنين بها ورأى المؤيدين لها من العامة!! فيقول أن حالة الاحزاب القائمة آنذاك[2] (حالة محزنة تدعو إلى الأسف الشديد... تركت مصلحة الشعب العامة لتتجه إلى مصالحها الخاصة وإلى مصالح أعضائها وأنصارها الشخصية) ولذلك يرى أن الحل (هو إصلاح هذه الأحزاب التي لم تعد تساير الزمن[3] وإفساح المجال للأحزاب الجديدة التي تفهم وظيفتها الحقيقية...)! إلا انه بالرغم من رغبته في تنحية الأحزاب القديمة ولو باستخدام القوة ان اقتضى الامر، يعود فيؤكد ان حرية تشكيل الأحزاب حرية اساسية على (أن لا تستعمل هذه الحريات المعطاة لها للعمل المخرب)[4] !! ولا يريد الرزاز أن يجهد نفسه او يجهد الآخرين بايجاد مفهوم لحكم الشعب أو الديمقراطية! ينبع من هذه الامة وتقاليدها وجذورها وانتماءاتها وأهدافها وأوضاعها السياسية والأقتصادية والثقافية الخ... والتي كلها تختلف عن البيئة التي نبتت فيها الديمقراطية الأوربية! بل هو يؤكد على أن الديمقراطية التي يريد هي تلك التي أخذناها عن الغرب ولكنه يرى أن المقتبسين السابقين أخذوا قشورها وتركوا لبها، وهو يريد أن يأخذ هذا اللب[5] فيقول:

---

(1) ص٩٦-٩٧.

(2) الزمن هو اوائل الخمسينات من هذا القرن-العشرين-.

(3) يبدو ان الاحزاب في نظره مثل الأزياء وغيرها لها تقليعات تتناسب والزمن!! ولا علاقة لها بأهداف الأمة وما تريد تحقيقه!!

(4) ص٩٦-١٠٠.

(5) وهذا هو الاتجاه العام في التعامل مع الحضارة الاوربية، فالعجز ليس فيها وانما في المقتبس الوطني، ولكن عند التعامل مع الدين والتراث فيصبح العجز فيه وليس في المتعاملين معه!!.

(في ظل هذه الديمقراطية يعيش أفراد الشعب، أحرار ذوي كرامة في مساواة مع الجميع... في ظل هذه الديمقراطية يتمتع الفرد بجميع حقوقه، مواطن له حرية الفكر والتعبير والنقد والتأييد... في ظل هذه الديمقراطية يمكن أن ينشأ شعب واع مقدر للمسؤولية وشاعر بالواجب ومؤمن بالقيم العليا، معتز بالكرامة الانسانية، عامل لنفسه ولمجتمعه خادم، ومخدوم، دون أن يستغل أو يُستغل. هذه هي الديمقراطية التي أخذنا من الغرب قشورها ومظاهرها، وأهملنا لبها وحقيقتها ولا عجب في ذلك، فالذين تزعموا أمورنا طيلة نصف القرن الماضي رجال لهم مصالح وعصبيات يهمهم أن يحافظوا عليها وقد اضطرهم تطور العالم إلى أن يأخذوا عنه مظاهر الحكم ولكن روح الحكم الشعبي الصحيح قد فاتهم لأنها تتعارض مع مصالحهم الذاتية...)[1].

وانا لا أريد أن أنفرد في مناقشة هذا الكلام في الديمقراطية وإنما سأشرك القارئ الكريم ليناقشه من خلال تفكره لعدد من التساؤلات منها:

١- كيف يوفق دعاة الديمقراطية الأوربية بين حرية الفكر وحرية تشكيل الأحزاب الأوربية الفكر من جهة وجمع كلمة الامة والتي يؤكد عليها الجميع من جهة اخرى؟ كيف تجتمع كلمة الامة على قرار، أي قرار، من خلال الأحزاب المتضادة الانتماءات المتعارضة الفلسفات؟ كيف تتفق كلمة الماركسي الشيوعي الذي يعتمد فلسفة مادية ملحدة مع كلمة الليبرالي العلماني المادي الفلسفة والذي يتجه بعقله وقلبه الى غرب اوربا وامريكا يستلهم منها الفكر والهداية، مع كلمة المؤمن بفلسفة إلهية والذي يتجه بعقله وقلبه إلى أعلى، الى الله يستلهم منه العون والهداية؟ قد يقول قائل بالموضوعية! وبالديمقراطية وبحرية الفكر!!! مما يستدعي التساؤل: أهي ذات الموضوعية وذات الفكر المتحرر الذي يتعامل بهما المهيمنون على هذه الاحزاب ليس فقط مع غيرهم من الأحزاب الأخرى وإنما ايضاً مع بعضهم البعض داخل الحزب الواحد؟ أهي ذات الديمقراطية والتحرر

---

(١) ص١٨٢

الفكري التي جعلت أصحاب الرأي المخالف داخل الحزب الواحد ينشقون ليكونوا أحزابا منفصلة، حتى صار لكل حزب عدد من الأحزاب المنشقة عنه؟ وهو مرض أصاب معظم الأحزاب التغريبية من أول ما انشق الأفغاني عن الحزب الماسوني المرتبط بالمحفل البريطاني وكون حزبا ماسونيا مرتبطا بالمحفل الفرنسي، وحتى يومنا هذا، مما جعل وصفي التل[1] يقول لمن كان يدعو للسماح بحرية تشكيل الاحزاب:

(سيكون في هذه الساحة اكثر من حزب بعث عربي اشتراكي لتمثل الفئات البعثية المختلفة المتنافسة.

وسيكون في هذه الساحة اكثر من حزب اسلامي لتمثل الاتيارات الاسلامية المختلفة والمتنافسة

وسيكون في هذه الساحة احزاب تمثل توجهات اقليمية اردنية واحزاب تمثل توجهات اقليمية فلسطينية.

وسيكون في هذه الساحة احزاب تمثل الشلل السياسية الملتفة حول بعض الشخصيات السياسية البارزة.

وسيكون في هذه الساحة احزاب تحركها وقد تمولها بعض الدول العربية او بعض الدول الاجنبية...)[2]

اهي ذات الديمقراطية والنور الفكري الذي جعل كل منشق يتهم قيادة الحزب الام بالدكتاتورية والتعنت، فعلى سبيل المثال: عندما فشلت الجهود لتوحيد حزب الشعب وحزب الاتحاد الوطني الماركسيين، واجهتا الحزب الشيوعي العراقي، اعلن عبدالفتاح ابراهيم رئيس حزب الاتحاد الوطني ان سبب الخلاف كان حول الزعامة الفردية والتعنت لقيادة حزب الشعب[3] وبقي الانقسام سائدا والتنافس بين القياديين!

---

(١) سياسي اردني.

(٢) عن جريده الدستور الاردنية ١٩٨٧/١١/٢٨

(٣) عادل غفوري: حزب المعارضة في العراق ص١٤٧-١٤٨

اما الحزب الوطني الديمقراطي العراقي فقد تميز ومنذ نشأته (بحالة عدم الانسجام الفكري الايدولوجي) يرجعه حسين جميل - احد قادته - الى عدم وضوح نظرية الحزب للمنتمين اليه كل منهم قرأ منهاج الحزب وفسره كما يشاء او لرغبة البعض الآخر من المنتمين لاستغلاله للترويج لأفكارهم الماركسية امثال جماعة داود الصائغ الذين اعتقدوا ان باستطاعتهم تكوين قوة ضغط علي قيادة الحزب لاتخاذ مواقف معينة الخ... وهذا كله ادى الى انشقاقات كثيرة عن الحزب كونت البعض منها أحزاباً أو جنحة منفصلة منتقدة قيادة الحزب ونعتها بالانتهازية تارة وبالدكتاتورية تارة أخرى، ومنهم من أحيل الى محكمة حزبية حيث صدر قرار بفصلهم، وانتهت القيادة إلى كامل الجادرجي ومحمد حديد وحسين جميل، بعد أن صفت العناصر اليمينية واليسارية المتطرفة في الحزب وهؤلاء انتخبوا سبع مرات كأعضاء مكتب الرئاسة... فكان ذلك عاملاً في انشاق الحزب ومما أثار سخط الكثير من الأعضاء المتطلعين الى القيادة)[1]!!! ولم يسلم حزب الاستقلال-العراقي من الانشقاقات الداخلية وتوالي استقالات الأعضاء لأسباب شخصية ومصلحية أو بسبب ممارسلت الرئيس المعتمد العام للحزب... وعدم أخذه بمبدأ الأكثرية[2] مما جعل الحزب يقبل الكثير من الأعضاء غير الملتزمين!

وبغض النظر عن مدى سيادة الديمقراطية وحرية الفكر داخل الحزب الواحد والذي تدل عليهما هذه الإقالات والمحاكمات للأعضاء هل استطاعت هذه الأحزاب أن توحد كلمتها داخل الحزب الواحد حتى تتمكن من إحداث الانسجام داخل الأمة وتوحيد كلمتها بتوحيد كلمة كل هذه الأحزاب المتنافرة؟ وكيف لا يحدث هذا التنافر والتناحر والشقاق بين الأحزاب المختلفة وداخل الحزب الواحد وهي جميعها تنطلق من عقائد أوربية غريبة متناحرة ومتنافسة في مواطنها الى درجة الحرب الذرية؟ ثم لماذا كل هذه الأحزاب حتى أنه عندما صدر قانون الأحزاب في مصر في اول

---

(١) ذات المصدر ص٨٠-٨١

(٢) ذات المصدر ٨٣-٨٤

ثورة ١٩٥٢ (تقدم ستة عشر حزباً بإخطارات تكوين إلى وزارة الداخلية)[١]. فهل اهداف الامة هي التي يلفها الغموض ام ان الغموض يلف الدعاة وأهدافهم؟!!!

٢- كيف تتفق حرية التفكير وحرية تشكيل الأحزاب وتنحية الأحزاب القائمة (بالقوة)؟ أليس لهذه الأحزاب إتباع لهم حرية تشكيل أحزاب؟ أم الحرية هذه تمنح للبعض وتمنع عن البعض الآخر؟ وان كان الأمر كذلك فما هو المعيار لهذا المنح والمنع؟ خاصة وأن الأحزاب هذه في الغالب ذات فلسفة مادية وفكر تغريبي مستورد، ومن له الحق في هذا المنح والمنع ما دام الكل في الاستيراد والتبعية سواء؟ إن كان على أساس مصلحة الشعب مقابل العمل المخرب... المذكور أعلاه في كلمة الرزاز، فهذه كلمات لها مفاهيم تختلف باختلاف عقائد الأحزاب المختلفة وبرامجها وأهدافها وانتماءاتها الخ... فالمتغربون مثلاً يرون مصلحة الامة في الانفتاح التام على الغرب وغيره تخريب، والشيوعيون يرون مصلحة الأمة في الأنفتاح على روسيا ودول الكتلة الشرقية والانغلاق على الغرب ويرون غير ذلك تخريباً يجب مقاومته! وأصحاب التراث يرون الانغلاق على ذات الأمة وتراثها وبناء نفسها بنفسها هو ما يحقق مصلحة الأمة وغير ذلك كله باطل وتخريب فكيف إذا تكون الحرية لمن يعمل لمصلحة الامة وليس للمخرب؟!! ومن هو المخرب؟

٣- وهل صحيح أننا أخذنا من الديمقراطية الغربية قشورها وتركنا لبها لأن الذي تزعموا طيلة نصف قرن (وحتى الخمسينات وحدوث الثورات) رجال لهم مصالح وعصبيات؟ أم أن الديمقراطية الغربية هي هذه التي اخذها هؤلاء بقشرها ولبها، إن كانت تحتوي على لب أصلاً؟ وهل أقام الديمقراطيات في أوربا إلا المصالح وأصحاب المصالح الذين لا يزالون يديرونها ويوجهونها لما يحقق هذه المصالح؟!! حتى أن أديب اسحق المعجب بالديمقراطية الغربية ذكر هذا الامر فقال: (... محافل الشورى والندوات، مجالس نواب يتصرفون في

---

[١] محمد نجيب-كلمتي للتاريخ ص٥٥.

امور الأمة نقضا وابراما، فيضعون مع وكلاء الدولة ما شاءوه من القوانين ويعدلون منها ما يريدون، بل ربما قضوا على موكليهم بحرب تنحى على اموالهم بالنهاب وارواحهم بالذهاب، او انقادوا لاصحاب القوة الاجرائية ودانوا لهم مستعبدين الامة معهم، كما جرى خلال المسألة الشرقية في كثير من الممالك الشورية)[١] وذكر حكومة الشورى في الدول الاوربية فقال ان هذه (لا تلبث ان تنقلب شر منقلب كما جرى لحكومة لويس السادس عشر، وشارل العاشر، و نابليون الثالث في فرنسا فان حكومات هؤلاء الملوك وان وسمت بالشورية ظاهرا، فقد كانت استبدادية باطنا ...)[٢].

وقد شهد شاهد من اهلها وهو ونستون تشرشل، اذ قال في بيان عام ١٩٣٢، منتقدا النظام الديمقراطي (ان الانتخابات حتى في اكثر الديمقراطيات ثقافة تعتبر بلية ومعرقلة للتقدم الاجتماعي والاخلاقي والاقتصادي، وحتى خطرا على السلم العالمي). ثم تساءل (لماذا ينبغي علينا في هذة المرحلة ان نفرض على شعوب الهند الجهلة ذلك النظام الذي تشعر بمزعجاته اليوم حتى اكثر الامم تقدما، الولايات المتحدة والمانيا وفرنسا وانجلترا نفسها؟)[٣] وقال في مكان اخر عن الانجليز (تبين جميع التجارب انه عندما منح حق الانتخابات للجميع، وتحقق ما يسمى بالديمقراطية الكاملة، تحطم النظام -السياسي- برمتة بصورة سريعة)[٤] .

وتشرشل نفسه كزعيم لنظام ديمقراطي كان لا (يقيم وزنا للحزب او يرى حاجة لاستشارة مؤيديه. وكان يعتبر الحزب وسيلة تمكنه من القفز الى السلطة وليس كجمعية ينبغي عليه ان يخدمها) وكان يعتبر الاحزاب ضرورية مثل ضرورة (الحصان للفارس) وقد ذكر البعض (ان الحزب لروح تشرشل المتغطرسة هو مجرد اداة) ولذلك، (تخلى عن حزب المحافظين لينضم الى الاحرار، ولكنة لم

---

(١) الكتابات السياسية، ص٣٨

(٢) ذات المصدر ص٩١

(٣) تيلر: اربعة وجوه ... والرجل، ص٩٥

(٤) ذات المصدر ص٩٦

يلبث ان عاد الى صفوف المحافظين...) بحسب ما يحقق مصالحه ويضمن له موقعاً في السلطة. وقد كان مستبداً برأيه لا يسمع لرأي أحد حتى أن بيفر بووك قال: (عندما يكون تشرشل على رأس التيار فإنه يحمل معه صفاة الطغاة). وقد عاش (تشرشل من أجل الأزمات والأفادة منها وعندما لا يكون ثمة أزمة كان يعمل على افتعالها) ليستفيد منها ويحقق طموحاته في المال والشهرة من خلالها. وقد (كان ضعيفاً أمام إغراء المنافع الذاتية) و (كانت خدمته للشعب البريطاني محدودة) وقد استخدم (الكلمات كما لو انها اسلحة فعالة، وكان كذلك عبداً لهذه الكلمات... ولطالما ضحى باناس في سبيل العبارات الرنانة) وتحقيق طموحاته والتي من أجلها كان (وهو بعيداً عن مواقع السلطة يوجه الانتقادات العنيفة إلى الوزراء في العلن، ويبدى عروضاً للتعاون في السر...)[1] حتى اعتبره البعض عقاب الشعب الانكليزي!! ومرة أخرى هل صحيح أننا أخذنا من الديمقراطية الغربية قشورها وتركنا لبها؟ فأي لب مما ذكر أعلاه لم نأخذه؟

٤- وحرية التفكير نفسها أين حدودها؟ فالتبشير بمبدأ سياسي يتبناه حزب معين ومهاجمة ما عداه أو التقليل من شأن سواه ألا يعني هدراً لحرية التفكير عند الآخرين أو على الأقل تدخلاً فيه؟ وإن لم يكن كذلك فلماذا إذاً تعتبرا لدعوة إلى التمسك بالدين وبالتراث ومهاجمة الأفكار التي تهدم الإيمان به والعمل بدستوره حجراً على حرية التفكير عند الآخرين وعبودية لا بد من التحرر منها؟

٥- يقول الاستاذ الرزاز (إن الحزب آلة لتثقيف الشعب ووسيلة لتوجيه وحصر ارائه) فهذا الحصر والتوجيه ألا يهدر حرية التفكير عنده؟ فمرة اخرى أين حدود الحرية الفكرية عندهم؟ ثم ماذا يحدث عندما يكون هناك عشرة أحزاب-ولا نقول عشرين- فيكون للشعب عشرة آلات للتثقيف والتوجيه بثقافات وتوجيهات مختلفة؟ ولكل منها شعاراته!!!

---

(١) ذات المصدر ص١٧، ٥٩، ٤٦، ٤٧، ٩٤

٦- ويرى الرزاز (أن الأحزاب هي مدارس لافراد الشعب... يكسبون منها أكثر مما يكسب الحزب نفسه) فهل للحزب في نظره كيان ومكاسب تختلف عن تلك التي للشعب بجميع تشكيلاته؟ وما هي المكاسب التي يحصل عليها الفرد من الحزب بعيدا عن مكاسب الحزب نفسه؟ وإن كان للافراد مكاسب يحققها هذا الحزب أو ذاك من الأحزاب الجديدة التي يدعو الى تشكيلها الرزاز، فما الفرق إذا بينها وبين الأحزاب التي يريد تنحيتها بحجة أنها (تتجه إلى تحقيق مصالح أعضائها وأنصارها الشخصية)؟ وماذا عن عامة الناس من غير المنتسبين للأحزاب؟ من يحقق مصالحهم؟!!

٧- ويرى أن الأساس في الديمقراطية أن يكون الفرد قادرا على تعيين اتجاهه بالنسبة للقوانين وأن التعليم وتحرره السياسي والاقتصادي يساعده ويسهل عليه ممارسة الديمقراطية فكيف يتم تحرره السياسي وهو مرتبط بهذا أو ذاك من الأحزاب وملتزم بمبادئها وبرامجها، خاصة إن كانت هذه الأحزاب من التي تعتبر الرجوع عنها مسألة تستحق الاضطهاد على الأقل إن لم يكن التصفية النهائية؟ وكيف يوفق هو وغيره من الدعاة بين مسألة التحرر الاقتصادي وذلك النوع من الاشتراكية الذي يدعو له والذي يجعل كل وسائل الانتاج والخدمات بيد الدولة ويجعل الفرد عبدا لأهوائها؟ وأهواء الحزب الحاكم الذي يخدم مصالح أعضائه من دون غيرهم كما أكد الرزاز نفسه في قوله أن الفرد يستفيد من الحزب اكثر من الحزب؟!!

٨- ويرى أن وجود (الأحزاب الديمقراطية الشعبية ذات البرامج الموضوعة والمنشورة يساعد الفرد ايضا على ممارسة الديمقراطية، فهل-يا ترى- ان هذه البرامج المنشورة هي برامج حقيقة أم هي مجرد تضليل؟ وكم من الأحزاب وقادتهم تمسك بهذه البرامج وعمل بموجبها؟ سواء أكان خارج السلطة او ممسكا بزمامها!!

فعندما كان يتحدث خالد بكداش عن الحرية والديمقراطية كان يتحدث كما يقول مجيد خدوري بأسلوب (يغري كثيرين من الشباب بالانضمام الى الحزب سعيا

وراء هذين المبدأين، ولشد ما تكون دهشتهم حين يكتشفون ان ليس للحرية ولا للديمقراطية وجود تحت قيادة بكداش). وذلك لأنه (كان فضاً مستبداً مما حمل كثيرين على ترك الحزب...) وكان الحزب الوطني الديمقراطي في العراق يتمسك في برنامجه المنشور بالديمقراطية وحرية الفكر وإفساح المجال للتبشير بمختلف المبادئ والمذاهب السياسية ولكن أحد اعضائه المتمسكين بالبرنامج طلب إخراج كل من يبشر بالمذهب الماركسي من الحزب[1].

والأمثلة كثيرة على تضليل البرامج الحزبية المنشورة للناس وبعدها عن الواقع والتطبيق ولو ان اقل القليل مما وعدت به برامج الأحزاب قد حققته هذه الأحزاب وهي في مواقع السلطة لما احتاج الدعاة اليوم للمطالبة باي إصلاح للأحوال!! ألم تصل الكثير من الأحزاب الديمقراطية الشعبية الخ... هذه التي دعا إلى تكوينها الرزاز وغيره إلى سدة الحكم؟ ألم يشغل مفكرو هذه الأحزاب ومنذ تلامذة الأفغاني أمثال عبده وقاسم أمين ولطفي السيد وسعد زغلول وبعدهم طه حسين وكثير غيرهم حتى يومنا هذا مناصب فكرية وسياسية واقتصادية وتربوية الخ... وسيطروا على ساحة الفكر والسياسة معاً؟ فهل حققوا برامجهم وشعاراتهم ووضعوها موضع التنفيذ؟ ألم يهدر هؤلاء الدعاة الحرية قبل غيرهم؟ ألم يطأوا باقدامهم الثقيلة على صدور أفراد هذه الأمة-المبتلاة بهم- حتى لا يتنفسوا إلا بمقدار ما يسمحوا لهم به؟ مما جعل الاستاذ فتحي رضوان-رحمه الله- يصيح بعدد من المفكرين المتباكين على الحرية والديمقراطية وحقوق الانسان في البلاد العربية، الذين اجتمعوا في ليماسول في قبرص ليتدارسوا ما آلت اليه احوال الأمة، وبعد ان ذكرهم بملاحم التضحية والفداء التي سطرتها اجيال سابقة من ابناء الامة اتهمهم بقتل الحريات وانتهاك حقوق الإنسان لأنهم عندما كانوا في مقاعد السلطة نسوا وتناسوا حقوق الانسان لمعارضيهم وشاركوا في انتهاكها[2].

---

(1) عبدالكريم الازري: تاريخ في ذكريات ص٢٩٤.

(2) انظر المنتدى، العدد٣٨، المجلد الثالث، تشرين/نوفمبر ١٩٨٨.

والآن وبعد أكثر من مئة عام على بداية الدعوة للديمقراطية وحرية الفكر على الطريقة الأوربية وبعد أكثر من اربعين عاماً على دعوة الـرزاز أعـلاه، سـيطر خلالها الدعاة أنفسهم على الساحة بكل ما فيها، فكرياً وسياسياً، ماذا تحقق للمواطـن العربي من الديمقراطية والحرية؟ ماذا حصل من حقوق؟ ألم تهدر حقوقه بأكثر ممـا كان يحدث قبل هذه الدعوات؟ الآن وبعد كل هذه السنوات الطوال نجد فـي تقريـر حقوق الأنسان، بالمفهوم الأوربي أيضاً، في الدول العربية نشرته مجلة ميدل ايسـت ربورت في عدد تشرين الثاني وكانو الاول ١٩٨٧ أن هذه الحقوق منتهكة كليـاً أو جزئياً في جميع الاقطارالعربية... ومن أنماط انتهاك حقوق الانسان العربـي كمـا تقول المجلة: الاعتقال دون محاكمة، التعذيب للحصول على الاعترافـات، أحكـام الاعدام الفوري او اختفاء المعارضين، السجن بسبب الرأي، عقوبة الإعدام، الرقابـة على الصحافة والمراسلات، التمييز القانوني ضد النساء، التمييز ضـد الأقليـات، غياب الانتخابات السياسية التعددية، منع الاجتماعات العامة، الاعتداء على اسـتقلال القضاء ومنع او تقييد حق تأسيس النقابات والاتحادات والأحزاب[١].

الآن وبعد أكثر من مئة عام على دعوة الديمقراطية والحرية وفي عـام ١٩٨٩ يشهد مجلس الشعب المصري...(صدا ما عنيفاً بين نواب الاغلبيـة والمعارضـة تحول الى اشتباك بالأيدي)[٢] وفيه حاول وزير الداخلية ضرب النائب!!! من كـثرة الديمقراطية والحرية الفكرية! والثقافة الحوارية. الآن وبعد أن حكم فكر المفكريـن هذا المستورد ككل شيء، من أرقى المصانع الاوربية:

أ- هل اختلف الوصف للنظام الدكتاتوري كما جاء في مقالة الـرزاز أعـلاه عـن الواقع الفعلي لحكم الأنظمة والأحـزاب التـي تحمـل شـعارات الديمقراطيـة والشعبية؟

---

(١) انظر المنتدى العدد ٤٤ المجلد الرابع، أيار-مايو ١٩٨٩.

(٢) جريدة الرأي الاردنية في ٢١-٢-١٩٨٩.

ب- هل أصبح المواطن يقدّر بقيمة إنتاجه وإبداعه وليس بقيمة إخلاصه للنظام القائم كما هو الحال في ظل النظام الدكتاتوري؟ كما تخيله الرزاز!!

جـ- هل تحرر الإنسان العربي سياسياً واقتصادياً وفكرياً؟ أكثر مما كان سابقاً؟ ام أنه صار يترحم على ما كان زمان؟

د- هل اصبح الشعب واعياً مقداراً للمسؤولية مؤمناً بالقيم العليا عاملاً لنفسه ولمجتمعه، لا يستغل ولا يُستغل؟ أكثر مما كان أم صار الاستغلال عاماً وليس خاصاً هنا وهناك واصبحت القيم في خبر كان؟ ثم ما هي القيم العليا هذه؟ أهي قيم الثورة الفرنسية أم الثورة الأمريكية أم الثورة الروسية البلشفية أم الثورة الصينية الشيوعية؟!!! أم هي هذا الخليط غير المتجانس من كل هذه والذي يحلو للبعض أن يسميه بقيم الثورة أو الثورات العربية الحديثة والتقدمية!!! لماذا إذا ضاعت حقوقنا في أراضينا وفي خيراتنا؟ وضاعت قيمنا وهدافنا؟ لماذا إذا غرق الإنسان العربي في بحر الاستهلاك فتشبث بحبال القروض لعلها تنقذه، فخنقته؟ لماذا إذا ضاعت القيم العليا والوسطى والدنيا ولم تعد ترى الا مستغَلاً ومستغِلاً؟ طبقتين تفصل بينهما أميال كثيرة! في كل المجالات المالية والثقافية والتعليمية والقيمية. لماذا؟ ولماذا؟ ولماذا؟ و.... وعلى رأس كل هذه الـ (لماذا) لماذا التهرب من المسؤولية وإلقائها على الحكام وحدهم؟ ما هو دور المفكرين في كل ما حولنا؟ فالحكم أياً كان يفرزه الفكر، والفكر لا ينبت على الشجر وإنما في رأس المفكرين. ألم يحن الوقت لمناقشة المفكرين لفكرهم، المستورد هذا، ومراجعته؟ ألم يحن الوقت لان يحددوا أين الخطأ ومن المخطئ؟ هل هو في الفكر المستورد هذا أم في المفكرين انفسهم؟ لو كان الرأي لي لقلت: أن الخطأ في كل من الفكر والمفكرين. إن الديمقراطية الأوربية وهم ودعاتها من النهضويين المتأوربين واهمون، وكفى اتهاماً للحاكم المستبد تارة كما فعل الأفغاني، أو للشعب الجاهل تارة اخرى كما حاول تأكيده عبده، لأن الحاكم آنذاك كان الأجنبي الأوروبي الذي لا يصح اتهامه بهذه التهمة الشنيعة!! فالانكليز لا يمكن أن يستبدوا، وكرومر لم يكن مستبداً، أما إذا

كان لا يسمح بالديمقراطية والانتخابات فما ذلك إلا لأن الشعب جاهل لا يعرف ما له وما عليه منها، ولا يستطيع أن يمارسها وإن سمح كرومر بانشاءمجلس نيابي ولم يحقق أهدافه فما ذلك إلا لأن الشعب جاهل ومتخلف ولا يعرف كيف يستخدم الحرية التي وهبها له كرومر متفضلاً عليه! وعلى هذا النهج سار من جاء بعدهم من الدعاة فإن كان الحاكم من حزبهم أو ممن يوالونه فإن عجز الديمقراطية أو غيابها هو بسبب العامة من الناس لسبب أو لآخر. وإن كان الحاكم من حزب آخر يعارضونه فإنه هو ولا أحد غيره سر البلاء والاستبداد وكل ما تعاني منه الامة، متناسين قوله سبحانه وتعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس)[1] وليس الحاكم الا واحدا من الناس، وكيفما تكونوا يوّل عليكم. وان (مسلكية القائد تتوقف على المناخ الاجتماعي لجماعته ...وتكون المسلكية القيادية فى هذه الحالة مسلكية استيعابية لان الزعيم الاستبدادى يسعى لجعل جماعته تتبنى اراءه)[2]. فإن كان الحكام مستبدين فلا يلام في استبدادهم الا تلك الجمعيات والاحزاب التى تدعى الديمقراطية وتدعوا اليها بينما يسودها في الواقع الفعلي مناخات دكتاتورية استبدادية. ولم يحكم العالم العربي منذ الربع الاخير من القرن الماضي، حين تولى توفيق، عضو الحزب الماسوني، بدعم الافغاني والمحفل الماسوني الفرنسي الحكم في مصر، حتى يومنا هذا الا حكام ينتمون الى هذا الحزب او تلك الجمعية من الاحزاب والجمعيات العلمانية والتي تتبنى الفكر الاوربي وديمقراطيته!! او ممن تأثر على الاقل بما ساد (ويسود) الساحة الفكرية العربية من المبادئ والمفاهيم التي تروجها هذه الاحزاب والتجمعات وخطأ المفكرين يأتي من كونهم لانبهارهم الشديد بأوربا وحضارتها لم يشغلوا انفسهم بتفهم حقيقة حالها وحال الديمقراطية فيها. وكيف تمت؟ وما هي ظروف التي افرزتها؟ وهل هي نفس الظروف العالم الاسلامي آنذاك أو حتى يومنا هذا؟ خاصة انهم هم انفسهم كانوا وما

---

(١) الروم: ٤١ (الجلالين).

(٢) خليل احمد خليل: العرب والقيادة ص٣٠.

يزالون يوكدون على تخلف مجتمعاتنا عن المجتمعات الاوربية، فكيف يلبسونها ثوبا فصل اصلا للمجتمعات الاوربية المختلفة عنها، ويتوقعون انة سيناسبها ولا يكون فضفاضا تضيع في داخله شخصية هذه الامة (او المجتمعات) او يكون ضيقا يكتم انفاسها؟ هل في نظرهم يتساوى الذين يفكرون ويتفكرون والذين يقلدون ويتبعون؟ وهل يساوون بين من يعمل وينتج وبين من لا هم له الا ان يستهلك ويسرف في الاستهلاك لكل ما انتجه الاول؟ وهل يستوي في نظرهم من يطمح للسيادة واستعباد عباد الله والذي جل ما يطمح اليه هو ان يكون تابعا وعبدا مطيعا، يجري وراء الركب المنتج هذا ليلتقط ما يرمى به اليه من فتات هذا الانتاج، فرحا بما التقطه مما اعتبره مظاهر حضارية، حالما بالوصول الى الركب ليكون مشاركا لصاحبه!! كما اراد (المفكرون) لهذه الامة ان تكون، وكما عملوا ومنذ مئة عام على ان تكون؟!! ان انبهارهم شغلهم حتى عن التفكر بـ (لماذا) يلح الاروبيون على اتباع مظاهر حضارتهم ومنها على وجه الخصوص الحرية والديمقراطية هذه؟

ان انبهارهم شغلهم عن التفكر، وهذا كما ينطبق على الطهطاوي الذي منعه انبهاره من ان يرى وحشية الحريين! في التعامل مع ابناء جلدتهم من الفرنسيين او مع غيرهم، فهو ينطبق على معظم النهضويين من بعده. فهم لانبهارهم لم يروا انها:-

وهم:

١- لم تنتج الا (ذاتا ضالة) كما يؤكد محمد اقبال، جعلت الانسان في صراع دائم (... فهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره. وهو يجد نفسه غير قادر على كبح اثرته الجارفة وحبه للمال حبا طاغيا تقتل كا ما فيه من نضال سام شيئا فشيئا... فاصبح مقطوع الصلات باعماق وجوده ...) فحاول البحث عن ذاته في الفلسفات المختلفة ولكن لم تستطع (لا الفلسفة العقلية ولا الفلسفة الواقعية ان تشفيه... كما لم تستطع لا الاشتراكية ولا الديمقرطية ذلك.) فديمقراطية اوربا

كما يوكد محمد اقبال (لا تعرف التسامح وكل همها استغلال الفقير لصالح الغني...) مما (يجعل اوربا اكبر عائق في سبيل الرقي الاخلاقي للانسان)[1]

وهم لانبهارهم لم يروا ما راه محمد مزالي مثلا من حقيقة الديمقراطية الاوربية اذ قال: في الظاهر تتمتع امريكا والبلاد الاوربية بحريات وتعدد احزاب وجرائد متصارعة مما يبدو وكأن الامر على احسن ما يرام ولكن ان تعمقنا بكل ذلك، حينئذ فقط (ندرك ان سلطان الاغنياء ورؤوس الاموال لا يزال قويا ومؤثرا في مجريات الامور...) ويضرب مثلا عن فرنسا -الجمهورية الرابعة- حيث كل كتلة (كانت تؤثر على الحكومة وتسيير الانتخابات والنواب بحسب مصالحها فيتفوق المزارعون تارة والتجار طورا والشغالون اخرى...) و (الصحافة التي يقال عنها انها حرة تخضع في الغالب لمراكز قوة راسمالية جشعة او مذهبية متعصبة ومن المعروف انها تمول بالإشهار الذي كثيرا ما يزدري بالاخلاق والتربية ولا يقيم وزنا للمصلحة العليا او تعيش بالمنح الخفية...) ويتساءل فيقول: (فهل انا حر حقيقة في اختياراتي وفي مواقفي، وانا ومنذ صغر سني ومنذ عهد الدراسة اتاثر من حيث لا اشعر بنظريات وشعارات ومعلقات وافلام وجرائد لا تخدم دائما مصلحة العامة ولا تقر حسابا للاخلاق) اما عن الانتخابات فهو يرى ان اعطاء كل فرد صوتافي الانتخابات (شيء جميل نظريا) ولكنه في الواقع يؤدي الى (سيطرة عديمي الكفاءة فالتصويت يستوي فية الجاهل والمثقف الواعي... (و) السياسيين المتزعمين لقيادة الامة يقدمون على كل شيء ويعدون بكل شيء يجلب اصوات ما دامت المسألة اصوات واغلبية) ويستشهد بقول مونتسيكيو (ان الديمقراطية لا تنجح الا اذا اقترنت بالفضيلة... اى ان السياسة تقتضي الاخلاق) ولكنه يرى ان شروط اقترانها بالاخلاق والفضيلة يسقط اهميتها ويساويها بالحكم الفردي لانه (مع وجود الاخلاق اى حكم سيكون جميلا، ديمقراطيا او غير ديمقراطيا.(وتبقى للحكم الفردي في هذه

---

[1] محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث... ص٣٨٢-٣٨٦

الحالة الافضلية) لانه لاصلاح الحكم الفردي،يتطلب الامر اصلاح اخلاق فـــرد اما الحكم الجماعي فيتطلب الامر اصلاح مجموعة كبيرة)[1] .

فالديمقراطية كما يراها البعض (لها انياب ومخالب وانها اشرس من الدكتاتورية) وقد شكا الكثير من الغربيين (من زيف الديمقراطية التي توجهها قـوى ظـاهرة وخفية لصالح فئات معينة)[2] ، ولكن النهضويين عنها غافلون!!.

وحشيــة:

٢- وهم لانبهارهم ايضا لم يتتبعوا نشأة هذه الحضارة وديمقراطيتها والتـي بـدأت بالقتل وابادة الالاف من البشر فهناك (ابحاث تقدر الضحايا من الافارقة خـلال الثلاث مائة عام الممتدة من ١٦٠٠-١٩٠٠ باكثر من مائة مليون مستعبد بكل ما تحمله كلمة العبودية من معنى.. وقتيل في المعـارك ومـن سـياط التعذيـب والاختناق في اقبية السفن التي تعبر عباب المحيط الاطلسي.) هذا غير اسـتعباد او ابادة (ملايين بل عشرات الملايين من الهنود الحمر في الامريكيتيـن وتقـدر الاحصاءات ان عدد الهنود الحمر الذين ابيدوا في عصر النهضة الاوربية هـذه، يفوق مائة مليون انسان، هذا بالاضافة الى مئات الالوف وربما ملايين الضحايـا التي تكبدتها بلدان اسيا المختلفة بعد ان انطلق الوحـش)[3] الاوربـي ليحـرر العالم!! مضافا الى كل ذلك ابادة سكان استراليا والكثـير مـن جـزر المحيـط الهندي. كل هؤلاء قتلوا او استعبدوا باسم نشر الحرية والديمقراطية واخراجـهم من الهمجية!! فهل اخذ النهضويون الذين ارادوا لنهضة الامة العربية ان تكـون مثل نهضة اوربا وان تكون ديمقراطيتها مثل ديمقراطية اوربا، كل هـذا بنظـر الاعتبار على انه جزء من هذه الحضارة وقيمها واهدافها وتوجهاتها؟ وهـؤلاء الذين يرون عصر النهضة الاوربية هو العصر الذي انتقل فية الاوربـي مـن

---

(١) محمد مزالي: دراسات ص٢٣٥-٢٣٩

(٢) يوسف القرضاوي: الاسلام والعلمانية ص١٨٦-١٨٧

(٣) منير شفيق: الاسلام في معركة الحضارة ص٥٦-٥٧

العبودية الى المواطنية! كيف نظروا الى عبودية هذه الملايين وخاصة منها عبودية امتهم العربية واستعمارها؟!! وكيف برروها؟

انهم لانبهارهم لم يروا من الديمقراطية الاوربية الا ما اراد لهم الاوربيون رؤيته. فهم راوا من الثورة الفرنسية -مثلا- شعارتها فقط، الحرية والاخاء والمساواة، ولكنهم لم يروا ما كانت تخفي هذه الشعارات وراءها من وحشية وسفك للدماء جعل الفرنسيين انفسهم وبعد مائتي عام يشعرون بالخجل مما حدث فيها من مآسي وسفك لدماء الابرياء.

فقد حرر الثوار سبعة مساجين من الباستيل بكل تلك الضجة التي اثاروها حوله ولكنهم قتلوا (٢٥) خمسة وعشرين الفا من عامة الناس، لا يزيد عدد النبلاء ورجال الدين منهم عن (١٠%) عشرة بالمئة. وسحق الثوار الاحرار، مؤسسو الحرية والديمقراطية! المعارضة للثورة بعد ذلك وفي كل مكان من فرنسا بوحشية لا يمكن وصفها، يدل عليها ما كتبه احد ضباط الجيش الجمهوري عام ١٧٩٣ الى رؤسائه يشرح لهم كيف عامل الثوار المعارضين في فاندين فقال: انه سحق الاطفال تحت حوافر جواده وقتل النسوة حتى لا ينجبن مزيدا من المنشقين المعارضين وانه لم يأخذ سجناء، بل محا كل شيء، وقد قتل من رجال الدين في تلك الحوادث وفي تلك المنطقة بالذات ما لا يقل عن الفي رجل دين وقتل قبلها في باريس وحدها ١٩١ رجل دين في سجن كارمي عام١٧٩٢.[١] ومما ينسب الى نابليون قوله (ان أي رجل يفكر هو عدوي)[٢] .

لا اخلاقية:

٣- انهم لانبهارهم لم يروا اللااخلاقية التي هي جزء من الديمقراطية الاوربية والتي تعتمد مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فتستخدم الاحزاب كل الوسائل من اجل ايصال افرادها الى السلطة للقفز عليها، بغض النظر عن شرعية هذه الوسائل أو

---

(١) انظر مقالة نشرتها التايم في مايو ١٩٨٩

(٢) سيروس سالزبرجر: آخر العمالقة ص ٢٤٩

انسجامها مع المفهوم العام السائد للأخلاق حتى في مجتمعاتهم. فالنفاق وتزوير المشاعر وكيل الوعود-بالأطنان- لهذا وكيل الاتهامات والشتائم. -وبالأطنان ايضا- لذاك هي من مستلزمات الحملات الانتخابية، والتي تسير الأحزاب فيها أفرادها من أجل تحقيق الانتصارات على الحزب الخصم، كالأغنام بغض النظر عن آرائهم ومشاعرهم فكل عضو يستفيد عليه أن يفيد الحزب[1]. فالرئيس الامريكي ايزنهاور مثلا والذي أوصله الحزب بقدرة قادر إلى رئاسة الجمهورية وقبلها إلى رئاسة جامعة كولمبيا، وهو الجنرال العسكري!! عليه أن يدفع الثمن بمساعدة اعضاء آخرين للوصول إلى مواقع السلطة مستغلا مركزه كرئيس دولة، من أجل استمرار حزبه في الحكم!! فهو كان يقوم بمهام منصبه مكرها كما يقول سالزبرجر الذي كان يرافقه أحيانا (وكان يلعن اليوم الذي سيسافر فيه... لتزكية أعضاء حزبه في انتخابات الكونجرس...) وعندما حضر لتسلم جائزة فورستال هتف بسالزبرجر قائلا بحنق (والآن ما هي هذه الجائزة بحق الجحيم إنهم لم يبلغوني بها ولا أعرف عنها شيئا...)[2].

وتصارع الأحزاب-والأفراد- على السلطة أبعد ما يكون عن كونه تصارعا شريفا. حيث يسرف احدهما في اتهام الآخر بشتى التهم ولا يهم إن كانت بالحق أو بالباطل ما دام ذلك يمكن أن يقرب أحدهما خطوة نحو الفوز في الانتخابات!! فالجمهوريون في فرنسا خلال القرن الماضي كانوا يتهمون الملكيين فيما يتهمونهم بالاعتداء على حريات الشعوب الأخرى مما جعل العرب يستبشرون ويتوقعون الخير منهم ولكن ما أن تسلطوا على الحكم في فرنسا حتى ازدادوا خنقا لحريات هذه الشعوب وصاروا يتفاخرون بكونهم استطاعوا أن يخضعوا لحكم فرنسا من الشعوب الاخرى ما لم يستطع الملكيون مجاراتهم فيه ولذلك أظهر الطهطاوي وغيره خيبة الأمل فيهم وإن كانوا لم يغيروا موقفهم المؤيد لهؤلاء الأحرار وحماة الحرية!! وما حدث للطهطاوي في فرنسا حدث للأفغاني

---

[1] قارن مع قول الرزاز ان الفرد يستفيد من الحزب... المذكور سابقا.

[2] سيروس سالزبرجر: آخر العمالقة ص٢٤٩.

مع الحزب الحر في الحكومة البريطانية، إذ نادى الأفغاني مع المنادين بالاشادة بهذا الحزب-حزب الاحرار- الذي كان يدّعي أن كل الحروب الإستعمارية والتعديات على حقوق الإنسان كأفراد وكشعوب هو من أعمال المحافظين ولكن ما أن وصلوا إلى السلطة حتى أكدوا كل ما فعله المحافظون من انتهاكات للحريات في الهند وآيرلندا وغيرها وزادوا على ذلك مستمرين في ذات السياسة الاستعمارية وشنوا حربهم على مصر واحتلوها، وكأن معارضتهم كما قال الأفغاني للحكومة السابقة (والمحاماة عن الحق آلة للوصول إلى باطلهم، أو عموا عن معرفته بعدما استقروا على منصة الحكم واستبدوا بالامر...)[1].

فنجد المرشح عن هذا الحزب يكيل الاتهامات للمرشح عن ذاك الحزب الآخر المنافس والتي أقلها الاتهام بالكذب والخداع والنفاق وقلة الخبرة وقلة المعرفة الخ... والتي أي منها عند ذوي النظر لا تسقط هذا المرشح وتجعله غير مؤهل لتولي مسؤولية الأمة وإنما تسقط الاثنين معاً، أحدهما لقلة الكفاءة والآخر للاستهتار والسفاهة بالتشهير بالآخرين لتحقيق مكاسب خاصة!! ولكن في انتخابات الحضارة الغربية فان من يعلو صوته بالشتيمة والاتهام أكثر من الآخر يكون احتمال فوزه أكبر كما حدث في مناظرة بين الرئيس الامريكي فورد والرئيس كارتر والتي نقلها التلفزيون أنذاك والتي فيها علا صوت كارتر بالاستهزاء وتعمد الإهانة لا لشيء في الغالب إلا لأثارة البهجة بين المستمعين وكسب أصواتهم!! وهذا مثل من أمثلة كثيرة لا يمكن حصرها ولا تخلو منها مناظرات المرشحين. حتى أن هرزبرك رئيس دولة المحتل الاسرائيلي أذاع بياناً اذاعه راديو العدو في ١٣/١٠/١٩٨٨ شجب فيه ما حدث خلال الانتخابات انذاك من أعمال العنف الجسدية والكلامية ورجا أن تقتصر الحملة الانتخابية على الحوار من غير الشتم والتشهير.

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة، الأفغاني ص١٠٣.

وقد كان ديغول لا يهمه كيف يصل الى الحكم، المهم أن يصل لينقذ فرنسا كما يقول! إذ يذكر سيروس سالزبرجر في كتابه آخر العمالقة أن ديغول عبر له علم ١٩٥٦ عن (يأسه من إصلاح النظام والدستور) في فرنسا وأنه ذكر له أن المرء يحتاج (إلى دراما أولاً... ليس حرباً بالضرورة فقد يكون في ثورة أو نوع من الشغب والاضطراب...) ولما سأله سالزبرجر (إن كان يعتقد أن من الضروري حدوث فترة من الفوضى في فرنسا وقد تكون مصحوبة بسفك دماء قبل أن يتمكن من العودة) أجاب ديغول فقال (نعم لا بد أن يحدث بعض الفوضى أولاً...) وأن هناك دائماً قليل من الدماء وإن كان هذا أمر مؤسف ولكن ما العمل![1] وأكد سالزبرجر أن ديغول عمل بكل جهده (على تحطيم الجمهورية الرابعة وفرض شخصيته... ولوى عنان فرنسا طبقاً لارادة لا تقهر) وإن كان شغوفاً بفرنسا، إلا أنه (كان يزدري الفرنسيين ويكره دساتيرهم وأحزابهم السياسية والتدخل المتكرر لجيشهم في السياسة وقد كان متآمراً موهوباً مستعداً لتولي السلطة بوسائل غير مشروعة) وكان يزدري الديمقراطية الفرنسية وأحزابها وقد قال: (إن في فرنسا خمسة أحزاب، الشيوعيين والاشتراكيين والراديكاليين والمعتدلين والجمهوريين الشعبيين. أما الشيوعيين فقال أنهم ليسوا حزباً فرنسياً ومن المستحيل تصور إمكان اتخاذ سياسة فرنسية بالاعتماد على الحزب الشيوعي. وأما سائر الجماعات الحزبية الأربع فهي تحارب بعضها وليس من بينها من يحظى بتأييد قطاع هام من الشعب ولا يمكن الاعتماد على هذه الأحزاب لأنه ليس في وسعها الاتفاق على سياسة واحدة...) وقال أيضاً (إنه لا توجد حكومة في فرنسا وإنما فقط أُناس يسكنون قصور الحكومة) ويرى (أن المشكلة الكبيرة بالنسبة لفرنسا في أنها خلال ١٥٠ عاماً كان لها ١٣ دستوراً وتعرضت للاحتلال ست مرات...) ولم يستطع ديغول العمل إلا بعد ان (ضرب اليسار باليمين ليستعيد السلطة ثم ضر اليمين باليسار ليبقى فيها)[2] .

---

(١) سالزبرجر: آخر العمالقة ص٣٧-٣٨.

(٢) ذات المصدر ص ٣٣-٤١.

ولم تقتصر الوسائل غير الديمقراطية أو غير المشروعة في الوصـــول للسـلطة على الديمقراطيات الأوربية ذات الأحزاب المتعددة وإنما تستخدم هذه الوســـائل أيضاً في الحكومات ذات الحزب الواحد. فالصراعات على السـلطة فـي هـذه الأنظمة غالباً ما تتخذ سبلاً أكثر عنفاً وليس صراع ستالين مع تستروسكي ببعيدة عن الاذهان وبعد موت ستالين كان الصراع بين مولوتوف وخروشوف[1] علـى الحكم، إذ أيد ثلثا أعضاء اللجنة المركزية مولوتوف وبناء عليه أعد مولوتـــوف نفسه لسكرتارية الحزب ورياسة الوزارة، وأعد قائمة بالوزراء ولكن خروشـوف بالتعاون مع زوكوف، وزير الدفاع الذي وضع طائرة تحت تصرف خروشـوف ليتمكن من نقل انصاره من اجهزة الريف الى مقر الاجتماع... غـــير الموقـف لصالحه...)[2] مما قلب الحال!

وقد انتقل هذا المفهوم للديمقراطية بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة عبر المفكرين الـــى الاحزاب في البلاد العربية. فلا يهم الحزب من اجـل جمـع المؤيديـن حولـه والوصول الى السلطة ما يشيع عن المنافسين له من الاشاعات الباطلـة ولا مـا يكيل من الوعود بالجنة الموعودة، ان هو وصل الى الحكم! ليصل بعـــد ذلـك بالانتخابات او بالثورة وتتبخر الوعود ولا يبقى غير الحقـــد علـى المنافســين وملاحقتهم وتصفيتهم. وحتى هذه الملاحقة والتصفيات ليست ابداعا خاصا بـهذه الاحزاب كما قد يعتقد البعض! فهي ان لم تكن تقليداً لحـــال الـدول الاوربيـة المتعددة الاحزاب والتي يخف التنافس فيها حال فوز أحد الأحزاب ويبدأ التـهيؤ للحملة التالية الا انها تقليد لحال الدول الاوربية ذات الحزب الواحد، فكـل يـوم تظهر الصحف الروسية، مثلاً، فضائح جديدة للتصفيات التي قام بـــها سـتالين لخصومة ولتصفيات من جاء بعده من الحكام لخصومهم! هذا غير ما فعله تيتـو وشاوسيسكو وغيرهم.

---

(١) رئيس الاتحاد السوفيتي

(٢) ذات المصدر ص١٣٢

لا تأتي بأفضل الناس:

٤- ان اكثر مفكري النهضة لم يروا الديمقراطية الاوربية على حقيقتها ولا كما هي في الواقع وانما دعوا اليها كما توهموها. فنشروا على الناس اوهامهم هذه عنها. فتوهموا انها تأتي باكفأ من في المجتمع وأحسن رجاله، مهملين القوى الخفية التي تحرك الانتخابات لايصال رجالها بغض النظر عن كفاءتهم، والقارئ لسير معظم من اوصلتهم الانتخابات للحكم في اوربا وامريكا، ليعجب كيف وصل هؤلاء وبلادهم فيها الكثير ممن هم اكثر كفاءة. فكيف وصل ونستون تشرشل الى حكم بلاده وهو الطالب الفاشل الذي لم يستطع ان ينهي اية مدرسة او يحصل على اية شهادة او حتى يدخل الكلية العسكرية الا بواسطة والدتة التي كانت على علاقة باكبر المسؤولين في الدولة من جهة وبكون اسرته تتوارث لقب لورد من جهة اخرى! والذي قض خدمته في الجيش في الخطوط الخلفية للمعارك، يكتب للصحف، وهو عمل حصل علية بواسطة والدته ايضا، مقالات عنها -المعارك- مقابل اجور محددة لكل مقالة! مخالفا بذلك شروط وظيفته التي تمنع ذلك، ويسهر على خدمته، وهو الذي لا يملك مالا، خادمه الخاص به! وبقدرة قادر تولى قيادة بريطانيا وهي في عز مجدها ولم يتركها الا وهي تلفظ انفاسها الاخيرة![1] وتشرشل هذا يصف ترومان فيقول انه لم يكن يعرف شيئا عندما تولى الرياسة لاول مرة (بعد وفاة روزفلت المفاجئة اذ كان نائبه) الا انه استطاع ان يتعلم كل شيء بسرعة. ولقد كانت فترة الجهل المبدئية هذه مأساة في نظر تشرشل ففيها كما يقول: (فقدنا اوربة الشرقية) أما عن أيزنهاور فقد قال تشرشل أنه(لم يفهم ولم يتقدم بأية توصيات)[2] ووصف خروشوف ايزنهاور فقال إنه (يفتقر إلى الحسم... وهو قد فوض دلاس في كل أعماله! ودلاس من طراز مختلف وهذا ليس في صالح آيزنهاور) أما مونتجومرى فقال: (إن آيزنهاور أحمق مأفون، وقصوره في حملة نورماندى أفقد الحلفاء ١٨٠ ألف

---

(١) انظر وليام ملنجستر الاسد الاخير

(٢) سالزبرجر آخر العمالقة ص٩٦

جندي امريكي في معركة أردين وحدها)[١] . ويؤكد سالزبرجر نفسه عجز جونسن الذي قضى (الأسبوع كله يستمع إلى شرح من الجنرال نورستاد عن مشروع وضعه الأخير بوصفه القائد الأعلى لحلف الاطلنطي يخص الحلف) فعاد جونسون وحث سالزبرجر على شرحه له فقال الأخير (شعرت بأنه لم يفهم المشروع وأنه يريد من أحد أن يشرحه له-بلغة يتفهمها أطفال الحضانة-) هذا بالإضافة إلى انغماسه في الشراب واللهو! بسفاهة لا تتناسب وموقعه كرئيس دولة، حتى أنه اعتذر مرة في حفلة عشاء كان قد أقامها له مكميلان، رئيس وزراء بريطانيا وغادر المكان مبكراً على أنه متعب ولكن لا ليرتاح وإنما ليسأل عن أي ملهى ليلي يقضي فيه سهرته ويبقى فيه مع زوجته حتى الثالثة صباحاً وكانا من الحمق كما يذكر سالزبرجر (على نحو لم يدركا معه أن عربة محملة برجال الأمن الأمريكيين وأخرى محملة برجال الأمن البريطانيين كانتا في أثرهما ومكثتا حول الملهى حتى الفجر)[٢] . ويذكر عن ديغول أنه كان (شخصية قوية وعلماً من الأعلام الرئيسة التاريخية ولكن (تصوراته وأفكاره في الواقع إما زائفة وأما بالية أو غير ناضجة. (و)... غير قابلة للتطبيق)[٣] . اما اديناور فلم يكن مثقفاً أصلاً. واليوم، وعندما تنشر الصحف فضائح رؤوساء دول سابقين، يعجب المرء كيف وصل هؤلاء الى حكم اكبر واقوى بلاد العالم وهم على ما هم عليه من سفاهة وتفاهة!!!.

لا تمنع الاستبداد:

٥- وتوهموا أن الديمقراطية الأوربية تمنع استبداد الحكام لأنها لا تسمح للوصول إلى السلطة إلا من تشرب السلوك الديمقراطي. بينما يؤكد سالزبرجر على أن ديغول كان (يحكم باسلوب اوتوقراطي إلا أنه مستبد عادل وأنه لا يؤمن بالديمقراطية ويرى أن نظام الحزبين على النمط البريطاني أو الأمريكي متعذر

---

(١) ذات المصدر ص٢٠٨-٢١١

(٢) ذات المصدر ص ٢٢٦-٢٢٧

(٣) ذات المصدر ص٤٢

إقامته في فرنسا وهو مقتنع بحاجة فرنسا الى حكم قوى... لأن صغار الرجال في نظره لا يستطيعون معالجة عظائم الاحداث) ولذلك كان معجباً بستالين ويقول إنه (كان علماً ضخماً، قيصراً حقيقياً، كان يسيطر على كل شيء بنفسه... إنه كان رجلاً عظيماً)[1] ويؤكد البعض أن أديناور، رئيس دولة المانيا الغربية (مثل ديجول لا يسمح لاحد باتخاذ قرارات سياسية أساسية غيره-لا البرلمان ولا الوزارة- وهو مثل ديجول يستخدم أساليب تعسفية) ولم يقتصر تسلط اديناور على فترة حكمه بل هو بعد خروجه من السلطة قال لمن سأله، كيف سيقضي فترة تقاعده: (إنه يريد أن يستخدم سلطانه لضمان بقاء السياسة التي يرغب فيها... وذلك بوصفه من شيوخ السياسة وأئمتها)[2] ولم يكن هو وحده الذي فرض سلطته على الحكم حتى بعد تقاعده وإنما ونستون تشرشل عمل ذات الشيء إذ عينت له الخارجية البريطانية شاباً اسمه أنطوني براون يعرض عليه (البرقيات ويشرح له المواقف بصفة عامة حتى يستطيع أن يفهم الأسباب التي تتذرع بها الحكومة في قراراتها... حتى لا يعترض تشرشل على سياسة لا يفهمها فيلقي في ذلك خطاباً فتسقط الوزارة)[3]. وتشرشل معروف في هذا ومن يقرأ سيرته يرى أنه دائماً يحصل على ما يريد من مجلس العموم من خلال خطبة شديدة اللهجة يلقيها فيه تؤدي إلى تراجع بعض المعارضين مما يسمح بتمرير ما يريد ومن الأمثلة على ذلك ما حدث في المسألة الفلسطينية، ففي الذكرى الرابعة لوعد بلفور حدثت مشاكل في فلسطين ناقشها البرلمان البريطاني. عارض مجلس اللوردات تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين، ورغم رجاء بلفور نفسه الذي كان قد صار ايرل Earl الا انهم صوتوا ضد وعد بلفور ٦٠ الى ٢٩ صوت. وعارض مجلس النواب ذلك ايضا وطالب باجراء انتخابات تحسم الامر. الا ان تشرشل-الصهيوني بحسب ما ذكر كاتب سيرته وليام

---

(١) ذات المصدر ص٥٢-٥٣، ٨١

(٢) ذات المصدر ص١٤١-١٤٤

(٣) ذات المصدر ص٩١

مانجستر منذ اوائل عهده بالسياسة في اوائل القرن العشرين، وقد يكون منذ ان موّل حملاته الانتخابية بقرض من روتشيلد -القى خطابا في البرلمان وقال فيه ان العرب حاربوا مع الحلفاء مقابل وعد بان يخلصوهم من الحكم العثماني... وفي ذات الوقت اعطي وعد مهم جدا لليهود بان تعمل بريطانيا كل جهدها من اجل تاسيس دولة يهودية لهم في فلسطين. والان بريطانيا تمتلك هذه البلاد وقد اوفت بوعدها للعرب بتاسيس دولتين العراق والاردن مما حقق الطموحات الوطنية العربية... والان ان اجريت انتخابات في فلسطين فان الاكثرية العربية سترفض السماح بالهجرة اليهودية الى البلاد وهذا سيمنع بريطانيا من تحقيق وعدها لليهود وهذا سيضر بسمعة بريطانيا في الشرق الاوسط كله!! وطلب ترك الامر للخبراء يحلون المشكلة من غير ديمقراطية وانتخابات وصفق له البرلمان الذي غير موقفه اذ قال اوستن شامبرلن-ابن شامبرلن الاب- ان تشرشل غير الجو في البرلمان تماما بكلامه ورغم ان مجلس اللوردات رفض الاقتراح الا ان تشرشل (بدا يضع دستورا لفلسطين يمنع الاكثرية العربية من عرقلة الاستثمار والتمليك لليهود)[1] وتشرشل كما يبدو لقارئ سيرته رغم فشله في كل ما انيط به من مناصب ومسؤوليات فهو طاغية مستبد وهو في السلطة وعبد ضعيف يتذلل لهذا او ذاك ويتوسل ويوسط والدته او زوجته!هذا غير اصدقائه ومعارفه من اجل الحصول على منصب، أي منصب في الدولة ولكنه يعود وبقدرة قوة لا يعرف كنهها الى سلطة اكبر ويصور فشله السابق وكأنه نجاح يحقق لصاحبه البطولة!!!

يقول رسل ان الديمقراطية ليست الشرط الوحيد لترويض السلطان ومنع الاستبداد (فمن الممكن في ظل الديمقراطية ان تمارس الاغلبية طغيانا وحشيا لا ضرورة له مطلقا على الاقلية) ويقول: (كانت حكومة المملكة المتحدة في الفترة بين عامي١٨٨٥-١٩٢٢ ديمقراطية... الا ان هذه الحقيقة لم تحل بينها وبين اضطهاد آيرلندة، ولا يقتصر الاضطهاد على الاقليات... بل يمتد الى الاقليات

---

(١) الاسد الاخير

السياسية والدينية...) ففي ظل الديمقراطية كما يرى تظل هنـــاك الحاجــة الـــى ضرورة حماية الاقليات من الطغيان![1]

لا توفر الاستقرار:

٦- وقد توهم المفكرون ايضا ان الديمقراطية هذه توفر الاستقرار وتمنع التغيــيرات العنيفة كالثورات وتجعل الحكام يعيشون آمنين مطمئنين لانهم جاءوا الى السلطة باختيار الشعب لهم ولهذا تقدموا وتأخرنا. وهو وهم تبدده الاغتيالات المتكـــررة لرؤوساء الجمهوريات وخاصة في امريكا معقل الديمقراطية! وتبدده اجــراءات الامن المشددة التي تحيط بالرؤوساء حتى ان آيزنهاور كان يشكو مـــن ان مـــن (المتعذر عليه ان يحيا حياة عادية في ظل البوليس السري المخصص لحمايتـــه وحماية اسرته (و) أن البوليس السري يكاد يعزله عزلاً تاماً في أي مكان يذهــب اليه، وأن اخشى ما يخشاه البوليس اختطاف احفاده... وشكت زوجته ايضا مـــن متابعة البوليس السري لكل تحركاتها...)[2] والكل يذكر ما حدث في فرنسا عـــام ١٩٦٨ من اضطرابات انتهت بانهاء حكم ديغول الذي كان يريد دراما وثـورة او اضطرابات تاتي به الى الحكم! فانهت حكمه الاضطرابات والفوضى. هذا غـــير الاحزاب والجمعيات المتطرفة التي تنشر الصحف بيـــن حيـــن وآخـــر اخبـــار اغتيالاتها للمسؤولين وتفجيراتها خاصة في ايطاليا والمانيا وصقـــلية الــــخ... ومع ذلك فمما لا ينكر ان هذه البلاد تتمتع بكثير من الاستقرار، ولكن لا علاقـــة للديمقراطية بهذا الاستقرار انما هو في الحقيقة يعود كما قال التوحيدي زمان الى ان (الملك السعيد ساسهم وقوم زيغهم وقلم اظافرهم وشغلهم بالحاجة عن البطـــر والاشر، وبالكفاية عن القلق والضجر، وتقدم اليهم بترك الخوض فيما لا مرجوع له بخير، وكانوا لا يشكرون الله على نعمته عليهم به واحسانه اليـــــهم بمكانـــه، فسلبوه فتنفس خناقهم، واتسع نطاقهم فامتطى كل واحد هواه، ويوشك ان يقع فـــي

---

[1] رسل: السلطان ص٣١١-٣١٧

[2] سالزبرجر: اخر العمالقة ص٢١٩

مهواه...)[1] اذ انشغلت الرعية بالمكاسب الاحلال منها والحرام لا فرق بينهما وفي الفسق والتحلل والفجور باسم الحرية وتركوا السياسة ومن يهمه امرها على هواهم باسم الديمقراطية! فالاستقرار وعدم حدوث الثورات والاضطرابات في الدول المتقدمة الديمقراطية سببه: ان الثورات ادت دورها في اوائل عصر النهضة الصناعية في القضاء على الاقطاع الذي كان يحتكر السلطة من جهة والايدي العاملة التي تتطلبها الصناعة من جهة اخرى، وانتهت مهمتها حالما سيطرت الصناعة واحتكرت السلطة والايدي العاملة لنفسها فلم يعد هناك حاجة اليها بل العكس فقد اصبحت الثورات والاضطرابات بعد نمو وتطور الراسمالية الصناعية خطرا يهدد استقرار راس المال ويعطل الصناعات فابطلوها -الثورة- وشغلوا الامة بما قال التوحيدي (بالحاجة عن البطر وبالكفاية عن القلق والضجر...) وربطوا الانسان بعجلة الصناعة تستعبده وتقوده انى شاءت. وقت الانسان وجهده ومردودهما -الاجر- في قبضتها لم تدع له الفرصة للبطر والخوض فيما لا يعود عليه بالفائدة. وبالضمان الاجتماعي جعلت جوعه لا يشتد الى الدرجة التي تدفعه الى الثورة والانغماس بالسياسة وبذلك صارت لعبة السياسة باسم الديمقراطية تمثيلية تقوم باخراجها مراكز القوى الراسمالية-التي هي نفسها كانت تخرج الثورات-ويمثل الادوار فيها مجموعة من الساسة الذين يتم اختيارهم بعناية لهذه الادوار، واقتصر دور الجمهور على المشاهدة والمشاركة ان رغب بالتصفيق فقط لهذا او ذاك من الممثلين. وما يحدث في اليابان ما هو الا مثل من الامثلة على كون الديمقراطية لعبة تلعبها مراكز القوى لا غير، فقد ذكرت الايكونومست ان حزب الاحرار الديمقراطي الحاكم في اليابان انفق بليون ونصف البليون دولار امريكي (٢١٠ بليون ين) في الحملة الانتخابية ليبقى في الحكم في الانتخابات التي جرت في ١٨ شباط عام ١٩٩٠ (مقابل ٤٠٠ مليون دولار فقط!! انفقها جميع المرشحون في امريكا لانتخابات الرئاسة لعام ١٩٨٨) اذ احتاج كل مرشح في اليابان (وهم ٣٢٣ مرشح) الى

---

[1] التوحيدي: الامتاع والموانسة ص٤٧

اربعة ملايين ونصف المليون دولار امريكي (٦٥٠ مليون ين) اما المرشحون الشباب الجدد فيحتاج كل مرشح ضعف هذا المبلغ ولذلك كانت أكثر المقاعد وراثية يرثها الأبناء والأحفاد... ولا تصرف هذه المبالغ على النشرات والدعاية التلفزيونية وغيرها لأن هذا محذور، ولكنها تنفق على تأجير القاعات للاجتماعات وعلى الطعام وعلى استخدام مختصين للمساعدة على جلب الاصوات وعلي اعطاء الناخبين هدايا مختلفة تتراوح من مبالغ صغيرة لاجل المناسبات الرسمية إلي جميع نفقات الدراسة في المدارس الخاصة الخ... حتى قيل ان كل صوت في الانتخابات عام ١٩٨٠ كلف ثلاجة ولا بد أنه كلف اكثر في انتخابات ١٩٩٠، أما جمع هذه المبالغ فله أيضاً طرق مختلفة منها وعود الحزب للشركات الكبيرة بخفض الضرائب على الكماليات أو باعفائها من بعض الضرائب او بابتزازها بالاختيار بين دفع مبالغ كبيرة للحزب والأفادة من سياسته في السوق الحرة أو المجازفة بوصول حكم اشتراكي يضر بمصالحها. ومع ذلك فإن الحسابات الرسمية للحزب لا تستطيع أن تقدم وثائق رسمية بمصدر كل هذه الأموال ولا باوجه إنفاقها. بينما الأموال المتوفرة للحزب المعارض لا تتعدى واحداً بالمئة مما ينفقه حزب الأحرار الديمقراطي الحاكم... ولهذا كثيرا ما دفع حزب الأحرار الحاكم من ماله الخاص للمعارضة ليبقي على المنافسة وليحافظ على الشكل الديمقراطي في البلاد!![1] ولذلك قال رسل أيضاً إن من مزايا الديمقراطية: (أنها تسهل مهمة خداع المواطنين العاديين لأن هؤلاء يعتبرون الحكومة حكومتهم)[2]!!.

لا تمنع الفساد:

٧- فالديمقراطية الاوربية لم تمنع كما توهم مفكرو النهضة عندنا الاستغلال والفساد باشكاله المختلفة على رأسها الرشاوي التي تطلع الصحف علينا باخبارها كل يوم

---

(١) الأيكونومست The Economist 3-9 February 1990 p.31-32

(٢) رسل: السلطان ص١٥٩

في كل مكان من الدول اصناعية المتقدمة والديمقراطية! لتلوث أكبر الـــرؤوس فيها. ولم تمنع إهدار الحريات إن كانت تهدد المصالح الحقيقية لمراكـز القـوى الرأسمالية وبشكل إن كان يختلف عما هو سائد في البلاد العربية فهو أكثر عنفاً وأكثر استخداماً للتقنيات الحديثة الآلية منها والعقلية حتى أن الدول العربية التـي تتهم بهدر حقوق الإنسان وكرامته متهمة باستيراد هـذه التقنيـات مـن الـدول الأوربية وخاصة دول الكتلة الشرقية (سابقاً) وذات الحزب الواحد والتي طورت فنون وأدوات تعذيب الناس أكثر مما طورت وسائل عيشهم وراحتـهم. وأمـر ديمقراطية وحرية هذه الدول الاوربية يمكن معرفته من خلال ما تنشره صحفـها عن الحكام السابقين فيها. ولم تنج الدول الديمقراطيـة العريقـة مثـل أمريكـا وسويسرا وفرنسا وألمانيا من نقد منظمة العفو الدولية لها لما يهدر مـن حقـوق الإنسان في ربوعها حيث يجرى التدخل في سلك القضاء وتتغيـب المرافعـات الحرة بسبب الرشاوي، ويجرى التجسس على المواطنين وتساء معاملة السـجناء الخ...[١].

كيف دخلت بدعة الديمقراطية؟

إن إهم ما غفل عنه مفكرو النهضة الاوائل منهم والأواخر أو تغافلوا عنه، هـو كيف دخلت هذه البدعة الاوربية التي اسمها الديمقراطية إلى المجتمعـات العربيـة وماذا كان ولا يزال الهدف منها؟

إن المفاهيم والمسلمات الأساسية للديمقراطية ليست جديدة على المجتمع العربي والإسلامي، فالذين (درسوا تاريخ الأمة دراسـة موضوعيـة خالصـة مـن حقـد الشعوبية) كما يقول عبدالرحمن البزاز (يقررون أن العرب كانوا حتـى فـي ظـل نظامهم القبلي، يتمتعون بقسط وافر من الحرية الشخصية وكرامة الفرد، ومسـاواته مع الأفراد الآخرين... وهل الديمقراطية في جوهرها الحقيقي غير هذا... ولما جـاء الاسلام أكد مثل الديمقراطية قبل أن توجد الديمقراطية الحديثة ذاتها، فالنـاس فيـه

---

[١] المنتدى العدد ٣٥، ٣آب/ اغسطس ١٩٨٨

سواسية كاسنان المشط والافراد لا يتفاضلون بانسابهم وقبائلهم واموالهم ومراكزهــم بل بالتقوى ومقياس التقوى الذي يقدمونه للصالح العام (خير الناس من ينفع النــاس) والحكم شورى بينهم وليس هو اختصاصاً موروثاً لفئة صغــيرة دون غيرهــا)[1] .
فالمفاهيم الديمقراطية في الإسلام كما يصفها بعض الاوربيين هي كما تقــول آيلــز (ديمقراطية طبيعية صحيحة ليست قائمة على التصويت، لم تعرف قط أي تمييز بين المســلمين اســتناداً إلــى الاصــل الســلالي أو العنصــري أو الوضــــــع الاجتمــــاعـــي أو الانتماء الي طوائف دينية سابقة. إذ أنه طبقاً لما جــاء علــى لسان نبي الاسلام–المسلم اخو المسلم–)[2] وفي ذات الوقت لم تهضم حقــوق غــير المسلمين او يعتدى عليهم. ويقول لورانس الذي عاش بين العرب المسلمين كواحــد منهم (ليس هناك بين العرب تمييز بأي شكل كان لا تقليدية ولا طبيعيــة والســلطة تعطى للشيخ وفقاً لانجازاته) ويقول (لقد علمني العرب انه لا يمكن لرجل ان يكــون قائدا لهم الا من يأكل طعامهم ويلبس ملابسهم ويعيش فــي ذات المســتوى الــذي يعشيون فيه ولكن مع ذلك يبقى افضلهم)[3]

ان مفاهيم الديمقراطية عند المسلمين هي مفاهيم تبني المجتمع وتجمــع كلمــة الامة وتدعو الى الاتحاد والتعاون وعدم التفرق والتحزب الذي يؤدي بالتــالي الــى التفكك والتحلل والزوال فقد امر سبحانه وتعالى الامة بان لا تتفرق وقال: (وأن هــذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصــاكم بــه لعلكم تتقون)[4] بل لقد جعل الله سبحانه وتعالى التفرق والتحزب نقمة ينزلها علــى الكافرين اذ قال: (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحــت ارجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم باس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلــهم

---

(١) عبدالرحمن البزاز: صفحات من الماضي القريب ص٩٩–١٠٠.

(٢) آيلز: الاسلام والعصر الحديث ص٩١

(٣) THE SEVEN PILLARS...P.1,1

(٤) الانعام، ايه ١٥٣

يفقهون)[1] فالسلوك الديمقراطي عند العرب والمسلمين قبل ان يتلوث بادران الحضارة الاوربية هو سلوك تلقائي غير مصطنع امرهم به دينهم وتطلبته منهم حياتهم في البوادي والارياف من ضرورة التعاون والتكافل والتشاور وتبادل الرأي. والكثير منا شهد بقايا هذا السلوك في اوائل حياته وقبل ان تستشري امراض الحضارة الاوربية وتسيطر على كل ما يغايرها. وقد شهده ايضا كل من ذهب الى دول الجزيرة العربية بما فيها اليمن في اول عهدها بالاستقلال وقبل ان يغزوها النهضويون العرب بفكرهم ومفاهيمهم الاوربية عن الحياة وعن التخلف والتقدم والحرية والديمقراطية!!

وحتى الاستبداد الذي تكلم عنه الافغاني وعبده والكواكبي فهو ليس فقط مبالغة منهم ولكنه في حقيقته نقل اسقاطات المستشرقين وغيرهم من اعضاء المخابرات الاجنبية الذين كانوا يسقطون ما يشاهدونه في بلادهم من استبداد الاقطاع والابلطرة فكتبوا ما كتبوه، يدفعهم الحقد الذي لم يستطع الكثير منهم التخلص منه في تعاملهم مع مجتمعاتنا، من ناحية، وتأدية الرسالة التي كلفتهم بها دولهم في المساعدة على هدم هذه المجتمعات وتفكيك وحدتها لتسهيل مهمة احتلالها واستعمارها، من ناحية اخرى، ففي الوقت الذي كان الافغاني يقارع استبداد السلطان عبد الحميد والخديوي اسماعيل، وكان بلنت يجوب البلاد العربية يحرض ضد السلطان عبد الحميد كانت المئات تقتل في شوارع باريس -كرسي الحرية- من قبل الحربيين! كما يقتل غيرهم او يسجن في الدول الاوربية الاخرى وفي الوقت الذي كان الكواكبي المتهم بتواطئه مع الاعداء الاجانب يرفض محاكمته في دمشق ويريدها ان تكون في بيروت حيث السيطرة الاجنبية كان هؤلاء في اوربا يقتلون او يسجنون من غير محاكمات!! وفي الوقت الذي نشر فيه الكواكبي طبائع الاستبداد كان الوطنيون في افريقيا-والمغرب العربي وفي افغانستان وغيرها يقتلون بالالاف وتحرق قراهم ومواشيهم ويقتل او يحجز في المعسكرات اطفالهم ونساؤهم ليموتوا جوعا او من المرض!! على ايدي اصحاب الحرية والديمقراطية. مما يجعل ضحايا استبداد العثمانيين خلال خمسمائة

---

(1) الانعام، ايه ٦٥

عام من الحكم مع ضحايا استبداد العباسيين من قبل، خلال خمسمائة عام اخرى من الحكم لا يمثل الا نقطة في بحر استبداد الحريين وغير الحريين في اوربا خلال ما سمي بنهضة اوربا واثناء دعوتهم للحرية والديمقراطية! مما اغرق اوربا في بحر من الدماء يذكره مؤرخوهم في كتبهم، هذا غير ما احدثوه في بلاد العالم الاخرى. هذا غير ان مفاهيم الديمقراطية -الشورى في المجتمعات الاسلامية هي مفاهيم متوازنة منسجمة مع بعضها البعض ومع باقي قيم المجتمع فالشورى مع الطاعة والحرية مع الالتزام والمساواة والاخاء مع التعاون والتكافل الخ... كلها تشكل نظاما متسقا متوازنا يحقق في حاله اعتماده، قيام مجتمع متماسك متوازن ومنسجم، هذا التماسك والتوازن الذي اراد الاوربيون هدمه. اما بدعة الديمقراطية التي ادخلها الاستعمار الى مجتمعاتنا فقد كانت زائفة سطحية غير متوازنة تدعو الى التفرق والتحزب الخ... لانها في النهاية ما كانت تهدف إلا لهدم المجتمعات وتسهيل استعمارها. فهي دخلت كجزء من خطة التغيير المطلوب للامة لتحقيق تبعتيها لاوربا . ولقد استخدمت مفاهيم الديمقراطية هذه ومنذ البداية سيفا لقطع رؤوس الحكام الوطنيين. وحتى يكون السيف أمضى فقد أوجدوا من ألبسها لباس الاسلام على أساس أنها مبدأ الشورى ومسألة كونها موجهه بشكل خاص ضد الحكام الوطنيين يدل عليه سلوك عبده الذي حرض على الاستبداد ونادى بالمجلس النيابي على عهد اسماعيل ولكنه بعد الاحتلال الانجليزي صار يرى أن الشعب غير مؤهل للديمقراطية والمجالس النيابية، ويرى استبداد كرومر والانكليز الذي يصفه الافغاني في الاسطر التالية، حرية وديمقراطية لا مثيل لهما ولم يكن المصريون ليحصلوا على مثلهما مهما بذلوا في سبيلهما من مال وجهد!! فقد قال الأفغاني: يصف حال مصر قبل الاحتلال وبعده-وكأنه لا دور له في ما آلت اليه الامور-!

(تفجرت في ارض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها... وتوارد اليها الغرباء، وقصاد الكسب من كل مكان وما خاب قاصد، ولا أخفق فيها ساع فأثرى في مغانيها الفقراء، وعز بها الأذلاء وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين... غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته، فعثر العاقل وفرط المالك واعثر المعجب وتهور الغبي

وخان الامين... ففتحت للدسائس أبواب وأنساب بين طبقات الناس، دهـــاة سياســة وطلاب غايات فتفرق اتصال وتقطعت أوصال، فضعفت السلطة الوازعـــة ونبـــذت الطاعة والتهبت نيران الفتن...

اشفقت دولة الانكليز على طريق الهند كما يقال أو ظنـــت ان التقـــدم بعـــض خطوات قد آن فرأت إعادة الامن وتثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها،! فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتغريم، وما شاكل ذلك ممـــا لا حاجة لبيانه. وعم بعض انواع الهوان، حتى لم يبق ممن يعرف اســـمه أحـــد إلا مسه ضر... واأسفاه على حال الأهالي بعد هذا، حكم ما لا دافع لحكمه بطـــود آلاف من الوطنيين الموظفين في دوائر الحكومة، وما منهم أحد الا ويتبعه عائلـــة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتب عائلهم وما مرن على عمل للكسب سوى ما نشأ فيه مـــن خدمة الحكومة... اضطرب ميزان السلطة العامة فاشتبه الامر على العمال وظنـــوا ان لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من ايديهم وحكّموا أهواءهم فـــي أداء وظائفهم فخبطوا أو خلطوا. افعمت السجون باعيان الرعية ورفعت أذناب الكرابيـــج لتشريح ابدانهم واستعملت الآت التعذيب، وأمتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايـــا اموالهم وثمرات كسبهم، وحدث نوع من الحكم المطلق عزيز المثال، بعث عليـــهم عذاباً من فوقهم ومن تحت ارجلهم، ولبسوا شيعاً واذيق بعضهم باس بعض، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون، غلقت أبواب العمل من وجوهه الرســـمية... وتعطلـــت أشغال المحاكم وشخصت الابصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمـــة فاتســـع نطاق الفوضى وأرتفع حجاب المنعة. فعاث اللصوص وكثر قطع الطرق من كـــل ناحية... ففسدت الزراعة وانتقصت ثمراتها... فعم العسر وأحاط الضنك وتقوضـــت الآف من البيوت التجارية... وزاد الويل بسحق الحرية الشخصية... واتباع بواطـــل التهم... أبعد هذا يصح لمصري ان يظن ان تلك الرزايا التي حلت ببلاده من نحـــو عشرين شهراً كانت مقدمة لاصلاحها وتنظيم شؤونا...)[1].

---

[1] محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الأفغاني جـ٢، ص١٠١-١٠٢.

وكون الديمقراطية سلاح يشهر في وجه الحكام الوطنيين فقط يدل عليه أيضاً سلوك الكواكبي صاحب كتاب طبائع الاستبداد والذي يحرض فيه على مقاومة الاستبداد ويدعو الى الحرية والتحرر ولكن عندما يعرض اقتراحه في كيفية حكم البلاد العربية، فهو بعد ان يفصل الدين عن الدولة ويجعل وظيفة الخليفة روحية مثل وظيفة البابا يعاونه مجلس شورى، -وهو ذات الاقتراح الذي كان قد دعا اليه العازوري قبل ذلك وعمل من أجله بلنت!!- يؤكد علي ان خلافةً مثل هذه (محدودة السطوة مربوطة بالشورى تحقق للاوربيين صوالحهم الخصوصية وصوالح النصرانية وصوالح الانسانية) ولكن مع ذلك إذا عارضت الدول التي تحت استيلاء الاجانب هذا الاقتراح!! فالجمعية (تتذرع اولاً بالوسائل اللازمة لمراجعة تلك الحكومة واقناعها بحسن نية الجمعية فاذا توفقت لرفع العنت فبها والا فلتجأ الجمعية الى الله القادر الذي لا يعجزه شيء...)[1] فالحرية والتحرر ورفع الاستبداد بالقوة مطلوب عند التعامل مع الدولة العثمانية والحكم الوطني أما عند التعامل مع الأجانب المحتلين والمغتصبين لحرية الامة فيستخدم الاقناع او يعتبره من الاقدار التي عليه الانصياع لها والقبول بها رغم أنه من المعارضين للقدرية عند المسلمين! ورغم ان أوامر الله سبحانه وتعالى واضحة بطاعة أولي الأمر من المسلمين ومجاهدة الأجانب!!.

وهذا لطفي السيد أيضاً لم يكن يدعو للديمقراطية إلا للحد من سلطة الخديوي وليس من سلطة كرومر، الحاكم الفعلي للبلاد والمغتصب لحريتها. فرغم أن كرومر كان قد جرد الخديوي عملياً من كل سلطاته إلا أن النقاد يؤكدون على أن دعوة لطفي السيد الى ضمانات دستورية وديمقراطية برلمانية قبل الحرب العالمية الأولى إنما كان يقصد بها الحدّ من سلطة الخديوي وتمكين طبقته الأرستقراطية في حكم البلاد) منفذاً سياسة كرومر الذي كان يشجع الملاكين والموسرين من الموالين

---

(١) العقاد: الرحالة ك/ الكواكبي ص١٩٥.

لبريطانيا على حكم البلاد للحد من نفوذ الخديوي وحاشيته الذين كما يعتقد كرومر (يؤلبون الشعب ضد الاحتلال)[1].

وخلاصة القول فان الدول الأوربية استهدفت من إدخال مفهوم الديمقراطية الأوربية بما فيها من تأليف الأحزاب ووضع دساتير للبلاد على النسق الأوربي كاحد مسلتزمات هذه الديمقراطية، الى المجتمعات العربية عدة امور منها:

١- احداث فجوة بين الحاكم والمحكوم وإشاعة جو من عدم الثقة بينهما وذلك من خلال استعداء الشعب على الحاكم باعتباره مستبداً يهدر حقوقهم وحرياتهم. فإن استجاب وسمح بالأحزاب والانتخابات، فرغم إنهم يدفعون بتلاميذهم لتشكيل الأحزاب المرتبطة فكرياً- على الاقل إن لم يكن غير ذلك-بهذه أو تلك من الدول الأوربية، فيحولون المجلس النيابي الى منبر للتهجم على الحكومة بالحق وبالباطل، فهم أيضاً يتهمون هذه الانتخابات بالتزييف والتحريف فيحل السلطان أو الخديوي-أو أي حاكم- المجلس! فتبدأ من جديد المطالبة بالمجالس والانتخابات وهكذا... فيحس الحاكم أنه هو المقصود بكل هذه المعارضة وأن الدستور والمجالس ما هي إلا حجة لإضعاف مركزه أو إسقاطه فتنطلق فيه غريزة الدفاع عن النفس، وهي غريزة طبيعية في البشر، والحاكم بشر وليس من الملائكة! فيبدأ باضطهاد المناوئين هؤلاء وهكذا حتى يتم إسقاطه. وهذا ما حدث للسلطان عبدالحميد وللخديوي إسماعيل، وللكثيرين غيرهم من الحكام حتى يومنا هذا. وما حدث لشاه إيران محمد رضا بهلوي ورئيس الفلبين ماركوس إلا مثلين قريبين على استخدام هذا السلاح في وجه من يخرج عن طاعة السادة أصحاب الحضارة والمعاصرة!! فقد حكم الشاه أربعين عاماً كانت الديمقراطية فيها بألف خير وحقوق الإنسان على أفضل ما يكون!! ولكن، ما أن انتهى دوره لسبب أو لآخر حتى شهر في وجهه سلاح الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان فسقط! وكذلك ماركوس، حكم عشرين عاماً كان خلالها حاكماً ديمقراطياً وتحررياً جداً

---

[1] مجيد خدوري: عرب معاصرون ص٣١٨.

ويستحق الدعم والمساندة!! وفجأة اصبح عدو الديمقراطية مـــزوراً للانتخابــات فوضع بطائرة أجنبية بالحيلة وجيء بالبديل الديمقراطي المهيء بالدولة الاجنبيــة ذاتها وبطائرة أجنبية أخرى!!..

وهكذا استخدمت، ولا تزال تستخدم الحرية والديمقراطية لاحداث الفجــوة بيــن الحاكم والمحكوم. هذه الفجوة التي تجعل الاثنين فريسة سهلة للاستعمار يقضـــي منها مآربه كيفما يشاء ولن يستطع أي منهما إتخاذ موقف صلـــب ازاءه. ومــا قصة عرابي وثورته إلا مثل واضح على ذلك. فقد هيأ لها فكرياً الأفغاني ومــن ورائه الماسونية. وما أن غادر الأفغاني حتى تسلمها بلنــت رجــل المخــابرات البريطانية، والذي حرض عليها وشجع عرابي على تأليف الحزب الوطني الــذي كتب هو وعبده برنامجه وأخذ موافقة الخارجية البريطانية عليـــه ونشــره فـــي الجرائد البريطانية قبل نشره في مصر!! وعندما قامت الثورة ووجد توفيق نفسه في موقف حرج وذلك لان عرابي وصحبه ما كانوا يخفون رغبتهم بجعل النظام جمهورياً. فقد كتب عرابي الى بلنت يقول له إن خلع اسماعيل أزال (عنا عــبء ثقيل. ولكنا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بانفسنا لكنا تخلصنا من اسرة محمد علـــي باجمعها... وكنا عندئذ أعلنا الجمهورية...) وكان البارودي، أحد قــادة الثــورة يقول: (كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا ولكنــا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة، لانهم متأخرين عن زمنـــهم ومـــع ذلــك فسنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت)[1]. فماذا يفعل توفيـــق لانقــاذ نفسه وهو يرى عرابي وصحبه يسيطرون على الموقف؟ لجأ الـــى الاســطول الانجليزي وتشبث باليد الانجليزية الممدودة الية مدعية انقاذه مــن الغــرق فـــي الطوفان الذي اعدته وشاركت في احداثه!! وهكذا كانت الديمقراطيـــة الاوربيــة تحقق اهدافها!

---

(١) محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ١، ص١٥٩.

وما حدث للسلطان عبد الحميد لا يختلف كثيرا عن هذا. اذ تحـــالفت مجموعـــة حزب الاتحاد والترقي- والذي هو اساسا نبتة اوربية نبتت في فرنسا وبريطانيا- مع كل اعداء الدولة العثمانية في الداخل والخارج وعلــــى رأســـها الماســـونية والصهيونية، واسقطوا السلطان عبد الحميد مســـتخدمين ذات الســـلاح الزائـــف البريق، الديمقراطية، التي يفتقر إليها حكم عبد الحميـــد ويتصفـــون هـــم بـــها! وحريتهم وديمقراطيتهم هذه كانت وراء كل الاستبداد الذي لاقته الامة العربيــــة من الدولة العثمانية! وكانت الوباء الذي قضى على الدولة العثمانية نفسها. فـــهذه المجموعة هي التي (أدخلت للدولة العثمانية الملكية الكبيرة، او شبه الاقطاعيـــة- وهي التي أسهمت في تدمير الاقتصاد المستقل، وفتحت الابواب للتغلغل الغربـــي اقتصادياً وثقافياً وسياسياً)[1]. وهي التي سنت القوانين والأنظمة التـــي تكـــرس العنصرية وتعمل على سيادة العنصر التركي في الامبراطورية مما أثار حفيظـــة بقية القوميات فيها وأدى بالتالي الى القضاء على الدولة العثمانية.

٢- تفريق كلمة الامة وتشتيت شملها من خلال الأحزاب المختلفة بشكل يسهل لـــها (الدول الاوربية) أمر الهيمنة على الساحة السياسية في البلاد سواء قبل الاحتلال للتمهيد له او اثناء الإحتلال او بعد الجلاء عن البلاد. ولذلـــك شـــجعت تـــاليف الأحزاب. فالماسونية الأوربية كانت وراء تأليف الأفغاني لحزبه الحرّ ولحـــزب مصر الفتاة، كما كان بلنت وحزبه الحر-! وراء تشكيل حزب عرابي الوطنـــي! كما كانت بريطانيا وفرنسا وراء تشكيل عدد من الأحزاب القومية والوطنية هنـــا وهناك في البلاد العثمانية وعلى رأسهم حزب الاتحاد والترقي. وأنتشرت حمـــى تشكيل الأحزاب بعد ذلك بأسماء مختلفة في مصر أولا فهذا الحـــزب الوطنـــي الحر وهذا الحزب الوطني-من غير حر- وهـــذا حـــزب الأمـــة وذاك حـــزب الأحرار أو حزب الدستوريين الخ... وكل حزب إنشق الى فروع وكـــل فـــرع انشق إلى فروع الفروع وهكذا... وأنتقلت عدوى تشكيل الاحزاب من مصر الى بقية البلاد العربية وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانيـــة،

---

(١) منير شفيق: الاسلام في معركة الحضارة ص١٣٤.

فالعراق لم يعرف الحياة الحزبية العالمية إلا منذ عهد الانتـــداب ١٩٢١-١٩٣٢-١٩٣٢ حيث تألفت عشرة أحزاب)[1]!!! ومعظم مؤسسي هذه الأحزاب وأعضائها كـانوا ممن لهم ارتباطات بالدول الأوربية سواء من خلال مدارسهم المنتشرة في البـلاد العربية أو من خلال جمعياتهم السرية كالماسونية والفابية والكاربوناري الـــخ... فاعضاء الحزب الوطني الحر وتلامذة كل من الأفغاني وعبده هم الذين سـيطروا على الحياة الحزبية بعد ذلك في مصر اذ كونوا أولا حزب الأمة-الذي يســـميه كرومر حزب الإمام- ومنه تفرعت الأحزاب الأخرى فلم يكن حزب الوفد كمـــا يؤكد محمد محمد حسين (إلا امتداداً له)[2] وأستمر الحال إلى يومنا هـــذا حيـــث خلفت تلك الأحزاب الاولى أبناء وأحفادا!.

وعندما قامت الثورات في الخمسينات من هذا القرن والغت الأحزاب، لمعرفتها بها وبانتماءاتها وبعجزها عن تحقيق شيء للامة، فقد ذكـــر علـــى لســـان جمـــال عبدالناصر انه قال: (لو سمحنا بحرية الأحزاب السياســـية اليـــوم، لقـــام عندنـــا ٣ أحزاب: أحدهما موال للكتلة الغربية والآخر للكتلة الشـــرقية والثـــالث مســـتقل. إن مجادلاتهم يمكن أن تدمر الوحدة وتنقل الينا الحرب الباردة)[3]. ولكن حتى عندمـــا كونت الثورات هذه حزباً جديدا واحدا او أبقت على حزب واحد هو حزبها أنتقـــل فكر وممارسات تلك الأحزاب الاولى إلى هذه-عبر الأعضاء الذين انتقلوا من تلـــك الى هذه أو من خلال تلامذتهم ومريديهم مع زيادة التطرف في العلمانية والتغريـــب وابتعاد أكثر عن القيم والتقاليد الدينية والأجتماعية للمجتمعات العربية، هذا غير مـــا أضافه هذا الدم الجديد! إلى هذه الأحزاب مما زاد الطين بلـــة كمـــا يقـــول المثـــل الشعبي. ولذلك لم تنقطع تبعية هذه الأحزاب الجديدة للدول الاوربيـــة. ولـــم تكـــن

---

(١) عادل غفوري: الاحزاب المعارضة العلنية في العراق ص٦٩.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ٢، ص٤١٠ ومن الجدير بالذكر ايضاً ان العراق لم يعرف الماسونية الا بعد الاحتلال الانكليزي له.

(٣) سالزبرجر: آخر العمالقة ص١٩٧-١٩٨.

الصدفة وحدها هي التي جعلت اكثر مؤسسي الأحزاب من خريجي هذه الجامعة أو تلك من الجامعات الاجنبية العريقة في المنطقة العربية!.

وقد نجحت خطط الدول الاوربية في دفع الحزبية وتشكيل الأحزاب باسم الديمقراطية سواء السرية منها أم العلنية، وحققت أهدافها بشكل مدهش. فقد احتل الانكليز مصر باقل ما يمكن من الخسائر وذلك لان الأحزاب آنفة الذكر كانت قد مهدت للاحتلال بما أوجدته من فوضى فكرية شوشت فيها المفاهيم وشتت الانتماءات وفرقت كلمة الأمة وأسدلت ستاراً من الغموض على الأهداف الوطنية فحجبتها عن أبناء الأمة مما أضعف مقاومة الأمة للغزو الأجنبي. أما بعد ذلك فلم تقتصر مساهمة الأحزاب والجمعيات التي أنشأتها الدول الأوربية ودعمتها، على هذا الدور في التمهيد لاحتلال البلاد العربية الأخرى، وإنما تعدت هذا وصارت الى مساعدة عسكرية فعلية. فبالاضافة لكون الانكليز حاربوا الدولة العثمانية بجنود مصريين والفرنسيين بجنود تونسيين أو جزائريين فقد اسهمت الأحزاب والجمعيات هذه من خلال الحركات العربية في دحر الدولة العثمانية والقضاء عليها وتسليم البلاد العربية للأنكليز والفرنسيين يتصرفوا بها تصرف المالكين فيقسمونها كما يشاؤون ويضعون على راسها من يشاؤون من الحكام والملوك ويهدون منها لمن يشاؤون!! ولذلك قال لورنس في كتابه اعمدة الحكمة السبعة: (كم انا فخور بالمعارك الثلاثين التي خضتها والتي لم ترق فيها نقطة دم لإنكليزي...)[1] وفي تبرير دوره في غش العرب بوعود [illegible] لا تتحقق قال: (إنه كان متأكداً بأن مساعدة العرب كانت ضرورية لإحراز الأنكليز النصر في الشرق رخيصا وسريعاً)[2] وبالتالي فإن انتصارهم-الانكليز-ونقض عهودهم أفضل من اندحارهم!.

أما بعد الاحتلال فقد انشغلت الأحزاب بالتنافس والتناحر فيما بينها، تاركين الاستعمار يتحكم في البلاد على هواه! هذا غير أن أكثرهم كان يحاول تقديم

---

(١) Seven pillars of wisdom p. 23-24

(٢) opt. cit

الخدمات للاستعمار ليكسب من دعمه! فعبده مثلاً كـــان يتــبرع بتقديـــم الخدمـــات لكرومر مثل تقديم لائحة اصلاح التعليم له والتي فيها يدل عبده الأنكليز على كيفيـــة السيطرة على المصريين المسلمين من خلال الدين! ولائحة تنظيم إدارة البلاد والتي يقترح فيها منح الإنكليز سلطات أوسع وتجريد الخديوي من أية سلطة مهما كـــانت. وعلى مثل ذلك جرى حزبه ومن جاء بعدهم. ومن تبعية هـــذه الأحـــزاب للـــدول الأوربية أنها أصبحت أدوات تستخدمها هذه الدول في مناهضتها لبعضها البعـــض. تماماً كما فعل الأفغاني وعبده من خلال العروة الوثقى إذ هاجما انكلترا بدعم مـــن فرنسا متغاضين عن استبداد فرنسا في البلاد العربية، وأنقطع صوتهم الهادر ضـــد الانكليز حال إصطلاح الطرفين، فرنسا وانكلترا، بتوقيع معادة بينهما أتفقا فيها علـــى تقسيم مناطق النفوذ بينهما. فكذلك حدث بعد ذلك وأستمر حتى يومنا هـــذا. فعندمـــا ضرب الفرنسيون عام ١٩٢٥ دمشق بالمدافع (فتركوا شوارعها وقصورها خرابـــاً) وأعملوا في ثوراها تقتيلاً حتى بلغ عدد القتلى من السوريين نحو من عشـــرة آلاف شهيداً لم تثر هذه النكبة في نفوس مدّعي القومية والوطنية من السوريين المتواجدين في مصر من مشاعر الغضب ما يجعلهم يهاجمون فرنسا أو يلومونها فهؤلاء كمـــا يقول محمد محمد حسين، وأمثالهم في مصر لا يتحدثـــون-ان تحدثـــوا- إلا عـــن ضحايا الأستعمار الانجليزي. أما ضحايا الاستعمار الفرنسي فهم يغمضون أعينـــهم عنه فإن اضطرتهم الظروف للكلام استعانوا بكـــل مـــا رزقـــوا مـــن لباقـــة ولـــم يفصحوا)[1]. وحتى عندما تقوم بعض الأحزاب الوطنية بمعارضة المحتل وعرقلـــة استبداده أو طلب جلائه، تقوم الأحزاب الأخرى بحل ما عقده الأول، كما حدث مـــع الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل مع عبده وحزبه، حزب الأمة، من بعده ومع الوفد وسعد زغلول وغيرهم بعد ذلك. وحتى هذا الحزب المعارض نفسه لا يستطيع العمل مقابل هذه الأحزاب الموالية للمحتل والمدعومة من قبله إلاإن وجد لـــه مـــن يدعمه من الخارج، ولهذا نجد أن مصطفى كامل وحزبه مثلاً حاولوا دائماً الاتكـــال على دعم فرنسا لهم خاصة بعد تولي الأتحاد والترقي الأمر في الدولـــة العثمانيـــة.

---

(1) ص١٣١-١٣٢

وهكذا استطاع المحتل بواسطة الأحزاب-الديمقراطية- أن يكرس احتلاله ويجعله أسهل وأرخص كما كان احتلاله بفضل الأحزاب كذلك. وبدلا من ان تجتمع كلمة الأمة ضد المحتل تفرقت بين الأحزاب المتنافسة والتي اشتدت مع الايام منافستها حتى صارت بعد عام ١٩٢٣ في مصر مثلا إلى حد لم يعد فيه (هم الأحزاب وهدفهم بلوغ السلطة في البرلمان، بل التنديد بخصومها واسقاطهم عبر الغوغائية بالتحريض حتى لو كانت النتائج تناقض المصلحة العامة. وكثيرا ما انهمك الزعماء السياسيون في تبادل الشتائم والسباب والمهاترات متهمين بعضهم البعض بالخيانة والنفاق مما أدى إلى زعزعة ثقة الناس بجميع الزعماء إلى حد كبير)[1] (ولم تحل سنة ١٩٢٥ حتى كانت المهاترات وفوضى الخلافات الحزبية قد بلغت قمتها... وزاد الامر سوءا أن الشعب نفسه قد تقسمته أهواء الأحزاب التي يزعم كل منها أنه ينطق باسمه، وهي جميعا أحزاب مصطنعة لا مبرر لوجودها فكلها قد وجدت لاسباب شخصية، ولا فرق بين برامجها، لأنها جميعا متولدة عن حزب الأمة. وقد بدأت جميعا مستندة الى العصبيات وإلى أصحاب المصالح من كبار الملاك...)[2].

ولم يقتصر دور الأحزاب على تسهيل الاحتلال وتكريسه وإنما استمر دورها في خدمة مصالح الاستعمار بعد الجلاء والاستقلال وذلك إذ صارت تعمل على إدامة التبعية بكل أشكالها للاستعمار ولم يأت عملها هذا بالصدفة!! وإنما جاء نتيجة تخطيط مسبق من قبل المحتل الذي أجرى خلال احتلاله عملية مسح للأفكار والنزعات والأمال والأهداف السائدة في الوطن، ولما أدخله من أفكار وقيم ونزعات، ولما كان سائدا في العالم من نزعات عالمية كالاشتراكية والشيوعية والفابية الخ... والتي كان من المتوقع لها أن تسود، ثم قام بصهر كل ذلك وصبه في القوالب التي يريد. فشجع تأليف الأحزاب المختلفة الأسماء والاتجاهات، منها ما هو قومي و منها ما هو اشتراكي ومنها ما هو ديمقراطي ومنها ما هو شيوعي الخ... ولكن الحزب القومي هذا يدعو الى ذلك المفهوم من القومية الذي يريده الاستعمار

---

(١) مجيد خدوري: عرب معاصرون ص٣٥٤-٣٥٦

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية... ص٤١٤-٤١٦.

والبعيد كل البعد عن كل مقومات الامة وكل ما يشكل شخصيتها، (مثل الحزب الذي شكله عازوري في باريس قبل الاحتلال وأبناء وأحفاد ذلك الحزب الذين تشكلوا بعد الاحتلال على غراره) فإن ما يجعل الامة متفردة عن غيرها ليس هو اللسان المشترك ولا الارض المشتركة وحدهما وإلا كان كل أجنبي سكن بلادنا وتكلم لغتنا صار عربياً. وكل عربي سكن فرنسا وانكلترا وغيرها من الدول الاجنبية وتكلم لغة اهل تلك البلاد صار فرنسياً او انكليزياً الخ... وبالتالي لا يحق له أن يتدخل بالشؤون العربية -مثل عازوري وغيره حتى هذا اليوم-. إن اهم ما يشكل شخصية الأمة هو بالاضافة الى ما تقدم، مجموعة القيم والتقاليد والمعتقدات المشتركة والتي منها ما يرتبط بالدين ومنها ما يرتبط بالتراث والتاريخ الطويل المشترك، باحداثه وما وفر للأمة من خبرات مشتركة والتي كلها يسقطها المستعمرون ودعاتهم من حساباتهم أو يقللون من شأنها أو يعملون على تشويهها أو شرذمتها بالتأكيد على فرعونية البعض وبابلية أو فينيقية الآخرين! فما قيمة أن يكون الحزب قومي وعقيدته اوربية وينشر الفكر الأوربي ويبشر بالحضارة الاوربية وليس هذا فقط بل أن الحزب القومي في الدولة التي استعمرها الفرنسيون يرتبط ارتباطاً روحياً-إن لم يكن غير ذلك- بفرنسا فينشر ذلك النوع من القومية الذي يخدم مصالح فرنسا ويحقق على المدى القريب والبعيد تبعية الامة لها، وكذلك هو حال الحزب القومي الذي ينشأ في ظل الاستعمار الانكليزي ويحضى بدعمه. وكذلك هو حال الاحزاب الاشتراكية فهي رغم كونها فكرة عالمية فهي الاخرى مرتبطة بهذا أو ذاك من الأحزاب الاشتراكية في هذه أو تلك من الدول المستعمرة، تستمد منها الوحي والدعم معاً. وحتى الأحزاب الشيوعية وبالرغم من وجود النظام الماركسي الروسي الذي ترتبط به الشيوعية العالمية والاحزاب الشيوعية في العالم والذي يعتبر الأب الروحي لها. إلا أن ارتباط الأحزاب الشيوعية في الدول العربية بروسيا يمر خلال الأحزاب الشيوعية في دول الاستعمار هذه والتي أنشأتها ودعمتها منذ البداية إذ يذكر مجيد خدوری في كتابه الأتجاهات السياسية في العالم العربي مثلاً أن الحزب الشيوعي اللبناني كان يتلقى دعمه من الحزب الشيوعي الفلسطيني والذي كان

مقتصراً على الجالية اليهودية ومقاطع من قبل العرب ولكن بعد تأسيس الحزب الشيوعي السوري في أوائل الثلاثينات اتجه الحزبان السوري واللبناني الى الحزب الشيوعي الفرنسي طلباً للمساعدة والتوجيه)[١].

وكل هذا تخطيط من أجل ما بعد الجلاء، فاي حزب يسيطر على الساحة السياسية في البلاد بعد الجلاء، لا يعدم الاستعمار من أن يجد من بين صفوفه من يواليه ويحقق مصالحه ويضمن استمرار تبعية البلاد له. وليس هذا فقط وإنما عمل الاستعمار ايضاً وخاصة الانكليزي على بناء زعامات وطنية يقوم بتربيتها وإبرازها وإشهارها كشخصية عبقرية فذة مؤكداً على وطنيتها من خلال ما يرتبه لها من مواقف وطنية مناهضة للأستعمار فيلتف حولها الوطنيون، وتنال دعماً شعبياً كبيراً فتصبح هذه الزعامة بفضل هذه المواقف التمثيلية المرتبة، والحزب الملتف حولها هي القوة الغالبة. وبهذا يهيئها لتسلم دفة الحكم عندما تزف ساعة الرحيل بعد أن ينتهي دور الأحتلال بتحقيق أهدافه. فالاستعمار لا يمكن كما يقول مالك بن نبي (أن يلغي من حسابه مبدئياً، احتمال الأستقلال... إن الاستعمار لواثق اتجاه هذا الاحتمال، ولمواجهته في الوقت اللازم)[٢] ولذلك يهيئ لمن يسلم البلاد. ويقول عن حال الجزائر (أن الصراع لم يكن صراع أفكار، وإنما صراع مصالح تشرف عليها السلطات العليا، متظاهرة بمقاومته أحياناً، عندما تعلن غضبها على هذا-العدو لفرنسا- أو ذاك حتى يرى الشعب المغرور في تلك العداوات بطولات توجب عليه السمع والطاعة لاصحابها...)[٣] وليس أدل على ذلك من الكيفية التي ظهر فيها سعد زغلول واصبح أكبر زعيم وطني في مصر. وهو الذي استوزر لاول مرة وهو شاب صغير بترشيح من بلنت وكرومر وأصبح وزيراً مزمناً في الوزارات المختلفة والمتعاقبة في الدولة يتنقل من وزارة إلى أخرى منفذاً للانكليز كل استبدادهم ومكرساً احتلالهم لمصر. فمن المعروف أن الوزير أنذاك هو المنفذ لسياسة الإنكليز

---

(١) ص ١٢٥

(٢) مالك بن نبي: الطالب ص١٨٨-١٨٩.

(٣) ذات المصدر ص٢٢٢-٢٢٣

وقد أعترف بذلك اللورد ويفل Wavel الذي قال عن كيفية الحكم في مصر: (إن الانجليز ليس لديهم سلطات تنفيذية بانفسهم ولكنهم يباشرون التنفيذ عن طريق الوزراء المصريين...)[1] ولما انشأ كتشنر عام ١٩١٣ الجمعية التشريعية استقال سعد وانتخب رئيسا لها، وتحول الى معارض للإنكليز بقدرة قادر!! وتطرف سعد بعد ذلك لينافس الحزب الوطني المتطرف ضد الانكليز إلا أنه احتوى هو وجماعته من أعضاء حزب الامة هذا التطرف ضد الانكليز ووجهوه ضد الخديوي وإن عارضوا الانكليز كما يقول محمد محمد حسين (فهم لا يعارضونهم إلا في تسامحهم مع الخديوي)[2] وبدأ بعد ذلك سلسلة من الخلافات والمهاترات التي يفتعلها مع هذا وذاك من أعضاء الحكومة ومن أعضاء الجمعية التشريعية مما عرقل نشاطها، حتى الوفد الذي ذهب للمفاوضات مع الانكليز والذي كان هو أحد أعضائه لم يسلم من هذه الخلافات إذ افتعل سعد زغلول خلافا مع أعضاء الوفد ونازع عدلي باشا رئيس الحكومة على رئاسة الوفد مما أضعف موقف المفاوضين! ولما أشتدت هذه الخلافات التي صارت الى مهاترات سخيفة يمكن أن تضر به! نفي ولمدة شهر واحد في مارس ١٩١٩ فقط ليعود بعدها بطلا مقداما وشخصية جماهيرية فذة تنزهه الجماهير وتبرر له كل أفعاله. فأصبح يحرك الجماهير كيفما يشاء، وطغى بشخصيته هذه على كل معارضيه، وأصبح الزعيم الذي جعل مصر رهن إشارته فماذا حقق: أضعف موقف الحكومة والمفاوضين في مفاوضاتهم مع المحتلين، شغل الأمة، حكومة وشعبا، بخلافات جانبية تافهة لا طائل من ورائها، وأمتص النقمة والثورة على الإنكليز وحماسة الشعب بخطبه الحماسية وحولها كما يقول محمد محمد حسين (الى الاشتغال بالتوافه وبما لا طائل تحته، فبعثر هذه الطاقة الضخمة وبددها، وفوت على الامة ان تستفيد بها حين كان يمكن الانتفاع بها فيما يجدى وينفع)[3] وبعد أن أدى دوره هذا عاد إلى الواقعية وموالاة الانكليز مرة أخرى كما

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية... ص٣٩٩.

(٢) الاتجاهات الوطنية...جـ٢، ص٣٩٢.

(٣) ذات المصدر ص٤٠٧

كان من قبل. فلم يكد يصل اللورد لويد عام١٩٢٥ إلى مصر حتى سارع سعد الى زيارته ولم تلبث الصحف الوفدية أن مالت الى مهادنة الانكليز والدعوة إلى مسالمتهم والانتفاع بمزايا وجودهم والانشغال بالأمور الاقتصادية والزراعية وتأجيل مسألة الجهاد السياسي إلى إشعار آخر حتى تحين الفرص[1] . وبدأ سعد يدافع عن الامتيازات الأجنبية ويشيد بالأعمال الجليلة التي تقوم بها الحكومة الانكليزية. ولكنه مات ولم يمهله الاجل ليحقق ما كان الانكليز قد عقدوا عليه من آمال، وفوت موته على الانكليز فرصة كبيرة في الاستفادة من استثمارهم فيه. ولذلك قال نيومان متاسفا على موته (كان من الممكن أن يكون سعد زغلول عاملاً قوياً في هذه الفترة من العلاقات المصرية الانجليزية وقد كان هناك أدلة لاتحتمل إلا قليلاً من الشك على ما ذهب اليه اللورد لويد والحكومة الانجليزية من إنتظار معونته وعطفه. وقد كان عطف زغلول على وجهة النظر الانجليزية يعني عطف المصريين جميعاً)[2] .

ويبدو أن تجربة الإنكليز هذه مع سعد زغلول أعطت الإنكليز درساً، فلم يعودوا يستثمرون في الأشخاص فقط وإنما في العائلة حتى إذا مات الزعيم المعد للزعامة ورث الزعامة ابنه أو ابنته أو زوجته كما حدث في البلاد الهندية حيث تحولت الديمقراطية إلى حكم وراثي ترثه البنت عن والدها والولد عن والدته والمرأة عن زوجها. وتحولت الديمقراطية والانتخابات الى بناء اصنام وعبادتها فقد جاءت أنديرا غاندي إلى الحكم بعد وفاة والدها في (انتخابات فريدة من نوعها طغى فيها طابع عبادة الشخصية على طابع وعي المسألة الهندية)[3] وكل مؤهلاتها التي نشرت آنذاك هي أنها سجنت مع والدها وهي طفلة صغيرة[4] وحضرت معه الاجتماعات

---

(١) ذات المصدر ص٤٠٨

(٢) ذات المصدر ص٤٠٨

(٣) خليل احمد خليل: العرب والقيادة ص١٦٥.

(٤) تأمل، لقد كان الانجليز يحصدون ارواح الهنود بالألف بدون رحمة ولاتفه الاسباب وابسط انواع الرفض او الثورات ولكن كانوا في ذات الوقت يسجنون كبار الساسة وخاصة نهرو، والد انديرا، مع عائلته في بيت خاص مع خدم يقومون بخدمتهم ويوفرون لهم كل اسباب الراحة والاتصال بالأخرين، كما يهيئون لهم استقبالات حافلة بعد الافراج عنهم.

السياسية وهي كبيرة!! ليعدها لتسلم رئاسة الحزب والدولة كما كان يعد الأباطرة والملوك أبناءهم الذين سيرثون الحكم من بعدهم! ومثل نهرو كان السيد بوتو رئيس وزراء باكستان يعد ابنته كذلك إذ كانت بنازير بوتو تترك دراستها في الجامعات الأمريكية وتقطع الآف الاميال لتلحق بوالدها أينما كان وتحضر الاجتماعات السياسية الرسمية! وعندما تتكلم السيدة بنازير بوتو في كتابها ابنة الشرق لا تتكلم عن الشعب الباكستاني أو حتى عن حزبها وإنما عن آل بوتو كانهم عائلة حاكمة بالوراثة مثل العوائل التي حكمت في اوربا أيام الإقطاع والاستبداد وقبل الديمقراطية وحكم الشعب!! فتؤكد مثلا أن الشعب الباكستاني يؤيد آل بوتو أو أن ضياء الحق لا يخاف إلا من آل بوتو!! وعندما خرج والدها من السلطة (بعد مظاهرات اتهمته بفساد الحكم وباللاديمقراطية تمثلت فيما تمثلت به خطف المعارضين وقتلهم) تزعمت هي الحزب والمعارضة وكأنها الوريثة الشرعية له وألف أخوها فرقة سماها فرقة آل بوتو يدرب فيها المقاتلين على حرب العصابات حتى يستولي على الحكم في الباكستان بالقوة وكأن آل بوتو عائلة ملكية لها حق شرعي إلهي في حكم الباكستان لا يجوز الاعتداء عليه وسلب الحكم منها حتى وإن كان من خلال الديمقراطية والانتخابات! وإن حدث فلا بد ان يستعاد ولو بالقوة!.

وفي سيريلانكا تولت بندرانايكا رياسة الحزب والحكومة بعد وفاة زوجها وحولته الى حكم العائلة الواحدة حيث وزعت المسؤوليات المهمة في البلاد بين افراد عائلتها! وفي الفلبيين أعد المستر أكينو لحكم الفلبيين بعد ماركوس ولكنه قتل قبل ان يتمكن من ذلك فورثت زوجته، التي باعترافها لم تكن تعرف شيئا عن السياسة ولا حتى عن ماهية مطالب الشعب الفلبيني خاصة وهي قد قضت معظم وقتها في الولايات المتحدة الامريكية، زعامة الحزب ورشحت ضد ماركوس ولما لم تحصل على الفوز ادعت أن الانتخابات مزورة وحدث بعد ذلك ما حدث من إخراج ماركوس والمجيء بها وبأسم الديمقراطية لتستلم حكم البلاد حتى من غير إعادة الانتخابات وإنما الاكتفاء باجراء استفتاء شعبي من الاستفتاءات المعروفة!! ومن غير مرشح منافس كما تقتضي لعبة الديمقراطية. وصحة الاستفتاء وصحة

التزوير يدل عليها الواقع في الفلبين إذ (خلال ١٨ شهراً من حكم السيدة اكينو حدثت خمس محاولات انقلاب...) وحدث تبادل اطلاق نار بين قوات الحكومة والانقلابيين في المحاولة الاخيرة يعتبر (أسوأ قتال شهدته العاصمة الفلبينية منذ الحرب العالمية الثانية) وقد جاء بعد يومين من اشتراك آلاف النقابيين في الاحتجاج الذي اعتبره العسكر وحياً من الشيوعيين)[1] ويبدو أن قانون الوراثة في الأحزاب والسياسة قد بدا هلاله يهل على العالم العربي!!!.

مقومات الديمقراطية:

قال شاه إيران السابق رضا بهلوي لسيروس سالزبرجر (إن ديمقراطية النظام الغربي تصبح إداة هدم وتخريب فقط إذا طبقت في الدول المتخلفة)[2] . وهو ليس الوحيد من الساسة الذي يعتقد هذا الاعتقاد، فهناك الكثير من الحكام ومن المفكرين من يرى رأيه وكل له سببه، وأغلبهم يرى ذلك بسبب جهل الشعب وتخلفه مما يجعله غير مهيء لممارسة الديمقراطية، وكان عبده مثلاً يرى هذا الرأي وهو تفسير أبعد ما يكون عن الحقيقة. وذلك لأن معظم شعوب الدول المتقدمة حتى وإن كانت نسبة الامية فيهم تنعدم أو تكاد، إلا أنهم في ممارستهم للديمقراطية يقعون في حبائل أهل السياسة بذات السهولة التي يقع فيها أبناء الشعوب التي يرونها متخلفة. فلا يعصم شعوب الدول المتمدنة القليل الذي تعلموه مع القراءة والكتابة! وإن أخذنا بنظر الاعتبار دهاء ومكر ساستهم ووسائلهم وتقنياتهم في ابتزاز الاصوات وقارنا الفجوة بين شعوبهم ودهاة السياسة عندهم مع الفجوة بين شعوبنا ودهاة السياسة عندنا لما رجحت كفة الشعوب المتقدمة عن شعوب الدول النامية او المتخلفة! ولكن مع ذلك تبقى الديمقراطية الغربية إداة هدم وتخريب في بلادنا وذلك لسببين: عقائدى وتنظيمي.

---

(١) عن جريدة الدستور الاردنية/ بتاريخ ١٩٨٧/٩/١٢.

(٢) سالزبرجر: آخر العمالقة ص١٤.

السبب العقائدي:

لقد انتشرت في البلاد عقائد مختلفة ومستوردة وتنطلق من فلسفات مادية مختلفة اختلافاً تاما عن فلسفة الامة الدينية الالهية. فقسمت الامة عقائدياً الى قسمين يصعب تلاقيهما هذا من جهة، ومن جهة أخرى ان هذه العقائد المستوردة تختلف في بعض جوانبها، فيما بينها اختلافاً حاداً، جعلها في تنافس وتناحر مستمر في موطنها الأصلي. فنقلت هذا التنافس والتناحر إلى بلادنا. ولما كان تنافس هذه العقائد أساساً متمحور حول إحراز السبق في الهيمنة، الفكرية قبل غيرها، على بلادنا فقد صار التنافس العقائدي أقوى وأعنف مما هو في موطنها الأم. مما زاد في تشتت الأمة ووسم خلافات أصحاب العقائد هذه من أبنائها بالعنف وقد انتظمت هذه العقائد في أحزاب وتجمعات وبالتالي صارت هذه الأحزاب تابعة لهذه أو تلك من الدول المصدّرة لهذه العقائد. مما يقلل من فاعلية المجلس النيابي إن تشكل وأنضم اليه أصحاب العقائد هؤلاء، لأن وجود هذه التيارات المتناحرة فيه سوف تشل حركته ولن تمكنه من جمع كلمة الأمة على أي قرار. هذا غير احتمال تدخل هذه الدول صاحبة الفكر في الانتخابات أصلاً. وتأثير الدول صاحبة الفكر وصاحبة الدعم لا يمكن لاحد أن ينكره. فحتى دولة كبرى مثل فرنسا هي بذاتها دولة كبيرة ومتقدمة وصناعية ومستعمرة لم تنج من التدخل الأجنبي في انتخاباتها. فقد كان ديغول يعتقد أن أمريكا تعمل ضد مجيئه إلى السلطة وذلك لأنه (لن ينسى أبداً موقف فرانكلين روزفلت) في دعم (فيشر والمارشال بيتان ثم الأميرال درلان) ثم (بناء الجنرال جيرود ودعم مكانته كبديل له)[1] ويؤكد سالزبرجر مسألة تدخل امريكا في فرنسا عندما يقول أن ديغول كان يتآمر على الجمهورية الرابعة و (على دفنها ويدبر لعودته وقد كان يفكر في أن تكون عودته... بالوسائل التقليدية... لكنه كان قد غالى في تقدير التأييد الشعبي وقلل من تقديرفعالية المعارضة الامريكية...) ويقول أيضاً (كان ديجول يرى أن في استطاعته امتصاص الاحزاب في حركته وعزل الحزب الشيوعي ليكون الخيار بينهما فقط وكان موقناً من ان الشعب سيختار حركته وكانت

---

(١) ذات المصدر ص٤٦ (انظر مسألة بناء الشخصية السياسية من خارج كيان الدولة)!!

استراتيجيته تقوم على اضعاف الجمهورية الرابعة لكن الولايات المتحـــدة تدخلــت بهدوء لتأييد عناصر القوة الثالثة–التي هي بيـــن التطـــرف الشـــيوعي والتطـــرف الديجولي– الأمر الذي أبقى على النظام، وهذه سياسة لـــم يغفرهـــا ديجـــول أبـــدا لامريكا...)[1]

أما التدخل الاجنبي في ديمقراطية الدول النامية فهي كثيرة وكثيرة جـــــدا، ولا يمكن حصرها. فالكيفية التي جاءت بها أكينو إلى السطلة معروفة! والسيدة ماركوس زوجة الرئيس السابق الذي كان قبل أكينو استغربت من موقف امريكا وقالت كمـــا عرضت شاشات التلفاز: انهم، هي وزوجها أبناء أمريكا التي تبنتهم و يجـــب ان لا تعاملهم بهذا الشكل!! والمثل الآخر يأتي من الباكستان إذ اتهمت بنازير بوتـــو فـــي كتابها أبنة الشرق الامريكان في إثارة الاضطرابات ضد والدها وتقول (كان والـــدي وأعضاء حزب الشعب الباكستاني مقتنعين بأن الاضطرابـــات مدبـــرة مـــن قبـــل الامريكيين) وأن هنـــــاك (اجتماعات متكررة بين دبلوماسيين أمريكيين واعضـاء من الإئتلاف الوطني الباكستاني...) وأن والدها علم أن الولايات المتحدة في ســـنة ١٩٥٨ أجرت مناورات بالغة السرية مع الجيش الباكستاني لتعليم فن شل الحكومـــة من خلال الاضطرابات... وأن كيسنجر طلب من والدها إعادة النظر في الاتفاقيـــة التي يزمع عقدها مع فرنسا من أجل المفاعل النووي وإلا فسيكون مثلاً مخيفـــاً)[2]. وكلام السيدة بوتو هذا يضعنا أمام خيارين: إما أن ما تقوله بنـــازير عـــن التدخـــل الأجنبي والسيطرة على الرأي العام صحيحاً وبالتالي يكون والدها أيضاً قـــد جـــاء نتيجة للدعم الأجنبي له وإنها لم تحصل على الأغلبية بعد ذلك إلا بتدخل اجنبي عمل على قتل ضياء الحق الذي كان عقبة في طريقها ودعمها وأوصلها إلى السلطة بعـــد أن أثبتت لهذا الأجنبي صاحب النفوذ في الباكستان حسن السيرة الســـلوك، وأنـــها ستكون الأبنة المطيعة التي لن تخالفه في شيء، ولن ترفض له طلباً!! وهذا يجعـــل

---

(١) ذات المصدر ص٣٥-٣٦ (انظر اخلاق المعارضة في كل مكان وديمقراطيتها! فلا يهم ديغول قلب نظام الدولة او اضعاف الجمهورية الرابعة في سبيل الوصول الى السلطة!!

(٢) عن كتابها ابنة الشرق المنشور في حلقات في جريدة الرأي الاردنية.

الديمقراطية والانتخابات أكثر ضرراً على الامة من انعدامها، وإما أن ما تقوله غير صحيح وليس هناك تدخل اجنبي ولا تأثير على الرأي العام من الخارج، ولكن هذا أيضاً لا يعني أن الديمقراطية بخير، وإنما يعني أن الديمقراطية لا تحوز على ثقة الشعب وعدم الثقة هذا يفقدها فاعليتها وتصبح هي والعدم سواء. بل ان عدم وجودها يكون افضل بكثير لانه سيجعل الامة تبحث لها عن نظام آخر يحل مشكلاتها ويحوز على ثقتها. وإن كان الخيار الأول اكثر اتساقاً مع واقع حال الأمم!!

والتدخل الاجنبي في الديمقراطية والأحزاب قد يصل أحياناً إلى تحديد نوع الديمقراطية التي يريدها هذا الشعب أو ذاك أو حتى إختيار شخص الزعيم لهذا الحزب أو ذاك. فعن ترومان أنه (دعا الى منع كل ما هو غيرشيوعي أن يصبح شيوعي وأشار الى أنه لكي يكون أي شعب راضياً يكفيه أن يمارس الديمقراطية على طريقة العالم الجديد)[١]. وقد اختار زعيم سوفياتي أثناء زيارته لدمشق خالد بكداش لزعامة الحزب الشيوعي وهو لا يزال طالباً في الجامعة الامريكية لا لشيء الا لكسر الحواجز الدينية في الحزب وحتى لا تبقى الحركة مقصورة على الأقليات وقد عمل خالد بكداش باخلاص وتفان كما يقول مجيد خدوري (في تحقيق المثالية الأيدولوجية طبقاً للاستراتيجية السوفياتية وتوجيهاتها) والتي هي (الاستيلاء على الحكم في بلد عربي أو أكثر عبر ثورة بروليتارية)[٢].

وكون الديمقراطية والحزبية نبته أجنبية لا يحتاج منا إلى دليل فهي لم تدخل كفكرة وكممارسة إلا مع أوائل الغزو الاوربي الذي تمثل أول الامر بالمدارس الاجنبية والإرساليات التبشيرية ومن ثم الماسونية وما نسخ عنها من الأحزاب. فالعراق مثلاً لم يعرف الحياة الحزبية العلنية إلا في عهد الانتداب الانكليزي عام ١٩٢١-١٩٣٢ وتألفت عشرة أحزاب)[٣] لم تدم طويلاً. حتى أن مواد القانون الأساسي الذي نصّ على أن السيادة للأمة ووضع مواد لحماية حقوق الشعب

---

(١) عادل غفوري: احزاب المعارضة العلنية في العراق ص٧٤.

(٢) مجيد خدوري: عرب معاصرون ص٢٨١، ٢٧٨، ٢٨٩.

(٣) عادل غفوري: احزاب المعارضة... ص٦٩.

الاساسية... كانت مترجمة عن الانكليزية وأن القانون وضع نتيجة معاهدة فرضتها بريطانيا على العراق حينذاك...)[1] ولم يدخل الإنكليز الديمقراطية إلى البلاد حرصاً على مصالح الأمة وحكمها لنفسها! كما قد يعتقد البعض بل العكس حتى يحكموا سيطرتهم عليها ويسيروها باسم الديمقراطية كيفما شاءوا. أدخلوها لأنها مهزلة ليس إلا، وقد وصفها السر ارنولد ويلسن، نائب الحاكم المدني في العراق-١٩١٨-١٩٢٠- كذلك إذ كتب مقالة عام ١٩٣٦ إثر انقلاب بكر صدقي في العراق قال فيها: (حررناهم من حكم الأتراك الخفيف الوطء والكسول حينما احتللنا العراق بقصد منع الألمان من الوصول الى الخليج... ولقد حملناهم على تبني نظام برلماني، بمجلسين أعلى وأدنى، وانتخابات دورية، في وقت كان الأتراك والإيرانيون قد الغوا فيه برلماناتهم باعتبارها سبب دمارهم... لقد أخذنا العراق من الأتراك الذين لهم تقاليد الحكم وخبرته، وأودعناهم أناساً ليس لهم حظ من أيهما) وبعد أن يلوم بريطانيا يقول عن الانقلاب (... وهذا الانقلاب يعني نهاية مهزلة الحكومة البرلمانية في العراق)[2] ومهزلة الديمقراطية التي أرسى دعائمها الاستعمار الإنكليزي تظهر في الاستفتاءات التي اجراها في اول أمر الاحتلال ليعطي الشرعية لاعماله. فقد اجرى استفتاء شعبي! شبه رسمي في العراق. وكان هناك مرشحان لحكم العراق، وكانت انكلترا قد وعدت أن تجري انتخابات عامة حرة في البلاد لاختيار مجلس نيابي يناط به تقرير دستور للبلاد واختيار رئيس الدولة المقبلة، وكانت الحكومة الانكليزية تعلم أنه سوف لن يختار هذا المجلس مرشحها فقررت فرضه على البلاد، فقامت قوة باختطاف المرشح الآخر، بناء على أوامر كوكس بينما كان ينزل ضيفاً عليه في منزله، وحُمل إلى عربة مدرعة توجهت به إلى زورق نقله إلى البصرة ومنها إلى السجن في سيلان، ونظم بيرس كوكس هذا استفتاء شعبياً! يقوم على سؤال وحيد يجعل البديل هو

---

(١) عبدالرحمن البزاز: صفحات من الماضي القريب ص٩٧-٩٨.

(٢) نجدت فتحي صفوت: العراق في الوثائق البريطانية ص٤٤٢-٤٤٤.

استمرار الحكم الأجنبي مما اضطر المستفتون الى قول (نعم)[1] فبريطانيا لم تحكم البلاد العربية التي أحتلتها بشكل مباشر بل من خلال ما توجده من تنظيمات ومنها الأحزاب والمجالس النيابية. وقد ذكر خدوري ما يؤكد هذا الأمر إذ قال: (أصرت فرنسا، بصفتها السلطة المنتدبة على ضرورة تضمين دستور كل من سوريا ولبنان مواد تشترط موافقتها -فرنسا- المسبقة على كل إجراء رسمي. أما بريطانيا، فقد آثرت إخضاع الشكل للمضمون، فلم تشترط مثل هذه السلطات بل فضلت الاعتماد على نفوذ غير مباشر عوضاً عن النفوذ المباشر...)[2] .

أما بعد الحرب العالمية الثانية، (بعد أن أنتصرت الديمقراطية الأوربية متمثلة بالحلفاء على جبهة المحور أوعزت الأولى إلى الأنظمة السائرة في ركابها بالسماح لشعوبها بممارسة الديمقراطية كاسلوب لإيقاف الاتجاهات التبشيرية الشيوعية)[3]. والتي كان نشاطها قد تزايد بفضل دعم الحلفاء لها خلال السنوات الأخيرة من الحرب من أجل الاستفادة من تنظيماتها في الدعاية للحرب الاستعمارية هذه، وجعلها حرب تحرير وديمقراطية!!، ولكن بعد أن حطت الحرب أوزارها، وتقاسم الحلفاء من جديد مناطق النفوذ ظهر التخوف من انتشار الشيوعية من جديد، اذ قال تشرشل مثلاً (لقد خيم ظل على المناطق التي أضاءتها انتصارات الحلفاء مؤخراً ولا يدري إنسان ماذا تنوي روسيا السوفيتية ومنظماتها الشيوعية الدولية أن تفعلا في المستقبل القريب أو ما هي الحدود، إن وجدت، لاتجاهاتها الواسعة التبشيرية)[4] . فبدأوا في بعث الحياة الحزبية هنا وهناك ودعموا نشاطاتها بغير حدود من أجل القيام بواجباتها في توجيه الأمم ونشر مفاهيم الحرية والديمقراطية والاشتراكية أيضاً ليفرغوا الدعوة الشيوعية من محتواها ويعملوا على صدّها.

---

(١) ريتشارد الدنجتون: لورانس في البلاد العربية ص٣١٣-٣١٤.

(٢) مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية... ص٥٠.

(٣) عادل غفوري: احزاب المعارضة العلنية في العراق ص٧٣.

(٤) ذات المصدر

سبب تنظيمي:

أما السبب التنظيمي الذي يجعل الديمقراطية أداة هدم فيتمثل في غياب القيادة لعملية الديمقراطية متمثلة بأحزاب وانتخابات، ففي أوربا كان الاقطاع في أول الأمر هو مركز القوة في الدولة والذي يسير كل شيء فيها وعلى رأس ذلك نظام الحكم أيا كان، فالنبلاء الاقطاعيون ورجال الدين كانوا هم الطبقة الحاكمة في البلاد. ولما بدأ العمل في فكرة الانتخابات وتمثيل الأمة آنذاك كان الإقطاع والكنيسة هما اللذان يقودانها ويسيرانها بحسب ما تقتضي مصالحهما فمنذ عام ١٤٨٣، في فرنسا على سبيل المثال، وحتى قيام الثورة الفرنسية لم يكن كما يقول ثومبسن (قوانين مكتوبة وواضحة للانتخابات، ولم يكن هناك برلمان في باريس أو فرساي، ولا يستطيع أحد أن يعرف كيف ينتخب النواب أو ما هي واجباتهم وكان النواب يخضعون... لسيطرة النبلاء ورجال الدين وهذا ما لم يعد يناسب الطبقة المتوسطة الناشئة) وحتى البرلمان الذي اجتمع في يوم ٥ مايس ١٧٨٩ قبيل الثورة، بقرار من لويس السادس عشر (كان يعطي الكثير من الامتيازات للنبلاء ورجال الدين ولا يخدم العامة إلا قليلا)[١] وبدأت هذه الطبقة المتوسطة الناشئة ذات التوجهات العلمية والصناعية تعمل عملها في المجتمع الاوربي من اجل تغييره فقضت على الاقطاع وعلى نظام الحكم الخاضع له واخذت منه زمام الامور وقيادة المجتمع، فاوجدت نظام الحكم كما هو عليه اليوم، وحلت الرأسمالية الصناعية (او لنقل الاقطاع الصناعي ان جاز التعبير) محل الاقطاع القديم في قيادة الديمقراطية وجعلتها بالشكل الذي هي عليه الان في اوربا تأتمر بامرها وتتحرك بإرادتها، فمن يقود الديمقراطية في البلاد العربية إن وجدت؟ ليس في البلاد حتى قبل الأنظمة التقدمية السائدة والاشتراكيات إقطاع ذو نفوذ طاغ كما كان الحال في اوربا وذلك لأنه في أوربا سبق الاقطاع الدولة في الوجود وهو الذي اوجد الدولة لخدمة مصالحه فهو الذي كان يسيطر عليها. أما في البلاد العربية والعالم الاسلامي ككل فان الاقطاع وجد بعد وجود الدولة بزمن طويل، إذ هو ظهر كاحد المقتبسات الأوربية من أجل التقدم والمدنية!

---

(١) J.M.Thompson, The French Revolution p.1-11

وبالتالي فقد كان نظاما مشوها لمثيله الأوربي ويستمد قوته من الدولة او من الدول الاجنبية الداعمة له، ولذلك لم يستطع حتى حين وجوده من قيادة الديمقراطية وتوجيهها حتى وإن كان لمصلحته. وفي ذات الوقت ليس هناك احتكارات صناعية رأسمالية كبيرة، تمثل مركز القوة، لها من النفوذ ما يؤهلها لأن تقود مسيرة الديمقراطية،كما هو الحال في اوربا اليوم، وما يوجد في البلاد العربية من هذه القوة الرأسمالية النامية في الوقت الحاضر هو نتف صناعية مرتبطة بالرأسمالية الصناعية الاجنبية، ولا كياناً مستقلا لها ولا يمكن أن يكون لها ذلك في يوم من الايام. وذلك لانها كلها لا تعدو ان تكون فروعا أو امتيازاتاً لشركات واحتكارات عالمية اجنبية. ولذلك فان أي تدخل منها سيكون في حقيقته تدخلا أجنبيا مرفوضا من جهة، ومن جهة أخرى أنه لن يكون للصالح العام بل لتحقيق مصالحها الآنية ومصالح الاحتكارات الأجنبية المرتبطة بها على المدى القريب والبعيد حتى وان كانت على حساب المصالح العامة. فليس في البلاد العربية مراكز قوة لها وزنها سوى الحكومة. أو لنقل الحاكم، والحاكم أو الحكومة ككل لا يمكنها قيادة الديمقراطية لانها طرف في العملية التي تستهدف محاسبتها ومراقبتها وبالتالي فمن الطبيعي أن تستخدم نفوذها لجعل هذا التنظيم او السلطة التي هي المجلس النيابي في صفها ويرى رؤيتها ، ما يجعل الأمر تمثيلية لا معنى لها! وفيما عدا الحكومة فليس هناك في البلاد العربية غير مراكز قوى صغيرة مبعثرة تتمثل بالعشائرية والطائفية والحزبية والفئوية الخ... وهذه كلها ذات أثر محدود أذ يبرز من كل منها فرد (أو أفراد)، يستطيع أن يستغل إمكانات مجموعته بشتى الطرق! ليصل من خلالها الى رحاب المجلس المنتخب والذي تصل اليه هذه الاشتات المتنافرة والمتناحرة فتنقل اليه تناحرها. والشواهد على ذلك كثيرة. فقد انحل أكثر من مجلس في دول الخليج لان اعضاءه ذوي العقائد والانتماءات المتنافسة لم يقتصروا في حل خلافاتهم على الشتائم والاشتباك بالايدي وإنما استخدموا مقاعد المجلس!! ايضا: ومسألة حل المحامين المصريين خلافاتهم باطلاق الرصاص على بعضهم ليست بعيدة عن الأذهان!

هذا بالاضافة الى ان من ضمن مفاهيم الديمقراطية كما نشرها الأوائل أمثال الأفغاني وعبده والكواكبي وغيرهم واقتبسها عنهم المعاصرون هي: أن أفضل الخلق وأعظم الوطنية هو أن تعارض الحكام ولا تقرب مجلسهم!! مما جعل النواب يفهمون أن مهمتهم إن كانوا وطنيين شرفاء أن يتناحروا مع اعضاء الحكومة، أو أن أفضل طريق لعرض وطنيتهم وتحقيق الشهرة لانفسهم هي المعارضة لكل ما تفعلة الحكومة بالحق او بالباطل ولذلك لم تقتصر مسألة الشتم والضرب على بعضهم البعض وإنما صار بينهم وبين الوزراء أيضا، كما حدث في مجلس النواب المصري مؤخرا ومر ذكره. وهذا يجعل القول أن الديمقراطية الغربية إن طبقت على البلاد الأخرى، وخاصة البلاد النامية تصبح أداة هدم قريب من الحقيقة.

ثم ان الديمقراطية ليست هدفا كما تصورها الدعاة وتبنوها وصوروها للناس، وكما دعاهم اليها الأوربيون قبل ذلك، حتى صار كل حزب يزين بها إسمه أو برنامجه على أعتبار أنه سيحقق الديمقراطية، وكل حكومة تّدعي في برنامجها ذلك وكل دولة تجعله شعارا لها و تلحقه باسمها! إن الديمقراطية الأوربية هي حل لمشكلات سياسية واجتماعية عانت منها مجتمعات أوربا وتطلبتها الظروف السائدة فيها والخاصة بها والتي لا تنطبق على كل المجتمعات الأخرى (كما أن الدواء لا يصلح لكل المرضى) وعلى رأس ذلك ظهور الرأسمالية الصناعية، والتي تطلب نشوءها وازدهارها المرور بثلاث مراحل:

١- الثورات الداخلية للقضاء على مراكز القوى التي كانت سائدة في البلاد والتي تقف في طريق سيطرتها، وهما الاقطاع ورجال الدين، الذين كانوا بالإضافة الى كونهم إقطاعيين نافس البعض منهم الملوك والأباطرة على امتلاك الاقطاعات الواسعة، يسيطرون على أمور الحياة ويقفون في سبيل التقدم العلمي والصناعي اللذين تحتاجهما الثورة الصناعية.

٢- النظام الديمقراطي في الحكم ليوفر لهم الاستقرار بعد تلك الثورات التي بعد أن قضت على الانظمة القديمة لم تعد تخدم مصالحهم وخاصة في القرن الثامن عشر إذ يقول ثومبسون في كتابه الثورة الفرنسية: أنه كان (عالم اتفق فيه

المتنظرون مع السياسيين الواقعيين، على انه لا يمكن أن يتحقق شـــيء بعنـف الثورة، لا يمكن تحقيقه بالاصلاح القانوني، وأنه كان عالم فية فجوة عميقة بيـن طبقة وأخرى، الا انه لم يكن هناك حرب الطبقات... الكل يرغب بحرية أكـبر ويدين بالولاء لملكية محدودة الصلاحية تسمح بالمشاركة في حكم البلاد)[1].

٣- الحروب الاستعمارية وغزو البلاد الأخرى واحتلالها لتوفـير المـواد اولية اللازمة لصناعاتهم ولتأمين الأسواق الدائمة لهذه الصناعات، هذا من جهه، أمـا من جهه اخرى فالحروب كانت تهدف أيضا إشغال أبناء الأمة عما كانت تعـاني مجتمعاتهم من فجوة طبقية شديدة ومن فقر واستغلال بشع لهذا الفقر، تبدو أثـاره في حياة الطبقة العاملة في المصانع والمدن الصناعية الكبيرة والتـي تسـتدعي الثورة عليها.

وهكذا تولت مراكز القوى الرأسمالية قيادة البـلاد الاوربيـة ونظـام الحكـم الديمقراطي فيها توجهه كما تشاء لخدمة مصالحها وتنظم نشاطات الناخبين بوسائلها المختلفة لتحقق الفوز لمن تريد والفشل لمن لا تريد! وهذا هو ذات ما تسعى لتحقيقه في البلاد الاخرى لتتحقق لها تبعيتها بشكل نهائي والى الأبد ولا يعود هناك حاجـة للثورات!!.

ولكن العالم العربي لم يعط الفرصة لان يمر في تقدمه بالمراحل التي مرت بها أوربا او بغيرها. لم يعط الفرصة لان يحدد اهدافه في التقدم بنفسـه ويختـار مـن الوسائل ما يلائمه لتحقيق هذه الاهداف كما فعلت اوربا. لم يعط الحرية في عصـر الحرية! أن يختار بنفسه النظام السياسي الذي يلائمه، بل فـرض عليـه النمـوذج الأوربي، وبأسم الحرية والديمقراطية! وصار عليه أما أن يتبع النموذج الأوربـي أو يتهم بالتخلف والرجعية وتفرض عليه الوصاية او الحماية حتى يرتضي هذا النظـام ويطبقه فيصبح عندئذ فقط مؤهلاً للاستقلال!! فكانت النتيجة تشوهات لـهذا النظـام الأوربي تظهر هنا وهناك تارة وتختفي تارة اخرى. وقد أعترف ريتشارد نيكسـون

---

(١) OPT . CIT, P-11

مؤخراً في كتابه نصر بلا حرب (أن إقامة حكومة ديمقراطية في العالم الثالث نادراً ما يكون أمراً ممكناً) وذلك لأنه يرى أن (النظام الديمقراطي يشبه الساعة المعقدة. وتماماً مثلها، إن الساعة تحتاج إلى كل من الزنبرك الرئيس ومجموعة التروس المتداخلة لضبط الوقت فان النظام الديمقراطي يحتاج أيضاً لا إلى مجرد رغبة شعبية للحكم الذاتي ولكن أيضاً إلى المؤسسات السياسية والاقتصادية والثقافية التي تجعل النظام الديمقراطي مجدياً). ويقول أن (هذه المؤسسات اقتضت مئات من السنين لكي تتطور في الغرب وينبغي أن لا نتوقع منها أن تثبت جذورها بين يوم وليلة في العالم الثالث)[1]. والعالم العربي ليس فقط لم تتح له الفرصة لبناء هذه المؤسسات وإنما سوف لن تتاح له الفرصة لبنائها أبداً. وذلك لأن عملية التغريب التي أحكمت تبعيته للغرب، جعلت من هذه المؤسسات مسخ مشوه لمثلها في بلاد الغرب وبالتالي فأن أي ديمقراطية ستقوم على أساس هذه المؤسسات المشوهة لن تكون إلا مسخاً مشوهاً مثلها فما يقام على الباطل لا يمكن إلا أن يكون باطلاً مثله.

وأهم اسباب عجز الديمقراطية الأوربية المنشأ هذه بالإضافة إلى ما تقدم ما يلي:

١- أن الأمة العربية أمة لها حضارة راسخة وعقيدة أكثر رسوخاً فهي ليست من الامم البدائية الهمجية والتي تعيش في فراغ يمكن أن يملاءه أياً كان. والأوربيون ودعاتهم من الوطنيين اهملوا هذه الحقيقة وجاءوا لها بنظام من خارجها يهمل عقيدتها ويتجاهل شخصيتها فكان من الطبيعي حتى إن لم ترفضه، أن يكون شيئاً هامشياً في حياتها لا تعيره التفاتاً. وقد أكد هذا الأمر مجيد خدوري في كتابه الاتجاهات السياسية، عندما قال: (كانت أوربا وراء الحركة الداعية إلى ايجاد مواثيق دستورية في البلاد الإسلامية تتضمن مبادئ الحكم الأساسية وشريعة لحقوق الانسان... وحين نجح قادة الحركة الدستورية، آخر الأمر في إقامة مؤسسات تمثيلية لم ينتبهوا إلى المبادئ الاسلامية التي كانت لا تزال تسيطر

---

(١) ريتشارد نيكسون: نصر بلا حرب ص١٣٩.

على عامة الناس وتملك البابهم، فلم تتطرق دساتير تونس ومصر وتركيا إلى هذه المبادئ، ما عدا الإشارة الى كون الإسلام دين الدولة الرسمي. وصيغت هذه الدساتير وفق النماذج الأوربية وحدها)[1] ففقدت أي اتصال بالفئات المتدينة والتي تمثل غالبية هذه الشعوب.

٢- أن الحاح الدول الأوربية على الديمقراطية وتحريض الشعوب على المطالبة بها كحقوق انسانية قبل الاحتلال وهدرها بعده كما حدث في مصر وغيرها من البلاد المحتلة، واستخدامها وسيلة لإسقاط الحكام المعارضين ولاضعاف الدولة العثمانية وإسقاطها، جعل الزعماء العرب، الأوائل والأواخر، يفهمونها كذلك وسيلة للمعارضة وهدم الأنظمة القائمة لا غير تنتهي مهمتها عندما تحقق أغراضها هذه وليس حلاً لأزمة الحكم، خاصة وأنه لم يكن هناك قبل الإحتلال وقبل التدخل الأوربي أزمة حكم، ولهذا جعلوا أشخاصهم وأحزابهم فوق هذه الديمقراطية التي يدعون لها مع الداعين. وقد أكد الأفغاني هذا الاتجاه عند الزعماء والأحزاب عندما قال: تتخيل الأمة (من وراء وعود الحزب سعادة ورفاه وحرية وإستقلال ومساواة... فيؤازرون الحزب بكل معاني الطاعة والأنقياد والنصرة والتضحية... الخ فإذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة وأستحكم له الأمر، ظهرت هنالك في رؤوساء الأحزاب الآثرة والانانية... الخ)[2] ولذلك نجد مثلاً ان الملك فيصل الذي قاد الثورة العربية باسم الحرية والديمقراطية والذي استفاد مما احدثته الدعوات هذه من فجوة بين الحكام العثمانيين والرعية رفض اعطاء المجلس حق طرح الثقة بالحكومة فقال في المؤتمر السوري الوطني الذي كان مجتمعاً لوضع دستور لسوريا: (انني انا الذي اوجدته فلا اعطيه هذا الحق الذي يعرقل عمل الحكومة) مما جعل رشيد رضا يقول له: (...نعم إن لك فضلاً بالسماح بجمعه إذ كنت تحكم هذه البلاد... أما وقد أجتمع-المؤتمر-بأسم الأمة وهي صاحبة السلطان الأعلى بمقتضى

---

(١) ص ٤٣-٤٥

(٢) عزت قرني: العدالة والحرية في عصر النهضة ص٢٥١-٢٥٢.

الشرع الإسلامي وبمقتضى أصول القوانين العصرية... ان تكون الحكومة مسؤولة تجاهه-)[1] . ويذكر مجيد خدوري أن الملك (فيصل تابع، حتى بعد أن أصبح ملكاً على العراق (١٩٢١-١٩٣٢) سيطرته على الحكومة، ولم يلتفت الى الدستور في العراق اكثر مما فعل في سوريا)[2] .

وكان سعد زغلول لدكتاتوريته وغروره يعتبر نفسه الأمة كلها إذ قال في رده على خصومه (ان من يتحداه يتحدى المصلحة المصرية القومية)[3] وقال إن (إحراجي هو احراج الامة)[4] وعمل دائماً على شل حركة مجلس النواب بما يفتعله من خلافات مع الاعضاء. وهكذا كانت سيرة معظم الحكام والدعاة في تعاملهم مع الديمقراطية مما سبب عجزها وفشلها. فالزعماء العرب كم يرى مجيد خدوري كانوا (غير مستعدين ذهنياً لمثل هذا النوع من التجديد)[5] الذي فرض عليهم من الدول الاوربية التي واجدتهم ودعمتهم حتى كانت قراراتهم بهذا الصدد (تعتمد على توجيهات الدول الأوربية التي بسطت سيطرتها على البلاد العربية...)[6] .

٣- إن الديمقراطية دخلت البلاد العربية مشوهة وكوسيلة لتكريس الاستعمار لا غير. لقد فرضت الدول الأوربية على الدول العربية نظامها الديمقراطي ولم تدع للعرب حرية اختيار نظامهم السياسي الذي ينسجم مع ظروفهم الخاصة بهم، وجعلت الزعماء المحليين الذين وضعتهم على رأس السلطة يتبنون مؤسساتها هذه. المؤسسات الفرنسية في الدول الخاضعة لفرنسا والمؤسسات البريطانية في الدول الخاضعة للنفوذ البريطاني، بغض النظر عن ملاءمة هذه المؤسسات لحال الدول العربية وأوضاعها المحلية. وفوق كل ذلك لم تسمح للمؤسسات التي

---

(١) مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي ص٢٩٥.

(٢) ذات المصدر

(٣) مجيد خدوري: ذات المصدر ص٥٩.

(٤) محمد محمد حسين الاتجاهات الوطنية ص٣٩٩-٤٠٠

(٥) مجيد خدوري: ذات المصدر ص٤٧.

(٦) ذات المصدر

اوجدتها هذه ان تعمل بحرية بحيث تتمكن من تكييف نفسها للأوضاع القائمة في البلاد بل كثيراً ما كانت تفرض القيود عليها كلما لاح من هذه المؤسسات ما يناقض مصالحها. فنجد بريطانيا مثلاً في الوقت الذي تؤيد فيه سيطرة البرلمان على الحكومة ضد رغبة الملك كان قناصلتها في العراق وغيره يفضلون تعزيز سلطة الحكام واعطاءهم حق النقض لقرارات البرلمان[1] . هذا غير أن النماذج التي طبقتها الدول الاوربية من مفاهيم الديمقراطية في البلاد العربية كان مهلهلاً اذ هي فرضت على هذه البلاد ما شاءت من انظمة ودساتير وحتى عندما كانت تجري استفتاءً على امر ما، كانت تدبره بشكل يجعل نتيجته توافق ما كانت قد قررته مسبقاً ويحقق مصالحها. وكانت تعامل الحكام بصلف وتفرض عليهم اراداتها ففي العراق، مثلاً كان تعامل بريطانية مع الملك–وورثته ونظام الحكم ككل– ومنذ اول انشاء الدولة خرقاً للديمقراطية فبعد مرور ٢٨ يوماً فقط على تنصيب فيصل ملكاً على العراق قدم بيرس كوكس، المندوب السامي البريطاني مسودة معاهدة مع بريطانيا تضمن أسس الأنتداب ومطالبه وأغراضه والتي كانت كلها لصالح بريطانيا مما جعل الحركة الوطنية والأحزاب (التي اجيزت بعد ذلك) تعارضها وتطالب من التعديلات فيها ما لا يتفق ومطامع بريطانيا، فعمد كوكس منتهزاً مرض الملك فيصل إلى اعتقال زعماء الحركة والأحزاب هذه ونفيهم الى جزيرة هنجام، على مضيق هرمز، وعزل بعض المسؤولين في الالوية وأرسل الطائرات لتقصف العشائر المؤيدة للحركة الوطنية. وبعد شفاء الملك من مرضه زاره كوكس وهنأه وقال له (ان الحكومة البريطانية سوف لا تتحمل بعد الآن اتصاله باية حركة وطنية ولا تتساهل في أي تأخير قد يحدث في شأن تصديق المعاهدة وطلب منه أن يكون ملكاً دستورياً ويترك التدخل غير الضروري في شؤون الادارة والموظفين)[2] . وذكر فيليب ايرلند (أن الملك فيصل اعتذر عن اعماله السابقة بأنه انما قام بها لعدم وجود الدستور ولأن

---

(١) ذات المصدر ص٤٨.

(٢) محمد حسين الزبيدي: السياسيون العراقيون المنفيون ص٤٦.

الوزارة كانت غير متجانسة وأنه حالما يحصل على الدستور والمعاهدة سوف يقوم بتنفيذ ما يطلب منه بطيبة خاطر)[1] . (وقدم كوكس إلى الملك مسودة كتاب يصادق فيه على الإجراءات القمعية التي قام بها كوكس من نفي وسجن وقصف للقرى والمدن ويشكره عليها وقد فعل الملك ما أراد كوكس، وهذا نص الكتاب:

عزيزي السير بيرس،

الآن وقد تم شفائي بحمد الله تعالى، وسمح لي اطبائي ان استأنف اشغالي في الدولة، ارى من واجبي قبل ان اتولى هذه التبعة ان اقدم الى فخامتكم تشكراتي القلبية، وان اعبر عن اعجابي الشديد للسياسة الحازمة والتدابير الضرورية التي اتخذها فخامتكم بصفتكم ممثلاً لحكومة صاحب الجلالة لصيانة المصالح العامة والمحافظة على النظام والامن. اثناء مرضي المفاجئ الذي صدف وقوعه بغتة في المدة التي تنقضي عادة بين استقالة الوزارة وتأليف وزارة غيرها، وختاماً اكرر تشكراتي الخالصة لفخامتكم على مساعدتكم الثمينة.

صديقكم المخلص فيصل[2]

بغداد ١١ أيلول ١٩٢٢

وبعد هذا صارت العلاقة بين الملك وكوكس علاقة ودية وعمل الملك بحسب اقتراحاته بالنسبة لتشكيل الوزارة ووافق على جميع ما طلب كوكس منه!!!.

وموقف أخر يدل على تشوه الديمقراطية في بلادنا ذكره سلامة موسى في كتاب الثورات إذ قال (كان الانجليز في حاجة الى تأييد الشعب لنظام الحكم لان هدير الحرب الكبرى الثانية التي بدأت في ١٩٣٩ كانت له ذبذبة تحس وان لم تسمع في عام ١٩٣٤واحتاج الانجليز الى ان يربطونا بمعاهدة تكفل لهم الامان والمعونة اذا وقعت الحرب. ولم يكن من المعقول ان يوقع المعاهدة هذه-اسماعيل صدقي

---

(١) ذات المصدر ص٤٦-٤٧.

(٢) ذات المصدر ص٤٧

وفؤاد- التركيان أو الشركسيان دون نواب الشعب! وجيء بالوفد للحكم ووقعت معاهدة ١٩٣٦) ونال (مصطفى النحاس رئيس الوزراء لقب سير- من الانكليز مكافأة له على هذه المعاهدة)(١).

وهذا قليل من كثير من المواقف التي تدل على ديمقراطية اصحاب الديمقراطية وعلى الشكل الديمقراطي الذي غرسوا نبته في بلادنا! هذا غير تعطيل الصحف والمجالس وفضها والتدخل في انتخاباتها بشكل مباشر وغير مباشر. مما جعل الديمقراطية شكلاً من غير مضمون إن وجدت ومتى وجدت.

٤- لعب التشتت الفكري دوراً كبيراً في عجز الديمقراطية في البلاد العربية، ففي أوربا هناك حزبان-في الغالب مثلما هو الحال في أمريكا وإنكلترا- يتنافسان على السلطة، ينطلقان من عقيدة واحدة في الأساس ولذلك لا تختلف سياسة أحدهما عن الآخر في حقيقة أمرها. وكل خلافاتهما لا يكون إلا ظاهرياً وبحسب ما تتطلبه لعبة الكراسي التي يلعبونها باسم الديمقراطية! فكل من هو خارج الحكم يعارض من فيه بالحق وبالباطل وما أن يصل هو نفسه الى الحكم حتى يؤيد كل ما قام به سابقه ويزيد عنه في ذات الاتجاه. مما جعل الأفغاني مثلاً يهاجم حزب الأحرار الذي كان يعارض المحافظين ويدعوهم الى تحرير البلاد المستعمرة اذ قال: (صاروا على الأمم أشد من الحزب المحافظ، وزادوا في التحريج والتضييق وأحكموا خلق العبودية وشددوا ربق الرقبة وضيقوا المجال على النفوس التي تهوى الحرية وتميل اليها... بعد أن نادوا بأعلى صوتهم بفك رقاب الأمم من العبودية كأنهم عند انعزالهم ما كانوا يحامون عن حرية الأمم، إلا لأن يأخذوا زمام الحكومة بايديهم فجعلوا المحاماةعن الحق آلة للوصول الى باطلهم...)(٢) وحتى في حالة وجود أحزاب أخرى فهي صغيرة وأضعف من أن تكون مؤثرة بجانب هذين الحزبين مما يجعلها تأتلف مع أحدهما أو تتلاشى من

---

(١) سلامة موسى: كتاب الثورات ص١٩٠-١٩٦.

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة، الأفغاني، ص١٠١-١٠٣.

نفسها من غير أن تمثل لهما منافسة لها خطرها عليهما أو على دولهما الصناعية الكبيرة والتي كل ما عداها أصغر وأضعف من أن يستطيع التأثير في احزابها وديمقراطيتها! بينما في بلادنا العربية فالأحزاب ذات العقائد المختلفة والانتماءات المختلفة لا حصر لها وكل منها يريد التسلط في الحكم وأصغر وأضعف حزب يمكن أن يصبح الأقوى والأكثر تأثيراً في وقت الحاجة بما يتلقاه من دعم أصحاب المصالح من الأجانب. فإن كانت الديمقراطية في الدول التي ابتدعتها لعبة يلعبها أبناء الأمة فيما بين بعضهم البعض أو تمثيلية المخرجين والممثلين فيها من أبناء البلاد فانها في البلاد الأخرى وخاصة في الدول النامية تصبح لعبة يلعبها الأجانب ودور أبناء الأمة فيها لا يتعدى دور أحجار الشطرنج. أو تمثيلية يخرجها الأجانب بممثلين من أبناء الأمة. وقد حاولت الدول الأوربية في أول الأمر حصر أمر الديمقراطية في البلاد التابعة لها، بحزبين أو أكثر لهما ذات العقيدة العلمانية المستوردة منها ويعملان بتوجيهاتها ليتناوبا الأدوار كما هو حال الديمقراطية في موطنها. ولكن لم يكن ذلك ممكناً لعدة اسباب منها ما يلي:

أ- أن العقيدة الإسلامية السائدة في البلاد والمعارضة للعلمانية ظلت حية ولم تستطع الضربات التي وجهوها اليها أن تنال من حيويتها بما يكفي للقضاء عليها، بل ظلت لتشكل اتجاهاً مخالفا تماماً للاتجاه العلماني التابع لهم.

ب- أن التنافس الشديد بين الدول الاوربية وخاصة بين فرنسا وبريطانيا على السيطرة على البلاد العربية واخضاعها لتبعيتها جعلت هذه الأحزاب العلمانية ذات العقيدة الواحدة والتي تنطلق من فلسفة واحدة تنقسم بحسب انتماءاتها لهذه أو تلك من الدول المتنافسة كما حدث في حالة الأفغاني وخروجه من المحفل الماسوني البريطاني وانضمامه الى المحفل الفرنسي، مع أن الماسونية كعقيدة هي ذاتها! مما زاد من تشتت الأحزاب.

جـ- عندما ظهر الفكر الاشتراكي والشيوعي أرادت الدول الأوربية احتواءه فدعمته وانشأت له الأحزاب في البلاد العربية ودعمتها ليكون جزءاً من الاتجاه

العلماني التابع لها. ولكن ظهور روسيا ثم الصين كدولتين كبيرتين تدعمان الشيوعية، أفشل خططها بعض الشيء، في احتواء الحركة هذه وجعلها تحت سيطرتها وحدها. وبانقسام هذه الأحزاب العلمانية الليبرالية والشيوعية والأشتراكية الى فروع وفروع الفروع وتعدد انتماءاتها جعل مسألة الأحزاب أكبر من أن يحصرها ذلك الاتجاه الواحد الذي أرادت الدول الأوربية حصر الديمقراطية في إطاره مما افشل مشروع الديمقراطية في البلاد العربية وجعلها إن وجدت، مجرد سوق يتزايد فيه المرشحون على الشعارات وبيع الكلام. وقد ذكر مالك بن نبي مثلاً على ذلك ما صار إليه حال الجزائر في فترة الثلاثينات إذ قال: (إن الوضع تهيئاً آنذاك لـ (السوق الانتخابية التي ستفتح أبوابها على مصراعيه... عندما تدق ساعة المزايدة في القيم الأخلاقية والإجتماعية التي اكتسبها الوطن خلال الثلاثينات والتي ستباع فعلاً بالمزايدة الديماخوجية التي أعلنتها اتحادية المرشحين...)[1] ويقول عن ضرر طغيان الحزبيات وشعاراتها: (لا يستطيع احد تقييم ما تكبدنا من خسائر جوهرية منذ استولى علينا مرض الكلام، كانت قبل ذلك، الأفكار نقية صافية، والنوايا خالصة، صادقة والقلوب رحيمة خيّرة... فاستحال كل ذلك الى الخلط، والخبط والتباغض والانتهازية والثرثرة واصبح كل فرد مهتماً بـ (نوطته) الشخصية في العزف العام، ويسعى لمصلحته الخاصة، باسم الاصلاح وباسم الوطنية...)[2] .

٥- وريبة الامة العربية في الديمقراطية وسوء الظن بها زاد عجزها عجزاً. فهي قد دخلت مع الاستعمار، الذي أدخلها ولم يستخدمها إلا لاذلال الأمة وفرض إرادته عليها. فقد قسم أراضيها وشتت شملها باسم الديمقراطية واستفتاءاتها! وفرض عليها من الحكام والملوك من يشاء غصباً عنها وباسمها، أخرجها من دينها وتقاليدها ونظمها التي تفهمها وأرتضتها لنفسها وفرض عليها عقائده العلمانية ونظمه وباسمها! ومنح أجزاء عزيزة عليها من أراضيها إلى الآخرين وباسمها

---

(١) مالك بن نبي: الطالب ص١٣٤.

(٢) ذات المصدر ص٢٦٣.

وارتكبت وترتكب حتى اليوم كل الجرائم بحق الأمة وباسمها!! فكيف لا ترتاب وتستهزئ بها وتتهمها بالتزييف مهما كانت نزيهة، فكل ما يأتي من دول الاستعمار لا بد أن يكون مزيفاً، ولا بد أن تكون هذه الدول قد تدخلت فيها لمصلحتها فهكذا علمتها التجارب!

وخلاصة القول، فان الديمقراطية الأوربية كما دعا اليها الأوربيون في البلاد الأخرى ما هي إلا وهم أو سراب أستخدمته الدول الاستعمارية قبل الأحتلال لتغليف مقاصدها اللئيمة ولإغراء بعض أبناء الأمة بالاماني والآمال الكاذبة لكسبهم إلى جانبها، ليمهدوا لها أحتلال البلاد. وبعد الأحتلال صار وسيلتها لاختراق الأمة وتسييرها كما تشاء لخدمة مصالحها، وبعد الاستقلال أصبح وسيلة لاستمرار تبعية البلاد لها. واستخدمه الأفراد والأحزاب من أبناء الأمة وسيلة للوصول إلى الحكم. فما داموا بعيداً عن السلطة والحكم فهم باسم الحرية والديمقراطية يهدرون حريات الآخرين ويعتدون بما ينشرون من الأكاذيب والأباطيل عن أصحاب السلطة ما يشوشون به الحقائق على الأمة، ليبنوا لانفسهم محفة فاخرة تنقلهم باسم الديمقراطية الى مواقع السلطة ليستبدوا بها ويركلوا الديمقراطية بعد ذلك بعيداً عنهم. ولذلك وبعد أكثر من مائة عام على الدعوة للديمقراطية لا نجد حولنا إلا استبداداً تطور مع مرور الأيام وأنتقل من مرحلة إلى أخرى ليصل إلىما وصل اليه اليوم من الشدة التي يصفها دعاة الديمقراطية، أيضاً!! ولم يتحقق للأمة من خلال هذه المسيرة الطويلة سوى هوان التبعية للدول الأجنبية صاحبة الديمقراطيات! وما ذلك إلا لأن الديمقراطية هي قبل كل شيء وهم لم يتحدد شكله ولم تتضح معالمه حتى في ذهن دعاته من الاوربيين. ولذلك وجد في اوربا نفسها اشكال متعارضة من الانظمة التي تدعي كل منها انها الديمقراطية الحقيقية وان غيرها كذب وتزوير، وعلى رأس هذه الديمقراطيات الديمقراطية الليبرالية والديمقراطية التي تدعيها الانظمة الشيوعية وكل منها تفرع الى ديمقراطيات تتصارع فيما بينها صراعاً مريراً. وحتى بعد ان تساقطت الانظمة الشيوعية في اوربا الشرقية، فمن المتوقع ان تظهر فيه او في غيرها ديمقراطيات!! جديدة. وقد فسر الدكتور يوسف القرضاوي تشتت الديمقراطية

هذا بانه نتيجة لاختلاف المعايير فقال: (نحن لا نكاد نجـد فـي القـرن العشـرين ايديولوجية اجتماعية، ولا تنظيمية سياسية من الليبراليـة الـى الاشـتراكية، الـى الشيوعية، او حتى الفاشية او النازية، الا وتدعي كل منها انـها هـي الديمقراطيـة الحقة. وإن ما عداها ديمقراطية زائفة...) والجميع (يدّعون الحرص على الحريـة والمساواة وكرامة الانسان) وكل فئة تقدم لنفسها (معياراً تبرز به منهجها واسـلوبها. فمفكرو الديمقراطية الغربية يعتمدون المعيار السياسي، ويميزن ديمقراطيتهم بالحرية السياسية. على حين يعتمد الماركسيون المعيار الاقتصادي، فيميزون ديمقراطيتـهم بالجرية الاجتماعية والاقتصادية...)[1] وهكذا كل منهم يرى جانباً واحـد ويغمـض عينه عن الجوانب الاخرى من حياة الانسان وكأن المفاهيم الاجتماعية يمكن فصلـها بهذا الشكل الحاد وشرذمتها وتوزيعها بين سياسية واقتصادية وتربوية الخ...!!

ان حكم الشعب الذي دعا اليه الاوربيون زورا لتضليل الشعب مـا هـو فـي الحقيقة الاحكم طبقة معينة منه، تسيطر على الحكم بطريقـة مـا وتسـييّره باسـم الديمقراطية وباسم الشعب! ففي روما مهد الديمقراطية كما يدّعـي البعـض، كـان الحكم لطبقة السادة ملاك العبيد-الشعب- وفي القرون الوسطى كان الحكـم لطبقـة النبلاء وفي العصر الحديث صار الحكم لطبقة الرأسـمالية الصناعيـة فـي الـدول الرأسمالية، ولطبقة معينة من الطبقة العاملة في الدول الشيوعية ولما كـانت البـلاد العربية تكاد تخلو من أي طبقة من هذه الطبقات وحتى تبني الدول الصناعية، فيـها، طبقة مرتبطة بها تابعة لها من سماسرة التجارة والصناعة، فستبقى الديمقراطية كمـا يقول منير شفيق: (غير واضحة المعالم والمحتوى والاهداف، فهي لـدى البعـض شعاريحرض به ضد الخصوم ثم ينتهي عند هذا الحد. وهي لدى البعـض الآخـر ستار كثيف من الدخان لتمرر عبره اشد الضربات خبثاً ومكراً، وهي لدى البعـض تعني كم الافواه تحت راية حماية الوطن والدفاع عن الشعب)[2] . ويبقـى الشـعب الذي يفترض ان يكون الحكم حكمه، ضحية ديمقراطية الديمقراطييـن واسـتبدادهم

---

[1] الاسلام والعلمانية ص١٨٣-١٨٤.

[2] الاسلام في معركة الحضارة ص٦٤.

بالديمقراطية!! فقبل وصولهم للسلطة عليه ان يحملهم اليها على اكتافه وان فشل في ذلك رغم تضحياته، فهو متخلف وجاهل ولا يفهم معنى الديمقراطية ولم يضحح من اجلها بما يكفي لايصالهم! وان نجح في مسعاه واوصلهم اليها فهو ايضاً متخلف وغير ناضج ولا يمكن منحه هذه المنحة العزيزة حتى يعملوا على انضاجه اولا ليكون اهلا لها ومعيار نضجه هو ان يرى رؤيتهم، وهكذا حتى اخرجوا الشعب من حكم الشعب!!!

وان كان البعض يرى انه قلما وجدت كلمة اسيء استعمالها وفهمها في هذا العصر مثل كلمة الديمقراطية فاني ارى ان الاشتراكية التي ستتناول مناقشتها الصفحات التالية لا تقل عنها في هذا المجال.

الفصل الثالث

الاشتراكية

ورد الينا الفكر الاشتراكي مع ما ورد من الفكر الاوربي مستهدفاً تحقيق ذات الاغراض في تحقيق التبعية للحضارة الاوربية. ويرى البعض ان بداياته تعود الى الجماعات الاوربية التي اجتذبها محمد علي بمحاولته تحديث مصر، وقد كان من بينهم السان سيمونيين، اتباع سان سيمون الذين حاولوا التبشير بمذهبهم الاشتراكي هذا. وينسب البعض الآخر بداياته الى رفاعة الطهطاوي[1] الذي بذر من كل عيّنه من الفكر الاوربي بذرة! الا ان بذوره هذه بقت مهملة تفتقر الى الاهتمام والرعاية حتى اواخر القرن الماضي وبعد الاحتلال الانكليزي لمصر حيث نشط العمل من اجل نشر الفكر الاشتراكي كجزء من الضغط الفكري الاوربي على العالم العربي والاسلامي من اجل احداث التغيير الذي يريدون. ففي الوقت الذي كان فيه مستشرقون منصفون يؤكدون على ان العالم الاسلامي بفكره مستغني عن الفكر الاوربي كان دعاة الحضارة من ابناء البلاد يضغطون من اجل تبني الفكر الاوربي ومن ضمنه الاشتراكية، من غير ان يجهدوا انفسهم في النظر في انفسهم وفيما حولهم واستنباط ما يلائم احوال بلادهم من نظم. ومن غير حتى النظر في حال اوربا ذاتها وتبين حقيقتها وحقيقة ما يجري فيها من ظلم اجتماعي لم تشهد مثله بلادنا مطلقاً. ومن غير ان ينظروا في تاريخهم وتراثهم وما فيه من نماذج لانظمة

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي... ص٣٠٥-٣٠٦

وخبرات يمكن ان تلهمهم في بناء نظم تناسب الأمة وتحفظ لها كرامتها وسعادتها وشخصيتها، وتراثهم وتاريخهم مليء بالخبرات والعبر وما هو صواب وما هو خطأ، ولم يكن عقيما او اجدبا كما يحاولون تأكيده. ففي مجال الاقتصاد مثلا كتب كلود كاهن مؤكدا وجود نظام اقتصادي يوازن بين الملكية الخاصة والملكية العامة اذ كانت الدولة (تشرف على حسن سير المهن) التي كانت مهن خاصة تدفع (بعض انتاجها مجانا للدولة باسم الضريبة) وقد انفردت الدولة (بالاشغال العامة مثل صناعة الاسلحة وقطع الاسطول وانتاج البردي في حال وجوده واصدار النقد الخ...) وكانت تشرف على التعامل التجاري، ووظيفة المحتسب فيها من الوظائف المهمة وهو مرتبط بالقاضي ويختار هو ومساعديه من ذوي الكفاءة والامانة، ومهمته الاشراف على الاسواق ومراقبتها (والتدقيق في انتظام العقود والاتفاقات وفي صحة الاوزان والمعايير وايضا في سلامة النقد... والتأكد من جودة الانتاج وسلامته) ويقوم المحتسب بدمغ الصالح بدمغة رسمية (كضمان لجودته وصحته) ورغم ان الاقتصاد حر والاسعار غير محددة من الدولة الا انه في ايام الازمات كالقحط تتدخل الدولة في التأثير بالاسعار (عن طريق العقوبات التي توقعها بالمستغلين) او (بدفع الى الاسواق ببعض مخزونها من السلع او تلجأ عند الاقتضاء الى فرض الاسعار فرضا) على اساس ان الخليفة مسؤول عن السياسة التموينية لمجموع الرعية وحسن ادارتها. وعن التنظيمات الحرفية او ما يسمى الآن بالنقابات فيقول كاهن ان (العالم الاسلامي قد عهد قبل اوربا تنظيمات مهنية على نحو ما تعهده غالبية هذه الاقطار في الازمنة الحديثة)[1].

اما كوستاف لوبون فقد اكد استغناء العرب والمسلمين عن ديمقراطية اوربا واشتراكيتها اذ قال: (ان العرب يتصفون بروح المساواة المطلقة وفقا لنظمهم السياسية وان مبدأ المساواة الذي أعلن في اوربة قولا، لا فعلا، راسخ في طبائع

---

(1) كاهن: تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص١٣٩-١٤٢.

الشرق رسوخا تاما، وانه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقـات الاجتماعيـة التـي ادى وجودها الى اعنف الثورات في الغرب ولا يزال يودى، وانه ليس من الصعـب ان ترى في الشرق خادما زوجا لابنة سيده. وانه ترى أجراء منهم قد اصبحـوا مـن الاعيان...) ويلوم الاوربيين الذين جهلهم او طمعهم اعمـاهم عـن محاسـن هـذه الانظمة فيقول: ان الكتاب الاوربيين الذين لا يعلمون الا قليلا مـن شـؤن العـرب (يستخفون بتلك النظم ويقولون انها ادنى من نظمنا كثيرا ويتمنون قرب الوقت الـذي تستولي فية اوربة الطامعة على تلك البقاع) ويستشهد بفضل الانظمة الاسلامية بمـا قاله واحد ممن اجادوا درس امور الشرق وهو مسيو لوبلـه الـذي قـال (صـان المسلمون انفسهم حتى الآن من مثل خطايا الغرب الهائلة فيما يخص رفاهية طبقـات العمال وتراهم يحافظون باخلاص على النظم الباهرة. يسود بها السلام بين الغنـي والفقير والسيد والاجير على العموم، وليس من المبالغة ان يقـال اذن، ان الشـعب الذي يزعم الاوربيين انهم يرغبون في اصلاحه هو خير مثـال فـي ذلـك الامـر الجوهري)[1].

ولكن ابناء البلاد انبهروا بصورة ضبابية عن اوربا وبدأوا يدعون للاشـتراكية الاوربية. وان كان الافغاني كعادته يمس الموضوع وكأنه يريد ان يباركه! او يريـد ان يفتح له الابواب ومن ثم يتركه لمريدي الحضارة الاوربية ليتبنونـه ويجعلونـه قضيتهم فان الكواكبي فصل فيه اكثر الا انه اعتبر الاشتراكية امر سابق لاوانـه اذ قال: (فالمعيشة الاشتراكية-في حكم الدين والسياسة الرشيدة هي-ابدع ما يتصـوره العقل... لولا ان البشر لم يبلغوا بعد من الترقي ما يكفي لتوسيعهم نظـام التعـاون والتضامن في المعيشة العائلية الى ادارة الامم الكبيرة...)[2] الا ان اول من عمـل على نشر الفكر الاشتراكي كانوا من خريجي المدارس الاجنبية والبعثات الاوربيـة. وكانت دعوتهم تعمل على اثارة الاحقاد اكثر مما تعمل على ايجاد حلول. وكان مـن اوائل الدعاه الناشرين للاشتراكية ومفاهيمها هو شبلي شميل، الطبيب السوري الـذي

---

(١) حضارة العرب... ص ٣٩١-٣٩٢

(٢) العقاد: الكواكبي/ الرحالة ك ص٢١٧

درس الطب في فرنسا وجاء الى مصر ليشتغل في السياسة!! وتعود كتاباتـــه فـــي الاشتراكية الى عام ١٨٩٩ – اذ كتب في مجلة البصير يقول: (رايت الفاعل يشتغل في الحر والعرق يتصبب من بدنه كالقطر ليطعم سواه من حناه ولا ينال من ذلك الا نزريسير... لا يفي بحاجة زوجته العارية ويخمد صوت اولاده الجياع...) وكتـــب في جريدة المؤيد سنة ١٩٠٨ مدافعا عن الاشتراكية التي اعتبرها البعـــض مجـــرد اوهام فقال (وما الاشتراكية كما يرميها خصومها باطغاث احلام ولا اصحابها ظـلام طغام فهي لاتركب بمطالبها متن الخيال وتحلق بالانسان الى جنان النعيم ولا تكبلـــه بحبال الخيال وتزجه في قعر الجحيم، بل تريد ان تمهد له سبل السعادة علـــى هـــذه الارض فتسترد له الفردوس الضائع، تسترده من ايدي مردة الاجتمـــاع وأبالســـتة، فتخفض من كبرياء وترفع من نفوس وتقرب بين صولجان الملك وعصـــا الراعـــي حتى يتم التكافل بينهما)[1] وكان منهم سلامة موسى الذي اعتبر الاشتراكية والتطور البذرتين لثقافته واللتين يرد اليهما كل ما نزع اليه من (تجديد في العمـــران والادب والدين) وكان متأثرا بالفابية اذ كان قد سافر الى انجلترا وقابل برنارد شو وانظم الى الفابيين وعاد ليبشر بارائهم الاصلاحية. ومنهم نقولا حداد الذي سافر الى امريكـــا واستقر في نيويورك واتصل بواحد من قادة الفكر الاشتراكي هناك وفي سنة ١٩١٠ اسس نقولا بالاشتراك مع امين الريحاني وانطون فرح جمعية عربية اشتراكية فـــي نيويورك!! وقد اصدرت هذه الجمعية مجلة اسمتها الجامعة لتبشر بارائـــها. وعـــاد نقولا حداد الى القاهرة ليمارس نضاله من اجل الاشتراكية![2] .

ويرى مجيد خدوري ان الاشتراكية بالنسبة لكل من شبلي شميل وانطون فـــرح وسلامة موسى كانت (احتجاجا على التعصب الديني) وخاصة للشميل وانطـــون. (فقد اعتبر انطون الاشتراكية دين الانسانية وعرفها بانها مرادفة للعلمانية ومعارضة للتعصب الديني وزعم سلامة موسى (انه وجد في الاشتراكية حـــلا وفـــي نظريـــة

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٣٠٨

(٢) ذات المصدر ص٣٠٨-٣١١

التطور نوعا من الانتقام من الاوضاع الاجتماعية القائمة...)[١] اما (اول اشـتراكي مسلم في العالم العربي، ينقل صوت الفقر ويعلن بان الاشتراكية علاجا للاوضـاع القائمة) كما يرى مجيد خدوري فهو مصطفى حسين المنصوري الذي ولد من عائلة ميسورة الحال ولكن والده خسر ثروته قبل ان يولد فقضى بقية حياتـه فـي فقـر مدقع... فوجد الاشتراكية مخرجا لمشكلة الفقر[٢] فقره هو!! اذ ان المسلمين لم يبدوا الكثير من الحماس للاشتراكية كما يوكد خدوري (لانها كـانت تعـارض التقـاليد الوطنية وتنافي الطريقة الاسلامية في الحياة. وفوق كل ذلك، لانـها تضعـف فـي نظرهم الوحدة الوطنية بالصراع الطبقي بينما الامة منهمكـة فـي النضـال ضـد السيطرة الاجنبية...)[٣] ولا يريدون تشتيت هذا النضال.

وبعد الحرب العالمية الاولى بدأت فكرة الاشتراكية تنتشر في البـلاد العربيـة الاخرى ايضاً مثل سوريا والعراق وبدأ تشكيل الاحزاب ذات الفكر الاشـتراكي او الماركسي. فتشكل الحزب الاشتراكي المصري في سنة ١٩٢١ وكان مـن ابـرز قياداته سلامة موسى، محمد عبدالله عثمان، محمود حسني العرابي، علـي العنـاني وجوزف روزنتال. وفي سوريا ولبنان اسس حزب ماركسي سـنة ١٩٢٢ تزعمـه فؤاد شمالي، -وهو مواطن مصري- والتحق بالحزب كثير من الارمن والاوربيين! المستوطنين في سوريا ولبنان حتى انتقلت الزعامة الى خالد بكداش، كما مر ذكـره، لاغراء المسلمين بالانضمام اليه. وفي العراق تأسس حزب يسـاري هـو حـزب الاهالي عام ١٩٣٣ (وان كان يعتبر حزب يميني او وسط بمعيار هذا الزمان) ثـم تأسس الحزب الشيوعي بعد ذلك. وكانت الماركسية اكثر انتشـاراً بيـن الأقليـات الطائفية والعنصرية فراجت في العراق بين الاثوريين والارمن وغير المسلمين ليس ايماناً منها بالماركسية وانما اعتقاداً منها بان (تدمير الركائز الدينية سـيفتح امامـها

---

[١] مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في البلاد العربية ص١٠٤-١٠٦

[٢] ذات المصدر ص١٠٧-١٠٨

[٣] ذات المصدر ص١٢٠.

مجال مشاركة اعظم في ادارة البلاد. فما يعنيهم من الماركسية هو نزعتها الدولية اللادينية اكثر من لب العقيدة الاشتراكية)[1].

وان كانت المفاهيم الاشتراكية قد دخلت مع الاحتلال الانكليزي لمصر وانتشرت ونشطت بعد الحرب العالمية الاولى واحتلال البلاد العربية الاخرى، فهي بعد الحرب العالمية الثانية اصبحت موضة العصر! فبدأت الاحزاب تضيفها الى شعاراتها وبرامجها لا ايماناً بها وبما ستحققه للأمة بل من اجل استغلالها في التنافس مع الاحزاب الاخرى وكسب المؤيدين ليساعدوا في حمل الحزب الى مواقع السلطة والتسلط. اذ اصبح الكل يعتقد كما اعتقد سلامة موسى من قبلهم بانها (سوف تعم الدنيا كلها)[2]. فبالاضافة الى ما شهدته الاربعينات من تنظيمات ماركسية متعددة في مصر والتي وان كانت محضورة الا انها كانت تمارس نشاطاتها من خلال مجموعة الاندية والروابط الثقافية مثل جمعية الفن والحرية بزعامة جورج حنين، وجماعة البحوث، ومعظمهم من الاجانب وجماعة الشباب للثقافة الشعبية، ولجنة نشر الثقافة الحديثة، ودار الابحاث العلمية الخ... فقد غيّر مثلاً حزب مصر الفتاة بزعامة احمد حسين اسمه الى الحزب الاشتراكي وغيّر شعاره من-الله الوطن الملك-الى-الله الشعب- كدليل لانحيازه للطبقات الشعبية وقبوله مبدأ الصراع الطبقي والتمييز داخل الوطن بين الطبقات الشعبية وبين غيرها من الطبقات المستغلة)[3].

وفي العراق (قدم الجادرجي رئيس حزب الوطني الديمقراطي مذكرة الى حزبه في اب ١٩٤٧ يقترح فيها تبني فلسفة الاشتراكية الديمقراطية باعتبارها فلسفة حزب العمال البريطاني الذي برهن على طبيعة تمثيله الشامل لمختلف الطبقات، وعلى مقدرته لحل المشاكل الداخلية) ولما لم يقرها الحزب في حينه عاد (وطرحها مجدداً في تشرين ١٩٥٠ مبرراً اقتراحه هذا بنجاح عدد من الاحزاب الديمقراطية

---

(١) سعيد اسماعيل: ذات المصدر ص٣١٨.

(٢) ذات المصدر ص٣٠٩.

(٣) ذات المصدر ص٣١٤-٣١٥.

الاشتراكية في زيادة عدد افرادهم زيادة كبيرة خاصة بعد الحرب الثانية كحزب العمل الهولندي وحزب الاشتراكي النمساوي، وحزب العمال البريطاني والحزب الاشتراكي الديمقراطي السويدي...)[1].

ولو استعرضنا الاسباب الاساسية والاسباب العرضية التي ذكرها الجادرجي في تبرير اقتراحه هذا لما وجدنا لجوهر الاشتراكية كنظام يحقق المصلحة العامة في نظر المتبنين لها على الاقل! بل كانت اسبابه كلها نفعية ضيقة تستهدف استغلال الاشتراكية لتحقيق السيادة لحزبه وبالتالي لشخصه لانه استولىعلى الحزب مدى الحياة وحكمه حكماً اوتوقراطياً. فالاسباب الاساسية هي: اولاً ليتميز حزبه عن باقي الاحزاب والسبب الثاني هو ضرورة اظهار الفوراق بين الاساليب المعتمدة في تطبيق الاشتراكية من قبل حزبه وهي اساليب سلمية وبين الاساليب الثورية العنيفة التي تمارسها الشيوعية. والسبب الثالث هو اجتذاب الشبان لحزبه اما الاسباب العرضية فالاول هو ان احد الاحزاب اليسارية قد حل نفسه- وهو الذي يتزعمه عبدالفتاح ابراهيم-وكان الجادرجي يتطلع الى اجتذاب اعضاء ذلك الحزب اذا ما تم تبني الاشتراكية رسمياً. والسبب الآخر كما قال، هو الحاجة الى تعريف الاحزاب الليبرالية الاشتراكية في الدول الاخرى بدورحزبه... وكان الجادرجي يضع نصب عينيه بصورة خاصة، كما يؤكد مجيد خدوري، حزب العمال البريطاني الذي كان يحكم انكلترة آنذاك. واقترح الجادرجي ان ينشيء حزبه علاقة وثيقة مع بعض زعماء حزب العمال البريطاني الذي قد يطلعون ممثلي بريطانيا في العراق على اهتمام حزبه بالحريات الديمقراطية وبالتالي دفع حكام العراق الى الغاء القيود المفروضة على نشاط حزبه السياسي...[2].

---

(١) عادل غفوري: احزاب المعارضة العلنية في العراق ص ٩٩-١٠٠ (هل يمكن ان يكون الخواء الفكري اعظم من هذا؟ فحتى الاحزاب واهدافها وبرامجها توضع وتعدل لتكون نسخ من ما في اوربا وبغض النظر عن حاجات الأمة واهدافها الخاصة بها!!

(٢) مجيد خدوري: عرب معاصرون ص٢٤٤-٢٤٧.

ولم يشرح الجادرجي فلسفته الديمقراطية الاشتراكية الا انه اوضح موقفه بانه ليس شيوعيا ولا ماركسيا ولا يؤمن بالصراع الطبقي ولا يرى في الفلاحين العمود الفقري لحزبه وانما يعتمد السير على خط حزب العمال البريطاني في الاعتماد على مساندة الفئة العاملة والطبقة المتوسطة والدنيا حتى يتسنى لحزبه الصمود والنجاح[1]!! وكما لم يفسر فلسفته هذه فهو ايضا لم يقرنها بالعمل ولم يجري أي تغيير في منهج الحزب. وكما كانت الاشتراكية التي دعا اليها خالية من أي محتوى، بل هي مجرد آلة لتحقيق مصالح الحزب ومصالحه، فقد كانت ديمقراطيته كذلك وتبدو في سلوكه في هذه المسألة. فالمذكرة رفضها جميع اعضاء الحزب وعلى رأسهم زكي عبدالوهاب وطلعت الشيباني ولم يقبلها الا عضوين هما محمد حديد نائب رئيس الحزب وحسين جميل امين سره، وقال المعارضون ان اوضاع العراق الاجتماعية والاقتصادية متخلفة الى حد يجعل الاشتراكية غير ملائمة لمواجهة التطور. كما رفضوا اقتراح الجادرجي في الحصول على مساندة حزب العمال البريطاني لانه في نظرهم لا يقل امبريالية في السياسة الخارجية عن حزب المحافظين، وعند ذلك (اقترح حديد وجميل تأييدا منهما للجادرجي قبول الديمقراطية الاشتراكية اداة توجيه دون تبنيها رسميا)[2]!! الا ان اقتراحهما رفض ايضا وحتى يضغط الجادرجي-الديمقراطي الاشتراكي-على الحزب قدم استقالته بسبب رفض اقتراحاته ولكن استقالته لم تقبل فاستقال زعيما المعارضة واستمر الجادرجي رئيسا مزمنا للحزب حتى نهاية حياته في عام ١٩٦٨، يدعوا الى الديمقراطية الاشتراكية[3] مع وقف التنفيذ!! ومن غير ان يشرح فلسفته هذه!.

ورغم ان صلاح البيطار وميشيل عفلق مؤسسي حزب البعث كانا في باريس يتابعان ادبيات الحزب الاشتراكي الفرنسي، بحسب ما روى صلاح البيطار، ويحضران اجتماعاته الشعبية الا انهما لم تستهويهما نظرياته وطغت فكرتا الوحدة

---

(١) ذات المصدر

(٢) ذات المصدر ص٢٥٠-٢٥١.

(٣) ذات المصدر

والتحديث على تفكيرهما في اول الامر الا انه بعد ذلك (دّخل عفلق الاشتراكية عن طريق المبدأ القومي...) واندمج مع الحزب الاشتراكي الذي يتزعمه اكرم الحوراني في سنة ١٩٥٢ واصبح اسمه حزب البعث الاشتراكي)[١].

وهكذا شاعت الاشتراكية!! وحتى الاحزاب الماركسية التي لا تحتاج الى اضافة اصطلاح الاشتراكية الى شعاراتها لان الاشتراكية هي جزء مهم من العقيدة الماركسية ومرحلة اساسية من مراحل التحول للشيوعية، الا ان الاشتراكية بالنسبة لها اصبحت هدفاً وليست حلاً لمشكلات قائمة فعمدت الى خلق الظروف التي تستدعي وجود الاشتراكية!! فلما كان احد الشروط الموضوعية للاشتراكية بمفهومهم هو وجود صناعة آلية حديثة وطبقة عاملة مضطهدة ولما كان العالم العربي يفتقر لهذا النوع من الصناعة والى وجود طبقة عاملة مضطهدة!! من قبل الراسمالية الخ... فقد عمدوا الى الدعوة لاقامة صناعة الية حديثة رغم انهم يعلمون ان ذلك سيحقق مزيدا من التبعية للدول الصناعية الاستعمارية والتي وحدها تحتكر الالية والتقنية الصناعية انذاك، فكل همهم كان منصبا كما علمهم لينين لتكوين طبقة عاملة كبيرة تضطهد فتثور وتحقق الاشتراكية ثم الشيوعية مثلهم في ذلك مثل رجل رأى عكازين اعجباه في احد المحال التجارية فكسر رجله ليستخدمهما!!! ولذلك نجد مثلا ان حزب الشعب في العراق وهو حزب ماركسي، يعتبر الواجهة العلنية للحزب الشيوعي العراقي دعا بحماس الى اقامة الصناعة الالية الحديثة وذلك في نظره (لان اقامة المصانع يعني نشوء طبقة عاملة عراقية بامكانها الظهور كقوة فاعلة في مجتمع يعيش في علاقات شبه اقطاعية محروم حتى من صناعة خفيفة) وهاجم الحزب الاستعمار الذي يعرقل نمو الصناعة في البلاد لان في نظره (تحول البلاد من المرحلة الاقطاعية الى المرحلة الصناعية يهدد المستعمر بظهور الطبقة العاملة التي تناضل ابدا الى التحرير وتحطيم القيود)[٢] .

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٣١٦-٣١٧.

(٢) عادل غفوري: احزاب المعارضة العلنية في العراق ص١٣٣ (اية نظرة محدودة هذه! ومن وجهها؟ كيف يعرقل الاستعمار نمو الصناعات الآلية ونحن نستورد الآلة والمواد الخام والخبرات منه؟ بينما الصناعات اليدوية السائدة انذاك لا تحتاج الا القليل جدا مما يستورد منه!! بماذا تضرر الاستعمار اليوم ونحن نرهن مصير الامة والشعوب ونضعها في يده من خلال هذه الصناعات الآلية؟!!!

وكما استغلت الاحزاب الاخرى الاشتراكية، من اجل كسب المؤيدين وتحقيق مصالحها غير الاشتراكية! فكذلك فعلت الاحزاب الشيوعية التي لم يكن يهمها الا كسب المؤيدين للشيوعية العالمية والاتحاد السوفيتي بشكل خاص. فليس مهما ان تصلح الاشتراكية لهذا البلد او ذاك او لا تصلح. وليس مهما ان كان البلد المعني فيه من المشكلات ما يمكن حلها عن طريق الاشتراكية، او ان يملك المقومات التي تتطلبها الاشتراكية او لا يملك وانما المهم هو الدعوة للفكر الاشتراكي هذا او العمل على ايجاد المبررات والمقومات له من اجل مصلحة الشيوعية العالمية والاتحاد السوفيتي. فعلى سبيل المثال لا الحصر، عندما قام خلاف بين حزب الشعب، احد واجهات الحزب الشيوعي برئاسة عزيز شريف والحزب الشيوعي العراقي برئاسة فهد وكان حزب الشعب يرى ان (شعب العراق غير متحضر وليس فيه طبقة عاملة حتى تكون سبباً لقيام حزب شيوعي... وان المناهج لا تقتبس او تستورد بل يجب ان تستمد من ظروف المجتمع) كان فهد (يفترض وجود حزب شيوعي حتى في بلد زراعي او بلد رعاة على اساس الاعتقاد الماركسي-اللينيني بان وجود مثل هذا الحزب يغني الاممية الشيوعية بقوة بشرية وفكرية تقف ضمن الحركة الشيوعية العالمية الى جانب الاتحاد السوفياتي)[1]!!

وان كان البعض قد تبنى الاشتراكية تيمناً بهذا او ذاك من الاحزاب الاشتراكية في الدول الاستعمارية-كتبني الجادرجي لها تيمناً بحزب العمال البريطاني-فقد برر البعض تبنيه لها نكاية بالاستعمار!! فعند ما طرح هوارى بومدين مشروع الميثاق الوطني ١٩٧٦ أكد ان اختيار (الميثاق للاشتراكية لا يأتي بطريقة تعسفية ولا عن طريق الاستيراد ولكنه يأتي عن قناعة عبّر عنها بقوله-ان الرفض المباشر للاستعمار يفضي الى رفض الرأسمالية فعندما تدرك الجماهير بأن كلا من الاستعمار والرأسمالية مرتبطاً بالآخر اشد الارتباط، وان احدهما ما هو الا انعكاس

---

[1] ذات المصدر ص١٣٩.

للآخر عندئذ تنشأ الظروف التي تجعل الوعي الوطني يتحول الى وعي اشتراكي)[1].

وهكذا دخلت الاشتراكية الى البلاد العربية ليس من ابواب المصلحة العامة كحل لمشكلات قائمة وانما من فتحات وشقوق وكوات فرعية مصلحية انانية خاصة بافراد او تجمعات او عناصر معينة. بعيدة عن عامة الناس ومصالحهم. فغير المسلمين كان ما يهمهم من ادخالها هو (تدمير الركائز الدينية) لتفتح امامهم مجالات اكبر في تولي المسؤوليات الكبيرة في ادارة البلاد! والعلمانيون وجدوا فيها وسيلة لهدم الدين لانها (تنافي الطريقة الاسلامية في الحياة)! والشيوعيون ارادوها لانها (تغني الاممية الشيوعية بقوة بشرية... تقف الى جانب الاتحاد السوفياتي) والأحزاب والتجمعات الاخرى تبنتها ارضاءاً للاحزاب الاوربية التي يرتبطون بها او يأملون في تأييدها ولكسب المؤيدين داخل البلاد من الطبقة المتوسطة وما دونها. اما الدعاة من الفقراء مثل مصطفى حسين المنصوري، فقد تعلقوا بها لعلها تنقذهم من الفقر وتنقلهم من طبقة الفقراء الى طبقة الاغنياء من غير جهد يبذلونه او عناء يتحملونه! كما حدث في كل البلاد التي طبقت الاشتراكية فيها!! هذا عن الدعاة من ابناء البلاد، اما الدول الاجنبية: فقد عمل الاتحاد السوفيتي-وكذلك الصين- على نشر الاشتراكية لانها في نظر ماركس (المرحلة الاولى او الدنيا في المجتمع الشيوعي)[2] وهي مرحلة تودي في النهاية للشيوعية-بعد ان تقضي على الرأسمالية تماماً- فتصبح البلاد العربية جزءاً من المنظومة الشيوعية التابعة لهم وبذلك تنتقل البلاد العربية من تبعية الغرب الى تبعيتهم. اما الدول الغربية فقد عمدت على نشر الاشتراكية لافراغ الدعوة الشيوعية من محتواها، ولضمان استمرار تبعية الدول العربية لها وليس لغيرها، هذا بالاضافة لخدمة مصالح الرأسمالية بطريق اخر، صار يجذب انظار الشعوب!!

---

(1) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٣٢٣-٣٢٤.

(2) لينين: الدولة والثورة ص١٢٠.

فالاشتراكية لا تقل ارتباطاً بالاستعمار عن الرأسمالية، بل ان الاشتراكية والاحتلال كلاهما ادوات استخدمتها الرأسمالية لتحقيق مصالحها. فالرأسمالية هي التي كانت وراء الاستعمار والحروب الاستعمارية والاحتلال، لانها كانت افضل الوسائل لتحقيق مصالحها آنذاك. فالاحتلال والاستعمار كسر الحواجز التي كانت قائمة بين الدول الاوربية وبين الامة العربية والاسلامية والتي كانت ترى لنفسها خير امة اخرجت للناس على اساس من عقيدتها ومقوماتها الاخلاقية والتي تجعلها في غنى عن الاجانب الطامعين الملحدين. تعيش راضية مرضية بما تنتجه وما تستطيع ان تنتجه لو اغلقت في وجه الاستعمار ابواب غزوه. فجاء الاحتلال ليكسر هذه الحواجز ويستبدل فكرها بفكره وتربيتها الدينية بتربيته العلمانية، وصناعاتها بصناعته، وطرائق حياتهاوالتي تستلزم صناعاته هذه وتجعلها حيوية لا تستقيم الحياة بدونها! وتغيير شعورها بالثقة بالنفس والرضى عن الذات الى الشعور بالدونية وعدم الثقة، فكل ما عندها خطأ ويجب ان يستبدل بالصواب الذي عنده، فضمن تبعيتها الى ابد الآبدين. فلن يقوم لها بعد هذا فكرا ولا صناعة ولا تجارة بعيدا عنه.فلم يعد الاحتلال بذي بال، بل بالعكس اصبح الاحتلال عبئا قد يضر الرأسمالية. فبوجود الاحتلال لا يمكن تكديس واستهلاك كل هذه البضائع الكمالية، ولا ادخال هذه الوسائل الترفيهية المكلفة والا كان اتهم المحتل بتسويق بضائعه على حساب البضائع المحلية والمصلحة العامة مما قد يجعل الناس تحجم عن الشراء او حتى قد تقاطع، كما حدث فعلا في بعض البلاد. وبوجود الاحتلال ما كان يمكن التفريط بالمواد الاولية الخام، التي تملكها البلاد وتحتاجها الرأسمالية الصناعية، وخاصة النفط والا اتهم الاحتلال بالتفريط الذي قد يجر علية المشكلات، فهل كان مثلا ايام هيمنة شركات النفط اللاجنبية يمكن زيادة انتاج النفط بهذه الكميات الهائلة لتذهب عوائدها في الاسراف في استهلاك كماليات الصناعة؟ من غير ان تحتج الشعوب وتحدث المشاكل للاحتلال؟!! ولذلك لم يعد الاحتلال في مصلحة الراسمالية، فكان الجلاء وكان تحرير الموارد الطبيعية للبلاد! فذهب الاحتلال وظل الاستعمار ! وبعد ذلك، ومع تعدد مصادر الصناعات خاصة بعد ان دخلت امريكا

واليابان وبعدهم روسيا والصين الخ... سوق الصناعات والتجارة العالمية لم يعد في امكان دول الاستعمار القديم المحافظة على تبعية الدول التـي كـانت تحتلـها لـها وحدها، ولم يعد الاقتصاد الحر في الدول غير الصناعية يحقـق مصـالح الـدول الصناعية-من دول الاستعمار القديم والحديث والدول المتطلعة الى الاستعمار-كمـا كان يحقق من قبل، فما الذي يفرض على الدولة غير محتلة استيراد بضاعة ما مـن دولة معينة مع وجود غير قليل من المنتجين ولكن مع وجود مصنع لهذه البضاعـة يحضى بحماية الدولة على اعتبار انها منتجات وطنية! تحتكر هذه الدولة صاحبـة المصنع السوق لهذه البضاعة التي هي في الاساس بضاعتها (بمصنعها وقطع غياره ومواد التصنيع والخبرات الخ...) مما يجعل كل مصنع صك من صكوك العبوديـة لهذه الدولة او تلك والتي تجعل الدولة في كثير من الاحيان تحجم عن اتخاذ موقـف تقتضية المصلحة الوطنية من الدولة صاحبة المصنع لئلا تمنع عنـها مـا يجعـل المصنع يعمل!! هذا بالاضافة لتخلص الدولة صاحبة المصنع من مشكلات العمـال والادارة وارتفاع الاجور وتلوث البيئة الخ... والتي يتحملها كلها المضيف للمصنع-فردا او دولة- ولما كانت الراسمالية الوطنية في البلاد العربية ناشئة وغير قـادرة علىاقامة مؤسسات صناعية كبيرة لها وزنها في سوق الصناعات فكان يجب علـى الدولة ان تقوم بهذا الدور من خلال الاشتراكية!! (ولو الى حيـن) وكذلـك الحـال بالنسبة للتجارة. فالصفقات الكبيرة التي تعقدها الدول لا يسـتطيع التجـار الافـراد عقدها-ولما كانت الاشتراكية كما دعا اليها دعاتها من العرب هي معنية بـالتصنيع مقابل الزراعة او كما يدعو زكي نجيب محمود ان يقتل قـابيل الصناعـة هـابيل الزراعة فان بقتله تكتمل التبعية للراسمالية والدول الصناعية، صاحبة التصنيع فـي البلاد والتي اصبحت بفضل التقدم منتجة زراعية كما هي منتجة صناعية، فصـارت الامة لا تعتمد على الدول الصناعية في الصناعات والتقنيات التي تحتاجها فقط وانما صارت تعتمد عليها في خبزها وعيشها!! لذلك شـجعت الـدول الصناعيـة علـى التصنيع في البلاد العربية، كما في غيرها، ولما كانت الاشتراكية تقوم اساسا علـى التصنيع فقد شجعت الفكر الاشتراكي في هذه البلاد كمـا شـجعت الاحـزاب ذات

الارتباطات بمثلها من الاحزاب في الدول الصناعية على الاشتراكية كما حصل مع الجادرجي وحزب العمال البريطاني ومر ذكره. مع العلم ان حزب العمال ونسخته السابقة، حزب الاحرار، هو الذي قاد الحروب الاستعمارية والحربين العالميتين الاولى والثانية، وونستون تشرشل الذي كان من المحافظين ثم انتقل الى حزب الاحرار الداعي الى الحرية والتحرر ثم عاد الى المحافظين، كان اكبر داعية للحرب خلال وجوده مع حزب الاحرار بشكل خاص وهو الحزب الذي تطور ليصبح حزب العمال الداعي الى الاشتراكية!! وهناك الكثير من الشواهد التي تجعل الاشتراكية والاستعمار وسائل للرأسمالية في تحقيق مصالحها. ويبدو للمتفكر بما يجري اليوم من رجوع عن الاشتراكية هنا وهناك، حتى في الاتحاد السوفيتي وكأن الرأسمالية استخدمت الاشتراكية كما استخدمتها الشيوعية والتي جعلتها مرحله فقط للقضاء على الرأسمالية والوصول الى الشيوعية، فكذلك فعلت الرأسمالية وجعلتها مرحله نحو مزيدا من الرأسمالية، من جهه والقضاء على الشيوعية في الطريق!! فسارت كما يلي؟

رأسمالية ـــــ ثورة ـــــ اشتراكية ـــــ فشل وعجز ـــــ رأسمالية اشد واقسى وكلاهما الشيوعية والرأسمالية استخدمتا الاشتراكية لتحقيق مزيد من السيطرة والهيمنة على البلاد العربية – وغيره من دول العالم الثالث.

وهكذا بدأت الاشتراكية واستمر حالها في البلاد العربية حتى بدأ يأفل نجمها في الفترة الاخيرة فتعددت وتنوعت مصادرها فمنها ما صنع في فرنسا ومنها ما صنع في انكلترا ومنها ما صنع في الاتحاد السوفيتي او الصين. وحتى امريكا لم تعدم ان تجد من بين مواطنيها العرب من ينشر الفكر الاشتراكي ويعمل من اجله مثل نقولا حداد وانطون فرح وامين الريحاني المار ذكرهم. وهذا غير الجامعة الامريكية في بيروت والاخرى في مصر واللتان خرجتا ومنذ نشأتهما وحتى اليوم اكثر زعماء الحرية والديمقراطية والاشتراكية والقومية والتحرر الخ... في البلاد العربية. اذ نافستا في ذلك باريس التي ظلت تحتكر هذه المهمة منذ اوائل القرن الماضي وحتى الحرب العالمية الثانية حيث خف نشاطها في هذا المجال!!!

ولم يقتصر تنوع الاشتراكيات وتعدد الاحزاب الاشتراكية نسبة للتبعية لهذه الدولة او تلك وانما تعددت ايضاً نسبة لهذا او ذاك من مفكري هذه الدول او تلك فانقسم كل حزب الى عدد من الاحزاب تبعاً لذلك، فهؤلاء اتباع سان سيمون وهؤلاء اتباع بيون او بلانكي او سارتر الخ... والماركسيون اصبح منهم اللينينون والستالينيون والماويون الخ... فاصبحت الاشتراكية كما يقول يوسف القرضاوي: (كلمة لا تختلف في مدلولها من جيل الى جيل فحسب بل من حقبة الى حقبة) وتناقضت صورها المختلفة التي وجدت في العصر الواحد الى درجة (انك لا تجد داخل كل فرقة او شيعة الا خصومات عنيفة تحفل بالاسى والمرارة)[١].

واتخذت الاشتراكية في العالم العربي لنفسها اسماء فهذه الاشتراكية الديمقراطية وتلك الاشتراكية القومية والاخرى الاشتراكية الرشيدة وغير ذلك مما بدأ كتّاب الاشتراكية يفلسفون وفقاً لتبعيتهم. هذا كله مقابل الماركسيون الذين (حرصوا على التأكيد على ان التعدد في الاشتراكية امر غير وارد...)[٢] لان الاشتراكية واحدة وهي اشتراكيتهم العلمية!! واصحاب الاشتراكية الديمقراطية يقولون (ان الديمقراطية والاشتراكية جزءان مترابطان لعقيدة واحدة وقالوا بعدم امكانية الفصل بينهما فالاسلوب الديمقراطي جزء لا يتجزأ من الاشتراكية ولا يمكن فصله عنها)[٣] واصحاب الاشتراكية القومية الرشيدة يرون انها لا تنفصل عن القومية فنجد عبدالرحمن البزاز بعد معادلة رياضية عجيبة يقرر ان الاشتراكية هي (القومية ذاتها عند النظر اليها من الناحية الاجتماعية، انها بمثابة احد وجهي العملة)[٤]. وهكذا... وفي الوقت الذي كانت كثير من دول العالم تنظر الى الاشتراكية العقائدية بتحفظ وريبة فيما يمكن ان تحقق من خير للبلاد خاصة بعد ظهور النتائج غير المسرة للتجربة السوفياتية والصينية فنجد مثلاً نهرو يقول: (اني ارفض اية اشتراكية

---

[١] الاسلام والعلمانية ص١٨٤-١٨٥.

[٢] عادل غفوري: احزاب المعارضة العلنية في العراق ص١٠٣.

[٣] ذات المصدر.

[٤] بحوث في القومية ص٢٨٩.

عقائدية تعسفية. ان هدفنا الاساسي ان تتوافر لجميع افراد الشعب الهندي فرص متكافئة ومن السخف ان نطبق على الهند اليوم نظريات ماركس-التي نشأها في القرن التاسع عشر فيما يتعلق بانجلترا)[1]. نجد مفكري النهضة العربية يتطرفون في تبنيها واضافتها الى عقائدهم وادعائها لانفسهم ويتعسفون في تطبيقها او الدعوة الى تطبيقها الى حد فرضها على الشعوب وارتكاب المذابح من اجل ذلك. حتى صارت تهمة ضد الاشتراكية او عدو الاشتراكية تهمة ترسل المتهم بها ليس الى السجن فقط بل الى المشنقة!! ورغم ان الكل مقلدين ومتبعين في ذلك الا ان كل منهم يتهم الآخر بالتبعية وينفي التهمةعن نفسه فعندما يندد الكتّاب الاشتراكيون الماركسيون بالتبعية ويهاجمونها كانت التبعية المرفوضة في نظرهم هي (التبعية للغرب الرأسمالي بصفة عامة والولايات المتحدة الامريكية بصفة خاصة اما التقليد والاستفادة والمسايرة والتبني لنموذج الدول الاشتراكية فهو لا يعد في نظر هؤلاء تبعية وانما هو-مشاركة- فكرية وتعاون ايدولوجي ليس فيه تابع ومتبوع...)[2] ولذلك فهم يندون بهذه التبعية ويعملون جهدهم على هدم هذا النموذج الغربي الذي يتبعه البعض واسقاطه لكونه لا يخدم الا المصالح الامبريالية! لاحلال البديل الافضل الذي لا يخدم الا مصالح الشعوب المقهورة!!! وهو النموذج الماركسي السوفيتي للبعض او الصيني للبعض الآخر الخ... والعكس صحيح. فيدور العالم العربي في حلقة مفرغة وينتقل من تبعية الى اخرى ومن نموذج اجنبي الى أخر اجنبي لا تخدم ايا منها مصالحه ولا تحقق له الا مزيداً من الضياع ومزيداً من الخراب والهدم والتبعية. ولو بحث المرء فيما حوله عن نتائج الاشتراكية وما حققته للأمة لوجد انها قصرت الامل وابطلت العمل! كما ذكر الماوردي في قوله (لو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته، ولكانت البلاد تنتقل الى من بعد خراباً، لا يجد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة، ثم تنتقل من

---

(١) سالزبرجر: آخر العمالقة ص١٥٦.

(٢) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٣٥٦.

بعد باسوأ من ذلك حالا حتى لا ينمي بها نبت ولا يمكن فيها لبث...)[1] وهـذا مـا احدثته الاشتراكية في الدول الاشتراكية العربية! والذي ظهر واضحاً فيما يلي:

أ- تعثر الصناعات والاعمال وانعدام المبـادرات الشـخصية. لـو تتبعنـا نشـوء الصناعات في الدول الصناعية الكبرى لوجدنا انها بدأت من الحرفيين واصحـاب المهن والمشاريع الشخصية الصغيرة، الذيـن اسـتفادوا مـن التطـور العلمـي والاختراعات الحديثة في تطوير اعمالهم هذه بمبادرات شخصية حتى نمت بعـد ذلك وصارت الى ما صارت اليه من تطور صنـاعي ادهـش العـالم العربـي والاسلامي في القرن الماضي. ولكن هؤلاء المنبهرين والمندهشين بـالتقدم هـذا، بانفتاحهم المتسيب على اوربا ومنتجاتها حرموا الحرفيين والمهنيين العرب من هذه الفرصة كما حرموا الامة ككل من ان تبني لنفسها بذات الطريقة صناعة وطنيـة مستقلة تعتمد مواردها وكفاءاتها الذاتية، اذ اغرقت الصناعات الاوربية الاسـواق بمنتجاتها فاحبطت الجهود التي يمكن ان تعمل في هذا الاتجاه، وحصرت بعد ذلك اصحاب المبادرات الشخصية في مجال الصناعة في الاكتفاء بانشـاء صناعـات بسيطة تابعة للصناعات الاوربية ومرتبطة بها مثل صناعـة الاقمشـة والفـرش والزجاجيات الخ... التي قامت في عهود ما قبل الاشتراكية. وابقـت للحرفييـن فرصة العمل والتوسع وتحسين انتاجهم مستفيدين من التقنيات الاجنبيـة البسـيطة التي هي في حدود امكاناتهم المادية البسيطة هي الاخـرى، مـن اجـل تحويـل حوانيتهم الى ورش اكبر. فجاءت الاشتراكية لتكمل ما بدأه الاوائل بانفتاحهم ولتحد من نشاط هؤلاء وتحبطهم–وتقصر أمالهم– وتحرم البلاد من انتاجهم ومن امكانيـة تطورهم، وقد تم ذلك من خلال ما يلي:

١- انشاء مؤسسات قطاع اشتراكي منافسة لهم بدل ان تكون مكملة لهم.

٢- استقطبت الايدي العاملة وحولتها للقطاع الاشتراكي حيث الفـرص افضـل والجهد اقل ان لم ينعدم.

---

(١) ادب الدنيا والدين ص١٢٠-١٢١

٣- هدمت العلاقة بين العامل وصاحب العمل من خلال الدعوة الى الاشتراكية وتبرير تطبيقها مما جعل العامل ينظر الى صاحب العمل اياً كان، وكأنه عدو له ان لم يتمكن من الاعتداء عليه باعتباره عدو الشعب! فعلى الاقل يستغله باخذ اكثر ما يمكن من اجور مقابل اقل ما يمكن من العمل ومن الجودة فيه. مما جعل اصحاب العمل تجد في حوانيتها واعمالها عبئاً تعمل على ان تتخلص منه.

٤- تأميم المؤسسات الصناعية الاكبر صبغ العلاقة بين الدولة وبين هؤلاء الحرفيين واصحاب المشاريع الصغيرة غير المؤممة بعدم الثقة، فصاروا غير معنيين بتوسيعها او تحسين انتاجها او زيادته فصاروا ينتجون كما قال الماوردي، ما يكفي حاجتهم فقط ويعملون جهدهم على تهريب ما يفيض الى خارج البلاد بدل العمل على توسيع مشاريعهم او بناء مشاريع اخرى مما ادى الى قلة في انتاج القطاع الخاص واهمال فيه وفي تحسين نوعيته. وزاد الامر سوء ان القطاع الاشتراكي لم يتمكن من سد عجز السوق المحلية مما انعكس على المستهلك غلاء في الاسعار وشحة في البضائع وسوء في نوعيتها.

ب- تراجع الزراعة والتي قصر الامل وبطل العمل فيها نتيجة ما يلي:

١- الاصلاح الزراعي بقوانينه المستوردة والمتسرعة وغير المدروسة من حيث صلاحيتها لحل مشكلات المجتمعات الزراعية في البلاد العربية.

٢- تفريغ الريف والقطاع الزراعي فيه من الايدي العاملة وذلك بما وفره القطاع الاشتراكي الصناعي من فرص عمل اسهل واكثر مردوداً، فتكدست في هذا القطاع الايدي العاملة وشحت في غيره.

٣- هدم العلاقات الايجابية بين قاطني الارياف من فلاحين وملاك من خلال تبرير الاصلاح الزراعي والاشتراكية واحلال الاحقاد والعلاقات السلبية محلها.

٤- سوء تصرف الجمعيات الفلاحية والتعاونيات التي عملت على توجيه الفلاح توجهات خاطئة هذا غير استغلاله في بعض الاحيان حتى صار استبدادهم احياناً اعنف من استبداد الاقطاعي من قبلهم. هذا غير تعطيل قسم كبير منهم باشغالهم بمهام سياسية او حزبية ضيقة!.

٥- سيطرة الدولة من خلال التعاونيات والجمعيات الفلاحية او مؤسسات التسويق على المنتجات الزراعية وتسويقها مما ادى اما الى اهمال في التسويق وعرقلة تودي الى تلف المحاصيل او الى استغلال بشع للفلاح الذي اصبح هو والمستهلك المتضررين الوحيدين من النشاط الزراعي وكل فرق القيمة ما بين السعر المنخفض الذي يدفع للفلاح مقابل انتاجه والسعر المرتفع الذي يشتري به المستهلك ذلك الانتاج يدخل في جيوب الوسطاء من رسميين وغير رسميين. مما جعل الزراعة غير مجدية للفلاح فاهملها. هذا غير الكثير من المعوقات الاخرى والتي ادت الى تراجع الزراعة فازدادت المنتجات الزراعية شحة فبدلاً ان تحقق الاشتراكية كما ادعى الدعاة (الخبز مع الكرامة)[1] ادت الى ان يذهب الخبز وتذهب الكرامة. اذ صار الخبز بيد الدول الكبرى وصارت الامة مضطرة للتغاضي عن الكثير في سبيله!

اما فائض القيمة الذي ما قامت الاشتراكية الا على اساسه والذي يفترض ان يكون للدولة في النظم الاشتراكية، فهو لم ينعدم فقط بل كلفت هذه المؤسسات الاشتراكية ميزانية الدولة مبالغ طائلة اضافية تمثلت بخسارة هذه المؤسسات وعجزها عن تغطية انفاقها المسرف! ناهيك عن تحقيق الارباح!! وذلك اما نتيجة عدم كفاءة المسؤولين عنها وعجزهم وعدم شعورهم بالمسؤولية واسرافهم واهتمامهم بالمظاهر على حساب جوهر العملية الانتاجية المتمثل بتحسين نوعية الانتاج وزيادته وتحقيق الارباح من خلال ذلك. فصرفوا جل جهودهم على الدعاية والابنية الباذخة والاثاث والديكورات الفاخرة والسيارات الفارهة والتوسع في التوظيف

---

(١) عبدالرحمن البزار: بحوث في القومية العربية ص٣٠١.

وتكديس الاعداد الكبيرة من العاملين الذين لكثرتهم صاروا اقرب الى البطالة منهم الى العمل، والتوسع في كل مجالات الانفاق والتبذير على حساب الانتاج وجودته وتحقيق الارباح.

واما نتيجة عدم امانة بعض هؤلاء المسؤولين الذين تولوا امر هذه المؤسسات فعملوا بالاضافة لكل ما سبق من بتذير وصل حد الفسق، على تحقيق المكاسب غير المشروعة، والتي لم تقتصر على السرقات والرشاوي وسوء التصرف بالمال العام داخل البلاد بل امتدت الى فرض العمولات على مشتريات ومبيعات الدولة، واخذها من الدول والشركات الاجنبية التي تتعامل مع هذه المؤسسات. حتى صار البعض من هؤلاء من اصحاب الملايين بين ليلة وضحاها! مبررين ما يفعلونه بانه عمل مشروع لا غبار عليه ولا ينافي الخلق ولا يتعارض مع الامانة التي يفرضها الخلق والدين وتفرضها الوطنية او المواطنة الصالحة!!! فهم لم يوقعوا ضرراً باحد في عملهم هذا كما يدّعون، لان هذه العمولات كان يأخذها الوكلاء والتجار قبل الاشتراكية!!! ويتناسون حقيقة مهمة وهي ان الوكيل او التاجر ليس متخذ قرار بشراء هذه الموارد للدولة او بيعها، بينما في حالة مسؤولي المؤسسات فهم متخذي قرار او لهم دور في اتخاذ القرار بهذا الشأن وبالتالي لا يمكن ان تكون العمولة هذه الا رشوة–ومن الاجانب–! من اجل التأثير في القرار المتخذ هذا غير ان الوكلاء يأخذون عمولاتهم من الشركة الاجنبية وهي نسبة ضئيلة، تؤخذ عن تسويق بضاعة تلك الشركة، اما عمولات مسؤولي القطاع الاشتراكي (او المختلط) الحكومي فهي بالاضافة الى كونها نسب عالية، تضاف الى السعر الحقيقي للمشتريات وتخفض من السعر الحقيقي للمبيعات المتفق عليه مع الدولة، فالعمولة بهذه الحالة تخرج من خزينة الدولة ومن اموال الشعب!!

ولم تقتصر مساوئ مؤسسات القطاع الاشتراكي على ما حصل في داخلها وانما امتدت مساوئها الى المؤسسات الحكومية الاخرى والى المجتمع ككل. فالمؤسسات هذه في بذخها واسرافها بالمظاهر وتوافه الامور صارت قدوة سيئة لغيرها من الدوائر الاخرى والتي صار همها تحسين اوضاعها المظهرية هذه

فانتشر فيها ما ساد القطاع الاشتراكي من مساوئ وانتقل منها الى المجتمع ككل. لان العاملين في هذه المؤسسات بمخصصاتهم وامتيازاتهم وحوافزهم المشروعة التي تزيد عن غيرهم وبمكاسبهم غير المشروعة صاروا يتمتعون بحياة اجتماعية مترفه. ولما كانوا من الموظفين من الطبقة الوسطى او ما دونها، وليس من الوارثين او اصحاب المصانع او التجار والاغنياء فقد صاروا قدوة سيئة لغيرهم من الموظفين في الاسراف الذي ادى الى افساد الذمم والكسب غير المشروع لمواجهة الاسراف هذا. ولذلك كان ضرر هؤلاء بما نشروه من اسراف وافساد اكبر بكثير من ضرر الطبقات الغنية المترفة التي كانت تتواجد قبل الاشتراكية لان تلك الطبقة كانت لها مصادر مشروعة ومعروفة لغناها وترفها كالتجارة او الصناعة او الملكيات الاخرى والتي كلها تبرر ترفها ومن اراد الاقتداء بها عليه ان يبذل ما في وسعه ليكون مثلها فيكون طريقه طويلا وشاقا حتى وان اعوج قليلا وحاد عن الطريق المستقيم!!!

وعلى اية حال فقد كان نتيجة الاسراف وفساد الذمم مع قلة الانتاج للمواد المحلية وفرض العمولات على المواد المستوردة، غلاء فاحش في الاسعار ساهم مع امور اخرى لا مجال لذكرها في زيادة الفجوة بين الغني والفقير وتحقق فعلا ما قاله سلامة موسى قبل الحرب العالمية الاولى من خلال دعوته للاشتراكية وهوان الامة انقسمت الى (فئتين: فئة تكتظ معدتها بالمأكولات الدسمة، واخرى فقيرة ترمق العيش ترميقا)[1]. هذا غير ان الفجوة اليوم بين الغني والفقير اوسع بكثير مما كانت عليه آنذاك. ولو اخذنا بنظر الاعتبار ايضا ما كان يسود من مفاهيم وقيم سوية تنظم العلاقات بين الغني والفقير والتي تقوم اساساً على القناعة والامانة والاخلاص بالعمل والرحمة والمودة والتي تحرم الحسد والحقد لان الله يزرق من يشاء بغير حساب وان شاء اغنى الفقير ان هو بذل جهده واخلص في عمله. وان لم يغنيه بعد ذلك فما ذلك الا لمصلحته فالله يعلم وهم لا يعلمون وما الله بظلام للعبيد فان لم يصب الانسان من خير هذه الدنيا الكثير فان ما هو موعود به في الآخرة خير له

---

(1) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٣٠٩.

وابقى. وما يسود اليوم من علاقات حقد وحسد ونقمة رباها اصحاب الحرية والاشتراكية ودعاتها من اول عهد دعوتهم وحتى اليوم، في نفوس الناس بعد ان هدموا كل القيم الايجابية السابقة لاستطعنا فهم عظم الكارثة التي اوقعتها الاشتراكية ودعاتها في هذه المجتمعات اذ وسعت الفجوة بين المترفين والمحرومين بدل تضييقها وازالت كل ما كان يسكن حرمان المحرومين. خاصة وان اغنياء اليوم هم من فقراء الامس القريب من الجيران والمعارف والموظفين او العمال الذين ليس لغنى اكثرهم مصدرا مشروعا.

وكما ادى قصر الآمال الى تهريب رأس المال كما مر ذكره، فكذلك هرب اغنياء الاشتراكية اموالهم المشروعة وغير المشروعة خوفا عليها!! اذ استغلوا مواقعهم في تهريب ما يفيض عن حاجات ترفهم هذا غير العمولات ان وجدت فهي اساسا موجودة في الخارج وتعتبر اموالا مهربة لانها اموال الدولة التي دفعتها فرقا بين السعر الحقيقي والسعر المدفوع للمواد المشتراة -او المباعة- فتدهورت قيمة العملات المحلية حتى صارت سمة للدول الاشتراكية. وفقدت ثقة المواطنين بها وصار حال الدول الاشتراكية الى ما صار عليه اليوم. بينما تكدست الملايين من الاموال الاشتراكية! وبعض من اصحابها في امريكا وكندا والدول الاوربية المختلفة. هذا غير ما ساعدت عليه الاشتراكية والتربية الاشتراكية من انتشار البطالة مما ادى مع اسباب اخرى الى تسرب الايدي العاملة والكفاءات الوطنية الى الخارج ليلحقوا بالعملة!! فخسرت كثير من الدول الاشتراكية ثرواتها النقدية والبشرية. مما يجعلها تترحم على ابن خلدون الذي كان ابعد نظرا من مفكري الاشتراكية لهذا الزمان. اذ عرف واقعها وحقيقتها افضل بكثير مما فعلوا، اذ رأى ان كثرة البذخ والتوسع بالوظائف والصرف يؤدي الى وقوع ازمات مادية غالبا ما يلجأ الحكام في علاجها الى زيادة الضرائب او منافسة التجار والفلاحين في مجالات كسبهم فيقول يعالجونها:

(تارة بالزيادة في القاب المكوس ان كان قد استحدث من قبل وتارة بمقاسمة العمال والجباة واحتكاك عظامهم لما يرون انهم قد حصلوا على شيء طائل من

اموال الجباية لا يظهره الحسبان، وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان علـــى تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات، مع يسارة اموالهم، وان الارباح تكون على نسبة رؤوس الاموال فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الاسواق ويحسبون ذلـــك من ادرار الجباية وتكثير الفوائد. وهو غلط عظيم وادخال الضرر على الرعية مـــن وجوه متعددة فاولا مضايقة التجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسر اسباب ذلـــك فان الرعايا متكافئون في اليسارمتقاربون ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي الى غايـــة موجودهم او تقرب واذا رافقهم السلطان في ذلك وما له اعظم كثيرا فلا يكاد واحـــد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته... ويدخل على النفوس من ذلك غـم ونكد...) مما يقعدهم عن العمل والرغبة في الكسب وبالتالي يخسر الحكام الضرائب على كسبهم (واذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هـــذه الاربـــاح القليلة وجدها نسبة الى الجباية اقل من القليل)[١].

وبعد اكثر من عشرين عاما على تجربة الاشتراكية هذه بـــدأت الـــدول تـــرى عجزها فبدأوا ينفتحون او يخففون من قوانينها الصارمة وحصرها المنافع بالدولـــة وخاصة بعد ان اغتنى المسؤولون الاشتراكيون! بالاشتراكية بعد ان كانوا معدميـــن قبلها! وتكدست الاموال لديهم وصاروا طبقة تحتكر الثروة وترغب في اســـتثمارها استثماراً خاصاً بعيداً عن تدخل الدولة!! لتحتكر الثروة والسوق ومن ثـــم السياســـة على الطريقة الامبريالية!!! التي ما جاءوا الى الحكم الا باسم مقاومتها!!! ولكـــن... هيهات... هيهات ان يعود المجتمع الى توازنه والحق الـــى نصابـــه!! فقـــد قتلـــت الاشتراكية المهن واصحابها، ومسخت القيم والاخلاق والعـــادات، فـــاين صـــاحب المهنة التي تدرج فيها وصارت جزءاً من كيانه لا يقبل بغيرها بديلاً؟ ايـــن النجـــار والحداد والخياط والحائك والصائغ والنقاش الخ... والذي تشرّب الصنعـــة وصـــار يعتز بها وبجودة منتجاته لما تحقق له من شعور بالانجاز والابداع اكثر مما تحقـــق له من ربح مادي؟ اين التاجر الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة عما يتاجر به ويعرف

---

(١) المقدمة: ص ٢٨١-٢٨٢.

ما يحتاج السوق وما لا يحتاج منها ومن غيرها؟ فيوفرها ويوفر ما له علاقة بها من مواد وبالقدر المطلوب فيجنب السوق الازمات؟ اين امانتهم واين قناعتهم وعزوفهم عن الارباح الفاحشة او الحرام؟ اين الفلاح المنتمي الى الارض وفلاحتها والعناية بها والذي يعتز بوجوده وعمله فوق طينها، واكبر سعادة له هو ان يجد اولاده واحفاده يتعفرون بترابها، يفلحونها ويزرعونها فيشعر عندئذ انه لن يغيب عنها حتى ان مات وقضى نحبه؟!! ان كل من عمل وسيعمل في هذه المهن بعد الانفتاح هم من الطارئين عليها ومن غير المنتمين اليها. اذ هم اما من العاطلين الذين سدت في وجوههم ابواب الرزق الاخرى فتوجهوا اليها ساخطين لاعنين لا يفهمونها ولا يتقنونها ولا يهمهم منها الا مقدار ما تدر عليهم من رزق. واما من الذين اغتنوا بالاشتراكية بالطرق المشروعة او غير المشروعة وصاروا اصحاب رؤوس اموال يريدون توظيفها بعيداً عن الاشتراكية التي ادت دورها وحققت لهم مطالبهم! وتحولوا بواسطتها من كادحين الى مستثمرين يستغلون بعض من اموالهم في هذه المشاريع المهنية التي لا يربطهم بها الا الكسب المادي الوافر والسريع، ومتى وجدوا في غيرها ما يحقق لهم مكسباً اكبر تحولوا عنها غير مبالين بما يحدثه ذلك من عجز في الاسواق او ضرر للعامة من الناس!!

ثم بالاضافة لذلك اين هو الموظف المنتمي لوظيفته، يحمل امانتها كما يقضي عليه واجبه الوطني وكما يفرض عليه دينه وخلقه؟ وليس من يعتمد فلسفة على قدر اجره المتواضع يكون انتماءه واخلاصه ووطنيته!!! اين العلاقات الانسانية الايجابية التي تقوم على المودة والرحمة والتعاطف والتي قضى عليها التنافس والتحاسد والحقد والتباغض الذي عملت دعوة الاشتراكية على نشرها؟! اين القناعة وبساطة العيش ولين السلوك والتي قضى عليها الجشع والطمع والعجرفة والترف والاسراف؟! واين... واين... الخ... وهيهات... وهيهات... وهيهات!!

وعلى اية حال، فالاشتراكية فكرة من الافكار المستوردة من الغرب كما يذكر مجيد خدوري في كتابه الاتجاهات السياسية في العالم العربي اذ قال في معرض حديثه عن الاشتراكية:

(استوردت الافكار الجماعية من الغرب مثلما استوردت القومية والديمقراطية ثم بدأت تنافس المفاهيم الغربية الاخرى في محاولة للحلول محل افكار المجتمع التقليدية...)[1] ولتحل هذه الافكار المستوردة محل الافكار التقليدية المرتبطة بشكل او بآخر بالدين الاسلامي، فقد كان من الضروري لنشر هذه الافكار اللادينية واحلالها محل الافكار والتقاليد ذات الاصول الدينية ان يبعدوا الدين عن حياة المجتمع العربي بكل ما فيه من انظمة وقوانين وانماط سلوك، ولذلك رافق هذه الدعوات الدعوة الى فصل الدين عن الدولة وهي الدعوة التي ستتناولها الصفحات التالية.

---

(١) ص١٠١



الفصل الرابع
فصل الدين عن الدولة

(أفمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ام من اسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين)

التوبة: ١٠٩

الدعوة الى فصل الدين عن الدولة او عن الدنيا، بحسب ما يستخدم من اصطلاح، تقوم على اساس اعتماد القوانين الوضعية-البشرية- في التعامل مع شؤون الحياة المختلفة، الاقتصادية والسياسية والتربوية الخ... بدل اعتماد الشريعة التي سنها الخالق للبشر. وحبس هذه الاخيرة في ضمير الفرد المؤمن لتنظم العلاقة بينه وبين ربه، على ان لا يكون لها شأن بتنظيم علاقته بالحياة وبالافراد الاخرين، وان سمح لها ان تظهر، فعلى شكل شعائر تعبدية ومراسيم خاصة مثل الزواج او الوفاة او غير ذلك. وهي الدعوة التي يطلق عليها الآن-العلمانية- ويطلق على دعاتها والعاملين لها العلمانيين. والعلمانية كما ظهرت باوربا هي ترجمة لكلمة Secular وهي: (الاعتقاد بان الدين والشؤون الكنسية لا دخل لها في شؤون الدولة، وخاصة التربية العامة)[1] وتقوم على مبدأ استبعاد الاعتبارات الدينية استبعادا تاما عن شؤون الدولة واعتماد القيم الفكرية الحديثة بدلا منها.

وهي دعوة بدأت في اوربا مع بداية النهضة الاوربية وافرزتها ظروف اوربا الخاصة والتي تمثلت بتسلط الكنيسة ورجالها على شؤون الدولة الاوربية الخاصة والعامة. يُعزل من يُعزل من الحكام بارادتهم، ويُنصّب من يُنصّب بمباركتهم، تعلن

---

[1] يوسف القرضاوي: الاسلام والعلمانية ص٤٩-٥٠.

الحروب بامرهم وتعقد المعاهدات بمباركتهم، وتفرض الضرائب وتسن القوانين بامرهم، يعلو من يعلو من الامراء بمباركتهم، ويستبد من يستبد من الاقطاعيين والامراء والحكام بمؤازرتهم، يقفون مع الجهل ضد العلم ومع الظلم ضد العدل، يؤازرون الظالم ضد المظلوم والجاهل ضد العالم والغني ضد الفقير، يبيعون كل شيء بالمال-على شكل تبرعات- حتى المغفرة والموعظة الحسنة والكلمة الخيّرة، حتى الجنة بيعت بما سمي في وقتها بصكوك الغفران لتوظف الاموال لتحقيق سيطرة اكبر للكنيسة ورجالها وتوفير حياة الترف والبذخ للكنائس ومن فيها، يدل عليه ما تركوه في تلك الازمنة من ملابس وزركشات ومجوهرات وفرش نفيسة، معارضين في كل ذلك تعاليم السيد المسيح الذي كانت تدعوا الى حياة التقشف والابتعاد عن مغريات الدنيا.

ومع التقدم العلمي وظهور الطبقة البرجوازية التي تريد ان تستغل هذه العلوم والاكتشافات وتسخرها لتحقيق مطامح لها في هذه الحياة الدنيا، غير معنية بالآخرة، بدت الكنيسة بموقفها المستمر ضد العلم والعقل والتفكر عائقاً لا بد من معالجته بالتقزيم او الازالة ليتسنى لهذه الطموحات من ان ترى النور. فاتفقت مصالح هذه الطبقة الناشئة مع الطبقة المثقفة والتي كانت تحاصرها الكنيسة فكرياً وتقيد حركتها، فبدأت الدعوة للفصل بين الدين والدولة، او بين شؤون الحياة الدنيا وشؤون الآخرة والتي اعتبروها اموراً تخص الانسان بعلاقته بربه. وهي الدعوة التي ما لبثت ان تبنتها وعملت من اجلها الطائفة اليهودية التي كانت مضطهدة من قبل الكنيسة اشد الاضطهاد، ليس بسبب شبهة قتلهم للسيد المسيح فقط، وانما ايضاً لوقوعهم بحكم يهوديتهم خارج تسلط الكنيسة، فهي لا تستطيع ان تبيعهم شيئاً ولا هم يشترون ان باعت.! فتبنت الماسونية هذه الدعوة واستغلت شعار (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) وحمّلته ما ليس فيه وجعلته اساساً لعملها السياسي من اجل هدم سيطرة الكنيسة على شؤون الحياة. فساعد اتفاق المصالح هذا على توحيد الجهود للحد من نفوذ الكنيسة والحد من نشاطها. واكبر انتصار حققته هذه الجهود الموحدة فتوج اعمالها المتفرقة السابقة كان الثورة الفرنسية التي جاءت بعد حركات تمرد متفرقة هنا

وهناك في الاقطار الاوربية، والتي تمكنت من تحقيق هذا الفصل بين الدين والدولة فصلا اكثر وضوحاً. وبدأت ايضاً تعمل من اجله وتنشره كمبدأ اساسي يجب ان يعم وتتبناه الاجزاء الاخرى من العالم! على اعتبار انه منتهى العلمية والتقدمية والذي لا تنهض الامم الا باعتماده!!

ففقدت الكنيسة نفوذها وسلطتها وتسلطها وحدّ من نشاطها حتى اقتصرت في النهاية على رعاية الشؤون الدينية فقط تاركة شؤون الحياة في هذه الدنيا، السياسية والاقتصادية والتربوية الخ... للسلطة المدنية تتعامل معها وفق النظريات والاجتهادات البشرية وليس هذا فقط بل ان كثيراً ما خضعت السلطة الدينية هذه لنفوذ السلطة المدنية تستغلها في تحقيق اغراضها اللادينية كما حدث في مسألة التبشير والمبشرين. وساد هذا الاتجاه العلماني في السلوك الاوربي حتى صار الى اعتقاد ان المسيحية فيها (انفصل الدين عن السياسة واتصلت الاخلاق بالدين)[1] وان المسيحية تقبل قسمة الحياة بين الله وبين قيصر مفسرين ان القول (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) اعترافاً من المسيحية بثنائية الحياة وبوجود سلطة زمنية وسلطة روحية احداهما لا علاقة لها بالاخرى. ومستدلين بعدم وجود احكام واضحة تنظم المعاملات والعلاقات الانسانية في هذه الحياة على (ان المسيحية ليس فيها تشريع لشؤون الحياة)[2]. وخطأ هذا المفهوم للمسيحية تدل عليه عدة امور: فقبل كل شيء ان الاديان السماوية ذات مصدر واحد هو الله الخالق، ولا يمكن ان تختلف دعوة الخالق في الجوهر الا بقدر ما تتطلبه سنة الحياة في التطور الانساني. ولا ارى ما ساد اوربا من فساد قبل الاصلاح الديني وفصل الدين عن الحياة وبعده الا انحرافاً عن المسيحية الحقة التي دعا اليها السيد المسيح. فكما ان استبداد الكنيسة وترفها وتسلطها بتنصيب نفسها وسيطة بين الله والانسان هو تحريف وانحراف فكذلك هو فصل الدين عن الدولة، لا يقل انحرافاً ولا تحريفاً عن التعاليم المسيحية الاصل. وان كانت المسيحية ليس فيها تشريع لشؤون الحياة واضحاً ومفصلاً فما ذلك الا لان

---

(١) فاخر عاقل: التربية قديمها وحديثها ص٩.

(٢) يوسف القرضاوي: الاسلام والعلمانية ص٥٣-٥٤.

الانجيل نزل على اناس هم انفسهم اصحاب كتاب ولذلك فان دعوة المسيح الى قومه وهم من اليهود لم تكن الا دعوة لتصحيح انحرافهم عن كتابهم الاصل وهو التوراة. وهذا الانحراف تمثل اكثر ما تمثل في الطمع والشره في تحصيل مكاسب وملاذ الحياة الدنيا وسيطرة شهواتها على الانسان آنذاك، ولذلك تركزت الدعوة على التقشف وترك مباهج الدنيا وملذاتها وعلى رأس ذلك المال الذي شغل جمعه اليهود عن دينهم فصاروا كالحمير تحمل اسفارا كما وصفهم القرآن الكريم. فجاء الانجيل ليقول لهم (... يعسر ان يدخل غنى الى ملكوت السموات... ان مرور جمل من ثقب ابرة ايسر من ان يدخل غني الى ملكوت الله)[1] ولما كان الانجيل موجه لاصحاب كتاب فان كل ما لم يتطرق اليه من احكام ومعاملات يعني اقرار لما هو سائد قبله. وكون المسيحية اتصلت بالاخلاق اكثر من اتصالها بشؤون السياسة، فذلك ليس لان السياسة لا تنفصل عن الاخلاق، ومتى انصلحت الاخلاق تنصلح السياسة فقط، ولكن لان الاخلاق هي ما كان يحتاجه عصر ظهور السيد المسيح. وحتى عندما انتشرت المسيحية في اوربا، واعتنقت الامم الاوربية الديانة المسيحية كانت (الحاجة الاهم للمجتمع سواء عند الرومان الذين بدأت اخلاقهم بالانحلال او عند القوطيين والفاندال حاجة سلوكية اخلاقية)[2] . ولما كان مصدر الانحلال آنذاك يعود الى الافراط بالتمتع بملاذ الدنيا فقد تطرفت الكنيسة المسيحية ايضا الى طرف التفريط بالمقابل لاحداث التوازن في المجتمع المنحل ذاك فاعتبرت (كل ما له علاقة بهذا العالم شر)[3] لا بد من الاعراض عنه والعمل من اجل التحضير للحياة الاخرى، حياة الآخرة الابدية.

ثم ان الحاجات المادية الدنيوية هي بحكم طبيعة خلق الانسان من جسد وروح حاجات اساسية لا تقل اهمية عن الحاجات الروحية. والتطور في النضج العقلي الانساني هو الآخر بحكم الخبرات التراكمية للانسانية، من سنن الحياة، والنضج

---

(١) انجيل متى: ٢٤-٢٥.

(٢) فاخر عاقل: التربية قديمها وحديثها ص٧.

(٣) ذات المصدر ص٨.

العقلي الانساني لايمكن الا ان يؤدي الى تطور في العلوم والمعارف، وهذه الاخرى تؤدي الى تغيير في تحقيق الحاجات الانسانية المادية كما وكيفا، هذا كله من جهة مع جمود بعض رجال الدين وعدم قدرتهم على التطور ضمن حدود المتغيرات التي تتضمنها العقائد السماوية، ومادية وشره وتسلط البعض الآخر من جهة اخرى، ادى الى ايجاد هذا التعارض الوهمي بين الدين والدنيا او الدين والعلم او حياة الدنيا وحياة الآخرة الخ... والذي هو ليس من اصل العقائد السماوية ولا يمكن ان يكون، لان الله الخالق للانسان هو الذي منحه العقل واوجد فيه هذه القدرة على التعقل والتفكر والتعلم وهو الذي خلق العلوم جميعاً بخلق مصادرها. فكيف يمكن ان تتعارض شريعته مع كل هذا؟!!

وعلى اية حال، فان هذا التعارض الوهمي الذي ساهمت الكنيسة في وجوده بين الدين والدنيا، والدنيا والآخرة، هو الذي اوجد هذه الثنائية الحدية والتي تجعل ان لا سبيل لمن يريد الآخرة الا بهجر الدنيا وما فيها والعكس صحيح. فلم يكن امام النهضويين الاوربيين من خيار من اجل تحقيق مطامحهم الا بفصل الدين عن الدنيا وهو ما ليس له اصل لا في المسيحية ولا في أي دين سماوي آخر. خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان مطامح اصحاب النهضة هؤلاء لا تتفق مع ما تأمر به المسيحية الحقة ليعودوا اليها كما هي في الاصل، لان فيها من المادية والجشع والاسراف والاعتداء على حقوق الغير اكثر مما كان لمن سبقهم.

وكون فصل الدين عن الدولة ليس من اصل المسيحية يدل عليه ما احتواه الانجيل من اقوال تنظم العلاقات الانسانية بين الناس وخاصة بين الحاكم والمحكوم، فيحدد مسؤولية الحاكم بخدمة مصالح شعبه اذ جاء فيه (... من اراد ان يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً. ومن اراد ان يكون قبلكم اولا فليكن لكم عبدا)[1] وجاء ايضاً (ايها السادة قدموا للعبيد العدل والمساواة عالمين ان لكم انتم ايضاً سيداً في

---

(1) انجيل متى: ٢٦.

السموات)[١] . ودعا الحكام والمحكومين الى التعاون والتماسك وحذرهم من التفــرق فقال: (وكل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وكل مدينة او بيت منقسم على ذاتــه لا يثبت)[٢] . وامر الرعية بطاعة حكامها (وذّكرهم ان يخضعوا للرياسات والســلاطين ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح)[٣] . وقال لهم (اكرموا الجميــع احبــوا الاخوة خافوا الله اكرموا الملك)[٤] . وقال ايضاً (المخضع كل نفس للسلاطين الفائقــة لانه ليس سلطان الا من الله والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله. حتى ان من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، المقاومون سيأخذون لانفسهم دينونة. فان الحكــام ليســوا خوفاً للاعمال الصالحة بل للشريرة، افتريد ان لا تخاف السلطان افعــل الصــلاح فيكون لك مدح منه لانه خادم الله للعلا...)[٥] .

وحتى القول: (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) والذي اصبح شعاراً للماســونية وللعلمانية في كل مكان حتى في العالم العربي، فهي لا يمكن ان تكون دعوة لفصــل الدين عن الدولة او عن الحياة، بقدر ما هي تنظيم للعلاقة بين الحاكم والمحكوميــن تمنع التنافس والتناحر والعداء بينهم اذ تأمر المحكومين بان يتركوا الحــاكم وشــأنه ليحاسبه الله على ما اخطأ وما اصاب وبذلك تكون دعــوة تكمــل دعــوة الطاعــة وتغنيها. والا اذا اعتبرنا ترك ما لقيصر لقيصر، تعني ان يتصرف في شؤون الدولة بعيداً عن الدين، ماذا تعني ما لله لله؟ وماذا يبقى لمن هو ليس قيصراً من عبــاد الله؟ ولذلك كله لا اجد لفصل الدين عن الدولة حتى في اوربا، اصل في الدين المســيحي في حقيقته. بل هي دعوة علمانية افرزتها ظروف اوربا الخاصة بها والتي جعلــت المصلحين الاوربيين يدعون الى نظام يفصل بين الدين والدولة على اســاس مــن الفصل بين الكنيسة والحكومة فحددوا (معنى الدين فارادوا بــه التوجيــه الروحــي

---

(١) رسالة بولس الى اهل لولوسي-١- الاصحاح الرابع.

(٢) انجيل متى: ٢٥.

(٣) رسالة بولس، الاصحاح الثالث ١-٢.

(٤) رسالة بطرس الاولى: الاصحاح الثاني: ١٧.

(٥) رسالة بولس الى اهل رومية الاصحاح الثالث عشر: ١-٤.

للافراد، وحددوا معنى الدولة والحكومة فقصدوا بها تنظيم العلاقات بين الافراد واستعانوا في هذا التحديد بموقف المسيح من قومه وبطابع رسالته الى شعب اسرائيل، وهي رسالة محبة -و- اعادة الصفاء بين النفوس... وبناء على ذلك تحديد أي دين سابق على المسيحية او لاحق بها يجب في تصور الاوربيين ان تؤخذ في مفهومه خصيصة المسيحية وهي الدعوة الى الصفاء النفسي فقط[1] واغفلوا في دعوتهم هذه عدة امور منها مثلا لماذا هذا الصفاء للنفوس؟ ولماذا هذه المحبة؟ ولماذا التوجيه الروحي؟ واي غرض يخدم ان لم يكن من اجل العلاقات الانسانية؟ ما هدف توجيه الروح نحو الفضيلة؟ اليس ذلك كله من اجل تنظيم العلاقات بين الافراد بعضهم البعض وبينهم كرعية وبين الحكام؟ واقامتها على اسس من المحبة والصفاء؟ وهذه المحبة والصفاء هل يمكن ان تحدث بغياب العدل والمساواة والرحمة والاخاء والتعاون ونكران الذات الخ...؟ هل يمكن ان تحدث مع غلبة الاثرة والجشع واسراف الفرد بالملذات على حساب الآخرين ومصالحهم؟ او الاعتداء وسلب الحقوق؟ ومن يقيم الحدود ويمنع هذا كله؟ اليست الحكومة او الدولة؟ وما هو معيار الحكومة في تحديد هذه الامور؟ اليست هي مجموعة من القيم قد يكون شرعها الخالق فتكون دين الهي او شرعها البشر فتكون دين وضعي بشري؟! فيقولون السيمونية واللينينية والماركسية والبهائية الخ... كما يقولون المسيحية، فان اعتمدت الحكومة معيارا بشريا واعتمدت الكنسية معيارا الهيا ماذا يكون موقف الانسان كفرد او كمجتمع؟ خاصة وهو مرتبط بالاثنين! هل يمكن لانسان ان يكون له معيارين لقياس الامور احدهما بشرى يقيس به امور الدنيا وآخر الهي يقيس به امور الدين؟ وما هي الحدود التي تفصل امور الدين عن امور الدنيا؟ وعلى رأس ذلك كله لماذا الدين؟ وما قيمة الدين ان لم يحدد طريق السلوك الانساني ويوحده ويوجه مسار الانسان من خلاله؟ الخ...

وعلى اية حال فقد كان لاوربا مبرراتها في فصل الدين عن الدولة ولا يهمنا هنا ان كانت على حق ام على باطل، ولكن ما يهمنا هو لماذا انتقلت هذه الدعوة الى

---

[1] محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث ص٢١٨-٢١٩.

العالم العربي والاسلامي؟ فلم يكن في العالم الاسلامي تقدم علمي وصناعي انذاك، ولم يقف الاسلام كعقبة ضد العلم او التقدم او التصنيع لا في ذلك الوقت ولا في أي وقت اخر، بل العكس فقد شهد بعض ابناء اوربا مثل هورمن على ارتباط الاسلام بالعلم اذ قال: (نجد في الاسلام اتحاد الدين والعلم، وهو الدين الوحيد الذي يوحد بينهما، ونجد كيف ان الدين موضوع بدائرة العلم، ونرى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه سائرين معا باتحاد ومتجاورتين كتفا الى كتف)[1]. وليس في الاسلام كهان ورجال دين يسيطرون على الحياة العامة ويسلبون الحكام سلطاتهم بل العكس فقد كان الدين بالنسبة للسلطة السياسية مصدرا يزيدها قوة وفاعلية بما يحققه للامة من اجتماع الكلمة وعدم التفرق وبما يوفره من دعم ضد الغزو الاجنبي، وخاصة في ذلك الوقت العصيب والذي كانت فيه الامة في امس الحاجة لجمع الشمل ولدعم الحكام في صد الغزو الاجنبي. كما لم تكن هناك طبقة برجوازية صناعية وطنية ناشئة يقف الدين او الكهان في طريق مطامحها، فهذه الطبقة اوجدها الاستعمار بعد ذلك بايجاد صناعات وهمية تابعة له وقد كانت هذه الطبقة في اول امرها من الاجانب او التابعين لهم، فما هي مبررات الدعوة؟ ولماذا؟ وكيف حدثت؟

بعد فشل الغزوات الاستعمارية التي اتخذت من الدين قناعاً لها وعرفت بالحروب الصليبية، وفشل حملة نابليون بعدها والتي لبست قناع الاخوة التي تتطلب انقاذ المسلمين من استبداد العثمانيين كما تطلبت الانتقام لهم من الدولة الرومية-كما اكد نابليون للمصريين عند احتلاله لمصر-بدأت اوربا العمل باسلوب جديد لغزو البلاد العربية والاسلامية واستعمارها، يعتمد التسلل من خلال العلاقات التجارية والثقافية، ولكنها وجدت ان النظام القيمي الذي يحدده الاسلام والذي وقف امام الغزو المسلح وصدّه، هو ذاته يقف مرة اخرى امام هذا الغزو الجديد. وكان عليها ان تواجهه هذه المرة ايضاً وان تتعامل معه بشكل او بآخر يمكّنها في النهاية من تحقيق مخططات غزوها. فقد اكد الكثير من المستشرقين على انه لا يمكن لمن يخطط للتعامل مع المسلمين ان يخرج الاسلام من مخططاته هذه. فقد كتب جب يقول: ان

---

[1] ابراهيم نعمة: المسلمون امام تحديات الغزو الفكري ص٥٨

(لتعاليم الدين الاسلامي من السيطرة على المسلمين في كل تصرفاتهم ما يجعل لـــها مكاناً بارزاً في أي تخطيط لاتجاهات العالم الاسلامي. فالاسلام ليس مجرد مجموعة من القوانين ولكنه حضارة كاملة)[1]. وهو ذات المفهوم الذي اكـــده محمـــد عبـــده لكرومر عندما قدم له لائحة اصلاح التعليم! فكون ان الدين الاســـلامي هـــو ديـــن يتعامل مع الانسان الكل بروحه وجسده، بدينه وبدنياه، وان تعاليمـــه تتنـــاول كـــل مظاهر الحياة، بكل ما تحويه من انظمة سياســـية واقتصاديـــة وتربويـــة، وكـــون المسلمين يؤمنون بدينهم اشد الايمان، وهذا الايمان هو الذي يوحدهم ويجعل منـــهم قوة تتحمل كل الصعاب من اجل الدفاع عنه... كلـــها امـــور اكـــد عليـــهـــــــا المستشرقون-ولا يزال يفعلون- فهذا كلود كاهن يقول: ان محمـــدﷺ (اوجـــد دينـــا ودولة لا ينفصمان)[2] وينصح لوبون من يرغب في فهم امم الشرق عليه ان يـــدرك أيمانهم الشديد وسلطان الدين الكبير على نفوس ابنائها ولذلك يقول: فعلى (الراصـــد المؤمن او الملحد ان يحترم هذا الايمان العميق الذي استطاع العرب ان يفتحوا العالم به فيما مضى، وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير) ويؤكـــد علـــى اهميـــة الايمان بالآخرة ونعيمها في كل ذلك لانه يصون الامة (من الوقوع في اليأس ومـــا يجره اليه اليأس من الفتن الشديدة) ويلوم لوبون من يستخف بهذا الامر ويعتبره مـــن الاوهام فيقول: (ويجب على من يستخف بتلك الاوهام ان يستخف بجميـــع الاوهـــام ليكون منطقيا فيزدري المجد والطموح والحب وجميع الخيالات الســـاحرة الجديـــرة بالاحترام، التي نقضي حياتنا وراء تحقيقها. وهذه الاوهام اعظم عامل فـــي ســـير الانسانية حتى الآن. والمفكر الذي يكتشف ما يغني الناس عنها لم يوجـــد بعـــد)[3] . ويؤكد شاخت على ان في الاسلام (لم يوجد تمييز بين الدولة والمجتمع او بين الدين والدولة، ولم توجد كذلك نظرية تتعلق بالغاية الدنيوية التي تنتمي هي وحدهـــا الـــى الدولة، وبالغاية الازلية التي تنتمي الى السلطة الدينية وتعد وقفاً عليها. فـــالدين لـــه

---

(١) محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ٢، ص٢١٢.

(٢) تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص١٥.

(٣) حضارة العرب ص٤١٨.

يكن منفصلاً عن السياسة، كما ان السياسة لم تكن منفصلة عن الاخلاق) ويستشهد على عدم وجود هذا التمييز بما قاله ابن تيمية الذي اكد انه (اذا فصل بين الدين والدولة فان الفوضى ستحل بالجماعة...) اذ هو يرى (ان الوحدة الحقيقية للجماعة الاسلامية-التي تحققت سياسياً زمن السلف... لا تتحقق من خلال وحدة سياسية وهمية، ولكنها تتمثل في تضامن الوحدات السياسية الذي يتحقق بانتمائها جميعا الى كل عضوي متماسك)[١].

وتقول آيلز في كتابها الاسلام والعصر الحديث، ان (الاسلام عقيدة لها كل السيادة، فهي تشكل كل اوجه حياة المسلم وتحوط وجوده باكمله والشعائر والاحتفالات، ما هي الا الصورة الخارجية لعاطفة روحانية يحس بها احساساً عميقاً. وفي هذه العقيدة، الحياة والدين لا ينفصلان...) وتؤكد على ان المجالين الديني والدنيوي يكمل كل منهما الآخر (وكلاهما تعبيران مختلفان لحقيقة واحدة...)[٢] ويقول جورج روبير: (ان الاسلام ليس ديناً فحسب انه أخر الاديان التي ظهرت في التاريخ، وانه-ايضاً- وبصفة خاصة مجتمع روحي واجتماعي ونظام سياسي، واسلوب للعيش، ولقد اعطى الاسلام للدنيا حقها، وللآخرة حقها، فلا تزهق الروح على حساب البدن، ولا يزهق البدن على حساب الروح: فالازدواج كامل بين الروحية والمادية في شخصية المسلم)[٣]. ويقول ريتشارد هارتمان مؤكداً اهمية تعاليم الاسلام التي لا تفصل بين الدين والدولة في جمع كلمة الامة: (قلما تجد بين الاديان الكثيرة ديناً ينفذ الى حياة معتنقية كلها فردية كانت ام جماعية مثل الاسلام، ذلك انه جمع السلطة الدينية في شكل الدولة السياسي، ووقي خطر التفرقة بين امور الدين وامور الدولة)[٤] . ويقول فيتزجرالد في كتابه قانون المحمديين مؤكداً ان الاسلام لا يفصل بين الدين والدولة (على الرغم من انه قد ظهر في العهد

---

(١) تراث الاسلام، القسم الثالث، ص٣٣-٥٧.

(٢) ص٨٦، ٦١١.

(٣) ابراهيم النعمة: المسلمون امام تحديات الغزو الفكري ص٥٨.

(٤) ذات المصدر

الاخير بعض افراد مـن المسلمين ممـن يصفـون انفسـهم انـهم عصريـون، يحـاولون ان يفـصلوا بين الناحيتين-الدين والدولـة- فـان صـرح الفكـر الاسلامي كله قد بني على اساس ان الجانبين متلازمان ولا يمكن فصل احدهما عـن الآخر)[1] . وقال كارلايل ان القرآن (ما برح في كل زمان ومكان قـاعدة التشـريع والعمل، والقانون المتبع في شئون الحياة، ومسائلها والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مسـتقيماً، ومصـدر احكام القضاة، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به فـي غيـاهب الحياة)[2] . وبعد ان شرح مبادئ الاسلام قال: (هذا يا اخواني هـو روح الاسـلام وهذا هو ايضاً روح النصرانية، والاسلام لو تفـهمون ضـرب مـن النصرانيـة، والاسلام والنصرانية يأمراننا على ان نتوكل على الله قبل كل شيء... ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال)[3] .

وقد اكد جب ايضاً على كون الاسلام نظاماً شاملاً للحياة وعلـى مـا حققـه الاسلام في مجال توحيد العالم الاسلامي والتي هي في نظره (وحدة خطرة، لانـها تحيط باروبا احاطة محكمة تعزلها عن العالم) واكد (ان الاسلام قد انتشر انتشـاراً سريعاً في فترة لا تتجاوز قرنين ونصف القرن. وقد كان مـن ابـرز آثـار هـذا الانتشار السريع الذي تكونت خلاله الحضارة الاسلامية الكاملة، انها نشأت حضـارة موحدة، اذ لم تكن هناك فرصة لتأثير العناصر الاقليمية المختلفة والثقافية المتباينـة. فلما انتشر الاسلام بعد ذلك لم يكن ديناً ساذجاً، ولكنه كان نظاماً كاملا شاملا للحياة. ولذلك نرى ان اتساع رقعة العالم الاسلامي من المحيط الاطلنطـي الـى المحيـط الهادي لم تؤثر في وحدة الحضارة الاسلامية على غير ما تقضي به العادة)[4] .

---

(١) انور الجندي: السلطان عبدالحميد والخلافة الاسلامية ص١٣٦.

(٢) كارلايل: الإبطال، ص٨٦.

(٣) ذات المصدر ص١٢٩.

(٤) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية... جـ٢ ص٣٠٦-٣٠٧.

وهذا التأكيد على اهمية الاسلام في جمع كلمة المسلمين والتي يريدها الطامعون متفرقة، وفي تحقيق الكفاية للمسلمين بقيمه وانظمته مما يجعلهم يعرضون عن كل ما يقدمه الاجنبي منها، وضع الاسلام، ومـا يـزال يضعه، في قلب المخططات الاجنبية للتغيير الذي يريدونه لهذه الامة. فهذه المخططات لا يمكن تنفيذها وهذه المصالح لا يمكن تحقيقها الا بتقليل فاعلية الدين الاسلامي باي شكل من الاشكال.! فكيف السبيل الى ذلك؟

فمسألة استمرار وجوده كما هو في حقيقته، دين ينظم شؤون المسلمين الدينية والدنيوية امر يستحيل معه تحقيق مصالح الطامعين الاجانب، اذ يسد امامهم جميع الثغرات التي يمكن ان يدخلوا من خلالها. كما ان اعلان الحرب العلنية عليه ككل، دين ودولة، سيثير مشاعر المسلمين مما قد يجمع كلمتهم -المسلمين- ضدهم فيعرقل مساعيهم مما قد يقضي على امكانية تحقيق مصالحهم في هذه البلاد. خاصة وانهم قد جربوا ذلك في اول عهدهم باحتلال بلاد المسلمين وخاصة في الهند حيث كان كما يذكر الافغاني (قسس البروتستانت المغرورين يقومون في شوارع البلاد الهندية على سوقهم ويطعنون في الديانة الاسلامية طعناً تقشعر منه الابدان، ويفتعلون من الاراجيف ما تصطك منه الآذان، ويختلقون افولا يستبشعها الاوباش، وينسبون الى سيدنا محمدﷺ في رسائلهم من الشنائع والفضائع، ما تنبو عنه الطباع). وكل هذا كما يؤكد الافغاني يحدث (بمرأى من الحكومة ومسمع من الامة الانكليزية وما تسمع من احد انكاراً) ويقول ايضاً ان المبشرين اصدروا كتابين (وغيرهما من الرسائل المحشوة بالسب والشتم والقذف في شارع الديانة الاسلامية... واذا قام احد من العلماء المسلمين لان يعارض هؤلاء القسس بكتب رسالة او القاء مقالة يلقى عليه القبض بدعوى اثارة الفتنة، ويرسل بلا محاكمة الى جزائر اندمان...)[1] وكل هذا لم يحقق للاحتلال الانكليزي في تلك البلاد الا مزيداً من الرفض حتى كان المسلمون يقاطعون مدارس الانكليز ووظائفهم مما جعل الانكليز يغيرون سياستهم

---

[1] علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص١١٥-١١٦ (انظر مسألة محمد شارع الديانة الاسلامية وكأنها ليست شريعة الله كما يؤمن المسلم الحقيقي وهو ذات ما يدعيه الاجانب.

ويحاولون المرور عبر الدين الاسلامي من خلال الاصلاح الديني ومدرسته التي تبناها احمد خان وتلامذته من بعده!!

ومن هنا جاء الحل في اهون الطرفين المتطرفين بالنسبة لهم وهو فصل الدين عن الدولة بكل ما فيها من تنظيمات وقوانين. وعملاً بحرية العقيدة!! سيسمحون للدين في ان يبقى مسجوناً في صدور المؤمنين به على ان لا ينعكس على سلوكهم التنظيمي الرسمي او حياتهم العامة! عارضين على الامة الاسلامية المثل الاعلى والقدوة الحسنة! في نموذجهم الاوربي الذي يفصل الدين عن الدولة وعن الحياة العامة، مدعين ان هذا هو سبب تقدمهم رغم اختلاف الظروف، مؤملين ان هذا الطريق سيؤدي في النهاية الى غياب الدين كليا حتى من قلوب المؤمنين، كما تغيب عن كل ذلك في اوربا. لان الفصل هذا بين الدين والحياة وازدواجية المعايير هذه امر غير طبيعي ولا منطقي ولا يمكن ان يستمر طويلاً. فالحياة العامة بما فيها من مشاغل ومشكلات تأخذ الجزء الاكبر من وقت واهتمام الانسان المسلم، وتعامله معها من خلال قيم مادية بعيدة عن دينه، الى حد التعارض احياناً، سيبعده عن الدين ويجعله يتهاون بقيمه حتى يصبح التهاون عادة، فيبتعد شيئاً فشيئاً عن دينه حتى تأخذه الحياة المادية كلياً وهذا ما كان يرجوه الاوربيون بل ان البعض كان يأمل ان تحل التعاليم المسيحية الاوربية محل التعاليم الاسلامية اذ يقول جب مثلاً: (انه قد يبدو للنظرة الاولى ان الجمهرة العظمى من المسلمين لم تتأثر بمؤثرات دينية اوربية وان التفكير الديني الاسلامي قد ظل وثيق الاتصال باصوله الدينية التقليدية ولكن ذلك ليس هو الحقيقة كلها. فالواقع ان التعاليم الدينية ومظاهرها عند اشد المسلمين محافظة على الدين وتمسكاً به قد اخذت في التحول ببطء خلال القرن الماضي) ويؤكد على ان (الموازين الدينية والتعاليم الاخلاقية في الاسلام اخذة في التحول وان هذا التحول يتجه نحو تقريبه من الموازين الغربية في الاخلاق التي هي في الوقت نفسه متمثلة في التعاليم الاخلاقية للكنيسة المسيحية) ويرى جب ان هذا التحول هو نتيجة الحركات التي قامت في البلاد الاسلامية عدا شبه جزيرة العرب وافغانستان والتي (ترمي الى تأويل العقائد وتنقيحها) ويؤكد على اهمية دور محمد

عبده ومدرسته في تحقيق هذا الهدف وعلى ان (معظم ما تم من تعديل وتحوير خفي لا يبدو للنظرة السطحية)[١].

وقال ولسن الحاكم الانكليزي في العراق (... ان العراق بحاجة الى مـــا هــو اكثر من فوائد الحضارة المادية... نعتقد انه ما لم يتشرب العراق بمبادئ المســيحية فانه لن يكن صالحاً لممارسة الحرية...)[٢]!!!

وهكذا دخلت بدعة فصل الدين عن الدولة الى البلاد الاســلامية كجــزء مــن مخطط الغزو الاستعماري لمحاربة الدين الاسلامي، لعله يزول من حياة المســلمين فيسهل على الغزاة استعبادهم واجراء ما يشاءون من تغيير فـــي حياتــهم لخدمــة المصالح الاجنبية. فلم يبدأوا الاسلام كما يقول ابراهيم النعمة (بهجوم سافر، بل كان حربهم له من وراء ستار، خشية ان يلــهب التصــدي للاســلام علانيــة مشــاعر المسلمين، وعند ذاك يخفق هؤلاء في تحقيق اهدافهم، فارسلوا افكارهم المســمومة، يحملها نفر ممن اعدوهم لحملها اعداداً باسم التقدم والوطنية والتحــرر والعلــم)[٣]. فاندفع هؤلاء، خريجو مؤسسات التغريب المختلفة، ومن اطلق عليهم مفكرو عصــر النهضة في متابعة اوربا في الدعوة لفصل الدين عن الدولة وعن الحياة العامة لنيــل رضاها. وحتى من تنبه منهم لهذه الخطة لم يمنعه تنبهه هذا مــن الاســتمرار فــي توهين القيم الدينية والانظمة الاسلامية بما يقتبسه من القيم والانظمة الاوربية مثــل رشيد رضا الذي يقول ان هذه الدعوة التي يعرضها الاوربيون وكأنها خالية من ايــة اغراض سياسية فهي (تؤدي عاجلاً او آجلاً الى ازالة السلطة الاسلامية من لـــوح الوجود والى استبدال السلطة الغربية بالسلطة الاسلامية فالتنكر للشريعة والحضــارة الاسلاميتين من اجل التبني الراديكالي لقيم الانظمة الغربية وتقاليدها ومثلــها التــي تبثها في الاقطار العربية والاسلامية المدارس الاجنبية العلمانية والتبشيرية على حــد السواء لا يمكن ان تؤدي الا الى تجرد الامة من ثوبها القومي والى نبذها لتاريخــها

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص٢١٣-٢١٤، جـ٢.

(٢) وميض عمر نظمي: الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية ص٢١٤.

(٣) ابراهيم النعمة: المسلمون امام تحديات الغزو الفكري ص٥٥.

ولمقوماتها الحضارية. وهو امر يسهل خضوعها للغرب ويمهد لها السير في ركابه وتكريس عجزها عن الخروج من حوزته وقبضته)[1].

ان الطريقة التي تعامل بها كل من الطهطاوي وخيري الدين التونسي وهما من دعاة التغريب الاوائل، مع مسألة التغريب وفصل الدين عن الدولة التي ظلت مستترة في دعوتهما من غير تصريح بها وان كانت خطوة اولى لا بد منها الا انها لم تحقق مطالب وطموحات الاوربيين. فعندما نقل الطهطاوي انبهاره باروبا الى المسلمين في كتابه، تخليص الابريز في تلخيص باريز، ودعاهم الى تقليدها واقتباس مبادئها في الحرية! والمساواة! وانظمتها السياسية، فعل ذلك باسم الدين وحرصه عليه! وتمسكه به وحرصه على الدولة العثمانية التي لم يصرح بمعاداته لها. وكان محور دعو التونسي يقوم على اساس الفصل بين الدين والدولة واقتباس الحضارة الاوربية ولكن تحت مظلة الدين وعلى اساس (ان التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الامم اخرى والاخذ باحسنه فيما يتعلق بالنواحي الدنيوية)[2]. وعلى اساس ان هذا الاقتباس هو من مصلحة الدولة العثمانية والامة الاسلامية. وسواء كان ذلك عن سطحية وقصر نظر لم يمكناهما من رؤية حقيقة الاهداف الاوربية ام عن تكتيك خبيث اوجب مراعاة الاعتبارات الدينية من اجل اللف حولها بغاية تحويلها لما يراد للامة كما يؤكد عزت قرني في كتابه العدالة والحرية في فجر النهضة[3] فان دعوتهم لم تفي بغرض الاوربيين الذين كانوا يسعون الى هدم الدين واسقاط النظام الاسلامي والدولة الاسلامية، ولذلك جاءت حركة الافغاني-عبده لنقل الدعوة الى ابعد من ذلك، الى تغيير القيم الدينية وتحويرها من خلال التأويل والتنقيح-كما ذكر جب- والتصريح بما كان مستترا من الدعوة الى فصل الدين عن الدولة، فنجد الافغاني يقول وبصراحة (اعتقد ان الهيئة البشرية لا يمكنها ان تستغني عن سلطتين

---

(١) فهمي جدعان: اسس التقدم ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢) عبدالباسط: جمال الدين الافغاني واثره في العالم الاسلامي ص٨٠.

(٣) ص١٠٨-١١٨.

زمنية وروحية)[١] واعتبر عبده الحاكم (هو حاكم مدني من جميع الوجـــوه)[٢] مـــع العلم ان كليهما نفا وجود سلطة دينية في الاسلام ولما يمكن ان يسمى رجـــل ديـــن يمارس سلطة دينية على احد! هذا غير توجيه جل جهدهما الى هدم النظام الاسلامي واضعاف الدولة العثمانية والحكام المسلمين اياً كانوا وذلك باستخدام الديـــن ســـيف مسلطاً على رقاب الجميع من حكام ومحكومين هذا غير تبني الماسونية والدعوة لها والعمل من خلالها وهي التي تقوم اساساً على فصل الديـــن عـــن الدولـــة. فحققـــا بدعوتهما الاصلاحية! الكثير من اهداف الاحتلال والاستعمار وتسهيل مهمتـــه فـــي البلاد العربية والاسلامية مما جعل المبشر الالماني الاب بانيـــرث يقـــــــــول: ان (حركة الاصلاح الاسلامي-على النحو الذي تسير فيه الآن- يجب ان تقـــابل مـــن المسيحية الغربية بالتشجيع)[٣] .

ثم جاء بعد ذلك تلامذتهم وغيرهم من النهضويين الذين تدرجوا فـــي مســـألة الدعوة الى فصل الدين عن الدولة حتى وصل البعض منهم الى الالحـــاد ونكـــران وجود الدين اصلا منفذين المخططات الاوربية حتى النهاية! فنجـــد مثـــلاً الشـــاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي العلماني المتأثر بالافغاني وعبده يدعو الى التـــأويل فيقول:

وان دليل النقل ان كان مانعـــاً ... يؤول بالعقل الذي هو احكـــم

بينما مواطنه معروف الرصافي يقول:

ولا ممن يرى الاديان قامـــت ... بوحي منزل للانبيـــاء

ولكن هن وضع وابتـــداع ... من العقلاء ارباب الدهـــاء

ويذكر سلامة موسى في كتابه تربية سلامة موسى ان جميل صدقي الزهـــاوي زاره في القاهرة عام ١٩٢٥ وكان الاخير قد بلغ السبعين او تجاوزهـــا، وقبـــل ان

---

(١) عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص١٧٠.

(٢) عمارة: الاعمال الكاملة، عبده، جـ١ ص١٠٥.

(٣) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية... جـ٢ ص٢١٣.

يغادر القاهرة سلمه مخطوطة ديوان يجمع عددا من قصائده التي لو طبع بعضها لادى الى السجن لانها (طعن وقح في كثير من العقائد التي اصطلح الناس على تقديسها)[1] . ويقول سلامة موسى ان هذا الديوان بقى عنده سنوات ثم طلبه منه زكي ابو شادي ولا يزال عنده. ولا يعتقد سلامة موسى (ان الظروف الحاضرة او القادمة في القريب ستؤذن بطبعه). وابو شادي هذا ضاق برجعية الدول العربية!! فتركها وسكن الولايات المتحدة.

وفي الوقت الذي كان فيه العالم الاسلامي لم يفق بعد من صدمة احتلاله وسقوط الدولة العثمانية والغاء كمال اتاتورك الخلافة في تركيا بموجب اتفاق للصلح كان قد عقده مع انكلترا التي كانت ككل الدول الاوربية تسعى الى هدم هذا النظام لارتباطه بالعقيدة الاسلامية والتاريخ الاسلامي، وهو نظام لا يفصل بين الدين والدولة اصدر علي عبدالرازق الازهري المتأورب!! الذي تعلم في اوربا، كتاب الاسلام واصول الحكم معتمدا فيما كتبه على ما كتبه المستشرقون (مفرطا تفريطا ظاهرا في الرجوع الى المصادر العربية الاصيلة على كثرتها واهميتها وتوافرها... يدور حول اثبات ان الخلافة نظام تعارف عليه المسلمون وليس في اصول الشريعة ما يلزم بها) وهاجم الخلافة والخلفاء واعتبر الخلافة عنوان الاستبداد والظلم اذ قال: (كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الاسلام والمسلمين وينبوع شر وفساد)[2] مسقطا كل ما اتهم الاوربيون البابا على الخلافة اذ ليس في الاسلام بابا ليقلد الاوربيين في نقده!! وبعد ان يؤكد على ما قاله عيسى بن مريم!! (اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) يؤكد على ان كل ما جرى من احاديث النبي صلى الله عليه وسلم من ذكر الامامة والخلافة والبيعة... لا يدل على شيء اكثر مما دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الاحكام الشرعية عن حكومة قيصر... وان محمد ﷺ (ما كان الا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة وانه ﷺ لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم (سياسة) من هذه الكلمة ومرادفاتها. وما كان الا رسولا

---

(1) سلامة موسى: تربية سلامة موسى ص٢٢١-٢٢٢.

(2) علي عبدالرازق: الاسلام واصول الحكم ص١٣٦.

كاخوانه الخالين من الرسل. وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ولا داعية الى ملـــك)[1] والى غير ذلك من مفاهيم مشوشة تعكس تشويش مفاهيم الكاتب نفسه والذي ســـلبه تعلمه لنتف من المفاهيم والانظمة الاوربية لبه فلم يعد يعقل غيرها، فالسياسة والدولة والحكومة والدين ان لم تكن كما لقنه اياها الاوربيون فهي اذا ليست دولة ولا سياسة ولا حكومة!! وحتى ما لقيصر وما لله!! ردده كما لقنه اياه الاوربيون من غير تعقـل او نظر!! وبعد افراغ كل التلقينات هذه يختم كتابه بما هو المطلوب والمرغوب!! اذ يقول (لا شيء في الدين يمنع المسلمين ان يسابقوا الامم الاخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها، وان يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا به واستكانوا اليه، وان يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على احدث ما انتجته العقول البشرية وامتن ما دلـــت عليه تجارب الامم على انه خير اصول الحكم)[2] . ان كل مـــا جـــاء فـــي كتـــاب عبدالرازق هذا ليس فيه جديد بل هو ما تداوله المستشرقون وتلامذتهم وما دعوا اليه من قبل، ولكن الغريب والمريب في كتابه ان يأتي في تلك الفترة العصيبة من حيـــاة الامة العربيـــة والاســـلامية، فـــي اوائـــل العـــــشرينات مـــــن هـــــذا الـــقـــرن-العشرين- وعندما كانت الامة العربية والاسلامية تخضع للاســتعمار الاوربي في ذل واستكانة ومهانة لم تمر بمثلهما من قبل، ليدعوا الناس الـــى هـــدم الذات وهدم النظام الذي سادوا به انفسهم اولا وبنوا بعد ذلك حضارة دامت اربعـــة عشر قرناً!!! ويعتبره نظاماً ذلوا به واستكانوا!!! وان يأتي في الوقت الذي كان فيـــه الاستعمار يتصرف في شؤون الامة وكأنها لا وجود لها، يقسم اراضيها، ويتصـرف بثرواتها وبابنائها كما يشاء ويفرض عليها ما يشاء من انظمته السياسية والاقتصادية والعسكرية والتربوية... ومن يشاء من الحكام... ليدعوا هذه الدعوة المضللة التـــي تهدم الذات ولا تؤدي الا الى المزيد من الذل والاستكانة والتبعية!!!

وقد لاقى الكتاب معارضة شديدة من المسلمين انتهت بالمؤلف الى المحاكمـــة امام هيئة كبار العلماء فاصدرت حكمها باخراج الشيخ علي عبدالرازق احد علمـــاء

---

(1) البهي: الفكر الاسلامي المعاصر ص٢٣٥.

(2) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية... جـ٢ ص٩٥.

الجامع الازهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية... من زمرة العلماء[1]. وفصل من وظيفته كقاضي وكتب عبدالرازق يرد التهم عن كتابه وكان رده تأكيداً لكل ما جاء في الكتاب من ان الشريعة الاسلامية انزلها الله تعالى رعاية لمصالح البشر الدينية وحدها...) وان (الخطط السياسية... لا شأن للدين بها)[2] وكان يأمل علي عبدالرازق ان يدعمه الانكليز والاحزاب العلمانية ولكن خاب امله لانهم لم يروا من المناسب ان يدعموه والمسألة على اشدها والمشاعر تلتهب غضباً وغيرة على الدين ولكن بعد فترة انزوى خلالها عبدالرازق وعندما حانت الفرصة باستلام احد تلامذة عبده المتنورين! مقاليد الازهر اعيد النظر في موضوعه واعيد الى زمرة العلماء[3].

وهكذا انهالت الدعوات الصريحة بعد ذلك الى فصل الدين عن الدولة مما لا حصر له ولا زالت حتى اليوم. واكثرها تسقط على الاسلام ما ليس فيه من تجارب اوربا الدينية. فكتب خالد محمد خالد يقول: (ان الحكومة الدينية هي اداة من ادوات الاستبداد) اذ اعتبرها (تجربة فاشلة لم تجلب على البشرية سوى المآسي والالآم...) وهو لذلك يعتبر من يدعوا اليها مغفل منتفع ويرى ان (لا نهضة للمجتمع ولا بقاء للدين نفسه الا بالحد من سلطة الكهانة وفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية... جاء الاسلام يدعو الى الحب وتمجيد الله والتوحيد بين البشر... واي مساس لهذه الاغراض بالدولة؟ ... ثم ان التوحيد بين السلطتين الدينية والدنيوية يؤدي حتماً الى تهديد حقيقة الدين نفسه، فالدين عبارة عن حقائق روحية خالدة غير خاضعة لعوامل التغيير والتحول اما الاهداف والوسائل السياسية هي عرضة للتطو التبدل المستمرين)[4].

---

(1) ذات المصدر: ص٨٦-٨٧.

(2) محمد عمارة: علي عبدالرازق، الاسلام واصول الحكم ص٦١-٦٧.

(3) ذات المصدر.

(4) ماجد فخري : دراسات في الفكر العربي ص٢٦٣.

ونشر السنهوري بحثاً في كتاب عن الخلافة رفض فيه قول علي عبدالــرازق بان السلطة السياسية لم تكن جزءاً عضوياً من الاسلام) بل هو يرى انه ليس هنــاك (سبب يحول دون استمرار الخلافة في التطور بحيث تتحول الى (عصبـــة للامــم الشرقية) وبموجب هذا التحول يصبح الخليفة الرئيــس الفخــري لاتحــاد الــدول الاسلامية) ويرى ذات الرؤية الكواكبي وعازوري في جعل ســلطة (الخليفــة فــي المسائل الدينية هي العليا!! اما الشورة المدنية والدنيوية فتكــون مــن اختصــاص رؤوساء الدول والحكومات واقترح الســنهوري ان تفصــل الامــور الدينيــة فــي الشريعة... عن الامور المدنية...)[1] وهو طبق ذلك الفصل عندما وضــع القــانون المدني المصري والذي جاء نسخة من القانون الفرنسي.

وتمادى دعاة النهضة في فصل الدين عن الدولة حتى اصبح اقرار الدســتور بان دين الدولة هو الاسلام بالنسبة لمحمود عزمي (البند المشؤوم) اذ كــان متــأثراً باستاذه الفرنسي الذي اكد له (ان الربا المحرم في الاسلام هــو اصــل كــل نمــو اقتصادي وعلى من يدرس الاقتصاد السياسي الا يفكر بالشريعة الاسلامية كما علــى من يدرس الشريعة الاسلامية الا يفكر في الاقتصاد السياسي) فخرج عن الشــريعة وطالب بتوحيد التشريع استناداً الى مفهوم القومية المصرية فيكون لجميع المصريين احكام زواج وطلاق واحدة بحيث تفتح ابواب الاسرة المسلمة لغير المسلمين ويسمح للمسلمة بالزواج من غير المسلم بلا عائق... مما يلغي المحاكم الشــرعية)[2]. وان كان الكثيرون قد اقتصروا في دعوتهم على فصل الدين عن الدولــة الا انــهم لــم يجاهروا بالهجوم على الدين او معاداته مباشرة الا ان البعض مثل اسماعيل مظــهر هاجم الدين (ودعا الى التحرر من الغيبيات وعلى رأسها الدين) وهاجم طه حســين وعلي عبدالرازق لانهما دارا حول المشكلة ولــم يعترفــا صراحــة ويعلنــا عــدم اعترافهما بالدين وبالقرآن[3]. وهو قد تأثر بالفكر الغربي خلال دراسته في انكلــترا

---

(١) مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي ص٢٤٧.

(٢) فهمي جدعان: اسس التقدم ص٣٣٩-٣٤٠.

(٣) مجيد خدوري: ذات المصدر ص٢٣٥-٢٤٦.

كما تأثر بما كان يكتبه شبلي الشميل من افكار علمانية في مجلة المقتطف فانشأ مجلة العصور وسخرها للدعوة الى ما سماه الفكر الحر!! ولا يزال الكتاب مستمرين في تأكيد مسألة فصل الدين عن الدولة لادامة هذا الاتجاه خوفاً من تراجعه فكتب الدكتور فرج فودة كتاب اجهد نفسه فيه ليثبت ضرورة فصل الدين عن السياسة عامة وليصل الى النتيجة التي دعا اليها الاوربيون وحثوا المسلمين على العمل بها منذا كثر من قرن من الزمان وهي ان (نترك الدين للمسجد ولنترك السياسة للبرلمان والاحزاب...)[1].

وتمادى زكي نجيب محمود اكثر فاكثر في تجديده ليصل حد الالحاد في كتابه خرافة الميتافيزيقا وهو كتاب منقول ككل كتبه عن الفكر الاوربي، فيه حدد الباحث معنى الميتافيزيقا بانها (البحث في اشياء لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا مكاناً، لانها اشياء بحكم تعريفها لا يمكن ان تدرك بحاسة من الحواس) والجديد الوحيد الذي اضافه الكاتب كما يذكر محمد البهي هو (انه لم يستثني-في سطر واحد من الكتاب- الحقائق الدينية كما فعل Occam الذي نقل الكاتب بحثه عنه) بل يقول (العبارة الميتافيزقية التي تخبرنا عن شيء غير محس عبارة فارغة من المعنى لسبب بسيط هو انها ليست مما يجيز المنطق ان تكون كلاماعلى الاطلاق)[2].

وهكذا تدرج المفكرون في دعوتهم لفصل الدين عن الدولة وكأنهم يعملون وفق خطة موضوعة ينتقلون بالدعوة من مرحلة الى اخرى ابعد منها. فانتقلوا بها من التضليل الى الضلال. ومن لم يتعرض منهم للاسلام كدين وعقيدة فقد تعرض له كنظام للدولة والحياة. فوجهوا الاتهام الى مبادئه السياسية والاقتصادية والتربوية والقضائية الخ... فكرروا ما ردده الاوربيون من ان هذه كلها متخلفة وبدائية وصالحة للمجتمع البدائي الاول في صدر الاسلام ولم تعد صالحة للوقت الحاضر. وانها ما اهملت الا لعدم قابليتها لان تكون اساساً يبنى عليه نظام دولة. فالزكاة نظلم

---

(١) مجلة المنتدى العدد ١٤ السنة الثانية نوفمبر ١٩٨٦ ص١٩-٢٠.

(٢) محمد البهي: الفكر الاسلامي المعاصر ص٢٦٩

متخلف لا يمكن ان يكون اساساً لنظام ضريبي يوفر ما يلـــزم مـــن مـــال لدولـــة مؤسسية! وتحريم الربا تخلف لا يتناسب والنظام الاقتصـــادي المعـــاصر! ونظـــام الاسرة متخلف يتسلط فيه الرجل على المرأة!! اما ما كان له نصيـــب الاســـد مـــن الطعن فيه فهو نظام الحكم وما فيه من الخلافة ومبدأ الطاعة، وهو الامر الـــذي لا يستقيم للامة حال الا بنبذه واستبداله بالثورات والديمقراطيات والاحزاب والبرلمانات الخ... الاوربية، فتسابق المصلحون!! والمفكرون!! بمهاجمة الســلطان ايـاً كــان، واعتبار طاعته ذل ما بعده ذل بحيث يرضى المصلح الديني (محمد عبـــده) لنفســـه ولامته طاعة كرومر والتذلل له وللاحتلال ولا يرضى طاعـــة ايـــاً مـــن الحكـــام المسلمين!!!

وكما قام مبدأ فصل الدين عن الدولة في اوربا على النفعية وتحقيـــق مصـــالح خاصة لفئات معينة من المجتمع فكذلك لم تخل الدعوة ذاتها فـــي البـــلاد العربيـــة والاسلامية من النفعية وتحقيق المصالح الخاصة لفئات معينة على حساب مصـــالح مجموع الامة وعلى رأس هذه الفئات الاقليات الدينية واصحاب الطموحات الذيـــن كانوا يأملون ان يصلوا الى السلطة محمولين على اكتاف الاجانب!! ويمثل نجيـــب عازوري الفئة الاولى اوضح تمثيل، بينما يمثل الكواكبي الفئة الثانية.

فالعازوري في كتابه اليتيم يقظة الامة العربية يدعو الى فصل السلطة الدينيـــة عن السلطة المدنية ويقدم حلاً لهذه المسألة بتكوين امبراطورية عربية ضمن الحدود الطبيعية من وادي دجلة والفرات حتى برزخ السويس ومن البحر الابيض المتوسـط حتى بحر عمان...) مستثنياً من البلاد العربية البلاد التي يحتلها الاوربيون آنـــذاك مثل كل شمال افريقيا ومصر التي يستبعدها من الامبراطورية العربيـــة هـــذه! لان المصريين في نظره (لا ينتمون الى العرق العربي فهم من عائلة البرابرة الافريقيين واللغة التي كانوا يتكلمونها قبل الاسلام لا تشبه العربية قط)[1]. على ان يحكم هـــذه الامبراطورية العربية (سلطانا عربيا حكما ملكيا دستوريا متحررا)! وجعـــل ولايـــة

---

(1) يقظة الامة العربية ص٢١٩.

الحجاز (مع منطقة المدينة المنورة امبراطورية مستقلة يكون ملكها في الوقت نفسه الخليفة الديني لجميع المسلمين) مقتبساً هذا الحل من البابوية في روما!! وهو يرى انه بهذا يكون قد (وجد حل لصعوبة كبيرة بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية في الاسلام من اجل خير الجميع الاكبر)[1]!!! الا انه وفي الوقت الذي يدعو فيه الى فصل الدين عن الدولة الاسلامية فهو في الوقت نفسه يؤكد على حق الدول الاوربية التي هي تنظيمات سياسية مفترض ان تكون مفصولة عن الدين! في التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية باسم الحماية التي لها على الكنائس وتابعيها!!! ويعطي لفرنسا الحق الاكبر لان الرعايا الذين تحميهم اكبر عدداً من الرعايا الذين تحميهم الدول الاوربية الاخرى! ورغم انه يدعو الى فصل الدين عن السياسة الا انه يرى للبابا سلطة تندمج فيها السياسة بالدين اذ يؤكد على ارتباط (التأثير الديني للبابوية الرومانية تماماً بالقضايا السياسة) اذ هما في نظره (يندمجان معاً) وبالتالي فالبابا في نظره (يلعب دوراً فخماً في العلاقات الدولية على امتداد الامبراطورية العثمانية وبشكل خاص في البلدان العربية)[2]. هذا غير ان ابا القومية العربية كما يسميه البعض، والعامل من اجل فصل الدين عن السياسة، كرس كتابه هذا الذي سماه يقظة الامة العربية، اذا استثنينا منه الجزء الصغير نسبياً والذي يهاجم فيه الدولة العثمانية ويشن فيه هجوماً مغرضاً وقحا عليها لا يمت الى العقل ولا للموضوعية بصلة ويعرض خلاله حله هذا! كله لشرح مشكلات المسيحية وانقسامات كنائسها وعلاقاتها بالكنائس الاوربية في روما وفي غيرها!!

والغريب العجيب ان الكواكبي، المسلم، الذي يدّعي الانتساب الى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يدعو الى فصل الدين عن الدولة وهو في مصر ويقترح ذات الحلول التي اقترحها نجيب عازوري المسيحي-عميل وزارة الخارجية الفرنسية، بحسب ما جاء في تقديم كتابه يقظة الامة العربية- وهو في باريس! اذ عرض الكواكبي مسألة فصل الدين عن الدولة في برنامج مشابه ان لم يكن مطابق

---

(١) ذات المصدر ص٣٧.

(٢) ذات المصدر ص١٦٣.

لذلك الذي دعا اليه كل من عازوري وبلنت[1] مقتبساً فكرة البابوية وانفرادها بالسلطة الدينية! مع وجود ملك او سلطان للسلطة السياسية فأكد في برنامجه ما يلي:

١- ان ينفصل الملك عن الخلافة وذلك لفشل التصدي لواجبات الخلافة مع قيود الملك ومآزق السياسة وصعوبة الوحدة بين دول الاسلام...

٢- ان تعود الخلافة الى الامة العربية وان تكون على اساس الانتخاب والشورى والتعاون المتبادل على سنة المساواة بين الاقطار الاسلامية[2].

٣- ان تكون وظيفة الخليفة روحية.

٤- وان يعاونه مجلس شورى تتمثل فيه الشعوب الاسلامية.

٥- وان تنفذ وصاياه، طواعية في المسائل الدينية ولا تتعرض في تنفيذها للمشكلات السياسية!

ورغم هذا التهلهل للنظام الذي اقترحه فهو اخذ الحيطة في مصانعة الاوربيين والحذر من مقاومتهم! وحتى يزيل مخاوفهم فسّر الجهاد، كما فسره احمد خان في الهند بانه ليس مقصوراً على محاربة غير المسلمين، بل كل عمل نافع للدين والدنيا... يسمى جهاداً... كما اعتبر قبول الاستعمار امر طبيعي متصل بالاذعان لامر الله اذ قال: ان العرب (لم ينفروا من الامم التي حلت ببلادهم وحكمتهم، فلم يهاجروا منها كعدن وتونس ومصر... بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لانهم يذعنون لكلمة ربهم تعالى شأنه...) وهو يرى ان الخلافة بهذا الشكل مرضية للجميع اذ قال: (فاذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لا يتحذرون من الخلافة العربية، بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح النصرانية وصوالح

---

(١) يرى محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ان هناك صلة واضحة بين كلام الكواكبي هذا وكلام بلنت في كتابه مستقبل الاسلام الذي دعا فيه الى نقل الخلافة للعرب.

(٢) لا نعرف كيف تستقيم سنة المساواة بين الاقطار الاسلامية مع حصر الخلافة بالعرب وحدهم.

الانسانية ان يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محددة السطوة مربوطة بالشورى على النسق الذي قرأته). وتتضح روح الكواكبي الانهزامية، اكثر، ومبالغته بالحيطة على حساب كل شيء حتى هدر الكرامة في الاذعان للاجنبي الى الحد الذي يجعله قدرياً! في مواجهة استبدادهم وهو الذي عاب على المسلمين قدريتهم في مواجهة ما اعتبره استبداد الحكام المسلمين!! حيث قال: في ام القرى في القضية الخامسة والاربعين: (اذ صادفت الجمعية معارضة في بعض اعمالها من حكومة بعض البلاد ولا سيما البلاد التي هي تحت استيلاء الاجانب فالجمعية تتذرع اولا بالوسائل اللازمة لمراجعة الحكومة واقناعها بحسن نية الجمعية فاذا توفقت لرفع العنت فبها والا فلتلجأ الجمعية الى الله القادر الذي لا يعجزه شيء...) ويوصي الجمعية في القضية السابعة والاربعين ان تظهر بمظهر العجز والمسكنة والا تقاوم ولا تقابل الا باساليب النصيحة والموعظة الحسنة وتلاطف وتجامل جهدها من يعادي مقاصدها[1]. مع انه كان دائماً يقول لو انه ملك جيشاً لقلب نظام حكم السلطان؟ والغريب ان المصلح والمجدد والذي تنازل عن كثير من القيم الاساسية وعلى راسها عدم الخضوع لولاية الكفار!! لا يتنازل قط عن مبدأ لا يقره كثير من المسلمين و هو ضرورة كون الخليفة قريشي!! وهو الامر الذي جعل البعض يرى انه يدعو لنفسه وما تأكيده على نسبه القرشي وما مصانعته وتزلفه للدول الاجنبية الا من اجل ذلك، ولذلك ورد في كتاب العقاد ان البعض قد قال ان هذا الرجل لا يعمل (الا لحساب نفسه الا ترونه حريصاً على الخلافة العربية القريشية حريصاً على النسب الى قريش في بيت من بيوت الامارة)[2] مع انه غير عربي.

وهكذا اقتبس مفكرو النهضة هذه البدعة الاوربية في فصل الدين عن الدولة معتمدين في تبريرهم لاقتباسها ذات المبررات التي بررت اوربا بها فصل الدين عن الدولة في مجتمعاتها، مستخدمين ذات المصطلحات الاوربية والتي لا تنطبق على المجتمعات العربية باي شكل كان مثل الكنيسة والكهانة والبطريركية والبابوية—او

---

(١) العقاد: الرحالة ك ص١٩٠-٢٢٨.

(٢) ذات المصدر ص٢٥٤.

الابوية- والسلطة الدينية والسلطة الروحية وحكومة دينية واستبداد ديني!! ورجال دين يحتكرون السلطة الروحية! والى غير ذلك مما يسقطونه على واقع الامة مما ليس فيه ولا في عقيدتها من قيم اوربا ومصطلحاتها، مما يجعل المرء يشعر احياناً انهم يتكلمون عن مجتمع آخر غريب عنه ولا علاقة له به! واحتجوا بفصل الدين عن الدولة بذات التشنيعات التي نشرها الاوربيون عن الحكام المسلمين ورجال الدين من اجل تحقيق مصالحهم جاعلين هؤلاء عبر العصور الاسلامية مثال للظلم والاستبداد، كما فعل علي عبدالرازق! مع ان استبدادهم ان وجد فهو لم يكن يمثل اكثر من نقطة في بحر استبداد وظلم حكام اوربا ورجال دينها قبل تحررها ونهضتها وبعدها، وان كان ما حدث خلال الحركات الدينية والقومية من مآس وما حدث خلال الثورتين الاوربيتين التحرريتين الشهيرتين!!! الثورة الفرنسية وقبلها ثورة كرومويل في انكلترا من جرائم واستبداد مما يتذكره كل من الانكليز والفرنسيين حتى يومنا هذا بمرارة، يمكن ان يكون دليلاً على الاستبداد في اوربا، الا ان الدليل الاكبر على ذلك هو ما كان يحدث زمن دعوة النهضويين العرب من استبداد عانت منه الامم المستعمرة والمحتلة ومنها بلادهم العربية والاسلامية نفسها. ولم يكتف الدعاة العرب باعتماد التشنيعات هذه والتي فيها من الباطل اكثر مما فيها من الحق ولكنهم، كالاوربيين ايضاً، حمّلوا الاسلام كل اخطاء المسلمين مما ليس فيه اصلاً، وعلى رأس ذلك الاستبداد وفساد الخلفاء وهو امر ان وجد فلن يصلحه فصل الدين عن الدولة. فان كان الدين الذي هو للانسان كما يقول الكواكبي (اقوى وافضل وازع يعدّل سائر نواميسه المضرة ويخفف مرارة الحياة...)[1] لم ينجح في تعديل سلوك بعض الحكام ويمنع غلبة شهوة التسلط على سلوكهم فكيف ستستطيع الوجودية والسارترية والماركسية واللينينية الخ... ذلك؟ وان صح وجود هذا الفساد في الحكم (فان السبيل الى علاج هذا الفساد هو تبديل المصلحين بالمفسدين لا تبديل الشريعة والدين) كما قال مصطفى صبري في كتابه النكير على منكرى الخلافة[2].

---

(١) الكواكبي: ام القرى ص٧١.

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية... جـ٢ ص٨٢.

وقد كان ابن خلدون يرى ان انهيار الخلافة العباسية (لا يضـير باصالـة الخلافـة كنظام سياسي امثل يجب ان تهدف اليه الامة الاسلامية ابـدا لان انـهيار الخلافـة العباسية لم يكن نتيجة لآفة جوهرية لحقت بها بل لفساد القائمين عليها من الخلفـاء المتأخرين)[1].

ومن اية جهة نظرنا الى هذه الدعوة لا نجدها الا دعوة غربية مستوردة كـان هدفها الاساسي هو هدم مقومات الامة وعزلها عن عقيدتها التي تقوم (على امـتزاج الدين بالسياسة) اذ (يبين الاسلام ان السلطة لله وحده، وكل سلطة مشروعة فباسـمه ويجب ان تهدف الى اقامة العدل ورعاية الامة... ولم يميز بين ناحية دينية وناحيـة سياسية بل جعلهما متلازمتين)[2]. ولو عدنا الى مفهوم الايمان في الفكر الاسـلامي لوجدنا ان المسلم المؤمن لا يمكن له ان يفصل دينه عن دنياه بما فيها مـن انظمـة وقوانين ومظاهر للسلوك. فالايمان في الفكر الاسلامي على مراتب (واول مرتبـة من مراتبه التفكير وحصول العلم والمعرفة، ثم يلي ذلك حصول القناعة والتصديـق بهذه المعرفة، ثم الاعتراف بها علنا والاقرار بها باللسان. اما اعلى المراتب فـهي المرتبة التي عندها ينعكس الايمان على سلوك الانسان بكل ما يقوم به من اعمـال ليصبح ظاهرة سلوكية له... وعند هذه المرتبة الاخيرة تحصل ملكة الايمان التـي تجعل من ضمير الانسان حارسا على كل صغيرة وكبيرة في سلوكه... فهذه الملكـة هي التي تجعل من الايمان اداة وصل تصل الانسان بخالقه لتلقى هداه مـن جهـة وتصله بالحياة ليصوغ من هذا الهدى المتمثل بالتعاليم الالهية نماذج اجتماعية عملية وانظمة وقوانين عمرانية تنظم حياة الناس فيعمر بذلك الارض بالقيم العليـا التـي تلقاها من الذات العليا خالقة كل شيء، كما يعمرهـا ماديـا بالاعمـال الصالحـة والابداعات التقنية...)[3] التي سخرها الله له وهداه اليها.

---

(١) ماجد فخري: دراسات في الفكر الاسلامي ص٢٥٢-٢٥٣.

(٢) عبدالعزيز الدوري: تاريخ صدر الاسلام ص٣٧-٤٧.

(٣) مفيدة محمد ابراهيم: القيادة التربوية في الاسلام ص٥٤-٥٥.

فالاسلام (عقيدة وشريعة، فالعقيدة هي الاساس، والشريعة هي المنهاج... وهي شريعة ربانية المصدر منزلة في اصولها من عند الله والحكم بها والاحتكام اليها من لوازم الايمان ودلائل الالتزام بالاسلام)[1]. ويربط ابن الجوزي بي الدين والدنيا بحيث انه يرى ان (الدين لا يحصل الا بسلامة الدنيا)[2]. واعتبر ابن رشد الشرع (وازع اجتماعي... والسبيل الوحيد لصلاح البشر) لان (الشرائع مبادئ للسلوك الحسن في الحياة وللفضائل...)[3].

وفصل الدين عن الدنيا او الدولة ليست دعوة جديدة كما يعتقد المجددون!! حتى يكون من يرفضها في نظرهم رجعي ومتخلف!! فهي من الامور التي ناقشها المفكرون الاوائل وعارضوها لانها لا تتفق مع الشرع الاسلامي ولا تتفق مع المنطق والعقل. فقد قال التوحيدي في هذا المجال:

(ولما كانت الامور متلبسة بالدين والدنيا لم يجز للعاقل الحصيف، والمدبر اللطيف ان يعمل التدبير فيها من ناحية الدين فحسب ولا من ناحية الدنيا فقط، لان دائرة الدين الهية، ودائرة الدنيا حسية، وفي الاحساس احقاد لا بد من اطفاء ثائرتها، وصنائع لا بد من تربيتها، وموضوعات لا بد من اشالتها ومرفوعات لا بد من ازالتها... ومقومات لا بد من الصبر على عوارض ما فيها، وامور هي مسطورة في كتب السياسات للحكماء لا بد من عرفانها والعمل بها والمصير اليها والزيادة عليها، فليس الخبر كالعيان، ولا الشاهد كالغائب، ولا المظنون كالمستيقن...وهذا كله منوط بالتوفيق والتأييد الذين اذا نزلا من السماء واتصلا بمفرق السائس تضامنت احواله على الصلاح وانتشر على النجاح...)[4].

---

(١) القرضاوي: الاسلام والعلمانية ص٧٣.

(٢) ابن الجوزي: المصباح المضيء ص٩٤.

(٣) عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي ص٦٦٨.

(٤) التوحيدي: الامتاع والموانسة جـ٢ ص١١٧.

وقد اعتبر ابن تيمية فصل الدين عن الدولة مسألة فاسدة تضر بالامة اذ قال: (وهاتان السبيلان الفاسدتان، سبيل من انتسب الى الدين ولم يكمله بما يحتج اليه من السلطان والجهاد والمال وسبيل من اقبل على السلطان والمال والحرب ولم يقصد بذلك اقامة الدين... ان انفرد السلطان عن الدين او الدين عن السلطان فسدت احوال الناس... ان ولاية امر الناس من اعظم واجبات الدين...)[1].

وقد ناقش ابن خلدون السياسة العقلية التي من صنع البشر والسياسة الدينية التي وضعها خالق البشر ورجّح فيها كفة السياسة الدينية لانها تحقق حاجات الانسان الدينية والدنيوية فقال: انه لا بد للبشر في اجتماعهم (من وازع حاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً الى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة الى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب الحاكم... فالاولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة... والثانية انما يحصل نفعها في الدنيا فقط...) ويقول عن السياسة العقلية: (وقد اغنانا الله عنها في الملة ولعهد الخلافة لان الاحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة... فقوانينها اذا مجتمعة من احكام شرعية واداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية...) هذا غير انها ليست من وضع البشر الذين لا يهمهم الا المصالح الدنيوية وانما من وضع الشارع الاكبر الذي يعمل ما هو الاصلح لعباده (ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة)[2] بالاضافة لسعادتهم في الدنيا.

وعدم اتساق هذه الدعوة مع المنطق يجعل المرء يتساءل، ما وظيفة الدين ان هو فصل عن الحياة؟ وما حاجة الناس اليه ان لم يكن من اجل تنظيم حياتهم على اسس قويمة تصلح شأنهم؟ فالله سبحانه وتعالى غني عن عباده وما انزل الاديان الا لمصلحة البشر ولاصلاح شأنهم فما فائدة الدين ان هو انحصر في علاقة الانسان بربه متمثلا بعدد من الشعائر التعبدية؟ واين هو المختبر لاختبار مدى قدرة الانسان

---

(١) ابن تيمية: السياسة الشرعية ص١٣٨-١٤٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٣٠٢-٣٠٣.

على السلوك وفق متطلبات الشعائر؟ وكيف سيحاسب الانسان على اساس امتحان لم يتسنى له دخوله اصلا: وقد جرت العادة ان يقصد بالدين احد الاديان السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والاسلام، فيطلق على المتمسكين بهذه الاديان الدينيين وينعت غيرهم باللادينيين مع انه في الحقيقة لا يمكن ان يكون هناك انسان من غير دين، والا كيف سيحكم على الامور ويحدد الحق والباطل، والحلال والحرام، والصالح والطالح، والخطأ والصواب، والتي هي اساس السلوك الانساني في حياته الخاصة والعامة؟ الا يحتاج في ذلك الى معيار معين؟ وما هو المعيار؟ اليس هو مجموعة من القيم تشكل مبادئ للسلوك؟ وهذه المبادئ والقيم اما ان تكون مما تعارف عليه الناس فيما بينهم او حددها لهم بعض عقلائهم فتكون كما يسميها ابن خلدون سياسة عقلية او سياسة وضعية كما يطلق عليها البعض اليوم، واما ان يكون قد حددها رب العالمين وانزلها على الناس بواسطة رسله فتكون سياسة الهية او دين سماوي. وبالتالي فان الملحد او اللاديني هو ليس من لا دين له بل هو من لا يؤمن بالدين السماوي وانما يؤمن او يتبع احد الاديان البشرية كالماسونية او الماركسية او الفابية الخ... وقد ذكر ما يشبه ذلك الكواكبي اذ قال: (...ان الدين بمعناه العام هو ادراك النفس وجود قوة غالبة تتصرف في الكائنات والخضوع لهذه القوة على وجه يقوم في الفكر، هو امر فطري في البشر، وان قولهم فلان دهري او طبيعي هو صفة لمن يتوهم ان تلك القوة هي الدهر او الطبيعة فيدين لما يتوهم... لا يصح وصف صنف من الناس بلا دين لهم مطلقاً بل كل انسان يدين بدين اما صحيح، او فاسد عن اصل صحيح، واما باطل او فاسد عن اصل باطل... فالدين الصحيح كافل للنظام والنجاح في الحال والسعادة والفلاح في المآل...)[1].

ودعوة النهضويين بفصل الدين عن الدولة هي في حقيقتها دعوة الانسان لان يعمل من خلال عقيدتين او دينيين متعارضين احداهما سماوية يؤمن المتمسك بها ان الله خلقه وخلق كل شيء من حوله ووضع له شريعة تنظم حياته وتكون معياره في الحكم على الامور، والاخرى عقيدة وضعية وضعها هذا وذاك من البشر الذين قد

---

(1) الكواكبي: ام القرى ص٢٤-٢٥.

يكونوا من العقلاء او من غير العقلاء!! ومنهم من يخطــئ ومنــهم مــن يصيــب وبالاضافة لذلك فهي تتعدد بتعدد واضعيها وان كانت كلها تنطلق من فلسفة ماديـــة تنفي وجود الخالق وتعتبر الصدفة والتطور اساس الوجود، الا انها تختلـــف فيمـــا تفرضه من شرائع على اتباعها الى حد التناقض فكيف يمكـــن لانســـان ان يؤمـــن ويعمل بعقيدتين بينهما كل هذا التعارض في آن واحد؟ ان استحالة هذا الامر يـــدل عليه حال العالم المتمدن اليوم!! فطلب المستحيل هذا لا بد ان يؤدي الى ان يتغيــب الايمان باحداهما او بكليهما فيغيب بذلك المعيار ايا كان فيتوزع الـــولاء ويحصـــل التذبذب في السلوك وتكثر تناقضات الانسان الفرد، تناقض بين قوله وفعله وتنـــاقض في احكامه على الامر الواحد في ذات الوقت ومن وقت لآخر...الخ... مما لا يؤدي في النهاية الا الى نوع من الضياع ينعكس تشويشا وضياعا على حال الامة ككـــل. ولذلك نجد ان من يدعو للديمقراطية هو اول من يذبحها ومن يدعو للاشتراكية هـــو اول من يهدمها ومن يدعو الى الحرية هو اول من يهدرها. هذا غير ما يمكـــن ان تحدثه هذه الازدواجية في العقيدة من انفصام في شخصية الفرد تـــؤدي الـــى عـــدم الرضى عن النفس ينعكس في الغالب على المجتمع بشكل عدم رضى عنه وعن كل ما حوله فتكثر الانانية وتنعدم الرحمة والتراحم في المجتمع... وغير ذلك مما يعتبر من اكبر امراض المدنية الحديثة التي عملت على تقسيم النفس الانسانية والانتماءات الطبيعية بهذا الشكل اللاعقلاني.

وكان النهضويون العلمانيون يأملون بفصل الدين عن الدولة والدعوة للعلمانيـــة والعقلانية الخ... ان يضعفوا ايمان الفرد بدينه بحكم عدم التعامل به وبالتالي ينزعوا الدين من قلوب المؤمنين بالتدريج، حتى يصلوا بهم الى الالحـــاد وتـــرك العقيـــدة الاسلامية كليا. ولذلك نجد شبلي شميل مثلا يقول في احدى مقالاته موضحا هدفـــه: (واقل ما كنت انتظره، ان تحدث مقالتي في العقل تأثير يحدث فيه تفكيرا يزحزحـــه عن مألوفه المتقادم عليه ويطلق من عقاله المربوط فيه ويجيز له النظر في كل شيء وانتقاد كل شيء ويسهل له سبيل الارتقاء والخروج عما الفه بالعادة وتمكـــن فيـــه

بالوراثة وصار في اعتباره من البديهيات التي لا تقبل النقض لانا ان لم نطلق العقل من عقاله كيف نطمع بان نزحزحه من ضلاله)[1].

وقد اكد سلامة موسى هدف شبلي شميل في محاربة الغيبيات وعلى رأسها العقيدة الدينية الالهية اذ قال: كان شبلي شميل (رجلا كبير الذكاء محدود المعارف... وكان روحه الكفاحي للغيبيات... يصم، كل كتاباته. وذلك انه كان يدعو الى الحرية الفكرية في كلمات جريئة، واحياناً في وقاحة جريئة، كما كان يدعو الى نظرية-النشوء والارتقاء- أي التطور... وكان يسخر من الغيبيات في كلمات لا يجروء غيره على استعمالها). ثم يقول: (ولما صدرت مجلة المستقبل في ١٩١٤ ايدني وكان يكتب فيها بتوقيعه او بلا توقيع. وقد كتب فيها قصيدة فلسفية لم افهم غايته منها، والى الآن لم افهمها... ولكن مع ذلك كنت عند زيارتي له في منزله اجد التوراة امامه واجد آثار التقليب فيها. وكنت حين اداعبه بان مكافحته للغيبيات لا تتفق وهذا الغرام بالتوراة، كان يجيب بانه يحب بلاغة التوراة وان اهتمامه بها لغوي اثري)[2]. وحجته هذه بلا شك، مرفوضة ليس فقط لانه ليس من المعروف عن التوراة البلاغة اللغوية وخاصة انها مترجمة، ولكنه ايضا حتى ان صح هذا الزعم فان هناك الكثير من الكتب الادبية التي هي اكثر بلاغة منها او على الاقل لا تقل عنها بلاغة، خاصة من كتب العرب وغيرهم والتي يمكن ان تشبع اهتمام شبلي شميل الذي يعده البعض احد رواد نهضتهم!!! الادبية مما يرجح ان هدم العقيدة الاسلامية من دون غيرها من العقائد كان هو هدف شبلي شميل من محاربته للغيبيات ودعوته للعلمانية التي كرس لها معظم كتاباته. والتي منها مقالة كتبها في مجلة البصير عام ١٨٩٨ قال فيها:

(ايها القارئ العاقل والعاقل المتأمل... اعرني سمعك قليلا... اذ امعنت نظرك وسرت معي شوطا غير بعيد... لم تعد ترضى بالوقوف عند الحد الذي اوقفتك عنده

---

(١) شبلي شميل: فلسفة النشوء والارتقاء جـ٢ ص١٢٧.

(٢) سلامة موسى: تربية سلامة موسى ص٢٣٠-٢٣١

تعاليم وضعها الناس على ما بهم من الجهل والغواية وادخلوها عقلـــك بالارهـــاب والترغيب حتى رسخت فيه وصارت في اعتقاده قضايا مسلمة لا تقبل التغيـــير... وهي لو تفحصتها وجدتها اوهى من نسيج العنكبوت يمزقها التمحيص تمزيقا... بـل لو دققت البحث فيها جيدا لاستغربت جدا كيف يستطيع العقل ان يضل هذا الضـلال ويحيد عن الجادة المثلى، والامثلة التي امامه من الطبيعة كثيرة ترشده الى خـــلاف ذلك وتعلمه طريق الصواب. والطبيعة هي الكتاب الوحيد المنزل الـــذي ينبغـي ان يعول عليه وان نرجع في احكامنا اليه... فليس للانسان شرائع منزلة الا ما انـــزل جهله عليه من الخرافات والاوهام فشرائع الانسان من صنع الانسان وهـــي تابعـة لحاله من الانحطاط والارتقاء حقيقة توجب الفخار لقائلها بمقدار ما تجلب العار على مقاوميه)[1].

والدعوة الى فصل الدين عن الدنيا لم تكن بالنسبة لشبلي شميل الا جزءا مـــن دعوته الى الكفر والالحاد وترك العقيدة الدينية الالهية كليا وخاصة للمسلمين، مدعيا مثل غيره من دعاة العلمانية بان الدين هو سبب التخلف والمنازعات وبفصله عـــن الدنيا والحياة العامة يزول التخلف وتزول المنازعات والفواصل بيـــن الاوطـــان اذ يقول مثلا:

(ان مسألة الدين والوطن مبحث وعر المسالك... يقلق الافكار المطمئنة... مـــع ان المسألة بسيطة جدا ككل الحقائق، فالدين للآخرة والوطن للدنيا والذي يهم الانسان منهما في هذه الدار هو اصلاح حاله مجتمعا ولا ينكر ان غرض الشـــارعين كـل بحسب روح عصره كان هذا... جاءوا متفقين في الكليات مختلفين في المرغبـــات والجزئيات ولكنهم جميعهم لم يفلحوا بجعل العالم دينا احدا ووطنا واحـــدا فقـــامت الاختلافات بين الاديان والمذاهب والمواطن عراقيل في سبيل ارتقاء المجتمع فـرأى العلم ان لا سبيل الى ذلك الا بفصل الدين عن الدنيا فاخذ يبـــث تعاليمـــه الصادقـــة الحرة والناس يدخلون فيها افواجا... ثم راوا ان العلم كلما انتشر قلل الفواصل بيـــن

---

(١) شبلي شميل: فلسفة النشوء والارتقاء ص١١٨-١١٩

الاوطان... ورأوا مزايا التعاون فمالوا اليه... ورأوا ان الاتفاق ممكن وليس حلما فلم يعد يستهوي العقلاء تعليم آخر في مجتمعهم سوى تعليم العلم الذي اعتبروه انه الدين الحق الذي يستطيع اتيان هذه المعجزة التي عجز عنها سواه)[1].

وبعد ان يضلل الامة بادعائه ان الدين سبب المنازعات وان تركه واعتماد العلم والعلمية سيزيل هذه المنازعات والفواصل مما لم يكن هناك ما يدل عليه، انذاك، اذ كانت الدول التي تدعي العلم والعلمانية والعلمية والعقلانية يمزقها التنازع والتناحر اكثر من غيرها يعود فيؤكد الهدف الاسمى من نشر دعوة فصل الدين عن الدنيا والتي تتركز على قبول الاستعمار وحضارته من اجل سيادته في النهاية تحت شعار العالمية اذ يقول: اذا لم نفصل الدين عن الدنيا (... ولم نتوسع بالاوطان فصددنا بها عنا غوث المدنية بسدود التعصب ولم نقتبس من محاسنها ما يجعلنا شركاء في العمران متضامنين متساوين في المساعي واستمسكنا بما يجعلنا اعداء متخاذلين لا نستطيع ان نكون الا متفاضلين فماذا تكون النتيجة على المفضولين سوى خسارة الدين والدنيا معا...؟) ثم يقول: (كم قامت امة على امة ومملكة على مملكة... لعلة دينية او وطنية طفيفة كان يمكن حلها... وماذا يمنع اعتبار العالم كله وطن الانسان الاكبر...)[2].

ولكن دعاة فصل الدين عن الدنيا هؤلاء اغفلوا لعدم ايمانهم، ان الدين فطرة في الانسان وانهم ان كانوا قد استطاعوا اضعاف سيطرة الدين على حياة الناس وسلوكهم بقوة الاحتلال الاجنبي وبوسائل اخرى مختلفة الا انهم لم يستطيعوا نزعه من قلوبهم تماما. بل العكس فكلما ازدادوا في دعوتهم جنوحاً الى العلمانية كلما ازداد اكثر الناس التصاقا بدينهم حتى نجد ان الكثير من الشباب الذين انساقوا وراء الدعوات العلمانية واحزابها وتجمعاتها المختلفة ما ان يتقدم بهم العمر ويختبروا الحياة ويكتشفوا حقيقة هذه الدعوات وزيفها وعجزها عن تحقيق شعاراتها حتى

---

(1) ذات المصدر ص٢٩٧-٢٩٨

(2) ذات المصدر

يعودوا الى دينهم تأئبين نادمين على ابتعادهم عنه اساسا لاعنين، من ساقهم الى ذلك السلوك الضال. مما يزيد من عوامل عدم الرضا في المجتمعات فتنقسم على نفسها وتتفرق كلمتها وتنشغل بالخصومات عن العمل الجاد نحو خيرها وصلاحها. وكلما ازداد شد العلمانيين نحو العلمانية ازداد شد المتدينين نحو الطرف الآخر فيحدث التطرف وينعدم الاعتدال والتعقل فيضيع الحق بين التطرفين.

وكون المجتمعات العربية اليوم تنفصل فيها الدولة عن الدين الاسلامي والذي يغيب عن معظم الممارسات الرسمية، لا يعني ان الامر قد حسم لصالح العلمانية فكما كان الدعاة، ولايزالون، يدعون للعلمانية وفصل الدين عن الدولة فقد كان ولا يزال هناك دعاة يعارضونهم ويفندون دعواهم وحججهم معتمدين الاصول الاسلامية. ويؤكدون على ان الاسلام (دين ودولة... لانه نظم شئوون الدين والدنيا جميعا، فكما تكلم عن الله والملائكة والانبياء والجنة والنار والعبادات وغيرها من شؤون الدين، تكلم كذلك عن البيع والشراء والزواج والطلاق والميراث وغيرها من شئوون الدنيا)[1]. فالاسلام (يشكل منظومة متكاملة تتماسك اجزاؤها وتتفاعل فيما بينها لتشكيل وحدة عضوية متحركة حيوية لا تجعل من الممكن ان يفهم أي جزء على حدة)[2] بعيدا عن الجزء الآخر. فالدين والدولة او الحياة الدنيا والحياة الآخرة تنتظمها عقيدة الاسلام لتجعل منهما كل موحد مترابط ، فالحياة الدنيا هي السبيل للآخرة وحياة الآخرة هي الغاية القصوى للكفاح المشرف في هذه الدنيا. لا لتقعد الانسان عن الكفاح او تحبط همته كما يرى البعض بل لتحفزه وتثير همته في الكفاح من جهة وتهذبه وتحد من انانيته وماديته وكل ما يشوه هذا الكفاح ويجعله وبالا على الانسان وعلى الانسانية من جهة اخرى. فالعمل في الاسلام ايا كان ولاي غرض موجه سواء كان موجها للعبادة ام للمعاملة ام للمجاملة، وسواء كان لطلب العلم والمعرفة او لطلب الرزق والجهاد في سبيله او لتنظيم شؤون حياته لا بد ان يكون عملا صالحا. والعمل الصالح هو ذلك العمل الذي يوجه بهدي الله والايمان به، وهو

---

(١) احمد شلبي: مقارنة الاديان، الاسلام ص٢٤٢

(٢) منير شفيق: الاسلام ومعركة الحضارة ص١٠١

العمل الذي يعكس القيم الروحية المنبثقة من التقوى والايمان بالله، والا اصبح العمل ضلالا لا ينسجم والايمان بالله ولا يتسق مع الغاية من وجوده في هذه الدنيا التي هو مكلف باعمارها ماديا ومعنويا. فالقول والفعل كما يؤكد الغزالي يجب ان يكون (موافقا للشرع اذ العلم والعمل بلا اقتداء بالشرع ضلالة)[1].

وكما اكد النهضويون المتأوربون على فصل الدين عن الدولة على اعتبار ان الدين ينظم حياة الانسان في الآخرة ويحدد علاقته بربه ولا شأن له في تنظيم علاقة الفرد بالآخرين في هذه الحياة الدنيا. متذرعين بحجة انه ان كان اعتماد الدين اساسا لتنظيم علاقات الانسان في هذه الحياة الدنيا قد صلح في فترة من الزمان، مضت وانقضت فهو لا يصلح ان يكون اساسا لتنظيم العلاقات الانسانية في هذا الزمان!! فقد اكد دعاة الاسلام على (ان الفصل بين الجانب الديني والجانب الدنيوي) هو اقتباس سقيم عن الحضارة الاوربية ويقوم على (مفهوم العقيدة المسيحية) في اوربا وتطبيقه على الاسلام والمسلمين ما هو الا تشويه للاسلام (والغاء لشخصية الجماعة الاسلامية التي لا تقتصر الرابطة بينها على الجانب الروحي بل تتعداه الى سلسلة من العلاقات الخلقية والسياسية التي حددها القرآن...)[2] وعلى ان الاسلام، كما اكد عبدالعزيز جاويش، (صالح لكل زمان وهو صالح لكل امة وكل جيل ومصلح لكل من استمسك بهديه المبين) وعلى ان (الاحكام النظامية والنواميس التعاملية التي استنبطها الفقهاء عبر العصور من قواعد الدين الاصلية تشهد بانه اكثر الاديان ملاءمة للطباع...)[3].

وقد عرّف المغربي الدين بانه (وضع الهي تصان به مصالح الانسان منفردا ومجتمعا- ومصالح الانسان هذه ترجع الى امرين: مصالح تتعلق بادارته وسياسته باعتبار كونه امة، ومصالح تتعلق باحواله الشخصية والعائلية والاجتماعية باعتبار

---

(١) الغزالي: ايها الولد ص٢٧

(٢) ماجد فخري: دراسات في الفكر العربي ص٢٣٦

(٣) فهمي جدعان: اسس التقدم ص٣٥٤

كونه فردا من امة...)[1] ولذلك يرى علال الفاسي (انه لا يجوز حصر الدين في ميدان بعيد عن الحياة الاجتماعية واستبعاد الشريعة من مجال احكام هذه الحياة) وقد اعتبر الفاسي الافكار (التي تسربت مع عمل عبدالرازق حين زعم ان الاسلام خال من اصول الحكم وان النبي كان مجرد داعية دين اخلاقي لم يتدخل في شؤون الدولة ولا بنائها- وفصل الدين عن الدولة وخلق دولة داخل دولة هي اسرائيليات جديدة) لا يجوز الترويج لها ولا ادخالها الى عالم الاسلام لانها لم تكن سوى نتيجة لتطور المسيحية في الغرب (ووقوف الكنيسة الى جانب الاقطاعية... وغير ذلك من مبررات لا تنطبق على العالم الاسلامي ولا وجود لها في الاسلام)[2] (الذي لا يفصل الدين عن الدولة ولا الدين عن العمل ولا العلم عن الاخلاق فالدولة والعلم والاخلاق والعمل يجب ان تتفاعل كلها وتتحد وفق قوانين طبيعية واخلاقية ذات مصدر الهي...)[3] والذي هو (الاسلام) كما يرى حسن البناء، (نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا: فهو دولة ووطن وحكومة وامة، وهو خلق وقوة ورحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون او علم وقضاء، وهو مادة وثروة او كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة او جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة...) ولذلك يرى ان (من ظن ان الدين او العبادة او الاسلام لا يعرض للسياسة او ان السياسة ليست من مباحثه فقد ظلم نفسه وظلم علمه بهذا الاسلام)[4].

هذا غير ان الاسلام اساسا ليس فيه سلطة دينية بالمعنى الذي تعنيه الكنيسة الاوربية، اذ ليس فيه كما يقول محمد عبده نفسه والذي دعا فيما دعا اليه الى فصل الدين عن السلطة الدينية!!! (سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة الى الخير والتنفير من الشر، وهي سلطة خولها الله لادنى المسلمين يقرع بها انف اعلاهم، كما

---

(1) ذات المصدر ص٤٣٥-٤٣٦

(2) ذات المصدر ص١٠٣-٢١٥

(3) انور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص١٤٣

(4) ذات المصدر

لاعلاهم يتناول بها من ادناهم)[١] . والخليفة او السلطان او ولي الامـــر وان كـــان وجوده امر ضروري لاقامة الحق والعدل وتنظيم امور العباد وفق الشـــريعة التـــي وضعها الله سبحانه وتعالى للبشر حتى لا تكون الامور فوضى الا انه بعد الرســـول ﷺ وبعد الخلفاء الراشدين من صحابة الرسول ﷺ لم يعد للخليفة دور ديني، بمعنـــى ان يحلل ويحرم الخ، سوى حماية الدين وتطبيق شريعته تماما كمـــا عليـــه حمايـــة مصالح المسلمين الاخرى والتي لا تنفصل باي شكل من الاشكال عن الدين اصـــلا. فعندما اتسعت الامبراطورية الاسلامية وتشعبت مظاهر الحياة فيـــها مـــن جميـــع النواحي وبعدت الشقة الزمنية بين الرسول ﷺ وعصر خلفاء النصف الثـــاني مـــن القرن الاول للهجرة وبعده ولم يعد يأتي من الخلفاء ممن عاصر الرسول ﷺ او سمع منه مباشرة صار الناس (يستغنون عن الخلفاء في تأويل امور الدين وفـــي تفســـير احكام الدين مما له صلة بالدين كشرط الخلافة وشروط البيع والشراء... ونشأ فـــي المسلمين فقهاء يتولون ذلك لانفسهم ولغيرهم...)[٢] من العامـــة ومـــن الخاصـــة، فالخليفة عند المسلمين (ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحي، ولا من حقه الاســتئثار بتفسير الكتاب والسنة وعلى الرغم من انه يجب ان يكون مجتهدا وعلى علم وفـــهم بالاحكام ليميز بين الحق والباطل من اجل اقامة العدل ولكن لا يخصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالاحكام ولا يرفعه الى منزلة في هذا المجال اعلى من غـــيره مـــن طلاب الفهم والعلم، وانما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الاصابة في الحكم فـــهو لا يتلقى الشريعة من الله كما هو الحال في بعض الاديان الاخرى)[٣] . ولذلك فان جمع السلطة الدينية والدنيوية في شخص الخليفة لا تعني انه واضع احكام الديـــن وانمـــا تعني ان يدافع عن الدين ويصونه من البدع والخرافات وينفذ احكامه التي وضعـــها الشارع الاكبر عز وجل لتحقيق الحق والعدل وتنظيم حياة الامـــة علـــى اساســـها،

---

(١) عمارة: الاعمال الكاملة، محمد عبدة جـــ١ ص١٠٤

(٢) عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي ص٢١٥

(٣) عمارة: الاعمال الكاملة، محمد عبدة، جـــ٣ ص٢٨٧-٢٨٨

فالخلافة كما يعرّفها ابن خلدون هي في (الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به)[1] .

وخلاصة القول فان دعوة فصل الدين عن الدولة او عن الحياة او عن الدنيا، ايا كان الاصطلاح المستخدم، لم يجد اكثر المسلمين فيها الا خطة اوربية تهدف الى اضعاف الامة وتفريق كلمتها وفصل روحها عن جسدها ورأسها-الحاكم-عن بدنها-المحكومين- ليسهل الانقضاض عليها. فالعلمانية كما يقول محمد عمارة (وافد غربي... استلهمها نفر من مصلحينا عندما ظنوا ان الاسلام هو ما قدمته لهم المؤسسات التراثية التقليدية التي عاشت وماتت في اطار التصورات الفكرية لعصور المماليك والعثمانيين... وهذه العلمانية كما تبلورت في الحضارة الغربية تضع العلم مقابلا، بل نقيضا، للدين وذلك لنشأتها وتبلورها في بيئة حضارية شهدت صراعا شهيرا ومريرا بين الدين كما قدمه اللاهوت الكنسي الكاثوليكي في اوربا وبين العلم الذي تأسست على قواعده النهضة الاوربية الحديثة)[2] . وبالتالي فليس لها في الاسلام اصل ولا في حياة المسلمين مبرر. مما جعل الخلاف بين العلمانيين والاسلاميين مستمرا وسيضل كذلك مما يعرقل مسيرة الامة في تحقيق التقدم الحقيقي مع العزة والكرامة معتمدة ذاتها ومقوماتها. وهو امر ما كان ليحدث لولا هذه الدعوة الضّالة التي كانت ولا تزال تحضى بتأييد المتأوربين. رغم انها لم تحقق ايا من احلامهم لا في اوربا ولا في البلاد العربية والاسلامية!! ولذلك كانوا ولا يزالون يدعون لها ويؤكدون عليها، وفرضوها ويفرضونها كلما تسنى لهم ذلك. ومن اجلها واجل الدعوات الاخرى السابقة الذكرصاروا دعاة الى الثورة والثورية وهي الموضوع الذي ستتناوله الصفحات التالية.

---

(1) ابن خلدون: المقدمة ص١٩١

(2) محمد عمارة: التراث في ضوء العقل ص١٨٢



الفصل الخامس

الثورة والثورية

(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب)

صدق الله العظيم

الانفال: ٢٥

ليس من اغراض هذا العمل شرح مفهوم الثورة بالتفصيل، ويكفي القول بانـــها تقوم على اساس (ان التغييرات الضرورية لا يمكن تحقيقها الا بقلـــب المؤسســـات القائمة والبناء الاجتماعي القائم وذلك لانه في نظرهم-الثوريون- ان من يملك سلطة التغيير لا يمكن ان يخاطر بسلطته طواعية ويجري تغييرات اساسية في النظـــام...) وبالرغم من عقم هذا الاساس الذي يفترض ان التغييرات لا بـــد ان تكـــون ضـــد مصالح من يملك السلطة وتمثل خطرا على سلطته، وبالرغم من التجارب الكثـــيرة عبر التاريخ والتي اثبتت، سواء على صعيد العالم العربي او غيره، فشل هذا الاتجاه في الاصلاح واحداث التغيير لان (الثورة غير الناجحة كما يـــرى البعـــض تقـــوي الوضع الراهن والناجحة تؤسس وضعا راهنا جديدا يشبه مع مرور الوقت ســـابقه. وتتحول جهود الاصلاح، مع الوقت ايضا لتصبح هدفا بدلا من ان تكون وســـيلة)[١] لاصلاح الاحوال. الا ان الدعوة للثورة على النظم القائمة استمرت. وان كان بريقها قد خف في بعض الدول الاوربية المتقدمة بعد ان ادت دورها في ايصـــال مراكـــز

---

(١) Schaller. The change agent.p.54.-55

القوى الجديدة في المجتمع الى مواقع الفعل الحقيقية-والسلطة والتسلط على الطريقة الحديثة- فأستبدلت بلعبة الديمقراطية الى حين!! الا ان بريقها في البلاد النامية والمتخلفة لا يزال ساطعا!! فالثورة الفرنسية، زعيمة الثورات والقدوة للمفكرين الثوريين العرب، والتي قامت على تمجيد الحرية والعدالة الخ...اطلقت سراح سبع سجناء فقط كانوا في الباستيل بكل تلك الضجة التي اقامتها ولم تقعدها الا بعد دهر طويل، ولكنها ادخلت مقابل ذلك وباسم الحرية! المئات والالآف في سجون اخرى اقيم القسم منها خصيصا لاعداء الثورة!! وبالتالي اعداء الانسانية جمعاء!!! وعلى رأسهم رجال الدين، هذا غير الالآف التي قتلت[1]. وقد قلدتها الثورات العربية بعد ذلك وتبعتها خطوة بخطوة وحرفا بحرف، وبعد ان كانت السجون قبل موجة الثورات هذه تختص فقط بالقتلة والمجرمين وقطاع الطرق، فتحت السجون ابوابها بعد الثورات، وشيدت سجون جديدة خاصة لتضم خيرة الناس من اتباع هذا الفكر او ذاك وكل ذلك باسم الحرية والثورية والديمقراطية! والاشتراكية التي جاءت بها الثورات لتقضي على الفوارق الطبقية وتحقق العدالة الاجتماعية! والتي قضت فعلا على عدد ضئيل جدا من اصحاب الثروات المشروعة في الغالب لتكّون بدلا منهم طبقة من الثوريين تحوى اعدادا ضخمة من اصحاب الملايين غير المشروعة من المرتشين وذوي العمولات من الموظفين والمسؤولين والمهربين الخ... والذين لو قورنت ثرواتهم المنهوبة هذه وحياتهم المترفة بثروات اغنياء ما قبل الثورات وترفهم لاعتبر الأخيرين من متوسطي الحال او ممن دون ذلك. وتحولت الثورات بذلك الى اهداف تنتهي مهمتها بايصال مجموعة جديدة من الطامعين الى سدة الحكم. وبغض النظر عن كل سلبيات الثورات في اوربا نجد ان مفكري النهضة اقتبسوا فكرة الثورة من اوربا وصاروا دعاتها وعلى راسهم الافغاني وعبده والكواكبي واضف اليهم من تريد من اسماء الثوريين الذين لا عد لهم ولا حصر! حتى يومنا هذا، فنجد عبده يكرر مقولة الافغاني وكأنه قد اكتشف المعجزة التي

---

(١) Time, May, 1989

ستصلح حال الامة! فيقول: (... كأن حاكما مطلقا يعطي الحرية للامة من تلقاء نفسه انما تتشيد الحرية بيد الامة لا بيد الحاكم...) مع انه في ذات الوقت كان يطلب من المصريين حسن السيرة والسلوك حتى يتعطف عليهم كرومر والانكليز باعطائهم الحرية!!! وهكذا انتشر مفهوم الثورة كعمل عنيف موجه ضد الحاكم الوطني وضد النظام السياسي الوطني القائم في البلاد العربية والاسلامية. وتطور بعد ذلك حتى صار في نظر النهضويين الاسلوب الوحيد لحل كل المشكلات ايا كانت، حتى المشكلات الصغيرة والعابرة. فنجد مثلا منيف الرزاز يقول: بعد ان يعدد مشاكل الطفولة ومشاكل الشباب والشيوخ، ان حتى المشاكل (العابرة كمشاكل الطفولة المشردة والشذوذ الخلقي والتسول وما يشابه ذلك فكلها مشاكل قابلة للحل اذ تغير النظام السائد وغير قابلة للحل، مهما جاهدنا في ظل الانظمة الحاضرة)[1]!!

النظام والثورة

ومفهوم النظام كما اورده الاستاذ الرزاز وكما يستخدمه كثير من السياسيين والمفكرين النهضويين في كتاباتهم يفرض على المرء سيل لا ينتهي من التساءولات ومنها: ما هو النظام؟ وما يقصد به؟ فهل هو في نظرهم طاقم من الافراد يتولون تسيير دفة الحكم؟ ما موقع الامة (العامة او الرعية او الشعب او الجمهور) من هذا النظام؟ الا تعتبر جزءا لا يتجزأ منه؟ وان لم تكن الامة جزءا من النظام الذي يريدون قلبه، واقتصر النظام على هذه المجموعة الصغيرة الحاكمة، فما قيمة ان تتغير هذه المجموعة الصغيرة التي هي اساسا قد جاءت من هذه الرعية؟ لانها ان استبدلت فان من سيحل محلها ستكون مجموعة اخرى من ذات الرعية، وكيفما تكونوا يول عليكم فما فائدة التغيير هذا؟ وماذا يمكنه ان يحقق؟ وان كانت الامة هي جزء من النظام فماذا عن شخصيتها التي كونها تاريخ طويل من الخبرات ومجموعة من القيم والعقائد والعادات والتقاليد التي رسخت مع الزمن؟ الا تدخل هذه

---

[1] منيف الرزاز: معالم الحياة العربية

في اعتبارات النظام؟ وان اعتبرت الامة بما تملك من شخصية عميقة الجذور جزءا من النظام فهل يمكن تغيير هذه الشخصية وما يترتب عليها من مظاهر سلوكية بطفرة ثورية عنيفة توصل مجموعة من الافراد، ايا كان اخلاصهم وايا كانت صلاحيتهم للمسؤولية الى سدة الحكم؟ ثم هل تصلح الامور باصلاح الحكام وحدهم؟ ولو كانت الدنيا تصلح بصلاح الحكام لصلحت الدنيا عندما حكم علي رضي الله عنه وهو من لا احد يشك في حكمته واخلاصه وصلاحيته للحكم ومع ذلك كانت فترة حكمه القصيرة فترة عصيبة بالنسبة للمسلمين، حيث تقاتل المسلمون لاول مرة فقتل المسلم اخاه المسلم وحاربه بدلا من محاربة الكفار وفتح بلادهم ونشر الاسلام فيها. وهو نفسه اعترف بذلك وبرره بشكل عقلاني في جوابه للتلمساني. اذ قال له عبيدة التلمساني: (يا امير المؤمنين ما بال ابي بكر وعمر اطاع الناس لهما والدنيا عليهما اضيق من شبر واتسعت عليهما ووليت انت وعثمان فلم يكونوا لكما فصارت عليكما اضيق من شبر؟ فقال: لا ن رعية ابي بكر وعمر كانوا مثلي ومثل عثمان ورعيتي اليوم مثلك وشبهك)[1]

ثم ما العمل عندما يفشل النظام الجديد! في حل المشكلات بعصاه السحرية هذه والتي تتكون من بيان رقم واحد ورقم اثنين... ورقم الف، ان تسنى له ذلك الخ... وبالقانون الثوري هذا والقانون الثوري ذاك؟ وما العمل ان هو اوجد من خلال حله الثوري للمشكلات القائمة مشكلات جديدة؟ وهو كثير ما يحصل، بل لا بد ان يحصل، فهل من اللازم ايضا على هذا الاساس تغيير النظام مرة اخرى؟ وهكذا الى ابد الآبدين؟ وما اثر هذا، ان حصل على المجتمع ومدى تطوره الحقيقي؟ ثم ان كانت كل مشكلة كبيرة او صغيرة! لا يمكن حلها في نظر المفكرين الثوريين الا بالثورة على النظام وتغييره فمن اين يأتي المجتمع بكل هذه النظم البديلة؟!! فهل للامة او للمجتمع، في نظر المفكرين دعاة الثورة، خزانات تحوي غيارات انظمة تستبدل احدها بالآخر كلما بلى الاول كما يستبدل الانسان الفرد الثوب البالي، او كما

---

(١) ابن الازرق: بدائع السلك في طبائع الملك ص٨٠-٨١

يستبدل المفكرون الثوريون الاطقم المستوردة بحسب آخر صيحات الموضة؟ ولذلك استوردوا لها كل هذه الغيارات الاوربيــة مثــل الماســونية والفابيــة والســيمونية والماركسية واللنينية والماوية... الخ لتظهر الامة كل يوم بشخصية مختلفة تتناســب والحلة الجديدة او الغيار الاوربي الذي البسها اياه الثوريون اصحــاب هــذا الفكــر الاوربي او ذاك من خلال هذه الثورة او تلك؟!! ما هو النظام فــي نظــر مفكــري الثورات حتى يدعون الى تغييره كلما وجدت مشكلة تتطلــب حــلا او كلمــا راق لاحدهم او لعدد منهم ذلك؟ او كلما طمح بعضهم الى تبوء مراكز وظيفية اعلــى او طمع بثروة اكبر!!!؟ وهل تكوين النظم بهذه السهولة التي يتعاملون بها معــها مــن خلال دعواتهم هذه؟ حتى ان المجتمعات ان سارت وفق دعواتهم لصار فيــها مــن الانظمة بعدد افرادها، او اكثر لان البعض منهم يغير انتماءاته عدة مرات بحســب مصالحه... او نضجه!!! فما هو النظام في نظرهم حتى جعلوا حل المشكلات ايــا كانت مرهون بالثورة عليه وتغييره بالقوة؟

ليس هنا مجال شرح مفهوم النظام وماهية مدخلاته ومخرجاته فقد كــثر فيــه الشارحون والمتنظرون وان كان على الورق وللاغراض الاكاديمية فقــط!! وانمــا ساكتفي بذكر ما جاء على لسان كوستاف لوبون، احد مستشرقي اوربا التي تبــهر النهضويين بافكارها، من خلال دعوته للاوربيين للكف عن العمل على تغيير النظام الاسلامي في الدولة الاسلامية. اذ قال:

(تختلف النظم السياسية والاجتماعية، لاكثر الامم التي يعني بها التاريخ، اختلافـا عظيما بين امة واخرى، ويدل امعان النظر ان قيمة النظم امر نسبي، فما صلح منها لامة لا يصلح لامة اخرى في الغالب... ان نظم الامم عنوان مشاعرها واحتياجاتــها الموروثة التي هي وليدة ماضي طويل، وانها لا تتبدل، كما يشاء الانسان، حقا روى المؤرخون وجود مشترعين، كموسى وليكورغ ونوما وغيرهم، فرضوا على اممــهم شرائع ابتدعوها، ولكن الواقع غير ذلك، فلم يكن لمشرع مثل تلك القــدرة التــي لا تتفق لاقوى الفاتحين واعنف الثورات الا لوقت قصير، فاذا اكرهت امة على قبــول نظم تختلف عن نظمها كان ذلك من قبيل ارغام حيوان على تبديل وضعه الطبيعــي

حينا من الزمن، واذا ما زال عامل القهر عاد الماضي الى مجراه وظهر ان الامر لم يعد حد تغيير بعض الكلمات. وهناك حوادث تاريخية كثيرة تظهر في بدء الامر مناقضة لما تقدم فيجب درسها درسا حقيقيا ليرى زوال هذا التناقض، خذ العرب مثلا تراهم قد فرضوا انظمتهم على امم مختلفة، ولكنك اذا بحثت في امم آسية وافريقية التي سارت سنة العرب علمت ان النظم السابقة لاكثر هذه الامم لا تختلف عن نظم العرب الا قليلا... والعرب هم اعقل من كثير من اقطاب السياسة المعاصرين، كانوا يعلمون جيدا ان النظم الواحدة لا تلائم جميع الشعوب، فكان من سياستهم ان يتركوا الامم المغلوبة حرة في المحافظة على قوانينها وعاداتها ومعتقداتها... ولا تتبدل النظم وهي عنوان احتياجات الامة ومشاعرها التي نبتت فيها، الا بتبدل تلك الاحتياجات والمشاعر. . اثبت التاريخ انها لا تتحول الا بتعاقب الوراثة ومن ثم ببطء عظيم...)[1]

التقدمية والتجديدية والثورة

والثورة بالمفهوم الذي دعا اليه مفكروا النهضة على اساس تغيير الوضع الراهن وفرض الحلول للمشكلات القائمة بالقوة ليس هو بالامر الجديد والحديث والتقدمي كما يرى المفكرون حتى صاروا يتنافسون على الانتماء الى هذه التقدمية او التجديدية!! بل هو قديم قدم وجود الانسان على الارض. فقد ثار قابيل على النظام السائد آنذاك وقتل اخاه هابيل وفرض الحل الذي يراه ويحقق مصلحته، للمشكلة القائمة آنذاك. وهكذا سار تاريخ الانسانية بعد ذلك قتل وثورات!! ومنافسات على السلطة ايا كانت وفرض الحلول باسم الشعوب!! التي كانت ولا تزال ابعد ما تكون عن ما يحدث حولها وباسمها! وما الثورة التي خلدّها شكسبير في احدى مسرحياته، على قيصر روما الا واحدة من هذه الثورات. ولو تتبعنا ما حصل فيها منذ عشرات القرون لوجدنا انه هو ذاته ما حدث في الثورة الفرنسية، ام الثورات،

---

(1) حضارة العرب ص٣٨١-٣٨٢

وفي غيرها من الثورات وما يزال يحدث حتى اليوم. وفي كل مكان تحـــدث فيـــه ثورة. والذي يتلخص وباختصار شديد في:

١. تستهوي فكرة السلطة وتولي المسؤولية فردا او مجموعة افراد.

٢.فترصد المشكلات والتي لا يخلو منها مجتمع ايا كان تقدمه وصلاحه. وتحمـــل الحاكم وحده او المجموعة الحاكمة، وزرها.

٣.فتبدأ العمل من اجل اثارة عدم الرضى كخطوة اولى للانقضاض علـــى الحكـــم والاستيلاء عليه باسم الوطنية والاخلاص!! فتنشر الاشاعات التي قليلـــها حـــق وكثيرها باطل للتحريض على من في السلطة، متسلحة بالغالب بشعارات الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة... الخ والتي كلها مهدورة في الوضع الراهن.

٤.فتلتف حول الداعين مجموعات متناقضة الاهـــداف تســـتهويهم فكـــرة الثـــورة والسيطرة على حكم البلاد، كل لغرض في نفسه يخفيه مرحليا عـــن الآخريـــن. وليس الامر كما يصوره البعض وهو ان المشكلات هي التي تحفز او تســـتدعي الثورة وذلك لان معظم الثورات لم يكن لها هدف محدد او نظرية تنطلق منـــها، مثل ثورة تموز ١٩٥٢ في مصر والتي يكاد يجمع من كتب عنها على انها لـــم تكن لها نظرية واضحة محددة، بل كان (من العسير تحديد فكر متكامل للثـــورة عند قيامها فهي لم تكن تملك عندئذ نظرية فكرية محددة وانما ملكت مجموعـــة من الاهداف العامة المجردة من أي مضمون اجتماعي محدد)[١]. ولو تفحصنـــا الكيفية التي تم ويتم بها تشكيل الاحزاب لوجدنا انـــها تتشـــكل بقـــرارات مـــن الخارج-للسرية بشكل خاص- او من الداخل-للعلنية- لمواجهة هذه التي تشكلت بقررات من الخارج من اجل لعبة الديمقراطية في ظروف معينة. وبعد ان يتـــم تشكيل هذه الاحزاب تضع لنفسها برامجا واهدافا. ومعظمها تكون الثورة احـــد اهدافها المعلنة او المستترة. وهذه، مثلا الاحزاب الشيوعية في العـــالم العربـــي

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٣١٨

فهي قد تشكلت وليس في البلاد العربية اهم مقومات الشيوعية وادواتـــها وهـــي وجود طبقة عاملة مضطهدة بشكل يحفزها على الثورة وتولي الســـلطة ولذلــك ركزوا في دعوتهم على التصنيع حتى وان كان صوريا وضد مصلحة البـــلاد لا لشيء كما مر ذكره الا لايجاد هذه المشكلة وتبرير الثورة بعد ذلك مما يدل على ان فكرة الثورة والانقضاض على السلطة قد جاءت في فكرهم قبل المشكلة!!

٥. وبعد اثارة عدم الرضا والاستياء وتهيئة الفرصة يتم الانقضاض علـــى الســـلطة فيتخلصوا من المجموعة الحاكمة بالعنف في غالب الاحيان وبالقتل والذي شـــمل في الثورة الفرنسية مثلا حتى خدم الملك واقربائهم.

٦. فلا تلبث بعد ذلك ان تظهر اهداف الثورة والثوار على حقيقتها فيتنافسون علـــى السلطة ويقتتلون ويصفي بعضهم البعض الآخر. ومـــن هنـــا جـــاءت المقولـــة المشهورة (ان الثورة تأكل ابناءها) الى ان تصير الامور الى احدهم، وهو فـــي الغالب اشرسهم- فينفرد بالسلطة ويستبد بالحكم كما فعـــل انطونيـــو ونـــابليون وستالين وماو الخ... ليبدأ من تبقى من صغار المتنافسين ممن حرم من ان يدلـــي بدلوه في التسلط وحرم بذلك من غنائم الثورة، وفلت من التصفيات ليبدأ العمـــل من جديد في التحريض واثارة عدم الرضى وتكوين احزاب وتجمعـــات ســـرية جديدة تناهض الحكم القائم، فيزداد الحاكم ومجموعته بالمقابل اســـتبدادا وعنفـــا للقبض على السلطة بيد من حديد فتعاد التمثيلية من جديد ويصبح ثـــائر الامـــس خائنا ومستبدا وعدوا للشعب!! كما حدث لروبسبير الذي اعدم في ذات الموقـــع الذي اعدم فيه الملك وكثير من النبلاء وغيرهم من ابنـــاء الشـــعب الفرنســـي!! وبذات المقصلة التي اعدم بها هؤلاء. وقد اتهم بشتى تهم الخيانة والوحشية حتى اشيع عنه انه كان ساديا يتلذذ برؤية المقصلة وهي تقطع رؤوس الفرنسيين مـــع ان بعض الباحثين يؤكدون (ان عينه لم تقع على المقصلة اللعينة حتى يـــوم ٢٨

تموز عام ١٧٩٤ عندما قطعت رأسه هو)[١].

وقد كان دائماً للاقليات دورا في الثورات يستغلونها لعلهم يستفيدون مما يحدث خلالها من فوضى، في تحقيق مصالح خاصة لهم. وان لم يحققوا شيئاً منها فعلى الاقل تشغل الاخوة بالاقتتال فيغضوا الطرف عما تفعل هذه الاقليات مما يضر بالمصلحة العامة. وكان لليهود وللماسونية التي تبنوها دوراً في معظم الثورات التي حدثت في اوربا وفي غيرها من البلاد. وان كنت لا اريد الترويج لما جاء في كتاب برتوكولات صهيون من المعلومات التي ان لم يجري التعامل معها بحذر قد تكون وسيلة لتعجيز الآخرين واحباط جهودهم للوقوف بوجه الصهيونية، بما تضفيه هذه البروتوكولات من عبقرية وحكمة على مخططات الصهيونية التي حققت انقلابا في العالم لمصلحتها وحدها، الا اننا لا يجب علينا في ذات الوقت التقليل من شأن دور اليهود والصهيونية والمؤسسات الفكرية-وغير الفكرية- التي تسخرها لمصالحها والتي جعلت لها دورا في كثير مما حدث من ثورات وانقلابات وتغييرات في اوربا، وفي عالمنا العربي والاسلامي لتحقيق حلمها في فلسطين، فلم يكن من الصدف فقط ان تحدث ثورة في كل بلد اوربي بعد قليل من اضطهاد ذلك البلد لليهود فيه!! فقد اضطهد اليهود في القرن السابع عشر في انكلترا مما ادى الى طرد اعداد كبيرة منهم من البلاد، فجاء بعد ذلك بقليل كرومويل بثورته ليعيدهم وينتقم من اهل البلاد ويضطهدهم اشد الاضطهاد باسم المسيحية البيوريتانية ويبدأ مسلسل من المذابح التي يتذكرها الانكليز حتى اليوم، فلا ينسون العيد الاسود وليلة رأس السنة المظلمة التي قضاها الانكليز (حيث لم توقد شمعة ولم يجرى أي احتفال فيها) في عهد كرومويل، ذلك الرجل الثائر العبوس الحزين على فقد ولده والذي لم يهش ويبش كما يؤكد توماس كارلايل الا وهو (يوقع امضاءه على الامر الصادر باعدام الملك شارل الاول لاعتقاده ان ذلك الامير المنكود الحظ من معشر الضالين)[٢]. كما لم تكن

---

(١) مجلة تايم ١٩٨٩

(٢) توماس كارلايل: الابطال ص١٨١

صدفة ايضا ان يضطهد اليهود في روسيا القيصرية ويطرد قسم كبير منهم من البلاد عام ١٩٠٥ فتحدث بعد ذلك ثورة اكتوبر التي كان معظم رجالاتها الكبار من اليهود ومن لم يكن يهوديا فقد كانت زوجته يهودية مثل لينين! فهل كان ذلك من الصدف؟ وهل كان من الصدف ايضا ان يقضي لينين، بطل الشغيلة ومحررهم من استبداد الطبقة الرأسمالية! الجزء الاكبر من وقته وهو ينتظر للثورة الشعبية! في بيت جميل مطل على بحيرة جنيف حيث يسكن اصحاب الملايين، ومقابل بيت روتشيلد بالضبط؟! وهل الصدفة وحدها هي التي كانت على وشك ان تجعل من احد اليهود، وهو صهر لينين، رئيسا للاتحاد السوفيتي لولا ان ثارت ثائرة ستالين لذلك فانقض على السلطة وافشل ذلك الجهد واستأثر بالحكم لنفسه، ولذلك كان هو المستبد الوحيد من بين حكام روسيا المستبدين، سواء حكام ما قبل الثورة او بعدها، الذي نبش قبره واتهم بكل الرزايا!! اما دور اليهود والماسونية في الثورة الفرنسية فهو معروف الى درجة ان كلاهما، الماسونية والثورة الفرنسية تحملان ذات الثالوث من الشعارات، الحرية والمساواة والاخاء. كما لم يعد خافيا دور الصهيونية والماسونية ايضا، فيما جرى في الدولة العثمانية خاصة في مسألة عزل السلطان عبدالحميد وتوليه الجماعة الماسونية، باسم الاتحاد والترقي حكم البلاد.

والباحث في امر الثورات ككل سيجد الكثير من الشواهد التي تدل فيما تدل عليه، ان كل ما حولنا من مظاهر وشعارات وحجج الثورة والثورية هو قديم قدم وجود الانسان على الارض. وهو اسلوب في العمل وحل المشكلات بدائي ولا عقلاني تطغي فيه الغرائز الحيوانية البدائية وعلى رأسها العنف والوحشية والانانية وحب الذات وحب التسلط وحب العلو في الارض والطمع فيما بيد الآخرين.

الثورة والاديان السماوية

ولذلك حاولت الاديان السماوية العمل على تهذيب هذه الغرائز في الانسان وجعله يحكّم عقله وارادته بدلا من قبضته، بما دعت اليه من طاعة لاولي الامر وصرف الجهد لاصلاح الذات لان المجتمع ما هو الا مجموعة ذوات فان صلحت هذه الذوات صلح المجتمع. ولما كان الحاكم واحداً من هذه الذوات الصالحة، فانه لا

بد سيكون صالحا مثلها. وان فسدت هذه الذوات فلا بد ان يأتي الحاكم مثلها فاسدا مهما تغير وتبدل وباية طريقة استولى على الحكم، سواء بالشورى او بالقهر والاكراه. فكيفما تكونوا يولّ عليكم. ومن هنا جاءت دعوة السيد المسح دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، بالاضافة لكل دعوات الطاعة التي دعا اليها اتباعه. اما في الاسلام فقد جاءت الطاعة بفعل امر لا يدع مجالا للتفسير والتأويل فقد قال سبحانه وتعالى: (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم...)[١] وبذلك اختار الله لعباده الطاعة ليتقوا بها (فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة...)[٢] وليتقوا بها شرور انفسهم ومطامعهم والتي قد يكون بعضها مريضا وفاسدا، وليتقوا بها التشتت والتفرق ولينظموا بها شؤون دنياهم بما يصلح لهم آخرتهم. فاختار المسلمون ما اختاره لهم رب العالمين، فاعتمدوا طريق الطاعة وعدم الخروج على ولي الامر حتى وان كان ولي الامر جائراً او عاصياً ما دام لا يأمر المسلمين بمعصية. لان الطاعة كما قال احدهم (ملاك الدين... تولف شمل الدين وتنظم امور المسلمين) ولانها (عصمة من كل فتنة ونجاة من كل شبهة)[٣].

ولكن هذا المبدأ الاسلامي الاساسي لم يقف بوجه الطامعين المنقادين لشهواتهم، الباحثين عن ثغرات ايا كان حجمها ليمروا من خلالها الى ما يطمعون فيه، مجتهدين مناورين بالباطل لتبرير ذلك. فلم يمنع مبدأ الطاعة العصبة الباغية التي قتلت عثمان (رضي الله عنه)، الخليفة المسن وصاحب الفضل الكبير على الاسلام والمسلمين، وصاحب رسول الله ﷺ وصهره الذي تزوج اثنتين من بناته. كما لم يمنع بعد ذلك قتل الخلفاء بعضهم لبعض ولا ثورات وفتن الطوائف وعلى رأسها طوائف الاسماعيلية المتطرفة، على اولي الامر من غير الاسماعيلية ولا بين بعضهم بعضاً.

---

(١) النساء: ٥٩ (الجلالين والقرطبي)

(٢) الانفال: ٢٥

(٣) الطرطوشي: سراج الملوك ص١١٠

ولكن المسلمين وبشكل عام اختاروا الطاعة والموعظة الحسنة على الثورات لانهم اعتبروا بكل ذلك وعلموا، عن تجربة ان الثورات والتي اسموها الفتن لن تجدي في اصلاح الحال وانما تؤدي الى فساد الاحوال. اعتبروا بالفتنة الاولى التي لم يصلح بعدها حال المسلمين حتى هذا اليوم. والتي فرقتهم وشتتت شملهم الذي جمعه الله ورسوله. تلك الفتنة التي روعت المسلمين آنذاك ولا تزال ذكراها تؤلمهم حتى الآن. لقد اختار المسلمون طريق الطاعة لانهم تعلموا بالتجربة ان الثورات والانقلابات العنيفة وما يرافقها او يتبعها من سفك للدماء وهتك للحرمات لا تفعل شيئا الا رفع جماعة معارضة للحكم السابق الى سدة الحكم وتحويل من كان على تلك السدة ومن يشايعهم الى موقع المعارضة العاملة على احداث ثورة اخرى وهكذا... فسقوط الامبراطورية الاموية وقيام دولة بني العباس مكانها مثلا (لم يحدث على وجه الاطلاق في حالة الامم... تغييرا ظاهرا يذكر... ان سياسة بني العباس المالية- مثلا- كانت اقرب الى سياسة بني امية...)[1] وكان العباسيون قد اخذوا على الامويين فيما اخذوه عليهم جعلهم الحكم وراثيا في ابنائهم، وقمعهم المعارضة والفتن بالقوة والعنف، ولكن لما انشأوا دولتهم-العباسية- جعلوا الحكم فيها وراثيا في نسلهم وكانوا اشد شراسة في قمعهم للمعارضة والقضاء على الفتن. فلم يقتل من الائمة المعارضين المطالبين بالحكم لانفسهم زمن الامويين ما قتل منهم زمن العباسيين. واحدثوا من مظاهر الاسراف والترف والابتعاد عن جوهر الدين اضعاف ما اخذوه على الامويين. وهكذا، لو تتبعنا كل الحركات السرية والعلنية والفتن التي قامت خلال تاريخ المسلمين الطويل، لوجدناها على ذات النسق تسير. فهذه على سبيل المثال لا الحصر الاباظية، احد فروع الخوارج الذين قاوموا الحكم الوراثي واكدوا على الديمقراطية والانتخاب للامام ولم يجعلوها محصورة بالقرشيين كاهل السنة ولا باهل البيت كما ترى الشيعة وانما جعلوها حق لكل مسلم مؤهل لها. ولكن بعد موت عبدالرحمن بن رستم الفارسي الذي انشأ دولة اباظية بالمغرب ترك الرئاسة لابنه

---

(١) بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص٦٩

عبدالوهاب ثم آل الحكم بعد ذلك لابنائه من بعده مما فرق الاباظيـــة واشــعل نـــار النزاع والثورات بينهم[1]. وبكل ذلك اعتبر المسلمون وعملوا بقول الحسن البصــوري الذي قال: (... لو اعتبر من تأخر بمن تقدم لم يكن من يتحسر من الناس وينـــدم... وما وهب الله العقل لاحد الا وقد عرضه للنجاة، ولا حلاه بالعلم الا وقد دعاه الــــى العمل بشرائطه، ولا هداه الطريقين-اعني الغي والرشد- الا ليزحف الى احدهمــــا بحسن اختياره)[2]. فكانت الطاعة هي حسن اختيارهم-المسلمون- فـــآثروا طاعـــة ربهم والعمل بما امرهم به من طاعة اولى الامر واتقاء الفتن.

ولم يقتصر اختيار طريق الطاعة على مذهـــب دون آخـــر، بعـــد التجـــارب المريرة، بل كادوا ان يجمعوا عليها. فاهل السنة معروفون بتفضيلهم للطاعة علــــى الخروج عنها[3]. والصوفية (لا يرون الخروج على الـــولاة بالســـيف ولـــو كـــانوا ظلمة)[4]. وابو هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية (هو الذي اقـــر المبـــدأ الكيســـاني القائل الدين طاعة رجل)[5]. (وكان من فزع الاثنى عشـــرية مـــن فكـــرة الاتـــهام بالخروج بالسيف ان الشيخية في القرن الثالث عشر نفوا عن انفسهم بشـــدة تهمـــة البابيين من انهم يدعون الى الجهاد ضد الدولة القاجارية)[6]. اما المعتزلة فقد رامـــوا تطبيق تعاليمهم (بسبيل الاصلاح والترشيد لا العنف والثـــورة... وكـــانت مدرســـة المعتزلة اشبه ما تكون بفئة من المثقفين الذين يتخذون من الثقافة والفكر سبيلا لتقييم

---

(1) محمود اسماعيل: الحركات السرية في الاسلام ص٢٥-٢٦

(2) التوحيدي: الامتاع والموانسة جــ٣ ص٢١٤-٢١٥

(3) مقالات الاسلاميين جــ١ ص٣٢٣

(4) كامل الشيبي: الفكر الشيعي ص٦٤

(5) ذات المصدر ص٢٥

(6) ذات المصدر ص٦٥

الانسان في المجتمع...)[1].

ومن هذا المنطلق، منطلق الطاعة التي اعتمدها المسلمون ائتمارا بما امرهم به الله سبحانه وتعالى واعتبارا بما حدث من مآسي بالخروج عنها تقبل العالم الاسلامي الحكم العثماني لمئات السنين واطاعوه ولم يخطر ببال احد الخروج عليه او التخلص منه. فلم تكن طاعة الامة قبل احتكاكها بالثورة الفرنسية والزحف الاوربي عليها ناتج عن تخلفها! او سباتها! او ذلها وجبنها كما حاول الاوربيون ودعاتهم كالافغاني والكواكبي وعبده وغيرهم تأكيده. اذ قال الافغاني: (واما انتم يا ابناء الشرق فلا اخاطبكم ولا اذكركم بواجباتكم فانكم قد الفتم الذل والمسكنة والمعيشة الدنيئة، واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف، صرتم كالعجائز لا تقدرون على الدرء والاقدام والجلب والدفع والرفع فان لله وانا اليه راجعون)[2]. فطاعة الامة لم تكن كما تصور -او تعمد- هؤلاء، عن غفلة او عن عجز وانما كانت لحكمة وتعقل واعتبار بالخبرات المتراكمة في هذا المجال عبر تاريخها الطويل، والتي علمتها ان الطاعة واتقاء الفتن هي وسيلتها في جمع شمل الامة والتعاون على تحقيق سعادة افرادها في الدنيا والآخرة، لان الفتن والثورات هذه هي خراب للدنيا بما تسفك من دماء وتخرب من مدن وحواضر وذمم واخلاق وخراب للآخرة بما يقع فيها من مظالم وهتك للحرمات وتخريب للنفوس واعمال لا ترضي الله سبحانه وتعالى وعلى رأسها قتل المسلم لاخيه المسلم والاعتداء على ماله ورزقه او الحاق الضرر، ايا كان، به.

مفهوم الثورة و الزحف الاوربي

ولذلك، لما دخلت خطط الزحف الاوربي مرحلة التنفيذ كانت الطاعة على رأس القيم الاسلامية المستهدفة. فأوربا لا تستطيع ان تفصل مسألة الطاعة عن

---

(١) محمود اسماعيل: الحركات السرية في الاسلام ص٩١-٩٢

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني ص٧٠

الجهاد الذي عانت منه في غزواتها السابقة للامة الاسلامية. فلم تنسى ان الطاعة هي التي جعلت صيحة الجهاد التي اطلقها المعتصم من العراق والتي اطلقها صلاح الدين من مصر كانت تدوي اصداءها في جميع ارجاء البلاد الاسلامية حتى تصل الى مسلمي الصين وسمرقند وغيرها فيطيعوا ويلبوا النداء. وهو الامر الذي تريد اوربا تجنبه في زحفها الجديد وغزوها للامة. فكانت الطاعة وقتلها في نفوس المسلمين هو ما استهدفته في كل ما دعت اليه من مفاهيم الحرية والديمقراطية وما انتقدته من استبداد مع انها كانت هي نفسها في ذلك الوقت بالذات تعاني استبدادا افضع من كل ما موجود منه في العالم الاسلامي. ولا اريد هنا ان انفي وجود ممارسات استبدادية لا يخلو منها مجتمع ايا كان تقدمه الحضاري ومهما ساده من قيم ومثل عليا دينية سماوية او بشرية، وذلك لما فطر عليه الانسان من نوازع وشهوات تختلف قدرة الانسان الفرد في مدى تهذيبها. ولكن اريد ان اقول اننا لو دققنا النظر باوضاع العالم الاسلامي في ذلك الوقت آخذين بنظر الاعتبار الضغط الداخلي والخارجي الذي تتعرض له الدولة الاسلامية آنذاك في كل مكان، من قبل الدول الاوربية، في الخارج، ودعاتها وتلامذتها من الداخل، مقارنين ذلك بما كان يسود اوربا من شرور الاستبداد وطغيان الحكام، معتمدين مؤرخيهم وكتابهم انفسهم، او قارناه بما يسود عالمنا اليوم من استبداد وهدر للحريات لتبين لنا ان الحكم آنذاك لم يكن استبداديا بالشكل الذي يحاول بعض المؤرخين المحدثين والنهضويين! تصويره، معتمدين النشرات الاستعمارية التي كتبها كتّاب اوربا وساستها وبعض مستشرقيها باسم البحوث العلمية الموضوعية!! او بعض المغرضين واصحاب المصالح الخاصة من ابناء الامة، من اجل اثارة عدم الرضا واحداث التغيير الذي تريده اوربا لتتحقق التبعية لها. خاصة اذا علمنا ان الدولة العثمانية لم تكن تحكم البلاد حكما مركزيا وانما كانت تعتمد نوعا من اللامركزية في الحكم وكانت الاسر الحاكمة في كل ولاية تتولى امر البلاد. ففي بغداد احتكر المماليك الحكم من ١٧٤٩ الى ١٨٣١ وفي الموصل تولت اسرة عبدالجليل امر الولاية منذ بداية القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٣... وفي الشام حكم بنو معن وبنو شهاب في لبنان وآل العظم في

حلب الخ...[1] ولما وجدت الدولة العثمانية وخاصة بعد غزو نـــابليون لمصـــر ان اللامركزية هذه سهلت تغلغل نفوذ الدول الاوربية في الدولة مما صعب امر الدفـــاع عن الولايات وجعلها فريسة سهلة للطامعين الاوربيين عمدت الـــى اقصـــاء هـــذه العصبيات الحاكمة المحلية في الولايات سواء في مصر او العراق او الشام او فـــي شمال افريقيا، فشرع السلطان محمود الثاني منذ عام ١٨٠٨ في اصـــلاح الجيـــش واجهزة الدولة لتثبيت اقدام الدولة العثمانيـــة امـــام الامبراطوريـــات الاســـتعمارية الاوربية حتى لا تتساقط الولايات الواحدة بعد الاخرى في يد الاستعمار البريطاني[2] فثبت حكمه في الشام وقضى على المماليك في بغداد وجعل الحكم العثماني مباشـــرا على العراق[3] من خلال الولاة. والوالي بالرغم من انه كان صاحب السلطة العليـــا في البلاد الا انه (لم يكن مطلق السلطة فيها بسبب تلك الجهات المتعددة التي كـــانت تراقب اعماله وهي: الشعب والقاضي والدفتردار وقواد الانكشارية)[4]. اذ كان، كما ذكر عبدالعزيز نوار في كتابه تاريخ العراق الحديث (من بيـــن اعضـــاء الديـــوان بالاضافة لضباط الانكشارية، القاضي والدفتردار وكلاهمـــا يعينـــان مباشـــرة مـــن الاستانة. وكان الدفتردار اكبر شخصية في الولاية استطاعت ان تحد مـــن تلاعـــب الولاة بمصالح الدولة... وكان الشعب ايضا اداة من ادوات المراقبة علـــى الوالـــي. وكان الاهالي يلجئون الى القاضي والعلماء كلما وقع عليهم ظلم ويرفعون الشـــكايات مباشرة الى السطان وكم من مرة انتفض الشـــعب بقيـــادة علمائـــه ضـــد الـــولاة الظالمين...)[5] هذا في العراق، اما في مصر فمما يذكر ان مصر قبـــل الاحتـــلال

---

(١) عبدالعزيز نوار: المصالح البريطانية في انهار العراق ص١٣

(٢) ذات المصدر

(٣) ولكن ما ان تم له ذلك وفي نفس السنة شن محمد على هجومه على الشام لاضعاف الدولـــة العثمانية.

(٤) عبدالعزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص١٠

(٥) ذات المصدر

الفرنسي وحملة نابليون كانت تابعة للسلطان العثماني ويحكمها المماليك، وان كان ذلك العهد لم يخل من المظالم والفساد الذي كاد ان يكون سمة ذلك العصر في كل مكان وليس في الدولة العثمانية وحدها (الا انه كان يعتبر عصرا اسلاميا) بالنسبة لمصر كما يذكر عيسى شحاتة في كتابه عظماء الوطنية (يستمد الحكام فيه قوتهم من السلطان العثماني خليفة المسلمين مستعينا بشيوخ الازهر، وزعماء الشعب دون التفكير في الخروج، عن طاعة السلطان او تقويض نفوذه الشرعي)[١]. فان شعر افراد الشعب بمظلمة وقعت عليهم رفعوا امرهم الى الازهر الذي يعمل على حلها مع الحكام بشكل او بآخر. ومثل على ذلك ما حدث (عندما اشتدت مظالم مراد بك وابراهيم بك في فرض الاتاوات وجمع الجبايات، فاجتمع علماء الازهر واغلقوه وابطلوا الدروس وامروا الناس فاغلقوا الحوانيت والاسواق وتجمعوا في بيت الشيخ السادات وحضر اليهم مندوب ابراهيم بك فطالبوه برفع المظالم وابطال المكوس والضرائب... واصروا على مطالبهم واجتمعوا بعد ذلك بالباشا وسويت المشكلة بتحقيق مطالبهم)[٢]. ولكنهم عندما احتجوا على الاحتلال الفرنسي هاجم جنود نابليون-حامي حمى الحرية والمساواة الخ- الازهر ودخلوه بخيولهم وعملوا فيه تدميرا وبالناس تقتيلا!! وبعد ذلك وفي مذبحة دنشواي ايام الاحتلال الانكليزي وفي كثير غيرها، لم يجد المصريون من يسمع شكواهم او ينصفهم!!

غير المسلمين

اما حال غير المسلمين فقد اكد كثير من المؤرخين والمستشرقين انه كان افضل بكثير من حال اخوانهم في اوربا نفسها. فقد قال: مجيد خدوري مثلا (لم يفرض الاسلام نفسه على اتباع الديانات الاخرى بل كانت الاقليات الدينية، برغم بعض القيود الخاصة بالشرع تتمتع بحرية واسعة في

---

(١) عيسى شحاته: ص٢٣-٢٤

(٢) عيسى شحاتة: ص٢٤-٢٤

ممارسة حقوق دينية ومدنية عزت على الاقليات في المجتمع الاوربي المعاصر، وثابر السلاطنة العثمانيون على تطبيق هذه السياسة في الاقاليم الشرقية التي احتلوها فبقيت تسكنها اكثرية مسيحية... فاجازت لغير المسلمين التمتع بحرية دينية واسعة. ووجد الاتراك والعرب... ارتياحا روحيا في ظل سلاطين اثبتوا انهم خير ورثة للخلفاء العرب)[1]. وقد اكد جورج قرم كما اكد كثيرون قبله ان الاقليات الدينية لم تعاني الا بعد التدخل الاوربي في المنطقة. اذ هو بعد ان اكد على ان الاسلام هو في المقام الاول (رؤية اخلاقية للعالم) تفهم الفرد والجماعة معا، وعلى اعتراف الاسلام بالامم غير المسلمة من اهل الكتاب قال: (وعلى الرغم من الميل الطبيعي للمجتمع-كل مجتمع- الى الشمولية والهيمنة الدينية فقد احترم المأثور الشرعي الاسلامي هذه الفروق والتمايزات ومن ثم اقيمت للمؤسسة الطائفية شروط قانونية وشرعية للتواجد في قلب الحاضرة الاسلامية، امتدادا الى الامبراطورية العثمانية وخلافا للصورة الشائعة المتداولة، لم يكن تاريخ الامبراطورية العثمانية كله تاريخ مظالم ومجازر وتعصب طائفي فقد عاشت في ظلها، بدون اكراه ديني، اثنيات واقليات طائفية لا يحصى لها عد ولم يشذ السلاطين العثمانيون نحو سياسة التسامح الا مع ابتداء سياسة الاندفاع الغربي نحو الشرق في اواخر القرن الثامن عشر، فقد حاولت القوى الاوربية تفجير الامبراطورية من الداخل عبر ايجاد- زبائن- من مختلف القوميات والاقليات الدينية عبر تحريضها على الانفصال، وعلى هذا النحو رأت النور-المسألة الشرقية- التي قال عنها الفيلسوف والمؤرخ الانكليزي ارنولد توينبي: انها لم تكن-الا مسألة غربية-)[2] ولكن اختلطت المفاهيم في العالم العربي والاسلامي بفضل دعاة النهضة فتلبس الحق بالباطل والباطل بالحق فاعتبر مستبدا ورجعيا ومتخلفا كل من اراد حماية وطنه وامته من غزو اجنبي واضح المعالم، وكل من اراد ان يحد من اضرار هذه المتفجرات التي

---

(١) مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي ص٢٤-٢٥

(٢) المنتدى: العدد ١٦ كانون الثاني ١٩٨٧

غرسها العدو الاجنبي في كل مكان من وطنه او يمنع انفجارها، وكل من اراد حماية امته من التفرق وعمل على جمع كلمتها والحفاظ على شخصيتها ووقايتها من التلاشي في الحضارة الاجنبية، سواء من الحكام او من غيرهم من ابناء الامة. وصار وطنيا ومتحررا ومفكرا وثائرا ومصلحا ومجددا الخ... كل من وضع يده بيد الدول الاجنبية وفرض التغيير الذي تريده هذه الدول ليجعل من وطنه مستعمرا وتابعا ذليلا لهذه الدول باسم الحرية والتقدمية الخ... ولذلك هوجم السلطان عبدالحميد واتهم بشتى تهم الرجعية والتخلف والاستبداد وعزل في النهاية ووصفت جمعية الاتحاد والترقي بالتحرر والتقدمية واعطيت لها الحرية لانتهاك الحرمات وهدر الحريات واعلان الاحكام العرفية واعدام الاعداد الكبيرة من شيوخ المسلمين المناهضين لحركتهم العلمانية التغريبية. ووقف النهضويون!! العرب الى جانبهم يساندونهم ويؤيدونهم في قسوتهم وظلمهم، فكتب مثلا مصطفى الغلاييني، المفكر السوري، في النبراس عام ١٩٠٩، بعد اعدام عدد من رجال الدين (يسوغ لجوء الحكومة... الى الاحكام العرفية... وذلك لان اللجوء الى المحاكم يضيع وقتا كبيرا فلا تتمكن الدولة من قطع دابر الشر...)[١] وقال مؤيدا الاتحاديين في اعدام المعارضين المسلمين!! ان الحكومة (لم تصبح دستورية حقيقية الا بعد ان تم التخلص فعلا من الفسادين الخائنين التقهقريين بقيادة-فيالق الشورى- التي خلعت السلطان الجائر الطاغي الحانث بيمينه والعابث بالشريعة المطهرة والدائس برجليه على القوانين، ونشرت الاحكام العرفية وشنقت رؤوساء الثورة في الآستانة ولاحقت الفارين منهم، وليس يألم من ابادة هذه الجرائيم والحشرات الا رجلين: رجل رجعي باع وجدانه في سبيل غايته الفاسدة او رجل جاهل بسيط رقيق الشعور يعذر لعدم تبينه الفائدة من ابادة، هؤلاء الطغام...)[٢]!!! ولم يكتف بكل هذه المغالطات التي هي نفسها حتى يومنا هذا وفي تبرير استبداد الاتحاديين وقسوتهم ووحشيتهم بل

---

(١) فهمي جدعان: اسس التقدم ص٣٠٢

(٢) ذات المصدر

دعمها بالشريعة فقال: (ليس ثمة شك في موافقة هذه الاحكام للشريعة المطهرة التي ما انزلت على الرسول الا لتطهر الارض...)[1]وعلى اية حال فان ازمة المفاهيم هذه حصد العرب والمسلمون نتائجها، فزالت طاعة اولي الامر الشرعيين وحلت محلها طاعة المستعمر وتقبل استبداده وسيادته وتبريرها ايضا!! كما فعل الكواكبي وعبده وتلامذته وغيرهم حتى وقتنا الحاضر. وليس هنا مجال شرح استبداد الاحتلال والاستعمار الذي مارسه ولا يزال يمارسه على الامة العربية بشكل او بآخر رغم تحرر العالم العربي المزعوم واستقلاله الموهوم. وانما ما يهمنا هو ان خطط الغزو وجهت عنايتها الى مبدأ الطاعه التي عانت البشرية الكثير قبل ان تتوصل اليه بهدى من خالقها لحمايتها من شرور بعضها البعض فوجهت دعاتها من قادة التغيير العرب الى هذه النقطة بالذات فبدأوا بتمجيد الثورة الفرنسية وبيان محاسنها كبديل امثل للطاعة التي نالت من التحقير لها كمفهوم وللعاملين بها كامة وكافراد ما لا يمكن حصره، ولا يزالوا يفعلون حتى اليوم لادامة هذا الاتجاه الذي يحقق الكثير للدول الكبرى، مع ان الثورة الفرنسية ام الثورات والتي لا يزال الدعلة يكيلون لها المديح بالاطنان! ما جلبت للامة الفرنسية الا المتاعب والشقاق، وبعد ان كانت تحكم وتتحكم في اوربا اصبحت بعد الثورة وخاصة بعد اندحار نابليون مسرحا للفوضى والقلاقل يتناوب الحكم فيها الجمهوريون تارة والملكيون تارة اخرى بعد عمليات قتل وتخريب يتمرغ فيها انف مبادئ الثورة من عدل وحرية ومساواة واخاء في التراب. وقد ذكر الكثير من المؤرخين سلبيات هذه الثورة ومساوئها ومنهم نقولا الترك الذي عاصرها فقال (فحق لنا ان نؤرخ في هذا الكتاب، لانتفاع الطلاب، ما حدث من التغيير مما اجرته يد الاقدار بظهور المشيخة الفرنسوية وما تكون بسببها من الفتن في البلاد الافرنجية، وديار الرومية، وقتل سلطانهم وخراب بلدانهم)[2] وحتى الطهطاوي احد الدعاة المنبهرين بها وبفرنسا

---

[1] ذات المصدر

[2] علي محافظة: الاتجاهات الفكرية... ص٩٧

ونظمها ذكر ما شاهده من فوضى اثناء الثورة ضد الملك شارل فقال بعد تولية هـذا الملك -يقصد اورليان الذي ولاه الثوار بعد شارل- (ظهرت عدة تعصبات عظيمـة منها من يريد عزله ونصب الجمهورية لعدم اكتفائه بالحرية وطلبه ازيد من ذلـك، ومنهم من تعصب لنصب الحكم القديم وتولية حفيد الملك السابق. ولا زالـت هـذه الفتنة باقية الآثار الى الآن، وربما تعدت اثارها الى غيرها من البلاد...)[1].

وحتى الافغاني الذي دعا الى تبني الثورة الفرنسية وانظم للمحفـل الماسـوني الفرنسي الذي يحمل ذات شعارات الثورة الفرنسية انتقد في احدى تناقضاته الفكريـة فكر الثورة الفرنسية اذ قال: ان (الفرنسيين حتى القرن الثامن عشر كان لهم اخـلاق فاضلة، قوامها الترابط وعدم الانحلال، حتى ظهر -فولتير وروسو- وسـخرا مـن الدين، والاله، فبدأ التحلل على اشده واراؤهما هي التـي اضرمـت نـار الثـورة الفرنسية وافسدت اخلاق الكثير من ابنائها، فاختلفت بها المشارب وتتابعت المذاهب، وقام على مذهب فولتير وروسو مذهب الـ كومون،Common -الاشـتراكية- ولـو تدارك الامر ارباب العقائد النافعة، لنسفت الاشتراكية على اديم فرنسا. وما صنعـه نابليون الاول من اعادة المسيحية لم يجد كثيرا)[2].

وعلى اية حال وايا كانت مساوئ الثورة الفرنسية ورأى الناس حتى من الدعاة انفسهم فيها، فقد عرضت كبديل براق زاهي للطاعة، في خطط التغيير الاوربية، التي استهدفت فيما استهدفته القيم العليا الاسلامية واستبدالها بقيم اوربية لتسهيل مهمتـها في تحقيق غزوها. واستبدال مفهوم الطاعة بمفهوم الثورة يحقـق الكثـير للطـامع الاجنبي، ولايقتصر مردوده على تحقيق مصلحة آنية في اضعاف الدولة العثمانيـة واسقاطها كما حدث فعلا، وانما مردود ذلك يستمر بعد ذلك الى ما لا نهاية له لانـه

---

(١) عمارة: الاعمال الكاملة، الطهطاوي، جـ٢ ص٢٢١

(٢) محمد البهي: الفكر الاسلامي... ص٥٩ (ومن الجدير بالذكر هنا ان محمد عبده دعا الـى تدريس افكار روسو وغيره في الازهر من اجل اصلاحه!!

بغياب مفهوم الطاعة وانتشار مفهوم الثورة كوسيلة وحيدة للتغيير والتطوير كما صار يدعو اليه المفكرون الثوريون العرب!! من جهة، ومع التبعية الفكرية للغرب وخاصة في مجال الديمقراطية والحزبية من جهة اخرى، لن يتمكن الحاكم، أي حاكم او اية مجموعة حاكمة من الوقوف موقفاً صلباً تجاه المصالح الاستعمارية او حتى التردد او التلكؤ في تحقيق هذه المصالح لانه دائما سيجد الاجنبي المستعمر من بين الاحزاب او الافراد التابعين له، فكريا على الاقل، البديل لهذا الحاكم او المجموعة الحاكمة من خلال الثورات هذه والشواهد على ذلك كثيرة ولا حصر لها، ومنها مرة اخرى، تجربة الاتحاد والترقي والسلطان عبدالحميد!!

الاعداد للثورة

وتهيئة الجو والتحضير للثورة يتطلب كما يؤكد لينين شرطين: الاول، هو ان تعد الجماهير بشكل يجعلها تفهم (فهما تاما ضرورة الثورة) بحيث تكون مستعدة للموت في سبيلها. والثاني، هو (ان تعاني الطبقات الحاكمة ازمة حكومية من شأنها ان تجر الى الحياة السياسية حتى اكثر الجماهير تأخرا). مما يضعف الحكومة ويجعل (من الممكن للثوريين خلعها بسرعة)[1]. وقد عملت اوربا بكل جهدها على اعداد الجماهير للثورة وذلك بزيادة الظلم والاستبداد عن طريق ارشاد الحكام وتوجيههم بما يؤدي الى ذلك او اثارتهم ضد ابناء البلاد بشكل او بآخر مثل ما مر ذكره من دس المسؤلين الفرنسيين والانكليز على مدحت باشا لدى السلطان! أو بزيادة شعور الناس بالظلم وذلك بتحريضهم ضد اجراءات الحكام وتضخيم المساوئ وتقليل المحاسن. اذ يكاد البحث في اية مشكلة واية مجزرة حدثت خلال القرن التاسع عشر، كما في غيرها يؤكد على وجود الايادي الاجنبية الاوربية حتى مجزوة محمد علي للماليك! وهي المجزرة التي تخلص بها محمد علي (بوحشية نادرة) كما يذكر سلامة موسى، من الطبقة المتمدنة الوحيدة التي كان يمكن ان تعارض

---

[1] مالك سيف: للتاريخ لسان

استبداده...)[1] فاستبد وطغى ومن الامثلة على ذلك ما ذكره الافغاني من ان المصريين اتفقوا مع الخديوي على تشكيل مجلس نواب (واتفق معهم خديويهم لما ان رأى صدق نياتهم واصابة رأيهم) فسارع الانكليز الى الدسيسة (والقوا في روع الخديوي دسيسة منهم ان هذه المساعي ليست لتأسس الحرية ونصب دعامة المدنية وانما هي لتغيير الحكومة واستبدالها... فاصغى اليهم واعتمد بكله عليهم وجاهر اعوانه الذين كانوا يسعون في اصلاح البلاد... بالمقاطعة والمناوأة، فاضطر اعوانه لما رأوا حيدانه عنهم وميله الى الذين لا يريدون الا ختل المملكة، واختلاسها من ايدي مالكيها ان يقابلوه بما قابلهم به...)[2] مع العلم ان دعاتهم وتلامذتهم هم الذين كانوا يدعون بتحريض منهم الى تشكيل المجلس النيابي هذا باعتبار عدم وجوده هو منتهى الاستبداد والتخلف والفردية في الحكم! وكل ما قامت به جمعية الاتحاد والترقي وحكامها بعد تسلطهم على الحكم من مجازر واحكام عرفية واعدامات لعدد كبير من شيوخ المسلمين المعارضين للاصلاحات التغريبية المقتبسة من اوربا عام ١٩٠٩ ولعدد آخر عام ١٩١٦ من اعضائها ومريديها العرب في الشام-والذين خرجوا عليها واتفقوا مع الانكليز والفرنسيين على الثورة ضدها- وكل توجهاتها العنصرية لصالح العنصر التركي كان باعداد من دول اوربا وباشارة المستشارين واصدقاء الفكر الاجانب والذين كانوا في ذات الوقت يحرضون ضدها وينظمون الحركات الثورية لاسقاط دولتها.

اما في مجال احداث الازمات للحكومة من اجل اضعافها فحدث ولا حرج من الازمة الاقتصادية التي اوقعوا فيها مصر في عهد اسماعيل الى الازمات الاقتصادية والسياسية التي احدثوها للدولة العثمانية مثل ما عرف بالمسألة الشرقية، وتحريض الاقليات من غير المسلمين كما حدث في لبنان وفي ارمينيا وفي دول البلقان وغيرها، وحملة محمد علي على الشام وغير ذلك الكثير مما لا يمكن حصره في

---

(١) كتاب الثورات ص٥٨

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني ص١٠٢

هذا المجال. ولم يفتهم اعداد قادة للثورات والانقلابات مثل عمل بلنت مع ابن الشيخ صفوق في العراق ومع عرابي في مصر حيث اعده وكتب له برنامج حزبه، خلال مجيء بلنت الى مصر عام ١٨٨١-١٨٨٢ للمشاركة في حل الازمة القائمة بين المصريين والاوربيين على مسألة التدخل الاوربي واشراف الدول الاوربية على موازنة الدولة المصرية!! وظل على اتصال به وبثورته حتى أخر لحظة.

وقد ادى قادة التغيير من تلامذة اوربا دورهم في هذا المجال ايضا! ولو نظرنا الى اعمال النهضويين الاوائل منهم والاواخر لوجدنا الكثير منها موجها الى هذا او ذاك من هذين الاتجاهين: اعداد الجماهير للثورة واحداث ازمة للحكم، بالاضافة طبعا، لعرض البديل الاوربي المتمثل بالثورة الفرنسية وكل ما انتشر بعد ذلك من قيم وانظمة ومظاهر سلوك. ففي الوقت الذي اكتفى فيه الطهطاوي والتونسي بعرض البديل الاوربي الزاهي تناول الافغاني وعبده والكواكبي واديب اسحق وصنّوع وخليل الغانم والعازوري وغيرهم الى وقتنا هذا بالاضافة لذلك مهمة اعداد الجماهيرللثورة وخلق الازمات للحكومة القائمة-مثل الاضرابات والمظاهرات الخ...- ففي المجال الاول وعلى سبيل المثال نجد الافغاني بعد ان يعدد مساوئ شاه ايران ناصر الدين، دعا وهو في لندن!! رجال الدين للثورة على الشاه فقال: (يا قادة المتقين، لا علاج لهذه المصيبة الكبرى والبلية العظمى، ولا دافع لهذه الفضيحة الشنعى والدنية البشعة الا خلع هذا الحضاجر[1] صيانة لحوزة الاسلام وحراسة لحقوق الانام وانقاذ للدين واهله من هذه الورطة المهولة التي يتبعها الزوال)[2]. ثم يحرض على خلعه فيقول: (إن الخلع هو الوسيلة الوحيدة لانقاذ بلاد المسلمين من هذه التهلكة) ويحثهم على الافتاء بعدم طاعته بقوله مخاطبا رجال الدين (فاذا صدعتم يا حماة الدين الحق وعلم الناس ان اطاعة هذا الطاغية حرام في دين الله وان بقاءه على عرش الملك خطر على الاسلام وحوزته،

---

(١) الحيوان المسعور

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص١٢٧

لهرعوا كافة وقلبوا عرش غيه وخلعوه عن كرسي جنونه... انتم المسؤولون عــن العباد والبلاد امام الله تعالى. ولا لوم على الناس لانهم لا يزالــون يــأتمرون مــا تأمرون ويقومون حيث تقومون فماذا بعد هذا تنتظرون؟ الخلع، الخلع، ولا عــلاج سواه...)[1].

وخاطب الافغاني المصريين وحرضهم على الثورة اذ قــال: (اذا صــح مــن الاشياء ما ليس يوهب فاهم هذه الاشياء الحرية والاستقلال لان الحرية الحقيقيــة لا يهبها الملك المسيطر للامة عن طيب خاطر والاستقلال كذلك. بل هاتان النعمتــان انما حصلت عليها الامم اخذا بقوة واقتدار)[2] وخاطب الفلاح المصــري وحرضــه ليس على العصيان فقط بل على التخريب ايضا وعلى هجــر الارض والانشــغال بالقتل والنهب للحكام وللاغنياء اذ قال: (انت ايها الفلاح المسكين تشق قلــب الارض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم باود العيال، فلماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمــرة اتعابك...)[3].

اما خلق الافغاني الازمات للحكومة فكثيرة ومنها تكوين الاحزاب الماســونية العلنية والسرية المناهضة ليس للحكام فقط بل للامة وفكرها الاسلامي ايضا. مثــل الحزب الوطني الحر وحزب مصر الفتاة والعروة الوثقى وغــير ذلــك. ودعوتــه للمجالس النيابية قبل تشكيلها ومهاجمتها بعد ذلك، والكثير غير ذلك مما يشعل نــار الثورة ومما جعل احمد امين يقول: (اما السيد جمال الدين الافغاني فثائر على ســوء الحال في مصر وجمود الناس وبرودتهم ازاء ما يكتنفهم فهو يريد ان يشعلها نــارا. ولا اصلح لذلك من الجرائد ولعل دروسه في الفلسفة لم تكن الا ســتارا لبــث روح

---

(1) ذات المصدر

(2) قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة ص٢٤٢

(3) ذات المصدر ص٦٧

الثورة واعداد طائفة من الشبان يتصلون بالصحافة ويكتبون...)[١]. وقد سار عبده كما يؤكد معظم الكتّاب في هذا المجال مع الافغاني، وكان متأثرا (باراء استاذه... وقد كانت... ترمي الى الثورة، سواء بتأليف الجمعيات السرية او بالاذاعة بالقلم واللسان او استعمال العنف والقتل، بالجملة للقيام في وجه الظالمين والمستبدين...)[٢].

اما اديب اسحق المعجب بفرنسا والثورة الفرنسية فدعا المصريين للثورة في كثير مما دعا اليه ومنها تنديده باستبداد اسماعيل ووزيره رياض باشا اذ قال فيما قال: (خان وطنه فاهمله وغدر بامته فخذلوه وتبصبص لبعض الاجانب فناواه سائرهم فلجأ الى ظل انفراد على عتبة استبداد...)[٣] وحرض الفلاح على الثورة كما فعل استاذه الافغاني فقال: (... ثم يأتيكم المأمور سالبا، والشيخ غاصبا، والمدير ناهبا، فانتم في بلاء مستقر، وعناء مستمر، تحصدون البر ولا تأكلون، وتملكون الارض ولا تسكنون)[٤]. وهاجم المصريين وعاب عليهم ذلهم ومسكنتهم كما فعل الافغاني ايضا! فقال: (هو الذل امات انفسكم، فصرتم اشباحا بغير ارواح، تنطقون، ولكن بحكم العادة، وتسعون، ولكن بحركة الاستمرار. وذلك بان رضيتم بموت الذل حرصا على البقاء، ولم تعلموا ان وجود الذليل عين الفناء)[٥]. وهاجم العقيدة الاسلامية بشكل لم يسبقه اليه رجل غير مسلم وندد بها كما مر ذكره!!

اما في اتجاه عرض البديل الذي لا بديل سواه!! هو فرنسا ونظامها، وهو من اكبر دعاتها وناشري افكارها، فقد قال مثلا عن تطور الثقافة الفرنسية (نبغ الكتاب

---

(١) احمد امين: زعماء الاصلاح ص٣١٦

(٢) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح... ص٨٨

(٣) علوش: اديب اسحق، الكتابات السياسية والاجتماعية ص٢١٣

(٤) ذات المصدر ص١٤١-١٤٦

(٥) انظر عزت قرني: العدالة والحرية... ص١٦٦-٢٠٣

والخطباء، فضربوا بسيوف الاقلام حجاب ظلام الجهل فانشق عن ضياء، صبح العلم، فرأى الناس فضاعة التقليد، فنبذوه وشناعة الاستبداد فنشطوا في عقاله بالثورة التي رمت كيد الظلم بسهام نور الحق وخطت بدمه على صفحات الصورة الحرية والمساواة والاخاء...)[1] ومما لا يحتاج الى تنويه هو ان التقليد المرفوض عنده مثلما هو عند جميع النهضويين هو اتباع السنة وتقليد السلف من دعاة الدين اما دعوتهم لتقليد الاوربيين واتباع فكرهم حتى القدامى منهم واصحاب الفكر السقيم الذي اثبت فشله في كل مكان مثل افكار الثورة الفرنسية وجان جاك روسو وماركس ومن جاءبعدهم من المحدثين، فهو ليس تقليدا ولا اتباعا مرفوضا ونما هو انفتاح وتقدمية وابداع وحرية وفكر وتجديد الخ...

وهكذا استمرت الدعوة الى الثورة حتى اتت اكلها بثورة عرابي التي انتهت بالاخفاق والهزيمة المنكرة، اذ كانت الهزيمة الخلقية كما يؤكد الكثيرون ومنهم احمد امين، اقسى من الهزيمة الحربية، فقد (ذل اكثر قواد الحركة، وتنكر لهم اكثر من كان يناصرهم، وبدأت السعايات تدب وكل من كانت له خصومة مالية او عائلية سعى في الايقاع بخصمه، يتهمه بعمل من اعمال الثورة، وامتلاءت المجالس المشكّلة للنظر في الدعاوى والتهم، واخذ كثير ممن اشتركوا في الحركة يتبرون مما قالوا او ما فعلوا)[2]. وكان محمد عبده على رأس هؤلاء المنهارين والمتبرين من الثورة كما ذكر برادلي، المحامي الذي كلفه بلنت للدفاع عن عبده! وهو نفسه تبرأ منها في رسالة لسيده الافغاني، وبرر اشتراكه فيها، كما رأينا في رسالته الاولى، بانه حاول استغلالها لمصلحة الحزب الحر الماسوني الذي الفه الافغاني قبل طرده من مصر. وظل عبده بعد ذلك يهاجم الثورة والقائمين بها وعلى رأسهم عرابي ويصفهم بانهم جماعة من العسكر لا علاقة لهم بالوطنية وبالاصلاح وانما (غضبوا لما استحسنوا بوجوب توفير في الجيش وفقد مراكزهم فيه وتقديم خلافهم

---

(١) ذات المصدر

(٢) احمد امين: زعماء الاصلاح ص٢٤٥

عليهم... فطالبوا عدم التوفير في الجيش اولا فردتهم الوزارة... فطلبوا عزل الوزارة ثانية ثم تورطوا في الامر واحبوا ان تدخل الاهالي في زمرتهم فطلبوا تشكيل مجلس للنواب ثالثا... حتى عظم امرهم... فاجتمع عليهم الجانب العظيم من المصريين بعضهم لغرض شخصي وبعضهم لملل من تلك الحالة...)[1] وحتى بعد عشرين عاما من الثورة وعندما عاد عرابي من المنفى لم يكن عبده يريد ان يقابله عندما طلب منه بلنت ذلك. ولكن عندما الح عليه بلنت قائلا انهم يمكن ان يستفيدوا من شعبيته (من هم وفي ماذا-الله اعلم؟) عندئذ فقط قابله عبده في بيت بلنت!! ورغم كل مظاهر الاستبداد التي سادت احوال مصر بعد الاحتلال الانكليزي الذي يفوق كثيرا ما كانت تشكو منه مصر قبل الاحتلال الا ان عبده الثائر على الاستبداد الاول صار يراه منتهى الحرية والديمقراطية التي لم تنعم مصر بمثلها من قبل مخالفا بذلك معظم من كتب عن مصر ومنهم احمد امين الذي يصف حال مصر من خلال وصف حال احد الوزراء كمسؤولين في عهد ما قبل الاحتلال الانكليزي لمصر وبعده مثل علي مبارك اذ قال: وبعد الاحتلال الانجليزي لمصر (الفت وزارة مصطفى رياض باشا وعهد الى علي مبارك في نظارة المعارف، ولكن ما ابعد الفرق بين الحالين، وما اشد الاختلاف بين العهدين-لقد كان في العهد الاول قبل الاحتلال حرا طليقا يفكر كما يشاء ويفعل ما يشاء ويدبر المال لمشروعاته كما يشاء لا يقيده في ذلك كله الا عرض الامور على ولي الامر ليقره عليها ويتلقى نصائحه فيها. اما في هذا العهد فليس حرا ولا طليقا ولا يفكر الا اذا سمح له المستشار الانجليزي بالتفكير...)[2].

حتمية الثورة

ولكن لم يعتبر المفكرون النهضويون بما حدث من الآم ومأسي خلال الثورة

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة، عبده، ص٢٩

(٢) احمد امين: زعماء الاصلاح ص٢١٦

العرابية او انقلاب جماعة الاتحاد والترقي بعدها او بغيرها هنا وهناك بل استمروا في دعوتهم للثورة وظلوا يسيرون في ذات الاتجاهات: تحريض الناس بالحق وبالباطل على الحكام لاعدادهم للتحرك والثورة وخلق الازمات للحكومات من خلال معارضة كل اجراءاتها، بالاضافة لعرض البديل الاوربي بشكل مباشر او غير مباشر وهكذا... حتى جعلوا من الثورة الحل الامثل والوحيد لكل وضع مخالف لما يرونه من منقولاتهم عن حال اوربا!! وحتى صارت الثورة حتمية لا بد منها وبغض النظر عما تحدثه من هدم وتخريب وهدر للاموال والارواح. فكما اكد ماركس على (حتمية الثورة العنيفة وضرورة تربية الجماهير بهذه الفكرة بشكل منتظم)[1] لتحطيم الطبقة الرأسمالية والاستيلاء على السلطة فكذلك دعا معظم الثوريين العرب فتجد، على سبيل المثال لا الحصر، عبدالرحمن البزاز يؤكد على حتمية الثورة ويرى ان سقوط الضحايا الابرياء خلالها هي الاخرى من ضمن الحتمية التي لا بد منها في الثورات ففي نظره (ان الروح الثورية وحدها كفيلة-آخر الامر- بان تقوم المعوج، وترجع الامر الى نصابه...) فالثورة العنيفة والمدمرة في نظره هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق اهداف الامة بالاضافة لكونها موضة العصر! اذ يقول (ان الروح الثورية المنسجمة مع روح العصر والمتجاوبة مع مطاليب الجماهير والمتسقة مع يقظة الامة العربية وتحفزها هي السبيل الوحيد الذي علينا ان نسلكه لتحقيق الكرامة للفرد، والخير للمجموع ولتتحقق بعد ذلك وقبل ذلك[2] اهداف امتنا العربية في التحرر، والتكتل والتجديد والانبعاث)[3] ويرى انه في حالة فشل الثورة (لا بد من المزيد من التضحيات) وقيام ثورات اخرى حتى تصل الامة في النهاية الى ما تسعى اليه.

---

(١) محمد يوسف: التراجع الضعيف ام انتقام الارشيف ص٢٢

(٢) اذا تحققت اهداف الامة قبل الروح الثورية والثورة فلماذا الثورة اذا وعلى من!!!؟

(٣) عبد الرحمن البزاز: صفحات من الامس القريب ص١٨٣

الثورة عنف

وكون الثورة، كما يراها، هي (شق الطريق الصعب وتذليله) وهي (ركوب المخاطر من اجل بلوغ الغايات) هذا من جهة، وحتمية الثورة من جهة اخرى تجعل لزاما على الامة في نظره ان تسلك هذا الطريق (مهما تطلب من عنف وتحطيم)، ويقول انه قد (يكون في الثورة معنى القلب، والنسف والتخريب، ولكنه-على كل حال- قلب من اجل التعبيد ونسف من اجل التمهيد، وتخريب وتحطيم من اجل البناء والتشييد) وبعد ان اكد كما اكد الافغاني وعبده وغيرهم من قبل في تحريضهم على السلطان العثماني والخديوي المصري، ان المضطهد المستبد لا يتكرم ويعطي للمضطهد المستبد به حقه في الحرية الا اذا اجبر على ذلك يعود فيؤكد ان (الثورة مع هذا كله ليست مجرد انقلاب عنيف، وليست هي تغيير في اشخاص الحاكمين او نوع الحكومات والدول (الثورة) حركة شاملة لها فلسفتها المعلومة ولها اهدافها البيّنة. وهي ليست تغييرا في الحاكمين فحسب... وكل ثورة تقتصر فيها الغاية على استبدال حاكم بحاكم ليست من الثورة في شيء. بل هي مجرد انقلاب، او تغيير حكومة. وما لم تتغير مقاييس الحياة وما لم تتجدد مفاهيم الحكم...)[1] وبما ان الثورة هي موضة العصر كما ذكر اعلاه وحتى يبرهن على ان القومية العربية تقدمية وتواكب العصر يقول: البزاز (ان القومية العربية في واقع الحال ثورية[2]، أي انها عازمة على تغيير اوضاعها الراهنة بحركة عنيفة انقلابية بحيث تستطيع ان تحقق الاهداف العليا التي تؤمن بها، وترى ان لا سبيل اليها في تحقيقها من غير

---

(1) ما هي مقاييس الحياة في نظره حتى يمكن تغييرها بثورة عارمة وعنيفة؟ تخرب وتهدم وتنسف هل يمكن ان يتبدل بهذه الطريقة شيء غير الحكام؟

(2) ماهي القومية العربية في نظره؟ وكيف هي ثورية وتغير اوضاعها بحركة عنيفة؟ فهل هذا يعني انه قبل استيراد الثورية الاوربية لم تكن هناك قومية عربية؟! خاصة وانه ذكر في مكان آخر ان القومية مفهوم اوربي مستورد وقد قام هناك ضد الدين ولهذا لا يمكن ان نجعل الدين من اسس القومية كما سيأتي ذكره!!! أي خلط بالفاهيم هذا؟ وهل تلاقت الامة النقص الفظيع بالثورات؟

طريق الثورة العارمة[١]... ان الروح الثورية التقدمية اساسية لكيما تستطيع بها امتنا العربية... وبها وحدها-تلافي النقص الفضيع في كل ناحية، والتأخر المزري في كل ميدان...) ويبدو انه يرى الثورة والثورية خصيصة او شعار للزينة تتنافس عليها-او عليه- المذاهب المختلفة فتحتكرها هذه او تلك من المذاهب وهو يريد ان يزين القومية العربية بها فيضفيها عليها اذ يقول في مسألة الخلاف بين القومية العربية (وبين ما تريد ان تفرضه بعض المذاهب والافكار السياسية التي تسعى لجعل هذه الصفة-الثورية- حكرا لها وخاصية تقصرها عليها، دون سواها. فليس الخلاف الحقيقي... حول-الحركية- ... وليس الخلاف حول الفعالية الديناميكية... وليس الخلاف الجوهري حول الروح-الثورية- اذ الثورية... خاصية اساسية للقومية العربية وليست هي اقل رغبة بالروح الثورية من تلك المذاهب... والثورية وهذه اهم خصائص التقدمية... تراد في قوميتنا العربية من اجل الامة العربية ذاتها...).

اما عن تقييم الثورة وقياس مدى نجاحها فللبزاز رأى غريب في التقييم يتعارض مع كل نظريات التقييم! قديمها وحديثها، ومع العقل والمنطق، فالتقييم عادة يعتمد على النتائج ومقدار ما حققته من الاهداف المرجوة، اما البزاز فهو يعتمد النيات التي لا يعلمها الا الله اذ يقول: (ان الحكم على اية ثورة لا يكون بمدى نجاحها المباشر بل بصدق الدوافع المحفزة وعمقها[٢]. وانه لمن الجهل والغباوة ان يظن ان الالوف وعشرات الالوف من الضباط والجنود والمفكرين والادباء والتجار وعامة الناس الذين ساندوا الثورة كانوا يعملون من اجل منافع انسان بالذات او من

---

(١) لماذا كل هذا العنف من دعاة النهضة والتحرر؟!! ان الثوريين في دعوتهم للثورة يبدون وكأنهم صبية يبحثون عن الاثارة باي شكل كان وبغض النظر عن نتائجها وعن مدى ملاءمتها مع ما يدعون اليه من حرية وخاصة حرية الفكر والعقيدة واختيار مقاييس الحياة!!!

(٢) وهذه كيف يقيسها يا ترى؟!

اجل مطامح مادية ومنافع شخصية...)[1]. وخلاصة رأى البزاز ان الثورة كما يراها (هي وسيلة للاصلاح الجدي والجذري) (والروح الثورية يجب ان تسيطر على كل اوجه نشاطنا حتى تلك التي تبدو لاول وهلة وكأنها مظهر من مظاهر الجمود. ولنأخذ اعتزازنا بتاريخ امتنا ومآثر ماضينا مثلا على ذلك)[2].

ان ما جاء اعلاه من رأى البزاز في الثورة والثورية ما اختير الا لكونه خلاصة لما ساد ولا يزال يسود فكر كثير من الثوريين!-من خلط وتشويه لمفاهيم الثورة وللمفاهيم بشكل عام. مما جعل العنف والتحطيم والنسف والتخريب الوسيلة الوحيدة لاحداث التغيير باعتباره ثورة وثورية تتلاءم والعصرية والتقدمية المستوردة من اوربا!! وكل يعتقد ان العنف هذا من حقه ان يمارسه في التعامل مع الآخرين ولكن ليس من حق الآخرين ممارسة العنف ضده، فعندئذ، فقط، يصبح العنف منتهى الاستبداد ويفقد خصيصة الثورية والتقدمية!!

وهذا قطر من غيث الدعوة للثورة، والتي مهما اختلفت مفاهيمها النظرية او تشوهت يظل اسلوبها في العمل واحداً ينحصر في خلق الازمات للحكومة القائمة وتحريض ابناء الامة ونشر الاحساس بالظلم بالحق وبالباطل، فيما بينهم وهو اسلوب بدأ العمل به، في العصر الحديث، مع الزحف الاوربي ولم ينتهي حتى يومنا هذا. اذ تحولت المجالس والمدارس الوطنية والجامعات والدوائر وكل اماكن التجمع، وكلما سنحت الفرصة، الى بؤر للشغب وتداول الاشاعات والاخبار التي تزوّر فيها الحقائق ويتلبس فيها الحق بالباطل والباطل بالحق بحسب هذه الفئة او تلك تماما كما كان الحال ايام الافغاني واديب اسحق وبلنت وعبده والمدارس الاجنبية والهيئات التبشيرية الخ... ورغم التحول للعلمانية والتغريب الشديد فان المستهدف في كل ذلك ظل تماما، من اجل ادامة ذلك الاتجاه، كما كان آنذاك، العقيدة الاسلامية وصلاحيتها

---

(1) انظر عبد الرحمن البزاز: بحوث في القومية ص١٨٩-٣١٥

(2) انظر عبد الرحمن البزاز: بحوث في القومية ص١٨٩-٣١٥

للحكم من جهة والحاكم او الفئة الحاكمة من الوطنيين حتى وان كانوا علمانيين وثوريين ومتاوربين! وظل الاستبداد ومبدأ الطاعة كما كان آنذاك اس المصائب والذي جعل ويجعل السلطة ابوية... وبطريركية... الخ... مع ان الدين قد انفصل او كاد عن السياسة في البلاد العربية ورغم ان الحكام او بعض منهم لا يمت الى الاسلام بشيء حتى ولا بالولاء. ومع ذلك فقد ظل المفكرون يعملون في ذات الاتجاه ويتناولون ذات المواضيع ويرددون ذات الحجج والشعارات. من اجل ادامة التغيير التغريبي هذا واستمرار التبعية الفكرية وغير الفكرية للحضارة المعاصرة ولاصحابها. فنجد ان المفكرين المعاصرين وقد تولوا بقصد او بدون قصد مهمة المستشرقين، والمعلمين والمدرسين واساتذة الجامعات حلّوا، بقصد او من غير قصد، محل القسس والمبشرين الاجانب الاوائل في المدارس التبشيرية الاجنبية. في هذا المجال، مجال اعداد الجماهير للعمل نحو الثورة بزيادة الاحساس بالظلم والدونية اللانسانية لغياب الحرية والديمقراطية والاشتراكية-ان كانت غائبة- او لعجزها في حالة وجودها!! فبدل ان يحمل الكّتاب الامانة الموكلة اليهم بامانة واخلاص ويوجهوا الامة الى ما فيه خيرها ويبدأوا معها من النقطة التي هي فيها ويرفعوها ويرتفعوا معها الى ما تطمح هي الى الوصول اليه وليس ما يريده لها الآخرون، الاجانب. والى ما يصلح حالها ويحفظ لها شخصيتها وهويتها وكرامتها وليس الى ما يهدم كل هذه نجدهم يقفون في مكان بعيد مرتفع ضيق لا يكادون يجدون لانفسهم فيه موضع قدم ويدلون للامة سلالم وهمية وحبال بالية يستحيل بواسطتها صعود الامة اليهم! فتظل بعيدة عنهم ويظلون هم في ابراجهم الوهمية ينظرون اليها متعطفين او مشمئزين!! وفي كلتا الحالتين متهمينها بالعجز والكسل!! وكأن هذا العجز والكسل ان صح، ليس هو انعكاساً لعجزهم وكسلهم!! والباحث في اعمالهم لا يجد الا كل ما هو مستورد من غث ما انتجته العقول الاوربية او مما بلى منه مما لا يؤدي الا الى تشتيت الفكر وتفريق الشمل وتحريض بعض ابناء الامة على البعض الآخر مما يضع الامة في متاهات لا نهاية لها تتيه فيها ولا تعرف لنفسها موقفا محددا واضحا.

وبدل ان يحمل المعلم او المدرس او استاذ الجامعة الامانة كما تتطلب منه الامانة فيعلم العلوم المطلوب منه تعليمها، وهو اضعف الايمان برسالته التي تتعدى هذا بعد ان يؤديه على احسن وجه، فهو يعمل في اتجاه التحريض على الثورة تماما كما كان يفعل الافغاني وعبده والبستاني وغيرهم من المعلمين!! فيعرض البديل الاوربي او الامريكي او الروسي او الصيني الخ... الزاهي البراق مقابل الصورة القاتمة الظلام التي يصورها لطلاب العلم عن بلادهم. هذا غير تنظيمهم في هذا او ذاك من الاحزاب التغريبية الاوربية الفكر الداعية للثورة وقبول فكرتها ونشر الاشاعات الباطلة في الغالب معتمدا رأى المعري في الناس اذ يقول:

الناس الى الباطل سراع ولهم الى الفتن اشراع[1]

اما في مجال خلق الازمات للحكومة من اضطرابات ومظاهرات مفتعلة، وكلما سنحت الفرصة ومن الاشارة على ولي الامر عمدا بما يؤدي الى الاضرار بالعامة مما يثيرها ضده، فالامثلة عليها كثيرة ولا حصر لها، هذا غير ما استجد من التخريب واشعال الحرائق والمتفجرات والاغتيالات وقتل الابرياء الخ... والذي شواهده ايضا كثيرة وكثيرة جدا.

الثورة هدف

فتحول مفهوم الثورة بالتدريج من وسيلة لاحداث التغيرات واصلاح الاحوال الى هدف مستقل وغاية قصوى بحد ذاته بعيدا عن الاصلاح!! فنجد مثلا محمد عمارة يقول ضمن تمجيده بالافغاني انه (انسجاما مع هذا الموقف-الثوري-لا-الاصلاحي- نجد استخدام جمال الدين الافغاني سلاح الدين وقوة الايمان في المعركة ضد الاستعمار، فالايمان بالله وبدينه الاسلام، انما يتمثل يوما بايران ضمن ما يتمثل في الاقلاع عن التدخين للتمباك عندما يكون امتيازه بيد الاستغلاليين

---

[1] المعري: رسالة الغفران ص٢٢٨

الانجليز اصدقاء ناصر الدين)[1]. اذ اصبحت الثورة على ناصر الدين هي الـــهدف واستخدم الدين والايمان بالله مجرد وسيلة لتحقيق هذا الهدف، وحتى كوسيلة فـــهو يستخدم بالباطل اذ يحرم التنباك (ويمنع استخدامه) ليس لانه حرام او لانـــه مضـــر بالصحة او لانه تبديد للاموال، ولا حتى لان المستثمرين اجـــانب، يحـــرم بعـــض المتشددين المسلمين التعامل معهم، ولكن لان المستثمرين هم اصدقاء ناصر الدين!!

الثورة شعار للزينة

وهكذا صارت الثورة والثورية شعاراً تتحلى به المذاهب السياســـية وتتنـــافس على من يبز الآخر بثوريته! ولذلك وجدنا عبدالرحمن البزاز يؤكد على ان الثوريـــة ليست حكرا على بعض المذاهب التي تدعي ذلك ويجهد نفسه بمناسبة وغير مناسـبة ليؤكد على ان القومية العربية ثورية!!وليس هذا فقط بـــل هـــي فضيلـــة يلصقـــها المفكرون النهضويون بمن يحبون ويجلّـــون مـــن الافـــراد والاحـــزاب والـــهيئات ويجردون منها من يكرهون! فمن يريدون مدحه من الافراد او الاحزاب او الافكـــار والاعمال فهو ثائر وثوري وعمل ثوري وقرار ثوري وفكر ثوري الخ... فالافغـــاني الذي دخل افغانستان وهي مستقلة وخرج منها وهي مستعمرة ودخل مصر وهـــي مستقلة ولم يخرج منها الا وهي مستعمرة، ثوري وطريقته الثورية (اتـــت ثمارهـــا خاصة في الميدان السياسي، فحركت الشرق من سباته العميق ومـــهدت الطريـــق لاستقلال اغلب الدول الاسلامية)[2] والوسائل التي تخيرها كما يرى طهارى محمـــد (لتحقيق غاياته كانت وسائل الثورة السياسية... وكان يريد تحقيق النتائج قبل وفاتـــه فنراه يكافح لقلب النظام القائم ويستعمل حتى القوة...) مـــن خلـــع وقتـــل الامـــراء المسلمين من اجل ذلك حتى انه قال في حديث له مع الاستاذ الانجلـــيزي بـــروان

---

(١) انظر الاعمال الكاملة (لو كان السبب هو لان امتيازه بيد الانكليز، هـــل كـــان سـمح لـــه الانكليز بالهجوم على الشاه من مقره في لندن؟ وهل كان هيئوا له صحيفة لهذا الغرض!!

(٢) طهاري محمد: مفهوم الاصلاح بين الافغاني وعبده ص١٥٠-١٥١

(... لا امل في الاصلاح قبل قطع ست او سبعة رؤوس وسمى بالاسم شاه العجم وكبير وزرائه، وكلاهما قتل بعد ذلك)[1] والافغاني كما يرى محمد عمارة لم يحقق (غاياته في ارض الواقع ولكن... بحسبه انه كان ولا زال الاب الشرعي للمد الثوري الذي هب الشرق من رقدته متسلحا به في معركته المقدسة التي ما زالت مشتعلة حتى الان بين جماهيرنا المناضلة وبين قوى التخلف والرجعية والجمود ومعاقل الاستبداد والاستعمار والاستغلال)[2]!!!

ومحمد عبده لابد ان يكون ثائرا مثل استاذه ومرافقا له في اعماله وحتى في الثورة العرابية التي يتبرأ منها عبده نفسه يؤكد احمد امين ان عبده كان احد اسبابها فيقول: (وان كان للثورة العرابية اسباب، فكان هو سببا من اسبابها ولكنه سبب بعيد، لا كعبد الله النديم سبب قريب، ثم انقلب الشيخ محمد عبده سببا قريبا يوم حميت النار. فلئن اتهم بأنه من زعماء الثورة وحوكم عليها فقد كان ذلك حقا)[3]

ويرى العقاد ان برامج الكواكبي في الاصلاح (هي خطة ثورية لقلب نظام الحكم المطلق في بلاد العرب واقامة الحكم القومي...) ويستشهد على ثورية الكواكبي بقول الاخير (لو ملكت جيشا لقلبت حكومة عبد الحميد في اربع وعشرين ساعة)[4]. ولم يقتصر اضفاء الثورية على التعامل مع مفكري النهضة والنهضويين وانما امتد الى تعاملهم مع الدين والتراث. فالدين الاسلامي ليس دينا سماويا او وحيا من السماء وانما هو ثورة عربية! او افكار مشتقة من واقع الامة اذ يقول محمد عمارة: (لم يكن العمل السهل ذلك التطوير الثوري الذي كانت تهدف اليه الثورة

---

(1) ذات المصدر ص١٢٢-١٢٣ (بروان هو مستشرق انكليزي)

(2) محمد عمارة: الاعمال الكاملة جـ١، ص٤٨

(3) احمد امين: زعماء الاصلاح ص٣٢٦ - ٣٢٧

(4) العقاد: الرحالة ك، الكواكبي ص ٢٤٧-٢٤٨ فهل يستغرب المرء اليوم ان وجد ان كل من ملك جيشا قلب نظام الحكم؟ فهو ما علمهم اياه المفكرون الاوائل!!!

العربية المتمثلة في تعاليم الاسلام ولا هو بالامر الهين تحويل الافكـــار والطاقــات الثورية اللتين كانت حبلى بها ارض الواقع الى حقيقة موضوعية معاشة) فالاســـلام بالنسبة لمحمد عمارة هو عروبة وحركة عربية صرفة تخص العـــرب وحدهــم اذ يقول (جاء الاسلام... ووحد الجماعات العربية على اسس جديـــدة، وجعــل مــن العروبة نسبا جديدا يفوق في قدسيته نسبة الارحام) ويؤكد بشرية الاسلام وثوريتــه فيقول عن معالجة الاسلام لمسألة العبيد (وهو الاسلوب الثوري، رغم تدرجه انمـــا يمثل علامة بارزة على طريق نضال الانسانية المتقدمة ضد المجتمع، وقد وضعــها ورعاها نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام. وثورة العرب الاولى منذ اربعة عشـــر قرنا من الزمان)[١].

وكل الحركات الشعوبية والمرتدة الى الوثنية الاولى في تاريخ الامة الاسـلامية هي ثورات مجيدة قام بها ثوار احرار!! فاخوان الصفا الذين اعتبروا (الفلسفة كـــل شيء) والذين تبنوا الكثير من قضايا الافلاطونية الحديثة... فخلطوا الاسلام وثقافتــه بغيرها من الديانات والثقافات) وفصلوا الفلسفة عن الشريعة واعتــبروا الشريعـــة (طب المرضى والفلسفة طب الاصحاء ومن اجل ذلك فهم عندما يعددون الانبيـــاء يذكرون نوح وابراهيم وسقراط وافلاطون وزرادشت...) فهم في نظر محمد عمـارة مثلا: ثوار ورسائلهم كما يقول: (تقف من تراثنا العلمي العربي موســـوعة علميــة تقدمية ومهاما ثورية لجماعة ثورية لعبت دورا متقدما في الصراع الفكـــري ضــد السلطة الاقطاعية وقيمها) فهم كما يراهم محمد عمارة (جماعة متميزون يتخـــيرون من كل دين ومذهب ما يناسب عقليتهم لا يتورعون عن الاقتباس مـــن النصرانيـــة

---

(١) محمد عمارة: فجر اليقضة العربية ص٥٨-٦٤ (انظر تناسق اقوال عمارة مع مـــا اشـــاع الاوربيون من ان الاسلام دين وضعه محمد مما اقتبسه من افكار سائدة في الجزيرة العربية وانه ثورة عربية وتخص العرب وحدهم وليس على غير العرب التمسك بالاســـلام علـــى ذلك).

واليهودية، ووثني اليونان والفرس والهند وما يرون انـــه معقـول)[١] هـذا غـير الحركات الاخرى مثل حركة القرامطة التي بدأها عبدالله بن ميمون الفارسي الاصل والنشأة حوالي منتصف القرن الثالث للهجرة، بدافع من حقد قديـم علـى العـرب والاسلام وطموح بلا حدود جعله يحاول ان يجمع (في جمعية سرية واحدة... كـلا من المفكرين المتعصبين) للدين والمعارضين له و (ان يستخدم المؤمنين ليسلط غير المؤمنين) ويستخدم العرب للاطاحة بالدولة الاسلامية التي اسسـوها، (وان يؤلـف حزبا وافر العدد، متماسك ومعتاد على الطاعة، قادر متى آن الأوان، علـى منـح العرش اما له واما لاولاده من بعده... وللوصول الى هذه الغاية ابتكر مجموعة مـن الوسائل التي يمكننا بحق ان نصفها بالشيطانية. اعتمد فيها على كل مواطن ضعـف الانسان، فاظهر التقوى للورعين والحرية وحتى الاستهتار لغير المبالين، والفلسـفة للنفوس الكبيرة، والآمال الصوفية للمتعصبين، والعجائب للعامة. كذلك منح اليـهود مسيحا، والمسيحيون مختارا، والمسلمون مهديا واخيرا قدم لاهوت فلسـفي لاتبـاع الوثنية الفارسية والسورية. وقد وضع هذا النظام موضع التطبيـق بـهدوء وحـزم يثيران الدهشة ويكادان، اذا غض النظر عن الهدف، ان ينتزعا اعجابنا الشـديد)[٢] كما يقول ميكال خويه مؤلف كتاب القرامطة.

وقد عمل القرامطة على هدم الدين والدولة الاسلامية التي تقوم علـى اساسـه وكانوا يعلمون البدو وغيرهم (ان الصلاة والصيام والحج نوافل لا حاجة لعبـاد الله

---

(١) أي مفهوم مهلهل هذا للفكر والنظرية وللمعيار؟! فكيف يمكن لمفكر او لاي انسان ان يكون فكره مهلهلا بهذا الشكل نتفة من هنا ونتفة من هناك وكأنه يطبخ حساء الصدقات او يصنـع مسبحة الدراويش؟ واين الابداع في هذا الاقتباس حتى ان امكن ذلك؟ واين العلمية والثورية في هذا العمل؟ ومن قال انهم اصلا من العرب حتى يكونوا من التراث العلمـي العربـي؟ والثوري ايضا!! وهل كان هناك سلطة اقطاعية كمـا فـي اوربـا حتـى نقتبـس حتـى المصطلح؟!!

(٢) ميكال خويه: القرامطة ص١١-١٢

الحقيقيين بها)[1] وهم الذين اختطفوا الحجر الاسود وكانوا يهاجمون الحجاج ويعتدون عليهم مما كان يعرقل الحج، بل يمنع في كثير من الاحيان المسلمين من الحج مستهدفين (انتهاك حرمة مكة والقضاء على الهالة التي كانت تحيط بالاماكن المقدسة... والاجهاز على الديانة كلها...)[2] وقد هاجم ابو طاهر، احد قواد القرامطة، مكة المكرمة وبعد قتال عنيف مع المدافعين ولى عليها ويصف المؤرخون المعركة بانها (مأساة رهيبة لا توصف تلت دخوله المسجد، تشبث الفقهاء الاتقياء والشيوخ الاجلاء بغطاء الكعبة الشريفة مصلين باكين، وتراكضت النسوة جزعا هنا وهناك، وفي وسط الخضم البشرى كنت ترى جنود ابي طاهر الشرسين يقتلون ويدوسون كل شيء ويصيحون بضحاياهم بسخرية ووحشية...)[3] ساخرين من القول بان من يدخل البيت الحرام يكون آمنا. ولما هم ابو طاهر بمغادرة مكة انشد قائلا:

ولو كان هذا البيت لله ربنا	لصب علينا النار من فوقنا صبا
لاننا حججنا حجة جاهلية	محللة لم تبق شرقا ولا غربا
وانا تركنا بين زمزم والصفا	جنائز لا تبغى سوى ربها ربا[4]

وهذه الحركة التي ليس لها لا بالعروبة ولا بالاسلام وغيرها الكثير كلها بالنسبة لمحمد عمارة تيارات فكرية ثورية لم تفرق كلمة الامة وتشتت شملها كما هو واقع الحال الذي يؤكده المؤرخون بل هي بالنسبة له (كانت اداة صهر وبلورة وتوحيد

---

(1) ذات المصدر ص١٣٢

(2) ذات المصدر ص٩٢

(3) ذات المصدر

(4) ذات المصدر

للجماعة العربية...)[1] وحتى ابو ذر الغفاري الذي كان من المحرضين على قتل عثمان (رضي الله عنه) مما ادى الى كل تلك الفتنة التي لا تزال الامة تعاني منها تفرقا وتشتتا فهو ثوري ما دام قد دعا للعنف وقد قال (عجبت لرجل لا يجد في بيته قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه؟)[2] مع ان هذا ليس من الاسلام ولا من أي عقيدة سليمة من الامراض، في شيء فالمسلم غير مطالب ولا حتى مسموح له بشهر سيفه على الآخرين وقتلهم ليقتات مثل الحيوانات الكاسرة، ويطعم عائلته مما اغتصب وانما هو مأمور بالتشمير عن ساعد الجد والعمل من اجل ذلك، وخير الجهاد الجهاد في سبيل الرزق. وهذا الرسول الكريم ﷺ، قدوة المسلمين، عندما جاءه اعرابي يطلب منه ان يعطيه مما اعطاه الله رفض الرسول ﷺ وطلب منه ان يبيع قصعته التي هي كل ما يملك ويشتري بثمنها حبلا وفاسا فيحتطب ويقتات من جهده وعرقه، فاين اسلام ابو ذر هذا عندما يدعوا الى الفتنة واشهار السيف والقتل من اجل القوت؟ فهل كان ابو ذر اكثر حكمة من رسول الله ﷺ ؟ ام كان اكثر عدلا واكثر رحمة منه؟!!

ان كان يحق للعامة من الناس ان تنبهر وتعجب بابسط الكلام فهل يحق لمن يتصدى للفكر وللثقافة وتوجيه العامة ان يقع بمثل هذه المطبات ويتشبث بمصطلحات لا اساس متين لها ويفرط في استخدامها بهذا الشكل؟ كالثورة والثورية!!!

الثورة للثوار فقط

وقد جعل بعض الثوار ومفكرو ثوارتهم من الثورة مصعدا خاصا لهم يرفعهم دون سواهم، وباسم الامة او الشعب الى مواقع السلطة لتحقيق مطامحهم ومطامعهم واهدافهم العامة – والخاصة التي لابد ان تتواجد–او يجعلونها سلما يتسلقون عليه

---

(١) انظر محمد عمارة: فجر اليقظة العربية ص١٣٤-١٤١

(٢) ذات المصدر

الى هذه المواقع ويكسرونه بعد ذلك حتى لا يصعد عليه غيرهم متأثرين بذلك ليس فقط بالانانية وحب الذات وحب العلو في الارض وانما بهذا وذاك من مفكري اوربا والذين يرون الحق فيما يرونه هم من دون سواهم مثل ماركس ولينين بعده والذي ينظر الى الدولة نظرتين مختلفتين فهي عندما لا تكون شيوعية (فيجب تحطيمها بجميع الوسائل وعلى رأس هذه الوسائل الثورة والعمل السري والجهري للاطاحة بالنظام الجائر)! فبالنسبة له ان الدولة ما دامت (في قبضة بشر غير الشغيلة) فهي (عنوان الظلم والجور ويجب القضاء عليها. ولكن عندما ينفرد الشغالون والطبقة الشغيلة بالحكم تصبح الدولة عندئذ كسبا واداة للازدهار والعدالة...) يجب المحافظة عليها وكل من تسول له نفسه التعرض لها فهو عدو للنظام وللشعب يجب ان يقضى عليه لان الدولة البروليتارية يجب ان (تكون قوية وان تقبض على الامور بيد من حديد) ومن هذا المنطلق (قضى لينين عام ١٩٢١ بقساوة وبشاعة تقشعر لها الابدان لا على البرجوازين او القياصرة فحسب بل على الشغالين المنخرطين في الحزب الشيوعي انفسهم لانهم انتقدوا الاسلوب الذي كان لينين وتروتسكي عندئذ يحكمان به البلاد الروسية)[١]. فالثورة هي فقط للثوار الذين نجحوا في القبض على مقاليد السلطة وليس لغيرهم ان يحذو حذوهم. وكل من يحاول ذلك لا يكون ثوريا وطنيا مخلصا لامته مضحيا في سبيلها كما كانوا هم قبل ذلك وانما يصير عدواً للشعب مجرم وخائن الخ... والموت للخونه اعداء الشعب والشعوب!!!

الثورة شعبية ولكن من غير الشعب

كل الثورات التي قامت وتقوم كما يدعي الثوار ومفكروهم باسم الشعب ولكن اين الشعب الذي تقوم باسمه كل هذه الثورات؟ ومن هو؟ هل هو هذه الفئة الصغيرة مهما كبرت، والتي احدثت الثورة بالقوة العسكرية؟ ام تلك التي تنتظر دورها في ذلك؟ ام غيرها... وغيرها... وغيرها الخ... الى ما لا نهاية؟ ام الاكثرية الصامتة

---

[١] انظر محمد مزالي: دراسات ص ٢٢٣

التي لا تعرف لماذا هذه التغييرات ولا تعلم بالثورة الا من بيان رقم واحد؟ واحيانا يصل البيان الى رقم عشر او الف!! وهي لم تعلم بها. ام هذه الملايين التي تدفع حياتها ثمنا لرفضها للثورة مثل الملايين التي قتلت وشردت في كل من الصين وروسيا والثورة الفرنسية وغيرها من الثورات؟ ايا من هؤلاء هو الشعب الذي تحدث الثورات بإسمه؟ وتزهق الارواح بإسمه؟ وتملاء السجون باسمه؟ وتهدر خيرات البلاد بأسمه؟ ومما يذكر هنا ان بحثا اجري مؤخرا في الصين تبين فيه ان عددا كبيرا من ابناء الريف لا يزالون يعتقدون ان الرئيس ماو لا يزال على قيد الحياة ويحكمهم! ولم يعلموا انه مات منذ سنوات طويلة حدثت خلالها وباسمهم! عدة تغييرات سجن خلالها من سجن وكوفئ من كوفئ وانفتحت الصين على العالم وانغلقت، وانفتحت مرة اخرى وانغلقت وكل ذلك كان باسمهم!!

ويحكي عبد الكريم الازري ما شاهده في ايران اثناء حركة مصدق في صيف عام ١٩٥٣ اذ يقول (رجعنا الى الفندق وفوجئنا بمظاهرة عظيمة تحمل شعارات شيوعية كانت تسير في شوارع البلدة وكان المتظاهرون يهتفون بسقوط الشاه والملكية ويهتفون بهتافات شيوعية ثم استمعنا في مساء ذلك اليوم الى الاذاعة الايرانية وهي تذيع الخطاب الذي القاه الدكتور فاطمي – وزير الخارجية في حكومة مصدق – وقد حمل فيه على الشاه حملة عشواء.) وفي اليوم التالي وعندما نزل الى المدينة وجد (كثيرا من معالم النظام الملكي قد اختفت وان تمثال رضا بهلوي... امام البرلمان قد اطيح به... والشعارات الشيوعية قد غطت ... جدران الشوارع) ولكن بعد ايام وما ان دخل الجنرال زاهدي الى دار الاذاعة ليعلن القضاء على الحركة شاهد موظفي الفندق (يسارعون الى اعادة تعليق صورتي الشاه والامبراطورة ثريا في الجدران والاماكن التي كانت معلقة فيها سابقا) وفي الشوارع تجمهر الناس ليتعرضوا لكل سيارة لم تعلق عليها صورة الشاه ملوحين بسيوفهم وخناجرهم ولما رجع الشاه استقبله الشعب (استقبالا عظيما) واحضر اصحاب المتاجر وغيرهم الخراف والعجول لينحروها (تحت اقدام الجنود ودواليب السيارات

المدرعة)[1]. فمن من هؤلاء هو الشعب الذي يجب قامت الثورة باسمه؟ وقامت الثورة المضادة باسمه؟ ومن منهم عدو الشعب الذي القضاء عليه ومن منهم صديق الشعب والوطني والمخلص الذي يجب ان يمنح المنح والمكافآت بغير حساب؟!!

ان الثورات نظريا تقوم على افتراض ان هناك مستبد او طبقة مستبدة من جانب ومستبد به واحد-امة او طبقة-من جانب آخر متغاضية عن الاختلافات العقائدية السائدة وخاصة تلك التي زرعتها التبعية للحضارة المعاصرة في هذه الامة او تلك. فبفضل النظريات العلمانية والفلسفات والعقائد والمفاهيم المتضادة والمتناقضة المستوردة من هذا الفكر او من ذاك المفكر الاجنبي لم تعد الامة امة بمعنى الكلمة، اى ان تجمعها فلسفة واحدة وعقيدة واحدة واهداف موحدة، بل اصبحت الامة امما واصبح الشعب شعوبا واصبح لكل فئة من هذه فلسفتها ومفاهيمها، تختلف عن غيرها وصار لكل منها اغراضا تريد تحقيقها بوسائلها الخاصة بها، تختلف عن غيرها، وان قامت ثورة لتحقيق اغراض احداها فلا يكون ذلك الا على حساب اغراض الفئات الاخرى ومفاهيمها، وهدر لحريات الاخرين واستبدادا بهم؟ وحتى عندما تتجمع بعض الفئات مرحليا ماذا يحدث بعد نجاح الثورة سوى التنافس والتقاتل؟ فمن هو الشعب هذا الذي تقوم الثورات باسمه؟ مرة اخرى!!

وسواء أكانت الثورات باسم الشعب، وبالشعب ام من دون الشعب، فماذا حققت الثورات؟ حتى يتمسك بالدعوة لها المفكرون الى هذه الدرجة؟ اما آن الآوان لهم ان يتفكروا ويجددوا ويجدوا بديلا حضاريا للثورة كوسيلة للاصلاح وللتغيير بدل اعتماد اسلوب قابيل وهابيل البدائي في حل المشكلات؟ اما آن لهم ان يتفكروا ويبدعوا حلولا لمشكلات مجتمعهم غير تلك التي سبقوا اليها وهم لا يشعرون؟!!

الى متى سيظلون يرددون هذه الكلمات: ثورة، ثوري، وثورية الخ... حتى صارت من مستلزمات الخطب والكلمات لا يستبعدها خطيب او متكلم حتى وان كانت المناسبة نعي صديق او فرح قريب فالاول لابد انه كان ثوريا مؤمنا بالثورة

---

(١) عبد الكريم الازري: تاريخ في ذكريات ص٤٠٠-٤٠٣

عاملا من اجلها! والاخر مقدما على عمل ثوري يضيف به الى جيل الثورة ثورية جديدة!! وهكذا حتى صارت هذه الكلمات تثير من ابتسامات السخرية اكثر مما تثير من الحماس لدى السامع. ولذلك نجد الدكتور فهد العرابي الحارثي يتحدث عن مؤتمر حضره (حول التنمية والطفولة الذي عقدته الجامعة العربية في تونس) بعد ان اسقمته (الكلمات التي تفرقع عن التنمية والتكنولوجيا المستعارة والصناعة الاستهلاكية والعمالة العربية المعطلة العاجزة، وضبابية الرؤيا الانمائية، و غياب الديمقراطية السياسية وضيق القاعدة المسهمة في صنع القرار، والازمة التي تعيشها قوى التغيير في المجتمع العربي والمثقفون الملتزمون، التقدميون والمؤسسات النقابية الخ...) يقول (اما الطفل المسكين الذي عقد من اجله المؤتمر فقد كان يلمح اليه - في زحمة هذه الكلمات بطريقة خجولة... فكاني شعرت في لحظة ما اننا في مظاهرة كلامية تهدف في ابسط نتائجها الى الهائنا عن المشكلة الام التي جئنا من اجلها...) ولذلك نصح مستهزئا الحريصين على حضور المؤتمرات ان (يستخدموا في خطبهم بعض الكلمات السحرية الخلابة مثلا. الثورة- والثور المضادة- فانهم بذلك سيحققون غايتين انيتين هامتين الاولى وهي الظفر بنصيب وافر من التصفيق والهتاف اللذين سيدويان في القاعة والثانية هي تحلق المعجبين والمعجبات حولهم بعد انتهاء الجلسة خارج القاعة!)[1].

وخلاصة القول فان الدعوة للحرية والديمقراطية والاشتراكية ولفصل الدين عن الدولة-لازالة عقبة الدين- لم تكن الا وسائل لتحقيق غايات ومصالح اخرى تتمحور حول الثورة وقلب النظام ولذلك لم تتسم هذه الدعوات بالمصداقية والموضوعية ولم تحقق اهدافها بالنسبة للامة. والثورة لقلب النظام ايضا لم تتسم بالمصداقية وذلك لان دعاتها والعاملين لها من افراد واحزاب واتجاهات يستغلون عدم الرضى الذي ينشرونه بادعاءاتهم عن الحرية والديمقراطية والاشتراكية والمساواة والرفاه

---

[1] من مقالة له باسم المثقف والامير والطفل نشرت في مجلة المنتدى العدد ١٧ السنة الثانية شباط / فبراير ١٩٨٧ (عمان)

الاجتماعي وغير ذلك مما هو غائب او مشوه وسيتحقق بـــالثورة وعلـــى ايديـــهم! ليصلوا الى السلطة وما ان يصلوا حتى تصبح الحرية خرافة والديمقراطية عمالـــة للاستعمار وهكذا تسقط كل الشعارات ولذلك ما كان يمكن للثورات ان تحقق شـــيئا يذكر من طموحات الامة، فما قام على البـــاطل لا يمكـــن الا ان يكـــون بـــاطلا، والثورات في الغالب قامت على شعارات باطلة استخدمتها فقط كوسيلة للوصول الى السلطة ولذلك انتهت معظم الثورات عند حد استبدال طبقة حاكمة باخرى مما جعـــل توفيق الحكيم مثلا يرى (ان الثورات بمعناها الدقيق تنتهي عادة بمجرد تحويلها الـــى نظام حكم رسمي) ويستشهد بثورة عام ١٩١٩ التي يرى انها (انتهت بعـــد ان ادت مهمتها باستقرار نوع من الحكم الملكي البرلماني وتعيين زعيمها سعد زغلول رئيسا للوزارة... كذلك الثورة الفرنسية انتهت وادت مهمتها بتحول فرنسا الى نظام حكـــم امبراطوري في عهد نابليون والثورة الروسية ادت مهمتها بعد ان تسلم لينين السلطة واستقر نظام حكمه... وكذلك الحال في ثورة مصر ١٩٥٢ فقد ادت مهمتها باعتلاء زعيمها رئيسا للجمهورية...)[١] ويذكر توفيق الحكيم مكاسب ثورة ١٩٥٢ رغـــم ان كلها مكاسب تافهة في نظره فتحديد الملكية وتمليك الفلاح المعدم عـــدة افدنـــة لـــم تستطع ان تحقق اصلاحا زارعيا حقيقيا ولم تخرج الفلاح مـــن صـــورة (الفـــلاح الفرعوني بمحراثه الخشبي الخ...) والتصنيع لم يحقق شيئا والجلاء حدث بالشـــروط التي كانت احزاب ما قبل الثورة ترفضها لانها مجحفة بحق مصر ولو كانت قبلتـــها كما يقول لكان تحقق الجلاء قبل الثورة بزمن طويل[٢] ومع ذلك فهو يرى انه حتـــى لو كانت (هذه المكاسب حقيقية) فان (هناك خسارة لا شك فيها ولا يعدلها) عنـــده أي (مكسب، ذلك هو ضياع وعي مصر)[٣].

---

(١) توفيق الحكيم: عودة الوعي ص٦٨

(٢) ذات المصدر ص٤٩

(٣) ذات المصدر ص٧٥

وتوفيق الحكيم لم يكن الوحيد من بين المفكرين الذين اكدوا فشل الثورات في تحقيق اهدافها، هذا ان كانت لها اهداف غير التسلط على الحكم ونقل الثوار من طبقة المحرومين الى طبقة المحظوظين!! ليستأثروا بكل المكاسب والمغانم كما حدث في كل الثورات وفي كل مكان من العالم. اذ نجد ان اديب اسحق، مثلا وهو احد دعاة الثورة ومن المعجبين بالثورة الفرنسية، ورغم تأكيده في اماكن مختلفة من اعماله على دكتاتورية نابليون، ابن الثورة الفرنسية، وعلى ما حدث في زمانه من هدر للحريات وللحقوق الاخرى، الا انه يرى ان فشل الثورات مقتصرا على دول الشرق فقط اذ قال يصف الثورة والثوار في الدول الاوربية:

(تصورتهم فرقا واوزاعا باسمال تشف عن الجلود، يتدافعون في المسالك صائحين... زاحفين مكشوفة رؤوسهم للسائفين، مفتوحة صدورهم للرماة، يبتسمون للموت سآمة من الحياة، فلا ينثنون عن القصد حتى يقف آخرهم على رأس اخيه، من ربوة اشلاء ذويه، فيرفع بيده اللواء صائحا: ليفنى الظلم، او ينزع النصل مناديا، لتحي الحرية: فقلت ما لهؤلاء الناس يهرقون الدماء، ويغتالون الرؤساء، ويفسدون في الارض، قالوا لحجب الدماء، ودفع الغلبة، وجلب الصلاح، قلت وكيف تسمون ما يفعلون، قالوا الثورة، قلت هي الدواء التي كانت هي الداء...) ثم يقول عن اهل الشرق (فقلت ما لهؤلاء الناس يفعلون ما فعل الغربيون وفوق ذلك، ولا ينالون بعض ما نال اولئك، فقالوا لا يقاتلون عن انفسهم ولا نحسبهم على بينة مما يقصدون. وانما يقتادهم الطامعون بسلاسل الوهم فهم في الثورة دعاة زعيم وعصاة زعيم لا ينشطون بها من عقال، الا ليربطوا بآخر من مثله او اشد، فيكونوا كالمستجير من الرمضاء بالنار...) ولذلك يقول: (... فآليت الا امسك القلم عن تهيئة الخواطر لثورة الانفس حتى ارى في منبتي ما رأيت في غيره من محاسن اثارها...)[1].

---

[1] علوش: اديب اسحق، الكتابات السياسية ص١٣٤-١٣٥

واذا كان اديب اسحق يقصر فشل الثورات على الدول الشرقية فقط فان سلامة موسى رغم تحمسه للثورة الفرنسية وللفكر الثوري يرى ان الثورات في كل العالم لم تحقق الكثير مما دعت اليه اذ قال: (ان هذه الثورات التي قام بها الاحرار في العالم... هبت لتحقيق مبادئ الحرية والعدالة والشرف، انتزعت هذه المبادئ من الملوك والطغاة ودعاة الظلام، وهزمتهم وحطمتهم. ولكن ما هو ان تحطموا حتى ظهر غيرهم فكادوا لهذه المبادئ وزيفوها او الغوها، ولذلك ما زلنا بعد خمسين ثورة في اقطار العالم نجد الطغاة ودعاة الظلام يتحكمون ويتبخترون، ويكيدون للشرف، بما في قلوبهم من خسة. ويبصقون على الانسانية بما ينطوون عليه من حيوانية، ويحاربون الحب بما تحتقن به نفوسهم من بغض)[1] ويذكر الثورة الفرنسية فيقول (لقد نادت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ بالحرية والاخاء والمساواة ومع ذلك لا تزال فرنسا الى اليوم في حاجة الى ان تكرر هذا النداء وتستعيد هذه الذكرى)[2] ومن الامثلة التي يذكرها هو ما فعل نابليون في فرنسا وفي خارجها اذ يقول (ان نابليون الذي نشأ على مبادئ الثورة تنكر لها عندما وجد تاجا وعرشا وحاشية وبلاطا وقصورا وحضايا) ولهذا عندما ثارت هايتي واعلنت الاستقلال عام ١٨٠٠ لم (يطق ظهور دولة حرة تنهض على انقاض مستعمرة من العبيد ولذلك انفذ اسطولا وجيشا الى هايتي) وهزم زعيمها (توسان لوفيرتور والقى القبض عليه ووضعه في سجن في فرنسا ليموت عام ١٨٠٣ واعاد نابليون وليد الثورة الكبرى، الرق الى هايتي!!

اما عن دول الشرق فيذكر الفشل الذي منيت به ثورة ١٩١٩ في مصر اذ يقول ان اعظم الاسباب لثورة ١٩٥٢ (... هو الفشل الذي انتهت اليه ثورة ١٩١٩ فقد كانت هذه الثورة تنطوي على اهداف عديدة منها استخلاص الاستقلال من الانكليز ولم تنجح في هذا ومنها الحد من استبداد الملك-فؤاد- باعلان الدستور، ولم تنجح

---

(١) سلامة موسى: كتاب الثورات ص٦

(٢) ذات المصدر

في هذا، ومنها جهاز حكومي عادل للادارة والقضاء ولم تنجح في هذا ومنها تعميم التعليم ولم تنجح في هذا ومنها ايجاد العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب ولم تنجح في هذا)[1].

والكل يذكر ما حدث لثورة الاتحاد والترقي على السلطان عبدالحميد وما جلبوه من الخراب والدمار على بلادهم، اذ فشل الاتحاديون (في تنفيذ ما وعدوا به الشعب قبل استيلائهم على الحكم. فهم قد وعدوا بطرد النفوذ الاجنبي من البلاد وها هو زعيمهم-انور- يغرق البلاد بالضباط الالمان الذين استقدمهم بصفة مدربين-وخبراء- لاعادة تنظيم الجيش. كما ان مطامع الدول الكبرى ازدادت شراهة بامتصاص خيرات الامبراطورية وثرواتها) واقتسام مناطق النفوذ في ولاياتها فيما بينها (اما على الصعيد الداخلي البحت فقد بقي كل شيء على فساده الذي كان متفشيا ايام عبدالحميد: فالفقر منتشر بين جميع طبقات الشعب في المدن والقرى... واساليب القمع والارهاب التي يمارسها كبار الضباط في جمعية الاتحاد والترقي ومناصروهم) كما هي ان لم تكن اكثر شراسة وكذلك سياسة القروض الاجنبيه التي انتقدوا عبدالحميد لاجلها اتبعوها بشكل اقسى مما كانت عليه واخذوا الرشاوي من اجل عقد صفقاتها كما فعل جاويد الذي اصبح وزيرا للمالية على عهدهم اذ استدان مبلغ (٥٠٠ مليون جنيه استرليني من بريطانيا وفرنسا وسرت اشاعات قوية بانه اخذ-عمولة- على تدبير هذا القرض تقدر بالملايين... كما انه باع سكة حديد بغداد للالمان واخذ حصته من هذه الصفقة...)[2].

اما ديمقراطيتهم ومجلسهم النيابي فيدل عليهما ليس فقط ما فعلوه بالمعارضين لهم في كل مكان وفي البلاد العربية بالذات حيث علقوا المشانق للاسلاميين الذين عارضوا ادخال القوانين العلمانية اولا ثم علقوها للعرب الموالين لهم ولعلمانيتهم بعد

---

(١) ذات المصدر

(٢) مصطفى الزين: اتاتورك ص٣٥-٣٦

ذلك في عام ١٩١٦ كما مر ذكره. وانما يدل عليهما ايضا ما ساد حكم مصطفى كمال-اتاتورك- الذي هو امتداد لهم ولحزبهم، من فساد حكم واخلاق ودكتاتورية يذكرها كتاب سيرته، فمن ديمقراطيته مثلا انه عندما اراد الغاء السلطنة في تركيا، رغم علمه ان الشعب يؤيدها ويقف في وجه الغائها، طلب من انصاره ان يحضروا الى الجمعية الوطنية لمناقشة الامر (على ان تكون مسدساتهم في وسطهم لاخماد اصوات المعارضين الى الابد اذا اقتضى الامر) وقال في اجتماع اللجنة (... ان هذا امر مفروغ منه سينفذ شئتم ذلك ام ابيتم... ولكن حذار... فاذا ما تماديتم في معارضتكم فان رؤوسكم ستسقط) فوقف رئيس اللجنة (وفرائصه ترتعد من الخوف فقال بصوت مختنق: (ايها السادة لقد اوضح-الغازي- المسألة بصورة لم نكن ندركها من قبل... لذلك فانني ارجو منكم جميعا الموافقة على الاقتراح) ووقع اعضاء اللجنة بانامل مرتجفة على قبول الاقتراح ولما دخلوا الجمعية الوطنية وبدأ النواب في المناقشة والمعارضة صاح مصطفى كمال فيهم بلهجة التهديد (وكان انصاره قد سحبوا مسدساتهم ووضعوها امامهم على المقاعد للتهديد)[1].

ولكن ورغم كل مظاهر فشل الثورات التي تبدو في كل مكان فان المفكرين النهضويين العرب لا يزالون يمجدونها للتدليل على تقدميتهم وعقلانيتهم! ولم يقتصر الامر على النهضويين فقط بل حتى الاسلاميين، صارت الثورة والثورية شعاراً لهم، فصارت المساجد منابر للتحريض على العنف بكل انواعه مما زاد ويزيد الشقة بين المفكرين وبين افراد الامة من عامة الناس والذين فقدت الثورة مصداقيتها، بالنسبة لهم وصارت في نظرهم مجرد وسائل لتحقيق اغراض اخرى للدعاة لا علاقة لها بواقع الحال او اصلاحه. بل صارت مجرد كلمات جوفاء تثير السخرية او الاشفاق اكثر من أي شيء آخر.

فهل كانت دعوتهم للجامعة العربية، وهو الموضوع الذي ستتناوله الصفحات

---

(١) ذات المصدر ص١٧٣-١٧٥

التالية احسن حظا مما ذكر من دعواتهم؟ وهل حظيت هذه الدعوة بمصداقية اكبر؟

الفصل السادس
الجامعة الاسلامية والجامعة القومية

نرقع دنيانا بتمزيق ديننـــــا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقـــــع[1]

الخلافة والجامعة الاسلامية

في الربع الاخير من القرن التاسع عشر وعندما تولى السلطان عبدالحميد الثاني السلطة في الدولة العثمانية كانت الدولة بفعل عوامل كثيرة، على رأسها ما تعرضت له من ضغط اوربي خارجي وداخلي، قد وصلت اشد مراحل ضعفها. وكانت خطط الضغط والغزو الاوربي قد تبلورت لتمزيقها والقضاء عليها. وهو الامرالذي اتفقت عليه جميع الدول الاوربية فيما بينها، رغم خلافاتها الشديدة بين بعضـــها البعـض وعملت من اجله بشكل جماعي او انفرادي. وفي ذلك الوقت ايضا تبلورت خطـط الصهيونية العالمية وركزت جهودها للضغط على الدولة العثمانية من اجـل اقامـة حلمها في انشاء دولة لها على ارض فلسطين، مستعينة بشكل خـــاص بالماســونية واحزابها وتجمعاتها مثل تركيا الفتاة ومصر الفتاة وسوريا الفتـــاة وغيرهـــا وهـــي تجمعات ضمت مجموعات من المثقفين ثقافة اوربية ويدينون لاوربـــا بـالولاء- الفكري على الاقل- وهي فئات بهرتها الدول الاوربية وحضارتها وجعلتها تتنكـــر لحضارة امتها وثقافتها فصارت لا ترى التقدم واصلاح الحال الا باقتبـــاس الفكـــر الاوربي وحضارته متنكرة للفكر الاسلامي واسلوبه ومنهجه في الحيـــاة. ولمـــــا

---

[1] ابن خلدون: المقدمة ص٣٠٨

كانت هذه الجماعات المتغربة لا تقوى على الوقوف وحدها في وجه الكثرة الغالبة من ابناء الامة والذين لا يرون في غير الاسلام دينا ولا منهجا في الحياة وفي اصلاح الاحوال والذين يرون ان الالتفاف حول الدولة المسلمة القائمة ليس هو امر فرضه عليهم ربهم سبحانه وتعالى فقط بل هو ايضا وسيلتهم لدفع الغزو الذي يهدد دينهم ووطنهم وامتهم وكرامتهم وشخصيتهم، التمست هذه الجماعة المتغربة العون من الدول الاجنبية والمحافل الماسونية والتي من خلالها احتوت الصهيونية اكثر حركاتهم. وسيطرت على معظم نشاطاتهم ووجهتهم الوجهة التي تحقق مصلحة الصهيونية والطامع الاجنبي، اذ كانت قد اتفقت مصلحة الصهيونية مع مصلحة الاستعمار في تلك الفترة على ازالة الدولة العثمانية التي تقف في وجه مخططاتهم أنذاك والتي قد تقف في المستقبل ان دام عزها! فعملا معا مستعينين بهذه الفئة المتغربة في الضغط على الدولة العثمانية. وكان على السلطان عبدالحميد ان يواجه كل هذه المخططات والضغط على الدولة.

ولم يكن السلطان عبدالحميد على الصورة التي يصوره بها بعض الحاقدين من خلال حملاتهم الموجهة ضده والبعيدة كل البعد عن الواقع وعن الموضوعية في النقد. بل العكس اذ يبدو انه كان اهلا للمسؤولية الملقاة على عاتقه في ذلك الوقت. وقد شهد على حكمته ودهائه العدو قبل الصديق، وقد مر ذكر ثناء الافغاني على حكمته ودهائه في مواجهة المخططات الاجنبية على الدولة الاسلامية بما يناسبها من خطط مضادة تؤدي الى احباطها او على الاقل التقليل من مضارها. وكانت على رأس خططه المضادة هذه، دعوته للجامعة الاسلامية والتي بدأها بصيحته المشهورة التي هزت الغرب كله (يا مسلمي العالم اتحدوا)[1] والتي رافقتها دعوته للخلافة الاسلامية لجمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم. اذ (نشطت دعوة الخلافة ونشطت معها دعوة الجامعة الاسلامية في وقت واحد... على اثر انعقاد مؤتمر برلين وافتضاح مؤامرات التقسيم التي اتفقت عليها الدول الكبرى لانتزاع بلاد الدولة

---

(١) انور الجندي: السلطان عبدالحميد ص٧٩

العثمانية من سيادتها بغير فارق بين الاسلامية منها وغير الاسلامية...)[١] ولم يكن السلطان عبدالحميد يطمع في سيادة بلاد المسلمين من اجل الاستبداد بها او لتحقيق مصلحة خاصة به، كما يحاول البعض تأكيده وانما غايه (الامر فيما قصد اليه السلطان عبدالحميد من دعوته الى الجامعة الاسلامية باسم الخلافة ان يحتمي بعطف العالم الاسلامي في وجه التعصب الاوربي المطبق عليه من كل جانب، وان يستمع العالم الاسلامي اليه حين يناديه بتلك الصفة لانه اكبر ولاة الامر فيه واعظمهم مركزا في مراسم السياسة الدولية ولم يكن يخفى عليه... -ما- يستطيعه في كفاح الاستعمار ويعلم انه يستطيع الكثير مما يخشاه المستعمرون...)[٢] ومما يقف في سبيل تحقيق اطماعهم في استعمار بلاد المسلمين (ومنهم العرب) وليتمكن من حماية هذه البلاد التي سيكون كخليفة مسؤولاً عن حمايتها، بمؤازرتهم. ولم تقتصر خططه على الكلام والشعارات، كما هي حال خطط النهضويين اليوم! بل بدأ في الحال في تنفيذ مخططه... فأنشأ مدرسة للدعاة الذين سرعان ما انبثوا في كل انحاء العالم الاسلامي في افريقيا والهند والصين وتركستان وافغانستان والبلاد العربية وفي كل مكان لاقناع المسلمين عامتهم وخاصتهم على حد السواء باهمية الخلافة للمسلمين وبانه لا يزال هناك خليفة في العالم الاسلامي يتمثل بشخصه يستحق منهم الدعم والطاعة كما امرهم رب العالمين. وطبع عددا كبيرا من الكتب تحمل الدعوة لسياسته[٣]. وتؤكد على انه ليس هناك من يستطيع الدفاع عن المسلمين والبلاد الاسلامية المهددة بالغزو الا الدولة العثمانية لان كل الحكومات الاسلامية الاخرى قد صارت تحت الحكم الاجنبي مما يستدعي الالتفاف حول سلطانها باعتباره خليفة للمسلمين من اجل حماية ما تبقى من الدول الاسلامية من الغزو وتحرير ما احتل منها. وهكذا انتشرت الدعوة (حتى قيل انه لم يبقى مسلم واحد لم يعرف طرفا من

---

(١) العقاد: الرحالة ك، الكواكبي، ص٩٧

(٢) ذات المصدر

(٣) عبدالباسط: جمال الدين الافغاني واثره في العالم الاسلامي ص٩٩

هذه الدعوة)[1].

كما عمل من اجل توحيد كلمة المسلمين على عقد روابط الاخـــاء الاســلامي وانهاء الخلافات فيما بين الطوائف والفئات الاسلامية وعلى رأسها (انـــهاءالخلاف بين السنة والشيعة او بين الاتراك والفرس)[2]. وعمل على جعل العرب حملة لــواء الدعوة فاتخذ (من كل قطر عربي مشيرا له فجمع حوله علماء وامراء من الجزائــر والشام ومكة...)[3] ومن اجل جمع كلمة المسلمين وجه الى الامراء والرؤوساء فــي جميع انحاء البلاد الاسلامية الرسائل الودية التي تدعو الى جمع الكلمة مــن اجــل مواجهة الغزو ومنها-مثلا- رسالته الى السيد مهدي السنوسي تبين يقظته ومعرفتــه بخطط الدول الاستعمارية وتوقعاته لما سيحدث للعالم الاسلامي ان تمت، وهو عيــن ما حدث! اذ قال له ان: (... الكفار بل والملاحدة والمارقين والمفسدين فــي جميــع الاقطار يتحزبون ويتداولون في السر والعلن خصومة للسنة السنية على هدم منـــار الخلافة العثمانية الاسلامية-ويأبى الله الا ان يتم نوره- وحتى مـــن المســموع ان جماعة من الانكليز والايتاليان وغيرهم قد تدرجوا الى اطرافكم بطريـــق الســياحة وانتم تعلمون سرائرهم من المقاصد المضرة للدين والمسلمين واول ما يؤمل منكـــم وان كان هو المفروض كما هو معلوم لدى حضرتكم ان تنوروا اذهان محبيكم ومــن يواليكم من الطلبة والتلامذة قرباء وبعداء في جميع الانحاء التي تسمع بها كلمتكـــم وتؤثر بها نصيحتكم بصدق واخلاص الخلافة المقدسة العثمانية والامامـــة الكــبرى الاسلامية التي لا سمح الله وقدر-لو بلغ الاعداء والملاحدة فيـــها اربـــهم لا نـــهزم شرف الدين المبين وتفرقت شيعا جماعات المسلمين ولصارت فرقا، فرقا وتمزقــت اربا اربا وهذا والعياذ بالله يكون ذلا لكل موحد على وجه الارض بالطول والعرض

---

[1] انور الجندي: السلطان عبدالحميد ص٨٠

[2] ذات المصدر

[3] ذات المصدر

بل هو مما يخرب شأن الشريعة ويجعلها بعد العز وضيعة وذلك مما يحزن القلب الاطهر والاقدس النبوي في الضريح الاطهر المصطفوي)[1].

وفي نفس الوقت بدأ في بناء قوته الحربية والعسكرية وتقوية جيوشه واساطيله وادخل فيها عددا كبيرا من الشبان العرب وعمل على ربط دمشق والمدينة بسكة حديد الحجاز وقد تبرع المسلمون لهذا المشروع باكثر من ثلاث ملايين من الجنيهات الذهبية)[2]. اما موقفه بالنسبة لخطط الصهيونية في مسألة فلسطين فقد كان واضحا (كما يذكر انور الجندي) في رده على الصهيونية عام (١٩٠٢ عندما عرضت عليه قروض كبيرة تبلغ خمسين مليونا من الجنيهات كانت الخزينة في امس الحاجة اليها غير مليون لخزانة السلطان الخاصة مقابل السماح لليهود بانشاء مستعمرة صغيرة لهم قرب القدس ينزل بها ابناء جلدتهم اذ قال لهم (بلغوا الدكتور هرتزل الا يبذل بعد اليوم شيئا عن المحاولة في هذا الامر-التوطن بفلسطين- فاني لست مستعدا ان اتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب الى الغير فالبلاد ليست ملكي بل هي ملك شعبي روى ترابها بدمائه. فليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب فان الدولة العلية لا يمكن ان تختبئ وراء حصون بنيت باموال اعداء الاسلام. لست

---

(١) عبدالقهار عبدالله العاني: الفكر الاسلامي الحديث ص١٤-١٥ (ومما يذكر هنا ان بلنت ذكر في مذكراته انه كان قد ذهب الى مناطق السنوسية في ليبيا يبغي الاسلام على يد السنوسي ولكن خرجت عليه جماعة من السنوسية فاوسعوه ضربا فعاد ادراجه وترك فكرة الاسلام!!

(٢) انور الجندي: السلطان عبد الحميد ص٨١ (ولاهمية مشروع سكة الحجاز هذه في الدفاع عن البلاد الاسلامية هاجمه الثوريون والنهضويون مثل العازوري وغيره واعتبروه وسيلة لنشر الاستبداد والسيطرة العثمانية على المنطقة، مع انها كانت من ضمن مناطق نفوذهم! وعمل الضباط الانكليز بقيادة لورنس ومن معه من العرب! خلال الحرب العالمية الاولى على نسفه بمن فيه من الجنود والمدنيين وعوائلهم من النسوة والاطفال الذين كانوا يتوسلون ويستعطفون!! كما ذكر لورنس في كتابه الاعمدة السبعة!

مستعدا لان اتحمل في التاريخ وصمة بيع بيت المقدس لليهود وخيانة الامانة التي كلفني المسلمون بحمايتها. ان ديون الدولة ليست عار لان غيرها من الدول الاخرى مدين مثل فرنسا. ان بيت المقدس قد فتحه المسلمون اول مرة بخلافة سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ولست مستعدا ان اتحمل في التاريخ وصمة بيعها لليهود وخيانة الامانة)[1]. وكان قبلها في عام ١٨٩٢ قد منع هجرة اليهود الى فلسطين وتوطينهم فيها ولم تفلح كل حيلهم ومن بينها تدخل بعض رؤساء الدول في حمله على تغيير رأيه. واجاب على ضغوط الدول الاوربية ومنها بريطانيا، عليه باعتبار هذه المراسيم مخالفة للاتفاقيات الدولية وتتعارض مع حقوق الانسان قائلا (... اني احب تطبيق العدالة والمساواة على جميع المواطنين، ولكن اقامة دولة يهودية في فلسطين التي فتحناها بدماء اجدادنا العظام فلا...)[2].

اما عن مواجهته للقوى الضاغطة من الداخل فقد كان السلطان عبدالحميد كما يذكر الجندي (يعرف القوى التي يواجهها في الداخل ويعرف المؤامرة التي تدبر لفكرته وله وكان يعرف ابعاد المخطط كله... وفئة المثقفين التغريبيين الذين سيطرت عليهم افكار الثورة الفرنسية ربيبة المحافل الماسونية من ناحية وحركة الارساليات الاجنبية في لبنان وثمارها المنبثة في مصر وسوريا والبلاد الاسلامية، تحمل احقادها على الاسلام والوحدة الاسلامية. واذا كان السلطان قد عارض مدحت وحزبه تركيا الفتاة فقد كان عالما بانهم واقعون تحت نفوذ الماسونية العالمية اداة الصهيونية...)[3] مما جعله يقف في سبيل تحقيق اغراضهم بقوة فأتهم بالاستبداد والوحشية!!!

ومما يذكر هنا ما قاله الافغاني عندما عرض عليه الاخير مسألة اللامركزية

---

(١) انور الجندي: السلطان عبدالحميد والخلافة الاسلامية ص٨٧

(٢) حسان علي حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ص١٥٦،١٨٣

(٣) انور الجندي: ذات المصدر ص٨٥

في الحكم ومنح البلاد البعيدة عنه والمطموع فيها من الدول الاوربيـــة نوعـــا مـــن الاستقلال كما مر ذكره، اذ يقول الافغاني انه شرد قليلا عندما سمع عرضه متذكـوا تجربة الدولة العثمانية في ذلك مع مصر التي وقعت تحت السيطرة الاجنبية ووالـت الدول الاوربية واتفقت معها في غزو الدولة العثمانية خلال حروب محمد علي وابنه ابراهيم.

وليس هنا مجال الكلام عن السلطان عبدالحميد وبحث حقيقة مواقفـــه والـــذي يتطلب بحثا دقيقا خاصا به وانما ما يهمنا هنا هو ان دعوتـــه للجامعـــة الاســـلامية انتشرت حتى عمت البلاد الاسلامية فتركزت (الآمال حول الســـلطان عبدالحميـــد خليفة المسلمين وترابطت الدولة الاسلامية واهلها حول عاصمة الخلافة على نحـــو بلغ غاية القوة، فكانوا يذكرون اسمه في خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعـــة الروحية باسم خلافته على المسلمين كافة)[1]وقد اكد كثير من الباحثين في الموضوع على ان (السلطان عبدالحميد عندما استخدم الجامعة الاسلامية ســـلاحا ايدولوجيـــا لمقاومة امبريالية الغرب والحركات القومية...) التي كانت تهدد الدولـــة الاســـلامية (اصاب قدرا كبيرا من النجاح، فقد اوجدت له كثيرا من الانصار في القسم العربـــي من الامبراطورية)[2] وفي كل انحاء العالم الاسلامي ولذلك يؤكد انور الجندي انـــه (اذا كانت حركته الى الوحدة الجامعة قد اجهضت فليس لانها فشلت بل لانها نجحت نجاحا مذهلاً مما دفع القوى الاستعمارية والصهيونية الى القضاء عليها باسقاطه قبل ان يتمكن من وضع القواعد التي يمكن ان تسير عليـــها بـــالتنفيذ...)[3] فالمســـألتين اللتين اثارهما السطان عبدالحميد وهما الجامعة الاسلامية والخلافة نبها المسلمين من جديد الى اهميتهما وما حققتا لهم في الماضي، وما يمكن ان تحققـــان لـــهم آنـــذاك.

---

(١) ذات المصدر ص٨١

(٢) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٢٣

(٣) انور الجندي: السلطان عبدالحميد والخلافة الاسلامية ص١٣٨

وجعلت دعوته الكثيرين من دعاة الاصلاح يتبنوا فكـــرة (ان الجامعـــة الاســـلامية بزعامة الدولة الاسلامية الكبرى هي القوة التي بقيت لامـــم الاســـلام فـــي عصـــر الاضمحلال وقد اعوزتها قوة المال والعتاد وقوة العلم والصناعـــة وقـــوة السياســـة والسيطرة للدولة، فلا اقل من قوة التضامن والاتحاد)[1] وهي القوة التي حققت لـــهم في الماضي كما يمكن ان تحقق آنذاك وفي المستقبل كل القوى الاخرى مـــن قـــوة العلم والصناعة والمال والعتاد.

الخطط المضّادة

ولكن كما كانت دعوة السطان عبدالحميد تنتشر وتقوى كـــانت خطـــط اوربـــا وحملاتها لاجهاض الدعوة تشتد وتستعر، (فانطلقت الصحافـــة الاوربيـــة وتابعتـــها الصحافة العربية التي ظهرت في مصر والتي قاد حركتـــها خريجـــو الارســـاليات الاجنبية، فحملوا لواء التشهير... واشاعة الاتهامات المختلفة حـــول شـــخصيته... لاشاعة روح الكراهية والانتقاص للرجل...) خاصة بعد موقفه الحاسم من (مطالبهم وكان اعظم ما تركز عليه الحملة اثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركـــة الاســـلامية وبين العناصر المختلفة في الدولة العثمانية وخارجها... وفي الوقت الـــذي كـــانت المؤامرات تحاك في الخارج ضد الدولة العثمانية، كانت مؤامرات تحاك في الداخـل تضم مجموعات تركية ويهودية بتشجيع من الدول الاستعمارية، وكانت تهدف الـــى قلب نظام الحكم وخلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العـــرش)[2]. والمتتبـــع لـــهذه الهجمة على الدعوة للجامعة الاسلامية وللخلافة يستطيع ان يتبين اتجاهها باتجـــاهين رئيسين: الاول استهدف مقومات الدعوة ذاتها والتي تناولت ما يلي:

أ- شخص الداعية هو السلطان عبدالحميد

ب- المفاهيم والاسس التي تقوم عليها الدعوة

اما الاتجاه الثاني: فهو عرض بديل لها في الخلافة العربية والجامعة القومية العربية

---

(١) العقاد: الرحالة ك، ص٨٧-٨٨

(٢) الجندي: ذات المصدر ص٩٢، ١٤٨

أ- شخص السلطان عبد الحميد

صار السلطان عبدالحميد من اجل دعوته هذه، بشكل خـــاص، هدفـــا لســـهام الكتّاب ووسائل الاعلام الاجنبية وتوابعها العربية. وصارت كل من باريس ومصـــر مركزين اساسيين لتجمع الحاقدين والمعادين لهذه الدعوة ولنشر سمومهم ضده. يقول محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر (كان الســـلطان عبدالحميد هو المقصود بكثير مما كتب عن الدعوة الى الحريـــة والمنـــاداة بفصـــل السلطة الدينية عن السلطة المدنية. فالذين يتكلمون عن الاســـتبداد والتقيـــد بالنظـــام النيابي كانوا يقصدون استبداد السلطان عبدالحميد والذين ينـــادون بفصـــل الســـلطة الدينية عن السلطة المدنية كانوا ينظرون الى استخدام السلطان عبدالحميـــد ســـلطته الدينية، بوصفه خليفة المسلمين في جمع السلطة في يده ومحاربة اعدائـــــه. وكـــان العرب منهم يطالبون بان يكون عبدالحميد سلطانا وبأن تكون الخلافـــة او الولايـــة الدينية على شئون المسلمين للعرب الذين هم اقدر الناس على فهم الدين. اما الـــترك فكان اكثرهم من المتأثرين بالفكر الالحادي الذي كان يجتاح اوربا باســـم التحـــرر (Liberalism) وبكتّاب الثورة الفرنسية ومفكريها على وجه الخصوص. وكان كثـــير منهم واقعا تحت سيطرة الصهيونية العالمية. وكان كل ما كتب من هذا اللون يطبـــع في مصر)[1].

وكان على رأس هذه الكتب، كتابي ام القرى طبع عام ١٨٩٩ وطبائع الاستبداد للكواكبي الذي شن فيهما هجومه ليس على السلطان عبدالحميد وحده وانمـــا علـــى سلاطين آل عثمان جملة. والذين كانوا في نظره لا يبغون مـــن الديـــن الا تحقيـــق مكاسب سياسية تزيد من نفوذهم، فهم (اقاموا الاكتساب مكان الاحتساب، وحصـــروا اهتمامهم في الجباية وآلتها... فبطل الاحتساب وبطل الامر بالمعروف والنهي عـــن

---

[1] جـــ١ ص٢٨٠

المنكر)[1]. واورد من الشواهد على ذلك مما ليس له اساس من الصحة ولا يقوم على التحقيق العلمي والتدقيق النزيه بل جاء بقصد التشنيع والاثارة كما يؤكد محمد محمد حسين[2].

ومن هذه الكتب ايضا كتاب سليمان البستاني طبعه عام ١٩٠٨ وسماه (ذكرى وعبرة الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده) وصوّر فيه فساد الحكم العثماني قبل صدور الدستور الذي اكره السلطان عبدالحميد على اصداره في يوليو سنة ١٩٠٨) وقدم فيه (صورا مظلمة من تحكم الاستبداد وتغلغله في شتى نواحي الحياة حتى بات الناس مراقبين في كل حركاتهم) وكيف يزج الناس في السجون حتى صارت البيوت سجونا على اصحابها يخافون (اذا تجاوزوا الابواب) وكيف تقذف الجثث في البسفور حتى انه يوشك ان يفور تلهفا على تلك الجثث، فيقذف بها الى ثغرية خشية ان تبيت دفينة في بطون الحيتان)[3] وندد بتضييق السلطان عبدالحميد على حرية الصحافة وعلى حرية التأليف والرقابة عليهما وعلى الرسائل المرسلة بالبريد والتي جعلت الناس يفضلون التراسل عن طريق مكاتب البريد الاوربية المنبثة في سائر الاقطار العثمانية. وقد كان كل مكتب من هذه المكاتب يتمتع بحماية الدولة التي يتبعها مما يمنع يد الرقابة ان تصل اليه. وقد كانت هذه المكاتب تخدم انصار الفساد واعداءه على السواء فقد كان الثوار والمتآمرون على عبدالحميد يتبادلون الاخبار عن طريقها. وكان رجال عبدالحميد يهربون ما يجمعون من المال الحرام عن

---

(١) ام القرى ص٣٦-٣٧

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص٢٨١

(٣) ذات المصدر (وهي اشاعة انتشرت للتشهير بالسلطان عبدالحميد مما لا يقوم عليه دليل ولذلك عندما سئل احدهم عنها كذبها وقال هاتوا لي اسماء الضحايا ان كنتم صادقين!

طريقها كذلك)[1].

وكان على رأس ما كتب ونشر في باريس هو كتاب نجيب عـــازوري الــذي يحمل عنوان يقظة الامة العربية! والذي لا يجد فيه المرء لا يقظة ولا امة عربيــة وانما يجد، بالاضافة لمشكلات الطوائف المسيحية وولاءاتها الاجنبية، هجوماً حــاقداً ساذجاً بعيداً عن العقل والموضوعية على السلطان عبدالحميد الذي يلقبــه المؤلــف بالسلطان الاحمر تارة والوحش مصاص الدماء تارة اخرى اذ هو (ســمم واغتــال حسب الاهمية كل الناس المشبوهين بالليبرالية...) و (اعطى جرثومة السل للمحظى قديما يوسف بك المطران وقدم بيده علبة السجائر المعدة لنقل السرطان الى المعلــم الشهير جمال الدين الافغاني... اذ تآكلت حنجرته وسقف حلقه من جراء هذا الالـــم الرهيب... وسمم الشريف الكواكبي...)[2]!!!!

ورغم ان اكثر الباحثين يؤكدون على ان الســلطان عبدالحميـد كــان عالمــا بمخططات الغزو الاوربي وتفاصيلها ويعد لها المخططات المضادة حتى الافغـــاني نفسه قال رأيت السلطان عبدالحميد (يعلم دقائق الامور السياسية ومرامـــي الــدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما)[3] الا ان العازوري الذي

---

(1) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ١ ص٢٨٧-٢٨٨ (والكلام اعلاه عن استخدام المكاتب البريدية الاجنبية الا يجعل من واجب الدولة العثمانية مراقبـــة البريد ما دام هناك مثل هذا الفساد حفظا للمصالح العامة؟ اذ ليس هناك فساد واعداء فســاد بل الكل فاسدون، لان من يتآمر على الدولة بمساعدة الدول الاجنبية او بتسهيلات منها هــو اكثر فسادا من السراق والمرتشين، مما يجعل مراقبة البريد ليس اســتبدادا وانمــا حزمــا ويقظة ومن ليس عنده ما يخفيه لماذا تزعجه مراقبة البريد؟

(2) انظر يقظة الامة العربية ص١٨٤-٢٠٨ (يبدو ان ما اغفله الباحثون وتوصل اليه عازوري هو ان السلطان عبدالحميد كان عالما بايولوجيا اكتشف جرثومة السرطان قبل غيره وقدمها للافغاني!!

(3) محمد عمارة: الاعمال الكاملة جـ٢ ص٢١

قد يكون لم يرى السلطان اصلا يقول ان الدول الاوربية لها مخططاتها في السيطرة على الدولة العثمانية ولكن (وحده عبدالحميد سيد هذه الامبراطورية لا يتبع أي مخطط سياسي مرسوم فهو لا يهتم بجيرانه الا اذا اتى سفراءهم يتقدمون منه بمطالبهم. ويرى الاجانب يتقاسمون ارثه سلفا دون ان يبدي أي اهتمام) وانه (لو استطاع ان يبيع امبراطوريته دون ان تتصدى له الدول الاخرى بسبب خصوماتها مقابل ان تترك له حياته الطويلة الراغدة لفعل)[1] مع انه نفسه يحذر الاوربيين في اكثر من مكان من كتابه هذا من دسائس عبدالحميد وعمله في ضرب بعضهم ببعض لاتقاء شرهم وعرقلة هجمتهم على الامة الاسلامية والدولة العثمانية ويدعوهم لنبذ خلافاتهم والتفرغ للتصدي له!!!

اما عن ادارة السلطان عبدالحميد للبلاد فيرى عازوري انه لا يختار للمهام المختلفة الا اكثر الناس نذالة ومن له واسطة وشفاعة فهو قد (عين نواب مسيحيون لولاة الاتراك ولكنهم اختيروا من بين الجواسيس، واذا كانوا من الشرفاء لا يسمح لهم بالعمل ويجري ارهابهم بالجاسوسية...) ويقول انه بالرغم من صدور قانون المساواة المدنية السياسية ولكن (لا يستطيع أي عربي مسلم أن يصبح شيخا للاسلام او وزيرا ذا وزارة او واليا...)[2] مع انه هو نفسه اختير لمركز نائب حاكم القدس وبقي في منصبه ست سنوات من غير ان يرهبه احد الى ان ترك منصبه باختياره كما يؤكد هو نفسه ليؤلف حزبه القومي!!! في باريس! حيث جعلها مقرا لهجومه على الدولة العثمانية. فهل كان يا ترى من هؤلاء الذين وصفهم بالجواسيس واكثر الناس نذالة؟!! هذا مع العلم ان الكثير من المسؤولين في عهده كانوا من العرب ومنهم من كان يعمل ضده في جمعية الاتحاد والترقي. فالسطان في محاولته الحفاظ على تماسك الامبراطورية... سمح لبعض العرب باشغال اعلى المناصب خلال

---

(١) يقظة الامة العربية ص١٨١-١٨٢

(٢) ذات المصدر ص١٨٩

حكمه)[١] بينما في عهد الاتحاديين وبالرغم من ان الكثيرين من العرب كانوا من المؤيدين لهم او المنظمين الى جمعيتهم الا ان (اشتراك العرب في تشكيلات الحكومة العثمانية... تضاءل في عهدهم (بالنسبة لايام حكم عبدالحميد)[٢].

ولا يخفي عازوري سعادته، في كتابه هذا، كلما تعرض السلطان عبدالحميد لضغط من الدول الاوربية فالسلطان كما يقول لم يستطع منع الارمن العثمانيين الذين يحملون جنسية امريكية من دخول البلاد، والذين طلبت الحكومة الامريكية دخولهم (خوفا من قنابل النقمة)[٣] وهو مرتاح جدا لان الدول الاوربية متفقة فيما بينها ضد السلطان والدولة العثمانية اذ اتفق السفراء على التعاون بينهم للحصول على المعلومات وكل معلومة تصل الى احدهم يوصلها للآخر[٤]. وهو فرح لان السيد كونستانس سفير فرنسا شتم السلطان ومع ذلك اضطر السلطان الى استقباله اذ يقول بشماتة ان ذلك (رفسة ينالها التركي الاكبر، وسيتلقى مثلها بالتتابع من جميع السفراء المعتمدين)[٥] وهو سعيد بكل التهديدات بالحرب التي كان يتلقاها السلطان من المانيا وروسيا وانكلترا وفرنسا والولايات المتحدة فيقول لقد (ذل عبدالحميد من جديد) لكل تهديد يتلقاه[٦]. وفي نفس الوقت ولادامة التحريض على السلطان يتهمه بقلة الحكمة التي جعلته لا يهتم (بلعبة الدول في الائتلاف الاوربي ولم يلاحظ رغباتهم واطماعهم ومشاريعهم ومخططاتهم. لم يحاول ابدا منع مطالبهم بالتدخل)[٧].

---

(١) وميض عمر نظمي: الجذور السياسية لثورة العشرين ص٨٦

(٢) ذات المصدر ص٨٩

(٣) يقظة الامة العربية ص٢٥٩

(٤) ذات المصدر ص١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٠، ٢١٢.

(٥) المصدر نفسه

(٦) المصدر نفسه

(٧) المصدر نفسه

وهكذا يستمر عازوري في هجومه على السلطان عبدالحميد الذي يعتبره رأس المصائب وكل ما يفعله ممقوت مرفوض حتى مد السكة الحديدية لربط اجزاء البلاد ببعضها فهي ان كانت برغبة السلطان، شر وخيم يهدف الى استعباد الامة وسحقها!! اما ان رفضها فهي الخير كله والذي يريد السلطان تجريد الامة من ميزاته اذ يقول: (يريد عبدالحميد تجهيز آسيا الصغرى بشبكه من السكك الحديدية الاستراتيجية الكاملة. لا لصد عدوان خارجي... بل لسحق الثورات الوطنية في الامبراطورية الآسيوية. ان سكة حديد بغداد تتيح له قمع الاكراد والارمن ونشر سيطرته على قبائل العراق ونجد والخليج الفارسي[1] المستقلة وخط برجق حماة يسمح له باخضاع قبائل حلب والزور المستقلة وبخط دمشق مكة يستعبد كافة قبائل الصحراء السورية والحجاز واليمن. وهكذا يتوصل الاتراك الى استعباد الامة العربية باسرها)[2] ولكنه في ذات الوقت يعيب على السلطان عدم بناء خط بين مصر وسوريا فيقول: (يشجع الاتراك المشاريع التي تخدم نواياهم بقدر ما يبعدون المشاريع التي يمكن ان تنفع البلاد، فلا شيء انفع للبلاد العربية من بناء خط يصل مصر بسوريا على شاطئ المتوسط، لقد التمس احد اثرياء مصر السيد انطون يوسف لطفي هو سوري الحصول على امتياز هذا الخط طوال عشر سنوات فكان عبدالحميد الذي لا يجرؤ على الرفض قطعيا... يخدع هذا المواطن الشريف بالوعود الكاذبة)[3] ولكن عازوري لم يوضح لماذا كل الخطوط الاخرى مضرة بمصلحة الامة فقط خط سوريا مصر التي يحتلها الانكليز هو وحده انفع شيء للبلاد؟ ولا كيف يتسنى لمواطن سوري المال اللازم لمد سكك حديدية في ذلك العهد الذي

---

(١) المصدر نفسه

(٢) ذات المصدر ص٢١٢ (انظر مسألة الخليج الفارسي كما يسميه الاوربيون وليس العربي وهو داعية للعروبة هذا من جهة ومن جهة اخرى كانت دول الخليج آنذاك تحت الحماية البريطانية والنفوذ البريطاني وليست مستقلة كما ان حلب والزور لم تكن مستقلة.

(٣) ذات المصدر ص٢١٤

عرف عنه الفقر والتأخر وخاصة في مجال التجارة والصناعة وهي المجالات التي تدر الارباح الكثيرة، فهل توفر له المال بذات الطريقة التي مكّنت اديب اسحق الشاب اللبناني الفقير ابن العشرين من تأسيس جريدة ومطبعة خاصة لها في اربعة وعشرين ساعة وهو لم يكن يملك قرشا واحدا؟ أي بالاموال الاجنبية حتى تضاف كغيرها من مظاهر الحضارة والتقدم، الى وسائل الضغط الاجنبي على الدولة؟ ولهذا صارت انفع شيء للبلاد ام لتسهيل دخول القوات البريطانية الطامعة في اراضي الدولة العثمانية والتي كانت تحتل مصر آنذاك، الى البلاد باقل التكاليف؟ مما جعلها انفع شيء للبلاد؟ ثم من وراء انطون هذا حتى لا يجرؤ السلطان الذي يصفه بالاحمر والوحش على رفض طلبه؟ والا كيف تنسجم الوحشية التي يصفه بها مع كل هذه الوداعة والادب وهل صحيح انه كان لا يجرؤ على رفض طلبه ام انها مجرد اللوم والاستهانة بالسلطان واظهار عجزه حتى لا يتصور البعض ان في امكانهم الاعتماد عليه فينفضوا عنه؟!! ثم لو كان السطان هو الذي قرر مد هذا الخط هل كان عازوري سيصفه بانه انفع شيء للبلاد؟ ام كان سيصبح وسيلة السلطان لاستعباد مصر المستقلة! بالاحتلال الانكليزي؟! كما هو حال الخليج المستقل وسوريا المستقلة!!!

وعلى اية حال فليس هنا مجال مناقشة عازوري وفكرة القومي!!! والذي يجعل من يطلع عليه في حيرة من امره لا يعرف ما الذي جعله من الشخصيات المهمة، كما يقول سعيد اسماعيل علي، في تاريخ الفكر القومي؟ حتى صار (... يجري الاقتباس من كتاباته حسب الاصول في اغلب الكتب التي تتناول بواكير القومية العربية وفي الاغلب الاعم تستخدم الفقرات والعبارات نفسها ويشار اليها عادة بصدد موقفه ضد الخلافة او الامبراطورية العثمانية. وفي العادة ايضا جنبا الى جنب مع عبدالرحمن الكواكبي، وعلى نحو يكاد يشبه التزام طقس من الطقوس)[1]؟!!!

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص١٣٤

ولكن ايا كانت حقيقة وصحة ما جاء في هذه الكتب او في غيرها من اتهامات ولوم وتجريح للسلطان عبدالحميد فان مما لا شك فيه ان كل هذه الهجمة لم تكن في حقيقتها على شخص السلطان عبدالحميد بقدر ما هي هجمة على ما يمثله السلطان مما تبقى من عز الدولة الاسلامية وعلى ما يدعوا اليه من الجامعة الاسلامية وعلى كل ما يمكن ان يعزز موقف المسلمين وتمكينهم من صد الغزو الاوربي او عرقلته. وهي جزء من خطط الغزو الاوربي نفذها ابناء البلاد بكل امانة!!! فالهجمة المباشرة على السلطان عبدالحميد هي هجمة غير مباشرة على القيم الاسلامية وخاصة في مسألة الخلافة والجامعة الاسلامية واسقاط اهليته للخلافة هو اسقاط لدعوته للجامعة الاسلامية. ولكن هذه الهجمة غير المباشرة على القيم الاسلامية في الخلافة والجامعة الاسلامية لم تمنع الهجمة المباشرة عليها والتي جاءت على مراحل.

ب- استهداف قيم ومفاهيم الدعوة

ان الدعوة للخلافة وللجامعة الاسلامية قامت على اصول اسلامية كما اكد دعاتها الاوائل والاواخر. كما قامت ايضا على تجربة طويلة اثبتت بما لا يدع مجالا للشك ان الامة الاسلامية ما وصلت الى ما وصلت اليه من العزة والمنعة في عصرها الذهبي الا بتماسكها وتمسكها بعقيدتها والتي جعلتها اساسا لوحدتها فصارت بفضلها امة واحدة بغض النظر عني أي انتماء آخر. ولم تنحدر الى ما وصلت اليه من ضعف الا بتفرقها وتشتتها. هذا بالاضافة الى التجربة الانسانية الطويلة والتي يذكرها التاريخ ويذكر القرآن الكريم بعضا منها في قصص الاولين والتي تبين ان عز الامة لا يكون الا بتماسكها وعدم تفرقها الى شيع واحزاب من جهة وتمسكها بعقيدتها وبما امرها الله به من جهة اخرى. فالسلطان عبدالحميد اقام دعوته للجامعة الاسلامية معتمدا الاصول الاسلامية والتجربة التراثية للمسلمين والانسانية بشكل عام. ولذلك وجد الطامع الاوربي ان مسألة الهجوم الذي استهدف شخص السلطان لن تجدي وحدها نفعا، لان الاسلام بمبدأ اتقاء الفتنة قد اوجب وجود ولي للامر وطاعته (برا او فاجرا) ما دام لا يأمر المسلمين بمعصية، وقد ورد عن علي بن ابي

طالب (رضي الله عنه) قوله (لا بد من امير برا او فاجرا)[1] فلا يهم المسلمين كثيرا سيرة السلطان الشخصية ما دام يعمل لصالح المسلمين ولخيرهم ولذلك لاقت دعوة السلطان عبدالحميد نجاحا كبيرا رغم كل ما كان الاوربيون ودعاتهم يشيعون عنه وعن الدولة العثمانية، حتى بين من كان على دراية في احوال البلاد على زمن السلطان عبدالحميد مثل شكيب ارسلان الذي (رفض فكرة العصبية الجنسية) كما رفض فكرة جعل العروبة الرابطة الاولى او ان يكون للعرب منزلة خاصة بالاسلام لان الاسلام هو (شريعة عامة مبنية على المساواة التامة وبعيدة عن الاثرة الجنسية) والتي يراها (من عمل المفرقين الذين يحاولون اثارة العرب على الدولة)[2]. واكد على اهمية الجامعة الاسلامية ومسألة الخلافة بغض النظر عن شخص الخليفة فقال: (ان الخلافة لم تتسم شروطها الصحيحة الا في الخلفاء الراشدين، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكا عضوضا قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم وما انقادت الامة الى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء من العرب او من الترك الا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج)[3] وهو ما كانت تتعرض له الامة آنذاك اذ كانت الدول الاوربية تثير الفتن في الداخل وتعمل على الاعتداء من الخارج. ولذلك كان لا بد ان تتضمن خطط الغزو الاجنبي هدم القيم الاساسية للجامعة الاسلامية كما جاءت في الاصول الاسلامية. ولما كان هذا امر يصعب كثيرا في ذلك الوقت الذي كانت فيه الامة لا تزال تتمسك بدينها تمسكا شديدا ولا تفصل بينه وبين دنياها! وتتمسك باصول الدين اشد التمسك فقد كان لا بد من معالجة الامر بالتدريج وتشتيت الدعوة وتذويبها من خلال تذويب القيم ذاتها ومعالجتها بالتغيير من خلال التأويل ان اقتضى الامر. وهذا امر لا يمكن ان يحدث الا من قبل رجال دين من الذين (... اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله ويحسبون

---

(١) محمد رواس القلعجي: موسوعة فقه علي بن ابي طالب ص١١٣

(٢) عبدالعزيز الدوري: التكوين التاريخي للامة العربية ص١٨٣

(٣) العقاد: الرحالة ك، الكواكبي، ص٩٩

انهم مهتدون)[١] ومن (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم الكافرون)[٢] ومن (الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا)[٣] ومن (الذين عصوا ما امرهم به ربهم بقوله : (يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين)[٤]. ومن الذين عصوا ما امرهم به ربهم بقوله: (يا ايها الذين أمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق...)[٥] ومن الذين ابتغوا غير الاسلام دينا وانتسبوا الى هذا الحزب الملحد او ذاك من اللابسين الاسلام لبوسا خارجيا يتظاهرون به نفاقا لاغراض في انفسهم. ومن هنا ظهرت اهمية ما سمي بالاصلاح الدين كاداة لتغيير القيم والمفاهيم والتي تقوم عليها عقائد المسلمين للتقليل من شأنها ومن فاعليتها او هدمها نهائيا. وعلى رأس هذه المفاهيم مفهوم الخلافة بمعنى وجود ولي امر واحد يكون مسؤولا عن حماية مصالح المسلمين جميعا الدينية والدنيوية. ومفهوم الطاعة ومفهوم الجهاد للغزاة الكفار وعدم اتخاذهم اولياء ومفهوم الامة والتي هي كما يؤكد عليها الاسلام (مجموع المسلمين الذين استمسكوا بعروة الدين ونسوا عصبياتهم الجنسية والقومية والاجتماعية، فالمسلمون سواء واكرمهم عند الله اتقاهم...)[٦] وغير ذلك من القيم والمفاهيم التي يعتمدها المسلمون في حياتهم. فبدأ تشتيت الدعوة للجامعة الاسلامية وتذويبها بشكل منظم ما سمي بالاصلاح الديني برواده الاوائل: الافغاني وعبده

---

(١) الاعراف: ٣٠

(٢) هود: ١٩

(٣) البقرة: ١٧٤

(٤) المائدة: ٥٧

(٥) الممتحنة: ١

(٦) عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي ص١٧٥

والكواكبي وتلامذتهم!!

وقد شاعت فكرة ان الافغاني هو صاحب فكرة الجامعة الاسلامية، وانتشرت واكدها عدد غير قليل من الباحثين ومنهم السيد عبد الباسط محمد حسن في كتابه جمال الدين الافغاني واثره في العالم الاسلامي الحديث والذي اكد ان (السلطان عبد الحميد اراد ان يستغل دعوه جمال الدين لتعزيز مركزه، وتأييد سلطانه وتثبيت نفوذه في العالم الاسلامي) ولكن الكاتب نفسه يعود فيقول ان الافغاني لم يدعو للجامعة الاسلامية الا في المرحلة الاخيرة من حياته وكان ذلك حين اصدر جريدة العروة الوثقي في باريس!! والجريدة كما هو معلوم صدرت في ١٨٨٤[1] ثم يقول بعد ان احاطت الاخطار بالدولة العثمانية من كل جانب فروسيا تهدد (ملك عثمان)!! وجلادستون رئيس الاحرار في انجلترة كان ينادي بتقسيم املاك الدولة في اوربا وعمل لتأييد القوميات المسيحية في البلقان وفي روسيا الخ... (حينئذ عمد السلطان عبد الحميد الى تسخير قوة الدين في تحقيق اغراضة واراد ان يؤيد سلطته في الدولة العثمانية باعلان حقوقه وامتيازاته كخليفة للمسلمين... وقرر ذلك في دستور ١٨٧٦ اذ جاء في المادة الرابعة ان السلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين له الحق في الدفاع عن العقيدة الاسلامية)[2] ويوكد العقاد ان السلطان عبد الحميد اثار مسألة الجامعة الاسلامية والخلافة في وقت واحد ونشطت دعوة الخلافة ونشطت معها دعوة الجامعة الاسلامية في وقت واحد بعد ولاية عبد الحميد بسنوات قليلة...)[3]. فكيف اذ كان الافغاني اول دعاتها؟ وكيف تكون فكرته التي استغلها عبد الحميد؟ وكيف ارتبطت باسمه ولماذا؟

ان الحقيقة كما اراها هي عكس ما رأه دعاة الافغاني. فهو بعد ان رأى مدى

---

(١) ص ٩٤

(٢) ص ٩٨

(٣) العقاد: الرحالة ك، الكواكبي، ص٩٧

نجاح دعوة السلطان عبدالحميد للجامعة الاسلامية ومدى استجابة المسلمين لها ادلى بدلوه فيها من اجل تشتيتها وتقليل فاعليتها وهدمها في النهاية كليا. ان الجامعة الاسلامية هي عقيدة راسخة في قلوب المسلمين وضمائرهم منذ فجر الدعوة الاسلامية التي ساوت بين المسلمين جميعا وجعلت معيار التفاضل بين العربي والاعجمي والغني والفقير، والقوي والضعيف الخ... هو التقوى، فان اكرمكم عند الله اتقاكم. وهذه التقوى هي التي جعلت من جميع المسلمين امة واحدة. وبهذه العقيدة والايمان بوحدة المسلمين تفوق المسلمون على اعدائهم ممن يفوقونهم عددا وعدة. وبنوا حضارة لا نزال حتى اليوم، وفي عز نهضتنا الحاضرة!!! نتغنى بها وبامجادها لاننا لا نملك حتى الآن غيرها نفاخر به. وبعد ان استقرت احوال المسلمين على شكل من الاشكال بغض النظر عن سلبياته، ظلت هذه العقيدة بالانتماء وبالوحدة كامنة في نفوس المسلمين حتى صارت غريزة فيهم تظهر وتدفعهم للعمل عند الحاجة وكلما تعرض دينهم وسبب وحدتهم هذا للخطر، كما كان يحدث في الحروب الصليبية الاولى. حتى ليخطر ببال المرء ان احد العوامل المهمة التي مكنت المغول والتتار من الامة هو انهم لوثنيتهم لم يستهدفوا عقيدة المسلمين ولذلك لم يستثيروا فيهم هذه الغريزة الكامنة في صدورهم-المسلمين- بما يكفي للاستماتة في الدفاع عنها. والا كيف تمكنوا من الامة الاسلامية وهم لم يكونوا اكثر قوة ولا اكثر قسوة من الغزاة الصليبيين؟ كما لم تكن الامة باكثر ضعفا مما كانت عليه ايام بعض الحملات الصليبية. والاوربيون استثاروا غريزة المسلمين في الدفاع عن دينهم ورابطتهم الاسلامية. بما اثاروه لهم من فتن دينية كتلك التي اثاروها في لبنان وفي دول البلقان وارمينيا وغيرها. وبتهجم كتابهم وساستهم على الاسلام وعقائد المسلمين بدعوتهم ودعوة تلامذتهم الى العلمانية والعصبية الجنسية وغير ذلك مما هو ليس من الاسلام في شيء. واهم من كل ذلك غزوهم العسكري واحتلالهم لبعض بلاد المسلمين وفرض ثقافتهم عليها مما اثار الشعور بالرابطة الاسلامية الكامنة في ضمائر المسلمين ووجدانهم فظهر منتظرا من يقوده للعمل. وكل ما في الامر ان السلطان عبدالحميد كان له من العقل والحكمة ما جعله يستغل

هذا الشعور ويوظفه في خدمة الاسلام والعقيدة الاسلامية والدفاع عن الدولة الاسلامية وعزها الذي هو في ذات الوقت، وبنظر المسلمين كافة آنذاك عز لهم جميعا. فالاسلام والمسلمين والدولة العثمانية قبل الاتحاد والترقي كانوا واحدا. وقد ظل الاتجاه السائد بين المسلمين وحتى سقوط الدولة العثمانية هو اعتبار الدولة العثمانية دولة اسلامية (... وتمزيقها تمزيقا لوحدة بلاد المسلمين. اما ما يؤخذ عليها من ابتعاد عن جوهر الاسلام فلا يسوغ العمل على تمزيقها. ومن هنا كان دفاع اصحاب هذا الاتجاه عن الدولة العثمانية، دفاعا عن الجامعة الاسلامية ضد الغزو الغربي بكل ما يحمل من ثقافات وتوجهات مضادة للامة... ودفاعا ضد الهجمة الاستعمارية التي ارادت السيطرة على بلاد العرب والمسلمين من خلال ضرب الدولة العثمانية)[1].

فالسلطان عبدالحميد لم يقصد بدعوته للجامعة الاسلامية مصلحة خاصة كما يحاول البعض تصوير الامر. والا كان حقق مصالحه بشكل افضل بكثير، وتجنب العزل بالتعاون والتواطؤ مع هذا الغزو واصحابه كما فعل بعد ذلك الثوار والنهضويون الذين وصلوا الى سدة الحكم من خلال تعاونهم وتواطئهم معه! وانما دعا اليها ليحمي الاسلام والمسلمين والدولة الاسلامية العثمانية مما تعرضوا له جميعا من ذل ومهانة بعد عزله، عندما دنست اراضيهم وتقاسمها الاشرار من الدول الاجنبية بتعاون مع الثوار الوطنيين!! من تلامذتهم ودعاتهم.

اما الافغاني فقد كان له من قلة الحكمة-او كثرتها الله اعلم- ما جعله يعمل على هدم هذا الشعور الكامن والظاهر آنذاك في نفوس المسلمين بتشتيت الدعوة للجامعة الاسلامية وتضييع المسلمين في متاهات الغرب والحضارة الغربية فمنذ اول عهده بالعمل في مصر انتمى للماسونية المتعارضة مع الاسلام وعمل على نشرها حتى زاد عدد الماسونيين في مصر في عهده الى اضعاف ما كانوا عليه قبله، وتبني

---

(١) منير شفيق: الاسلام ومعركة الحضارة ص١٢٣

شعاراتها المضللة والف احزابا وجمعيات ماسونية تنشر الفكـــر الاوربـــي وتدعـــو للعصبية الجنسية او الاقليمية والى جامعة اللسان او الارض بغض النظر عن الدين، فهل كان هذا كله من اجل الجامعة الاسلامية وخدمة اغراضها؟ ودعا الى اقتبـــاس الفكر الاوربي والانظمة والدساتير الاوربية في الوقت الذي كان المسلمون لا يـــوون في غير القرآن دستورا لهم ولا يرضون بغير النظام الاســـلامي لتنظيـــم شـــؤون حياتهم. فهل كان هذا خدمة للاسلام وللجامعة الاسلامية؟!

وهجومه المعروف على الحكام المسلمين بالحق وبالباطل وافتعـــال الخلافـــات معهم واتهامهم بكل ما يمكن ان يحدث فجوة بينهم وبين رعيتهم واستعداء الاجـــانب والتآمر مع هؤلاء الاجانب على عزلهم او قتلهم كما فعل مع الخديوي اسماعيل ومع شاه ايران. هل كان هذا كله عمل في اتجاه الجامعـــة الاســـلامية وتوحيـــد كلمـــة المسلمين؟ وهجمته على رجال الدين الذين كانوا يرفضون اقتباس الحضارة الاوربية لانهم اعتقدوا ان ذلك بابا يدخل منه الاستعمار ليستعبد الامة ويذلها. فرفضوا فتـــح أي باب له مهما كانت ضيقة كتقليد لباسه او استخدام اسلحته او تنظيماته الاداريـــة الخ... لانهم كانوا ابعد نظرا من دعاة الاقتباس للحضارة الاوربية، فعلموا ا ن ذلـــك ان حدث فسوف لن يقف عند حد معين حتى تستلب شخصية الامة فتـــذل ويحقـــق الاستعمار مآربه منها. فهل كان هذا ايضا خطوة في اتجـــاه الجامعـــة الاســـلامية وتوحيد كلمة المسلمين؟ او تحقيق مصلحتهم؟ ودعوته للقومية وتأكيده على رابطـــة اللسان كأقوى الروابط تارة ثم هدم هذه بدعوته للقطرية بتأكيده على تراث الفراعنـــة في مصر الى حد اعتبار الاتراك والعرب والاكراد، وكلهم مسلمون حكمـــوا علـــى اساس مبدأ لا فرق بين عربي او اعجمي الا بالتقوى، كلهم مســـتعمرين مســـتغلين مثلهم مثل الرومان والاغريق والفرس يجب رفض حضارتهم او الانتمـــاء اليـــهم. والعودة الى تراث الفراعنة الاجداد! ثم دعوته للتفوق العربي وللخلافة العربية وللغة العربية، فهل كان هذا كله لمصلحة الجامعة الاسلامية ومن اجل وحدة المسلمين؟!!

صحيح انه عندما اصدر جريدة العروة الوثقى، بعد طرده من مصر، دعا مـــن خلالها الى الجامعة الاسلامية ولكنه ارادها جامعة موجهة ضد الانكليز في مصـــر

فقط، فهم من دون الاوربيين المستعمرين جميعا كانوا هدفه في اكثر ما كتـب فـي العروة الوثقى كما مر ذكره. وفي دعوته هذه (لم يحدد غايته من الجامعة الاسـلامية تحديداً واضحاً باقامة حكومة واحدة تخضع لها كل البلاد والشعوب الاسلامية وانمـا الذي يفهم من خلال افكاره في العروة الوثقى ان غايته من الجامعة الاسلامية بيـن الشعوب الاسلامية التعاون والترابط الاخوي الاسلامي)[1] وهو ذات المفهوم الـذي اخذه عنه اسلاميو النهضة مثل رشيد رضا ورفاقه الذين لا يعنون بالوحدة الاسلامية ان (تتجسد بالضرورة في شكل دولة اسلامية واحـدة... لكنـهم يعنـون بـالوحدة الاسلامية جوهريا، وحدة القلوب بين المؤمنين العائشين معا في تسـاهل متبـادل. والتعاون بين الجميع على تنفيذ وصايا الدين)[2]. فنجد انه في الوقـت الـذي كـان السلطان عبدالحميد وعامة المسلمين يبغون من الجامعة الاسلامية ومن الخلافة وحدة الامر ووحدة الكلمة ليصبح للمسلمين كلمة لها وزن في السياسة الدوليـة لمواجهـة كلمة الامبراطوريات الاوربية الكبيرة التي كانت تضغط بكل ثقلها على العالم ككـل وخاصة العالم الاسلامي لاستعماره واستعباده، نجد ان الافغاني يقـول: (لا التمـس بقولي هذا ان يكون مالك الامر في الجميع واحد، فان هذا ربما كان امـرا عسـيرا ولكن ارجو ان يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة ووحدتهم الدين وكل ذي ملـك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر مـا اسـتطاع...)[3] وفـي رأي الافغـاني ان المسلمين لا يحتاجون الا الى (اتفاق ارائهم... وارتباط قلوبهم الناشئ عن احسـاس بما يطرء على الملة من اخطار[4] وهو الامر الذي كان عاما وشائعا بين المسـلمين ولا يحتاجون فيه لنصح الافغاني، ولكن ما كان المسلمون يحتاجونه هو تحويل هـذا الارتباط وهذه المشاعر الى خطة عمل ينفذها قائد يعترف به الجميع.

---

(١) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح بين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ص١٣٦

(٢) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٢٧٦

(٣) العقاد: الرحالة ك، ص٩٨-٩٩

(٤) عبدالباسط: جمال الدين... ص٨٤

ولكن يبدو ان كتّاب النهضة! قد اعتمدوا على كلمة من هنا وكلمة من هناك قالها الافغاني تفيد قضية الاسلام والمسلمين مما يقتضيه لباس الدين الذي توشحت به دعوته، ليؤكدوا انه كان اكبر داعية للجامعة الاسلامية (وان الفضل الاكبر في ظهور الجامعة الاسلامية) يرجع له[1] وانه (جعل الشرق كله ميدانا لكفاحه وجهاده. فدعا في لندن وباريس الى انشاء جامعة اسلامية تضم مختلف بلدان الشرق الاسلامي وتسعى الى تخليصها من السيطرة الاجنبية)[2] مع ان دعوته للجامعة الاسلامية لو حللت وفق معيار دقيق محدد الاهداف لوجد انها ما كانت الا دعوة لتشتيت دعوة الجامعة الاسلامية وهدمها حتى ليبدو للقارئ لاعماله انه ما ذهب للاقامة في الاستانة نفسها في اواخر ايام حياته وبائع السلطان عبدالحميد الا بغرض هدم الجامعة الاسلامية من منبعها من خلال التودد للسلطان ليحوز على ثقته فيشير عليه بما يهدم الجامعة ويضر بالدولة الاسلامية. اذ هو في عز الهجمة الاستعمارية وفي عز الدعوة لتوحيد كلمة المسلمين في جامعة واحدة وخلافة واحدة لتقليل مجالات التشتت وتفرق الكلمة لمواجهة هذه الهجمة، عرض على السلطان ان يأخذ بنظام اللامركزية في الحكم، وهي الدعوة التي كانت اوربا تتبناها وتحرض تلامذتها ودعاتها على المطالبة بها لتستفرد بكل ولاية على حدى، وان يقسم دولته الى ولايات صغيرة. ويترك لكل ولاية الحرية في الحكم خاصة في مسألة المعاهدات مع الدول الاوربية وفي مجال القروض! من اجل تقوية وتسليح نفسها!![3] وان (يعين على كل منها خديوي مثل مصر تماما. ويكون الجميع تحت امرة السلطان وطلب

---

(١) ذات المصدر ص٦٦

(٢) ذات المصدر ص٣٠ (وهنا لا بد من التساؤل هل من يدعو للجامعة الاسلامية الصحيحة التي تقف في وجه السيطرة الاستعمارية يتخذ من باريس ولندن مقراً له وفرنسا وانجلترا تحتلان بعض البلاد العربية وتعملان على احتلال بقية الدول الاسلامية العربية لتفرضا سيطرتهما عليها؟).

(٣) عبدالباسط: ذات المصدر ص١٠١

منه ان يبدأ بالبعيد منها والمطموع فيها مثل طرابلس الغرب فيجعلها خديوية وهكذا مع جميع الولايات المستحدثة كما مر ذكره. مع ان الدول العثمانية ما اعتمدت المركزية في الحكم الا بعد ان وجدت ان اللامركزية التي كانت سائدة من قبل قد ادت الى تزايد النفوذ الاوربي في الولايات معتبرة بما حدث في مصر من احتلال نابليون اولا ثم احتلال الانكليز لها بعد ذلك. كما دعا للسماح بتكوين الاحزاب على الطريقة الاوربية والى وضع دستورعلى النمط الاوربي ولما لم يستجب له السلطان لانه كان على علم، وباعتراف الافغاني نفسه بخطط الاستعمار والتي كان ما يدعوه اليه الافغاني جزء من هذه الخطط، هذا بالاضافة لخبرة الدولة مع خديوي مصر محمد علي، الذي اتفق مع اوربا واستقوى بها على غزو الدولة العثمانية اولا ثم اغرق اسماعيل دولته بالقروض حتى مكّن الانكليز من احتلالها في النهاية هذا غير انها صارت مركزا للتحريض ضد الدولة العثمانية وجيوشها حاربت مع الانكليز في كل حروبها وخاصة ضد الدولة العثمانية وضد ثورة المهدي في السودان قبل ذلك وعندها افتعل الافغاني معه الخلاف وادعى انه سحب بيعته واستهزأ بالخلافة فقال خلافة عظمى! وامامة كبرى!

لقد هزلت حتى بدا من هزالها　　　كلاها وحتى سامها كل مفلس

وقال الخلافة... كفالة الله في خلقه فاين اصلاح اولئك العجزة من مقام الامامة والخلافة وما تتطلبه من الشروط والصفات؟[1] واعتبر موقف السلطان عبدالحميد جامدا ومتخلفا فقال: (كيف لا تذهب النفس حسرات واكبر سلطان من المسلمين هذا موقفه من الجمود عن قبول النصح واصلاح الملك والمحافظة او المطالبة بصريح حقه في اجزاء سلطنته)[2] مع ان ما حدث بعد ذلك يؤكد فراسة السلطان في عدم العمل باشارة الافغاني التي كانت عين ما تسعى اليه الدول الاوربية وحققته بعد

---

(١) ذات المصدر ص١٠١

(٢) ذات المصدر

ذلك! اذ (تحولت بفضل جهود لجنة كامبل نيومان الاستعمارية، المدن التاريخية الى عواصم لوحدات جغرافية غدت مستقلة، فبغداد اصبحت عاصمة العراق وكذلك دمشق والقاهرة وكان بالامكان ان تصبح كذلك مدينة البصرة لو نجح رأي الساسة البريطانيين في تحويل ولاية البصرة الى دولة مستقلة)[1]. وهكذا حدث في بلاد الشام اذ اصبحت لبنان المستقلة وسوريا المستقلة وشرق الاردن المستقلة وفلسطين المحتلة التي منحت لليهود. فظهر ما كان خافيا وبان من كان مخلصا ومن كان حكيما ومن كان وطنيا ومن كان عكس ذلك!

وكجزء من خطة تشتيت الدعوة للخلافة والجامعة الاسلامية ولاضعاف المسلمين والدولة الاسلامية وتسهيل غزوها عرضت لها البدائل موشحة بكل ما يجملها ويزينها، فعرضت الخلافة العربية والجامعة العربية.

الخلافة العربية والجامعة العربية

وبالرغم من ان كل من القرآن والسنة النبوية يؤكدان على ان لا فرق بين عربي ولا اعجمي ولا بين ابيض او اسود او احمر الخ... الا بالتقوى فقد شاعت وبشكل خاص عندما نشطت دعوة السلطان عبدالحميد للخلافة والجامعة الاسلامية، مفاهيم كان على رأس من تبناها من المسلمين الافغاني ومحمد عبده والكواكبي، كما تبناها بلنت وعازوري وغيرهم، تجعل للعرب مكانة خاصة تفوق مكانة غيرهم من المسلمين وتؤكد لذلك على اهليتهم لتولي مسؤولية حكم المسلمين وتصريف شئونهم الدينية بشكل خاص-لان الدعوة كانت تفصل بين الدين والدولة- هذا من جهة ومن جهة اخرى تجعل (من اهم الضروريات ان يحصل كل قوم من اهالي تركيا على استقلال نوعي اداري يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم كما هي الحال في امارات المانيا وولايات امريكا الشمالية، وكما يفعل الانجليز في مستعمراتهم والروس في

---

[1] نزار الحديثي: الامة العربية والتحديات ص١٥٧

املاكهم)[1] وتجعل ايضا من الضروري التطابق في الجنس بين الراعي والرعيـــة) لان ذلك (يجعل الامة تعتبر رئيسها رأسها فتتفانى دون حفظه ودون حكـــم نفســـها بنفسها حيث لا يكون لها في غير ذلك فلاح ابدا...)[2] وذلك كله تمهيدا كمـــا يبـــدو لدعوة تبناها بعد ذلك كثيرون ومنهم الكواكبي الذي جعلها موضوعا لكتابه ام القـرى وهي الدعوة للخلافة العربية.

وما يلفت النظر هو هذا التقليد لدول اوربا التي لم يزرها الكواكبي صاحب هذه الاقتراحات، ولم يتعرف على نوع الحكم فيها ويلمس صلاحيته باي شكل كان ومـــع هذا يدعو لاقتباسه!! من غير تفكر واعتبار. فهل تطابق الجنس بين الراعي والرعية منع الاتحاد والترقي من التآمر مع الاجانب على عزل السـلطان الـذي هــو مــن جنسهم؟ وشواهد التاريخ على مثل هذا التآمر كثيرة ولم تنقطع حوادثها المتتالية منـذ بدء التاريخ وحتى اليوم ثم ماذا عن الرعايا غير العرب من مواطني البلاد العربيـــة؟ هل يعني هذا ان الكواكبي يعطيهم الحق في التآمر عليه وعدم الاخلاص له وللوطن وعدم التفاني في ذلك لانه ليس من جنسهم؟ ثم لو نظر الكواكبي-وغـــيره- حولـــه وفي كل مكان من اوربا وامريكا وغيرها من الدول التي يريد الاقتداء بـــها بحجـــة توافق الجنس بين الحكام والمحكومين، ألم يتقاتل في هذه البلاد ابناء الجنس الواحـــد لاختلاف العقيدة والفكر؟ ومنها الحرب الاهلية في امريكا والتي لم تكن بعيدة عـــن زمن الكواكبي ودعوته. الم يقتل الفرنسيون عددا من حكامـــهم مـــن الجمـــهوريين والملكيين وهم من نفس جنسهم. فالى ماذا كان يدعو الكواكبي (ومن مثله) هل يدعو الى الفوضى والتخريب لا غير؟ ام ينفذ خطة موضوعــــة؟ ام هــو مجــرد كـــلام للتحريض ليس الا، وبدل ان يكون، كما قالت العرب، الكلام من ذهب صار الكـــلام عنده وعند غيره من رواد النهضة من تراب؟!! يذروه اينما شاءوا وكيفما شاءوا!!

---

(1) الكواكبي: ام القرى ص١٦٣

(2) العقاد: الرحالة ك ص١٩٩

وبغض النظر عن مدى توافق هذه الدعوة مع القيم والمبادئ الاسلامية التي انتشرت بين المسلمين وانتشر الاسلام بها وحافظ المسلمون بها على كيانهم في امبراطورية عظيمة لا تغرب عن جزء من العالم الاسلامي الا لتشرق على جزء آخر. فاستمرت ثلاثة عشر قرنا، وهو امر ليس هنا مجال مناقشته، ولكن التساؤل الذي يفرض نفسه هو هل كانت هذه الدعوة لتفوق العرب ولضرورة تعريب غير العرب، كما دعا الافغاني وغيره، وللخلافة العربية والجامعة العربية، بعد ذلك في مصلحة المسلمين والدولة الاسلامية في ذلك الوقت بالذات والذي يتطلب وحدة الكلمة ووحدة الجهود ووحدة القيادة وعدم فصل الدين عن السياسة ليدعم احدهما الآخر في وجه الغزو الاوربي؟ ام العكس؟!!

ان اكثر ما يريب في دعوة الكواكبي هذه كما يؤكد محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر-والتي هي ذات دعوة عازوري في باريس- هو ما في كلامه (من تودد الى الدول المستعمرة ومن تهوين لوقوع الامم الاسلامية تحت حكمهم، واسقاط فريضة الجهاد بعد ان فسرها تفسيرا غريبا. كما تريبه الصلة الواضحة بين كلامه هذا وبين كلام مستر بلنت في كتابه-مستقبل الاسلام- الذي دعا فيه الى نقل الخلافة للعرب وبينه وبين ما تكشفت عنه الايام من حوادث الثورة العربية بتدبير الانكليز سنة ١٩١٦)[1]. اذ كان قد كتب المستر بلنت، الصديق الحميم لمحمد عبده والافغاني وعرابي وسليم نقاش ويعقوب صنوع وغيرهم من رواد النهضة العربية! كتابا في هذا المعنى سماه مستقبل الاسلام يؤكد فيه على جعل الخلافة عربية، وقد تعرض مصطفى كامل في كتابه المسألة الشرقية لدعوة بلنت هذه اذ قال:

(والذي يبغض الانكليز على الخصوص في جلالة السلطان الحالي هو ميله الشديد الى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الاسلامية... ومن ذلك يفهم

---

(1) جـ١ ص١٨٣-٢٨٤

القارئ سبب اهتمام االانكليز بالافراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الاعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل ما في وسعهم... فان مشروع جعـل الخلافة الاسلامية تحت وصاية الانكليز وحمايتهم هو مشروع ابتكره الكثـيرون من سواسهم منذ عهد بعيد. وقد كتب كتاب الانكليز في هذا الموضـوع ومنـهم المستر بلنت المعروف في مصر. فقد كتب كتاباً قبل الاحتلال الانكليزي لمصـر في هذا المعنى سماه-مستقبل الاسلام- وأبان فيه اغراض حكومة بلاده وامـاني الانكليز في مستقبل الاسلام. وقد كتب في فاتحة الكتاب:

لا تقتنطوا فالدر ينثر عقده   ليعود احسن في النظام واجملا

أي ان هدم السلطنة العثمانية لايضر المسلمين. بل ان هذا العقد العثماني ينـثر ليعود عقدا عربيا احسن واجمل. ولكن ما لم يقله المستر بلنـت هـو ان قومـه يريدون هذا العقد العربي في جيد بريطانيا لا في جيد الاسلام!!... ويبين المستر بلنت ايضا-ان مركز الخلافة الاسلامية يجب ان يكون مكة، وان الخليفـة فـي المستقبل يجب ان يكون رئيسا دينيا لا ملكا دنيويا- أي ان الامور الدنيوية تـترك لانكلترة لتدبر امورها كيف تشاء! ويعقب المستر بلنت ذلك بقولـه-وان خليفـة كهذا يكون بالطبع محتاجا لحليف ينصره ويساعده، وما ذلك الحليف الا انكلترا!! وبالجملة فحضرة المؤلف لكتاب مستقبل الاسلام يرى-وما هو الا مترجم عـن أمال ابناء جنسه- ان الاليق بالاسلام ان ينصب انكلترا دولة له. ولم يبق للمستر بلنت الا ان يقول بان الخليفة يجب ان يكون انكليزيا)[١]!!.

ومسألة كون الدعوة للخلافة العربية وللجامعة العربية التي دعا اليها مفكـروا النهضة العربية، هي دعوة ذات منشأ اوربي حيث تبنتـها الـدول الاوربيـة وردد صداها المفكرون الرواد هؤلاء! لا يدل عليها فقط توقيتها مع دعوة السلطان للجامعة الاسلامية ولا تتطابق فكرتها بين الدعاة المسلمين وغيرهم من العلمانيين ومن غـير

---

(١) مصطفى كامل: المسألة الشرقية ص٢٧-٢٨

المسلمين تطابقا تاما حرفا بحرف كما في كتابات كل من الكواكبي وعازروي مما يؤكد على ان الاصل واحد–وانتماءات عازوري وامثاله تبين من هو الاصل– وانما ما حدث بعد ذلك من تطورات مثل وعد الانكليز للعرب بهذه الخلافة، يؤكد ايضا كون الدعوة اوربية الاصل! ومما يذكر هنا فقد كتب مكماهون الى بعض القادة في الحجاز في ٣٠ اغسطس عام ١٩١٥ رسالة يقول فيها فيما يقول: (وانا نصرح هنا مرة اخرى ان جلالة ملكة بريطانيا العظمى ترحب باسترداد الخلافة على يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة)[١].

وقد استمر تشتيت الدعوة الى الخلافة التي دعا اليها السلطان العثماني وتزايدت الدعوة الى فصل الدين عن السياسة حتى تبلور كل ذلك في العشرينات من القرن العشرين الى ازالة الخلافة على يد كمال اتاتورك وحزبه وبدأ الهدم العلني لمفهوم الخلافة من اجل الفصل التام بين الدين والسياسة وحصر الدين في قلوب المؤمنين به لا غير. وكان على رأس ما كتب بهذا المعنى هو ما كتبه علي عبدالرازق في كتابه الاسلام واصول الحكم والذي (يدور حول هدم فكرة الخلافة واثبات انها نظام تعارف عليه المسلمون وليس في اصول الشريعة ما يلزم به)[٢] وهو ذات (ما تصدى لبيانه وترويجه من قبل كتاب–الخلافة وسلطة الامة–) الذي اصدرته حكومة الكماليين ولذلك لا تكمن خطورة الكتاب في موضوعه كما يؤكد محمد حسين وانما تكمن خطورته في (جرأته وعنفه في مصادمة عواطف الناس وفي تحدي مشاعرهم وفي التشكيك–الساخر احيانا– فيما تطمئن اليه نفوسهم دون ان يقدم الادلة الواضحة على ما يذهب اليه من مزاعم تخرج عن المألوف...)[٣].

ويقول محمد عمارة عن كتاب عبدالرازق هذا (ان هذا الكتاب فيما يتعلق بهذه

---

[١] محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ٢ ص١٠٥

[٢] ذات المصدر ص٨٧

[٣] ذات المصدر ص٨٦

القضية السياسية قد كان شديد الفعالية وادى دوره كاملا كما كان صاحبه حاد البصيرة في رؤية اتجاه حركة التطور والتاريخ، تلك الحركة التي جاءت مصداقا لما اراد رغم ما وجه اليه ووجه به من اتهامات وعقبات)[1]. وهو قول لا يمكن اعتماده الا ان عرف ما هو الدور الذي اداه الكتاب وصاحبه ولمصلحة من اداه في ذلك الوقت-العشرينات من القرن العشرين- بالذات؟ والذي كانت فيه الامة من اقصاها الى ادناها ترزح في ذل الاستعمار الذي يتصرف في شؤونها وشؤون المسلمين والعرب منهم، وكأنهم عبيد يقطنون املاكا خاصة بدول الاستعمار لا حق لهم فيها الا بما يتصدق به عليهم سيدهم المستعمر. وفي زمن حتى الخلافة العربية التي وعدت دول الاستعمار بها تلامذتها هدمت وصارت البلاد تحت سيطرة الاجانب تصرفوا بحدودها كما يشاءون من التقسيمات التي تخدم مصالحهم ومطامعهم ومطامع حلفائهم من غير العرب والمسلمين! مما جعل المسلمين يتعلقون بالخلافة كما يتعلق الغريق بقشة ايا كان حجمها، ان عجزت عن انقاذهم مما هم فيه من ذل الاحتلال فلا تعجز عن مدهم بقوة معنوية تساعدهم على جمع كلمتهم التي بعثرها النهضويون والثوريون، وتوحيد موقفهم في مواجهة الاحتلال الذي كان يتصرف في شئونهم تصرف المالك! فلماذا هذا الكتاب آنذاك؟ وما هو الدور الذي اداه ولمصلحة من اداه؟!!!

اما مسألة حدة بصيرة صاحبه! الله اعلم اني بحثت عنها فلم اجدها، اعترف بعجزي، اذ لم يكن يحتاج بصيرة حادة ليرى بها-اتجاه حركة التطور والتاريخ- لانها في العشرينات من القرن العشرين كانت واضحة وضوح الشمس في وسط نهارمشمس فقد كانت الدول الاوربية قد انتصرت وقضت على الدولة العثمانية واصبح المسلمون وبلادهم تحت سيطرتها بالكامل. وكانت قد وضعت في معظمها تلامذتها ومريديها على رأس السلطة لينفذوا سياستها ويضعوا من القوانين والدساتير والانظمة ما يتفق وتحقيق اهدافها القريبة والبعيدة ومنها فصل الدين عن الدولة

---

[1] محمد عمارة: علي عبدالرازق، الاسلام واصول الحكم ص٤١

وجعل السلطة المدنية لا علاقة لها بالدين ولا بما يأمر به وينهي عنه! فاين هي حدة بصيرة صاحب الكتاب الذي كل ما فعله هو انه اخذ ادعاءاتهم من بطون كتبهم واقوال ساستهم ومستشرقيهم وترجمها[1] الى كتاب يحمل اسمه ليمنحها قدرا من الثقة والمصداقية باعتبارها تصدر عن شيخ ازهري! ليحبط بذلك عزائم المسلمين الذين كانوا يتململون مما ألت اليه احوالهم. ثم ان الانسان الحاد البصيرة هو الذي يرى الاخطار التي ستنجم عن حركة التطور والتاريخ هذه، ويؤثر فيها لصالح امته بوقوفه موقفا يمنع حدوث ما يضر الامة منها، لان التطور والتاريخ يصنعه البشر ذوي البصيرة وتصنعه مواقفهم وعزائمهم ولا يصنعه المداجون المقلدون!!

وكما انقاد مفكروا النهضة في تنفيذ خطط الدول الاوربية وتشتيت الدعوة للخلافة ومن ثم هدمها كليا فكذلك فعلوا بالدعوة للجامعة الاسلامية وبديلها الجامعة العربية اذ هدموا الاولى بالثانية ثم هدموا الاخيرة بتشتيتها وبالدعوة للوطنية الاقليمية.

الجامعة العربية

المتتبع لنشوء فكرة الجامعة العربية-القومية- يستطيع ان يستخلص الاتجاهات التالية؟

١.انها فكرة اوربية.

٢.انها فكرة تبناها اولا غير المسلمين.

٣.بدأتها المصالح الخاصة-والمنفعية- وانتهت عندما حققت هذه المصالح وليس اهدافها الحقيقية.

٤.انها علمانية بعيدة عن الدين؟

---

(١) ان احد المآخذ على هذا الكتاب هو انه اعتمد كليا على المصادر والمراجع الاوربية متبنيا ذات وجهة نظرهم.

١- **فكرة اوربية**

ان المتتبع لحركة الجامعة العربية-القومية- يجد انها ابتدأت مع الزحف الاوربي وبتوجيه من الزاحفين وبتهيئة عقول قادة التغيير الذين اعدهم الزاحفون لها كجزء من مخطط الغزو يستهدف ازالة العوائق امام زحفهم وامام تبني الحضارة الاوربية وتحقيق القبول لاصحابها، وتوجيه الشعور المتزايد باهمية الاعتصام بالعقيدة الاسلامية من اجل وحدة الصف والتكاتف والتعاضد في مقاومة العدوان المتمثل آنذاك بهذا الزحف الاوربي، وجهة بعيدة عن الدين وعن عقيدة الوحدة الاسلامية مما يفتت وحدة الصف ويفرق الامة ويهدم الجامعة الاسلامية التي كانت ومنذ فجر الدعوة خطرا على الغزاة. وهو امر اكده ساسة اوربا ومفكروها قبل غيرهم. فنجد على سبيل المثال، ان وزير المستعمرات البريطاني اكد هذا المفهوم في تقرير له عام ١٩٣٠ قال فيه (ان الحرب علمتنا ان الوحدة الاسلامية هو الخطر الاعظم الذي ينبغي على الامبراطورية ان تحذره وتحاربه وليس الامبراطورية وحدها بل فرنسا ايضا. ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة واتمنى ان تكون الى غير رجعة... ان سياستنا تهدف دائما وابدا الى منع الوحدة الاسلامية والتضامن الاسلامي وينبغي ان تكون كذلك: ففي السودان ونيجيريا كما هو الحال في مصر ودول اسلامية اخرى شجعنا وبصواب، نمو القوميات لكونها اقل خطرا من الوحدة الاسلامية)[1]. ولم تكن الحرب العالمية الاولى هي التي علمتهم هذا الدرس وانما علمتهم اياها الحروب الصليبية قبل ذلك بمئات السنين. ولذلك بدأت حركة الغزو الاوربي الجديدة بتشجيع التوجه القومي كبديل للتوجه الاسلامي من اجل اضعاف الامة وتمزيق وحدتها. وقد اكد لورنس في كتابه اعمدة الحكمة السبعة، هذا الدرس التاريخي عندما قال: (اننا كنا في حاجة الى قوة في الشرق تتغلب على قوة الاتراك في العدد والعدة. وعلمنا التاريخ ان مثل هذه القوة لا يمكن جلبها من اوربا جاهزة لان كل جهود الاوربيين السابقة للحصول على موضع قدم لهم في المنطقة انتهت

---

(١) الدكتور صلاح عبد المتعال، في تعقيب له في ندوة التراث وتحديات العصر ص٥٤٣

بمأساة. ونحن لا نكره ايا من الغربيين الى درجة ان ندفعهم الى محاولة جديدة في هذا الشأن. ولذلك كان لا بد من ايجاد ما نحتاج محليا فاخترنا العرب... وفي اول الحرب كان املنا في العراق وفي السيد طالب وبعده ياسين الهاشمي... وعزيز المصري المنافس لانور والذي كان يعيش في مصر مدينا لنا وكان يمثل رمزا بالنسبة للضباط العرب. وقد فاتحه كيتشنر في اول يوم من الحرب من اجل كسب القوات التركية المتواجدة في وادي الرافدين الى جانبنا ولكن غرور الانكليز واعتقادهم بانهم رابحون الحرب جعلهم، يقطعون اتصالاتهم بهؤلاء على اساس انهم لا يحتاجونهم... فرفضوا عزيز المصري واعتقلوا السيد طالب الذي وضع نفسه بين ايدينا... ولكن عندما تعرقل سير قواتنا في العراق بعد ذلك... اتصل مكماهون بالشريف حسين الذي كان ابنه عبدالله قد اتصل apeals بكتشنر قبل ذلك بسنوات واعطاه انطباعا حسنا[١].

ومما اغرى الدول الاوربية في اثارة التوجه القومي كبديل للتوجه الاسلامي والجامعة الاسلامية هو تأكدهم من ان الجامعة القومية العربية لن تشكل في يوم من الايام خطرا عليهم ولن تتمكن من الوقوف في وجه مخططاتهم كما يمكن للجامعة الاسلامية ان تفعل وذلك لعدة اسباب منها:

عدد المسلمين

ان قوة الجامعة الاسلامية لا تكمن فقط في مقوماتها الفكرية بل بالاضافة لذلك تكمن في كثرة عدد منتسبيها. فالمسلمون يشكلون الغالبية العظمى لسكان البلاد العربية فعدد غير المسلمين فيها يقل كثيرا عن عدد المسلمين من غير العرب مما يوفر للتوجهات الاسلامية وللجامعة الاسلامية من مقومات النجاح والقوة والمنعة ما لا يتوفر للجامعة القومية العربية. هذا من جهة، ومن جهة اخرى، فان الاعداد الكبيرة من غير

وجود قوميات أخرى

العرب هؤلاء وبانتشار النزعة القومية العربية وغياب النزعة الاسلامية

---

(١) الاعمدة السبعة ص ٥٠-٥٩، T.L.Lawrance: Seven pillars of Wisdom p.50-59

الجامعة ستبرز نزعنهم وتوجهاتهم القومية ايضا مما يسهل للدول الطامعة هذه امر تمزيق الوحدة القومية واضعافها وشل حركتها في مواجهتهم باثارة القوميات الاخرى المشاركة للعرب في الوطن. هذا بالاضافة الى ان المسلمين العرب كانوا قد تخلوا عن عصبيتهم القومية منذ فجر الدعوى الاسلامية اذ آمنوا بان لا فرق بينهم وبين غيرهم الا بالتقوى فاندمجوا ببقية المسلمين من القوميات الاخرى. وغالبيتهم ترفض التوجهات القومية العربية اذ تعتبرها عودة للجاهلية الاولى ومخالفة لمبادئ الاسلام، مما يقسم حتى المسلمين العرب الى قوميين علمانيين واسلاميين دينيين. كل هذا يقلل من فرص نجاح الجامعة القومية العربية كقوة يمكنها الوقوف في وجه القوى الاستعمارية في يوم ما كما كانت تقف الجامعة الاسلامية من قبل. هذا غير عدم وجود قاعدة فكرية للقومية العربية تستمد منها ما يساعدها على بناء انظمتها الخاصة بها كما هو حال الجامعة الاسلامية التي يغنيها الاسلام بما يوفر لها من نظام متكامل ينظم علاقات الناس بعضهم ببعض في جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والقضائية والاسرية الخ... ومع فصل الدين في الفكر القومي المستورد عن مقومات الجامعة العربية القومية، ومع شعارات التقدمية والتجديد والثورية والمعاصرة والنهضوية الخ... ذات المصادر الاوربية، التي الصقوها بالجامعة القومية العربية لم يتبقى امام هذه الجامعة من معين تستقي منه لتنظيم وبناء مؤسساتها الا الغرب وحضارته والفكر الغربي الاجنبي. مما يضمن تبعية الجامعة القومية لهذه الحضارة واصحابها الى ابد الآبدين، يوجهونها كما يشاءون من خلال الفكر، على الاقل!! لتحقيق اهدافهم.

التوجه الاسلامي للعرب

غياب القاعدة الفكرية

وكان اول هدف ارادت تحقيقه دول اوربا من نشر الوعي القومي والدعوة للجامعة القومية كما كان هدفها من جميع دعواتها الاخرى، هو هدم الجامعة الاسلامية التي كانت تقلقهم. وهو القلق الذي عبر عنه جب في تساءوله عن الوحدة

الاسلامية اذ قال: (ان موضوع البحث ليس هو: هل تبقى الروابط القديمة التي كونت هذه الوحدة ثابتة دون ان تتغير او تتطور؟ فقد تتطور مظاهر هذه الروابط وقد يصبح مفهوم هذه الوحدة مغايرا لمفهومها في العصور الوسطى، فكل ذلك ثانوي ليس بذي خطر، ولكن المهم هو: هل ستكون هناك ميول مشتركة بين الشعوب الاسلامية؟ وهل سيقوم احساس بوحدة العمل والهدف؟ ام انه الاراء الجديدة وحاجات الحياة الجديدة، ستنجح آخر الامر في تشتيت المجتمع الاسلامي وتحطيم وحدته؟)[1].

وقد جعل الاوربيون الجامعة القومية العربية جزءا من خطط غزوهم، غرسوها ورعوها في البلاد العربية منذو اوائل القرن التاسع عشر وبدأت ثمارها تجنى في نهاية القرن. وقد لعبت الارساليات والمدارس الاجنبية والبعثات والجمعيات الماسونية وغيرها، ووسائل الاعلام دورا كبيرا في ذلك اكده بيجمن فيلبي في محاضرة له بالجامعة الاميركية في ٢٠/١٠/١٩٥٧ اذ قال: (لعبت الارساليات -في بيروت والقاهرة والقسطنطينية-الدور الرئيسي في تنمية الفكر الشخصي عند طلابها الذين تمكنوا من قيادة الحركة القومية ومن المهم ان نعرف ان النفوذ التربوي الوحيد الذي تعرض له الطلاب العرب في القرن الماضي: كان النفوذ الغربي)[2] واكد حبيب كوراني، استاذ الجامعة الامريكية، بأن نشأة القومية العربية كان ابرز اثار الحضارة الغربية اذ يقول: (كان الاثر الاول للحضارة الغربية في الحياة العربية بعث القومية العربية وقيام الحركة الاستقلالية التي تشمل العالم العربي في الوقت الحاضر، وكانت هذه الحركة نتيجة مباشرة للتعليم الغربي)[3]. وتأثير اوربة في نشوء الحركة القومية العربية لا يقتصر على تقديمها (نموذجا للشكل الذي يمكن

---

(١) محمد محمد حسين: الاسلام والحضارة الغربية ص١١١

(٢) انور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص٩٥

(٣) محمد محمد حسين: الاسلام الحضارة الغربية ص١٢٢

للدولة القومية اتخاذه) (كما يؤكد مجيد خدوري بل ايضا (بدعمها نشوء الدولة الاقليمية في العالم الاسلامي)[1]، ليس فقط في العالم العربي وعلى اساس قومي وانما (هي دعمت قبل ذلك انفصال دولة فارس وافغانستان -الدولة القاجارية- على اساس ملكية وراثية مستقلة دون ان تتحول الى دول قومية حديثة)[2] مما يدل على ان الهدف المطلوب هو تفتيت الوحدة الاسلامية باي شكل كان وليس التحديث والتجديد كما تدعي دول اوربا ويدعي دعاتها ومريدوها والسائرون وراءها.

وقد أكد كثير من الباحثين، من القوميين ومن غيرهم وبشكل مباشر او غير مباشر، دور الدول الاوربية -الغرب- ومساربها المختلفة في نشر الوعي القومي وتبني الجامعة القومية في البلاد العربية فيقول البزاز مثلاً؟

(ولقد سرت الروح القومية من اوربا الى بلاد الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، واخذت الافكار القومية تتسرب الى ابناء القوميات العديدة التي تتكون منها تلك الدولة... ولقد كان من الطبيعي جدا ان تكون الايالات العربية الواقعة على سواحل شرق البحر الابيض المتوسط... بحكم صلتها بالغرب عن طريق التجارة والبعوث والارساليات والارتباط الديني والمذهبي بفريق من ابناء هذه المنطقة مهيأة قبل غيرها للقيام بالدور الطليعي في الوعي القومي... ان الشعور الجماعي للقومية العربية، والعمل بها بدأ... في بيروت ثم ظهر في دمشق... حيث انشئت المطابع والجمعيات الادبية... وانتشرت الصحف والمجلات العربية واحتك الفكر العربي بالفكر الغربي عن طريق المبشرين والمدارس، والكليات التي اقامتها دول الغرب او بعض الارساليات الدينية كان المظهر الاول بروز القومية العربية من حيث كونها عقيدة تجمع ابناء العروبة وتميزهم عن غيرهم من رعايا الدولة العثمانية...)[3] وبعد

---

[1] مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية ص٢٧

[2] ذات المصدر ص٢٨

[3] عبد الرحمن البزاز: بحوث في القومية العربية ص٣٦٨-٣٦٩

ان يؤكد البزاز على ان الدعاة للقومية كانوا من المرتبطين بالمدارس التبشيرية والاجنبية يقول:

(واحسب انه لا ينقص كثيرا من قيمة الدعوة الجديدة ان تكون بعض الفئات الاجنبية، والهيئات التبشيرية، قد ساعدت في ايقاظ هذا الشعور وتحريكه بقصد اضعاف الدولة العثمانية الممثلة للخلافة الاسلامية او -الجامعة الاسلامية- كما كانت تسمى احيانا) -بل هو بالعكس يرى ان هذه الحركة التي كان في طليعتها (نايف اليازجي وابنه ابراهيم والبستاني والشدياق الخ...) هي (معركة فكرية سلاحها القلم واللسان وساحاتها العقول والضمائر وهدفها الاصلاح القومي، على الادق، تحقيق مصلحة قوم معينين ولذلك استحقت بجدارة ان تعد المعين الاول للقضية القومية العربية الحديثة)[1].

ورغم تاكيد المفكرين العرب، مثل غيرهم، على كون الوعي القومي والدعوة للجامعة القومية العربية ما انتشرت الا بدعم الدول الاوربية وتوجيهاتها لتحقيق هدفها في اضعاف الدولة العثمانية والجامعة الاسلامية، الا انهم من جهة اخرى يؤكدون على انها كانت رداً على ظهور الحركة الطورانية التي قامت على العصبية التركية واضطهاد القوميات الاخرى والعمل على صهرها في الجامعة التركية المناهضة، هي الاخرى للجامعة الاسلامية والتي تسعى لفصل تركيا عن العالم الاسلامي، بفصل الدين عن السياسة وباعتمادها على اصول تستمدها من الروح التركية وحدها. فيبين رشيد رضا (ان الاتحاديين بعصبيتهم التركية واضطهادهم للعرب احيو العصبية العربية واوجدوا الفرقة فلم يبقى ما يمنع العرب من التحرك...)[2] نحو الاستقلال العربي على اساس من القومية العربية. ويقول البرت حوراني انه بعد عزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ (ظهرت التناقضات

---

(١) ذات المصدر ص٣٧١

(٢) عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للامة العربية ص١٦٧

بين الفئات المختلفة فظهر في حزب تركيا الفتاة النزعات القومية المختلفة باختلاف جنسيات اعضائها وتحولت القومية العثمانية التي كان يدعو لها فيلسوف -تركيا الفتاة- ضياء جوكلب الذي كان يعتبر فرض شعور قومي واحد على ابنائها هو المخرج الوحيد من المأزق. الى قومية تركية تدعو الى تقوية مصالح الاتراك خارج الامبراطورية وداخلها والعمل على تتريك جماعات غير تركية في الامبراطورية ودعم سيطرة العنصر التركي مما جعل الفئات الاخرى كالارمن والعرب والاكراد والالبان لا ترى بد من دفع هذا الخطر عنها بتعزيز فكرة القومية)[1].

ويفصل البزاز بين الجانب الفكري والجاني العملي للقومية العربية فالجانب الفكري العقائدي بالنسبة له هو الذي كان على راسه اليازجي وعازوري والبستاني الخ... اما الجانب العملي فهو هذه الحركة التي ظهرت (قبيل الحرب في ١٩٠٨-١٩١٤... رد فعل للحركة الطورانية التي صار يشتد ساعدها يوماً بعد يوم في تركيا...) اذ يقول: (وبعد ان اخذ حزب الاتحاد والترقي يسير سيرا حثيثا في دعوته للطورانية واضطهاده للعناصر غير التركية... وحوربت اللغة العربية والثقافة العربية وبدأت النزاعات المتطرفة... وحين يئس العرب من الاصلاح المنشود بدأوا... يكونون الجمعيات السرية...) وعقدوا (المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٩١٣ حضره رجال من المشرق كما حضره آخرون من الغرب، أي الذين حضروه من المغتربين العرب المهاجرين الى الامريكيتين وبعض المقيمين في فرنسا...)[2].

وقال الامير الحسن بن طلال في افتتاح المؤتمر الاستراتيجي العربي الاول (... ان ارهاصات قيام الدولة العربية الحديثة اخذت تتبلور في نهاية القرن الماضي وبدايات هذا القرن وجاءت نتيجة طبيعية للتحولات الجذرية في بنية الفكر العثماني

---

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٣٣٨

(٢) عبد الرحمن البزاز: بحوث في القومية ص٣٨٠-٣٨١

السياسي الذي اخذ يتأثر بالنموذج الاوربي في ذلك الوقت. فالدولة العثمانيـــة التـــي كانت تحكم العرب باسم الاخوة في الدين اخذت منحنى اخر، تحول فيه العرب فـــي اطار الدولة العثمانية من اخوة في الدين الى رعايـــا مســـتعمرات بقيـــادة الشـــعب التركي)[١].

اما صدقي الدجاني فيرى اثر الحركة الطورانية على الحركة القومية العربيـــة بشكل اخر، لا على اساس ردة فعل لتعصب الاولى وانما على اساس الاقتداء بها اذ تأثر بعض المثقفين العرب بالمثقفين القوميين الاتراك المتأثرين بالفكر الاوربـــي. اذ يرى ان الفكر القومي العربي ظهر في القرن التاسع عشر نتيجة لتفـــاعل عوامـــل ثلاثة:

١- تحدي الضعف الداخلي للوطن العربي التابع للدولة العثمانية.

٢- تحدي الاستعمار الغربي وتحدي الحركة الصهيونية.

٣- انتشار حركة القوميات في اوربا وظهور حركة القومية التركيـــة فـــي الدولـــة العثمانية .

وعن هذه الاخيرة يقول: انتشرت عن طريق التواصل مع اوربا مـــن خـــلال البعثات والبعثات التبشيرية ونشاط القناصل في الوطـــن العربـــي او عـــن طريـــق التواصل بين المثقفين العرب والمثقفين الاتراك في اسيا الصغرى. وكان المثقفيـــن الاتراك قد تأثروا بالحركة القومية في اوربا فطرح بعضهم افكار القومية التركيـــة. ومن خلال تأثير بعض المثقفين العرب بهم بدأ ظهور افكار القومية العربيـــة بيـــن هؤلاء (اسماء رفاعة الطهطاوي، الافغاني، محمد عبده، مدحت باشا، نامق كمـــال، الخ...)[٢]!!!

---

(١) عن المنتدى عدد ٢٥ اكتوبر -١٩٨٧/ عمان

(٢) احمد صدقي الدجاني: عروبة واسلام ومعاصرة ص٤٥-٤٦

وهذا قليل من كثير مما جاء في كتابات الكتاب الذين يؤكـــدون علـــى كـــون الحركة القومية العربية -والثورة العربية- جاءت كرد فعل للحركـــة الطورانيـــة او نتيجة لها وهو امر ليس فيه الا القليل جدا من الصحة، ان وجـــد شـــيء منـــها، اذ تدحضة الحوادث التاريخية وكتابات الاوائل. فقد يكون من الصحيـــح ان الحركـــة الطورانية ساعدت على تبلور الحركة القومية واسرعت من خطاها بما اكسبته اياهـا من المؤيدين المسلمين الذين كانوا يعارضونها انطلاقا من ايمانهم بالجامعة الاسلامية التي ازالت العصبية القومية منذ فجر الدعوة الاسلامية باعتبارها عوامل تفرق الامة التي امر الله بتآلفها وتعاونها. مثل الشريف حسين الذي لم يكن (رجال تركيا الفتـــاة -الاتحاديون- في نظره الا مجموعة من الملاحده المفسدين الذين خـــانوا الاســـلام جريا وراء الاوهام...)[1] ولكنها لم تساهم في ايجادها كرد فعل لها او بـــاي شـــكل كان لانهما وجدتا معا وفي ذات الوقت لتحقيق ذات الهدف وهو اضعـــاف الدولـــة العثمانية وهدم الجامعة الاسلامية. فالقومية العربية فكرا وتطبيقا بدأت قبـــل تولـــي الاتحاديين الطورانيين السلطة في عام ١٩٠٨ واضطهادهم للعرب. فقد اشار اليـــها بطرس البستاني عام ١٨٥٩ في محاضرة له بالتنويه عن كيان اسمه العرب وشـــيء اسمه الثقافة العربية. واعقبه في ذلك غيره. وان كان هو والدعاة الاوائـــل والذيـــن كانوا جميعا من غير المسلمين قد ترددوا في التحدث عن امة عربيـــة كمـــا يؤكـــد البرت الحوراني فما ذلك الا (لانهم تخوفوا من ان تتكشف القومية العربية عن شكل جديد من اشكال التسلط الاسلامي ولم يكن بامكانهم ازالة هـــذا التخـــوف الا... ان يصبوا في قالب المفهوم للعروبة) مفهوم (امة عربية منفصلة عن اساســـها الدينـــي وتضم بدون أي وجه من وجوه التفريق المسلمين والمسيحيين جميعا وتتمتع بحمايـــة رؤوفة من قبل اوربا الليبرالية)[2]. ولذلك كان لا بد لهم اولا من التمـــهيد للدعـــوة بدعوة للفصل بين الدين والدولة لانه بدون هذا الفصل ومع حقيقة كون غالبية افـــراد

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ٢ ص١٠٢

(٢) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٣٣١

الامة العربية هم من المسلمين لن تتمخض الدعوة القومية الا عن دولة اخرى كبيرة اسلامية عربية!! وما ظهور الدعوة الى العلن والتصريح عن نفسها وعن اهدافها بعد ١٩٠٨ في عهد الاتحاد والترقي ونشاطها في تأليف الجمعيات وعقد المؤتمرات الا لتبني هؤلاء الفكر الاوربي ولفصلهم الدين عن الدولة مما ازال مخاوف الدعاة، هذه من جهة، ومن جهة اخرى ضعف موقف الاتحاديين بعد ان افقدهم عملهم هذا-فصل الدين عن الدولة- عطف اغلب المسلمين عليهم ودعمهم لهم مما زاد من حجم الهجمة عليهم. اما العمل الفعلي والحقيقي للجامعة القومية العربية فقد نشط في عهد السلطان عبدالحميد وهو الذي قرب العرب وولاهم واعتمد عليهم في نشر دعوة الجامعة الاسلامية وفي دعم الدولة العثمانية مما يدحض فكرة كونها رد فعل لاضطهاد الاتراك للعرب او تعصبهم، ويؤكد فكرة كونها جزءا من خطة الغزو الاوربي التي كان السلطان وما دعا اليه من الخلافة والجامعة الاسلامية يقف عائقا في سبيله.

فحزب تركيا الفتاة الذي ثبتت ما سونيته والذي قام برنامجه على فصل الدين عن الدولة واعتماد القومية بدل الدين في توحيد الامة كان مدعوما من اوربا وموجها ضد السلطان والجامعة الاسلامية، وهو الذي انبثقت منه الحركات القومية التركية وغير التركية، وضم عددا من العرب من القوميين وغير القوميين، مثل خليل الغانم اللبناني الماروني الذي كان عضوا في البرلمان والذي اقام (في باريس بعد حل برلمان ١٨٧٨ يكتب ويؤلف... في مهاجمة الاستبداد والسلطان بشكل خاص) والذي قال فيما قال: (ان ما اهلك الامة العثمانية امران الاول الاستبداد... والثاني الاسلام بعد ان كان في البدء متسامحا، ما لبث ان اصبح مستبدا ان في ايام الخلفاء العرب الذين كانوا-تحت ستار مظهرهم المتدروش على استبداد مقيت، وان على ايام الاتراك الذين درجوا على عدم التساهل اثناء صراعهم الطويل مع المسيحية...)[1]!! فرغم انه من زعماء حركة تركيا الفتاة الا ان نظرته لا هي

---

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٣١٦-٣١٨

قومية ولا حتى علمانية وانما هي ضد الاسلام[1]. الذي هو في نظره ما دام لم يتساهل مع الغزو الصليبي فهو استبدادي، وهو ضد السلطان عبدالحميد الذي يرفض ما يعرض عليه من فكر اوربا ويريد الاحتماء بالجامعة الاسلامية بدل الاحتماء بالدول الاوربية كما يتطلب التجديد والتحديث والمعاصرة!! وكما يريد النهضويون. وهذا كان في عهد السلطان عبدالحميد وليس في عهد الطورانيين! وفي زمن السلطان عبدالحميد ايضا دعا الافغاني الى فصل الدين عن الدولة والى تكوين الاحزاب العلمانية والقومية والماسونية والى تمجيد العرب على حساب القوميات الاخرى والى الخلافة العربية ضد الخلافة الاسلامية. وهو كان على اتصال بتركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي المنبثقة عنها. وقد عرضوا عليه برنامجهم وايدهم وبارك عملهم وكان على اتصال بخليل الغانم وبقية المنشقين عن الدولة العثمانية والعاملين على هدمها وهدم الجامعة الاسلامية. وهو الذي ساعد على تأليف حزب مصر الفتاة على غرار تركيا الفتاة والذي دعا لاول مرة مصر للمصريين ضد الشركس والاتراك!! وفي زمن عبدالحميد ايضا وليس زمن الطورانيين كتب الكواكبي ما كتب عن الخلافة العربية. وفي عهد السلطان عبدالحميد ايضا تألفت كما يؤكد قسطنطين زريق (اول جميعة عربية سرية... سنة ١٨٨٠ وكان اغلب اعضائها من الشباب الذي تعلم في الكلية البروتستنتية السورية)[2] وفي عهد السلطان عبدالحميد ايضا وليس في عهد الطورانيين الف جماعة من الشوام من (الذين نزلوا مصر الجميعة-اللامركزية- ونشطوا في الكتابة والتأليف. فكان منهم عبدالحميد الزهراوي الذي اشتغل بالتحرير في صحيفة الجريدة المعارضة للجامعة الاسلامية، وكان منهم عبدالرحمن الكواكبي... وكان منهم محمد رشيد رضا صاحب المنار، ورفيق العظم وحقي العظم، ومحب الدين الخطيب...)[3] وفي عهد

---

(١) المرجع السابق

(٢) محمد محمد حسين: الاسلام والحضارة الغربية ص١٢٢

(٣) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص١٠٠ جـ٢

السلطان عبدالحميد تخلى كما يقول البرت حوراني نجيب عازوري، نائب حاكم القدس، الكاثوليكي السوري والمربي تربية فرنسية كمعظم رفاقه... واسس في ١٩٠٤ عصبة الوطن العربي على غرار عصبة الوطن الفرنسي واصدر في ١٩٠٧ في باريس مجلة لم تعمر الا قليلا باسم الاستقلال العربي وشرح فكرته عن الدولة العربية في كتاب نشره باللغة الفرنسية في ١٩٠٥ بعنوان-يقظة الامة العربية- يدعو فيه الى دولة عربية واحدة تضم مسيحيين ومسلمين على السواء (تستقل عن الدولة العثمانية... وضرورة انفصال الارمن والاكراد ايضا عن الامبراطورية العثمانية حتى تنهار. ويرى ان ذلك لا يتم الا بالعمل من الداخل ومن الخارج ايضا بواسطة الدول الاوربية وعلى الاخص انكلترة وفرنسا وذلك لانه يعتبر كل من روسيا والمانيا يشكلان خطرا على الامة بعكس انكلترة وفرنسا صاحبتي التقاليد الليبرالية وخاصة فرنسا) وحذر من الخطر اليهودي في اول الامر ولكنه عاد في وقت لاحق والح الى ان انشاء المستعمرات والمصارف اليهودية يؤدي الى تقوية القومية العربية بفضل مصالح اقطاب المال في العالم ورأى ان الوطنية المصرية التي نادى بها مصطفى كامل (وطنية كاذبة موالية للحركة الاسلامية والحركة العثمانية وان المصريين غير جديرين بعد ان يحكموا انفسهم بانفسهم، فعليهم ان يكونوا شاكرين على تمتعهم بادارة بريطانية صالحة. وقد تدخل في اعوامه الاخيرة في السياسة المصرية (فنقل نشاطه من باريس الى القاهرة) لا كمواطن مصري او عربي وانما كسكرتير اجنبي لحزب-مصر الفتاة- الذي دعا الى حكم تمثيلي تدريجي بالتعاون مع السلطة المحتلة)[1] واسس محفلا للكاربوناري في القاهرة بعد انتقاله اليها، وقد (اشترك بتنظيم مؤتمرات عربية منه المؤتمر العربي الاول سنة ١٩٠٥ والمؤتمر السوري العربي سنة ١٩١٣)[2].

وفي زمن السلطان عبدالحميد ايضا انشأ السوريون الذين لجأوا الى فرنسا كما

---

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٣٣٢-٣٣٣

(٢) انظر يقظة الامة العربية للعازوري ص٦

ذكر محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر، الجمعية الوطنية العربية في باريس سنة ١٨٩٥ وكان (اول اعمالها ان اذاعت سنة ١٩٠٦ منشورا الى الدول العظمى تبين فيه اغراض العرب وغاياتهم وهي تتلخص في امبراطورية عربية يرأسها سلطان عربي ذو حكومة دستورية حرة بينما تكون ولاية الحجاز مملكة مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكا وخليفة للمسلمين وبذلك تنحل-وحسب زعمهم العقدة الكبرى في الاسلام- وهي التفريق بين السلطتين المدنية والدينية ثم عقدوا مؤتمرا عربيا سنة ١٩١٣ حضره مندوبون من الجمعية اللامركزية في مصر ورأسه احدهم هو عبدالحميد الزهراوي، ووضعت الحكومة الفرنسية قاعة الجمعية الجغرافية تحت تصرفهم ليعقدوا فيها اجتماعاتهم)[1] (واظهرت التقارير للمؤتمران الجو الذي كان مسيطرا في ذلك الوقت على القومية العربية المعتدلة... مشبعا-بالروح الغربية- فقد اعلن الخطباء عن رغبتهم في الاصلاح عن طريق المدنية الاوربية الحديثة. ويأملون بالمعونة من اوربا والثناء على فرنسا ومناشدة الضمير الاوربي للضغط على الحكومة العثمانية ودحض فكرة كون الخطر الحقيقي على الامبراطورية متأت عن اوربا والتأكيد ان الخطر الحقيقي انما يكمن في الداخل-من انحطاطنا نحن- كما طالبوا باستقلال الولايات العربية الاداري واشتراك العرب الفعلي في الحكومة المركزية وجعل اللغة العربية لغة رسمية في البرلمان والدوائر المحلية والمساواة بين المسيحيين والمسلمين داخل الامة)[2]. ومما يذكر هنا ان المؤتمر لاقى معارضة شديدة ليس من الاتراك فقط بل من العرب ايضا فقد قال شفيق غبريال مثلا (ان التوفيق جانب اولئك العرب الذين عقدوا مؤتمرا لبحث قضاياهم في مدينة باريس مع علمهم بموقف فرنسا من العروب والعروبة والاقطار المغربية، ومع علمهم بمصالحهم المشهورة في سوريا، ومع

---

(١) ص١٠٠-١٠١

(٢) البرت حوراني: ذات المصدر ص٣٣٨ (وكان عدد المشتركين كما يذكر الباحث خمسة وعشرين كلهم من سوريا عدا اثنين من العراق)!!

علمهم بان من زملائهم في المؤتمر من هم ضالعون مع فرنسا في مشروعاتهم في سوريا)[١] اذ كان هناك (دلائل تشير الى انه كانت لعازوري وبعض زملائه صلات بوزارة الخارجية الفرنسية التي كانت توحي ببعض توجهاتهم)[٢] وكان (نجيب عازوري لا يخفي اتصالاته بالدول الكبرى)[٣] وهو من منظمي المؤتمر وقد لام الرصافي المؤتمرين في باريس بعد ان كان مؤيدا لهم اذ قال:

اصبحت اوسعهم لوما وتثريبا — لما امتطوا غارب الافراط مركوبا

راموا الاصلاح وقد جاءوا بلائحة — خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا

قد كلفوا شططا فيها حكومتهم — وخالفوا الحزم فيها والتجاريبا

عدّوا النصارى وعدّوا المسلمين بها — ونحن نعدهم طرا اعاريبا

من مبلغ القوم ان المصلحين لهم — امسوا كمن لبس الجلباب مقلوبا

....

راموا انشقاق العصا بالشغب ملتهبا — والحقد مضطربا والضغن مشبوبا

واني لابصر في بيروت قائبة — للشر موشكة ان تخرج القوبا

لو كان في غير –باريز– تألبهم — ما كنت احسبهم قوما مناكيبا

ولم تزل كل يوم في سياستها — تلقي العراقيل فيها والعراقيبا

هل يأمن القوم ان يحتل ساحتهم — جيش يدك من الشام الاهاضيبا؟

.........[٤]

---

(١) البزاز: بحوث في القومية ص٣٨٣-٣٨٤

(٢) نجيب عازوري: يقظة الامة العربية ص٨-٩

(٣) ذات المصدر ص٢٠

(٤) الرصافي: ديوان الرصافي الجزء الاول ص٤٠٢ (القوب=الفرخ)

وهذا قليل من كثير لا مجال لحصره من النشاطات السرية والعلنية الداعية للقومية العربية والعاملة من اجل الاستقلال عن الدولة العثمانية بشكل مباشر او غير مباشر، والتي معظمها بدأ نشاطاته قبل ان يتولي الاتحاد والترقي السلطة مما يدحض فكرة كون العمل القومي والدعوة للجامعة العربية والقومية العربية كانت ردا على التعصب القومي التركي الذي اعتمده الاتحاد والترقي في حكمه. فمعظم هذه التوجهات القومية العربية حدثت في زمن السلطان عبدالحميد الذي كان اكثر السلاطين العثمانيين، سواء من كان قبله او من جاء بعده، تعاطفا مع العرب وتقربا منهم، على الاقل من اجل دعوته للجامعة الاسلامية!!

والمتتبع لهذه النشاطات ذات الطابع القومي لا بد ان يجد ان الحركات القومية في الدولة العثمانية جميعا ظهرت (في وقت واحد فحين كان الاتحاديون يتحدثون عن العصبية التركية التي تطورت فيما بعد الى عصبية طورانية، كانت في مصر جماعات واحزاب تتحدث عن العصبية المصرية التي تطورت من بعد الى العصبية الفرعونية، ونشأت في الشام خاصة وفي العراق جماعات تدعو الى العصبية العربية، ولم تلبث بعد الحرب العالمية الاولى ان تطورت وتشعبت الى شعب متعددة ينزع كل منها الى عرق جنسي قديم كالآشورية والفينيقية...الخ...)[1] وكل هذه الحركات القومية التي ظهرت تتبع فكرا اوربيا وتنادى، ولكن بدرجات متفاوتة بالاصلاح على الطريقة الاوربية وبالاقتباس من اوربا وبالتعاون مع هذه او تلك من دولها وقد يتطرف بعضها فيطلب حماية او وصاية هذه او تلك من الدول الاوربية!! مما يرجح كون الدعوة للجامعة القومية بكل حركاتها والتي ظهرت وبشكل خاص منذ الربع الاخير من القرن الماضي ضمن حدود الدولة العثمانية، جزءا اساسيا من مخطط الغزو الاوربي تتحدد اهدافه واضحة لكل من يتابع تتالي الافكار والاحداث وترابطها مع بعضها البعض منذ اوائل الدعوة وحتى يومنا هذا معتبرا بالوضع الراهن اليوم، بما يلي:

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص٩٦

١.هدف قصير المدى يتمثل بهدم الجامعة الاسلامية التي كان ينادي بها السلطان وتقويض سلطته كسلطان يعترف الكثيرون بحكمته، كما سبق ذكره لاضعاف االدولة العثمانية وتسهيل امر اسقاطها.

٢.هدف بعيد المدى يتمثل بالقضاء على كل المقومات التي تجعل امر قيام دولة كبيرة لها شأن في هذا الجزء من العالم ممكنا، حتى وان كانت علمانية قومية تدور في الفلك الاوربي او الغربي. لا خوفا على مصالحهم في المنطقة من مثل هذه الدولة القوية وان كان هذا واردا، وانما بالدرجة الاولى تحسبا لما قد يحدث في المستقبل. فمع ايمان المسلمين الشديد بدينهم، وبكون اكثرية اهل المنطقة هذه من المسلمين، لا يستبعد في نظرهم ان تصبح هذه الدولة الكبيرة في يوم من الايام دولة اسلامية تهدد مصالحهم في السيطرة عليها من جديد.

ولما كانت هذه اهداف الدعوة كما وضعها مصممها ومخطط تحركاتها الاوربي فقد كان لا بد ان تتعاون الاطراف القومية جميعا واحزابها العلمانية مثل تركيا الفتاة ومصر الفتاة وسوريا الفتاة والجمعية العربية وغيرها من الاحزاب والجمعيات بقصد او بغير قصد، للقضاء على الجامعة الاسلامية وتحقيق الهدف الاول. وقد كان ذلك بعزل السلطان عبدالحميد وتولى الاتحاديين السلطة، وبعد ذلك كان لا بد ان ينفض الجمع ويتناحر من خلال ما بذر من بذور الشقاق في صميم مقومات الفكر القومي ليتحقق الهدف الثاني. فكيف يمكن لكل قومية من القوميات العديدة التي تضمها الدولة العثمانية من تحقيق ذاتها المتمثلة بلغتها وادابها وتراثها الشعبي والفكري وتاريخها الخ... وان تتعايش مع قوميات اخرى مغايرة لها ولا يجمعها بها جامع من كل الروابط هذه، بعد هدم الرابطة الوحيدة التي كانت تربط معظم ابناء القوميات وهو الدين الاسلامي، في ظل دولة واحدة؟ فاية لغة من اللغات الكثيرة المختلفة سيكون لها الاولوية كلغة للدولة؟ ان الذين دعوا لسيادة اللغة العربية كانت دعوتهم تقوم على اساس انها لغة القرآن، دستور المسلمين جميعا، ولكن بغياب الاسلام عن الدولة القومية واعتمادها الدساتير الاوربية المنشأ، ما الذي يجعل اللغة العربية افضل من غيرها؟ والفكر الاسلامي هو فكر الدولة الاسلامية ككل براعيها

ورعيتها من كل القوميات ولكن أي فكر من شتات الفكر الاوربي الاصل يجب ان يسود هذه الدولة القومية التي تضم قوميات مختلفة، بانتماءات فكرية مختلفة تابعة لهذه او تلك من الدول الاوربية او الاحزاب او الجمعيات الاوربية وعلى رأسها الماسونية والفحامين والفابية والماركسية... الخ...؟

ولذلك فسواء اضطهد الطورانيون الاتراك، العرب ام لم يضطهدونهم،-وان كان لا بد ان يضطهدونهم لان ذلك من صميم الحركة القومية- فان ما حدث من حركات استقلالية كان لا بد سيحدث من اجل تفتيت الدولة العثمانية لا ن ذلك كان جزءا لا يتجزء من تصميم الحركات القومية واهداف وجودها، كما كان ايضا تفتيت الجامعة العربية الى دويلات متفرقة هو الآخر من صلب تصميم الحركة القومية العربية وكان لا بد ان يحدث فيما غرسوه من عقائد مختلفة وانتماءات مختلفة وما احدثوه من تشعب في الفكر القومي ومن تبعيته-الفكر القومي- لهذه الدولة الاوربية او تلك، ومن خلال اختلاف اهداف الدعاة، خاصة بين الدعاة المسلمين وغير المسلمين، كان لا بد ان تنقسم الجامعة العربية التي ارادها القوميون واحدة، الى اقطار وتجمعات- في غياب الجامعة الاسلامية- لا يمكن جمعها في وحدة متماسكة. والا، فهذه البلاد العربية الآن وجميعها يدعي الاستقلال، فان كان الاستعمار قد قسمها فيما مضي ويدّعون ان الاستعمار ولى الى غير رجعة! فما يمنع توحدها وهي مستقلة ومعظم حكامها من القوميين والثوريين ودعاة الوحدة؟!!!

فليس من اجل العرب ومصالحهم تسابق الانجليز والفرنسيين الى احتضان الحركة القومية الثائرة على تركيا منذ ظهورها، وتنافسوا في السيطرة عليها وتوجيهها فبينما كان الانجليز يحمون اللاجئين الى مصر من زعماء الحركة قبل الحرب، كان ممثل الحكومة الفرنسية يقوم بحماية زعماء الجمعيات السرية العربية في الشام ويحول دون بطش جمال الدين باشا ان ينكل بهم... وقد كان هذا التنافس بين الانجليز والفرنسيين ظاهرا في الجيش العربي نفسه، فكان الفرنسيون يحتضنون بعض الضباط العرب مثل نوري الشعلان، الذي يصفه الجنرال كيللر بانه ظل مخلصا لفرنسا حتى اللحظة الاخيرة من حياته. بينما كان الانجليز يحتضنون

بعضهم الآخر مثل نوري السعيد ومولود واللذين يصفهما لورانس بانهما اليد التـــي ينفذ بها الانجليز قراراتهم ويحققون رغباتهم...[1] وهكذا تحقق الهدف الآخر ونرجو ان يكون الى حين!!

٢- غير المسلمين والقومية العربية

لما كانت الامة العربية قد استبدلت ومنذ فجر الدعوة الاسلامية مشاعر الانتماء القومي بمشاعر الانتماء للاسلام، واحتلت منذ ذلك الحين ولمدة ثلاثة عشـــر قرنـــا رابطة الامة-الملة- الاسلامية مكان الرابطة القوميـــة فـــي جمـــع شـــمل الافـــراد والجماعات والاجناس في وحدة متماسكة تقف، رغم كل خلافاتها، عند الحاجة فـــي وجه العدو المشترك الواحد، عدو الدين، فان الدعوة للجامعة القومية العربية كـــانت بالنسبة لمعظم ابناء الامة دعوة ضالة ومخالفة لما امر الله ورسوله، فلم تكن تجد لها صدا كبيرا في اول الامر، الا بين غير المسلمين وخاصة المسيحيين منهم. اذ (سبق المسيحيون العرب المسلمين منهم الى التحسس بالشعور القومي والـــى المجـــاهرة بالحركة القومية... وعلى يد العرب المسيحيين تشـــكلت اول الجمعيـــات الســـرية العربية التي نددت بالحكم التركي وطالبت باستقلال الولايات العربية عـــن الدولـــة العثمانية...)[2] وقد اكد هذا الامر كل من كتب في هذا المجال اذ ذكر مجيد خدوري بعد شرح التوجهات القومية في الدولة العثمانية فقال:

(ان الطبقة العثمانية الحاكمة لم تشعر باي هوية قومية. فلا الحكومة ولا الشعب التركي وصف الامبراطورية بانها-تركية- بل كان هذا الوصف يســتعمله الكتـــاب الاوربيون. اذ تعتبر العقيدة والشرع الالهي اساس الســـلطة حتـــى اســـماء رعايـــا السلطان كانت تدون في سجلات الحكومة بناء على ايمانهم، لا بناء علـــى هويتـــهم القومية. وبالرغم من المحاولات التي بذلت لتحويل الامبراطورية الى كيان قومـــي

---

[1] محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص١٢٦-١٢٧

[2] علي محافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب ص١٢٩-١٣٠

فقد بقي طابعها المسكوني مستمرا في جوهره حتى زوالها النهائي. والاهم من ذلك انها كانت في الاساس ضد فكرة القومية... وكان رعايا السلطان المسيحيون اول من استجاب للدعوة القومية...[1] تؤيدهم الدول الاوربية... وكان المفكرون العرب المسيحيون اول من نادى بالقومية العربية، دون ربطها بالاسلام... لذلك دعوا الى قومية عربية تنطوي ضمنا على طابع علماني. وقد ايدهم في ذلك بعض من تحرر فكريا[*] من العرب المسلمين. اما غالبيتهم فترددت في تمزيق الوحدة العثمانية. ذلك لان تمسكها بالاسلام لم يكن قد تراخى بعد، تحت وطأة النزعة القومية)[2].

وقال عبد الرحمن البزاز مؤكدا كون المسيحيين اول من استجاب للدعوة القومية (ان وجود فئة كبيرة من مثقفي المسيحيين العرب في ديار الشام كانوا يدركون قوميتهم العربية ويتحسسون بها بصورة اقوى من بني قومهم من المسلمين... كان له اثر في نصج الشعور القومي في الشام قبل مصر... وان نصارى الشام قد اسهموا اسهاما جديا في تمكين عرب المشرق في بلاد الشام والعراق خاصة من التمييز الواضح بين القومية والدين والفصل بينهما...) واكد ان ناصيف اليازجي وبطرس البستاني كانا من اوائل مؤسسي القومية)[3].

وكتب سعيد اسماعيل علي في كتابه الفكر التربوي العربي الحديث مؤكدا ذلك اذ قال: (قام جماعة من المتنورين المسيحيين يدرسون التاريخ من الكتب الغربية ثم يرجعون الى التواريخ العربية ويطالعونها بنظرات مستلهمة من الكتب المذكورة...

---

(1) من دعا اليها فاستجابوا؟ ولماذا؟

(*) ان معظم المفكرين العلمانيين يرون الفكر الديني استعباد يتحررون منه ويرون الفكر العلماني تحرراً وليس استعباداً مع انهم لا يستطيعون التحرر منه وان فعلوا يلاقوا الاضطهاد.

(2) مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي ص٢٨-٣١

(3) البزاز: بحوث في القومية ص٤١٠-٤١٢

ولهذا السبب نجد ان التفكير في-القومية العربية- بدا عند العرب المسيحيين قبل ان يبدأ عند المسلمين منهم، كما ان الكتاب والشعراء الذين سبقوا غيرهم في الدعوة المتحمسة الى النهضة كانوا من العرب المسيحيين)[1].

ويرى البعض ان عوامل كثيرة هي التي جعلت المسيحيين العرب الرواد الاوائل للفكر القومي العربي وللدعوة القومية، اذ ان (العوامل الدينية والروابط الثقافية بالغرب... والعداء للعثمانيين كلها ساهمت في تكوين شكل ومحتوى الجهود الفكرية المسيحية العربية ولقد اشار توينبي الى ان الاقلية المسيحية العربية تلقت الحضارة الغربية بشكل تلقائي، وعزا توينبي ذلك الى الروابط الدينية والتجارية، وقدم البرت حوراني تفسيرا مماثلا، ففي الوقت الذي اكد على اهمية الحماية الاجنبية، فانه اشار الى ان التجارة كانت تنتقل الى ايدي المسيحيين واليهود الشرقيين، الذين اصبحوا وسطاء في التجارة مع اوربا)[2].

وبالاضافة للروابط الدينية مع الدول الاجنبية والمصالح التجارية فقد كانت الدعوة للقومية بالنسبة للمسيحيين، ايضا مخرجاً لهم للتخلص من سلطة الكنيسة الاجنبية عنهم وعن لغتهم وبيئتهم والتي كانت تعاملهم معاملة دونية وتخضعهم لرجال دين اجانب عنهم لا يتكلمون لغتهم ولا يتفهمون اوضاعهم مما يجعل من المتعذر التفاهم بينهم ولذلك خرج اديب اسحق عن الكنيسة وانتقدها بمرارة. وكانت ايضا مخرجا لهم من سلطة الدولة العثمانية التي هي الاخرى اجنبية عنهم ولا تربطهم بها رابطة حتى ولا رابطة الدين التي تربط المسلم غير التركي بها. وكانت الدعوة القومية العلمانية ايضا مخرجا لهم من وضعهم كاقلية في بلد يدين معظم سكانه بالاسلام. هذا بالاضافة الى الدفع والتشجيع الذي كانت تلقاه الدعوة ويلقاه الدعاة من الدول الاوربية، التي تربطهم بها رابطة الدين والثقافة، اذ تخدم اثارة هذه

---

(1) ص ١٣٣

(2) وميض عمر نظمي: الجذور السياسية للثورة العراقية ص٦٥

المشاعر اغراضهم في هدم الاسلام والدولة العثمانية الاسلامية وهما العقبتان اللتان تقفان في طريق تحقيق مصالحهم في البلاد العربية فالتقت المصالح وسادت المنفعية هذه كما يبدو الفكر القومي حتى صارت جزءا منه كما سيأتي ذكره.

فقامت اوربا باعداد هذه النخبة من الدعاة بمدارسها وارسالياتها ووفرت لهم وسائل الاتصال بالجماهير العربية المسلمة. فليس من الصدف ان تنشأ كل هذه الجرائد والمجلات في بلاد تتفشى فيها الامية! وليس من الصدف ايضا ان يكون معظم اصحابها ومحرريها من غير المسلمين ومن خريجي هذه القنوات الاجنبية. وليس من الصدف بعد ذلك تجمعها في باريس وفي القاهرة المنفتحة جدا! على اوربا. وكان على رأس الدعاة للقومية بطرس البستاني وعازوري وانطون فرح الخ... والذين تنحصر دعوتهم كما نشروها في (امة عربية تكون منفصلة عن اساسها الديني تضم بدون أي وجه من وجوه التفريق المسلمين والمسيحيين جميعا وتتمتع بحماية رؤوفة من اوربا الليبرالية)[1]. وان اختلفوا في شيء فهو اختلاف في التفصيلات الفرعية تحدده انتماءاتهم لهذه الدولة الاوربية او تلك ووفقا لمصالح دول الانتماء هذه. فمنهم من يريدها امة عربية في دولة عربية تتحدد حدودها بسوريا-عدا لبنان- وفلسطين والعراق والحجاز فقط ومنهم من يضيف اليها مصر ولكن معظم الدعاة الاوائل لم تتضمن وحدتهم العربية! شمال افريقيا التي كانت تحتل فرنسا اجزاء كبيرة منها!!

٣- علمانية القومية العربية

لقد رافقت فكرة القومية العربية الدعوة الى العلمانية وفصل الدين عن الدولة-مثل كل الافكار والدعوات الاخرى- وقد رأينا كيف كان يتخوف الدعاة الاوائل من التأكيد على امة عربية او دولة عربية من دون التأكيد على فصلها عن الدين الاسلامي، من ان تصبح دولة عربية اسلامية كبرى اخرى بدل الدولة

---

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٣٣١

العثمانية. ولذلك كان فصل الدين عن هذه الدولة العربية المطلوبة احد الشروط الاساسية التي وضعها الدعاة كاحد مقومات دعوتهم، ويمثل العنصر الاساسي فيها كما مر ذكره. فشبلي شميل مثلا نادى بالثورة من اجل تحقيق ذلك. وافكاره (المستمدة من سبنسر وبوخنر) كانت ترمي كما يؤكد البرت حوراني الى القضاء على الجامعة الدينية والتي هي آنذاك الجامعة الاسلامية (وكان الكثير من الكتاب العرب المسيحيين من معاصري شميل يبشرون بتلك الافكار ويستنتجون منها وجوب وجود وجهة قومية تتعدى الفروق الدينية)[1].

وفرح انطون، اللبناني الذي هاجر الى امريكا وبعدها صار يتنقل بين امريكا والقاهرة ينشر فكره القومي في عدد من المجلات العربية التي كان يرأسها. ونشرفيما نشر دراسة عن ابن رشد مقلدا بذلك رينان داعيا الى (وجود قوتان القلب والعقل ولكل منهما مواضيعه الخاصة به... وان لا يتجاوز الواحد حدود الآخر مشيرا الى فصل الدين عن السياسة وقاصدا بعمله هذا ايضا هدفا سياسيا شبيها بهدف الشميل وسواه من كتاب عصره اللبنانيين وهو وضع اسس دولة علمانية يشترك المسلمون والمسيحيون على قدم المساواة التامة) اذ يرى ان الدول الحديثة تقوم على امرين: الوحدة الوطنية وتقنيات العلم الحديث... وان على الدولة ان تجد لها نوعا آخر من الوحدة اذا ما ارادت البقاء-غير الوحدة الدينية- ففي العصر الحديث في نظره الوحدة تتم بخلق الولاء القومي والفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية (فلا مدنية حقيقية ولا تساهل ولا عدل ولا مساواة ولا امن ولا الفة ولا حرية ولا علم ولا فلسفة ولا تقدم في الداخل الا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية) وقد اهدى كتابه هذا (الى النبت الجديد في الشرق) الى (<u>اولئك العقلاء</u> من كل ملة ودين في الشرق الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين... ليتمكنوا من الاتحاد اتحادا حقيقيا ومجاراة تيار التمدن الاوربي الجديد لمزاحمة اهله

---

[1] ذات المصدر ص٢٩٧-٣٠١

والا جرفهم جميعا وجعلهم مسخرين لغيرهم)[1].

ولو تفحصنا كتابات دعاة القومية الاوائل، وحتى يومنا هذا لوجدنا الكثير مما يؤكد على العلمانية وفصل الدين عن دولة الوحدة العربية، كاحد مقومات دعوتهم وذلك لتجريد الجامعة العربية من اهم مقومات وجودها، وهي العقيدة التي تنظم حياة الامة الدينية والدنيوية من غير انفصام يشل حركتها، مما يفسح المجال لاقتباس عقائد الغرب وحضارته وتسهيل مهمته في الهيمنة على الامة.

ولكن المشكلة التي واجهت دعاة القومية هؤلاء هو ان الاسلام بالنسبة للعرب من دون غيرهم من المسلمين، هو ليس فقط العقيدة التي تنظم حياتهم بل هو احد مقومات شخصيتهم، فقوميتهم لا يمكن ان تنفصل عن الاسلام الذي اعطاهم شريعتهم وصنع ثقافتهم التي يعتزون بها وتاريخهم الذي هو مفخرتهم. فهو قاعدتهم الفكرية والتي بدونها يصبحون، فكريا، عالة على غيرهم. هذا بالاضافة الى انه هذب لغتهم وحفظها لهم لتكون عزهم واهم اركان قوميتهم التي هم مدعوون للتمسك بها. ومثّل اسمى المعاني في حياتهم فصار كل ما يفتخرون به كعرب من عقيدة وتراث ولغة وادب لا يمكن ان ينفصل عن الاسلام. ولذلك تأخر تحمس العرب المسلمين للجامعة القومية بمقوماتها العلمانية وحتى من تحمس لها وعمل من اجلها لم يكن في ذلك الا مسحورا باوربا ومنجرفا بذلك التيار الذي اوجدته بمؤسساتها الثقافية وبدعاتها وبوسائل اعلامها المختلفة، هذا ان استبعدنا المصالح الشخصية، ولكن ما ان يجد الجد ويوضع هؤلاء في المحك حتى تتكشف اسلاميتهم التي لا يرضون عنها بديلا، وهذا هو احد الاسباب التي جعلت فكر هؤلاء ودعواتهم تبدو متناقضة تناقضا تاما مع بعضها البعض من وقت لآخر او حتى في ذات الوقت.

---

[1] ذات المصدر ص٣٠٤-٣٠٨ (انظر مسألة كون الحضارة الاوربية تيار سيجرفهم ان لم يوالونه ويقتبسوا منه وهو ما دعا اليه التونسي ومستمر حتى اليوم، ورغم موالاة العرب له ومجاراتهم فهل صاروا له انداد ومشاركين غير مسخرين ومستعبدين؟!!

وافضل مثال على ذلك هو محمد عبده الذي عمل مع الماسونية وساهم بكل ما فعله دعاة العلمانية والالحاد امثال اديب اسحق وصابونجي وسليم نقاش وخليل الغانم وميرزا باقر الخ... وتعاون اشد التعاون مع كرومر والاحتلال البريطاني والعاملين ضد الاسلام والمسلمين ولكنه مع كل ذلك اختلف مع دعاة العلمانية وعلى رأسهم فرح انطون. اذ هو بالرغم من موافقته على الكثير من ارائه الا انه اختلف معه. فهو (يقبل ان تتمتع الحكومة بقدر كبير من الحرية في تشريعها، لكنه يفترض ان الشرائع الحديثة ستنموا من ضمن الشريعة، لا بالاستقلال عنها. فضلا عن انه كان يريد مشاركة متساوية لا انفصال بين الحكام وحراس الشريعة، وكان ايضا موافقا على ان يتمتع غير المسلمين بالمساواة القانونية والاجتماعية التامة شرط ان تبقى الدولة دولة اسلامية)[1]. ولذلك اثار مع انطون جدلا عنيفا مما دعاه الى ان يرد عليه بكتاب الاسلام والمسيحية.

ورغم انه هاجم السلطة العثمانية والسطان عبدالحميد وعمل كما رأينا ضد هذه الدولة من خلال الماسونية واحزابها وتعاونه مع المناهضين لها الا انه مع ذلك لم يكن يريد زوال الدولة العثمانية المسلمة!! وقال في ذلك لرشيد رضا في عام ١٨٩٧ (ان العرب اذا حاولوا الانفصال عن السلطنة فمن الممكن ان تتدخل اوربا وتخضعهم وتخضع الاتراك معهم. فالسلطنة العثمانية كانت، مع نقائصها، الشيء الوحيد الباقي من استقلال الامة السياسي. فاذا اضمحلت خسر المسلمون كل شيء، وغدوا بلا قوة كاليهود)[2].

ورشيد رضا الذي كان من المؤسسين للجمعية اللامركزية القومية والذي كان يدعو مع الداعين لخلافة عربية الا انه ما كان يرى قوميته بعيدا عن الاسلام اذ قال (... فاسلامي مقارن في التاريخ لعروبتي... قلت انني عربي مسلم، فانا اخ في

---

(١) البرت حوراني: ذات المصدر ص٣٠٧

(٢) ذات المصدر ص٣٢١

الدين لالوف الالوف من المسلمين العرب وغير العرب واخ في الجنس لالوف الالوف من العرب المسلمين وغير المسلمين)[١].

فدعاة القومية العربية من المسلمين ورغم دعوتهم للقومية العربية ومعارضتهم للدولة العثمانية وتأييدهم للحركات القومية وانتمائهم اليها الا انهم ما كانوا يريدن فصلها عن الدين الاسلامي ولا يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية الاسلامية. فرشيد رضا مثلا يرى ان الخروج على الدولة العثمانية هو دعوة يشجعها المستعمرون (لتحويل القوات عن مقدونيا والاناضول... لاضعاف مركزها هناك) ثم يقول: (الا انهم باؤوا بالفشل اذ لم ينادي أي عربي بالاستقلال)[٢]... باستثناء فئة قليلة جدا.

ورفيق العظم، رغم ايمانه بامة عربية (تجمعها اللغة وتشدها روابط طبيعية قومية ووطنية، ومع اعتزازه بدور العرب الكبير في التاريخ) ومع انه (يرفض الجامعة الاسلامية ولا يرى لها اصلا في التاريخ، بل يراها من ابتكار السياسيين في عصره...) الا انه يرى في اجتماع المسلمين (وفاء بحق القومية ورجوعا الى الاعتصام بالرابطة العامة التي يمكن ان تقابل رابطة الدول المسيحية التي اجتاحت اغلب ممالك الاسلام) ويرى ان لا العرب ولا الترك وحدهم يستطيعون مواجهة الخطر الاروبي الذي يتهددهم ولذلك عليهم جميعا ان يتمسكوا بالرابطة العثمانية لحماية الجميع وكان يخشى من ان تضعف العصبيات الجنسية هذه الرابطة فتكون (وسيلة كبرى لتمادى التدخل الاجنبي في هذه المملكة التي اصبحت هدفا لسهام الطامعين)[٣]. ولذلك كان ينفي اتهام الترك للعرب بانهم يميلون الى الاستقلال عنهم فيقول ليس هناك دعوة (ظاهرة ولا دعوة خفية الى عداوة الترك او القيام عليهم او

---

(١) ذات المصدر ص٣٥٤-٣٥٧

(٢) ذات المصدر

(٣) عبدالعزيز الدوري: التكوين التاريخي للامة العربية ص١٧٩

الاستعداد لتأسيس حكومة عربية تستقل في البلاد اللهم الا ما كان قد قيل ان شيعة الماسون كانت تسعى لجعل الامير عبدالقادر-الجزائري- خديويا لسورية، وما قيل في عهد ولاية مدحت باشا على سوريا من انه كان هو الذي يسعى لجمع كلمة المسلمين وغيرهم للاتفاق على تأسيس امارة عربية في سورية كالامارة المصرية يكون هو الخديوي فيها...)[1].

اما مصطفى كامل فقد كان يرى الانفصال عن الدولة العثمانية خطرا يهدد كيان الامة، لان في نظره ان حاول بعض اعضاء الامة (الانفصال منها او احتيل بانفكاك بعض اجزائها عنها بداعي تباعد الجنسية القائلة بتفريق المختلف وجمع المتشاكل...) فان نتيجة ذلك ستكون الى العدم اقرب منها الى البقاء لانه (كلما اتسعت سلسلة الجامعة بما ينظم اليها من حلقات الشعوب كان ذلك احفظ لمصلحتهم الخاصة... اذ سلامة الكل بسلامة الجزء...)[2].

وحتى بعد عزل عبدالحميد وتولي الاتحاد والترقي، العلماني، الحكم واتباعه سياسة التتريك التي اثارت القوميات الاخرى ومنهم العرب مما جعل الكثيرين من المنتمين للاتحاد والترقي والمؤيدين له ينفضون عنه وينضمون الى الجمعيات والاحزاب القومية المعارضة، ولكن ما ان دخلت الدولة العثمانية الحرب حتى فترت همتهم وصار اكثر المعارضين للاتحاديين (يرون بقاء السلطنة ضروريا للعرب وللامة بمجموعها على السواء، اذ كانوا يتوقعون اذا ما انهارت ان يخلفها في الحكم دولة اوربية)[3] وهو ما يرفضونه ولذلك فقد وجد الانكليز صعوبة في اقناع الضباط العرب المتواجدين في القاهرة- بحكم الاسر او الذين جيء بهم لهذا الغرض- بالتعاون مع الثوار واعلان الحرب على الدولة العثمانية. ورغم ان سعد زغلول كان

---

(١) محمد رشيد رضا: مختارات سياسية ص٢٠٠

(٢) مصطفى كامل: مقالات ص٩٤

(٣) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٣٤٣

(يشجعهم وينصحهم بالثورة على العثمانيين)[١] الا انه لم يستجب لهم الا نفر قليل. رغم ان البعض برر عمله بالثورة بكونه (يحارب الملاحدة والمفسدين من اجل اعادة الدولة الاسلامية الى عزها الاول) الا انه لم يلاقي التأييد من الغالبية العظمى من العرب المسلمين. حتى ان شكيب ارسلان كتب لاحد قواد الثورة (ينهاه عن المضي فيما هو فيه من دعوة السوريين للخروج على الدولة العثمانية والالتحاق بالجيش العربي، ويحذره من عاقبة هذه الغارات التي يضرب فيها العرب بالعرب خدمة لمصلحة العدو، اذ يقول. اتقاتل العرب بالعرب، حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم استيلاء انكلترا على جزيرة العرب، وفرنسا على سوريا، واليهود على فلسطين؟ وحذره من غدر الانكليز الذي تملأ التاريخ شواهده[٢]. وحتى في الحجاز ذاتها لم تكن الثورة العربية هذه مرغوبا فيها حيث كان اكثر الناس كما يؤكد لورنس نفسه في كتابه اعمدة الحكمة السبعة (لا يرغبون في حكم محلي وكان الرأي العام ضد تكوين دولة عربية) منفصلة عن الدولة العثمانية ولذلك (كان البدو فقط هم الذين يحاربون الى جانب الثورة مقابل ما كان يغدق عليهم وعلى عوائلهم من اموال كثيرة مما جعل المدن تفتقر والضواحي تغتني) ويذكر لورنس انه لما (طلب قائد الثورة من الانكليز فرقة تساعده في حماية مكة من هجوم تركي محتمل طلب ان يكون افرادها مسلمين منعا للحرج) ولكن الانكليز وجدوا صعوبة في ذلك (لان مسلمي الهند كانوا يرون الحرمين وما بينهما حق للحكومة التركية)[٣].

والجيش المصري الذي استقدمه الانكليز من السودان ليساعد العرب في ثورتهم كما يذكر لورنس ايضا (لم يكن متحمساً لحرب الاتراك الذين تربطهم بهم مشاعر مشتركة-الاسلام-...) فالمصريون كما يقول كانوا قد فقدوا الايمان بالواجب

---

(١) ذات المصدر ص٣٤٣-٣٤٤

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ٢ ص١٢٥

(٣) Lawrance, seven pillars of wisdom p68-71

نحو بلادهم وذلك الشعور الفردي بالمسؤولية عن دفع الانسانية في طريق التقـــدم) كذا!! ولذلك رغم تجهيزاتهم الجيدة ولياقتهم الجسمية لم يحاربوا كما ينبغي لـــهم[1]. ويؤكد لورنس ايضا ان كثيرا من المنضمين للحركات العربية كانوا يحتلون مراكــز قيادية في الجيش العثماني ولكنهم ظلوا موالين لجيشهم هذا وللدولة العثمانية حتـــى النهاية... وكانوا يفضلون دولة عربية متحدو مع تركيا، حتى وان كـــان بشــروط مجحفة، من دولة عربية مقمسة تحت سيطرة عدد من القوى الاوربية)[2].

ويؤكد صبحي العمري، وهو احد ضباط الثورة العربية المتحمسين لـــها، فـــي كتابه، لورنس كما عرفته، مسألة كون بدو الحجاز وحدهم الذين اســتجابوا للثــورة وذلك لان الثورة كما يقول عوضتهم اضعاف تلك الاموال التي كانوا يتقاضونها مـن الاتراك كل سنة كمكافأة لهم لحماية الحج. ويقول ان لولا شبح المجاعة لتوقف الحج وهو مورد رزقهم ولولا ما كان يصلهم من قمح مصر الخاضعة للاحتلال الانكليزي الداعم للثورة (لفضلوا الاتراك على الحكم العربي) ومع ذلك لم يحققوا الكثير للثورة العربية اذ ان الحامية التركية في جدة كما يقول (لم تستسلم الا تحت ضغط قصـــف مدافع المراكب البحرية) البريطانية!! (اما حاميـــة الطـــائف المســورة والمنعزلـــة المحاطة بالعشائر من جميع اطرافها، فقد قاومتهم منذ قيام الثورة فـــي ٢ حزيـــران حتى ٢٢ أيلول ١٩١٦ عندما جاءها ضباط مع مدافع ورشاشات وجنـــود)[3] ممـــن الحقهم الانكليز بالثورة بالخدعة وبالترغيب!

ولم يقتصر رفض الثورة العربية على المسلمين فقط بل ان المسيحيين ايضـــا رفضوها كما يذكر توفيق السويدي الذي يقول: (ان سوريا ولبنان كانتا في وضـــع مرجرج يؤثر فيه رجال الدين الذين لا زالوا يعتقدون كمسلمين بان الثورة ليست الا

---

(١) ذات المصدر

(٢) ذات المصدر

(٣) ص٥٤

جموحا ممقوتا ضد الخلافة، كما يعتقد الآخرون كمسيحيين ان الثورة العربية ليست في حقيقتها سوى حركة اسلامية متجهة ضد المسيحيين في لبنان...)[1].

اما على المستوى الشعبي العام فان التعاطف مع الدولة العثمانية كان عاما استطاعت اجيالنا ان تلمسه في موقف الاجداد والجدات من الدولة العثمانية والحكم الوطني المزعوم، الي تلاه. ويذكر حسين جميل في كتابه، شهادة سياسية ما يؤكد هذا التعاطف اذ يقول: (انه عندما نشبت الحرب العالمية الاولى كانت الاحاديث التي تدور بين الكبار في البيت تعبر عن القلق من غزو الانكليز للعراق واحتلالهم جنوبه، وتقدمهم نحو الشمال، وكيف انهم سيصلون الى احتلال بغداد وبقية العراق، الامر الذي يعني القضاء على الحكم الاسلامي فيه. فلما اوقف الجيش التركي الزحف الانكليزي وارتد الجيش الفاتح الى-الكوت- حيث قبل الحصار فيها شعرت بجو الفرحة يعم البيت. ثم كانت الفرحة اكبر عندما استسلم هذا الجيش المحاصر في الكوت الى خليل باشا، القائد التركي وذهبت الى الشارع... مع الالآف من الاهالي لرؤية اسرى الحصار...) و (كنت المس في احاديث الكبار في البيت... انهم الى جانب السلطان عبدالحميد وضد الاتحاديين الذين اسقطوه اسفين لخلع حامي حمى الدولة الاسلامية في العالم... وفي الايام الاولى للاحتلال البريطاني سمعت من في البيت يتهم الثوار بالخروج عن الاسلام بمحاربتهم الدولة العثمانية، وهي دولة اسلامية...)[2].

وبعد انتهاء الحرب وسقوط الدولة العثمانية والجامعة الاسلامية وما حدث بعد ذلك من احتلال واذلال وتقسيم للبلاد العربية، وبعد ان ظهرت خيانة الانكليز لكل عهودهم للعرب واتضح انهم كانوا في نفس الوقت قد اتفقوا مع الفرنسيين على منحهم سوريا ومع اليهود على تأسيس وطن قومي لهم في فلسطين، فان شرذمة

---

(١) توفيق السويدي: وجوه عراقية ص٨٦

(٢) حسين جميل: شهادة سياسية ص٢٥-٢٦

صغيرة فقط من المبهورين بالافكار والمؤسسات الاوربية وممن ارتبطت مصالحهم بهذه الدول، من المسلمين ظلوا على تبعيتهم للطريق الذي رسمته هذه الدول لهم يؤمنون بحسن نوايا دول اوربا ولم يستنتجوا (ان انكلترا او فرنسا فاسدة بحد ذاتها، بل استنتجوا انها لم تكن امينة لذاتها ولهذا كانوا يوجهون نداءاتهم الى انكلترة الحقيقية وفرنسا الحقيقية للحصول على الاستقلال الذاتي القائم على معاهدات تحدد علاقاتهم مع الدول الكبرى... كما آمنوا اجمالا... بان على الدول العربية بعد استقلالها ان تتبنى المؤسسات التي تميز بها المجتمع الليبرالي الاوربي)[1] وكان على رأس هؤلاء بالاضافة لبعض المفكرين، سعد زغلول ومجموعته في مصر وبعض المسؤولين في الدول العربية الاخرى الا ان الغالبية العظمى من المسلمين وحتى زعماء الحركات القومية العربية نفسها رفضوا العلمانية ورفضوا التبعية للاستعمار فحدثت الثورات الشعبية والتي مع الاسف كان اغلبها يحتويها هؤلاء الموالين للدول الاوربية وذلك في السير فيها وتوجيهها الوجهة التي يريدها الاجنبي، كما فعل سعد زغلول في مصر ومن الامثلة على ذلك ايضا ما ذكره الحاكم السياسي الانكليزي في العراق من (ان حزب العهد في الموصل كان يضم عددا كبيرا من الاشراف من الاكبر سنا والاكثر نفوذا) وتحت تأثير القوميين الشباب انتخبت قائمة تضم اربعين شخصا من بينهم كثير من الاشراف هؤلاء للتنسيق مع الحركة الثورية المتنامية آنذاك في انحاء اخرى من العراق والتي اصطلح على تسميتها بثورة العشرين (١٩٢٠) فاسرع بعض الاشراف الى الحاكم ليبلغوه (بانهم لم يكونوا على علم مسبق بهذا الامر، وان الشعور الشعبي كان اقوى من ان يستطيعوا مقاومته الا انهم ينوون استخدام نفوذهم لكسر الحركة بالتدريج)[2]

وبعد افشال هذه الثورات بالاحتواء كما حدث في مصر عام ١٩١٩ وفي العراق عام ١٩٢٠ او بالقوة العسكرية كما حدث في سوريا بعد ذلك. اتجه

---

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٣٥٦

(٢) وميض عمر نظمي: الجذور السياسية لثورة العشرين ص٣٥٩

المسلمون الى الكتابة. ومن يقرأ ما كتبه هؤلاء يحس ان الفكرة الاسلامية (لا تغيب عن تفكيرهم حين يتكلمون عن العرب وعن الجامعة العربية)[1]. ومما يذكر هنا ان مفكرا واحدا من بين المفكرين المسلمين، كما يذكر مجيد خدوري (فصل فصلا حاسما بين القومية والدين واصر على العناصر العلمانية للقومية، هو ساطع الحصري، الذي وضع نظرية منهجية ومنسجمة في القومية العربية باسلوب اكثر وضوحا واتساقا من اسلوب أي كاتب آخر)[2] وقد ساعدته نشأته على ذلك، اذ هو عربي الاصل فقط ولكنه اجنبي النشأة والنزعة والفكر، فهو قد (ولد في اليمن من ابوين عربيين من حلب وتعلم اللغة التركية والفرنسية قبل ان يتعلم اللغة العربية، وخدم في الحكومة العثمانية حتى عام ١٩١٩ حيث عاد بعدها في ١٩٢٠ الى سوريا ليكون وزيرا للمعارف في حكومة فيصل. وضع مفهومه عن القومية العلمانية في اثناء عمله في البلقان حيث ادرك ان ما يفصل اليونان عن البلقان او العرب عن الترك ليس الدين بل اصولهم اللغوية والثقافية... وحيث انه عاد الى العالم العربي في سن النضوج استطاع النظر الى مشاكل العالم العربي نظرة الاجنبي تتصف بالحدة وعدم التحييز، ولكنها لا تخلو من التعاطف)[3]!!!!

وهذا الشعور الاسلامي الذي رافق دعوة الجامعة العربية كان السبب في ان يعيد بعض الدعاة النظر في مسألة موقع الاسلام من القومية العربية، وفرض عليهم الاعتراف به مما جعل بعض الدعاة يؤكدون على اهميته بالنسبة للقومية العربية ولكن لا ليكون ركنا اسياسيا من اركانها ولا ليكون العقيدة التي تنظم حياة الامة التي ما نهضت الا بها ولا ليكون المعين الذي تستمد منه الشريعة والنظم والممارسات القومية بل لجعله حلية تتزين بها القومية العربية كما تتزين ببطولات عنتر بن شداد

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ٢ ص١١٣

(٢) مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي ص٢٠٨

(٣) ذات المصدر ص٢٠٨-٢٠٩

وكرم حاتم الطائي، او الخيمة والبساط والجرة باعتبارهـا مـن الـتراث العربـي الصامت!! اما الفكر والنظم والمؤسسات والقيم التي تحكمها فتقتبـس مـن اوربـا والحضارة الغربية. فنجد مثلا قسطنطين زريق يقول: (بان مشكلتنا الاساسية اليـوم انه ليس لدينا عقيدة، ولا يمكننا بدون عقيدة ان نخضع رغباتنا وشـهواتنا الفرديـة لمؤسسة قائمة على مبدأ لذلك فنحن لا نستطيع، كمجموع العمل بنجاح. ان القوميـة هي العقيدة التي نفتقر اليها. ولكن مجتمعنا العربي هو من نوع خاص. فهو يسـتمد وحيه ومباديه من الدين، ديننا نحن، وهذا الدين لا يمكن ان يكـون، بالنسـبة الـى العرب الا الاسلام...) ولكن وبعد ان يؤكد على ان (الاديـان جوهـر واحـد وان المبادئ الخلقية هي عينها...) يعود فيقول (فالعرب ليس لهم ان يستمدوا من الشريعة اكثر من الالهام) وعليهم بالتالي ان يقتبسوا المؤسسات التي يتميز بها الغرب)[1]!!!

ومنيف الرزاز عندما حدد اركان القومية العربية في كتابه معالم الحياة العربيـة الجديدة جعل الدين الاسلامي الركن الرابع بعد وحدة الارض ووحدة اللغة ووحـدة التاريخ اذ قال: (اما الركن الرابع... فهو الدين الاسلامي... الذي لا شـك فيـه ان الاسلام قد صبغ حياتنا العقلية التي رافقتنا اكثر من ثلاثة عشر قرناً، وصبغ تفكيرنـا وتقاليدنا وعاداتنا ومعتقداتنا وحياتنا اليومية المعيشية. وان المسيحيين العرب الذيـن عاشوا في هذه البلاد قد تأثروا بهذه الى حد كبير على رغم اختلاف الدين. فالاسلام في هذه البلاد لم يكن مجرد دين فحسب. بل كان تاريخا وحضارة وحيـاة عقليـة. فالمعول هنا ليس على نسبة المسلمين الى المسيحيين من ناحية العدد، وانما المعـول على ما احدث الاسلام من تأثر في حياة سكان هذا الوطن ادى الى توحيدهم جميعـا مسلمين ومسيحيين في اطار فكري ومعيشي واحد)[2]. ولكن بالرغم من تأكيده علـى الاسلام بحيث جعل بداية العرب والعروبة هو نزول الوحي بالاسلام اذ قال: (امـا اللغة فواحدة منذ اربعة عشر قرنا) والتاريخ واحد (منذ فجر الاسلام حتـى اليـوم)

---

[1] البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٣٦٩

[2] الرزاز: معالم الحياة العربية الجديدة ص٢٦٥-٢٧١

ووحدة الارض حددها الاسلام (منذ ضمت الحركة الاسلامية هــذه البقــاع تحــت لوائها)[1] الا انه روج للفكر الاوربي واقتباس انظمته وعندما جاء ليحــــدد رســالة القومية العربية لم يجعل الاسلام رسالتها كما كانت رسالتها قبل اربعة عشر قرنـا!! وهي الرسالة التي حملها العرب الى العالم اجمع فساهموا بها في مسيرة الحضــارة الانسانية، بل تاه ولم يعرف ما هي رسالة القومية العربية فقال: (والامة العربية امـة لها رسالة وهذه الرسالة يجب ان تؤدى بحق وان كنا لا نعرف اليـــوم كنــه هــذه الرسالة وتفاصيلها الا ان خدمة الحق والخير والعدل والشرف يجب ان تكون مـــن لحمة هذه الرسالة وسداها والا فما قيمة رسالتنا)[2]!!!!! وما يثير الاســتغراب هنــا ليس فقط كيف تكون كل اركان القومية الاسلام ســببها ولا تكــون الرســالة هـــي الاسلام، بل ان ما يثير الاستغراب اكثر هو كيف يمكن ان يكون هناك رســـالة ولا يعرف مرسلها والمروج لها والذي خصص كتاب لشرحها ما هي هذه الرســـالة؟!! كيف علم ان القومية العربية لها رسالة ان كان هو لا يعرف ما هي ؟ فالرسالة كمـا هو معروف تبدأ في ذهن المرسل قبل ان تترجم الى فعل سواء كلام او غيره فكيف يروج للقومية العربية في كتابه هذا ويريد ان يؤثر في الآخرين للانضمام الــى مــا يروج له وهي القومية العربية وهو نفسه لا يعرف رسالة القومية؟ ان كلمات مثــل الحق والعدل والشرف الخ... هي كلمات تختلف في معانيها باختلاف فلسفات الامــم واهدافها ورسالاتها! ولا يحددها ويوضحها الا الرسالة نفسها!

وقد اكد عبدالرحمن البزاز على اهمية الدين الاسلامي في تكويــن الشــخصية العربية الا انه لم يعتبره ركنا اساسيا من اركان القومية العربية ولا عاملا اساسيا في وحدتها بل عاملامساعدا. فعندما حدد وحدة العرب الثقافية جعلها محصـــورة فـــي (حكمها وامثالها وادابها عموما وشعرها خصوصا) ولم يجعل لفكرها الذي هو فـــي الاساس فكر اسلامي دورا في ذلك. مهتديا في ذلك بالاستاذ نوبل دي ورجيه الـــذي

---

(١) ذات المصدر

(٢) ذات المصدر ص٢٩٤

حدد الثقافة العربية بالاخلاق والتقاليد التي كانت سائدة خلال القرن الذي سبق الدعوة الاسلامية والتي بها كما يعتقد روجيه، وليس بالاسلام، اجتاز (العرب فجأة نطاق الصحراء واخضعوا لسلطانهم نصف العالم المعروف آنذاك)[١]!! ولم تكن القيم الاسلامية الا عاملا مساعدا فقط لا غير. وعلى الرغم من تأكيده، مثل الرزاز، على ان الاسلام بالنسبة للعرب جميعا-مسلمين ومسيحيين- جزء اساسي من حضارتهم وجزء هام من تاريخهم ولا سبيل الي فصم العرى الوثيقة التي تربط العرب بالاسلام) وعلى ان (كثير من المسيحيين الواعين لقوميتهم العربية ينظرون الى الاسلام نظرة مدركة على اساس انه المعين الروحي للقومية العربية وان قوميتهم تفرض عليهم ان يعتزوا بهذه الناحية من الاسلام خاصة من تراث امتهم العربية، وان تفريطهم في ذلك تفريط بقوميتهم ذاتها)[٢] الا انه مع ذلك يرى ان اعتبار الدين من المقومات الاساسية غير وارد. مبررا ذلك بانه يؤدي (الى تشتيت لابناء الامة الواحدة... وتمكين للعدو المتربص بنا لاستغلال مشاعر فريق من ابناء قومنا اكثر مما كان قد استغل من قبل بعضهم فعلا فيما مضى ويحملهم على الانفصال عن كيان الجماعة العربية...) وحتى نتجنب ذلك في رايه يجب (ان نقيم القومية على اساس واضح من مقومات عامة مشتركة بين الجميع بحيث تبقى اللغة الواحدة، والتاريخ المشترك والامال والاماني القومية المستقبلية، الرباط الاساسي بين الجميع وبذلك نجعل الوطن الواحد لكل ابناء الوطن الواحد ونجعل الدين لله...) وبرر فصل ادين عن القومية العربية تبريرا آخر غريبا على واحد كان قد قال في صفحات سابقة ان القومية العربية مستقلة بمفاهيمها (وانها ضد الفكر والعقائد التي تريد ان تجر الامة العربية الى نظريات مستودرة توحي بها فلسفات غريبة عنا)[٣] اذ هو بعد ان يطيل في شرح كيفية نشوء القومية في اروبا على انقاض الدولة

---

(١) البزاز: بحوث في القومية ص٢٣١

(٢) ذات المصدر ص٦٣-٦٤

(٣) ذات المصدر ص٧٦-٨٥

الدينية الواحدة والتي كانت تتمثل بالامبراطورية الرومانية المقدسة وبعد ان مهد الاصلاح الديني لنشوئها وتفرقت الكنيسة الجامعة الواحدة الخ... مؤكدا على ان القومية هي (من انتاج العقل الاروبي) ليخلص بالتالي الى ان فكرة القومية وهي (حديثة في وجودها الكامل ونتيجة من نتاج العقل المتحرر من سلطان الكنيسة الواحدة... ليس من المعقول ان نخضعها بمفوهمها الحديث للعقيدة الدينية. وذلك لان الاديان... اسبق في الوجود من القومية، وهي اوسع في مفاهيمها ودلالتها ومتطلباتها من القومية ذاتها...)[1] ويستمر في تبرير عدم اعتبار الدين من المقومات الاساسية للقومية واعتبار القومية هي الرابطة الاقوى على اساس انها تقليعة العصر فيقول: (انه لا يمكن نكران اهمية الدين في تاريخ الانسانية فيما مضى ولكن الحياة العصرية ووضع العالم الدولي اليوم والتطور الفكري والاجتماعي... الخ... يجعل من المحتم صيرورة الرابطة القومية اقوى الروابط واعظمها اثرا في الحياة العصرية)[2]. ويرد على الذين يرون ان العرب غير الاوربيين والاسلام غير المسيحية بالرد الذي تبناه خيري الدين التونسي في الستينات من القرن التاسع عشر باعتبار الحضارة الاوربية كالسيل الجارف ان لم نأخذ بها ستجرفنا!! اذ يقول: (ان هناك قوانين عامة في هذا الكون حتمية الثبوت، لا تستطيع فئة من الفئات او امة من الامم... ان تزعم انها قادرة على ان تبقى في نجوة من سلطانها، انها كالقوة القاهرة لا مجال لتفاديها. ان القومية هي روح العصر اليوم، ولا يستطيع احد ان يتحدى روح عصره، كما كان يقول-هيجل-...)[3]!!!

وهكذا اعترف دعاة القومية العربية باهمية الدين الاسلامي للعرب والعروبة ولكنهم لم يجعلوا له دوراً فيها. وقد ذكر مجيد خدوري كيف بدأ دعاة القومية

---

(1) هل هذا يعني ان العروبة لم تكن موجودة قبل الاسلام؟ ما دامت الاديان اسبق في الوجود من القومية!! فماذا كان العرب اذا قبل الاسلام!!

(2) المرجع السابق

(3) المرجع السابق

التعامل مع الدين الاسلامي اذ يقول: (في اوائل العشرينات ارعبت النزعة العلمانية الاوساط الدينية فما كان من الزعماء القوميين الا ان سعوا الى مسايرتها باعلان تأييدهم للاسلام... وفي الثلاثينات صدرت كميات من الكتب كان الاسلام مادتها الاساسية...) وبدأ الكتاب يؤكدون على ان (الاسلام قوة حيوية تصلح لبناء الحياة العربية الحديثة) مثل محمد حسين هيكل-مصر - ومعروف الارناؤط-سوريا- ودرويش المقدادي-فلسطين- . (وانزعج المفكرون العرب المسيحيون من هذا الاتجاه في البداية، ذلك انهم خافوا ان يؤدي الربط بين الدين والقومية الى اثارة التعصب الديني... اما المفكرون العلمانيون فاعتبروا هذا الاتجاه خطوة الى الوراء، هدفه ارضاء الاوساط الدينية والرجعية لا خدمة قضية التحديث والتقدم. لكن سرعان ما ادرك الفريقان ان القيم الاسلامية الدينية والروحية متغلغلة في المجتمع العربي، فلا يستطع تجاهل كونها من المقومات الاساسية للقومية. وهكذا عمد مفكرون مسيحيون امثال قسطنطين زريق... وادمون رباط... الى شرح الترابط الذي لا يمكن الاستغناء عنه بين الدين والقومية)[1].

وهكذا اعترف من اعترف بالاسلام من القوميين النهضويين لا على اساس انه ركن اساسي من اركان القومية وانما مجرد تراث يتزين به من يريد منهم ويرفضه من يرى المصلحة في رفضة خاصة وان القومية كدعوة نادى بها كثيرون من القوميين على اساس انها تقوم على المصالح المشتركة.

٤- المصالح والمنفعية

كانت القومية في اروبا قد قامت على اساس من المصالح المشتركة الخاصة بهذه المجموعات المعنية، ولما كانت (الدعوة للقومية العربية والفكر الذي تبنته نتاج غربي...)[2] فقد انتقل هذا المفهوم المادي المنفعي الى دعاة النهضة كما انتقلت

---

(١) مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي ص١٩٣-١٩٤

(٢) سعيد اسماعيل علي: الفكر التربوي العربي الحديث ص١٣٠

المفاهيم الاخرى للقومية اليهم، ولما كان الدعاة الاوائل هم من المسيحيين فقد صور لهم الاوربيون انهم مضطهدون في الوقت الذي كانوا فيه بشهادة بعض المستشرقين الاوربيين انفسهم، يعيشون في امان واطمئنان ويتمتعون بحرية عقيدة يحسدهم عليها اخوانهم في اوربا والذين كانوا يعيشون في جحيم القهر لعقيدتهم. وصوروا لهم ان هذه الدعوة للقومية العربية في مصلحتهم لانها ستجعلهم من الاكثرية العربية بدلا من كونهم من الاقليات. ولما كانت هذه الدعوة ايضا ومن دون شك في مصلحة الدول الاوربية من اجل استخدامها وسيلة للقضاء على الدولة العثمانية الاسلامية، التي تقف عائقا في طريق سيطرتها على الدول العربية-وغيرها- التقت مصالح الاثنين واختلطت حتى صارت في ذهن بعض الدعاة، واحدة لذلك وجّهت الدعوة للقومية العربية للوجهة التي تخدم مصالح هذه الدول ومطامعها وتركزت بشكل رئيسي ضد الدين والدولة العثمانية الاسلامية، وكل ما عدا ذلك لم يكن الا لتضليل الامة. فنجد نجيب عازوري مثلا عندما يدعو الى اللامركزية لا يدعو لها لانه مؤمن بها وبكونها افضل انواع الحكم للامة او لاعتقاده بان مصلحة العرب والعروبة هي في هذه الدعوة فيضع لها الاسس والنظريات التي تخدم هذا الاتجاه وانما يدعو لها لتضليل الامة واستخدامها وسيلة لاضعاف الدولة العثمانية وتسهيل الانقضاض عليها اذ يقول: فهي (تكتيك بمواجهة الذين يعتقدون بان انفصال العرب عن تركيا سيضر بالاسلام. هذه الحركة لن تؤدي الى اية نتيجة لان الاتراك لن يوافقوا ابدا وبالتالي ستولد صراع انفصالي واذا وافقوا ستكون عدم الثقة في التنفيذ والنتيجة لصالحنا)[1]!!! والكلمة الاخيرة-لصالحنا- لم يوضح من يقصد بها؟ هل يقصد الامة ككل بمسلميها الذين يضللهم بالدعوة ومسيحييها؟ ام مسيحييها فقط؟ ام الحركة الاستعمارية المضادة للجامعة الاسلامية والمتربصة بالامة والتي كان هو احد دعاتها والمروجين لها؟!!! ومن الجدير بالملاحظة هنا هو اسلوب وضع الدولة في مأزق اما (لن يوافقوا... فيتولد صراع) وهو ما ليس في صالح الدولة ولا صالح

---

(١) عازروي: يقظة الامة العربية ص٢١

الدعوة الصادقة ايا كانت ولا صالح العرب والبلاد العربية. لا يخدم الا مصالح الاعداء. (واذ وافقوا) سيشكك الدعاة في جدوى ما تحقق وبالتالي سيستمر عدم الرضى الذي يمكّن الاعداء من تنفيذ مخططاتهم (لصالحنا)! وهو الاسلوب الذي اتبعه رواد النهضة في كل ما دعوا اليه والذي لا يزال النهضويون يستخدمونه حتى اليوم. وقد مر ذكر دعوة الافغاني وعبده للبرلمانات في حالة غيابها ومهاجمتها والتشكيك في جدواها في حالة استجابة الحاكم لهم كما مر ذكر نصح الافغاني للسلطان عبدالحميد بهذه اللامركزية التي يدعو اليها عازوري!! تعددت الاسماء والاقلام ولكن المخطط واحدا.

والمنفعية والمصالح المشتركة لم يكن يقصد بها مصلحة الوطن الواحد بما فيه من مسلمين ومسيحيين بقدر ما قصد بها وبشكل رئيسي، مصالح الدول العربية بالانفتاح على اوربا والارتباط بعلاقات حميمة معها، ولهذا كان معظم دعاة القومية يدعون الى استقلال البلاد العربية بحماية او وصاية هذه او تلك من الدول الاوربية. والا لو كانوا يقصدون مصالح ابناء الوطن العربي الواحد لاخذوا بنظر الاعتبار مصلحة الاعداد الكبيرة من المسلمين غير العرب في الوطن والذين يفوق عددهم عدد غير المسلمين فيه. وهؤلاء موقعهم في الدولة العربية سيكون مثل موقعهم في الدولة العثمانية بل اسوء، لانه ان كانت تربطهم بالدولة العثمانية رابطة الدين الواحد فما الذي يربطهم بالدولة القومية العربية بعد فصلها عن الدين؟! ولكن الدعاة لم يفعلوا، وانما اهملوا تماما هذه الشريحة الكبيرة من ابناء البلاد في دعوتهم للقومية العربية وللدولة القومية التي تقوم على المصالح المشتركة!!! وهم باهمالهم هذا وكأنهم تركوا كل المنافذ بالنسبة للدولة القومية ونظروا اليها من خرم الابرة! خاصة اذ اخذنا بنظر الاعتبار ان عدد المسلمين وغير المسلمين من غير العرب في البلاد العربية اضعاف عدد غير المسلمين من العرب!!!!

وهكذا نبت مفهوم المنفعية والمصالح المشتركة مشوشا ككل المفاهيم المستوردة التي عملت الدول الاوربية على غرسها في البلاد العربية. وهو تشويش قد يكون مقصودا ليكون نقطة ضعف في الدعوة يسّهل في النهاية هدمها عندما تستنفذ

اهدافها. هذا غير انها تسهل على كل جهة ان توجه الدعوة بالاتجاه الذي تريد. ومن الملاحظ ان كل الجهات وضعت المنفعية والمصالح المشتركة في مقابل رابطة الدين! فنجد انطون سعادة، مؤسس الحزب السوري القومي مثلا يقول: (ان الامة هي الوحدة الاساسية للتاريخ الانساني وبانها تنشأ عن المصلحة والارادة لا عن اللغة والدين، وبانها قائمة بذاتها لا تخضع لاي سلطة الا التي تنبثق من ذاتها...)[1] ويقول عبد الرحمن البزاز عن العلاقات الخارجية (علينا ان نومن بقوميتنا ونعمل بمقتضياتها، وندرك ان العلاقات الدولية خاصة لا يمكن ان تقوم اليوم الا على اساس القومية. ان الدول بطبيعتها مصلحية وهي تقيم علاقاتها على اساس من هذه المصالح المادية والمنفعية والاعتبارات القومية دون عبء كبير للمشاعر الدينية او سواها) ويقول (... الحق ان المصالح القومية -والشعور القومي- هي التي تفرض على الدولة اليوم نوع السياسة التي تنتهجها في علاقاتها الدولية...)[2].

وهذان المفهومان للمنفعية والمصالح المشتركة سواء على مستوى العلاقات ضمن حدود الامة الواحدة او على متسوى العلاقات الخارجية للدول هما المفهومان اللذان يجدهما القارئ في معظم اعمال دعاة القومية العربية على اختلاف اتجاهاتهم. وقد انتشر مفهوم المنفعية والمصالح المشتركة كروابط واسس للدولة القومية حتى طغى على ما عداه عند بعض الكتاب. فالرزاز، كرس له كما يؤكد هو نفسه الجزء الاكبر من كتابه (معالم الحياة العربية الجديدة)[3] ولم يعد يقتصر الامر على التنظر في القومية او غيرها بل صارت المنفعية والمصلحة قيمة يعتمدها الناس افرادا وجماعات كمعيار لسلوكهم. حتى القومية نفسها وبشكل من الاشكال خضعت لهذا المعيار اذ يؤكد سعيد اسماعيل في كتابه الفكر التربوي العربي الحديث هذه المنفعية

---

(1) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٣٧٩

(2) البزاز: بحوث في القومية ص٢٠١

(3) الرزاز: معالم الحياة العربية الجديدة ص٢٧٠

في الدعوة القومية عندما يقول ان كل المداخل التي ادت الى تطور الاتجاه القومي في مصر في منتصف هذا القرن (كانت تلتقي على الادلة رئيسية، هي ان القومية المصرية لم تعد صالحة في ذاتها وفي صيغتها المعزولة الضيقة، ولم تعد صالحة كوعاء لحركة التحرير المصرية نفسها وان سبيل الحفاظ على مصر هو الانتماء لكيان اعم، يكفل تحررها وتقدمها وتساهم هي في تحرره وتقدمه)[1]!

وان كان هناك شيء قد اضر بالعرب وبالقومية العربية بعد ذلك فهو هذا الاتجاه المنفعي -الوهمي- فهل كان من مصلحة العرب ذلك التوجه القومي الموجه ضد الجامعة الاسلامية والدولة العثمانية في ذلك الوقت بالذات والذي كانوا هم من دوون غيرهم الفريسة التي يخطط ذلك الذئب الاوربي لالتهامها؟ وهل كان من مصلحة العرب ذلك التوجة القومي حتى بعد الاستقلال الصوري، مع وجود مواطنين من قوميات اخرى مشاركين لهم بالارض والتاريخ والدين وكل اركان القومية كما جاءت على لسان الدعاة عدا اللغة وما يتبعها من مشاعر الانتماء؟ مما اثار عصبيتهم القومية وسبب القلق في بعض البلاد العربية؟! وهل كان من مصلحة العرب والعروبة والبلاد العربيةذلك الانفتاح المتسيب وبكل اشكاله على اوربا باسم المصالح المشتركة والمنفعية! مما حد من امكانية تقدم الامة وتطورها الذاتي وكرس تبعيتها للدول الاجنبية؟!!

ان جعل المصلحة والمنفعة اساسا للوحدة وللتوجهات القومية وليس الاعتبارات الاخرى الاكثر دواما واكثر استقرارا مثل الدين والواجب والحق الذي لابد منه بغض النظر عن أي اعتباراخر، وكون المصالح تتغير من وقت لاخر، يجعل وحدة الامة اجراءات موقتة تتطلبها ظروف المصالح هذه فكل قطر او فئة حاكمة تجد من مصلحتها التوحد مع فئة اخرى تسعى اليها وعندما لا تجد في ذلك مصلحة لها تنفصل عنها كما حدث في وحدة سوريا ومصر! وهكذا في كل العلاقات القومية

---

(1) ص١٣٨

الاخرى. وهو امر وقف وسيقف في سبيل وحدة الامة الى يوم البعث! لان المصالح لا تتغير فقط وانما تتصارع في كثير من الاحيان، وما يكون لمصلحة فئة قد لا يكون لمصلحة فئة اخرى هذا غير ان فكرة المصالح المشتركة كما رفع شعارها الدعاة الاوائل منذ بطرس البستاني وفرح انطون وعازوري والافغاني وتلامذته وحتى يومنا هذا، لم يقتصر على اسس القومية وعلى العلاقات فيما بين ابناء الامة الواحدة وانما رافقتها خطوة بخطوة الدعوة الى ربط هذه المصالح بالدول الاوربية والاجنبية وبالتاكيد على الاقتباس من الغرب وتقبل حضارته التي هي كالسيل الجارف! مما جعل من مصلحة الامة السير في تياره! وعلى ان العلاقات الدولية لا تقوم في هذا العصر الا على المصالح المشتركة وليس أي اساس اخر الى غير ذلك مما جعل حتى المفهوم الضيق للمصالح المشتركة والتي تمثلت في كتابات دعاة القومية في منتصف هذا القرن بازالة الحواجز الكمركية وتسهيل انتقال المواطنين والايدي العاملة والبضائع... والى غير ذلك من توافه الامور، يسيح ويذوب في مصالح الدول الاجنبية الاخرى. فصار هذا القطر من اجزاء الوطن العربي لا يجد غضاضة مثلا من التعاون مع اية دولة اجنبية ضد أي قطر عربي اخر تحت شعار المصالح المشتركة والمرحلية التي قد تتطلبها هذه المصالح المشتركة!! ولم يقتصر الامر فقط على استيراد البضائع والعمالة الخ...!!

وكل دعاة المنفعية والمصالح المشتركة كانوا ينقلون فكرهم من الفكر الاوربي ويقتدون باروبا والتي اعتمد ظهور القومية فيها على اساس المصالح المشتركة بدون النظر الى الفارق الكبير بين الحالين. فاوربا قبل كل شيء لم تغرس الفكرة القومية فيها بفعل فاعل من خارجها كما كان حال الامة العربية ولم تفرض عليها بالقوة الاجنبية، ولتحقيق مصالح هذه القوى الاجنبية ومصالح نفر من دعاتها. وانما نبتت من داخلها ونمت بارادتها واوجدتها ظروفها الخاصة بها. وبدأت اول ما بدأت بتحقيق الذات وتعزيز الانغلاق على الاخرين -الذين كانوا هم المسلمين انذاك- وانتهت الى قوة فرضت سيطرتها على العالم اجمع. وهو عكس ما حدث للامة العربية التي ما قامت الدعوة القومية فيها الا من اجل هدم الذات والانفتاح على

الاخرين وتكريس التبعية لهم، كما يبدو لكل من يقوم بتحليل دعوة الدعاة.

ان ظهور الدول القومية الوطنية في اوربا كما يؤكد سيشلو فورتادو جاء نتيجة (لكونه الدرع المعدني المطلوب لحماية وتنظيم المجتمع الجديد الذي يتكون) وهو المجتمع الصناعي التجاري والذي نشأ بتحفيز داخلي (فعندما حرم التوسع الاسلامي الدول الاوربية من مواردها التموينية على كل الساحل الجنوبي والشرقي للبحر الابيض المتوسط)[1] لم يقل قادتها ومفكروها ان الحضارة الاسلامية كالسيل الجارف يجب السير في تياره، رغم انها كانت كذلك! كما لم يدعوا امتهم الى الانفتاح على هذه الحضارة والاقتباس منها والتساهل معها من اجل المصالح المشتركة والمنفعية، مع انه كان هناك الكثير فيها مما يحتاجونه ويفيدهم كما دعا قادة الفكر والقومية العرب!!! وانما فعلوا ما اراد اصحاب الجامعة الاسلامية فعله واتهموا لاجله بالرجعية والتخلف!! وهو الانغلاق ووضع السدود في وجه السيل! ففي اوربا انغلق الاوربيون على انفسهم (والتفت البيزنطيون الى السواحل الايطالية وشجعت الاتصالات داخل اوربا وتوسع التبادل التجاري داخلها مما شجع على تنمية الفعاليات الزراعية وتربية المواشي، أي على زيادة الانتاجية في الارياف...) مما عمل على تحقيق التكامل اذ صارت (بعض مناطق اوربا في القرن الثاني عشر مختصة بزراعة الكرمة ومناطق اخرى بانتاج الصوف واخرى ايضا بانتاج القمح والكتان الخ...)[2] وهذا كلة زاد من الارباح وبالتالي من القدرة الشرائية فتنوع الاستهلاك مما ادى الى قيام الصناعات المختلفة من ملابس ومفروشات الخ... وزيادة الطلب على هذه المصنوعات جعل الوسائل القديمة تعجز عن تلبية الطلبات فبدأ تطوير الصناعة وهكذا نجد ان التطور بدأ من الداخل ولم ياتي من الخارج او من الاعداء الطامعين بالذات كما حدث في العالم العربي، وهي الفرصة التي حرم دعاة السيل الجارف و الانفتاح على الدول الاوربية واقتباس منتجاتها الفكرية

---

(١) فورتادو: النمو والتخلف ص١٣٤

(٢) ذات المصدر ص١٣٥-١٣٦

والصناعية باسم المصالح المشتركة بعيدا عن الاعتبارات الدينية وعن العزة الوطنية، الامة من ان يكون لها مثلها. ولم تنفتح الدول الاوربية على الحضارة الاسلامية الا بعد ان صار لها من القوة ما يمكنها من مواجهتها ومن اجل مصالح هذا المجتمع الصناعي - التجاري الجديد الذي كان اساس حضارتها، بالسيطرة على اكبر قدر ممكن من دول العالم لتحقيق اغراضها الاقتصادية والسياسية.

ولو لم تنغلق اوربا على نفسها وتحتمي بقيمها وعقيدتها، ولو انفتحت على الحضارة الاسلامية المتنامية انذاك وتبعتها وذابت فيها هل كانت ستحقق ذاتها وتبني لنفسها حضارة خاصة بها؟! من الممكن جدا، والله اعلم، ان حالها كانت ستصبح افضل من حالها اليوم كما اكد بعض المستشرقين، وان العالم اليوم كان صار افضل مما هو علية وكان تجنب الكثير من ويلات الحروب من كل الاشكال والانواع، ولامتزجت الصناعة والتقدم بالاخلاق والروحانيات المهذبة للبشر، وتحقق الكثير مما هو لخير البشر ومصالحهم، ولكن ما كان ليكون لاوربا شخصية خاصة بها ولا حضارة رغم كل مساوئها، تفخر بها وتريد ايضا فرضها على العالمين! ولا ركبها الذي يريد النهضويون اللحاق به!!!!

وضرر المنفعية والمصلحة التي جعلوها من اسس الجامعة القومية العربية لم يقتصر على تكريسها التبعية للدول الاجنبية وانما جعلت الكثيرين من دعاة القومية وقادتها لا يرون أي حرج في موالاة هذه الدول الاجنبية باسم المصالح المشتركة والمنفعية، بل وصل الامر ببعضهم الى حد عرض خدماتهم على هذه الدول لاجل تحقيق مصالح عامة او خاصة من دون حرج، والامثلة على ذلك كثيرة، اذ عرض القوميون انفسهم على بريطانيا وفرنسا قبيل الثورة العربية فترك الملازم الاول صخر شريف الفاروقي -عراقي- صفوف العثمانيين وسلم نفسه للسلطات البريطانية في مصر باعتباره قد جاء نيابة عن (العهد) للتفاوض مع السلطات البريطانية على تاليف دولة عربية في العراق وسوريا والجزيرة العربية تقوم على اساس قومي وليس ديني. ويكون فيها للمسيحيين حقوقا متساوية، ويكون شريف مكة

هو الخليفة والسلطان لهذه الدولة التي ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة صداقة[١]. واتصل احد القادة العرب بكتشنر كما يذكر لورنس قبل الثورة العربية بسنوات وتقدم بعرض مشابه ولكن الانكليز اهملوا طلبه لانهم اعتقدوا انهم ليسوا بحاجة للعرب! وكان قائد آخر على اتصال بالانكليز ايضا وكان يذهب كما يقول لورنس الى دمشق (لاكتشاف الاوضاع والتحريض على دعم الثورة العربية الذي كان متفق على القيام بها وكان ينزل ضيفا على جمال باشا ويتمتع بما يغدق عليه من كرم حتى انه يحضر اعدام اعضاء الجمعيات العربية التي ثبت للاتراك اتصالها بالدول الاجنبية الاوربية والذين كان هو نفسه متآمرا معهم)[٢]!

وعندما احتل الانكليز العراق وبحثوا لهم عن زغلول عراقي يحكمون العراق باسمه–مثل مصر– عرض شيخ المحمرة عليهم نفسه فقال: (... شيعي، ومخلص... وبصفتي اميرا، ساكون الرئيس الاسمي الضروري للدولة العربية وساتصرف في جميع الامور طبقا لرغبات واوامر حكومة صاحب الجلالة)[٣]. وعرض طالب النقيب، الذي كان يتزعم الحركة القومية قبل الحرب وخلالها ويحضى طوال الوقت بدعم الانكليز، عليهم خدماته وساند البريطانيين بدون تحفظ حتى انه قال في رسالة له الى فلبي: (لقد خدمت بريطانيا العظمى بحياتي واموالي في الوقت الذي كان جميع الناس يحاربونها ووقفت الى جانب الحكومة في الوقت الذي كان الجميع يطالبون بالاستقلال التام)[٤] (وخلال ١٩٢٠–١٩٢١ وافق طالب على ان يكون الذراع الضاربة ضد الحركة الوطنية ومكافحة نشاطاتها...)[٥] وعندما اقترح كرزن

---

(١) وميض عمر نظمي: الجذور السياسية لثورة العشرين ص١٤٦

(٢) لورنس T, Elawrance, sevem pillars of wisdom p.51

(٣) وميض عمر نظمي: ذات المصدر ص٢٩٦

(٤) ذات المصدر ص٣٦٣، ٣٥٩، ٣٦٠

(٥) المرجع السابق

اختيار طالب النقيب كزغلول عراقي ذكرت مس بيل ان طالب (لا يتورع عن أي شيء في سبيل مصلحته ولكن مصالحه ومصالحنا متطابقة)[1] واعرب طالب عن استعداده لمساندة السياسة البريطاية باية طريقة ممكنة) وكان مستعداً لعمل كل شيء في سبيل ارضاء بريطانية حتى انه اقترح فصل البصرة عن بغداد والموصل لاظهار ولائه للانكليز كما قال كالاتين[2].

وفي الفترة بين ١٩١٨-١٩٢٠ لم يسمح ولسن للضباط العراقيين بالعودة الى العراق كما يذكر وميض عمر نظمي، وفي ايلول ١٩٢٠ وضع نوري السعيد نفسه للمرة الثانية تحت تصرف المندوب السامي... ولما قوبل عرضه بالرفض اشتكى قائلا (لا استطيع ان ادرك كيف يمكنني تقديم الخدمات التي تشيرون اليها في الوقت الذي انقطعت فيه صلتي ببلادي)[3]! وارسل ثابت عبد النور-عراقي مسيحي من جمعية العهد- مدعيا النيابة عن جميعة العهد (اقتراحا غير رسمي الى وزارة الخارجية البريطانية مؤداه ان الجمعية يمكن ان تقدم مساعدة قيمة) للانكليز (في تهدئة الاوضاع ما بين النهرين) ولذلك يطالب بعودة الضباط للعراق، وقد اعتبر ولسن هذه المبادرات الودية ابتزازا فكتب يقول (... ان الوضع الراهن على الفرات ناشيء الى درجة غير قليلة عن واقع ان هؤلاء السادة-الضباط العراقيين- يرغبون في جذب انتباه الحكومة البريطانية الى انفسهم بأمل ان تؤدي تهدئة الوضع الراهن الى حصولهم علي مناصب جديدة في ظل الادارة العراقية)[4] وبالمقابل كتب لورنس الى وزارة الخارجية البريطانية يؤيد عودة الضباط العراقيين الى بلدهم وقال: (انهم ضباط موالون جدا لبريطانيا... لا اراني بحاجة للقول بانهم يريدون

---

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

(٣) وميض عمرنظمي: الجذور السياسية... ص١٥٩

(٤) وميض عمر نظمي: الجذور السياسية... ص١٥٩

انتدابا بريطانيا فيما بين النهرين)[1].

وهكذا نجد ان الذين ثاروا على استبداد الدولة العثمانية التي كانوا فيها يحتلون مواقع قيادية في الجيش وغيره، وحاربوا باسم المصالح المشتركة جنبا الى جنب مع الانكليز والفرنسيين الذين يحتلون عددا من بلادهم العربية صاروا تحت ظل تحرر حلفائهم! يتذللون وباسم المصالح المشتركة، ايضا للحصول على ابسط حقوقهم في العودة الى اوطانهم، ولا يرون حرجا مرة اخرى وباسم المصالح المشتركة، من عرض خدماتهم على المحتلين!!!

وعلى اية حال، فقد شوه دعاة القومية العربية المشاعر الطبيعية التلقائية بالانتماء القومي والذي هو اساساً لا يتعارض باي شكل من الاشكال بالانتماء للجامعة الاسلامية الاكبر، فالقومية انتماء جنسي والاسلام دين، وانتماء فكري وعقائدي، فالعربي اخ للعربي بالجنسية واخ للمسلم غير العربي بالفكر والعقيدة. والعروبة من غير الاسلام هي جسم من غير روح فكيف تعمل واي نظام للحياة تتبع وباية عقيدة تدين الا ما تستورده من الاجانب والطامعين والطامحين الى اذلالها وتحقيق تبعيتها لهم؟ ولكنه ضلال الدعاة الذي جعلهم يصرون على احداث ازمة داخل المجتمع العربي الاسلامي ككل وازمة داخل الفرد العربي المسلم الذي يريد ان يتمسك بدينه ويحكّمه في جميع شؤون حياته وان يتمسك في ذات الوقت بهويته العربية التي لا يضيرها تدينه هذا بل يدعمها ويقويها. فوضعوه امام امرين لا يمكن الجمع بينهما اما ان ينتمي الى القومية فيكون قوميا وتقدميا متحررا واما ان ينتمي للاسلام فيكون مسلما رجعيا متخلفا!! مع ان الامة الاسلامية (والمسلمين كافراد) قد عاشت بهذين الانتمائين اربعة عشر قرنا من غير حرج وبنت حضارة تتباهى بها الاجيال حتى يومنا هذا. وان كان لم يخلو هذا التاريخ الطويل من اصحاب المطامح والمطامع والذين يثيرون هذه النعرات القومية لخدمة مصالحهم الخاصة وارضاء

---

[1] ذات المصدر ص١٦٧

طموحاتهم المريضة، الا انه لم يخطر ببال هؤلاء الخروج علـــى الديــن وفصــل قوميتهم عن دينهم ولهذا لم يحدثوا الضرر الذي احدثه دعــــاة القوميـــة مــن رواد النهضة العربية ومن جاء بعدهم، بالامة العربية الاسلامية.

وقول احمد السقاف "ان القومية لفظ منسوبة الى قوم... ان العرب قوم وكـــل من يحس بالروابط التي تشده الى هؤلاء القوم فهو قومي، والاحساس بهذه الروابــط التي تجمع هؤلاء القوم يمكن ان يسمى قومية" ثم يتساءل تساءولاً يتضمن الجـــواب الذي يريد فيقول: (فهل في هذا الاحساس الانساني الطبيعي ما يمس الدين من قريب او بعيد؟)[1] ولو كان لي ان اجيب لقلت: انه ليس في الاحساس ما يمس الدين. وقــد ظل هذا الاحساس بالانتماء القومي موجودا اربعة عشر قرنا ولم يمس الدين بل كان يدعمه. ولكن عندما يقترن هذا الاحساس بالعمل على فصل الديـــن عــن الانتمــاء القومي بل وحتى معاداته كما فعل دعاة القومية من عازوري وانطون فرح وحتـــى اليوم فيصبح فيه ليس ما يمس الدين فقط بل وما يضـــر الحركـــة القوميـــة ذاتـــها والانسان القومي، وذلك لانه ليس في الاسلام فصل بين الدين والدولة وان حدث فان هناك الكثير مما يمس الدين ويمس الدولة. فكيف تكون الدولة التي ترعـــى شـــؤون المسلمين وتنظم حياتهم قومية مفصولة عن الدين ويظل الانسان مسلما حقيقيا بمعنى انه يحكّم الاسلام في جميع مناحي حياته؟! ان التشوهات الفكرية التي اقتبسها دعـــاة القومية من اوربا وسموها فكر النهضة العربية، لا يمكن تطبيقها على العالم العربـــي الاسلامي من غير ان تحدث اضرار كبيرة للدولة وللانسان فيها. فان كان في اوربا (قد تمكن المسيحيون من فصل الكنيسة عن الدولة ومن اصلاح الكنيسة) كما يقـــول مجيد خدوري فان ذلك (امر اكثر صعوبة او هو غير وارد اصلا) في الاسلام وذلك (لعدم وجود-الفصل- بين السلطتين... فحين الغيت الخلافة، لـــم يكــن بالامكـــان تحويلها الى سلطة دينية مركزية، كما اقترح النظام التركي الكمالي) وكما دعا دعـــاة القومية العرب الاوائل مثل عازوري والكواكبي الخ... فكانت النتيجـــة ان اســـتبدل

---

[1] احمد السقاف: في العروبة والقومية ص٧٧

(الاتراك الاسلام، كهوية سياسية بالقومية وفي العالم العربي كذلك استبدلت الهوية الاسلامية تدريجيا بالقومية... ومهما يكن من اخلاص القوميين في اعلانهم عن استمرار ايمانهم بالقيم الاسلامية الدينية الخلقية فان هذه القيم باتت تحتل في سلم ولائهم المرتبة الثانية، رغم ان الاسلام يتطلب منهم ان يجعلوها في المقام الاول...)[1] ولذلك فقد اعتبر فكرة القومية (تحديا عظيما للاسلام واداة لهدم الوحدة الاسلامية)[2] فهل يرى البعض ان هذا لم يمس الدين في شيء؟!!! ثم ان هذا المساس بالدين لم يرضي الكثيرين من العرب المسلمين الذين يريدون ان يحكّموا الاسلام في جميع شؤون حياتهم مما اساء الى علاقتهم بالحركة القومية وبالدولة القومية. وحتى الكثيرون ممن رضوا بهذا المساس وتقبلوه فانهم لم يفعلوا ذلك الا على مضض اذ فرض عليهم التغيير بالسلطة التي يدعمها الاحتلال ولم يكن لهم رأي فيه-وباسم الحرية والديمقراطية-!!!! فظلوا في قرارة انفسهم يشعرون بالالم وعدم الرضى عن الذات والذي قد يصل الى تأنيب الضمير لانهم لم يتبعوا الاسلام في جميع شؤون حياتهم مما يسقطوه على الحركة القومية العربية والدولة القومية المفصولة عن الدين فيجعل علاقتهم بها علاقة سطحية فلا يشعرون انها منهم ولا هم منها وانما قدرهم الذي ان لم يثوروا عليه فيتقبلونه مكرهين! الم يضر هذا بالحركة القومية والانسان العربي نفسه والذي صار تائها ضائعا بين الانتمائيين الذين يحلان في نفسه مكانا خاصا ويعتز بهما ولا يريد التفريط باي منهما؟!!

ان القومية العربية بالذات لا يمكن فصلها عن الاسلام الذي ارتبطت به منذ ظهور الدعوة الاسلامية حتى ان البلاد التي فتحها المسلمون في اول عهدهم بالفتح كان يطلق عليهم جميعا، عربا وغير عرب (... اسم العرب تميزا لهم من سكان البلاد الاصليين الذين كان بعضهم لا يزال على دينه وبذلك كان اسم العرب مرادفا

---

(١) مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي ص٢٥٤

(٢) ذات المصدر ص١٩٢

لمعنى المسلمين)[1] وحتى اليوم فان كلمة مسلمين وكلمة عرب تاتيان كمرادفين في ذهن الاوربيين.

يقول محمد يوسف: (بالدين اكتملت وتعمقت ملامح الوجود القومي العربي وتحددت به هويته... كما كان هذا الوجود العربي العمود الفقري في البنية الاسلامية وفي انتشار الدين الجديد وانتقاله الى بقاع الارض كافة... كان الدين راية والعرب اليد التي حملتها وكان الدين منارة الحق والخير للانسان وكانت لغة العرب وقلوبهم وزنودهم العتاد الذي انجز به المتقدمون المهمة وادوا به الرسالة... لقد تبلور وجودهم القومي بالدين وكان وجودهم القومي هو الجسد الذي عبر عليه الدين لتصل قيمه الانسانية العادلة والتقدمية الى البشر في كل مكان)[2] فماذا ستحمل اليد العربية ان نزعوا منها راية الاسلام؟! هل ستحمل راية الليبراليين ام الماركسيين ام غيرهم وغيرهم الى ما لانهاية؟ واي راية من رايات الليبراليين العديدة والماركسيين العديدة الخ... ستحمل؟!! وهل ستتمكن في يوم ما من حمل احدى هذه الرايات الاجنبية الغريبة عنها بذات الكفاءة التي حملت بها الراية التي اودعها الرسول العربي الكريم في يدها؟

ان العروبة كما يقول محمد محمد حسين (شخصية معنوية لها وجود تاريخي حقيقي ذي مقومات ثابتة محددة لا لبس فيها ولا غموض وليست مولودا جديدا تقترح له المقومات. وتخترع له الاسس والمبادئ في مصانع دعاة العروبة على اختلاف اجنحتهم وزعاماتهم ولنسأل انفسنا في رؤية يحكمها عقل مجرد من الاهواء: ما هو البديل عن عروبة اسلامية؟ فهل هو عروبة في ظل حضانة اجنبية؟ هذا امر قد اصبح مرفوضا حتى من الذين ارتضوه بالامس في ظل الحكم

---

(١) محمد محمد حسين: الاسلام والحضارة الغربية ص٢١٥

(٢) محمد يوسف: التراجع الضعيف ص٧٧

العثماني)[1] ويقول ايضا (ان التفريق بين العروبة والاسلام في ايامنا هذه لا يستند الى اساس، فالاسلام هو الذي اعطى للعرب لغتهم ووحدهم عليها وعلى القيم التي تضمنها كتابه وسنة رسوله، فالتقت قلوبهم وعقولهم وامزجتهم على ما يحلون وما يحرمون، وما يحبون وما يكرهون وما يستحلون وما يستقبحون، وحددت انماط بيوتهم وخارجها... وتأثر بذلك كله المسلم وغير المسلم) ويتساءل محمد محمد حسين بعد ذلك (من اين جاء التشكيك في هذه الصلة بين العروبة والاسلام؟ فزعم بعض الزاعمين ان الاسلام ليس عنصرا اصيلا في مقومات العروبة واراد الآخرون ان يعروا الاسلام من صفته العربية)[2].

وهذه التشوهات التي احدثها دعاة القومية في الدعوة للجامعة العربية وخاصة في مسألة فصلها عن الدين الاسلامي وعدم اعتباره ركنا اساسيا من اركانها، وفي مسألة ربطها بالدول الاوربية سواء من خلال اقتباس الافكار الاوربية او عن طريق المصالح المشتركة!! وسواء حدثت عن قصد او من غير قصد فأنها قد اضعفت الحركة القومية وشلت حركتها مما جعل ميشيل عفلق، وهو احد دعاة الجامعة القومية العربية يقول: (لننظر قليلا كيف آلت قضيتنا القومية بعد عشرات السنين من النضال الشعبي والجهد الذي بذله شعبنا بكل سخاء؟ ان ما آلت اليه هذه القضية لا يطمئن ولا يسر، فنحن نواجه عدوانا وتآمرا استعماريا صهيونيا رجعيا على وجود امتنا...) وقال ان الثورة العربية (عجزت... في السنين الماضية عن ان تعطي للعالم صورة صادقة عن قضيتنا، صورة مطابقة للواقع، صورة تنادى بحقنا المشروع في الحياة الحرة، في الاستقلال...) ثم قال ان هذه (النتائج السلبية التي توصلنا اليها ليست هي كلها من صنع الاستعمار والصهيونية، بل هي ايضا من

---

[1] محمد محمد حسين: الاسلام والحضارة الغربية ص٢٣٢-٢٣٣

[2] ذات المصدر ص٢١٨

اخطاء بدرت من داخل الانظمة العربية التي تدعي القومية)[1]. ولكن ما لـــم يقلـــه ميشيل عفلق هو ان جزءا كبيرا من السلبيات هذه وغيرها والتي كلها ادت الى فشل القضية العربية وعجزها يعود الى نشأتها الاولى والى المقومات التي اعتمدتها. فهي ما نشأت في اول امرها الا كوسيلة لهدف هو هدم الجامعـــة الاســـلامية وتفتيتـــها والقضاء على الدولة العثمانية الاسلامية، وتحقيق السيطرة الاجنبيـــة علـــى العـــالم العربي سواء بشكل مباشر عن طريق الاحتلال او غير مباشر عن طريق حكمـــــها بواسطة حكام يختارونهم لذلك.

فنجيب عازوري مثلا، وهو من اوائل دعاة القومية العربية والذي مثلت دعوته القاعدة التي اقتبس منها كثير من مفكري القومية والجامعة العربية قواعـــد واســـس الدعوة، لم يكن يراها الا كذلك (وسيلة للهدف المذكور اعلاه) فكمـــا كـــانت دعـــوة اللامركزية بالنسبة له وسيلة لاضعاف الدولة العثمانية وتفتيت الجامعة الاســـلامية، كما مر ذكره، فقد كان الاستقلال ايضا بالنسبة له استقلالاً عن الدولة العثمانية فقـــط ودخول في ظل احتلال الدول الاجنبية الاوربية اذ قال: (ان الامم الخاضعة للسلطان ستنفصل عن الدولة التركية يوم تتثقف وتقوى وتثرى لتشكل دولا مستقلة بضمانـــة اوربا)[2] اذ هو لا يرى استقلالاً بدون اوربا ترعاه وتحميه ولذلـــك زيّـــن للـــدول الاوربية احتلال البلاد العربية كما مر ذكره، وزيّن لهذه البـــلاد قبـــول الاحتـــلال الاوربي اذ اكد لهم ان دولة الاحتلال (تثري الدولة المحتلة باستثمار ثروات البـــلاد الطبيعية)[3] واعتبر الاستعمار الانكليزي نعمـــة عالميـــة!! اذ هـــو بعـــد ان يعـــدد المستعمرات الانكليزية ويصف ما في مصر بالذات من عدالـــة ســـريعة ومتجـــددة ونظام بوليسي جيد وادارة ممتازة ويلوم المصريين لانهم لم يؤسسوا خـــلال فـــترة

---

(1) ميشيل عفلق: نقطة البداية ص١٢٦-١٢٩

(2) يقظة الامة العربية ص١١١-١١٢

(3) ذات المصدر ص١٠٦

الاحتلال التي كان قد مضى عليها اربعة وعشرين عاما (شركة وطنية واحدة في أي استثمار كان على الرغم من وجود مثيل لها كالشركات الاجنبية التي تجمع الثروات الطائلة) وهو ما اعتبره عجز يدل على عدم قدرة الشعب المصري على حكم نفسه بنفسه يقول: (قبل ان نهاجم هذه العظمة الكبرى وهذه الثروة الطائلة يجب ان نعلم ان وضعا كهذا يفيد العالم اجمع فاساس النظام الجمركي في انكلترا هو التبادل الحر. لذا فان استثمار المستعمرات البريطانية الواسعة يساهم في نشر الرخاء في كافة البلدان)[1]!!!

وفصل الدين عن الدولة الذي يدعوا اليه هو فقط فصل الدين الاسلامي عن الدولة الاسلامية-العثمانية والجامعة الاسلامية- لانه في ذات الوقت يمجد فيه دور الفرنسيين (ناشري المسيحية والكثلكة والديمقراطية) ويزيّن للاستعمار احتلال البلاد العربية مستخدما الدين والاماكن المقدسة المسيحية وسيلة لذلك اذ يقول حاثاً فرنسا على تعزيز موقفها في سوريا والبلاد العربية للرد على الذين يرون انه لا فائدة من الحفاظ على مواقعهم الدينية في البلاد العربية... (تشكل البلاد العربية، يعني فلسطين وسوريا وبلاد الرافدين، امبراطورية اكبر واخصب من فرنسا بكاملها انها تصل بين ثلاث محيطات وثلاث بحار وان وضعكم المتفوق يؤمن لكم حياد هذه الاقطار الغنية والسيطرة عليها. اذن نستطيع القول ان السيطرة على المتوسط موجودة تحت بلاطات القيامة المحمية المقدسة التي تتبع فرنسا...)[2]!! اما الثورة العربية فهي الاخرى لا هدف لها الا هذه الاهداف نفسها اذ يقول: (عندما تنتزع من السلطان المقاطعات العربية الاناضولية يصبح عاجزا عن الدفاع عن نفسه ليس فقط في وجه اليونان او الجبل الاسود ولكن ايضا في وجه الثوار الالبان والعصابات البلغارية في مقدونيا. وتعم الفوضى كل رومانيا وتندفع الامارات البلقانية نحو مقدونيا كي تتنازع مغانم عبدالحميد، وتشتعل النار من التقاء نار البلقان ببارود

---

(١) ذات المصدر ص١٠٧-١٠٨

(٢) ذات المصدر ص١١٨-١٢٥

اوربا) ثم يقول وبما ان النار لا يمكن اخمادها بسهولة فلتجاء، الدول الاوربية الى تهيئة (بالوسائل السلمية الخليفة الذي تشتهي، عند اقتسام تركة الرجل المريض)[١].

وكل ما ذكره عازوري من افكار وخطط ليس هو فقط عين ما حدث وانما هو ايضا في جوهره عين ما دعا اليه رواد النهضة من مسيحيين ومسلمين ومصلحين دينيين وكل ما في الامر ان عازوري عرضه بشكل صريح من غير ان يتوارى وراء شعارات الوطنية والتقدمية والنهضوية والاصلاح الديني!!! فهو قد عرض المسائل كما هي في حقيقتها، وسائل لاضعاف الدولة العثمانية واسقاطها واقتسام اجزائها من قبل الدول الاستعمارية وهدم الجامعة الاسلامية حتى لا تعود مرة اخرى باي شكل كان. وهو ما حدث فعلا عدا مسألة الخلافة العربية والتي هي اساسا لم تكن الا لذر الرماد في عيون المسلمين الداعين اليها لا غير كما مر ذكره. فهل يمكن لاحد ان يستغرب كيف آلت القضية القومية الى ما آلت اليه اليوم؟!!

لقد حققت الدعوة للجامعة العربية القومية اهدافها بسقوط الدولة العثمانية وسيطرة الدول الاوربية المنتصرة، على البلاد العربية ولم يعد مهما وجودها لا بالنسبة للدول الاوربية التي غرست بذرتها ولا بالنسبة لمن رعاها من دعاة هذه الدول. فعندما عرض الفاروقي باسم جمعية العهد على الانكليز التعاون معهم في حربهم ضد الدولة العثمانية مقابل انشاء امبراطورية عربية وليست اسلامية! ارسل سيكس برقية الى كوكس يتباحث معه بالموضوع فتحها بقوله بلهجة ساخرة (اذا اصبح لنا احتكار دائمي للمشاريع وللمساعدات الاوربية والمدنية في مقاطعات الموصل وبغداد والبصرة واذا اصبحنا ندير مقاطعتي بغداد والبصرة طيلة مدة الحرب. فاعتقد اننا لا يجب ان نخشي المستقبل وسواء نجحت العروبة ام لم تنجح، فلن نكون خسرنا شيئا)[٢]. وعندما كان ولسن يعارض انشاء دولة عربية في العراق

---

(١) ذات المصدر ص١٢٠

(٢) وميض عمر نظمي: الجذور السياسية لثورة العراق ص١٤٧

بعد احتلاله كتب هيرتزل-هو مسؤول انكليزي- يقول: (هل فكرت يوما باحتمال اضطرارنا للخروج؟ ان هذا الاحتمال يتزايد ببطء... ان ما نحتاجه هو قليل من المؤسسات العربية التي يمكننا تركها باطمئنان في الوقت الذي نمسك فيه بالخيوط نفسها، شيء لن يكلف كثيرا جدا، شيء يستطيع حزب العمال هضمه دون ان يتعارض مع مبادئهم، وفي الوقت نفسه يكون نفوذنا ومصالحنا السياسية والاقتصادية مضمونة... لقد آن الاوان لتقليص كافة الاطماع واختزال كافة المسؤوليات الى اضيق الحدود...)[1].

ولما حققت الحركة القومية الاهداف التي وجدت من اجلها لم تعد الجامعة العربية تخدم المصالح المشتركة!! لمن خطط لها وعمل من اجلها من الاوربيين ودعاتهم، بل صارت عائقا لمخططاتهم التالية وطموحاتهم ولذلك كان لا بد من تشتيتها هي الاخرى واظهار عجزها، وذلك بتحديها الذي اتخذ عدة اشكال وبدأ مباشرة بعد الحرب العالمية الاولى بما يلي؟

١.استعمارها ونقض عهود اصحاب الثورة العربية معهم.

٢.تقسيم اراضي العالم العربي فيما بين المستعمرين الذين كانوا يدعمون الحركة القومية.

٣.سلخ اجزاء من الوطن العربي ومنحها لهذا وذاك ومنها وعلى رأسها منح فلسطين لليهود.

وقبلت الحركة القومية آنذاك بكل ذلك مختارة حينا ومضطرة حينا آخر وفي كلتا الحالتين بأن عجزها عن تحقيق المطامح التي دعت اليها في تحقيق الدولة العربية الواحدة حتى صارت تستعطف الدول الاستعمارية وتعطي لهم التنازلات تلو التنازلات من اجل منحها ابسط حقوقها او منحها الاستقلال او السماح لها بوحدة

---

(١) ذات المصدر ص٤٠٨

جزئية او جامعة للدول العربية تحت ظل بريطانيا. فعندما زار الامير عبدالله العراق في الثلاثينات من هذا القرن-العشرين- فاتح وزير خارجية العراق سفير بريطانيا (بصورة مبدئية في امكانية قيام وحدة بين العراق وشرق الاردن) وقال نوري السعيد ان (ما يدور في ذهنه هو نوع من الاتحاد الفدرالي الذي يحتفظ بقدر واسع جدا من الحكم الذاتي لشرق الاردن ولا يغير في علاقتها القائمة مع بريطانيا العظمى...)[1] ولكن ابدى السفير البريطاني تحفظاته التي انتهت الى الغاء المشروع. وكتب المستر كيلي المندوب السامي في مصر الى وزارة الخارجية البريطانية يقول: (ان اهتمام مصر بالدول العربية المجاورة كان حتى الآن يبدو سطحيا بصورة عامة) وذلك لاسباب اهمها (الاختلاط الطويل مع الانكليز في العصر الحديث والتشبع بفكر المصالح المصرية... وكان التأكيد كله منصبا على الوطنية المصرية بمعناه الدقيق، اما الدوافع القومية واكثر منها الدينية فقد تجوهلت تماما) ثم يقول ولكن (هناك علائم اكيدة على ان النظرة في تغير) وان (عبدالرحمن عزام متحمس لفكرة العروبة وشرح له فكرته بالتفصيل ومثله الاعلى هو جامعة دول عربية قادرة على الاندفاع من نفسها ضد العدوان الامبريالي، والعمل ضمن تحالف وثيق مع الامبراطورية البريطانية التي بدورها ستجد ذلك الجزء من مواصلاتها مضمونا بصورة مضاعفة) ثم يقول ان اراء نوري باشا مطابقة تماما لاراء عبدالرحمن عزام هذه والتي هي (حالة عقلية... تحد الحد بين موجة العواطف الودية والعواطف المعادية لنا في هذه الاصقاع. انه لعامل يمكن ان يوجه لصالحنا بمساعدة المعاهدة المصرية البريطانية...)[2].

ولما كان دعاة القومية العربية والوحدة العربية الذين ظهروا بعد الحرب العالمية الثانية وفي منتصف القرن قد اعتبروا كل ذلك الذي مضى من الرضوخ للتجزئة والتبعية والاستعمار من اعمال تلك الفئة الرجعية من القوميين الذين عجزوا

---

(١) نجدت فتحي صفوت: العراق في الوثائق البريطانية ص٩٧

(٢) ذات المصدر ص٣٠١-٣٠٣

عن الصمود امام التحديات وقبلوا التعاون مع الدول الغربية فخانوا المبادئ القومية فقد جاءت حرب ١٩٦٧ لتقضي على هذه الادعاءات حيث كانت الدعوة القومية على اشدها والبلاد العربية تحكمها انظمة عربية ثورية وحدوية!!

اما تشتيت الدعوة فقد بذرت بذورها الجنينية منذ اول ما غرست التوجهات القومية والدعوة للجامعة العربية. وذلك من خلال التشوهات التي جعلوها مقومات الحركة مثل فصل الدين عنها ووضعها مقابل الجامعة الاسلامية-لاضعافها- وليس جزءا مكملا لها يدعمها ويقويها ويتقوى بها امام الغزو الاوربي مما شوش الدعوة وجعل معظم المسلمين حتى الذين نادوا بها يخلطون، متخبطين بين ولاءهم للجامعة الاسلامية والدولة الاسلامية وولاءهم للقومية مثل عزيز المصري ورشيد رضا وغيرهما. هذا غير اهتمام الدعاة باسم المصالح المشتركة!! بمصالح غير المسلمين واهمال الاعداد الكبيرة جدا من المسلمين غير العرب من مواطني البلاد العربية، وربط الحركة وباسم المصالح المشتركة ايضا! بالمصالح الاجنبية. وغير ذلك من التشوهات التي اضعفت الحركة وشتتها. هذا بالاضافة الى ما بذر من بذور التشتت من خلال ما نشروه من افكار عالمية واقليمية.

العالمية

فشبلي شميل الذي يعتبره البعض من اوائل دعاة القومية والنهضوية! كانت دعوته بقدر ما تدعو للوحدة الوطنية او القومية بعيدا عن الدين لهدم الجامعة الاسلامية آنذاك! كان يبذورا بذور تشتيت القومية وهدمها على المدى البعيد بما يشير اليه احيانا ويصرح به كثيرا من الدعوة للعالمية اذ اعتبر كل تضامن جزئي هو خطر كالتضامن الديني (فالتعصب القومي الاعمى لا يقل شرا عن التعصب الديني...) كما يقول، ولذلك في نظره (لا بد ان تحل عاجلا ام أجلا الوطنية العالمية

محل الولاء للوطن المحدود)[1] ولذلك ايضا كان هو اول من نشر فكـرة الاشتراكية العالمية وان لم يكن اول من سماها بهذا الاسم. اما سـلامة موسى فيقول! (اذا كنا نضحي بانفسنا لاجل مصر فيجب ان نضحي بمصر لاجل العالم. فالعالم هو وطننا الاكبر)[2] والعالمية بالنسبة لسلامة موسى هو التأورب والتغريب لأن اوربا هي العالم الذي يجب على كـل مصري ان يخدمه وحتى الوطنية المصرية يجـب ان تكـون لخدمـة العالمية هذه اذ يقول: (اننا في حاجة الى تنشئة الوطنية المصرية ولكـن بحيث لا يلابسها أي روح من العدوان او الكراهية لاوربا. ويجـب ان تكون غاية كل شاب مصري ان يكون بارا بالعالم. فقـد بـرت اوربـا العالم) وواجبنا نحو العالم يكون بترقيته (... ولن تكون خدمتنـا للعـالم شيئا سوى مساعدته على النهوض والسير في الحضارة الغربية)[3]. هذا غير ان الماسونية العالمية التي تبنت الحركة القومية فـي كـل مكـان وحركة الاصلاح الديني من اجل هدم الدين واضعاف الدولة العثمانيـة واسقاطها، كانت توجهاتها العالميـة تكمـن وراء شـعارات القوميـة والاصلاح الديني الى حين، لتظهر هنا وهناك في اقـوال وممارسـات متفرقة لا مجال لحصرها هنا. وكل التوجهات العالميـة التـي سـادت وتسود اليوم كان مصدرها اوربا والفكر الاوربي الام لحركـة القوميـة العربية.

الاقليمية

وكما بذرت بذور العالمية لدعم حركة فصل الدين عن الدولة وحركـة الجامعة العربية في مواجهة الحركة الاسلامية اولا ثم لتشتيتها وهدمـها

---

(1) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٢٩٧-٣٠١

(2) اليوم والغد ص٢٤٦

(3) اليوم والغد ص٢٥٦

بعد ذلك بحسب ما تقتضي المصالح (المشتركة!) المتغيرة للدعاة من الاوربيين وتلامذتهم فكذلك كانت الدعوة للوطنية الاقليمية.

الوطنية الاقليمية

ولما كانت القومية آنذاك وفي اول عهدها هي نبتة اوربية تهدف الى التشتيت والتفرق وليس الى التجمع، رغم دعوتها للجامعة العربية، وتقوم على المصالح والمنفعية ليس الا، وهذه تختلف باختلاف الظروف فالبعض قد تكون مصلحته في القومية عندما يكون العرب جزءا من تجمع اكبر هو الدولة الاسلامية ولكن بزوال الدولة العثمانية الاسلامية قد تنتفي مصلحة هؤلاء بالدولة العربية الواحدة وتصبح مصلحتهم في الاقليمية المحدودة، فماذا يمنع ما دام الامر يقوم على المصالح ان تتقزم الدعوة من جامعة عربية كبرى الى قطرية اضيق يحققون فيها مصالح معينة خاصة او عامة كأن يكونوا فيها اكثرية لا بأس بها! او يتولوا مسؤوليات اكبر او سيطرة اقتصادية اكثر؟!! هذا من جهة اما من جهة اخرى، فان زارع النبتة القومية الاوربي له ذات المصالح المتغيرة، ففي وجود الدولة العثمانية فان التجمع العربي مستقلا عن الدولة العثمانية كان يخدم اغراضه ليس فقط في اضعاف الدولة العثمانية وانما في تسهيل مهمة الانقضاض على هذا التجمع الاصغر الذي سيكون لا حول له ولا قوة على دفع غزوه كما حدث بعد الحرب العالمية الاولى، وكما حدث قبلها في مصر. ولكن بعد ذلك، وبعد ان احكم احتلاله وسيطرته التي تمتد حتى يومنا هذا لم يعد من مصلحته وجود تجمع عربي كبير يمكنه في يوم من الايام ان يقف في وجه مخططاته وتحقيق مصالحه او على الاقل يعرقلها. وهو امر خطط له منذ البداية فغرست مع نبتة القومية نبتة اخرى تعمل على تفتيتها عند الحاجة وهي الدعوة للوطنية الاقليمية والتي رافقت الدعوة الى القومية العربية. فالدعوة للجامعة العربية وان كانت علمانية وبعيدة عن الدين كما صمموها الا انها لم تكن مضمونة النتائج على المدى البعيد في مجتمع متمسك بدينه الاسلامي وتعوّد الولاء للامة الاسلامية بغض النظر عن اية اعتبارات اخرى، ولكلمة لا اله الا الله التي تجمعهم جميعا عربا وغير عرب. فكان لا بد للاوربيين الناشطين بالزحف آنذاك، من ان يحرك

اكبر عدد ممكن ضد الدولة العثمانية الاسلامية من خلال العروبة والجامعة العربيـة وفي ذات الوقت كان لا بد له امعانا في الحذر والتحسب لما قد يأتي به المستقبل من ان يبذر اكبر قدر مستطاع من بذور التفرقة والتشتت لهذه الجامعة، فكانت الاقليميـة والتي تعتمد على علاقات تاريخية او جغرافية غير قومية ولا اسـلامية. وان كـان السوريون من غير المسلمين هم اصحاب الدعوة القومية متخذين من مصر مركـزا لنشرها فان الوطنية الاقليمية تركزت في مصر فكرا ونشرا. وهذه الدعوة وان كانت لا تقل علمانية عن القومية الا انها في بداياتها على الاقل، لم تتعرض للدين فلاقـت قبولا بين الدعاة المسلمين. ويرى البعض ان رفاعة الطهـطاوي هـو (اول مفكـر مصري في العصر الحديث نعثر لديه علـى البدايـات الجنينيـة لفكـرة الوطنيـة المصرية. اذا اعتبرنا الوطنية هي حب الوطن والشعور بارتباط عاطفي نحـوه...) والوطن كما يراه الطهطاوي (هو عشى الانسان الذي فيه درج ومنه خرج، وجمـع اسرته-ومقطع سرته- وهو البلد الذي نشأته تربته، وغذاه هـواؤه...) ومقومـات الوطن عنده هي ان يكون ابناء الوطن دائماً متحدين في اللسان وفي الدخول تحـت (استرعاء ملك واحد، والانقياد الى شريعة واحدة وسياسة واحدة)[1]. وقد ذكر خيري الدين التونسي الوطن واشار (الى اهمية غرس الوطن في نفوس الافـراد) ولكـن الوطنية عند التونسي كانت (تعني... البلاد الاسلامية عامة: لا قطر بعينه)[2] وتبنى شعار الوطنية بعد ذلك الافغاني وعبده وغيرهم ونشره. وان كانت دعوة الافغـاني للوطنية الاقليمية مبعثرة هنا وهناك الا انها تظـهر واضحـة فـي شـعار مصـر للمصريين الذي تبناه حزبا الوطني الحر ومصر الفتاة اللذان انشأهما فـي مصـر. وظهرت ايضا في بعض خطبه مثل مخاطبته الناس في الاسكندرية وحثـهم علـى تأليف الاحزاب وخاصة الحزب الوطني كما مر ذكره. اذ يقول: (لا اريد ايها السادة ان اذكركم بمجد ابائكم الكرام. وانكم اما ان تكونوا من ابناء المصريين او من حفـدة

---

(١) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٢٤٦

(٢) عبدالعزيز الدوري: التكوين التاريخي للامة العربية ص١٤٥

الفينيقيين او من سلالة الكلدانيين...) وبعد ان ذكرهم بتفوق هؤلاء جميعا بالعلوم والفنون ومستشهداً (بالهرمين والمسلات واعمدة الكرنك)[1] دعاهم الى تأليف حزب يستعيدون به امجادهم! ولم تكن دعوة الافغاني للوطن والوطنية الاقليمية الا جزءاً من عمله في التحريض على الحكام والدولة العثمانية آنذاك واثارة عدم الرضا وتشكيل الاحزاب للمعارضة. ولم تخرج دعوة محمد عبده عن ذلك وان كان قد حاول التفصيل فيها ناقلا اراء الاوربيين كقوله قال: لابرويز الحكيم الفرنسي (لا وطن في حالة الاستبداد... وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين: المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية) اما (السكن الذي لاحق فيه للساكن، ولا هو آمن على المال والروح، فغاية القول في تعريفه انه مأوى العاجز... فان عظم فلا يسر وان صغر فلا يسوء) ويعود فيستشهد بالحكيم الفرنسي فيقول (قال لابرويز السابق الذكر: ما الفائدة من ان يكون وطني عظيما كبيرا ان كنت فيه حزينا حقيرا اعيش في الذل والشقاء خائفا اسيرا؟)[2].

اما علي مبارك، فقد كانت الوطنية عنده كما يقول سعيد اسماعيل (كما تمثلت في حبه لمصر، موقفا حضاريا... يعّبر عنه ويجسده العطاء... عطاء المواطن لوطنه مهما اختلفت وتعددت صور هذا العطاء. لانها قد نبعت من العطاء... عطاء الوطن غير المحدود للذين اقلتهم ارضه واظلتهم سماؤه وهم المواطنون...)[3].

وان كان محمد عمارة يؤكد على علمانية الدعوة الى الوطنية الاقليمية عند الاوائل واستبعاد الاديان اذ يقول عن علي مبارك ان (اهمية فكر علي مبارك في الوطنية انه حلقة من سلسلة مفكري الوطنية في تراثنا الحديث، اولئك الذين كان الطهطاوي رائدهم في اعادة مصطلح الوطنية ثانية الى ادبنا السياسي وقاموسنا

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة ص٧٨-٧٩

(٢) الاعمال الكاملة جـ١ ص٣٤٣-٣٤٤

(٣) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٢٤٧

الفكري، بعد ان اهملته عصورنا الوسطي وخاصة (المملوكية-العثمانية) عندما قسمت البشر على اسس دينية، واسقطت حدود الاوطان والقوميات والحضارات، فجاءت هذه المدرسة المستنيرة الحديثة لتتحدث عن الوطن وعن علاقة المواطنة التي تجمع ابناء الامة الواحدة وتؤلف بينهم، بصرف النظر عن المذاهب والاديان التي بها يتمذهبون وبها يدينون، فكانت طورا جديدا من الفكر عكس الطور الجديد الذي دخل فيه انساننا العربي طور العصر الحديث)[1]. الا ان الحقيقة التي تبدو للمتفحص للامور بعلاقاتها مع بعضها البعض هي ان هذه الدعوة تعاملت مع الدين كما فعلت الجامعة العربية. ففي الوقت الذي كان غير المسلمين يرونها جامعة بعيدة عن الدين، تشوشت الدعوة في ذهن الدعاة المسلمين الاوائل فتذبذت مواقفهم من الدين ولكنهم وبشكل عام لم يتمكنوا من رؤيتها بعيدا عن دينهم او ان لا يكون الدين احد مقوماتها فتجد البارودي وهو من الداعين للوطنية المصرية يقول بعد فشل الثورة العرابية:

لم اقترف زلة تقضي علي بما اصبحت فيه، فماذا الويل والحرب

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان به ظلما واغترب

ولم تكن دعوة مصطفى كامل للوطنية تعارض الرابطة الدينية والدولة العثمانية

---

(1) محمد عمارة: الاعمال الكاملة (مبارك) ص٢٤٢ (ان المملوكية والعثمانية لم تكن هي التي قسمت البشر على اسس دينية لان ذلك حصل منذ ان وجدت الاديان ولم تكن هي التي اسقطت الحدود والقوميات في المنطقة وانما الاسلام هو الذي اسقطها عندما جعل المسلمين سواسية بغض النظر عن كل ذلك. والعجب كل العجب انه عندما يدعو الاسلام الى ازالة التعصب الاقليمي والقومي الخ يكون رجعيا ومتخلفا وتكون الوطنية الاقليمية والقومية الخ. هي الصورة الجديدة وطورالعصر الحديث! اما عندما تدعو البدع العالمية مثل الفابية والشيوعية الخ الى العالمية وازالة هذه الحدود تكون الدعوة في منتهى التقدمية والحداثة والتطور ويكون غيرها هو الرجعية والتخلف!!!!

بل العكس فقد اتخذ الدين والتعلق بالرابطة الاسلامية والدولة العثمانية مصدرا لقوة يستند اليها في دعوته فهو وان كان حديثه في الوطنية مستمدا من الافكار الغربية الاانه لم يكن يرى (حرجا من التمسك بالرابطة العثمانية في دعوته للوطنية) بل لقد هاجم دعاة القومية العربية الذين طالبوا بالانفصال عن الدولة العثمانية [1].

والطهطاوي بدعوته للوطنية اكد على وجود ولائين كما يذكر البرت حوراني (واحد تجاه من يدينون بالدين الواحد، والآخر تجاه المواطنين واعتبر ان من البديهي بقاء سيطرة الشريعة في الدول المصرية...)[2] وكذلك فعل النديم في كتاباته للوطنية اذ قال (يا بني مصر... ليعمد المسلم منكم الى اخيه المسلم تأليفا للعصبية الدينية وليرجع الاثنان الى القبطي والاسرائيلي تأييدا للجامعة الوطنية...)[3]. وعلى اية حال فان الايمان العميق بالاسلام وبالانتماء الى الامة الاسلامية والدولة الاسلامية (العثمانية آنذاك) من جهة وانتشار الفكر الاوربي بما فيه من مفاهيم ومنها مفاهيم القومية والوطنية، ختمها الاصلاح الديني بختمه شهادة منه على صلاحيتها وعدم تعارضها مع الاسلام!!! من جهة اخرى، شوش الرؤية عند المسلمين من الدعاة الاوائل، بعكس الدعاة من غير المسلمين والذين كانوا على بيّنة من امرهم. ولذلك نجد البرت حوراني يقول ان فكرة-الوطن- الفرنسية انتصرت في مصر... على يد الشباب من تلامذة الافغاني من بينهم يهودي مصري هو جيمس صنوع ومسيحي سوري لعب دورا قصيرا مهما في السنوات التي انتهت بالاحتلال في ١٨٨٢، هو اديب اسحق... والذي لم تكن اهميته ناجمة عن تأثيره السياسي المباشر بقدر ما كانت ناجمة عن نقله الى القراء المصريين بعض الافكار التي استمدها من تربيته الفرنسية. اذ كانت فكرة المجتمع السياسي القائم على تضامن غيرالتضامن الديني،

---

(١) علي محافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب ص١٢٦

(٢) البرت حوراني: الفكر العربي... ص٢٣٥

(٣) عبدالعزيز الدوري: التكوين التاريخي للامة ص١٤٦

تحتل مكانا رئيسيا في تفكيره[١]. وقد اكد سليم نقاش ايضا مسألة مصر للمصريين التي بدأ الدعوة اليها حزب الافغاني، الوطني الحر. بعيدا عن اية اعتبارات اخرى فذهب الى (ان الوطنية لا توجد الا في الوطن المستقل الذي لا تتحكم فيه دولة اخرى) واكد على (اثر المصلحة المشتركة والتاريخ المشترك والثقافة المتمثلة في وحدة العادات والتقاليد في تكوين الشعور الوطني) كما اكد على ان (الرابطة الوطنية تتغلب على ما عداها من الروابط وخاصة الرابطة الطبقية... فالعظيم والحقير والصغير والكبير والرئيس والمرؤوس كل منهم يسعى في خدمة بلده)[٢].

وتطورت بعد ذلك فكرة الوطنية الاقليمية على يد اعضاء حزب الامة-وهو حزب الامام كما سماه كرومر- الذين كانوا في غالبيتهم من تلامذة عبده. ورغم ان كل من الحزب الوطني الذي يتزعمه مصطفى كامل وحزب الامة كما يؤكد الكتاب (متأثرا تأثرا واضحا بالتفكير الاوربي)[٣] الا انهما اختلفا وعارض احدهما الآخر معارضة شديدة، ففي الوقت الذي كان فيه الحزب الوطني يقيم (دعوته الجديدة الى الوطنية والى القومية المصرية على اساس من الدين ومن الدعوة الى التضامن بين الامم الاسلامية والتمسك بمعاهدة سنة ١٨٤٠ التي تمنح مصر استقلالا داخليا وتعترف بالسيادة التركية)[٤] كان حزب الامة يقيم الجامعة المصرية على اساس من المصالح المشتركة فيتحدث (عن الوطن حديث العقل والمصلحة... وهو لا يتغنى بالوطن المحبوب ولكنه يتحدث عن النفع المادي والمصلحة المشتركة بين ساكنيه...)[٥] بعيدا عن الدين والقومية معا وكان لطفي السيد على رأس دعاته والذي

---

(١) البرت حوراني: الفكر العربي... ص٢٣٧

(٢) سعيد اسماعيل: الفكر العربي الحديث ص٢٥٠

(٣) ذات المصدر ص٢٤٨

(٤) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص١٠٦ جـ١

(٥) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٢٤٨

كتب فيما كتب مقالة في جريدة-الجريدة- بتاريخ ١٩١١/٨/٣٠ ينكر فيها وجود المسألة العربية ويقول ان (العرب اكثرية في الدولة العثمانية. لذلك لا نستطيع ان نفهم وجود مسألة عربية تستاهل النظر في حلها... ليس هناك مسألة عربية ولكن هناك قلقا في نفوس كثير من العرب. نقول ان كان للمسألة العربية محل في الوجود فان وجودها الآن سابق للاوان جدا... ولئن كان للمسألة العربية ظل من الوجود فحلها بيد العثمانيين من غير مضارة احد...)[١].

وكان سعد زغلول يتحدث باستخفاف عن اهمية البلاد العربية، ونقل عنه قوله ان قوة كل بلد عربي توازي صفرا وان لا فائدة من الجمع بين صفر وآخر...)[٢] مع انه كان يحث العرب المتوادجدين في مصر على الثورة من اجل الجامعة العربية والتعاون مع بريطانيا في حربها ضد الدولة العثمانية من اجل ذلك!!!!

واكد طه حسين مسألة الوطنية الاقليمية بعيدا عن الدين والقومية مدعيا انه مبدأ اسلامي اذ قال: (ان المسلمين قد فطنوا منذ عهد بعيد الى اصل من اصول الحياة الحديثة وهو: ان السياسة شيء والدين شيء آخر، وان نظام الحكم وتكوين الدولة انما يقومان على المنافع العملية، قبل ان يقومان على شيء آخر. وهذا التصور هو الذي تقوم عليه الحياة الحديثة في اوربا فقد تخففت اوربا من اعباء القرون الوسطى واقامت سياستها على المنافع الزمانية لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والاجناس...)[٣].

وهكذا نجد ان الوطنية الاقليمية مثل القومية العربية، هي علمانية ومنفعية تقوم على المصالح المشتركة، واوربية المنشأ فالطهطاوي اول الدعاة كما يؤكد الكتاب كان قد استمد (الافكار الحديثة في الوطنية من المفكرين الغربيين والفرنسيين منهم

---

(١) عبدالرحمن البزاز: بحوث في القومية ص٤١٣

(٢) مجيد خدوري: عرب معاصرون ص٩٧

(٣) محمد البهي عن (مستقبل الثقافة) الفكر الاسلامي الحديث ص١٧٠

بشكل خاص... وتطورت فكرة الطهطاوي هذه حتى اصبحت دعوة شعبية-كـذا!- شعارها مصر للمصريين... نادى بها الصحفيان اديب اسحق وسليم نقاش ورهج بها الصحفي اليهودي ابو نظارة...)[1] وحزب مصطفى كامل الوطني كان متأثرا باوربا الى حد التقليد، فقد ترجم الغاياتي مثلا بعض قطع المارسليز-نشيد الثورة الفرنسية- واختار ما يناسب ظروف مصر في ذلك الحين. ثم قدم ترجمته لنشيدين فرنسيين آخرين هما (فرنسا) و (الوطن) واختتم المقدمة بقوله: (فحيا الله فرنسا. فقد افاضت على الامم من معين الحرية عذباً زلالاً، وجاهدت في سبيل الوطن جهاداً وعت القلوب ذكره واشربت النفوس حبه، فعسى ان نكون على آثارها مهتدين وعلى منوال شعرائها ناسجين، حتى نغدو بنصر الله فائزين والله مع الصابرين)[2].

وقد اكد عبدالعزيز جاويش ان الوطنية هذه من الفكر الاوربي الوافد فقال: (ان الشعور بالوطنية اصطلاح افرنكي انتقلت بذوره الى الشرق من مطاوي العلوم العصرية واحوال المدنية الحديثة التي اهتدى اليها اهل الغرب)[3].

وقد دعم كرومر والاحتلال انكليزي هذا التوجه الوطني حتى ان كرومر قال في توديع الدون غورست سنة ١٩٠٤ مثنيا عليه (ان السير الدون غورست من الفئة الصغرى من اولئك الاوربيين الذين قضوا الاعوام والسنين، وهم ينفذون السياسة التي شعارها مصر للمصريين...)[4] ولم يكن تأكيد دول اوربا على مسألة كون لبنان فينيقيا والعراق اشوري او بابلي ومصر فرعونية، كما لم تكن فكرة حضارة البحر الابيض المتوسط والتي تبناها الكثيرون في مصر ولبنان بشكل خاص الا

---

(١) علي محافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب ص١٢٣ (ان ابو نظارة هو اسم الجريدة التي صدرت في القاهرة ثم في باريس لصاحبها اليهودي يعقوب صنوع، وليس اسم شخص!!)

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص٨٦

(٣) ذات المصدر ص٨٩

(٤) ذات المصدر جـ١ ص١٠٧-١٠٨

جزءا من مخطط الهدم للجامعة العربية التي كانت قد شجعتها هذه الدول من اجل تفتيت الجامعة الاسلامية. حتى البعثات الاوربية الاثرية لم يكن يغيب عن اهدافها غرس التجزئة عن طريق الاعتزاز بالمنتجات الحضارية القديمة لهذا القطر او ذاك والتي يمكن ان تتحول بالتدريج الى مشاعر وطنية اقليمية تكرس التجزئة هذه.

وانتشر مفهوم الوطنية الاقليمية هذه من مصر الى الدول العربية التي نشأت بعد الحرب العالمية الاولى والاحتلال الاجنبي للبلاد العربية. وقد ساعدت دول الاحتلال والاستعمار على انتشارها وذلك بدعمها وتأييدها لتخدم اغراضها في التعامل مع كل دولة على حدة ولمواجهة مطالب اصحاب الثورة العربية ودعاة الجامعة العربية هذا غير دور الضعف الانساني المتمثل بالانانية وحب العلو في الارض والتنافس على تحقيق المكاسب والمصالح والتي هي الاخرى ساعدت على انتشار الاقليمية وضيقت على المد القومي وعلى دعوة الجامعة العربية ومن الامثلة على ذلك كما يذكر سليمان موسى (ان الامير عبدالله كان ينظر الى الاردن لا كبلد منفصل عن غيره من البلاد العربية بل كقاعدة للانطلاق من اجل تحقيق الوحدة-العربية- لا فرق عنده بين اردني وسوري وفلسطيني وحجازي كل هؤلاء عنده عرب وكفى. ولكن الاردنيين اخذوا يتلفتون الى وضعهم في الداخل ويريدون ان تكون لهم مشاركة فعلية في تسيير شؤون الدولة ويرون ان الاستقلاليين لا هم لهم الا مقاومة الوجود الفرنسي في سوريا، حتى لو ادى ذلك الى الحاق الضرر بالاردن والاردنيين...) فبدأوا المعارضة وشكلوا الاحزاب (وبرز حزب الشعب بصورة خاصة، وقد تمثلت فيه خصوصية المطالبة بامور اردنية محضة... ثم كانت حركة الاردن للاردنيين التي نشأت كرد فعل لمحاولة الناس القادمين من خارج الاردن الاستئثار بالمناصب في الحكومة...) وذكر الكاتب ايضا ان (من المفارقات ان اركان هذا الحزب بعد ان حل تفرقوا ومضى عدد منهم الى دمشق)[(١)]!! وهكذا حدث

---

(١) جريدة الدستور الاردنية ١٩٨٧/٩/١٧ (انظر اتساق دعوة الاردن للاردنيين مع دعوة مصر للمصريين التي رعاها غورست وتبناها الافغاني واديب اسحق الخ!!

ويحدث في بلاد اخرى من الوطن العربي.

وقد كان لوجود قوميات اخرى غير عربية دورا في انتشار الوطنية الاقليمية وفي تكريس التجزئة مقابل الجامعة العربية الواحدة. وقد ذكر مجيد خدوري هذا الامر فقال:

(ففي بلدان كالعراق ولبنان والسودان حيث تعيش اقليات، لم يسيطر الولاء للقومية على المشاعر الطائفية الضيقة. ومع ان الفئات الحاكمة تشدد على فكرة القومية، فان هذه الفكرة لم تخترق الجماهير لتحل محل الولاءات الدينية والطائفية. وتصبح المشكل اكثر تعقيدا في البلدان التي تسكنها اقليات قومية كالاكراد في العراق. وذلك لان التشديد على القومية العربية قد يخفف من الطائفية لكنه يزيد من حدة الصراع بين القوميتين العربية والكردية وقد تردد حكام العراق بين فكرة القومية العربية الواسعة وفكرة القومية العراقية الضيقة لان الاكراد عارضوا الفكرة الاولى بقوة. اما الفكرة الثانية، فرغم انها توفق بين الاكراد والعرب الا انها لا تستطيع في الارجح ان تتغلب على المشاعر الطائفية)[١].

وهكذا اسهمت الوطنية الاقليمية على هدم الجامعة القومية العربية وعلى الطموحات في اقامة الدولة العربية الواحدة كما اسهمت الدعوتان الاقليمية والجامعة العربية في هدم الجامعة الاسلامية، حتى صار الحال على ما هو عليه اليوم، الكل ينادي بان (الشيء الوحيد الذي يمكن ان يقوم عليه تنظيم المجتمع في العصر الحديث هو الانتماء القومي)[٢] وان (الوحدة العربية قانون طبيعي يقوم على مقومات ومشاهدات وحقائق يثبتها التاريخ العربي والتاريخ الاسلامي على السواء)[٣] وان (الطبيعي هو الوحدة رغم عدم تحقيقها وغير الطبيعي هو التجزئة رغم وجودها...

---

(١) مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي ص٦٤

(٢) جورج قرم مقالة في المنتدى العدد ١٦ يناير ,١٩٨٧

(٣) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٣٠

الاولى هي الصحة والثانية هي المرض...)[1] الا ان الوحدة لم تتحق وصار التأكيد، هنا وهناك، على الاقليمية وايجاد المبررات لها ليس فقط مقبولا وانما جزءاً من الواقعية والعقلانية التي يتطلبها العصر والعصروية! تلاقي الاستحسان والاشادة بها. مما يجعل المرء يتساءل ماذا كانت الحصيلة من هدم الجامعة الاسلامية؟ وماذا كانت الحصيلة من تشتيت الجامعة القومية وتكريس التجزئة والاقليمية؟ ولمصلحة من كان كل ذلك؟

كتبت صحيفة الجريدة التي يرأسها لطفي السيد ترد على من اتهمها بانها انشئت بوحي من كرومر تؤكد انها تسعى الى توحيد الرأي العام فقالت مؤكدة على اهمية وحدة الرأي او تقاربه على الاقل من اجل الوحدة السياسية: (لا يكون اهل الوطن الواحد امة الا اذا ضاقت دائرة الفروق بين افرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم. وان اظهر المشابهات في حال الامة السياسي وهو التشابه في الرأي بين الافراد وهذا ما يسمونه الرأي العام)[2]. وقال رفيق العظم مؤكدا ذات الامر (ان انقياد الجميع لرأي واحد وتجاوزهم للتوزع في الرأي، ولتباين الاحزاب شرط... لتفادي انحلال عرى الوفاق)[3] ومن اجل هذه الوحدة واهميتها دعى دعاة القومية الى العلمانية وفصل الدين عنها كما مر ذكره، وزالت الجامعة الاسلامية وعزل السلطان عبدالحميد وسادت القومية العلمانية البلاد العربية فهل يا ترى ضاقت دائرة الفروق والخلافات؟ وهل حدث تشابه في الرأي وتجاوزوا توزع الرأي وتباين الاحزاب؟ ام العكس فانقسم الرأي الى اراء متفرقة ومتعارضة ومتنافسة وانقسم الحزب القومي الى احزاب واحزاب وكل منها انقسم الى فروع وهكذا!! وكل منها يدّعي لنفسه الفضل في نشر الوعي القومي ونشرالفكر القومي الوحدوي والتحوري

---

(١) ذات المصدر

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص٩٨ جـ١

(٣) فهمي جدعان اسس التقدم ص٣٩٣

والتقدمي الخ... ويتهم الآخر بالتقصير والانعزالية الخ...

وقال عبدالحميد الزهراوي لمراسل جريدة تمب Temps الفرنسية (ان الرابطة الدينية عجزت دائما عن ايجاد الوحدة السياسية وانا لا ارجع الى التاريخ لابرهن على هذا بل حسبي ما لدينا الآن من الشواهد الحاضرة. انظر الحكومتين العثمانية والفارسية كيف لم تقو رابطتها الدينية على ازالة خلاف بسيط بينهما وهو الاختلاف المتعلق بالحدود. العاطفة الاسلامية لم تقدر مرة من المرات ان تحمل اميرا مسلما على التنازل عن حقوقه لامير آخرمن المتدينين بدينه حتى لو كان هذا خليفة)[1] وبغض النظر عن مدى صحة ذلك ولكن السؤال هل يا ترى استطاعت الدول القومية العربية المتحررة جدا من العاطفة الدينية من حل مشكلات الحدود فيما بينها؟!! وهل تنازل امير او حاكم ايا كان عن سلطته لآخر؟ وليس عن حقوقه!!! وهل منعت الرابطة القومية احدهم من التحريض على الآخر والتآمر عليه وحتى غزوه بشكل مباشر او غير مباشر؟!! واحيانا بالتواطوء مع الدول الاجنبية! الم يخطر ببال المفكرين! النهضويين ان هذا هو امر يستدعي التمسك بالعقيدة الدينية اكثر لانه ان لم يستطع الدين بما فيه من ايمان اولا وثواب وعقاب ثانيا من تهذيب هذه النزعات الى السلطة والتسلط فلن يستطيع غيره ذلك؟! ماذا حققت الدعوات القومية والعالمية والاقليمية المتضادة المتنافسة مع بعضها البعض والتي ما وجدت احداها الا لتشتيت الاخرى وهدمها؟ ماذا حققت غير جدل عقيم وتفرق مزري شغل الامة وفرق شملها واخضعها للسيطرة الاستعمارية؟ الآن وبعد ما لا يقل عن مائة عام يختلف ابناء الامة على ذات ما اختلفوا عليه آنذاك ويتصارعون على ذات ما تصارعوا عليه آنذاك ومحور كل ذلك الاسلام والقومية والعلمانية والوحدة والاقليمية والانفتاح او الانغلاق عن التراث او عن الحضارة الغربية او التبعية لها. مما جعل جابر قباني يدعو في مقالة له الى (الحوار لافتح النار) اذ قال:

---

(١) علي محافظة الاتجاهات الفكرية... ص١٥٢ (الزهراوي سوري اعدم عام ١٩١٦ لتواطئه مع الدول الاوربية، فرنسا وانكلترا وتآمره على الدولة العثمانية.

يخطئ من يتوهم ان التيار الاسلامي الذي انبثق من ظروف العجز واليأس والانهزام العربي، هو النقيض او البديل للتيار القومي... ويخطئ من يتصور ان للقوميين العرب مصلحة في غياب المد الاسلامي او انطفاء هذه الصحوة المباركة. ذلك لانها لم تقم اصلا الا كرديف نضال واضافة شعبية وعون حقيقي لانجاز ما فشل التيار القومي في تحقيقه وحده ازاء تحالف قوى الصهيونية والامبريالية والاستعمار الغاشمة والشديدة الحقد على العروبة والاسلام سواء بسوا. وبعد...ندعو للحوار وليس فتح النار بين القوميين والاسلاميين ونثق بان عناصر الوفاق بينهم اكثر من عوامل الخلاف والافتراق)[1]. ولم يقتصر فتح النار على الاسلاميين والقوميين وانما هو حاصل بين كل الفئات حتى ضمن الحزب الواحد، مما يجعل المرء يتساءل الم يحفز كل ما نراه حولنا مما لا يطمئن ولا يسر، المفكرين العرب على اعادة النظر في اسس ومقومات الحركة القومية والجامعة العربية وازالة كل ما شاب هذه الاسس والموقومات من معوقات ادت الى عجزها في تحقيق طموحات الامة في الوحدة والعزة والكرامة، واعادة بنائها على اسس قويمة تحقق لها قبولا اكثر وقدرة اكبر على تحقيق اهدافها بدلا من مداومة السير في ذات الطريق وبدلا من المطالبة بالمزيد من العلمانية التي لم تحقق الا التبعية للغرب وللحضارة الغربية؟!! كما فعل عبدالرحمن منيف-مفكر عربي- اذ قال في بحث بعنوان (القومية والهوية والثورة العربية) المقدم لندوة الحركة التقدمية العربية (ان التيارات السلفية الاسلامية والمسيحية ما ظهرت لولا تراجع النضال وعجز الحركة) لان (ظهور التيارات المذهبية والطائفية وقوتها يتناسب تناسبا عكسيا مع ظهور التيار الوطني القومي، فحين يقوى الاخير وفي ظل المعارك الوطنية الحقيقية فان التيارات المذهبية والطائفية تتراجع وتضعف.اما في حالة غياب هذه المعارك وفي حالة اقتسام المغانم او الحفاظ على الامتيازات،ولان الحركة القومية العربية لم تصهر الجميع بالمقدار نفسه ولان النهج العلماني في الحركة القومية ذاتها ليس من القوة والوضوح

---

[1] المنتدى: اكتوبر ١٩٨٧

بالقدر الكافي، فان التيارات المذهبية والطائفية تقوى وتشتد...) ولهذا فان العلاج كما يراه هو (وجود معارك ومهمات حقيقية وسيادة الاتجاه العلماني...)[1]!!

ان عجز الحركة القومية الذي بات يتكلم عنه الكل ويقترح لعلاجه الاقتراحات! لم يقتصر على هذه الدعوة النهضوية التي دعا اليها رواد النهضة، ولا يزالوا يدعون، وانما شمل العجز هذا كل ما دعا اليه هؤلاء الرواد من الحرية والديمقراطية والاشتراكية والثورية والعلمانية مما يجعل المرء يقف امام السؤال مرة اخرى لماذا؟ وما هي السمات التي سادت فكر النهضة حتى آل الحال الى ما آل اليه اليوم من عجز يكاد يجمع الناس عليه؟ والسمات التي سادت فكر مفكري النهضة وادت الى هذا العجز في كل ما دعوا اليه كما اراها هي:

١. الانبهار
٢. التقليد
٣. التناقض
٤. اللاعقلانية
٥. السطحية
٦. غياب المعيار
٧. اللامسؤولية
٨. الغرور والاستعلاء

وهي الامور التي سيتناولها الفصل التالي.

---

[1] المنتدى: العدد ٧ السنة الثانية شباط/ فبراير ١٩٨٧



الباب الثالث

فكر النهضة في قفص الاتهام



الفصل الاول
سمات الفكر النهضوي

الانبهار

ان ما يبدو واضحا في كتابات المفكرين النهضويين بشكل عام، الأوائل منهم والأواخر، هو الانبهار الشديد بأوربا-الغرب اليوم- انبهارا يعمي البصيرة ولا يسمح الا برؤية ضيقة لذلك الجانب البراق الطاغي على كل ما حوله. ومنهم من يعترف بهذا الأنبهار الذي كاد ان يفقدهم بصيرتهم مثل توفيق الحكيم الذي قال عندما ذهب الى اوربا وتعرف على حضارتها ان (الذي حدث في عقلي كان شيئاً مخيفا فكأني فتحت نافذة في رأسي هب منها اعصار هائل...)[1] اما سلامة موسى فيقول: (احسست كأني اريد أن أنسى عن ظهر قلب كل ما تعلمت وأن أمسح لوحة ذهني كي أنقش فيها المعارف التي أختارها بنفسي...)[2] ومن لم يعترف صراحة بهذا الانبهار فان كتاباته وسلوكه يدل عليه مثل الطهطاوي، الذي يعتبره البعض اول المتأوربين والذي كتب اول كتبه تخليص الإبريز في تلخيص باريز بانبهار شديد جعل كل كلمة فيه تقول: هذا هو النموذج الأوربي-الفرنسي بشكل خاص- الذي يجب ان يتبع، فاتبعوه، مع انه لم يكن قد عرف من اوربا الا فرنسا ولم يعرف من فرنسا الا باريس لانه كمبعوث لم يكن مسموحا له التجول في فرنسا اذ كان محمد علي قد منعهم من ذلك (وحين سأله بعض المبعوثين ان يسمح لهم بجولة ليتعرفوا

---

(1) سعيد اسماعيل علي: الفكر التربوي العربي الحديث ص٤٩

(2) ذات المصدر ص١٧٨

على الحياة الفرنسية رفض في حزم صارم ان يجيبهم الى ما يطلبون)[1]. وفرنسا هي ليست باريس وحدها والفرنسيون ليسوا الباريسيون فقط، هذا غير انه لم يعرف باريس الا كطالب علم غريب يجهل لغة البلاد في اول امره، حركته محسوبة عليه، قبله الفرنسيون للدراسة فيها لتحقيق غرض اكده لهم استاذهم في اول لقاء لهم معه كما يؤكد الطهطاوي نفسه وهو ان يتشرب الفكر الفرنسي ليكون داعية له بعد ذلك. ولو اخذنا بنظر الاعتبار طبيعة الفرنسيين المتعالية على الاغراب حتى من كانوا من الاوربيين المساوين لهم بالتمدن-فكيف بالازهري المسلم القادم من بلاد التخلف والهمجية!!- لوجدنا ان الطهطاوي ما كان له مطلقا ان يتعرف على الحياة في فرنسا بشكل يمكّنه من ان يعطي صورة ولو قريبة من الواقع المعاش فعلا، وهو ما اكده له استاذه عندما عرض عليه كتابه هذا. ومن يعرف باريس فقط كما اكد مالك بن نبي بعد ذلك (لا يعرف فرنسا ذات الوجه الملمع الموضب، الذي مر بكل عمليات التجميل...) فهي (حياة مضطربة ومصطنعة ولاتعطي صورة صحيحة عن الحضارة الغربية)[2] ولهذا فهو لم يكتب الا ما تصوره عقله المبهور انه موجود. وحتى مشاهداته الحسية لم يستطع عقله المبهور ان يتعامل معها بالتحليل والمناقشة. ففي الوقت الذي كان يكتب مادحا ثقافة الفرنسيين وميلهم الطبيعي، نتيجة التمدن الى الحرية والمساواة والعدالة، وداعيا المصريين الى استقدام الاجانب هؤلاء الى مصر لتمدينها، لم يَرَ عقله المبهور ما كان أهل الجزائر يعانونه على ايدي الفرنسيين المتمدنين! من وحشية في محاربتهم واعتدائهم على بلادهم، الجزائر، وعلى حريتهم ومقدساتهم وممتلكاتهم[3]. وعندما انبهر (بدكاكين الكتبية) لم يَرَ ما وراء تجارة الكتب من اجل الكسب المادي لا غير ما يستحق المناقشة والنقد، خاصة وهو الأزهري المسلم والذي يعرف مدى كراهية الاسلام للمتاجرة بالعلم بل قال: (ومما

---

(1) محمد محمد حسين: الاسلام والحضارة الغربية ص١٦

(٢) مالك بن نبي: الطالب ص٩٩

(٣) جرجي زيدان: بناة النهضة العربية ص١١-١٩

يبهر العقول في باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم وتجارات الكتب فانها من التجارات الرابحة مع كثرتها، وكثرة المطابع، وكثرة التآليف التي تنطبع كل سنة، فانها يعسر حصرها واغلبها المقصود منه الكسب لا النفع، ولا تمر سنة بمدينة باريس الا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير...)[1].

اما عن المسرح والذي اسماه التياتر او السبكتاكل فيقول: (ومن العجائب انهم في اللعب يقولون مسائل من العلوم الغربية والمسائل المشكلة، ويتعمقون في ذلك وقت اللعب، حتى يظن انهم من العلماء، حتى الاولاد الصغار التي تلعب تذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيات ونحوها)[2]. ورغم انه عاش احداث الاضطرابات والمصادمات بين الملكيين والجمهوريين والتي فيها انتهكت الحريات واستبيحت الارواح والممتلكات بوحشية يدينها المؤرخون حتى من الفرنسيين انفسهم الا انه لا يعتبر ذلك امرا مخالفا لما يدعونه من حرية واخاء ومساواة او حتى يستحق منه الادانه او النقد بل يذكر بعض الحوادث منها وكانها انجازات عظيمة مثل التشهير بالملك المعزول وشرعية ابنه او مثل الاعتداء على مطران الكنيسة الفرنسيةاذ يقول: (فلما وقعت الفتنة كسر الفرنساوية بيت المطران، بعد هروبه، وخربوه وافسدوا جميع ما فيه، حتى ان تخفى ولم يعلم له اثر، ثم ظهر واختفى ثانية وهجم على بيته ثانيا، ولا زال مذموما مخذولا)[3] ورغم انه لم يتعرف الا على فرنسا من دول اوربا الا انه يقول (انه لا يوجد من حكماء الافرنج من يضاهي حكماء باريس. بل ولا في الحكماء المتقدمين)[4] مما يعبر عن مدى انبهاره.

ولانبهار التونسي (خيرالدين) بالتنظيمات الاوربية لم يناقشها وهو السياسي

---

(١) الاعمال الكاملة جـ٢ ص١٧٢

(٢) الاعمال الكاملة، الطهطاوي، جـ٢ ص١٢٠

(٣) ذات المصدر ص٢٢٠

(٤) ذات المصدر

والصدر الاعظم! فليس في العالم نظام سياسي او تنظيم اداري يسمو عند ذوي الالباب عن النقد والمناقشة. الا انه لم يناقشها حتى من حيث ملاءمتها للمجتمع الاسلامي المختلف تماما عن ذلك المجتمع الاوربي الذي وجدت هذه النظم لخدمته وحل مشكلاته وليس لحل مشكلات الآخرين. بل كان كل همه عرض النماذج الاوربية كاي تاجر غير امين يعرض بضاعته المستوردة على المشترين يكيل لها المديح بالاطنان لتحسينها في اعينهم من غير التنبيه الى مساوئها ونقاط ضعفها مع انها كثيرة، مما لا يدع فرصة للمشترين للتفكير او التفحص للبضاعة. فهو من اوائل الذين نشروا الفكرة الاوربية التعجيزية التي تجعل من الحضارة الغربية سيلا جارفا لا يمكن الوقوف في وجهه اذ قال: (سمعت من بعض اعيان اوربا ما معناه ان التمدن الاوربي تدفق سيله في الارض لا يعارضه شيء الا استطالته قوة تياره المتتابع فيخشى على الممالك المجاورة لاوربا من ذلك التيار الا اذا حذوا حذوه وجروا مجراه من التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق وهذا التمثيل المحزن لمحب الوطن مما يصدقه العيان والتجربة...)[1] ولذلك اسهب في شرح التنظيمات الاوربية لاجل ان (نتخير منها ما يكون بحالنا لائقا ولنصوص شريعتنا مساعداً وموافقا. عسى ان نسترجع منه ما اخذ من ايدينا ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا)[2] وكأن اصلاح حالنا واسترجاع مجدنا لا يمكن ان يحصل بالعودة الى اصولنا التي اوصلتنا فيما مضى الى ذلك والتي فرطنا فيها، مباشرة ولا باعمال عقولنا لايجاد تنظيمات تناسب مجتمعاتنا المختلفة عن المجتمعات الاوربية. وانما كل ذلك لا يكون في نظر التونسي الا باخذه بطريقة التقليد والاتباع عن طريق اوربا واتباع انظمتها التي ما وجدت الا لخدمة مجتمعاتها.

وانبهار قاسم امين بقوة الغرب البخارية جعلهم في نظره اسمى من أن يخطئوا في أي مجال كان اذ يقول: (ان الاوربيين الذين اكتشفوا قوة البخار والكهرباء

---

(١) خيري الدين التونسي: اقوم المسالك في معرفة الممالك ص٥

(٢) ذات المصدر ص٤

واستخدموها ووصلوا الى ما وصلوا اليه من التقدم لو عرفوا ان في الحجاب فائدة لم يتركوا نساءهم بدون حجاب وهم لا بد ان يعرفوا كيف يصونوا نساءهم...)[1] وهو لانبهاره بالحضارة الاوربية القديمة والحديثة، اختلطت في ذهنه الصورة فلم يعد يستطيع رؤية غيرها. فالحضارة الاسلامية في نظره وعبر عصورها لم يكن فيها أي من المقومات الاساسية فليس فيها نظام حكم ولا نظام اسرة ولا نظام عقوبات الخ... اذ يقول: (اننا مهما دققنا البحث في التاريخ لا نجد عند اهل تلك العصورة ما يستحق ان يسمى نظاما. فان شكل حكوماتهم كان عبارة عن خليفة او سلطان مقيد بحكم بواسطة موظفين غير مقيدين...[2] ومن الغريب ان المسلمين في جميع ازمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الامة اليونانية ولم يتوصلوا الى ما وصلت اليه الامة الرومانية من جهة النظامات اللازمة لحفظ مصالح الامة وحريتها فقد كان لتلك الامم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم في ادارة شؤونها... واغرب من هذا ان امراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا في وضع قانون يبين الاعمال التي وجدوا انها تستحق العقاب...) ثم يقول: (اين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التي وضعها الاوربيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الاهلية. بل اين هي من القوانين اليونانية والرومانية التي لم تغفل في جميع ادوارها عن اهمية العائلة...)[3] وبذلك اضاف الى انبهاره جهله بامور دينه وتراث امته وهو الازهري المحسوب على المتعلمين. اما سلامة موسى، داعية المساواة والديمقراطية والعالمية! فهو لانبهاره يرى ان المصري (يكتسب اذا تزوج من الاوربيين ولكنه ينحط كل الانحطاط اذا مزج دمه بدم الزنوج) ويدعو للزواج من الاوربيين فيقول (وفي مصر اليوم نحو ربع مليون اوربي لو اندغموا في جسم الامة لاكتسبنا بهم

---

(١) قاسم امين: تحرير المرأة ص١١٠

(٢) اليس هذا هو نظام بحد ذاته بغض النظر عن محاسنه وهي نسبية!!؟

(٣) قاسم امين: المرأة الجديدة ص١٧٦-١٨٠

نشاطا وذكاءا وجمالا وهم ليسوا اجانب عنا الا في اللغة لاننا آريـــون مثلـــهم)[١]. وهكذا كان حال معظم من دعا الامة الى قبول الحضارة الاوربية واقتباسها.

ولو تركنا الاوائل من عصر النهضة ونظرنا الى اعمال الاواخر مـــن دعـــاة التغريب لوجدناهم تلامذة نجباء لهولاء الاوائـــل، مخلصيـــن وعلـــى ذات الـــدرب يسيرون في الانبهار بالحضارة الاوربية وغزو العقل العربي وغرس هذا الانبـــهار فيه. فالقارئ المدقق لكتابات المعاصرين يجد فيها ذات الانبهار بالغرب معروضـــا بذات الاسلوب لتحقيق ذات الاهداف والتي تتمثل بهدم الـــذات وتحقيـــق التغريـــب والتبعية للغرب. فلو قرأ القارئ اليوم على سبيل المثال لا الحصر كتـــاب تحديـــث العقل العربي لحسن صعب لوجده عرضا لنماذج مختلفة مـــن الانظمـــة الاجنبيـــة معروضة بذات الاسلوب الذي عرض فيه خيري الدين التونسي بضاعته من نمـــاذج الانظمة الاوربية قبل مائة عام. فكل نماذج البضاعة جيدة ومناسبة فاختار ما تشـــاء، المهم ان تشتري من هذه المستوردات[٢].

اما ما ابدعوه وزادوه على انبهار اساتذتهم الاوائل فهو انتقالهم بهذا الانبـــهار، بالاضافة للعام، بالخاص. فان كان هم الاوائل عرض منتجات الحضارة الاوربيـــة ككل من اجل قبول فكرتها قبل كل شيء فان الاواخر قد انتقلوا الى التركـــيز علـــى هذا النظام المعين او ذاك وهذه الفلسفة او الشخصية او تلك. وعلى سبيل المثال لـــو قرأ قارئ كتاب "ثقافتنا في مواجهة العصر" فلا اعتقد انه ســـيجد للعنـــوان علاقـــة بالمحتوى الا قليلا. اذ انه سوف لن يجد من ثقافتنا الا نتف متفرقـــة عـــن الـــتراث والفارابي واخوان الصفا! اما باقي الكتاب فيكاد يكون نشرة دعائية اعلانية لكل مـــن سارتر ورسل اللذين خصص الكاتب لكل منهما جزءا خاصا من كتابه هذا فيقـــول مثلا (تلك لمحة عن رسل الفيلسوف لعلها تضيء صورة في اذهان عامـــة القـــراء

---

(١) اليوم والغد ص٢٨-٢٩

(٢) انظر حسن صعب: تحديث العقل العربي

وهي الصورة المشرقة في حد ذاتها والتي تصور رجلا يسهم في رسالة السعادة والعدالة والسلام)[1]. وهكذا يستمر زكي نجيب في الدعاية لسارتر حتى انه يعتبر مجرد ترجمة عبد الرحمن بدوي لكتاب "سارتر" الوجود والعدم (عمل ضخم كان وحده يكفي ان يكون ثمرة حياة نشيطة) ثم يحدد زكي نجيب هدف بدوي من الترجمة لسارتر وهدفه هو ايضا من الكتابة عن سارتر بقوله: (وكأنما اراد بدوي ان يقول لنا-بهذا العمل المضني- اذا ارتم ان تربطوا تياركم الفكري بتيار العصر كله، فلا يكون ذلك بالثرثرة الخفيفة المخطوفة الخاطفة... وانما يكون بالرجوع الى الاسس والاصول وهاكم مني الاصل الاساسي)[2]!!! ويظهر انبهاره بسارتر بشكل اكثر وضوحا في قوله عندما قرأ في كتاب انيس منصور الكلمات التالية (...ان كل كاتب لا يتعذب عند رؤيته لطفل جائع هو كائن قد صفى حسابه مع ضميره. ان كل فلسفة لا تقاوم الجوع في العالم لا تساوي وزنها ورقا...) هتف زكي نجيب لنفسه قائلا: (هذا كاتب قد تدفقت السارترية في دمائه)[3]!!! مع العلم ان سارتر هذا لم يتألم للأطفال الفلسطينيين الجياع في المخيمات منذ اكثر من اربعين عاما، وهو يضع يده بيد الصهيونية ويؤيدها!!

ولم يقصر المعاصرون عملهم على الانبهار بالحضارة الاجنبية وغرس الانبهار في عقول الآخرين من ابناء الامة ونفوسهم وانما عملوا ايضا على ادامة الاصول الاولى للانبهار وذلك باسقاط انبهارهم بالحضارة الاوربية ومنتجاتها على المنبهرين الاوائل فجعلوا منهم اصناما يدعون الناس الى عبادتها، والعياذ بالله، بما يغدقون عليهم من صفات العبقرية والابداع مما لا يجده المرء في كتاباتهم. فلو نظر القارئ الى ما كتب "محمد عمارة" مثلا عن الطهطاوي لوجد ان الطهطاوي هو

---

(١) ص٢٦٨

(٢) ذات المصدر ص٢٣٢

(٣) ذات المصدر ص٢٣٣

صانع النهضة ليس نهضة مصر وحدها وانما النهضة العربية ككل، وليس النهضة العربية فقط وانما الحضارة العربية!!![*] إذ يقول في شرح ذلك: (ان ابوة الطهطاوي لحركة اليقظة العربية الحديثة وريادته لدرب الصحوة الوطنية والتنبيه القومي... وقيادته العقل العربي وارشاده كي يتخطى عصور الظلام–المملوكية العثمانية–... هي حقائق صلبة وعنيدة كما هي واضحة وبسيطة تطالعنا دائما، عندما ننظر في اعمال الرجل الفكرية التي ابدعها، والنوافذ الحضارية التي فتحها والآثار العلمية والفلسفية والادبية والتاريخية والجغرافية التي ترجمها، والجيل الذي صنعه كي ينهض معه بعبء صناعة الحضارة العربية والحديثة والمستترة...)[1]!! ولم يكن الطهطاوي ابا اليقظة العربية فقط في نظر محمد عمارة و (اول عين عربية تأملت في وعي عميق ومن موقع المحب الناقد حضارة الغرب الحديثة، متمثلة في حضارة الفرنسيين) بل هو ايضا ابو اللغة العربية وذلك لانه في معرض وصفه للثورة في فرنسا على الملك شارل سنة ١٨٣٠ وبلاغة خطبائها قال ان البلاغة الصحيحة هي ما فهمه العامة ورضيت به الخاصة) فيعلق محمد عمارة فيقول: ان هذا (التعريف الحديث، لا بد وان يكون تاريخ ميلاد جديد اكتسبه العقل العربي والذوق العربي في عصرنا الحديث)[2] مع ان مفهوم البلاغة هذا او ما يشابهه قد جاء في كتب التراث وليس فيه شيء من الحداثة! والطهطاوي ايضا هو (ابو الفكر الوطني في الوطن العربي على الاطلاق)[3] ودليل عمارة على ذلك قول الطهطاوي

(*) هل يمكن لرجل ايا كان علمه او جهله حكمته او سذاجته ان يبني نهضة او... حضارة!!! ما هي النهضة وما هي الحضارة حتى يبنيها رجل واحد او حتى رجال في عصر زمني واحد؟ لا عجب اذا اننا نبحث اليوم عن نهضة العرب الحديثة وحضارة العرب الحديثة فلا نجدهما من حولنا، ولا نجد سوى تقليد واغتراب وتبعية مقرفة!!!

(1) الاعمال الكاملة للطهطاوي جـ١ ص٩

(2) ذات المصدر ص١٠٨

(3) ذات المصدر ص١٢٣

يخاطب الجند:

يا ايهـــا الجنود	والقادة الاســـــود
إن احكم حســود	يقودها في المدفـــع
فكم لكــم حروب	بنصرهـــــا نؤوب
لم تثنكم خطــوب	ولا اقتحــــام مَعْمَعِ

فيعلق محمد عمارة على هذا الشعر!! فيقول: (فهل نغالي اذا قلنا ان رفاعة كان ابـــا الفكر الوطني في اللغة في عصرنا الحديث وانـــه اول رائـــد صـــاغ لـــهذا الفكـــر مصطلحاته)[1] مع ان ابا الوطنية وابا العلم هذا عندما اغلقت المدرسة التـــي كـــان يتولى التدريس فيها ونقل الى السودان للتدريس فيها لم نجد كلمـــة واحـــدة تنعـــي المدرسة او العلم في كتاباته وانما نجد استغاثة (واستعطافاً) بحسن باشا لنشله مـــن (اوحال تلك الاحوال) مع ان السودان، وطنه، كان يحتاج لخدمته وتعليمه، فما هـــي الوطنية في نظر النهوضويين؟ اهي كـــلام فـــارغ يمـــهد الطريـــق الـــى اعلـــى المناصب؟!!! اذ نجد الطهطاوي يمتدح الباشا مدحا كثيرا فيقول:

عَروف المعي لا يُـــــباريُ	بمضمار العلا طلق الجيـــــــــاد
بوافر فضله الركبـــــان سارت	وغنّـــى باسمه حـــاد وشـــــــاد
وقالــــــــــوا في معارفه مزيدٌ	فقلت: وفي الرياسة ذو انفـــــــراد
وفي الاحكام قالوا لايضاهـــــى	فقلـــــــــــــت: وذو تحرٍ واجتهاد
وقالوا فـــــــــي الذكاء له فقلنا	وثاقب ذهنــــــــــه وارى الزناد

وهكذا الى ان يقول:

---

[1] ذات المصدر ص١٣١

فيا حسن الفعال اغث اسيـــــــــرا   بسجن الزنج يحكي ذا القيـــــــاد[1]

ومن المفارقات ان الطهطاوي نفسه الذي وصفه عمارة بانـــه ابـو النهضــة المصرية وابو الجيش وابو الحضارة العربية واللغة العربية يؤكد ان النهضة فـــي مصر كانت قد بدأت قبله اذ يقول: (ولا يتأتى لإنسان ان ينكر ان الفنون والصنـــائع بمصر قد برعت الآن، بل وقد وجدت بعد ان لم تكن، فما انفقه صـــاحب الســعادة على ذلك كان في محله اتفاقا. فانظر الى الورش والمعامل والمـــدارس ونحوهـــا، وانظرالى ترتيب امر العساكر الجهادية فانه من احسن ما صنعه صاحب الســعادة، واحق ما يؤرخ في فعل الخيرات)[2] ومن المفارقات ايضا ان محمد عبده كما جـــاء في اعماله الكاملة لمحمد عمارة نفسه كتب يذم محمد علي وعقبه ويؤكد ان احـــوال مصر كلها على زمنه وزمن ابنائه واحفاده من بعد قد ساءت ممـــا ســـهل دخـــول الانكليز مصر (باسهل ما يدخل به دامرثم استقروا ولم توجد في البلاد نخـــوة فـــي رأس تثبت لهم ان في البلاد من يحامي عن استقلالها، وهو ضد ما رأينا عند دخول الفرنساويين الى مصر وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الاولى والموت الاخـــير...)[3] فاي من الادعاءات هذه سيصدق القارئ واين هو الحق وخاصة ان كان القارئ ممن قد سلب القدرة على التفكر وتصور هؤلاء جميعا قمماً في الوطنية والعلم والصـــدق والخلق والموضوعية وبعد النظر الخ...؟!! كما يصفهم ويعلق على اعمالهم محمـــد عمارة!!

ولم يقتصر تعامل محمد عمارة، المتسم بالانبهار والمبالغة الشديدة الـــى حـــد كسر رقبة الحقيقة! وليس ليّها فقط، على تعامله مع الطهطاوي بل ان تعامله مع كـــل الذين تعامل معهم من المفكرين الاوائل كان على ذات النمط. فقد كان تعاملـــه مـــع

---

(1) ذات المصدر ص٤٥٥-٤٥٦

(2) ذات المصدر ص١٨

(3) الاعمال الكاملة، محمد عبده، جـ١ ص٧٢٦-٧٢٧

اعمال كل من الافغاني وعبده وكل من حقق لهم، لا يختلف عن تعامله مع اعمال الطهطاوي، فكل ما قالوه او ما فعلوه وان كان باطلا صريحا لا يمكن الدفاع عنه فهو في نظره الحق الذي لولاه لما نزل مطر ولا نبت زرع، ولا كانت هناك حياة في ربوع مصر والعالم العربي والاسلامي!! ولذلك عاب عليه الدكتور "علي شلش" ما قام به من حذف وتغيير في اعمال كل من الافغاني وعبده حتى يظهرا بالمظهر الذي يريده لهما كزعماء للوطنية وللقومية وللاصلاح الديني والتجديد والتحديث في ذات الوقت. اذ يقول: (واذا كنا عبنا على "رشيد رضا" الحذف-بغير حق- من كتابات محمد عبده بدافع شخصي، في الغالب، هو الحب والاحترام او مخافة التعريض، فاننا نعيب على"محمد عمارة" حذفه ايضا-بغير حق- في كثير من النصوص التي نقلها من غيره، ولا سيما النصوص التي اوردها المخزومي في كتابه خاطرات السيد (جمال الدين الافغاني)[1]. وليس هنا مجال ذكر المبالغات في وصف كل من الافغاني وعبده مما ليس له اصل من حقيقة او واقع ومن تبرير كل ما فعلوه حتى وان كان باطلا وعلى رأس ذلك دفاعه عن ماسونيتهم التي دار حولها لغط شديد اذ قال: (يدور لغط كثير حول انضمام الافغاني ومحمد عبده وعدد كبير من قادة مصر ومفكريها في ذلك التاريخ الى الحركة الماسونية، ويتخذ البعض من هذا الانضمام وسيلة للطعن فيهم والتشكيك بوطنيتهم... ونحن نرى ان اصحاب هذا الموقف قد جانبهم الصواب لانهم قد اغفلوا عدة عوامل وحقائق منها مثلا:

أ- انهم يفترضون ان الماسونية كانت قبل قرن من الزمان كما هي اليوم ويقيسون الموقف منها يومئذ بموقفنا منها اليوم، بعد ان تكشفت لنا منها امور لم تكن قد ظهرت بها يومئذ او لم تكن قد تكشفت على أقل تقدير.

ب- انهم يغفلون ان الحركة الماسونية كانت مركز جذب اصحاب الفكر الحر في ذلك العصر بسبب من نشأتها الاوربية كحركة مناهضة لسلطان الكنيسة

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص١٦-١٧

الرجعية، ومناهضة لسلطان الاباطرة وسبيل فصل السلطان الكنسي عن دوائر الحكم وتحرير العلم والعلماء من سلطان الكهنوت.

جـ- انهم لا ينتبهون الى حقيقة هامة تتعلق باستغلال الماسونية ومحافلها حديثا لخدمة الاهداف الصهيونية في الشرق وفي فلسطين بالذات... ولم يكن التيار الصهيوني الحديث في الحركة اليهودية قد تكون بعد، ولم تكن الاوساط اليهودية قد اتفقت بعد على السعي لاقامة دولتها في فلسطين...)[1]!!!!

وهو تبرير اقل ما يقال فيه انه اوهي من بيت العنكبوت، بكل ما يعني الوهن، وذلك للاسباب التالية:

١.ان الماسونية كانت قبل مائة عام وقبل الف عام مثلما هي الآن لم تتغير اهدافها العامة ولا حتى وسائلها التي تستخدمها لتحقيق اهدافها في القضاء على الاديان السماوية بشكل عام ليسود دينها العالم، وان حدث تغيير فهو تغيير طفيف في الوسائل مما يتطلبه التطور والتقدم.

٢.ان ما يعيب انتماء المسلمين بشكل عام ورجال الدين بشكل خاص-مثل الافغاني وعبده- للماسونية او غيرها من الاتجاهات العلمانية او الملحدة التي تهدف الى هدم الاديان السماوية، لا يقتصر على سيطرة الصهيونية عليها بل يكمن في الاساس في محتواها المتعارض مع الاسلام. فالاسلام يفرض على معتنقيه الايمان به دينا لهم وحفظه ونشره على العالمين، والمسلم هو من لا يرضى بغير الاسلام دينا يحكم كل مناحي حياته الدينية والدنيوية. والماسونية تفرض على معتنقيها ان يعملوا وفق مبائها ويحافظوا عليها وينشروها على العالمين، فكيف يمكن للمسلم ان يعمل بدينين ويظل مسلما؟ وقد قال الله سبحانه وتعالى (... لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياي فارهبون)[2] وقال: (ثم

---

(١) انظر الاعمال الكاملة، محمد عبده جـ١ ص٣٥-٣٦

(٢) النحل: ٥١

جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون)[1].

٣. ان الصهيونية وان كانت قد بدأت العمل العلني والرسمي بعد مؤتمر عام ١٨٩٧ فهي لم تولد في ذلك المؤتمر وانما هي موجودة قبل ذلك بزمن طويل والا كيف استطاعت ان تجتمع في ذلك المؤتمر اصلا رغم ما كان يلقاه اليهود في اوربا ومن دولها من رفض واضطهاد في ذلك الوقت كما في كل وقت؟!!

٤. اما عن حلم اليهود في فلسطين، فان فلسطين، ارض الميعاد، لم تفارق تفكيرهم يوما من الايام حتى تظهر بعد زمن الافغاني وعبده وكل محاولات الدول الاوربية للتخلص منهم (وفي زمن الافغاني وعبده بالذات) في توطينهم في بعض مناطق افريقيا او البلاد العربية الاخرى كانوا يرفضونها او يثيرون العراقيل امامها وان اظهروا تقبلا لها فما كان ذلك الا لعلمهم باستحالة تنفيذها، هذا غير انه في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر وقبل ان يولد الافغاني وعبده طلب السفير البريطاني من السلطان ان يوافق على توطينهم في فلسطين واثناء غزو محمد علي للشام هدد اليهود بشكل غير مباشر السلطان بهذا الغزو ان هو لم يستجب لهم!![2]. بل ان اليهود كما يذكر "حسان علي الحلاق" مولوا حملة نابليون على مصر ليساعدهم على تأسيس دولتهم في فلسطين[3].

٥. ثم ان كانت الماسونية حركة مناهضة لسلطان الكنيسة وتعمل على فصل السلطان الكنسي عن دوائر الحكم وتحرير العلم والعلماء من سلطان الكهنوت فما علاقة المسلمين بكل هذا؟ فالمسلمون لم يكن عندهم كهنوت مسيطر كما اكد كل من الافغاني وعبده نفسهما ولم يكن هناك علماء، مضطهدون ويراد تحريرهم والاسلام لم يقف في يوم من الايام ضد العلم والعلماء! ولا يمكن في الاسلام

---

(١) الجاثية: ١٨

(٢) الحسين: ملك الاردن: مهنتي كملك ص٩٥-٩٦

(٣) حسان علي الحلاق: الدولة العثمانية والحركة الصهيونية ص٤٩-٥١

فصل الدين عن دوائر الحكم اذ ليس هناك كهنوت مسيطر اصلا كما يؤكد معظم من ناقش الموضوع من المفكرين سواء من المسلمين ام من المسيحيين ام من الاوربيين المنصفين ام من الدينيين او العلمانيين! فلماذا كان الانتماء للماسونية وخاصة من قبل رجال دين نصبوا انفسهم للاصلاح الديني؟ وماذا يمكن ان تحققه لهم الماسونية؟!! ولا يستطيع تحقيقه الفكر الاسلامي!!

٦.وفوق كل ذلك هل كانت تلك الدعوة التي تتبناها الماسونية في مصلحة الاسلام والمسلمين وهم يواجهون ذلك الغزو المنظم والمخطط لكل مقوماتهم؟!! ومصلحة من خدمة الدعوة هذه في النهاية؟!! وهي المعول عليها في التقييم.

٧.ان كان من يتصدى للفكر والاصلاح ولم تتكشف له الامور على حقيقتها ولم يعلمها فهو لا يصلح ان يكون مفكراً اصلا، فالجهل بالامور ان كان مقبولا من عامة الناس فهو مرفوض من قبل المفكرين، لانه يضعهم في صف الجهلاء. ورجل الدين الذي لا يعرف ما يفرضه عليه دينه لا يصلح ان يكون رجل دين، ناهيك عن كونه مصلحا دينيا!!

وعلى اية حال فان ما جاء اعلاه ليس الا مثلا من امثلة كثيرة على الكيفية التي يتعامل بها المعاصرون مع الرواد الاوائل والتي تتسم بالتمجيد وتبرير الاخطاء ومنهم محمد عمارة الذي برر اخطاء وتناقضات من حقق لهم بدلا من مناقشتها بشكل موضوعي، يغني الموضوع ويضع الحق في نصابه ويفيد القارئ ويفيد من حقق له فلا يصدم القارئ لاعمالهم عندما لا يجد ما وعده به عمارة من العبقرية. وهو–محمد عمارة– يبرر عمله هذا بانه الوفاء لهؤلاء العباقرة اذ يقول في مقدمة اعمال علي مبارك: (ونحن نقدم للقارئ العربي–الاعمال الكاملة لعلي مبارك– لا نجد انفسنا فقط محرزين لخطوة جديدة على الدرب الذي بدأناه... ولا باعثين–فقط– من زوايا العدم والضياع والنسيان، تلك الاعمال المضيئة التي تسد ثغرا في صرحنا الفكري وتضع في بنائه لبنات... وانما بالاضافة الى ذلك كله. نحن نمارس، عمليا خلق–الوفاء– بالاسهام في تخليد ذكر علم عملاق، كانت حياته واعماله تجسيدا لوفاء المواطن الصالح لموطنه وامته... والوفاء لعلم كهذا هو وفاء للوطن والامة

والحضارة التي وهبتنا. بعد الله المقدرة على ان نصنع شيئا جادا ومفيدا على هذا الدرب الذي نسير فيه)[1].

أي وفاء هذا؟ ولمن هذا الوفاء؟ اليست الامة التي رفعت هؤلاء واوصلتهم الى ما صاروا عليه واعطتهم ثقتها، احق بالوفاءلها وبيان الخطأ والصواب فيما فعلوه من حق ومن باطل؟ واين حمل الامانة والوفاء بحق الاجيال المعاصرة من الشباب والاجيال اللاحقة لها؟ اليس لهؤلاء الحق في توجيههم الوجهة الصحيحة واعطائهم الفرصة للتفكير والحكم بانفسهم بدل غسل الدماغ هذا؟!! قال الله سبحانه وتعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان، الا تطغوا في الميزان، واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)[2] فاين هو الميزان عند كتابنا الاوائل والمعاصرين؟ وهل الانبهار بالحضارة الاوربية وباصنامها والانبهار بالرواد الاوائل للنهضة العربية الا حال افقدهم الميزان؟ وقد قال سبحاه وتعالى: (ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين)[3] فلين كتابنا ومفكرونا من هذا الامر الالهي؟ وهل الاسراف الا احدى الرذيلتين، الافراط والتفريط؟ واذا كانت الفضيلة كما يراها المفكرون المسلمون الاوئل، قبل عصر النهضة! هي الوسط بين الرذيلتين[4] فاين فضيلة مفكري النهضة؟ الاوائل منهم والاواخر. وقد قال الرسول ﷺ (انزلوا الناس منازلهم)[5] فهل انزل مفكرو النهضة، الحضارة الاوربية منزلها الحقيقي؟ وهل انزل معاصرونا مفكري النهضة العربية الاوائل منازلهم؟ وهل انزلوا الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية منزلها؟!!

قال الماوردي: (وعدل الاقوال ان لا يخاطب الفاضل بخطاب المفضول ولا

---

(1) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، علي مبارك، ص١٤

(2) سورة الرحمن: ٧-٩

(3) سورة الانعام: ١٤١

(4) انظر الغزالي: ميزان العمل ص٢٦٤

(5) الجراحي: كشف الخفاء ومزيل الالباس جـ١ ص٢٠٩

العالم بخطاب الجهول بل الوقوف في الحمد والذم على حسب الاحسان والاساءة...)[١] فهل وقف النهضويون عند هذا الحد من الحمد والذم؟

وقال توفيق الطويل: ان الاوائل من مفكري ما قبل النهضة (اكدوا ضرورة الشك الارادي الذي يعوق التسرع في التصديق، ويغري بتمحيص الحقائق ونقد المصادر، ويمهد للتثبت من صحة الافكار وقد زاولوا بالفعل هذا الشك في دراساتهم العلمية، فلم يتعجلوا التسليم بما يقوله مشاهير المفكرين بدافع الاعجاب بهم والافراط في تقديرهم، واخذوا يعيدون النظر فيما يتلقونه عنهم ويمحصون افكارهم ليقفوا على مدى صوابها او مبلغ خطئها ويعملون على اكمال نقصها، او ابدالها بغيرها من افكار تثبت التجربة او يشهد العقل بصوابها)[٢] ويستشهد على ذلك بقول الحسن بن الهيثم في مقدمة الشكوك على بطليموس اذ يقول: (... ان حسن الظن بالعلماء السابقين مغروس في طبائع البشر، وانه كثيرا ما يقود الباحث الى الضلال، ويعوق قدرته على كشف مغالطاتهم، وانطلاقه الى معرفة الجديد من الحقائق، وما عصم الله العلماء من الزلل، ولا حمى علمهم من التقصير والخلل. ولو كان ذلك كذلك، لما اختلف العلماء في شيء من العلوم، ولا تفرقت اراءهم في شيء من حقائق الامور) فطالب الحق عند ابن الهيثم (ليس من يستقي حقائقه من المتقدمين ويسترسل مع طبعه في حسن الظن بتراثهم، بل عليه ان يشك في اعجابه بهم، ويتوقف على الاخذ عنهم، مستندا الى الحجة والبرهان وليس معتمدا على انسان تتسم طبيعته بالخلل والنقصان وعليه ان يخاصم من يقرأ لهم، ويمعن النظر فيما قالوه حتى تتكشف له اخطائهم، ويتوصل الى حقائق الامور)[٣]. اذ يعتبر هذا من مسؤولية العالم تجاه الاجيال اللاحقة فهو رغم اعجابه ببطليموس الا انه محّص اعماله ووجد كما يقول

---

(١) الماوردي: قوانين الوزارة وسياسة الملك ص١٢٤-١٢٦

(٢) توفيق الطويل: من تراثنا العربي الاسلامي ص١٤

(٣) ذات المصدر ص١٣

(مواضع والفاظا بشعة ومعاني متناقضة...) فرأى في (الامساك عنها هضما للحق وتعديا عليه، وظلما لمن ينظر بعدنا في كتبه في سترنا ذلك عنه) ووجد ان (اولى الامور ذكر هذه المواضع واظهارها لمن يجتهد من بعد ذلك في سد خللها، وتعميم معانيها، بكل وجه يمكن ان يؤدي الى حقائقها)[1].

فهل فعل هذا مفكرو النهضة العربية الاوائل والمعاصرون، في تعاملهم مع الحضارة الاوربية ومنتجاتها ومفكريها؟ أو مع بعضهم البعض؟ هذا صوت من بعيد من التراث الذي اراد زكي نجيب محمود حرقه واجمع العلمانيون على تركه فهل عملوا بما هو افضل منه؟!! ولو قارنا موقف ابن الهيثم هذا في تعامله مع الماضي ومنتجاته الحضارية، مع احد كبار دعاة العقل والعقلانية والبحث العلمي!!! وهو الدكتور زكي نجيب محمود لوجدنا ان الاخير لم تمكنه عقلانيته واسلوب البحث العلمي! الذي يدعيه من ان يقف امام الماضي بما فيه من التراث العربي والاسلامي باحثا وناقدا ومحللا ومجتهدا وانما كل ما اراد ان يفعله هو ان (يقف هازئا ساخرا) اذ هو يقول معتمدا قول لبيكن: (ان الانسان اذا ما وجد نفسه حيال فكرة او عبارة قالها رجل قضى منذ زمن، لكنه ترك وراءه شهرة وسمعة تملأ النفوس بالرهبة، فقد يجد هذا الانسان عندئذ ان من المتعذر جدا عليه النجاة من سحر هذه الرهبة وان ايسر السبل وآمنها من الزلل هو ان يتقبل كل ما قد تركه له سلفه ذاك ذو الشهرة والسمعة، وهيهات ان تجد من الناس من تبلغ به الجرأة ان يفض عن الصندوق-المسحور ختمه، ليفتحه فاذا هو في الداخل خواء او ما يشبه الخواء...)[2] ويقول ايضا ان للزمن جلال ايما جلال فاين الذي يستطيع الوقوف امام اطلال الماضي-وهي اطلال- هازئاً ساخراً؟ اين هو الذي يستطيع ان يعبث بجثث الموتى كما يعبث بقطع من الصخر الجماد؟... ذلك كله واقع لا سبيل الى نكرانه، وان الخروج عليه والتصدي له انما يجيئان بعد مغالبة الانسان لنفسه ولفطرته، وهذه

---

(1) ذات المصدر

(2) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي ص٥٢

المغالبة لأهواءالنفوس وميول الفطرة هي ما نحن بحاجة اليه...)[1]. وليثبت جرأته تجرأ على ماضي المسلمين ووقف من ماضي الامة وفكرها وتراثها وحتى عقيدتها الدينية هازئا وساخرا ولكنه في ذات الوقت وقف مبهورا امام ما يأتيه من الغرب سواء من ماضي الغرب او حاضره ولكنه في الحالتين لم يقف ناقدا ومحللا وباحثا مبدعا!!!

ان الشواهد على الانبهار كثيرة ولا يمكن حصرها ويكفي القارئ ان يتصفح ايا من اعمال الرواد الاوائل فيما يتعلق بالحضارة الغربية او المعاصرين فيما يتعلق بالحضارة هذه وبالرواد الاوائل هؤلاء ليجد الانبهار في كل صفحة بل في كل كلمة من كلمات هذه الاعمال. وقد كتب فتحي رضوان في كتابه "عصر ورجال" عن مفكرين وادباء الفترة ما بين الحربين فقال: (كان الامر عندهم تنقلا بين الشخصيات والافكار والكتاب، وكان ما يصدر عنهم انطباعات سريعة من قراءات لا تستولي عليهم ولا تملاء حياتهم ولا وجدانهم وانما اقصى ما تستطيع هذه القراءات ان تدخل الى نفوسهم نشوة الاعجاب بفكرة او بشخص، ولكنها لا تلبث ان تنطفئ ليحل محلها اعجاب بفكرة اخرى او شخصية تالية... ولذلك اذا فرغت من قراءة كل ما كتبه العقاد والمازني وهيكل لا تعرف بالضبط ما الذي يريده أي منهم ثم لا تعرف الفارق بين الواحد منهم والآخر)[2]. وما قاله فتحي رضوان ينطبق على كثير من مفكري النهضة حتى يومنا هذا، اذ يقراؤن لينبهروا لا ليغتنوا ويبدعوا.

قال احد تلامذة بوذة لبوذة: (انني ايها السيد اؤمن بكل قلبي انه لم يوجد قط، ولا يوجد الآن ولن يوجد الى آخر الدهر مرشد اعظم قدرا واكثر عقلا من مرشدنا المبارك: فاجاب بوذا: هل انت قد عرفت كل العارفين الذين سبقوني؟ وهل عرفت كل العارفين الذين يأتون بعدي: فاجاب التلميذ: لا يا سيدي فلم يتيسر لي ذلك: قال

---

[1] ذات المصدر

[2] زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر ص٢٣٧-٢٣٨

بوذا: فلم اسرفت في قولك وجعلتني خير النـــاس وانــت لا تعرفنــي ولا تعــرف الناس؟)[١] ولكن مفكري النهضة رغم عدم معرفتهم بالحضارة الاوربيــة فــلا هــم خبروها ولا تعمقوا في دراستها، وما خبروه منها كان وبالا على الامـــة الا انـــهم انبهروا واسرفوا في مدحها وطلب الاقتباس منها. وقد كان الانبهار هذا اساس محنة الامة وتبعيتها اليوم، فهو الذي اسس للاستعمار في البلاد العربية بشكل لا جلاء فيه فقد صدق غاندي عندما قال: ان الانكليز (لم يستولوا على الهند ولكن نحن قدمناهـــا لهم. بتمزقنا وبصراعاتنا الداخلية التي انهكت قوانا، وجعلتنا امة مغلوبة على امرها. فالتخلف وعدم التكيف الحضاري ليس وراء هزيمتنا، ولكنه ذلك الوهـــج الاوربـــي الساطع الذي اعمى بصيرة البعض في الهند فانساقوا وراءه فاصبحوا خاضعين لــه) ويقول ايضا حتى لو نجحوا في طرد الانكليز من الهند (واصبحت بلادنا مستقلة فان الحكم سيبقى انجليزيا، بفضل هؤلاء الغافلين المبهورين ببريق الغرب المزيـــف)[٢]. وهذا الانبهار بالحضارة الاوربية هو الذي ادى الى تقليدها والاقتباس عنها حـــرف بحرف.

التقليد

قال عبدالله بن المعتز: (لولا الخطـــأ مـــا اشـــرق نـــور الصواب وبالتعب وطئ فراش الراحة وبالبحث والنظـــر تستخرج دقائق العلوم ولا فرق بين جاهل يقلــد وبهيمـــة تنقاد)

اتسمت اعمال مفكري النهضة، الرواد والمعاصرين، بالتقليد الذي هو النتيجـــة الطبيعية لذلك الانبهار باوربا الذي عبروا عنه في كتاباتهم، والذي ضيّـــق عليـــهم مجال الرؤية والتبصر وحبسهم في دائرته فلم يروا الا ذلـــك الـــبريق الفســـفوري

---

(١) احمد شلبي: مقارنة الاديان، اديان الهند الكبرى ص١٥٦

(٢) مجلة العربي العدد ٣٤٢ السنة ثلاثون مايو ١٩٨٧ ص١٨٨

المنبعث من اوربا والذي حسبه هؤلاء نورا حقيقيا يستطيعون الاستنارة به او الاستهداء بهديه. فطغي ذلك البريق الوهم على كل ما عداه مما هو حولهم، وحوله الى ظلام دامس في نظرهم! فصار كل ما جاء من اوربا هو جديد ومتقدم ومتمدن ومستنير، وكل ما عداه فهو متأخر ومتخلف ورجعي وسلبي. مع انه ليس هناك في حضارة اوربا، وخاصة في القرن الماضي ما يتسدعي كل هذا الانبهار الذي جعلهم ينظرون اليها وكأنها نهاية المطاف للانسانية. فكل ما قبلها سقيم وسخيف وليس بعد ما جاءت به من العلم علما ولا من التقدم تقدما، مع ان هذه الحضارة ما هي إلا نتاج لسلسلة من الحضارات الانسانية التي سبقتها والتي اسهمت جميعها فيما وصلت اليه هذه الحضارة (فكل المخترعات المدهشة) التي انبهر بها مفكرونا والتي نشهدها اليوم كما يقول البعض (ليست في الواقع سوى تأليف او تركيب بين مخترعات كانت موجودة سابقا مع اضافة شيء قليل-او كثير- اليها. قد ينظر الساذج الى احد هذه المخترعات فيفتح فاه متعجبا ويقول: ما اعظم العقل الذي اخترعه! انه لا يدري ان الاختراع الجديد كان نتيجة سلسلة طويلة من العقول المبدعة وهي كلها شاركت في التمهيد له ثم جاء المخترع الاخير فاتاحت له الظروف ان يكمل تلك السلسلة بعمل حاسم على وجه من الوجوه... يصدق هذا القول على المخترع مثل ما يصدق على المفكر المبدع...)[1] فهذه سنة الحياة في التقدم والتطور فالسيارة تدين بوجودها لعديد من الاكتشافات والاختراعات التي سبقتها ومهدت لها مما يتعلق بالمعادن وخواصها والوقود والعجلة والعتلة والكهربائية والمغناطيسية الخ... حتى نصل الى ذلك الانسان القديم الذي اكتشف لاول مرة قدرة احتكاك حجر بآخر على توليد شرارة يمكن ان توقد نارا يستفيد منها في اغراض عدة. والطائرة تدين بوجودها بالاضافة الى كل ذلك الى ذلك الانسان الذي حلق بخياله بعيدا وحاول الطيران بجناحين ملصقين بجسمه وفشل في التحليق في الهواء ودفع حياته ثمنا لتجربته التي فشلها مهد لنجاح انسان اليوم في ركوب

---

[1] علي الوردي: منطق ابن خلدون ص١٦٧-١٦٨

الهواء. وكل اكتشاف او اختراع ايا كانت بساطته فهو في زمانه كان معجزة عظيمة لو انبهر بها الناس آنذاك كما انبهر مفكرونا! بمنتجات الحضارة المعاصرة لوقف سير التطور والتقدم ولما وصلت الحضارة الى ما هي عليه الآن.

ولذلك نجد ان احد مؤرخي العلم وهو جورج سارتون (١٩٥٦) يسفه في كتبه وبحوثه الرأي الذي يجعل العلم-اي علم- من خلق مفكر واحد لم يسهم في نشأته احد قبله او يجعل الحضارة-اية حضارة- من صنع شعب واحد لم يسبق اليها شعب آخر، واذا كان مؤرخو العلم من الغربيين يجعلون العلوم الطبيعية والرياضية اختراعا يونانيا لم يسهم فيه احد قبلهم فان جورج سارتون يقول في تفنيد هذا الرأي: (ان من الضلال ان يقال ان اقليدس هو ابو علم الهندسة وان بقراط هو ابو علم الطب...) اذ يرى (ان المعجزة اليونانيةالمزعومة لها اب وام شرعيان اما ابوها فهو تراث مصر القديمة. واما امها فهي ذخيرة بلاد ما بين النهرين...)[١].

وكما انه ليس هناك ما هو جديد كل الجدة في مجال الاكتشافات العلمية والاختراعات التقنية فكذلك هو الحال في مجال العلوم الانسانية. فلا المادية جديدة والا الالحاد جديدا ولا الفردية ولا الجماعية ولا الوجودية ولا الشيوعية افكارا جديدة لم يتعرض لها الفكر الانساني من قبل. فكلها امورشغلت الاوائل منذ قديم الزمان، وقبل نزول الاديان السماوية، التي ما نزلت الا للحد من هذا الكفر وهذا الطغيان، وبعدها بشكل خاص من اجل هدمها او التقليل من شأنها. وقد قال الله سبحانه وتعالى (وان تكذبوا فقد كذب امم من قبلكم...)[٢] وحتى الاستهزاء بالدين وبالمتمسكين بالدين وبالقيم السماوية واتهامهم بالرجعية والتخلف كما يفعل التقدميون اليوم فهو ليس جديدا كما يتصورالعلمانيون المتأوربون فقد قال الله تعالى (ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون، واذا انقلبوا الى

---

(١) توفيق الطويل: من تراثنا العربي الاسلامي ص٦٠

(٢) العنكبوت: ١٨

اهلهم انقلبوا فكهين، واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون، وما أرسلوا عليهم حافظين، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون، على الأرائك ينظرون، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون)[1].

وخلاصة القول: ان العصر الذي انبهر به النهضويون لم يكن الا تطورا طبيعيا لتطور الحضارات عبر العصور ومبني على مبدأ ان العلوم يجر بعضها البعض كما قال المسلمون الاوائل، ولا يستحق هذا الانبهار الذي افقدهم توازنهم وجعلهم يتناقلون (كتابات لوك وروسو ومونتسكيو، ومفكري الثورتين الفرنسية والامريكية كما لو كانت نظريات مقدسة لها صلاحية عامة للتطبيق وكما لو كانت مبادئ معيارية تحمل قرينة على الصواب لا تحتمل اثبات العكس)[2] حتى ان القارئ لكتاباتهم لا يجد فيها سوى ما قاله لوك او هيوم او بيكن او ماركس او سبنسر الخ... اما من وضع اسمه على الكتاب باعتباره مؤلفه فليس له وجود. وان وجد فان حضوره يكون مقتصرا على التطبيل لهذا الكاتب والتزمير لتلك الفكرة او تكرار لقول هؤلاء او شرح لتطويل مفاهيمهم وهكذا، سائرين على ذات النسق الفكري مؤكدين ذات الاتجاه. وكأن عقولهم مرايا عملها عكس ما يقع عليها من صورة الفكر الاوربي. وغالبا ما تكون هذه المرايا غير صقيلة فتعكس صور المفاهيم بشكل مشوه ومشوش. وقلما يجد القارئ نقد او تحليلا من اجل اعادة تركيب مخالف للفكرة هذه. ومهما قرأ القارئ لكاتب ما –او لمجموعة كتاب من الدعاة لذات الاتجاه الفكري–فهو لن يصل في النهاية الى نظرية واضحة او مفهوم معين تحدد رسالة هذا الكاتب–او مجموعة الكتاب– وتدل على شخصيته وهويته المتفردة، وذلك لكثرة تناقضاتهم مع ذواتهم ومع بعضهم البعض حتى لنجد البعض يناقض في صفحة من كتابه ما كتبه في صفحة سابقة او لاحقة لها. ويقول في مناسبة ما يناقض ما كان قد قاله في مناسبة اخرى مشابهة وما كتابات الافغاني

---

(١) المصنفين: ٢٩-٣٦

(٢) احمد كمال ابو المجد: التراث وتحديات العصر ص٥٨٩

وعبده المتذبذة والتي يناقض بعضها البعض الا نموذج لما هو شـائع بيـن كتـاب النهضة.! من تناقضات وعدم الوضوح في الرؤية. وما ذلك الا لانهم كما يبدو قـد وضعوا هدفا واحدا نصب اعينهم وهو اقتبـاس الحضـارة الاروبيـة-الغربيـة- والترويج لها والعمل على ان نعيش الحياة كما تعاش في اوربا وامريكا، ومن اجـل هذا الهدف فان كل همهم منصب على عرض النماذج الاوربية والدعوة الى اقتباسها بحماسة شديدة تطغي على الجوهر والمحتوى مما يجعلهم يغضـون النظـر عمـا تتضمنه من افكار وفلسفات متناقضة ليس فقط مع ما نريـد لانفسـنا كأمـة تعـتز بشخصيتها وكيانها ولا ما نحتاجه فعلا وانما مع بعضها البعض ايضـاً. حتـى ان المتتبع لاقوال واعمال مفكري النهضة هؤلاء منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى اليوم يجد نفسه يقف وجها لوجه امام مجموعة من الاطفال في متجر لبيع الالعـاب، يحوي منها اشكالا والوانا وكل طفل مبهور بما يرى لا يعرف ماذا يأخذ منها ومـاذا يترك، فيريد هذه او تلك... او تلك... ولا يفكر كثيرا بما يناسبه وبمـا لا يناسـبه ولابما هو في حاجة له او ما يملك منه وبالتالي لا يحتاجه ولا بما لديه مـن بدائـل افضل منه... فكلها جميلة وجذابة وهو يريد اقتناءها ولا يعبأ بما يدفع ثمنا لها! فليس هو الذي سيدفع الثمن ايا كان وانما المهم بالنسبة له اشباع رغبته في تملكها! وان لم يحصل على ما اراد صال وجال واتهم من لم يلب رغباته هذه بالظلم والتعدي عليـه وكذلك مفكرو النهضة، ان لم يتحقق ما ارادوا اقتباسه وتقليد الغرب فيه فان الحـاكم مستبد ظالم ورجعي متخلف! والشعب جاهل ومتخلف ولا يعـرف مصلحتـه. ولا يحتاج القارئ لاثبات ذلك الا قراءة بعض ما كتبه الرواد والمعاصرون من مدح لمن انساق وراء هذه الفكرة الاوربية او تلك النظرية وقدح لمن لم يفعـل مـن الحكـام والشعوب او العودة الى تعامل الافغاني مع السـلطان عبدالحميـد وشـاه ايـران والخديوي اسماعيل والخديوي توفيق اذ اقترح على كل منـهم اقتبـاس الدسـاتير والبرلمانات الاوربية وما ان لم يحققوا ذلك حتـى اتهمـهم بالاسـتبداد والرجعيـة والتخلف والجبن واللاعقلانية الخ... وحرّض على الثورة ضدهم بل علـى قتلـهم ايضا ولما لم يحقق الشعب طلبه بالثورة ضدهم على الطريقة الاوربية اتهمـه هـو

الآخر بالتخلف وبالجبن ونقص العزيمة وتعود الذل الخ... ولا يهمهم الثمن الذي يدفع مقابل اتباع الحضارة الاوربية واقتباس منتجاتها. فالطهطاوي يدعو الى الاقتباس من اوربا ومن فرنسا بالذات والاقتداء بأهلها حتى وان كان الثمن حرية الامة وكرامتها وعزتها اذ يقول: (ان مخالطة الاغراب لا سيما اذا كانوا من اولي الالبات يجلب للاوطان من المنافع العمومية العجب العجاب... ان هذه المنافع مؤكدة حتى ولو كانت مترتبة على التغلب والاغتصاب)[1].

وطه حسين نادى باخذ الحضارة الغربية (حلوها ومرها) والسير (سيرة الاوربيين... نتعلم كما يتعلم الاوربي ونشعر كما يشعر الاوربي... ونصرف الحيلة كما يصرفها)[2] الاوربي. ولم يكتف طه حسين بعكس وجهة نظر المستشرقين الاوربيين المعادية للاسلام والمسلمين الذين يمثلون الاكثرية المطلقة تحت شعار الموضوعية والبحث العلمي بل عمل على جعل الجامعة المصرية نسخة من الجامعات الاوربية واستقدم المستشرقين لتدريس التاريخ والتراث الاسلامي فيها، حتى انه دعا الى تدريس اللغتين البائدتين الاغريقية واللاتينية ليس فقط على مستوى الجامعة وانما في مرحلة الثانوية لا لشيء الا لان اوربا تدرس هاتين اللغتين في مدارسها! في الوقت الذي كان يعتبر اللغة العربية لغة متخلفة اذ يقول انها: (لا تزال بعيدة كل البعد عن ان تنهض بحاجات الثقافة الحديثة والتعليم الحديث، وهي الآن اغنى منها في أول هذا القرن ولكن فقرها لا يزال شديدا ولعله يبلغ من الشدة ان يكون مخزيا للشعوب التي تتكلمها، والتي تزعم لنفسها الحضارة والمجد وتطمح الى ما تطمح اليه من العزة والاستقلال)[3] ولما رفض المصريون فكرة كتابه الشعر الجاهلي، ولم ينساقوا وراءه كما اراد لهم اعتبر ذلك حقدا منهم

---

(١) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الطهطاوي جـ١ ص٩٤

(٢) غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص١٠٤-١٠٥

(٣) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص٥٨

(الجهلاء) على العلماء اذ يؤكد مسألة الصراع بين العلم والدين ويبـــــــرره (بأن الدين حظ الكثرة من المجتمع والعلم حظ القلة منه. ويعلل عنف الصراع: بانــه حقد الرعاع علي الامتياز)[1] هذا بالاضافة الى تخلفهم ورجعيتهم وسذاجتهم التـــي حاول مجاراتهم فيها في كتابه على هامش السيرة فقال في مقدمته انه يحـــوي مـــن الاخبار والاحاديث مما (لا يستسيغها العقل ولا يرضاها) ولكن (العقل ليـــس كـــل شيء... فان قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالـــهم وميلـــهم الـــى الســـذاجة واستراحتهم اليها من جهد الحياة وعنائها. ما يحبب اليهم هذه الاخبـــار ويرغبـــهم فيها)[2].

ولطفي السيد، لرغبته في تقليد الفكر الاوربي واقتباس الحضارة الاوربية لـــم يشجع على الابداع بل كان يرى ان العصر هو (عصر ترجمـــة لا عصـــر خلـــق وابداع) وكأن للأبداع عصر خاص به!! ولذلك سعى الى نقل ما انجزه الفكر الغربي الى اللغة العربية ودعا مواطنيه ان يتعلموا اولا ما حققته اوربا خلال القرون القليلـة الماضية قبل ان ينصرفوا الى العمل الخلاق... وحثـــهم علـــى ترجمـــة مؤلفـــات المفكرين الاوربيين)[3]. وكان العلم عند شبلي شميل هو (النظام الميتافيزي الذي بناه هكسلي Hexley وسبنسر في انجلترا وهيجل Hegel وبوخنر في المانيا على فرضيات داروين، وكان مؤلفه الرئيسي ترجمة شرح بوخنر لافكار داروين...)[4] وقد اقتبـــس جنبلاط (افكاره كالجماعية من الفكر الاوربي اما اراءه في الاخـــلاق والديـــن فقـــد استمدها من دراســـته للديـــانتين الهندوســـية والبوذيـــة وغيرهمـــا مـــن الديانـــات

---

(1) غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر، ص٩٧

(2) هامش السيرة- المقدمة- ص ط، د، ك

(3) مجيد خدوري: عرب معاصرون ص٣٣٤-٣٣٥

(4) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح بين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ص٤٣

الشرقية...)[1].

والشواهد على تقليد مفكري النهضة لاوربا في كل شيء كثيرة جدا مما لا تستطيع مجلدات حصرها وحصر دعاتها حتى صار الحال الى ما نحن فيه من استلاب وتبعية جعلت محمد عزيز الحبابي يقول في ندوة التراث وتحديات العصر اننا (لسنا مستلبين من لدن التراث العربي الاسلامي، كما يدّعون بل من قبل صورة وهمية عن الغرب تهمشنا اكثر فاكثر، فنزداد انفصالا عن مكوناتنا الأصلية والاصيلة... هناك وهمية عن غرب وهمي ترعرت نموذجيتها في عقلنا الواعي وفي عقلنا اللاواعي...)[2] ولم يقتصر التقليد على مجال واحد من مجالات الحياة وانما شمل كل مجالاتها. سياسةً واقتصاداً وتربية وقانوناً الى اخص مكونات شخصية الامة وهي العقيدة واللغة والادب والفن الخ...

الفن

فالفن العربي مثل فن العمارة والفنون التشكيلية والموسيقى كما يقول عبدالله عبدالدائم: (ما يزال الى حد كبير فنا مقلدا، بل فنا يشكو من الغربة والاستلاب) وحتى بعض انواع الرسم والنحت التي تستقي موضوعاتها من البيئة العربية فهي غالبا ما تكون (مقلدة للغرب في مبناها) مما يجعل الكثرة الكاثرة من هذا الانتاج اعجمي الملامح غريب القسمات)[3].

الادب

وفي الادب فان بصمات الغرب واضحة في جميع معالمه سواء من حيث مبناه ام محتواه. وان كانت البصمات واضحة في جميع المجالات الادبية الا انها تظهر

---

(1) مجيد خدوري: عرب معاصرون ص٢٦٤

(2) ندوة التراث وتحديات العصر ص١٠٢-١٠٤

(3) ذات المصدر ص٧٠٥

في الشعر اكثر وضوحا. فعلى سبيل المثال: اكد محمد محمود الدش في مقالة له نشرتها مجلة العربي ان الناقد الانكليزي وليام هازلت (الذي عاش بين سنتى ١٧٧٨-١٨٣٠ قد ترك بصمات واضحة على حركة التجديد التي طرأت على الشعر العربي في اوليات هذا القرن العشرين، وتنادى بها العقاد والزهاوي والمازني وعبدالرحمن شكري وغيرهم) واستشهد على ذلك بقول للأستاذ العقاد الذي اكد ان هازلت هو (امام هذه المدرسة الادبية-بعد شوقي- كلها في النقد لانه هو الذي هداها الى معاني الشعر والفنون واغراض الكتابة، ومواضيع المقارنة والاستشهاد...) واكد الدش ايضا ان الشاعر الانكليزي اليوت ١٨٨٨-١٩٦٥ لا يقل عن هازلت (اثرا في صيحة التجديد التي نراها من حولنا هذه الايام) والتي برزت في الاربعينات من هذا القرن واستشهد على ذلك بقول الشاعر صلاح عبدالصبور الذي (يقرر ان الذي اخرجه-هو وناشئة الشعر- من اسار التقليد الذي يؤثر ان تكون للشعر لغته الخاصة، المجاوزة للغة الحياة... واخرجهم من عباءة المدرسة الرومانتيكية العربية بموسيقاها الرقيقة وقاموسها اللغوي المنتقى، الذي تتناثر فيه الالفاظ ذوات الدلالات المجنحة والايقاع الناعم-انما هو توقفه عند الشاعر ت.س.اليوت...)[1].

وككل ما ينسخ عن اوربا فقد اعتبر هذا التقليد في الادب والخروج على التقاليد الادبية وعدم الالتزام بما تتعارف عليه الامة من لغة وتقاليد وعقائد تجديدا وتطويرا وتقدما!! حتى صارت تقدمية الادب كما يقول محمد مزالي: (تتمثل في تحدي مقومات الامة من لغة ودين وعادات... والتمرد على النظام السياسي القائم)[2].

اللغة

اما اللغة العربية والتي هي اكثر ما يعتز به العرب الذين كما يقول البرت

---

(١) مجلة العربي العدد ١٤٧ ذو الحجة ١٣٩٠هـ فبراير ١٩٧١ ص١١٥-١١٦

(٢) محمد مزالي: وجهات نظر ص٩٧

حوراني هم (اشد شعوب الارض احساسا بلغتهم فهي ليست في نظرهم، اعظم فنونهم، وحسب، بل خيرهم المشترك ولو سألت معظمهم تعريف ما يعنونه-بالامة العربية- لبادرك الى القول انها تشمل جميع الناطقين بالضاد)[1] فقد تحملت اللغة كثيرا من النهضويين والعصرويين الذين ارادوا اما تركها والتحول الى العامية (ليصبح العرب الناطقين بالدال فيصبح الضبع دبع والضلال دلال او الناطقين بالزي فيصبح نظام، نزام، وعظيم، عزيم!!) او مسخها بتطويرها على الطريقة الاوربية اذ نجد مثلا ان الدكتور ابراهيم انيس عندما يناقش مسألة امكانات اللغة العربية يستبعد اللغة الفصحى، لغة القرآن، ولا يرى الا طريقتين: الاولى تطوير لغة تتسع للاساليب الاجنبية وتصبح (من حيث التركيب وهندسةو الجمل اقرب الى الطريق السائد في اللغات الاوربية ولا سيما الانكليزية والفرنسية)[2] والثاني هو استخدام اللغة الجارية على السنة سكان وادي النيل العامية). اما استخدام اللغة الفصحى والتي هي مشتركة في الاساس فهذا ما لا يرضي ابراهيم انيس وامثاله! ومن اجل سيادة اللغة الاوربية بالتدريج على اللغة العربية يرى قاسم امين انه ليس هناك مبرر لتطوير لغتنا الفصحى بتنقيتها من الالفاظ الاجنبية التي لا مبرر لها واحلال المفردات العربية التي يمكن ان تقوم مقامها بدلا منها اذ يقول: (لا ادري ما هي غاية الكتاب اذا ارادو التعبير عن اختراع جديد يجهدون انفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها. كاستعمال مثلا كلمة السيارة بدلا من الاوتومبيل ان كان القصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها... وان كان قصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى فقد كلفوا انفسهم امرا مستحيلا... اذ لم يوجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها)[3].

---

(1) البرت حوراني: الفكر العربي ص١١

(2) عبدالرحمن البزاز: بحوث في القومية ص١٣

(3) جرجي زيدان: بناة النهضة العربية ص١١٤

القوانين

والقوانين في بلادنا العربية الاسلامية هي الاخرى اقتبست من القوانين الاوربية بالكامل واهملت القوانين الاسلامية حتى كمواد بحث ودراسة من اجل اثراء الفكر!! فبالرغم من ان شاخت الاجنبي اعترف باهمية الشريعة الاسلامية كقانون فقال: (من اهم ما اورثه الاسلام للعالم المتحضر قانونه الديني الذي يسمى-بالشريعة- والشريعة الاسلامية تختلف اختلافا واضحا عن جميع اشكال القانون الى حد ان دراستها امر لا غنى عنه لكي نقدر المدى الكامل للامور القانونية تقديرا كافيا...)[1] وقد فند كلود كاهن، المؤرخ الاجنبي بان الفقه الاسلامي (ابعد الوان الفقه عن الواقع) واعتبره (حكم خاطئ في مجموعة) وقال: (ان الفقه الاسلامي ينطلق من مبدأ الاستجابة لمقتضيات الحياة العملية وبخاصة في كل ما يتصل بالحياة الاقتصادية)[2]. ومع ذلك فان الدساتير في البلاد العربية، ان وجدت وقوانينها كلها نسخت عن الدساتير والقوانين الاوربية. فالسنهوري مثلاً: عندما وضع القانون المصري استقاه من القانون الاوربي فقط وقال عنه متفاخرا: (يمكن القول في طمأنينة ان القانون المصري الجديد... يمثل الثقافة المدنية الغربية اصدق تمثيل ويمثلها في احدث صورة من صورها.. انه استخلاص ما وصلت اليه الثقافة المدنية الغربية في آخر تطوراتها وهذا ما تحقق بالقانون المدني المصري...)[3] ولم يكن عمل السنهوري هذا الا انعكاسا ليس لانبهاره هو فقط بالحضارة الاوربية وانما هو انعكاس لانبهار من سبقه وتطبيقا لدعوتهم في الاقتباس من الغرب منذ عهد الطهطاوي اول الدعاة المبهورين والذي دعا الى اخذ القوانين الاوربية وترجم القانون الفرنسي من اجل دراسته والعمل به في مصر ليصبح بعد

---

(١) شاخت: تراث الاسلام ص٩، القسم الثالث

(٢) تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص٦٩-٧٠

(٣) ندوة التراث وتحديات العصر ص٦٣

ذلك القانون والتشريع الغربي بوجه عام المصدر الوحيد الذي تستلهم منه مصر تشريعاتها[1] وقد مر ذكر دعوة قاسم امين للتغريب وقوله بانه لم يكن للمسلمين قانون مثل قانون الرومان!!!!!

ومن المفارقات التي تحمل في طياتها الكثير من المعاني ان السنهوري نفسه اكد بعد ذلك ان التشريع الاسلامي لم يكن عاجزا عن حل مشكلة وضع قوانين للبلاد اذ قال بعد ان اطلع عليه!!! انه (لا تقل عراقته في ذلك عن عراقة القانون الروماني وهو لا يقل عنه في دقة منطقه وفي متانة الصياغة وفي القابلية للتطور. وهو مثله صالح لان يكون قانونا عالميا. بل كان بالفعل قانونا عالميا...)[2] وطالب بعد ذلك الى دراسة الفقه الاسلامي وصياغة قانون لا يكون (تقليدا للقوانين الغربية ولا محاكاة لها)[3].

وقد انتقد عبدالرحمن البزاز المتأوربين الذين يدعون الى اقتباس القوانين الغربية منتقدين القوانين الاسلامية فقال: (ليت شعري ايدرك هذا النفر من الناس ماهية القوانين حق الادراك او ليست القوانين اقوى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية! اليست القوانين مرايا تعكس حال البلاد العقلية والبيئية والخلقية؟ وهل الشرائع الغربية التي يريدوننا ان نقلدها او ان نستبدل بها شرعتنا، شريعة واحدة؟ ان في الغرب شرائع عديدة، ويكاد يكون لكل امة نظامها القضائي القائم بذاته وان تشابه في بعض النواحي مع النظم الاخرى. فالشريعة الانكليزية تختلف تمام الاختلاف عن الشريعة الفرنسية ويكاد يكون ما بينهما من اختلاف اعظم من الخلاف بين الشريعة الاسلامية والشريعة اللاتينية. في بعض القضايا الاساسية ومع ذلك لم نسمع ان احداً من قادة الرأي من الانكليز يدعو الى استبدال القانون الفرنسي

---

(1) محمد عمارة: التراث في ضوء العقل ص٦-٧

(2) التراث وتحديات العصر ص٦٣٢-٦٣٣

(3) ذات المصدر

بالقانون الانجليزي، ولا عكس ذلك...)[1].

التربية

وان كانت القوانين هي المرايا التي تعكس حال المجتمع فـان التربيـة هـي الجوهر الذي تعكسه هذه المرايا وهي وسيلة المجتمع في تحقيق ذاته وتحديد هويتـه ومع ذلك لم تسلم من التقليد بل ان تقليد اوربا هو الاساس الذي بني عليـه النظـام التربوي في جميع البلدان العربية. فقد اقتبست الانظمة التربوية العربية عن (التربية الغربية بدون ربط كاف لهذه التربية بالقواعد التربوية التي تشمل دين الشعب ولغتـه وتاريخه القومي والفنون والآداب المحلية...)[2] فقد تفاخر طه حسين بذلك، وبكـون الجامعة المصرية والتعليم فيها يتبع النهج الاوربي فقال: (ان التعليم قد اقمنا صرحه ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي على النحو الاوربي الخالص) واننـا (نكّون ابناءنا في مدارسنا الاولية والثانوية والعالية تكوينا اوربيا لا تشوبه شـائبة) واننا قد وضعنا في رؤوس ابنائنا عقولا اوربية في جوهرها وطبيعتها وفي مذاهـب تفكيرها وانحاء حكمها على الاشياء)[3]!!!

اما في تونس فقد اكد محمد مزالي ان البرامج التعلمية فيها (تكاد تكون نسـخة مطابقة للاصل الفرنسي) ويورد قولا على لسان بعض الفرنسيين الذيـن يعـترفون بذلك اذ يقول: (الواقع اننا نقدم للتلامذة التونسيين... مثلا اعلى-برجوازيا- ونمطـا غربيا ينتمي الى مجتمع الاستهلاك الذي ننتسب اليه، مما يورث هـؤلاء التلامـذة شعوراً بالحرمان وكثيرا ما يؤول بهم الشوق لاثبات شخصيتهم الى تقليدنا كـالقردة ومن هنا يبدو التناقض اذ نحن نقدم لهم قيما-غربية- غريبة عنهم في الوقت الـذي

---

(1) عبدالرحمن البزاز: من روح الاسلام ص٨٦-٨٧

(2) انور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص١٣٣

(3) سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص١٨٠

نحن ندعي اعانتهم على اكتشاف قوميتهم التونسية)[1] وهكذا في كل البلاد العربية كان ولا يزال ما يقدم للتلامذة هو تعليم غربي في مبناه ومحتواه مما يفقدهم شخصيتهم المتميزة ايا كانت ويجعلهم اشكالاً بلا هوية.

الاقتصاد

اما في مجال الاقتصاد، فقد تقاسم الفكر الرأسمالي والفكر الاشتراكي الاوربيين الفكر الاقتصادي والحياة الاقتصادية والسياسية في البلاد العربية حيث يدور التصارع وليس الجدل والنقاش فقط بين دعاة الرأسمالية بنظرياتها المختلفة ودعاة الاشتراكية باشكالها المتباينة ، بحسب الانتماءات السياسية، اما الامة التي تختلف بظروفها عن الظروف الخاصة التي افرزت هذين النظامين في اوربا فلم تؤخذ بنظر الاعتبار. فبالرغم من ان هذه الامة تفتقر الى كل مقومات الرأسمالية من تكديس لرؤوس الاموال-قبل فورة النفط- وبناء الصناعات الثقيلة-والخفيفة- والاحتكارات والاسواق والعلاقات التجارية الخ... والتي اجهدت الدول الغربية نفسها من اجل تحقيقها وخاضت الحروب الطاحنة لتوفيرها وتحقيق السيطرة الاستعمارية من اجل نمائها، كما تفتقر الى مقومات الاشتراكية ومبررات وجودها والتي ما قامت اساسا في البلاد التي قامت فيها الا من اجل تحقيق سيطرة استعمارية اخرى عجزت هذه البلاد بنظامها الرأسمالي او الاقطاعي السابق ان تنافس الدول الاخرى لتحقيقها. ولمعالجة شرور النظام الرأسمالي. ولكن كان على الامة ان تقتبس هذا النظام او ذاك. وانحصر اهتمام المفكرين النهضويين في هذين الخيارين ولم يفكروا في خيار ثالث فلا هم تنظروا وابدعوا ووضعوا للامة نظاما جديدا يناسبها يستنبط من ظروفها الاجتماعية بكل مجالاتها، السياسية والعقائدية والبيئية الخ... ولا اتبعوا النظام الاقتصادي الذي ارتضته الامة واتبعته لمدة اثنى عشر قرنا او يزيد قبل ان تقتبس النظم الاوربية وقيمها، وبنت على اساسه حضارة

---

[1] محمد مزالي: وجهات نظر ص٧١

ازدهرت لفترة من الوقت ليست قصيرة. بل العكس، فقد استهانوا بالنظام الاقتصادي الاسلامي وخاصة في مسألة الزكاة والصدقات والذي يمثل بالاضافة الى الضرائب الاخرى نظاما ضريبيا لا يقل عن أي نظام آخر كفاءة بل بالعكس، اذ يتميز عن غيره- بنظري على الاقل وهي نظرة خاصة وليست فقهية- بميزتين اساسيتين: الاولى ان كونه قانونا الهيا متعلقا بالثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ارتبط بمصلحة شخصية خاصة بالفرد ذاته والتي هي ارضاء ربه، وهي مصلحة اسمى واكبر كثيرا في نظر المسلم المؤمن من أي مردود آخر هذا بالاضافة للمردودات المادية التي يعد بها النظام الضريبي الاوربي المنشأ مثل الخدمات التعليمية والعلاجية والمواصلات الخ... مما يجعل من ضمير الفرد نفسه مشرفا على تنفيذ هذا القانون الالهي بدقة وامانة يعجز عنهما أي مشرف على جباية الضرائب على الطريقة الاوربية. فيصبح الفرد نفسه حريصا على دفعها بالكامل من غير تزوير للحقائق وتلاعب في دفاتر الحسابات!!

اما الميزة الثانية: فهي ان الضرائب هذه منها ما هو مفروض ومقنن يعاقب من يزوغ عن دفعها مثل الزكاة والخراج الخ... وهذه توفر مصدرا ثابتا لبيت المال وتربى الفرد على تحمل المسؤولية والالتزام بالقوانين والانظمة. ومنها ما هو اختياري مثل الصدقات التي تشعر الفرد بانسانيته وارادته الحرة التي تضعه في موقف اختيار بين المنح او الامتناع، وموقف امتحان امام نفسه وامام ربه فتدربه على العطاء وتهذب انانيته وحبه للمال، ونجاحه بهذا الامتحان يوفر له الشعور بالانجاز والرضى عن الذات مما بدوره ينعكس على سلوكه في جميع مناحي الحياة فيهذبه. فالزكاة والصدقات اللتان نالتا من الاستهانة والاستهزاء بهما الشيء الكثير يمكن لهما، ضمن نظام اسلامي عقائدي متكامل يؤمن افراده جميعا حكاما ومحكومين، بالقيم الاسلامية التي تأمر بالعدل والمساواة والرحمة والتراحم والتكافل والقناعة والكسب الحلال بالعمل الشريف الخ... وتحرم الاستغلال والاحتكار والجشع والطمع والكسب الحرام والربح من غير حق او من غير عمل وجهد او المبالغ فيه، كما تحرم الاسراف بجميع اشكاله من مأكل ومشرب وملبس وبناء

صروح، على مستوى الأفراد او الدولة الخ... تكونان نظاما اقتصاديا رصينا يحقق بعيدا عن القيم المادية المستوردة الاكتفاء والكفاءة للمجتمع العربي.

السياسة

وفي مسألة السياسة والحكم فرغم ان نوع الحكومات التي تحكم الشعوب ما هي الا (نتيجة طبيعية لحالة الشعب وما يحيط به، ولتاريخه وما كان فيه من احداث...)[1] الا ان مفاهيمنا عن الدولة والحكومة وشؤون السياسة ونظمها جميعا، وباسم التجديد والتطوير والتقدم، انطلقت من الفاهيم الغربية التي نشأت تلبية لحاجات مجتمعات مغايرة لمجتمعاتنا كل المغايرة. وصار التجديد والتقدم وخاصة في المجال السياسي يعني مسايرة الاوربيين في اساليب حياتهم وطرق تفكيرهم واقتباس نظمهم وعلى رأس ذلك يأتي النظام البرلماني والحكم الديمقراطي وفصل الدين عن السياسة والدولة وابعاده عن مجالات الحياة والدنيا واعتماد الجامعة القومية او الوطنية الاقليمية التي تقوم على المصالح المشتركة بدل الجامعة الدينية حتى صارت الدعوة الى اقتباس المفاهيم الاوربية هذه وتطبيقها دليل تقدمية الداعي وتحرره ووطنيته واخلاصه ايضا!!! وكل من يرفض هذا السيل من المفاهيم، المنهمر من اروبا وينبه الى مخاطرة في تحقيق تبعية الامة للاجانب وسلبها شخصيتها ومقوماتها، ويشكك في مدى مصداقية هذه المفاهيم الاوربية والتي هي ان صدقت على مجتمعات اوربا واثبتت جدواها في حل مشكلاتهم فلا يعني انها ستصدق على مجتمعاتنا وتكون مجدية في حل مشكلاتنا فهو متخلف ورجعي ونصير العبودية وعدو للشعب!!!! فصارت النظم السياسية الاوربية هي المثل الاعلى وهي القدوة الحسنة وخاصة مسألة الديمقراطية!! التي اقام الدعاة الدنيا من اجلها ولم يقعدوها بعد حتى الآن. وبالرغم من كل التجارب الفاشلة منذ العهد العثماني حتى يومنا هذا والتي ازالت الثقة بجدوى البرلمانات والانتخابات حتى ان

---

[1] احمد امين: ضحى الاسلام جـ٢ ص١-٢

البعض يشك في جدواها حتى قبل ان تتم، الا ان الدعاة لا يزالون يرجعون الفشل الى الحاكم المستبد تارة والى الشعب الجاهل تارة اخرى، ولكن ليس الى الديمقراطية نفسها كنظام يحمل في ذاته مقومات فشله. فانبهارهم به كنظام اوربي معصوم عن الخطأ اعجزهم ليس فقط عن اتباع نظام آخر خاص بالامة يناسبها وينطلق من آمالها وطموحاتها وفلسفتها وقيمها ويستنبط من واقعها بكل سلبياته وايجابياته، بل اعجزهم ايضا عن محاولة تطويره وتهذيبه ليناسب هذا الواقع. وكما اقتبسوا الدساتير والبرلمانات واسلوب الحكم الديمقراطي فكذلك اقتبسوا كل افكارهم السياسية. فقد دعوا للامركزية لتشبه مثيلتها في سويسرا وامريكا! ودعوة للخلافة الاسلامية العربية التي مقرها الحجاز وحصر السلطة الدينية فيها لتكون مثل بابوية روما!! حتى جامعة الدول العربية ما قامت الا على غرار الجامعة الاوربية او الامم المتحدة فكانت نسخة مشوهة منهما، كما صارت منظماتها نسخا مشوهة من منظمات الامم المتحدة سواء في فكرها ام اهدافها ومنطلقاتها ام في اساليبها. حتى عندما يظهر عجز ما في جامعة الدول العربية يستحق التعديل والتغيير فان المعيار والقدوة والحل مستورد من اوربا او الامم المتحدة. فنجد مثلا محمود رياض، امين عام جامعة الدول العربية، عندما وجد خللا في قانون الجامعة واراد تعديله طالب باجتماعات دورية للرؤوساء مثل اوربا اذ يقول: (... فحين استلمت عملي في الجامعة كأمين عام سنة ١٩٧٣ طلبت عقد اجتماعات دورية للرؤوساء العرب في كل عام وصدر بذلك قرار عام ١٩٧٣ في قمة الجزائر ذلك ان قناعتي باهمية هذه الاجتماعات واسعة... لتذليل العديد من الصعوبات التي تعترض العمل العربي المشترك اثناء التنفيذ... وفي ذهني على الدوام المجموعة الاوربية يجتمعون ثلاث مرات في السنة... ويجتمع وزراء دول المجموعة احدى وعشرين مرة في العام الواحد. اضافة للاجتماعات الاستثنائية)[١].

واسلوب الاجتماعات والمؤتمرات والحوار في حل المشكلات والمقتبس من

---

[١] عن جريدة الرأي الاردنية ١٩٨٩/٣/٨

اوربا انتشر في حياتنا اليومية حتى صار مثلما هو هناك مثار سخرية وقفشات. فقد كتب هكسلي كتابا بعنوان القيان (les call) ويقصد بهذا الوصف العلماء والمفكرين الذين (اصبحوا يتجولون بين عواصم الدنيا بعنوان المشاركة في الملتقيات الدراسية والمؤتمرات العلمية، ويتباحثون من دون حوار حق، أي من دون ان يتم بينهم الاتصال الحقيقي والتعاون المثمر فكل يتبرج بآخر ما اكتشف، وكل يختال في محدث نظرياته ومغرب تخميناته وكل يحاول اغراء الآخر لايقاعه في حبال منطقه! وكل قينة باختصاصها وخاصيتها معجبة)[1].

وكأنهم لم يكفهم ما شوهوا في الماضي من التاريخ والعقيدة وما خربوا من الحاضر الذي كل شيء فيه يصرخ بعجزهم ويدينهم فقد اتجهوا للمستقبل وباسم دراسات مستقبلية تحولوا الى عرافين يتكهنون بما سيحدث فيه لا من اجل التأثير فيه بقدر ما هو تقليد للغرب في هذا المجال، وليصلوا، بعد كلام كثير وكلمات ومصطلحات رنانة، يعرضون بها زينتهم، الى ذات النتائج التي وصلت اليها الدراسات الاوربية المشابهة او الام. متناسين ان المستقبل هو ابن الحاضر ولكن ليس ابن الصواريخ والكومبيوترات وغير ذلك من المكتشفات والمصنوعات فقط، وانما هو ابن الانسان ابني الانسان تبني المستقبل وتسهم في تشكيله، فاي انسان هذا الذي بناه اصحاب النهضة؟!! يقول محمد مزالي ان (المستقبل قد يتجه اتجاهات مختلفة ويمر بمتعرجات متباينهة...) مما يستلزم (الاتجاه للانسان بوصفه اول الحضارة وآخرها وعلى اساس ان تغيير الانسان ما بنفسه ضروري لتغيير الاشياء)[2].

الدين والتراث

وحتى دين الامة ومقدساتها وتراثها وتاريخها لم ينظر اليهم ابناؤها المتأوربون

---

(١) محمد مزالي: وجهات نظر ص٢٥٥-٢٥٦

(٢) ذات المصدر

الا بعيون الاوربيين ومن خلال مفاهيمهم وكتابات ساستهم ومستشرقيهم المتحيزين ضدها. فعلى سبيل المثال، عندما يعالج البزاز مسألة التاريخ المشترك للامة وترك او اهمال (كل ما يسيء الى هذا القدر العام المشترك، وكل ما يدعو الى تثبيط العزائم واثارة الإحن والاحقاد) يستشهد على ذلك بآراء رينان الذي يقول لابناء قومه: (ان الامة-اية امة- لكي يتم توحدها وتشعر بجلال تاريخها العام المشترك لا بد لها ان ينسى جزءا من هذا التاريخ) ثم يعود فيؤكد اننا في (دراسة تاريخنا والنظراليه على هذه الشاكلة ليس بدعا من الناس ان كل الامم الحية تدرس تاريخها العام المشترك وتعرضه على هذه الصورة المتكاملة الجامعة، هكذا تفعل المانيا، وهكذا تفعل انجلترا) ثم يستشهد بمثل عن اعتزاز بريطانيا رغم اختلاف عناصرها بلغتها وادبائها ويدعو العرب للحذو حذوهم[1]. واستدعى طه حسين المستشرقين الاجانب لتدريس الدراسات الاسلامية وكان يراهم افضل من يستطيع ذلك. كما كان جزء كبير من الحملة ضد على عبدالرازق وكتابه "الخلافة واصول الحكم" بسبب اعتماده المراجع الاجنبية في علاج موضوع يخص عقائد الامة وتقاليدها وقد عمل دعاة الحضارة الاوربية على نقل حجج عصر التنوير الاوربي الذي تميز بالثورة على الكنيسة وفصل الدين عن الدولة الى الدين الاسلامي. كما عالجوا الاسلام كعقيدة وتقاليد من خلال وجهة نظر المستشرقين الاوربيين المتحيزة، ضده والتي تقوم على اساس ان:

١.الدين الاسلامي دين بشري وضعه محمد ﷺ ومن هنا جاء اسم المحمديين في كتاباتهم.

٢.ومحمد ﷺ هو مجرد مصلح اجتماعي له شخصية مبدعة وعبقري اراد ان يستغل المقدسات الدينية في مكة لصالح دعوته واراد ان ينافس الزعامة القائمة بمكة وان يكون صاحب سلطة فاسبغ على دعوته الاصلاحية ثوب الدين الالهي.

---

[1] عبدالرحمن البزاز: بحوث في القومية ص٢٥٠

٣.والقرآن هو كتاب وضعه محمد ﷺ متأثرا بالتعاليم الدينية اليهودية والمسيحية مع تحريفها وتغييرها بشكل يناسب مجتمعه المكي البدوي ووفقا لما اقتضته ظروف الزمان والمكان ولا يصلح لغيرهما.

٤.ومصادر الاسلام هي ليست القرآن والسنة وحدهما كما يؤمن المسلمون وانما يشمل كل المذاهب وكتابات الاوائل وممارسات الامة عبر العصور وقبل ان يفصل الدين عن الدولة في اوائل هذا القرن[١].

ومن هنا جاءت مسألة القديم والحديث في التعامل مع الاسلام، فكل ما يتعلق بالدين هو قديم لا بد من تبديله بالجديد الاوربي! وجاءت مسألة اطلاق صفة-الاسلامي- على كل ما ظهر في تلك الفترة، حضارة اسلامية، تاريخ اسلامي وزخرفة اسلامية وعمارة اسلامية الخ...

وقلد المجددون، وحتى الآن، هذه النظرة الى الاسلام كدين وللقرآن كدستور منطلقين من ذات الاسس وعاكسين ذات المفاهيم. وان كانت كتابات البعض قد عكست تأثرهم بهذه المفاهيم فقط فان كتابات البعض الآخر جاءت مؤكدة لها مثل اسلاميات طه حسين وعبقريات العقاد وغيرهم الكثير، مما شوه الدين وشوه التراث وشوه التاريخ. فصار الاسلام صراعا طبقيا وثورة الطبقة الكادحة المستبدة على الطبقة البرجوازية!! مع ان عليا كان (سيد بني هاشم وعثمان شيخ بني امية، وطلحة سيد بني تيم والزبير زعيم بني أسد، وسعد بن ابي وقاص وعبدالرحمن بن عوف رئيسا بني زهرة)[٢] وحركة القرامطة صارت نضالا طبقيا وثورة فلاحية اشتراكية!! كما يراها محمود اسماعيل في كتابه الحركات السرية في الاسلام ودليله على ذلك هو انه (لما خرج الحسين الاهوازي داعية الى العراق لقى حمدان بن الاشعث بسواد الكوفة... ومعه ثوره ينقل عليه فتماشيا ساعة...) فكان ذلك كما يرى

---

(١) محمد البهي: الفكر الاسلامي المعاصر ص١٧٩-١٩٨

(٢) عبدالعزيز الدوري: تاريخ صدر الاسلام ص٤٩

الباحث (دلالة واضحة على طبيعة الحركة كثورة فلاحية ذات طابع اشتراكي)[١]!!! والحق كله على الاهوازي هذا الذي لم يتنقل بالمرسيدس الشبح ليصبح رأسمالياً! وهكذا صارت الثورة والصراع الطبقي هي السمة التي يسم بها الكتاب المجددون!! كل حوادث التاريخ وكل ما يسود حولنا اليوم فحتى مسألة التجديد والتقليد والتي تشغل المفكرين منذ اكثر من مائة عام ما هي في نظرهم الا صراع بين الطبقات، اذ يقول احدهم: (والصراع بين التجديد والتقليد على صعيد الفكر والايدولوجيا هو بصورة ما، انعكاس للصراع الطبقي على الصعيد الاجتماعي)[٢] فدعاة الاصالة يمثلون طبقة اجتماعية اقطاعية ودعاة المعاصرة يمثلون مصالح طبقة برجوازية كما يرى البعض او يمثلون مصالح الطبقة الكادحة كما يرى البعض الآخر!!! مع ان اهم ما يميز المجتمع المسلم الحقيقي هو غياب الصراع الطبقي لا لانه ليس فيه فقراء وموسرون ولكن لان ذلك لا يمثل حدودا طبقية لا يمكن تعديلها بالعمل والجهد فمن (كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدقوا خير لكم)[٣] وحتى بعض المستشرقين رفض هذه النظرة الى الحوادث التاريخية واسقاط مفاهيم اليوم على تلك الحوادث فنجد كلود كاهن يرفض اعتبار الحركة القرمطية (حلقة من حلقات النضال الطبقي) والحاقها بنضال (طبقة بروليتارية) فهي كما يرى، (حدثت في مجتمع متجانس يتمتع بحياة اقتصادية بسيطة جدا) ولذلك (لا يحق لنا ان نتحول من ملاحظة الواقع الى ما نرجوه في بلاد اخرى)[٤].

ولم يقتصر تقليد المجددين لاوربا على المفاهيم والقيم التي عولج من خلالها التاريخ والتراث وانما هم اصلا (لم يهتموا بالتراث العربي والاسلامي الا من قبيل

---

(١) انظر ص١٧٠

(٢) ندوة التراث وتحديات العصر ص٥٧

(٣) البقرة: ٢٨٠

(٤) تاريخ العرب ص١٧٨-١٧٩

الموضة: على حد تعبير الاستاذ بوتول وقد جاءت الى البلاد العربية من اوربا شأن سائر الموضات)، حيث اهتموا به من باب التقليد للاوربيين كاهتمامهم بمقدمة ابن خلدون اذ (... رأوا الاوربيين يعجبون بها اعجابا كبيرا. فأخذوا يتهافتون على اقتنائها وعلى المطالعة فيها)[1] ولهذا نجد مثلا ان محمد عبده بعدعودته من باريس حيث عمل مع الافغاني بالعروة الوثقى حاول (ان يقنع الانبابي شيخ الازهر حينذاك بتدريس المقدمة في الازهر، ووصف فوائدها واهمية دراستها، فأجابه، الانبابي بأن العادة لم تجر بذلك...)[2] كما نرى ان من مظاهر تقليد اوربا بالاهتمام بالتراث ان المجددين الاوائل وحتى اليوم، لا يهتمون من كتب التراث الا بكتب ابن رشد وابن سينا والفارابي لأن هؤلاء من كانت اوربا تهتم بكتبهم ولا يعتبرونهم مسلمين ولا يعتبرون كتبهم كتبا في الاسلام اذ يعتبرونهم ملحدين ومن هنا جاء قول رينان عن الافغاني انه لما قابله وجد نفسه وجها لوجه امام واحد من الملاحدة الاوائل مثل ابن رشد وابن سينا![3] كما يعتبرون فلسفتهم هي مجرد نقل لفكر اجدادهم الاغريق والرومان ودورهم فيها هو دور وسطاء حفظوا هذا التراث الاغريقي-الروماني واوصلوه لهم! ومن مظاهر تقليد المجددين لاوربا في اهتمامها بالتراث والدراسات الاسلامية ايضا ما يبدو في تأكيد طه حسين على ضرورة اهتمام كلية الاداب في الجامعة المصرية بالدراسات الاسلامية لا لشيء الا لتحقيق اهداف الاوربيين اذ قال: (لان كلية الاداب متصلة بالحياة العلمية الاوربية وهي تعرف جهد المستشرقين في الدراسات الاسلامية، ومن الحق عليها ان تأخذ بنصيبها من هذه الدراسات لتلائم بين جهودج مصر التي ترى لنفسها زعامة البلاد الاسلامية، وبين جهود الامم الاوربية)[4]!!!!

---

(1) علي الوردي: منطق ابن خلدون ص ٢٥٩

(2) ذات المصدر ص٢٦٠

(3) احمد امين: زعماء الاصلاح ص٩٨

(4) محمد البهي: الفكر الاسلامي المعاصر ص١٧٣-١٧٤

ولم يكتف المجددون باعتماد معيار اوربا في معالجة التراث بل حتى عندما فرض عليهم هذا التراث ضرورة مواجهته استنجدوا باوربا وقلدوها في كيفية مواجهته والتعامل معه. فنجد مثلا، زكي نجيب محمود، بعد ان يؤكد تردده فيما اذا كان بالامكان الاخذ عن التراث ام نبذه كليا يقول: (فجأة وجدت المفتاح الذي اهتدي به، ولقد وجدته في عبارة قرأتها نقلا عن هربرت ريد اذ وجدته يقول انني لعلى علم بان هناك شيئا اسمه (التراث)ولكن قيمته عندي هي في كونه مجموعة من وسائل تقنية يمكن ان نأخذها عن السلف لنستخدمها اليوم ونحن آمنون بالنسبة الى ما استحدثناه من طرائق جديدة! فمثلا هنالك طريقة استخدمها السابقون في حزم الدريس واخرى استخدموها في نظم المقطوعات الشعرية (السوناتا) ونستطيع ان نعلم هذه الطريقة او تلك لمن يشاء ان يتعلم...)[1] ثم يقول: (انني وجدت في هذه العبارة مفتاحا للموقف كله فماذا عسانا ان نأخذ من تراث الاقدمين؟ الجواب هو اننا نأخذ من تراث الاقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقا عمليا فيضاف الى الطرائق الجديدة المستحدثة فكل طريقة للعمل اصطنعها الاقدمون وجاءت طريقة جديدة انجح منها كان لا بد من اطراح الطريقة القديمة)[2]!!!

وهكذا فان اوربا هي القدوة وهي المعيار فحتى كيفية الاختلاف وكيفية حل الخلافات لا بد ان نتعلمه كما يرى مفكرونا! من الدول الاجنبية المتقدمة!! فالدكتور يحيى الجمل يقول: (المتحضرون هم الذين يعرفون كيف يختلفون وكيف يوظفون هذا الخلاف لكي يصبح بداية الاتفاق ذلك على حين اننا في الوطن العربي-واخشى اقول في العالم الاسلامي كله- لا نعرف كيف نختلف... واسباب الاختلاف بين المتحضرين في عالمنا المعاصر اعمق واشد حدة من اسباب الخلاف بيننا ومع ذلك فهم يواجهون خلافاتهم على نحو مغاير تماما لما نواجه به خلافاتنا... علينا ان نعرف كيف يديرون خلافاتهم وكيف ندير خلافتنا لعلنا بذلك نضع ايدينا على كنه

---

(١) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر ص١٧

(٢) ذات المصدر ص١٧-١٨

الداء وبداية الدواء...)[1].

المعيار

فمعيارهم هو دائما ذلك المعيار الاوربي الذي هو ميزان لا يختل ابـدا! فنجـد مثلا ان طه حسين يؤكد ان مصر هي جزء من اوربا وانها تسـير علـى النـهج الاوربي في الملابس والطرق الحديدية والتلغراف والتلفون وطرائق الطعام وآدابـه ووسائله بحيث يمكن القول (ان مقياس رقي الافراد والجماعات في الحياة الماديـة مهما تختلف الطبقات عندنا انما هو حظنا مـن الاخـذ باسـباب الحيـاة الماديـة الاوربية)[2]. ويؤكد زكي نجيب ايضا ان المعيار الذي نقيس به هو المعيار الاوربي اذ يقول بعد ان يدعونا الى ان نعيش عصرنا! انه (لعزيز على نفسـي ان اقولـها صريحة وانه كذلك لعزيز على نفوس القراء ان يسمعوها، لكنه حق لا منجاة لنا من مواجهته، وهو ان نموذج القياس انما هو الحياة العصرية كما تعاش اليوم، في بعض اجزاء اوربا وامريكا...)[3].

وهناك الكثير من الشواهد التي مرت بنا والتي نشاهدها فيما حولنا والتي تؤكـد علىان الصحيح في نظر مفكرينا هو ما صح في الدول المتقدمة الاجنبية والخطأ هو ما خالف ذلك الصح الذي هو دائما صحيح وراق ومتقدم حتى لو كان يتمثل بالكذب والغش والخداع والاستغلال والابتزاز... ومثال على ذلك ما رواه امين هويدي فـي كتابه، (كنت سفيرا في العراق) من ان رئيس الحكومة آنذاك وبناء علـى اقـتراح مستشاره، اعلن قبل اصدار القوانين الاشتراكية في العراق بساعات انه ليس في نية الحكومة اجراء أي تأميمات ثم عاد ليذيع بنفسه قرارات التأميم) مما عرّضه للنقـد

---

[1] المنتدى العدد الحادي والعشرون السنة الثانية حزيران ١٩٨٧

[2] سعيد اسماعيل: الفكر التربوي العربي الحديث ص١٧٩

[3] زكي نجيب: ثقافتنا في مواجهة العصر ص٢٠٦

من قبل المعارضين على اعتبار ان هذا لا (يدخل تحت عنوان المباغتة اذ نتج عـن هذا الاسلوب خسائر معنوية وفقدان ثقة لا يقدران بثمن) فما كان من هذا المستشـار (الذي قـام باعـداد التشريعات اللازمة للتأميم) الا ان رد بالرد المفحم!! وهو انه (لا يمكن ان يعاب علىرئيس الوزراء انكاره للتأميم قبل حدوثة فالواجب كـان يحتم عليه ذلك) مستشهدا بوزير الخزانة البريطاني في عام ١٩٤٩ الذي انكـر ان الحكومة ستقدم على تخفيض سعر الجنيه الاسترليني وفي اليوم التالي اعلن بنفسـه قرار التخفيض)[١]... فبطل الكلام!!!

النماذج

وهكذا استمر التقليد والدعوة الى التقليد حتى اصبح وكأنه اسلوب في التفكير لا يستطيع مفكرونا الفكاك منه فما ان تعرف احدهم على امر حدث في دول الغـرب المتقدمة حتى دعا الى اقتباسه وما ان قرأ عن فكرة حتى دعا الى تطبيقها واصبـح من اكبر دعاتها ولم يعد يقتصر الانبهار على المنتجات الغربية بل تعداه الآن الـى كل ما هو اجنبي فعلى سبيل المثال نجد ان الدكتور عبدالله عبدالدائم يمتدح التجربـة الهندية التي بدأها غاندي والتي عرفت باسم التربية الاساسية والتي تسد نفقاتها بذاتها وتقوم في القرى ويكون محورها–مهنة الغزل والنسيج– اليدوية المنتشرة مما حـل مسألة نقص الموارد المتاحة للتربية فحقق في نظر عبدالدائم نموذجا تربويا جديـدا وفعالا فدعا وباسم الاصالة والحداثة!! الى اقتباسها فقال: (يمكن الاستفادة منها فـي الوطن العربي من اجل اقتباسها وتكييفها مع اوضاعنا. وذلك في نظرنا هو المعنـى الصحيح والعملي للاصالة والحداثة. فالاصالة والحداثة في نظرنا تكمنان في بنـاء تجربة جديدة، عناصرها متعددة ومصادرها متنوعة ولكنها في النهاية مفصلة علـى قدر حاجات الوطن العربي وواقعه واهداف مستقبله)[٢]!!! وما ان قرأ حسني عايش

---

(١) هويدي: كنت سفيرا في العراق ص٢٠٣-٢١٢

(٢) ندوة التراث وتحديات العصر ص٢٩٨

كتاب (تعليم المواطن الامريكي من اجل المستقبل •وتقرير امة معرضة للخطر) والذي يدعو فيما يدعو اليه الى ضرورة تمسك الامريكيين بنموذجهم التربوي رغم عيوبه والتمسك بالتراث الامريكي ورفض النماذج الاجنبية، حتى اعلن حسني عايش ان (التقريرين يقدمان خدمة مجانية لكل دولة في العالم تؤمن بالتشخيص والتقييم والتقويم والتقدم على الطريقة الغربية وبخاصة الامريكية...) وقال: (ان الرسالة الواردة في التقريرين واضحة، فهل يريد العرب هذا النموذج القائم على العقلانية والعلمانية والمرونة الديمقراطية، ام انهم يفضلون الاقامة الدائمة في الماضي؟...)[١]!!

وهكذا تعدت دعوة التغريب الافكار والنظريات وصارت الى تقليد نماذج حتى صار التساؤل المطروح في احدى الندوات أي النماذج في الحكم نتبع؟، النموذج المعاصر ام النموذج الاسلامي؟ فلم تعد تقتصر الدعوة التغريبية على اقتباس تجربة من الهند واخرى من الصين او من روسيا او من اليابان الخ... بالاضافة للدول الاوربية وامريكا وكندا واستراليا وصاروا يدعون الى اقتباس نماذج جاهزة من هذه او تلك من هذه الدول، اما ماذا يبدعون؟ فلا شيء، الكل مبهور يعرض فكر هذا وذاك من المفكرين الاجانب ونموذج هذه الدولة او تلك من الدول الاجنبية وكأنها جميعا ليس في الامكان افضل منها. ومن المفارقات انهم لا يقدمون للامة الا كلاما ليس فارغا فقط، في اغلب الاحيان، وانما هو مستورد ايضا، الا انهم يستهينون بحضارة الامة ويروجون للمفهوم المقتبس عن المستشرقين الاجانب في انها كلام في كلام ولا تباع بشروى نقير كما يذكر علي محافظة في كتابه الاتجاهات الفكرية عند العرب[٢].

فزكي نجيب يستهين بما سماه الكلامولوجي وقال اننا لا (نزال الى يومنا هذا

---

(١) المنتدى العدد ٢٥ المجلد ٣ أكتوبر ١٩٨٧

(٢) ص٢٠١

ننسج حياتنا على المنوال القديم نفسه فصدور تضطرم بمشاعر الغضب والرضا والسنة تنطلق بالتعبير عما في الصدور، تعبيرا بالشعر حينا وبالنثر احيانا...) بينما الحضارة اليوم تقوم على الالة (والاجهزة العلمية التي عن طريقها نستدبر حضارة ونستقبل اخرى! فقل لي الى أي حد استطاعت امة ان تشارك في صنع هذه الاجهزة العلمية، اقل لك كم سارت تلك الامة في شوط الحضارة العصرية)[1]. ويقول حسن صعب ان (العقل العربي لا يزال منصرفا عن صناعة الاشياء الى صناعة الكلمات... ولا يقارب العقل العربي الطبيعة منفعلا بها فاعلا انه يقاربها مشدوها... بدل ان يقاربها... مخترعا مبدعا... يجاري في استخدام التكنولوجيا الحديثة بدون ان يباري في اختراع ايه الة من الآتها)[2] مع انه مثل زكي نجيب وغيره لم يتقنوا الا صناعة الكلام، المستورد ايضا!! فهو نفسه وفي صفحة ١٤٣ من ذات الكتاب يتكلم عن علاقة الانسان بالانسان التي انقلبت (من علاقة قدروية او سلطوية الى علاقة حريوية)[3]والتي هي كلها اصطلاحات لصناعة الكلام تسيء اليه اكثر مما تفيده وتغنيه! وليس هناك من يعترض على اهمية الابداع واختراع الاجهزة والالات بل العكس فانه ما كان لنا ان نستخدم ايا من هذه الاجهزة والمخترعات العلمية ونتعود عليها الى حد استعبادها لنا، حتى نخترعها ونصنعها بانفسنا، وليس بتجميع اجزائها المستوردة، وبعد ذلك يحق لنا استخدامها والتمتع بميزاتها والتفاخر بوجودها كمظهر حضاري!! يعكس تقدمنا نحن وحضارتنا نحن. ولكن لماذا هذا الاسراف في كل شيء حتى في المدح والذم؟ ولماذا هذا الاسراف في الاستهانة باللغة وبالكلام وهو اول الفكر، فكل فكرة علمية تبدأ بمعنى لكلام في ذهن صاحبها!! وانا لا اطالب هؤلاء المستهينين بالكلام بابتكار اجهزة علمية فهي ليست من اختصاصهم لان صناعتهم الكلامولوجي ولا شيء غيره فماذا ابدعوا فيه سوى النقل عن هذا وذاك

---

(١) زكي نجيب: هذا العصر وثقافته ص١٧٠

(٢) الانسان العربي وتحدي الثورة العلمية ص١٥٨-١٥٩

(٣) ذات المصدر ص١٥٧

بانبهارشديد وترداد مقولات الآخرين؟ اية نظرية في العلوم الانسانية التي من اختصاصهم ابتدعوا؟ فهل اخترعوا او ابتدعوا الا هذا الكم من الاصطلاحات التي تسيء الى صناعة الكلام التي هي اختصاصهم! مثل التي جاءت اعلاه ومثل التاريخانية والسلطة البطريركية، الخ...ثم لماذا تحول الكثيرون من مفكرينا من مجالات العلوم والتقنيات الى مجال الكلام، منذ ان تحول شبلي شميل من الطب الى الكلام وحتى اليوم ما داموا يستهينون باهمية الكلام؟!!

وحسن صعب مثلا يعتبر التراث حجابا يمنع العقل من رؤية الحقيقة فيقول: (ان معضلة التراث هي معضلة الحجاب الذي يمكن ان يسدل على العقل فيحول بينه وبين حقائق الحاضر ورؤى المستقبل) ويرى (التحرر من الحجاب الوراثي) هو (مسؤولية النخبة القيادية الرائدة) ولكن مفهومه عن هذه النخبة القيادية لم يحدده هو بنفسه وهو قد تحرر من حجاب التراث!! بل يحدده عدد من المفكرين الاوربيين فيقول: (تتزواح نظرتنا لهذه النخبة القيادية بين مفهوم توينبي للقيادة الخلاقة الصانعة للحضارة ومفهوم سمبوتر للقيادة الريادية الاقتصادية والمفهوم الماركسي للقيادة الثورية ومفهوم هاربسن ومايرز الاوسع للقيادة التي تشغل مواقع استراتيجية في العملية الانمائية)[1]. وهذا يذكرني بقول سوكارنو (ان افكاره السياسية تختلف عن افكار سائر الزعماء ولكنها توائم اندونيسيا اذ هو (اخذ-نقطا- من تيتو وسالازار وديجول وايزنهاور ونهرو. وتأثر بماركس وانجلز وجوربس وسن يات سن وغاندي وجيفرسن. لقد اخذ ما يريد من كل المذاهب والكتابات) فاصبح بذلك منفردا عن سائر الزعماء!! ولكن السؤال، ماذا بقى لفكر الامة الاندونيسية وحاجاتها التي لم تذكر؟ وكذلك الحال في رؤية حسن صعب، ماذا عن فكر الامة في مفهوم القيادة التي ستقودها؟!!! وماذا ابدع هو نفسه؟!!

فليس التراث في نظري هو الحجاب الذي يحول بين العقل ورؤية حقائق

---

(1) حسن صعب: العرب وتحدي الثورة العلمية التكنولوجية ص١٥٧

الحاضر، ولا يمكن ان يكون كذلك، وانما الحجاب الحقيقي الذي يحول بين المفكرين النهضويين ورؤية الحقائق كلها ويحول بينهم وبين الابداع هو ذلك الوهم الذي غرقوا فيه والذي يجعل من التراث سلبا ومن الحضارة الغربية المعاصرة ايجابا. فلو ان صاحب مقولة الحجاب اعلاه، رفع الحجاب الوهمي بينه وبين التراث لوجد ان اصحاب هذا التراث ابتدعوا مفهومهم الخاص بهم عن القيادة ورفضوا تقليد مفاهيم الآخرين ونقلها كما هي، ولامكنه هذا من ان يجتهد ويبتدع مفهومه الخاص في النخبة القيادية بدل هذا الخليط الذي يشبه حساء الصدقات او مسبحة الدراويش.

فالبيروني مثلا يرى ان الاكتفاء بالنقل عن الآخرين (بالغة ما بلغت شهرتهم جرأة تقتضي التبرير وتستلزم الاعتذار...) وفي مقدمة القانون المسعودي قال: (ولم اسلك فيه مسلك من تقدمني من افاضل المجتهدين... وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان ان يعمله في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدم بالمنة وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة، خاصة فيما يمنع ادراك صحيح الحقيقة فيه من مقادير الحركات وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه الزمان، واتى بعده، وقرنت بكل عمل من كل باب من علله وذكرت ما توليت من عمله ما يبعد به المتأمل عن تفكيري فيه ويفتح له باب الاستصواب لما اصبت فيه، او اصلاح لما زللت عنه او سهوت في حسابه)[1] اذ هو لم يكتف بعدم التقليد بل فسح المجال لمن يأتي بعده للابداع واصلاح ما زل هو عنه او سها في حسابه!! وهو عكس ما يفعله المعاصرون الذين يريدون نفض ما في رؤوس ابناء الامة ليضعوا فيها ما اقتبسوه من الغرب.

والغريب ان دعاة النهضة والتجديد لا يرون اتباعهم للحضارة الاجنبية المعاصرة وتقليدهم لها في كل شيء تقليدا او تبعية معيبة او عبودية مذلة يعملون على التحرر منها!! وانما يعتبرونه تجديدا وابداعا. فالتقليد والجمود بالنسبة لهم هو

---

(١) توفيق الطويل: من تراثنا العربي الاسلامي ص٢٦

فقط فيما يعتمد الدين الاسلامي وما ينقل عن التراث. فقد عاب كل مـــن الافغـــاني وعبدة والكواكبي وكثيرون غيرهم على المسلمين تقليدهم وجمودهم هذا!! ورغـــم ان محمد عبده نبه في بعض المواقع عن مضار التقليد للاوربيين ولكن لا لما يؤدي اليه التقليد من تبعية وعجز عن الابداع وفقدان لشخصية الامة بقدر مـــا هـــو لاســـباب اخرى تتعلق برغبته، من اجل مهادنة الاحتلال، ان يتهيأ الناس بالتربيـــة اولا وان يبدأوا من البدايات التي بدأت بها اوربا، حتى يكون التقليد والتغيـــير ارســـخ فـــلا يتراجع. اما فيما عدا ذلك، فقد دعا الى تقليد اوربا وهاجم المسلمين ورجال الديـــن الذين يرفضون تقبل الفكر الاوربي. ومن قوله في التقليد: (ان المقلد يكـــون دائمـــا احط حالا واخس منزلة من المقلد. –فالمقلد– انما ينظر من عمل المقلد– الى ظاهره ولا يدري سره ولا ما يبنى عليه، فهو يعمل على غير نظام ويأخذ الامـــر لا علـــى قاعدة. ولذلك سقط المسلمون في شر مما كان عليه مقلدوهم، ولا سيما انهم خلطـــوا في التقليد، واضافوا الى دينهم ما لا يمكن ان يتفق معه فصاروا فـــي مثـــل حـــال المتخبط الذي تتنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آناً ثم ينتهي امره بعـــد الخيبـــة بالتعب الشديد، فيستلقي الى ان يستريح فينهض الى العمل على هدى او يموت. لمـــا كان المسلمون علماء كانت لهم عينان عين تنظر الى الدنيـــا والاخـــرى تنظر الـــى الآخرة فلما صفقوا يقلدون اغمضوا احدى العينين واقذوا الاخرى بما هـــو اجنبـــي عنهم ففقدوا المطلبين ولن يجدوهما الا بفتح ما اغمضوا او تطهير ما اقذوا)[1] وهـــو بهذا يقصد تقليد المسلمين لدينهم وتراثهم ولا يرى ان هذا ينطبق عليه كداعية للفكـــر الغربي كما ينطبق على هؤلاء. خاصة وانه، مع الافغاني خلط مثل حال المتخبـــط فدعا الى الثورة ثم عاد الى الدعوة للاصلاح بالتربية ثم دعا مرة اخرى الى الثـــورة مع عرابي ثم عاد مع كرومر الى دعوة الاصلاح بالتربية، وفعلا اغمـــض احـــدى عينيه واقذى الاخرى بكل ما هو اجنبي. وكذلك فعـــل غـــيره مـــن رواد النهضـــة العربية! وغيرهم من المعاصرين فالكواكبي رغم ان كتابه طبائع الاستبداد نسخة من

---

[1] محمد عمارة: الاعمال الكاملة، محمد عبده، جـ٣ ص٣٤٤-٣٤٥

افكار روسو والفيرو، ودعوته للخلافة العربية نسخة منسوخة عن البابوية وعن دعوة بلنت وعازوري، الا انه لام المسلمين على التقليد فقال: (يا قوم انتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل، وبداء الحرص على كل عتيق...) ويا قوم (الى متى هذا النوم، والى متى هذا التقلب على فراش البائس ووسادة اليائس؟ انتم مفتحة عيونكم ولكنكم نيام، ولكم ابصار ولكنكم لا تنظرون، وهكذا لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)[1] اذ هو لم يرى ما دعا اليه من لامركزية مثل النظام السويسري او الامريكي العلماني او النظام البابوي الديني او غيره مما دعا اليه، تقليدا وانما رأى التقليد فقط فيما يفعله المسلمون في اتباع دينهم وتراثهم، هذا هو في نظره كما في نظر غيره تقليد مرفوض ومدان!! ثم من يا ترى كانت عيونهم مفتحة وهم نيام، هل هم المسلمون الرافضون للتبعية وللغرب الاوربي الطامع فيهم، والذين توقعوا ما سيحدث ان هم قبلوه وايدوه ام التابعون الممهدون لكل ما اصاب الامة من احتلال واستعمار؟!!

وعلي مبارك يقول في لوم رجال الدين: (ان التقليد الاعمى الذي حذر منه الرسول، عليه الصلاة والسلام، امته عندما قال: (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه)... هذا التقليد جعل طائفة... تزيت بزي اهل الاسلام تنتحل لها سلطانا على عقائد من يخالفها في الرأي ولا يتفق معها في المسرب والاتجاه). ولكن عندما اراد ان يقدم فكرا لوطنه يفيد به، فهو لم يبدع شيئا من فكره وانما اراد فقط ان يجمع ما تعلمه من الغرب وحضارته وينقله الى اولي الالباب من ابناء وطنه. وحتى هذا لم يفعله! مبررا عجزه هذا بخوفه من اللوم اذ يقول: (ولو اردت جمع ما علمت ضمن كتاب لكان هدية لاولي الالباب... وانما هناك قوم كالسوقة، ان عرضت لهم بذلك قدحوا في عقيدتي، ورموني بما لست فيه، فهم اناس دأبهم العناد، لا يميلون للمعارف، ولا يحسنون من

---

[1] الكواكبي: طبائع الاستبداد ص١١٥

الاشياء غير الزخارف، حظ احدهم ان يأكل وينام ويتزيا بزي اهل الاسلام... وفيهم من يخشى من صولته ويرهب من هيبته، فربما كان-وجود هؤلاء القوم- داعية للكتمان وسببا من اسباب الحرمان)[1].

ويعجب الدكتور غسان سلامة من (ان عقولا فاعلة معتدلة وخلاقة من امتنا، قد اختارت الا تساهم في صنع حكم ديمقراطي حي، الا من خلال سفر تراجعي في الزمن، بينما ازمتنا الراهنة حبلى بالمتفجرات والتحديات العظيمة...)[2] ولكنه لا يعجب من ان عقولا فاعلة مشابهة لهذه اختارت طريق التبعية وفقدان الهوية وارتضت نظاما ليس فقط لم تسهم في وضعه وانما وضع لامم غير امتها وانطلق من فلسفة مخالفة بل مناقضة لفلسفتها في الحياة. ونما في ظروف هي لم تكن مشابهة لظروف امتها بل العكس فقد كانت الامة هي القنيصة في تلك الظروف، وفي ازمتنا هذه التي انكشف فيها الوجه الآخر القبيح للحضارة المعاصرة بكل ما فيها من وحشية وعمل من اجل سلب هوية الأمم وتحقيق النمطية الحضارية لتحقيق سيطرة الأقوى على الأضعف. كما تكشف فيها ايضا عجز نظام الحكم الديمقراطي التقدمي الحي هذا!!! لا في بلادنا التي عاشت سلسلة طويلة من التجارب الفاشلة فحسب وانما في موطنه الاصلي ايضا مما لا مجال لذكره هنا.

تبرير التقليد

وهم وان كانوا لا يعترفون بان ما ينقلونه عن اوربا هو تقليد اعمى لا ابداع فيه ولا تجديد الا انهم دائماً يردون على من يعيب عليهم نقلهم هذا عن الدول الاجنبية المتقدمة، ويبررون اقتباسهم لحضارتها بمختلف المبررات. فبالاضافة للتبرير الاعرج الذي وضعه المستشرقون على لسان المفكرين النهضويين من ان الاقتباس من اوربا هو استعادة لما كان لنا، والذي لو كانوا فيه صادقين لكان الاجدر

---

(١) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، علي مبارك، ص٢٨٩-٢٩٠

(٢) ندوة التراث وتحديات العصر ص٥٩٥

بهم ان يعودوا الى الاصل العربي او الاسلامي ويستنبطوا منه ويستفيدوا بــه كمـا استنبط واستفاد منه الاوربيون! ام ان تراثنا العلمي لا ينفتح الا على الاروبييــن؟!! فقد برروا ايضا، وخاصة الاوائل، اقتباس اسباب قوة اوربا المتمثلة بتقنياتها الفكرية والالية من اجل تقوية الامة وتمكينها من الصمود في وجه الغزو الاوربي، اما بعـد الاحتلال وبعد ان مهد اقتباسهم هذا له، فقد صار الاقتباس من اجل التسلح بالسـلاح الاوربي هذا لمقاومة احتلالهم بسلاحهم!! وهي فكرة اخــرى غرسـها الاوربيـون انفسهم من خلال مستشرقيهم وتلامذتهم لتسهيل عملية التغريب وقبـول الحضـارة الغربية والرضوخ للاحتلال. وكسبوا لها الانصار بعد ذلك حتى من بين المحسوبين على الاسلام امثال رشيد رضا الذي اعتبر اقتباس المدنيـة الاوربيـة مـن بـاب الضرورات التي تبيح المحظورات من اجل تبريرها فقال: على (الاسلام ان يتحدى العالم الجديد وان يقبل المدنية الجديدة بالمقدار الكافي لاستعادة قوته)[1] وادعـى ان الجهاد اللازم على المسلمين (لا يمكن تاديته حتى يصبحوا اقوياء، وهم لا يصبحون اقوياء ما لم يقتبسوا علوم الغرب وفنونه التقنية. ولما كان الشـرط الـلازم للقيـام بواجب هو نفسه واجب ترتب على المسلمين دراسة علوم العالم الحديث واساليبه)[2] وهو راي رغم سقمه ، برر به الكثيرون اقتباسهم عن الدول المتقدمـة ولا يزالـون يفعلون. فما هو (المقدار الكافي) وكيف يحدد؟!! وهل ان كسرت السدود برفض هذا الغزو، تستطيع الامة ان تتحكم بالسيل الجارف هذا الذي وصفـوا بـه الحضـارة الغربية؟ او تحدد ما تريد منه وما لا تريد! ثم أي جهاد هذا الذي سيبقى، لازما على المسلمين ولمن؟ ان هم تغربوا وصاروا يدينون بما يدين به الاوربيـون ويعيشـون الحياة كما يعيشها هؤلاء بكل ما فيها؟!!

---

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٢٨٣

(٢) ذات المصدر

وبعد ان حققت الدول الغربية مآربها من البلاد العربية وقسمتها واخضعتها لتبعيتها صار الاقتباس من الغرب ضروريا من اجل مواجهة اسرائيل والصهيونية!! مع ان دول الغرب نفسها هي التي اوجدت اسرائيل ودعمت مطالب الصهيونية ولا تزال تفعل، فهل سيزودون الامة بالتقنيات الالية و الفكرية بما يساعدها على مواجهة هذا العدو؟ فقد الح قسطنين زريق في كتابه معنى النكبة على ان الخطر الصهيوني اهم ما يواجه العرب اليوم (١٩٤٨) وان لا سبيل الى صده الا بالقوة وللحصول عليها يجب ان يحول العرب (كيانهم تحويلا تاما. فالعقلية التقدمية الديناميكية لا تقوى عليها العقلية البدائية الجامدة... ولا يمكن التغلب عليها الا بتغيير اساسي في حياة العرب وتفكيرهم يفضي بهم الى انشاء دولة موحدة اقتصاديا واجتماعيا، بحيث يصبح العرب واقعيا وروحيا جزءا من العالم الذي نعيش فيه فيتبنون اساليبه التقنية المادية، وعلمانيتة وطرق تفكيره العلمي وقيمه الخلقية. ولا يحقق هذا الامر الا بنخبة مثقفة تستطيع ان تنظر الى نفسها والى العرب بالوضوح والتواضع اللذين لا ينجمان الا عن فهم حقيقي للتاريخ)[1]!! وان دل هذا التبرير في نظري على شيء فانما يدل على منتهى السذاجة او منتهى المكر! خاصة وانه جاء بعد النكبة وتراجع بريق الحضارة الاوربية واصحابها من الدول الاوربية التي اغتصبت حقوق العرب في بلادهم اذ هو يشلغهم بالعمل من اجل انشاء دولة موحدة ومتطورة، وحتى يحدث ذلك تكون مسألة تحرير فلسطين قد فاتت وتقادم عليها الزمن وصارت من اخبار كان ولكن وامسى واصبح.!!! وصارت اسرائيل امرا واقعا لابد من الاعتراف به ومعايشته. باسم الواقعية والعقلانية المعاصرة! ثم:

١- كيف يستوى من يبدع وينتج هذه التقنيات بمن يتسولها من مالكها ان شاء منح وان شاء منع؟

٢- وهل يمكن ان يتصدق هؤلاء المحسنون الكبار. باسرار قوتهم لنحاربهم بها؟

---

(١) ذات المصدر ص٤٢٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣- ان كانوا من الاحسان والطيبة ما يجعلهم يفعلون ذلك فماذا نفعل للتقدم العلمي المتسارع الذي يجعل من تقنية ما غير ذات قيمة خلال الفترة التي يستلزمها عقد الصفقة عليها ان كانت الية، او تهيئة الرأى العام لها او تهيئة ما يلزمها من مال وكوادر بشرية، ان كانت غير الية؟ اذ مع هذا التقدم العلمي تكون قد بطلت واصبحت قديمة ومتخلفة!!؟

٤- ثم ان كانت انكلترا كما يصفها محمد عبده وغيره من التسامح وحسن النية والحب للعرب والرغبة في تحقيق التقدم والرفاه لهم. وكذلك حال فرنسا كما يصفها اديب اسحق والافغاني وغيرهم من تلامذتهم. وكانت امريكا كما يصفها سعد زغلول وغيره وروسيا والصين كما يصفها الشيوعيون فما حاجتنا لاقتباس التقنيات لمحاربتهم؟!!! ام ان الهدف هو ان نقتبسها لنحارب بها بعضنا البعض؟!!

٥- ثم هل يكفي اقتناء التقنيات الالية بشرائها باموال النفط والقروض، وهل تكفي التقنيات الفكرية مثل العلمانية والاشتراكية والقيم الخلقية الاوربية التي يفرض على العرب تعلمها في مدارسهم واماكن تعليمهم لتحقيق مجتمع قوي يستطيع الصمود وصد الغزو؟ انظروا فيما حولكم وتعقلوا تجدون الجواب. ثم الم نكن نملك في عام ١٩٦٧ من التقنيات الالية الشيء الكثير؟ وكما اكثر من الخبراء الاجانب الذين يشرفون على هذه التقنيات وكيفية استخدامنا لها بشكل مجد!! الم تكن الانظمة العربية في غالبيتها، وخاصة دول المواجهة، علمانية اشتراكية وتتبع القيم الخلقية الاوربية؟!! فماذا حدث؟ لقد واجه نابليون بكل تقنياته الحديثة مقاومة عنيفة من ذلك الشعب العربي المتخلف والدولة المملوكية المتخلفة! التي تنقصها التقنيات الحديثة، اكبر بكثير من مقاومة العرب الناهضين! في حرب ١٩٦٧. اذ فشل آخر الامر في تحقيق اغراضة من ذلك المجتمع الذي تعوزه التقنيات الاوربية، الفكرية والالية، ولكن بعد ما يقرب من مائة عام من التغريب واقتباس التقنيات الاوربية وخاصة الفكرية التي شجعها محمد علي وساعد على نشرها الطهطاوي والافغاني وغيرهم، تمكن الانكليز من احتلال ذات الجزء من

الوطن العربي الذي غزاه نابليون (مصر) بسهولة اكبر بكثير مما حدث قبل مائة عام حتى ان محمد عبده نفسه لام محمد علي وابناءه على الخراب الذي الحقوه بقوة مصر مما سهل الغزو الانكليزي. والحرب العالمية وما حدث خلالها وبعدها كارثة لا مجال للخوض فيها وفي نتائجها التي هي اساسا نتائج للاقتباس عن اوربا واتباع حضارتها باسم الموضوعية والواقعية.

٦- وكيف يمكن لتكديس التقنيات الالية والفكرية ان تضمن تقدما وقوة لمجتمع لا علاقة له بها؟ بل هي في الغالب فرضت عليه فرضا اما بالقوة الاستعمارية خلال الاحتلال واما بدفع من تلامذتهم قبل الاحتلال وبعده وبعد الجلاء!!! ايضا، كما حدث في تركيا وايران في اوائل هذا القرن، العشرين، وفي بلادنا خاصة في النصف الثاني منه؟ ان التقنيات في موطنها تطورت خلال سنوات طويلة متلازمة مع تطور المجتمع ككل والذي نمت فيه، اذ تطور كلاهما من خلال عملية تطوير متبادلة التاثير. اذ يتطور المجتمع فتزداد حاجاته، فتبتكر تقنيات جديدة لتلبية هذه الحاجات، مما يزيد من تقدم المجتمع وتطوره فتظهر حاجات ومتطلبات ومشكلات جديدة، مما يفرض تطوير التقنيات لسد هذه الحاجات وحل هذه المشكلات مرة اخرى وهكذا. وفيما عدا ذلك لا يكون التقدم الا تقدما مظهريا وهميا لا يحقق قوة ولا منعة.

وغالبا ما يستشهد النهضويون على مشروعية الاقتباس عن اوربا وتقليدها باقتباس الفلاسفة والمفكرين المسلمين الاوائل امثال ابن سينا وابن رشد والفارابي وغيرهم من فكر الحضارات من حولهم او ممن سبقهم وهو تبرير واهي ومرفوض ولا يستقيم مع العقل ولا المنطق وذلك لاسباب اهمها ما يلي:

أ- ان الاوائل عندما اقتبسوا من الآخرين كان لهم معيار ثابت يقيسون به ما يأخذون وما يتركون، وهو الاسلام بقيمه وعقائده. فما وافق هذا المعيار أخذوه وشكروهم كما يقول الغزالي، وان لم يوافق المعيار نبذوه. ومفكرو النهضة لا معيار لهم من أي نوع كان يمررون الافكار من خلاله لتصفيتها وتنقيتها بل يأخذون كل ما يعرض عليهم من افكار وفلسفات حتى وان كانت متناقضة مع بعضها البعض

وبغض النظر عن مدى ملاءمتها لحاجات الامة او مدى انسجامها مع عقيدتها وآمالها وطموحاتها. بل العكس فقد اعتمدوا جميع الفلسفات التي عرضت لهم واهملوا فلسفة الامة النابعة من عقيدتها وتراثها وطموحاتها. فزكي نجيب مثلا يؤكد ان الظاهراتيه وهي علم الظواهر العقلية هن فلسفة رابعة بالاضافة للمادية الجدلية والبركماتية والتحليلية التي تفرعت عنها الفلسفة الوجودية. وقال: (ولو تتبعنا الفكر العربي-لوجدنا امرا عجبا- لاننا سنجد ان رجاله- الفكر- قد اقتسموا فيما بينهم تلك الفلسفات الاربعة، كل اخذ منها بما يتفق مع تكوينه العقلي...) (انظر مسألة تكوينه وليس تكوين الامة) ثم عندما يأتي الى ذكر مفكري فكر الامة وعقيدتها السائدة، يهملهم ولا يأخذ فكرهم بنظر الاعتبار اذ يقول: (ثم اضيفت الى هؤلاء جميعا فئة خامسة انتشر افرادها على مدارج المثقفين... وهي فئة جمعت قوما لا يكادون يعرفون عن عصرهم شيئا واكتفوا بزاد كثير او قليل يقطفونه من كتب الاقدمين... فلنتركهم في كهوفهم يظلمون...)[1] واذا اخذنا بنظر الاعتبار اعترافه بانه لم يتعرف على ماضي الامة وفكرها وتراثها لان ثقافته اجنبية!!! كما يقول، فهو لن يكون اقل ضلالا من هؤلاء الذين (لا يعرفون من عصرهم شيئا) ولا اقل ضررا، بل يزيد عليهم بذلك لانهم ان كانوا قد اكتفوا بزاد يقطفونه من ثمار جهد الامة وتراثها وعقيدتها، وهذا كله يمثل شخصيتها التي لا بد من اخذها بنظر الاعتبار ونحن نعمل على تغييرها وتقدمها،! فانه قد اكتفي بزاد يتسوله[2] من ثمار جهد الآخرين الاجانب العاملين على اخضاع الامة لسيطرتهم! فان كان هؤلاء الذين اهملهم واستهان بجهدهم، قد اتخذوا الخطوة الضرورية الاولى للنهوض الحقيقي بالامة، فهو وامثاله من اصحاب الفلسفات الاربعة المذكورة اعلاه لم يفعلوا شيئا سوى التخريب، ومنها تخريب هذه الخطوة الضرورية لتقدم الامة الحقيقي

---

(١) زكي نجيب: ثقافتنا في مواجهة العصر ص٥١

(٢) التعبير للكاتب نفسه في مكان آخر من كتبه

والصادق.

وهكذا استهانوا بمن يعتمد التراث والدين من ابنـــاء الامـــة واعتـــبروه رجعيـــا ومتخلفا، مما جعل هيكل يدافع عن نفسه ويرد عنها هذه التهم اذ قال: (واقف هنا لادفع زعما حسب الذين زعمـــوه انـــه مغمـــزة غمزونـــي بـــه بعـــد تـــأليف كتابـــــي-حياة محمد- حسب هؤلاء انني انقلبت بكتابة الســـيرة رجعيـــا، وكنت قبلها في طليعة -المجددين- وكيف لا انقلب عندهم رجعيا وقـــد جعلـــت القرآن حجتي وما جاء فيه عن السيرة سندي، ولم اضعه كما يقولـــون موضـــع النقد العلمي؟ وكيف لا انقلب عندهم رجعيا وقد دفعت بالحجة ما طعن به علـــى النبي العربي جماعة من المستشرقين...)[1].

ب- والفرق الآخر هو ان الاوائل، وبفضل هذا المعيار بشكل خاص قد ابدعوا ولـــم ينقلوا كما نقلت الاحبار اسفارها! فبالرغم من انهم اســـتفادوا مـــن الحضـــارات والافكار والفلسفات التي كانت سائدة قبلهم وفي زمنهم الا انهم تمثلوا واضـــافوا وغيروا وكيفوا... فاصبح التراث الذي سلموه لمن جاء بعدهم هو غير ذلك الذي تسلموه من الذين كانوا قبلهم. وحتى بعض المستشرقين اكدوا ابداعهم هذا وفندوا ما كان يتناقله المستشرقون الآخرون من ان المسلمين كـــانوا وســـائط حفظـــت التراث اليوناني والروماني القديم ونقلته اليهم. اذ يقول لوبون، يصف المســـلمين والعرب: (التاريخ لم يعرف امة انتجت ما انتجوه في وقت قصير، وانه لم يفقـــهم قوم في الابتداع الفني) ولهذا في نظره توارت حضارة (الاشـــوريين والفـــرس والمصريين واليونان والرومان تحت اعفار الدهر ولم تترك غير اطلال دارســـة) وصارت اديانها وفنونها مجرد ذكريات. اما العرب وان (توارو ايضا، لم تـــزل عناصر حضارتهم وان شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم حية وينقاد اكـــثر مـــن

---

[1] محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـــ٢ ص٢٠٢

مئة مليون شخص مقيمين فيما بين مراكش والهند لشريعة الرسول...)[1] ويقـول انهم لما (وجدوا انفسهم امام ما بهرهم من آثار الحضارة الاغريقية واللاتينية) لم يقفوا مشدوهين يتلقفون ما يرمى في طريقهم، كمايفعل مفكرو النهضة اليوم بـل (لم يلبث ان تجلى استقلال العرب[2] الروحي الطبيعي وخيالهم وقوة ابداعهم فـي مبتكراتهم الحديثة) ولم يمض غير وقت قصير حتى طبعوا على فـن العمـارة وسائر الفنون، ثم على مباحثهم العلمية، طابعهم الخاص الذي يبدو في آثـارهم اول وهلة)[3]. ويقول في مكان آخر (فقد جد العرب في دراسة كتـب اليونـان والرومان مثلما جدوا في ميادين القتال وانشأوا المدارس في كل مكان، وصـاروا اساتيذ من فورهم بعد ان كانوا تلاميذ وانهضوا العلوم والشعر والفنون الجميلـة ايما انهاض)[4].

ويقول كلود كاهن عن اهمية العلوم العربية واحتضانها للقديم: (ان من الحيف ان نقصر هذه الاهمية على مجرد دور الوسيط السلبي، ولعلنا لا نشاهد مطلقا فـي التاريخ مثل ذلك الحماس الفكري الذي نشاهده عند العـرب ولـم تتجمـع قـط المعلومات المتوافرة لامة من الامم بمثل ذلك الاتساع. ولئن صح انهم انطلقـوا من النصوص القديمة لكنهم قاموا بمقارنة هذه النصوص وانتقادها وضبطـها... واذا كان علماء المسلمين... رغم نزعتهم الفكرية اقل قوة فـي التجريـد مـن اليونان، لكنهم عوضوا عن ذلك بميلهم الشديد الى التجربة. ولقـد بيـن التقـدم العلمي اللاحق اهمية هذا الميل. فالعلم الذي خلفة العرب هو علم مارسـوه فـي

---

(١) لوبون: حضارة العرب... ص٢٦-٢٧

(٢) لا بد الاخذ بنظر الاعتبار ان كلمة عرب عند الاوربيين مرادفة في كثير من الاحيان لكلمة مسلمين والعكس صحيح.

(٣) ذات المصدر ص٦٠٦

(٤) ذات المصدر ص١٥٣

حياتهم اليومية، ولهذا السبب ظل على قيد الحياة وقدر له البقاء...)[١].

ج- هذا غير ان المسلمين الاوائل عندما نقلوا عن الحضارات الاخرى كانت الظروف مختلفة، فقد كانوا هم اصحاب الحضارة السائدة وكان من ينقلون عنهم قد صاروا في ذمة التاريخ فلم يكن هناك خوف على الامة من سيطرتهم ولا من تبعية تلحقها بهم وتذلها وتسلب شخصيتها!!!

وخلاصة القول فان النهضويين لانبهارهم اللاعقلاني بالحضارة الاوربية تمادوا في الدعوة الى تقليدها لدرجة عمل على انسلاخ الامة عن هويتها وتلاشي شخصيتها وذوبانها في هذا الكيان الاجنبي عنها، فمثلا كان سلامة موسى الساخط على كل من العروبة والجامعة الاسلامية، وعلى كل ما هو شرقي الى درجة انه دعا، بدل هذه الروابط السقيمة في نظره، (الى جمعية او رابطة غربية تضم السويسريين والانكليز والنرويجيين وغيرهم...) لا ليتفاعل معهم فيؤثر ويتأثر ويفيد ويستفيد بل لينقل عنهم فقط اذ يقول: (لنقعد معهم فنستفيد بذلك من شرعة اصلاحية نفذت في بلادهم يشرحونها لنا فننتفع بذلك. او فلسفة جديدة ظهرت يعرفوننا شيئا عنها، او آلة جديدة اخترعت نتفاوض معهم في استعمالها عندنا...)[٢] فكان يدعو ان يكون رباط مصر باوربا قويا اذ قال: (يجب ان نرتبط باوربا وان يكون رباطنا قويا، نتزوج ابناءها وبناتها ونأخذ عنها كل ما يجد من اختراعات واكتشافات وننظر للحياة نظرها نتطور معها في تطورها الصناعي ثم في تطورها الاشتراكي والاجتماعي. ونجعل ادبنا يجري وفق ادبها بعيدا عن منهج العرب، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها...)[٣] الخ...

وكانوا يعرضون دعوتهم لاتباع الحضارة الاوربية ونسخها بشكل تعجيزي

---

(١) كلود كاهن: تاريخ العرب ص٢٢٦-٢٢٦

(٢) سلامة موسى: اليوم والغد ص٢٤٠

(٣) ذات المصدر ص٢٤١

يجعل هذه التبعية حتمية باعتبارها السبيل الوحيد لحياة الامة والذي لا سبيل غيره، اذ يقول احمد امين مثلا في مقالة له بمجلة الرابطة الشرقية: (ان المدنيات الشرقية قد اخذت في الاضمحلال، وان الحرب قد تكشفت عن فوز المدنية الغربية. وهو يتنبأ في مقالة له بان العالم الشرقي سائر الى المدنية الغربية لا محالة، لان الشرق لا يمكنه ان تكون له مدنية خاصة تخالف في اساسها مدنية الغرب، الا اذا امكن ان يؤسس مدنية قوية تستطيع ان تسود المدنية الغربية، وتكون مدنية العالم، وذلك ليس في مكنته الآن ولا في المستقبل)[1]. وهذ الفكر التعجيزي الذي انتشر مع كتابات خيري الدين التونسي وسيله الجارف!! وحتى يومنا هذا هو المسؤول وبدرجة كبيرة عن هذا الاستلاب والعجز عن الابداع الذي نشاهده من حولنا اليوم والذي يعتبر الحضارة الغربية المعاصرة هي آخر المحطات لمطاف الانسانية ولن تسقط يوما ولن يكون بعدها حضارة ولهذا فهي القدوة وهي الملاذ النهائي للبشرية، وان شعوبها بالتالي كذلك، قمة في الخلق والفضائل التي لا بد من الاقتداء بها. مع ان من وسموا بالجمود والتخلف واللاعقل من قدامى اصحاب التراث اكدوا على ان لكل امة (فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير، وهذا يقضي بان الخيرات والفضائل والشرور والنقائص متاحة على جميع الخلق مفضوضة بين كلهم)[2] وبالعقل يمكن اختيار من الفضائل افضلها. ومن اشد الافكار ضررا كما يقول جان دوسيه، الحائز على جائزة نوبل لعام ١٩٨٠ في الطب والفسيولوجيا (أن تصنف الثقافات مراتب، بحيث يعتقد كل ان ثقافته اعلى من ثقافات الاخرين فليس بين الثقافات ترتيب بين الاعلى و الادنى تماما كما هو الحال بين الجنسين: لا مراتب بين الرجال والنساء وكل ما هنالك ان الفريقين لحسن الحظ مختلفان)[3]. وقد حذر من النمطية واخضاع العالم

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص٢٠١-٢٠٢

(٢) التوحيدي: الامتاع والموانسة ص٧٣-٧٤

(٣) مجلة الرسالة الصادرة في باريس / سبتمبر/ ايلول ١٩٨٦

لثقافة واحدة ودعا الامم الى الاحتفاظ بثقافاتها لان (زوال ثقافة من الثقافات ينطوي على خسارة لا تعوض) فتعدد الثقافات في نظره يوسع نطاق المفاهيم ويعمل على اثرائها) [1]. وهذا الاختلاف في الثقافات مع التفاعل الذي يحدث بينها هو الذي يؤدي الى التطور واغناء هذه الثقافات مما يفسح المجال امام ابداع حضارات جديدة. اما نظرية ان نعيش كما يعيش الاوربيون ونفكر كما يفكرون فهذا ليس فقط لن يحصل ابدا لاختلاف كل الظروف وهو لن يؤدي الا الى ان نعيش حياة لا هوية لها، اذ ستكون حياة اوربية مشوهه وعربية اكثر تشوها، ولكنه ايضا اتجاه لا يؤدي الا الى العجز والضياع وفقدان الهوية مما ينعكس سلبيا على الانسان فردا او مجتمعا. وليس امامنا ان كنا نريد البقاء ككيان مستقل فاعل يؤثر ويتأثر الا ان نرجع الى اصولنا نستقي منها فكرنا وعقائدنا واهدافنا في الحياة ونستعيد بذلك شخصيتنا لنطورها بشكل يحقق طموحاتنا، ونعمل بنصيحة ابن خلدون عندما قال: (فليرجع الانسان الى اصوله وليكن مهيمنا على نفسه، ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه...)[2] اذ ان الفكر العربي بتراثه الثقافي كما يؤكد صلاح عبدالمتعال: (لا يفتقد القدرة على ابتداع واتباع منهج ملائم لحل مشكلات وتحديات العصر، ان المصادر النظرية لهذا الفكر هي مصادر اسلامية منذ عرف العرب الاسلام واسهموا بقدر لا يستهان به في صياغة ونحت اشكال حضارته، كما ان انتحال المذهبيات المادية الغربية لن تحقق مصلحة او نجاحا في شتى جوانب المسألة الاجتماعية. والتجارب القريبة خير برهان، فهي بادئ ذي بدء تتخلى عن القيم والمبادئ الاسلامية و ساقطة في اتون الصراعات المذهبية والطائفية والاقليمية المحدودة)[3]. وقد قال (سبحانه وتعالى) (قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق

---

(1) ذات المصدر

(2) ابن خلدون: المقدمة ص٥٠٦

(3) ندوة التراث وتحديات العصر ص٥٤٥

قل الله يهدي للحق أفمن يهدي الى الحق احق ان يتبع أمن لا يهدي الا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون...)[1].

وهذا الانبهار والتقليد اللاعقلاني كانا وراء وقوع المفكرين النهضويين في كل هذا التناقض بين بعضهم البعض ومع انفسهم وبين ما يدعون اليه والواقع الفعلي المعاش!!

التناقض

ان الانبهار الشديد ادى الى التقليد والنسخ عن الغرب وهذا بدوره اوقع النهضويين في مجموعة تناقضات. فبالاضافة الى تناقضهم مع بعضهم البعض وتناقضات اقوالهم نفسها بحسب الظروف والمناسبات مع بعضها البعض، تناقضت اقوالهم مع افعالهم فصاروا يقولون ما لا يفعلون-والشواهد على تناقض اقوالهم مع بعضها البعض لا حصر لها. فالطهطاوي مثلا كتب في مناهج الالباب الكثير مما يناقض ما كتبه في تخليص الابريز وخاصة في مسألة المجالس النيابية وعلاقة الحاكم بالرعية. ففي تخليص الابريز كتب الطهطاوي متحمسا وداعيا للثورة ضد الملك الظالم واكد على مسؤولية الحاكم تجاه الرعية وضرورة مراعاتها. ولكنه في المرشد الامين وفي مناهج الالباب ينصح الشعب ان يطيع حاكمه وينصحه بالحسنى وان يصبر عليه ان لم يعمل بالنصيحة اذ يقول: (ثم ان للملوك في ممالكهم حقوقا تسمى بالمزايا وعليهم واجبات في حق الرعايا . فمن مزايا الملك انه خليفة الله في ارضه، وان حسابه على ربه، فليس عليه في فعله مسؤولية لاحد من رعاياه. وانما يذكر للحكم والحكمة من طرف ارباب الشرعيات او السياسات، برفق ولين لاخطاره بما عسى ان يكون قد غفل عنه مع حسن الظن به)[2] ومع اعجابه بالسلطة التشريعية الفرنسية ومجلس النواب الذي عبر عنه في تخليص الابريز... فهو في

---

[1] سورة يونس: ٣٥

[2] عزت قرني: العدالة والحرية.... ص٢٣٦

مناهج الالباب جعل المجالس المحلية ومجالس النواب ذات سلطة استشارية وحـــدد وظائفها (بالمذكرات والمداولات وعمل القرارات) وقد برر محمـــد عمـارة هـذا التراجع او التناقض على انه (محاولة لتفادي الصدام بموقف الخديوي اسـماعيل)[١].

وبرر عزت قرني التناقض هذا في الموقف بان الطهطاوي في تخليص الابريز كان يتحدث بشكل غير مباشر على انه احوال فرنسا اما في المناهج فانه يتحدث باسـمه الشخصي، فكان لابد وهو... موظف في حكومة اسماعيل ان يقدم قدما وان يؤخـر اخرى خاصة وانه موظف كبير عايش محمد علـي وابراهيـم وعبـاس وسـعيد واسماعيل ورضى عنه معظمهم وانعموا عليـه بـالرتب والتشـريفات والحقوهـا باقطاعات هامة، حتى ترك لورثته عند وفاته ما يزيد على الالف وسـتمائة فـدان (منها تسعمائة فدان اشتراها هو)[٢] فبطل الكلام المباح!!

وقد مر ذكر الكثير من تناقضات الافغاني والتي تظهر بشكل خاص في دعوته لتوحيد الاديان وللماسونية وكلاهما مناقض لدعوة الجامعة الاسـلامية! هـذا غـير دعوته للاقليمية المناهضة لها ايضا. ودعا للاشتراكية وقال انها لابد (ان تسود العالم يوم ان يعم فيه العلم الصحيح) ومدحها وجعلها وسيلة العالم للتقدم والرفاه[٣] ولكنـه في رده على الدهريين هاجم الاشتراكيين و(السوسيالست) واعتبرهم ملحدين زينـوا ظواهرهم بدعوى انهم سند الضعفاء واعتبر (الفكر الاشتراكي فكرا خبيثا قد يـؤدي الى انقراض النوع البشري)[٤]. وكذلك بالنسبة للثورة الفرنسية فمرة يهاجمها علـى اعتبار انها مزقت الامة وافسدت الكثير من ابناءها[٥] ومرة يمدحها . ودعا النـاس

---

(١) عمارة: الاعمال الكامله، الطهطاوي جـ١ ص١٥٨

(٢) عزت قرني: ذات المصدر ص٨٤-١٠٣

(٣) عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني جـ١ ص١٠١

(٤) ذات المصدر ص١٠٥

(٥) ذات المصدر ص١٠٨

للاخلاق الفاضلة وللحلم والتسامح وعدم الحقد[1] وشتم هـــو وحقـد الـى درجـة التحريض على القتل، ودعا الى التحرر وحرية الرأي، ولكن عندما عارضه بعـض الماسونيين من خارج محفله لما فعله من عزل اسماعيل باشا اعتبرهم معادين للدولة والتي عليها (ان تراقب حركاتهم وسكناتهم، حفظا للراحة العمومية وسدا للخلل)[2]!!

وقد تذبذب موقف عبده بين الاصلاح بالتربية والاصلاح بالثورة عدة مـرات ومدح الاتراك والسلطان وهو في بيروت واعتبره (الحافظ لنظامنا والآخذ بميزان القسط بيننا) و (هادينا الى افضل السبل) وهاجمه وهو في مصر ووصفة امام بلنت بالمجرم والسلطان الاحمر كما مر ذكره! وهاجم الانكليز المحتلين لمصر في العروة الوثقى ومدحهم وهو في مصر وفي ظل الاحتلال وافتى بما يريدون وفسر وأول في الايات بما به يستفيدون. وهاجم الخديوي لانه والى الانكليز المحتلين فـي العـروة الوثقى وبرر لنفسه موالاتهم وعادى كل القوى المعادية للانكليز، ومنـهم الخديـوي والحزب الوطني ورجال الدين وشيوخ الازهر وكل من كان يطالب بالجلاء وعندما عدد عيوب المجتمع المصري جعل الرشوة على رأس هذه العيوب واعتبرها دليـلا (على الضعف الخلقي... وأمارة على فقد الشعور بالواجب... وعادة شنيعة مضـرة بالدين والدنيا... وتذللا خبيثا لا يجوز في الشرع) ولكنه لم يعتبر تولي المنـاصب التي لا يستحقها وضد رغبة الخديوي وحكومته ورجال الدين واكثر ابنـاء الامـة، رشوة من كرومر كما لم يعتبر قبول البيت الذي منحه له بلنت رشوة من الاخـير! والى غير ذلك من التناقضات التي لا مجال لحصرها.

وفي طبائع الاستبداد نبه الكواكبي اهل المشرق الى ان تظاهر الغرب بالاخـاء الديني معنا ما هو (الا مخادعة وكذبا) من اجل (نصب الشباك للشرق للايقـاع بـه على أساس ان الغربي ارقى من الشرقي علما وثروة ومنعة، فله على الشـرقيين اذا

---

(١) عبد الباسط: جمال الدين الافغاني واثره في العالم الاسلامي ص٨٨

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص٢٤٨

واطنهم السيادة الطبيعية) وقال: هو (يعرف كيف يسوس وكيف يتمتع وكيف يأسر وكيف يستأثر، فمتى رأى فيكم استعدادا واندفاعا لمجاراته او سبقه ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطا كبيرا، كما يفعل الروس مع البولونيين واليهود والتتار، وكما هو الاستعمار الغربي مهما مكث في الشرق، لا يخرج عن انه تاجر مستمتع...)[1] ثم يعود في ذات الصفحة والتي تليها يطلب معاونتهم على هدم الاستبداد فيطلب من الله ان يرعى الغرب (العائل بنفسه والعائل فيك) ويقصد الشرق قائلا: (رعاك الله يا غرب وحباك وبياك، قد عرفت لاخيك سابق فضله عليك فوفيت وكفيت واحسنت الوصاية وهديت، وقد اشتد ساعد بعض اولاد اخيك فلا ينتدب بعض الشيوخ احرارك لاعانة انجاب اخيك علي هدم ذاك السور، سور الشؤم والشر وليخرجوا بإخوانهم الى ارض الحياة، ارض الانبياء الهداة فيشكرون فضلك والدهر مكافأة)[2]!! ودعا الكواكبي ايضا الى العمل في البلاد على اساس (الاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري) كما فعلت استراليا وامريكا وقال: (دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الاخرى فقط دعونا نجتمع على كلمات سواء الا وهي فلتحيا الامة فليحيا الوطن فلنحيا طلقاء اعزاء)[3]!! ولكنه في أم القرى اورد شعرا يؤكد فيه على ان الشريعة السمحاء هي وسيلتهم (المسلمين) الوحيدة للنهضة والتقدم ويدعو الناس الى التمسك بها اذ يقول

راقت فضائلها في كل فلسفة	قوامها حكمة تفضي الى سمم
هذي وسيلتكم لا غيرها ابدا	فاسعوا لنهضتكم يا خيرة الامم
في غير جامعة التوحيد لن تجدوا	من جامع لكمو لستم ذوي رحم

---

(١) الكواكبي: طبائع الاستبداد ص١٢٢-١٢٣

(٢) ص ١٢٤-١٢٥

(٣) ذات المصدر ص١٢٢

سياسة الدين اولي ما تساس بـــــه   شتى الخلائق من عرب ومن عجـــم

فيها الحياة وفيها حفظ رايتكـــــــــم   خضراء سوداء حول الركن والحرم[1]

وتذبذبت مواقف رشيد رضا وهو احد قادة حزب اللامركزية القومي فقال عـام ١٨٩٧ (ان مستقبلنا يعتمد على رفض مبدأ القومية الاوربي) وفــي عــام ١٩٠٠ (حذر من تجزئة المسلمين الى اجناس وامم) وفي عام ١٩٠٤ انكر رضا وجــوب عروبة الخلافة وقال: (نريد الوحدة مع الاتراك ولكن على اساس العدل والمســاواة) لكنه من جهة اخرى وقف بصراحة الى جانب التوجهات العربية وانتقد الاتراك عام ١٩٠٠ وفي الحرب العالمية الاولى (بلغت حيرة وثنائية رشيد رضا الــذروة) كمــا يقول وميض عمر نظمي (فمن جهة وباعتباره عضوا قياديا في (حزب اللامركزية) فانه اشترك في نشاطات معادية للحكم العثماني وقبل العون من انكلترا بأمل انشـــاء حكومة عربية مستقلة من جهة اخرى، وحالما اتضح له ان العرب لا الانكليز هـــم الذين اصبحوا احجار اللعبة، نصح رضا الشريف حسين بإنهاء تحالفة مع بريطانيــا والسعي لاجل الوحدة العربية بدلا من الاشتراك في فعاليات ضد العثمانيين. وحــذر حسين والقادة الاخرين من الخطط والنوايا البريطانية)[2].

ودعا رفيق العظم الى القومية وقال: (ان روابط القومية والوطن هي اهم مــن روابط الدين واكد ان الاختلافات الدينية بين العرب يجب ان لا تعيق نمو القوميــة العربية) الا انه ايضا دعا الى رابطة اسلامية للدفاع عن حقوق المسلمين ضد امــم الغرب المسيحية، كان يؤمن بأن الخلافة منوطـــة بـالاتراك وحــذر مــن نقلــها الىالعرب...)[3]

---

(١) الكواكبي: ام القرى ص٢١٥-٢١٦

(٢) وميض عمر نظمي: الجذور السياسية لثورة العراق ص٧١-٧٢

(٣) ذات المصدر ص٩٤

ودعا السنهوري الى تمصير القانون وجعله (فقها مصريا خالصا فيه طابع قوميتنا ونحس اثر عقليتنا) وقال: ان اهم الوسائل لذلك العناية بالشريعة الاسلامية ولكن عندما وضع القانون المصري استقاه من الغرب وقال عنه (يمكن القول في طمانينة ان القانون المصري الجديد -المدني- يمثل الثقافة المدنية الغربية اصدق تمثيل) ثم عاد بعد ان شارك في وضع القانون المدني العراقي سنة ١٩٥١ (والذي جاء خلاف القانون المصري) بسبب موقف العراقيين واصرارهم على الاستهداء بالفقه الاسلامي وتراثة، يدعو الى اعادة النظر في القوانين واعادة صياغتها على اساس الفقة الاسلامي وقال: (لايجوز ان نخرج عن هذه الاصول بدعوى ان التطور يقتضي هذا الخروج)[1].

وكان لطفي السيد لدى مشاركته في السياسة بعد الحرب العالمية الاولى... يتنكو او على الاقل يتجاهل ما كان ينادي به نظريا من الدستورية والديمقراطية البرلمانية. فحين تولى منصبا وزاريا سنة ١٩٢٨ في حكومة محمد محمود، عمدت هذه الوزارة الى تعليق الدستور... واشترك مرة اخرى في سنة ١٩٣٠ في حكومة اسماعيل صدقي التي ابدلت بدستور سنة ١٩٢٣ دستورا يمنح الملك والسلطة التنفذية صلاحيات تتجاوز صلاحيات البرلمان والهيئة التمثيلية... واشترك في الحكم مع رئيس الوزراء ذاته سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٤٦ مما يدل كما يرى مجيد خدوري على انه على استعداد لتجاهل المبادئ الديمقراطية التي كان يدعو اليها في كتاباته) هذا بالاضافة الى سلوكه غير الديمقراطي والمتعالي على ابناء الشعب اذ (قل أن حاول الاختلاط مع عامة الناس حتى حين كان يرشح نفسه لعضوية مجلس الشورى او الجمعية التشريعية) ولم يكن وهو الداعي الى الحرية والديمقراطية البرلمانية يمسك عن استخدام او تاييد استخدام الاعمال الشاذة وغير المقبولة في اثناء الحملة الانتخابية فقد (فشل في احد الانتخابين وفاز بالثاني حين انسحب خصمة

---

[1] ندوة التراث وتحديات العصر ص٦٣١-٦٣٦

من المعركة احتجاجا على اعمال شاذة ارتكبها مؤيدو لطفي السيد ومناصروه)[1].

وكان زعيم الحزب الشيوعي السوري خالد بكداش وهو حزب الطبقة الكادحة كما يقول خدوري (يعيش حياة ترف واباحية ينفق على منزل وخدم في دمشق وعلى منزل اخر في بيروت وعلى منازل اخرى في اماكن اخرى مختلفة فضلا عن سيارتين او اكثر وليس له غير راتبه المتواضع عن عضويته في البرلمان السوري او من زعامته للحزب الشيوعي... والمعروف عن بكداش انه غاية في الاناقة يتردد على النوادي الليلية ويفرط في التدخين واحتساء الخمور)[2].

اما زكي نجيب محمود فقد بز رفاقه بالتناقضات.فخلطه وتشويشه في مسألة العقيدة الاسلامية ليس لي التطرق اليه بل تحتاج الى ذوي الاختصاص فيها -ولكن من حيث علاقتها بالتراث فهو قد اراد ان يقتلع جذورها من حياة العربي ليسهل عليه انبات زرع جديد مستورد من امريكا واوربا اذ قال في كتابه تجديد الفكر العربي: لن يكمل للمواطن العربي الجديد كيانه الا اذا اضاف الى نفسه صفات وتخلى عن صفات... واني لانظر فأرى سلسلة الخصائص التي تراد لها ان تقتلع من جذورها من تربتنا الثقافية، قبل ان يتاح استنبات زرع جديد... واولى هذه الحلقات واعمقها جذورا واكثرها فروعا، هي نظرة العربي الى العلاقة بين الارض والسماءن وبين المخلوق والخالق وبين الواقع والمثال... بين الدنيا والاخرة وبين المعقول والمنقول- هذه كلها ضلال من موقف واحد وحقيقة واحدة ونظرة العربي في صميمها هي ان السماء قد امرت وعلى الارض ان تطيع وان الخالق قد خط وخطط وعلى المخلوق ان يقنع بالقسمة والنصيب... وانه اذا ما تعارضت الاخرة والدنيا كانت الاخرة احق بالاختيار...)[3] ومن هنا كما يبدو جاءت معالجته للتراث

---

(١) مجيد خدوري: عرب معاصرون ص٣٣٧

(٢) ذات المصدر ص٣٠٤

(٣) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي ص٢٩٤

الذي هو في كثير من جوانبه منبثق من هذه العقيدة. ولذلك احتار كيف يتعامل مع التراث ولم يستطع ان يبدع وهو المفكر الكبير حلا من عنده بل وجده عند هيوم اولا (ثم عند ريد) وهو حرق هذا التراث ثم غير رأيه واختار وضعه على الرفوف للتفرج عليه او للتسلية به فقط وليس للاستفادة منه او للاعتبار به. فهو عندما حيره سؤال: ماذا نحن صانعون بآدابنا وفنوننا ومعارفنا التقليدية كلها؟ والتي كانت تحتكر عندنا اسم الثقافة؟ وجد الحل في جعلها (مادة للتسلية في ساعات الفراغ) فقال: (...لم اعد اقول -كما قلت مرارا مقلدا هيوم وجاريا مجراه- لم اعد اقول انها خليقة بأن يقذف بها في النار. وحسبي هذا القدر من الاعتدال ابتغاء الوصل بين جديد وقديم) ثم تواضع بعد ذلك اكثر فاكثر فقال: (ان تراثنا عظيم مجيد لكن اقصى حدوده هو ان نقرأه ليوحي الينا بما يوحي، لا لنستمد منه القواعد والقوانين)[1] ولكنه وبعد ان استهان كثيرا بالتراث واستهزأ به وطلب حرقه حتى لا يبقى منه شيء يذكره به ثم جعله مادة للتسلية فقط عاد فأعجب بالتراث (وبابن عبد ربه خاصة) الذي اشتمل كما يقول على خطوط رئيسية تصلح ان تكون دستورا للحياة العلمية كلها [2]، ومنهجا ومعيارا... فماذا تريد الروح العلمية الصحيحة معيارا اصلح من هذا المعيار؟)[3] ثم قال ان صورة الانسان في تراثنا هي (صورة الانسان الاكمل...) الا انه مع ذلك لم يستطع ان يوظف فكر التراث هذا باكثر من ان يكون نموذجا، او كوسيلة ايضاح فقال: (اذا كان عسير على الطبع ان يجريها في معاملات الحياة الواقعة، فلا اقل من ان نرفعها امام الابصار -نموذجا- يعرف القوم بمثلهم العليا...)[4].

---

(1) زكي نجيب محمود: مجتمع جديد او الكارثة ص٢١

(2) انظر الى كلها هنا وفي مقولته السابقة وما فيها من افراط وهو العالم وداعية العلمية!

(3) انظر تجديد الفكر العربي ص٣٤٠

(4) ذات المصدر ص٣٦٠

وعاب على الفكر العربي القديم كون محوره الكلمة واللفظ من غير فكـــر ولا عمل لتطبيق هذا الفكر على الواقع مؤكدا على ان العمل في الفكر العربي مقتصـــرا على ما يخص العبادات واستشهد على ذلك بكتاب ميزان العمل للغزالي ولكنه فـــي مكان اخر كتب يقول: (ان اسلافنا من مفكري العرب – لم يتصوروا قط ان يقتصـــو الانسان على حكمة العقل دون ان يمدها الى فعل يؤدى بناء عليها. فلا يكون العلـــم علما عندهم الا اذا اعقبه العمل على اساسه...)[1]. واستشـــــهد بكتـــابي الغزالـــي، (ميزان العمل) و (معيار العلم) في مسألة ربط العلم بالعمل وبعد ان كـــان يســـتهين باداب العرب وشعرهم بشكل خاص صار يجد في الشعر العربي فكرا ومعنى ممـــا جعله كما يقول يفضله على الشعر الانكليزي وذلك لان فيه لقطـــات حســـية اكـــثر (واللقطة الحسية... هي اول خطوة في طريق العقل)[2] ولانه يحتوي على قدر مـــن الحكمة اكثر من سواه ولان شعراء العرب كانوا يقصدون بشعرهم اهدافـــا معينـــة (فكان وسيلة لغايات) وهكذا كل اعماله مجموعة من التناقضـــــات ممـــا لا يمكـــن حصرها.

اما تشويش المفاهيم عنده فحدث ولا حرج فهو وان كان يؤكـــد علـــى اهميـــة المفاهيم حتى انه عرف الفاعلية الفلسفية بانها (محاولات لتوضيح المفاهيم التي تقـــع عند الناس بين الجهل التام والعلم التام... فلا هم يجهلونـــــها كـــل الجـــهل ولا هـــم يعلمونها كل العلم)[3] الا ان مفاهيمه مشوشة بشكل يجعله كل يوم يعرف المبـــــادئ بشكل والقيم بشكل والفلسفة بشكل والعقل بشكل الخ... مما لا مجال لذكره، من غير معيار يقيس بواسطته ولا هدف يسعى اليه. فهو بالرغم من تأكيده على اهمية وحـــدة الهدف اذ يقول: (ان وحدة التفكير لا تتحقق الا بوحدة الهدف لان هذا الهدف الواحد

---

(١) ذات المصدر ص٣٤٥

(٢) ذات المصدر ص٣٢٢

(٣) زكي نجيب محمود: في حياتنا العقلية ص٩٥

يقتضي بدوره ان نختار ما يوصل اليه، وان نجتنب ما يحول دون بلوغـــه. وفـــي وحدانية الهدف يكون الانتباه المركز، الذي بغيره لا تتوحد الشخصية الانسانية فـــي كيان عضوي واحد... وحدة التفكير هي التي تجعل من الفرد الواحد فـــردا ومـــن الامة الواحدة امة ومن العصر الواحد من عصـــور التـــاريخ عصـــرا...)[1] الا ان القارئ لاعماله لا يستطيع تحديد هدفه وذلك لا ن حتى الهدف الذي يعترف به بيـــن الحين والآخر. والذي كرس له الكثير من اعماله، وهو مسخ الامة ونســـخها علـــى الشكل الاروبي او الامريكي كما مر ذكره، يعود في احيان كثيرة ليكتنفـــه ضبـــاب الشك فهو مثلا قد قال: (اني لاقولها صريحة واضحة اما ان نعيش عصرنا بفكـــره ومشكلاته واما ان نرفضه ونوصد الابواب لنعيش تراثنا. نحن في ذلك احرار لكننـــا لا نملك الحرية في أن نوحد بين الفكرين...)[2] ولكنه يعود فيدعـــو للتوحيـــد بيـــن الفكرين بغض النظر عن متانة الدعوة اذ يقول: (ان ما نأخذه من التراث هو الشـــكل دون مضمونة فقد نجد اسلافنا ذوي وقفة يغلب عليها النظر العقلي فنأخذ عنهم هـــذه العقلانية في النظر، واما موضوعاتهم التي صبوا عليها الفكر المنطقي فلم تعد فـــي اغلب الحالات هي موضوعاتنا...)[3] وقال في مكان آخر (نجد في تراثنا الفكري ما يضع بين ايدينا وقفة مثلى فيها التسامح وفيها العدل والاعتدال... وفيها تدرج القيـــم من الاعلى الى الادنى خطة للسلوك السوي، ولو نسجنا من هذه الخيوط نسجا ثقافيـــا يتناول قضايا عصرنا، كان لنا بذلك ما يصح ان نوصف بسببه باننا امة الاعتـــــدال في الفكر والعمل، امة تجمع بين العقل والدين، وبين الدنيا والآخـــرة، بيـــن الفـــرد والجماعة، امة لو سار حاضرها على نهج ماضيها جمعـــت بيـــن ثقافـــة الـــروح وحضارة العيش في هذا العصر الذي كادت الثقافة والحضارة، ان تفترقا الى غـــير

---

(1) ذات المصدر ص٨٢

(2) تجديد الفكر العربي، ص١٨٩

(3) ذات المصدر ص١٠٣

تلاق...)[1] ثم قال مؤكدا اهمية التراث ان (لكل امة تاريخها، ولكل امة ماضيها الذي اصبح-او يجب ان يكون- جزءا من حاضرها فمثقفو اليوم بغير تراث ينظرون اليه، هم حبات مفردة يعوزها الخيط الذي يسلكها في عقد واحد...)[2].

الجهل بالتراث

ان غياب المعيار وتشوش الهدف هو الذي ادى به مثلما ادى بغيره الى هذا التشتت الفكري والتناقض الذي استدعى منه التبرير فقال ردا على حيرته في كيف يمكن للعربي ان يكون عربيا حقا ومعاصرا حقا فقال: (لقد تعرضت للسؤال منذ امد بعيد، ولكني كنت ازاءه من المتعجلين الذين يسارعون بجواب قبل ان يفحصوه ويمحصوه ليزيلوا منه ما يتناقض من عناصره، فبدأت بتعصب شديد لاجابة تقول: انه لا امل في حياة فكرية معاصرة الا اذا بترنا التراث بترا، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علما وحضارة ووجهة نظر الى الانسان والعالم، بل تمنيت عندئذ ان ناكل كما يأكلون ونجد كما يجدون ونلعب كما يلعبون، ونكتب من اليسار الى اليمين كما يكتبون على ظن مني آنئذ ان الحضارة وحدة لا تتجزأ فاما ان نقبلها من اصحابها-واصحابها اليوم هم ابناء اوربا وامريكا بلا نزاع- واما ان نرفضها وليس في الامر خيار بحيث ننتقي جانبا ونترك جانبا بتعصب شديد لهذه الاجابة السهلة، وربما كان دافعي الخبيء اليها هو المامي بشيء من ثقافة اوربا وامريكا وجهلي بالتراث العربي جهلا كاد ان يكون تاما، والناس كما قيل بحق اعداء ما جهلوا... ثم تغيرت وقفتي مع تطور الحركة القومية... واخذت انظر نظرة التعاطف مع الداعين الى طابع ثقافي عربي خالص ليحفظ لنا سماتنا ويرد عنا ما عساه ان يجرفنا في تياره فاذا نحن خبر من اخبار التاريخ... وها هنا نشأ السؤال... كيف ننسج الخيوط التي استللناها من قماش التراث مع الخيوط التي انتقيناها من قماشة الثقافة الاوربية

---

(1) ذات المصدر ص٢٥٣

(2) ذات المصدر ص٢٥٠

والامريكية، كيف ننسج هذه الخيوط مع تلك في رقعة واحدة لحمتها من هنا وسداها من هناك فاذا هي نسيج عربي معاصر؟... ولذلك كثيرا ما وقعت في اقوال متناقضة نشرتها في لحظات متباعدة، فلا يبعد ان يجد القارئ مقالاتي والمستمع في محاضراتي العامة والى الندوات الفكرية التي شاركت فيها آراء متعارضة لا يتسق بعضها مع بعض، وذلك لانني كنت في كل لحظة صادقا مع نفسي لكن هذه النفس التي كنت صادقا معها في تلك اللحظات المتفرقة لم تكن دائما على رأي واحد ولا شعور واحد)[1].

رحم الله اصحاب التراث الذي اراد زكي نجيب حرقه او تركه وبتره الـخ... والذين قالوا ما معناه من قل اعتباره كثر عن الخطأ اعتذاره! وأي اعتذار!! فهو عذر اكبر من ذنب! اذ كيف يمكن لمن يدعو للعقل والتعقل والعقلانية، وللعلم والعلمية والعلمانية!! وللعصر والعصروية وللتجديد والتحديث والتقدمية الـخ!!! ان يتهم التراث (والعقيدة) بالهزال والضعف والعجز والعقم وعدم القدرة على حل المشكلات ويدعو الى تركه ودق الرؤوس لتنفض ما فيها منه ويصدر عليه حكمه بالاعدام حرقا حتى الموت!! وهو يجهله جهلا (يكاد يكون تماما) ثم كيف يدعي انه يعرف الحضارة الاوربية -الغربية- ويدعو اليها وهو لا يعرف ما يسود حوله مما تؤمن به الامة من آثار الحضارة التي يريد هدمها واستبدالها باخرى؟ ليس فقط لانه كما قيل في كتب التراث: ان من يجهل نفسه فهو بغيره اجهل وانما لان اية حضارة هي امتداد لما سبقها من حضارات، صحيح انها قد تختلف عن هذه الحضارات التي سبقتها اختلافا بينا، ولكن مع ذلك لا بد ان تكون هذه الحضارات السابقة قد اثرت في نشوئها بشكل او بآخر، على الداعية لها ان يتعرف عليها على الاقل لتسهل عليه الدعوة!! والحضارة الاسلامية بما فيها من فكر هي اكثر هذه الحضارات تأثيرا في الحضارة الغربية المعاصرة كما يؤكد الكثيرون من الاوربيين انفسهم. ثم لماذا تعلم، مثل غيره، الكثير عن الحضارة الرومانية والاغريقية لعلاقتها

---

[1] تجديد الفكر العربي ص١٠-١٥

بالحضارة المعاصرة ولم يتعلم، مثل غيره، شيئا عن الحضارة العربية والاسلامية التي كان لها الاثر الاكبر في نشأتها؟ كما كان لها اثر كبير في نشأة الحضارتين الرومانية والاغريقية حتى دعا البعض من الاوربيين انفسهم الى التعرف عليها. فقال: كلود كاهن ان الحضارة الاسلامية (كانت من ازهى الحضارات. فهي قد افادت الغرب في علومها وفي شتى الميادين...) وقد (امتزج التاريخ الاسلامي بالتاريخ الغربي امتزاجا مستمرا سواء في الحرب ام في السلم، ونهلت الحضارتان من معين واحد) ثم قال: (ولا يسع المرء في القرن العشرين ان يبقى بمعزل عن أي اسرة من الاسر التي يتألف منها المجتمع الانساني، كما هي الحال بالنسبة للهند والصين. لهذه الاسباب جميعا كان خليقا بتاريخ العالم الاسلامي ان يشغل مكانة مرموقة في ثقافتنا الغربية. وكان حقيقا بنا ان نطرح جانبا الفكرة الخاطئة التي تجعل الحضارة ملكا لبعض الشعوب وبعض الاقاليم المنفردة... علينا اذن ان نلم بالتاريخ الاسلامي بوصفه جزءا لا يتجزء من التاريخ الانساني)[1].

فكيف اهمل مفكرنا، مثل غيره، حضارة وثقافة امته التي نصب نفسه موجها وقائدا فكريا لها، ان كان الغرب مدعوا لدراستها والتعرف عليها؟ اما كان عليه ان يضيف الثقافة العربية الاسلامية الى ثقافته الغربية ولو من باب التقليد لاوربا ايضا؟!! فمن البديهي جدا اننا عندما ننظر الى اوضاع مجتمعاتنا واوضاع المجتمعات الاخرى وخاصة ان اردنا بهذا النظر ان نخرج بحكم نصدره على هذه او تلك، مثل حكم الاعدام بشكل خاص، يتوجب علينا كما يقول زريق ان (ننفذ الى جذور هذه الاوضاع ونجابه مشكلاتها في اعمق المستويات ونتجهز بما يمكننا من الحكم في شؤونها حكما واعيا سديدا)[2]. فهل من العقلانية والعلمية والموضوعية!! ان يشخص الفرد الداء ويصف العلاج وهو لا يعرف المريض ولا اعراض المرض

---

[1] تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص٥-٦ (والتاريخ بمعناه الصحيح لا يعني حوادث فاتت وانقضت وانما يعني فكر وثقافة ايضا، يعني حضارة بكل مكوناتها.

[2] زريق: معركة الحضارة ص١٩

ومسبباته، ولا يعرف الدواء ولا ما هي مواصفاته، ومقدار قدرته على علاج هـــذا الداء؟ ان هذا يستدعي التساؤل: من هو المفكر في نظـــر النـــهضويين؟ ومـــا دور المعرفة والثقافة في تحديد مفهومه؟ وما مكان الابداع في هذا المفهوم؟ اليس له مكان في الخصائص التي يحددونها للمفكر؟ واين مكان العقل والتعقل والتبصر والحكمـــة؟ وما هي مفاهيمها؟ وهل يصح للمفكر التعجل والتسرع في جواب لمشكلة ايا كـــانت، ينقضه بعد ذلك؟ وهل يجوز له التعصب للحل الذي رآه والذي ينقضه بعـــد ذلـــك؟ وماذا عن الاجيال التي امنت به وصدقته واعتمدت حلوله الواهية هذه؟ هل يســـتطيع محو ما وضع في اذهانها بذات السهولة التي نقض فيها فكره؟!!! وهل يمكن للمفكر ان يعمل على اساس الظن كما فعل زكي نجيب محمود؟ واين اذن العلمية والبحـــث العلمي؟!! وعلى رأس ذلك، لماذا عندنا كل هذا الكم الهائل من المفكرين تمتليء بهم قاعات المؤتمرات والندوات، وتسود صفحات الجرائد والمجلات بمقالاتهم، وليـــس عندنا فكر معاصر يمكن ان نعتبره فكرنا، لنشارك فيـــه فـــي مســـيرة الحضـــارة الانسانية؟!! الم يحن الوقت لتحديد مفهوم للفكر والمفكر تحديدا واضحا يفهمه امثالي من عامة الناس الملتصقين بارضهم وتراثهم وحضارتهم التي يريدون لـــها الحيـــاة وليس الاعدام، اعتمادا على دراسة موضوعية وعلمية، غير تلك التـــي تعـــودوا ان يدمغوا بها مقدمات اعمالهم ليبرروا بها بعد ذلك كل اللاموضوعيـــة واللاعقلانيـــة واللاعلمية التي يتضمنها محتوى العمل، للفكر المعاصر والفكر العربي الاســـلامي جاعلين معيار ما قدم لامته من ابداع افادها وحسن اوضاعها، وما اشاع مـــن قيـــم ومفاهيم اضرت بها وشوشتها ومزقت وحدتها دليلا لهم بدل هذه النتف من مفـــاهيم ماكس فيبر ولويس فويير وادوارد شيلز ومايرز وغيرهم؟!! لعله بعد ذلك يحصـــل نوع من التكثف-ان صح التعبير- فيقل عدد المفكرين!! ويزيد مقدار الفكر الحقيقـــي وتزداد رصانته واصالته!!!

اما تناقض المفكرين مع بعضهم البعض فيكفي الدليل عليه ما نجده حولنا مـــن عقائد متصارعة مع بعضها البعض مضافا اليه خلافات وصراعات داخل كل فئـــة منها، هذا غير التناقضات والخلافات بين المفكرين المختلفين كـــأفراد وكاتجاهـــات

وفلسفات. حتى ان زكي نجيب نفسه قال (... وجئنا نحن- اعنـــي رجـــال الفكـــر الفلسفي في الامة العربية- واردنا ان ننقل عن الغرب فلم نقصر امر التفرق علـــى اختلاف في زاوية النظر، بل جاوزنا ذلك فتحول الميدان على ايدينا للصراع الفكري يتبادل الاطراف الوان السباب)[1].

وخلاصة القول، فان القارئ للفكر الذي يسمونه المعاصر لا بد ان يجد نفســـه وقد غرق في بحر من المفاهيم المشوشة والافكار والدعوات المتناقضة ومهما حاول العوم فيها، فهو لن يصل الى كنه الرسالة التي يريد هؤلاء المفكـــرون كـــأفراد او كاتجاهات ايصالها لابناءالامة، ناهيك عن العالم! ماذا يريدون؟ حرية، ديمقراطيـــة، اشتراكية وحدة عربية، مساواة، عدالة، الحاد، علمانية الخ... فكـــل هـــذا مشـــوش وتتناقض الاقوال والافعال فيه. فالحادهم مرة ينكرونه ومرة يغلفونه بالغيرة الوطنيـــة والعصروية والتقدمية والتجديد. وعلمانيتهم-او لادينيتهم- مبرقعة بالاضافة لكل ذلك بشعار "الدين لله والوطن للجميع" وبكلمات، "بسم الله الرحمن الرحيم"، التي يبـــدأون بها اعمالهم، "والله من وراء القصد"، التي ينهون بها هذه الاعمال. امـــا المحتـــوى فليس للدين فيه مكان ان لم يكن مناقضا ومناهضا للدين. فيقعـــون فـــي مغالطـــات وتناقضات لا حصر لها. ومساواتهم التي يدعون اليها تبدو فـــي تقوقعـــهم داخـــل بروجهم العالية بعيدا عمن يصفونهم بالعامة او الشعب المتخلف الرجعـــي الـــذي لا يفهم سارتر ولا يتبع ماركس وان التقوا به فإن الدور الوحيد المسموح له بـــه هـــو التصفيق لما يقولون! لان المساواة بالنسبة لهم لا ان ينزلوا الى الشـــعب لـــيرفعوه معهم، وانما هي مساواتهم بمفكري اوربا في تدخين الغليون والسيكار وفي حضـــور المؤتمرات والندوات وترديد ذات المفاهيم والافكارالمتعارضة والمتناقضة لعـــرض زينتهم كما مر ذكره لا غير. اما فلسفتهم فتتوزعها الماركسية والتحليلية والظاهراتية والبركماتية والماوية والسان سيمونية والسبنسرية والســـارترية الـــخ... حتـــى وان تعارضت وتناقضت مع بعضها بعضا وحتى في مكوناتها الذاتية. ووحدتهم العربيـــة

---

(1) زكي نجيب: ثقافتنا في مواجهة العصر ص٣٩

هي مرة وحدة من المحيط الى الخليج او وحدة جزئية او اتحاد فدرالي او كونفدرالي! وقد تكون مثل الوحدة الروسية او مثل اتحاد سويسرة او مثل الولايات المتحدة الامريكية وهكذا... واشتراكيتهم قد تكون ماركسية تارة وفابية او ماسونية تارة اخرى او عربية او رشيدة او ديمقراطية تارة ثالثة!!! اما مفاهيم الحرية والديمقراطية فقد تكون كل شيء وقد تكون لا شيء بحسب ما يخدم مصالحهم واتجاهاتهم واحزابهم وانتماءاتهم ويكفي النظر حولنا لنرى شواهد كل من الحرية والديمقراطية والتي كان من نتائجها ان صارت الاوطان، التي هي بكل معايير الحضارات الانسانية موطن الحقوق والواجبات- بمعنى ان يكون للفرد حقوق فيها وعليه واجبات بالمقابل- والمكان الذي يأمن فيه المرء على حياته وماله وعمله وعرضه واسرته، سجون كبيرة تخنق المواطنين وتزهق ابسط حرياتهم وتصادر حقوقهم، فصارت الحقوق، كل الحقوق من نصيب القلة من الناس بغض النظر عن مدى استحقاقها لهذه الحقوق والواجبات، كل الواجبات والتكاليف، من نصيب الكثرة من الناس الذين لا حقوق لهم الا ذلك النزر اليسير الذي يمن به عليهم هذا الحاكم او ذاك من الذين اعدهم اصحاب فكر الحرية والديمقراطية هذا او ذاك!! مما استوردوه بعيدا عن الدين والاخلاق وضوابطهما! اما ما يأمن عليه المرء؟ فلا شيء!! فالامن والامان اساسا هما ليس من حقوقه المشروعة في الفكر النهضوي العصروي التقدمي والثوري!! فكل ما دعا ويدعو اليه مفكرو النهضة من ثورية واشتراكية يلغيانهما. فالحياة تهدربجرة قلم او حتى من غير جرة قلم، والاموال والحريات تصادر كذلك او لاسباب واهية من اجل التبرير لا غير!!

وارجو ان لا يبرر النهضويون تناقضات المفكرين هذه كما برر عزت قرني تناقضات الطهطاوي، على اعتبار انه لا يجوز التعامل مع كتابات المفكرين على اساس ظاهرها وان كتاباته تحتاج الى بحث علمي دقيق اذ قال بعد ان نبه الى بعض هذه التناقضات: ان رفاعة (شخصا وكتابات) (ظاهرة مركبة غيربسيطة ولها اوجه متعددة ومتفرقة واحيانا ما تبدو متعارضة، في الظاهر على الاقل حتى يتوفر البحث العلمي الشامل المدقق ان يكتشف مفتاح مواقفه وعموده الفقري والجوهر فيها

والغرض والوسيلة... والمقصد البعيد صريحا كان ام ضمنيا. واذا لم ننتبه الى ذلك وقعنا في التمجيد الرخيص او في الاستهانة المتعجلة الظالمة)[1]. ولا اريد هنا مناقشة ماهية البحث العلمي وامكاناته التي لا اراها الا محدودة جدا في مجال العلوم الانسانية التي لا يمكن وضعها في انبوبة الاختبار او تحت المجهر لاكتشاف جزيئاتها ومكوناتها ومراقبة ما يطرأ عليها من تغييرات الخ... فالبحث العلمي في ابسط اشكاله لا يعدو ان يكون فرضيات تقوم على مسلمات معينة يجري اختبارها فان ثبتت صحتها، تصبح هي الاخرى من المسلمات التي يمكن ان تبنى عليها فرضيات جديدة وهكذا... وتطبيق هذا النوع من البحث على العلوم الانسانية ايا كانت اهميته فلن يمكن من الوصول الى نتائج لا تقبل الشك او النقض، لتصبح مسلمات تبنى عليها احكام دقيقة، بل هي مجرد بيانات مدى الاعتماد عليها (يعتمد على شخصية صانعيها ومفسريها وظروفهم وكفاءتهم)[2] وجزء مهم من شخصية الباحث هو معياره في الحياة والذي يؤثر بدرجة كبيرة على احكامه. وقد ثبت كما يرى البعض وكما يؤكد الواقع انه ليس هناك ما يسمى بموضوعية الباحث وذلك لان التزامات الباحث تجاه عقيدة بعينها تؤثر بشكل او بآخر على موضوعيته وقد (ثبت ان الادعاء الخاص بحياد الباحث تجاه مشكلته البحثية انما هو خرافة... على النقيض من ذلك فان التزام الباحث قد تم التأكيد عليه)[3]. وقد حاول محمد عمارة ان يعالج اعمال الافغاني بما سماه الموضوعية والبحث العلمي من اجل ان يضع الاعمال المتنافرة والمتناقضة الاهداف والمعايير والوسائل في نسق فكري يوحد بينها، ويوضح مسارها، نحو هدف بعينه فوقع هو ذاته في تناقضات ومغالطات لا تقل عن تلك التي تسم اعمال الافغاني.

---

(١) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة ص١٠٣

(٢) فان دالين: مناهج البحث في التربية وعلم النفس ص٣٠٥

(٣) السيد ياسين: الخطاب والاصولية المنهجية والاستراتيجية/ العقد العربي القادم و المستقبلات البديلة ص٤٠٣

ولو تجاوزنا كل ما ذكر اعلاه عن البحث العلمي وجدواه يبقى التساؤل الذي هو الاهم، لمن يكتب الكتاب والمفكرون؟ وما هو هدفهم من الكتابة؟ فهل يا ترى لا يزال كتاب ومفكرو النهضة وبالرغم من كل شعارات الديمقراطية والشعبية الخ... التي يرفعونها وكل شعارات التقدمية والتجديد يرون ان المعرفة هي من حق القلة التي تتمثل بطبقة اعلى من باقي البشر؟ فيكتبون فقط للمفكرين والباحثين من امثالهم ومن طبقتهم؟ وبهدف التزين بحلة من المعرفة يظهرون بها امامهم؟ فان كان الامر كذلك فلا اراهم الا انهم كلفوا انفسهم من غير طائل. لأن هؤلاء الذين هم مثلهم من الطبقة الفكرية هذه! عيونهم وعقولهم معلقة بامثالهم من الدول المتقدمة (اوربا وامريكا وروسيا) ولن يمروا باعمال بعضهم بعضا الا مرور الكرام، وفي امكانهم العودة الا الاصل الاجنبي الذي نقل عنه من نقل!! وبالتالي فان القراء الذين يجب ان يحسب المفكر لهم الحساب ويضع في حسابه توجيههم الى الحق الذي فيه مصالح الامة هم القراء من الطبقة العامة-المتخلفة-!! والتي فيها بذور مفكري المستقبل، وهؤلاء وهم المبتدئون، على البحث والتحليل والتركيب ليس لهم هذه القدرة على البحث العلمي!! والتي يطلبها منهم عزت قرني، ولذلك لن يكون بامكانهم ان يجدوا هذا النسق الفكري غير المرئي، ان وجد!! فتكون النتيجة كما حدث مع اعمال محمد عبده والافغاني وغيرهم وما يحدث حتى يومنا هذا، وهو ان يرى كل متتبع لاعمالهم ما يتفق مع قناعاته والتزاماته السابقة والفلسفة التي يؤمن بها، فتلاميذ محمد عبده كانوا نوعين: منهم الاسلاميون مثل رشيد رضا وغيره والذين لم يروا فيه الا مفكرا اسلاميا فاهملوا- بعيدا عن الموضوعية والعلمية!! كل فكره العلماني او برروه تبريرا بعيدا عن المنطق مما اوقعهم هم ايضا في تناقضات كثيرة ووسم مواقفهم بالتذبذب وعدم المصداقية. بينما لم ير النوع الآخر امثال لطفي السيد وسعد زغلول الخ... من فكره الا ذلك الجانب الداعي للعلمانية والحضارة الاوربية مما اوقعهم جميعا في تناقضات ومغالطات جديدة في محاولاتهم التبرير والتقريب بين الاتجاهين مما يزيد من الافكار المتناقضة والمتعارضة في المجتمع كما يزيد من التفرق والتشتت الفكري فيه. وهذا كله مما يبعد اعمال النهضويين عن

العقل والعقلانية التي يدعون لها. فالمفكر الحق، الذي يهدف الى نهضة الامة الحقيقة وتقدمها، هو الذي يكون كتابا مفتوحا لكل القراء ولا يحتاج لتحديد اهدافه ومواقفه الى بحث علمي دقيق لايجاد خيط رفيع من الاتساق الفكري فيها، وهو امر سيظل نسبيا ويعتمد وجهة نظر الباحث لا غير.

اللاعقلانية

قال رسول الله ﷺ : (ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه الى هدى، ويرده عن ردى وما تم ايمان عبد واستقام دينه حتى يكمل عقله)[١].

لقد اتسمت دعوات معظم المفكرين برغم كل ما يسبغون عليها من صفات العقلانية والعلمية والتجديد باللاعقلانية. ومن ابرز شواهد اللاعقلانية هذه، هو انبهارهم بالحضارة الاوربية هذا الانبهار الشديد الذي جعلهم يرونها معصومة من الخطأ تتضمن الايجابيات وتخلو من السلبيات! من غيرفهم دقيق لها ولاهدافها ولا حتى التنبه الى ما تحمله معها من اخطار تستهدف حرية الامة واستقلالها ومقومات شخصيتها. فافرطوا في ذلك وما الافراط الا احد اوجه اللاعقل. فلم يكن الدعاة الاوائل مثل الطهطاوي وخيري الدين التونسي وغيرهم، يعتقدون ان في اقتباس الحضارة الاوربية خطرا يهدد بلاد المسلمين وعقيدتهم وشخصيتهم، وكان محمد عبده مثلا، يقول: (... ان النور يأتي اليوم من الغرب، بعد ان كان يشرق من الشرق، فيجب ان نأخذ من اوربا علومها ومدنيتها فنسير مع الزمن في مضمار الحياة العصرية وذلك لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم...)[٢].

اللحاق بالركب

وبهذا مهدوا لاقتباس الحضارة الاوربية واتباعها حتى صار الاقتباس عنها

---

(١) النويري: نهاية الارب جـ٣ ص٢٣١

(٢) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح بين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ص١١٩.

هدفا وليس وسيلة واصبح اللحاق بركب الحضارة شعارا يرفعه كل من يريد الدخول في زمرة المفكرين التقدميين المجددين وصار اللحاق بركب الحضارة هو الـــهدف والغاية القصوى التي وضعها المفكرون النهضويون للامة فتسابقوا الى الاقتباس لكل شيء، وللغث قبل السمين، من اجل التساوي باصحاب الركب والعيش كما يعيشــون والشعور كما يشعرون والعمل كما يعملون وقضاء اوقات الفراغ كما يفعلون! وهــذا وحده يفكي دليلا على لا عقلانية الدعاة. فلو نظرنا الى المصطلح لوجدنا فيه كلمـــة اللحاق والتي تدل على ان الركب هذا قد فاتنا او سبقنا وعليه لا بد ان نعــدو وراءه حتى نصله! فكيف بالله يمكن ذلك؟ كيف يمكن لنا نحن المتخلفين والمتأخرين الذيــن لا نملك الوسيلة ان نلحق بركب سائر يملك كل الوسائل التي لا تضمن له مداومـــة السير فقط بل والاسراع والتقدم فيه؟! اليس هذا مما ينطبق عليه قــول القــائل: ان اردت ان تطاع فاطلب ما هو مستطاع!! فهل يا ترى سيتوقف الركـــب وينتظرنـــا (محبة لنا) لنلحق به ونسير معه ونكون له مساوين؟!! فبغير هذا لن نلحق بـــالركب ابدا، لانه كلما تقدمنا خطوة فسيتقدم الركب بفضل ما يملك اصحابه مـــن وســـائل، خطوات وبذلك حتى لو استعرنا (او اشترينا!!) منهم وسائلهم ورغم صعوبة ذلـك او استحالته، فان اقصى ما نحلم به هو ان نبقي هذه الفجوة بيننا وبين الركـــب علـــى حالها فلا يزيد اتساعها. وهذا ايضا لم نتمكن من تحقيقه، رغم كل هذا الاقتباس منهم وكل هذه التبعية لهم وكل ثروات البلاد التي حولناها الـــى خزائنـــهم، وذلـــك لان وسائلهم في التقدم والتي استعرناها منهم هي وسائل وضعت لهم ووفقـــا لظروفـــهم ومن اجل تحقيق اهدافهم، ولذلك فهي وسائل غريبة علينا، لا نفهمـــها ولا نحســن التعامل معها، والاستفادة منها كما يفعل واضعوها ومبتدعوها، اصـــاحب الركـــب، ولهذا ورغم استعارتنا لوسائلهم فقد فشلنا في ابقاء المسافة بيننا وبين الركب على ما كانت عليه قبل مائة عام، فزادت الفجوة بيننا، فزادوا هم تقدما وازددنـــا بالمقارنـــة لتقدمهم تخلفا عن الركب. ثم اليس لهذا الركب هدف يسعى اليه. فمـــا هـــو هـــدف الركب واصحابه؟ فهل عرفناه حق المعرفة وفهمناه وشاركنا في وضعه حتى نسعى بكل ما نملك من قوة لتحقيقه؟! وهل من الضروري ان يكون هدف ركب الحضـــارة

الغربية واصحابه هو هدفنا؟ اليس لكل امة هدف تسعى لتحقيقه بوسائلها الخاصة بها والتي تفهمها وتستطيع تشغيلها بفاعلية لتحقيقه؟ او ليس هذا الهدف وهذه الوسائل المتميزة هي التي تعطي للامة مقوماتها وتجعل منها امة متفردة لها شخصيتها المستقلة التي تمكنها من بناء حضارتها الخاصة بها فيكون لها ركبها الخاص فلا تبقى عالة على الآخرين! او على الاقل تمكنها من المشاركة وعلى قدم المساواة في الحضارة السائدة؟!! فهل من العقل والعقلانية ان نفرض على الامة ان تسعى وتبذل الغالي والرخيص من اجل تحقيق هدف هو ليس فقط هدف لا تبتغيه لنفسها ولم تشارك في وضعه وانما هي تستريب منه وتشك فيه وفي جدواه لتحقيق طموحاتها، هذا غير اعتقادها الراسخ والذي تدعمه الشواهد على انه موجه ضدها وضد مصالحها؟!!

وحتى بعد ان تكشفت حقيقة هدف الركب واصحابه اثناء دعوة الطهطاوي والتونسي والافغاني وعبده وغيرهم وتحققت مخاوف وشكوك غالبية ابناء الامة وتبين ان الركب كان يستهدف بلادها وعقيدتها وحريتها واستقلالها، لم يكف الدعاة عن هذه الدعوة اللاعقلانية من جميع جوانبها، بل ازدادوا الحاحا في الدعوة اليها. وبعد الحرب العالمية الاولى، ولما تكشفت اهداف الركب اكثر فاكثر واحكم اصحابه هيمنتهم على مقدرات الامة واراضيها يتصرفون في شؤونها تصرف المالكين المستبدين الظالمين، الذين لا يراعون حرمة لا ي شيء، يبيعون ويشترون بكل مصالح الامة، لم يكف دعاة اللحاق بالركب عن دعوتهم هذه. ولم يضعوا للامة هدفها الخاص بها والذي يتلاءم مع طموحاتها وما تبتغيه لنفسها، ومع ظروفها ومشكلاتها ووسائل مواجهتها، ولم يضعوا لها ركبها الخاص، ايا كان تواضعه، الذي يمكنه ان يوصلها الى هدفها هذا، وايا كان تواضعه هو الآخر. بل استمروا في غيهم يعمهون وازدادوا الحاحا، اكثر فاكثر في هذه الدعوة الضالة وتمادوا اكثر فاكثر بالاقتباس من الحضارة الغربية واتباعها حتى انهم نزعوا عن الدعوة تلك الغلالة الرقيقة من الدين والتراث والتي غلفها بها دعاتها الاوائل وصاروا يجاهرون بعلمانيتهم والحادهم وانكروا على الامة تمسكها بدينها وبتراثها وطلبوا منها ان تعيش

الحياة كما تعاش في اوربا وامريكا او لا تعيش ابدا!!!.

والآن وبعد كل ما حدث من مآسي التقسيم والتفرق ومنح اجزاء عزيزة من الوطن للغرباء، وبعد ان ظهر عمليا ان الفجوة بيننا وبين الركب تزداد كل يوم اتساعا، هل توقف دعاة ركب الحضارة عن دعوة اللحاق به وتفكروا وابدعوا لها ركبا خاصا بها، يلائم مقوماتها وما تبتغيه لنفسها؟ ابدا... فلا يزالون على درب الركب يهرولون لعلهم به يلحقون!!! عجبا! هل يمكن ان تعدو القنيصة وراء الصياد لتلحق به فيصطادها ويلتهمها فلا يبقى منها ما يدل عليها؟!!! اهو نحر ام انتحار؟!!!

وحتى لو افترضنا ان غالبية الامة مخطئة في سوء ظنها بمقاصد الركب، وان اهداف الركب واصحابه كما يراها مفكرو النهضة تنحصر في خير الانسان وسعادته او مصلحة الانسانية!! الا يختلف مفهوم الخير والسعادة ومصلحة الانسانية نسبة الى قيم الامم وعقائدها؟ فهل ما يراه اصحاب الركب من مفهوم الخير والسعادة هو بالضرورة ذات مفهومنا عنهما؟!-ان هذه المفاهيم هي من المفاهيم المعنوية التي تختلف في محتواها (بدرجة ما) تبعا للافراد المختلفين ضمن الامة نفسها او حتى الاسرة نفسها فكيف باختلافهما بين الامم المختلفة؟!! هذا غير ان خير انسانهم وسعادته لا تتم الا على حساب سعادة انساننا وخيره، ومن خلال شقائه واستعباده!!

ثم ان المفكرين عادة لا يستحقون هذه الصفة الا لكونهم يضعون للامة مثلا عليا وغايات سامية ارقى مما هو سائد فيها حتى يمكنوها من تحقيق التقدم من خلال تحقيق هذه الغايات المتقدمة على ان تكون الغايات قريبة المنال ويمكن تحقيقها ضمن الوسائل المتاحة للامة. ومفكرو النهضة من دعاة اللحاق بالركب، قزموا هدف الامة وغايتها القصوى، فبعد ان كانت تؤمن بانها خير امة اخرجت للناس، وتعمل من اجل ان تكون كذلك، رغم التراجعات، جعلوا اسمى ما تطمح الى تحقيقه هو ان تلحق بركب غريب اجنبي عنها لا تعرف وجهته ولا يمكن لها ان تلحق به وتتساوى باصحابه مهما فعلت!!! وهي غاية بعيدة المنال، اذ لا يمكن عمليا تحقيقها مطلقا. مما يؤدي الى الاحباط ويشعرها بالدونية امام الحضارة الاجنبية!! فهي لن

تستطيع اللحاق بالركب لان الركب، كما مر ذكره، لن يقف وينتظرها ليسير معــها، وحتى تلحق به لا بد لها من أن تسير بسرعة أكبر مما يفعل، وهو أمر لا يمكن مـا دامت تعتمد على أصحاب الركب لإعارتها هذه الوسيلة، فهم لن يفعلوا لأنه ليس من مصلحتهم ولا من أهدافهم ان يسيروا معها ندا لند!!! فكيف ستسـير بأسـرع ممـا يسيرون لتلحق بهم؟!! ولكل ذلك لا أرى دعوة اللحاق بركب الحضارة الغربية التـي جعلوها هدفا لكل دعواتهم للتغريب، الا غاية اللاعقلانية-ممن كـان يقصدهـا ولا يخفي وراءها هدفا آخر خفيا- خاصة وان هذا الركب لا يلائم الأمة ولا معتقداتـها ولا طموحاتها وهي الأمور التي لم يُعِرها الدعاة أي اهتمام وافترضوا ان ما صلـح لاوربا لا بد ان يصلح لها.

ان الكتابات التقدمية! والخطابات الرنانة والتي تدعو كلها الى اللحاق بركـب الحضارة الغربية تجعلني دائما اتخيل هذا الركب على شكل عربة لامعـة فـاخرة مزركشة تجرها خيول كثيرة رشيقة مطهمة، تجري بأقصى سرعتها، ووراءها حشد من دعاة الحضارة الاوربية الغربية، مسرعين يجرون ويجـرون ويجـرون، وراء الركب هذا، من اجل اللحاق به. الى ماذا؟ لا يعلمون، والى اين؟ لا يـهتمون، كـل همهم الجري وراءه لاهثين، يسفون التراب الذي تثيره حوافرالخيول هـذه والـذي يعفر لحاهم وعمائمهم وطرابيشهم وحتى قبعاتهم التي اقاموا الدنيا حتى اسـتحصلوا الفتوى للبسها، آذانهم وقد اصمها ضجيج العربة فهم لا يسمعون، عيونهم وقد اقذاهـا الغبار الذي يثيره الركب في سيره فلم تعد ترى شيئا سوى حوافر الخيول التي تلمـع بين آونة واخرى بما يكفـي لتعريفـهم بأنـهم علـى درب الركـب يسـيرون... ويسيرون... ويسيرون وكأنهم بسلاسل الى الركب مربوطون كعبيد عصر النهضـة التي يريدون. يتمايلون ذات اليمين وذات الشمال في محاولة لحفظ توازنـهم حتـى يظلوا على ذات درب الركب يسيرون. فهل من العقل والعقلانية ان لا يعرف هؤلاء لماذا يلهثون ولا الى اين هم سائرون؟ ومتى سـيتحررون ويصبحـون بأصحـاب الركب متساوين؟ وهيهات، هيهات فهم لن يتساوون!!

الحضارة

ان دعاة اقتباس الحضارة الغربية والعيش كما يعيش الاوربيون واهل الغرب عامة، ارادوا للامة لا ان تخرج من ثوبها وتلبس ثوبا غيره ليس لا يناسبها ولاعلى مقاسها ولم يفصل لها فقط وانما ارادوا لها ان تخرج من جلدها الطبيعي ايضا. مع ان الحضارة كما يعرفها المعجم الفلسفي هي: (جملة مظاهر الرقي العلمي والفني والادبي التي تنتقل من جيل الي جيل في مجتمع او مجتمعات متشابهة)[1] وان حضارة امة معينة في فترة معينة هي: مجموعة القيم والعقائد والتقاليد والطموحات والعلوم والفنون والآداب وغير ذلك من عناصر مادية ومعنوية تجمعت لديها من خلال عملية تراكمية شاركت في صنعها وتراكمها اجيالها المتعاقبة من خلال تفاعلها مع بيئتها وعبر مراحل تاريخها المختلفة. ولذلك فان الحضارة لا يمكن اقتباسها من الآخرين ولا نسخها عنهم. وتجديدها وتطويرها لا يتمْ بقلع جذورها وغرس جذور (او فروع) اجنبية غيرها لا تلائم الظروف البيئية المحيطة، كما اراد البعض ان يفعل، وانما يتم بتهذيب عناصرها ذاتها وبابداع عناصر جديدة ملائمة تضاف الى عناصرها الاساسي ولا تتنافر معها. ولكن النهضويون نحوا كل اعتبار للامة جانبا وقللوا من شأن حضارتها وعملوا على هدم عناصرها ودعوا الى اقتباس عناصر اخرى غريبة عنها. ومع انهم رفضوا الخيار في ان تقوم شؤون حياتنا على ما ورثناه من السلف وقالوا مثل قاسم امين: (ان من الغفلة بل من اسباب الشقاء ان تكون شؤوننا في حياتنا قائمة بعوائد لا نفهم اسبابها ولا ندرك آثارها في احوالنا...) وطلبوا منا ان (نفهم ان لنا مصالح ولمن سبقنا مصالح ولنا شؤون ولهم شؤون ولنا حاجات لم تكن لهم وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم...)[2] الا انهم ارتضوا ان تقوم شؤون حياتنا على عادات اوربية لا نفهمها ولا نعرف اسبابها ولا اهدافها واعتبروا ان حاجاتنا وكأنها هي ذات حاجات اهل الغرب ومصالحنا وكأنها هي

---

(١) المعجم الفلسفي: القاهرة/ مجمع اللغة العربية في مصر

(٢) قاسم امين: تحرير المرأة ص١٨٦-١٨٧

ذات مصالح اهل الغرب، وكل ما يخالف ما عند اهل الغرب هؤلاء، مـــن عقائدنـــا وموروثاتنا فهو بال وقديم ومتخلف ويجب تبديله بما عند اهل الغرب، فقال زكـــي نجيب محمود مثلا: (والمشكلة الكبرى الآن هي كيف نتحول من ثقافة اللفـــظ الـــى ثقافة العلم والتكنية والصناعة؟) ثم اجاب فقال: (ان ذلك لن يكون بـــالرجوع الـــى تراث قديم، وان مصدره الوحيد هو ان نتجه الى اوربا وامريكا نستقي من منابعـــهم ما تطوعوا بالعطاء وما استطعنا من القبول وتمثل ما قبلناه)[1] وليؤكد هذه الفكـــرة قال وبسذاجة وهو الداعي الى العقل والتعقل والعقلانية!! (لو ان الله اراد للانسان ان ينظر الى الخلف لجعل عيناه خلفه وليس امامه) مع ان الله خلق الانســـان متكـــاملا فبالاضافة للعينين خلق له العقل ليرى فيه ما امامه ومـــا خلفـــه ويتدبـــر بكليـــهما (وبالحواس الاخرى) كل اموره. مع العلم ان هذا المثل الساذج ليـــس مـــن ابتـــداع الكاتب بل هو اقتباس عن الغرب ايضا. اذ هو مأخوذ عن قـــول اجنبـــي منـــاهض للتدخين وهو: (لو ان الله اراد لانف الانسان ان يكون مدخنـــة لجعلـــه فـــي قمـــة رأسه)!!!

ومن اجل الاقتصار على اتباع الغـــرب كمصـــدر وحيـــد للعلـــم وللمعرفـــة وللحضارة، فقد اراد زكي نجيب محمود ان يغسل دماغ افراد الامة من كل ما فيـــها من آثار حضارتها وذلك بتغيير افكارهم اذ قال: (انك اذا غيرت مجموعة الافكـــار المجتمعة في رأس آدمي تغير بالتالي سلوك صاحبه، ومـــا غســـل الدمـــاغ الـــذي يتحدثون عنه اليوم الا تغيير افكار بافكار في رؤوس الناس)[2]. وحتى دين الامـــة اعتبره كثيرون، من القديم الذي لا بد من تركه او تصليحه! اذ يقول جرجي زيـــدان في معرض مدحه لمحمد عبده (ان عظماء الدين فئتان: الفئة الاولى واضعو الشرائع كالانبياء او من في حكمهم ممن ينسبون اعمالهم الى ما وراء الطبيعة. والفئة الثانية: المصلحون الذين يصلحون الدين بعد فساده... لان الدين اذ مر عليه بضعة قـــرون

---

(١) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي ص٨٢

(٢) ذات المصدر ص٨٣-٨٤

فسد وتغير شكله... فتفسد الامة وينحط شأنها، حتى يقوم من يصلحه ويعيده الى رونقه. ووضع الاديان عمل شاق قل من يفوز به، والاصلاح الديني لا يقل مشقة. وربما كان ادخال دين جديد ايسر من اصلاح دين قديم...)[1]!!!

وان كان الاوائل من دعاة النهضة حاولوا تصوير دعوتهم على انها تقتصر على اقتباس الصناعات والتقنيات ولم يصرحوا بغير ذلك الا قليلا، وهي اقتباسات ما كانت تحتاج الى التبرير ولا الى التأويل في آيات القرآن الكريم!!! اذ اننا لم نجد في كتابات الاوائل خلافا على ما يقتبسونه من صناعات وعلوم تطبيقية. فهارون الرشيد عندما غزا الصين (وجلب اسرى اطلق سبيلهم بشرط ان يعلم كل ذي مهنة صناعته لبعض اهل بغداد، وهكذا انتقلت من الصين الى العرب صناعات البارود والقاشاني والكاغد-الورق- وغيرها)[2] ولم يحتج الى تأويل او فتوى ولم يعترض رجال الدين كما اعترضوا على كل ما له علاقة بالمسائل الروحية الدينية. فان المعاصرين لم يكتفوا بالدعوة الى قتباس الصناعات والتقنيات ولا بما استوردوا من فكر ساد المجتمع العربي ووجهه كما يشاء اصحاب الفكر هذا ويحقق مصالحهم بل صاروا يدعون الى اقتباس الجانب الروحي!! فنجد حسن صعب مثلا يدعونا الى (ان نحرر انفسنا من الخطأ الفاحش الذي جنينا به على انفسنا قبل ان نجني به على سوانا والذي جعلنا نرى الوجه المادي لهذا التحضر دون الوجه الروحي والخلقي، والحقيقة هي ان وراء الاعجاز العلمي الصناعي التكنولوجي للتحضر الحديث طاقة روحية انسانية ابداعية لولاها لما كانت المعجزة ...) والمشكلة التي تواجه حسن صعب هي هذا (الانسان المتخلف) وكيف يستطيع ان يحرك (لديه هذه الطاقة الانسانية الروحية) المستوردة!!! (تحريكا يجعل منه مشاركا في صناعة

---

(1) بناة النهضة ص٨٨ (انظر مسألة ان الانبياء يضعون الشرائع وليس الله وينسبونها اليه ومسألة فساد الدين!! ودور المصلحين في اصلاحه وهو اعظم من دور الانبياء الخ...!!

(2) عثمان الكعاك: الحضارة العربية ص٤٨

المعجزة؟)[1]!! مما يفرض السؤال ، ما هو الجانب الروحي هذا؟! وماذ بقي نقتبسه من الحضارة الغربية؟ وكيف سيشارك الانسان المتخلف في صناعة المعجزة؟ هل بما يتصدق به عليه اصحاب المعجزة؟ ان تطوعوا بالعطاء كما يقول زكي نجيب محمود وذكر اعلاه!!؟ وهل عندما يتصدقون عليه او يتطوعون بالعطاء سيكون هذا الانسان العربي الذي يصفه بالمتخلف مشاركا لاصحاب المعجزة هذه ام سيكون تابعا ذليلا ومستجديا؟!! ثم كيف كما يقول حسين هيكل: (نستطيع ان ننقل ثقافة الغرب الروحية للنهضة بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم) ويقول عن تجربته في هذا المجال لقد (حاولت ان انقل لابناء امتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعا هدى ونبراسا، لكني ادركت بعد لأي انني اضع البذر في غير منبته فاذا الارض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه...)[2].

فأين العقل والعقلانية في تعاملهم مع الامة (ومع الانسان بشكل عام) وكأنها عجينة صماء يشكلونها كما يشاءون من غير اعتبار لطبيعتها ولطبيعة المجتمع الذي يعيش فيه افرادها والذي استمد طبيعته ومقوماته من مقومات الامة بتاريخها وثقافتها وعقيدتها الدينية التي لها اكبر الاثر في نفوس ابنائها من المسلمين وغير المسلمين مما جعل ابن خلدون يقول: ان العرب (لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية...) وذلك لانهم (اصعب الامم انقيادا لبعضهم البعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع اهواءهم فاذا كان الدين بالنبوة او الولاية كان الوازع لهم من انفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم...)[3].

---

(١) حسن صعب: الانسان العربي وتحدي الثورة العلمية والتكنولوجية ص١٧٤

(٢) فهمي جدعان: اسس التقدم ص٣٣٠-٣٣١ ومحمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية... ص١٧٠-١٧١ جـ٢

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص١٥١

اما كان اولى بالمفكرين واكثر عقلانية لهم ان يبحثوا في علل المجتمع وطبيعته وطبيعة الامة وهم يعيشون في عصرالنهضة والبحث العلمي!! وتتوفـر لـهم مـن وسائل البحث اكثر مما توفر لابن خلدون او غيره، فيبتكـرون لمشـاكلها وعللـها الحلول التي تناسبها بدل هذه الافكار والدعوات والمواعظ الاجنبية التي يتلقفونها من الغرب ويلقونها من فوق منابرهم وابراجهم بانبهار شـديد بـها؟!! فالمجتمعـات لا تنصلح، ومشكلاتها لا تنحل بمثل هذه المواعظ كما يرى ابـن خلـدون اذ يقـول: (فالمواعظ المجردة لا تؤثر في الناس لانهم يسيرون في حياتـهم حسـبما تقتضيـه طبيعة المجتمع الذي يعيشون فيه) اما اولئك الذين تغرهم المواعظ ويندفعـون فـي استخدامها من غير ان ينظروا في طبيعة مجتمعهم فهم في رأي ابن خلدون يضرون المجتمع اكثر مما ينفعونه، وكثيرا ما تؤدي اعمالهم الى العبث والفوضـى وسـفك الدماء[1]. وهذا ما حصل في بلادنا.

السطحية

ان من يتعامل مع اعمال مفكري النهضة تبدو له بوضوح السطحية التي تعامل بها هؤلاء مع الحضارة الغربية. اذ هم لم يكتفوا بعدم التنبه الـى خطـر التغريـب والدول الاوربية واطماعها في اوطانهم وعدم تحذير الامة من ذلك، ولا بمقاومة من نبه الى الخطر من ابناء الامة الذين رفضوا الحضارة هذه جملة واحـدة، لا بدافـع الجمود وعدم الرغبة في التطور، بل تحسبا للخطر الذي توقعوه وحدث بعد ذلـك، ولكنهم بالاضافة لذلك ربطوا انفسهم، كل بعجلة من عجلات الاسـتعمار (الركـب) بحيث انهم اخذوا يفاضلون بين استعمار واستعمار. فالافغاني قارن بيـن الانكلـيز والفرنسيين كمستعمرين فقال: (ما ابعد الفرق بين سياسة الانجلـيز -فـي الـهند- وسياسة الفرنسيين في الجزائر فاهل ذلك البلد (الجزائر) اكثر رضا وسعادة-بغـير حدود - من اهل الهند وكيف لا يصح ذلك اذا تأملنا في اختـلاف الطريقـة التـي

---

(1) علي الوردي: منطق ابن خلدون ص١١

يعاملون بها)[1] ودليله على طريقة المعاملة الحسنة وعلى رضا الجزائريين وسعادتهم!! هو ان الفرنسيين دعوا مشايخ الجزائريين الى (معرض باريس الدولي وقدموا لهم الوانا بهيجة من الترفيه)[2]!! ويمتدح استعمار الروس للمسلمين ويقول كيف يظن المسلمون (ان الروس افظع اعدائهم، في حين ان هؤلاء لو غزوا بلاد المسلمين مئة سنة لعجزوا عن أن يستحلوا لانفسهم هذه الغنائم التي استحلها الانكليز)[3].

والشواهد كثيرة ولا يمكن حصرها هنا، والتي كلها تدل لا على سطحية في التفكير فقط وانما تدل على ان المفكرين النهضويين لم يستطيعوا بنظرتهم السطحية هذه ان يروا الحضارة الغربية على حقيقتها والتي كانت كاشفة عن نفسها في الهند والجزائر وفي غيرها من الدول المستعمرة وفي مؤامراتهم على الدول التي لم تكن مستعمرة والتي كلها كانت ممارسات فيها من الوحشية والهمجية والجشع والاستغلال وغير ذلك من ضروب الممارسات اللانسانية ما يعجز هذا المجال عن ذكر شواهده، حتى ان كوستاف لوبون اعتبر سلوك الاوربيين في الشرق سلوكا لا إخلاقيا ومستغلا لشعوب بلاده (الشرق) اذ كان (كما قال) (احقر الاوربيين يعتقد ان كل شيء مباح له في الشرق، واذا لم يستغل الشرقي رأسا، كما يستغل في الهند بما يثقل به كاهله من الضرائب التي تنزع آخركسرة خبز منه، فانه يستغل بالحيل التجارية التي تتم بوقاحة دالة على ضعف الطلاء لدى رجالنا المتمدنين)[4]. ولا حتى رأوا ما كان يحدث (ولا يزال) في اوربا نفسها من هدرللحريات واعتداء على الناس وهضم لحقوقهم وخاصة ما كان يحدث في الحرب الاهلية الامريكية وفي

---

(1) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص٣٨

(2) ذات المصدر

(3) نفس المصدر ص٤٨ ايمكن للفكر ان يكون اعمق من هذا!!!!

(4) حضارة العرب.... ص٥٩٧

النزاع الاوربي وفي فرنسا بين الملكيين والجمهوريين الخ... اذ هم نظروا الى الحضارة الغربية -ولا يزالون يفعلون- من بعيد، وهي نظرة كما يقول زكي نجيب... تجرد الواقع من تفصيلاته مكتفية بحدوده الخارجية وملامحه البارزة) وهي لذلك (تيسر للنظر العقلي ولكنها في الوقت نفسه تفويت لنا عن رؤية الاجزاء، فالنظرة الى الغابة من بعيد تعطيك صورة الغابة من الخارج وتستر عنك اشجارها)[1] ونظروا ايضا، بعيون مبهورة لا تستطيع ان ترى الدقائق ولا تنفذ الى الاعماق فجاءت نظرتهم سطحية لا عقلانية.

غياب المعيار

ثم كيف كان لهم ان يعتبروا بما كان يحدث من ممارسات اصحاب الحضارة وتطبيقهم لها على الحياة العملية، وهم لا يملكون معيارا لما يصح ولما لا يصح -بعد ان اضاعوا معيارهم الاصيل- يهتدون به في تفحص الحضارة الغربية المعروضة عليهم بسلبياتها وايجابياتها، وتفحص ما يلزمهم منها والحكم على مدى ملاءمته لحل مشكلاتهم؟!! بل ان بعضهم يستهين بوجود معيار اصلا، يحكم الانسان بموجبه على الامور، اذ يقول زكي نجيب: ان الذهنية العربية مختلفة عن الذهنية التي تجعل القرار الانساني غير مسبوق بمعيار. فوجهة النظر العربية -تفترض اسبقية المعيار الذي يقاس به القرار في صوابه او خطئه- ثم يتساءل: هل يمكن التوفيق بين ان يكون الانسان عربيا يحمل وجهة النظر هذه، وان يكون في الوقت نفسه معاصرا يتطور مع الزمان وتغيراته السريعة؟[2]. فهل هناك خلط وتشويش وسطحية ولا عقلانية اكثر من مثل هذا الكلام؟ كيف يمكن ان يتخذ قرارا اصلا من غير معيار؟ ما هو القرار؟ هل هو شيء يقع من السماء؟ اليس هناك عمليات تسبق اتخاذ القرار؟ أي قرار؟ والتي منها اختيار القرار من عدد من

---

(1) تجديد الفكر العربي ص٦٦

(2) ثقافتنا في مواجهة العصر

البدائل المعروضة لحل الاشكال، فكيف يتم اختيار هذا القرار وليس غيره؟ من دون معيار معين؟ ثم مسألة التطور والتغييرات السريعة التي افقدت بعض المفكرين النهوضويين صوابهم، كيف تحدث؟ هل تنزل هي الاخرى من السماء كما ينزل المطر؟ اليس الانسان هو الذي يحدث هذه التغييرات السريعة؟ وكيف يحدث الانسان تغييرات من غير الحكم على الوضع الذي قبله بانه غير مناسب ويستلزم التغيير؟ ثم الا يتم ذلك وفق معيار معين؟!!

وخلاصة القول فان السطحية واللاعقلانية التي تعامل بها النهضويون مع الحضارة الاوربية ومع التراث ومع العقيدة الدينية لا يمكن حصرها وذكر جميع شواهدها، مما جعل دعواتهم واعمالهم المقتبسة من اوربا جميعا تتسم بها بشكل او بآخر. وما الانبهار اصلا والتقليد والتبعية والتناقض الخ... الا دليل على هذه اللاعقلانية. والدليل الاوضح والاكبر عليها هو ما نراه حولنا مما هو عكس ما ادعوه ودعوا اليه من حرية وديمقراطية ومساواة واشتراكية وثورية الخ... ومهما برروا هذه النتائج المعكوسة فهي ستبقى مسؤوليتهم، وقد قال الشاعر:

على قدر اهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم[1]

اللامسؤولية

يعترف النهضويون مثل غيرهم بتراجع الاوضاع في العالم العربي وبتخلفها في مجالات الحياة، حيث انعدم الابداع وتخلفت الزراعة، وتعثر التصنيع وماتت المهن وتقلصت الانتاجية في كل المجالات مما جعل الامة تكاد تكون عالة على الامم في غذائها وكسائها وفرشها ووسائط نقلها واتصالاتها، ومواد بنائها وانشاءاتها ووسائل وادوات علاجها ووسائل ترفيها وتسليتها وكل ما تحتاج اليه في حياتها مما لم يذكر. وعلى رأس كل ذلك فكرها وثقافتها. هذا غير زيادة الامية الحقيقية، وليس امية القراءة والكتابة، والتي تتمثل بالاعداد الغفيرة من رواد المؤسسات التربوية

---

(١) المتنبي: ديوان المتنبي ص٣٨٥

وخريجيها من انصاف المتعلمين، وزيادة البطالة الفعلية التي تتمثل بالاعداد الكبيرة من الخريجين ممن لا يجدون عملا مناسبا لما اهلوا له، فيتسربون بالتدريج الى البلاد الاجنبية التي صارت بعد ان كانت تستورد منا منتجاتنا الغزيرة فاخرة الجودة-الزراعية والصناعية اليدوية- تستورد منا اليوم عبيدا مؤهلين تستغلهم، بارخص الاثمان بالغالب! في انتاجها الذي تعود فتصدره لنا باعلى الاثمان! ليتكسب ابناؤها من فائض القيمة الذي رفض مفكرونا ان يكسبه ابناء الامة منا فأمروا ان يقتل قابيل الصناعة هابيل الزراعة[1] الذي ما ان فعل ذلك حتى هرب هو الآخر، ولم تطب له الاقامة في بلادنا لانه اوربي المنشأ، فلم تطب له الاقامة الا في وطنه!! والبطالة المقنعة المتمثلة بتكديس الموظفين في المؤسسات المختلفة التي اصيبت بالتخمة حتى لم تعد تستوعب المزيد. ناهيك عن تخلف القيم والاخلاق والعلاقات الايجابية بين افراد الامة وتراجع التوجهات الانسانية مقابل ازدهارالتوجهات المادية الانانية والاسراف فيها. ولكنهم وان كانوا يعترفون بكل هذه السلبيات وغيرها مما لم يذكر، او ببعض منها الا انهم يتهربون من المسؤولية عنها وينفون مسؤوليتهم عن أي شيء منها. فدائما المسؤول هو غيرهم، فتارة هو الاستعماروتارة هو الحاكم واخرى هو الشعب الجاهل وعقائده المتخلفة. وتارة رابعة هي الظروف البيئية والموارد المالية الخ... وهكذا، الكل مسؤول الا العلماء والمفكرون النهضويون، فهم وحدهم مصونون غير مسؤولين! والذين ما انفكوا يدعون الاستبداد بهم وهدر حقوقهم وحريتهم، فعقلهم الذي هو العقل العربي (فمطحونا ومضطهدا ومعتقلا ومحاربا ومهجرا)[2]!!

اضطهاد النخبة

كما يقولون والانتلجنسيا العربية!! هي في نظرهم محشورة بين (مطرقة القمع

---

(1) هي دعوة نهضوية سمعناها كثيرا وخاصة من زكي نجيب محمود.

(2) المنتدى العدد ٤٥ المجلد الرابع حزيران/ يونيو ١٩٨٩

وسندان الامية) أي بين استبداد الحاكم وجهل الشعب!! والوطن العربي من دون البلاد المتقدمة في رأيهم (يحارب الانتلجنسيا ويخشاها ويعمل على تقزيم دورها وتهميش رسالتها، وشل فاعليتها او ارغامها على التقوقع في دوائر السلبية والصمت) وفي الوطن العربي ايضا، وفي رأيهم، يحال (بين اهل الصفوة وبين دورهم الريادي ومهماتهم الحضارية ورسالتهم التنويرية ومجهودهم التقدمي في خدمة مجتمعاتهم المثقلة بالاعباء، والشديدة الاحتياج للتطور والتقدم واللحاق بركب الدول التي استيقظت مبكرا)[1] كما يرون ان الوطن العربي يعيش في فراغ ليس سببه عدم ابداعهم وجهودهم الملحة في تجريد الامة من كل ما تملك من فكر وعقيدة وقناعات من غير ان يأتوا بما يمكنه ان يملاء ما يحدثونه من فراغ- هذا ان كانت مسألة الفراغ اصلا واردة ولها اصل منطقي- وانما سببه (اضعاف النخبة وتشديد القبضة على نفوذهم)[2].

من المسؤول؟

اما المسؤول عن التخلف الذي نراه حولنا فهو الاستعمار الذي جعل انظمة الحكم والشرعية السياسية تتعرض لعملية مخاض متعسرة لم تنفع معها حتى عملية الولادة القيصرية كما يرى سعد الدين ابراهيم مثلا اذ يقول عن ازمة الشرعية ان (تآكل القديم كان بمثابة القتل البطيء ان لم يكن الاغتيال وولادة الجديد كانت بمثابة الولادة القيصرية المتعسفة لاجنة غير مكتملة النمو ان لم تكن مشوهة عضويا)[3] والمسؤول في نظرهم عن هذا الاغتيال وهذه الاجنة المشوهة هو الاستعمار وليس المفكرون، او هو بالاضافة لذلك الحاكم الذي هو الآخر في نظر المفكرين مسؤول عن هذا التخلف. وقد تأتي مسؤوليته على رأس الجميع بحسب وجهات النظر

---

(١) من جريدة الرأي الاردنية صابر قباني ١٩٨٧/١١/٢٦

(٢) من جريدة الرأي الاردنية صابر قباني ١٩٨٧/١١/٢٦

(٣) الشرعية: ص٤١٣

المختلفة، فالحاكم هو المسؤول عن هذا التخبط السياسي والاقتصادي والتخلف الاجتماعي وكل شيء وعلى رأس ذلك فهو المسؤول عن هزائمنا امام الاعداء ففي حرب ١٩٤٨ كانت هزيمتنا وخذلاننا هو بسبب الحكام المتآمرين مع العدو!! وفي حرب ١٩٦٧ كان جمال عبدالناصر كما يقول حسنين هيكل في مقدمة كتابه سنوات الغليان المسؤول (عن الهزيمة واعترف بذلك ولم يعد هناك من مجال الى لوم هذا او ذاك) اما مسؤولية المفكرين الذين بنوا شخصية عبدالناصر هذه والتي ادت الى الهزيمة وبنوا شخصية من كان حوله من المسؤولين؟ ومسؤولية الذين من قبلهم من المفكرين الذين مهدوا الطريق لمجيئه ومجيء امثاله بما نشروه من فكر ومنذ ما يقرب من مائة عام او اكثر فهو امر لا يدخل في حسبان المفكرين!!

والشعب ايضا لم ينج من لومهم وتقريعهم، فجهله واميته وعقائده المتخلفة هي سبب ما نحن فيه منذ اول عهد النهضة وحتى اليوم، فقد قال اديب اسحق: (قضى على الشرق جهل عامته واستبداد خاصته وخيانة زعمائه وتعصب رؤوسائه ان يهبط بعد الارتفاع ويذل بعد الامتناع ويكون هدفا لسهام المطامع والمطالب، تعبث به ايدي الاجانب من كل جانب، فمنهم من يغير عليه بحجة الانسانية ومنهم من يتطرق اليه بدعوى اقامة امر المدنية ولم نر منهم من صدق في دعواه بل كلهم تابع في ذلك قصده وهواه)[1].

وليس لاحد ان ينكر ان بعضا من هذا صحيح ولكن ليس كل الصحة. فصحيح ان الاستعمار لعب دورا كبيرا في ايصالنا الى ما نحن فيه، ولكن لم يلعب هذا الدور الا من خلال من اسميناهم المفكرين النهضويين وتلامذتهم من الذين حرقت لهم البخور جزاء عبقريتهم ووطنيتهم وتحررهم واشتراكيتهم وديمقراطيتهم وتقدميتهم!! والذين لولاهم لما استطاع الاستعمار ان يلعب هذا الدور ولا ان يحقق اهدافه في الهيمنة على مقدرات الامة والغاء شخصيتها ووجودها ايضا!! وقارئ التاريخ يعلم

---

(١) اديب اسحق: الكتابات السياسية والاجتماعية ص١٨٩-١٩٠

ان الاستعمار عمل طيلة قرون عديدة على اختراق الامة وتحقيق مآربه منها ولكنه عجز عن ذلك ولم يتمكن منها الا مع نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن، أي مع بدايات عصر النهضة!! وبعد ان مهد له مفكرو النهضة من الوطنيين المتنورين!! والذين حقق الاستعمار من خلال فكرهم ما فشل في تحقيقه من خلال السياسة والحكام المستبدين الرجعيين!! والشعب الامي الجاهل!! وعلى رأس هذه المآرب بالاضافة للاحتلال والاستعمار، سلب ارض فلسطين والتي رفضت ما اسموها الرجعية العثمانية والعربية المساومة عليها ولكن ساوم عليها مفكرو التنوير الاوربي والحركات العربية التقدمية!!! والحكام الذين تربوا على ايديهم وتشربوا فكرهم التقدمي المتنور بالنور الاورباوي!!

وصحيح ايضا ان للحكام دورا كبيرا فيما آل اليه حال الامة ولكن من اين جاءهؤلاء الحكام ومن أي مدرسة تخرجوا؟ ومن دربهم وهيأهم لتولي مقاليد الحكم؟ اليس هم المفكرون؟ فمنذ آواخر القرن التاسع عشر، وان اردنا التحديد منذ ان عمل الافغاني وحزبه الماسوني على عزل الخديوي اسماعيل وتولية تلميذه في الماسونية، الخديوي توفيق، والحكام في الغالب تربية هذه الفئة او تلك من المفكرين وحتى من كان ليس منتميا الى هذه الفئة او تلك او هذا الحزب او ذاك، فهو خريج المدرسة الفكرية الاوربية المنشأ السائدة على الساحة العربية منذ اوائل هذا القرن والتي حد حدودها المفكرون النهضويون فحصروها في هذا الفكر الاوربي (الغربي) المنقول والذي يتمثل بالمفاهيم المشوشة والمتناقضة التي روجوا لها فالحاكم لا يعمل من فراغ كما يتصورون، فالفراغ اصلا مستحيل، فما دام الانسان حي فهو يعقل ويتفكر اما مدى الحكمة في هذا التعقل والتفكر فهي شيء آخر وتعتمد على امور كثيرة وعلى رأسها تربيته وتعليمه وتوجيهه والتي هي ما قام به المفكرون. فمن استبد من الحكام فما ذلك الا لان الفكر الذي تربى عليه وشربه له اساتذته المفكرون يدعو الى الاستبداد ويشجعه. فعندما يتعصب المفكر من هؤلاء الدعاة لفكرة يرتئيها لاصلاح الحال تخالف رأي الحاكم او ينصحه بها ولا يعمل الحاكم بوجبها، فيثور ويدعو للثورة ويحرض على الحاكم ويتهمه بشتى التهم ويحرض على قتله كما حدث مع

شاه ايران والسلطان عبدالحميد والخديوي اسماعيل ومن ثم توفيق وعباس مع كل من الافغاني وعبده. او ان يهاجم معارضيه من غير الحكام ويتهمهم بالرجعية والتخلف ويدعو الى الحد من حريتهم او الدق على رؤوسهم لتنفض ما فيها او حتى قطع رؤوسهم!! او عندما يستبعد المفكر من هؤلاء اية طريقة للاصلاح غير الثورة وتبديل الحكام والطبقة المحيطة بهم ككل بغض النظر عما يرافق ذلك من تضحيات ومن سفك للدماء حتى البريئة منها، فهل يلام بعد ذلك تلميذهم الحاكم، والذي تشرب هذا الفكر ومنذ طفولته احيانا بفضل الاحزاب الراديكالية التقدمية!! والتي يعمل منتسبوها في توجيه الاطفال في المدارس على هذا الفكر الثوري التقدمي!! على استخدام العنف من قتل وسجن وتنكيل، مع من يعارض مشاريعه التي يراها اصلاحية ويعتبرهم خونة ومجرمين كما كان المفكرون اساتذته يتهمون من يعارضهم من الحكام والمفكرين المخالفين لهم في الرأي؟!!!

واسراف الحكام في كل مظاهر الترف من تشييد الطرق والجسور الواسعة والحدائق المترفة والصروح الضخمة والقصور الفخمة وغير ذلك من المظاهر البراقة الخالية من أي مضمون تنموي او فائدة عملية اليس هو الآخر نتيجة لمعالجتهم السطحية لكل من التاريخ والحضارة الاوربية، والتي تركزت في الحالتين على مظاهر الترف والاسراف؟ فعظمة هارون الرشيد تقوم بالاضافة الى لياليه المترفة الى منحه الف الف درهم لهذا الشاعر وذاك المتطفل!! وعلى بنائه كذا الف حمام فيها كذا الف حوض ماء واضاءته لكذا الف شمعة في عيد النوروز او بنائه لقصر فيه كذا بركة ماء الخ... وعظمة نابليون وبطرس الاكبر او لويس الرابع عشر، بالاضافة لحروبهم وانتصاراتهم التي لا يهم لماذا قامت وماذا حققت؟ وكم سحقت من البشر؟ وكم خربت من الديار العامرة فهي تقوم في نظر المؤرخين العرب على الصروح العظيمة التي شيدوها في الوقت الذي كانت فيه شعوبهم تنوء من وطأة الجوع والمرض وويلات الحروب.

واساءة الحاكم التصرف باموال الدولة وخيرات البلاد وتبديدها او سرقتها او النهب منها ما شاء، اليس هو الآخر مما علمه اياه المفكرون الاساتذة من خلال

حملاتهم الظالمة في معظمها على الحكام السابقين من غير فئاتهم، من زمن السلطان عبدالحميد والحملة الظالمة التي شنها عليه الاجانب بواسطة عـازوري والكواكبـي وعبده وغيرهم والى هذا اليوم، واتهامهم ظلما في اغلب الاحيان بنهب خيرات الامة مع انه في اغلب الاحيان لم يكن هناك آنذاك الا القليل مما يمكن ان ينـهب!! هـذا غير ما كان للحكام من دين وخلق يمنعهم، في غالب الاحيان، من ذلك، فيأتي الحاكم التلميذ لهولاء بعد كل هذه الدروس وفي رأسه صورة للحاكم هي مزيج من العظمـة والهيبة والتسلط والترف والفخامة من جهة والنهب من جهة ثانية. فاختلطت المفاهيم الفكرية هذه مع شهوات الانسان وغرائزه من حب الذات وحب التسلط وحب التملك الخ... وبغياب الدين، وبانتشار العلمانية على يد المفكرين ايضا، الـذي يمكـن ان يعمل على تهذيب هذه الشهوات يرى الحاكم ان الاولـى. العظمـة-لا تتحقـق الا بالثانية-النهب! فيسرق اموال الدولة او يوظفها في خدمته من اجل تحقيق الهيبة لـه ويستعلى على الشعب الذي هو منه فيتواضع جدا ان هو جامل احد افراده ويتكـرم كثيرا ان منح احدهم حقه!! وكيف لا يكون كذلك وقد علمه اساتذته من المفكريـن ان الشعب ساذج وجاهل ومتخلف ولا يفقه شيئا!! هذا بالاضافة الى فقره!! والـذي لا يملك قرشا لا يساوي قرشا!! وبما ان الشعب لا يملك شيئا فهو لا يساوي شيئا! كمـا شاع اثر انتشار المفاهيم المادية التي نشرها المفكرون مع تبنـي الفلسـفة الماديـة والحضارة المعاصرة المادية والتي تجعل من المال سيد الامـور وتجعـل الهيبـة والاحترام بقدر الغنى والتي تجعل الحكم مرادفا للغنـى مـن خـلال الديمقراطيـة الاوربية والتي فيها لا يتسنى للفقير ومن يعوزه المال من ترشيح نفسه، لما تتطلبـه الحملة الانتخابية على الطريقة الغربية من اموال!! ولما كان الحكام والطبقة الحاكمة منذ اوائل هذا القرن وخاصة بعد زوال الملكيات الوراثية هم من ابناء الشعب الفقـير ولا يملكون مالا ورثوه عن الاجداد! فليس من طريق لتحصيله الا الرشـاوي ومـا يسمونه اليوم العمولات والتي هي في حقيقتها ثمنـا لخيانـة الضمـير والواجـب والوطن!! ولو دقق المدقق لوجد ان اصحابها، معظمهم، من ذوي العقائد التقدميـة والاشتراكية!!! والذين تربوا على ايدي مفكرين تقدميين!! وكـان اغنيـاء الطبقـة

الحاكمة قبل انهمار الثورات التقدمية على البلاد العربية يحتفظون بثرواتهم في بلادهم آمنين مطمئنين عليها. ولكن مفكرو النهضة والثوريون دعوا الى هدر جميع حقوق الاغنياء من الطبقة الحاكمة او من غيرها في البلاد، وعلى رأس ذلك حقوق الملكية التي هي على رأس حقوق الانسان التي يتباكون عليها اليوم!!! واستحلوا اموالهم المنقولة وغير المنقولة بغض النظر عن مشروعية امتلاكها مما جعل هؤلاء، ان تسنى لهم ترك البلاد يعيشون عالة على البلاد التي اغتربوا فيها او يعيشون في فاقة وفي عوز في بلادهم ان ظلوا فيها. ومن هنا اعتبر التلامذة النجباء!! من الحكام والمغتنين الجدد من السابقين لهم فصاروا يحتفظون باموالهم، غير المشروعة، هذه في اغلب الاحيان، في خارج البلاد يستثمرونها كما يشاءون بعيدا عن الاشتراكية التي طبقوها في بلادهم وعن الثورية واصحاب الثورات المحتملة ما دامت كل مشكلة في نظر المفكرين لا بد من ثورة لحلها!!! فهل يحق اليوم للمفكرين دعاة هذه الافكار التقدمية الثورية ان يلوموا ويتباكوا على هدر اموال الامة بالاسراف او بالنهب والعمولات واستثمارها خارج الوطن؟!! ثم كيف يستثمرونها في الوطن العربي كما يدعو البعض اليوم، بعد كل هذا الحقد الذي غرسه (المفكرون) من خلال التحريض على الثورة بين الطبقات المختلفة داخل الامة الواحدة وضمن الشعب الواحد، بين الغني والفقير على مستوى الافراد والدول حتى صار العامل يرى اموال صاحب العمل حقا له سلبه منه صاحب العمل هذا!! فأن لم يستطع سرقتة فلا اقل من ان يغش في العمل ويتهاون به قدر المستطاع، حتى يحقق الخسارة لصاحب العمل وكذلك الحال بين الشعوب والدول الغنية والفقيرة!! ولذلك لا ارى وجه حق في تشكي المفكرين مما صنعت افكارهم. فهذا انتاجهم وهم مسؤولون عنه ولا تقتصر مسؤوليتهم على اعداد الحكام والطبقة الحاكمة فقط، بل هم ايضا، مشاركون في الحكم بشكل من الاشكال فكل ما يقوم به الحكام انما يقومون به باشارة هذا وذاك من المفكرين المتباكين وبتأييد منهم. والحاكم بالطبع لا يستطيع ان يستشير المفكرين جميعا (وهم كثر!!) فيستشير بعضا منهم فيصبح البعض الآخر من المعارضين. ولكن هؤلاء المعارضين ما ان يعطوا

مناصب في الدولة حتى يشاركوا الحاكم ذات الرؤية!! والشواهد على ذلك كثيرة ومنها ما اكده السفير البريطاني في العراق عام ١٩٣٦ لوزارة الخارجية البريطانية في تقريره الرسمي الذي قال فيه: (ان السياسين العراقيين... صنفان الاول اولئك الذين يعتبرون المعاهدة نيرا استعماريا ويرون فيها العقبة دون احياء العصر الذهبي للخلافة العباسية. والثاني اولئك الذين يعتقدون ان المعاهدة، على أي حال، لم تعد بضرر كبير، وان هذا الضرر يعدله ويغطيه الدعم الذي تجلبه المعاهدة للعراق في الشؤون الخارجية...) ثم يقول ان (معظم اولئك الذين ينتمون الى الصنف الاول ينجرفون الى الصنف الثاني حينما يصبحون في مناصب ذات مسؤولية...)[١] مع العلم ان الساسة آنذاك هم في غالبهم مفكرو البلاد!! وهذا ما جعل المحتلين الاجانب يستغلونهم ويوجهون معارضتهم كما يريدونها باستمالتهم بالمناصب والامتيازات كما حدث مع محمد عبده والانكليز، وكما فعل بعد ذلك كثير من الحكام. فأي ذنب جناه الحاكم ولم يشاركه فيه المفكرون؟!! او يكون بسبب فكرهم؟ واين الفجوة بين الحاكم والمفكر والتي يريد البعض تجسيرها بجسور خشبية او فضية او ذهبية!!![٢] فحتى التوجه الى هذه او تلك من الدول الاجنبية من اجل حل المشكلات الخاصة بالامة سواء السياسية او الاقتصادية او التربوية الخ... لم يكن المفكرون الا قدوة للحكام في ذلك، فالافغاني توجه الى تريكو لعزل اسماعيل وطلب هو وعبده مساعدة فرنسا ضد الاحتلال الانكليزي واستأسد عبده بقوة كرومر ضد الخديوي ورجال الدين وشيوخ الازهر، وتوجه مصطفى كامل الى فرنسا ايضا لتساعده على جلاء الانكليز واستظهرسعد زغلول بالانكليز ضد الملك فؤاد وطلب تأييد ومساعدة امريكا ورئيسها الدكتور ولسن وعلق (آماله كلها عليه) باعتباره (الرجل العظيم الذي قاد امته في خوض غمار المعترك الاوربي لمجرد خدمة

---

(١) نجدت فتحي صفوة: العراق في الوثائق البريطانية ص٤٥٧

(٢) انظر سعد الدين ابراهيم: تجسير الفجوة بين الحاكم والمفكر

الانسانية)[1] فليس اذا غريبا وقد كانوا القدوة في اعتمادهم على الاجانب ان يحـــذو الحكام التلاميذ حذوهم فيتوجهون الى هذا وذاك من دول اوربا او روسيا او امريكـا الخ... لحل ازماتهم السياسية والعسكرية الخ...

اما الشعب-او الامة- فصحيح ايضا ان لها دورا فيما نحن فيه ولكنها كأمـة لا تختلف عن أي امة اخرى في الدنيا ان لم تفضلها، وسلبياتها ما هي الا نتيجة سـوء توجيه المفكرين الذين هم قادة الفكر. وان كانت لم تنقد لهم فـي اول الامـر، فـي الطريق الذي ارادوه لها فما ذلك الا لعجزهم وليس لعجزها وذلك لعدة اسباب: منـها ان الامة كان لها فكرها الذي تعتز به ولها اهدافها التي تفهمـها وتسـعى لتحقيقـها بالوسائل التي تعرفها، فهي تعرف نفسها وتعرف ما تريد، بينمـا كـان المفكـرون انفسهم لا يعرفون انفسهم ولا ما يعتمل فيها من ايمان يحـاولون اخفـاءه بالالحـاد والعلمانية تقربا من الاوربيين المتقدمين!! ولا رجعية كما يسمونها يحاولون تغليفـها بالتقدمية، ولا استبدادا يسترونه بشعارات الديمقراطية والتحرر، ولا جشـعا وحبـا للمال والجاه، يوارونه وراء شعارات الاشتراكية، والدليل على ذلك تلك التناقضـات التي لا حصر لها بين ما يقولون وما يفعلون والتي مر ذكر بعض منها. ومن يجهل نفسه فهو بغيره اجهل كما مر ذكره. كما ان المفكرين لـم يعرفـوا هدفـا محـددا يوجهون مساعي الامة نحوه سوى اللحاق بالركب الذي لا يعرفون وجهتـه (وكانت الامة وهي على حق، تشك في وجهته) ولا يعرفون وسيلة محددة للوصـول الى هذا الهدف المجهول وغير المرئ الا السير وراء الركب والعيش كمـا يعيـش الاوربيون وهو امر ترفضه الامة ويتعارض مع عقائدها ومع ما تريد لنفسها. فـان كانت الامة لم تستجب لدعوتهم فما ذلك الا لان دعوتهم، المنسوخة عن من تعتبرهم الامة اعداء لها، لم تراع حال الامة ولا ما تريده لنفسها ومـا يحقـق طموحاتـها. ورغم ان محمد عبده هو احد الدعاة الذين وضعوا تبعة التخلف على الحـاكم تـارة وعلى رجال الدين تارة اخرى وعلى الامة تارة ثالثة، ورغم انه لعب دورا كبـيرا

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ٢ ص٤٠٩

فيما آلت اليه حال الامة من تبعية وتخلف الا انه ككل المفكرين عندنا عندما يتكلمون، يقصدون الآخر، ولا يعتبرون انفسهم من هذا الآخر الذي يتكلمون عنه فهو يقول: (ان كثيرا من ذوي القرائح الجيدة) اذا ما طالعوا (اخبار الامم واحوالهم الحاضرة تتولد في عقولهم افكار جليلة... تدفع الى قول الحق، وطلب الغاية التي ان يكون العالم عليها... ويرغبون ان يكون نظام الامة وناموسها العام على طبق افكارهم... ويظنون ان افكارهم العالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب... ينقلب بها حال الامة من اسفل الدرك من الشقاء الى اعلى درج في السعادة... ولكنهم اخطأوا خطأ عظيما من حيث انهم يقارنوا بين ما حصلوه وبين طبيعة الامة التي يريدون ارشادها) ثم ينصحهم بان يدرسوا طبائع الامة (كما درسوا كتب العلم)[1] ويدققوا النظر في اخلاقها وعاداتها الحقيقية الواقعية...

ثم ان كان لاوائل مفكري النهضة ان يبرروا فشلهم في تحقيق التقدم للامة بعدم انقيادها لهم فان المتأخرين والمعاصرين بشكل خاص لا يستطيعون ذلك لان الامة انقادت لهم في النهاية وتبعتهم واعلت من شأنهم ومع ذلك ها هي الامة، لم يعد نصفها عاطلا عن العمل كما كانوا يدعون ويبررون به التخلف، اذ توجهت المرأة الى العمل في كل المجالات ولكن مع ذلك فان الانتاجية في تراجع خطر، فبعد ان كنا ننتج كل حاجاتنا او معظمها من كساء وغذاء ولوازم اخرى والتي كان للمرأة، وهي عاطلة عن العمل بحسب رأيهم!! دور كبير في الاسهام في انتاجها، اصبحنا اليوم نعتمد في كل ذلك على حسن سلوكنا تجاه الآخرين الذين يمنحونها لنا!! بشروط قاسية وبأغلى الاثمان!! فمن الذي انتزع من الامة اعتمادها على نفسها وفرض عليها التبعية للغير غير دعاة هذا الفكر الهزيل الذي نشروه بين افراد الامة وتسهيل امر الاخذ من الغرب وغيره كل شيء من اجل ان نعيش كما يعيشون...!؟

وهذا التخبط السياسي والاقتصادي بين النظريات الغربية المختلفة

---

(١) محمد عمارة: الاعمال الكاملة محمد عبده، جـ١ ص٢٩٦

للديمقراطيات.والاشتراكيات وانظمة الحكم والتراجع عن هذه والعودة الى تلك! الـم يكن نتيجة لهذا الكم الهائل مما استورده المفكرون من دون معيـار محـدد يـأخذ حاجات الامة وطموحاتها بنظر الاعتبار؟ وكل منهم يفرض ما ينقله! وكأنه الوصـي الشرعي الوحيد على الامة وكأن الفكرة التي نقلها وادعاها لنفسه صـارت مطلبـا جماهيريا للامة!! لا بد من تنفيذها!!

وهذا التفرق والتشتت الفكري والعقائد المتنافرة، والذي مزق شمل الامة تحـت شعار التعددية اثراء وغنى لفكر الامة!!! والذي حال بينها وبين تحديـد توجـهات واهداف موحدة حتى على مستوى القطر الواحد، الم يكن بسبب ما نشره المفكـرون من عقائد متنافرة ومتضادة مما استوردوه من الخارج. فحتى شعار التعددية نفسـه هو بضاعة اجنبية مستوردة صنعت خصيصا للعالم الثالث من قبل الدول صاحبـة المصالح العالمية الاستعمارية وذلك لتشجيع العقائد الغربية المختلفة ورعايتها فـي هذه البلاد لسيادة شعار فرق تسد الذي يضمن هيمنتها علـى هـذه البـلاد (العـالم الثالث).

وهذه اللامبالاة التي تميز الساحة العربية الآن وهذا الاستسلام للواقع كما يسميه البعض الآخر والذي اكد اكثر المفكرين انه صار يميز الانسان العربي المعـاصر، وخاصة الاجيال الشابة حتى ان السيد ابراهيم ابو ناب وصف الشباب الطالع هـذا بانه جيل (خفت موازينه وضاعت قيمه وصار لا يهمه شيء غير ان ينجو بجلـده من العذاب الذي صنعه له الجيل السابق والعقبات التي وضعها في طريقه فـهو، أي الجيل الطالع معذور مغدور) مما جعله لا يتحدث (الا عن الخارج) وحتـى حديثـه (عن التاريخ هو نوع من الهروب الى الخارج) مما ينطبق عليـه قولـه سـبحانه وتعالى: ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا ادركوا فيها جميعا قالت اخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء اضلونـا

فآتهم عذاب ضعفا من النار. قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون...)[1] ومن السبب في كل هذا؟ اليس هم المفكرون الذين اعطوا للساحة العربية كل مميزاتها الفكرية والتطبيقية وحددوا للفكر ماهيته ودوره في حياة الانسان العربي. اذ صيّروا الفكر مجرد شعارات متناحرة متناقضة تعكس تناقض وتناحر مصادره الاصلية التي استوردت منها. واقول شعارات لانها لا ترقى الى ما يسمونه الايدولوجيات لان هذه الاخيرة هي سلوك عام للفرد يصم كل نشاطاته فكما ان المسلم هو من يؤمن بالله ويحكّم دينه، الاسلام، في كل مناحي حياته فكذلك الحال بالنسبة لمن هجر دينه السماوي واعتنق احد الاديان البشرية المادية، فالشيوعي هو من تتسم جميع نشاطاته بالمبادئ التي جاءت بها الشيوعية، وكذلك الحال مع الديمقراطي والاشتراكي الخ... وواقع الحال عندنا هو ليس كذلك ابدا. اذ نجد نصير الطبقة الكادحة!! هو الذي يعمل على توسيع هذه الطبقة كما وزيادة كدحها كيفا من اجل تحقيق مصالحه الخاصة وانتشاله هو والقلة التي معه من هذه الطبقة الكادحة ووضعه في طبقة نبلاء القرون الوسطى الاوربية التي كان قد قرأ عنها وهو في الصف السادس الابتدائي!! لينظر الى هذه الطبقة التي ترك صفوفها باستعلاء ان لم يكن باشمئزاز، ويزيد من ذلها وشظف عيشها حتى يزهو بعد ذلك بما يتكرم به عليها من النزر اليسيرمن حقوقها التي اغتصبها منها. وكما نجد ان الداعي الى الاشتراكية وتقريب الفجوة بين الطبقات وبين الفقير والغني هو الذي يعمل على اتساع هذه الفجوة وزيادة الغني غنىً والفقير فقرا. وكل ما صار هو تبديل الطبقة الغنية السابقة للتطبيق الاشتراكي والتي يقوم غناها على توظيفها لجهودها واموالها-في الغالب- بطبقة غنية من الشباب الاشتراكي المنتمي!! والذي لم يوظف جهودا ولا اموالا وانما وظف اموال الدولة ومصالحها العامة وذلك ببيع او شراء منتجات القطاع الاشتراكي في السوق السوداء او السوق البيضاء او اية سوق!! بعد اخذ عمولات كبيرة تنقص من سعر المبيعات الحقيقي وتضاف الى سعر المشتريات الحقيقي لتدخل في حساباته

---

(١) جريدة الرأي الاردنية: عمان ٨/١/١٩٨٩

الخاصة، حتى صار في البلاد العربية الاشتراكية من مظاهر الغني ومن اصحاب الملايين او قل البلايين ما لم يكن يخطر على بال احد!! وصار فيها بالتالي من مظاهر البذخ والاسراف ما عجز عن وصف مثله خيال المؤرخين الذين ارخوا لهارون الرشيد رحمه الله، متأثرين بقصص الف ليلة وليلة!!!، فلم يعد غريبا ان نجد حفلة عرس تقام في بلد اشتراكي عربي تعجز سوقه المحلية عن توفير ابسط ضروريات العيش لمواطنيه، مثل الخبز والرز والزيت والسكر الخ... يقدم فيها قالب حلوى وزنه تسعمائة كيلو غرام، تطلب صنعه ثلاثة الاف بيضة و٤٤ كيلو غراما من السكر و٦٠ كيلو غراما من الزبدة وشارك في صنعه ثمانية اشخاص عملوا طيلة اربعة ايام، واستخدم لنقل الاطعمة للحفل ست شاحنات مبردة يبلغ طول كل واحدة منها ١٦ مترا بالاضافة لشاحنة لنقل قالب الحلوى، وتولى خدمة المدعوين فيها ٢١٩ شخصا منهم ٢٥ طباخا و١٠٥ خادما و١٢ رئيسا للنادلين هذا غير العدد الكبير من الفنانين الذين احيوا الحفل[1]. هذا غير العدد الكبير من اصحاب الملايين او البلايين من الشباب الاشتراكي والتقدمي والمنتمي ايضا!! الذين يعيشون في البلاد الاوربية وامريكا حيث تطيب لهم الاقامة الدائمة او المؤقته!! اذ لم تعد البلاد العربية المتخلفة والتي يسودها الفقر!! وتعجز الاسواق فيها عن توفير ما توفره هذه البلاد الاجنبية (الذي ما وصل الشباب التقدمي الاشتراكي الى السلطة الا لمحاربتها واخذ حقوق الامة منها!!!!) من وسائل الرفاهية والترفيه الضرورية لحياتهم!!!! الجديدة!!!

وهكذا صار حال الامة في الطريق الى بناء طبقتين اثنتين رئيسيتين لا ثالثة لهما!! طبقة غنية غنا فاحشا من المال الحرام، كاصحاب الاقطاعات الصناعية ورؤوس الاموال من الغربيين وطبقة تعيش الفقر والحرمان بكل ذلك. وهي الامة التي كانت تفخر بتقارب عيش طبقاتها! ماديا ومعنويا واتساع الطبقة الوسطى، وهي الطبقة التي في طريقها الى الزوال. وحال الامة هذا ما هو الا النتيجة الطبيعية لما

---

(١) جريدة الرأي الاردنية ١٩٨٩/٩/١

قام به المفكرون وسعوا الى تحقيقه من حيث يدرون او لا يدرون!! من خلال ما نشروا من فكر مهلل متناقض غامض الاهداف، غير هدف العيش كما يعيش الاوربيون والذي جعل جمع المال هدف الجميع من اجل العيش كما يعيش الاوربيون او الغربيون بشكل عام والذين تعرض هوليود نماذج عيشهم!!! وبغض النظر عن مصدر هذا المال أكان حراما ام حلالا!! فهذا تفكير رجعي! فما دخل الحلال والحرام في الاقتصاد والحياة العامة ككل؟!!.

وعجز الفكر الاوربي المستورد هذا من ان يصبح عقيدة او لنقل فلسفة عامة تكون للانسان معيارا يحكم سلوكه ويوجه جميع نشاطاته في الحياة يكمن بعضه في ذاته وما يحمله من لا عقلانية تتمثل بالدرجة الاولى باهماله الطبيعة الانسانية وما فطر عليه الانسان من نوازع وشهوات لا يمكن تهذيبها وتوجيهها وجهة سليمة بقانون يضعه هذا او ذاك من البشر الذين يخطئون ويصيبون كما يخطئ هو ويصيب، بعيدا عن روادع الدين الالهي! الذي فصلوه عن الحياة كما يكمن البعض الآخر من هذا العجز في الطريقة التي تعامل بها المفكرون معه. اذ هم لم يتفهموا حقيقته هذه كما اهملوا حقيقة عجزه في موطنه الاصلي، وكون نجاحه، ان حدث هنا وهناك لم يكن بسبب مقوماته الذاتية بقدرما هو بسبب ظروف اخرى خارجة عنه ولا تتواجد في بلادنا. فالديمقراطية الليبرالية مثلا لم تنجح في بعض البلاد الا بوجود الرأسمالية المحتكرة والقائدة لمسيرة الامة في تلك البلاد فتحركها كما تشاء. وما الديمقراطية والبرلمانات والاحزاب الا ما تشاء هذه الرأسمالية ومراكز القوى ذات النفوذ فيها. ولذلك جرت العادة في هذه البلاد ان كل من يخرج عن طاعة مراكز القوى هذه يغتال بشكل من الاشكال، اما بالقتل او بفضيحة من الفضائح التي هي اساسا لو دققنا بمفاهيمهم عن الاخلاق وممارساتها والحريات الشخصية ومقوماتها لتعجبنا كيف يمكن ان يعتبروا هذه فضائح تتطلب من صاحبها اعتزال السياسة!! خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان سلوكه هذا ذاته يمارسه غيره كثيرون من الساسة المتواجدين على الساحة السياسة ولم يعتبر فضيحة بالنسبة لهم! تستحق الاعتزال!! اما نجاح الاشتراكية فيدل عليه تراجع معظم البلاد عنها. ونجاح الاممية

العالمية مقابل التوجهات القومية والدينية فيدل عليه ما حدث ويحدث الان في الاتحاد السوفيتي وفي الدول التي تسير في فلكه والتي مارست هذا النوع من الحكم ومن الفكر وفرضته بالحديد والنار. اذ يتقاتل الارمن المسيحيون والاذربيجانيون المسلمون ويتظاهر الناس في كل من لاتفيا واستونيا ومولدافيا الخ... من اجل حقوقهم القومية واستعادة لغتهم وحتى استقلالهم! والحرية الدينية والقومية يدل عليها اضطهاد البلغار للمسلمين فيها من اصول تركية الى حد الطلب منهم تغيير اسمائهم التي تدل على هويتها الاسلامية ومنعهم من ختان اطفالهم الذكور او ممارسة أي من شعائرهم التي تتطلبها عقيدتهم الدينية. وهذا بالاضافة للعمل على تهجيرهم من البلاد.اما ما يحدث في يوغسلافيا، البوسنة والهرسك، فحدث ولا حرج!او هو غني عن البيان!!! كما يدل عليه ايضا الاضطهاد القومي والديني الذي نسمع عنه او نقرأ عنه هنا وهناك في البلاد المتقدمة والتي نريد اللحاق بركبا!! كالنرويج مثلا والتي تمنع احدى فئات مواطنيها من استخدام لغتها القومية!! هذا بالاضافة الى اهمال المفكرين النهضويين تفحص الاهداف التي كان دعاة الفكر من الاوربيين يريدون تحقيقها من غرس هذا الفكر في بلادنا وتقدير نتائج ذلك!! ولذلك كله لم يكن من الممكن لهذا الفكر النهضوي من ان يرقى لاكثر من شعارات تسقط حال تحقيق اهدافها بالنسبة لمن رفعها. فالحرية والديمقراطية والثورية والاشتراكية والعلمانية والوحدة الوطنية لم يتعامل المفكرون معها كفكر وافد يقومون بتحليله وفحصه والتعرف على ما فيه من السلبيات والايجابيات وعلى خلفياته وكيفية تطوره في موطنه وفهمه فهما يجعلهم يحكمون على فاعليته وجدواه حكما صحيحا، قبل اقتباسه والدعوة الى تطبيقه في مجتماعاتهم والتي بدورها تتطلب منهم فحصها ودراسة ما يسودها من مقومات ومقارنتها بالمجتماعات الاوربية صاحبة الفكر هذا، معتمدين الموضوعية والدقة والمعرفة التامة بكلا المجتمعين، الاوربي والعربي. من اجل النظر في مدى ملائمة الفكر الاوربي لحل مشكلات مجتمعاتهم العزبية لتطبيقه كما هو او بعد تحويره بما يزيد فاعليته وينقيه من سلبياته ويغنيه بما يضاف الى ايجابياته، او تركه واهماله كليا وابداع فكر خاص بالامة نابع من مقوماتها

وظروفها. ولكنهم لم يفعلوا هذا وانما تعاملوا مع هذا الفكر كشعارات ترفع هنا وهناك لاحداث فجوة بالدرجة الاولى بين الحاكم والمحكوم وبين طبقات الشعب المختلفة تتسع الى درجة احداث ثورة ينفذ منها الدعاة الى مواقع السلطة والقيادة السياسية والفكرية وتسقط بعدها الشعارات هذه. وكانت الدول الغربية -ولا تزال- تشجعهم وتدعمهم في احداث هذه الفجوة لتدخل هي الاخرى منها وتحقق سيطرتها على البلاد في جميع المجالات وخاصة مجالات الفكر التي هي اساس لكل سيطرة اخرى. وهكذا استغلت الدول الاستعمارية سطحية المفكرين ولا عقلانيتهم ومطامحهم ومطامعهم ايضا، فاستخدمتهم كالآلات للوصول الى اهدافها ومآربها في بلادنا. واستغلوا هؤلاء بدورهم المتعلمين والمتحمسين للتغيير والاصلاح من ابناء الامة. فبهذه الشعارات البراقة المستوردة كسب الافغاني تأييد اعداد كبيرة من المصريين للماسونية والانتماء اليها حتى زاد عدد منتسبيها خلال وجوده في مصر الى اضعاف ما كان عليه قبل ذلك. وعلى اساس هذه الشعارات تجمع المصريون حول عرابي وتحمسوا لثورته تحمسا شديدا وكلهم امل في تحقيق ما اشاع الافغاني وتلامذته بينهم من امال في حياة دستورية وبرلمانية وتحررية!! ولكن انتهت جهودهم بفشل الثورة واحتلال الانكليز للبلاد وتسلطهم على جميع مرافق الدولة فحلوا الجيش واعادوا تكوينه (ضئيلا هزيلا اعزل... وصارت مهمات الجيش وادواته تشترى من انجلترا ولا يحملها المصريون الا وقت التمرين... وتسلطوا على الشرطة والغوا الحياة النيابية... وارهقوا الدولة بتعويضات الاجانب الذين تضرروا اثناء الثورة وبتكاليف جيش الاحتلال والموظفين الانكليز... فاستولى اليأس على الناس وفشا فيهم روح التخاذل ودب دبيب السعاياة وفقد الصديق ثقته في صديقه)[1] ولم يحصد المتحمسون الا الخيبة والاحباط وخاصة لما تكشفت حقيقة الثورة وخلفياتها وكونها كانت تدار بواسطة بلنت من لندن من خلال سكرتيره لويس صابونجي وصديقه محمد عبده في مصر. واللذان كانا على اتصال دائم به

(1) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ١٦٠ جـ١

يستشيرونه ويستهدون بآرائه في تحريك الامور، والذين جميعا استغلوا قبل ذلك عرابي وحماس الشباب ودفعوا الثورة وأوجدوا لها المبررات! كما هيأوا الظروف التي تؤدي الى الاحتلال الانكليزي للبلاد.

ولم تكن هذه اخر تجارب الامة العربية مع الدول الغربية وفكرها التحرري وشعاراته التي رفعها ابناء الامة، فقد كان للامة بعد ذلك تجارب كثيرة لا حصر لها في هذا الصدد كان على راسها ما حدث في اوائل القرن، حيث تجمع عدد من الشباب مبهورا بشعارات الحرية والاستقلال والوحدة القومية. وتبلور هذا التجمع رغم تحذير الكثيرين من عقلاء الامة الى حركة عربية مناهضة للدولة العثمانية التي كان يحكمها انذاك الاتحاديون ذوو الاتجاهات العلمانية القومية، وتنافست كل من فرنسا وانكلترا على احتضان هذه الحركة وتوجيهها فكان الفرنسيون يقومون بحماية زعماء الحركة في الشام ويدعمونهم كما يدعمون اللاجيئين من العرب الى فرنسا ويقدمون لهم كل العون من اجل تصدير النشرات المعارضة للدولة العثمانية والمساندة لهذه الحركة بينما كان الانكليز يدعمون اللاجيئين الى مصر ويقدمون لهم العون، وتركزت جهودهم في النهاية على تحويل الحركة الى ماسمي بالثورة العربية التي كان يتم التخطيط والاعداد لها في مصر اذ (كان الانكليز يتصلون بالشريف حسين عن طريق ابنائه في اثناء مرورهم بمصر جيئة وذهابا وهم في طريقهم للاستانه حيث كانوا اعضاء في مجلسها النيابي عن العرب... وتظاهروا بالموافقة على نقل الخلافة الاسلامية الى الشريف حسين حتى يطمئن اليهم ويسلس لهم القيادة...)[1] وقد استقدم نوري السعيد الذي كان قد أخذ اسيرا عند احتلالهم البصرة من منفاه في الهند كما استقدم غيره من الضباط العرب من اجل بلورة الثورة العربية التي تحمس لها الشباب لتحقيق الاستقلال والوحدة العربية، غافلين عما كان يدور وراء الكواليس من اتفاقيات بين الاجانب الطامعين ولكن سرعان ما انكشفت الحقائق حيث انتهت جهود الشباب المخدوع بخيبة امل كبيرة وضاعت تضحياتهم

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ٢ ص١٢٦

التي تمثلت بالآف القتلى والتي جعلت لورنس، المنسق لجهود كل من الانكليز والعرب يقول: (كم انا فخور بالمعارك الثلاثين التي خضتها والتي لم ترق فيها نقطة دم انكليزي...)[1] واذا علمنا ان الجيش العربي كان يحارب العرب ايضا في الجانب العثماني وتدور معاركه على الارض العربية!! لاستطعنا ان نقدر حجم المأساة التي حملت شكيب ارسلان على ان يكتب للقادة العرب حين علم بعزمهم على الاغارة على سوريا مع الجيوش الانكليزية ينهاهم عن المضي فيما هم فيه ويحذرهم عاقبة هذه الغارات التي يضرب فيها العرب بالعرب خدمة لمصلحة العدو اذ قال: اتقاتلون العرب بالعرب، (حتى تكون ثمرة قاتلهم ومقتولهم استيلاء الانجليز على جزيرة العرب، وفرنسا على سوريا واليهود على فلسطين؟)[2] وحذرهم من غدر الانكليز المعروف في العالم. وماذا كانت نتيجة هذه التجربة التي خاضتها الامة على يد بعض من ابنائها؟ ممن رفضوا الانصات لصوت العقل واتبعوا شعارات دعاة الحضارة الغربية؟!!! ومن استفاد منها غير فريقين، الاستعمار الذي حقق الحلم الذي ظل يراوده قرونا عديدة!! وبعض الساسة العرب، الذين كما قبلوا التحالف مع الاجانب الطامعين في البلاد وقبلوا الدخول معهم في مساومات على ارضهم ووطنهم قبل الثورة، وقبلوا العمل بقيادتهم خلالها، قبلوا بعدها بتقسيم بلادهم ومنح اجزاء منها للغرباء والاستبداد بمصالح الامة والانفراد في تقرير مصيرها فكذلك قبلوا من هؤلاء المحتلين الاجانب ما تصدقوا به عليهم وما منوا به عليهم من مناصب ومسؤوليات، وارتضوا ان يظلوا تابعين لهم يأتمرون بأمرهم وينفذون مخططاتهم. ورحم الله الشاعر الذي قال:

فلو كان فينا نخوة عربية ... لملنا على اعدائنا بالصوارم

فإن نحن متنا قبل ان نبلغ المنى ... عذرنا ورحنا بالثناء والمكارم

---

(١) Seven Pillars of Wisdom p.23

(٢) محمد محمد حسين: ذات المصدر جـ٢ ص٢٥ و جـ١ ص١٥٥

وان نحن انقذنا من الجور اهلنـــــــا ظفرنا وفزنا بالثناء والمغانـــــم[1]

ومرت الايام التي لم تخل من الثورات والانتفاضات، والتي كانت نتائجها مثـل ما سبقها، يسحق فيها الشباب من العامة بشكل او باخر ويســتفيد منــها الفريقــان، الاستعمار في تكريس احتلاله واستعماره وهيمنة قادة الفكر والسياسة، مــن دعــاة الحضارة الاوربية، لهذه الانتفاضات والذين عرف الاستعمار كيف يحتويهم ويكسبهم الى جانبه بالمناصب والمسؤليات، حتى صارت المعارضة طريقا ســهلا يوصـل للمناصب الكبيرة (والصغيرة) في الدولة. وليس هذا فقط بل هم صاروا (المحتليـن) يختارون اصحاب الطموحات ويرتبون لهم ظروفا تؤدي الــى اعتقالــهم او نفيــهم خارج البلاد لفترات قصيرة تكفي لان تجعل منهم ابطالا للوطنيــة! ثـم يطلقـون سراحهم ويهيئون لهم استقبالات جماهيرية! صاخبة يشارك فيها الكثيرون ممــن لا يعرف من هم ولا ماذا يريدون!! لبناء شخصيتهم السياسية فيصبحون قادة الامة فـي الفكر او السياسة او كليهما! لا ليستغلونهم في تحقيق مايريدون من خلالــهم فقـط، ولكن ايضا يعدونهم لتسلم مسؤوليات الحكم بعد جلائهم عن البلاد، فيضمنوا بذلــك استمرار احتلالهم الفعلي للبلاد، وهو امر عبر عنه هيرتزل عندما كتب الى ولســن المعارض لاقامة حكم وطني في العراق! في قوله: (هــل فكــرت يومــا باحتمــال اضطرارنا للخروج؟ ان ما نحتاجة هو قليل من المؤسسات العربيــة التــي يمكننــا تركها باطمئنان في الوقت الذي نمسك فيه بــالخيوط نفســها، شــيء لــن يكلـف كثيرا...)[2].

وهكذا كان الحال حتى الخمسينيات من هذا القرن حيث خاضت الامة العربيــة تجربة اخرى من اجل تحقيق شعارات القومية والاشــتراكية والحريــة والتحـرر

---

(١) محمد محمد حسين: ذات المصدر، جـ٢ ص٢٥ و جـ١ ص١٥٥

(٢) وميض جمال عمر نظمي: الجذور السياسية لثورة العراق ص١٤٧

والاستقلال الخ... ولكنها صارت اكثر من كل التجارب مرارة وذلك لان الامة لــم تدعم اصحاب التجارب الثورية السابقة مثلما فعلت مع هذه التجربة! اذ تصــــورت الامة العربية انها اخيرا توصلت الى القيادة الحقيقية بعيدا عـــن تـــأثير الاســتعمار والدول الاجنبية، جميعا والتي ستوصلها الى ما تبتغية من وحدة واستقلال وحريـــة واشتراكية... وعلى رأس ذلك تحرير الارض العربية المسلوبة في فلسطين. فالتفت الجماهير العربية حول القيادة التي تمثلت في جمال عبدالناصر واعطته من الدعـــم والتأييد ما لم يعط زعيم اخر لا قبله ولا بعده. وصبرت عليه اعواما طويلة وتحملت خلالها الكثير من الضغوط وقدمت الكثير من التضحيات مقـــابل وعــود ووعــود ووعود وشعارات كثيرة!!! انتهت اخيرا بكارثة ١٩٦٧ الغنية عن التعريـــف، ومـــا حدث قبلها وبعدها معروف للجميع. واتضح بعد ذلـــك انـــه حتـــى هـــذه الثـــورة الجماهيرية!!! ثورة عام ١٩٥٢ في مصر لم تكن بعيدة (مثل غيرها من الثـــورات والانتفاضات) عن تخطيط وتدبير الاجانب من الدول الغربية، كما يذكر خالد محـــي الدين، وهو احد قادة الثورة، في مذكراته.[١] فهل بعد هذه التجارب تلام الامة او يلام شبابها ان هم حجبوا ثقتهم عن المفكرين والساسة المفكرين او المفكرين الساســـة!!؟ ونظروا الى ما حولهم بشيء من السلبية واللامبـــالاة؟!! امـــا عـــن ضيـــاع القيـــم والاسراف في المادية والتقتير في المشاعر والعلاقات الانسانية فما هم جميعـــا الا تلامذة نجباء لاساتذتهم المفكرين والقادة.

اما الغربة والاغتراب كما يسميه المفكرون فهو الاخـــر مســـؤولية المفكريـــن النهضويين. لانهم بنشرهم فكرا اجنبيا مخالفا لكل مقومات الامة وما ارتضته لنفسها من مفاهيم وان كانت تحتاج الى مزيد من الفهم لها وتحســـينها، الا انـــها لا تبغـــي تغييرها بما يناقضها. وبفرضهم هذا الفكر المناقض بشكل او بآخر-ودائما بمســـاعدة الاحتلال ومؤسساته- على الامة جعلوا الامة الواحدة-والتي يدعون الى توحيدهـــا السياسي ايضا-! امتين، على الاقل، (ولا حاجة للدخول في تفاصيل اكثر) احداهمـــا

---

(١) انظر جريدة الرأي الاردنية، مذكرات خالد محي الدين، يوم الاربعاء ١٩٩٢/١٢/٢٣

انسلخت عن اصولها وانساقت وراء الفكر الاوربي الغريب عنها، والثانية متمسكة باصولها وشخصيتها وعقيدتها ولا تريد الانسلاخ عنهما، فصار كلاهما يحس بالغربة في بلده. فالطائفة الاولى مع انها تعيش الحياة كما يعيشها الغربيون في المأكل والملبس والمسكن والعادات والتقاليد الخ... وتفكر كما يفكرون وتعمل كما يعملون وتسرف كما يسرفون (في الافلام السينمائية) والى غير ذلك مما دعاها الى عمله المفكرون، الا انه لا يزال هناك حولها الكثير من المظاهر المخالفة للنمط الاوربي، مما تحافظ عليه الفئة الاخرى والتي كلها تذكرها بانها لا تزال تنتمي لحضارة مخالفة كل المخالفة عما تمارسه في حياتها ويوقعها في حيرة من امرها ويشعرها بالضياع والغربة وعدم الرضا والذي غالبا ما ينعكس حقدا على تلك الفئة المحافظة التي تتوهم انها هي المسؤولة عما يسود المجتمع من تناقض. مع ان جزءا كبيرا من التناقض يكون داخل كل فرد من هذه الفئة المتأوربة. وهو تناقض يعود بدرجة كبيرة الى مفهوم فصل الدين عن الحياة واعتباره علاقة خاصة بين الانسان وربه مما جعل هذه الفئة لا ترى في كل ما تفعله مما هو مخالف للدين وللعقائد ما يمس الدين او يغير من حقيقة كون انسانها مسلما! فتجد اكثر الناس ادعاء للالحاد وتظاهرا به ما ان يقول شيئا حتى يرفقه بقول: (ان شاء الله) او (ان اراد الله، او (الحمد لله). ولو اعتبرنا هذا مما يسمى لازمة لفظية تعود عليها الفرد فبماذا نفسر صوم هذا الفرد وصلاته حالما تصيبه مشكلة او مصيبة يستعصي عليه فهمها او حلها؟ اليس هذا دليلا على ان الحاده وتأوربه لم يستطيعا ان يقضيا على كل ايمانه ولا يزال هناك شيء منه كامن في الاعماق يوسم سلوكه بالتناقض؟ وقد ينعكس عدم الرضى هذا على شكل هروب من هذا الواقع المتناقض في رأيه فيعمد الى الهجرة الى البلاد الاوربية والامريكية حيث تسود الحضارة التي يؤمن بها ويعمل بموجبها من غير ان تثير هذا التناقض في داخله، متوهما بانه بذلك تنتهي متاعبه مع الغربة والتناقض وعدم الرضا، ولكنه هناك ايضا تلاحقه الغربة والتناقض بل كثيرا ما يحس بغربة اكبر. فقد اتفق رجال الفلسفة جميعا كما يقول زكي نجيب محمود في كتابه، ثقافتنا في مواجهة العصر (على وجود طائفة من مبادئ مكنونة مطوية بين

الجوانح، توحي الى صاحبها بما ينبغي فعله في كل موقف معين، فاما استمع صاحبها اليها فهدأت نفسه واستراح واما عصيها فتمزقت نفسه بين باطن وظاهر...)[1] وهذا ما حدث للفئة الاولى المتأوربة.

اما الفئة الثانية فهي الاخرى تشعر بالغربة في موطنها وذلك لان كل ما حولها من مظاهر الحياة في الفكر والممارسات هو ليس غريبا عنها بل متناقضا لمعاييرها وعقائدها وما تريد لنفسها في موطنها مما يشعرها هي الاخرى بالتناقض وعدم الرضى والذي هو الاخر ينعكس على سلوكها تجاه الفئة الاولى المتأوربة فتناهضها. وتستسهل هي الاخرى الغربة والهجرة الى البلاد الاخرى، وان كان بدرجة اقل، ما دامت هي غريبة في موطنها وكل شيء حولها مناقض لعقائدها.

ان المفكرين مسؤولون عما نحن فيه مهما تهربوا من المسؤولية او انكروها. فقد يكون هناك فكر، بغض النظر عن فائدته من غير عمل به كما يؤكد اوائل المسلمين، ولكن ليس هناك عمل لا يستند الى فكر، ومدى صلاحية العمل يعتمد في كثير منه على مدى صلاحية الفكر الذي قام عليه العمل. ولما كانت كل الاعمال والممارسات اليوم، هي نهضوية وتنطلق من فكر نهضوي فالمفكرون النهضويون مسؤولون عنها. وكما حملوا هم مفكري ما قبل النهضة! مسؤولية التخلف الذي كان يسود البلاد، فهم ايضا يتحملون مسؤولية سلبيات اليوم، وكل ما قيل في هؤلاء امس ينطبق عليهم اليوم. لأنهم تعاملوا مع الفكر الاوربي من حيث تقليده حرفيا من غير ابداع ومن دون فحصه واكتشاف مدى ملاءمته للامة مثل ما تعامل هؤلاء مع نتاج المفكرين الذين سبقوهم والذي اتسم هو الآخر بالتقليد وعدم الابداع. ومن غير فحص دقيق له ولاكتشاف مدى اتساقه مع الشريعة الحقة. وان كان لهؤلاء عذرهم في عدم الخروج على من قبلهم خوفا من ان يسنوا سنة سيئة فيعود وزرها عليهم، لانهم يتعاملون مع شريعة الله سبحانه وتعالى والتي ليس لاحد تبديلها او

---

[1] محمد البهي: الفكر الاسلامي المعاصر ص١٤١-١٤٢

او تحويرها، فلا عذر للنهضويين الذين يتبعون حضارة تقوم اساسا كما يدّعون على الابداع والتجديد والتطوير وعدم الاتباع، ولذلك فان كل ما قيل عن هؤلاء القدامى ينطبق على النهضويين بشكل اكبر ومضاعفا اضعافا كثيرة، ومن ذلك قول محمد عبده الذي اكد فيه مسؤولية اصحاب الامس اذ قال: (والفقهاء هم المسؤولون عند الله وعن كل ما عليه الناس. من مخالفة الشريعة لانه كان يجب عليهم ان يعرفوا حالة العصر والزمان ويطبقون عليه الاحكام بصورة يمكن للناس اتباعها...) وعاب عليهم تقليدهم لمن قبلهم من غير ان ينظروا في (تعارضها وتناقضها الذي تشتت به شمل الامة)[1] وقول الكواكبي مؤكدا مسؤولية المفكرين عن ارشاد الامة حكاما ومحكومين الى طريق الصواب اذ اعتبرهم مسؤولين عن جهلها وتخلفها فقال: (فالتبعة كل التبعة على العلماء الراشدين...) واستشهد على ذلك بقول الرسول ﷺ : (ان الله لا يقبض العلم انتزاعا من الناس، ولكن بقبض العلماء، حتى اذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤساء جهلاء، فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا او اضلوا)[2] كما حمّلهم مسؤولية استبداد الحكام لانهم كما يقول: تركوا (الاحتساب جهلا وجبانة)[3] وقال: (واذا دققنا النظر في ادوارالحكومة الاسلامية من عهد الرسالة الى الآن، نجد ترقيها وانحطاطها تابعين لقوة او ضعف احتساب اهل الحل والعقد واشتراكهم في تدبير شؤون الامة)[4].

وقد حمّل شكيب ارسلان العلماء مسؤولية انحطاط الامة لاستخدامهم الدين وسيلة للحصول على مكاسب الدنيا! فقال: (من اكبر المسؤولين عن انحطاط الاسلام امام الله والناس هم هذه الطبقة التي يقال لها العلماء، فانهم الا النادر منهم اتخذوا

---

(١) محمد البهي: الفكر الاسلامي المعاصر ص١٤١-١٤٢

(٢) الكواكبي: ام القرى ص٩٤-٩٥

(٣) ذات المصدر ص٩٨

(٤) ذات المصدر ص٦٦

الدين مصيدة للدنيا وجعلوا دينهم التزلف الى الامراء وتسويغ جميع موبقاتهم بالادلة الشرعية). وبعد ان يعدد وسائلهم في التقرب الى الحكام يقول: ثم (... صاروا يتقربون بهذه الاشياء نفسها الى الحكومات غير المسلمة في المسائل التي فيها خراب الاسلام وهلاكه... حيث كانوا يفتون للمسلم وللكافر بما يدل على نفاقتهم وجهلهم للدنيا وتفضيلها على الآخرة...)[1] وبهذا غمز ارسلان من تبنوا مسألة الاصلاح الديني. ولو استبدلنا مسألة الدين الاسلامي والشريعة باصطلاح الفكر الاوربي الغربي والحضارة الغربية لوجدنا كل ما قيل عن هؤلاء ينطبق على مفكري النهضة حتى يومنا هذا!!! بل ان مسؤوليتهم اكبر بكثير من مسؤولية هؤلاء لما توفرلهم من دعم ومن وسائل انتشار لم تتوفر للاوائل.

ومسؤولية المفكرين عن السلبيات السائدة في مجتمع معين، ليست حديثة فقد قال الرسول ﷺ : (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها...) كما قيل: ان (وزر العالم في معاصيه اكثر من وزر الجاهل لانه يقتدى به... فعلى العاصي الجاهل في كل معصية وزر الاتيان وعلى العالم العاصي وزر الاتيان ووزر من يقتدى به ولذلك قال علي (رضي الله عنه): قصم ظهري رجلان، جاهل متنسك، وعالم متهتك: فالجاهل يغر الناس بنسكه والعالم ينفرهم بتهتكه)[2] وقد حمّلهم الجاحظ مسؤولية ما يكتبون ولامهم لانهم لم يحاسبوا انفسهم ويوازنوا بين ما لهم وما عليهم، اذ قال: (ما بال اهل العلم والنظر، واصحاب الفكر والعبر، وارباب النحل، والعلماء واهل البصر بمخارج الملل وورثة الانبياء، واعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء، وكتب الفراغ والخلعاء، وكتب الملاهي والفكاهات وكتب اصحاب الخصومات وكتب اصحاب المراء، وكتب اصحاب العصبية وحميّة الجاهلية! الانهم لا يحاسبون انفسهم ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون

---

(1) عبدالقهار: الفكر الاسلامي الحديث ص٤٣

(2) احمد بن مصطفى: مفتاح السعادة ومصباح السيادة جـ١ ص٤٩

تصفّح العلماء، ولا لائمة الأرباء، وشنف الاكفاء، ومشنأة الجلساء؟)[1].

وبعض من المعاصرين يحملون المفكرين مسؤولية ما يكتبون فيقول محمد مزالي بعد تبيان خطورة وظيفة الكاتب والتي منها ان (يسمي الاشياء بأسمائها ويكشف عنها... فيؤثر بذلك في مواقف الناس وفي علاقات الناس بعضهم مع بعض...) ولذلك فهو يحمله مسؤولية كاملة عن كل ما يفعل فيقول: (واذن فهو مسؤول عن كل ما يقول أي عن كل ما يفعل وحتى عما لم يقل لان سكوته في ظرف من الظروف وتجاهله -لحالة- في وقت من الاوقات له معنى ربما ابلغ من الكلام... هذه المسؤولية تفرض على صاحبها ان يتمعن في الامر قبل ان يكتب وان يزن كلماته قبل ان يلقيها في الناس) ويرى مزالي ان -حرية الكاتب- التي يتهرب بها الكتاب من المسؤولية والالتزام وتحديد ما يكتبون هي، (كلمة حق اريد بها باطل) والذين (يعنون بها التحرر المطلق من كل شيء بحيث يتكلمون متى شاؤوا. فانهم يرون الحرية كما كان يراها -خاصة- القرون السابقة) اذ هو يرى ان الحرية المطلقة التي (تخول صاحبها ان يقول مايريد متى يريد وكيف يريد دون وازع ولا رادع...) لا تسمو بصاحبها لان الحرية الحقيقية في نظره هي التي تكرم صاحبها وتجعله يشعران (له حقوقا وعليه واجبات وتفرض عليه التقيد بما يتقيد به كل انسان متحضر...) ويرى انه ان (كان الشعراء يبيحون لانفسهم -ان يقولوا ما لا يفعلوه- فليس من حقهم اليوم ولا حق الكتاب عامة -ان يقولوا ما لا يعلمون) لان ذلك يعرقل القيام بالرسالة[2].

ويرى زكي نجيب محمود ان الكاتب مسؤول وان كان يحصر مسؤوليته في مدى صدقه وكذبه!! اذ يقول: والكاتب (... لا يكتم ما بنفسه في صدره بل يخرجه في كتاب يصل الى أي عدد شئت من الناس...) ولذلك كما يقول، قد

---

(1) الجاحظ: الحيوان جـ١ ص٢٥ (الارباء= الادباء/ شناة وشنف: البغض.

(2) انظر محمد مزالي: دراسات ص١٠٣-١١٤

(اصبح واضحا ان ليس من حق الكاتب ان يكذب في الرسالة التي يريد نقلها الى قارئه... فالواجب الخلقي يقتضيه ان يكون صادقا فيما ينقله -لا اقول ان يكون مصيبا-فليس على-المخطئ- في الرأي من حرج ولا ضير)[1]. ولا ندري ان كان في نظره نقل صورة غير حقيقية عن امر ما كما فعل هو وغيره من النهضويين في نقل صورة اوربا الينا يدخل في مسألة الكذب والصدق هذه؟ وان كان من يرفع شعارات باطلة وينشر عقائد بالباطل او يعارض اخرى بالباطل يدخل هو ايضا في مسألة الكذب والصدق هذه؟!! وصحيح انه ليس على المخطئ من حرج ولكن هل يتساوى المفكر وغير المفكر في ذلك؟!! ومن هو المفكر مرة اخرى؟!!!

وتيمنا بقول جان بول سارتر: اينما حل الظلم فنحن الكتاب مسؤولون عنه) حمّل سلامة موسى الكتاب مسؤولية ما آل اليه حال مصر فقال: (ان جميع الشعوب المتمدينة، تحتاج الى كتاب امناء... ولو ان مصر كانت قد امتازت بأمثال هؤلاء الكتاب في هذه السنين الاخيرة، لما تجرأ فاروق على ممارسة الظلم والفسق الى الحد البشع الذي بلغه... فقد رأينا كتابا ساوموا على ضمائرهم وفسقوا بعقولهم ومدحوا فاروق واباه بالنثر والشعر ووافقوا على حل البرلمان في ١٩٢٥ في اليوم الذي عقد فيه. ورأينا كتابا آخرين نالوا رتبة الباشوية لانهم ايدوا الملك فؤاد في وقف الدستور سنة ١٩٢٨... ولو ان كتابنا يقولون. -صاحب الجلالة الشعب- كما كانوا يقولون -صاحب الجلالة فاروق لما عشنا سبع عشرة سنة متلبسين بعار الظلم والفسق...)[2].

وقد نصح الملك حسين في رسالة الى رئيس وزرائه، سعد جمعة في ١٤ ايلول ١٩٦٧ الكتاب فقال: (نصيحتي الى كل اولئك ان يقراءوا كثيرا وان يقتصدوا في القول، فالذي يكتب في صحيفة او كتب يحمل في الحقيقة مسؤولية اضاءة الطريق

---

(١) زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر ص١٦٦-١٦٧

(٢) سلامة موسى: كتاب الثورات ص٢٤-٢٦

امام الجماهير، وهي مسؤولية ينبغي ان لا يتصدى لها غير القادرين على تفجير الثورة من الكلمة المقدسة والفكرة النبيلة...)[1].

فالتأليف (امانه لا يحملها الا امين، وليس التأليف كما يزعم الفارغون -تسويد صفحات تسوء منها الوجوه، او تحرير كلمات لا تحمل من اصالة العلم ما يليق بجلال رسالته، وجمال بضاعته)[2].

وخلاصة القول فان المفكرين النهضويين تعاملوا مع الفكر الذي اقتبسوه ومع الدعوة للاقتباس بمنتهى اللامسؤولية اذ لم يكلفوا انفسهم عناء البحث فيها ولا عناء البحث في المجتمعات التي ارادوا نشر هذا الفكر الجديد المستورد فيها، مما زاد من سلبيات الاقتباس. ولم يكلفوا انفسهم عناء تحديد هدف محدد للامة تسعى اليه وانما جعلوها تسعى وراء ركب غريب يسير في اتجاه مجهول لا تعلمه، ولم يحددوا لها بالتالي طريقا واضحا تنتهجه من اجل تحقيق اهدافها، مما جعلها تتيه في ماذا؟ وكيف؟ فلا ما تريده محدد ومعلوم، ولا كيف تصل اليه وتحققه محدد ومعلوم وواضح. وحتى هذه الشتات من الفكر الذي اقتبسوه لم يجهدوا انفسهم في حصره وتهذيبه ووضعه في نسق فكري منظم متكامل، ينظم فكر الامة ويجعله كلاً متكاملا فلا يقعوا، ولا تقع الامة معهم، في هذه التناقضات والمتاهات ولا يضطروا للتراجع عن احكام سبق لهم ان اصدروها وتعصبوا لها ولا افكار سبق لهم ان دعوا اليها مما يفقدهم مصداقيتهم امام الامة وابنائها والذي يؤدي الى تعميم السلبية واللامبالاة بينهم-ابناء الامة- وهذا كله من اولويات مسؤولية المفكر ليستحق اللقب. هذا غير واجب المفكر في الابداع وفي وضع نظريات متكاملة تحتوي مشكلات الامة وتساعد في حلها وفي تحقيق اهداف الامة في النهاية، بدل هذا النسخ عن الآخرين وهو الامر الذي جعل عزت قرني يقول عن المفكرين النهضويين الاوائل مثل

---

(١) عن جريدة الدستور الاردنية ١٤ ايلول ١٩٨٧

(٢) احمد تيمور باشا: اعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث.

الطهطاوي والافغاني وعبده وغيرهم: انه لم (يوجد عند أي من مؤلفينا جهد نظري مستمر متسق مقصود من اجل بناء تكوين نظري كاف واضح المعالم عندهم، فهم لم يرتفعوا الى مستوى النظرية الشاملة) ثم يتساءل: (ومن فعل ذلك عندنا اليوم؟)[1].

وقد قال ديكارت: ان (أجل نعمة ينعم الله بها على بلد من البلاد هو ان يمنحها فلاسفة حقيقين)[2] ولا اعرف ان كان الله سبحانه وتعالى، قد غضب على هذه الامة فمنع عنها هذه النعمة؟ ام ان المفكرين من ابنائها هم الذين بتكاسلهم عن استخدام النعمة التي انعمها الله عليهم وهي القدرة على التبصر والتفكر فحرموا الامة من هذه النعمة، فقد اكد زكي نجيب محمود في اكثر من مناسبة على اننا ليس عندنا فلاسفة حقيقيون! وقال عبد الله الانصاري (... ان الوطن العربي قد خلا من الفكر والمفكرون)[3]. ولذلك ارى ان من المنطق ان يختار من يطلق عليهم اليوم لقب مفكرين ونخبة الخ... اما ان يكونوا فلاسفة حقيقيين ومفكرين مبدعين غير تابعين ولا منقادين، يتبصرون في حال الامة ويبدعون لها، وفي جميع مجالات الحياة من النظريات ما يناسبها ويلائم احوالها وشخصيتها وطموحاتها او ان يكسروا اقلامهم ويعتزلوا الكتابة وتسويد الصفحات البيضاء بما يقتبسون من الاخرين والتي ثبت انها لم تجد، كما فعل الغزالي قبل قرون عديدة، وكسر مغزله كما قال لابن عربي عندما رآه الاخير في الشام بعد ان تصوف (وبيده عكازه وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة فسأله ابن عربي: (اليس تدريس العلوم ببغداد خيرا من هذا؟) فرد الغزالي قائلا:

غزلت لهم غزلاً دقيقا فلم اجد لغزلي نساجا فكسرت مغزلي[4]

لأن من يريد التعرف على فكر كنت وفلسفة سارتر او غيرهما يمكنه ان يأخذ

---

(1) عزت قرني: العدالة والحرية... ص٣٢٤

(2) عثمان امين: ديكارت ص٩٠-٩١

(3) عبد الله الانصاري: حوار المفكرين ص٣٥

(4) ابن عربي: العواصم من القواصم ص٢١

ذلك من المصادر الاصلية الاجنبية. وليس من مهام المفكرين ان ينسخوا فكر هذا او ذاك من المفكرين الاجانب وينشرونه ويتعصبون له ايضا ويصبحون ابواقا دعائية رخيصة له. فهذه مهمة الجهلاء وانصاف المتعلمين، وهم بحسب ما وجدت من خلال كتاباتهم، قد ركبهم الغرور، واعتبروا انفسهم علماء ومفكرين وفلاسفة فاستعلوا على الناس اجمعين. فالحكام في نظرهم متخلفون وجهلاء والامة مثل حكامها بل هي اجهل!!!

الغرور والاستعلاء

قال الاوائل: (لا يكون الرجل عالما حتى تكون فيه ثلاث خصال: لا يحقرن من دونه في العلم ولا يحسد من فوقه في العلم ولا يأخذ على علمه ثمنا)[1]!!! وحدثنا ابن قتيبة عن كتاب زمانه من المجددين فقال في كتابه ادب الكاتب: (... رأيت اكثر اهل زماننا هذا عن سبيل الادب ناكبين ومن اسمه متطيرين، ولأهله كارهين! اما الناشئة منهم فراغب عن التعليم، والشادي تاركا للازدياد، والمتأدب في عنفوان الشباب ناسي او متناسي ليدخل في جملة المجدودين ويخرج من جملة المحدودين...)[2].

كلما نظر المرء في كتب التراث وما فيها لا يسعه الا ان يقول ما اشبه اليوم بالبارحة! اليس هذا الذي ذكره ابن قتيبة هو عين ما نشكو منه ايوم؟ اذ تفشت المفاهيم الفردية والمادية وعلى رأسها جعل التعليم استثماراً، لا بمعنى ان العامل المتعلم اكثر انتاجية من غير المتعلم وانما بمعنى ان من يحصل على اجازة علمية-والقاب- لا بد ان يحصل على وظائف واعمال تجلب له مردودا ماديا يزيد عما بذل من مال وجهد خلال عملية التعلم هذه! وقد شرح استاذ كبير ومفكر معروف في الاقتصاد لطلبته الذين كنت منهم، مسألة ان التربية استثمار واستشهد

---

(١) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم جـ١ ص١٥٩

(٢) ابن قتيبة: ادب الكاتب ص٦-١٠

على ذلك بحاله فقال: لولا انه درس وحصل على كذا شهادة عالية ما كان وصل الى ما وصل اليه من مراكز وزارية وتشريعية في الدولة ولا تحسنت اوضاعه المادية وسكن بمسكن مثل الذي يسكنه اليوم ولكان ظل فلاحا بسيطا في القرية البسيطة، يحيا حياة بسيطة!!! وهكذا لم يعد ما يستطيع الفرد ان يقدم من خدمه لأمته من خلال هذا الاختصاص او ذاك ولا ما يحقق له العلم من شعور بالرضى وبالانجاز هو المعيار، بل صار مقدار المردود المادي للاختصاص هو المعيار وهو المعول عليه، اذ صار هم الشباب وهدفهم من التعلم هو الخروج من طبقة المحرومين (المحدودين) ليدخلوا في طبقة المحظوظين (المجدودين) مما افسد النفوس فصارت الحال كما يصف ابن قتيبة ايضا اذ يقول واصفاً حال المجتمع آنذاك:

(... خوى نجم الخير، وكسدت سوق البر، وبارت بضائع اهله، وصار العلم[1] عارا على صاحبه، والفضل نقصاً، واموال الملوك وقفا على شهوات النفوس، والجاه الذي هو زكاة الشرف تباع بيع الخلق... ونبذت الصنائع، وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر، وسقطت همم النفوس، ... فأبعد غايات كاتبنا في كتابته ان يكون حسن الخط قويم الحرف، واعلى منازل اديبنا ان يقول الشعر ابياتا في مدح قينة او وصف كأس، وارفع درجات لطيفنا[*] ان يطالع شيئا من تقويم الكواكب وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق، ثم يعترض على كتاب الله عز وجل بالطعن وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول ﷺ بالتكذيب وهو لا يدري من نقله، قد رضي عوضا من الله ومما عنده بان يقال: -فلان لطيف- و -فلان دقيق النظر- يذهب الى ان لطف النظر قد اخرجه عن جملة الناس وبلغ به علم ما جهلوه، فهو يدعوهم الرعاع، والغثاء، والغثر، وهو-لعمر الله- بهذه الصفاة اولى، وهي به اليق لانه جهل وظن انه علم. فهاتان جهالتان، ولان هؤلاء جهلوا وعلموا

---

[1] يقصد بالعلم هنا علوم الدين

[*] مفكرنا

انهم يجهلون...)[1].

عندما يقرأ المرء كتابات الاوائل هؤلاء، ويحاول ان يستخلص منها مشكلات المجتمع آنذاك، لا يجد معنى لقول النهضويين اليوم ان لاهل ذلك الزمان مشكلات هي ليست مشكلاتنا الآن، بل لوجد ان مشكلات هذه الامة هي في معظمها كما كانت قبل قرون! مما يستدعي التعرف عليها وعلى كيفية حلها بعكس ما يدعو اليه النهضويون! فما اشبه ما جاء اعلاه بحال مفكري النهضة! اليوم والذين ما ان تعلم احدهم شيئا من العلوم الانسانية الاوربية والتي كلها لا تعدو ان تكون نظريات فيها من احتمالات الخطأ بقدر ما فيها من احتمالات الصواب ان لم يكن اكثر، حتى يطعن بدين الامة ويستهين بعقائدها ويسخر من التقاليد والتراث معتقداً انه بهذا النزر اليسير الذي تعلمه قد الم بالعلم كله وصار اكثر الناس علما ومعرفة، ويصبح كل همه ان يعرض هذا العلم في الندوات والمؤتمرات والكتابات ليقال انه مفكر! مما جعل احدهم يصفهم بالقيان الذين كل همهم عرض زينتهم كما مر ذكره، فيزيده ذلك غرورا فيتعالى على الامة التي ما تعلم الذي تعلمه الا من عرقها وكدها الذي بذلته له مؤملة منه ان يأخذ بيدها ويعينها على تحسين احوالها لا ان يزيدها عللا وامراض، ولا ان يجافيها ويتهمها بالتخلف والرجعية لا لشيء الا لانها متمسكة بعقيدتها وبمقومات شخصيتها وغير ذلك مما تخلى هو عنه، من غير ان يدقق، وهو الذي تعلم فيما تعلم العقلانية والبحث العلمي!! في اي منهما على حق؟ الا يمكن ان تكون الامة على حق وهو وامثاله على باطل؟ فهذا ابن خلدون رد على الذين يعتبرون (العامة مرضى والفلاسفة اصحاء) مثل ابن رشد، فقال: (الا يجوز ان نقلب الآية فنقول ان الفلاسفة هم المرضى والعامة اصحاء؟)[2].

وها نحن نجد رأيه هذا يتحقق اليوم. فالعامة من المسلمين قد ظلت محتفظة

---

[1] ذات المصدر

[2] علي الوردي: منطق ابن خلدون ص٢١٧

بعقيدتها متمسكة بها وتدافع عنها طوال الاربعة عشر قرنا التي مضت ولم تخرج عنها الا قليلا وبفعل عملية جراحية غير ناجحة حاول بها النهوضويون استئصالها من جسدها. بينما نجد مفكري النهضة، كل يوم لهم شأن، يتناقضون مع انفسهم ويغيرون من عقائدهم، فقد كان محمد حسين هيكل على رأس المجددين النهضويين ثم عاد فصار من الاسلاميين. وبعد ان كان زكي نجيب محمود يريد حرق التراث الذي لا يشترى به شروى نقير في نظره، صار يتنظر فيما يمكن اخذه من التراث وصار يرى بن عبد ربه قد نهج نهجا علميا في التفكير لا يعلى عليه ويريد اقتباسه!! وصار يقول: (ان لكل امة ماضيها الذي يجب ان يكون جزءا من حاضرها) كما مر ذكره. وهذا غير الشواهد الكثيرة والتي على رأسها ما نشاهده من ان معظم المنتمين في شبابهم للفكر والاحزاب العلمانية التقدمية والنهضوية والثورية الخ... يتراجعون عنها ويعودون الى التمسك بعقيدتهم، عقيدة الامة، وتراثها في كهولتهم.

ومع ذلك نجد المفكرين النهضويين مغترين مستعلين على عامة الناس بما تعلموه من نتف الحضارة الغربية والتي قبل اصحابها، كما يقول زكي نجيب محمود ومر ذكره، اعطاءها لهم-المفكرين- فاتهموا الامة بالجهل والتخلف والرجعية. وبالرغم من قبولهم لما يتصدق به عليهم الاجنبي الا انهم يرفضون عطاء تراث الامة الغزير والذي فيه الكثيرمما يمكن ان يفيدهم ويفيد الامة اليوم ان هم تعاملوا معه بعقلانية حقيقية غير تلك التي تعاملوا بها مع الحضارة الغربية! والتي لم تخرج عن الاقتباس والتقليد الاعمى. هذا غير ما في التراث مما يمكن ان يغني الفكر.

فمن غرورهم على سبيل المثال لا الحصر، نجد ان الافغاني الذي ارتضى الانتماء للماسونية والالتزام بمذهبها والعمل على نشر مفاهيمها وشعاراتها، والذي قبل تقليد لوثر في مسألة الاصلاح الديني وفصل الدين عن السياسة، مع علمه ان ليس في الاسلام مما برر به لوثر ثورته واصلاحه، يرفض (الالتزام بمذهب من المذاهب التي تفرقت اليها الامة والتقليد لامام من ائمة هذه المذاهب) ولما سأله احد العلماء عن عقيدته وعن مذهبه اجابه بأنه مسلم وعن مذهبه قال: (اني لم اعرف من

ائمة المذاهب شخصاً اعظم مني حتي اسلك طريقته!...)[1].

ومحمد عبده، الذي ما تعلم من الثقافة الاوربية ومن مقولات روسو وسبنسر والتي حاول غرسها في الازهر، الا النزر اليسير الذي علمته اياه الماسونية وعلمه اياه بلنت والافغاني، فصار يدعو الى ما يدعون اليه من تغريب، ويفسر ويؤول آيات القرآن الكريم من اجل قبول هذه الدعوات وخلط السم بالعسل كما قيل، باسم الاصلاح الديني، ركبه الغرور واعتبر نفسه صاحب العلم كله والذي بعده الدنيا خراب، اذ لا يوجد من المعاصرين له من له مثل علمه! فقال:

ولست ابالي ان يقال محمد	أبل واكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد اردت اصلاحه	احاذر ان تقضي عليه العمائم
وللناس آمال يرجون نيلها	اذ مت ماتت واضمحلت عزائم
فيا رب ان قدرت رجعى قريبة	الى عالم الارواح وانفض خاتم
فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا	رشيدا يضيء النهج والليل قاتم
يماثلني نطقا وعلماً وحكمة	ويشبه مني السيف والسيف صارم
ويخرج وحي الله للناس عاريا	عن الرأي والتأويل يهدي ويلهم[2]

اما بالنسبة لزكي نجيب محمود، فالجماهير كلها متخلفة وتسودها اللاعقلانية، اذ يقول (فجماهيرنا دراويش بالوراثة، فاذا عقل بعضهم كان ذلك قبسا دخيلا على طبع اصيل، ولا عجب ان تروج فيهم الخرافات والكرامات والخوارق باسرع من رؤية البرق اذا لمع)[3] .

---

(1) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني جـ١ ص٢٦

(2) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني جـ١ ص٢٦

(3) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي ص١٦٣

وقد فسر فكتور سحاب غرور المفكرين وتعاليهم، واعتبره نتيجة للانبهار بعلوم الحضارة الغربية اذ قال:

(ان سلطان العلم الكاسح، وكونه النتاج الاكثر اشـراقا فـي حضـارة الغـرب العصرية، اقنع القيادات العربية، السياسة والثقافية بان هذا العلم هو المعيار الوحيـد للانتماء الى العصر وانه بالضرورة ينفي التراث فـانزلقت هـذه القيـادات الـى استخفاف تراثها وخصائصها القومية المميزة، وفيما قبعت الجماهير فـي كثرتـها الغالبة متشبثة بالتراث، والتكوين التاريخي الخاص، تحول انتماء القيادات العربيـة السياسية والثقافية-الى العصر- انفصالا وجفاء بين القيـادات وجماهيرهـا. ولمـا استعصى على القائد المثقف المتغرب فهم هذا الجفاء، بحث عن تفسير يسـوغ بـه عجزه عن القيادة. فامتهن اسلوب احتقار الشعب وتحقيره. واكتسـب مـع الوقـت عادات التعالي الثقافي والف الاشمئزاز ومواقف التشـامخ، فـاصبح الجفـاء مـع الجماهير علامة سمو ورقي...)[1] .

وحتى يؤكدون علمهم من جهة وجهل العامة من جهة اخرى، وليوسعوا الفجوة بينهم وبين العامة ليبرورا تعاليهم عليها واستصغار شأنها، صاروا يضيفـون علـى كتاباتهم الشيء الكثير من الغموض وخاصة باستخدام المصطلحات الغريبة والغربية تماما كما كان يفعل المجددون زمن ابن قتيبة مما جعله يلومهم في ذلك وفي غيره اذ قال:

(... ولو ان هذا المعجب بنفسه الزاري على الاسلام برأيه نظر من جهة النظـو لاحباه الله بنور الهدى وثلج اليقين، ولكنه طال عليه ان ينظر في علم الكتاب واخبار الرسول ﷺ وصحابته وعلوم العرب ولغاتها وآدابها، فنصب لذلك وعاداه وانحـرف عنه الى علم قد سلمه له ولامثاله المسلمون، وقل فيه المتناظرون...) وذلك لانه كما قال: (له ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا جسم: فاذا سمع الغمـر والحـدث

---

(١) ندوة التراث وتحديات العصر ص١٧١

الغرقوله: الكون والفساد... والكيفية والكمية والزمان... راعه ما سمع فظن ان تحت هذه الالقاب كل فائدة وكل لطيفة، فاذا طالعها لم يحل منها بطائل...)

ثم يعدد بعض هذه المفاهيم التي لها اسم بلا جسم فيقول: (انما الجوهر يقوم بنفسه، والعرض لا يقوم بنفسه، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تنقسم، والكلام اربعة، امر وخبر واستخبار ورغبة) وغير ذلك مما يعتبره ابن قتيبة بديهي ولا فائدة منه الا تشويش القارئ ليعتقد فيهم العلم. بينما علوم المسلمين اكثر فائدة حتى قال: (لو ان مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم، او يسمع كلام رسول الله ﷺ وصحابته لايقن ان للعرب الحكمة وفصل الخطاب)[1].

وارجع ابن قتيبة سبب عجز مفكري زمانه عن التفكر والابداع الى كون اهدافهم من العلم والتفكر كانت كما سبق ذكره، محصورة في ان ينالوا الشهرة ويدخلوا زمرة المحظوظين ويخرجوا من زمرة المحرومين، وان يقال عنهم انهم مفكرين وقد نالوا هذا الشيء في نظره (من غير حق ولا جدارة) ولامهم لانهم لم يكن عندهم من همة النفس ما يجعلهم يتفكرون ويتعلمون اكثر فاكثر اذ قال: (فاني رأيت كثيرا من كتاب زماننا كسائر اهله قد استطابوا الدعة واستوطوءا مركب العجز، واعفوا انفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكر حين نالوا الدرك[*] بغير سبب وبلغوا البغية بغير آلة ولعمري كان ذلك، فأين همة النفس واين الانفة من مجانسة البهائم؟ واي موقف اخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه وارتضاه لسيره)[2] وان سأله الخليفة امرا تردد في الجواب وتعثر لسانه!!؟ وهكذا نجد ان كثيرا مما كتبه ابن قتيبة ينطبق على كتابنا

---

(١) ابن قتيبة: ادب الكاتب ص٦-١٠

(*) الدرك= البغية او المطلوب او الهدف

(٢) ابن قتيبة: ذات المصدر

ومفكرينا اليوم من حيث اهدافهم من العلم وعجزهم عن الابداع الذي يوارونه بالافكار المبهمة والاصطلاحات الفارغة. فان كان فيلسوف زمان يتحدث عن (العقل الفعال والهيولي الخ...) من المصطلحات التي يصعب على العامة فهمها، وهو غموض مقصود كما يرى على الوردي (لكي يشعر المتحدث بها كأنه من طبقة عالية، وانه يبحث في اسرار الكون التي لا يفهمها عامة الناس)[1]. فكذلك هو حال مفكري اليوم والذين يستخدمون، ولذات الاغراض اصطلاحات لا حصر لها مما لا يزيد ولا ينقص في المفاهيم التي يعرضونها مثل التاريخانية والحريوية الخ... ليضفوا الغموض على كتاباتهم ليبرروا تعاليهم على العامة من الناس ويخفوا عجزهم عن الابداع والذي اعترف به بعضهم كما مر ذكره، فقالوا ليس عندنا مفكرون وليس عندنا فلاسفة!! ولذلك كان لا بد من ان يفشلوا في قيادة الامة الى الاهداف التي تبتغيها لنفسها وان يحصل كل هذا الذي نراه حولنا من السلبيات، التي هي في كثير منها نتيجة لاعمالهم ودعواتهم التي اتسمت بهذه السمات اعلاه، وكان على رأس هذه السلبيات التي نتجت عما اشاع المفكرون من فكر وما دعوا اليه من دعوات هو احداث شروخ وفجوات في جسم الامة وتحقيق التبعية للآخرين وهو ما سيتناوله الفصل التالي. هذا بالاضافة الى سلبيات اخرى مثل: نشر الارهاب والعنف، والافساد بجميع اشكاله، وبناء الاصنام وتشويه المفاهيم، ونشر الكسل والتواكل والاحباط ونشر الاسراف والهدر للمال العام والخاص.

---

(١) علي الوردي: منطق ابن خلدون ص٢٢٢



الفصل الثاني
الفجوات

قال سبحانه وتعالى (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث الله بشرا رسولا قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا)

صدق الله العظيم   الاسراء: ٩٤-٩٦

الفجوة بين الحاكم والمحكومين

ان من سنن الحياة ان يتكون أي مجتمع من حاكم ومحكومين، يكونان جسما واحدا يسمى الامة او القوم الخ... بحيث يتوقف وجود احدهما على وجود الآخر فلا يكون هناك حاكما من غير محكومين، ولا محكومين من غير حاكم مما جعل ابن خلدون يقول: (ان السلطان من له رعية، وان الرعية من لها سلطان)[1]. والحاكم في الظروف الطبيعية هو واحد من الرعية سواء اكان شيخاً ام اميراً ام ملكاً ام سلطاناً ام خليفةً ام رئيساً للجمهورية. الا في حالات الاحتلال والاستعمار من قبل الاجنبي. وهو الامر الذي لا يخصنا هنا لان الامة العربية، قبل النهضة، ومهما حاول النهضويون الصاق صفة الاستعمار على الدولة العثمانية، لتبرير هجمتهم عليها، فهي لم تكن محتلة ولا مستعمرة من قبل الدولة العثمانية. بل كانت الامة العربية والاراضي العربية هي احدى اهم مقومات ومكونات الدولة العثمانية وشريحة مهمة

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٣٣٥

من الامة الاسلامية والدولة الاسلامية التي كانت آنـــذاك هـــي الدولـــة العثمانيـــة. واصحاب القومية العربية الذين يحلو لهم تسمية فترة الحكم العثماني للبلاد العربيـــة بالاستعمار العثماني يوجهون من حيـــث يـــدرون او لا يـــدرون، يقصـــدون او لا يقصدون! اكبر اهانة يمكن ان توجه للامة العربية. لان الامة التي ترضى لنفســـها ذلك الاحتلال والاستعمار لمدة خسمة قرون او اكثر راضية بـــه، متعاونـــة معـــه، تخوض حروبه وتعيش انتصارته وتعاني هزائمة هي امة لا تستحق الحياة بل هـــي امة ميتة ولا جدوى في انهاضها او ايقاظها بما سمي بالنهضة العربيـــة او اليقظـــة العربية التي تزعمها عازوري وامثاله، بل هي امة ميته وتحتاج الى الدفن، ويبـــدو ان هذا هو رأي النهضويين فيها، وهذا ما كانوا يخططون لها وما كانوا يقصـــدون اصلا بما يسمونه النهضة على اساس من مبدأ تسمية فاقد البصر البصـــير! واـــهذا ارادوا دفنها في مقبرة الحضارة الغربية وفـــي تربـــة هـــذه او تلـــك مـــن الـــدول الاستعمارية حتى يلغى وجودها بإلغاء مقومات شخصيتها، فتصبح في ذمة التـــاريخ بحيث لا يجد الباحث عنها لها اثرا الا بين صفحاته -التاريخ-!!

ان العصبية القومية بين العرب المسلمين، فقدت مكانتها منـــذ اوائـــل الدعـــوة الاسلامية واخلتها للعصبية الدينية طاعة لقول رسولنا الكريم (لا فضل لعربي علـــى اعجمي الا بالتقوى) وان ظهر شيء منها هنا وهناك خلال مسيرة الامة الاســـلامية فمثل ذلك ما يحدث بين افراد الاسرة الواحدة من تنافس واختلافـــات، لا تلبـــث ان تزول، خاصة عند الازمات ولمواجهة الاخطار والتحديات. فالامـــة العربيـــة قبـــل النهضة. كانت مندمجة بالامة الاسلامية ولا ترى لنفسها كيانا بعيدا عنها. والدولـــة العثمانية كانت لا تحكم رعيتها على اساس من التعصب الجنسي وخاصة قبل تســـلم الاتحاديين السلطة، ومسألة كون الحاكم من الرعية امر اكدته آيات عديدة من القرآن الكريم كقوله سبحانه وتعالى (يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولـــي الامر منكم...)[1] والكثير غيرها والتي كلها تنفي وجود الفجوة بين الحاكم والمحكوم

---

[1] النساء: ٥٩

وتجعل اصلاح الحال يبدأ باصلاح الرعية لحال نفسها اولا فـــإن صلحـت فذلـك سيؤدي الى مجيء حاكم صالح مثلها، لانه منها (منكم) وهذه الاية مثلا بالاضافـــة الى تأكيدها على ان اولي الامر من الامة نفسها تؤكد ايضا على ان الطاعة هي فقط للحاكم المسلم الذي منها ، وليس للحاكم الاجنبي كما افتى محمد عبـــده والكواكبـــي بفتواهم التي تدعو الى قبول ولاية الاجنبي وطاعته!! والتي على اساسها ومـــن ذات المنطلق قبل رجال الحكومات العربية الانقياد للورنس واللنبي وغيرهم مـــن القـــادة الانكليز، ولا يزالون يطيعون هذا وذاك من الدول الاجنبية ومستشاروها!! وفي هـذا وذاك من الامور الخاصة بالامة.

خلاصة القول ان الامة العربية ما تقبلت حكم الاتراك العثمانيين ولا انقادت لـه ورضيت به الا لايمانها بأنهم اولي الامرمنها وليسوا غرباء عنـــها. وقـــد امـــر الله بطاعتهم ومؤازرتهم في مسعاهم لاعلاء شأنها، شأن الامة الاسلامية والتـــي هـــي جزء مهما منها، والدفاع عنها، وحفظ كيانها مما تتعرض له من غزو لم ينقطع لعدة قرون. وهم بما ابدوه من كفاءة في اعادة القوة والمنعة والهيبة للدولة الاسلامية بعـد كل ما اصابها من ضعف وهوان في اواخر الدولة العباسية وبعد ان تشتت شـــلمها، اثبتوا لها بأنهم افضل من يصلح لحكم الامة الاسلامية آنذاك. ولذلك فأن قبـــل مـــا سمي بالنهضة العربية! لم تكن هناك فجوة بين الحاكم والمحكومين كما لم تكن هناك فجوة بين الحاكم والمفكرين او المفكرين والعامة من الناس فكما ان الحاكم هو واحد منهم، من ابناء الامة حمل الامانة عنها، فكذلك المفكر، هو الاخر واحد من ابناءهـا، واحد من هذا الجسم المتكامل الذي اسمه الامة، تعلم في مؤسساتها وتربى في بيئتـها وتمحور فكره حول عقيدتهاـ ويتكلم لغتها ويتواصل معها ومن وجدبينهم من ليـس كذلك، فقد كانوا قلة لا تأثير لها.

اما علاقة المفكر بالحاكم فهي علاقة تكامل، اذ يكمل احدهما الاخر مما جعـــل بينهما عقد غير مكتوب على تقاسم المسؤوليات فللحاكم السياســـة وللمفكـــر الفكـــر والعلوم، حتى ان ابن خلدون ذهب الى ان المفكرين لا يصلحون للسياسة، بل هـــم فاشلون فيها فشلا ذريعا، اذ يقول: (ان العلماء من بين البشر ابعـــد عـــن السياســـة

ومذاهبها) والسبب هو انهم (متعودون في سائر انظارهم الامور الذهنية، والانظار الفكرية، لا يعرفون سواها والسياسة يحتاج صاحبها لى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الاحوال ويتبعها، فانها خفية، ولعل ان يكون فيها ما يمنع من الحاقها بشبه او مثال وينافي في الكلية الذي يحاول تطبيقها عليها... فيكون العلماء لاجل ما تعودوا من تعميم الاحكام وقياس الامور بعضها على بعض اذ نظروا في السياسة افرغو ذلك في قالب انظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون في الغلط الكبير...)[1].

وحال الامة المتماسك هذا نوعا ما، بالرغم من كل السلبيات التي كانت تعاني منها لم يعجب المستعمرين الناشطين من اجل غزوها، من الاوربيين لانه يقف في سبيل تحقيق اغراضهم من الامة، ولذلك كان لا بد من اختراقها (الامة) وتمزيق هذا التماسك بشق الصفوف وحفر الفجوات فيها هنا وهناك وعلى رأسها ايجاد الفجوة بين الحاكم والمحكومين وازالة الثقة المتبادلة بينهما. فالحاكم كان يواجه المشكلات وخاصة تحديات الغزو الاجنبي، واثقا ان الامة لن تخذله وستطيعه فيما يأمرها به من اجل مواجهة هذا الغزو. والامة كانت واثقة ان السطان لن يخذلها ولن ترضى بالاعتماد على غيره في تحقيق مصالحها والدفاع عنها، ولهذا نجد انه عندما توجه نابليون باسطوله الى الاسكندرية، ولما بعث الانكليز بمن يحذر اهلها ويعرض مساعدة الانكليز عليهم في دفع الغزو الفرنسي مقابل تزويدهم بالماء والزاد، رفض المسلمون هذا العرض وقال كبيرهم: (هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل، فاذهبوا عنا)[2] وعلى الرغم من الضعف الذي كان قد بدأ يدب في بنية الدولة العثمانية والذي اسهم فيه بدرجة كبيرة ما كانت تتعرض له من ضغوط من الدول الاوربية، الا ان السلطان لم يخذل الامة ولا الامة خذلت السلطان، بل عملا معا على افشال مساعي نابليون في تحقيق مآربه والسيطرة على البلاد العربية، ولم تنجح تلك التظاهرة التي قام بها لعرض قوة فرنسا، كما لم تنجح تلك الوحشية التي

---

(1) ابن خلدون: المقدمة ص٥٤٣

(2) البرت حوراني: الفكر العربي... ص٦٩-٧٠

عرض فيها قوته العسكرية بقتل الآلاف من قادة المماليك وجنودهم المسلمين والتي مكنته من ان يحقق نصرا مبدئيا اول الامر. ولذلك تركزت جهود الغزو بعد ذلك على هدم هذه الثقة بين الحاكم والمحكومين والتي تمكّن الحاكم من الوقوف بصلابة في مواجهتهم. فالثقة المتبادلة هذه هي واحدة من اهم مقومات الدولة. اذ يحكى ان الملك "تسو" سأل كنفوشيوس عن تعريفه للحكومة القديرة فأجاب الفيلسوف: (انها الحكومة القادرة على توفير الطعام للاكل والاحتفاظ بعدد كاف من الجنود لحراسة الدولة وكسب ثقة الشعب).

فسأل الملك: (اذا كان لا بد من التضحية بأحد هذه الثلاثة فايها يذهب اولا؟)
الفيلسوف: التضحية بالجنود).

الملك: (واذا كان لا بد من التضحية بأحد الاثنين الباقين فايهما سيكون؟)

الفيلسوف: (ليكن الطعام، فالرجال لا بد ان يموتوا، فقد خلقوا ليموتوا ولكن لا يمكن لاي حكومة ان تستمر ابدا بدون ثقة شعبها)[1].

ولهذا كانت هذه الثقة وهذه العلاقة الصحية بين الحاكم والمحكومين مستهدفة بالدرجة الاولى من قبل الدول الاوربية للتمهيد من اجل تحقيق اهدافها بالسيطرة على الامة. ولكن مشاعر الشك والريبة في نوايا الاجنبي، التي واجه بها المسلمون مخططات الغزو، لم تمكن هذا الاجنبي من القيام بالمهمة بنفسه، فوجه اليها تلامذته ودعاته ومريدية والذين عمل اغلبهم بشكل او بآخر لتحقيق هذا الغرض فنجد الافغاني مثلا والذي كان كما يقول طهارى محمد (باعث للثورات السياسية في مصر وايران وتركيا والهند)[2] لم يسلم احد من الحكام المسلمين من مهاجمته والتقليل من شأنه او شتمه والتحريض عليه. اذ هاجم شاه ايران في مقالة نشرت في مجلة ضياء الخافقين التي تصدر في لندن في عدد فبراير ١٨٩٢ اثناء وجود

---

(١) جون كلوب: قصة الجيش العربي ص٣٠١

(٢) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح... ص١٢١

الافغاني فيها بعد طرده من ايران، وقد وقعها بكلمة (السيد) يصف فيها الاوضاع التي يسودها الهوس وانعدام العقل والشره والقهر وهتك الاعراض واستلاب اموال الارامل وانعدام الآمال الخ... ويهيب بهذه الامة الفارسية التي احيت العلوم في العالم الاسلامي واقامت الديانة (على دعامة الحق بقوة براهينها وقومت اللغة العربية بعالي تصانيفها) ان تتخلص منه. ثم اعقبها بمقالة اخرى يحرض فيها العلماء عليه ثم اخرى واخرى، كلها تدعو الى انقاذ البلاد من (حكم الجنون) وخلع الشاه[1]. وكما هاجم شاه ايران فقد هاجم الدولة العثمانية وسلاطينها وحكامها بالاشارة تارة وبالتصريح تارة اخرى. ومن المفارقات انه لام الحكام على ما كان يفعله هو نفسه. فهو مثلا هاجم مدحت باشا (السياسي العثماني الذي وصل الى منصب الصدر الاعظم واتهم بقتل السلطان عبدالعزيز ونادى بالاصلاح حتى عرف بانه ابو الدستور) ولامه هو واعوانه لغفلتهم ولانهم كما يقول لو علموا (بتدبيرهم ان البلايا تترصدهم من جوانبهم، لما تقحموا غرورا وضلالة في خلع عبدالعزيز وقتله وقتما تترقب الاعداء سقطاتهم وتغتنم هفواتهم. ولكنهم، اعتمادا على واهي آرائهم، واغترارهم بدسائس الحكومة الانكليزية قد جلبوا الهلاك والاضمحلال على امتهم، ويضنون انهم هم المصلحون)[2]. مع انه فعل ذات الشيء مع شاه ايران اذ تآمر على قتله، ومع الخديوي اسماعيل الذي تآمر على اغتياله اولا ثم مع الفرنسيين على خلعه. وافتخر بذلك. ولكنه هو نفسه قال بعد ذلك وهو يهاجم اسماعيل: (ألقم الافرنج جميع اموال مصر، وَما استدانه من صرافي اوربا بالارباح الباهظة، ثم سعى الافرنج الى خلعه عن الملك ونفيه عن الديار المصرية ارادة استملاكها)[3]!!! وكأنه لم يتعاون مع الافرنج في مسعاهم هذا وتحقيق استملاك مصر! وهاجم خليفة اسماعيل، الذي اختاره بنفسه، وهو توفيق باشا ووزراءه وعرابى ورجال ثورته

---

(١) علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص١١٧-١٣٦

(٢) ذات المصدر ص٩١-٩٩

(٣) ذات المصدر

الذين كما يقول (جهلا بمقدار انفسهم وعجباً بآرائهم الفاسدة وثباتا لاوهامهم الباطلة قد جلبوا الانكليز بغاية جهدهم الى القطر المصري، وملكوهم اياه... فلو تدبروا سياسية الحكومة الانكليزية، وراوا اطماعها في ارض مصر، لما جلبوا هذه المصيبة على انفسهم، وعلى خديويهم، وعلى سلطانهم، ولما لقوا انفسهم في فم الاسد، خوفا من وعوعة الكلب)[1]! وكأن لا بد له في كل ذلك مع انه كان يكتب ويهاجم الحكام وهو مرابط في باريس ولندن العاصمتين الاوربيتين المتنافستين على السيطرة على الامة العربية والاسلامية. وتنشر مقالاته بصحف، تصدر بتمويلهم ودعمهم!

واستخدم الافغاني اسلوب الاثارة بتحقير الرعية لاثارة حفيظتها ضد الحكام مما يجعلها تنزع طاعتهم. ففي مقالة المخاطبة بين الانسان والهرة قال الافغاني على لسان الهرة، موجها الاهانة الى الامة: (فقد طبعتم على الذل وعلى الانكسار، وجبلتم على الحقارة والهوان فاني ارى رجلا واحدا منكم يظلم صالحكم وعالمكم، وجاهلكم، وغنيكم، وفقيركم، وضعيفكم، وجبانكم، وشريفكم، ووضيعكم، وذليلكم، وغبيكم، وزارعكم، وصانعكم، وتجاركم، وعمالكم، وارباب سيفكم، واصحاب قلمكم، ويستصغرهم، ويستحقرهم ويضيع حقوقهم، ويهتك اعراضهم، ويسلب اموالهم ويتصرف في ارواحهم وابدانهم، ويستخدمهم شهورا واعواما، ولا يعطيهم مالا يحفظون به حياتهم الا خضوعا له وطاعة لامره، ووقوفا بين يدي ارادته...)[2].

ولم يكتف بما كان يكتب وينشر هو ومحمد عبده بل انه كان يشجع الآخرين على انشاء الصحف والكتابة والنشر في ذات الاتجاه، ولتحقيق ذات الغرض وهو احداث الفجوة هذه، مثل دعمه لاديب اسحق وسليم نقاش ويعقوب صنوع وغيرهم. اذ اتفق هو ومحمد عبده مع يعقوب صنوع على انشاء جريدة عربية هزلية لانتقاد

---

(١) ذات المصدر

(٢) ذات المصدر ص٢٩

اعمال الخديوي اسماعيل على ان يتولى يعقوب ادارتها، ويشتركان معه في التحرير. ففعل واختار لها اسم ابو نظارة زرقاء، وكرسها لمهاجمة الخديوي اسماعيل الى ان ضاق اسماعيل بها فعطلها وطرده من مصر فرحل الى باريس سنة ١٨٧٨... ليصدرها هناك وكان جمال الدين الافغاني (يعاونه وهو في باريس كما كان يعاونه وهو في مصر... وحين انتقل السيد جمال الدين الى باريس، بدأ يساعد يعقوب في التحرير...) وقد كتب مثلا يطالب بعزل توفيق يقول: (ان خلصتوا من الواد... احلف بحب الوطن والحرية... باني امزع الجرنال واكسر النظارة، وابيع خرج الزمارة والصفارة، بقى فوقوا يا اولادي من غفلتكم، ووروني آمال شطارتكم انما يكون الامر عن قريب)[1].

وكان محمد عبده المحرر لاكثر مقالات الافغاني هذه ومعه في كل اعمال التحريض على الحكام المسلمين واثارة الناس ضدهم. وكما استعان الافغاني بالاجانب ضد الحكام فكذلك فعل عبده فقد كان يتآمر مع بلنت وكرومر ضد الخديوي عباس ويفتعل معه المشكلات. وكان جزء كبير من كتاب عازوري، "يقظة الامة العربية" موجهاً للنيل من السلطان العثماني عبدالحميد، ومن غير حق، اذ جعل السلطان مسؤولا عن كل سلبيات المجتمع من فقر الفلاح الى انتشار الرشوة مع انه يقول انه هو نفسه تعامل بالرشوة وهو نائب الحاكم العام للقدس اذ بعث الى القاضي بخمسين فرنكا بواسطة رجل لا يريد تسميته! حتى يطلق سراح احد معارفه وكأنها مسؤولية السلطان ان تعامل نائب الحاكم العام مع الموظفين بالرشوة، وليست مسؤولية هذا المسؤول نفسه، وكأن الراشي اقل جرما من المرتشي.

وقد خصص الكواكبي كتابه "طبائع الاستبداد" لمهاجمة الحكام المسلمين والدولة العثمانية بشكل خاص والسلطان عبدالحميد بالتحديد، وان كان قد ادعى انه لم يقصد حاكما بعينه. واستعان بدعم الانكليز وتأييدهم على نشره ونافق للخديوي عباس

---

[1] عبدالباسط: جمال الدين واثره... ص٢١٥

ومدحـــــه حتى لا يعترض على نشـــــره فـــــي الصحف الحكومية اذ لـــم يشأ نشره (في صحف الاحتلال التي كانت تجاهر بمحاربة السيادة العثمانية خدمـــة للسيادة البريطانية)، لانه (لو فعل لخرج عن صفته الاصلاحية الاسلامية وعـــرّض نفسه لشبهات الدعاية الاجنبية)[1] وبذلك ادى خدمة اكبر للاستعمار. فليـــس المـــهم الصحيفة التي تنشر الكتاب وانما المهم هو محتوى الكتاب والذي كان موافقـــا لمـــا يدعو اليه الاستعمار ومتسقا مع دعوته ومحققا لاغراضه. وبنشره بغـــير صحـــف الاحتلال وسع دائرة النشر لفكر الاستعمار وحقق اغراضه فـــي اســـماع صوتـــه المعادي للدولة العثمانية وحكامها الى من كان يرفـــض الاســـتماع الـــى صحـــف الاحتلال!!

وعلى هذا النهج في تنفيذ مخطط الاستعمار في حفـــر الفجـــوة بيـــن الحـــاكم والمحكومين سار معظم مفكري النهضة! ان لم يكن جميعهم. حتى ان عبدالله النديـــم وعلى الرغم من كونه اسهم بايجاد هذه الفجوة، لامهم على ذلك فقال: (لو لم تكـــن الدولة العثمانية مسلمة لبقيت بقاء الدهر بين تلك الممالك الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة. ولكن المغايرة وسعي اوربا في تلاشي الدين الاسلامي اوجب التحامل الذي اخرج كثيرا من ممالك الدولة بالاستقلال والابتلاع. واننا نرى كثـــيرا من المغفلين الذي حنكتهم قوابلهم باسم اوربا يذمون الدولة العلية ويرمونها بـــالعجز وعدم التبصر وسوء الادارة وقسوة الحكام. ولو انصفوا لقالوا انها اعظم الدول ثباتـــا واحسنها تبصرا واقواها عزيمة. فانها في نقطة ينصب اليـــــــها تيـــار اوربـــا العدواني... والفتن متواصلة من رجال اوربا الى من يماثلهم مذهبا او يقرب منـــهم جنسا... وكل دولة طامعة في قطعة تحتلها...) وبعـــد ان يعـــدد ظـــروف الدولـــة العثمانية الصعبة يقول: (... وهذه امور لو ابتليت بها اعظم دول اوربا ما قـــاومت هذه الصواعق اكثر من عام او عامين وتسقط او تتلاشى)[2].

---

(١) العقاد: الكواكبي، الرحالة ك ص١١٩

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ١ ص٢١-٢٢

ولا يزال المفكرون على ذات النهج يسيرون من اجل ادامة هذه الفجوة التي خلقها الاستعمار وتلامذته، وتوسيعها حتى صارت المعارضة للحكام عنوان الوطنية والتقدمية. وتجمعاتها واحزابها لا يجب ان يلوثها أي متعاون مع السلطة ومن الامثلة على ذلك ما جاء في تبرير رفض ضم الحزب الوطني الاشتراكي (الاردني) الى التجمع الوطني (الاردني) هو (ان الحزب يضم وزراء سابقين عملوا مع السلطة ولا يزالون مستعدين للعمل معها. بينما التجمع الوطني هو تجمع معارض للسلطة لا يجوز ان يدخله أي متعاون معها)[1]!!! وتكلم جمال الشاعر عن النشاط الحزبي الطلابي الذي كان يترأسه في ايرلندة فقال: ان (من تقاليده العزوف عن كل المؤسسات التابعة للحكم بما في ذلك السفارة...)[2] وكأن السلطة عدو لا تجب مهادنته وان المعارضة هي سلوك عام يسم كل نشاطات الانسان الفرد (او الحزب او التجمع) وليس امرا يعود الى الموضوع المطروح على الساحة المؤسسية للمجتمع، يؤيد الايجابي منه ويعارض السلبي بغض النظر عمن طرح الموضوع. بل صارت المعارضة عند البعض ميزة اخلاقية! اذ كتب احدهم يقول: ان (المثقف ليس بطلا سياسيا، يستمال ويوالي او يقاتل ويعارض ولكنه شخص يدرك وقد يبدع فان شاء القتال فتلك ميزة اخلاقية ليست من مستلزمات ثقافته... حاملو المباخر قد يكونون بدورهم مثقفين، ولكنهم في ميزان الاخلاق يشيلون. الثقافة اختيار لموقف فكري وليست اختياراً بالضرورة لموقف اخلاقي...)[3]!! وهكذا حتى صار من يوالي السلطة ويتعاون معها ملوما مذموما ويطلق عليهم البعض وعاظ السلاطين، وكأن وعظ الحكام سواء اكان بمعنى ارشادهم ام الاشارة عليهم او بمعنى توضيح اعمالهم واهدافهم للناس هي سبة او تهمة مشينة متناسين ان مصداقية الانسان يحددها الحق والباطل وليس كونه مؤيدا للسلطة او معارضا لها. فالمؤيد

---

(1) عن جريدة الدستور الاردنية، الثلاثاء ١٩٨٧/٩/٢٢

(2) ذات المصدر في ١٩٨٧/٩/١٠

(3) جريدة الرأي الاردنية ١٩٨٩/٢/١٦

للسلطة بالحق هو افضل الف الف مرة من المعارض لها بالباطل، والذي لا يــؤدي عمله الا الى تفرق الامة وتشتيت جهودها، والنباحون على السلاطين بغير حــق لا يقلون ضررا للامة عن وعاظ السلاطين بغير حق. ومتناسين ايضا ان تبعة ما حدث وما يحدث وما سيحدث لا يتحملها الحكام وحدهم وهذا امر اكده حتى هؤلاء الذيــن ساهموا في احداث الفجوة هذه مثل الكواكبي الذي وصف الحال آنذاك وكأنه يصـف حال اليوم اذ قال: (ان تحميل التبعة على الامراء فقط غير ســديد، خصوصــا لان امراءنا ان هم الا لفيف منا، فهم امثالنا من كل وجه، وقد قيل-كما تكونــوا يولــى عليكم- فلو لم نكن نحن مرضى لم يكن امراءنا مدنفين) وحمل المسؤولية لكل مــن العامة والعلماء اذ قال هناك فئة (يشكون ويبكون حتى يظن انــهم مغلوبــون علــى امرهم ويتشدقون بالاصلاح السياسي مع انهم وايم الحق يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، يظهرون الرغبة في الاصلاح، ويبطنون الاصرار والعناد على ما هم عليــه من فساد دينهم ودنياهم، وهدم مباني مجدهم واذلال انفسهم والمســلمين، وهــذا داء عياء لا يرجى منه شفاء لانه داء الغرور، وقد سرى من الامراءالى العلمــاء الــى الكافة)[1].

والكيفية التي تكون عليها الناس هي مسؤولية تلك الطبقة المفكرة منهم والتــي لها الاثر الكبير في تشكيل شخصية الناس بما تنشره بينهم من قيم وافكار تؤثر علــى ممارساتهم. فمسؤوليتهم لا تقل عن مسؤولية الحكام ولذلك فقد قيل قديــمـــــــــا: (صنفان من الناس اذا صلحا صلـــح النــاس واذا فســدا فســد النــاس: العلمــاء والامراء)[2]. ان مسؤولية الاخرين من غير الحاكم لا تأتي فقط من كيفمــا تكونــوا يول عليكم بمعنى ان كانت الامة صالحة فسياتي منها حاكم صالح مثلها، على اهمية ذلك، ولكن يأتي ايضا مما يثير هؤلاء -ابناء الامة- من محفــزات حــول الحــاكم تتطلب منه الاستجابة لها، مما يجعلهم هم صناع القرار الحقيقيــن. فــهم صنــاع

---

(1) الكواكبي: ام القرى ص٣١

(2) الآجرى: اخلاق العلماء ص٩

المؤثرات التي يستجيب لها الحاكم اما سلبا واما ايجابا وفـي كلتـا الحـالتين هـم يشاركونه صنع القرار الذي اصدره. فكون صانع القـرار (فـي السـياق العربـي التاريخي والمعاصر) شخص واحد هو الحاكم كما يقول سعد الديـن ابراهيـم فـي بحثه، (تجسير الفجوة بين صانعي القرارات والمفكرون العرب) هو امر ليس فقـط غير صحيح بل هو امر ليس ممكناً أصلا لان، الحاكم، وخاصة في عصر النهضـة والجمهوريات والاتصالات، هو ليس فقط نتاج المجتمع وما يدور فيه من فكر ولكنه ايضا لا يعيش معزولا عن العالم وبخاصة عن مجتمعه وما يـدور فيـه مـن آراء ومقترحات وأفكار الخ... يقف منها موقفا معينا، ايا كان هذا الموقف، واصحـاب هذه الآراء والافكار والناشرين لها يسهمون في صنع القرارات التي تصـدر عـن الحاكم سواء بشكل مباشر من خلال المستشارين والنصحاء أم بشكل غير مباشـر لا يقل عن المباشر تأثيراً، من خلال الدردشات والمشاغبات والاشـاعات والنشـرات السرية والعلنية الخ...

فغياب المجالس النيابية في بلادنا والتي تعرض عليها المسـائل فتـدور فيـها المناقشات ومعها المناورات والمزايدات والصفقات من اجل تحقيق مصالح النـواب ومراكز القوى التي تتبناهم بعيدا في غالب الاحوال عن مصالح النـاخبين ليصـدر الحاكم بعدها القرار الذي ارتأه اصلا كما هو الحال في البلاد الاجنبية، القـدوة!! لا يعني مطلقا ان الحاكم في بلادنا منفرد بصنع القرار، كما لا يعني ان هؤلاء النـواب في تلك البلاد، قد شاركوا بصنع القرار باكثر مما يشارك به المفكرون والتجمعـات والاحزاب المعارضة منها والموالية للحاكم في صنع القرار في بلادنـا. ولا يعنـي ايضا ان شعوب تلك البلاد قد شاركت بصنع القرار من خلال ممثليها الذين وصلـوا الى المجالس بالديمقراطية المعروفة!!! بأكثر مما تشارك به شعوبنا من خـلال مـا يدور من افكار واشاعات الخ... واحد الادلة على ذلك كل تلك الحـروب المدمـرة التي خاضتها الدول الاوربية البرلمانية والتي استمرت قرونا عديدة انسحقت فيـها الشعوب ولم تخدم أي من مصالحها الا ذلك القدر اليسير الذي تكرمـت بـه القلـة المهيمنة على الساحة السياسية والاقتصادية فيها والتي حققت لها الحـروب اكـبر

المكاسب.

ولهذا نجد ان الدول الاوربية ومنذ ان سيطرت على الساحة الفكرية العربية والاسلامية-في الربع الاخير من القرن الماضي وحتى اليوم- تؤكد، من خلال تلامذتها ودعاتها ووسائط النشر لفكرها على مسألة الديمقراطية والبرلمانات وتعدد الاحزاب لتحتوي سلوك الحاكم وتجعله يخدم مصالحها بشكل او بآخر، فان استجاب واوجد البرلمان فهي بما غرسته من فكر تحيطه هالة وهمية من المصداقية! تشارك في صنع قرار الحاكم بما يخدم مصالحها وان هو فهم اللعبة ورفض مسألة البرلمان والاحزاب كما حدث للسلطان عبدالحميد وغيره من بعده فهو مستبد وغاشم، فتشتعل نار عدم الرضى وتبدأ هي بصب الزيت على النار لتزيد المرجل غليانا، كلما خبت النار. ولما كان الزيت زيتها، فالنار ستكون نارها ولن تخدم الا مصالحها سواء اتخذ الحاكم من هذه النار موقفا ايجابيا او سلبيا. فان احتوى المعارضة بتحقيق مطالبها فهذا لن يحقق الا مطالب هذه الدول صاحبة الزيت والنار! هذا غير ان المعارضة لن تكتفي بتحقيق مطالبها، لان مطلبها الحقيقي هو القفز على السلطةو التسلط وامتلاكهما!! وليس لتحقيق هذا المطلب الجماهيري! او ذاك والتي هي فقط وسائل لتحقيق هذا المطلب العظيم! كما حدث مع سلاطين الدولة العثمانية والذين كلما استجابو لمطالب المعارضة وحققوا مطالبها كانوا في الحقيقة يحققون مطالب الدول الاوربية في العلمانية والتبعية السياسية والاقتصادية والادارية والتنظيمية الخ... لدول اروبا والتي جلبت لهم وللدولة الدمار. ولم ترضى المعارضة في النهاية الا بتسلم السلطة بذلك الانقلاب المشئوم الذي قام به الاتحاديون على السلطان عبدالحميد والذي قصم ظهر الدولة العثمانية وعجل بنهايتها وحقق بذلك اغراض الدول الاوربية. وان اتخذ الحاكم موقفا سلبيا من مطالب المعارضة وتشدد معهم لكبت اصواتهم المخربة بالنسبة لقناعاته، بالحبس والمراقبة وغيره. فهذا بالتالي لن يؤدي الا الى تفكيك الجبهة الوطنية وزيادة التفرق والتشتت داخل الامة مما يضعف موقف الحاكم والرعية ولن يستطيع الحاكم بعد ذلك اتخاذ موقف صلب من مطالبهم فلا تتحقق بذلك ايضا الا مصالحهم-الدول الاجنبية- فالعلمانية وفصل الدين عن

الدولة واقتباس الحضارة الاوربية واعتماد اساليب حياتها وقبول ولايتها والتعامل معها الخ... والتي كان يدعو اليها المعارضون الاوائل ايام الحكم العثماني لم تخدم عند تحقيقها الا مصالح الدول الاستعمارية، والحركات الثورية العربية بعد ذلك وشعارات التحرر والاستقلال الخ... لم تخدم في النهاية الا مصالح هذه الدول. واليوم نجد ان الانفتاح! على الحضارة المعاصرة وشعارات التقدمية والتصنيع وقتل قابيل الصناعة لهابيل الزراعة واقتباس التقنيات الحديثة الآلية والفكرية حتى وان كان الثمن هو كرامة الامة وعزتها بالاضافة الى ثروتها وكذلك العولمة والخصخصة الخ... مما دعا ويدعو اليه الموالون والمعارضون للحكم!! لم تخدم الا مصالح الدول الكبرى وزيادة التبعية لها.

ان المشاركة الحقيقة في صنع القرار هي ليست تلك التي تتم في الدواوين الرسمية والمجالس النيابية والتي يرافقها دائما امتيازات ومصالح خاصة تسم المشاركة بسمات معينة، سلبية في الغالب، وانما هي تلك التي تتم بشكل غير مباشر. ولهذا كانت الدول الكبرى ذات المصالح في بلادنا، ولا تزال، تهيء من المحفزات ما يجعل رد فعل الحاكم والمحكومين، ايضا، لها محققا لمصالحها، حتى وان كان الحاكم من المعادين لها ومن غير ان تدخل المجالس النيابية او الدووايين الرسمية! وكتاب لعبة الامم السيء الصيت، يؤكد هذا الامر، وايا كانت شكوكنا في اهدافه التعجيزية، الا اننا لو نظرنا الى الواقع من حولنا وفي مجالات كثيرة من حياتها السياسية والاقتصادية لوجدنا ان ما فيه، يصدق على كثير من الامور. ومنها مسألة فورة النفط التي ظهرت فجأة في السبعينات من هذا القرن (العشرين) والتي عادت بالوبال على الامة، وبالخير الوفير على الدول الكبرى! والتي لم تفعل هذه الاخيرة شيئا سوى انها اكتشفت، وبين ليلة وضحاها عجز كميات النفط المتوفرة في السوق النفطية، عن الايفاء بحاجاتها[1] فازداد المطلوب منه على المعروض فارتفعت

---

(1) في ذات الوقت كتبت احدى الجرائد الاجنبية خبر تسرب مياه البحر في احدى الدول الكبرى الى كهوف هي ممالح قديمة وتستخدم آنذاك لتخزين النفط المستورد هذا فافسدت الكثير منه.

الاسعار بجنون، فتسابقت الدول المنتجة الى زيادة انتاجها وبيع كميات كبيرة منـــــه لتبديد مردودها على شراء ما تحتاج وما لا تحتاج، فحركت سوق العمل والانتاج في الدول الكبرى هذه فقضت على ما كانت تعانيه من البطالـــة والركـــود، فانتعشـــت وازدهرت اكثر فأكثر. اما في غير هذه الدول الكبرى فقد افسدت الثروات الذمم فـــي البلاد النفطية وغير النفطية التي تولت مهمات السمسرة وغيرهـــا ممـــا لا مجـــال لذكره، وزاد الاسراف وارتفعت الاسعار وانقسمت الامة ككل، كما انقسمت الشعوب داخلها الى طبقتين، غنىً فاحش وفقر مدقع او في الطريق ليكون كذلـــك! ورهنـــت الدول مستقبلها ومستقبل اجيالها بالقروض الكبيرة التي لا سبيل الى سدادها مما ادى وسيؤدي الى تنازلات كبيرة جدا!! هذا غير آمال العـــدو فـــي ان ينفـــذ المخـــزون الاحتياطي للبلاد النفطية بهذا الاسراف في الانتاج، فينفذ معه رصيـــد الامـــة مـــن الثروات التي بددت على المظاهر والترف وبناء الصروح والمظاهر الحضاريـــة!!! فيتحقق استعباد الامة بالكامل! فليس من باب الصدفة ان تحدث فورة النفط هذه فجأة بعد حرب عام ١٩٧٣ واستخدام سلاح النفط مباشرة. ان بعض الظن اثـــم وليـــس كله!! اللهم اغفر لي هذا البعض الذي هو اثم!

ثم هناك قضية فلسطين، قضية القضايا، هي شاهد على مشاركة الاعداء فـــي صنع القرارات التي تخصها وطريقة اثارة المحفزات لتحقيـــق ردود فعـــل معينـــة ومتوقعة من صناع القرار، من الحاكم والمحكومين. ولو تتبعنا القضيـــة مـــن بـــدء الصهيونية بالعمل الفعلي والجاد من اجل انشاء الوطن اليهودي في ارض فلســـطين بشكل رسمي[1] في نهاية القرن التاسع عشر، لوجدنا ان كل ما فعله او دعـــا اليـــه المفكرون والحكام النهضويون كان محققا لمصـــالح الصهيونيـــة، ومنســـجما مـــع مخططاتها! وهكذا الحال حتى يومنا هذا حتى صار المرء يتوقـــع ان كـــل حـــل لا ترضاه حكومة العدو، يؤدي العرب عنها المهمة، فيرفضونه ليعودوا بعد ذلك ويقبلوا

---

[1] فالعمل غير الرسمي والمعترف به من قبل الدول الاخرى كان قد بدأ قبل ذلك بكثير كما مر ذكره.

بأقل منه وهكذا!! حتى ان وزير دفاعها (دولة العدو) قال في مقابلة تلفزيونية لـــه، ساخرا، او مسرورا! بعد ان عدد بعض المواقف العربية والحوادث، منذ اوائل هـذا القرن وحتى منتصف الثمانينات-زمن المقابلة- انها كانت تخدم مصـالح اسـرائيل وقال: فهم يخطئون ونحن نستفيد من اخطائهم!! وان كان البعض يحمّل المسـؤولية في قضية فلسطين، كاملة للحكام جميعا منذ اول النهضة العربية وحتـى اليـوم، الا انني ارى ان المفكرين والرأي العام الذي كانوا يثيرونه يتحملون مسؤولية لا تقـل عن مسؤولية الحكام بل تزيد عليها، فقد كان لهم دور مهم في كل مـا قبـل ومـا رفض، وفيما آلت اليه الامور.

ولو تركنا مسألة مشاركة الاجانب في صنع القرار بالشكل غير المباشر هـذا وعدنا الى صنع القـرارات الخاصـة بتنظيـم حيـاة الامـة بعيـدا عـن تـأثير الاجـانـب (ان امكن!) لوجدنا ان مشاركة الجميع فـي صنـع قـرارات الحكام واضحا في كل المجالات، فلو نظرنا الى الاشتراكية وتطبيقاتها فـي البـلاد العربية على سبيل المثال، لوجدنا ان هناك من الحكام مـن تبناهـا واصـدر فيـها قرارات وهو لا يؤمن بها ولا بجدواها في تحقيق رقي ورفاهية الامة. وكل ما فـي الامر بالنسبة له هو انها شعار تتبناه المعارضة وبعـض احزابـها، وتلـح عليـه وتستخدمه وسيلة لمحاربة الحكم القائم من اجل اسقاطه، فاقتبسها وتبناها وطبقـها لا لشيء الا ليفرغ دعوة هذه الاحزاب المعارضة مـن محتواهـا. وقـد قـال احـد المسؤولين في احدى الدول العربية الاشتراكية مثلا: ماذا بقي للحزب كذا والحـزب كذا من شعارات يتبجحون بها بعد ان طبقنا الاشتراكية التي هي كل مـا عندهـم؟ وبهذا نجد ان الاحزاب الاشتراكية وكل دعاة الاشتراكية والمروجين لها قد شـاركوا في صنع قرار هذا الحاكم، حتى وان كانوا بعيدا عن الحكم ومسؤولياته والمجـالس النيابية!!

وهذا مثل ينطبق على كل القرارات الاخرى مثل فرض حماية على بضاعـة معينة تصنع محليا او رفع هذه الحماية، واستيراد مواد معينة او منـع اسـتيرادها، وبناء مصنع معين من هذا المنشأ او ذاك وعدم الاهتمام ببناء غيره، ومنح امتيازات

لفئة معينة من الشعب او تجريدها من امتيازات اخرى، وتوطيد العلاقات مع هـــذه الدولة الاجنبية ومعاداة الدولة الاخرى، وعقد معاهدة مع هذه الدولة او نقض معاهدة مع تلك، والاعتراف بهذه الدولة وسحب الاعتراف من الاخرى، وغير ذلـــك مـــن امور كثيرة صغيرة وكبيرة مما يخص شؤون البلاد الداخلية او الخارجيـــة. فكلـــها امور يصدر الحاكم بها قرارات ولكنه لا يصنعها وحده، فاردا متفردا كما يؤكد احمد خليل في كتابه (العرب والقيادة)[1] وانما يشاركه في صنعها ليس فقط المستشـــارون الكثيرون وانما ايضا كل اصحاب الرأي حتى المعارضون واصحـــاب الاشـــاعات والمشاغبات! فالقرارات لا يخترعها الحاكم وانما هناك افكار تدور واحاديث تتنـــاقل حولها في المجتمع فيتخذ الحاكم منها موقفا معينا اما مؤيدا لها فينفذهـــا، ويصـــدر قرارا بها واما ان يرفضها او يشك في نوايا اصحابها-هذه الفكرة او تلك- فيعمـــل عكسها لاحباط مساعيهم في تحقيق اهدافهم منها. وفي كلتا الحـــالتين يكونـــون قـــد شاركوا في صنع القرار.

ومسؤولية الرعية ومنهم المفكرون عن سلوك الحاكم وقراراته وما قـــد يكـــون فيها من شطط تأتي ايضا من اسرافهم في موالاته او اسرافهم في معارضته. فعندمـــا يسرف الموالون في المديح للحاكم والاطناب ببطولاتـــه وانجازتـــه-الوهميـــة فـــي الغالب- فيصبح هو الحاكم الافضل والزعيم الاوحد، والمنقذ من الضلال وفـــارس الفرسان واشجع الشجعان وعبقري الزمان والذي لولاه ما نزل قطر ولا نبت زرع!! ويسوغون له كل باطل يأتيه ويبطلون كل حق لا يرضيه! فهم بهذا يدفعونـــه الـــى الغرور والشطط في السلوك مما يسم قراراته بالكثير من اللامعقول واللامقبول ومن اللاحق واللاعدل مما يجلب عليه وعلى الامة في النهاية الويـــلات. وبـــهذا يكـــون هؤلاء مشاركين له في صنع هذه القرارات وفي المسؤولية عنها، ويقفون معه فـــي

---

(١) احمد خليل: العرب والقيادة ص١١٢(اذ يقول ان ابرز ما يتميز به نموذج القيادة العربيـــة الحديثة عموما-هو عدم المشاركة- فالقائد يمثل زعامة منفردة محكومة بشعورها الواعـــي واللاواعي بانها زعامة فاردة متفردة بذاتها ولا مثيل لها...)

صف واحد، امام العدالة وميزانها الحق ايا كان. والاسراف في المعارض لا يقل ضررا عن الاسراف في الموالاة واصحابه لا يقلون مسؤولية عن الشطط الذي يميز قرارات الحاكم هذا. ولو تتبعنا حال المعارضة منذ اوائل عصر النهضة! وحتى اليوم، لوجدناها وقد صارت هدفا وليس وسيلة او ظاهرة صحية تساعد الحاكم على رؤية الحق الذي قد تشغله عنه مشاغلة الكثيرة. بل نجد ان هدف المعارضة القريب هو ان تعارض وتخلق الازمات للحاكم (او للطبقة الحاكمة). لا ان تساعده على حلها-الأزمات- لا لشيء الا من اجل اسقاطه وسلب سلطته والتسلط على الناس بدلا منه! فالثورة عليه وسلب سلطته هو الهدف الوحيد المطلوب حتى انه لا يهم الثوار كثيرا ما سيحدث بعد ذلك، كما حدث في ثورة يوليو ١٩٥٢ والتي لم يكن برنامجها محدد الاهداف عند قيامها. وتأكيد لينين (على ضرورة ان تعاني الطبقات الحاكمة ازمة حكومية حتى تضعف الحكومة وتجعل من الممكن للثوريين خلعها بسرعة)[١]. وان كان يدل على شخصية لينين وما يحتويها من قيم مهلهلة، الا انه لم يأت بشيء جديد لان المعارضة ومنذ اول عهد النهضة العربية!-ومنذ ان كان لينين لا يزال طفلا يحبو- قامت اساسا على هذا المبدأ الذي يقوم على اضعاف الحكومة تمهيدا لاسقاطها، فالاساس بالنسبة للمعارضة هو منازعة الحاكم على الحكم. وهذه المنازعة هي التي اوقعت المعارضة، كافراد واحزاب، في كل الاخطاء والتناقضات التي جلبت على الامة الويلات. اذ كرست كل جهدها، ليس لاحقاق الحق وابطال الباطل، وانما العكس في الغالب كان هو الصحيح، اذ كثيرا ما ابطلت الحق ودعت الى باطل في سبيل تحقيق مطلب اسقاط الحاكم واحتلال مكانه! ومن اجل هذا المطلب تزور الحقائق فتحول كفاءة الحاكم وفاعليته الى بلادة وعجز، بالباطل، ووطنيته واخلاصه الى خيانة وتبعية، بالباطل، ومشاريعه وانجازاته الى كوارث مدمرة بالباطل[٢] ونزاهته وامانته الى عدم نزاهة وعدم امانة بالباطل ايضا الخ...

---

(١) مالك سيف: للتاريخ لسان ٥٣

(٢) مثل مد السكك الحديدية التي قام بها السلطان عبدالحميد واعتبرها عازوري كارثة على الامة.

وكل ذلك لا لتحقيق مصلحة معينة للامة وانما فقط لاثارة الرأي العام وما ادراك ما الرأي العام كما يقول الطهطاوي: فهو (... سلطان على قلوب الملوك والاكابر، لا يتساهل في حكمه، ولا يهزل في قضائه فويل لمن نفرت منه القلوب واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب...)[1] فكل ما يهم المعارضة هو اثارة الرأي العام ضد الحاكم او الطبقة الحاكمة حتى وان كان من غير حق لتحقيق مآربها في الوصول للسلطة. والنتيجة الحتمية لذلك هو ان تتسم قرارات الحاكم بالاسراف والشطط ايضا. فاما ان يحاول بقرارته ان يكسب ود المعارضة وموالاتها على حساب عقلانية القرارات وفاعليتها في تحقيق مصالح الامة الحقيقية. وهو بهذا ايضا لن يكسب في غالب الاحيان الاحزاب المعارضة التي لا ترضى الا بازاحته عن الحكم لتحل محله، وتتنكر بعد ذلك لكل وعودها وكل شعاراتها وتحذو حذوه في كثير من الامور التي كانت تعارضها، فيعاد تمثيل الادوار نفسها فتظهر فئات معارضة اخرى تحذو حذو الاولى! الا انه قد ينجح بذلك مع المعارضين الافراد والذين هم في الغالب مثل شعراء العصور التي وسموها بالتخلف، يتكسبون من المعارضة كما كان يتكسب هؤلاء الشعراء! يمدحون من يجزل لهم العطاء ويهجون من لا يفعل ذلك!! هذا كله من جهة، اما من جهة اخرى فقد يشعر الحاكم ازاء المعارضة له بغير حق، بالعجز عن تحقيق رضا الامة وتحقيق مطالب المعارضة بشكل خاص، فلا نزاهته ولا انجازاته ولا كفاءته الخ... شفعت له عندهم، فيغلب عليه شعور اللامبالاة فيتمادى ويستهين ليس بالمعارضة فحسب بل وبالامة كلها ايضا ويفعل ما بدا له، ويصرف جهده الى احكام قبضته على الامة بكل من فيها لانه يشعر ان هذا هو الطريق الوحيد للحفاظ على تماسكل الامة -ناهيك عن حفظ كيانه-!!

وخلاصة القول فان الفجوة بين الحاكم والمحكومين كانت احدى اهم الاهداف الوسيطة للدول الاوربية الطامعة-ولا تزال- وقد عمل من اجل تحقيقها مفكرو

---

(1) مناهج الالباب ص٢٣٦

النهضة على اختلافهم ولا يزالون يعملون من اجل ادامتها وتوسيعها على الرغم من انهم مشاركون للحاكم في كل سلبيات الحكم التي يدّعونها بشكل او بآخر، اعترفوا بذلك ام انكروا!! وهذه الفجوة هي من اهم نتائج عصر النهضة واعمال المفكرين النهضويين منذ ذلك الحين وحتى اليوم، وهي واحدة من اهم اسباب النكبات التي حلت بالامة وادت الى تفرقها وتشتتها خاصة وان ايجاد الفجوات لم يقتصر في اعمال المفكرين على هذه الفجوة بين الحاكم والمحكومين وانما عمل مفكرو النهضة على ايجاد فجوات ادت الى تفرق الامة وجعلتها اشتاتا متفرقة. وقد وصف سعدالدين ابراهيم حال الامة اليوم فشبه المجتمع حاكما ومحكومين بمثلث قاعدته الرعية واحد ضلعيه الحاكم والآخر المفكر. ويرى ان اسوأ شيء يمكن ان يحدث لهذا المثلث هو ان تنفصل القاعدة عن الضلعين وان ينفصم الضلعان عن بعضهما البعض (وان تكون القاعدة الى جانب انفصالها عن الضلعين مشوهة وان يكون أي من الضلعين او كلاهما ايضا عاجزا ومهلهلا) ويرى ان هذا هو حال الوطن العربي في الوقت الحاضر فقال: (فمجتمعنا مشوه ومفكرونا مهلهلون وحكامنا عاجزون وثلاثتهم منفصمون عن بعضهم البعض) وهذا الوضع في نظره يمثل (ازمة-حضارية- سياسية مركبة بكل معاني الكلمة)[1].

الفجوة بين المفكر والعامة

فالفجوة بين المفكر (او المتعلم) النهضوي وعامة الناس امرها معروف. فما ان تعرف هذا على البعض القليل من الحضارة الغربية او تعلم شيئا عنها حتى تعالى على مجتمعه واهله وقريته ووطنه وصار يرى نفسه وقد صار الى طينة هي غير طينتهم، فيتنكر لدين الامة وتقاليدها وتراثها وعاداتها ولغتها، ويعتبر كل ذلك تعلقات غير مرغوب فيها بل يريد التحرر منها وازالتها ونفضها عن نفسه ليتأهل للدخول في الحضارة الجديدة المعاصرة كما اكد محمد عبده بقوله رادا على من ذكّره بانه

[1] سعدالدين ابراهيم: تجسير الفجوة ص١٦

تعلم بالازهر اذ قال: (ان كان لي حظ من العلم الصحيح... فانني لم احصله الا بعد ان مكثت عشر سنين اكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الازهر وهو الى الآن لم يبلغ ما اريد من النظافة)[1]!! فالرابطة الدينية التي كانت الامة لا تعرف غيرها صارت بالنسبة لهؤلاء المفكرين وقاحة: يستعلون عليها اذ قال سلامة موسى: اذا كانت الرابطة الشرقية سخافة لانها تقوم على اصل كاذب فان الرابطة الدينية وقاحة، فاننا ابناء القرن العشرين اكبر من ان نعتمد على الدين جامعة تربطنا)[2].

وكما ان الدين لا يصلح للوحدة فكذلك اللغة، ليس فقط لا تصلح اساسا للوحدة بل هي متخلفة بذاتها ولا تصلح كلغة لتصريف شؤون الحياة العصرية! وينبغي لذلك استبدالها بلغة اجنبية او بلهجة عامية! والتراث لا بد من حرقه، او في احسن الاحوال تركه للتفرج عليه فقط وليس للاستفادة منه او للاعتبار به. فهو تافه وسقيم ولا يخرج عن كونه كلاماً في كلام لا يشترى به شروى نقير كما مر ذكره. مما جعل الرافعي يلوم هؤلاء الذين تعلموا في فرنسا وانكلترا او اقاموا بها فترة من الزمن فيقول: (رجعوا الى بلادهم ينكرون الميراث العربي بجملته في لغته وعلومه وآدابه، ويقولون ما هذا الدين القديم؟ وما هذه اللغة القديمة؟ وما هذه الاساليب القديمة...؟)[3].

اما التقاليد فكلها بالية سقيمة ولا بد من اجل ان نعيش الحياة كما تعاش في اوربا وامريكا! من استبدالها بالتقاليد الغربية الحديثة في الملبس والمأكل والمشرب والمجاملات والمعاملات، حتى انهم اقاموا الدنيا لفترة من الزمن من اجل احلال القبعة بدل الكوفية او الطربوش فدافعوا عن لبسها واستصدروا فتوى من مفتيهم

---

(١) غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص٢٧

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ٢ ص٢٢٨

(٣) ذات المصدر ص٢٤٣

محمد عبده تحلل لبسها باعتبارها مظهرا لا بد منه من مظاهر التقدم والمدنية والعقلانية والعلمية الحديثة وهكذا... ومما يذكر هنا وكدليل على اشتراك المفكرين والعامة، ايضا في صنع القرار، ان ثورة ١٩٥٢ يوليو منعت لبس الطربوش باعتباره مظهرا من مظاهر الاستعمار التركي!!![1] مع ان ذلك الاستعمار!! كان قد زال وحل محله ومنذ زمن طويل الاستعمار البريطاني صاحب القبعة!! والذي كان احرى بالثوريين ان يتحرروا من آثاره ومظاهره!!! مع ان مصر والامة العربية كانت تعاني الكثير من المشكلات التي هي اهم بكثير من مشكلة لبس الطربوش! والتي كان الاجدر بحكومة الثورة ان توليها اهتمامها بدلا من الاهتمام بمسألة كهذه والتي التدخل فيها يعارض ابسط مبادئ الحرية الشخصية التي كانت الحكومة الثورية تحمل شعاراتها!!

الفجوة بين العامة

ولو اقتصر الامر على هذه الفجوة بين المفكر النهضوي! وعامة الناس لهان الامر ولكن هؤلاء القلة تولوا بدعم الاحتلال في اغلب الاحيان المسؤوليات المختلفة في الدولة وخاصة مسؤولية التعليم والارشاد، سواء في المدارس ام الجامعات ام الصحف ووسائل الاعلام الاخرى، فصار لهؤلاء تلاميذ وصار لتلاميذهم تلاميذ وهكذا جيلا بعد جيل. فانقسمت الامة على نفسها فصارت شعبين مختلفين تمام الاختلاف احدهما متمسك بدينه ولغته وتراثه وتقاليده والآخر لا يرى العيش الا كما يعيش الناس في اوربا وامريكا! وكل منهما ينظر الى الآخر بريبة قد تصل الى الحقد احيانا. فالمحافظون يحمّلون المتفرنجين المسؤولية عن كل ما جرى للامة من ذل الاحتلال والاستعمار وهوانه، وتفرق شمل الامة وتقسيم اراضيها ومنح اجزاء

---

[1] انظر عودة الوعي لتوفيق الحكيم ص٢٧ حيث امتدح قرار الثورة هذا وتباها انه هو نفسه نزع الطربوش رمز التبعية العثمانية ولبس البيريه الاوربية أي لبس رمز التبعية الاوربية!!!!

منها للغرباء وعلى رأس ذلك ارض فلسطين والتي لولا عملية التغريب هذه ما حدث الذي حدث فيها. كما يحمّلونهم مسؤولية ما يجري الآن من تبعية ومن اسراف ومن افساد للاخلاق والذمم وما ادى اليه ذلك من مديونية تقصم ظهر الامة وتعمل على ادامة عبوديتها للآخرين. هذا غير ما سيجري وما يخبئه المستقبل للامة!! مما لا يبدو انه سيسر. ومن جهة اخرى ينظر المتفرنجون الى المحافظين وكأنهم خطر يهدد عصرويتهم-باصطلاح العصرويين- ومظاهر الترف التي يعيشونها او التي يأملون ان يعيشوها لو استمروا بتبعيتهم للحضارة الغربية. وخطر ايضا يهدد حياة التحرر!! والتي تصل عند البعض حد التسيب، التي يعيشونها باسم الحرية الشخصية! ولو اقتصر الحال على هذا القدر ووقف الامر عند هذا الحد من التفرق لكان الامر اهون. ولكن كل فريق من هؤلاء انقسم وبفعل هذا او ذاك من المفكرين الى فرق واحزاب لا تحصى وبحسب تطرفهم في هذا الاتجاه او ذاك. ولم يقف التفرق عند هذا الحد ايضا، بل ان المفكرين بدعوتهم المشوهة وعملهم القاصر من اجل الوحدة العربية بعيدا عن الدين، اثاروا القوميات الاخرى من المواطنين واستفزوا مشاعرهم وايقظوا احساسهم بعدم الامان فتطرف اصحاب هذه القوميات في تمسكهم بقوميتهم، يثيرهم ويقودهم في ذلك مفكروهم النهضويون ايضا! فتفرقت الامة مرة اخرى بحسب القوميات التي يضمها الوطن الواحد. فثارت بين عناصرها المختلفة مشاعر الريبة والتحفظ ان لم نقل العداء على هذا الاساس القومي.

وليت الحال اقتصر على هذا القدر من التهلهل، بل زاد عليه ان هناك شرائح من غيرالمسلمين، وغالبيتهم من المسيحيين واليهود. وهؤلاء ايضا تعرضوا لما تعرض له المسلمون من غزو العلمانية والالحاد والتحليل العقلاني للحياة بعيدا عن القانون الالهي السماوي ومنهم من قبله وانساق وراءه بعيدا عن الدين ومنهم من رفضه. اذ تذكر الدكتورة آيلز في كتابها (الاسلام وتحديات العصر) ان كلا من المسلمين والمسيحيين واليهود (رفضوا التحليل العقلاني والتفسير المتسامي الرمزي

للمبادئ الاساسية للاديان الثلاثة)[1] فنجد على سبيل المثال ان المتدينين من المسيحيين ورجال الكنيسة، رفضوا نظرية داروين في النشوء والترقي تماما كما رفضها المسلمون ورجال دينهم. وهكذا نجد ان غير المسلمين ايضا انقسموا على انفسهم الى دينيين وعلمانيين، وكل من الفريقين ايضا انقسم الى فروع اصغر نسبة الى المذاهب والعقائد الجديدة المستوردة. هذا غير ان الاقليات الدينية هذه، ولحماية نفسها من ان تتلاشى في الكل الغالب، تعمل على ان تتميز عن الآخرين، وعن الغالبية، ومن اجل ذلك فهي تؤكد على اهم المظاهر التي يمكن ان تميزها وتحفظ لها كيانها من التلاشي والذوبان. ولما كانت تتفق مع الغالبية باللغة والوطن والتاريخ المشترك الخ...فيصبح الدين المختلف والتمسك به ولو بالظاهر هو الذي يحقق لها هذا التمييز، فتتعصب وتتطرف لا لشيء الا لتأكيد ذاتها. ولذلك نجد الكثيرين من دعاة العلمانية وحتى الالحاد منهم يحافظون على علاقات مميزة مع رجال دينهم وكنائسهم ويتعصب بعضهم الى حد التطرف، ان اقتضى الحال او احيانا ان اقتضت المصلحة!! فيضيف بذلك تناقضات جديدة وعوامل تفرق جديدة الى كل ما سبق، هذا غير ان قسما غير قليل من غير المسلمين هم اساسا ليسوا عربا بل من قوميات اخرى مما يجعل هؤلاء، ايضا يتعصبون للغتهم ومذهبهم الديني من اجل الحفاظ على شخصيتهم وحمايتها حتى ممن يماثلهم بالمذهب والدين من العرب -كالارمن- هذا غير ان هؤلاء ايضا ينقسمون الى علمانيين ودينين!!!

الفجوة في الاسرة

ولم يقف التهلهل والتفرق عند هذا الحد. ولم يكتف النهضويون بتمزيق الامة بهذا الشكل بل توجهوا الى اصغر خلية فيها، الى الاسرة الواحدة فمزقوها هي الاخرى بفكرهم المستوردة هذا ولا عقلانية اقتباسهم له. اذ احكموا العداء بين المرأة والرجل بتفسيرهم للعلاقة بينهما واعتبارها علاقة استبداد واستغلال وعبودية لصالح

---

(1) أيلز: الاسلام وتحديات العصر ص٣١٣

الرجل ضد المرأة ومصالحها، فحرضوا المرأة على الرجل الذي هو الاب او الابن او الاخ او الزوج!! وهدموا العلاقة الصحية التي بينهما والتي تقوم على الرعاية والتكافل والتراحم والمودة التي امر الله سبحانه وتعالى بها جميعا، ليبنوا مكانها علاقة سقيمة تقوم على التنافس والتحاسد والشقاق وتعارض المصالح. فأضعفوا بذلك المناعة الطبيعية للاسرة والتي يمكن ان تحميها من التفكك الذي اصاب الاسرة في الدول الغربيه. ولم يرضهم هذا القدر من الهدم للاسرة بل صاروا يشقون الاخاديد والفجوات بين جيل الابناء وجيل الاباء، بما يصرون على تسمية بصراع الاجيال -او باختلافها على الاقل- فجعلوا علاقة المودة والرحمة والبر والمسؤولية وكل المعاني الجميلة التي يحتويها قوله سبحانه وتعالى: (... وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا)[1]، تغيب لتحل مكانها علاقة عقوق ورفض واستهانة واستهجان، من قبل الابناء، بعقائد الآباء وتقاليدهم وافكارهم وخبراتهم والتي بدونها لا تتراكم الخبرات ولا تبنى الحضارات، ليفرغوا عقول الابناء ويخلوها من اجل ملء الفراغ بكل ما هو مستورد من الفكر والخبرات الاجنبية. اما مسؤولية الآباء عن الابناء والابناء عن الآباء والتزامات كل منهما تجاه الآخر، فقد قضوا عليها بالفردية والمادية والانانية الخ... التي نشروها مع الفكر الاجنبي كاحد منتجاته العبقرية، باسم الحرية الشخصية والتي تجعل لكل منهما حياته التي يتصرف فيها كيفما شاء، بغض النظر عن أي التزامات اخرى. فتضحية الآباء من اجل الابناء وتحمل مسؤوليتهم ما هي الا قلة عقل من الآباء او قد تكون رغبة مريضة في فرض سيطرة ابوية بطريركية على الابناء!! ورد الابناء جميل الآباء فيما عانوه برعايتهم وهم صغار برا ورعاية للآباء وهم شيوخ او عاجزون، فهي خرافات التراث والتي يجب ان تهمل او تحرق معه!! فالأبناء لم يطلبوا من الآباء انجابهم ولا رعايتهم ولذلك فهم غير ملزمين بأي

---

(1) الاسراء: ٢٣-٢٤

التزام نحوهم واقصى ما يجب على الأبناء ان يجودوا به على الآبـــاء فـــي حالـــة شيخوختهم او عجزهم هو وضعهم في دور العجزة وزيارتهم بين حين وآخـــر، وان سمحت ظروفهم العائلية او ظروف العمل بذلك، حتـــى يقضـــوا-الآبـــاء- نحبـــهم منبوذين مهملين يعانون قسوة الكبر والعجز وسوء المعاملة والوحدة كما تفعل الـــدول المتقدمة القدوة صاحبة الحضارة الانسانية جدا!!! ورحم الله من قال من لا يبر اهلـــه لا يبر وطنه ولا يلتزم به!!!

ولم يكتفوا بهذا القدر من الهدم والتفكيك للأسرة، بل استلموا الابناء انفسهم، فلم يكتفوا بما اوجدته الفردية والمادية وما يتبعهما من قيـــم هدمـــت العلاقـــة الســـليمة والصحية بين الاخوة في الاسرة الواحدة وفرقت شملهم، وانما اضافوا الـــــى ذلـــك ضرورة التفرق بحسب المبادئ والعقائد (المستوردة). فالرزاز مثلا يرى تقديم حـــق المبدأ على حق الاسرة، اذ ان على كل فرد في الاسرة ان يحس (انه اولا مواطـــن. وانه في هذه الاسرة فرد يمنح العطف وينالـه، ويُحَبُّ فيها ويُحِبّ. ولكنـــه يخلـــص للمبدأ قبل ان يخلص لرابطة العائلة والتعصب العائلي)[1] وبذلك صار مـــن يتحكـــم بعلاقة الاخوة بعضهم ببعض هو سبنسر وسان سيمون وسارتر ومـــاركس ولينيـــن وماو الخ... وبدل علاقة الود وصلة الرحم التي امر الله سبحانه وتعالى بها عبـــاده صار الاخ يستريب باخيه وقد يعاديه ويوصله الى السجن او الى المشـــنقة، كعـــدو للاشتراكية او التحررية ونصير للرجعية!!! ان اقتضت مصلحـــة هـــذا المبـــدأ او ذاك!!! من المبادئ الاوربية المنشأ هذه، والتي اما سقطت اوتتساقط او ستسقط!!!

فجوة داخل الانسان ذاته

ولم يقف التفرق والتشرذم عند هذا الحد فقط، بل دخلوا في ذات الانسان نفسه، وفرقوا بين مقومات روحه ومقومات جسده. ففصلوا الـــروح عـــن الجســـد!! فالانسان من اجل روحه يمكنه ان يدين بهذا الدين او ذاك من الاديان السماوية،

---

[1] معالم الحياة العربية الجديدة ص٢٣٨-٢٣٩

اما في حياته العملية وتنظيم احواله المادية فهو لا بد ان ينفصل تماما عن هـذا الدين ويعمل وفق هذه او تلك من المبادئ والافكار الماديـــة الصرفـــة. أي ان الانسان الذي خلقه الله سبحانه وتعالى كل متكامل مـــن جسـد وروح يكمـل احدهما الآخر صار قسمين منفصلين روح تحلق في سماء الفلســفة الروحيــة تتعبد وحدها!!! وجسد ينغمس في فلسفة مادية تنكر الاولى وتستهين بـــها!! او لنقل يصبح الانسان ذاته روحا تتعبد في المساجد والكنـــائس وجســدا يتعفــن بالمراقص والخمارات! بل ان زكي نجيب محمود قسّم الانسان الـــى غـرف وردهات وقد يكون فيها ممرات وسلالم ايضا!!! اذ قـــال: ان فـــي (طبيعــة الانسان غرف كثيرة ويراد له ان يسكنها جميعا، ليؤدي في كل غرفة ما تتطلبه ظروفها. وحتى لو تصورنا ان تلك الغرف الكثيرة مفتوحة بعضها على بعض ليتكون منها انسان واحد، فسوف تظل لكل غرفة ملامحها التي تميزهـــا عــن سواها، فاذا كنت في غرفة العقل تناقش موضوعا من موضوعات العلم او مـن موضوعات الحياة العامة، فلا بد من التزام العقل بكل حدوده، ولك بعد ذلك ان تدخل غرف العواطف لتمرح في رحابها حيث شئت، فيما تكون العاطفة فيــه هي الوسيلة او الهدف. ويحدث الخلط عندما تكون الدار ذات غـــرف كثـيرة، ولكنك لا ترى منها الا غرفة واحدة تجعلها للنوم والجلوس والاكل والدراســة! يكون الامر المعروض للنظر امرا من امور العاطفة او العقيدة فتقحم فيه العقل بمنطقه وعلومه وتجاربه)[١]!! وهو يرى ان ابا العلاء المعري اخطـــأ عندمــا قال: (ان اهل الارض احد رجلين فاما ان يكون الرجل ذا عقل فلا يكون لـــه دين. واما ان يكون ذا دين فلا يكون له عقل)!!! لانه جعـــل النـــاس صنفيـــن والصحيح بالنسبة لزكي نجيب محمود هو ان الانسان نفسه (ذو جـــانبين فـــي فطرته... لكل منهما مجاله وليس من الخير ان يتداخل المجالان الا بالقدر الذي لا يعرقل احدهما سير الآخر)[٢]!!!

---

(١) مجتمع جديد او الكارثة ص٢٥-٢٦ (ولينظر القارئ الكريم اين تكمن الكارثة؟!!!)

(٢) ذات المصدر

الفجوة بين المفكرين

هذا غير الفجوة الاخرى التي يجب ان لا ننساها! وهي الفجوة بين المفكرين انفسهم. فعندما اقتبس مفكرو النهضة فكر الدول الغربية وحضارتها اقتبسوا منها ايضا ذلك العداء وسوء الظن لدين الامة وتراثها وفكرها ومفكريها التقليديين، ولذلك عملوا على محاربة هؤلاء المفكرين والاستهانة بهم وبفكرهم والتقليل من شأنهم. مما اوجد فجوة عميقة بين هذين النوعين من المفكرين (النهضويين والاسلاميين)، ولم يقتصر الامر على هذه الفجوة بل هناك فجوات اخرى اوجدها النهضويون بين بعضهم البعض، تتضح في هذه العقائد المتنافسة السائدة بينهم. حتى ان النهضويين انفسهم يعترفون بهذا التفرق الذي اوجده اقتباس العقائد الاوربية المختلفة، بينهم، فنجد على سبيل المثال: ان زكي نجيب محمود بعد ان اكد على الفجوة السائدة اليوم بين الجماهير عامة وبين المفكرين ذوي الثقافة المستوردة قال: مشبها الحاضر بالماضي، ان هناك (دروشة تعجب الجماهير العريضة، يقابلها عقل مستعار من ثقافة اخرى، تستخدمه الصفوة القليلة لتقاوم به دروشة الكثرة الغالبة... وتلك هي محنتنا اليوم في حياتنا الفكرية والثقافية...) واكد ايضا على ان هذه الصفوة القليلة!! هي ايضا متفرقة متناحرة، اذ قال: (وانه لما يزيد البأس بأسا... ان الصفوة العاقلة بثقافتها المستعارة... سرعان ما تنشق على نفسها فيخرج منها فريق يحارب فريقا...)[1] ثم يحدد ازمة رجال الفكر والادب عندنا اليوم فيذكر في كتابه-حياتنا العقلية- انهم (ليسوا... على تصور واضح بعد، ماذا تكون القيم الجديدة التي يحللونها فيما يكتبون، ويجسدونها فيما ينشئون من قصص ومسرحيات...) ثم قال ايضا مؤكدا غياب الاهداف والاختلاف بينهم في شأنها: (فليس رجال الفكر والادب منا على اتفاق بعد في الاهداف، نعم اننا جميعا على اتفاق ما دام الامر امر احكام عامة ومجردة، ولكن اهبط من هذا التعميم والتجريد الى حيث التفصيلات الجزئية،

---

(١) تجديد الفكر العربي!!! ص١٦٦

تجدنا قد تفرقنا شيعا وجماعات...)[1] وبالرغم من تأكيده علـــى تفـرق المفكريـــن النهضويين، ولكنه عندما يعالج مسألة التراث يقول: ان (التراث منطو على اضـــداد ومتناقضات فعلى الداعين من غير حذر الى وجوب العودة الى التراث، ان يحـــددوا أي هذه الاضداد والمتناقضات يريدون:...)[2] مع انه لو دقق لوجـــد ان تناقضـــات واختلافات اصحاب التراث تجمعها اصول واحدة، وفلســـفة روحيـــة واحـــدة امـــا تناقضات اصحاب النهضة على الطريقة الاوربية فلا يجمعها جامع.

وهكذا حال الامة اليوم بفضل جهود مفكري النهضة ودعواتهم المســـتوردة، او المستعارة بحسب التعبير اعلاه وبفضل السطحية واللاعقلانية التي تعاملوا بها مـــع هذا المستورد، تسودها الشروخ والفجوات التي تمزقها وتجعل منها اشتاتا متفرقـــة، تشغلها تناقضاتها هذه عما يسودها من تبعية مؤلمة للحضارة الغربية الاجنبية والتـــي اوقعها فيها مفكرو النهضة!! بانبهارهم وتقليدهم السطحي لها.

التبعية

السياسة

لا يحتاج المرء للكثير من الجهد لتبيّن نتائج دعوة المفكرين النهضويين لاقتباس فكر الدول الاوربية (الغربية) واتباع حضارتهم بذلك الشكل اللاعقلاني والذي جعلهم يطلبون من الامة العربية الاسلامية ان تعيش الحياة كما تعاش هناك!! ونشر فكـــر مثل فكر سلامة موسى الذي يرى (انه علينا ان نخرج من آسيا وان نلحق باوربـــا) ويقول: فاني (كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بانه غريـــب عني وكلما زادت معرفتي باوربا زاد حبي لها، وتعلقي بها وزاد شعوري بانها منـــي وانا منها... هذا هو مذهبي الذي اعمل له طوال حياتي سرا وجـــهرة فانـــا كـــافر

---

[1] حياتنا العقلية: ص١٧٦-١٧٧

[2] تجديد الفكر العربي: ص١٥٨

بالشرق مؤمن بالغرب)[1]. ولذلك يدعونا الى ان نعتاد الاوربيين ونلبس لباسهم ونأكل طعامهم ونصطنع اساليبهم في الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة ويختم كتابه (اليوم والغد) بقوله: (فلنول وجوهنا شطر اوربا)[2].

وان اراد المرء تلخيص النتائج بالاضافة لتلك الفجوات والتفرق المار ذكرها، فاصطلاح التبعية، او الاستلاب كما يرى البعض، يمكن ان يلخصها. فالمرء اليوم لا يجد حوله الا تبعية بكل اشكالها او مجالاتها. فالتعبية الفكرية التي دعا اليها الدعاة ادت الى تبعية سياسية واقتصادية وتربوية وتقنية وعسكرية، وتبعية في كل مظاهر الحياة الاخرى. ولذلك قال نزار عبداللطيف الحديثي في كتابه: (الامة العربية والتحديات)، كان من نتائج التغريب ان اصبح الانسان العربي بحلول القرن العشرين (يسكن منزلا على الطراز الاوربي رغم عدم ملاءمته للبيئة ويرتدي الملابس الاوربية ويتكلم لغة اوربية وتصنع اوربا لحظات راحته وبؤسه ومتعته وتعبه، اصبحت اوربا نموذجه الامثل واختفت من مخيلته اية سمة تمييز قومي او احساس بالخصوصية)[3].

والتبعية السياسية مظاهرها كثيرة فبالاضافة للولاء غير المنظور هناك تبعية النظم السياسية والدساتير والديمقراطيات والتي جاءت نسخا مشوهة من امثالها في اوربا. حتى اننا ان طبقنا الاشتراكية فلا بد من شهادة يوقعها المستشارون الاوربيون الذين يستقدمون خصيصا لذلك، توكد انها اشتراكية صحيحة مماثلة لما هو موجود منها عندهم في هذه الدولة او تلك!! وان طبقنا الديمقراطية واجرينا انتخابات فكذلك لابد من استقدام هذا وذاك من الدول الديمقراطية الغربية ليشهد على مصداقية هذه الانتخابات ومشابهتها لما هو موجود عندهم! وغني عن البيان ان

---

[1] سلامة موسى: اليوم والغد ص٧-٩

[2] ذات المصدر ص٢٥٧

[3] نزار عبداللطيف الحديثي: الامة العربية والتحديات ص١٥٣

الدساتير في الدول العربية وضعها المحتلون وصادقت عليها وزارة خارجيتهم قبل ان تقر للعمل بها، وحتى بعض الثوار ارتضوا بذلك. فقد وضع بلنت برنامج حزب عرابي واخذ موافقة وزارة الخارجية البريطانية عليه قبل نشره! ولو قدر لتلك الثورة النجاح لصار ذلك البرنامج دستورا للبلاد او اساسا لدستور البلاد. وكل الدساتير التي وضعت بعد ذلك كانت توضع على ذات الاسس والمسلمات، وعلى ذات النسق الذي وضعت على اساسه الدساتير العربية ايام الاحتلال والاستعمار!!

ومن مظاهر التبعية ايضا هو التطفل على هذه الدولة او تلك من الدول الاجنبية للاستظهار بها او لحل المشكلات السياسية والاقتصادية الخ... والتي تواجه الدولة. وحتى حركة عدم الانحياز لم تقم على اساس اعتماد الذات وحل المشكلات بقدر ما قامت على اساس عدم التمييز بين الدول الاجنبية والاعتماد عليها جميعا، وحتى هذه ايضا لم تحققها الا بالظاهر وبالشعارات فقط لان معظم الدول المشاركة فيها كانت منحازة الى هذا او ذاك من المعسكرين المتنافسين على السيطرة عليها وعلى العالم، وكانت كل من هذه الدول غير المنحازة!!! تأمل ان تجذب المنحازين الى المعسكر الاخر، للانحياز الى المعسكر الذي تتعبه!! ولذلك نجد ان التنظيمات العربية قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها، والدول العربية بعد الاستقلال، هي دائما جزء من الحرب الباردة والساخنة ايضا القائمة بين الدول الاوربية المتنافسة على استعبادها! فنجد مثلا في الوقت الذي كان يلجأ حزب الامة وبعده سعد زغلول الى انجلترا او امريكا اما لتأييده ضد الخديوي واما للاعتماد على عطفها لمنح مصر الاستقلال فكذلك كان مصطفى كامل وحزبه يتوجه الى فرنسا مستغلا التنافس بينهما وبين انكلترا لتساعده في الضغط على الاخيرة من اجل اخذ ما هو حق مصر في الاستقلال، مثلما كان يفعل الافغاني قبله معتمدا على (مقصات العدل والنزاهة الفرنسية) من اجل تقليم مخالب الانكليز بحسب تعبيره[1]. وكما كان سعد زغلول يعتمد على عطف الانكليز في حل مشكلات الاستقلال عنهم! وفي تأييده ضد

---

[1] علي شلش: الاعمال المجهولة، الافغاني، ص٤٨

الخديوي، كذلك كان الحال زعماء حزب الاهالي الذي صار بعد ذلك الحزب الوطني الديمقراطي في العراق، اذ انهم ما ان سمعوا بأن السير ستافوركريبس، عضو حزب العمال ونائب الملك المعين انذاك في الهند، سيتوقف في بغداد قبل اكمال طريقه الى مقر عمله حتى اعدوا مذكرة بمقترحاتهم بشأن الحريات والديمقراطيات (وانشاء حزب سياسي يروج للافكار الليبرالية) لينالوا عطف حزب العمال البريطاني لتقديمها اليه لينقلها بدوره الى الحكومة البريطانية لتدرسها!!! ولكنه لم يتوقف في العراق كما كان مقررا ولذلك صارت اتصالاتهم تجري مع السفراء الانكليز في العراق.[1]

ولم يستظهر خالد بكداش بمقومات شعبه او حزبه او ايمانه بالحق! الذي لابد ان ينتصر في النهاية، ضد الامبريالية بل بقوة الاتحاد السوفيتي اذ حض (ابناء بلده على عدم المبالاة بالامبريالية الامريكية او التخوف منها) لانه كما يقول: (هناك الآن قوى تعمل ضدها هي قوى السلام والديمقراطية والاشتراكية التي يمدها ٨٠٠ مليون شخص منتشرين في تلك المنطقة الشاسعة الواسعة الممتدة من بكين الى برلين بزعامة الاتحاد السوفيتي، بلد العمال والفلاحين ومعقل الاشتراكية وصديق العرب الكبير)[2]!!

ومن مظاهر هذه التبعية السياسية ايضا، هذه المواقف من الحروب وزعمائها والمتسقة مع سياسة هذه الدولة او تلك من الدول الاستعمارية. فان كان الموقف العسكري الموالي، نحن مجبرون عليه بالقوة العسكرية! فماذا عن الموقف غير العسكري؟ فلماذا مثلا نجد المؤرخين والمفكرين والاعلام وغيرهم يصرّون على اعتبار نابليون بطلا عظيما من ابطال التاريخ وكذلك نلسن وولسن وتشرشل وستالين الخ... ولكنهم يعتبرون هتلر مجرما سفاحا؟! اليسوا جميعا بالنسبة لنا طامعون

---

(١) مجيد خدوري: عرب معاصرون ص٢٤١

(٢) ذات المصدر ص٢٩٧

وتجّار حروب وطلاب سطوة وتسلط واستعمار، يتنافسون على الغنيمة التي بلادنا منها؟! فلماذا يكون من استعمر بلادنا واذل امتنا وانتهك حرماتها ومقدساتها بطلا وسببا من اسباب نهضتنا وتقدمنا؟! ومن لم نختبره ولا نعرف خيره من شره والذي لن يكون اكثر من شر غيره من المذكورين اعلاه، يكون مجرما على اساس فيما سيكون لو انه ربح الحرب؟!! تماما كما هو موقف هؤلاء المؤرخين والمفكرين وغيرهم من السلطان عبد الحميد الذي وصفوه بانه مجرم ومستبد بينما وصفوا محمد علي، والي مصر المتعاون مع الدول الغربية!! والذي حربه واضعافه للدولة العثمانية مهد لاحتلال بلادنا واذل امتنا! بالكبير والمصلح الوطني وعبقري الزمان؟!

الاقتصاد

اما التبعية الاقتصادية فحدث ولا حرج، كما يقول المثل، فكل ما حولنا يصوخ بها. ولفهمها لا بد من تتبعها منذ البداية. فقد كان الاقتصاد قبل ما سمي بالنهضة يقوم على الزراعة والرعي والصناعات الحرفية التقليدية وبعض النشاطات التجارية التي تعتمدُ مبادلة بعض المنتجات المحلية ببعض من الحاجات غير المتوفرة فيه. وقد يرى البعض انه كان اقتصادا بسيطا او حتى ساذجا او متخلفا لانه لا يقوم على نظرية فلان لفائض القيمة ولا نظرية علان لحرية رأس المال. وان كان لو- دققنا النظر- يحوي اهم اسس النظريات الحديثة التي لم تخرج من فراغ، ولكن من غير تهريج! ولكنه على اية حال كان اقتصادا متوازنا يتوازن فيه الانتاج مع الاستهلاك والتصدير مع الاستيراد، ويفي بحاجات الناس التي وان كانت هي الاخرى بسيطة الا انها لم تكن تختلف عما هو موجود في غيرها من الدول، حتى الاوربية منها، والتي انصب اول الامر كل تقدمها على انتاج وسائل الدمار والاستعمار. ولم تلتفت الى عامة الناس من شعوبها والذين كانت معاناتهم اشد من معاناة الشعوب العربية والاسلامية. ولم يؤثر التقدم في حياة العامة من الناس وتتحسن اوضاعهم الا بعد الحرب العالمية الاولى بفترة طويلة وبعد ان حققت هذه الدول سيطرتها الكاملة على العالم!! فالاقتصاد في بلادنا كان يقوم على الاكتفاء الذاتي للامة. فالامة تنتج غذائها وكساءها وتصنع كل ما تحتاج في حياتها الا القليل الذي كان يأتيها من الخارج

مقابل ما تصدره مما يزيد عن الحاجة من منتجاتها. فجاء عصر النهضة ليقـوض كل هذا الاكتفاء والتوازن ويقلبه الى عكسه، الى عدم توازن وعـدم اكتفـاء. فمـن خلال انبهار المفكرين بمنتجات الحضارة الاوربية، المادية ومظاهر الـترف التـي كانت تعيشه الصفوة الاوربية، من غير عامة الناس، ودعواتهم للأخـذ مـن هـذه الحضارة ومنتجاتها المادية والمعنوية وتأكيدهم وبشكل خاص، اول الامـر، علـى المنتجات المادية لتضليل الامة بان هذه لا علاقة لها بـالقيم وبـالدين والاخـلاق!! استطاع الاستعمار وبشكل خاص بعد الاحتلال من الهيمنة علـى اقتصـاد البـلاد وتحويل توازنه لمصلحته اذ حول كما يقول سعد الدين ابراهيم (الجزء الاكبر مـن الاقتصاديات الوطنية الى اقتصاديات تابعة مندمجة في نظامه الرأسمالي العـالمي، بغرض توريد المواد الخام (الزراعية والمعدنية) الى مصانعه في اوربا واسـتيراد السلع المصنعة هناك بشروط تبادل مجحفة، وكانت النتيجة... القضـاء التدريجـي على قدرة الاقتصاديات العربية على النمـو فـي المسـتقبل، واسـتنزاف فـائض القيمة...)[1] فحدَّ الانفتاح على استيراد السلع المصنعة من امكانية تطور الصناعـات التقليدية الحرفية والتي كان يمكن لها ان تتطور مستفيدة من التقدم العلمي وتحـدي تلك الصناعات فقط، (من دون استيرادها وغمر الاسواق بها!) كما حدث في اليابـان في عهد الميجي في منتصف القرن الماضي، اذ قصر اليابانيون تعلمهم واقتباسـهم عن اوربا على العلوم الطبيعية والتطبيقية البحتة وانغلقوا فيما عد ذلك عـن اوربـا وحضارتها ولم ينفتحوا عليها الا لينافسوها في استعمارها وفي منتجاتها!! وقد فعـل ذلك الصينيون الذين انغلقوا بدورهم عن المنتجات المادية للحضارة الاوربيـة ولـم ينفتحوا على العالم ككل الا عندما صار عندهم ما يمكن ان ينافسوا به هـذه الـدول المحتكرة للاسواق!! بينما الذي حدث في البلاد العربية هـو ان اسـتيراد المـواد المصنعة حدَّ من تطور الصناعات المحلية فيها، ثم ادى ذلك بالتالي الى عجزها عن التنافس معها، مما قضى عليها، وقضى بذلك على الحرف والحرفيين الذين تحولـوا

---

(1) سعد الدين ابراهيم: تجسير الفجوة ص١٨

وتحول من كان يمكن ان يتولاها بعدهم من الاجيال اللاحقة الى قطـــاع الخدمـــات (بدل الانتاج) وصاروا تجارا لهذه السلع او وسطاء او موظفين حكوميـــن الـــخ... وصارت الامة تعتمد في توفير احتياجاتها من المواد المصنعة على الدول الاخـــرى المنتجة!!

وهذه لم تكن الا مرحلة اولى للتبعية الاقتصادية انحصرت بالصناعـــة، امـــا المرحلة التالية فهي ان الاستعمار نظر الى التاريخ بتفهم واعتبر به وتعلم منـــه، ان استيراده لغذائه وللمواد الاولية اللازمة لصناعته امر غير مضمون النتـــائج. فكمـــا حرم توسع الدولة الاسلامية، وسيطرتها على جميع منافذ اتصـــالات اوربـــا مـــع خارجها، يوماً ما، دول اوربا من اسيراداتها الضرورية فكذلـــك يمكـــن ان يحـــدث اليوم، خاصة مع اشتداد التنافس بين الدول الاستعمارية نفسها وظهور هتلر والحرب العالمية الثانية، وظهور الكتلة الاشتراكية المتنافسة على تحقيـــق ســـيطرتها علـــى السوق العالمي والاقتصاد العالمي باسم مصالح الشعوب! حتى انها صـــارت فـــي بعض الحالات الوسيط المستفيد بينهم وبين بعض المواد الاولية لصناعاتهم مثل قطن مصر وسكر كوبا. مما جعلهم يوظفون التقدم العلمي وما وفره لهم الاستعمار مـــن رأس مال ضخم في تحسين الزراعة وتطويرها وتطوير التصنيع الزراعي والغذائي لا ليكتفوا ذاتيا فقط بل ليسيطروا على الاسواق العالمية بـــهذه المنتجـــات الغذائيـــة فيزيدون من هيمنتهم على الاقتصاد العالمي وعلى الدول الاخرى والتي بعضها دول كبرى مثل الاتحاد السوفيتي الذي صار يعتمد في توفير خبزه عليهم.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان ظهور الفكر الاشتراكي ومحاولته استغلال الطبقة العامل لصالحه بتحريضها الذي لا ينقطع من اجل زيادة الاجور او تحســـين شروط العمل، بالحق وبالباطل! وتعدد مصادر الصناعات المتنافسة وخاصة بدخـــول اليابان والصين والاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية لمنافسة اوربا وامريكا على سوق المواد المصنعة، كل هذا جعل من الاوفر والافضل لاصحاب الصناعات جميعـــا ان ينتجوا بعضا من هذه الصناعات في البلاد التي تســـوق فيـــها. وبـــهذا يضربـــون عصفورين او اكثر بحجر واحد، كما قيل في الامثال، فهم يتخلصـــون بذلـــك مـــن

مشكلات العمل والعمال ومن فضلات التصنيع وملوثات البيئة ويحتكرون السوق المحلية لتلك الصناعة بما يسمى حماية الصناعات الوطنية!! وبذلك يحققون ربحا اكثر وعبودية اكبر، خاصة وان المصنع مصنعهم، والمواد الخام في كثير من الاحيان تستورد منهم بالكامل، وبعض من كبار المشرفين غالبا ما يكونون منهم ايضا. وان كان يمكن للدولة ان تمنع اسيراد البضاعة المستوردة لسبب من الاسباب متى شاءت فهي لن تستطيع غلق مصنعها بتلك السهولة من اجل العمال والموظفين وصاحب المصنع والذي اتضح بالتجربة انه الرابح الوحيد والاوحد! من الجانب الوطني، لان المستهلك كثيرا ما يدفع سعرا اكبر مقابل مواد ذات جودة اقل، والدولة تخسر الضرائب الجمركية وغيرها من خلال الاعفاءات التي تحصل عليها المصانع عادة، هذا غير ما تشارك فيه الدولة من دعم للتصنيع!! وفرق كلفة العمالة وفرق الجودة وفائض القيمة بشكل عام، صار من نصيب صاحب المصنع في القطاع الخاص او لكبار موظفي المصنع واصحاب القرارا، في القطاع الاشتراكي بشكل او بآخر. وفي الحالتين وضع في بنوك الدول الاجنبية لاستثماره!!! فيعود على الامة ذلاً وتبعية!! ولذلك لم يعد تشجيع الزراعة في بلادنا يخدم مصالح هذه الدول الكبرى كما كانت تفعل من قبل. ولذلك ايضا انبرى المثقفون والمفكرون النهضويون! ومنذ منتصف هذا القرن بشكل خاص، بالتشديد على مسألة ان يقتل قابيل الصناعة هابيل الزراعة!! والتقليل من شأن الزراعة في مجال الاقتصاد وتحقيق الرفاهية للامة، واعلاء شأن الصناعة والتصنيع[1]، حتى وان كان وهميا

---

[1] قارن دعوة المفكرين للتصنيع المزيف مقابل الزراعة مع دعوة الصهيونية لليهود علي تعلم الزراعة التي يجهلها عادة اليهود لانشغالهم بالتجارة والصناعة، وذلك لان الزراعة كما يؤكدون تربط الانسان بالارض فتصبح عزيزة عليه فلا يفرط بها بسهولة، وتحفظ له كرامته كفرد وكدولة. ولذلك ترك بن غوريون الجامعة وجاء الى فلسطين ليعمل في نقل الاسمدة حتى يكون قدوة للآخرين في تعلم الزراعة، وكان يدعو اليهود لاستخدام العرب لتعلم الزراعة منهم ثم الاستغناء عنهم!!

بهذا الشكل المؤلم، والدعوة لاستيراد التقنيات الاجنبية من اجل ذلك. فاتجه اصحاب رؤوس الاموال تشجعهم دولهم والدول الصناعية! كما اتجه ايضا القطاع الاشتراكي في الدول العربية الاشتراكية، الى ما اسموه التصنيع والذي صار فيه كل مصنع ينشأ لا يعدو ان يكون صك عبودية جديد لصالح دول المنشأ للمصنع وصارت المصانع هذه تحدد علاقة الدولة المضيفة لها بدول المنشأ. وكثيرا ما تستخدم وسيلة ضغط على الدول المضيفة لها. هذا من جهة اما من جهة اخرى، فقد اهملت الزراعة بهذا التوجيه نحو التصنيع الكاذب، وتحول الناس عنها الى غيرها، ولما لم يكن في مقدور قطاع التصنيع المشوه هذا استيعابهم فقد تحول معظمهم الى قطاع الخدمات!! ولما اتخم هو الآخر وانتشرت في البلاد ما اصطلح على تسميته بالبطالة المقنعة ولم يعد يتحمل المزيد من العمالة انتشرت البطالة الحقيقية وبدأت ظاهرة الهجرة الدائمة او المؤقتة الى خارج البلاد سواء الى البلاد العربية الاخرى ام البلاد الاجنبية، تتزايد مما كان له دور كبير في افساد الاوضاع الاجتماعية في البلاد المصدّرة للايدي العاملة والمستوردة لها. ففسدت الذمم والاخلاق وانتشرت المادية وطغت علاقة العملة الصعبة! على كل العلاقات الانسانية وعلى رأس ذلك الالتزام والامانة والمواطنة والمشاعر القومية الخ... بعد ان صار الانسان لهذه الدول جميعا، المصدرة والمستوردة سلعة تباع وتشترى، فتجلب عملة صعبة وتوفر عمالة سهلة ورخيصة! ولم يرَ دعاة الانسانية العصروية! والتحررية! من المفكرين النهضويين! حرجا في اعتبار الانسان سلعة كالسلع الاخرى فنجد الدكتور احمد زكي مثلا، في حديثة الشهري في مجلة العربي يقول:ان (السلعة البشرية كالسلعة الصناعية الحكم فيها للاسواق) اذ (يبقى السوق هو الحكم وكما يحكم السوق على البيض والخبز واللحم الذي سوقه منتجوه كذلك يحكم على خريجي الجامعة عندما ينزل الى السوق يبيع فيه مهنته ويتقبل اجرا)!!! ويؤكد خضوع الانسان لمسألة العرض والطلب بقوله: (انه البيع والشراء، وانه الاقبال والادبار، وانه الرواج

والكساد...)[1].

وهذه النظرة الشيئية او السلعية، ان صح التعبير، للانسان العربي هي نفسها التي جعلت بعض الدول تفتح مدارسها وجامعاتها امام ابنائها بغض النظر عن قدراتهم ورغباتهم وانما المهم بالنسبة لها هو تصنيعهم كما تصنّع السلع وتخريج اكبر عدد ممكن منهم بغض النظر عن مستواهم العلمي والمهني لتسوقهم في البلاد العربية النفطية من اجل حفنة من العملة الصعبة تستهلك في نشر وسائل الترف الحضاري! والمظاهر الحضارية!!! وتفاخر بعد ذلك بانها مصنع للعمالة التي تعتبرها من اهم صناعاتها المثمرة!!

ومشكلة الاغتراب هذه في البلاد العربية الاخرى او البلاد الاجنبية والتي سببها بالدرجة الاولى، الفكر الحضاري التابع لاوربا والحضارة الغربية والذي روج له وطبقه النهضويون يحتاج وحده الى بحث خاص او حتى ابحاث متعددة لتتبع آثاره السلبية الكثيرة على كل من الدول المصدرة والمستودرة للعمالة وعلى الانسان ذاته الذي صار يباع ويشترى في عصر التحرر من العبودية!! هذا ان كان للانسان في هذه الحضارة المعاصرة الانسانية!! أي اعتبار! وهو ليس هنا مجاله. هذا غير الهجرة من الريف الى المدن بتحول الناس من قطاع الانتاج الزراعي والصناعي الحرفي اللذين انغلقا امامهم الى قطاع الخدمات والذي لاتتوفر فيه فرص العمل الا في المدن الكبيرة، فنمت هذه الاخيرة وتضخمت في كل الدول العربية، حتى صار لكل منها مدينة واحدة هي العاصمة في الغالب تستوعب ثلث او ربع السكان لتلك الدولة او حتى اكثر من ذلك. في ظروف سكنية وخدمية مزرية في غالب الاحوال. مما لا مجال لذكر سلبياته ايضا هنا. وماذا كانت نتيجة كل هذا؟!!

تصنيع وهمي عاجز تابع بشكل مزر بحيث يمكن ان يتعطل المصنع الطويل العريض!! ان تعطلت قطعة صغيرة فيه او نفذت بعض من المواد الخام التي تدخل

---

[1] مجلة العربي العدد ١٤٧ شباط ١٩٧١

في مصنوعاته، ويتوقف المصنع من اجل ذلك اياما او شهورا حتى تتوفر العملة الصعبة!! لاستيرادها او حتى تتنازل الدول المضيفة للمصنع عن كثير من مصالحها بالمقابل، ان كانت العلاقات قد ساءت لسبب ما مع دول المنشأ لهذا المصنع! هذا غير عجز هذه المصانع في معظم الحالات عن سد حاجات البلاد المتزايدة، بفعل الفكر المادي والاسراف والترف الماديين اللذين شاعا مع شيوع فكرة ان نعيش الحياة كما تعاش في اوربا وامريكا مما يسبب في الغالب ازمات للبلاد تختفي فيها هذه المواد لتعود فتظهر في السوق السوداء التي انتشرت وازدهرت مع فكر التصنيع الاشتراكي! بسعر اعلى وهكذا مما يسبب ارتفاع الاسعار بشكل لا يتناسب ودخل الفرد المتواضع! مما يستدعي تدخل الدولة بتحديد الاسعار او باستيراد ذات المادة من الدول الاخرى مما يخلق ازمات جديدة تزيد من فقدان التوازن الاقتصادي والذي نتركه للاقتصاديين لمعالجته بمعرفتهم، وتوضيح اسبابه ونتائجه التي على رأسها افساد الذمم. اما ما يهمنا هنا هو هذه التبعية الاقتصادية المؤلمة للدول الاجنبية والتي جعلت لها اليد الطولى في حياتنا تسيطر على كل مجالاتها الاقتصادية، تتصرف بها كما تشاء، تخلق الازمات متى شاءت وتفرجها متى شاءت! تضغط على عملاتنا فتخفضها متى شاءت وترفعها متى شاءت، تغرقنا بالقروض عندما تشاء وتجدولها! عندما تشاء الخ... وكل ذلك لمصلحتها. وحتى الثروة النفطية التي من الله بها على العالم العربي، لم تستطع انقاذه من هذه التبعية للدول الاجنبية بل العكس فقد زادت من تبعيته وعبوديته حتى ان محمود امين العالم قال: ان ما فشلت فيه الثورة اخفقت فيه الثروة ايضا لان (الثروة النفطية لم تستطع ان تحرر مجتمعاتنا العربية من التبعية للرأسمالية العالمية. وتحقق لنا تنمية اقتصادية مستقلة، بل انها اسهمت في مضاعفة هذه التبعية واسهمت في مضاعفة تبعية المثقفين بالاغراءات الكبيرة التي سال لها لعاب بعضهم...)[1].

فالناظر الى العالم العربي اليوم لا بد ان تستوقفه سمة واحدة مشتركة تجمعه،

---

[1] عن جريدة الرأي الاردنية ١٩٨٩/٢/٢١

غير اشتراك ابنائه باللغة والارض الخ... التي جعلت كمقومات للوحدة، وهي سمة الخراب الاقتصادي بكل اشكاله ومعانيه. فكل دولة من دول العالم العربي تعاني ذات الازمات وذات المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها الدول الاخرى والتي تتمثل بالمديونية الضخمة والبطالة بشكليها، الحقيقية والمقنعة، وعجز ميزانها التجاري، وتراجع الزراعة الذي يسبب عجزا في توفير المواد الغذائية محليا، وهي التي كانت تنتج بكثرة تزيد عن حاجات البلاد، تصنيع وهمي تابع، غلاء فاحش لا يتناسب ومستوى دخل الفرد (حتى في بعض الدول النفطية) ادى الى فساد مزر للذمم، اسراف شديد في كل مجالات الحياة، على مستوى الدولة او مستوى الافراد، لا يتناسب والمستوى الاجتماعي والمستوى المعيشي او المستوى الثقافي، فنجد قصورا وعمارات وفنادق ضخمة وصروحا حضارية!! وابراجا ومراكز تجارية، كلها حديثة وتتوفر فيها كل اسباب الراحة والترف والاسراف جنبا الى جنب مع العشش وبيوت الصفيح والمساكن المنهارة او التي على وشك الانهيار، والتي بعضها لا يصلح ليكون زرائب للحيوانات وليس سكنا لانسان عصر النهضة والاشتراكية والتحرر والتقدمية!! وغير ذلك مما دعا اليه النهضويون ومما يعتقد بعضهم انهم حققوه وحققوا معه كل هذا التقدم المتمثل بهذه الصروح الحضارية!! وبقتل الزراعة من اجل التصنيع!!! وهم كل واحد من افراد الشعب من حكام ومحكومين، من المسؤولين او غير المسؤولين وهدفه الاسمى هو ان يخرج هو وحده! من هذه البيوت والعشش الى تلك القصور بغض النظر عن الثمن المدفوع! ايا كان هذا الثمن!!! هذا غير القرية التي زادت تخلفا بهجرة العاملين والمتعلمين منها والتي هي الاخرى عالم خاص، مختلف لا علاقة له بهذا الاسراف والترف المتواجد بالمدينة والذي كان له اكبر الاثر في افساد الذمم وانتشار الاجرام بكل انواعه، والذي لولا بقية من دين الامة وخلقها لصارت مدننا الكبيرة المترفة في بعض جوانبها هذه والتي يتجاور فيها الفقر المدقع مع الغنى الفاحش، مسرحا للاجرام كمثيلاتها في الدول الاوربية والامريكية ولذات الاسباب! وما ذلك الا لان مفكري النهضة! ودعاة الحضارة المادية والترف الاوربي لم يستطيعوا ان يخرجوا

عن ذواتهم!! وان ينظروا الى ابعد من انوفهم كما يقول المثل الدارج. ولـــو فعلـــوا لعلموا ان كل صرح من الصروح التي يطلقون عليها مصطلح حضارية! وكل فندق مترف وكل مركز تجاري يحوي في جملة معروضاته ارقى ما انتجتـــه المصـــانع الاوربية والامريكية، والاجنبية بشكل عام، من مغريات الحياة والتي لا يمكن لمعظم ابناءالبلاد التمتع بها، هي بطاقات دعوة صريحة لافساد الذمم والاخلاق والاجـــرام بكل اشكاله ايضا والذي بدأت تظهر بوادره في هذه العواصم العربية وهـــو الامـــر الذي سيضيف ان لم تجر معالجته بمعالجة اسبابه ودوافعه! الى التبعية الاقتصاديـــة للدول الكبرى، تبعية اخرى جديدة في الاجرام والتسيب الخلقي بكل اشـــكاله. هـــذا بالاضافة الى كونها سيفا يقطع الامة الى نصفين، اغنياء متخمين وفقـــراء معدميـــن ومحرومين. والمفكرون النهضويون ادرى بما يعنى هذا!!

التربية

اما التبعية في مجال التربية فهي لاتقل عما في غيرها من المجالات ان لم تزد عنها، فمنذ انتشار التعليم والمدارس الحديثة مقابل المدارس الدينية والتعليم التقليـــدي الذي يعطي الاولوية للدين واللغة العربية، وهذه المدارس تكاد تكون امتدادا لمدارس الارساليات الاجنبية والتبشيرية في البلاد، مع بعض التعديلات التي اقتضتها ظروف الاستقلال! واثارة المشاعر والوطنية القومية، تتبع في انظمتها ومنهاجها وفي الفكر الذي تنشره هذه الدولة او تلك بحسب نفوذ هذه الدول المتبنية لها. وظلت الانظمـــة التربوية على تبعيتها هذه للدول المتقدمة رغم كل ما قام في البـــلاد العربيـــة مـــن تغييرات ثورية وتقدمية وقومية! والتي كلها لم تحدث أي تغيير فـــي هـــذا الاتجـــاه التبعي التغريبي سوى انها اضافت في بعض الدول الى الانظمة المتبوعـــة والفكـــر الاوربي السائد نظاما اوربيا جديدا هو النظام الاشتراكي وفكره. وكما ان دعاة اتباع الانظمة الاوربية مثل طه حسين وسلامة موسى ولطفي السيد وغيرهم فـــي البـــلاد العربية الاخرى لم يروا ذلك تبعية مهينة للامة وانمـــا تقـــدم وتحديـــث حضـــاري ضروري لخير الامة! فكذلك دعاة اتباع الانظمة الاشتراكية الذيـــن كـــانت التبعيـــة المرفوضة بالنسبة لهم هي (التبعية للغرب الرأسمالي... امـــا التقليـــد والاســـتفادة

المسايرة والتبني لنموذج الدول الاشتراكية فهو لا يعد في نظر هؤلاء تبعية وانما مشاركة فكرية وتعاوناً ايديولوجيا ليس فيه تابع ومتبوع...)[1] وكأن التبعية للدول الاخرى من دول الغرب لم تكن تقوم على مثل هذا التعاون الفكري العقائدي في الاصل!!!؟

وهذه التبعية هي التي جعلت انظمتنا التربوية بمدارسها وجامعاتها مثل كل شيء آخر لا تعدو ان تكون نسخا عن انظمة الدول المتقدمة في مراحلها وتنظيماتها ومناهجها وحتى في اهدافها، ان كان لها اهداف غير اللحاق بركب الحضارة السيء الذكر! وكيف لا تكون انظمتنا التربوية وجامعاتنا نسخا من مثيلاتها الاوربية وقد اسسها المحتلون الاجانب وبعد ذلك صارت تستقدم الاجانب لادامة تبعيتها ولتنظيمها على غرار ما في مثيلاتها في بلادهم. مثل النظام التربوي المصري والذي وضعه هذا وذاك من اساطين الاصلاح والجامعة المصرية التي كان طه حسين يفخر بكونها نسخة منسوخة عن مثيلاتها في اوربا واستقدم الاساتذة الاجانب للتدريس فيها حتى في مجالات اللغة العربية والدين الاسلامي؟! كما مر ذكره.

وحتى تطوير الانظمة او تجديدها لا يكون عادة استجابة لحاجات اجتماعية خاصة او بسبب عجز محدد ظاهر في النظام التربوي نفسه، وانما يكون وفي الغالب صدى لما يحدث في هذه او تلك من الدول الاجنبية. فان اقتضى الحال عندهم الى استحداث منهج او نظام مدرسي او طريقة للتدريس، سارعنا نحن باقتباسها منهم بغض النظر عن ملاءمتها لحاجاتنا او وجود مبرر لها او توفر امكانية تطبيقها عندنا. فلما استحدثوا الرياضيات الحديثة، سرت حمتها الى بلادنا، فسارعنا الى اقتباسها وتعميمها ونحن لا نملك الامكانات المطلوبة لهذا التعميم وخاصة المعلمين الذين يفهمونها ويستطيعون تعليمها! ولكن اهملناها بعد ذلك وبعد ان استنزفت الكثير من اموالنا وجهودنا، حالما تراجع الاهتمام بها هناك في موطنها.

---

[1] انظر انور الجندي: التربية وبناء الاجيال ص١٠٤-١٠٦

اما كم كلفت هذه الحمى من مال وجهد وتشويش على النظام التربوي وضياع للطلبة انعكس على شكل ضعف واضح في الرياضيات القديمة منها والحديثة؟ فهو امر لا يحظى باهتمام المفكرين التابعين هؤلاء!! ما داموا قد ظهروا على شاشات التلفزة والندوات واظهروا زينتهم الجديدة هذه! واستفادوا ماديا وانتقلوا بذلك من زمرة المحرومين الى زمرة المحظوظين كما مر ذكره. وقالوا بالمدرسة الشاملة فسارعنا الى اقتراض القروض الكبيرة وعقدنا الاتفاقيات معهم او مع البنك الدولي من اجل انشائها رغم عدم ملاءمتها لنا وعدم حاجتنا اليها وعدم وجود الامكانات والمبررات لاقتباسها. وقبل ان يتم الانشاء في معظم الدول العربية، تراجعت عن تعميمها الدول صاحبة فكرتها، فانخفضت حرارة الدول العربية وزالت حمى المدرسة الشاملة وتراجع الاهتمام بها! فجمدت او قزمت هذه المدرسة التي اقترضت القروض من اجل انشائها!!! وقالوا بالتعليم المصغر، فسارعنا الى اقتباس الفكرة كوسيلة لتدريب المعلمين، واقترضنا القروض وعقدنا العقود واستقدمنا الخبراء وأرسلنا البعثات للتخصص بهذا الموضوع، ولم نلبث ان اهملناه!! وهكذا... ومؤخرا قالت الدول الاوربية وامريكا بان انظمتهم التربوية عاجزة وتحتاج الى تغيير جذري في مناهجها واساليبها، فسارعنا اليهم نستنجد بهم ليبعثوا بخبرائهم ليدرسوا انظمتنا التربوية ومدى ملاءمتها لحاجاتنا!!! ويقترحوا علينا تعديلاتهم عليها!!! لنقترض القروض مرة اخرى ونعقد الاتفاقيات مع هذه الجامعة او تلك وهذا النظام التربوي او ذاك من اجل هذا التعديل الذي سيقوم به خبراؤهم وسيساعدهم خبراؤنا ومفكرونا في حمل الدفاتر والتقارير والسير وراءهم لتصبح تلك التعديلات احدى معجزات وانجازات النظام!! وهناك الكثير مما لا يتسع المجال لذكره من امثال هذه التبعية المهينة لانظمتنا التربوية!! وغير التربوية! وحتى البيروسترويكا التي تبناها كورباتشوف لاصلاح حال الاتحاد السوفيتي دعا البعض الى اقتباسها، فقال عبدالرحمن منيف في ندوة (البيروسترويكا العربية التي عقدت في دمشق عام ١٩٨٨: (كنت افترض... ان يقف الى جانب الباحثين بعض قادة الاحزاب الشيوعية العربية ويعلن بدء البيروسترويكا، ومثل هذا الاعلان لا يكون فقط بتأييد ما يجري في الاتحاد السوفيتي

وانما بتمثل روح البيروسترويكا هنا)[1]. وهناك الكثير مما لا يتسع المجال لذكره من امثال هذه التبعية لانظمتنا التربوية!! وغير التربوية!

التقنيات

اما التبعية في مجال التقنيات الحديثة الآلية والفكرية فحدث عنها هي الاخرى ولا حرج، فالتبعية الفكرية معروفة ومر ذكر الشواهد عليها وهي اساس كل هذه التبعية التي نراها من حولنا. اما التبعية في مجال التقنيات الآلية فيكفي ما نراه حولنا من حمى التلفزيون وقنواته المختلفة وعدد ساعات بثه ومحتوى هذا البث!! هذا غير الفيديو وعرب سات واطباق الاستقبال للمحطات التلفزيونية الاجنبية والكمبيوترات التي فاقت حمتها الجميع انتشارا حتى صار البعض يعتبر وجود الكمبيوتر هو سبب لكل تقدم وغيابه هو التخلف والتأخر بعينه! فتسابقت المؤسسات الرسمية وغير الرسمية على اعتماده بغض النظر عن حاجتها الحقيقية له، لا لشيء الا لانه صار في نظرهم هو الآخر مظهرا حضاريا ككل المظاهر الحضارية المستوردة الاخرى مثل الاعداد الهائلة من السيارات والشوارع العريضة لسيرها والجسور لعبورها! ومثل الابراج والحدائق والقصور وغير ذلك من المظاهر التي اعتبروها دليلا على حضارة الامة!! ومن المفارقات ان نجد انه في الوقت الذي يصاب معاصرونا العرب بحمى الكمبيوتر والحاسبات الالكترونية ويدعون الى استخدامها في المدارس على نطاق واسع وفي شتى المجالات باعتبارها هي الاخرى مظهرا حضاريا!! نجد ان اليابان اكبر منتج ومصدر لهذه الاجهزة تستخدم وتشجع على استخدام الآلات الحاسبة البدائية التي تسمى abacus وهو حاسوب الخرز البدائي الذي جاءهم استخدامه اصلا من الصين قبل ٤٥٠ سنة. وذلك لما لهذا الحاسوب من فوائد تعلمية كبيرة يلخصها توشيو سوادا Toshio sawado بكونه اولا: يمكّن مستخدمه من تشخيص الاخطاء في الحقائق والارقام فيتمكن من استخدام

---

(1) عبدالرحمن منيف: الديمقراطية اولا الديمقراطية دائماً ص٨٤

الحساب العقلي للقيام بنوع من التقييم الآني الذي لا يقدر بثمن في تحليل الاعمـــال واتخاذ القرار. وثانياً: ان استخدامه يطور نوعا من المـــهارات النفســية الحركيــة Psychomotor skills اللازمة للتعامل مع المكائن ذات المفاتيح الضابطـــة Key-board machines ولهذا يعلم استخدام هذا الحاسوب في المدارس الابتدائية منذ السنة الثالثة، ويحتل قسما كبيرا من مناهج المدارس التجارية العالية، وهناك الكثير من الصفـــات في نظرهم والتي تجعل هذا الحاسوب اداة تربوية مفيدة.

وان كان بعض الاوائل قد اكد على اقتباس التقنيات الآلية من غير الفكرية على اعتبار ان الاولى لا تتعارض مع الدين والقيم والتقاليد، فقد صـــار مفكـــروا اليـــوم يقولون: انه لا يمكن استيراد التقنيات الالية واستخدامها من غير استيراد التقنيـــات الفكرية التي هي روح الثورة الصناعية والتقنية في اوربا كما مر ذكره وكما ذكـــر حسن صعب في هذا المجال وهـــي دعـــوة شـــائعة الآن وخاصـــة بيـــن اســـاتذة الجامعات!!!

الجيش

اما التبعية في مجال الجيش والسلاح فهي الاخرى لا تختلف كثيرا عن التبعيـــة في غيرها من المجالات اذ اعتمدت الجيوش العربية ومنذ تأسيسها من قبل الاحتلال في الغالب، الانظمة العسكرية الاجنبية بلباسها وبتشكيلاتها وتدريبها ورتبها وتـــدرج هذه الرتب الخ... وعلى رأس ذلك كله سلاحها الذي هو تماما كالمصانع صكـــوك عبودية لهذه الدولة او تلك من دول المنشأ، ان رضيت منحت وان لم ترضى منعت!

هذا غير الكثير من شواهد التبعية مما لا يستع المجال لذكره، والتي جعلت كـل ما يجري في بلادنا مجرد صدى لما يحدث وما يدور ومـــا يثـــار مـــن مشـــكلات ومواضيع في هذه الدول الاجنبية القدوة! وصار مثقفونا ومفكرونا مجرد مصـــدات جوفاء ترتطم بها هذه الاصوات القادمة من بعيد لترددها وبشكل مشوه ايضا، ككـــل صدى يختلف عن الصوت الاصل. فما دعا الدعاة هناك الى تحديد النسل مثلا حتى سمعنا اصداء ذلك النداء، تتردد في بلادنا رغم ان بلادنا شاســـعة واســـعة كثـــيرة

الخيرات وفي امس الحاجة لمن يستثمرها! وقالوا بتلوث البيئة فصـــــارت مشـــكلتنا الاساسية، مع ان بيئتنا اقل البيئات المتقدمة تلوثا فيما عـــدا مـــا تحدثـــه المظـــاهر الحضارية المستوردة من تلوث كالسيارات التي تملاء الشوارع والازقة! وما يحدثـه تراكم الفضلات الحضارية ايضا كالعلب والقناني واكياس النــــايلون والكيماويـــات والمختلفة الخ... وقالوا حوار الشمال والجنوب فقلنا قولهم! وهكذا كل ما نقول هـــو صدى ولا شيء غير الصدى. وهو وضع ما صار الى ما صار اليـــه لـــولا تلــك التبعية الفكرية التي اعتمدها مفكرو النهضة ومنذ اوائل النهضة وحتى يومنا هذا في تعاملهم مع الفكر الغربي والحضارة الغربية، والنقل غير الواعي عنها والذي جعــل زكي نجيب محمود يقول: ان (ما لا بد ان يبقى مذكورا دائما. وهو انه لا المســـائل المثارة مسائلنا نحن اثرناها منبعثة عن ازمات في ضمائرنا عانيناها، ولا الحلـــول المعروضة حلولنا نحن... انما المائدة بكل ما عليها اعدها طهاة غيرنا، ولم يكن منـا الا ان استوينا على المائدة الممدودة لنأكل، كل من الطبق الذي يشتهيه...)[١] وهـــذا في نظره سبب الخلاف بين المفكرين المعاصرين! وهو في نظري سبب الكثير ممـا نشكو منه اليوم من سلبيات.

وهذه التبعية في نظر طه حسين او كما يريدنا ان نعتقد هي تبعيـــة لا يمكــن الرجوع عنها، اذ يرى اننا لا نستطيع ان نعود الى تراثنا او مـــا يســـمه الانظمـــة القديمة، لاننا سنواجه كما يقول (عقابا تقيمها اوربا لاننا عاهدناها على ان نســايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة)[٢]. فمن هم هؤلاء الذين عاهدوهـــا؟ ومـــن خولهم ان يعاهدوها؟ ولماذا فعلوا ذلك؟ ومصلحة من حققوا بذلك؟ واي عقاب سـتقيم دول اوربا اكثر مما تقيم من عقاب اليوم؟! ثم الا يستحق الانعتاق من عبودية التبعية اية تضحيات في نظر المفكرين النهضويين الذين دعوا الى كل اشـــكال الانعتـــاق والتحرر حتى الوهمي منه؟!!! ام ان الانعتاق والتحرر في نظرهم هو فقط الانعتـــاق

---

(١) زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر ص٣٩

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص٢٣٤

والتحرر من كل ما يكون شخصية الامة من عقائد وتقاليد وقيم وبغض النظر عن مدى سلامتها وملاءمتها لهذه الامة؟!! واستبدالها كلها وباسم التغيير والتجديد او التحديث والتحرر او اللحاق بالركب!! بما عند الغرب منها، فنجد (حسن صعب) مثلا يقول في كتابه تحديث العقل العربي ان (استراتيجية التحديث الكلي للقيم والبنيات تفرض علينا استبدال قيمنا التقليدية بالقيم الحديثة وابرزها الحرية والانجازية والفعالية والابداعية وتفرض علينا ان نغير جميع بنياتنا اللغوية والعائلية والدينية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية والاعلامية السياسية والدفاعية لنحولها لبنيات حديثة تتجسم فيها القيم الحديثة. وما لم نحقق نحن مثل هذا التغيير مختارين فان التاريخ سيفرضه علينا مكرهين)[1]!!!!!

والقيم الحديثة بالنسبة له، كما هي بالنسبة لكل مفكري النهضة الاوائل والاواخر، ورغم الابداعية التي يدعو اليها اعلاه، هي القيم الاوربية (الغربية) وعلى رأسها الماركسية اذ يقول (ان ابطال التحديث اليوم موجودون في لبنان... واكثرهم من الطبقة الوسطى يشاركون مشاركة فعالة في القيادات الماركسية وفي القيادات القومية) ومهمة هؤلاء في نظره هي (ان يبنوا الجسر الذي يعبر عليه مجتمعنا الطريق باسرع ما يمكن من الحضارة التقليدية الى الحضارة الحديثة)[2] لا ان يبنوا لامتهم حضارتها الحديثة الخاصة بها والتي تعبر عن شخصيتها وتكون امتدادا لحضارتها القديمة والتقليدية وتشارك بها في مسيرة الحضارات الانسانية ومنها الحضارة المعاصرة مشاركة حقيقية بدل الاكتفاء باللحاق بركب الحضارة المعاصرة كتابع ذليل!!

ولو تتبعنا فكر النهضة لوجدنا ان معظم المفكرين النهضويين منذ اوائل ما سمي بعصر النهضة وحتى هذا اليوم، كل بطريقته وبقدر ما، اسهموا في تحقيق هذه

---

(١) حسن صعب: تحديث العقل العربي ص١٣٢

(٢) ذات المصدر

التبعية المشينة للآخرين ودعوا لها وعملوا من اجلها بشكل او بآخر، رغم تنصلهم من المسؤولية عنها والقاء تبعتها على الآخرين. مثل اديب اسحق الذي رغم اسهامه بقسط وافر مع الآخرين في احداث هذه التبعية الا انه يعيب في بعض مقولاته على من يقول: (الاجنبي اعلى وأعلم، وحكمه أقوى وأقوم، والتسليم بالوطنية اسلم...) ويقول: (يتفق رؤساؤنا ولكن... على نبذ الوطنية، ويختلفون ولكن على كيفية التابعية) ولبيان (مساوئ التابعية ومحاسن الاستقلال) يقول ان من مساوئ التابعية انها (رق للاحرار، وفقر للاغنياء، وضعف للاقوياء وعار للنزهاء...)[1].

لقد توجه معظم مفكري النهضة! الى هدم شخصية الامة وقطع جذورها بحجة بناء شخصية جديدة لها لا علاقة لها بشخصيتها السابقة، القديمة والبالية في نظرهم، ولكن كل ما استطاعوا عمله هو تكريس تبعيتها المشوهة لكل ما هو اجنبي عنها. وكل منهم يبرئ نفسه من المسؤولية عن هذه التشوهات ويضعها على عاتق الآخر. وقد اعترف زكي نجيب محمود بجهود الهدم هذه فقال في كتابه هذا العصر وثقافته: (لقد شهدت حياتنا الفكرية نشاطا ملحوظا من الهدم-هدم القديم الذي يراد له ان يزول- اكثر جدا مما شهدته من النشاط الايجابي الذي يصوغ الاسس النظرية لما هو مطلوب) وقال ان العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين (كان هنالك امام النشاط الفكري عدد ضخم من الاصنام التي كان لا بد من تحطيمها وازالتها... كنا في العشرينات نهدم الاوثان الفكرية ثم نبني التماثيل الجديدة للافكار الجديدة ولعلنا في ذلك كنا على نغمة واحدة مع مجمل النشاط الفكري في اوربا ابان تلك الفترة نفسها... فعلوا ذلك هناك وفعلنا مثله ولكننا بالطبع وجهنا فؤوسنا نحو ما اردنا هدمه من حياتنا، اللهم الا نفرا من اصحاب الفكر الزائف طفقوا يهدمون ما اراد مفكرو الغرب ان يهدموه، مع انه ليس موجود هنا...)[2] اذ انه وامثاله، ليسوا مسؤولين عن السلبيات والتشوهات وانما هي مسؤولية هذا النفر من اصحاب الفكر الزائف! اما

---

(١) اديب اسحق، الكتابات السياسية والاجتماعية ص٩٤-٩٥

(٢) زكي نجيب محمود: هذا العصر وثقافته ص٤٠-٤١

من هم هؤلاء؟ وما هو هذا الفكر الزائف؟ وكيف يكون فكر هــؤلاء زائفـا وفكـر غيرهم غير زائف؟ مع ان الفكر كله اجنبي ومستورد من ذات المصـادر وموجـه لذات الهدف الذي هو هدم مقومات الامة؟ وما هو معيار الـهدم ومعيـار الزيـف ومعيار السلب والايجاب؟ وقبل هذا وذاك من خولهم واوكل اليهم مهمة الهدم هـذه وبأي حق مارسوها وفرضوها على الامة؟ خاصة وان الامة وباعترافتهم، كانت ولا تزال ترفض هذا الهدم؟ الله اعلم!!! ولكنه اكد على كل حال ان عملية الهدم كـانت اكبر من عملية البناء اذ قال: (قام رجال افكر عندنا... في العشرينات والثلاثينـات بقسط كبير من الهدم ولكنهم لم يقوموا بقسـط يماثلـه فـي الحجـم تجـاه البنـاء الايجابي)[1] وحتى هذا الجزء الضئيل من البناء فقد كان بناء على النسق الاوربـي وذلك ليس فقط لعجزهم عن الابداع الذي يتطلب جهدا كبيرا لا يقدر عليه الا اهـل الهمم والعزائم وانما ايضا، لسيطرة فكرة كون الحضارة الاوربية سـيلا جارفـا لا يمكن الوقوف في مواجهته، عليهم، والتي تناقلتها اجيال المفكرين النهضويين جيـل عن جيل، وعن مفكري اوربا في الاصل. ولذلك نجد على سبيل المثال، ان سـلامة موسى يؤكد على ان الحضارة الاوربية تتغلب وتسود اينما وجدت في هذا العـالم. ولا يمكن لامة ان تحيا اذا خالفتها ويقول: (لا استطيع ان اتصور نهضة عصريـة لامة شرقية ما لم تقم على المبادئ الاوربية للحرية والمساواة والدستور مع النظـرة العلمية الموضوعية للكون...)[2] مما كرس ويكرس التبعية اكثر فاكثر.

نشر الارهاب والعنف

عمل النهضويون من خلال معارضتهم للحكام والتحريض على الثورة علـى نشر العنف والارهاب منذ اول عهد ما سمي بالنهضة وحتى يومنا هذا. فقد كان كل

---

(١) ذات المصدر

(٢) سلامة موسى: ما هي النهضة ص١١٥-١١٦

من الافغاني ومحمد عبده، على سبيل المثال، وهما من اوائل دعاة النهضة على الطريقة الاوربية، لا ينفكان احدهما يقول والآخر يردد: (ان الحرية الحقيقية لا يهبها الملك المسيطر للامة عن طيب خاطر، والاستقلال كذلك، بل هاتان النعمتان حصلت عليهما الامم اخذا بقوة واقتدار) او ان الحرية (تتشيد بيد الامة لا بيد الحاكم)[1] وكان الافغاني يحرض الفلاح فيقول: (انت ايها الفلاح المسكين، تشق قلب الارض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم باود العيال فلماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة اتعابك)[2]. ويذكر طهارى محمد في كتابه: (مفهوم الاصلاح بين الافغاني ومحمد عبده): ان محمد عبد كان متأثرا بآراء استاذه التي كانت ترمي الى الثورة سواء بالاذاعة بالقلم واللسان او باستعمال العنف والقتل)[3]. وقد قال الافغاني للمستشرق براون: انه (لا امل في الاصلاح قبل قطع ست او سبع رؤوس، وسمى بالاسم شاه العجم وكبير وزرائه، وكلاهما قتل)[4]. وكان الكواكبي يقول: (لو ملكت جيشاً لقلبت حكومة عبدالحميد في اربع وعشرين ساعة)[5]. وكأن الاصلاح لا يكون الا بقطع الرؤوس او قلب النظام!.

واستمر هذا المفهوم حتى يومنا هذا، حتى وان كان الامر المراد اصلاحه هو شيء بسيط وعابر، اذ يقول منيف الرزاز على سبيل المثال ايضا: ان حتى المشاكل (العابرة كمشاكل الطفولة المشردة والشذوذ الخلقي والتسول وما يشابه ذلك، فكلها مشاكل قابلة للحل اذا تغير النظام، وغير قابلة للحل مهما جاهدنا في ظل الانظمة

---

(1) عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة ص٢٤٢

(2) ذات المصدر

(3) ص٨٨

(4) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح بين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ص١٥٠-١٥١

(5) العقاد: الرحالة ك، الكواكبي ص٢٤٧-٢٤٨

الحاضرة)[1]. وقلب النظام كما يفهمه ويؤكد عليه اكثر النهضويون لا يكون الا بثورة عنيفة مدمرة!! فعبد الرحمن البزاز، مثلا، يرى (ان الروح الثورية وحدها كفيلة-آخر الامر- بان تقوم المعوج، وترجع الامر الى نصابه...) فالثورة العنيفة المدمرة في نظره هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق اهداف الامة بالاضافة لكونها موضة العصر. اذ يقول: (ان الروح الثورية المنسجمة مع روح العصر هي السبيل الوحيد الذي علينا ان نسلكه لتحقيق الكرامة للفرد والخير للمجموع)[2] وحتى تتحقق (اهداف امتنا العربية في التحرر والتكتل والتجديد والانبعاث) يرى البزاز انه اذا فشلت الثورة (لا بد من المزيد من التضحيات وقيام ثورات اخرى...) وعلى الامة في نظره ان تسلك هذا الطريق (مهما تطلب من عنف وتحطيم... او النسف والتخريب)[3]. فالثورة كانت ولا تزال في نظر دعاتها النهضويين كلما كانت اكثر عنفا واكثر تدميرا حظيت اكثر فاكثر باحترامهم، ولذلك فقد نالت كل من الثورة الفرنسية في فرنسا والثورة البلشفية في روسيا والاخرى في الصين والتي صار في كل منها من الخراب والدمار والدماء ما لا يتسع أي مجال لذكره، اعجابهم واعتبرت بالمقابل، ثورة يوليو في مصر ومثيلاتها في البلاد العربية في نظرهم مجرد انقلابات لا تحظى باحترام الكثيرين منهم.

ومن لم يدع من المفكرين للعنف والقتل والتدمير فقد ايده او سكت عنه، فعندما اعدمت جماعة الاتحاد والترقي، على سبيل المثال لا الحصر-عدد من رجال الدين المسلمين المعارضين لها- ولخلعها للسلطان ولادخالها النظم الاوربية الى البلاد، ايدها اكثر المفكرين النهضويين ومنهم مصطفى الغلاييني المفكر السوري، الذي كتب في النبراس عام ١٩٠٩ قائلا ان الحكومة (لم تصبح دستورية حقيقة الا بعد ان

---

(١) منيف الرزاز: معالم الحياة العربية الجديدة

(٢) عبدالرحمن منيف: صفحات من الامس القريب ص١٨٣

(٣) ذات المصدر

بعد ان تم التخلص فعلا من الفسادين الخائنين التقهقريين بقيادة فيالق الشورة... التي خلعت السلطان الجائر الطاغي... ونشرت الاحكام العرفية وشنقت رؤساء الثورة في الاستانة ولاحقت الفارين منهم، وليس يألم من ابادة هذه الجراثيم والحشرات الا احد رجلين، رجل باع وجدانه في سبيل غايته الفاسدة او رجل جاهل بسيط رقيق الشعور يعذر لعدم تبينه الفائدة من ابادة هؤلاء الطغام)[1]. وبرر الاحكام العرفية وهو داعية الحرية والتحرر والتقدمية!! فقال: (يسوغ لجوء الحكومة... الى الاحكام العرفية... وذلك لان اللجوء الى المحاكم يضيع وقتا كبيرا، فلا تتمكن الدولة من قطع دابر الشر...)[2]. وكالعادة التي لاتزال سائدة، فثورة غير الدعاة النهضويين هي خيانة، والثوار من اصحاب الفكر المخالف لفكرهم خائنون!! وحشرات!! تجب ابادتهم. فالارهاب لا يكون ارهابا الا عندما يصيبهم او يصيب المشاركين لهم بالفكر والتوجهات، اذ عندما قام الاتحاد والترقي نفسه باعدام عدد من المفكرين السوريين النهضويين، من الذين كانوا موالين ومؤيدين للاتحاد والترقي، عندما كان هذا الاخير يحظى بدعم الدول الاستعمارية، فرنسا وانكلترا، وبتهمة التعاون مع العدو الاجنبي لاسقاط الدولة العثمانية ابان الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٦ صارت تلك الاعدامات ارهابا يتذكره العرب-والسوريون على الخصوص- كل عام، ولكن لا يتذكرون ضحايا عام ١٩٠٩ الذين وصفوهم بالحشرات والجراثيم رغم انهم اعدموا دفاعا عن دينهم وعقيدتهم ووطنهم الذي كانوا يتوقعون له الاحتلال والاستعمار ان هم تعاونوا مع الاجانب الطامعين في بلادهم وان هم سمحوا للفكر الاوربي ان يسود فيه، بينما ضحايا عام ١٩١٦ كانوا يتعاونون مع دول العدو الاجنبي لتسهيل الاحتلال الذي حصل بعد ذلك!!! اما السكوت عن العنف والارهاب فلا حصر له والشواهد عليه تصرخ في وجه الجميع كل يوم!!

ولم يكتف النهضويون بالدعوة للارهاب او تأييده بل انهم في تعاملهم مع

---

(١) فهمي جدعان: اسس التقدم ص٣٠٢

(٢) ذات المصدر

الحضارة الغربية-والدول الاوربية- والدعوة لها، قلبوا الحقائق وجعلوا كل الارهاب الذي كان يمارس هناك في الدول الاوربية وكل ما كانت تمارسه هذه الدول في بلادنا من ارهاب على انه حرية وديمقراطية ورغبة في تحرير الشعوب، فالطهطاوي، مثلا، لم ير فيما شاهده في باريس من الهجوم على المحال التجارية وتكسيرها ونهبها واخذ السلاح من المعسكرات وقتل العساكر، هدراً للحرية ونشرا للفوضى، كما لم ير في اقتحام دار الكاردينال الفرنسي وحرق مكتبته ومحاولة قتله لولا انه نجا بالهرب من داره، وتكرار ذلك مرتين، هدرا لحرية رجل الدين ذاك، وتدخلا في عقيدته وعقيدة معظم ابناء الامة الفرنسية من اتباعه، بل اعتبر كل ذلك من الشواهد على عظمة (حرية الرأي قولا وكتابة) دعا لاقتباسها من بلد الحرية!!

والافغاني وهو يحرض على الحكام المسلمين المستبدين!! لم ينظر الى ما كان يحدث في الهند او في افغانستان، التي هي من المفروض ان تكون وطنه وما كانت تقاسي من ظلم واستبداد الانكليز او الوحشية التي حارب فيها كوردن ومن جاء بعده جماعة المهدي في السودان ولم يعتبره استبداداً يستحق الادانة بل اعتبر كل ذلك حرية وديمقراطية يريد اقتباسهما من بلاد الحرية!!

و كذلك فعل كل من محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي، المصلحان الاسلاميان! اللذان كانا يدافعان عن الحرية ويحرضان ضد استبداد السلطان عبدالحميد وخديوي مصر، لم يصرفا كلما واحدة للدفاع عن الافغان الذين كانت العساكر الانكليزية تقتلهم بالآلاف وتحرق قراهم ومزارعهم حتى ان تشرشل نفسه كتب لوالدته عن ذلك، وبعد ان وصف لها كيف قتلوا المدافعين الافغان وعندما وجدوا ان مقاومة المدافعين شديدة نزلوا الى السهل حيث توجد القرى وعملوا تقتيلا بالناس الابرياء العزل وحرقا للقرى بينما كان المدافعون ينظرون من المرتفعات الى قراهم وهي تحترق واهلهم من النساء والاطفال والعجائز يقتلون امامهم قال: (القبائل تحتاج

درسا وليس هناك من يشك اننا شعب قاس)[1]. بل كان كل منهما-عبده والكواكبي- يتغاضى عن استبداد ووحشية الاوربيين والانكليز بشكل خاص ويدعو الى اقتباس نظمهم التي تعلي من شأن الحرية والديمقراطية! او يدعو الى موالاة الانكليز ومجاملتهم فلولاهم ما كان ساد البلاد كل ذلك الرفاه والحرية، كما فعل محمد عبده، هذا غير سكوتهم عما كان يحدث اثناء دعوتهم هذه في شمال افريقيا من ظلم على ابناء البلاد وانتهاك لحريتهم في بلدهم، وما كان يجري في السودان على يد كتشنر مما جعل حتى تشرشل الذي شارك في حملته ينتقده على (الصورة البشعة) التي انتهك بها كتشنر قبر المهدي اذ اخرج جثته وقطع رأسه ووضعه في صفيحة من الكازولين وارسلها هدية الى كرومر، حاكم مصر الانكليزي!![2] بل انهم جميعا اعتبروا كل ذلك الارهاب حرية وديمقراطية ورغبة في تحرير الشعوب وتحقيق تقدمها ورفعتها!!!

وهكذا حتى يومنا هذا فان ارهاب هذه الدول الكبرى لنا ولغيرنا هو منتهى الحرية والديمقراطية والصداقة للشعوب! ولا بد لنا من الاعتماد عليها واقتباس نظمها وقبول هيمنتها لنلحق بركبها!! فاستمر الارهاب ونشر الارهاب في بلادنا حتى ان بعض الاحزاب الاوربية الفكر، كانت ومنذ الاربعينات من هذا القرن (العشرين) تنشر على لسان منتسبيها ومؤيديها انه من غير الضروري ان يكون تعداد السكان-لهذا البلد المعين- ثلاثة ملايين نسمة بل ان مليونا واحدا من المخلصين يكفي وفي الخمسينات وعندما زاد عدد السكان، صارت الدعوة انه ليس من الضروري ان يكون عدد السكان خمسة ملايين نسمة بل ان مليونين منهم يكفي على ان يكونوا من المخلصين التقدميين!! والمخلصون طبعا هم المنتسبون والموالون لهذا الحزب فقط وغيرهم عملاء ورجعيون وتقهقريون لا بد من تصفيتهم!! واليوم وبعد ان تجاوز عدد سكان هذا البلد العشرين مليونا الله وحده يعلم

---

(١) انظر الاسد الاخير

(٢) انظر الاسد الاخير The last lion

كم يريدون من المخلصين وكم من الذين لا بد تصفيتهم!!!

اما بعد ان وصل بعض المفكرين، والاحزاب المنتمين اليها الى مواقع السلطة سواء بشكل مباشرا او غير مباشر فقد صار ارهابهم للآخرين غنيا عن البيان ولم يعد يقتصر على الحزب الآخر او الفكر الآخر المخالف او حتى المستقل بعيدا عن كل الاحزاب، بل صار الامر معنا فتنال كل المكاسب او علينا وليس لك الا القمع وبأبشع صورة!! حتى التضامن العربي والوحدة الاقتصادية او حتى الوحدة العربية صار اصحاب الحرية والتحرر يريدونها بحد السيف!! وهذا كله ارهاب مادي، اما الارهاب المعنوي والاتهام بالتخلف والرجعية والعمالة والخيانة الخ... فحدث ولا حرج، قل من لم تصبه سهامها، فهي كلها نعوت يقصد بها ارهاب الفكر الآخر واشعاره بالدونية حتى لا يتحرك الا بما يرتأيه النهضويون لدفع مثل هذه التهم عن نفسه. وهكذا حتى صار الارهاب وسيلة لكل من يريد الاصلاح!! سواء أكان اصلاحا حقيقيا ام مجرد تحقيق مصلحة فئوية او شخصية وهو الاكثر شيوعا. والارهاب لا بد في النهاية من ان يقابل بالارهاب مما أشاع الارهاب اكثر فأكثر بين فئات الشعب او بين هذه الفئات او احداها وبين الحكومة، حتى لم يعد واضحا هل الفرخة من البيضة ام البيضة من الفرخة! فهل الحكومة هي التي تمارس الارهاب وفئات من الشعب-معينة- ترد على هذا الارهاب بارهاب مثله ام العكس صحيح؟!!

الافساد

لقد ادى فكر الكثير من النهضويين الى انتشار الفساد باشكاله المختلفة. فمن خلال المعارضة للحكومة او للفكر المخالف والعمل السري-او حتى العلني- في الاحزاب والتجمعات المختلفة تدربوا ودربوا تلامذتهم على ان يكون لهم باطن وظاهر يختلف كل منهما عن الآخر اختلافا قد يكون جذريا، وقد يتطابق احيانا مع شخصيتي د. جايكل ومستر هايد، فتجد احدهم مثالا لسماحة الخلق والطيبة ونبل

المقاصد ولين الحديث وعقلانية المنطق والتفاني في خدمة رؤسائه في الحكومة، وقد يتقرب اليهم باظهار الحرص عليهم وعلى مصالحهم التي هي مصالح الدولة الغيور عليها، وينال على ذلك الرتب والمكاسب، مع انه في الحقيقة يتآمر عليهم ويختزن في صدره كل الحقد والكراهي التي يمكن لصدر أي انسان ان يحتويها، لا لشيء الا لانهم اما يقفون في سبيل تحقيق طموحاته الاكبر مما هو فيها او ان فكرهم المخالف يقف في وجه سيادة فكره وانتماءاته والتي هي بدورها لو سادت ستحقق له مكاسب اكبر!! فيحسدهم ويغتابهم ويتجسس عليهم وينشر الاكاذيب عنهم ويطمع بما في ايديهم، كما فعل محمد عبده مع الخديوي توفيق، وقد يستغل موقعه ليشير عليهم بما يضرهم ويقرب اجلهم مثلما فعل الافغاني مع السلطان عبدالحميد، وغيره، الذي بعدما عجز عن اسقاطه ذهب الى الاستانة وصار يشير عليه بما لو نفذه السلطان لاضعف دولته وجعل الكثير من اجزاء مملكته يسقط بيد الدول الاجنبية حتى من غير حرب مثل نصحه للسلطان بجعل الاجزاء البعيدة من مملكته والمطموع فيها مستقلة عنه مثل خديوية مصر التي احتلها الانكليز بعد استقلالها بفترة قصيرة باقل الخسائر! وهكذا استمر الحال حتى يومنا هذا.

اما الشواهد على النفاق للحاكم وللمسؤولين لتحقيق مصلحة شخصية او فئوية فهي كثيرة، ولا يمكن حصر ولو جزء ضئيل منها، ففي الوقت الذي كان محمد عبده يدعو للسلطان ويمدحه وهو في بيروت كان في ذات الوقت يعمل مع الماسونية للتخلص منه وهدم الدولة العثمانية[1] ومرة اخرى مدحه وهو في زيارة للآستانة وعرض عليه خدماته في التجسس على معارضيه المتواجدين في مصر ولكن ما ان ترك الآستانة حتى عاد الى شتمه ومعاداته[2]. وامتدح الخديوي توفيق وهو في بيروت وما ان عاد الى مصر واحتمى بكرومر حتى بدأ بمناطحة الخديوي

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص٣٢٩ جـ١

(٢) محمد عمارة الاعمال الكاملة، محمد عبده، جـ١ ص٧٣٧-٧٣٩

ومعارضته بالحق وبالباطل[1] وكل ذلك لتحقيق مصلحة شخصية او حزبية اذ هو لم يشترك في ثورة عرابي كما يقول هو نفسه، الا ابتغاء الانتقام للافغاني وايصال حزبه للحكم[2] اما مساندته للخديوي قبل ثورة عرابي فلم تكن كما يقول الا من اجل مساعدة تلامذة الافغاني واصدقائه مثل اديب اسحق وسليم نقاش وسعيد البستاني الخ... ليصلح لهم القلوب ويفسح لهم الصدور ويفتح (عليهم ابواب التقدم الى المنافع الغزيرة)[3] ولم يتورع من اجل خدمة مصالح شخصية او فئوية عن التجسس ونقل الاخبار للاجانب حيث كان هو الصلة بين بلنت، رجل المخابرات البريطاني، وكل ما يحدث في مصر اثناء الحركة العرابية وقبلها وبعدها اذ يقول بلنت عن فترة وجوده في مصر لم: (افقد صلتي بالسياسة المحلية... وكان مصدري الاساس في هذه الصلة الشيخ محمد عبده...) وذكر في مذكراته الكثير من هذه الاخبار وحتى الشائعات التي تتناول اعراض الناس المعروفين!![4]

وهكذا استمر الحال حتى انتشر هذا النفاق والتحاسد والطمع فيما بيد الآخرين الخ... ومن الخاصة الى الكافة، فصار الانسان يتقمص شخصيتين، واحدة يتجمل بها امام الناس عامة او المسؤولين في الدولة ان كانت له علاقة بهم، والاخرى يظهر بها امام الحزب او التجمع الذي ينتمي اليه او أي مجموعة فكرية يواليها، فتعود الغش والكذب والنفاق الخ... وهكذا بالتدريج وصل الحال الى ما وصل اليه اليوم من النفاق وفساد الاخلاق.

هذا غير الانفصام في الشخصية الذي اصاب الكثيرين من افراد المجتمع نتيجة دعوة النهضويين بفصل الدين عن الحياة، والتي جعلت الفرد يغش ويكذب ويتجسس

---

(١) ذات المصدر ص٤٩

(٢) علي شلش الاعمال المجهولة، محمد عبده، ص٥٠، ٤٩

(٣) المصدر السابق

(٤) ذات المصدر ص١٠٠-١٠٣

على الآخرين ويغتابهم ويستغل ويحتكر ويغتصب حقـــوق الغـــير ويعمـــل علـــى الاضرار بهم، ويجري جري الوحوش في سبيل تحقيق منفعة شخصية ومادية علـــى وجه الخصوص، بغض النظر عمن يسحق في طريقه اليها الخ... ولا يجد في كـــل ذلك ما يتعارض ودينه وتمسكه باقامة الشعائر الدينية المطلوبة منه من صوم وصلاة وحج وحتى زكاة!! لان تلك كلها نشاطات اجتماعية، اقتصادية او سياسية لا علاقـــة لها بالدين الذي هو علاقة خاصة بين الانسان وربه تنحصر في هذه الشعائر وهـــذه الشعائر فقط كما علمه فكر النهضة.

ومن خلال التحريض على المسؤولين في سدة الحكم واتهامهم سواء بـــالحق او بالباطل بالمحسوبية والارتشاء واستغلال مناصبهم للاثراء بالطرق غير المشـــروعة، تعلموا وعلموا الآخرين فساد الذمة. اذ يبدو ان من كثرة كلامهم في ذلك صار الامر بالتدريج امرا عاديا لا يستبشعونه، فما ان يصل احدهم الـــى موقـــع مـــن مواقـــع المسؤولية حتى يتعامل بالمحسوبية وبالرشوة وباستغلال النفوذ بأقصى ما يســـتطيع، ولكن كل هذه الامور التي كانت نواقص تستدعي ليس الاحتقار فقـــط للمســـؤولين السابقين بل ايضا تستدعي اشد العقوبات، تصبح حقوقا يستحقها المســـؤول الجديـــد جزاء وطنيته واخلاصه لامته وشعبه!!! فالمحسوبية التي يمارسها هي حق الطبقـــة الحاكمة الجديدة بالتمييز عن عامة الشعب، والرشوة او العمولة الخ... هي ضـــرورة تستدعيها اهمية رفع مستوى معيشته ليضاهي زملاءه في الدول المتقدمة او الغنيـــة!! وهكذا تتساقط الشعارات وتنتشر اللامبالاة والمفاسد هذه من الخاصة الـــى العامـــة. وهو ما حصل اليوم ونجده في كل مكان من حولنا.

ومن خلال الدعوة الى الحرية والتحرر والى ان نعيش الحياة كما تعاش فـــي اوربا وامريكا التي تبناها النهضويون خرج هؤلاء من جلودهم وارادوا ان يتحـــرروا ويحرروا غيرهم من كل القيم والمعتقدات والتقاليد الجميلة السائدة فـــي مجتمعـــهم، ليقيدوا انفسهم وغيرهم بكل ذلك مما استوردوه من الغرب، واسهل ما يمكن استيراده من غير مشقة او جهد، بالاضافة للكلام المشوش المتناقض الذي برعوا فيه، هو مـــا يشبع شهواتهم ويعارضون به معتقداتهم وتقاليد آبائهم، فانتشر بينهم تعاطي الخمـــور

وارتياد اماكن اللهو باشكالها البريء منها وغير البريء وتشجيعها والدفاع عنها مما ساعد على نشرها. واعتبارها مظهرا حضاريا هي الاخرى!! وبما انهم القدوة فمن خلال القدوة هذه، ومن خلال ما يكتبون وينشرون ويحاضرون من افكار الحرية والتحرر–من كل شيء– انتشر ما يمكن تسميته بالمفهوم الرجعي!! بفساد اخلاق من نوع آخر غير النفاق والتحاسد والكذب الخ... فلم يعد الكثيرون من الناس يعرفون ما هي حدود الحرية وما هو المقبول والمعقول اجتماعيا سواء في اللباس او في السلوك حتى صاروا في ذلك وكأنهم نسخ مشوهة الى درجة التقزز من نماذج اوربية او امريكية.

هذا غير ان بعض المفكرين، ومن خلال تحريضهم للناس على الثورة وتشويشهم للمفاهيم ومنها مفهوم الحرية نشروا عدم الالتزام بالقوانين والانظمة حتى صار كل قانون يصدر يعمل الكثيرون على التحايل عليه، ومخالفته بشكل او بآخر بدل الالتزام به، ولا يعتبرون ذلك نقيصة خلقية او وطنية يخجلون منها، فعلى سبيل المثال يقول منيف الرزاز: ان في ظل النظام الدكتاتوري يفقد الفرد حريته الفكرية كما يفقد حرياته الاخرى... فينزل بالمواطن من منزلة المواطن الحر المفكر... الى منزلة المواطن المأمور الآلة الذي عليه ان يطيع القوانين فحسب، وان يتبع النظام وان يفقد كل ما من شأنه ان يخلق فيه شخصية قوية، وان يتحول من قوة فعالة مبدعة، الى قوة منفعلة مسيرة، تخضع لما يكتب عليها دون ان يكون لها فيما يكتب يد او ارداة)[1]. وبما انه وحتى مع وجود البرلمانات (وهي غير موجودة في الغالب) لا يمكن لكل الافراد والفئات ان تشارك في وضع القوانين اذاً، يكون للفرد او أي فئة من فئات الشعب، الحق في مخالفة القوانين والانظمة والتمرد عليها، وبتصريح نهضوي يجعل هذه المخالفة والتمرد وطنية تستحق الفخر والمباهاة بها!! وهكذا صار الانسان العربي وبمثل هذه الافكار خلاقا ومبدعا في مخالفة القوانين والانظمة ومن غير حرج!!

---

(1) منيف الرزاز: معالم الحياة العربية الجديدة ص١٦٦

بناء الاصنام وتشويش المفاهيم

لقد عمل المفكرون النهضويون على بناء الاصنام المتمثلة بالجيل الاول منهم بالاضافة لمن ظهر بعد ذلك وحتى يومنا هذا. فالطهطاوي رغم سطحيته في التعامل مع ما شاهده في فرنسا وتناقض دعوته وقصر نظره الذي جعله يدعو لاخذ مظاهر التمدن الفرنسي حتى ولو ادى الى التغلب والاغتصاب، صار في نظر محمد عمارة وكل من كتب عنه، صانع النهضة العربية وقائد العقل العربي وباني الحضارةالعربية الحديثة واب للوطنية الخ...[1] وجمال الدين الافغاني الذي تحوم حوله الشبهات في كل شيء، سواء في نسبه او انتماءاته او اهدافه، والذي انتمى للماسونية وعمل على نشرها وسيادتها والذي دخل مصر وهي مستقلة ونشر فيها الماسونية والتحزب والتفرق ولم يخرج منها الا وهي على ابواب الاحتلال والاستعمار. وقبلها دخل افغانستان، وهو في العشرين من عمره، وهي مستقلة وشارك في الصراع على السلطة فيها، ولم يخرج منها الا بعد ان سيطر عليها الانكليز من خلال الحاكم الموالي لهم، ورغم اندحار رفاق الافغاني وهروبهم من افغانستان الا ان الافغاني لم يخرج منها الا بعد فترة من الزمن، وخرج مختارا ليذهب الى مصر ويعمل عمله فيها الذي ادى الى احتلالها. وفي سلوكه ودعوته الكثير من التناقض واللامعقول واللامقبول، صار في نظر كتاب سيرته (عملاقا بلغ الذروة في مجال القومية ووصل الى قمة المفكرين القوميين)[2] وصار بطل الاستقلال والمحرر من الاستعباد[3] مما يجعل المرء يتساءل: اين هي الجامعة القومية العربية لتشهد على عبقريته واين هو استقلال البلاد العربية والاسلامية على زمانه او بعده قليلا ليشهد على بطولته في الاستقلال والتحرر خاصة وانه يدخل

---

(١) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الطهطاوي جـ١ ص٩

(٢) محمد عمارة: الاعمال الكاملة، الافغاني، جـ١ ص٩٥

(٣) طهارى محمد: مفهوم الاصلاح الديني بين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده

البلاد وهي مستقلة ولا يخرج منها الا وهي محتلة؟!!

ومحمد عبده الذي ادرك الثلاثين من عمره ولم يستطع التخرج من الازهر ولم يدرك سوء (الحالة الداخلية في مصر) الا بعد اتصاله بالافغاني الذي نفخ فيه من روحه فمزق عن عقله حجب الاوهام! وعندها فقط وليس قبلها، انهى دراسته وادرك سوء حالة وطنه وامته!![1] وهو الذي لم يكن سوى آلة يحركها الافغاني كما يشاء وكما ذكر محمد عبده نفسه عندما قال في رسالة كتبها للافغاني: (... وما تحركت ولا تكلمت، ولا مضيت الى غاية ولا انثنيت عن غاية، حتى تطابق في عملي احكام ارواحك ومعي ثلاثة... ولست في ذلك الا آلة لتنفيذ الرأي المثلث ومالي من سوائي ارادة، حتى ينقلب الى مربعا)[2]. فقد صار في كتابات دعاته عبقري عباقرة الاصلاح الديني، وبديع الزمان ومبدد الاوهام، وليس هذا فقط بل هو (عظيم عظماء الوطنية في مصر وزعيم زعماء القومية العربية)[3] كما يصفه عيسى شحاتة وغيره من الباحثين رغم ان عبده نفسه في رسالة كتبها للافغاني يقر بانه خرج عن مصريته ونبت (نباتا حسنا غريبا لا يتغذى بغذاء تلك الارض ولا ينمو بهوائها)[4]!!

وهكذا استمر الحال وشمل كل الشرائح الفكرية، فهذا الشاعر الذي لا مبنى ولا معنى لشعره غير الشتم البذئ او الغزل الوضيع او الهجاء والمدح الرخيص، صار اشعر الشعراء واعقل العقلاء. وهذا الروائي الذي ينقل فكرة من هذا الادب الاوربي وفكرة من ذاك الادب الامريكي او الصيني او الهندي الخ... ويضعها في سياق قد يتجانس او لا يتجانس، بلغته العربية، يصبح كبير الادباء وعبقري الزمان والازمنة السابقة واللاحقة!! وهذا الصحفي الذي لا فكر له ولا درب وكل ما يكتبه بالامس

---

(١) جرجي زيدان: بناة النهضة ص٨٤-٨٥

(٢) علي شلش: الاعمال المجهولة للافغاني ص٤٧-٤٨

(٣) عيسى شحاتة: عظماء الوطنية

(٤) علي شلش: الاعمال المجهولة، محمد عبده ص٤٧-٤٨

ينقضه اليوم يصبح اعظم من كتب في الصحف الخ... وكذلك الموسيقي والممثل والممثلة والراقص والراقصة والمغني والمغنية الخ... الكل رواد وعباقرة وقمم في الفن والفكر والابداع والوطنية والقومية ولولاهم لا نبت زرع ولا ظهر فن ولا ادب!!!

هل يعلم هؤلاء المصفقون لمن هب ودب من غير تدقيق ولا حساب انهم بهذا يشوشون المفاهيم لدى الاجيال الصاعدة؟ ما هي الوطنية اذا كان من يتعاون مع الاحتلال ويسهل له مهمته هو زعيم للوطنية، بل عظيم عظماء الوطنية فمن هو الخائن اذاً؟ وما هي الخيانة واين حدودها؟ واذا كان من يعرى امته وينزع عنها ثوبها الذي فيه عزتها وكرامتها، ايا كان تواضعه، ليلبسها ثوب الذل والاحتلال والتبعية للاجنبي هو مفكر عبقري ومثال يحتذى بالوطنية والاخلاص والابداع فمن هو غير ذلك؟!! واذا كان الذي يشدد الخناق على امته ويضيق عليها مجالات اختيار مستقبلها، وطريق حياتها فاما ان تعيش الحياة كما تعاش في اوربا وامريكا او ان لا تعيش، فلا تأكل ما تريد ولا كيف تريد ولا تلبس ولا تتنفس ولا تتعلم الا ما يريده هو ومرجعيته الاجنبية، هو داعية الحرية والمتحرر وابو الاحرار فمن هو المستبد؟ وما هو الاستبداد؟ وهذا قليل جدا مما لم يذكر، ومما لا يتسع المجال لذكره، ومما شوش المفاهيم وحول المبادئ الى شعارات تسقط حال اداء مهمتها في خدمة اغراض الاحرار والمتحررين والثوار والثوريين الخ... الشخصية او الفئوية.

ثم هل علم هؤلاء النهضويون انهم ببناء هذه الاصنام من الرمل او الرماد والتي ما ان يقترب منها المرء ليلمسها ويتبارك بعطائها حتى تنهار وتتطاير فيصاب بالاحباط او الصدمة مما يجعله يفقد ايمانه بكل شيء فيسود الاحباط وتسود السلبية واللامبالاة؟ وانهم بهذا يحرمون الاجيال المقبلة من وجود قدوة حقيقية، غير مزيفة، يقتدون بها فيبدعون ابداعا حقيقيا؟ لان اقصى ما يحلم به ابناء الجيل الجديد هو الاقتداء بهذا المفكر او ذاك ليتعلموا من ابداعاته ويزيدوا عليها ان استطاعوا، فاين هي ابداعات هؤلاء وعلى أي من تشويشهم وتناقضاتهم سيزيدون؟ خاصة وانهم قد حصلوا على كل هذا الاعتراف وهذه الشهرة والاحترام من غير حق ولا جدارة كما

قال ابن قتيبة وذكر في صفحات سابقة. فلماذا يجهد ابناء الجيل الجديد انفسهم والطريق الى الاعتراف والاحترام والشهرة ميسر وسهل امامهم، وهو السير في ذات طريق المفكرين المشهورين هؤلاء؟!! وهكذا انتشر الكسل والتكاسل عن طلب البغية في الابداع والاختراع وصار الكل ينقل ولا شيء غير النقل.

ثم هل خطر ببالهم انهم ببناء الاصنام هذه يحرمون الاجيال المقبلة من وجود الاسس المتينة التي يمكن لهؤلاء المفكرين الجدد ان يبنوا عليها ليعلو البناء بالجهود التراكمية للاجيال المتعاقبة ليصبح البناء حضارة يعتزون بها او على الاقل يصبح نموذجا متفردا يفاخرون بصنعه؟ الم يقل الشاعر:

والبيت لا يبنى بلا عمد   ولا عماد لمن جهالهم سادوا

فأين هذه الاسس في هذا الكم الهائل من التشويش والتناقضات والافكار الهزيلة التي جاء بها المفكرون النهضويون ناقلين غير مبدعين؟!! وسادوا بها الساحة الفكرية والسياسية ايضا مما اشاع السطحية وقصر النظر والتفاهة في كل مجالات الحياة التي يمكن الابداع فيها، فانتشرت فوضى المفاهيم فمن هو الوطني ومن هو المخلص؟ ومن هو المبدع؟ ومن هو العبقري؟ ومن هو غير ذلك؟!!!

نشر الكسل والتواكل والاحباط

كانت المجتمعات العربية في عصور التخلف!! مجتمعات منتجة، الكل يعمل وينتج-عدا قلة ضئيلة من كبار الملاك- ففي الاساس كانت هذه المجتمعات هي مجتمعات ريفية تنتج كل ما تحتاجه وتحتاج اليه المدن الا القليل الذي يستورد من الخارج مقابل الكثير مما كان يصدر من المنتجات الزراعية والصناعية اليدوية، ولكن مع الانبهار بالغرب واستعارة نظمه وطرائق عيشه، والدعوة لقتل قابيل الصناعة لهابيل الزراعة التي كان يدعو اليها البعض وللاشتراكية والديمقراطية والتحرر من كل شيء!! تحررت هذه المجتمعات، فيما تحررت منه، من الانتاج! فالفلاحون في الارياف الذين كانوا ينتجون كل ما يسد حاجاتهم وحاجات المدن من

الحبوب واللحوم والالبان والاجبان الخ... صـــاروا ينتظـــرون اللحـــوم والحبـــوب المستوردة ليعيشوا. واصحاب المشاغل المختلفة والذين كانوا يسدون الكثـــير مـــن حاجات المواطنين بصناعاتهم المختلفة، صاروا سماسرة ووكلاء للصناعات الاجنبية المستوردة! والمرأة التي كانت تعمل في بيتها-سواء في الريف او في المدن- وتنتج كل ما تحتاج اليه الاسرة من المعجنات والمربيات والمخللات والمحفوظات الاخرى بالاضافة للخياطة وحياكة كل ما تحتاج اسرتها، صارت بفضل الدعوة الى تحررهـا من العمل المنزلي، الممل وغير المبدع!! وضرورة العمل خارجه من اجل التنميـــة وزيادة الانتاجية، تشترى كل ذلك من السوق على شكل اطعمة محفوظـــة وجـــاهزة ومستوردة في الغالب من الخارج، وملابس ومطرزات ولوازم اخرى ممـــا تحتـــاج اليه الاسرة جاهزة ومتسوردة في الغالب، وانشغلت هي في العمل المبدع! كموظفـــة خارج منزلها تقضي ربع وقتها في المواصلات والربع الآخر في التزين والتـــهيوء للذهاب للعمل-وحتى اثناءه- والربع الآخر في الدردشة والتشكي من المواصـــلات ومن سوء المواد الغذائية الجاهزة ومن عدم وجود من يعنـــى برضيعـــها او ابنـــها المريض او من الخادمة الامية الجاهلة!! ان وجدت او من غـــلاء اســـعار المـــواد الغذائية الجاهزة والملابس وادوات الزينة التي اصبحت بعد ان كانت من كماليـــات ربة البيت، من اللوازم الاساسية للمرأة العاملة خارج منزلها، اذ اصبحـــت المـــرأة اليوم بمسربلة بالزينة والملابس المزركشة والعطور الف الف مرة اكثر مـــن ربـــة البيت ايام زمان والتي انتقدها فكر النهضة على اعتبار انها جارية لا تعرف ســـوى السربلة بالزينة لارضاء زوجها!!! اما الربع الاخير من الوقت وان كانت الموظفـــة ملتزمة ونشيطة جدا جدا، فهي تصرفه في القيام باعباء وظيفتها والتـــي هـــي فـــي الغالب لا تتعدى الرد على ما يأتي للسيد رئيسها من مكالمات او طباعة كتاب مـــن عدة اسطر لسيادته او وضع بعض المعاملات في الحافظات المخصصـــة لـــها او ادخالها في الكمبيوتر ان وجد!! او تكون عاملة، مبدعة!! في متجر تنتظر الزبـــون الذي قد يأتي او لا يأتي.

هذا غير الدعوة للتعليم الجامعي بشكل خاص وجعل حملة مؤهلاته المختلفـــة

وبغض النظر عن حاجات المجتمع لها، وحدهم المثقفون الذين يستحقون الاحترام والامتيازات معا وبغض النظر ايضا عن انتاجيتهم وفائدتهم للمجتمع هذا التوجه جعل حمى التعليم الجامعي تسود المجتمع، وبعد ان كان النجار والحداد والخياط الخ... كل منهم يعلم ابناءه -وحتى ابناء جيرانه واصدقائه وغيرهم- صنعته ليعملوا بها فلا تموت هذه الصنعة بعده، ويذهب اسمه وما بذل من جهد في تأسيسها هباء، صار الكل يتجه للجامعات ويحلم بادخال ابنه الجامعة حتى وان باع نفسه وارضه وصنعته ذاتها!! وهذا التوجه مع تشجيع الاستيراد لكل ما هو مصنوع في الخارج قضى على الصناعات المختلفة التي للولا كل هذا، لنمت وتطورت بتسلم المتعلمين من الابناء لها وصارت مما تفخر به الامة. وهكذا تعطل الجميع ودب في نفوسهم الكسل والتواكل والاعتماد على الآخرين في كل شيء. وصارت التنمية والانتاجية وزيادتها مواضيع للندوات والمؤتمرات فقط لا غير.

هذا غير انهم بنزع الانتاجية عن الانسان نزعوا عنه آدميته. لأن الانسان خلق منتجا وزود بكل الآلات التي تمكنه من ذلك، مثل العقل والحواس المختلفة وشكل ومرونة اليدين، وامر باعمار الارض بهذا الانتاج، والدعوة الى المكننة واستخدام التكنولوجيا باسراف شديد، واشاعة التوجه نحو الاقطاعات الكبيرة في الزراعة بدل المزارع الصغيرة الخاصة والمصانع الكبيرة في الصناعة بدل المشاغل الخاصة، على اعتبار ان ذلك وحده هو الذي يمكن ان يزيد الانتاج ويبني الاقتصاد، مقتدين بالاقتصاد في الغرب، جعلوا من الانسان مجرد مسمار صغير لا قيمة له في عجلة الانتاج الكبيرة يمكن استبداله في أي وقت وبأي كان، وبهذا نزعوا عنه الشعور بالانجاز الذي من خلاله يحقق ذاته ويشعر بأهميته في الحياة، بعكس الفلاحين في المزارع الخاصة بهم، والصناع في ورشهم الخاصة بهم، والذين يعملون بأيديهم مما كان يجعلهم يفخرون بما يصنعون مما يحقق ذاتهم ويشعرهم بانسانيتهم. هذا من جهه، اما من جهه اخرى، فان الاستهانة بالعمل اليدوي وأصحابه واعلاء شأن العمل المكتبي والعاملين فيه جعل جهاز هذا القطاع يتضخم وتنتشر بين العاملين فيه ما يسمى بالبطالة المقنعة مما جعل هؤلاء ايضا يفتقرون الى الشعور بالانجاز

وتحقيق الذات لان كل واحد منهم لا يعدو ان يكون مسماراً صغيراً في الة الروتين الوظيفي، وهذا ما جعل الكل محبط وغير راضٍ عن نفسه ولا عن حياته فينعكس الاحباط وعدم الرضى هذا على سلوكه اهمالاً في العمل او تذمراً من كل ما حوله بسبب او من غير سبب. فالموظف الذي يطلب ممن يراجعه ان ياتي بعد اسبوع او حتى شهر من اجل عمل يمكن انجازه في ساعات هو في الحقيقة نوع من اثبات الذات واشعار الاخرين بأهميته واهمية العمل الذي يقوم به!! لانه في داخله يفتقر الى هذا الشعور. ومن هنا تأتي محاولة الفرد ان يجد له مكانا اخر يثبت لنفسه قبل غيره، اهميته فاما ان يتجه الى جمع المال وتكديسه وباي شكل كان وبغض النظر عن أي ثمن معنوي يدفعه من اجل جمعه، او يتجه الى المغامرات الشخصية كارتياد اماكن اللهو والمسكرات والمخدرات الخ... او المغامرات السياسية كالعمل بالاحزاب السرية والتجمعات المشبوهة او حتى العمل في العصابات الاجرامية. وهذا هو عين ما حدث في دول الغرب وبدأ يحدث عندنا منذ ان شاع اتباع اساليب هذه الدول في السياسة والاقتصاد واسلوب الحياة. فان كان اليوم قد انتشرت المقاهي والاركيلة واماكن اللهو البرئ فغدا ستنتشر المخدرات وعصابات الاجرام واماكن اللهو الرخيص، ان لم تكن قد بدأت فعلا بالانتشار!!

انتشار الهدر والاسراف في المال العام والخاص

ان الدعوة للعيش كما تعاش الحياة في اوربا وامريكا من جهه والدعوة المبالغ فيها لاستخدام كل ما يستحدث من اجهزة وتقنيات حديثة في هذه الدول، باعتبارها دليل التقدم والمدنية، بغض النظر عن اهميتها ومدى ضرورتها ومن غير البحث والمناقشة لايجابياتها وسلبياتها وما يمكن ان يؤدي اليه استخدامها من اضرار اجتماعية او صحية، شجع على الاسراف والهدر للاموال الخاصة والعامة، فانبهارهم، مثلا، بما هو موجود في الدول الاجنبية من صروح اعتبروها حضارية! توجهت الحكومات المختلفة والشركات الخاصة ان وجدت، لبناء مثل هذه الصروح

التي لا ضرورة لها كالابراج ودور الاوبرا وفرق الباليه والاوركسترا الخ... مع ان بعض هذه الدول تستجدي الرغيف لاطعام شعبها الذي يتفشى فيه الفقر وتتفشى فيه البطالة والامراض المختلفة، فتهدر الملايين التي كان من الممكن ان تبني بها مشاريع انتاجية تفيد المجتمع. والشواهد على الاسراف والهدر للمال العام لا يمكن حصره وواضح لكل ذي بصيرة. اما على مستوى الافراد فالاسراف والهدر نتيجة هذه الدعوات اعلاه فلا حدود لها من حمى الكمبيوترات الى الاطباق اللاقطة الى الهواتف الخلوية والانترنت الى اجهزة التلفزة والهواتف الخ... والتي صارت عند البعض جزءاً من اثاث كل غرفة في المنزل. هذا غير السيارات التي صارت ليس لكل فرد كوسيلة نقل فقط بل مظهراً للزينة والتفاخر!! هذا وغيره الكثير مما لا مجال لحصره اهدر المال العام والخاص ونشر الاسراف في جميع مجالات الحياة، فالكل يسعى من خلال الاسراف هذا لا ليثبت ذاته المهدورة فقط بل ليعيش حياة اباطرة المال والصناعة في الدول المتقدمة الصناعية!! وليس كعامة الناس فيها. ومن لا تساعده الظروف للعيش كهؤلاء والاسراف مثلهم، يصاب بالاحباط الذي قد يجره الى الاجرام كوسيلة لتحقيق طموحاته هذه او قد ينسحب من الحياة حاقدا ينفث حقده في كل مكان من حوله.

وبهذا الفكر المتسم بهذه السمات ضيّع النهضويون مئة وخمسين عاماً من عمر الامة وحولوا النهضة التي ارادتها الى نكبة تحتاج الى مئة وخمسين عاماً اخرى على الاقل، ان صحت العزائم، لاصلاح ما هدموه من قيم ومؤسسات وخلق وما احدثوه من خراب للانسان ولبيئته ولاوطانه. وهو ما كان يمكن لهم ان يتجنبوه:

لو أنهم فكروا وتعقلوا أكثر مما انبهروا

لو أنهم أبدعوا أكثر مما قلدوا واتبعوا

لو أنهم تعاملوا مع أمتهم وتراثها بعشر الواقعية التي تعاملوا بها !!! مع الاحتلال

والاستعمار والتبعية.

لو أنهم تقبلوا من عطاء أمتهم وتراثها الايجابي، وشكروها عليه عُشر ما تقبلوه مما تصدق به عليهم الاجنبي وعبدوه لاجله.

لو صرفوا من وقتهم وجهدهم في توجيه أبناء أمتهم وإرشادهم إلى ما ينفعهم ويزيد إنتاجيتهم ويؤكد إنسانيتهم ويحفظ لهم كرامتهم وصحتهم عشر الوقت والجهد الذي صرفوه في نفض رؤوسهم مما فيها، وتحريضهم على بعضهم البعض وإثارة الأحقاد والإحن بينهم، ونشر العنف والإرهاب بين مختلف فئات الامة.

لو أنهم إحترموا أنفسهم وأمتهم ومؤسساتها عُشر الاحترام الذي منحوه للأجنبي وللإحتلال وللإستعمار ومؤسساته.

لو أنهم كرسوا خطبهم الرنانة وأشعارهم الطنانة لتعليم أبناء الأمة بواجباتهم تجاه امتهم ووطنهم بدل تكريسها للشعارات الساقطة والأفكار الهابطة من اللامعقول او اللامقبول مما استوردوه من اجل التحريض الحاقد او التخريب لقيم الامة ومؤسساتها .

لو أنهم بنوا من القيم والمؤسسات الإيجابية عُشر ما هدموا منها.

لو أنهم صرفوا من جهدهم في صنع التكنولوجيا الفكرية والآلية عُشر جهدهم في الإنبهار بها والدعوة لاستخدامها.

لو أنهم انتجوا بدل الإكتفاء بالكلام عن زيادة انتاجية الآخرين.

لو أنهم وضعوا مصالح أمتهم على قدم المساواة مع مصالحهم الشخصية. ولا نقول قبلها.

لو أنهم أفادوا أمتهم بعُشر ما استفادوا منها.

لو أنهم، كأفراد او أحزاب او تجمعات، فعلوا هذا وغيره، لما حدث كل هذا الذي

تشكو منه الأمة اليوم.

ولكن لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، وانا لله وانا اليه راجعون.



الخاتمة

وختاما اعود فاتساءل مرة اخرى، اين النهضة العربية التي يدّعون؟! اين النهضة العربية والانسان العربي اليوم يعاني من خبرة الفشل والاحباط في جميع المجالات ونواحي الحياة؟ اذ هو كما يقول هشام الشرابي يعاني (خبرة الفشل والحبوط في المجال السياسي، في التنمية الاقتصادية، في التغيير الاجتماعي، في النشاط الدبلوماسي، في المجابهة العسكرية، وفي الحياة الانسانية الكريمة)[١]؟ واين هي النهضة العربية ان كانت اليد العربية كما يرى النهضويون انفسهم (مغلولة والعزيمة مثلومة والارادة مشلولة وردود الافعال باهتة وعاجزة حتى على صعيد الاوتار الصوتية التي كانت فيما مضى تمارس سياسة-اضعف الايمان- حين تجأر بالشكوى وتجهر بالشجب والاستنكار)[٢]. اين النهضة العربية ان كنا كأمة عربية غير موجودين اصلا كما يقول المهدي المنجرة في احدى لقاءاته. اذ هو بعد ان يتطرق الى بعض المشكلات السياسية والاقتصادية والتي تعود الى وجود نخبة قلدت الغرب (بطريقة عمياء احيانا من غير فهم حقيقي للحضارة الغربية في عمقها) ومن غير دراسة عميقة لها وهو امر لو تم في نظره (لوصلت هذه النخبة الى استحالة استنساخها وتطبيقها في الوطن العربي) يقول اننا (غير موجودين، فالوطن العربي له وجود تاريخي وروحاني وجغرافي ولكنه في الواقع العوبة، ليس بين يدى القوى الكبرى ولكنه بالدرجة الاولى العوبة بين يدي نفسه... نحن في الوطن العربي مستهلكون اكثر منا منتجين ونستهلك ما لا ننتج وننتج ما لا نستهلك)[٣].

---

(١) انظر العقد العربي القادم: المستقبلات البديلة، ندوة عقدها مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون في واشنطن ص١١

(٢) مقالة فهد الريماوي: جريدة الرأي الاردنية السبت ٧/١٠/١٩٨٩

(٣) المنتدى، السنة الاولى العدد الثاني عشر ايلول/ سبتمبر ١٩٨٦

اين النهضة العربية وحال الامة العربية من التخلف ما جعل محمد عزيز الحبابي يقول: (اننا لسنا شعوبا في طريق النمو بل شعوبا في طريق التخلف) واننا لسنا في صحوة بل (اننا من المحيط الى الخليج في حالة شخير)[1] وهو الحال الذي جعل مالك بن نبي يقول: ان الحلبة السياسية الاسلامية قد حققت فعلا معجزات ولكنها (معجزات من المسخ)[2]!

لقد توجهت لدراسة ما استطعت من كتابات النهضويين وخاصة الاوائل منهم وكلي امل ان اجد الحكمة والعبرة في كتاباتهم لا تعلم منها واقتدى بها. ولكن ما ان تعرفت عليها حتى خاب املي وشعرت باني مغرر بي من قبل هؤلاء الذين تولوا التوجيه والتعليم في بلادنا، من ادباء وكتاب ومعلمين ومؤرخين ووسائل اعلام الخ... وكل الذين استهانوا بعقول العامة من امثالي فجعلوا من البسطاء والسذج علماء وحكماء وعمالقة للفكر، ومن المتواطئين مع الدولة الاجنبية لتحقيق مصالح خاصة في غالب الاحوال، او لتحقيق مصالح طائفية او فيئوية محدودة، ابطال للقومية والتحرر والاستقلال، يجب علينا ان ندين لهم بالولاء بدل ادانتهم لانشغالهم بتحقيق طموحاتهم واهدافهم الخاصة والتي تساعدهم على الانتقال من طبقة ادنى (المحرومين) الى طبقة اعلى (المحظوظين او المتنفذين) كما مر ذكره، واهمالهم المشكلات الحقيقية للامة. وبدلا من شجب مواقفهم التي فيها فرطوا بالكثير من مصالح الامة الاساسية في سبيل تحقيق مصالحهم. اذ استولى عليهم كما يذكر مالك بن نبي (حب الظهور في المراتب السياسية بحيث اهملت المشكلات الرئيسية التي يواجهها العالم الاسلامي اليوم)[3] وكأنهم قد (تحالفوا مع الاستعمار من اجل ابقاء الامور على ما هي عليه في باطنها، بعد مسحها وتزويقها من الخارج، بحيث تبقى

---

(1) المنتدى العدد ٤٣ المجلد الرابع نيسان /ابريل ١٩٨٩

(2) مالك بن نبي: الطالب ص٤٣

(3) ذات المصدر ص٤٣

تحت تصرفه كل ترهاتنا، وكل انحرافاتنا الخلقية وكل ثغراتنا العقلية...)[1].

لقد توجهت الى قراءة كتاباتهم لاجد تفسيرا لما نحن فيه مما لا يتفق مع أي مفهوم للنهضة التي يدعون، ولا جد تحديدا للمشكلات وللحلول التي تناسبها. ولكن بدلا من ان اجد الحلول وجدت العلل. اذ وجدت انهم كانوا العلة المزمنة التي ابتلت بها الامة منذ اكثر من قرن والتي لا تزال تعاني منها، وادت الى ان يصير حالها الى ما صار عليه اليوم من ضعف وتشتت وتبعية، حتى صار النهضويون انفسهم يستهينون بها-الامة- ويتطاولون عليها ويتهمونها بالعجز وبانها (امة فقدت اراداتها وتحولت الى قطيع يهش عليه بالعصا)[2] او يسمونها بالبلادة كما فعل سعد الدين ابراهيم عندما قال (ان الامة العربية قد تبلدت قدرتها على الاحساس بالمخاطر الخارجية التي تحيط بها...) وقال ان هناك مؤشرات وسوابق على هذه (البلادة في الماضي القريب) والجديد والمؤلم... ليس هو ظاهرة البلادة وانما الدرجة التي وصلت اليها، والتي تعتبر رقما قياسيا جديدا في انعدام الاحساس بالخطر)[3] وكأنهم براء من كل ما تعاني الامة وكأن ما يصفونها به نزل عليها من السماء ولم يكن هو انعكاسا لسلوكهم وفكرهم وتعاملهم مع الافكار والدعوات والشعارات الوافدة من الخارج، كما هو نتيجة لسوء توجيههم وارشادهم وقيادتهم لها. فمن المعروف قديما وحديثا، ان من يحس بالمخاطر التي ستواجه الامة اولا وينبه اليها هم الصفوة وقادة الفكر، ومن يرسم الاهداف للامة ويحدد مساراتها، هم ايضا الصفوة وقادة الفكر هؤلاء، فتعلو الامم او تنحط نسبة الى قدرة هؤلاء القادة او عجزهم، فلماذا يسقطون على الامة كل عجزهم ويحملونها ما هو مسؤوليتهم؟.

فمن كتاباتهم تبين انهم العلة التي جعلت النهضة العربية تصبح اسما على غير

---

(١) ذات المصدر ص٨٩

(٢) عن جريدة الرأي الاردنية ١٩٩٠/٨/٥

(٣) عن جريدة الرأي الاردنية ١٩٨٩/٩/٢٤

مسمى، بل صارت النهضة نكبة للامة العربية. وكيف لا تكون نكبة ان كان اولها ابتدأ في نظر النهضويين مع غزو نابليون للاراضي العربية واذلاله للامة والاتفاق مع اليهود على ان يبيع لهم فلسطين مقابل تمويل حملته (وعلى ان يكون تسليم الصفقة بعد ان تضع الحرب اوزارها)[1] وهو الاتفاق الذي نفذته الماسونية والصهيونية (من خلال الاسرة العلوية)[2] ومن خلال النهضويين الثوريين العرب بعد ذلك. وكيف لا تكون نكبة ان كان يتوسطها تحالف بعض العرب مع الدول الاجنبية الطامعة وعقد الصفقات معها ليتآمروا جميعا على الامة بارضها ودينها وعقائدها وكل مقومات شخصيتها؟ اما منتهاها فهو ما هي فيه اليوم من تخاذل وتبعية وما تسعى اليه من اللحاق بالركب المشئوم؟! كيف لا تكون نكبة ومفكروها الذين يتولون امر قيادتها هم انفسهم منقادون ويهرولون وراء ركب للاجانب لا يعرفون وجهته، لعله يرضى بان يقيدهم الى عجلاته من اجل خدمة الركب وتوفير الراحة لركابه!!؟ وما حفزني على وضع ما وجدت على الورق الا الاشفاق على غيري من إن يخوض تجربتي مع كتابات النهضويين والتي لن تؤدي بهم الا الى واحد من اثنين: اما الانسياق وراءهم مما لا يؤدي الا الى استمرار اغلاق العقل والتفكر، وتكرار الافكار واستمرار التصفيق لها والسير وراء الركب! والى الابد من دون اية جدوى، واما الاحباط والسلبية والتي قد يعبر عنها الكثيرون بطرق مختلفة، ولكن كلها تتسم بالتطرف، فاما الانغماس في ملاذ الحياة ووسائل الترف والتسيب بجميع اشكاله واما الانكماش على الذات والاشفاق عليها والانعزال عن الحياة وما يدور فيها من فساد وافساد. فان وجد البعض في هذا الكتاب استصغارا لشأن النهضة التي يدعون، فلا يعود ذلك للرجعية والتخلف التي تعود النهضويون ان يصفوا بها كل من يخالفهم الرأي، ولكن ذلك لاني اريدها نهضة حقيقية تجعل للامة ركبها الذي تفخر به وتزهو به على العالمين، حتى وان كان متواضعا وصغيرا على

---

(١) ابو اسلام احمد: الماسونية في المنطقة ٢٤٥ ص٣٣

(٢) محمد الزعبي: الماسونية منشئة اسرائيل ص١٠٨

قدر حالها وحاجاتها وامكاناتها. واريد ان تكون لها حضارتها التـــي تبنـــى علـــى عقائدها ومثلها وكل مقوماتها والتي تربط حاضرها بماضيها وبمستقبلها وبكـــل مـــا ترتائيه لنفسها مما يحقق آمالها وطموحاتها ويجعلها تشارك في المسيرة الانسانية من غير ان تكون عالة على حضارة الآخرين بأمل مشاركة وهمية مستحيلة لا تتحقـــق ابدا، وما وجدت فكرتها اصلا الا لتضليل الامة وتكريس تبعيتها للآخرين.

وان وجد في محتوى الكتاب ما قد يراه البعض هدما فـــهو هـــدم مـــن اجـــل الاعمار، هدم للاوهام والاصنام من اجل بناءالحقائق والمثل السماوية العليـــا، هـــدم لشعارات باطلة بنت عمائر الاسمنت وهدمت الانسان، وسعت المـــدن والعواصـــم وقلصت الضمائر والذمم والاخلاق وشوهتها. ان بناء عمائر الاسمنت لا يســـتغرق الا بضعة اشهر او حتى بضعة سنين ولكن كم جيل يتطلب بناء الانسان الذي هـــدم واعادة بناء الضمائر والذمم والاخلاق التي انهارت؟ وهو هدم بعد ذلـــك للرمـــوز الزائفة والاوثان التي شيدت من الرمال، تغر الناظر اليها من بعيـــد ولكـــن مـــا ان يقترب منها المرء ويلمسها حتى تتهاوى وينكشف زيفها وتتحول الـــى كومـــة مـــن الرمال لا خير فيها ولا نفع. فهو هدم للرموز هذه ورفع الحصار الذي فرض وباسم الحرية والموضوعية والديمقراطية الخ... على اذهان الاجيال المتعاقبة لتســـتطيع الخروج من المتاهات التي وضعوها فيها لتعمل فكرها في فحص وتحليل ما يعرض عليها من الافكار والشعارات بموضوعية وعقلانية حقيقية بعيدا عن ارهاب الاوثـــان هذه وخدمها وكهانها هؤلاء!

وان وجد فيه ما قد يفسره البعض بانه تمرد، فهو تمرد ليس على الواقع بكل ما فيه من سلبيات فقط وانما يمتد الى ابعد من ذلك الى الفكر العاجز المستورد الـــذي هو وراء هذه السلبيات، وعلى المفكرين الذين ساهموا في نشره واعتماده من غـــير تدقيق ولا تمحيص له ولا لمقومات الامة. فهو تمرد على النزعـــة الماديـــة التـــي صورت النهضة تصورا ماديا كميا يتمثل بعدد الســـيارات او ارتفـــاع البنايـــات او عرض الجسور الخ... والتي ترجع الى انبهار الطهطاوي والتونسي بـــهذه التوافـــه ومن بعدهم انبهار الافغاني الذي تصور النهضة الاسلامية (تصورا شيئيا او كميا...

مما جعل بعض الشعوب الاسلامية تدخل الآن في عالم الاشياء و التهافت على منتجات الحضارة الغربية وتكديسها ولم تدخل... في عالم الافكار مما ادى الى ان تكون النهضة كمية لا كيفية)[1]. وهو التصور الذي ادى الى الاهتمام بمظهر الحضارة الوافدة والتعامل معها بسطحية معيبة والاسراف في استخدام منتجاتها المادية بالاضافة الى ذلك الجانب من الافكار السائبة التي عجزت عن اثبات وجودها في ديارها قبل ديارنا.

انه تمرد على جهل المفكرين النهضويين وسطحيتهم ولا عقلانيتهم والتي جعلت فهمي جدعان يقول: (لا شك ان المفكرين المسلمين الذين سقطوا سقوطا كاملا في احضان المنظومة الليبرالية العلمانية-التغريبية- قد كانوا يفتقرون الى قوة في النفوس ونفاذ في الرؤية وبعد في النظر وحس نقدي على درجة عالية من التوازن...)[2] فهم لم يتمكنوا من رؤية حقيقة الدول الكبرى التي تبنوا الدعوة الى اتباعها وقبول فكرها وحضارتها والاعتماد عليها في حل مشكلاتهم كما راءها بعض من الاوربيين انفسهم مثل بعض المستشرقين ومثل رسل الذي قال: (ان التنافس بين الدول الكبرى يستهدف السلطان، والثراء والسيطرة على معتقدات الناس... بل يستهدف الحياة نفسها...)[3] لان تلك هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق النصر الحاسم. وانما اغتروا بما اطلعوا عليه من افكار نظرية مشتتة وصاروا يقولون وهم المجددون! ما قاله الاوائل المنبهرون بالحضارة الرومانية والاغريقية قبل اكثر من الف عام وهو ان (الدين حظ الكثرة والعلم حظ القلة، فسواد الناس مؤمن ديان مهما يختلف العصر والطور والمكان...)[4] كما ذكر طه حسين وكرر غيره جاعلين

---

(١) طهاري محمد: مفهوم الاصلاح... ص٧٤

(٢) فهمي جدعان: اسس التقدم

(٣) برتراند رسل: السلطان

(٤) غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر ص١٩٨

انفسهم من هذه القلة العالمة! مع انهم جهلوا قبل كل شيء امتهم وعلومها وماضيها وما تريد لنفسها كما جهلوا العلوم الحقيقية واهدافها واهداف الدول الاوربية من نشر فكرها وعلومها بواسطتهم وعلى لسانهم!! فتنكروا لدين امتهم وتراثها وكل ما يكون شخصيتها وانساقوا وراء حضارة الدول الاجنبية الطامعة، فصاروا كما يقول حسين هيكل (رسل الحضارة الغربية الداعين اليها.. ظنا منهم أن ذلك هو السبيل الى نهضتها)[1]. وان كان البعض قد تنبه بعد الحرب العالمية الاولى وادرك ان كل ما بذلت الشعوب العربية من تضحيات لم يكن الا في سبيل الاستعمار وتحقيق أهدافه ومصالحه بكل اشكالها على حساب مصالح الامة فعاد الى رشده مثل الدكتور هيكل نفسه، الا ان الغالبية لم تعتبر بذلك بل استمرت في تواطئها مع هذه الدول في تضليل الأمة ودعوتها الى اتباع الحضارة الأوربية والعيش كما تعاش الحياة فيها مثل طه حسين ولطفي السيد وغيرهم حتى هذا أليوم. فالتيار التغريبي الذي بدأه الطهطاوي وخيري الدين التونسي والذي كان ينادي بمحاربة اوربا بسلاحها والذي جعل الاخير (ينادي بتجديد حياة الامة بالحرية والدستور والحياة النيابية والاخذ الى حد كبير بالنمط الليبرالي الاوربي والفرنسي بالذات كسبيل لنهضة الامة وحتى تستطيع مواجهة الزحف الاستعماري والافلات من الاحتلال...)[2] لا يزال هو التيار السائد اليوم على الساحة العربية رغم انه لم يمكّن الامة من مواجهة الزحف الاستعماري ولا من الافلات من الاحتلال بل على العكس فقد ادى الى عجزها عن مواجهة هذا الزحف وسهّل لدول الاستعمار احتلال اراضيها واذلالها في موطنها وبمساهمة ابنائها ايضاً!!! اذ كان الملك فيصل الاول (ملك العراق) قد ذكر في مؤتمر الصلح الذي انعقد في باريس في شباط عام ١٩١٩ ان الامة العربية خسرت ٢٠ الف قتيل في حربها الى جانب الحلفاء ضد الدولة العثمانية.[3] ومع ذلك ورغم

---

(١) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص١٦٣ جـ ٢

(٢) محمد عمارة: التراث في ضوء العقل ص٢٥٧

(٣) عباس عطية جبار: العراق والقضية الفلسطينية ص٣٤

ان هذا التيار التغريبي ادى الى هذا العجز والتبعية التي نراها اليوم حولنا والتي جعلت من الاستقلال استقلالا زائفا وسقيما الا ان المفكرين النهضويين لا يزالون على ذات درب التونسي والطهطاوي والكواكبي والافغاني الخ... يسيرون ومهما اختلفوا فيما بينهم فانهم لا يختلفون الا على كيفية التبعية ولاي من نماذج الفكر الغربي يجب ان تكون !!

فان كانت الامة تريد تحررا حقيقيا فلتتحرر قبل كل شيء من فكر الحضارة الغربية بكل ما فيه من قيم وشعارات زائفة ساقطة لم تستطع اثبات جدواها في موطنها الذي نمت فيه ووجدت من اجل حل مشكلاته، فيكف ستحل مشكلاتنا؟ ولتتحرر من الشعور بالنقص و الشعور بالدونية امام الحضارة الغربية وهو الشعور الذي اقامه مفكروا النهضة الاوائل منهم والاوآخر وبنوه لبنة بعد اخرى بما ادعوا وما افتروا به على حضارة الامة وبما امتدحوا من زيف الحضارة الاجنبية.

وان كانت الامة تريد الاستقلال، فالاستقلال لا يكون الا باكتفائها وفي كل شيء، في مأكلها وملبسها ووسائل عيشها وترفيهها الخ... وقبل كل شيء في فكرها ليكون لها فكرها المستقل الذي تؤمن به وتعمل وفقه وتعتز به وتدافع عنه في مواجهة الافكار الوافدة اجمع. وليكن لها ثقافتها المستقلة التي تعتز بها وحضارتها الخاصة بها والتي تساهم بها في المسيرة الانسانية ولا تضل شيئا مسلوب الارادة يهرول وراء ركب اجنبي لا تعرف وجهته الحقيقة!

وان ارادت الامة ان تنهض نهضة حقيقية فيجب ان تعلم قبل كل شيء انه من المستحيل (الدخول في عصر نهضة وتنوير حقيقيتين ما لم يدحض فكر عصر النهضة الاوربي باعتباره وثنيا عنصريا استبداديا، وابعد ما يكون عن الموضوعية والعلمية على الرغم من محاولاته الاختباء وراء كلمات كبيرة مثل العقل والعلم والحرية والديمقراطية)[1] الخ... وذلك لان (النهضة التي وصل اليها الغرب هي في

---

(1) منير شفيق: الاسلام في معركة الحضارة

الحقيقة نهضة مدمرة، تهدد العالم كله بالفناء وتتركه قبل الفناء يعيش في خوف ووجل، متوقعا الخراب والدمار، وبعبارة اخرى يعيش يترقب الفناء...)[1] وذلك لان هذه النهضة العلمية بنيت على نظام اقتصادي بحت بعيدا عن كل القيم السماوية فاباحت (للانسان ان يقتل اخاه الانسان ليحصل على ما في يده من طعام وكساء، ولم يدخلها عنصر الاخلاق ولا عنصر الايمان. ومن هنا فهي سراب يضيء ولكنه ضوء خدّاع...)[2].

وعلى الامة ايضا ومن اجل ان تنهض نهضة حقيقية ان تتخلص من وهم النهضة-او النهضة الوهم- ذلك الوهم الذي قادها اليه النهضويون من ابنائها والذي جعلها تعتقد انها تعيش عصر نهضة وتنوير وانها تسهم في بناء الحضارة المعاصرة بما تقتبسه من افكار وبما تقلده من وسائل العيش وطرائقه من اصحاب هذه الحضارة، وكلما زادت تبعيتها للغرب وتماثلت طرق ووسائل عيشها مع تلك التي في الغرب كلما كانت نهضتها اكبر واكثر رسوخا!! ولتعلم ان نهضتها الحقيقية يجب ان تنبثق من ذاتها واصالتها وقيمها الروحية والاجتماعية والتي يجب ان تكون هي الاساس لبناء انظمتها الفكرية والاجتماعية المختلفة، السياسية والاقتصادية والتربوية وان تبني من هذه القيم نظاما قيميا يكون لها المعيار الذي تتطور من خلاله وتدخل العصر الحديث بواسطته وليس بما تستورد من قيم متناقضة ومتساقطة وفكر متناقض مع ذاته ومع الذوات الاخرى. وبهذا النظام القيمي تؤكد الامة شخصيتها وتحتفظ بحضارتها المميزة فلا تتلاشى وتذوب في بحر ظلمات التغريب ولا تتحول الى مجموعة من دمى يحركها من يشاء وكيف يشاء في سركس العالم الكبير. ولا الى مهرجين يقلدون من هب ودب. وبهذا النظام القيمي الواحد والخاص بها تتوحد اشتاتها مهما بعدت المسافات واختلفت الانظمة والمؤسسات. فالوحدة هي وحدة فكر ومنطلقات وليست وحدة انظمة ودويلات-على اهميتها-

---

(١) محمد شلبي: مقارنة الاديان، الاسلام الطبعة الثالثة ص١٢٨

(٢) ذات المصدر

فعندما إستغاثت امرأة من فلسطين بالمعتصم لم تكن الامة دولة واحدة بل دويـــلات ولكن الكل لبى النداء انطلاقا من فكر واحد ومصير واحد وهدف واحد وهو حمايـــة هذا الفكر-العقيدة- من الاخطار فالفكر هو الذي يجمع وليس المكان فقد يشعر المرء بالغربة وهو في بلده ويشعر بالوحشة وهو بين اهله ان كان يختلف معهم في الفكـــر والعقيدة. ومتى كان للامة ذلك النظام القيمي العقائدي الاصيل النـــابع مـــن ذاتـــها وعقيدتها استطاعت ان تقول انها بدأت النهوض لبناء حضارتها التي ستساهم فيـــها بمسيرة الحضارة الانسانية.

وخلاصة القول، فإن الكتاب اذ يبين عجز ما سمي بالنهضة العربية لا ينفـــي وجود السلبيات في عصر ما قبل هذه النهضة الوهمية فقد كان لذلك العصر ســلبياته الكثيرة وايجابياته الاكثر والنهضة من اجل خير ورفاه الامة لا يتم بالقضـــاء علـــى هذه الايجابيات والتي كان على رأسها ما كانت تتمتع به من امن غذائي وامن فكري واعتماد الذات وقلة الحاجات وبعد عن الاسراف وحرص على العلاقات الانســـانية الخ... والابقاء على كل السلبيات واستيراد كل سلبيات الحضارة الاجنبية واضافتـــها الى هذه السلبيات كما فعل دعاة النهضة العربية على الطريقة الغربية، ولذلك فـــان الكتاب هذا، اذ يبين عجز ما سمي بالنهضة العربية يدعـــو الـــى احـــداث التغيـــير وتصحيح مسار الامة التي اضلها قادة الفكر-والسياسة- منـــها فضلـــت الطريـــق، واليوم هي في امس الحاجة الى من يقودها على الصراط المستقيم ويصحــــح لـــها مسارها. والتصحيح هذا لا يمكن ان يحدث كما ارى الا باخراجها من دوامة التبعية للحضارة الاجنبية واصحابها، لتبني لنفسها حضارتها التي تتسق ومقوماتها، وهـــو امر لا يمكن ان يحدث بعيدا عن اصحاب السلطة فيها.

المسؤول عن التصحيح

فقد عمل مفكرو النهضة على نشر الفكر الغربي وازالة العقبات التي يمكـــن ان تقف في سبيل اقتباسه واتباعه واوجدوا لهم بعض المؤيدين من ابناء الامة ومـــهدوا للاحتلال الاجنبي بما نشروه من هذا الفكر وسهلوا مهمة الاحتلال في حكم البـــلاد بعد ذلك ولكن التغريب الحقيقي لم يحدث الا بعد الاحتلال وبدعم سلطاته اذ (كـــانت

السلطة الاستعمارية تستخدم قوتها وهيمنتها) من اجل ذلك كما يذكر منير شفيق فالسلطة كانت (لها اليد العليا... على الكتب والصحف والمجلات واجهزة الاعلام، والمدرسة والجامعة وهي التي تقرر المعايير الثقافية في انتقاء موظفي الدولة والشركات والمؤسسات، او في وضع اصول المعاملات وقد انحازت في هذه كلها لمصلحة النمط التحديثي الغربي فاصبح الاسلام غريبا مضطهدا مهملا مقموعا في وطنه وكان حاله حال جماهير الشعب...)[1] ولذلك ارى انه قد آن الاوان اليوم ان تعمل الحكومات العربية ان هي ارادت الاستقلال فعلا على ان تثبت للعالم استقلالها فترفض هذه التبعية التي فرضها عليها الاحتلال والتي لم تجلب للامة الا الخراب، وتتبنى سياسة هي عكس ذلك تماما، سياسة تهدف الى ابعد من اللحاق بركب اجنبي، بل تهدف الى بناء ركب جديد للامة وبناء حضارة متفردة تقوم على دينها وتراثها وعقائدها وتقاليدها وكل ما يكّون شخصيتها كأمة عربية عاملة برسالات ربها بدلا من ان تذوب وتتلاشى في حضارة غريبة عنها ان انقضت هذه الحضارة وزالت، كما هي سنة الحياة وسنن الحضارات زالت الامة العربية معها ولم يبقى لديها الا القليل-ان بقي- مما يدل علي وجودها. فان كانت الحضارة الرومانية وقبلها الاغريقية قد تركتا بعضاً من فكرهما وفلسفاتهما فالعرب اليوم لا لهم فكر ولا فلسفة خاصة بهم يخلدون بهما. وان ترك الرومان والاغريق بعض من الآثار هنا وهناك مما يدل عليهما، فان العرب اليوم سوف لن يتركوا مثل هذه الآثار لانها مصنوعة على الطريقة الاوربية التقدمية!! الكونكريتية ذات العمر المحدود والذي لا يقاوم الزمن! هذا غير انها تعكس نمط الحياة الاجنبية وليس الحياة العربية! فخلودها هو خلود للحضارة الاجنبية!!

فمن اجل نهضة حقيقية وتقدم حقيقي واستقلال حقيقي وتحرر حقيقي وتعايش سلمي حقيقي مع العالم اجمع يقوم على التكافؤ ومعاملة الند للند وهو التعايش الذي لا يمكن ان يوجد في ظل علاقة التابع والمتبوع والسيد والعبد امسكت بالقلم وكتبت.

---

[1] منير شفيق: الاسلام في معركة الحضارة ص١٢٢

اللهم اشهد فقد بلغت وذكّرت.

قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز

(ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل اية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين)[1]

وقال ايضا:

(ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات اين ما تكونوا يأتي بكم الله جميعا ان الله على كل شيء قدير)[2]

صدق الله العظيم

---

(1) البقرة: ١٤٥

(2) البقرة: ١٤٨

المراجع

ان المراجع المذكورة ادناه هي التي وردت في الحواشي واسهمت بشكل مباشر بهذا العمل.

١- القرآن الكريم

٢- الانجيل، كتاب العهد الجديد/ دار الكتاب المقدس في العالم العربي

٣- ابراهيم النعمة: المسلمون امام تحديات الغزو الفكري

٤- الاجرى: ابي بكر بن الحسين بن عبدالله، اخلاق العلماء، القاهرة، المطبعة المصرية ١٣٤٩هـ-١٩٣١م

٥- احمد امين: ضحى الاسلام، الجزء الثاني، بيروت/دار الكتاب العربي

٦- احمد امين: زعماء الاصلاح في العصر الحديث القاهرة/ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٩.

٧- احمد بن مصطفى: مفتاح السعادة ومصباح السيادة

٨- احمد تيمور باشا: اعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث، القاهرة، لجنة نشر المؤلفات التيمورية ١٣٨٧هـ -١٩٦٧م

٩- احمد السقاف: في العروبة والقومية، الكويت / شركة الربيعان للنشر والتوزيع ١٩٧٤

١٠- احمد صدقي الدجاني: عروبة واسلام ومعاصرة، بيروت / منشورات فلسطين المحتلة ١٩٨٢م

١١- احمد شلبي: مقارنه الاديان/ الاسلام/ مصر، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧م

١٢- احمد شلبي: مقارنة الاديان/ اديان الهند الكبرى، مصـــــر/القـــاهرة، مكتبـــة النهضة المصرية ١٩٦٦

١٣- ابو اسلام احمد عبدالله: الماسونية في المنطقة ٢٤٥ ،الطبعة الاولى

١٤- ابن الازرق: ابي عبدالله، بدائع السلك في طبائع الملك (ت٨٩٦)هـــ تحقيـــق علي سامي النشار/ بغداد، دار الحرية للطباعة ١٩٧٧م

١٥- الاشعري: ابي الحسن علي بن اسماعيل (ت٣٢٤هـــ)، مقـــالات الاســـلاميين عني بتحقيقه هلموت ريتر، المانيا/ دار النشر فرانزستيز بفيسبادن

١٦- الاصبهاني: ابي نعيم احمد بن عبدالله، (ت٤٣٠هـــ)، حلية الاولياء وطبقـــات الاصفياء، القاهرة/ مطبعة السعادة ١٣٩٤هـــ - ١٩٧٤م

١٧-البرت الحوراني: الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩٣٩) بـــيروت/ دار الكتاب اللبناني ١٩٧٥م

١٨- امين هويدي: كنت سفيرا في العراق (١٩٦٣-١٩٦٥) القاهرة/ دار المســـتقبل العربي ١٩٨٣م

١٩- انور الجندي: التربية وبناء الاجيال في ضوء الاسلام، بيروت/ دار الكتـــاب اللبناني ١٩٧٥م

٢٠- انور الجندي: السلطان عبد الحميد والخلافة الاســـلامية، بـــيروت/ دار ابـــن زيدون، القاهرة، دار الكتب السلفية، الطبعة الاولى ١٤٠٧هـــ

٢١- ارنست را مزور: تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م، ترجمة صالح العلي، قدم لـــــه وراجعه نقولا زيادة، بيروت /نيويورك، مؤسسة فرانكلين

٢٢- آيلز ليكتناستادتر: الاسلام والعصر الحديث/ ترجمة وتعليق عبدالحميد ســـليم. القاهرة/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م.

٢٣- برتراند رسل: السلطان، آراء جديدة في الفلسفة. ترجمة خيري حماد، بيروت/

دار الطليعة للطبعة والنشر ١٩٦٢م.

٢٤- بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام. الاتحاد العام لكتاب والصحفيين الفلسطينيين، الامانة العامة: سلسلة احياء التراث الثقافي الفلسطيني (٤) الطبعة الثانية ١٩٨١م.

٢٥- توفيق الحكيم: عودة الوعي. بيروت/ دار الشروق، حزيران ١٩٧٤م.

٢٦- توفيق الطويل: من تراثنا العربي الاسلامي. الكويت/ عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٧- توفيق السويدي: وجوة عراقية عبر التاريخ/ لندن، رياض الريس للكتب والنشر.

٢٨- تيلور ا، ج، ب وآخرون: تشرشل/ اربعة وجوه والرجل. نقله للعربية حسن فخر، بيروت/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٤م.

٢٩- ابن تيمية: ابي العباس تقي الدين احمد بن عبد الحليم، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية. بيروت/ دار المعرفة والقاهرة/ دار الكتاب العربي بمصر ١٩٦٩م.

٣٠- الجاحظ: ابي عثمان عمر بن بحر (١٥٠- ٢٥٥هـ)/ الحيوان. تحقيق وشرح عبدالسلام هارون. القاهرة/ شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده الطبعة الثانية.

٣١- جرجي زيدان: بناة النهضة.

٣٢- الجراحي: اسماعيل ابن محمد العجلوني (ت ١١٦هـ). كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على السنة الناس. بيروت/ دار احياء التراث العربي ١٣٥١هـ.

٣٣- ابن الجوزي: ابي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ). المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبدالله ابراهيم. بغداد/ مطبعة الاوقاف، وزارة الاوقاف في الجمهورية العراقية ١٣٩٦هـ-١٩٧٦.

٣٤- جون كلوب: قصة الجيش العربي، ترجمة الدكتور احمد عويدي العبادي. الاردن/ عمان، الدار العربية للتوزيع والنشر ١٩٨٦.

٣٥- حسان علي الحلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩م. بيروت/ الدار الجامعية للطباعة والنشر ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٣٦- حسن صعب: تحديث العقل العربي. بيروت/ دار العلم للملايين ١٩٦٩.

٣٧- حسن صعب: الانسان العربي وتحدي الثورة العلمية التكنولوجية. بيروت/ دار العلم للملايين ١٩٧٣م.

٣٨- حسين جميل: العراق، شهادة سياسية ١٩٠٨-١٩٣٠م. لندن: دار اللام ١٩٨٧م.

٣٩- حسين بن طلال: مهنتي كملك/ احاديث ملكية، نشرها بالفرنسية فريدون صاحب ونقلها الى العربية غالب عارف طوقان.

٤٠- حسين عمر حمادة: شهادات ماسونية. دار قتيبة، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

٤١- ابي حيان التوحيدي: كتاب الامتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبة احمد امين احمد الزين، بيروت/ دار مكتبة الحياة.

٤٢- ابي حيان التوحيدي: المقابسات. مطبعة الارشاد ١٩٧٠م.

٤٣- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون. بيروت/ لبنان، دار القلم، الطبعة الخامسة ١٩٨٤م.

٤٤- خليل احمد خليل: العرب والقيادة (بحث في معنى السلطة ودور القائد)، بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨١م.

٤٥- الخوارزمي: جمال الدين ابي بكر، رسائل الخوارزمي. بيروت: دار مكتبة الحياة ١٩٧٠م.

٤٦- خيري الدين التونسي: اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك. تونس/ مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية، طبعة اولى سنة ١٢٨٤هـ.

٤٧- رستم حيدر: مذكرات رستم حيدر، تحقيق نجدة فتحي صفوت. بيروت/ الدار العربية للموسوعات ١٩٨٨م.

٤٨- ريتشارد الدنجتون: لورانس في البلاد العربية، ترجمة محمود عزت موسى، مراجعة محمد انيس، مصر/ الدر المصرية للتأليف والترجمة.

٤٩- ريتشارد نيكسون: ١٩٩٩ نصر بلا حرب. اعداد وتقديم المشير محمد عبدالحليم ابو غزالة. القاهرة/ مؤسسة الاهرام، مركز الاهرام للترجمة والنشر ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٥٠- رشيد رضا: مختارات سياسية/ تقديم ودراسة د. وجيه كوثراني. بيروت/ دار الطليعة للطباعة والنشر ١٩٨٠م.

٥١- زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر. بيروت/ القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثالثة ١٩٨٢م.

٥٢- زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي. بيروت/ القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثانية ١٩٧٣م.

٥٣- زكي نجيب محمود: في حياتنا العقلية، بيروت/ القاهرة، دار الشروق الطبعة الثانية ١٩٨١

٥٤- زكي نجيب محمود: مجتمع جديد او الكارثة. بيروت/ القاهرة، دار الشروق الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

٥٥- زكي نجيب محمود: هذا العصر وثقافته.

٥٦- سعد الدين ابراهيم: تجسير الفجوة بين صانعي القرارات والمفكرين العـــرب. عمان/ منتدى الفكر العربي.

٥٧- سعيد اسماعيل علي: الفكر التربوي العربي الحديث. الكويت/ عالم المعرفـــة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٩٨٧م.

٥٨- سلامة موسى: تربية سلامة موسى: مصر/ سلامة موسى للنشر والتوزيع.

٥٩- سلامة موسى: كتاب الثورات.

٦٠- سلامة موسى: اليوم والغد، مصر/ المطبعة العصرية.

٦١- سلامة موسى: ما هي النهضة. بيروت/ مكتبة المعـــارف، الطبعـــة الثانيـــة ١٩٧٤م.

٦٢- سلامة موسى: مقالات ممنوعة. بيروت/ دار العلم للملايين، الطبعة الاولـــــى ١٩٥٩م.

٦٣- سيروس سالزبرجر: آخر العمالقة، ترجمة احمد عادل. بـــيروت/ المؤسســة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٣م.

٦٤- سيشلو فورتادوا: النمو والتخلف، ترجمة انور الصبـــاغ وســهام الشـــريف. دمشق/ منشروات وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٩٧٢م.

٦٥- شاهين مكاريوس: الاسرار الخفية في الجمعية الماسونية. دار مارون عبـــود ١٩٨٥م.

٦٦- شاخت وبوزورث: تراث الاسلام (القسم الثالث) ترجمة حسين مؤنس واحسان صدقي العمد. مراجعة فؤاد زكريا، الكويت/ سلســـلة كتـب ثقافيـــة شـــهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، عالم المعرفـــة ١٩٧٨م.

٦٧- شبلي شميل: فلسفة النشوء والارتقاء (الجزء الثاني). مصر/ مطبعة المعـارف بشارع الفجالة بمصر.

٦٨- شحاتة عيسى ابراهيم: عظماء الوطنية في مصر. القاهرة/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.

٦٩- صبحي العمري: لورانس كما عرفته. بيروت/ دار النهار للنشر ١٩٦٩م.

٧٠- الطرطوشي: ابي بكر (ت ٥٢٠هـ)/ سراج الملوك. مصر: المكتبة المحمودية التجارية بميدان الازهر بمصر ١٣٥٤هـ- ١٩٣٥م.

٧١- طه حسين: مستقبل الثقافة بيروت: دار الكتاب اللبناني.

٧٢- طه حسين: على هامش السيرة. القاهرة/ دار المعارف بمصر.

٧٣- طهارى محمد: مفهوم الاصلاح بين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده. الجزائر/ المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٤م.

٧٤- عادل غفوري خليل: احزاب المعارضة العلنية في العراق (١٩٤٦-١٩٥٤)، بغداد/ المكتبة العالمية ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٧٥- عبدالباسط محمد حسن: جمال الدين الافغاني واثره في العالم الاسلامي الحديث. مصر/ مكتبة وهبة ١٩٨٢م.

٧٦-عباس عطية جبار: العراق والقضية الفلسطينية (١٩٣٢-١٩٤١)، بغداد/ مطبعة الجامعة ١٩٨٣م.

٧٧- عباس محمود العقاد: عبدالرحمن الكواكبي، الرحالة ك. بيروت/ دار الكتاب العربي ١٩٦٩م.

٧٨- عبدالله عزت الانصاري: حوار المفكرين، الطبعة الاولى ١٩٧٨م.

٧٩- عبدالرحمن الكواكبي: ام القرى. بيروت/ دار الرائد العربي، الطبعة الثانية (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م).

٨٠- عبدالرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تقديم الدكتور اسعد السحمراني، بيروت/ دالر النفائيس، الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٨١- عبد الرحمن البزاز: صفحات من الامس القريب (ثورة العراق هـــل كـــانت حتمية)، بيروت/ دار العلم للملايين ١٩٦٠م.

٨٢- عبدالرحمن البزاز: بحوث في القومية العربيـــة. القـــاهرة/ مكتبـــة النهضـــة المصرية، الطبعة الرابعة ١٩٧٩م.

٨٣- عبدالرحمن منيف: الديمقراطية اولا... الديمقرطية دائما. بيروت/ المؤسســـة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية ١٩٩٢م.

٨٤- عبد الرزاق الهلالي: تاريخ التعليم في العراق على عهد الاحتلال

٨٥- ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، بيروت / دار الفكر

٨٦- عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للامة العربية

٨٧- عبدالعزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، من نهاية حكم داود باشا الـــى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة/ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨هـــ ١٩٦٨

٨٨- عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في انـــهار العـــراق، مصـــر/ القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨م

٨٩- عبدالقهار العاني: الفكر الاسلامي الحديث، بغداد/ مطبعة عصام ١٩٨١م

٩٠- عبدالكريم الازري: تاريخ في ذكريات، العراق ١٩٣٠-١٩٥٨/ بيروت مركز الابجدية للصف التصويري الجزء الاول ١٩٨٢.

٩١- عبدالمجيد كامل التكريتي: الملك فيصل/ ودوره في تأسيس الدولـــة العراقيـــة الحديثة ١٩٢١-١٩٣٣

بغداد- دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٩١م

٩٢- عثمان امين: ديكارت، القاهرة/ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٢م

٩٣- عثمان الكعاك: الحضارة العربية في حوض البحر الابيض المتوسط، جامعـــة

الدول العربية/ معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٥

٩٤- ابن عربي: القاضي ابي بكر بن عربي، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب، بيروت/ ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

٩٥- عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، الكويت/ عالم المعرفة، شعبان ١٤٠٠هـ حزيران ١٩٨٠م

٩٦- ابو العلاء المعري: رسالة الغفران، تحقيق وتقديم علي شلش. لندن/ رياض الريس للكتب والنشر.

٩٧- علي شلش: عبده/ سلسلة الاعمال المجهولة، تحقيق وتقديم علي شلش. لندن/ رياض الريس للكتب والنشر.

٩٨- علي شلش: الافغاني سلسلة الاعمال المجهولة/ تحقيق وتقديم علي شلش، لندن/ رياض الريس للكتب والنشر

٩٩- علي محافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤، بيروت/ الاهلية للنشر والتوزيع ١٩٧٥م.

١٠٠- علي الوردي: منطق ابن خلدون.

١٠١- علي عبد الرازق: الاسلام واصول الحكم.

١٠٢- على زيعور: الافغاني وعبده/ في اشكالية التربية والقيم والوعي اللاسياسي، بيروت/ مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١٠٣- عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، بيروت/ دار العلم للملايين ١٩٩٢هـ-١٩٧٢م.

١٠٤- غازي التوبة: الفكر الاسلامي المعاصر، بيروت/ دار القلم ١٩٧٧.

١٠٥- الغزالي: ابو حامد، ميزان العمل، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة/ دار المعارف

١٩٦٤م.

١٠٦- الغزالي: ايها الولد، ترجمه عن الفرنسية توفيق الصباغ، بيروت/ اللجنة الدولية لترجمة الروائع ١٩٥٩م.

١٠٧- فاخر عاقل: التربية قديمها وحديثها، بيروت/ دار العلم للملايين ١٩٨١م.

١٠٨- فان دالين: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، القاهرة/ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٧م.

١٠٩- فضل الله علي فضل الله: السلوك التنظيمي، دبي/ المطبعة العصرية ١٩٨٢م.

١١٠- فهمي جدعان: اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث، بيروت/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية ١٩٨١م.

١١١- فيلب حتي: خمسة الآف سنة في تاريخ الشرق الادنى، بيروت/ الدار المتحدة للنشر والطباعة ١٩٧٥م.

١١٢- قاسم امين: المرأة الجديدة، القاهرة/ المركز العربي للبحث والنشر ١٩٨٤م.

١١٣- قاسم امين: تحرير المرأة، القاهرة/ المركز العربي للبحث والنشر ١٩٨٤م.

١١٤- ابن قتيبة: محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ادب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، بيروت/ مؤسسة الرسالة الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١١٥- قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، بيروت/ دار العلم للملايين ١٩٦٤م.

١١٦- القيرواني: ابي عبدالله بن ابي زيد القيرواني، كتاب الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، حققه وقدم له محمد ابو الاجفان عثمان بطيخ، بيروت/ مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١١٧- كارلايل، توماس كارلايل: الابطال، القاهرة/ دار الهلال ١٩٧٨م.

١١٨- كامل الشيبي: الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري، بغداد/ مكتبة النهضة ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

١١٩- كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، نقله الى العربية الدكتور بدر الدين قاسم، بيروت/ دار الحقيقة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

١٢٠- كوتلوف ل.ن: ثورة العشرين الوطنية التحريرية في العراق، ترجمة عبدالواحد كريم، بغداد/ مكتبة اليقظة العربية.

١٢١- كوستاف لوبون: حضارة العرب.

١٢٢- لينين: الدولة والثورة، ترجمة لطفي فطيم، مصر/ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م.

١٢٣- ماجد فخري: دراسات في الفكر العربي، بيروت: دار النهار للنشر ١٩٧٠م.

١٢٤- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن (الطالب)، بيروت/ دار الفكر ١٩٧٠م (من سلسلة مشكلات الحضارة).

١٢٥- مالك سيف: للتاريخ لسان، بغداد/ دار الحرية للطباعة ١٩٨٣م.

١٢٦- الماوردي: ادب الدنيا والدين، ابي الحسن علي بن محمد حبيب الماوردي البصري الشافعي (ت٤٥٠هـ) حققه مصطفى السقا، بيروت/ دار الفكر.

١٢٧- الماوردي: قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، بيروت/ دار الطليعة للطباعة والنشر ١٩٧٩م.

١٢٨- المتنبي: ابو الطيب احمد بن حسين الجعفي، ديوان المتنبي، بيروت/ المكتبة الثقافية.

١٢٩- مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي، بيروت/ الدارا لمتحدة للنشر.

١٣٠- مجيد خدوري: عرب مُعاصرون، ادوار القادة في السياسة، بيروت/ الدار

المتحدة للنشر ١٩٧٣م.

١٣١- محمد اقبال: تجديد الفكر الديني في الاسلام، ترجمة عباس محمود، راجعه كل من عبدالعزيز المراغي ومهدي علام، القاهرة/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٥م.

١٣٢- محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، القاهرة/ مطبعة احمد علي مخيمر.

١٣٣- محمد حسين الزبيدي: السياسيون العراقيون المنفيون الى جزيرة هنجام، بغداد/ منشروات وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨٥م.

١٣٤- محمد الرواس القلعةجي: موسوعة فقه علي ابن ابي طالب، دمشق/ دار الفكر ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٣٥- محمد رشيد رضا: مختارات سياسية من مجلة المنار، تقديم وجيه كوثراني، بيروت/ دار الطليعة للطباعة والنشر ١٩٨٠م.

١٣٦- محمد فتحي عثمان: من اصول الفكر الاسلامي

١٣٧- محمد عمارة: التراث في ضوء العقل

١٣٨- محمد عمارة: العرب يستيقظون، فجر اليقظة العربية، بيروت/ دار الوحدة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٩٨١م

محمد عمارة: الاعمال الكاملة/ جمال الدين الافغاني، بيروت/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١م

١٣٩- محمد عمارة: الاعمال الكاملة للامام محمد عبده، بيروت/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢م

١٤٠- محمد عمارة: الاعمال الكاملة/ رفاعة رافع الطهطاوي (التمدن والحضارة والعمران) بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر١٩٧٣

١٤١- محمد عمارة: علي عبدالرزاق، الاسلام واصول الحكم، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢م

١٤٢- محمد عمارة: الاعمال الكاملة/ علي مبارك

١٤٣- محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

١٤٤- محمد محمد حسين: الاسلام والحضارة الغربية، بيروت/ المكتب الاسلامي ١٩٧٩م ١٣٩٩هـ

١٤٥- محمد مزالي: دراسات، تونس/ الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٤م

١٤٦- محمد مزالي: وجهات نظر، تونس/ الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٥م

١٤٧- محمد مزالي: مواقف، تونس/ الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٣

١٤٨- محمد نجيب: كلمتي للتاريخ

١٤٩- محمد يوسف: التراجع الضعيف... او انتقام الارشيف؟ رد على فؤاد زكريا، الكويت/ شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ١٩٨٤م

١٥٠- محمود اسماعيل: الحركات السرية في الاسلام (رؤية عصرية) بيروت/ دار القلم ١٩٧٣م

١٥١- محمود تيمور: بين المطرقة والسندان

١٥٢- مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، دار احياء التراث العربي ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م

١٥٣- مصطفى امين: سنة اولى سجن، الاسكندرية/ المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ١٩٧٤م ١٢٩٤هـ

١٥٤- مصطفى الزين: اتاتورك وخلفاؤه، بيروت/ دار الكلمة للنشر ١٩٨٢

١٥٥- مصطفى كامل: المسالة الشرقية، مصر/ ١٨٩٨

١٥٦- مصطفى كامل: اوراق مصطفى كامل (المقالات، الكتاب الاول من ١٨٩٣-١٨٩٩) مصر/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦

١٥٧- معروف الرصافي: ديوان الرصافي (الجزء الاول) مصر/ المكتبة التجارية الكبرى ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م

١٥٨- مفيدة محمد ابراهيم: القيادة التربوية في الاسلام، الاردن/عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

١٥٩- منير شفيق: الاسلام في معكرة الحضارة،

١٦٠- منيف الرزاز: معالم الحياة العربية الجديدة

١٦١- موسى الموسوى: الشيعة والتصحيح، الصراع بين الشيعة والتشيع ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

١٦٢- مونتجومرى وات: فضل الاسلام على الحضارة الاوربية، ترجمة حسين امين، بيروت/ دار الشروق ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م

١٦٣- ميشيل عفلق: نقطة البداية، بيروت/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الخامسة ١٩٧٤م

١٦٤- ميكيال يان: القرامطة، نشأتهم، دولتهم وعلاقاتهم بالفاطميين، ترجمة وتحقيق حسني زينة، بيروت/ دار ابن خلدون ١٩٧٨م

١٦٥- ناجي علوش: اديب اسحق، الكتابات السياسية والاجتماعية جمعها وقدم لها ناجي علوش، بيروت/ دار الطليعة للطباعة والنشر

١٦٦- نجدت فتحي صفوت: العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب، بيروت/ منشورات المكتبة العصرية ١٩٦٩م

١٦٧- نجدت فتحي صفوت: العراق في الوثائق البريطانية سنة ١٩٣٦، العراق/

البصرة ١٩٨٣

١٦٨- نجيب عازوري: يقظة الامة العربية، تعريب وتقديم د. احمد ابــــو ملحــم، بيروت/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر

١٦٩- ندوة: التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، نظمها مركــز دراســات الوحدة العربية القاهرة من ٢٤-٢٧ ايلول ١٩٨٤، بيروت مركـــز دراســات الوحدة العربية ١٩٨٥

١٧٠- ندوة: العقد العربي القادم، المستقبلات البديلة، عقدت في مركز الدراســـات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون، بيروت ١٩٨٦

١٧١- نزار عبد اللطيف الحديثي: الامة العربية والتحـــدي، بغـداد/ دار الحريــة للطباعة ١٩٨٥م

١٧٢- النويري: شهاب احمد بن عبدالوهاب، نهاية الارب، مصر/ القـــاهرة وزارة الثقافة الارشاد القومي، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

١٧٣- النيسابوري: الامام ابي الحسين مسلم بن حجاج بن مسلم، الجامع الصحيــح، بيروت/ دار الفكر

١٧٤- ولدمار غلمن: عراق نوري السعيد، بيروت/ مؤسسة الانتاج الطباعي فــــي بيروت ١٩٦٥

١٧٥- وميض عمر نظمي: الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القوميــة الاستقلالية في العراق، بيروت/ مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٤

١٧٦- يوسف القرضاوي: الحلول المستوردة، بيروت/ مؤسسة الرسالة ١٩٧٧

١٧٧- يوسف القرضاوي: الاسلام والعلمانية

الدوريات العربية

١- المنتدى: عمان / الاردن

٢- رسالة اليونسكو

٣- مجلة الرسالة الصادرة في باريس

٤- جريدة الرأي (الاردنية)

٥- جريدة الدستور (الاردنية

المعاجم

١- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية في جمهورية مصر العربية، القاهرة/ الهيئة العامة لشؤون المطابع ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م

المراجع الاجنبية

1 Bayles, E. Ernest, Democratic Educational Theory, New York, Mc Graw Book Company 1966.

2- Cynthia Griffin WOLFF, Emily Dickinson New York, Addison Wesley Publishing Company, INC 1988

3- Donald T.Regan, for The Record, from Wall Street to Washington New York Har court Brace Jovanovich, publishers 1988

4- Lawrence, T.E., Seven Pillars of Wisdom, penguin Books in Association with Jonathan cape.

5- Schaller E. Lyle The Change Agent, The Strategy of Innovative Leadership Nashvill Abingdon Press, New York 1972

6- Thompson J.M., The French Revolution New York, Basil Black Well Ltd 1985

7- William Manchester, The last lion Winston Spencer Churchill

a- Visions of Glory 1874-1932

b- Alone 1932 ....

Boston, Toronto, London 1988

دوريات اجنبية

1- Unesco.

2- Unesco Report 1984-1985

3- The Economist 1990

4- Time



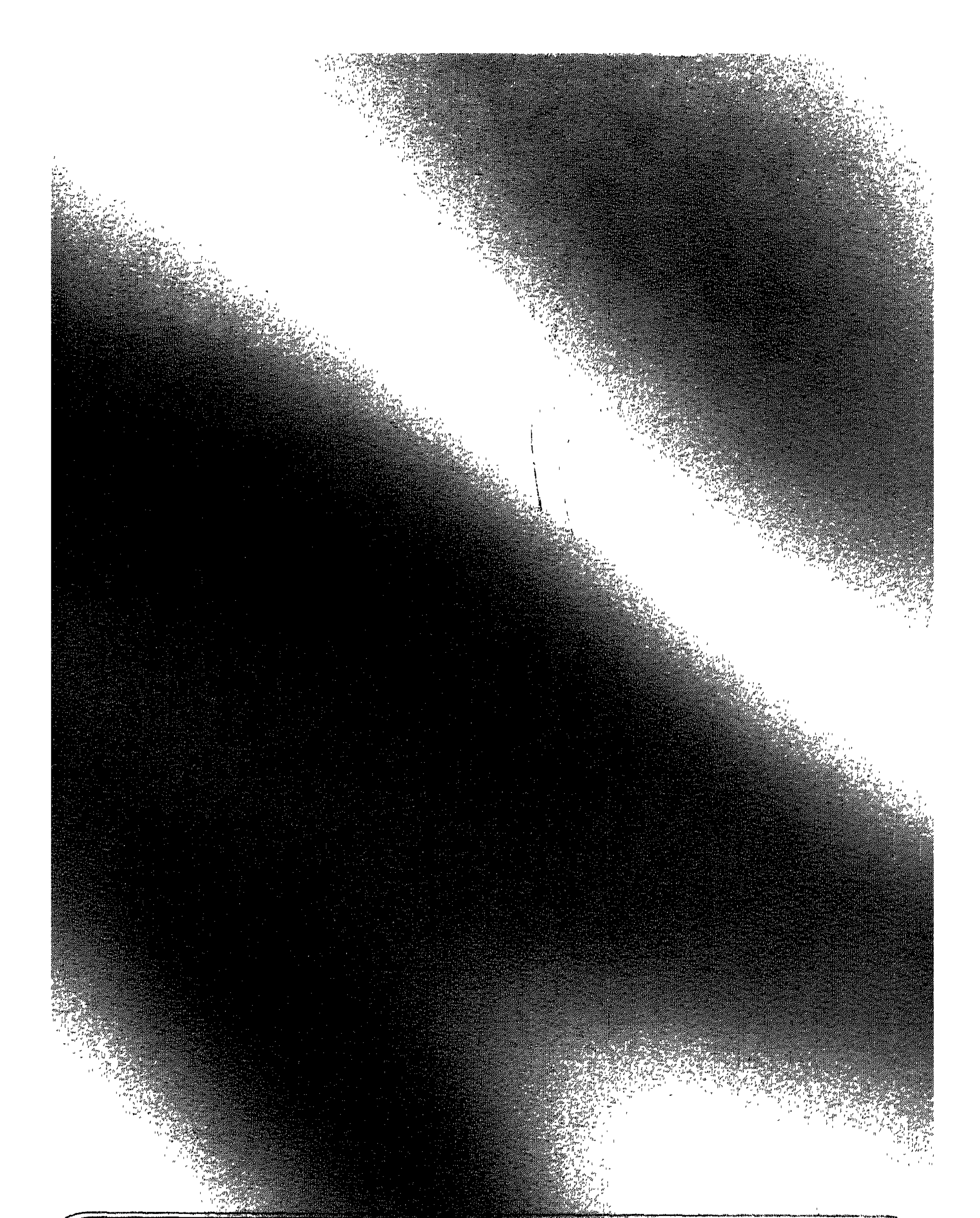












Dar Majdalawi Pub. & Dis

Amman 11118 - Jordan

P.O.Box: 184257

Tel Fax: 4611606

دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

عمّان - الرمز البريدي: ١١١١٨ - الأردن

ص.ب: ١٨٤٢٥٧ - تلفاكس: ٤٦١١٦٠٦

ISBN 9957 - 02 - [illegible]